

كارل ياسبرز

نيتشه مدخل لفهم فلسفته

ترجمة عماد نبيل

دار إميديا للترجمة والنشر







كارل ياسبرز

نيتشه
مدخل لفهم فلسفته

ترجمة

عماد نبيل

دار إيمديا للترجمة و النشر

Original Title:

NIETZSCHE

Einführung in das Verständnis seines Philosophierens

By Karl Jaspers

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الألمانية سنة **1936**

الطبعة الأولى

حزيران/ يونيو **2023**

نيتشه مدخل إلى فلسفته   تصميم الغلاف: دار إيمديا للترجمة و النشر (أحمد فخري)

ترجمة عماد نبيل

موضوع الكتاب فلسفة

الحجم: (**24x17** سم)

ISBN (**978-9922-21-403-0**)   رقم الإيداع المحلي (**115**)

دار إيمديا للترجمة و النشر
العنوان (لندن/بغداد– شارع المتنبي)
هاتف(**07702643329**)
البريد الإلكتروني (**dar.emedia@outlook.com**)
الموقع الإلكتروني (**info@etanacenter.com**)

إهداء المترجم

إلى يوسف زهرة اللوتس

مقدّمة الترجمة العربية

الأفكار،

اعترف

لكم

تهمّني

أكثر

من

الناس،

تهمّني

فوق كلّ

شي.

إنها

تعيش،

تقاتل و

تحتضر

كالناس

و لكن

بلا

ثرثرة.

نيتشه (

1881)

كارل ثيودور ياسبرز (1883-1969)، فيلسوف ألماني، و واحد من مؤسسي الفلسفة الوجودية الكبار. في الأصل، كان يعمل طبيباً نفسانياً، و قد صدرَ أول كتبه بعنوان ((**سيكولوجية المرض العام**)) عام (1913)، ثم صدر بعد ذلك كتابه الشهير ((**سيكولوجية وجهات النظر العالمية**)) (Die pszchologie der welt anschauungen) في عام (1919)، و الذي يعد بحق مؤشر واضح لتحول ياسبرز من حقل السيكولوجيا إلى الفلسفة. يقدم ياسبرز في هذا النصّ تصنيفاً لوجهات النظر الرئيسية السائدة في العالم، ثم يبدأ بعد ذلك بالتعريف في فلسفته عن ((الوجود)) أو ما الذي تعنيه حقيقة وجود شيء ما أو شخص ما، حيث شرحه و فصله بدراسة دقيقة لاحقاً في نصّه ((الفلسفة)) الصادر عام (1932)، و أيضاً في أعمال أخرى. يصرح ياسبرز في هذا النصّ بأنّ الأنظمة و المذاهب الفلسفية الكبرى قد انهارت و تقوضت و ولى زمانها بما أنّ الإنسان قد أدركَ أنّه في الأساسّ ((موجوداً محدوداً، متناهياً، مشروطاً، غامضاً، متردداً، ملتبساً، و غير متيقن من نفسه)). علينا أن نتعلم الدرس جيداً من الفيلسوفين كريركيغارد و نيتشه، اللذان قبَلَا شرط محدودية و تناهي الإنسان و سَبَرَا غوره و فَحَصَا معظم جوانبه. يؤكد ياسبرز، مع نيتشه هناك ثلاث طرق للتفلسف متاحة الآن لنا و ذلك لغرض البحث و الاستقصاء و الكشف، و هي على التوالي: (1) حدود العلم (توجهات العالم)؛ (2) الذات الإنسانية؛ (3) تأثير الترسندالي أو ما يتعالى و يتجاوز كلاً من العالم و الذات الإنسانية. يمثل (العالم)، (النفس) و (الله) العناصر الثلاثة التي تحيط بالإنسان و الذي بواسطة أفقها و منظورها بوسعه أن يعرف كلّ ما يعرفه:مع ذلك، لا نستطيع أن نبلغ العنصر الذي يحيط بهذا الأفاق الثلاثة معاً – أعني، مفهوم (الوجود) عند هايدغر.

(1): لا يمتلك العلم الحقيقة المطلقة، بل فقط الحقيقة النسبية. وظيفته تكمن في المعالجة البارعة للأشياء القابلة للقياس، بيد أنّه لا يعطي أجوبة محددة و قاطعة لسُؤالات الموت و الحياة. بين المجالات الأربعة للواقع – المادة، الحياة، النفس، و الروح – هناك الكثير من الفجوات و الفراغات لم ينجح العلم إطلاقاً لملأها.

(2): الذات الإنسانية عند ياسبرز هي **الوجود؛** فهي لا تمتلك طبيعة ثابتة لكنها تمثل مجموع إمكانيتها إذ بواسطة هذه الإمكانات و بمستطاعها تكون الذات الإنسانية ((هي ما هي)). لا توجد الذات الإنسانية إلاّ بفضل إمكانية ((التواصل)) و ((الحِوَار)) مع الذوات الأخرى في العالم. فهي لا تتصرف وفقاً لعادات و شعائر الحياة اليومية فحسب، و لكن أيضاً ((بطريقة غير مشروطة)) أحياناً

بمعية إمكانية الحرية التي تعادل لديها ((الاختيار بذاته)). تبوح هشاشة الذات الإنسانية عن نفسها انطلاقا من ((المواقف المحدودة)) الآتية: الموت، المعاناة، الصراع، الشعور بالذنب و العار، و التي تتطلب اتّخاذ قرارات في جو من الحَيْرَة و عدم اليقين و التناقض.

(3): العالم و الوجود كليهما يشيران بإصبعهما باتجاه الترسندالي – أعني العالم الآخر المتعالي.

هذا الأمر يمكن إدراكه و تميزه بفضل ((الشيء)) و ((الرموز)) التي تقدمها لنا كلاً من التَجْرِبة الشخصية و التراث العام الموروث. واحد من هذه الأشياء الأساسية هو ((قانون النهار و عاطفة الليل))، ذلك ((الصراع الأبدي))، كالنبتة المعمرة، بين (العقل المنظم) من جهة و (غير المعقول المدمر)، من جهة أخرى. أما الأشياء الأخرى، فهي الهزيمة المهيمنة و خيبة الأمل الذي لا تنتهي لطموحات البشرية: (الفشل النهائي)، لكن (أنّ تتفلسف يعني أن تتعلم كيف تموت، و أن تعرف كيف تقابل الوجود بأدوات هذا الإخفاق و الفشل).

****

تاريخ المدونات الفلسفية الشهير المعاصر يشير أن هناك كتابين مهمين رئيسين كُتِبَت عن نيتشه على مدى المئة عام الأخيرة، أحدهما كتاب الفيلسوف مارتن هايدغر ((**نيتشه**)) (*Nietzsche*) في أربع مجُلّدات، و الكتاب الآخر المهم هو كتاب الفيلسوف كارل ياسبرز ((**نيتشه: مدخل إلى فلسفته**)) الذي ترجمنا نصّه من اللغة الألمانية الأصلية إلى اللغة العربية و كان هدفنا الرئيس في هذه الترجمة أنّ نبقى بقدر الإمكان و بكلّ ما بوسعنا قريبين من روح نصّ ياسبرز و مضمونه و الكشف عن معانيه الداخلية العميقة.

إذا كان الباحثين و المهتمين في الفلسفة الوجودية ليس بمقدورهم بالمرة أن يتجاهلوا نيتشه، فإنّ من الصواب التنويه أنّ طبيعة تفكير هذا الفيلسوف تمتاز بالتعقيد و صعوبة نقل و ترجمة مضامينها بسبب غموضها إلى درجة يجد القارئ صعوبة في اكتشاف ما الذي يفكر فيه نيتشه و يعتقده حقاً؟ و لماذا يعتقد فيه؟ ومن أيّ الجوانب يثير تفكيره اهتمامنا؟ و كيف قادنا تفكيره إلى الفلسفة الوجودية؟ هذا النصّ الذي يقدمه لنا ياسبرز يعد بحق وثيقة بارزة تتسلل عبر الطرق السرية

إلى المعاني الغامضة لكشف عن فلسفة الوجود الذي تقدم لنا حياة و تفكير نيتشه معاً بطريقة فريدة و شيقة تزودنا في المحصلة النهائية بإجابات ثرية عن هذه الأسئلة السالفة.

بالرغم من أن هذا النصّ لا يقدم لنا هنا شرح كافي لفلسفة ياسبرز إلاّ أنّهُ يمكن أن نقول بالضرورة الآتي: نجح ياسبرز في كتابه هذا بلا أدنى شك، و بواسطة تطبيق منهجه الفريد و الاستثنائّي، في البرهنة على أنّ حياة نيتشه و تفكيره شيئاً واحداً لا يمكن الفصل بينهما أو يمكن تناول الواحد دون الآخر أو فهم الواحد دون الآخر في حجته الرئيسية. و بالرغم من أن هناك عدد قليل من الفلاسفة الذين مارسوا وظيفة العلم و كانوا أكثر براعة بقليل من ياسبرز، و لكن ليس في مجال علم النفس المرضي بالطبع و الذي وظفه ياسبرز كمنهج في إلقاء الضوء على حياة نيتشه و تفكيره، فإنّه لم يتوقف إطلاقاً على التأكيد أنّ واحد من المُكَافَأة الكبيرة التي يحصل عليها ممارس و المستخدم للمنهج العلمي و يحظى بها هو إطلاعه و معرفته المباشرة على حدود العلم و تناهيها. إنّ معرفة حدود العلم و الوعي في ما يكمن خلفها أو ما بعدها يتم اكتشافه فقط بواسطة الفلسفة و هو فقط من اختصاص هذه الأخيرة كما يثبت و يبرهن هذا النصّ.

بالضِدّ من كلاً من الفلاسفة العقليين و التجريبين، الذين أكدوا على عنصر ((الوضوح)) بوصفه مقياس فلسفي أساسي (و لم يكتفوا بذلك بل قدموا منهج و طريقة تبين كيف للأفكار أن تكون واضحة و دقيقة)، أكد ياسبرز أنّ الوضوح هو المثال العلمي الذي يرتبط بالموضوعات المحسوسة ضمن هذا العالم و هو في الواقع بعيد المنال و متعذر الحصول عليه في حقل الأشياء التي تهمنا أكثر من غيرها. يتفق ياسبرز مع كانط حينما تكون المعرفة المحددة و الحاسمة أمر غير ممكن، فإنّ المعرفة غير المحددة و غير الحاسمة يجب أن تحل محلها. أن نحصل على أفكار واضحة و ممِيزة غير ملتبسة عن للعالم كليًا و كذلك الروح و الله يعد في الواقع أمراً غير ممكناً أن لم يكن مستحيلاً. هنا المقياس الديكارتي ببساطة غير قابل للتطبيق و غير شغال و مقاييس أخرى بديلة عنه يجب أن تسود.

في هذا النصّ، لعب الاتِّساق و التماسك دور كبير ومهم في إرساء دعائم حُجَّة ياسبرز حول نيتشه، فقد طور ياسبرز طوال صفحات كتابه هذا طقم من المتناقضات التي لا يحصى عددها و التي تنبثق فجأة في تفكيرنا و تحيط به من جَراءِ التأمل و العيش في حياتنا اليومية. لقد أخذ ياسبرز هذه الفكرة (فكرة النقائض) من كانط، و عمل على توسيع هذه التناقضات المتعددة و الكثيرة

بمقتضى الكشف عن حدود ((الفهم)) عند الإنسان، حيث يدعونا إلى توظيف ((العقل)) كي نتجاوز و نتعالى على أفكار العقل و ما يمنحنا لغرض فهم ذلك الذي يعجز الفهم العلمي على القبض عليه. هذا الأمر ربما يساعدنا على فهم كيف أن إعجاب ياسبرز بنيتشه يتسق و يتلائم مع اكتشافة لهذا العدد الذي لا يحصى من التناقضات في تفكير نيتشه دون جزع.

من المهم التأكيد على النقطة الآتية: لا المفكر ياسبرز و لا نيتشه من قبله كان مهتماً كثيراً في العمل الأكاديميّ في الحقل الفلسفي – العمل الذي يحافظ على الصواب التافه و سذاجته و ذلك عن طريق تجنب الخوض في المشاكل الجدية و الخطيرة المهمة التي تواجه الإنسان و رفض التخلي عن واجب العيش طبقاً لفلسفته الخاصَّة. إنّ الفلسفة،كما يراها ياسبرز، ليس إنجاز يعمل التلميذ بجهد دراسي كي يبلغه بواسطة اجتياز الامتحانات المحددة و المطلوبة، أو ممارسة عمل بواسطة أساتذة محترفون و متخصصون يفضلون هذه الطريقة في العيش أو تلك بينما اهتماماتهم الحقيقية تكمن في مكان آخر بعيد. إنها ليست كما لو أنّ الحياة مجموعة من الحقائق و الوقائع و المعاني المعطاة و الممنوحة مسبقاً ينبغي أنّ يقبلها المرء على علاتها و في ظاهرها و كما هي دون سّؤال و التعاطي معها حسب الضرورة و الرغبة و الحاجة. بل أنها بالأحرى، كما كان القدماء يعتقدون، أمر في منتهى الجدية و الأمانة: الفلسفة رؤية و منظور و أفق لا يمكن التخلي عنه و تركه، يعيش بواسطته الإنسان بالضرورة، على سبيل المثال، الفيلسوف سقراط الذي عاش أفكاره على حساب حياته حيث كانا الاثنين وحدة واحدة لا تنفصم، و رفض أن يحيد قِيد أنملة عن مبادئه التي دائما يحترمها و يقدسها مع أنّها بعثت به أخيراً إلى الموت. الفلسفة هي ليست كسب و استحواذ و اقتناء - شيء ما ربما يحصل عليه المرء أو لا يحصل. إنها بالأحرى ليست ملكية خاصَّة أو مزيّة، بل هي ((أن يكون المرء عارفاً أميناً و صادقاً و مخلصاً، هذه الصفة تغير من الإنسان جذرياً)). رجل الفلسفة، إذا جاز لنا التعبير، هو الكائن الذي يؤسس و ينظم شيئاً ما مهماً للمستقبل. الفلسفة هي الوسيلة التي تحدد طبيعة عالم الإنسان المجرب، و بهذا تحدد طبيعته و نماذج ردود فعله في هذا العالم. و بذلك، يعمل التفكير الفلسفي عند نيتشه و ياسبرز على إرساء الأعْمِدة الأساسية لوجودنا- و الذي وفقه نحيا حياتنا (انظر الكتاب الثاني، الفصل الخامس، من هذا النصّ) حيث نحتاج أن نحتفظ في أذهاننا بفكرته الأساسية جيداً خلال قراءتنا لهذا النصّ كي نفهم الصورة كاملة.

هذه الترجمة لعمل ياسبرز تحاول أن تنقل المعاني و الأفكار و الحجج و المقاربات التي يحتويها النصّ بأكبر قدر ممكن من الوضوح – و خلال القيام بهذه المهمة الشاقة بدأنا ندرك و نعي حقاً و بوضوح حجم الصعوبات و المشاكل الهائلة التي يتوفر عليها هذا النصّ و يتضمنها. فمن جهة، يتطلب مفهوم ياسبرز لطبيعة و غرض الفلسفة الحقيقية عموماً، و مقارباته إلى نيتشه خصوصاً حين يتحدث عن أعماله بدقة فهم و استيعاب حقيقي لفلسفة نيتشه، و لاسيَّما حين يتحدث عن موضوع ((شعور التفكير)) (***ein denkendes Empfinden***) الذي يستلزم تدخل عمل المؤول أو المفسر للنصّ بقوة. إن عملية تقديم و إخراج و نشر المعنى المترجم تتضمن أكثر من مجرد عملية ترجمة لفظية؛ بل، أنّها تتطلب في الواقع و تقتضي عملاً تأويلياً و تفسيرياً ضخماً مع العون و المساعدة المتوفرة و المتاحة من الوسائل اللغوية، خصوصاً فيما يتعلق في الكثير من التعبيرات اللغوية غير المتَرْجَمَة من اللغة الألمانية من قبل و التي يستخدمها الكاتب. من جهة أخرى، يجد المترجم لهذا النصّ نفسه ملزماً للحفاظ قدر الإمكان على التعبيرات و الأسلوب و المنهج و المقاربات الخاصَّة و اللغة المباشرة و الصريحة المتماسكة و الواقعية (***Anschaulichkeit***) التي يستخدمها نيتشه و يستعين بها ياسبرز لتوضيح حججه (تلك الذي يتم عرضها على نطاق واسع بواسطة الاقتباسات و الاستشهادات الكثيرة جداً خلال هذا النصّ من قبل ياسبرز) و ذلك للحفاظ على الصفة المِميزة للمعاني و تأثيرها و قوتها لديه. و لكن ينبغي التنويه من باب الصدق، مهما تكن دِقَّة و براعة الترجمة في نقل المعاني الداخلية و السِرّية للنصّ و تنجح في مهمتها فإنّها لا يمكن أن تكون بديلاً ناجحاً يستعاض به عن النصّ الأصلي في لغته الأصلية.

في هذه الترجمة – التي يقول نيتشه بين سطورها أن السِرّ الذي يجعل الوجود ممتعاً و مثمراً هو أن تعيشوا في خطر! – ينبغي للمرء أن يتحول من مجرد قراءة نيتشه إلى دراسة فلسفته بعمق – فلسفته التي تُفهَم بوصفها متخصصة في التعامل مع كل التَجارِب العميقة التي خاضها بنفسه في عصرنا: تَجْرِبة مصير الإنسان – الذي لا بد أن يدفع ثمن كلّ شيء جميل في الحياة - بنفسه و الذي دَفَعَ به نحو حدوده و مدياته القصوى و أصوله البعيدة.

كلّ فيلسوف يتمتع بمكانة نيتشه الفكرية – الأسلوب النبيل في تقييم الأشياء – يستحق منا الدراسة العميقة التي تتناسب مع منزلته. تزودنا هذه الترجمة لأفكار نيتشه في نصّ ياسبرز بالأرضية المناسبة التي تظهر الفعالية الداخلية لجوهر الفهم و التفكير الحقيقي لديه. تحاول البعض

من الكتب و المؤلفآت عن نيتشه أنّ تعزز من مثل هذا التوجه الذي يصب في إضاءة الفعالية الداخلية لتفكيره. و لكن بدلاً من أن تزودنا بالفهم السطحي، و المتعة السلبية و الكسولة للتعابير اللغوية اللبقة، و سوء الفهم الأولي الذي يقود إلى التأكيدات و الأحكام الاستبدادية ينبغي لهذه الكتب و المؤلفآت – كما يقوم ياسبرز في هذا الكتاب – أنّ تقدم لنا مدخل مباشر إلى فلسفة نيتشه و تشير بوضوح إلى الطريق الذي ينبغي أنّ نتبعه كقراء. هذا النصّ يحاول أن يلقي الضوء على ما يشغل ذهن نيتشه و مقاصده و يوضح ما يثير اهتمامه هنا حصراً، بعبارة أخرى، يحاول أن يعلمنا ما تنطوي عليه فلسفته حقاً بفضل التعاطي مع الأفكار الحقيقية التي كانت تشغل ذهنه.

يأخذ هذا النصّ على عاتقها مهمة تقديم فلسفة نيتشه كما هي أو كما أراد لها ياسبرز أن تُفهَم، و تحارب مسلسل سوء الفهم الذي عانت منه الأجيال التي وقعت تحت تأثيره – كما يعارض و يقف بالضِدّ من الانحرافات في كتابات الرجل الذي تعرض لها. من المحتمل أنّ يكون نيتشه هو أخر الفلاسفة العظام للزمن الماضي، نأمل فقط أن تسود و تعم جديته الصادقة و الأمينة في حياتنا و تنتصر على المظاهر الزائفة و الكذب المقرف.

((نحن كائنات مهاجرة))، بهذه العبارة بوسعنا القول، لقد كانت حياة نيتشه و تفكيره في هذا النصّ كلاهما رائعان تماماً إلى درجة أنّ الشخص القادر على المشاركة فيها يمكن أن يقدم لنا دليلاً ملموساً ضِدّ كل الأخطاء التي وقع الرجل ضحية لها – يقول ياسبرز كان نيتشه يؤمن ((أنّ الصدفة هي أقدم ما في العالم الذي نعيش فيه و إلى هذا الأصل أُرجعت كل الأشياء و حررتها من عبودية الغرض و أقمت فوقها سماء الحرية و البهجة)). يقول نيتشه، فيما يصغي إليه ياسبرز بدهشة، الآتي: ((أني أعرف قدري، سيأتي يوماً ما يرتبط فيه اسمي بذكرى شيئاً مروعاً، بأزمة لا نظير لها على الأرض، بأعمق صدام مع الضمير، بقرار ضِدّ كل الأشياء التي آمن بها الإنسان و تاق إليها و قدسها حتى الآن – أني لست إنساناً و لكن قوة مدمرة)).

****

سِتّ رسائل مُوجَزة

(1) الإنسان

مَنْ هو نيتشه، و ماذا يريد أن يفعل؟ يظل سّؤال مفتوح من الصعب الإجابه عنه. ما انفكّ نيتشه يسأل كيف يتسنى للإنسان أن يتغلب على ما طبع عليه طيلة قرون عدّة من الزمن؟ كان يريد أن يستبدل الطبيعة و يضعها محل الواجب، و النعمة و افتداء الخطيئة و المصلحة ببراءة الصيرورة. في هذا النصّ لياسبرز، يرسم نيتشه على الهوامش المأساوية و آليات اشتغالها مفصلة في أكثر من شذرة صورة انحدار الإنسان بوصفه السقوط التراجيدي المروع للمعرفة.

(2) القراء

القراء السيئين هم أولئك الذين يتصرفون كالجنود الأوغاد الذين ينهبون المدن التي يحتلوها: إنهم يلتقطون الأشياء التي لا يستخدمونها إلاّ بالكاد؛ أنّهم يعكرون صفو الهدوء الذي يتوفر عليها النصّ و يفترون على الكَاتِب و الأفكار. آه، كم أكره القراء الكسالى المتراخين. فأنا أكتب خصيصاً لفئة من الناس لم توجد بعد، أكتب إلى**: سادة الأرض الجدد**.

(3) النقاد

حينما يبدي نقّادي اهتمامهم بأفكاري، غالباً ما يساورني الشك أو أكون تحت وقع تأثير انطباع و فكرة أنهم ليس أكثر من أشخاص أوغاد و سذج. إنهم يهتمون بما قيل عني و ليس بما **أقول** أو بالسبب الذي **جعلني** أتوصل إليه – هذا فقط ما يثير اهتمامهم ...إنهم يطلقون الأحكام – يحكمون عليّ بالضبط كي يتجاهلوا عملي: إنهم يوضحون منشأ عملي و أصل أفكاري، التي تتعلّق بأصل أحكامنا الأخلاقية المسبقة، هذا الأمر حسن، لكنهم سرعان ما يقومون بعد ذلك بالتخلص منها و رميها بعيداً في سلة المهملات على نحو فظ يفتقر إلى اللِّياقَة.

(4) الكُتَّاب

بدقة، فقط الكُتّاب الذين يعانون من المرض – و لسوء الحظ، كل العظام من بينهم – يكونون واثقين مما يفعلون و يكتبون بنبرة تنم على الثقة و الصحة و القوة تتلمسها بوضوح في كتاباتهم، لأنّهم صناع حقيقيون مهرة و بارعون متمكنون من أدَواتهم يعرفون جيداً في فلسفة الصحة و الشفاء أكثر من أولئك الكُتّاب المعافين الذين يتمتعون بصحة ممتازة.

(5) الفيلسوف

نحن الآخرون دائماً بحاجة أن ندافع عن أنفسنا! حسناً، لكن شيئاً ما في صالح الفيلسوف الذي يمثل الاستثناء ينبغي أنّ يُقال مادام أنّهُ لا يريد أنّ يكون القاعدة. لا تمثل كراهيَة الناس العاديين للفيلسوف إذن أيّ قيمة. لأن الفيلسوف هو الاستثناء الذي عليه أن يحمي القاعدة.

(6) رجل الدين

رجل الدين – المرء الذي يقدس قذارته بإعطائها اسم السخط، فهو واحد من حمير الفضيلة – الفضيلة و الاستقامة و الرحمة تعلم جحود الحياة – و قادتها مزيفو الحقائق على الشعب – أنّهُ الرجل غير الحر الذي يكبت ميوله الغريزية و ليس هناك خصومة أشد تطرفا من خصومته، الرجل الذي في أحيان كثيرة كان يقضي نحبه هو الآخر لمرَأًى الألم الذي كان مسببا له – الشخص الذي يظهر بصورة منتظمة، في كل مكان و زمان تقريبا. فهو لا ينتمي إلى عرق معين، بل ينمو و يزدهر في جميع المراتب الاجتماعية.

لندن في كانون الأول/ ديسمبر2020



تمهيد للطبعة الأولى

تبدو قراءة نيتشه للكثير من الناس، الذين يميلون إلى رؤية سنن و قواعد معينة في معطيات خاصَّة و يبحثون عن تفسير لتجليات الثقافة، أمر يسير؛ بوسع المرء أن يفهم أيّ فِقْرَة يقرأها مباشرةً و بالحال، و تبدو كل صفحة من الصفحات التي دوَّنَها نيتشه ممتعة و مثيرة للإعجاب، ثم أن معظم أحكامه آسرة و جذابة – أما فيما يتعلق بلغته فهي حقاً مُسكرة بامتياز، حتى كتاباته الموجزة تستحق أن نبذل قُصَارَى جهدنا للاطّلاع عليها و إطالة النظر في معانيها و مضامينها و دلالاتها. بيد أنّ أيّ واحد يمعن النظر ملياً في كتابات نيتشه و يبدأ بالاطلاع عليها بعمق و على نطاق واسع، سيصاب بنوع من التشوش و الكدر، و سيحل محل تأييده و حماسته لصراحة و وضوح مطالب نيتشه أحساس بالنفور و الكراهيَة، و لاسيَّما بخصوص التنوع الهائل من الأحكام الذي يطلقها و التي تبدو إنّها غير ملزمة لأيّ أحد كان. يجد المرء أحياناً أنّهُ أمر لا يطاق أنّ نيتشه يقول شيء ما في مناسبة، و في مناسبة أخرى يقول شيء آخر مختلف، ثم يقول في ثالثة شيء مختلف تماماً عما قال سابقاً. إنّ السير في هذا الطريق لدراسة نيتشه لا يقدم لنا يد العون في فهم فلسفته و القبض على مفاهيمها أو حتى اكتشاف المشاكل الأساسيّة الحقيقة لها.

ينبغي للمرء وحري به أن يتحول من مجرد قراءة نيتشه إلى دراسة فلسفته بعمق – فلسفته التي تُفهَم بوصفها متخصصة في التعامل مع كل التَجارِب العميقة التي خاضها بنفسه في عصرنا: تَجْرِبة مصير الإنسان – الذي لا بد أن يدفع ثمن كلّ شيء جميل في الحياة – بنفسه الذي دُفعَ به نحو حدوده القصوى و أصوله البعيدة.

كلّ فيلسوف يتمتع بمكانة نيتشه الفكرية يستحق منا الدراسة العميقة التي تتناسب مع منزلته. فقط مثل هذه الدراسة يمكن أنّ تزودنا بالأرضية المناسبة التي تظهر الفعالية الداخلية لجوهر الفهم و التفكير الحقيقي لديه. تحاول البعض من الكتب و المؤلفّات عن نيتشه أنّ تعزز من هذا التوجه الذي يصب في إضاءة الفعالية الداخلية لتفكيره. و لكن بدلاً من أن تزودنا بالفهم السطحي، و المتعة السلبية و الكسولة للتعابير اللغوية اللبقة، و سوء الفهم الأولي الذي يقود إلى التأكيدات و الأحكام الاستبدادية ينبغي لهذه الكتب و المؤلفّات أنّ تقدم لنا مدخل مباشر إلى فلسفة نيتشه و تشير بوضوح إلى الطريق الذي ينبغي أنّ نتبعه. إنّ ما يشغل ذهن الفيلسوف المراد بحثه و مقاصده و ما يثير

اهتمامه ينبغي أن يتم توضيحها هنا حصراً، بمعنى أن نتعلم ما تنطوي عليه فلسفته حقاً بفضل التعاطي مع الأفكار الحقيقية التي كان تشغل ذهنه.

هايدلبرغ، كانون الأول، **1935**

كارل ياسبرز

تمهيد للطبعة الثانية و الثالثة

الإنصاف يقتضي منا أن نلاحظ جيداً الآتي لا تختلف الطبعة الحالية عن الطبعة الأولى من ألفها إلى يائها و هي نفسها دون تغير. يأخذ هذا الكتاب على عاتقه مهمة تقديم فلسفة نيتشه كما هي، و يحارب مسلسل سوء الفهم الذي عانته الأجيال التي وقعت تحت تأثيره – كما يعارض و يقف بالضِدّ من الانحرافات في كتابات الرجل الذي كان على حافة الجنون. من المحتمل أنّ يكون نيتشه هو أخر الفلاسفة العظام للزمن الماضي، نأمل فقط أن تسود و تعم جديته الصادقة و الأمينة في حياتنا و تنتصر على المظاهر الزائفة.

حاولت إعداد هذا الكتاب في وضع مستقل تماماً و بطريقة بعيدة عن كلّ تعقيدات و تأثيرات العصر الملتهب الحالي، و ذلك كي أقدم تأويلاً موضوعياً حقيقياً و رصيناً. و لكن بين عامي (1934 و 1935)، كنت اعتزم أيضاً بواسطة هذا الكتاب تنظيم حملة ضِدّ جميع النازيين الذين يصرحون أنّ نيتشه ينتسب في عالمه الفكري إليهم، و هو فيلسوفهم، و يمثل مرجعيتهم الفكرية. هذا الكتاب كان في الأصل جملة من المحاضرات يفهم العديد من حضرها و استمع إليها آنذاك ما الذي كنت أعنيه حين اقتبست تعبير نيتشه الآتي: ((نحن مهاجرون)) ("Wir sind Emigranten….."). هذا التعبير إلى جانب ملاحظته المتعاطفة مع اليهود قد تّم حذفها من هذا الكتاب، و لن تُضاف في المستقبل بما إنّها لا تمت بأيّ صلة تذكر إلى اهتماماتي و أهدافي الرئيسية في هذا الكتاب. لا أنوي تغير المادة البحثية-الوثائقية لهذا النصّ و سيبقى كما كان من قبل.

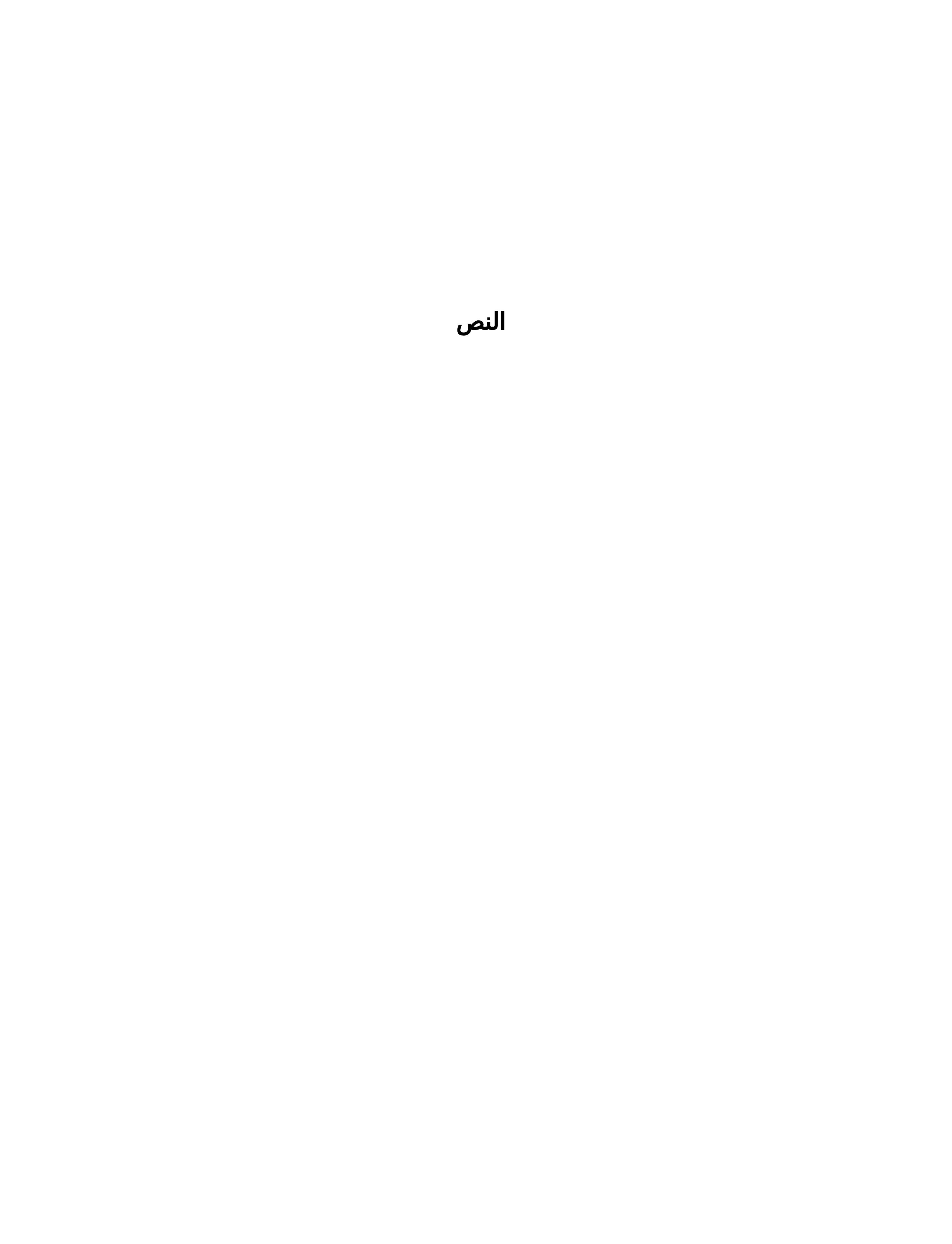
كانت الخِطَّة الأصلية في هذا الكتاب أنّ أقدم فصلا يتكون من اقتباسات مأخوذة عن كتابات نيتشه – التي تضع الخطط و الإستِراتيجيَّات – تنطوي في مضمونها على تصريحاته المغالطة، المتناقضة و المتطرفة و تُجمّع في النهاية كدليل يبين و يبرهن على انحرافاته. بيد أنّ النتيجة كانت حقاً مخيبة للآمال لذا قمت في النهاية بحذف هذا الفصل احتراماً لنيتشه. حين يستوعب المرء مقاصد هذا الكتاب و يصل إلى نوع الفهم الذي يبغي أن يقدمه هذا النصّ و يدرك مقاصده سرعان ما يدرك أن هذه الانحرافات لا ترق إلى أيّ قيمة تذكر قياساً بفلسفة نيتشه كليًّا. أيّ واحد يأخذ هذه الفقرات، التي تعبر عن انحرافات و مغالطات نيتشه، على محمل الجدّ، أو يشير إليها في حججه أو حتى يذهب بعيداً ليقع في فخها و يوجه تفكيره بواسطتها، فإنّه ليس بالقارئ الناضج المناسب المعتد به و المؤهل لقراءة نيتشه. لقد كانت حياة نيتشه و تفكيره كلاهما رائعان تماماً إلى درجة أن الشخص القادر على المشاركة فيها يمكن أن يقدم لنا دليلاً ملموساً ضِدّ كل الأخطاء التي وقع الرجل ضحية لها – و لاسيَّما تلك الذي وفرت لاحقاً بدورها المادة المناسبة لنمط التعبيرات الخاصَّة التي استخدمها النازيون لتأييد و تبرير أعمالهم الوحشية و لا- إنسانية. و بما أنّ نيتشه لا يمكن أنّ يكون بأيّ حال من الأحوال فيلسوفاً للنازيين أو يحسب عليهم كما يظن السذج، فإنّهم تخلوا عنه أخيراً و هجروه دون المزيد من اللغط و الثرثرة التي تجري على ألسِنة المحرضين.

لقد وضعت كتابي هذا عن نيتشه مسبقاً بهدف التعرف على وحدة تفكيره و اتِّساقه. فغرضه كان بسط و توسيع و إثراء أغراضه و مقاصده بيسر. لكننا فضلنا عدم القيام بذلك. فمثل هذه المحاولة تنطوي على الكثير من المخاطرة بما أنّهُ عمل واسع و وعر و شامل يمكن أنّ نفقد بسببه و نضيع صورة و مضمون تفكير نيتشه تماماً. إنّ القيام بعمل تكميلي مساعد و إضافي جديد بنمط أصيل، يضع كل المادة المتوفرة في قالب كُلّ كامل، سيكون خير و أفضل بكثير بالأحرى من إعادة و مراجعة و تنقيح لكتب قديمة و قصص بالية دخل عليها بقوة عامل الزمن ثم إعادة إنتاج المعرفة وفقها.

هايدلبرغ، شباط / فبراير، 1946

كارل ياسبرز سبرزياسبرزياسبرز ياسبرز ياسبرز

بازل، شباط، 1949



النص

المقدّمة

فهم عمل نيتشه (32)

المناهج المثالية و النموذجية المستخدمة في تأويل نيتشه — كيف ينبغي قراءة نيتشه — مبادئ التأويل — عرضنا و أجزائه الرئيسية الثلاثة — منهج العرض و التقديم.

اعتماد الفهم على طبيعة و نوعية المفسر (52) الحقيقة الفلسفية — ما هي متطلبات التأويل الحقيقي و الأصيل. — لماذا يتردد المرء في نقل الحقيقة الواقعية: الخطر الذي تنطوي عليه الحقيقة — لا يريد نيتشه ناس من فئة المؤمنين. — هدف التواصل عند نيتشه — هل عثر نيتشه على نوع القراء الذين كان يبحث عنهم و يريدهم؟

مذكرات، جملة من المقالات الراهنة، عدد كبير من الشذرات و النُبْذات القصيرة، بعض الرسائل، مجموعة من القصائد الشعرية – المكتملة و المفروغ منها في صيغتها الأدبية الأخيرة و التي تمثل إلى حدّ ما أرث عظيم متراكم لأكثر من عقدين من الزمن – هذه هي الصورة أو الأشياء التي في حوزتنا، أقصد المتاحة و المتيسرة عن تفكير نيتشه الآن.

إنّ فلسفة و تفكير نيتشه لا هو بجملة من **الشذرات** و النُبْذات القصيرة التي تعبر عن الأقوال المأثورة، حيث ارتبط اسمه في إحْدَى المناسبات بذلك؛ و لا هو **تفكير منهجي منظم** ذات ترتيبات متناسقة و مصنفة تؤلف مذهباً فلسفياً تقليدياً مدروساً و مبنياً بتروٍ و قصد.

على النقيض و الضِدّ من كتّاب الشذرات و النُبْذات القصيرة من الفلاسفة، يشكل تفكير نيتشه كلاً متكاملاً – وحدة متكاملة و كل لا يتجزأ: تحاول الحياة الفلسفية النشطة و الفعالة لنيتشه أن تنقل نفسها بواسطة الوعي و الإحساس بالمهمة الملقاة على عاتقه – أعني، تَجْرِبة الأفكار كقُوَى خلاقة و مبدعة بحذافيرها.

و على النقيض من أصحاب المذاهب الفلسفية التقليدية المنظمة، لم يشيد نيتشه مذهباً فلسفياً تقليدياً منطقياً متكاملاً من الأفكار. أما خططه في بناء الأعمال المنظمة، في بعض من المناسبات، فقد كانت تقف ورائها غايات أخرى: فهي بالأحرى أما طرق لتنظيم أفكاره و تقديمها للقراء – و هي بالمناسبة تبقى مفتوحة دائماً على احتمالات أخرى – أو إنها تقوم مقام بُنى يفرضها و يتطلبها إنجاز أهداف خاصَّة، كل واحد منها يتم تصوره بالأحرى طبقاً إلى فطنة ناقدة و نفاذ بصيرة فاحصة أو نتيجة مقصودة لتفلسفه و تفكيره.

بوسعنا التعبير عن عمل و تفكير نيتشه، السارح بنظره في الأقاصي البعيدة، مجازياً: يبدو الأمر كما لو أنّه يشبه جداراً جبلياً صلباً قد تمّ نسفه بالديناميت؛ أو صخوراً خشنة غفلة لم يتم تشكيلها بعد – إنّهُ العمل أو الجسد الذي ينقل و يُبلغ فكرة الكلّ. بيد أنّ طريقة البناء المرجوة و المقصودة، التي تّم التقويض و الهدم و الدحض بموجبها ومن أجلها لديه، لم يتم إنجازها. مع ذلك، لا يخفي عمل نيتشه، الذي يبدو على هيئة كومة من الأنقاضّ، مضمونه و روحه، و يقدم إذا جاز التعبير المفاتيح لإمكانية البناء الواعد للقارئ المجتهد. فالعديد من شذراته يناسب في موضوعاتها و مضامينها بعضها البعض الآخر. مع ذلك، هناك أيضاً، و ينبغي ألّا يفوتنا القول و الإشارة، العديد

من الشذرات المناسبة و المتشابه وظيفياً لدية هي في الواقع تكرارات تختلف قليلا بطريقة غامضة – فيما تبوح النماذج الأخرى من الشذرات عن نفسها كصور عميقة و ثمينة و فريدة، مع أنّ كلّ واحدة منها يزودنا على حدة بحجر الزاوية لمقاربة ما أو أساس لمدخل جديد مختلف عن الأخريات. يمكن للمرء أنّ يفهم تفكير نيتشه فيما يتعلق بهذه الشذرات حين يهتدي فقط لفكرة البناء عنده ككلّ واحد. و لكن حتى هذا لا يمكن أن يصل بنا إلى اليقين الذي لا لبس فيه: في الواقع، يبدو تفكير نيتشه كعدد من الإمكانيات البناءة التي يتقاطع بعضها مع البعض الآخر. تساور المرء الشكوك أحياناً ما إذا كانت هذه الشذرات / الإمكانات قد أُسي تفسيرها أم إنها تتفق مع إمكانات بنائية أخرى لديه في المضمون.

كان السبب الذي دفعني في بادئ الأمر إلى الإفصاح عن بعض فرضياتي حول نيتشه هو المهمة الاستثنائيّة التي تقتضي منا البحث في تفاصيل هذا الحطام المتناثر من الشذرات و النبذات القصيرة في كل مكان فيه لغرض إعادة بنائه من جديد، مع أنّ هذا البناء لن يفصح أو يكشف عن نفسه لأيّ أحد كليًّا واحداً مفرداً كاملاً لا لبس فيه. إنّ مهمة البحث عن ما مخفي و مستور و مطموس عند نيتشه يمكن أن يحالفها النجاح فقط إذا كان بمقدور الباحث أن يشيد بناءاً جديداً مختلفاً من الحُطَام و البقايا و الآثار التي تركها تقويض نيتشه خلفه و برؤية و منهج مختلف. إنّ من الحكمة و الواجب ألّا يصيبنا الارتباك و التشوش من جَراءِ هذا العدد الوافر من الشذرات و النُبْذات القصيرة المتاح و المتوفرة بين أيدينا الذي ينتج و يخلف سحراً و جاذبية التفاصيل التي لا تعد و لا تحص عند نيتشه أو من نزوة أو مصادفة اختيار هذا الموضوع أو ذاك. يقتضي الأمر منا بالأحرى أنّ نفهم فلسفة نيتشه كل واحد – أن نفهمها في كليّتها بالرجوع إلى نيتشه نفسه و ذلك عن طريق الاهتمام جدياً في كلّ كلمة يقولها و في كلّ عبارة يطلقها، و النظر بشكلٍ منفصلٍ بتمعن إليها دون السماح لأيّ كلمة بالحدّ من رؤيتنا. لكن الأمر يتطلب أيضاً أن نمارس شيئاً من العنف و النقد على نصوص نيتشه لغرض فرض صورة البناء الجديد الذي نرتئيه لحطام الشذرات المتاح أمامنا. في هذه الحالة، علينا أنّ نجرب الإمكانات المنظمة لديه و طرائق انهيارها. حينها فقط نكون واعين حقاً للباعث و السبب القوي الذي يقدمه نيتشه للأجيال القادمة، ليس بواسطة منح هذه الإمكانات مكاناً للجوء بين أفكاره، و لكن من أجل إيقاظها و تحديد معالم الطريق الذي ينبغي أن تسلكه – أعني، الاشتراك في تكريس سمو الوجود الإنساني الذي جعله نيتشه أمراً ممكناً. ليس هناك أحد بوسعه أن

يتصور و يفهم جوهر الرؤية و المقاربة المتطورة التي يقدمها نيتشه ما لم يبلغها مقاماتها و يمر بتجارب التي مر بها و ينجزها بنفسه.

تحت الركام الضخم من الشذرات و النُبْذات القصيرة يختفي لغز و أُحْجيَّة الأعماق المظلمة لوجود و تفكير نيتشه معاً. يبدو هذا التفكير و كأنه قوة مجهولة قوضت جوهر الظاهرة الفلسفية الغربية ثم حاولت، في نفس الوقت، أنّ تفرض على حُطَام الصخور المتشظية الناتج عن هذا التقويض شكل و بناء جديد و لكن دون أي احتمال في النجاح – و لهذا توجد الصخور المتشظية و أحجار البناء متناثرة و تظل هنا و هناك في كلّ مكان تنتظر مَنْ يعيد تشكيلها. أو مرة أخرى، يبدو هذا التفكير كما لو أنّه البناء الذي لم يعد قادراً على السيطرة على نفسه و التماسك و بدأ بالتكسر و التهشم أكثر فأكثر؛ أو كما لو أن القوة الحيوية الموروثة في هذا التفكير تضغط دائماً باتجِّاه الكُلّية حيث لا يتم خسارة أو نسيان أيّ شيء، دون أن يكون أو يصبح في المحصلة النهائية هذه الكُلّية أبدا.

لتبسيط الأمور بهدف الفهم اليسير، يخضع الباحثين **رائعة نيتشه الفلسفية** للسّؤال و الاستقصاء و التمحيص كما يثيرون الأسئلة المترابطة و المتداخلة حول مكانته بالمقارنة مع الفلاسفة الآخرون و أهميه كتاباته. فواحد يعد نص ((ولادة التراجيديا)) بمنزلة أسلوب ساحر في التأليف – معالجة الأمور على نحو دقيق لا يقصد المتعة وحدها؛ بل التفكير في قرائه الأخيار و أصدقائه الطيبين – و التركيب؛ بينما يشيد آخر، مع التأكيد الكبير، على الأسلوب الذكي و الواضح و المتنوع الموزون لكتب الشذرات، ابتدئاً من نص ((إنساني مفرط في إنسانيته)) – كتاب موجه لذوي الأفكار الحرة – إلى نص ((العلم المرح))؛ و يرى ثالث أنّ المثال و الخلاصة و الذروة يكمن حقاً في الفلسفة النهائية لنيتشه، بوصفها فكراً و ثقافة و مدنية و تاريخاً و نموذجاً من نماذج الإنتاج التاريخي للإنسان و المجتمعات. في حين يعد آخر نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت)) نقطة تحقق الكمال؛ في حين يعد آخر أنّ فلسفة نيتشه تّم التعبير عنها في كتاب ((إرادة القوة)) النصّ الذي تّم نشره بعد وفاته. و بينما يفضل البعض من معشر الباحثين و المراقبين، الذين يشعرون بشيء من الغضاضة في كثير من الأحيان عندما يعترفون بذلك، باتساق كتابات نيتشه التي نشرها بنفسه عندما كان حياً، نجد آخرين على العكس يجدون في مواد كتابات نيتشه بعد وفاته تربة خصبة تغذي منشورات خاصَّة – بيد أنّه و لا واحد من تلك الآراء التي تم ذكرها آنفاً واضح و مقنع بحد ذاته. و بالنتيجة، لا يثق معشر الباحثين، الذين يفضلون كتابات نيتشه التي نشرها بنفسه عندما كان حيًا، بمثقال ذرة بأيّ

مادة معرفية من المواد التي تّم نشرها بعد وفاته، و التي لم يُعَدّ فحصها و تنقيحها من قبله أو أشرف عليها بنفسه، و عليه لا يمكن القول بأنّ هذه المواد هي على سبيل المثال أكثر كمالا و صحة من مسودات الرسائل الراديكالية الممُتلِئ بالتناقضات الحادّة فيما يتعلق في موقفه الفكري الكامل المنفتح على كلّ التحولات التي تعصف فيه، من بعض الشخصيات القريبة منه. في حين يرتاب بعض الباحثين، الذين يأخذون كتابات نيتشه المنشورة بعد وفاته على محمل الجدّ، في اللغة الممِيزة المطورة مع أسلوب أدبي ألماني فريد يمتاز بالحدّة و الكثافة المتزايدة لديه لغرض تبرير النتائج المرجوة.

كلّ واحد من هؤلاء الناس بالأحرى صائب في رأيه و نزاعه مع الآخر، و لكن و لا رأي واحد من هذه الآراء صائب حينما نأخذه وَحْدَهُ على حدة. لكن من الواضح أنّ كلّ رأي من هذه الآراء، التي تّم التعبّير عنه في تلك التقييمات، يجعل من نيتشه أكثر وضوحا و أقّل التباسا. بيد أنّ نيتشه نفسه لا يكون واضحا إلاّ حينما نجمع كلّ شيء عنده معاً كي ندرك الحركة الفلسفية الأصلية لطبيعته، المُلاحظة في تنوع أفكاره، حينها في النهاية فقط يمكن أن يُفهم نتيجة لتفكيره.

ينبغي أنّ نعي و نفهم جيداً أيضاً أنه و لا صيغة من صيغ التواصل عند نيتشه ذات سمة ممِيزة ترجحها على الأخرى. فبسبب الطبيعة الموروثة في تفكيره تجد و تلاحظ قُصُور نيتشه و عجزه في الوصول إلى صيغة شاملة مطوقة و بارزة تخضع لها كلّ الصيغ الأخرى لديه. على سبيل المثال، أسلوب صيغة كتابة المقالات الراهنة، التي تُدرك و تُفهم كليًّا و تتوفر على خيط ناظم لموضوعها تّم تطويره بهدوء و اكتملت ملامحه بوضوح لديه، لكن سرعان ما تّم التخلي عنه في نصّ ((تأملات لا موسمية))، ليتم العودة و اللجوء إليها مجددا فقط في نص ((جينالوجيا الأخلاق)) و ((عدو المسيح/ ضِدّ المسيح)). من جهة أخرى، يهيمن أسلوب الشذرات في المدّة الوسطى من حياة نيتشه الفلسفية، و لم يتم التخلي عنه حتى أواخر حياته الفلسفية، و ظل يحوم بسِرّية حتى في خلفية البعض من أعماله المبكرة. و بطريقة لا تخف عن أحد، نعثر في الأعمال التي نشرت بعد وفاة نيتشه على نوع من أسلوب كتابة الشذرات الذي يقدم لنا بشكل مستمر شيئاً جديداً من التنوع و الغنى الفكري الذي لا ينضب. كان هذا هو الحال و الأساسّ لكل الأعمال المنشورة في تلك الحِقْبَة. و فيما يهيمن على كتابات نيتشه الأخيرة، بالإضافة إلى الجزأين الأولين من نصّ ((تأملات لا موسمية)) طابع نقدي و جدلي سجالي مكثف؛ نجد أنّ نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت)) بالإضافة إلى

الجزء الثالث و الرابع من نصّ ((تأملات لا موسومية)) يفصح عن مخطط مثالي مَليء بالوعود. من الصعب أن نعثر على مركز تفكير نيتشه في أيّ مكان من أعماله: ليس هناك عمل ما بين أعمال نيتشه يعتبر الأفضل. من جانب آخر، إنّ ما أساسيّ في تفكيره يمكن إدراكه و العثور عليه أيضاً فيما يبدو عرضياً و ثانوياً و طارئاً و حتى مطموراً.

فهم عمل نيتشه

المناهج المثالية و النموذجية المستخدمة في تأويل نيتشه. — تحتوي معظم التأويلات الأدبية الآنفة لنيتشه على عيب أساسيّ لا يمكن المرور عليه مرور الكرام: لقد وضعت نيتشه تحت تصنيف و خانة من المسميات و المقولات العامة، و كانت تتصرف كما لو أنها تعلم، بطريقة لا يرقى إليها الشك، كل الإمكانات المفتوحة على الوجود و على تفكير هذا الرجل. و كي تنجز هذه المهمة على أتم وجه، صنفت نيتشه كليًا و وضعته ضمن فئة أو خانة معينة من الفلاسفة. قبل كلّ شيء، من الخطأ أن نعتبر نيتشه كشاعر و كاتِب على حساب اعتباره فيلسوفاً بشكلٍ جدي – لقد ارتكبت هذه التأويلات حقاً خطئاً فادحاً حين عدّت الرجل مجرد شاعر أو في أحسن الأحوال كاتِبا بدلاً من عدّه فيلسوفًا. و لكن، من جهة أخرى، من الخطأ اعتبار نيتشه ببساطة مجرد فيلسوف ما كالفلاسفة الأوائل السابقين و قياسه وفقا لمعاييرهم – ليس من المستحسن أن نضع نيتشه في خانة من خانات الفلاسفة. مع ذلك، ليس من مهام التأويل الحقيقي تصنيف الفيلسوف؛ بل النفاذ بالأحرى إلى تفكيره و فهمه – إنّهُ لا يدعي أنه يعرف الحقيقة عنه بشكلٍ نهائيٍ. بل يفتح أو يكون عَلاقة به لكن، بينما يعد التأويل و ينظر إلى كلّ ما يفهمه دائماً كمعرفة، فإنّهُ يواصل بعد ذلك العمل و لا يتوقف عن الاستفادة من منهج طرح السّؤال و الإجابة عنه. و بهذا يبدأ عملية الاستيعاب و الهضم و تعين الشروط و الحدود التي وضعها لنفسه. و بينما يزودنا التأويل الخاطئ بوهم سار و مرضي من المسح و الفحص و التحقيق و الدراسة العامة عن طريق أخذ مسافة من موضوعه و النظر إليه من **الخارج** كما لو أنه عينة غريبة، يمثل التأويل الحقيقي أدوات لإمكانية المشاركة و الانغماس في ذات و أفكار الفيلسوف.

إنّ المناهج و الطرائق الأربعة التالية، المُبررة في حدودها الذاتية، و غير الصحيحة بلا أدنى شك في ادعائها امتلاك الحقيقة المطلقة، نعثر عليها في الغالب مع التأويلات المضللة أو في

صفها.

(1) **المذاهب الخاصَّة** لنيتشه في جوهرها منفصلة، و منظمة، و تفسر على إنها إنجازاته الحقيقية. وفقا لذلك، بوسعنا أن نتعرف عن الفكرة المركزية لفلسفته، على سبيل المثال، في مذهب **إرادة القوة،** حين نستخدمها كنقطة بداية، تقودنا إلى الإقصاء و التهميش المحتم للجذل النيتشوي الصوفي، و مذهب العود الأبديّ. البعض يرى الحقيقة في مفهوم نيتشه **للحياة** و أيضاً في كشف قناع إرادة القوة المقوض للحياة (غير أنّ هؤلاء يسيئون بذلك فهم كيف أن نيتشه يبطل مفهومهم و طريقة تفسيرهم انطلاقا من اعتبار إرادة القوة هي الحياة بذاتها – الحياة و إرادة القوة غير منفصلين عند نيتشه؛ أنهما أمر واحد). أو مرة أخرى، يرى البعض الآخر الحقيقة عند نيتشه **في إماطة اللثام و خلع القناع عن النفس البشرية و الكشف عن أغوارها** – حيث هناك وحش غير مرئي يريد أكلها و يطاردها – و الغوص في أغوارها و رفض تصور أيّ نزعة أو مفهوم إيجابي لديه. كلّ واحد من هذه المقاربات يكشف النقاب بلا شك عن بعض التماسك و الترابط المنطقي في تفكير نيتشه و لكن ليس بحد ذاته في كليته.

(2) يمكن إيجاز **شخصية** نيتشه بواسطة الصورة (أو القامة/ الشخصية) التي يعبر عنها جمالياً كتماسك داخلي و مصير مكتمل غير مفروض علينا عَنْوَة و لا يطالبنا بشيء. و بينما يرى البعض سحر الشخصية و قدر **الروح العبقرية** عند نيتشه **في عزلته المتقدمة السائرة إلى الأمام التي لا تلتفت وراءها** و لا تبالي بشيء. يرى آخرون فيه ممثلاً إلى القدر الموضوعي – أعني، مصير الرجل الحقيقي الشجاع و الجسور الشاهد على التحول بين عصرين حيث يمثل الحاضر قعر أجوف بينما ما زال المستقبل غير حقيقي بعد؛ غدا نيتشه يمثل **أزمة أُورُوبَّا المضغوطة في الصورة الإنسانية و عدميتها** التي ينبغي أن يتم تحطيمها من جَراءِ و بواسطة الوضع السائد، حتى حين يصف بدقة و بنفاذ بصيرة ما الحاضر و ما الذي يمكن أن يأتي به المستقبل. و فيما يؤكد البعض على ما ممتع و مشوق و يثير الاهتمام سيكولوجياً في تفكير نيتشه؛ يرى آخرون مع أنّه مفسر و معلق كبير إلاّ أنّهُ أيضاً متفرج و مشاهد إلهي قادم من السماء يلاحظ و يراقب من كثب التاريخ الإنساني برّمته و الموقع الذي يحتله فيه. و بينما يدعي الجانبين أن تأويلاتهم يمكن أن تنطبق على نيتشه، تبين المظاهر الكاذبة للعظمة التي قاموا بتشيدها أنّها ليس لها عَلاقة أو صلة بنيتشه لا من

بعيد و لا من قريب. و نتيجة لذلك، لم ينجحوا في أن يجربوا أو يفهموا الزخم و قوة الدفع الشخصية التي يتوفر عليها نيتشه و حولها إلى أمر ممكن.

(3) بوسعنا إضاءة فلسفة نيتشه كليًّا بواسطة **الرموز الأسطورية** التي تمنحه دلالة دائمة تحتفظ في شكلها و تمده بأساس تاريخي متين. البعض معجب، على سبيل المثال، في رمز و شخصية يهوذا المخادع الخائن لأصدقائه الذي نعثر علية في الديالكتيك و السجال السلبيّ لنيتشه بواسطة صورة الفارس المتأرجح ما بين الموت و الشر الذي تتبدى شجاعته في مواجهة الوهم و الزَّيف و خيبة الأمل و هكذا دواليك[1]. بيد أنّ هذه الرموز تصبح في الحال مخادعة و زائفة حين تدعي أنّها ليست أكثر من مجرد لُعْبَة ممتعة جذابة و حاذقة: من مساوِئُ هذه الرموز أنّها تبسط و تلغي الحركة الحيوية عند نيتشه و تضع فلسفته في قوالب جامدة و متزمته كما تخضعه إلى كلّ قيود الضرورة المسلم بها و المفروغ منها بدلاً من تتبع خطواته كما هو في الواقع الموضوعي. لقد وجدنا أنّ نيتشه في مناسبات عدّة و من حِينٍ للآخَرَ يستخدم الرموز كنوع من الوسائل الإيضاحية ليس إلا، و أنّها لم تكن أكثر من وسيلة من مجموع وسائل أخرى متعددة.

(4) إنّ أفكار و أنماط السُّلوك الرئيسية عند نيتشه تّم **توضيحها سيكولوجيا**. إنّ إلقاء الضوء على الطريقة التي توصل نيتشه بموجبها إلى تلك الأفكار و الأنماط يعد أمراً حاسماً في فهم كلاً من قيمتها و حقيقتها على حدّ سواء. يبدو أنّ نيتشه نفسه يقترح هذا المنهج، لاسيَّما حين يؤكد على وحدة الرابطة القائمة و غير المنفصلة بين الحياة من جهة و المعرفة من جهة أخرى، و يلح بإصرار أنّ النظم الفلسفية ينبغي أن تُعدّ وثائق شخصية موثوقة تعبر عن أفكار كتّابها بصدق. بيد أنّهُ يصرح: ((حينما يبدي نقّادي اهتمامهم بأفكاري، غالباً ما يساورني الشك أو أكون تحت وقع تأثير اِنِطباع و فكرة أنّهم ليس أكثر من أشخاص أوغاد و سذج. إنّهم يهتمون أو بدقة أكبر يولون الاهتمام بما قيل عني و ليس **بما أقول** أو بالسبب الذي **جعلني** على وجه الخصوص أتوصل إليه – هذا فقط ما يثير اهتمامهم، ...إنّهم يطلقون الأحكام – يحكمون عليّ بالضبط كي يتجاهلوا عملي: إنّهم يوضحون منشأ عملي و أصل أفكاري، التي تتعلّق بأصل أحكامنا الأخلاقية المسبقة، هذا الأمر حسن و لا بأس فيه لكنهم سرعان ما يقومون بعد ذلك بالتخلص منها و رميها بعيداً في سلة المهملات على نحو فَظّ يفتقر إلى اللياقة))[2]. هذا ليس تناقض في رأي نيتشه، بل رفض قاطع للخلط بين القبض على جوهر تفكيره، و الوصول إليه بواسطة وعي حدسي يضيء **الوجود**، و فهم سيكولوجي نزوي متقلب و

غريب الأطوار لا يرى أو يفهم **وجود** نيتشه الحقيقي. على سبيل المثال، لا يفهم المرء نيتشه أو يكون قريبا من فهمه بفضل تأويل تفكيره على أساس سخطه و امتعاضه من كونه بروفيسور يعيش وحيداً (حساس و عصبي و يقال عنه أنّهُ يمجد وجود الوحوش) أو من منظور أنّهُ يصارع من أجل القوة و التأثير الذي يترجم بواسطة موقفه من شخصيات كبيرة مثل بسمارك، الناس الألمان، و جداله و سجاله العالي و الحاد النَغْمَة، و استعداده الكبير في أن يكون فعالاً و مؤثراً بفضل كتاباته المثيرة و الحساسة. هذا المنهج، الذي وقع على نيتشه وقوع الصاعقة و كان أشد وطاءة من أيّ شيء أخر، ينطوي على الذم و الاستهانة بنيتشه أكثر من فهمه. على أيّة حالة، إن ما يُفهم و يتم القبض عليه بواسطة نيتشه نادر ما يكون له صلة به، لأنّه حتى حين يكون غير خاطئ و ذو قيمة و يساهم بعض الشيء في فهم نيتشه، يبقى مع ذلك دون قوة مضيئة لطبيعة الحقيقة لنيتشه.

السّؤال هل من الممكن – لغرض الفهم – أنّ نصيغ منهج لتأويل نيتشه بواسطة استخدام المادة المعرفية للمناهج و الطرائق الأربعة المذكورة آنفاً ليس بوصفها غايات بحد ذاتها و لكن كوسائل لتقديم صورة نيتشه الأصلية و الحقيقية. على العكس من النظام الدوغمائي، مِيزة الرسم التخطيطي، الرمزية الأسطورية، التوضيح المفهوم سيكولوجياً، نريد أن نقدم هنا وجهة نظرنا عن نيتشه بوضوح و دون أيّ عائق من شأنه أن يمنعنا من التواصل مع الجوهر الحقيقي بذاته و نشترك فيه و نحقق وجودنا و ذواتنا. بدلاً من التعامل فقط مع المادة الفلسفية و الأدبية، و كذلك تلك المتعلقة بالسيرة الشخصية لنيتشه، و بدلاً من معرفته مجرد كشخص آخر، ينبغي أن ندخل في مسارات حركة التفكير الأصيلة و الحقيقية لنيتشه و نغوص في أغوارها بعمق.

تكمن الصعوبة الكبيرة – حين يتم التعاطي مع نيتشه – في العثور على نقطة البداية الملائمة و الرصينة لفهم نيتشه الحقيقي و الأصيل. لتعزيز هذه البداية المناسبة، يحدد نيتشه منابع و مصادر و حدود تفكيره بتفصيل واضح – هنا يعثر التفكير، الصورة، النظام الديالكتيكي، و الشعر عند نيتشه على طرائقها المناسبة في التعبير. و بذلك، يظهر نيتشه كرجل نجح، بسبب أن وجوده و حياته كلها كانت على المحك، في أن ينقل وعيه للوجود و فهمه الذاتي برمته بطريقة حقيقية و أمينة قل مثيلها.

كيف ينبغي قراءة نيتشه. ـــ مادام هناك مخاوف من أنّ الكتابات الأساسية لمعظم الفلاسفة يتم تجاهلها و نسيانها لمصلحة و حساب الدراسات الثانوية التي تكتب عنهم و تتناول أفكارهم، فإنّ

كتابات نيتشه، بهذا الصدد، يمكن أن تتعرض على نفس المنوال لخطر سوء الفهم، و الخَشْيَة في أن يتم قراءتها بطريقة لا مبالية و غير مدروسة، كونها تبدو سهلة الفهم و الاستيعاب للوهلة الأولى.

يمكن للمرء أنّ يخفق تماماً في العثور على الطريق الذي يقوده إلى نيتشه إذا أراد أن يقدم، على سبيل المثال، النصيحة إلى القارئ الذي تملي عليه قراءة نيتشه في هذه الأماكن المحددة أو تلك أو هذه الصفحات و الموضوعات أو تلك، و يترك نفسه متحفزا و يعيش تَجْرِبة القراءة و يشعر بالرضا. يكتب نيتشه الآتي في الضِدّ من هذه الفكرة: ((القراء السيئين هم أولئك الذين يتصرفون كالجنود الأوغاد الذين ينهبون المدن التي يحتلوها: أنهم يلتقطون و يأخذون الأشياء التي لا يستخدمونها إلاّ بالكاد؛ أنّهم يعكرون صفو الهدوء الذي يتوفر عليها النصّ و يفترون على الكلّ)). ((آه، كم أكره القراء الكسالى المتراخين)).

من جهة أخرى، إذا اعتقد المرء أنّه يمكن أن يَلُم بفلسفة نيتشه إذا قرأ أكبر قدر ممكن من كتاباته، أو حتى على افتراض كتاباته كلها، على نحو سريع كي يحيط في كل فلسفته، فإنّهُ سيكون على خطأ بالتأكيد. يُطلق على نيتشه، في الأوساط الفلسفية، حقاً لقب ((معلم فَنّ القراءة البطيئة و الصبورة)). [يقول نيتشه بهذا الصدد:] ((الآن، إنّ ما يناسب ذوقي فعلا... هو أنه لم تعد لي حاجة لكتابة أيّ شيء بالطبع إلى هؤلاء الذين ينتابهم الملل و اليأس بعجالة و يفتقرون إلى الصبر)). و في مديح الفيلولوجّيا، يكتب الآتي: ((تعلم الفيلولوجّيا الناس فَنّ القراءة بطريقة حسنة، بطيئة، صبورة، وعميقة – تجعل القارىء يلقي نظرةً إجمالية تقرر و تحكم، ينظر إلى الأمام و إلى الخلف، أيّ من أمامه و من خلفه، مع عقلية متحفظة، كما تترك الأبواب غير موصدة جزئيا، مع عيون مفتوحة باتساع و أنامل ناعمة رقيقة و حساسة)).

بيد أنّه ليس كافيا بالنسبة للقارئ أن يمارس فَنّ تجريب صياغة و تذوق الكلمات، بالعَلاقة بالفيلولوجيا؛ بل علية أن يصل، بواسطة تلك الكلمات و الجمل و التأكيدات، إلى المصدر، الينبوع الأول للتفكير عند نيتشه كي يشارك حقاً في بواعثه و دوافعه الأصلية و الحقيقية. ذات مرة، كتبَ نيتشه إلى صديقه جاست من مدينة فينيسيا (البندقية) الآتي: ((حينما تكون نسخة كتاب ((الفجر)) بين يديك أطلب منك يا صديقي أنّ تسدي و تعمل لي معروفا واحداً آخر: أريدك أن تذهب و معك هذا الكتاب السجالي إلى شاطيء (ليدو) البعيد و تقراه هناك كله، و أنّ تقع على مضمونه و تجعله

كله ملكا لك – أعني، أن تجعل من قرأته حالة عاطفية عميقة و متقدة)). (من رسالة إلى بيتر جاست، 23 حزيران، 1881)

على القارئ أنّ يعي حجم الصعوبات و الوهاد الوعرة المفروضة عليه حين يقارن معاً عند نيتشه التعابير الصحيحة و المتناقضة ظاهريا إلى حدّ ما. بوسعنا إنجاز الدراسة المفيدة و المجدية عن نيتشه حينما يتم الوصول، عاجلا أو أجلا، إلى المصادر أو الينابيع عنده، بما أنّ القراءة العميقة و ((الحالة العاطفية)) التي يطالب بها نيتشه عند قراءته هي فهم و استيعاب المصدر و الينبوع و ليس الوصول إلى الهدف و الغاية. من هذه النقطة تحديداً تبدأ مهمة القارئ. الوسائل الآتية بالأحرى متيسرة و مفيدة و ناجعة في قراءته:

مبادئ التأويل. ـــ حالما ما يتّم التسليم بأهمية كاتِب ما حتى يصبح من غير جاز إطلاقاً أنّ نكون انتقائيين و نختار من كتاباته الفقرات التي تتفق مع رأي معين واحد لنا و نهمل الباقي. على الضِدّ من وجهة النظر هذه، عليّنا أن نأخذ كلّ كلمة من الكلمات التي يقولها الكَاتِب على محمل الجدّ. هذا لايعني القول إنّ الكلمات أو التعبيرات و الأقوال تمتلك كلها نفس القيمة. تقف كلمات و تعابير الكَاتِب و أقواله في صف منتظم لا يمكن الوصول إلى معناه بأيّ وسيلة من وسائل المعايير المحددة؛ بل تشتق و تستمد معناها من الكل غير المتحقق و منجز من أفكاره بعد.

ينجز التأويل مهمته بنجاح بواسطة الربط بين الفرضيات الأساسيّة عند الفيلسوف بعضها مع البعض الآخر. هذه العملية تخلق تدرجياً توجه عام يقود، سواء كان تأكيداً أو تحولاً، العقل المتُسَائِل للقارئ دائماً نحو مفهوم محدد و أساسي. هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، ينطبق على نيتشه أكثر من أيّ فيلسوف آخر نعرفه إلى حدّ ما كون أعمالة تقدم نفسها على هيئة شذرات و لكن أهم من ذلك كله صفة العمق غير المباشر الذي تتوفر عليها كل فكرة – لا تبحث عن صحة الفكرة من عدمها، المهم أن تحقق معجزة أو معجزتين، فإنّ لم تكن حقيقة تصبح كذلك – من أفكار نيتشه و حركتها بين قطبي الإيجابّي و السلبيّ بالتناوب.

إنّ ما يقودنا إلى الفهم الصحيح لنيتشه يقف تماماً على النقيض مما يعد به الإغواء الجذاب الكبير لكتاباته، بمعنى: عدم القَبُول و الاهتمام في الآراء و التصريحات المحددة التي تنقل الحقيقة النهائية غير القابلة للإلغاء عنه؛ بل التركيز بدلاً عن ذلك على الجهود المؤازرة و الحثيثة التي

نواصل بفضلها طرح السّؤال عنه، الإصغاء إلى التناقضات التي تنطوي عليه كتاباته، و الدفاع عن حالة الشدّ و التوتر الموجودة و المتوفرة بين الإمكانات المختلفة التي يطرحها. إنّ توليد المعنى الذي يقصده نيتشه لا يمكن هضمه و استيعابه بواسطة إرادة امتلاك الحقيقة في صيغة ثابتة و نهائية، و لكن فقط بفضل إرادة الحقيقة التي تنهض من الإعماق و تسعى و تجاهد نحو الأعماق حصراً – إرادة الحقيقة التي تهيء نفسها لمواجهة كلّ ذلك الذي يثير التساؤل في الصيرورة: إنّ المعنى الذي يسعى إليه نيتشه ليس قريبا من أيّ شيء إنّه بعيد و بمقدوره الانتظار.

و بذلك، تتطلب الدراسة التأويليّة لتفكير نيتشه دائماً جمع **كلّ** الأقوال التي لها عَلاقة بموضوع النقاش أو بالموضوع المعطى. إنّ عملية اكتشاف الأقوال التي تفسر و تعزز و تؤهل المعنى، و ربط بعضها مع البعض الآخر من أجل إقامة سياق عام للعمل لا يمكن أن تنجز فقط انطلاقا من تصنيف الفقرات التي ينتمي بعضها للبعض الآخر فقط بواسطة استخدام نفس الكلمة (حتى إن كان هذا يساعد إلى حدّ ما في تهيئة دليل أو مؤشر للمنهج المناسب)؛ و لكن يمكن أن ينجز بالأحرى حصرياً بفضل عملية الربط الموضوعي غير المتحيز النزية التي تسعفه ذاكرة قوية جيدة لما يُقرأ.

يبين الجهد المؤازر المستمر في إقامة هذا الجمع و الدَّمج المنظم أن النِقَاط الآتية يمكن أن تكون قابلة للاستعمال و التطبيق:

(1) يبدو أن كلّ الأقوال، البيانات و التعابير عند نيتشه يُلغي بعضها البعض الآخر. تعدّ سمة **التناقض-الذاتي** واحد من المقومات الأساسية في تفكير نيتشه. فلكل حكم من أحكام نيتشه تقريبا يمكن أن نعثر على نقيضه أو ما يضاده. يعطي نيتشه انطباعاً للقارئ أنّ له دائماً رأيين حول كلّ شيء. و بذلك، يمكن المرء أن يستشهد في نيتشه كي يدعم أيّ شيء يخطر في ذهنه. يستشهد معظم الأفراد ذوي النزعات المختلفة بنيتشه على حدّ سواء، و يقتبسون منه في الوقت المناسب: المحافظين و الثوريين، الاشتراكيين، أصحاب الرؤى المؤمَّنة بالفردانية (و كذلك هؤلاء غير المباليين أو مكترثين في السياسة)، العلماء – الذين يبحثون عن دِقَّة النظام الذي يستطيع بلوغ مقاصد العلوم – و الفنانين – الذين يريدون التحليق بالخيال و التهويم – و الحالمين من أصحاب الرؤى المثالية، الملحدين و المؤمنين على حدّ سواء، المفكر الحر و المتطرف. لهذا السبب، خلص الكثير بأنّ نيتشه فيلسوفاً مُمتِلِئ بالغموض و التشوش و الحَيْرَة، لم يكن مطلقا شخصاً جدياً – بل

شخصاً غريب الأطوار ترك نفسه للنزوات، و هو نفسه لم يأخذ على محمل الجِدّ ثرثرته غير المنطقية في بعض الأحيان.

و لكن قد يكون التعاطي هنا مع هذه التناقضات و المتضادات التي تتوفر عليها نُصوص نيتشه أمراً ضرورياً لا مفر منه. ربما، تبدو هذه التناقضات، التي تقدم نفسها كخيارات عقلانية و مألوفة للقارئ حينما يتأمل و يطيل النظر في كلّ واحدة منها على حدة، في الواقع تبسيطات مضللة و مخادعة للوجود إذا جاز التعبير. و إذا تّم إزالة و شجب الفهم (***Verstand***)، بحد ذاته، كونه لا يغادر و يبقى ملتصقا على سطح الوجود بقوة في تعاطيه، فإنّ الوجود ربما يتجلى و يتبدى بوضوح بواسطة هذه التناقضات أو التناقض-الذاتي للفرد. هذا الأمر المثير للاهتمام حقاً، بلاشك يبدو حقيقياً لهؤلاء الذين يبحثون بحماسة عن الحقيقة النهائية و لكن يفكرون فقط بواسطة الفهم و يكونون محددين بما هو متاح لهم. إنّ التناقض الذي ينشأ من هذه الطريقة يحتمه و يشترطه الموضوع – إنّهُ إذا جاز لنا التعبير علامة على الحقيقة بدل من أن يكون علامة من علامات التفكير العاجز غير المؤهل.

على أيّة حال، تبقى مهمة المؤول/ المفسر تكمن دائماً في حالة عدم الرضا حتى يعثر أخيراً على التناقض – تكمن مهمته أيضاً في البحث الدؤوب عن التناقضات في كافة أشكالها و أن يجرب بشكلٍ مباشرٍ، أنّ كان ممكنا، ضرورتها و مستتبعاتها. بدلاً من أنّ تستفزه التناقضات بين حين و حين ينبغي للمرء أنّ يطاردها و يقتفي أثرها و يعثر على مصدرها و يتبعها إلى مدياتها القصوى. لو قدر لهذه المحاولة أن تأخذ المسار الذي قُدِر لها لكانت النتائج بخصوص تفكير نيتشه مدهشة حقاً.

(2) يصطدم المرء **بأشياء مكررة أو تكررات** لا نهائية لها. بما أنّ كلّ ما كتبه و دَوَّنه نيتشه ينبغي أن يتّم نشره – دون استثناء – حتى يكون تفكيره متاحاً و متيسراً لنا، فإنّ مسألة التكرار لا يمكن تفاديها. ينبغي للباحث أن يخلص أساسّ تفكيره من الثبات الممل و المضجر الموجود في تعابيره بواسطة اقتفاء أثر تعديلاتها المتنوعة. من المهم على وجه الخصوص اكتشاف الأمرين الآتيين:[1] كيف يمكن للمئات من الاقتباسات عند نيتشه أن ترتبط بموضوع واحد؛ و [2] ما هي الموضوعات الأخرى الذي أصبحت مهمة و ناجعة نتيجة أو بفعل فِقْرة واحدة بمفردها في النصّ عنده. فقط المعرفة الواضحة و المتقنة للأشياء المكررة لديه هي التي تجعلنا قادرين على ملاحظة الفائدة و الهدف من وراء مثل هذه التعابير المنفردة الخاصَّة.

(3) يزودنا نفاذ الصبر، استشعار الخطر، و التناقضات المزعجة التي يتوفر عليها تفكير نيتشه في البداية و للوهلة الأولى بالحافز و السبب الذي يقودنا نحو وضع أفكاره في ترتيب الواحدة جنب الأخرى، كحجر أساس العمارات الفلسفية، و تدخلنا في ديالكتيك حقيقي بفضله وحده و حصراً تصبح مقاصده و أهدافه واضحه. لقد تبين لنا كيف أن نيتشه – و دون سيادة و سيطرة واعية لديه على الإمكانات المقدّمة بواسطة ميداني التفكير و الوجود – قادر على السير بنجاح في الطرق الضرورية لهذين الميدانين. يتيح لنا التوضيح الديالكتيكي، إلى حد ما، اكتشاف الفقرات التي ترتبط معاً و يعود بعضها إلى البعض الآخر في نُصوص نيتشه المختلفة. غير أن هذا الحال، المثير للاهتمام حقاً، لا يمكن أنّ يتّم إنجازه بواسطة التبصر، الفطنة و المعرفة المنطقية وَحْدَها، إنّهُ يحدث و يأخذ مكانه بموجب و بفضل اتساع و إضاءة ميدان الوجود الممكن. في الواقع، أيّ شخص يفتقر إلى مِيزة و موهبة التحلي بفضيلة العمل الشاق الدقيق في الربط المنطقي و الموضوعي الدائم و الثابت للأشياء و لا يمتلك مساحة في ذهنه تستوعب وفرة الإمكانات التي تتوفر علية نُصوص نيتشه ليس بوسعه أنّ يقرَأُه و يفهمه.

(4) إنّ **الكلّ** المنبثق من تفكير نيتشه ليس شيئاً موجوداً أمامنا بوسعنا أن نبلغه و ندركه فعلاً– بل أنّهُ يُمْلي أومراهُ علينا بقوة بواسطة إثارة وطرح السّؤال النقدي الحاسم المتعلق بالمحور المركزي لتفكير نيتشه كليًّا في كافة أطواره و مراحله المتعددة. هذا **الكلّ**، في الواقع، لا هو بالمفهوم، و لا هو بفلسفة خاصَّة للحياة أو مفهوم للعالم، و لا هو أيضاً بنظام – إنّهُ بالأحرى شغف البحث عن معنى الوجود تحديداً مع تغلبه المتواصل على الصعوبات التي تواجهه انطلاقا من نقد قاسٍ، ينبغي أن يمارس على كافة الأصعدة، من أجل الوصول إلى مستوى الحقيقة الأصلية و غير المزيفة. و بينما نكون منشغلين في اكتشاف الأقوال عند نيتشه التي تزودنا، إذا أخذناها معاً، بالأساس الضروري لفهم ملائم لشيء ما عنده بشكل أفضل، ينبغي أن نضع بعين الاعتبار الاختلاف الأساسّي القائم بين الكل المنظم للمذاهب التي تؤدي بذاتها وظيفة الإحاطة الشاملة، و الإحاطة الوجودية بذاتها و التي هي فقط حافز و باعث أساسي و لكن ليس مذهباً أساسياً. كلاهما ينبغي إضاءته بواسطة تنسيق و ترتيب الأقوال المختلفة كي يرتبط غنى الخصوصيات فيها بطريقة ملائمة مع ما مهم و حازم. هذه الدراسة عن نيتشه، التي تبحث عن الكلّ، و لكنها ما زالت بالضرورة تنطلق من الجزئيات و تظل تثير الأسئلة و تستوعب المفاهيم و الموضوعات عنه، دراسة لا تنضب و لا يصبها الكَلَلَ.

فقط بواسطة توظيف نمط خاص من التأويل، ينطلق من منظور الكلّ، نستطيع أن نستمد من نيتشه نفسه المعيار الذي نحتاج لوضع أقواله في نظام رصين يعتد به يتطابق و يتماهى مع أهميتها، و الحكم على معنى و مدلولية كل واحد منها، و بهذا يتّم تميز النُصوص الوثيقة الصلة بمقاربات نيتشه من تلك العرضية والمضللة التي يعوزها الترابط و تفتقر إلى الاتِّساق بطريقة موجعة. إنّ وعي نيتشه بالأساسيات و إدراكه يختلف من وقت لوقت آخر بشكل حاسم لا يمكن اجتنابه. مازال بوسع المرء الوصول إلى وجهة نظر يمكن بفضلها أن يطبق نقد نيتشه على حركة تفكيره و نزعته السجالية. من هذه المقاربة ينتج بوعي المسارين الآتيين:

في **المسار الأول**: يمكن تنظيم أفكار نيتشه – التي نالت السمع والبصر – بغض النظر عن تاريخ ظهورها، **في تركيب كُليّ عقلي يرتبط أحدها مع الآخر بالضرورة.** في **المسار الثاني**، بما أنّ أفكار نيتشه تعود إلى تطور زماني و تاريخي محدد يحتل مكانه منذ عقود عدّة، ينبغي النظر إليها بكليتها بواسطة صيغتها و سياقاتها التاريخية كحياة كاملة. في الحالة الأولى، تصبح فكرة **الكلّ الأبدي الخالد المنظم** لنا بمنزلة دليل بحثنا عن الموقع غير التاريخي لكلّ فكرة و عن بناء النظام بذاته. في الحالة الثانية، يصبح **تطور** حياة نيتشه، معرفته، و مرضه و تاريخه المبدأ الهادي في طريق اكتشافنا الموقع الزماني التاريخي لكلّ فكرة من أفكاره ضمن كُلّية المنهج و الطريقة المتبع. من جانب، تُفهَم كلّ فكرة من أفكار نيتشه، إلى حدّ ما، بفضل تحولاتها، تكيفاتها، تعديلاتها، تناقضاتها و إمكانات حركتها و سجالها بفضل كلّ مترابط و متسق موضوعيا؛ ومن جانب آخر، يمكن لهذه الأفكار أن تُفهم تماماً انطلاقا من السياق التاريخي الذي انبثقت منه كمادة للقراءة: ينبغي للقارئ أنّ يعلم دائماً **متى** تّم كتابة و **تاريخ** ما يقرأه.

يبدو أن هذين المسارين أو الطريقين يتقاطعان و يرفض أحدهما الآخر بطريقة متبادلة. إنّ المطالبة بتصور كل منظم مؤلف من أجزاء مترابطة بعضها مع البعض و كلّ جزء يُفهم على نحو خاص في موقعه المجرد من الزمان و التاريخ يناقض المطالبة بالنظر إلى هذا الكلّ بوصفه سياق للسيرة الذاتية و التاريخية و فهم كل شيء طبقاً لموقعه ضمن مسار الحياة و زمنه.

في الواقع، هناك أفكار أساسية معينة مهيمنة عند نيتشه ظهرت في مدّة مبكرة من حياته، و ظلت مستمرة و محافظة على مضامينها و مواقعها، بالرغم بالطبع من التعديلات الجذرية التي طرأت عليها. تخللت هذه الأفكار، التي فاقت الأفكار الأخرى في عمقها و تجاوزتها، حياة نيتشه و

هيمنت عليها برّمتها بطريقة مدهشة قل مثيلها. و لكن هناك أيضاً نوع آخر من الأفكار ظهر أول مرة نتيجة قطيعة مفاجئة في عملية نامية متطورة في حياته. هناك حالات نادرة لبعض الأفكار التي سرعان ما طواها النسيان بعد أن كانت لفترة زمنية قصيرة مهيمنة و تقف في مركز الصدارة. و قد تمّ تمثل و استيعاب هذه الأفكار ضمن عملية ضخمة منظمة تظهر سيرة ذاتية، لأنّها تخص رجلاً ينبغي لحقيقة وعمق تفكيره أنّ يظهر في صيغة زمانية تاريخية. هذه الصيغة ربما تبدو طبيعة و ملائمة مع موضوعها أو ربما تبدو، إذا جاز التعبير، غامضة و مخربة بواسطة الرابطة السببية الغريبة عن الموضوع و تشوه الواقع الموضوعي التجريبي للشخصية المعنية في السّؤال. في حالة نيتشه، كلتا الإمكانيتين تحققت في صيغة مؤثرة و عميقة للغاية.

و بذلك، تتطلب دراسة تفكير نيتشه، في **المقام الأول**، و خلافا للفلاسفة الكبار و العظام، أن نبقى دائماً على اتصال مع وقائع **حياته الراهنة**. ينبغي أن نهتم بتجاربه و سلوكياته في المواقف المختلفة كي نكتشف المضمون الفلسفي الذي يُشكل الوحدة غير المنفصلة بين كلاً من حياته و تفكيره. يمكن أن نكتشف هذه الوحدة غير المنفصلة بين حياة نيتشه و تفكيره بفضل المظهر الخارجي لبعض الأفكار و الصور الواضحة في أعماله. ينبغي أن نهتم بمسارات حياة نيتشه المتنوعة و المثيرة كي نفهم السياق الذي دَوَّنت به أفكاره و أماكنها المناسبة.

من جهة، لا يمكن لأيّ دراسة لسيرة حياة نيتشه الذاتية، الطائر المحلق خارج السرب، أن تكون ذا معنى إذا لم يتّم دمج حوادث حياته مع عالم أفكاره بطريقة لا فكاكّ منها. حينما يتّم فصل حياة نيتشه عن تفكيره فتلك أما لأن الفضول السيكولوجي، المحرك الأبدي الذي يعمل بلا توقف، يرضى بجملة من الحقائق الإنسانية جداً و يتمتع بسماع قصة حياة بطولية حقيقية أو بهدف تجريد جملة من الأفكار من شخصيتها و جسدها و تصنيفها كحقائق شرعية أبدية – أو ربما حتى بسبب حماقة محضة لا نريد الإصغاء إليها.

في **المقام الثاني**، تتطلب أفكار نيتشه البحث و التمحيص و الاستقصاء عميقا في **علاقاتها المتبادلة المنظمة**. لكن النظام المشتق من فلسفة نيتشه – خلافا إلى الأنظمة الكبرى للفلسفة – يظهر كلحظة استنارة، كطور أو وظيفة ضمن كلّ شامل لا يمكن أن يقدم كنمط منظم. و بدلاً من جمع الاختلافات المتنوعة و المتناثرة عن الموضوع المعطى – معطى البحث – البادي على نطاق واسع، ينبغي للتأويل أن يكشف النقاب عن هذه الاختلافات و الهرمية و أشكال التراتبية و الفوارق

بالتفصيل مع كل التناقضات التي تحملها للنفاذ إلى كل الإمكانات التي تنطوي عليها فلسفة نيتشه مع أنّ استحالة الوصول إلى الكلّ. و بينما كلّ الأشياء في النهاية يرجع بعضها إلى البعض الآخر، نعثر عند نيتشه على الخيوط الحقيقة لطرائق التفكير الذي لا يمكن أن تكون بأيّ حال من الأحوال منتظمة و موحدة.

يمكن للرابطة غير المنفصله بين حياة نيتشه و تفكيره أن تكون بمنزلة **الفكرة** الهادية والخيط الناظم لدراسة فلسفته، لأن تفكيره يتملص دائماً و يمتنع عن محاولة عرضه بطريقة مرتبة و منتظمة. من الاستحالة أن يتوقع المرء موضوعيا إلى أين يمكن أن يبلغ في محاولته الرامية للوصول إلى مفهوم واضح و محدد للكل. وما أن يقطع الباحث شوطا طويلا في دراسة نيتشه حتى يكرس بطريقة لا مفر منه جهوده كلياً لدراسة الحوادث الواقعية و القطائع المعرفية المهمة في حياة نيتشه. و لكن إضافة إلى ذلك يحاول أيضاً أن يكشف النقاب عن أفكار نيتشه دون الأخذ بعين الاعتبار عن زمن انبثاقها و تاريخ نشأتها. أن ما يمنحنا الإثارة و المتعة الملزمة التي لا تقاوم في دراسة نيتشه هي بالدِقّة الصعوبة المتكررة التي تواجه الباحث دائماً في التعاطي معه: و لا واحد من هذين الطريقين المذكور أعلاه يمكن أن يكون له معنى و يؤدي الوظيفة إذا أخدناه على حدّة؛ في حين إذا أخذناهم و وضعناهم معاً لا يمكن أن يكونا في وئام و اتّساق تام و سيناقض أحدهما الآخر.

عرضنا و أجزائه الرئيسية الثلاث ــــ يعمل العرض، خلافا إلى تقييم المنظور النقدي، على تقديم موضوعة بذاته، و خلافا إلى الرواية، يسعى إلى تقديم سماته الأساسية. يحاول العرض أن يمحي و يطمس تفكيره الخاص لمصلحة ذلك الذي يقدمه؛ لا ينبغي للعرض أن يستخدم موضوعه كمناسبة لأيّ عملية تفلسف يقوم بها بنفسه. هذا العرض أو التقديم هو محاولة متواصلة للخضوع تماما لتفكير شخص آخر – أنّه التفكير الذي يسعى ببساطة إلى تقديم ما يدور في ذهن شخص ما.

ليس كلّ نتاج الروح الإنسانية يتطلب العرض و التقدم، و لكن فقط ما هو خلاق و يعيش حالة من الإبداع – أعني، الأفكار التي تتفرع جذورها بلا حدود و تتلقى تجديداً إضافياً في المعنى و التعبير في الوقت المناسب – الأفكار التي تتجدد مضامينها و معانيها بمرور الزمن – كونها يمكن أن تُورث عن طريق الأجيال المتعاقبة اللاحقة. و بينما يقتضي الأمر و يتطلب أن ينجز فهم جديد و أصيل لمثل هذه الإنجازات وقت بعد آخر انطلاقا من العرض المتجدد لها و التحليل، ليس هناك

حاجة أو معنى إلى تقديم و عرض ما منقضي و محدد و بِناءً على ذلك منتهي الصَلاحِيَة تماماً، بل يحتاج المرء أن يعلن نتائجه فحسب.

لا يمكن أن نقدم نيتشه، بأيّ حال من الأحوال، بطريقة تمكن القارئ من أن يحصل على معرفة مفصلة عنه، لأن تفكيره ببساطة لم يصل إلينا بعد في صيغته النهائية الأخيرة الثابتة، سواء كشخصية محددة المعالم و مفهومة بإيجاز أو بواسطة نظام فلسفي نهائي– فالمرء لا يستطيع أن يتحصل أو يمسك إلا بجملة من أفكاره و سمات محددة من وجوده لا غير. في الواقع كلّ جهود فهم نيتشه يصيبها الإخفاق، و تكون مضيعة للوقت، مادام نحاول أنّ نفهمه أفكاره و حججه و مقارباته **كليًّا** كنظام فلسفي نهائي ثابت. لأن نيتشه لا يبوح أو يكشف النقاب عن نفسه في الواقع دفعة واحدة إلاّ بفضل الفعالية و الحركة الحيوية، فالدخول إلى فلسفته لا يتم بواسطة **القراءة** بعناية لمدَوّنة رسمية و نظامية ثابتة موضوعة بشكل نهائي – بل بواسطة دراسة تفكيره في حركته و تحولاته و ديناميكيته و قطائعه الحاسمة. لا يمكن أن نفهم فلسفة نيتشه فقط من طريق استيعاب و هضم الأفكار و الوقائع؛ بل على العكس من ذلك تماماً، يمكن للمرء أن يقبض على معنى فلسفة نيتشه بواسطة مجهوداته الفكرية الفعالة و أسئلته النقدية، التي تتبنى في ممارستها مناهج ضرورية.

و ينتج ذلك، أن تقديم تفكير نيتشه الناتج عن هذه الفعالية و الحركة الحيوية ليس بوسعه أن يعفي أيّ أحد من مهمة إنجاز هذه الفعالية و النشاط و الحركة الحيوية بنفسه. ربما يمكن أن يكون ما يقوم به في أحسن الأحوال مجرد تهيئة و تعبيد الطريق لما يجب أن ينجزه كلّ باحث في نيتشه بنفسه بواسطة نيتشه. المهم هنا أنّ نضع الشروط الناجعة التي ربما من شأنها أن تساعدنا في فهم نيتشه بطريقة ملائمة و على نحو حاسم أكثر من قبل – سواء كان ذلك انطلاقا من المشاركة في تفكيره و قَبُوله أو رفضه. بالطبع لن تكون النتيجة مجرد الكشف عن السحر الذي ينبثق من شخصية نيتشه و جانبها الشيطاني الذي لا يقاوم – بل أن الهدف بالأحرى هو تنقية و تطهير تفكير نيتشه من الشوائب التي علقت به و تحويله إلى باعث و دافع إيجابي يمنح معنى عميقاً للحياة. فضلاً على ذلك، هذا الحال، المثير للاهتمام حقاً، لن يخلصنا ببساطة من المغالطة النيتشوية التي غدت أمراً واضحاً بعد حجم التحول و التغير الذي أصاب أفكاره على يد الآخرين مع أنّ التخلص من هذه المغالطة أمر ملزم و ضروري لنا بوضوح.

ليس هناك طريق معين و محدد في تقديم نيتشه يمكن أن يقودنا قاصدًا إلى النقطة المركزية في تفكيره. و إذا سلمنا بأنّنا قادرون على الكشف عن هذه النقطة المركزية، فأنّنا سنقع في المحظور و سنخفق تماماً في القبض عليه و فهم عاملي التحدي و التحفيز الذي تقدمها و تثيرها عظمته. لهذا السبب، ينبغي لنا أن نسير في دروباً عدّة على التوالي في اقتفاء تفكير نيتشه. مع ذلك، تبلغ الدروب المتعددة التي تقود إلى حضور نيتشه أوجها ليس بواسطة التركيب، بل انطلاقا من إضاءة الأجزاء العميقة التي يُكشف عنها بشكلٍ غير مباشر بواسطة الأفاق و الصور الذهنية الحاضرة التي يواجهنا بها نيتشه بطريقة مقصودة و غير مقصودة.

إنّ الدروب المتنوعة التي نقتفيها في دراسة نيتشه تلاحق الهدف نفسه و تستمد من ذات المصدر: كلها تقصد أن تزيد من درجة جاهزيتنا لفهم نيتشه بواسطة إرساء دعائم معرفة واضحة بالجزئيات و التفاصيل الصغيرة، و تستمد كلها من الوعي في الأساسّ الذي يكمن خلف أو ما بعد الفهم الواقعي، لأنه ببساطة لا يظهر على نفس الحال أو المنوال مرتين. إنّ الهدف و المصدر في البحث، الذي لهما نفس أرضية الفعل المشترك، كلاهما ليس قابلا للنقل بشكلٍ مباشرٍ؛ و لكن دونهما ستكون طرق انفصالهم و اختلافهم الواضح ليس لها معنى. إنّ تفكير نيتشه معين لا ينضب. إذا ما نظرنا إلى فلسفة نيتشه **كليًّا**، فإنّها ليست مشكلة بحاجة إلى الحَلّ. لأن ما هو غامض عند نيتشه بعد يمكن أن تقوم تأويلات الأجيال اللاحقة في المستقبل بالقاء الضوء و لو جزئيا عليه و توضيحه و جعله ملائماً.

لقد قسمنا كتابنا هذا عن نيتشه إلى **ثلاث أجزاء رئيسية**، و تتضمن على التوالي: أولا، **حياة نيتشه**، باعتبارها أساساً لا مفر منه في فهم أيّ تَجْرِبة أصيلة و موثوقة عنده؛ ثانيا، **الأفكار** الأساسيّة التي تحتويها الموضوعات الجزئية المتنوعة و التي تعبر عن النوابض الفكرية الأصليّة لنيتشه؛ ثالثا، البحث عن **طريقة تفكير نيتشه كليًّا** بفضل وجوده و المحطات الرئيسية التي مرَ فيها في حياته. في كل حالة من هذه الحالات الثلاث يتألف الأساسّ من وقائع مهمة اعتقد أو هكذا يبدو لي من الضرورة تميزها و التعرف عليه إذا أردنا أن نفهم نيتشه بطريقة مناسبة. بيد أنّ كلّ حالة من هذه الحالات الثلاث تهيمن عليها وجهة نظر مختلفة عن الأخريات:

فيما يتعلق **بحياة نيتشه**، تّم التأكيد على السمة الراديكاليّة و المتطرفة لشخصيته. بدلاً من الانشغال بجمع الحقائق و الوقائع (مع أنّ أي واحد يقرأ نيتشه لا يروم أن يضع حداً لمعرفتها كلها)،

علينا أن نبين، دون إخفاء أو مبالغة ما الذي حدث حقاً، الشروط التجريبية لمكانته الفلسفية كرجل استثنائّي: حقيقة الحياة التي تّم التضحية بها باستمرار و تقديمها دائماً كقربان من أجل الحقيقة.

إنّ تقديم **أفكار نيتشه الأساسيّة** ينبغي أن يبين، بواسطة الترتيبات المفصلة لبواعثه الأولية المؤثرة – كيف أن كلّ واحدة منها بحد ذاتها هي نقد-ذاتي لايبقى منها في النهاية شيء لا يتغيّر. إنّ صياغات نيتشه لرؤياه الواسعة و العميقة إلى أبعد الحدود سيتّم البحث فيها و استقصاءها حتى نصل إلى النقطة التي تتحطم بها عوارضها. بهذا الصدد، الأمر يرجع لنا في أن نتجنب باستمرار أن نكون مسجونين في خيارات محددة أما هي سالبّة جذريا أو إيجابيّة جذريا.

ينبغي لتأويل **الكلّ**، الذي أكمل نيتشه إنجاز خطوطه الرئيسية بواسطة فهمه الذاتي و الذي نصل إليه عن طريق فهمنا الخاص، أنّ يلقي الضوء على المعنى الوجودي لحياة نيتشه و تفكيره معاً. تبقى مهمتنا في هذا الكتاب متقبلة و منفتحة على تأثير نيتشه انطلاقا و بواسطة تجنب وجهات النظر الاستاتيكيَّة الثابتة التي تقيد و تسجن نيتشه بقوالب و حدود وجهات نظر محدودة، و التأكيد على المفاهيم الرئيسية البارزة التي كان يطالب بها و إبرازها. أخيراً، برهن نيتشه على أنّهُ الاستثناء المبهم و الغامض الذي لا يسبر غوره و غير المفهوم – النموذج غير القابل للمحاكاة و التقليد، الذي يمارس و يضطلع بمهمة تأثير سريع و فعال لا يمكن الاستغناء عنه و لا بديل على الآخرين الذين هم غير استثنائيين. في النهاية، لا يمكن للمرء أن يتوقف عن طرح السّؤال الآتي: كيف يمكن لشخص لا يمثل أيّ أحد بأيّ حال من الأحوال أن يمتلك هذا التأثير الضخم، و يحوز و يهيمن على عقول الأغلبيَّة الساحقة من القراء كما لو أنّه حين يتحدث فإنه يتحدث و يمثل الإنسانية كلها.

منهج العرض/ التقديم. — عرض فلسفة نيتشه هو من غير ريب تقديم أفكاره **الفلسفية** الأساسيّة بموضوعية. مع أنّ نيتشه لا يعرض تفكيره بنمط منهجي و منظم إلاّ أنّنا نجد أنفسنا ملزمين في تقديم أفكاره بنمط و هيئة منظمة. و بينما ليس هناك وظيفة رئيسة محددة لأيّ فكرة أو مفهوم عند نيتشه، تظل عمق و ضخامة اللغة النيتشوية، بمزاياها الموسيقية الطيعة و اللدنة، تخفي بحرفية عالية أساس البنية المفهومية التي ينبغي لنا كشفها. مجرد تكرار لغة نيتشه مع تأثيرها البعيد المدى المباشر – دون تأويل– سيكون لنا و للقراء معًا أمراً فارغاً لا معنى له بما أننّا سنطلع و نقرأ نيتشه بنفسه في أيّ حال. في الواقع، يتعلق الأمر حصراً في الكشف عن العمود الفقري لتفكير نيتشه و الخيوط الناظمة له، إذا جاز التعبير، كي نفهم بشكل أفضل، حينما نقرأه، العلاقات المنطقية و

الحدود المعرفية التي لاحظها بنفسه و نضع يدينا على الحركة الداخلية لتفكيره، و بهذا نرسي دعائم الأساسّ لنوع من التفكير يخصنا في صيغة نقد حقيقي – أعني، نقداً مبدعاً.

زد على ذلك، ينبغي أن يكون عرض و تقديم فلسفة نيتشه **مُوثقاً بطريقة رصينة**. علينا أن نمنح أفكاره مظهراً متماسكاً و مكتملاً و مترابطاً منطقياً. غير أن مثل الخطوة اللازمة من شأنها أن تجعل من أفكار نيتشه تفقد خاصية أو طابع المقاومة و التفلت من أيّ قالب يميزها و المنبثقة عن لا اتِّساقها وتضاربها و تقلبها، و التي تزود الباحث عن الحقيقة بالحافز و الإثارة في الغوص بها. إنّ وضع أفكار نيتشه بعضها مع البعض الآخر – كي يكمل أحدها الآخر، و يناقض أحدها الآخر، و يحفز الواحد منها الآخر – هي طريقة فعالة لفهم نيتشه، و لاسيَّما حينما يتّم تدعيم و إسناد كل خطوة لازمة بواسطة اقتباس أو استشهاد مباشر فعال (طريقتنا المحددة و الملتزمة بشكل لا يمكن تجنبه، في كلّ حالة، في الأساسيّات فقط على وجه التحديد).

و بهذا المعنى، الذي تثاقلت الأسماع عن إدراك مضمونه، تجد كتابات نيتشه عمليا ما يبررها كثيراً في الاقتباسات المستخدمة. لكن هذه **الاقتباسات** بدلاً من أن تقدم مجرد فقرات جميلة، أو تؤسس علاقات محتملة شديدة الْخَطَر و مبتكرة، أو نزعات فكرية خاصَّة و منفصلة و اعتباطية، أو تقدم جملة من الشذرات و النُبْذات العظيمة الرائعة ذات الحساسية الفلسفية العالية، **تمنحنا في الواقع شيئاً أساسياً و جديداً تماماً**. سنعمل في هذا الكتاب – كلّ شيء سيصبح مزوراً فيه إذا صممت شيئا جاهزاً، أنني انتظر أن يمليه الواقع عليّ – جاهدين على وضع أفكار نيتشه في سياقاتها الواقعية الموضوعية الحقيقية حتى و أن لم يتّم التأكيد على العلاقات الأساسية و الإشارة إلى ذلك بواسطة نيتشه. لأنه، بينما لا يحتاج ذكاء نيتشه الواضح بما فيه الكفاية ككاتِب إلى دليل بالنسبة للقارئ الذي يطالع كلّ صفحة من صفحاته، يميل تفكيره في نفس الوقت إلى نزعة إضاءة تُوِلّف الذات و تمفصلها التي ترافق فلسفته و تعمل على إخفاء نفسها إلى حدّ بعيد و بحرفية عالية. لهذا السبب، تحدث الاقتباسات و الاستشهادات و البناءات، التي تّم اختيارها لغرض خاص، حالة من الانبهار و الدهشة و الغموض و تبدو فضلًا على ذلك فلسفيا مضللة دون التوضيح اللازم لها و إضاءتها. تجميع الفقرات و تصنيفها بطريقة واضحة هي الطريقة الوحيدة الممكنة كنتيجة للمحاولة و المغامرة التأويليّة إذا صح القول لاستخدام معرفة الكل كي تقدم الأفكار الأساسية الحاسمة التي سنتعرف إليها إذا اردنا أن نقرأ نيتشه بفطنة و نفاذ بصيرة (و هذا هو هدفنا الرئيس)، و قبل كلّ

شيء إذا كنا نريد الدخول جديا إلى تفاصيل عمل نيتشه. إنّ الاختيار القائم على أساس الأفضلية الشخصية ينبغي أن يتوقف إلى حدّ أن معرفة الكل تملي أوامرها على التقديم بمعنى يصبح هذا الكل صريحا و واضحا و ملموسا بأعلى الدرجات.

مثالياً، يشبه فن الاقتباس عمل صائغ الذهب: ينبغي أنّ نضع جواهر الأفكار الفلسفية عند نيتشه الواحدة مع الأخرى، ثم نعيد تركيبها كي لا تظهر فقط مزيّة جديدة حين نراها وَحْدَهُا على انفراد، و لكن أيضاً تعزّز كل فكرة الفكرة الأخرى بشكل متبادل جاعلة من الكلّ أسمى و أرفع مقاما من الأجزاء المكونة. هذه الجواهر ربما تسطع بنور جديد حين نرتبها بطريقة مختلفة [3]، و لكنها لا يمكن أن تسطع بالنور من كل الزوايا و دفعة واحدة. إنّ ما يحسب في النهاية هو الخلاصة غير المشوه الذي تكشف عن ما يقوله و يعنيه نيتشه تحديداً.

زيادةً على ذلك، حين نجمع أفكار نيتشه و نضع بعضها مع البعض الآخر ينتج ذلك الكثير من الخلافات؛ بيد أن هذا الأمر بدوره يكشف النقاب عن مِيزة النقد الذاتي الذي يتوفر و ينطوي عليها تفكير نيتشه. المرء ربما يحاجّ دائماً بخصوص الصواب و الخطأ في أقوال نيتشه و لكن هذا لا يعني أنّهُ مطلع و ملم بنيتشه بل يستخدمه فقط كموضوع للمناقشة. ينجز مفهوم النقد عند نيتشه وظيفته و يصبح ممكناً فقط حين يتم الكشف عن سمات التناقض، التنافر، اللا انسجام، الحدود و الهاويات التي لا تسبر غورها الذي تتضمنها و تنبثق ضمن الحركة الكاملة لتفكيره. في الأساسّ، هذا الحال، المثير للاهتمام حقاً، ينجزه نيتشه بنفسه، لأن منظور النقد يعود أو يخص ماهية الحقيقة التي يبحث عنها – الحقيقة التي تحاول دائماً أن تتجاوز نفسها بالسير نحو الأمام.

اعتماد الفهم على طبيعة و نوعية المفسر

انسجاماً مع مقاصد نيتشه و مفهوم الحقيقة عنده – الطريقة التي يفهم بفضلها المرء الأشياء – نكتشف أيّ نوع من الشخصيات يكون هذا الرجل. هذا هو السبب الذي يفسر لنا تحديداً لماذا كان نيتشه لا يبحث عن أيّ نوع من القراء – بل فقط عن أولئك القراء الذين ينتمون إليه و يفهمون ما يريد قوله.

الحقيقة الفلسفية.— إنّ النمط الذي اكتسب بفضله و أحصل على الحقيقة الفلسفية يختلف في الأساسّ على النمط الذي اكتسب و أحصل بواسطته على الحقيقة العلمية الجديدة. كل واحد

يعرف أنّ **الحقيقة العلمية** هي شيء قابل للتداول و المشاركة و التقاسم، و يمكن اكتسابها بفضل الصنعة و الدربة و المران. لكن فيما يتعلق في عملية فهم **الحقيقة الفلسفية** (و الحقيقة العلمية في كل العلوم من حيث إنّها تتأثر و تستلهم شرعيتها من الفلسفة)، يصبح الإدراك-الذاتي للفرد أمراً ممكناً، و تأخذ اليقظة مكانها، و اكتشف ذاتي نتيجة للطريق الحقيقي الذي اكتشف فيه الوجود.

لكن، إذا كانت الحقيقة كلها لها مستويات مختلفة، و ليست في مستوى واحد، و هي ليست واحدة لكلّ شخص – و إذا كان الدخول عليها يتوقف على الشرط المتوفر عند الباحث عن الحقيقة حصراً، و إذا كان القبض عن الحقيقة ليس إلاّ عملية إدراك-ذاتي، فإنّنا لن يكون بوسعنا الهروب من أو تجنب السّؤال القديم المتعلق بالمستلزمات التي تساعدنا على **نقل و تبادل الحقيقة** – السّؤال الذي يعرض للخطر الإمكانية الحقيقية لأيّ نقل للحقيقة، و في النهاية الحقيقة بذاتها. لأنّه، بما أنّ الحقيقة توجد بفضل عملية نقلها إلى الآخر، و هي عامة حالها حال اللغة الأداة التي تنقل حصراً بواسطتها، فإنّ من المحتم أن الصراع بين الافتراضات المتناقضة و المتعذر التسوية بيانها سوف ينتج على الأقّل حالة تصبح فيها الحقيقة مشوهة، منحرفة، مهانة، و معرضة لسوء الفهم و حتى تخضع للسّؤال.

حينما نصل إلى هذه النقطة، سنجد أنفسنا أمام تأويلين: **أولا**، يتطابق مذهب **مراحل الحقيقة** و يتماثل مع **مراحل الوجود الإنساني** (دراسة الرموز الفيثاغورية)؛ ثانيا، مذهب **الغموض الذي لا مفر منه للحقيقة** و النتائج المترتبة عن ذلك (و التي عمل نيتشه على دفعها أبعد نحو مدياته القصوى).

يقود مذهب مراحل الحقيقة إلى الإخفاء المتعمد المقصود، و إلى طريق التعلم الذي يقصد تطوير نُضْج كافي للفهم عند الإنسان كي يأخذ مكانه. لا أحد يمكن أن يتعلم الحقيقة قبل أن يكون مهيئاً سلفاً لمهمة القبض على الأمور السِرّية المقصورة و المعدة لفئة محدودة معينة و غير المكشوفة إلى المبتدئين أو العامة، و فهمها. هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، مع ذلك، يصبح بمنزلة نظام ضبط خارجي قائم على فرضية أنّ المتعلمين يعرفون سلفًا و فعلًا مذهب مراحل الحقيقة و مراحل **الوجود الإنساني** الذي يتطابق معها. كما هو الحال مع الآلِهة، عليّهم أن يقبضوا على كل الحقائق و يمتلكونها. كذلك نحن بحاجة إلى منهج الاختيار غير القائم على المعرفة المكتسبة للوقائع و القدرة على الفعل العملي؛ بل على الوجود الحقيقي للإنسان، نبله و إمكانيته المفتوحة على

الاحتمالات غير المتوقعة. هذا أيضاً نداء موجه و يستدعي قدرة الرجل الخارق الجبار الذي يميز الأمور التي تخص و تنتمي إلى الروح الإنسانية. و أخيراً، هذا الأمر يتطلب نوعاً من الظهور للحقيقة التي يخفيها دون أن يجعل منها سلطة طاغية ساحقة لا تقاوم – أعني، يسمح لها أن تبقى حقيقة حتى حين تخفي نفسها عن عمد.

و لأن نيتشه لا يمتلك أيّ من هذا الذي ذكرناه أعلاه، فإنّهُ يسلك و يتبنى طريق المقاربة الثانية. لا أحد يعرف المراحل، لا أحد يمتلك موهبة أو قابلية تميز و التعرف على الاختلافات طبقاً إلى المعنى المطلق للوجود بذاته. ليس هناك تخفي أو تمويه يمكن أن يؤثر على الحقيقة بذاتها عدا النوع الذي يُساء به فهمها حينما تكون بدقة واضحة جداً. بفضل صفتي الغموض و التعقيد تنجح الحقيقة في أن تحمي نفسها من أولئك غير المؤهلين على حيازتها. هذا هو السبب الذي يوضح لماذا كان نيتشه يذهب إلى الاجتماعات العامة و منتديات النقاش حين يكون ظاهريا مسموعا للكلّ. فهو يرغب و يريد أن يواجه هؤلاء الذين ليس لهم القدرة على مواجهة الحقائق التي يطرحها، و يكشف عن هؤلاء الذي ليس لهم الحق في امتلاكها، و هؤلاء الذين ردود أفعالهم غالباً ما تكون قائمة على سوء فهم الحقيقة؛ بهذا الصدد يقول: ((نزر يسير من الغيظ و الغضب يجعل مني أكشف النقاب ليس عن الأجزاء العميقة من نفسي فحسب بل و عن أكثر الأشياء سخفا)).

ما هي متطلبات التأويل الحقيقي الأصيل.— وضحت الفقرات أعلاه تأكيد نيتشه مراراً و تكراراً على توفر شرط التفكير العميق في الوجود عند أيّ أحد يروم أن يفهمه. لقد وجد نيتشه الأمر الأتي: ((من المستحيل تلقين الحقيقة إلى أيّ أحد كان مهما يكن و بغض النظر عن طريقة التفكير المتبعة لديه كأساسّ بذلك)). أيّ شخص يشعر أنّه ضِدّ نيتشه يخفق في فهم مواقع العمل الذي ينطلق منها – و بالنتيجة يخفق في فهم حججه الرئيسة. لا يمكن للمرء أن يفهم نيتشه ما لم يقع ((ضحية لنفس الشغف و العاطفة و الرغبات الحبيسة)) التي عاشها الرجل، و أن يجرب ((بريق و نور و شعاع بزوغ النهار)) داخل روحه – يقول نيتشه: ((أريد أن أنبه و أذكر القارئ أن هذا كل ما بوسعي عمله، و لا استطيع أنّ أفعل أكثر من ذلك)).

يصف نيتشه القدرة على فهمه و يصفها بأنّها ((العلامة الممِيزة أو الامتياز الذي ينبغي أن يجنيه القارئ بجدارة و استحقاق)). كان يريد أن يحيط حديقة أفكارة بسياج حصين حامي ((حتى لا تقتحمها الخنازير و الحالمون السذج و تدخلها عَنْوَة)). تنبأ نيتشه بالمخاطر المميتة التي تحدق به من

جَراءِ ((المعجبين المتطفلين))، و أراد أن يطرد بعيداً كل المتطفلين، الغرباء، المزعجين و الساخرين من ((قرد زرادشت)). قادت التَجْرِبة الأولى لسوء الفهم الذي تعرضت له فلسفته إلى تعبيره عن ((رعبه و مخاوفه من الأشخاص غير المؤهلين الذين يحاولون أن يفرضوا مطالبهم غير الشرعية على سلطته)). (من رسالة إلى أخته إليزابيث، حزيران، 1884)

ينتج هذا **يمكن للمرء أن يمتلك حق الدخول** في عوالم أفكار نيتشه حين يكون مؤهلاً حقاً و في نفس مرتبة أو منزلة نيتشه. يقول الأخير: ((الطريق المضاد لتفكيري هو طريق قراءة الصحف اليومية – بالمناسبة المرء مخطئ بقراءة الصحف فهذا مما لاشك فيه يبعث دمك على الاحتقان، كما يجعل من الفيل ذبابة و بالعكس – أعني، التقييمات السطحية التي تصدر و التي يمكن من سخريات القدر لأيّ أحد كان أن يدعي أنها تعود لملكيته. هذا ببساطة يجعل كل واحد له نفس المنزلة و المكانة – يجعلنا كلنا متساوين)). في الواقع، إنّ الحقيقة التي تقول ((إنّ قيمة الأحكام تضطلع بمهمة الثوب الذي يكسو أجسادنا ترجع إلى أو مردها إلى خطأ شنيع))، مردها إلى ((الاعتقاد بأنّ كل شيء يخضع إلى حكم أيّ أحد!)). و على نفس المنوال يقول: ((اليوم، نقول شكراً لكلّ الأرواح الجسورة و الجريئة لعصرنا... التي بفضلها بلغنا نقطة عدم الإيمان أبدا في شرف الامتيازات أو الميزات الروحية و الفطنة و التبصرات النهائية المتحفظة الساذجة التي لا يمكن نقلها و وضعَت في مكان لا يمكن بلوغه)). كلّ تفكير نيتشه يرسي دعائمه على أساسّ هذه الامتيازات و معرفته لعدم نقل ما نهائي، و الاهتمام و العناية بدلاً عن ذلك الذي أبداها نحو الوجود المستقل-بذاته للآخرين الذين لهم نفس مكانته و منزلته.

و لكن، إذا كانت الحقيقة غير قابلة للفهم و النقل و التداول إلاّ بين فئة و نخبة معينة من الأشخاص هم من نفس مرتبة و مكانة نيتشه، فإنّ الأمر يقتضي من كل فرد شخصي أن يطرح السّؤال الآتي: مَنْ أنا؟ هل بوسعي أنّ أفهم الحقيقة، هل أنا فعلاً مؤهلاً لذلك؟ هل لي الحق أن أشارك الآخر في الحقيقة؟ ليس هنالك جواب نهائي لهذه الأسئلة. هناك فقط طريق واحد علينا أن نقتفيه: الارتباط بنيتشه، و قراءة نصوصه – التي لا تعرض تهيئات بل أفكاراً فيها جهد مرير – للحصول على نوع من سمو النفس الذي لا يمكن أن يكون معداً و مخططاً له سلفاً، أو يمكن التنبأ به، أو حتى وضعه في صيغ ملموسة و متماسكة – مع ذلك حينما يدرك و يتحقق هذا السمو فإنّه سوف يظهر لي أول مرة ما الوجود ومن أكون أنا.

لماذا يتردد المرء في نقل الحقيقة الواقعية و إيصالها: ما الذي ينطوي عليه الأمر من خطورة؟ ـــ يعلم نيتشه و يعي جيداً، و بطريقة لامفر منها، حجم المخاطر الذي ينطوي عليها قول الحقيقة و البوح بها: ((هناك نوع من الكتب لها تأثير عكسي على نفس الشخص و رفاهيته العامة، الحال يتوقف على مكانة و قوة و جَلدَ الشخص الذي يقرأها و يتعاطى و يستخدم أفكارها: بالنسبة للنفوس المنحطة – التي لم تفسدها رذائلها بل جهلها – تكون هذه الكتب خطرة، مُخربّة و فاسدة؛ أما بالنسبة للنفوس النبيلة السامية، فهي تمثل تحدياً منذراً يثير فيها باعث الأفعال الشجاعة)). بما أنّ نقل الحقيقة هو أمر لا محالة في غاية الغموض، فإنّ نيتشه يصر على أنّ ((فطنتنا و تبصراتنا النبيلة ينبغي – و يقتضي الأمر منها! – بالضرورة أن تبدو مثل الحماقات، و تحت بعض من الظروف المعينة يمكن حتى إن تتحول إلى جرائم حينما تصل و بشكلٍ سِرّي إلى مسامع هؤلاء الذين لا هم بالأشخاص المناسبين لفهمها و هضمها و لا مهيئين و معدين سلفا للأخذ بها)). حينما تحدث ودمان أمام بيرنر بوند في تحالف بيرن (***Berner Bund***) الشهير كان يصف كتب نيتشه بالنُصوص الخطرة ناعتا أياه بالديناميت أو المواد المتفجرة، بيد أنّ نيتشه التزم الصمت بخصوص هذه الملاحظة و لم يعلق على ذلك إطلاقاً.

الشعور بالخطر أمر ضروري و يجب ألّا يُحرم المرء منه، بما أنّهُ من المستحيل أن تقول سلفاً على مَنْ سيمارس و يضطلع بمهمة فعله الإبداعي الخلاق و على مَنْ سيكون تأثيره مدمراً و كارثياً. إنّما ينادي به الخطر و يدعو إليه ليس إخفاء الحقيقة؛ بل إلى شي أكثر صعوبة، إنّهُ يدعو إلى: الشجاعة، الاعتراف، التفكير و التمعن ملياً، و أن تقول بكلّ صراحة و وضوح و على نحو منفتح ما تعرفه حقاً.

ليس لغموض الحقيقة أيّ عَلاقة بعدم الأمانة و التضليل الذي يمارس الإخفاء أو يحافظ بتعمد على الغموض المميز. إنّهُ غموض و التباس و إبهام غير مقصود متأصل يلازم نقل الحقيقة الفلسفية فقط، لأن المتلقين لها مختلفون جداً بالأساسّ. الحقيقة الشُجاعة تعني المغامرة في الغموض بدلاً من أن نريده.

غير أنّ **التردد**، الذي يعطينا دائماً مادة كافية للتفكير، مع ذلك، أمراً مفهوماً. يميل المفكر إلى ضبط النفس و كبح جماحها حين يلاحظ حجم الدَّمار الذي يمكن أن تحدثه فكرة ما لديه، و يميز أيضاً مقدار الانحراف و سوء الاستعمال و التعسف و الشر الذي يمكن ينتج عنها. و بالتالي، يطرح

نيتشه في أحد المناسبات السّؤال الآتي: ((هل كان يراود الرجال العظام في الماضي هاجس الخوف – الخوف الذي يقف سيداً فوق حياة الإنسان و يبدو التغلب عليه ضرباً من المحال. في مواجهة الخوف كانوا أمام خيارين: أما تلطيفه و تقيده بالأشكال أو التحايل عليه و تغطيته بأقنعة و وضعه بصورة منظمة كمفهوم في الحياة كليًّا، لكن السبيل الأول في الحد من شروره الذي كانوا يستخدمون فقط هو اختراع النظم المختلفة للتضحية – و الامتناع أو الإحجام عن كتابة ما كانوا يعرفون عنه بصدق))؛ كتب نيتشه في شبابه الآتي: ((لا ينبغي إطلاقاً أن نكشف عن جذور أفكارنا و مقاصدها و أن تظهر للنور علانية)) (إذن، ((أن تكون قادراً على أن تلتزم الصمت و لا تبح بمثل هذه الأشياء الشديدة الْخَطَر في الوقت المناسب هو في الواقع حقاً فناً نبيلاً. الكلمة و تأثيرها شيء يُنذِر بالخطر.... كم من الكلمات المحفوفة بالخطر ينبغي ألّا نقولها! لهذا السبب، لا ترد الفطنة الدينية و الفلسفية أن تستخدم الكلمات التي تكشف عن **عورة الأشياء القبيحة**)). (من رسالة إلى صديقه فون جيرسدورف، 18 كانون الأول 1871)؛ و حين جرب لاحقاً هاجس التردد المرة تلو المرة، كان مازال يطالب نفسه بشكل مباشر و جريء بالسعي وراء الحقيقة في كلاً من الكلمة و التفكير عارفا أن – بالضِدّ من أيّ تخفي مقصود لا يصب في المصلحة المفترضة لرَفَاهيَة الإنسان – القوة توجد حصراً في نمط من الانفتاح و التوسع و السيطرة ليس له أيّ عَلاقة بالثرثرة الخاملة غير المنضبطة المجردة من المبادئ و الضمير الذي يعمل كعربة للحقيقة. يُقال عن زرادشت: ((حتى القليل من التفادي و التملص بواسطة الصمت كان يعدّه حالة وهن و ضعف تماماً. فهو يشعر حين يسقط في هذا الفخ أنّهُ يتجنب التفكير و يمتنع عنه.... قليل من التحفظ، و أدنى الدرجات من السهو، من المؤكد أنها تمنع النجاح المرموق)).

لا يريد نيتشه ناس من فئة المؤمنين.— بما أنّنا نعّد أفكار نيتشه غير مبررة أو مسوغة لا بواسطة سلطة ما، و لا هي حقائق شرعية بالمعنى المطلق، فإنّه من الخطأ أنّ نكون واحداً من ((مريده)). واحد من السمات الملازمة للحقائق في تفكير نيتشه أنّهُ لا يمكن نقلها إلاّ بواسطة إيقاظ الاستجابة الشخصية المناسبة أولاً. إذن، من البداية إلى النهاية، نيتشه هو النبي، و لكنه خلافا لكلّ الأنبياء الآخرين، **يحيل كلّ واحد منا حصراً إلى نفسه لا غيره**:

((حينما تقتفي طريقك و تتبع خطاك بأمانه، فثق بإنّك بهذا سوف تتبعني)). و على نفس المنوال يقول: ((إنّ الذي يتسلق الجبال بمفرده سوف يحمل صورتي عالياً نحو النور المشرق

الساطع)). (((الآن، هذا هو **طريقي** فأين طريقك؟) سوف أجيب أولئك الذين لا يكفون عن سّؤالي عن (الطريق)، يجب أن تعلموا ليس هناك شيء اسمه طريق!)). كان نيتشه يطمح في استقلال و حرية الآخر: ((لا أتناغم أو انسجم إلاّ مع هؤلاء الذين يمتلكون مثالهم الخاص بهم – أولئك الذين لا يقتدون بي أو يتبعون خطواتي و يقلدوها؛ و بهذا المعنى، أن تكون مسؤولاً عن الآخرين هو أن تصبح عبداً لهم)).

إذن، كان نيتشه لا يتوقف عن القول: ((أريد أن أثير مشاعر الارتياب و الشك الكبيرة ضِدّي)). ((إنّ من طبائع إنسانية السيد أن يحذر مريديه و تلامذته من نفسه)). يودع زرادشت تلامذته بالكلمات الآتية: أذهبوا بعيداً عني و أحرسوا أنفسكم من زرادشت. وضع نيتشه نبرات التشديد على هذه الكلمات أيضاً بواسطة تكرارها في نصّه ((هو ذا الإنسان)) – مع بعض الإضافات: ((هنا، لا يتحدث التعصب، لا أحد يعظ أو ينصح، و لا حاجة بنا إلى الإيمان)).

يعد ظهور نيتشه بمظهر المشرع واحد من طرق وجوده المهمة غير المباشرة. هذا يعني: أنا أمثل القانون فقط لأولئك الذين يخصوني و يعودون إلي؛ أنا ليس قانوناً لأيّ أحد – هذا يعني أيضاً المقاومة و الشجاعة التي تمكن الشخص الذي يخص و يعود إلى نيتشه حقاً من أن يعثر على نفسه: ((ينبغي ألّا أفرط أو أعطي الآخر الحق الذي اكتسبته بنفسي؛ على العكس، عليه أن يكسب الحقوق بنفسه – كما فعلت – أنا بالقوة، فالحقوق يا سادة فتوحات. إذا كان من الضرورة لي نشر القانون و أذاعته على الملأ، و جعل الآخرين يحاكوني و يحتذوني بي، فإني أفعل ذلك فقط بغرض و بدافع تمكين الفرد من أن يكشف النقاب عن نفسه و ذاته و يقوي منها بفضل التناقض و العمل بالضِدّ مع هذا القانون)).

و انسجاماً مع هذا الموقف، لا يرغب نيتشه أن يحكم و يسود و لا يريد أن يتم تمجيده. ((ما الحكم؟ هل هو فرض نموذجي على الآخرين؛ إنّه أمر شنيع و رهيب و مروع و قبيح! أليس سعادتي قائمة بدقة على التحديق بكثب و النظر إلى الآخرين؟)). و أخيراً: ((أنا ليس مؤسساً أو مُنشّي دين جديد. لا أريد ((مؤمنون))، كما يبدو لي شيء كريه أن أومن في نفسي. أنا مطلقا لا أتحدث إلى القطيع... كما أخشى بصورة رهيبة أن يتم تمجيدي في يوم ما من قِبلهم. يؤدي هذا الكتاب وظيفة العلاج الوقائي بالضِدّ من كل أذى و شر يرتكب على نحو رديء بحقي)).

هدف نيتشه من التواصل مع الآخرين.ـــ ما الذي يهدف إليه نيتشه حقاً من هذا الصراع بين التصريحات النبوئية و رفض الاتباع العميان، بين المعلم و محطم التماثيل و المعتقدات البالية – ما الذي يبغي من التفاعل و الصراع بين الأقوال التي يلغي بعضها الآخر بينما تظل مع ذلك تحتفظ بقوة مهاجمة النُّقَط المركزية للأشياء و قلبها؟ ما الذي يحل محل مؤسس الدين و يستبدل وظيفته له؟ و ما الذي يتمنى أنّ يحدث للآخرين؟ يمكن أن نعثر على إشارة للجواب عن هذه الأسئلة في مسودة أو مخطط لنيتشه تحت عنوان ((عبقرية القلب)). ((إنّ عبقرية القلب،... الذي بمقدور صوته أن يصل إلى أعماق كل نفس، و براعته و مهارته التي تجعله قادراً على تقديمها إلى اتباعه هي إلزام مضاف كي يقتفوا خطواته بعمق و بكمال أكثر: عبقرية القلب تخرس كل تلك الأصوات العالية النشاز، و تفضح الرضا و السعادة الزائفة – التي لم يساور المرء مع ذلك الشك بكلّ ما تخبي تحت ثيابها و مظاهرها من هموم و غم و استسلام – و تعلم فن الإصغاء و تصقل النفوس الخشنة الفظة القاسية و تجعلها تتذوق طعم رغبات جديدة – تسترخي بهدوء كالمرآة التي تظهر زرقة السماء العميقة و تشعر بقربها أنك مجبر على التفكير بما هو نبيل؛ عبقرية القلب تتنبأ و تتكهن بسعادة الكنوز المدفونة و المنسية تحت الثلوج الكثيفة، أنّها الصولجان المقدس لكل حبات الذهب؛ ... تجعل لمسات عبقرية قلب كلّ واحد يحلق عالياً و بعيداً و أكثر غنى في داخله، ... ينطلق بقوة تداعبها الرياح الدافئة، يبدو ربما أقّل يقيناً بيد أنّ روحه مفعمة بالآمال التي ليس لها أسماء بعد، مُمتِلِئ بالإرادة الجديدة)).

هل عثر نيتشه على نوع القراء الذي كان يبحث عنهم و يأخذهم نصب عينه و على محمل الجدّ؟ ـــ حينما كان شاباً يافعاً، كان نيتشه مازال لدية الثقة التامة – على الرغم أنه يعرف يمكن أن ينخدع إذا افرط المرء بالثقة في شيء ما – **بالجيل الشاب**: ((أعرف أولئك الشباب، الذين يملأهم الأمل، سوف يفهمون كلّ هذه التعميمات و الكليّات التي يصطدمون بها و يستخدمون تجاربهم الحميمة بطريقة نافعة و يترجمونها على هيئة مذهب يظهر المدلول و المعنى الشخصي)). لكنه يمني النفس أو يتمنى على الأقّل في القريب العاجل أن يحذر الشباب المفرطين في أبدى حماسة منقطعة النظير، ((أصحاب القناعات المتعطشة و التواقة في ألّا يأخذوا مذاهبه الفكرية قاصداً كخطوط دالة للحياة – بل حَريّ بهم أن يتفكروا ملياً، بل ينبغي حتى إن يتم التفكير و إطالة النظر فيها...)) هنا نحن إزاء واقعة ملفتة للنظر: في النهاية، يصبح

الشباب المعجبون بكتابات نيتشه عبئاً عليه، لأن ((هذه الكتابات بوضوح ليست مُعدة للشباب)). (من رسالة إلى صديقه أوفربيك، 13 أيار، 1887)

و لكن، و نتيجة لشعور خيبة الأمل الذي لم يفارقه قط،كان نيتشه يبحث عن **رفقة**: كانت كتاباته، طبقاً لرسم استراتيجية النُصوص، بمنزلة صنارة الصيد الذي يمسك و يصطاد فيها الأشخاص الملائمين و المناسبين. غير أن هؤلاء القراء لم يعثر عليهم نيتشه. رفض نيتشه كل التسويات و الحلول الوسطى و تابع عملية كشف النقاب عن كل الذرائع و الادِّعاءات الجوفاء، كما أنّه ظل متمسكا بتأويله للحقيقة – و بذلك، وجد نفسه، مع مرور الزمن، مهملاً و منبوذاً أكثر فأكثر. و حين كان يبحث بشغف، أعلن نيتشه بتروي عن المقاييس التي تجعله حصراً مفهوما في عصره.

لقد حاز نيتشه – الذي كان يطبق مقولة المرء يتكلم ليكون مفهوماً – على الشهرة التي كان يتنبأ بها، لكنه لم يجرب أو يعيش إلاّ بداياتها الأولى. هل فهم الناس نيتشه كما كان يريد و يُمني النفس؟ نحن في موقع لا يؤهلنا الإجابة عن هذا السّؤال بالإيجاب أو السلب الواضح. تكمن **مهمتنا** في أن نكون أنفسنا بواسطة فهم نيتشه. بدلاً من الاستسلام و الخضوع إلى إغراء الحصول على مذاهب واضحة لا لبس فيها و قوانين تعمل كأدلة على صحتها و شرعيتها، ينبغي لكلّ واحد منا أن يستجيب إلى هذا التحدي، أن يحصل على أعلى درجات التي يمكن أن يبلغها في تحقيق وجوده الشخصي بفضل نيتشه. يقتضي الأمر منا ألّا لا نخضع أنفسنا لسلطة المبادئ المبسطة و صيغ الأوامر الإلزامية الملحة – بل أن نعثر بواسطة نيتشه على طريق البساطة الأصيلة للحقيقة و اقتفاءه.

الكتاب الأول

حياة نيتشه

حياة نيتشه

لمحات عامة

بما أنّ دراسة تفكير نيتشه – القائمة على حقيقة كلّ شيء مختلف و متنوع يعود أخيراً و يتحول إلى التناسق – يمكن أن تفضي بنا إلى فهم حقيقي فقط حين يصاحبها وعي واضح لمسار حياته، ينبغي أن نذكر بإيجاز البعض من المحطات المهمة و المؤثرة في حياته التي أحدثت قطائع معرفية كبيرة في مساره الفلسفي [4].

المسار الخارجي لحياة نيتشه.ــ[5] ولِدَ فريدريك نيتشه في روكن و هي مقاطعة بروسية بألمانيا في الخامس عشر من تشرين الأول عام (1844). كان أبوه قسيسا بروتستانتياً و ابن قس بروتستانتي كما كانت أمه هي الأخرى ابنة قس بروتستانتي. حين بلغ الخامسة من عمره توفي والده، فانتقلت أمّه و شقيقته إلى مدينة ناومْبورغ – و هناك قضى نيتشه أكثر من عامين من طفولته مع شقيقته – التي هي ككل النساء مليئة بالتناقضات و لكنها على حق – حيث كان أيضاً محاطاً بالعديد من النساء، مجتمع الكائنات الوديعة المرحة التي يوحي مظهرها بالألفة، من أقاربه. و حين بلغ سن العاشرة، التحق نيتشه في مدرسة النحو في ناومْبورغ. و في عام (1858) حين بلغ سن الرابعة عشرة، حصل على منحة دراسية (*Freistelle*) (تتضمن تغطية الرسوم الدراسية و العيش و الإقامة) في مدرسة شولبفورتا، المؤسسة التعليمية الجليلة المشهورة بأساتذتها الضالعين على نحو استثنائي في مجال الإنسانيات. في عام (1864)، حين بلغ سن العشرين، التحق نيتشه في جامعة بون و بدأ هناك بدراسة موضوعي اللاهوت و الفيلولوجيا [فقة اللغة الكلاسيكي] على مدار فصلين دراسيين، حيث انضمَّ في نفس الوقت أيضاً إلى جمعية **أخوان فرانكونيا** (*Burschenschaft*)، بيد أنّ نيتشه قطع صلته بتلك الجمعية بعد عام (1865) حين وجد أن مبادئ هذه الجمعية لا تتفق مع طموحاته و مثله و الصورة التي كان يحملها عنها. عقد نيتشه العزم على الانتقال مع أستاذه ريتْشْل، من جامعة بون إلى لايبزك، حين غدا مع زميله أروين روده – الذي كان يريد منه أن يكون أو يجد فيه رفيقاً يكسبه أفكاره أو مناظراً يشاطره الحديث – من ألمع التلاميذ و الأساتذة من بعد في ميدان الفيلولوجّيا. هناك أرسى نيتشه دعائم مجتمعه الفلسفي، و نشرَ الدراسات الفلسفية، بل حتى قبل أن يكمل دراسته و ينال شهادة التخرج الجامعية عُرضت عليه وظيفة أستاذ في جامعة بازل بتوصية و تزكية من أستاذه ريتْشْل الذي كتب إلى المعنيين في بازل قائلا: ((من بين العقول الشابة التي نمت أمام عيني خلال تسعة و ثلاثين عاما، لم أعرف قطاً شاباً مثل نيتشه... يصل إلى مرحلة النضج بسرعة كبيرة و في عمر مبكر... أنني أتنبأ له إذا عاش الرجل عمراً طويلاً، و أدعو الله أن يمنحه ذلك، أنّه سيحتل و يتبوأ في النهاية المكانة الأولى بين الفيلولوجيين الألمان. إنّهُ الآن في الرابعة و العشرين من عمره، و هو قوي، نشيط، يتمتع بصحة جيدة، و شجاع في جسده و روحه.... وهو معبود عالم الفيلولوجّيا الشبان برمته هنا في مدينة لايبزك. سوف تقولون أنك تصف معجزة من المعجزات. أجل إنّها معجزة فعلاً – الله يهبط من السماء في معجزة – و هو في نفس الوقت ودود و متواضع.... و سوف يحقق أيّ شيئاً يهديه إليه عقله))[6].

أصبح نيتشه، في العقدين القادمين، قبل أن تنتابه نوبات الجنون الحادّة (1879-1869)، **أستاذاً** في جامعة بازل: و أصبح حاله حال ج. بوركهارت يدرس لمدة ست ساعات في المعهد التربوي/ البيداغوجي هناك. فتحت البيوتات الخاصَّة للعوائل الراقية هناك أبوابها لاستقبال نيتشه، و قد أقام إلى حد ما صداقات و نشأت له بعض العلاقات الحميمة الوثيقة ببعض الأساتذة الكبار في الجامعة من أمثال بوركهارت، باخوفين، هيوسلر و روتايملر. كما نشأت عَلاقة وثيقة بين نيتشه و أوفربيك، الصديق الذي كان يشاركه السكن معاً. و لكن من بين هذه العلاقات الاجتماعية المتعددة بالناس الذي تشد بعضها إلى البعض، كانت سلسلة الزيارات المتبادلة لنيتشه مع ريتشارد و كوزيما فاغنر(1869-1872) في مدينة تربشن قرب لوسيرن مؤثرة و عالقة في ذهنه، و ظل يحتفظ بذكرها طوال حياته حتى مماته. بعد ظهور كتابه ((ميلاد التراجيديا)) – أخطر وثيقة للدلالة الأخلاقية الغربية – عام (1872)، تّم إبعاد نيتشه عن الدوائر الفيلولوجّية و تّم إعطاء ويلاموتيز، بدلًا عنه، حق الأولوية و الصدارة في هذا الميدان. و بذلك، ابتدأ تلاميذ الفيلولوجّيا في بازل يبتعدون عنه و حتى يصدونه. في عام 1873، بدأت نوبات الدوار و الصداع الشديد تنتابه بقوة لدرجة أجبرته عن طلب إجازة من العمل للعام الدراسي (1877-1876)، قضى معظمها في سورينتو مع بول. ريّ في منزل السيدة ماليفدا فون ميزنبيك. في عام (1879)، أُجبر نيتشه في سن الخامسة و الثلاثين من عمره على تقديم استقالته من وظيفته في الجامعة بسبب اشتداد وَطاءة نوبات المرض عليه.

خلال العقد الثاني (1889-1879)، لم يتوقف نيتشه – الذي أحب الجغرافية، يقيناً أنّ تكون غريزة التشرد مختفية وراء هذا الحب – عن السفر و التنقل من مدينة إلى مدينة أخرى، بحثاً عن المكان الجميل الذي يسوده الهدوء و الطمَأنينة القصوى، الذي يخفف عنه معاناة المصائب و المحن المؤلمة التي ألمت به. لم يمكث نيتشه في مكان واحد أكثر من بضعة أشهر طبقاً للتغيرات الموسمية و المناخ. لكن أغلب إقامته كانت في أنجادين و في الريفيرا، و أحياناً في فينا و أخيرا في مدينة تورين. و فيما كان يقضي في أحيان كثيرة فصل الشتاء في مدينة نيس كان يمضي فصل الصيف في سيلس- ماريا. و كشخص هارب و هائم على وجهه، كان نيتشه يعيش على وسائل متواضعة جداً و يسكن في فنادق ذات غرف بسيطة و عادية، يتجول و يطوف في الصباح في المناطق الريفية يغطي عيونه الضعيفة قناع أو حاجب الشمس الأخضر ليقيها من شدة أشعة الشمس و الحر – و كان هذا التطواف يتيح له الاتصال بجميع أنواع المسافرين.

و بينما أحدثت منشوراته و كتبه الأولى – على سبيل المثال، ((ميلاد التراجيديا)) و الجزء الأول من ((تأملات لا موسمية)) (ضِدّ ستراوس) – ضجة في الأوساط الفلسفية، و كانت أما أن تقابل بالمواقف الحماسية و المبتهجة أو بالرفض و الاستهجان؛ بائت كتاباته اللاحقة بالفشل و الإخفاق و كانت غير موفقة و ناجحة. كانت كتب الشذرات و النُبْذات، بسداها و لحمتها، على سبيل المثال، بالكاد تُباع في المكتبات و الناس لا يأخذون هذه الصيغة من الكتابة على محمل الجدّ، و قد غرق نيتشه في غياهب النسيان. فقد اقتضت بعض الظروف الخاصه منه أن يدخل في مفاوضات مرهقة للأعصاب مع الناشرين، ما حدا به أن ينشر أعماله أخيراً على حسابه الخاص تَفَادَياً لذلك. يمكن القول أنّه فقط و خلال الأشهر الأخيرة من حالة الصفاء و الحضور الذهني و الوعي الواضح لديه بدأ نيتشه يدرك و يلاحظ العلامات الأولى لبداية الحصول على الشهرة أو جني ثمار الشهرة، بفضل جهوده الجبارة و المضنية، التي كان لا يساروه أدنى الشك في الحصول عليها عاجلا أو أجلا.

بعد التوقف عن العمل الأكاديميّ في الجامعة و الذي أصاب منه تأهيلا مميزا، و العيش بعيداً عن هذا العالم، و تكريس نفسه تماماً إلى مهمته الرئيسة و الحقيقية الكتابة، التي أبلى بها لاحقاً بلاء حسنا، بدأ نيتشه بتجديد الصلة مع الواقع الموضوعي حيث بدأت صحته بالتحسن. في عام (1883)، بدأ نيتشه بالتفكير في إلقاء محاضرات في جامعة لايبزغ، و لكن الأجواء الأكاديميّة السائدة في هذه الجامعة كانت تجعل من مهمة نيتشه أشبه مستحيلة، و ذلك بسبب المضامين غير المألوفة لأفكاره و كتاباته التي تثير الشكوك و الذهول، حيث بدأ نتيجة لذلك نشوء إحساس يجثم على صدره و يقبض على قلبه و يخنقه خنقا. ظل نيتشه بعيداً عن العالم، و بدأت توتراته النفسية بالازدياد سوءا، نتيجة لانقطاعه عن الآخرين و تكريس جهوده للكتابة فقط.

في كانون الثاني من عام (1889)، و حين بلغ نيتشه الخامسة و الأربعين من عمره، تسببت حالة الاضطرابات العضوية في الدِّماغ بانهيار حالته الصحية، و في عام (1900) غيب الموت نيتشه واضعا حَدّ لسلسلة طويلة من نوبات الألَم – هذا الآلم القريب إلى الحدّ لا يمكن معه أن يتأمله المرء تأملاً مباشراً – و المرض الذي كان يعانيه. بلغت النهاية، فعل ما يستطيع فعله كفرد في موقعه، لقد أصبح الحال له تكراراً دائماً و تمريناً فارغاً و شكلاً يعوزه الإيمان أحياناً، و لقد حان الوقت ليكف عن العمل و يرحل.

عالم نيتشه.ـــ تشكلت صورة العالم الذي كان يتحرك فيه نيتشه، و يلاحظ و يفكر، و يعبر عن مكنوناته – خلال مدّة شبابه – عن طريق مصادر الثقافة الألمانية الراقية الخالصة المتنوعة بمدارسها الفكرية ذات النزعات الإنسانية، و شعرائها، و تراثها ذات التقاليد الوطنية الصرفة.

قرر نيتشه تبني دراسة الفيلولوجّيا الكلاسيكية [فقة اللغة الكلاسيكي]. لم تقتصر دراسة الفيلولوجّيا على تزويد نيتشه، طوال حياته، بأفكار كبيرة و عظيمة عن العصور القديمة، و لكن قادته أيضاً إلى عقد لقاءات مهمة و محظوظة مع العديد من الشخصيات المهمة حين كان مازال تلميذاً يتمتع بقدرة الباحث المحترف الحقيقية. كانت محاضرات أستاذه ريتْشْل في الفيلولوجيا تتوفر على تقنيات فريدة و استثنائية في التأويل الفلسفي؛ و كان الكثير من الشخصيات من غير الفيلولوجّيين، و بضمنهم عدد كبير من رجال الطب، يشاطروه بحماسة مفرطة رغبة تعلم هذا ((المنهج)). كان هناك في القدرات و المهارات و المواقف التي يعززها منهج ريتْشْل – منهج الأسئلة و التصويبات – في الفيلولوجّيا شيء ما أساسي تتقاسمه كلّ العلوم: فن التميز و الفصل ما بين الحقيقي و الزائف، الواقعي عن الخيالي، المعرفة البرهانية عن مجرد الآراء الخطابية، اليقين الموضوعي عن القناعات الشخصية. بوسع المرء أن يصل إلى تصور واضح عن طبيعة المعرفة العلمية عن طريق تركيز الانتباه على العنصر المشترك بين هذه العلوم. غدا نيتشه هنا واعيا تماما للطبيعة الأساسيّة لعمل المحقق العلمي في هذا الاختصاص: الاستقامة، الاعتدال، الموقف النقدي المتواصل ضِدّ تفكيره، عاطفته البسيطة و الصادقة.

يصرح نيتشه أنّ الدوافع و البواعث **البيداغوجية** [التربوية] لا تتحقق إلاّ بطريقة ضئيلة و ناقصة قليلة الحظ. لقد أنجز نيتشه مهامه كأُستاذ في الجامعة، و واجباته كمعلم يمارس و يضطلع بدوره في المؤسَّسات التعليمية و التربوية، بحرفية عالية و بضمير حي صادق و لكن أيضاً مع كراهيَة متنامية لما كان يقوم به[7]. خلال عقد من الزمن، وفي أثناء عمله كأُستاذ في الجامعة، عاش نيتشه، حياته الأكثر تقلبا، حالة من التوتر و الضغط النفسي و السعي المتواصل الدؤوب، بينما يحاول أن ينجز واجباته الأكاديمية الصارمة، لغرض الحفاظ على أكبر قدر من الطاقة لتكريسها لبوادر دعوة جديدة غير محددة المعالم بعد تجذبه و تثير انتباهه.

ما بين عامي (1868-1867) خدم نيتشه كفارس في **سلاح المدفعية** في ناومْبورغ، غير أنّ خدمته انتهت قبل سابق أوانها على خلفية تعرضه إلى حادث شديد الْخَطَر و هو يحاول القفز من

حصانه، عانى نيتشه أثر ذلك جرح متقيح بالغ الأثر و مضاعفات مرض أقعده عدة أشهر في الفراش. خلال الحرب الألمانية-الفرنسية عام (1867)، تطوع نيتشه **كممرض،** حيث لم يسمح إخلاصه للدولة المحايدة التي عمل فيها كأُستاذ أن يخدم كمقاتل. في أثناء ذلك أُصيب بالدوسنتريا، و قد رجع على أثر ذلك، حتى قبل نهاية الحرب، إلى وظيفته كأُستاذ.

تركت تَجْرِبة العيش خارج ألمانيا منذ سن الخامسة و العشرين حتى مماته – أعني، لأكثر من عشرين عاماً بطولها كان يرى ألمانيا من الخارج بعيداً بعيون مختلفة – أثراً بالغاً على نيتشه، الذي كان يريد أن يروي تاريخ مكان لا تاريخ شخص و خلقت رؤيا عميقة مختلفة في نظرته إلى العالم. فموقع الملاحظ من الخارج، مكنَ نيتشه (كما كان يفعل بالعادة في ألمانيا و في الخارج) من أن يشحذ نظرته النقدية و يجعلها أكثر حدة و وضوح و عمق للقبض على ما شائع و مألوف و عادي، و لاسيَّما في المدّة الأخيرة من حياته حين واجه بوضوح خطر استئصال جذوره الألمانية بسبب سفره المتواصل خارج بلاده. يعمل التغير الذي يجلبه السفر باستمرار على تجديد بواعث الإحساس و الإدراك، و يجعل المرء يميل للعيش ضمن أفق واسع يشمل الحصول على ما هو جوهر حقيقي و يضاعف من حب أو كراهيَة المرء إلى وطنه بما أنّ المشاعر نحو الوطن عند الإنسان البسيط الحساس تتضخم و تقُوَى عند الغربة، البعد و العزلة.

و نتيجة لنفوره و ابتعاده و انقطاعه عن العالم، عمله، و رفاقه و نشاطه التربوي و الأكاديمي، غدا لزاماً على نيتشه أن يبحث عن تَجارِب جديدة في برنامَج **القراءة** الذي وضعه لنفسه، و كان يغطي و يشمل في الواقع موضوعات واسعة و عدةّ، مع أنّ عدد الكتب التي ينوي قراءتها كان يجب أن يكون محدوداً و ذلك بسبب ضعف نظره. مع أنّنا نعلم جيداً قائمة الكتب التي استعارها نيتشه من مكتبة بازل ما بين الأعوام (1869-1879)، كما نعرف أيضاً معظم الكتب التي تحتويها مكتبته الشخصية[8]، إلاّ أننا لسنا في الموقع الذي يؤهلنا للجزم من أنه قد أطلع عليها كلها، مع أنّ العديد منها قد امتدت يده إليها أو مرت بين يديه و أثَارة انتباهه. كان هناك كلّ أسبوع قائمة جديدة من الكتب يتم أرسالها إليه (من رسالة إلى صديقه أوفربيك، 11 نيسان،1880)، و كانت له دائماً خطط للمكوث طويلاً في المدن الكبيرة التي تحتوي مكتبات كبيرة (من رسالة إلى صديقه أوفربيك، 2 أيار ، 1884 و 17 أيلول،1887)، غير أنّه لم يتحقق أيّ شيء يذكر و ظلت مجرد خطط لم ترقَ إلى التطبيق.

من الواضح أن نيتشه، الذي قرأ النصّ البدائي للعلاقات الإنسانية بكلّ نشاطاته السِرّية و إجَراءِاته التي شرعت بالخطو إلى الأمام، كان لا يريد بسبب اهتمامه بدراسة الفيلولوجيا، أن يهمل قراءة عدد كبير من الكتب المهمة التي تتعاطى مع العلوم الطبيعية و الأثنوغرافيا و التي تحتوي على حقائق ملموسة و مهمة. لقد حفزت القراءة السريعة لهذه النُصوص ربما نيتشه لحيازة بعض الحقائق المهمة و الاطلاع عليها، غير أنّها غالبا ما كانت أقّل أهمية في قيمتها المعرفية من المستوى الذي كان نيتشه يتطلع إليه – و كانت تمثل ببساطة مجرد بديل للاطلاع المباشر على المصادر الأصلية الأولية للمعارف الواقعية المهمة التي تعود إلى العلوم البيولوجية و الطبيعية.

تعد مِيزة اكتشاف الأمور الكبيرة، و الطرق المستحدثة في التفكير و الاتصال بالتاريخ، مع خلال قراءة قصيرة نسبياً، سمة مدهشة جداً عند نيتشه. لقد كان يفهم الأمور الأساسيّة في النصّ الذي يقراه و يمسك بكنهها بشكل مباشر و من القراءة الأولى فحسب. فحين يقرأ النصّ، يتصور نيتشه و يتخيل كاتب النصّ، و يشعر حدسيا بماذا يفكر، و لماذا يكتب، و ما يريد أن يقوله، و يصل من ثم إلى اكتشاف الأهداف الوجودية من وراء كتابة نصّه. لم يكن نيتشه واعيا فحسب في موضوع الكتاب الذي يقراه ، بل كان يدرك طبيعة و جوهر التفكير و الفكرة الرئيسة التي تحرك موضوعه بحرفية عالية.

غالبا، ما تمر الكلمات و الأفكار من المادة المعرفية للنص المقروء دون وسائط إلى ذهن نيتشه و تستقر فيه؛ الحقيقة التي تعد أقّل أهمية بالنسبة إلى مقاصد عملية التفلسف عنده بالقياس إلى الأصل الحقيقي لوسائل التعبير لدية. فمصطلح ((السوبرمان)) – الذي يعني أن يتسلق الإنسان القمة للوصول إلى العظمة – يؤكد، بالمناسبة، أن الجريمة جزء من العظمة (الذين سبروا نفس الإنسان و أغوراها واعون بهذه الحقيقة. كلّ رجلاً عظيماً يعرف خطر التموقع خارج القانون)، التراث، أو الوعي، أو الواجب: أنّهُ يريد الهدف العظيم و وسيلة بلوغه – لكنه يدرك أن هذه العظمة ليس لها وجه — الذي يمكن أن نعثر عليه عند جوته، و مصطلح ((الثقافة القديمة غير المستنيرة)) (***Bildungsphilister***) عند هايمان ليس أكثر جوهرية من تعبيرات ((ألمنظورية)) و ((التفسخ)) عند بويركيت و من وجهة نظره. تعد قابلية التأثر و الاستلام – التلقائية، التأثر المباشر، امتصاص و استيعاب كلّ شيء – أمر أساسي لا مفر أو مهرب منه للعمل الإبداعي عند نيتشه.

كان نيتشه، الذي يريد أن يبني جزيرة فوق الهاوية، يمارس **التفلسف** منذ نعومة أظفاره. غدا شوبنهور فيما بعد بالنسبة إلى نيتشه الشاب الفيلسوف المثال الذي يقتدى به؛ بينما ساعد ف. أ. لانكا، شبير، تايشولر، دوغينك، و أي. ف. هارتمان نيتشه لفهم العدة الفلسفية للمفاهيم التراثية و مخزونها ذي الأبعاد الكونية. بالنسبة للفلاسفة الكبار، أطلع نيتشه و قرأ أفلاطون بعناية فائقة، و كفيلولوجي معني بالتفاصيل ((شعر بالفزع الكبير حين أدرك **حجم جهله و قلة** معرفته بهذا الفيلسوف المهم)). (من رسالة إلى صديقه أوفربيك، 22 اكتوبر، 1883). لم تنبثق حالة التفلسف عند نيتشه و تتطور من جَراءِ الاطلاع على أعمال هؤلاء المفكرين المذكورين آنفا و تكمن وظيفتهم التي يحتاج إليها الناس في تنقية منابع العالم كلها؛ بل لقد طور تأملاته و حاسته الفلسفية بفعل الاطلاع على العالم الإغريقي لمرحلة ما قبل سقراط: أيّ فلاسفة الطبيعيين الإغريق – الفلاسفة الحقيقيون الذين يعيشون بعيداً عن الشعب و عاداته، يتوقعون قبل الحكماء كل التصورات الكبرى للأشياء. هم أنفسهم تجسيدا لهذه التصورات، يتحولون هم أنفسهم إلى أنظمة – ما قبل سقراط، أولئك الأطفال الرهيبون الرائعون ذو القلوب المقدامة الذين قطعوا شوط بعيد بهذا الاتجاه – على سبيل المثال و قبل الكلّ، الشاعر الإغريقي ثيوكنس، ثم شعراء التراجيديا الكبار، في أصلب عصورهم و أشدها إقداماً، و أخيراً المؤرخ و الجنرال ثيوسيديز، الذي كلامه دائماً يستعرض من مواقع معينة. أما اطلاعه على كاتب سير الفلاسفة الإغريق ديوجين لارتيوس ، فقد جاء نتيجة لاهتمامته الفيلولوجية، و قد زوده بفكرة وافية عن تاريخ الفلسفة. لم يقرا نيتشه إطلاقاً الفلاسفة الكبار بعناية كبيرة، و لم يطلع عليهم بواسطة مصادرهم الأولية، و قد اعتمد في الغالب في قراءته لهم على المصادر الثانوية، مع ذلك كان قادراً على النفاذ بعمق داخل أفكارهم الرئيسية الفلسفية و الذَّهاب بعيداً خلف القشور الجافة و السطوح الخشنة و الطبيعة الصعبة لهذه الأفكار التي وصلت إليه عن طريق التراث الفلسفي الغربي. مدفوعا بطبيعته الجسورة الباسلة، أصبح نيتشه، عاما بعد عام، أكثر حسما و دَقَّة في القبض على المشكلات الفلسفية الحقيقية.

و نتيجة لطريقته الاستثنائيَّة في التفلسف، أثار الشعراء الكبار، و الشعريات المطروحة لهم و التي من أجل التأثير الأخلاقي تساوي بين الموسيقى و الحياة، اهتمام نيتشه بقدر ما تأثر أيضاً، بهؤلاء الذين نطلق عليهم بالمعنى الدقيق، بالفلاسفة. خلال مدّة شبابه، تاثر نيتشه كثيراً بالشاعر فريدريك هولدرلين، و لاسيَّما روايته ((هايبرون)) (المكتوبة على شكل رسائل) و دراما ((موت أمبادوقليس)) (غير المنجزة)، كما تأثر لاحقاً بالدراما الشعرية ((مانفريد)) للورد جورج بايرون،

الدراما الحساسة جداً و في غاية الروعة و التناقض بحيث تثبُت لا يمكن أن تجري حوادثها بلا مغزى و لا معنى. و خلال السنين الأخيرة من حياته، وقع نيتشه تحت تأثير الكاتِب الروسي فيودور دوستويفسكي.

بيد أنّ تأثره في الموسيقى – بوصفها فن مستقل لا مجرد تعبير لعالم الظاهرات كما هي الفنون الأخرى، بل لغة الإرادة نفسها و وحيها الأكثر تعبيراً حين تتكلم من الأعماق – ربما كان أكثر عمقا و أكثر مصيرية و منذراً بالكثير من السوء المميت لاحقاً. لا يوجد هناك فيلسوف تأثر في الموسيقى – الذي لا يريد أن يحصرها في التعبير عن الطمَأنينة – و اصطبغت أفكاره بها و كان يراها غامرة بشكلٍ عاطفي ساحق كنيتشه. حتى حينما كان صبياً يافعاً كان نيتشه مولعاً بالموسيقى متأثرا جداً فيها. و خلال مدّة شبابه، عقد العزم على أن يكرس حياته لفهم موسيقى ريتشارد فاغنر، الذي كان مرتبطاً و متعلقاً به دون قيد أو شرط، و قد اعترف بذلك لاحقاً: ((في النهاية، أنا موسيقي عجوز لا يعثر على عزائه إلاّ في النغمات)) (من رسالة إلى صديقه جاست، 22 حزيران، 1887). و في عام (1888)، غدا ارتباطه بها أكثر قوة: ((الموسيقى الآن تجعلني أعيش تَجارب لم أعهدها فعلا من قبل. تجعلني أشعر بالاتزان و الوقور، و تحررني من قيود نفسي... فبفعلها و تأثيرها أشعر بالقوة. كل أمسية موسيقية يتبعها صباح مفعم و مُمتلِئ بالأفكار و الرؤى الحاسمة... الحياة بلا موسيقى ببساطة خطأ فادح، معاناة، بلاء، منفى و اغتراب)) (من رسالة إلى صديقه جاست، 15 كانون الثاني، 1888). بالنسبة لي لا شيء تحت الشمس أكثر أهمية من قدر الموسيقى – التي تعتمد على الانسجام بين السماء و الأرض و على التوافق بين الظلام و النور – و مصيرها. و لكن لاحظت أن كلّ جهد الموسيقى الحديثة ينحصر في جعل بعض ((الاكورات)) التي كنا نعّدها غير منسجمة محتملة و لطيفة أيضاً. (من رسالة إلى صديقه جاست، 21 آذار،1888).

و لكن بشغف و عاطفة متساوية، ابتعد نيتشه عن الموسيقى و عن هؤلاء الموسيقين التافهين أبواق الواقع الذين أصواتهم لا تندو مفهومة كما يجب من الأعماق و كان ما انفكّ يردد لماذا تريدني أن أعجب بما يكدرني. ففي عام (1886)، كتب نيتشه، بطريقة تثير نوع ما الفزع، عن الأفكار و الظنون الذي بدأت تنتابه حول الموسيقى بعد عام (1876): ((بدأت بشكلٍ ملحوظ التوقف عن الاستماع إلى الموسيقى الرومانتيكية على مبدأ أنها غامضة، ملتبسة، رنانة و خانقة. إنّها متقد شهواني يسلب الروح كل قواها و بهجتها، و يعمل على نشر كل أنواع التوق الغامضة و الشهوات

المتضخمة. حذاري من الاستماع إلى (كهف الموسيقى)، هذه نصيحتي إلى يومنا هذا لأولئك الذين يصرون بقوة على أمور طهارة الروح)). فيما يتعلق بأحكام نيتشه عن الموسيقى، فإنها تتوافق مع نَّظْرَة التراث الفلسفي القديم و مخزوناتها ذي الأبعاد المترامية المضادة و الكارهة للموسيقى. ((لا تمتلك الموسيقى أصوات كي تعبر عن جذل و نشوة و طرب الروح: ففي محاولات التعبير عن الحالات النفسية لشخصيات مثل فاوست، هاملت و مانفريد تم حذف و إسقاط الروح في محاولات كُتّاب هذه الأعمال، و أقتصر الأمر على التعبير عن الحالات العاطفية فقط)). هنا ((يقف الشاعر في مكان أعلى من الموسيقي، لأن في انجذابه و احتكامه و لجوئه إلى مثال الرجل الكامل، يصبو إلى مطالب ذات سقوف عالية؛ أما المفكر فمازال يصبو إلى مطالب ذات سقوف عالية: بمعنى، أنّهُ يحتاج إلى طاقات و أفكار جديدة، و التركيز بشكلٍ كاملٍ، لا يدعونا إلى المتعة، بل إلى الحرب الذي تقتضي التخلي الكامل عن كل الدوافع و الحوافز التي تدور حول الذات)). كان نيتشه – التي تكون أحياناً أفكاره حشداً مربكاً من المختصرات الدالة على الحركة و الأزمان و سَعَة الجملة و ما على ذلك مما جعل قراءة مثل هذه الأفكار مشكلة عويصة – من أصحاب الرأي الذي يقول: إنّ التطور الخاطئ و المتعصب لعملية الفهم و افتقاد القدرة على ضبط النفس و إبعادها عن الكراهيَة و البغض الشديد و القذف تحدث جزئيا بواسطة عدم الانضباط المعروف بسبب الموسيقى. الموسيقى عمل ((محفوف بالخطر)) يصنعه الموسيقار: ((يستحضر فجورها، فسوقها، و إغواها بميولها و نزعاتها و ولعها بالحالات المسيحية السلبية، الصورة الأحدث و الأنبل للمثال الزهدي...تمشي يداً بيد مع افتقاد العقل للطهارة و الأحلام المشاغبة للقلب)). من جانب آخر، كان نيتشه يرى الموسيقى أيضاً في النهاية تعبيراً سامياً و رفيع المقام في التفكير: ((الموسيقى نُذر و بشائر... شيء مازال بقوة لم يتم الحديث عنه أو التفكير فيه بعد)).

يبدو أنّ نيتشه يعثر على طريق يتيح له الهروب من مواقعه المتناقضة في مقاربته نحو الموسيقى حين يرسم خطاً فاصلاً ما بين [1] **الموسيقى الحقيقية الصادقة** و[2] **الموسيقى الرومانتيكية،** التي يصفها بأنّها خطرة، شهوانية، و مبهجة للحواس و مخادعة. بالنسبة إلى موسيقى ريتشارد فاغنر، كان نيتشه يجعلها في تضاد و تعارض مع نوع الموسيقى التي نعثر عليها في أعمال بيتر جاست: تضاد الدنيا و الفكر هذا الذي يتحول بالنهاية إلى كونشرتو. في بواكير عام (1881) أدرك نيتشه و تبين أنّ جاست هو من بين الموسيقيين الكبار و عدّه بمنزلة ((سيد موسيقي من الطراز الأول و الكبير))، حيث ترتبط موسيقاه كما يعتقد نيتشه بفلسفته (من رسالة إلى صديقه

أوفربيك، 18 مايو،1881)؛ كما أنّ موسيقاه ((تعطي تبريراً و تسويغاً لصوت كلاً من ممارستي و ولادتي الجديدة، و تمحو كل شي بالي و مهترئ من وعيي لإفساح المجال من جديد أمام الأشياء الأصيلة)). (من رسالة إلى أوفربيك، تشرين الأول، 1882). و في اقتفاء أثر هذا الدرب، كان نيتشه يطالب الموسيقى أخيراً في أن تكون في طبعها صافية، نقية، هادئة و عميقة كأمسيات تشرين الجميلة؛ أن تعبر عن الإرادة-الذاتية، حرة غير مقيدة، ناعمة و رقيقة و حلوة كامرأة أو سيدة مليئة باللوم والسحر)). و في هذا الجانب، يشيد نيتشه أيضاً بالعمل الموسيقي ((أوبرا كارمن)) للمؤلف الموسيقي جورج بيز بوصفه نموذج مثالي فريد في الموسيقى – بيد أنّهُ سرعان ما يغيّر رأيه ليقول: ((ينبغي ألّا تُؤخذ أقوالي عن جورج بيز على محمل الجدّ، بما أنني أنا هو أنا، و هناك الآلاف من الأسباب التي تجعلني لا أضعه في خانة الموسيقين الكبار. لكن يبدو لي مع ذلك أنّه أكثر فعالية كنقيض ساخر لفاغنر)). (من رسالة إلى فوكس، 27 كانون الأول، 1888)

إذا تأمل المرء و أطال النظر ملياً في مسألة كيف كان نتيشة مولعاً بشكلٍ غامر و طاغي في الموسيقى، و إذا أخذنا بعين الاعتبار أحكامه حول الموسيقى التي يسودها الشكوك و الريبة – و لاسيَّما الأحكام الخاطئة و لكن الصارمة التي أطلقها بخصوص تقييماته للمؤلفّات الموسيقية لبيتر جاست، و كيف كان يرى هذه المؤلفّات الموسيقية – يكتشف أنّ الموسيقى لا يمكن أن تكون أحد مزايا نيتشه التي يتفوق فيه أو أحد نِقَاطه القوية (يعترف نيتشه أثناء كتابة الحكم اللاحق الموجهة إلى هانس فون بيلو عام (1872): ((إنّ تأملاتك حول الدراما الشعرية ((مانفريد)) هي من أكثر الخيالات و الأوهام إسرافا، و أكثر ضروبها بذخا وبغضا – إنها من أكثر الأحكام المضادة للموسيقى التي سمعتها أذني و وقع عليها نظري لفترة طويلة من الزمن.... هل أن الأمر هنا برمته لا يخرج أو يعدو أن يكون أكثر من مجرد مزحه، و لكن هل كنت تنوي كتابة محاكاة تهكمية ساخرة أو موسيقى ساخرة تنوي أن تطلق عليها اسم موسيقى المستقبل؟... مع أنّ كل هذه الانحرافات، يمكن للمرء أن يشعر في أن خلف نتاج موسيقاك المحمومة هناك روح ممِيزة غير مألوفة....)). تهيمن الموسيقى على الجهاز العصبي لنيتشه و على روحه تماما – بالحقيقة على كل جوهر في وجوده – إلى درجة أنّهُ حصون مكشوفه غير محمي و ليس بوسعه الدفاع عن نفسه حيال تأثيرها. لكن الموسيقى، كما هي بذاتها، تقف في الضِدّ من فلسفته: كُلَّما كان تفكيره أكبر و أعمق فلسفيا كُلَّما قَلّ اهتمامه بالموسيقى و تضاءل. فصلَ تفكير نيتشه نفسه بعنف عن الموسيقى – بل لا نبالغ أن قلنا أنّهُ أنجز معظم متطلباته الفلسفية بواسطة الصراع بالضِدّ منها. ليست العمليات و المناظرات الفكرية

التي تتوفر عليه فلسفته فحسب و لكن حتى التَجارِب الصوفية و الروحية لوجوده أصبحت غير موسيقية فيما بعد و تقف بالضِدّ من الموسيقى.

و في طراز خاص و مميز، و بعيون أخرى مختلفة، توصل نيتشه من قرأته لجملة من الكُتّاب الفرنسيين إلى مادة معرفية فلسفية جديدة، و بعض من الأفكار الفلسفية غير المطروقة سابقاً، التي أغنت عملية التفلسف لدية من مصدر آخر غير الموسيقى. فلوقت ليس بالقصير، كان نيتشه يبدي احتراماً و تقديراً عالياً استثنائيّاً و منقطع النظير، إذا جاز لنا القول، لبعض من الكُتّاب الفرنسيين[9]، من أمثال لاغوشفوكو، فونتينيل، شامفورت، و أكثرهم أهمية، مونتين، باسكال – الذي استخدم الشكوكية الأخلاقية ليثير الحاجة إلى الإيمان و يبرره – و ستندال. أصبح موضوع التحليل السيكولوجي – الموضوع هنا دائما: الصراع بين الحوادث التي يعرضها الواقع و الواقع المثالي – الميدان المهم و الخصب لعملية التفلسف عند نيتشه – ليس بمعنى التحليل التجريبي الذي يتابع مهمته بطريقة ذكر السبب و النتيجة؛ بل بطريقة علم النفس السيوسيولوجي و التاريخي الذي يستخدم منهج الفهم على نطاق واسع. كان نيتشه يريد أن يجعل من تجربته ((عملية عيش طوعي و اختياريّ لكل المواقف التقييمية للماضي و لنقيضها أيضاً على حدّ سواء)). يريد نيتشه من الآخرين، أو زملاء العمل، أن يشاركونه البحث في كلّ ما كان يتصوره و يفكر فيه: يطرح نيتشه الأسئلة الآتية: أين هو تاريخ الحب؟ – إنّهُ من المحزن أنّ يصبح الحب بلية الحياة بدلاً من أن يصنع سعادتها – الجشع، الحسد، الضمير، الشفقة – و التي على المرء أن يكتفي بإظهارها و أنّ يحمي ذاته من الشعور بها – و الوحشية التي تجر ورائها أرثاً طويلاً، تاريخ تطور أشكالها؟ هل أنجزت البحوث كلّ ما يتعلق بالأقسام المتنوعة لليوم، و نتائج تنظيم و ضبط الزمن كي يكون مكرسا بحرفية للعمل، الراحة، و الاحتفال؟ هل تّم تسجيل التَجارِب الحياتية التي يضطلع بها الإنسان في الوجود و العالم معا – على سبيل المثال، طبيعة الحياة في الأديرة و الصومعات – و هل تّم توثيقها؟

ليس هناك لدى نيتشه، الذي كان كثير النفور و لا يريد التغلب على نفوره، أكثر أهمية من أولئك **الرجال العظام** – الاختيار المحفوف بالمخاطر – الذين كانوا لزمنٍ طويلٍ محط تمجيده و إعجابه أو كان يقوم بشيطنتهم. كان نيتشه يرى في جوته، نابليون و هرقليطس، بطريقة واضحة لا لبس فيها و لا يرقي إليها الشك، تجسيداً لمثال العظمة المتحقق على أرض الواقع. كان يرى أيضاً في سقراط، أفلاطون و باسكال – الذي يقول لو لم يخلق العالم لما كان هناك شيء... وجه العالم

يتغيّر و لكن لا يكفي أن أفكر – رجال عظام، بواسطتهم يشتد فكره و يقُوَى ذهنه و تتضح أفكاره و تترسخ عزيمته، لكنهم مع ذلك غامضون للغاية في أطروحاتهم – و بذلك، يجب أن يتم تقييم أفكارهم بطريقة مختلفة معكوسة، تعتمد في المقام الأول على الظروف و الملابسات التي ظهر بها أولئك المفكرون. أما سانت بول و روسو، و الذين قراءتهم كانت كمن يحرره من حمل ثقيل، فقد كانت أفكارهم دائماً مثار جدل و سجال بالنسبة لنيتشه و كان يرفض معظمها؛ و الحال لا يقتصر على هذين الفيلسوفين بل يمتد ليشمل أيضاً أفكار مارتن لوثر الذي كان دائماً ينبذها بشدة. في حين كان كلاً من ثيوسيديز و ماكيفلي محط إعجاب نيتشه للطريقة الواضحة و الشفافة للفهم الذين يطرحون فيها الحقيقة – الذي كان يشعر دائما بأكبر ألم لتحايل عليها – و كذلك عنصر الاستقامة و الاعتدال الذي تتوفر عليه أعمالهم.

لقد بلغ نيتشه – الذي يريدنا أن نغادر الأرض ليس كعبيد ممزقين و مجلودين، بل كسادة ينهضون عن المائدة و هم ليس في حاجة لشيء بعد أن أكلوا و شربوا حتى الإِمْتِلاء – حالة الوعي التاريخي العميق بواسطة إدراكه لصلة بين تفكيره و الطبيعة العميقة لأولئك الفلاسفة الكبار المذكورين آنفاً و الذين يشاركون مشاكله و اهتمامه و يتقاسمون أفكاره في ميدان الروح: ((يكمن فخري و خيلائي في العَلاقة التي تربطني بهؤلاء الرجال العظام... أنّ الحافز و السبب الذي يحرك زرادشت، موسى، محمد، عيسى، أفلاطون، بروتوس، سبينوزا و ميرابو هو الميدان الذي حقاً أعيش فيه...)) حينما أتحدث عن أفلاطون، باسكال، سبينوزا و جوته، أعرف جيداً أن دمائهم تجري في عروقي. نيتشه يتحدث هنا أيضاً عن ((أسلافه هرقليطس، أمبدوقليس، سبينوزا و جوته))[10].

بورتريه نيتشه.— يبدو أنّ التقارير و المحاضر و الأخبار و القصص و الأحداث التي في متناول المعاصرين عن نيتشه دائماً تشوه صورته نوعاً ما. لقد كان يتم النظر إلى نيتشه في هذه التقارير بواسطة منظار غير مناسب، يهضم المثل و المثل المضادة لزمنه، و يحكم على الأشياء بواسطة مقاييس زائفة كما لو أنّهُ ينظر بواسطة مرآة مشوهة.

تعد الصورة التي تزودنا فيها أخت نيتشه إليزابيث عنه مثالية بعض الشيء في تفاصيلها، بيد أنّها بعيدة عن الحقيقة و ليست واقعية بالمرة و منفصلة عنه. زيادةً على ذلك، هذه الصورة مضطربة أشد الاضطراب، زائفة، منفعلة و مرتبكة – من جانب آخر، يزودنا صديقه فرانس أوفربيك بصورة مشكوك فيها عن نيتشه إلى حدّ ما. مع هذا نحن مدينون و ممتنون ربما لكلاً من

أخت نيتشه إليزابيث و صديقه فرانز أوفربيك لقيمة المعلومات و المصادر الواردة في المراجع الواقعية المتوفرة التي يقدمها كلاهما بسخاء. غير أن النقص و الخلل و العيوب التي تعانيها مثل هذه المعلومات تجعلنا حريصين و متحمسين و متلهفين لسماع حتى التفاصيل المتواضعة المبتذلة و العديمة الأهمية لكلّ شخص شاهد نيتشه أو التقى به أو تحدث معه. مع أنّ تلك الغزارة و الوفرة في المعلومات و المصادر الواردة في المراجع عن نيتشه تربك مهمتنا في وصف بورتريه نيتشه بدقة إلاّ أنها مع ذلك تزودنا بالرغم من ذلك بالبدايات المشجعة و المهمة و الواعدة لرسمه. غير أنّ هذا البورتريه، في المحصلة النهائية، يخفق في الحصول على شكله النهائي و رسوماته و ضرباته الفنّية الأخيرة: الكثير من الأمور تبقى في هذا البورتريه غير كاملة و حتى غامضة و مشوشة. إنّ الروايات القديمة و التعليلات المعاصرة المتوفرة عن صورة نيتشه يجب أن يتم تصحيحها عبر كم من الوقائع الشخصية (رسائله، أعماله الفلسفية، و ملاحظته) و أن يُنظر إلى الأمور بموجب علاقتها بالنَغْمَة، النبرة و الأسلوب المنسي و المطمور لكلّ شيء يزودنا به نيتشه بنفسه، و بضمنها أخر الآثار التي تركته كتاباته. في الفقرات الآتية سنذكر البعض من الشهادات على لسان البعض من معاصريه:

بخصوص الروايات القديمة المتوفرة عن نيتشه حين لم يزل مجرد **تلميذ** شاب في المدرسة، يكتب دويزن: ((كل زَيف المظاهر التاريخية، سوى تلك الذي كان الغرض منها مدح أحد ما أو ذمه، كانت بعيدة تماماً كل البعد عن طبيعة و شخصية نيتشه....لقد استمعت إلى العديد من ملاحظاته العبقرية، غير أنّهُ كان من النادر يطلق النكات أو يمازح. كان يكره رياضة الجمناستك/ الجمباز، و حين كان شاباً كان بديناً بعض الشيء و قد عانى مرة بسبب ذلك من محاولة أو حركة خرقاء قام بها أدت إلى جرح في الرأس سبب له ألم و أحتقان لازمه طوال حياته...لقد كانت حيلة بسيطة يقوم بها رجل جمناستك/جمباز ماهر بلمح البصر أمر في غاية الصعوبة على نيتشه القيام بها؛ و حين كان يروم القيام بها يصطبغ وجه باللون الأحمر القاني و يبدأ باللهاث و يتصبب العرق منه بغزارة)).

و في رواية أخرى تّم ذكرها في عام (1871): ((ظلت النظارات التي يرتديها نيتشه طوال حياته هي تلك الذي يرتديها الباحث بالعادة، في حين كانت الملابس التي يرتديها خاصَّة و حساسة و صعبة الإرضاء لأذواق الآخرين – كان نيتشه يقلد دائماً المحارب العسكري الشجاع في وقفته، في حين كان صوته الوديع الواضح و المشرق يناقض الفكرة و الانطباع المتكون في ذهن الآخر

عنه))[11]. و في نفس العام، يكتب دويزن: ((بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً، يظهر نيتشه، الذي كان ضيفا عند جايكوب بوركهارد مفعماً بالحيوية، متحمساً، مرناً، ليناً، واثقاً بنفسه كأسد غر)).

بهذه الطريقة كان زملاءه يرونه: ((كان نيتشه يتمتع بالنية الحسنة، و إبداء العاطفة الصادقة نحو كل زملائه الذي يعرفهم – و كان في طبيعته شخصاً غير مؤذي لأيّ أحد))[12]. أما إيكمان، فقد لاحظ الأمر الآتي: ((مازالت أتذكر جيداً موقف نيتشه الودي و اللطيف المحبب نحو الطلبة المرشحين لدراسة الدُكْتوراه: كان دائماً شخصاً ظريفاً معهم – و كان يقيم المؤتمرات و يشرف عليها بطيب خاطر و بحرفية أكاديمية عالية...)).

أما شيلفر[13]، فإنّه يصف المحاضر نيتشه الذي يحضر دروسه على النحو الآتي: ((كان مظهره الخارجي بسيطاً و خجولاً – كان في الواقع شخصاً في غاية التواضع ،...و كان ذا منزلة رفيعة و بسيطة أكثر من أن تكون متوسطة. كان رأسه يستقر بعمق بين كتفيه في جسد ممتلئ لكنه ضعيف و هزيل نوعاً ما... كان نيتشه شخصاً أنيقاً يولي اهتماماً كبيراً بموضة الأزياء و الملابس المتبعة آنذاك. على سبيل المثال، كان يرتدي بالعادة سروالاً ذا لون فاتح مع سترة قصيرة و ربطة عنق أنيقة موضوعة بعناية ترفرف حول عنقه و رقبته. و كان ذا شعر طويل تؤلف خصلاته ملامح وجهه الشاحب، و ذات مشية ثقيلة و متعبة. كان كلام نيتشه ناعماً و بسيطاً و صادقاً... و فيه مِيزة تحسب لمصلحته: كانت كلماته تخرج من أعماق نفسه... و كذلك السحر الواضح الأسر الذي يتوفر عليه صوته...)).

في عام (1891)، يصف رجل بولندي ذكرياته، حين كان يوماً يقدح زناد التفكير ليتذكر واحدة منها، لقائه مع نيتشه منتصف السبعينيات: ((كان نيتشه رجلاً رصيناً و لائقاً جداً، طويل بذراعين ضعيفتين مدورتين، و رأس ضخم بشعر طويل خشن يشبه عرف الديك. كان شاربيه أسود غامق يتدلى نحو ذقنه من جانبي فمه. قبل الأوان، تلمع عيناه السوداوين الكبيرتان مثل كرتي من نار خلف نظارته. اعتقد حين كنت انظر إليه يترأى لي أني أرى قطا بريا ًوحشياً. كنت أرافقه كدليل، و كان يقول إنّهُ شاعر روسي يقوم بهذه الرحلة لغرض الاسْتجمام و إراحة الأعصاب))[14]. بيد أن هذا الوصف غريب و يثير على نحو خاص الكثير من الشكوك، طبقاً لروايات السيدة لو سالومي، التي كانت تؤكد أنّ نيتشه كان متوسط الطول و ذا شعر بني، متجهم المِزَاج يحدث في نفسك أجمل أثر.

أما أونغرن-سترنبرغ، فإنّهُ يروي في عام (1876) الآتي: ((قرائن كثيرة تحمل المرء على الاعتقاد بأنّ نيتشه تغلب عليه تعبيرات الفخر و الخيلاء الضجر و السأم و التردد المقموع و حَيْرَة معينة و مربكة في الحركة يسببها لديه قصر النظر الذي تعانيه عيناه. كانت شخصيته تتوفر على العديد من العادات، التي تمثل ضرباً من السيطرة على النفس و من الضبط لها، و الأعراف الاجتماعية الحسية كالالتزام، الدَّماثة، البساطة، النبل و المهابة)).

في عام (1882)، كتبت السيدة لو سالومي، التي تشارك الأجيال الجدية آرائها على حدّ تعبيرها، الآتي: ((هناك شيء ما خفي في شخصية نيتشه، شيء من الحميمة و الوحدة غير المعلنة – هذا هو الانطباع الأول الذي يعطي مظهر نيتشه القوة الآسرة التي يتمتع بها. إنّهُ لا يقدم للملاحظ، الباحث عن الموجبات و الأسباب المعقولة، أيّ شيء مدهش أو أخاذ للنظر. كان نيتشه رجلاً متوسط الحجم، يرتدي ملابس في غاية البساطة و الأناقة، مع ملامح صامتة و ميزات هادئة و شعر بني. ينحو نيتشه منحى سلس، و ينطلق بخفة، و يمس الأشياء برفق و بطريقة يمكن التغاضي عنها بسهولة. له ضحكة خفيفة وضاءة، و طريقة هادئة في الحديث، و كان يمشي بطريقة حذرة و متأملة يحني كتفية بعض الشيء. إنّ من الصعب تخيل شكله بين الجموع و الحشود المكتظة، لأنّه يحمل علامة الشخص الذي يريد أن يكون محايداً و وحيداً. تحمل يديه مَسْحَة نبيلة، و هما بالمناسبة جميلتان بشكلٍ لا يضاهى – لا يمكن للمرء مقاومة رغبة النظر إليهما...أما عيناه، فكانت تتحدث لغة كاشفة لكلّ شيء. فعلى الرغم من أنّه كان رجلاً نصف أعمى، و كان يعاني صعوبة الرؤية، إلاّ أن عيناه لم تكن تتجسس أو تراقب بدقة أو تنظر أو ترنو بخلسة – لكنهما كانت فضوليتين من غير قصد، كما هو حال العديد من الأشخاص الذين يعانون قصر النظر. كانت عيونه بالأحرى أشبه بحراس و حماة لكنوز داخلية ثمينة و أسرار صامتة عميقة.... كانت طريقة النظر الخاطئة (بسبب قصر النظر) تضفي عليه نوعاً خاصاً من السحر و تجعل عينيه تظهران العمليات الجارية في أعماق نفسه بدلاً من اللحظات العابرة للانطباعات الخارجية. كانت هذا العيون تنظر و ترنو إلى الداخل، و في نفس الوقت، تحدق في المسافات البعيدة بحيرة ملحوظة، و كان من الأفضل لهما أن تكونا ساكنتين و هادئتين لا تتحرك. كان نيتشه ينظر في داخل الإنسان كما لو كان ينظر إلى المسافات البعيدة. و حين يكون تحت تأثير سحر و فتنة الحِوار و الحديث المثير مع شخص ما، فإنه لا يتردد في أن يبوح بمكنونات نفسه بصدق و ضوء ملهم يمر عبر عينه. و لكن حين يكون في مِزَاج سيئ ، تتحدث وحدته بلا أسرار، و تعبر عن نفسها، بشكل جلي و في الغالب بطريقة مشؤومة

يغلب عليها طابع التهديد و الوعيد كما لو أنها صادرة من أعماق وحش رهيب كاسر. تعطي تصرفات نيتشه العلنية و الصريحة انطباع الأشياء المخفية و غير المعلنة و المسكوت عنها. و في ممارسات الحياة اليومية – المهم في الحياة بالنسبة له ألّا تكون مُقاداً. الشيء يجلب شيئاً آخر، ثم أنت لا تعرف إلى أين تسير – يبدي نيتشه الكثير من الكياسة واللطف، بل في أحيان كثيرة رقة أنثوية و طيبة قلب قل نظيرها. كان نيتشه يشعر بالمتعة و السرور في ممارسة الأشكال المهذبة و النقية للصلات الاجتماعية.... و لكن في كل ذلك كان هناك لديه ميل للتخفي و التنكر....أتذكر هذا الأمر جيداً حين تحدثت معه أول مرة، لقد صدمتني و خدعتني الطريقة المتأنية و المتروية التي يتبعها عن عمد. لكني بوسعي القول أني لم أخدع بهذا الرجل، الوحيد المهجور و المنعزل الذي يوقع في النفس وحشة لزمنٍ طويلٍ – إنّهُ شخص يرتدي فقط قناعه بلا تغير و كأنّه رجل قادم من الصحراء أو نازل من جبل يرتدي عباءة أو معطف الحكيم المحنك و المتمرس الخبير بالحياة و الناس....)).

في عام (1887)، يروي دويزن الآتي: ((الآن، لم تعد هذه اللحظة تحمل الفخر، أو خطوة لازمة مرنة، لإجَراءِ حوار سلس رشيق و بليغ كما كنا نفعل في الأيّام الخوالي الماضية التي نقضيها مع نيتشه. يبدو الرجل متعباً من حجم الجهود الفكرية التي قام بها و استنفذت قواه، يميل في جلسته دائماً إلى جانب واحد من الأريكة، و مع مرور الوقت، أصبح حديثه أخرق و غير رشيق و متقطعاً...حاولنا أن ننزوي بعيداً عن الناس لساعة في فندق أبينروس لنحصل على قصد من الراحة. و ما أنّ مرت هذه الساعة بسرعة حتى جاء صديقنا نيتشه يسأل بأدب و بطريقة رقيقة ما إذا كنت مازلت أشعر بالتعب، و يستميحني العذر أنّ كان قد جاء إليّ مبكراً. لقد ذكرت ذلك، لأن العناية المبالغ فيها و المراعاة و الاهتمام لم تكن جزء من الصفات الشخصية لنيتشه...و حينما افترقنا اغرورقت و امتلأت عينه بالدَّموع)).

هناك تأكيد إضافي يعزز و يقوي، بواسطة الصور الفوتوغرافية الباقية التي تّم التقاطها له، من انطباع الغموض الذي يلف طبيعة شخصية نيتشه: كل صورة من هذه الصور تبدو، و من الوهلة الأولى، مخيبة للآمال – فهذه الصور كانت تشبه إلى حدّ بعيد جمع من قطع المرايا المكسرة و المشوهة. بالطبع، تكشف هذه الصور، عندما يتم التأمل – الذي دخل علينا من السجل الفكري للتربية و التعليم و بصفة خاصَّة من عادات و تقاليد رحالة الشرق – و إطالة النظر فيها عن كثب، مع إدراك عقلي متسم بالتبصر عن شيء ذي مدلول و معنى عميق. في هذه الصور، بوسعنا النظر

إلى شاربيه بوصفهما رمزاً بليغاً و معبراً عن ولعه في التخفي، التمويه، التحفظ، التزام الصمت و التردد. فتحديقه، نظرته و تفرسه في الأشياء في تلك الصور يقترح علينا أنّهُ يمتلك في داخل نفسه الكثير من العدوانية و المشاكسة التي تقود في نهاية المطاف إلى الوضوح و الصفاء. و لكن من الصعب أن نمسك أو نفهم، و لو بشكلٍ موقتٍ، أيّ شيء يمكن أن يدلنا في هذه الصور على شخصية نيتشه الحقيقية. من جانب آخر، ليست اللوحات أو البورتريات الفنّية عنه، على وجه الخصوص، سوى أقْنِعة غير موثوق بها تعكس ذوق العصر لا أكثر. و أخيراً، هناك أثر عن نيتشه، و هو صورة حقيقية تصور نيتشه و هو مشلول، لكن هذه الصورة حقاً مؤلمة و موجعة للذين يشاهدونها.

إذا كانت الروايات القديمة، و التقارير المتوفرة بين أيدينا عن سلوك و مظهر نيتشه – و بالمناسبة هناك أشياء لا تجدها في الوقائع المروية عن حياته الخاصَّة أو مكتوبة في سيرة حياته و أن نستخلصها من أعماله – لا تقدم لنا صورة دقيقة عنه يعتد بها، و أن الصور المأخوذة عنه تتركنا في شك من أمرنا، فإنّ تفحص خط يديه و كتابته و مسوداته و ملاحظاته المكتوبة على قصاصات الورق يمكن أن يلقي الضوء بشكلٍ مباشرٍ على شخصية نيتشه و تضعه أمامنا واضحة مرة أخرى[15]. في هذا الصدد، نحن مدينون إلى الفيلسوف و عالم النفس لودفيغ كلاكس لقيامة بمهمة تحليل خط يد و كتابة نيتشه، و سنقوم هنا باقتباس بعض أقواله:

يقول كلاكس، الذي شرف نيتشه حين نوّه في مَعْرِض كلامه عنه بالآتي ((لم أت قطا واحداً من الشخصيات البارزة المثيرة للاهتمام، التي عاشت الحِقْبَة الكاملة الممتدة ما بين عصورنا الكلاسيكية و منعطف القرن الماضي، يشبه خط كتابة اليد عنده من بعيد أو قريب خط كتابة يد نيتشه)). مع أنّ خطوط يد و كتابة هؤلاء على الورق تتشابه بعضها مع الآخر إلى حدّ بعيد، إلا أن خط يَد نيتشه دونّ عنهم كان لا يشبه خط يَد أيّ واحد منهم. لقد عثر كلاكس في خط يد نيتشه لاحقاً على شيء رائع، استثنائيّ، مضيء و مشرق...مع شيء يعبر عن افتقاد الحماسة...شيء شفاف و واضح، لامادي، بلوري – إنّهُ على طرفي نقيض من الغموض و الضبابية، المَيْع و العجز و الجُبْن الذي يقبع دائماً في غرفة الانتظار و ينتظر على الباب...شيء ما تماماً صعب، حاد و هش كالزجاج....شيء مكون و مشكل، مكتمل و حتى محفورا في تفاصيل حقيقية. كان كلاكس يرى في خط يد نيتشه ((حساسية بالغة الحماسة، و نزق حاد الطبع، و حياة عاطفية ثرية مع أنّ خط يد نيتشه كان مغلفاً و محروساً بنظام صاحبه البالغ السرية)) – بمعنى أنّ تجاربه التي عاشها هي تجاربه

وحده و ليس تكراراً لتجارب أيّ شخص آخر. كان كلاكس يرى في خط يد نيتشه قسوة و صرامة، ضبط نفس و جَلد، و أحكام لا هوادة فيها، بالإضافة إلى الرغبة القوية و الملحة في احترام الذَّات – احترام الذَّات بوصفه منبع كلّ الأشياء الأخرى. يصل خط اليَد عند نيتشه إلى حالة تنظيم متقنة ممكنة، يكشف النقاب عن نوع من البساطة تفرض نفسها تِلْقائياً و عملياً ضمن إطار العمل العاري للحروف. يخدع خط يد نيتشه ((الزخم اللافت للنظر البارز الذي يقدمه بفضل حركة متجددة لا تنقطع)). مع خط تفكير نيتشه، يشعر المرء ((بوجود سياج الروح في ميدان التفكير))؛ ((مع أنّ خط اليَد عند نيتشه يمتلك لمحة من و يضيءء حياة الشخص، ملفاته و أجنداته الشخصي، و صورة جانبية عنه تعمل على قطع الحجر و تشكيله في عملية شائقة إلاّ أنه يمتلك أيضاً عند نيتشه شيئاً مزعجاً لا حدود له، شيء غير متوقع، أمر مفاجئ من الصعب أن تضع أصبعك عليه)). و لكن، و طبقاً إلى كلاكس، من المؤكد أن خط يَد نيتشه كان يظهر حقيقة أنه ليس رجل فعل: على سبيل المثال، مقارنة بخط يد نابليون أو بسمارك، يبدو خط يد نيتشه ((ذي بنية في الأساسّ ناعمة و رقيقة مرهفة بشكلٍ هش قابل حتى للكسر)). إنّهُ يعبر عن حالة من حالات نعومة الروح القصوى، و عن ((القدرة الإبداعية لنطاق غير متخيل تقريبا بعد)): يضيف كلاكس، ((على مر حياتي المهنية، لم أصادف قط من قبل خيط يَد غير منمق مثل خيط يَد نيتشه الذي يكشف، مع ذلك، عن حدّة ذهن و ذكاء و فطنة و تركيب للزوايا معا بطريقة نموذجية مع إيقاع مثالي موزع على قدم المساواة على سطوح و زوايا و جماهير الكتابة –أنّهُ يشبه تقريبا سلسة عقد من اللؤلؤ المنضود!)).

إذا أخذنا كل هذه الأمور معا بعين الاعتبار، و وضعنا في الحسبان أننا مهتمون هنا في المقام الأول بمظهر نيتشه الخارجي، حينها ينبغي أنّ نطرح السّؤال الآتي: كيف يبدو هذا الرجل حقاً؟ و الذي بسبب حقيقته، و منظومة القيم و المفاهيم الجيدة التي يطرحها، يجد نفسه في موقف أخرق و غير ملائم لا يحسد عليه – كيف يبدو هذا الرجل الذي يشجب و لا يحب ارتداء الأقنعة، و يشعر بخيبة الأمل بسرعة و يهزمه النفور و الاشمئزاز؟ مَنْ هو هذا الرجل، الذي طور في داخل نفسه شيئاً محدداً لا يمكن أن يشاركه فيه الآخرون، رجل يرى و يريد شيئاً لا يراه و لا يريده أي شخص آخر حتى الآن؛ و بناءً على ذلك، لا يشعر أنّهُ يشاطر الآخرون عالمهم و هو إلى ذلك لا يشعر بالرضا على نفسه بما أنّ كلّ حياته و تجاربه تبدو له أولاً محاكمة و من ثم أخفاقاً و فشلاً؟

حتى الآن ليس في حوزتنا أو بدقة أكبر لا نمتلك صورة واضحة و حقيقة ملموسة و نهائية عن نيتشه. فهناك الكثير من الأوصاف التي أطلقت عليه و الصور الذي رسمت له التي لا يمكنها أن تتطابق أو تماثل أو تتماهى مع صورته الحقيقية. على الرغم من ذلك، مازلنا نرى فيه صورة المتشرد، التائة و المتجول، الذي يسير بعيداً نحو الأمام. لانزال نرى فيه، إذا جاز التعبير، الصاعد و المتسلق لقمم الجبال العالية التي من المتعذر الوصول إليها و بلوغها. حتى حين يبدأ بالتلاشي و التواري عن الأنظار يظل الرجل مرئياً، لأنه قادر أن يعيش وحيداً و بشكلٍ مستقلٍ و قادر على نقل إلى الآخرين تفاصيل حياته الداخلية.

السمة الرئيسة لحياة نيتشه كونه شخصاً استثنائيّاً بامتياز. حررَ نيتشه نفسه تقريباً من كلّ قيود و التزامات الحياة الواقعية المألوفة – كان يعي أنّ من الصعب في الحياة أن تأخذ الشيء نفسه مأخذا جديا مدة طويلة. لم تكن لديه مهنة أو وظيفة، بعد أن قرر و عقد العزم على الاستقالة من عمله كأُستاذ في الجامعة – فكلّ ترق في درجات المنصب ليست خطوة إلى الحرية بل خطوة إلى القيد – كما ابتعدَ عن المجتمع و عن صلاته و التزاماته مع الآخرين. فضلاً على ذلك، لم يتزوج نيتشه و لم يكن له طلاب أو مريدون، كما لم يخلق لنفسه جواً معيناً من العمل و النشاط و الفاعلية من حوله في هذا العالم. قاطعا صلته في هذا العالم، ليس له بيت أو زوجة أو أُسْرة فاقدا جو البيت الدافئ، كان نيتشه ينتقل من مكان إلى آخر بلا هدف أو غاية باحثاً عن شيء لا يمكن له العثور عليه. مع ذلك، كان نيتشه يمثل ظاهرة استثنائيّة معترضة على الحياة تهيمن عليها سمتي الموضوعية و الإيجابية – أعني؛ حالة تصف لنا عملية التفلسف و حيثياتها عند نيتشه.

في مدينة بون، و تحديداً في عام (1865)، بدأت بوادر تَجْرِبة أول أزْمة روحية حادة لنيتشه تلوح في الأفق. كانت الأمور مازلت غامضة تلفها الضبابية عند نيتشه، لكنها كانت تنذر و تنطوي في نفس الوقت على ملامح تغير جذري قادم في طريقة حياته. كان هناك حافز و باعث كبير يلح على نيتشه في أن يبدأ رحلته بشكل حازم لا مرد فيه في طريق القدر. كان واعياً أنّ حياة تعليم التلاميذ الذي يمكن أن يقودهم نحو المستقبل، و نشاطه المتنوع في الحياة، و اشتراكه الفعال في مفهوم ((الأخوة في الحياة)) (*Leben in der Burschenschaft*)، و حالة التطور الذاتي بواسطة كسب المعرفة، و إمكانية الحصول على وظيفة أكاديميّة كأُستاذ في الجامعة، لا يمكن أن تكون الطرق المناسبة لإنجاز أهدافه و بلوغها. لم تكن الحياة – بالطبع ليس فن الحياة الكبير في أن نتمتع

بل إلى أيّ درجة نستطيع أن نغتنم – بالنسبة إلى نيتشه لا هي بالهواية و التسلية، و لا هي شأن من شُؤُون اتباع قواعد تّم إرساء دعائمها مسبقاً – و حينما كان يفكر مذهولا و حائرا، أدركَ نيتشه أنه أتبعَ نمطاً من الحياة لا يمكن أن يتوافق مع متطلبات الحياة المألوفة. روحياً، كان نيتشه يعيش في مستوى عالي و سامي جداً أعلى من كلّ ما يحيط فيه؛ بيد أن هذا الأمر المثير للاهتمام حقاً، كان غير كافي له. كان يواجه خياراً ((أما هذا أو ذاك)): أما أنّ تنجرف و تسير في الحياة و تضيع أو تقبل حالة الاستثناء و الفرادة و الندرة و الأصالة التي كان يدعي نيتشه أن وجودها حالة شرعية في الحياة اليومية. ليست للمرة الأولى يصبح موقف نيتشه واضحاً مركزاً، على الرغم أنّه كان لا يعرف بعد **ما الذي** يجعل من هذا التركيز مطلباً مفروضاً عليه. هذه العملية كانت غير واضحة تماماً له، مع أنّها غدت واضحة و مفهومة لنا نوعا ما بفضل و بواسطة نماذج رسائله و تصرفاته. دون نبرة حزينة بائسة و دون فاجعة (لا يمكن اعتبار ترك نيتشه لجميعة ((الأخوة في الحياة)) فاجعة مادام أنّ حدوث هذا الأمر المثير للاهتمام حقاً، بالنسبة إلى نيتشه من النادر أن يكون كذلك). لقد تّم إتهام نيتشه من قبل زملائه في تلك الجميعة بالتكبر و الغرور، و كانوا يعدونه شخصاً لا يمكن الوثوق فيه، كما أنّهُ لا يفهم معنى **الصداقة** – و لكن هذا الموقف مرده أنّهُ لم يكن بينهم شخصاً واحداً يمكن أن يفهم ما يدور في خلد نيتشه. بيد أنّه في هذا العام و خلاله، غدا المسار الذي أراد نيتشه السير فيه واضحاً و محدد المعالم له: إنّ الإمكانية الوحيدة المتاحة له هو السير في طريق التحولات الجديدة في حياته **كموجود استثنائيّ و فريد لا يشبه أحد**، تحركه وسائل و بواعث الفهم الملحة الذي لا يشبع و الذي يفرض عليه و يتطلب منه دائماً أن يتجاوز نفسه و لا يمنحه إطلاقاً أيّ لحظة راحة أو سلام – بمعنى لم يكن لديه وقت للشعور بالآسف على نفسه.

إنّ الكشف عن حياة نيتشه – بوصفها فاعلية ذاتية كافية في كلّ فكرة و عائدة بالطبع إلى تصور المشهد النقدي – بواسطة إلقاء الضوء على المصالح الفلسفية التي كان يسعى لتحقيقها يجعل من وجود هذا الرجل استثناء يؤكد فعلاً كلّ المظاهر المتحولة مع أنّه و لا واحداً منها يكشف النقاب عن نفسه بشكلٍ مباشرٍ. المشكلة نقترح ربما يتم معالجتها وفق المقاربات و الطرق الثلاث الآتية: (1) يقتضي الأمر منا أن ندرس مسارات **التطور الروحي** عند نيتشه؛ (2) **صداقته – أو علاقته بأصدقائه**؛ (3) و **مرضه**.

مسار تطور تفكير نيتشه

مع أنّ أعمال نيتشه، الذي كان له حول كلّ شيء آراء و أفكار مفرطة في الأصالة، آراء جديرة بالاهتمام و لكنها مسرفة في التشاؤم، كانت بالأساسّ تؤلف وحدة عضوية متكاملة، و تمتاز بوحدة الموضوع من جانب، إلاّ أن كلّ نصّ من نُصوصه المكتوبة يمتلك على حدّة سمة خاصَّة به يتموضع بواسطتها و بموجبها و يأخذ مكانه ضمن سياق عملية تطور تفكيره على مدى أكثر من عقدين من الزمن، من جانب آخر. في سياق هذه العملية، تتجلى و تظهر معظم التحولات الاستثنائيّة الفريدة المتجذرة في النزعات الفكرية الجديدة التي تسفر عن نفسها عند نيتشه منذ البداية. إنّ معرفة مسار تطور تفكير نيتشه و الدروب التي قطعها تمكننا بلا شك من امتلاك فهم عميق لعمله، بما إنها في النهاية تمكننا من التقدم و الانتقال من السياق الزماني لكلّ قول و تعبير فلسفي إلى وجهة و عملية التطور كليًّا لديه.

تطور أعماله الفلسفية.ـــ يزودنا مسح مُوَجز لكتابات نيتشه، و هو بالمناسبة استباق لا يخلو من تعسف، بوصف تمهيدي للمراحل الأولى التي مر بها تفكيره[16].

لا تمتاز كتابات نيتشه في مرحلة الشباب جوهريا بأهمية كبيرة تذكر مع أنّ بوسعنا أن نلاحظ أنها تحتوي على البذور الجنينية و الرشيمية لمعظم أفكاره و بواعثه و دوافعه التي بدأنا بالتعرف عليها لاحقاً. يقدم نص ((الفيلولوجّيكا))، وهو عبارة عن ثلاثة مجُلّدات، على سبيل المثال، صورة مؤثرة و عميقة جداً عن عمل نيتشه العلمي، مزوداً القراء بوجهات نظر متنوعة تشكل حقاً بداية بواكير مرحلة التفلسف عنده. مع ذلك، بوسعنا أن نقسم أعماله إلى المراحل الثلاث الآتية:

(1) **كتاباته في المرحلة المبكرة**، و التي تشمل على نصّ ((ميلاد التراجيديا))، ((تأملات لا موسمية))، [أو ((أفكار خارج المواسم)) / ((تأملات في غير أوانها))] (1871-1876)، – فكر، بالطبع، في الفائدة التي كان من الممكن أن نجنيها من دفاتر نيتشه، لو حصلنا على يوميات نيتشه في هذه النُصوص أعلاه. تاريخ الأثر، تاريخ المخاض فيه سيكون هذا مؤثر... شائقاً أكثر من الأثر – بعض من المواد الفلسفية المنشورة بعد وفاته، شذرات من كتَّاب إغريق، ((فيما يتعلق بمستقبل مؤسَّستنا التعليمية))، و ملاحظات تشكل جزءً مصمماً و معداً مسبقاً لكتاب ((تأملات لا موسمية))، تحت عنوان ((نحن الفيلولوجّيين)). كل هذه الكتابات كانت مُعدة على هيئة بحوث الهدف منها أن

تُقرأ على التوالي. مازالت هذه الأعمال توكّد و تصر على إيمانها الراسخ بعبقرية و نبوغ الثقافة الألمانية و حالة خلقها الجديدة الوشيكة من رحم الفوضى و السديم و الاضطراب الحالي.

(2) **الأعمال التي ظهرت ما بين عامي (1876) و(1882) و هي الآتية:** ((إنساني مفرط في إنسانيته))، التي كُتبَ له السطوة و الخلود، ((مزيج من الآراء و الأقوال المأثورة))، ((التائه و ظله))، (و هذان النصّان الأخيرين يشكلان معاً المجُلّد الثاني لنصّ ((إنساني مفرط في إنسانيته)))، ((الفجر))، ((العلم المرح)) (الكتاب 1-4)، الكتاب الذي ذاع صيته بشكلٍ واسع. هذه النُصوص، التي كان لها سقف عالي من التوقعات، في الأساسّ هي جملة إذا جاز التعبير من الشذرات و النبذات لا تنحل رموزها بمحض قراءتها. في هذه النقاشات، و التنظيرات الحديثة المرتكزة على الظاهرة الأخلاقية كما اشتغلت و مارست دورها في المجتمعات القديمة الموجزة المتعددة، التي تنطوي عليها هذه النُصوص، يتم التعبير عن كثرة و وفرة الأبْعاد المتعددة إلى حدّ بعيد دون ميل مُغرض. هنا تُقدم بلغة باردة جداً، منفصلة تماما و متحررة من الوهم و خيبة الأمل– ملاحظات نقدية قوية و نافذة، تتكشف في الأساسّ على هيئة نمو تدريجي و تحديداً بعد نصّ ((الفجر)):

(3) الفلسفة النهائية لنيتشه

(أ) ما بين عامي (1883)-(1885)، تّم نشر كتاب ((هكذا تكلّم زرادشت)) – تاريخ تكون و يوميات و ذكريات الكتاب أكثر شوقاً و أهمية من الكتاب نفسه. ليأخذ التاريخ مكانه و سيكون هذا حسناً – و هذا النصّ في الأساسّ سلسة من الخطابات الموجهة إلى حشود العامة، الرفاق، الأصحاب، الرجال السامين، حيواناته و إلى نفسه، ضمن إطار من المواقف و الأفعال المثيرة لهذه الشخصية الخيالية. يقاوم نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت))، الذي يمثل استدارة على المطالب الأخلاقية القديمة و البالية، و الذي يعتبره نيتشه من أهم أعماله (*magnum opus*)، كلّ الوسائل التقليدية في التصنيف و التبويب: يمكن أن نعدّ هذا الكتاب بمنزلة نصّ شعري بقدر ما هو نبوءة و فلسفة – و لكنه يظل مع ذلك لا يمكن أن نعدّه يمثل بدقة أيّ واحد من هذه التصنيفات المذكورة آنفاً.

(**ب**) بعد عام (1867)، بدأ مسار التعبير عن أفكار نيتشه يأخذ مَنْحَى شكل كتابة الشذرات و النُبذات القصيرة الموجزة إلى حدّ بعيد، و يترك أثار عميقة، و لاسيَّما في المواد المتوفرة بعد وفاته في المجُلّد (13-16). أما العمليات الفكرية، مع البعض من التخريجات التي تريد عقلاً يبرهن على

صلاحيات فرضياته، التي تّم التعبير عنها في المجُلّد (13-16)، فلقد كانت لها عَلاقة وثيقة الصلة بالأفكار التي غدّت فيما بعد تمثل القاعدة الأساسيّة لتفكير نيتشه (على سبيل المثال، مفاهيم: إرادة القوة — التي تتجلى عند الإنسان في الاستقلالية و الإبداع و التحكم في النفس، الالتزام بالفضيلة و فعالية الظروف، و قهر الصعاب و السمو بالنفس و الرقي بها — قَلّبِ القيم و إعادة تقييمها — العمل المحفوف بالمخاطر الذي ينبغي أن يضطلع به الفيلسوف في هذه الأيام — التفسخ، الانحطاط، العود الأبدي-العودة المباركة إلى كُنْه الأشياء و جوهرها، السوبرمان...)، و عملت توليفة ممتازة تخصص فضاءات واسعة أو مساحات واسعة عدّة للفكر النقدي و الإبداع الفنّي الذي ليس غاية بقدر ما هو وسيلة: تأثير العمل الفنّي هو إثارة النشوة – ولم يكتفِ نيتشه بذلك، بل دفع بتلك الأفكار إلى أقْصَى مدياتها الفكرية بلا حدود. إنّ أُسلوب الكتابة العذب، الهادئ، الحادّ، الموجز، المقتضب و الثاقب الذي تتوفر عليه صنعة نيتشه الفلسفية آنذاك، كان يسعى للوصول إلى أقْصَى حالة من حالات الوضوح و الصفاء دون أن يكون هناك من وراء تلك المحاولة أيّ هدف أدبي محدد – لكنه كان يهدف من ورائه بوضوح لا يساوره الشك إلى إضاءة الصفة الممِيزة التي يتوفر عليها فن كتابة الشذرات تحديداً. يُعبر التفكير المتحفظ و المتماسك، الذي يهدف عند نيتشه إلى الكشف بطريقة منظمة عن الحقائق، عن حضوره القوي الذي لا نفتقر إليه هنا على الإطلاق، بالرغم من أنّهُ مطموس، مغمور و مغطى بكثرة و وفرة الانطباعات المذهلة و اللافتة للنظر. هنا، يعدّ الفهم المباشر الحالي و الملموس الذي يقبض على الأشياء بشكل مباشر عند نيتشه أكثر أهمية من النظام الفكري المتطور منطقيا.

(**ت**) ما بين عامي (1886) و (1887)، كتب نيتشه و نشر كلاً من نصّه ((ما بعد الخير و الشر))، النصّ الذي اغتنمَ فيه الفرصه لكي يعرب بصورة صريحة و قاطعة عن أمانيّه، و الجزء الخامس من نصّ ((العلم المرح)) السرّ الخفي الذي يجد تعبيره في حالة الغبطة السامية. مع أنّ عودته إلى نمط و طراز النُصوص المكتوبة بصيغة الشذرات و النبذات القصيرة، الاستقصاء الدقيق يبرز لنا فرضية مضادة انْسابَت مع مَيْع تلك القوانين التي لم تكن مشتملة على صفاتها الأساسية و هي الصرامة، حيث يُظهر نيتشه في طريقة كتاباته الآن على خلاف السابق نزعة قوية تهدف إلى تقديم العرض المتماسك و الرثاء المتحد المستفز البعيد عن أسلوب كتابة الشذرات و النبذات القصيرة. أما نصّ ((في جينالوجيا الأخلاق))، أو تاريخ تكوين الأخلاق – الذي كان نيتشه يخشى إذا ترك الواقع أن يضل في مناطق صعبة الإدراك بشكل مميت و أن يعمل نصّاً لا من كائنات حية

بل من أفكار – الذي يعود إلى هذه المرحلة، فإنّهُ يحتوي على ثلاث مقالات في صيغة التحقيقات المنهجية المنظمة. عموماً، تكشف المقدمات التي كتبها نيتشه لكتبه – هذه الكتب التي دوّنها قطعة جريئة تعسفية منه – في المرحلة المبكرة الأولى، عن تطلع إلى الوراء بأثر رُجعِيّ و إستعادي للأحداث الماضية لمعرفة-الذات بطريقة مثيرة للإعجاب.

(ث) في عام (1888)، كشف نيتشه عن معدنه الفلسفي الحقيقي حين ظهرت جملة من الكتابات و النُصوص المترابطة التي تحتوي على الاستنتاج النهائي لموضوع معرفة-الذات لديه – على سبيل المثال: ((حالة فاغنر))، ((أُفُول الأصنام))، ((عدو المسيح))، ((ضِدّ المسيح))، ((هو ذا الرجل)) – النصّ الذي علينا بفضله أن نقضي على النُصوص الفلسفية السابقة المصنوعة من أفكار بسبب بُلهاء ضلوا السبيل إليها – ((نيتشه ضِدّ فاغنر)). هذه النُصوص، التي توقظ في داخل القارئ من تناقض ذلك الزخم الذي يزداد من جملة إلى جملة و من نتيجة إلى نتيجة، مكتوبة في الواقع بمِزَاج شديد الاهتياج و وتيرة محمومة – و هي نُصوص مركزة و كثيفة إلى أقْصَى الحدود، عدوانية بشكل لا يوصف و تسعى إلى إحداث أثر لا يقاوم.

بالعادة، يمكن تقسيم مسار تفكير نيتشه، الذي لازمه سوء الطالع و أفلحَ في تحويل العلاقات المفعمة بالحذر بين الفلسفة و العلم إلى عَلاقة تبادل أفكار متعاطفة و مثمرة، إلى ثلاث مراحل رئيسية: **المرحلة الأولى،** و هي الحِقْبَة الممتدة حتى عام (1876)، و تعبر عن زمن التبجيل و المهابة، الذي يقوم و يستند إلى الإيمان بالثقافة والعبقرية الألمانية – الإيمان الذي يضطلع بكل متغيرات التاريخ – التاريخ بوصفه سوق من الغرائز و الأذواق المتغيرة و الشغف بالجديد من العنف و التحطم و الحرب، من الوزراء الطموحين، و الجنرالات المرتشين، من المدن المنسوفة؛ المرحلة الثانية، و هي المدّة الممتدة من عام (1876) إلى عام (1881)، و تعبر عن حالة الإيمان الإيجابيّ في العلم المرتبطة مع أسلحة النقد النافذ، الشارح، الفاحص والدقيق، الذي يبرز المقدمات و المبادئ المؤسَّسة لاجتهاد العقل و اتجاهاته. المرحلة الثالثة، و هي الحِقْبَة التي تعبر عن عصر الفلسفة الجديد، الذي دام حتى عام (1888). بعبارة أخرى، قادت عملية التطور و التدّرج الفكري، على الرغم من النفور و القطيعة الجذرية التي تخللتها، نيتشه بعيداً عن أحلام مرحلة إيمان الشباب و مستتبعاتها التي كان يؤمن فيها على سبيل المثال بسمو و معنى مفاهيم الصداقة و التلمذة، قادته بعيداً عن الحياة الواثقة في مستقبل أبناء جلدته – لقد قادته بقوة نحو مرحلة ما يمكن أنّ نطلق عليها اسم

((البرية القاحلة و العقيمة))، حيث يُنظر إلى الأشياء فيها بواسطة الطريقة التأملية و يؤجل التعاطي و التفاعل معها بطريقة عملية، تنتهي في نهاية المطاف بإيمان جديد، ولادة عاطفة متوترة و مضغوطة لشعور الوحدة الذي تبناه نيتشه طوعياً حيث حتمت عليه الظروف قطع علاقاته بأيّ شخص أو الارتباط مع أيّ أحَد من معارفه أو الناس الذين كان يعرفهم. لقد كان هذا الشعور بالوحدة عند نيتشه – أكثر الأحداث التي تعكر صفو مملكته، و نومه المضطرب الذي لم يجلب أيّ راحة، و المِزَاج المعترك السريع الاهتياج – يعبر عن نفسه فقط مجازياً بواسطة نمط أو بهيئة شخص حالم و كثير الرؤى و صعب المراس في آن واحد. يمكن للمراحل التي مر بها و عاشها نيتشه أن يكون عددها أكثر من هذه المراحل الثلاثة بواسطة مزيد من التقسيم إذا جاز التعبير، و لاسيَّما في المرحلة الثالثة المذكورة آنفاً. في الواقع، أن يتم وصف المرحلة الثانية المتوسطة من حياة نيتشه الفكرية بأنّها تطغي عليها فقط السمة الإيجابية و العلمية أمر يجافي الحقيقة و بعيد من الصواب. بيد أنّ هذا التقسيم الثلاثي مع ذلك يتزامن، و يتماهى إلى حدّ بعيد، مع التحولات الحاسمة التي شهدتها حياة نيتشه الفكرية، كما يرتكز على أسس وجهات نظر نيتشه المختلفة التي طرحها بنفسه.

وجهة نظر نيتشه الخاصَّة و تصوره في مساره الفلسفي. —— كانت الخطوات الأساسيّة المهمة التي قادت نيتشه من مرحلة التحول الأولى إلى المرحلة الثانية، و من المرحلة الثانية إلى المرحلة الثالثة، مفهومة و مدركة بوعي و مختارة في نفس الوقت بعناية و تروي. هذه التحولات في تفكيره كليًّا يمكن ملاحظتها بوضوح ليس فحسب في أسلوبه الأدبي و الفلسفي و لكن أيضاً في تحديد أهدافه و إستِراتيجياتّه. لم ينكر نيتشه – الذي كانت لديه بعض المعلومات تتخذ صفة الأسطورة أكثر من صفة التاريخ – حين كان ينظر نظرةً إجمالية إلى مسار حياته، هذا التحولات؛ بل كان يقوم بالتأكيد عليها و تأويلها و إعطاء حتى مسوغات لحدوثها. تركت الطريقة التي فهم نيتشه بها نفسه أثرها إلى درجة على كافة قرائه. و إذا جاز لنا التعبير أن نتحدث بصرامه عن هذه النقطة، بوسعنا القول أنّ التحول الفكري الأول في مسار نيتشه حصل بين عامي (1876) و عام (1878) فيما حدث التحول الثاني ما بين عام (1880) و (1882).

نظرةً دقيقة إلى المرحلة الثالثة في مسار نيتشه الفلسفي، المرحلة التي لا تمر فيها حسنة دون عقاب، بوسعنا أن نلاحظ أنّ الأخير كان يعدّ و ينظر إلى مساره كليًّا طريق واحد جاد، معبر و ذي معنى و مفهوم. بالنسبة لنيتشه، لم تحدث هذه المراحل الثلاث أو تأخذ مكانها كتعاقب أو تسلسل

بسيط لجملة من الحوادث المختلفة التي كان من الممكن أن تحدث و تأخذ مكانها بطريقة مغايرة، و لكنّ حدثت كضرورة طاغية لا تقاوم، كديالكتيك يتطلبه بدقة مراحل التحول الثلاث في حياة نيتشه الفلسفية. يمكن تقديم تأويل نيتشه لهذه المراحل الثلاث ك ((طريق للحكمة)) على نحو الآتي:

((الدرب الأول: إنّ ممارسة العبادة، الطاعة و التعلم هي أفضل من أيّ شيء آخر. يقتضي الأمر منا أن نتمثل و نستوعب كلّ الأشياء المبجلة ثم ترك كل واحد منها في حرب و صراع مع الآخر. تَحمل كل الصعاب ... تكريس وقت للألفة و المودة و رفقة الأصدقاء. (التغلب على كل الميول المنحرفة الكريهة التي تثير الشفقة و التي في حقيقتها أنانية مقنعة. إنّ تمتلك قلب يجيد مهارة قَبُول الأشياء و الشعور فيها بلا حرج: لا يمكن للمرء أن يفتح حصون الأشياء و يتغلب عليها دون حب))).

كان هذا هو الزمن تحديداً الذي نقل فيه نيتشه إلى أصدقائه عدوى الحماسة و الاهتمام بكلّ ما يخص الموسيقار فاغنر و الفيلسوف شوبنهاور، حينما أخضعَ نفسه لحالة تدريب و انضباط عالي و سامي و كرس جهوده الفكرية تماما لدراسة الفيلولوجيا، و أبدى آيات التبجيل و الاحترام إلى أستاذه ريشل بقلب مطمئن ملئه الثقة. في غضون ذلك، سمح نيتشه لمشاعر التبجيل و الإعجاب ل (فاغنر، شوبنهاور مع جمع الفيلولوجيّين، و الفلسفة مع العلم)، و يستطيع المرء أن يتخيل ما يخالط هذا الإعجاب من نخير مأساوي و حمى شديدة، أن تتملك نفسه و تسودها. كان نيتشه لا يتمتع فقط في علاقته الشخصية بأصدقائه المفضلين – بل كان أيضاً يشارك الآخرين الحياة و يعيش معهم أولا وفق مفهوم الأخوة و ثانيا بواسطة المجتمع الفيلولوجّي الذي وضع لبناته الأساسية بنفسه. أخضعَ نيتشه نفسه إلى نظام تعليمي منضبط و صارم حرر بواسطته كلّ المشاعر الجميلة في داخله – إذا كانت موجودة. كان يحسن الظن في الآخرين، و يعامل كلّ شخص يلتقيه أول مرة بلطف و وَدًّ و بعقلٍ صادق و قلب مفتوح. ضمن هذه السياقات و على أساس هذه الشروط، وصف نيتشه مواقفه الفلسفية في مرحلة الشباب.

((الدرب الثاني: تحطم قلب العابد المتعبد و انكسرت خواطره نتيجة لالتزامه الشديد و العميق بقناعاته، حدث كلّ ذلك على نحو مباغت و بطريقة لم تكن في الحسبان. حل زمن الروح الحرة و الاستقلال. زمن الخراب-أرض اليباب. بداية نقد كلّ ما هو مبجل و موقّر من قبل و ممُارَسَة عملية نزع القدسية عما هو مقدس (مع تمجيد و معالجة بطريقة مثالية لكلّ ما هو غير

مبجل). المحاولة بقَلْبِ القيم و أجرى تقييمات عكسية على (...الطبائع و الأمزجة الفلسفية، على سبيل المثال، الفلاسفة دوهرينغ، فاغنر و شوبنهاور الذين لم يبلغوا حتى هذا المستوى!))).

حين حددَ نيتشه، الذي يجمع بين الاعتناء الشديد بالدِقّة في التعبير و الإحاطة بجوانب الواقع المدروس، في مطلع عام (1876)، ملامح موقفه الفلسفي الجديد، المنفتح على كل التغيرات و التحولات، أخذ على عاتقه جميع النتائج المترتبة على ذلك – أُصِيبَ معظم أصدقائه بالصدمة الشديدة، فالمقاربة الجديدة التي تبناها نيتشه كانت تشكل تماماً نقيضاً و تسير بالعكس من مواقعه المعرفية القديمة التي كان يدافع عنها، و تمثل أيضاً تنكر لكلّ شيء كان يؤمن به في السابق. كان هذا العام يشكل لحظة ((الانفصال)) و القطيعة المهمة عن كل الالتزامات السالفة و ((التغلب)) على كل الصعوبات التي كثيراً ما أرقّت نيتشه. و لكن نيتشه، حتى أواخر أيامه، كان بالكاد قادراً على التغلب على واحد من أكثر المشكلات صعوبة و تعقيد: قطع علاقاته الوثيقة بالموسيقار ريتشارد فاغنر، و التخلص من حالة الإخلاص و التفاني المحب نحوه و التعلق الوثيق فيه. مع قطع علاقاته بكلّ الأشخاص الذين كان يكن لهم تقديراً و مكانة عالية، غدت الحياة بالنسبة لنيتشه مُقفرة كصحراء قاحلة، و لكن مع ذلك كان هناك شيء واحد باقي يشده بقوة و بلا هوادة نحو هذا الطريق: الحقيقة التي لا تعرف حدوداً و لا تخضع إلى أيّ شرط من الشروط. استجابة للتحديات التي كان يواجهها، أخضع نيتشه نفسه إلى نظام تدريب و انضباط جديد قاسي يخضع بموجبه كل أحكامه الأخلاقية السابقة – بوصفها نتيجة، و عارض من العوارض، نفاق و رياء، مرض و التباس – إلى السّؤال و النقد. كما حاول أنّ يعيد النظر بصورة إيجابية بكل الأشياء التي كان حتى وقت قصير لا يوليها إلاّ انتباه قليل – على سبيل المثال، (كل الأشياء التي كانت ضِدّ ما هو فني، كلّ الأشياء التي لها عَلاقة بالطبيعي، العلوم الدقيقة، و حجج المتشككين). هذه المحاولة، الساعية في البحث و التساؤل الذي يحتاج إلى قيادة و دليل، و السعي وراء الحقيقة الكاملة – واجبنا يتلخص في المقاومة و إنقاذ السعي وراء الحقيقة – هي التي كشفت لنيتشه بطريقة صادمة أنّ شخصيات كان يكن لها سابقاً الاحترام و التقدير و تحظى بمكانه عالية لديه، مثل، فاغنر، شوبنهاور تفتقر في الواقع إلى هذا الهدف و تفتقده تماما و بطريقة موجعة و هي ليست كما كان يعتقد سابقاً. (و لا ننسى هنا أن نضم إلى هذه القائمة اسم الفيلسوف يوجين دوهرينغ الذي كان نقد نيتشه للقيم المعاصرة على ما يبدو موجها نحوه). لقد كان جميع أولئك، من وجهة نظر نيتشه، راضين و مقتنعين بما كان يقومون به، و كانوا يقبلون

الأشياء على علاتها دون طرح الأسئلة و إثارة الاستفسارات، يبجلون الأشياء و يقبلونها على حالها و كأنّها الحقيقة الكاملة، مع أنّه لم يكن هناك إمكانية أخرى.

((الدرب الثالث: نسأل ما إذا كانت القرارات العظيمة المتخذة مناسبة للمواقف الإيجابيّة، أو الحالة الإيجابية أم لا. لم يعد هناك إله أو إنسان أعلى مني. إنّها غريزة و حاسة الرجل المبدع الذي يعرف أين يضع قدميه كي يعمل و يشتغل. المسؤولية العظيمة الملقاة على عاتق شخص ما و البراءة هي... (حقوقا مقتصرة حكراً على القلة أو النخبة – التي دائما تحارب من أجل الحرية و لا تلبث دائما أن تكسب الجماهير. الكثير من الناس، بل أكثرهم إذا جاز التعبير، سوف يفنى و يهلك مع بلوغ المرحلة الثانية. نستثني ربما من هذا أفلاطون و سبينوزا اللذان ربما يجتازان هذا الاختبار بنجاح؟)))[17].

لم يكن موقف نيتشه الفلسفي الجديد و حالة السلب بمنزلة المحاولة الأخيرة في حساباته. كان السّؤال المهم الذي يدور في فلك هذه المقاربة هو ما إذا كان الينبوع و المصدر الإبداعي للحياة الموجهة، و الذي يجرؤ على القيام بهذه الخطوة اللازمة المتطرفة، قادراً على إحداث الحالة الإيجابيّة. حالة الإيجاب الحقيقة تصمد دائماً أمام الصعوبات و تجيب عن كل التساؤلات. لم تعد هذه الإيجابيّة الواقعية التي يطالب بها نيتشه تصدر عن الآخر، على سبيل المثال، عن الله أو عن الشخص المبجل، و لا من ((شخص أعلى مني))؛ بل تأتي فقط و حصراً من حالة الإبداع و الخلق. لقد بلغنا الحد الأقصى و النهائي الأخير، و لكن بمعنى إيجابيّ و ليس سلبياً: ((أنّ يُكفَل للمرء حَقّ أن يعمل، خلف أو ما بعد قيم الخير و الشر – ألّا يشعر بالعار من جَراءِ أو بسبب القدر و فعله، و أن يتماهي مع القدر و يقول أنا القدر. عليه أن يشعر أنّه يمسك بيده الجنس البشري كُلّه و يقرر بحسم مصيره بدلاً عنه)).

يتفق التحليل- الذاتي، الذي يتطلع بأثر رُجعيّ و إستعادي للأحداث الماضية، في صيغ متنوعة عند نيتشه، و يتماهى بوضوح مع محاولتي التحليل- الذاتي الذي أخذت مكانها تماما بالتزامن مع التحولين الكبيرين الذين حصل لنيتشه و لاسيَّما في عام (1876) و(1880):

(1) **الخطوة اللازمة الأولى**: خلال السنوات التي أعقبت عام (1876)، أعلن نيتشه التخلي عن وجهات نظره الميتافيزيقية-الفنّية التي هيمنت بشكل واضح على كتاباته المبكرة الأولى. لقد

رفض نيتشه كلّ ((المعتقدات الخرافية في العبقرية و الروح الحارسة للنبوغ)) و رمى بها بعيداً. يقول نيتشه ((الآن، و أول مرة، لدي وجهة نظر بسيطة لا تعقيد فيها عن الحياة الإنسانية)). و في رسالة كتبها إلى السيدة ماتيلدا ماير، يقول نيتشه: ((الميتافيزيقا تجعل كلّ شيئاً حقيقياً و بسيطاً غامضاً و ملبداً بالغيوم، إنّها معركة مع العقل ضِدّ العقل...هذا الذي يجعلني في نهاية المطاف أشعر بالغثيان و السقم أكثر فأكثر منها... الآن، أهز بقوة الأشياء التي لا تعود إلي و تخصني، الناس الأصدقاء منهم و الأعداء على حدّ سواء، العادات و التقاليد، و سائل الراحة و الرَفَاهيَة و العزاء، و الكتب (من رسالة كتبها إلى ماتيلدا ماير، 15 تموز، 1878).

يقوم موقف نيتشه الأساسّي الآن على الاعتقاد أنّه أخيراً قد عثر فعلا على ذاته. فبينما كان يتحدث سابقاً عن الفلسفة و الفلاسفة، بدأ الآن يمارس و يضطلع بمهمة عملية التفلسف بنفسه – بهذا الصدد يقول: ((فيما مضى كنت أبجل الفلاسفة، أما الآن فقد أصبح لدي جرأة السعي الدؤوب وراء الحكمة بذاتها دون عون الآخرين، الآن أنا نفسيّ الفيلسوف))؛ (من رسالة إلى فوكس، حزيران، 1878). كان يرى نفسه قريباً جداً مئات المرات من الإغريق و يحث الخطى الثابتة المتقدمة نحوهم: ((في كلّ جزئية من الجزئيات و في كل تفصيلة من التفصيلات، أنا الآن الذات التي تتوق من أجل العيش، الذات التي تصارع من أجل الحكمة بالمعنى الإغريقي القديم – بينما كنت فيما مضى، أبجل و أعبد شخصية الحكيم)) (من رسالة ماتيلدا ماير، 16 تموز، 1878).

(2) الخطوة اللازمة الثانية: منذ عام (1880)، و الأعوام التي تلت، بدأ نيتشه شيئا فشيئا يخرج من حالة ((القفر)) و السلبية الفكرية و يدخل في حالة الخلق و الإبداع الإيجابيّة – و كانت الحوادث التي وقعت على مدار هذه الأعوام ذات تأثير عميق عليه، و لكن تظل علاقتها غامضة فيما يتعلق في طبيعة الأفكار الجديدة التي أسفرت عن نفسها لاحقاً. تطور النمط، الذي غدا فيه نيتشه واعياً بهذه الحالة و يمتلك فهماً-ذاتياً محدداً عن هذا التحول، بين عامي (1880) و (1883). يمكن أن نقتفي أثر هذا الفهم من بدايات الضعف الثقيلة الوطأة التي هيمنت على نيتشه لغاية انبثاق مفهوم واضح للجديد:

كان وعي نيتشه بمهمته دائماً واضح لا يحتاج إلى برهان. فقد كتب ذات مرة إلى صديقه جيرسدورف حول كتابه ((ولادة التراجيديا)) الآتي: ((أقوم هنا في هذا النصّ بنزهة هادئة متمهلة، أسير ببطء خلال قرون من الزمن، أخبرك فيه عن قناعات عميقة راسخة، حيث يتم التعبير عن

أشياء أبدية أول مرة. أرخّنة هذا النصّ الفلسفي هو نداء إحساس الجمال، و المسؤولية – إنّهُ الأصبع الذي تُلبسه خاتمك)). غير أن هذه الكلمات – إذا تمت مقارنتها بالقياس إلى حالة الوعي-الذاتي عند نيتشه لاحقاً تعبر في نفس الوقت عن حالة الإذعان عن مضض، البساطة، الاعتدال، الهدوء و عدم المغالاة، من حيث إنّه كان يتخيل نفسه ينتسب إلى دائرة الشخصيات التاريخية المؤثرة صاحبة الإنجاز الواحد العظيم. حالة الطاعة و الإذعان عن مضض هذه السِمَة كانت مسيطرة بشكلٍ أكبر أيضاً على نصّ ((إنساني مفرط في إنسانيته)) – في هذا الوقت يقدم نيتشه الملاحظة الآتية: ((ليست لدي أيّ نيه، أو أدعي لنفسي الحق، إن أتسلى و استمتع بأفكاري الكُلّية بل حتى مجرد الحديث عنها بطريقة خطابية. حتى الآن تنتابني من حين لأخر، أكثر المشاعر بؤساً و شقاءاً، حتى إنّ الإحساس بالوحدة و معاناة المرض، السبب الذي يوجب علينا أن نقدر أحسن التقدير تلك النماذج النادرة من القوة النفسية التي كنا نتمتع بها، جعلت إلى حدّ ما المساعي الفلسفية لا تخلو نوعا ما من الوقاحة و الصفاقة)) (من رسالة إلى جاست، 5 أكتوبر، 1879). لكن الآن، و تحديداً منذ منتصف العام (1880) – و لو أنّ الأمر في بداياته ضئيل و نادر بعض الشيء – أصبح التغير و التحول في قناعاتي فجأة فريد و استثنائّي على نحو لافت للنظر. مازالت المهمة يشوبها الغموض بعض الشيء، إنّها إنجاز لا يقتصر على خلق و إبداع روحي لشخص واحد ما بين الآخرين، و لكن طبقا للتحليل-الذاتي اللاحق لنيتشه سوف تقسم تاريخ العالم إلى نصفين، و عليه يصرح بالآتي: ((يبدو الآن الحال لي كما لو أني عثرت أخيراً على الطريق الصحيح و مخرج من الأزمة؛ مع ذلك، أمر مثل هذا ينبغي أن يتم الإيمان به و رفضه مئات المرات إذا جاز التعبير)). (من رسالة إلى جاست، 18تموز، 1880). و من مدينة مارينباد الجيكية تبدو الجمل الأولى من الرسالة التي بعث بها نيتشه إلى صديقه جاست مليئة بنبرة الثقة العالية بالنفس: ((يقيناً، ليس هناك الكثير من التفكير الجاد يوجد في الساحة الفلسفية منذ غوته، و ربما بوسعنا القول أن حتى غوته لم تكن الأفكار و الأشياء العميقة تراود تفكيره أو مرت عليه)) (رسالة إلى جاست، 20 آب، 1880). ثم نقرأ الآتي: ((غالبا ما كنت أجهل أو لا أعرف حتى كيف بوسعي أن أتحمل ضعفي (سواء تعلق الأمر بالروح، الصحة أو بأشياء أخرى) و قوتي (سواء تعلق الأمر في التصورات و الأفكار المحتملة أو في المهام الملقاة على عاتقي))) (من رسالة إلى أوفربيك، 31 تشرين الأول، 1880)؛ و غدا من الواضح أن هذه القوة، التي بدأ يشعر نيتشه، في قرارة نفسه، ببوادرها، هي تعبير عن علامة الحداثة و آليات الإنخراط بالحداثة، و الإبداع و التجديد الذي تطغي عليه و تغمره و أحياناً تربكه و تصيبه بأمارات

الحَيْرَة و الذهول: ((دون ثقل و وطأة المسؤوليات الجسام، التي لا يترك فيها إلاّ فسحة صغيرة للمعاناة و العذاب، لا يمكن أن تتوازن المهام الطاغية الملحة و المُحلقة بصور جنونية عالياً في السماء – دونها سأتحول حتماً إلى مجرد رجل أحمق)) (نيتشه يقصد هنا الإشارة إلى مرضه الذي تحول مع مرور الزمن إلى عجز و بات يذكره دائماً بأنّهُ أصبح مجرد رجل عاجز و ضعيف و غير مؤهل جسديا...) ((بشق الأنفس كنت قادراً على هز و التغلب على بؤس يومين متتاليين يقعان بثقلهما عليّ، مرة أخرى تلاحق حماقتي أكثر الأشياء لا معقولية و لا تقبل التصديق، تريد أن تستبدل ما معقول و ممكن الحدوث بما لا معقول و لا ممكن...أني أحيا و كأنّ القرون المنصرمة التي مرت ليس أكثر من عدم و سراب...)) (من رسالة إلى أوفربيك، تشرين الثاني، 1880). يتطابق النشاط و الفعل الجديد لنيتشه و يتماهى مع هذه الحالة المذكورة آنفاً بالضبط. لم يعد العمل الذي يقوم به نيتشه مجرد تمرين فلسفي صعب. في نصّه ((الفجر))، كتب نيتشه إلى أُخته إليزابيث، التي كانت دائماً تسّري عنه: ((هل تعتقدين أنك فقط تقرئِين كتاباً يتعامل مع جملة من الأفكار، هل مازلت تظنين أني مجرد كَاتِب عادي؟ أنّ زماني و ساعتي قادمة لا محالة)) (من رسالة إلى أخته، 19 حزيران، 1881). و في رسالة إلى صديقه أوفربيك، يقول نيتشه: ((يمثّل نصّ ((الفجر)) واحد من أكثر المشروبات الروحية أو النُصوص الروحية التي تصيب الرأس بالدوار، أنا بداية البدايات – ما الذي ما زال ينتظرني بعد. أنا قمة و ذروة الحياة – أنا حصيلة كل مهامي الصعبة...)) (من رسالة أوفربيك، أيلول، 1881). لقد بلغ نيتشه الحالة التي كان يعدّها سابقاً المرحلة الثالثة و ذلك في صورة أو هيئة المسؤولية المهمة التي ألقاها على كاهله القدر المزعوم و كان لزاماً عليّه الاستجابة لها و القيام بها و إنجازها.

ظل نيتشه يتذكر جيداً و دائماً شهري تموز و آب من العام (1881)، بوصفهما الوثيقة التي تؤرّخ إلى زمن الولادة الحقيقية لواحد من أكثر الأفكار عمقا و عبقرية لديه – أعني، فكرة أو مذهب ((العود الأبديّ)) – أسلوب يهاجم الفلسفي في وسائله و غاياته لأنّه يرى فيه تحطيم للنصّ القديم – و قد عبر نيتشه عن جوهر هذه الفكرة و جسدها في واحد من الرسائل إلى بعثها إلى صديقه جاست: ((الأفكار التي تلوح في الأفق، أفق تفكيري لم آلف أو أخبر مثلها من قبل. ربما أحتاج أن أحيا أعواماً طويلة كي أفهم كهنها)) (من رسالة إلى جاست، 14 تموز، 1881).

منذ بواكير عام (1881)، كان نيتشه يعرف جيداً، و بقناعة مكينة راسخة، و كان لسان حاله يقول، أن هناك شيئاً جديداً تماماً على وشك الانبثاق و الإعلان عن نفسه مع تنبية شديد اللهجة بخطورة تحققه بشكل لا مرد منه – شيء لم يكن بالضرورة خالي الوفاض من الجماليات. في رسالة كتبها نيتشه إلى صديقه أوفربيك، يقول: ((حينما تقرأ الكتاب الرابع ((القديس سانت يانواريوس)) من نصّ ((العلم المرح)) ستلاحظ أني دخلت فعلا في أجواء مرحلة جديدة من التفكير. كلّ شيء أمامي جديد، وسوف لن يحتاج الأمر إلى وقت طويل حتى تسفر مهمتي المستقبلي في الحياة عن وجهها المخيف المرعب)) (من رسالة إلى أوفربيك، أيلول، 1882). هذا العنصر الجديد في تفكير نيتشه يسفر عن نفسه لأول في نصّه ((هكذا تكلّم زرادشت)) بعد أن كشف النقاب عن البعض من أثاره في نصّ ((الفجر)) مع ملامحه المحددة المعالم بالطبع بدقة في نصّ ((العلم المرح)). في ضوء هذا العنصر الجديد – حتى قبل ظهور نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت)) – اعتبر نيتشه نصّ ((العلم المرح)) ينتمي إلى المرحلة الثانية من تطوره الفكري، و عليه ينتسب إلى الماضي، و كلّ ماضي يبقى مبعثراً و ملغزاً و مفزعاً و عرضاً حتى تتحكم فيه الفكرة الخلاقة؛ و عدّه عمل مضني و شاق امتدَّ قرابة ست سنوات (1876-1882). بهذا الصدد، يكتب نيتشه – الذي يقول نحن كُتّاب هذا العالم و قرائهُ – إلى لو سالومي ((كلّ تفكيري الحر أشرف على نهايته)) (من رسالة إلى لو سالومي، 1882). من جهة أخرى، حين ظهر الجزء الأول من كتاب ((هكذا تكلّم زرادشت))– بالمناسبة جاءت قصة هذا الكتاب من هاجس ملح يرفع عقيرته بالأسئلة الكثيرة حول قيم الخير و الشر الذي ما هي إلاّ نموذج من نماذج هذا الانحطاط– كان نيتشه واعياً جداً لحالة التبصر العميق و الحدّة الفكرية الثاقبة التي يتوفر عليها عمله هذا: ((إبَّان كتابتي لأفضل نصّ من نُصوصي كنت اتخذت في الواقع خطوة حاسمة كانت تنقصني الشجاعة للمضي فيها إلى أخرها في العام المنصرم)) (من رسالة إلى أوفربيك، 3 شباط، 1883). ((لقد ولى زمن الصمت و غدا من الماضي: دع زرادشت يخرج إلى العلن و ليسمع العالم... يفشي سره، و يبوح به إليك، و يخبرك إلى أيّ مدى من المديات يمكن لإرادتي أن تحلق عالياً في طيرانها... خلف كلّ الكلمات الواضحة و الغريبة تكمن أكثر الغايات و الأهداف و المقاصد جدية و خطورة و هذا يشمل فلسفتي كليًّا. إنها تؤرخ إلى بداية عملية الكشف عن ذاتي – لاشيء أكثر من ذلك!)) (من رسالة إلى جيرسدورف، 28 حزيران، 1883). ((إنّها مسألة ترتيب ضخم لا اعتقد مطلقا قد خطر في بال أيّ إنسان أو نفسه من قبل)) (من رسالة إلى أوفربيك، 11 تشرين الثاني، 1883). ((لقد اكتشفت موطني الجديد، و

أزحت النقاب عن أرضي الجديدة غير المعروفة التي لم تطأها قدم بعد و غير المأهولة سابقا أو معروفة لأيّ أحد آخر؛ بالطبع، مازال عليّ أن أقوم بفتوحاتي لها خطوة بخطوة)) (من رسالة إلى أوفربيك، 8 كانون الأول، 1883).

طبقاً للوثائق التاريخية التي في متناولنا، لا بعد عام (1876) و لا حتى بعد عام (1880)، شهدت حياة نيتشه تحولات عقلية عميقة، و بذلك أنتجت فكرة جديدة نافذة عميقة و فطنة – ففي كلتا الفترتين، لم يكن هناك إلاّ حادثة وجودية مهمة واحدة قام بتأويلها لاحقاً ضمن مخططه الدياليكتيكي الذي أحسن اقامته و أرسى قواعده على بِنَى و هياكل مناسبة إلى حدّ بعيد. و من أجل الإشارة إلى الأهمية العميقة التي تتوفر عليها هذه الحادثة، يتحدث نيتشه عن كلّ فرصة مناسبة جرب فيها حالة التغير في ((الذوق الفلسفي)) بصورة لم يألفها من قبل. يُفهَم ((الذوق الفلسفي)) عند نيتشه هنا بوصفهِ شيئاً يسبق منطقيا و زمانيا بشكلٍ جوهري أيّ حالة تفكير، أو تبصر، أو فطنة، أو نفاذ بصيرة، و أيّ حكم يتعلق بالقيم الأخلاقية: ((لدي مذاق فلسفي جديد، بيد أنّه لا يقوم لا على العقل أو المنطق بوصفه الدخيلة المناقضة لهذا العالم، أو على أيّ أمر حتمي)) (من رسالة إلى جاست، 19 تشرين الثاني، 1886). لكن المذاق الفلسفي كان يمثل لنيتشه في الواقع السلطة الأخيرة التي لها وحدها الحق في التحدث من أعماق الوجود:

بعد عام (1876)، لاحظ نيتشه، أول مرة، بغض النظر عن أيّ مضمون، مقدار التحول في ((ذوقه الفلسفي))؛ فلقد كان لدية رغبة في التغير و ((الاختلاف في أسلوبه الفلسفي)): لقد كان يعمل بجد كَيْ يبلغ حالة الدِقّة الممكنة في العَلاقة و المرونة بكلّ الحركات، و الوصول إلى حالة الاعتدال الحذر في استخدام العدة الفلسفية المثيرة للشفقة و السخرية في كتاباته المبكرة التي تطغي عليها ((إلى حدّ ما سمة الاحتفالية و الأبهة و الفخامة و الخطوات غير المتيقنة و رنينها)). لقد اكتشف نيتشه أنّ كتاباته المبكرة الأولى كانت لا تحتمل و أمر لا يطاق، لأنّها كانت تتحدث ببساطة ب ((لغة التعصب)).

بعض الأقوال، فيما يتعلق بمذاقه الفلسفي الجديد، و تفكيره الذي كان على هذا النحو، ظهرت ملامحها بوضوح بعد عام (1880). حول كتابيه ((ولادة التراجيديا)) و ((إنساني مفرط في إنسانيته))، يقول نيتشه: ((لم يعد بوسعي أنّ أطيق كلّ الأشياء المذكورة في هذين النصّين، أتمنى الآن من قلبي أن أنضج بسرعة و أتخلص من (الكَاتِب و المُفكِّر) الذي يُدعى نيتشه)) (من رسالة

إلى جاست، 31 تشرين الأول، 1886)؛ و خلال السنة الأخيرة أقصد عام (1888)، كان نيتشه يلقي نظرةً إجمالية إلى الوراء متذكراً الوقت الذي ظهرت به فكرة أو مفهوم ((العود الأبديّ)) أول مرة، و بهذا الصدد يكتب: ((حينما أرجع بذاكرتي إلى الوراء بضعة أشهر من تاريخ هذا اليوم الذي لا ينسى، أعثر على نذير أو بشير يتنبأ و يتكهن بالتحولات الحاسمة و المفاجئة في ذوقي الفلسفي...)).

المرحلة الثالثة على وجه الخصوص — ترتيب مؤلفّات نيتشه ربما يقود المرء ليفترض أنّه و خلال المرحلة الثالثة بدايةً مع الخطوة اللازمة الثانية، كان نيتشه يمتلك الحقيقة – الفكر لا يكون خيراً إلاّ في طاعته للحقيقة – كلها و قد نجح في التعبير عنها. لكن تلك المرحلة كانت في حالة تدفق و تحول مستمر. وضع نيتشه مطالب ضخمة و مسؤولية كبيرة على كاهله و كان يغامر إلى أقصَى الحدود و لا يخشى شيئاً إطلاقاً. إنّ ما مثير للاهتمام في هذا الوقت هو الطريقة التي تتخذ فيها المهمة عند نيتشه شكلها حين يعمل في نُصوصه المتعاقبة على إنجازها الوشيك. بعيداً عن حالة الرضا عن ما توصل إليه، غدا نيتشه واعياً تماماً بكلّ شيء لم يعد منجزاً بعد. ينبغي لخططه و تقييماته لما تم إنجازه أن يُجمع و يُفهم في سياق زمني يرتكز بشكلٍ رئيس على أقواله.

مرتين، و تحديداً في عام (1884) و (1887)، يشعر نيتشه، في قرارة نفسه، بالقطيعة المعرفية و الحاجة إلى التوقف فجأة عن الطريقة التي كان يفكر بها سابقاً و محاولة القيام ببداية جديدة من الأساس:

(1) حِينَمَا ترك نيتشه عمله ((هكذا تكلّم زرادشت)) غير منجز بعد كان هدفه الجديد هو بناء هياكل فلسفته الحقيقة. لقد وضع النموذج المنظم للعمل الذي يروم إنجازه كما كان مخططاً له. كما كان أيضاً يدعو للقيام بدراسات جديدة وضع لبنات برنامجها على النحو الآتي:

كانت لدى نيتشه رغبة كبيرة في العمل على ((إعادة و تنقيح و صياغة)) وجهات نظره ((الميتافيزيقية و الإبستمولوجية السابقة على حدّ سواءَ)). يقول نيتشه: ((يقتضي الأمر مني أن أسير الآن خطوة خطوة داخل السلسة الكاملة من ميدان المعرفة الأخرى، الذي يوجد انسجام تام بين جميع مستوياتها و فروعها و أبعادها، و تدريباتها المنضبطة، لأني قررت و عقدت العزم بلا رجعة أن اقضي الخمس سنوات القادمة في أكمال الخطوط الرئيسية لفلسفتي التي انتهيت من بناء مدخل لها بواسطة رسم شخصية زرادشت)) (من رسالة إلى أوفربيك، 7 نيسان، 1884). طبقاً لهذا القصد،

يكتب نيتشه بعد شهرين لاحقاً: ((الآن و قد انتهيت من وضع أسس مدخل إلى فلسفتي، عليّ أن أواصل عملي مرة أخرى... حتى يكتمل البناء الأساسيّ الرئيس الكامل و يقف بثبات أمامي...خلال الأشهر القادمة، أعمد بكل وضوح إلى رسم نموذج لفلسفتي و برنامجها لسنوات الخمس القادمة)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، 2 أيلول، 1884). بعد أكثر من ثلاث أشهر، نجح نيتشه في إيجاد و بناء هذا البرنامَج: ((انتهيت للتو من المهمة الرئيسية في هذا الصيف – في السنوات الست القادمة سأكرس جهودي لغرض الدراسة المفصلة للمخطط أو الرسم التخطيطي الذي وضعته بفضل تَرْجَمَة الخطوط العريضة لملخص فلسفتي)) (من رسالة إلى جاست، 2 أيلول، 1884).

و لكن في الوقت الحاضر، لم يكن هناك أيّ تقدم ملحوظ خلف أو ما وراء هذا الرسم التخطيطي و البرنامَج الموضوع. بدلاً عن ذلك، كان هناك شيء جديد و غامض يلوح في الأفق يحتاج إلى وسيلة للتعبير عن نفسه. حتى الآن، يقتضي الأمر منا القول أنّ المسافة التي وضعها نيتشه بينه و بين كل الأشياء، و لا نستثني هنا حتى شخصية زرادشت، كانت أساسية و فاصلة و حاسمة و راديكالية لا مندوحة منها: ((كلّما كتبته حتى الآن ليس بمجمله سوى مقدّمة إلى الآتي...أنا مشغول الآن في الواقع بأمر أكثر خطورة. فمرة، أنصح الألمان، و بطريقة شعبية رائجة، بقراءة شوبنهاور، الذي لم يتخلص من تأثير كانط، و الاستماع إلى موسيقى فاغنر حيث كلاهما يزجي التحية للمثال الزهدي؛ بالمناسبة الزهد و الاستسلام و الفضيلة و الموضوعية هي الإشارة التي تكشف بأنّ الشيء الأساسيّ بدأ ينقصنا؛ و مرة أخرى، أفكر بواسطة شخصية زرادشت – بالنسبة لي، هذه هي التَجارِب الحقيقية، و لكن ما أهم من ذلك أنّ هذه التَجارِب هي نفسها بالنسبة لي أماكن خفية سرية، ألجا إليها من حين إلى حين كي أستريح هناك)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، 20 أيار، 1885).كان نيتشه بشكلٍ دائمٍ ممتلئاً بفيض من الأفكار، و كان خاضعاً تماما إلى الباعث و الناظم الأساسي الذي يجمع و يوحد هذه الأفكار، كان واعياً بحالة الجدة غير المسبوقة التي يتوفر عليها تفكيرها؛ لكن كان عليه أن يسأل نفسه إذا كان من الممكن التعبير عن الجوهر الحقيقي لحالة الوعي هذه. بهذا الصدد، يقول نيتشه: ((تقريباً يوميا أملي الأوامر على نفسي لساعتين أو ثلاث، و لكن فلسفتي، إذا كان لي الحق أن أطلق عليها هذا الاسم، و التي تخضعني متطلباتها التي لامفر منها إلى معاملة قاسية و خشنة تمتد عميقا حتى جذور وجودي، أفكارها غير قابلة لنقل و النشر...)) (من رسالة إلى أوفربيك، 2 تموز، 1885).

مع ذلك، لم يلزم نيتشه نفسه العمل على وضع أسس البِنَى الرئيسية لفلسفته، و هو إلى ذلك لم ينتظر لمدة سنوات طويلة كما وعد. على العكس، فقد كتب نيتشه و نشر نصّي ((ما بعد الخير و الشر)) و الذي لا يعني، على كلّ حال ما بعد الطيب و الخبيث، و ((في جينالوجيا الأخلاق))، و كلاهما ميدان يضمن للعبارة الواحدة معاني مختلفة لكنها متقاربة الدلالات في نفس الوقت. تمتاز هذه الكتابات التي تكشف عن طبيعة التفلسف عند نيتشه – حيث قدم نيتشه هذين النصّين بنفسه إلى النشر – بالكمال و لكنها دون نظام. فهي بديل شرطي و مؤقت عن العمل الرئيس، و ليس الهدف النهائي؛ و كان نيتشه يعدّ هذه الكتابات تنتسب إلى مرحلة ((الكتابات التمهيدية التحضيرية)). في الواقع، لم يكن الشك يراود نيتشه و لو للوهلة أو يخدع نفسه في هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً؛ اكتمال هذين النصّين تركه مع حالة وعي متحمس لإنجاز هذه المهمة. للمرة الثانية و لاسيَّما في عام (1887)، كانت هناك مجموعة أو جملة من الأقوال تبين أنّ نيتشه كان واعياً أنّه قريب أو أصبح هكذا من إنجاز خاتمة لشيء ما و على أعتاب بداية الشروع في إنجاز شيء جديد غير معروف أو مطروق من قبل.

هذه الأقوال، التي كانت تأخذ صيغ الرسوم التخطيطية و الجداول الزمنية للعمل، التي بدت لي ذا دلالة كبيرة، تشبه إلى حدّ بعيد تلك الأقوال التي أطلقها نيتشه على مدار عام (1884). و لكن يبدو أنّ نيتشه، و تحديداً في عام (1887)، قد تعرض مرة أخرى إلى أزمة فكرية و روحية هائلة، مع أنّ مهمته، كما لاحظنا، كانت منصبة ببساطة على الاهتمام في فلسفته العظيمة و مشغولا في إنجازها على مدار كل المرحلة الثالثة. إذا أخذنا أقوال نيتشه وفقا للترتيب الزماني، أو نافذتها الزمانية، فيمكن تقديمها على النحو الآتي:

القول الأول من هذه الأقوال يرجع بنا إلى عام (1884) الحافل بالذكريات: ((هناك هاجس مُلزَم يلح عليّ في إرساء دعائم بناء مترابط لأفكاري خلال العام القادم، يرافقه بالطبع ضغط يزداد يوماً بعد يوم مئات المرات)) (من رسالة إلى أوفربيك، 24 آذار، 1887). لكن شيئاً مهماً و حاسماً يلوح في الأفق كان يجب أن يحدث: ((أشعر أن فصلاً جديداً من حياتي أشرف على البَدْء فعلا – و أن المهمة ، التي كنت أبحث عنها، واقفة و شاخصة كُلَّها و برّمتها أمامي)) (من رسالة إلى جاست، 19 نيسان، 1887). لا تتطلب هذه الحادثة الحاسمة، التي وقعت عام (1884)، ببساطة تعلم أشياء جديدة عدّة: ((الآن، احتاج بصورة ماسة أنّ أعزل نفسي بعيداً – احتاج إلى ذلك أكثر بكثير من

حاجتي إلى البحث و الاستقصاء و تعلم 5000 مشكلة ومسألة منفصلة)) (من رسالة إلى جاست،15 أيلول، 1884). أما هذه الرسالة الآتية، فإنها تعبير عن خطط نيتشه في المستقبل: ((من الآنَ فصاعداً، لن أنشر أيّ عمل و لسنوات عدة – أنا منسحب تماماً من الكتابة و سوف انتظر لحين من الزمن حتى أهز شجرتي مرة أخرى كي أقطف ثمرتها الأخيرة)) (من رسالة إلى أوفربيك، 30 أب، 1887). و في نصّ ((في جينالوجيا الأخلاق))، يكتب نيتشه – الذي يقول عندما أكتب أحاول أن أفسر العالم – الآتي: ((مع انتهاء العمل في هذا النصّ، تكون نشاطاتي التمهيدية قد أشرفت على الانتهاء أيضاً على نحو طارئ)) (من رسالة إلى أوفربيك، 17 أيلول، 1887). كان نيتشه واعياً تماما للوضع كليًّا: ((يبدو أنّ عصر ما قد انتهى لي)). (من رسالة إلى أوفربيك، 12 تشرين الثاني، 1887). هذه الخطوة اللازمة تعمق من شأْن الوعي: ((أنا ... وَسْط مهمة تأخذ الرجال و الأشياء بعين الاعتبار، و عليه سوف أعزل نفسي بعيداً (من الآنَ فصاعدا). تقريباً، كلّما ما أقوم به الآن يساوي نهاية مرحلة الكتابة...ينبغي أنّ أذهب الآن للبحث عن صور جديدة، و أول ما احتاج إليه، العزلة، الانفصال، الابتعاد و القطيعة...)) (من رسالة إلى فوكس، 14 كانون الأول، 1887). إنّ هذه المعرفة في إنجاز خاتمة كلّ شيء تعدّ نهائية عند نيتشه: ((حياتي الآن تقف على مرتفع مساء سامي ملئةُ المعنى و المدلول: باب يوصد و آخر يفتح على مصرعيه... الآن و قد انتهت مهمتي مع الرجال و الأشياء و كتبت النهاية بيدي. مَنْ، و ماذا تبقى لي؟ ينبغي عليّ الآن أن أحثَّ الخُطا باتجاه الهدف الرئيس الفعلي لوجودي... هذا السّؤال الآن لي حيوي و حاسم...)) (من رسالة إلى جيرسدورف، 20 كانون الأول، 1887). ((مهمتي الآن تكمن في أن استجمع أفكاري بأكبر قدر ممكن تقتضيه الدِقّة كي تنضج ثمار حياتي و تصبح حلوة المذاق)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، 26 كانون الأول، 1887)

بيد أنّ نيتشه، الذي كان يعيش هذا الأمل بوصفه المدافع الكلاسيكي عن كل من شأنه أن يتبنى حُجَّة الأَقْوَى، لم يواصل السير في الطريق الجديد الذي قرر و عقد العزم أن يقتفي أثره، بل أن شيئاً آخر بدأ يشغل باله و يحتل مركز اهتماماته الأولى. بدلاً عن العزوف عن النشر لسنين، و بدلاً من أن يترك ثماره تنضج في أجواء تأملية هادئة، بدأ نيتشه بعد عدة شهور بنشر سلسلة من الكتابات تحديدا في عام (1888). ففي إيقاع قسري فرضه هذا العام، رمى نيتشه العالم بجملة من المؤلفّات العدوانية الهجومية المشاكسة الآتية: (((ضِدّ فاغنر))، ((أفول الأصنام))، ((عدو/ ضِدّ المسيح)) و ((هو ذا الإنسان))). لم تعد مهمة نيتشه بناء فلسفته الكاملة، بل كان يروم بدلاً عن ذلك

أن يبرهن على هدف جديد يصنع التاريخ و يلقي الضوء قاصداً على أزمة أُورُوبَّا ، التي بدأ الانحطاط و المرض و الكلل و الشيخوخة ينخر أوصالها، و التي بلغت الذروة. لقد بدأ صوته، الذي أشرف على بلوغ الانهيار، بالصراخ قليل قبل أن يصاب في اضطرابات حادة في الدَّماغ جعلته يغرق تماماً في الصمت.

علينا أن نطرح السّؤال الآتي، و بمعيته جملة من التفسيرات، هل بلغت أعمال نيتشه، طبقا إلى شهادته الشخصية و مَقَاييسهُ، حالة الكمال، حتى لو كان هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، لا يتطلب أكثر من عرض و تقديم واضح و موضوعي، في ضوء مجموع الملاحظات و الكراريس و الكنشات المجمعة التي تّم العثور عليها بعد وفاته، الحالة أو المثال الذي كان يروم التعبير عنه.

أعطى نيتشه بنفسه الإشارة الأولى التي تقول بأنّ فلسفته الكاملة لم تبلغ مراميها و لم تنجز بعد: كان يردد المرة تلو المرة منذ عام (1884) حتى عام (1888)، و يختار في كل مرة تقريبا نفس الكلمات و العبارات، أنّ لديه رؤية داخلية واضحة عن فلسفته كليًا، و لكن كان يعرف أيضاً أن تحقيق هذا الهدف فعلياً و تنفيذه أمر بعيد المنال لا يمكن أن ينجز. إنّ ما كان ينوي و يضمر نيتشه إنجازه، طبقا لوعيه و مقاصده، منذ عام (1884) لم يتحقق إطلاقاً فعلاً. كان نيتشه يتصور بوضوح ما ينوي القيام به: ((هناك بعض الساعات أو الأوقات التي تترأى فيها أمام عيني فلسفتي برّمتها (شيء ما يطلق عليه فلسفة منذ العصور القديمة السحيقة)...)) (من رسالة إلى أفروبيك، 20 آب، 1884). و في عام 1888، ظل نيتشه على نفس الحال، كان يرى فلسفته كليًا أمام عينه دون أن تتحقق أو يتم إنجازها فعلاً: ((إنّ ملامح المهمة الضخمة، فيما يتعلق بإنجاز فلسفتي الكاملة، تترأى أمام عيني بشكل واضح بعيد عن الضبابية و التشوش)) (من رسالة إلى أوفربيك، 3 شباط، 1888). يقول نيتشه أيضاً ((تقريبا كل يوم، لأكثر من ساعة أو ساعتين، أحشد كل الطاقة المطلوبة كي أرى فلسفتي كليًا من القمة إلى القاع، و من الأعلى إلى الأسفل أو بالعكس...)) (من رسالة إلى براندس، 2 أيار، 1888). كان نيتشه سعيداً، لأن صديقه بيتر جاست يفهم ماذا يقصد بفلسفته الكاملة، مع أنّها لم تظهر حتى الآن إلاّ على شكل شذرات مكتوبة: ((سوف ترى أن هذه الشذرات و النُبذات و النتف القصيرة المكتوبة سوف يتم تطويرها – إنها شيء يكبر و ينمو، و تبدو لي كما لو أنها تخرج من باطن الأرض و أعماقها، و في نفس الوقت من أعالي السماء الزرقاء!)) (من رسالة إلى جاست، 12 نيسان، 1887). لكن نيتشه كان يعرف أن هذه الفلسفة الكاملة ــــ التي شأنها شأن الأشياء

الطيبة، تظل زماناً طويلاً لا تجد في نفسها الجرأة و الإقدام فتنظر دائماً حواليها لترى ما إذا كان هناك من سيأتي إلى نجدتها، و الحال لا يجري على نحو مختلف بالنسبة للجميع الأمور الطيبة الأخرى الذي نفتخر بها اليوم ـــ غير موجودة بعد و لا يمكن أن تنجز.

لم يعد نيتشه، الذي كان أمله يخيب بالتدريج، يفكر كثيرا في رسم البنَى الأصيلة و الرئيسية لفلسفته، و لاسيَّما خلال الأشهر الأخيرة من جنونه، فقد نجح في أن ينقل كل فلسفته في عمله ((هو ذا الإنسان)) مع شعور عميق بالرضا. تشير كتابات عام (1888)، المحاولة بالضِدّ من الكلام و المقال الفلسفي المحشورة في شق قديم من شقوق المعرفة البشرية، أنّ نيتشه قد هجر فعلاً مساره المقصود السابق. إنّما يبدو مهمة مطلوبة يرافقها الآن أحساس غامر بالنجاح لم يخبرها نيتشه من قبل (شعور إلى حدّ بعيد يشبه، و لكن لا يتطابق أو يتماهي، مع شعور الإلهام – الذي لم يكن عنده تعلية للرتبة بل كان تِذْكِرَة داخلية في نفسه و شحذا لهمته لا أكثر – الذي أتاحته أيام كتابة نص زرادشت: ((أشعر بحالة من الصفاء – الصفاء ليس شيئاً سوى الشجاعة و التقدم و المرح الباسم و الرقص وَسْطَ فظائع العالم و نيرانه – و اليقين كوني أسير في الطريق الصحيح و أشعر إلى حد بعيد أني قريب جداً من تحقيق هدفي)) (من رسالة إلى أوفربيك، أيلول، 1888). يقول نيتشه: ((أنا الآن أكثر الناس امتنانا في هذا العالم – أنا في مِزَاج خريفي جميل بكلّ ما تعنية الكلمة من معنى. كل شيء يسير سهلاً بالنسبة لي، نجحت في كلّ شيء أقوم به، مع أنّه ليس هناك شخص، قبلي، قد تعامل مع هذه الأشياء العظيمة – تقتضي منا الأشياء العظيمة الصمت حيالها أو الحديث عنها بتعظيم)) (من رسالة إلى أوفربيك،18 تشرين الثاني، 1888). هذه هي بداية الإنجاز الذاتي الشخصي للأسابيع التي قضاها نيتشه في شعور من السعادة الغامرة قبل أن توافيه نوبات الجنون.

أما الإشارة الثانية فيما يتعلق بفشل نيتشه – قد يجد الآخرون متعة في قصتك أنت لا تجد فيها متعة – في تحقيق الهدف المنشود المخطط له، فهو التعبير الأخير لحالة فهمه لعمله قبل حدوث حالة الإندفاع الشديد له عام (1888). في نهاية عام (1887)، وضع نيتشه خاتمة لكل شيئاً كتبه حتى الآن، و على هذا يضيء: ((بالطبع، لقد كشف الوجود بدقة عن هويته و ما هو و مَنْ يكون – فهو في نهاية المطاف ليس أكثر من مجرد وعد فارغ)) (من رسالة إلى جاست، 20 كانون الأول، 1887). و قبل قليل من النهاية، و تحديداً حين كان نيتشه يعلق آمالاً كبيرة في الظُفُر ببعض من السنوات التي يقضيها في سلام و نسيان – ((في داخلي شيء ما يريد بعض الوقت كي ينضج – إنّهُ

على وشك النُضْج)) – يتحدث نيتشه إلى صديقه بول دويزن عن ذلك الشيء الذي كان يريد فعله (عن ذلك الذي كان يود كتابته) و لكن مازال لم يأتِ أو يرَ النور بعد، الشيء الذي يعد بمنزلة عقوبة – ((عقوبة متأخرة و تبرير لوجودي (الوجود الذي يصبح بطريقة أخرى و لمئات الأسباب إشكاليّة أبديّة و مستديمة))) (من رسالة إلى دويزن، 3 حزيرن، 1888). كان نيتشه على بينة إنّهُ قد ((أنجزَ فعلاً شيئاً عظيماً بالرغم من كلّما حدث))، و لكنه في النهاية عليه القَبُول بالحقيقة الآتية: ((على أن اعترف و بشجاعة أني لم أذهب أبعد أو أكثر من المحاولات و المغامرات التي قمت بها، لم أذهب أبعد أو أكثر من المقدمات التمهيدية و الوعود التي قطعتها)) (من رسالة إلى جاست، 13 شباط، 1888). لم يحظَ نيتشه بفرصة الذَّهاب أبعد من ذلك أو عمل أكثر من ذلك. بدلاً من أن يوفي بالوعود التي قطعها على نفسه، كان نيتشه أسير البواعث العدوانية الساحقة و الغامرة التي قادت إلى كتابات النصف الثاني من عام (1888).

العنصر الثابت في الكشف عن الكل. —— حين نعيد النظر و نراجع مسار تطور نيتشه الفكري، المشهد الذي ساهمت كل الصدف في إنتاجِهِ، وجدنا أن المرحلة الثالثة تعد المرحلة الأكثر أهمية كونها تبرز الملامح الرئيسة لهذا التطور: تكشف هذه المرحلة وحدها النقاب عن الطريق النهائي الذي سلكه نيتشه في التفلسف في أحسن حالاته و أكثرها أصالة. و من جانب آخر، تلقي الضوء على حالة التماسك الفكري العقائدي الجازم الذي تتوفر عليه. فالمراحل الأولى و الثانية لم تكن بمجملها سوى مراحل تمهيدية تعبد الطريق و تهيء التربة الخصبة للمرحلة الثالثة. و لكن مازال علينا أن نطرح سّؤالاً ما إذا كان نيتشه نفسه يعبر عن شيئاً واحداً ثابتاً لا يتغيّر في جميع الأوقات، وما إذا كانت المرحلتان الأولى و الثانية ليس إلاّ مراحل تمهيدية للمرحلة الثالثة و لا تختلف عن المرحلة المبكرة لشخص لم يجربهما بوصفهما حالة تمهيد، بل وجد فيهما الناصح و المرشد الروحي الملائم و المتجانس روحاً و طبعاً مع شخصيته.

العَلاقة بين هذه المراحل الثلاث في تطور مسار نيتشه الفكري، في الواقع، واضحة؛ لأن الفكرة التي تصل إلى نسبة الكمال عند نيتشه في تطورها في وقت لاحق تظل دائماً حاضرة في كل مراحل هذا التطور، حتى لو كان بصعوبة ملاحظته – ثم أن ذلك الذي يظهر في وقت لاحق على هوامش تطوير هذه الفكرة يظل مستوعباً و محتفظاً به أيضاً داخل هذا التطور و في ثنياه. على سبيل المثال، حين حاول نيتشه تطوير فكرة ((الروح الحرة))، أعلى قوة للقدر، خلال المرحلة

الثانية من تطور مساره الفكري، فإنّ هذا الأمر لم يكن بالمرة يشكل قطيعة أو توقف عن التفكير بالطريقة التي كان يفكر بها سابقاً، و لا هو تحول إلى المرحلة المعاصرة في التفكير في ((الروح الحرة)). فنيتشه لم يكن يفكر إطلاقاً في ((الروح الحرة))، كما يفكر البعض ممن سبقه، بوصفها شيئاً فاجراً و ماجناً أو كشخص يمتلك إيماناً مثيراً للشفقة في الحرية – الحرية لا وجود لها. و نحن لا نجدها على الأرض. لن تجد على الأرض إلاّ الصراع من أجل الحرية. نحن نصارع من أجل شيء لا يمكن بلوغه، و لهذا السبب لم يعد الإنسان حيواناً. لم يكن نيتشه على استعداد لتقديم ((صور كَارِيكَاتُورِيَّة أو مشوهة عن الروح الحرة الفكرية القلقة و الجادة التي ينبغي أن يتم تبجيلها وعبادتها)). بل على العكس، كان يود التعاطي معها، بطريقة منهجية، و أن يعزل نفسه و يدفع بطريقة التفكير غير المرتبطة بأيّ نوع من أنواع الإيمان التقليدي إلى أقْصَى مدياتها. كان تفكير نيتشه، المتجذر و المبني أصلاً على أساس مهمة تحطيم الأصنام و تقويضها و يرى تلك ضرورة قصوى، يبحث عن معنى للحرية نعيش بفضله. حتى في المرحلة الثانية من تطور مساره الفكري، بوسعنا أن نلاحظ أنّ نيتشه لم يكن منشغلاً كثيراً في حالة العشوائية التي نعيشها أو كانت من أوليات اهتمامه؛ بل كان مهتما في المقام الأول في ((خلق رابط كهربائي يصعق به قرائه على مدى قرن من الزمن – كان مهتما في موت فضاء و ولادة أخر جديد تمارس الحريات الروحية وجودها بفضله)). من جانب أخر، كان نيتشه، في هذه المرحلة، أيضاً يصر على الدور الحيوي الذي يمكن أن يلعبه العلم – المؤرخ و الناقد و المحلل و المفسر و الملاحظ و القارئ كلهم مواهب ارتكاسيَّة، كلهم ينتمون للعلم عنده – الذي اكتسب نوعاً من الاستقلالية مع مناهج و قوانين و مبادئ و معطيات ضرورية، بل يمجده، كان يقوم بذلك بصورة متواصلة مع أنّه كان لا يكف عن توجيه الأسئلة الناقدة الجذرية للعلم مراراً و تكراراً. في هذا الوقت، كان نيتشه يروم ببساطة أن يكشف النقاب عن دور العلم، أو الوجدان العلمي التي أمسى هاوية أو مهاوي سحيقة ظل الاعتقاد لوقت طويل أنها غير مأهولة، كما لو أنّهُ استيقظ لتو من حلم ما، حيث ((وجد أن من الضروري للمرء أن يستوعب و يهضم المذهب الوضعي تحديداً و بكامله)). يقصد نيتشه في المذهب الوضعي هنا على وجه التحديد المعرفة الواقعية الموضوعية الصلدة، و يضيف إلى تلك مباشرة أنه لا يبغي ((المذهب الوضعي بحد ذاته، بل يريد فقط أنّ يوظفه كأساس و وسيلة إلى المذهب المثالي)).

تسمح لنا الكتابات، التي عثرنا عليها بعد وفاة نيتشه، على ملاحظة أنّ الرجل كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن هذه الكتابات لم تكن ناضجة و جاهزة بعد للنشر و تحتاج إلى وقت طويل كي يتم

التعبير عن أفكارها إذا كان في مقدورنا فعل ذلك. بيد أنّ ما يبدو متناقض في أقوال نيتشه المعلنة هو في نفس الوقت يعبر بوضوح على أن هذه الأقوال مرتبطة في الواقع بعضها مع البعض الأخر بطريقة جوهرية. بهذا الصدد، ربما تكون ملاحظات نيتشه النقدية عن ريتشارد فاغنر – شعوذة ريتشارد فاغنر الفائقة إضافة إلى براعته الحقيقية، كذبته في إرضاء أرفع الأذواق في ميدان الفن؛ و لهذا لم يبلغ قدراً كبيراً من العظمة. إنّه يملك منظوراً متحولاً، تارَة يوجهه نحو الرغبات الفظة و تارَة نحو الرغبات الحقيقية – في عام (1874) مثال يثير الإعجاب: فهذه الملاحظات تحتوي على وجهات نظر أساسية تعبر عن ذات المضمون في الملاحظات الكثيرة الجدل و السجال الذي كتبه نيتشه في عام (1888)، مع أنّ رائعة بايرويت كان قد تمت كتابتها بموافقة متحمسة من السيد المؤلف في أواخر عام (1876). في الاتّفاق مع ذلك، يعترف نيتشه في عام (1886) أنّه خلال مدّة نشر الكتابات التي تتعاطى مع شوبنهاور و فاغنر (المرحلة الأولى) ((لم يكن يعتقد بأيّ شيء إطلاقاً، كما يقول المثل الشعبي، بل حتى في ما كتبه شوبنهاور)). في هذا الوقت تحديداً، أنتج نيتشه عملاً مهماً لكنه ظل الأمر سراً لم يكشف النقاب عنه: ((الجانب اللاأخلاقي للحقيقة و الزَيف)). ينطوي هذا العمل و يحتوي فعلاً على تأويل للحقيقة ينتسب و يرجع إلى مرحلة التفلسف اللاحق لنيتشه.

كان هناك الكثير من المعاناة، و لنحترس عند قرأتنا كلمة ((معاناة)) من أن ينتابنا الغم و الكآبة، و الصرخات الحادّة المتألمة التي تظهر على طول مسار تطور نيتشه الفكري. في الواقع، قراءة دقيقة متفحصة لهذا المسار تبين أن المرحلة الثالثة لم تمنح نيتشه حالة الصفاء، السكون، الهدوء و الراحة النفسية التي يأمل بها و يعلق آمالاً كبيرة عليها؛ بل أعطته بدلاً عن تلك طريقة جديدة في التفكير مأزوّمة و قلقة دائماً. و كما كانت كلّ حياة نيتشه مليئة بالحماسة المنقطعة النظير المتقدة و المتزايدة التي لم تجد سوى التعبير غير المباشر عن نفسها في المرحلة الأولى من مسار هذا التطور، كذلك هيمن الإحساس بالسلبية على حياه نيتشه و ظهر في المرحلة الثانية كتحليل موضوعي فيما أسفر عن نفسه في المرحلة الثالثة كحالة وعي كبير في الأزمة التي يعيشها. مع أنّ عامي (1889) و (1881) شهد اِفْتِتاَحات مرحلة الإنجاز، فقد كان نيتشه يرى في كل أزمة يعيشها و يجربها مناسبة تعبر على أنّ هناك شيئاً ما مفقود لديه، شيئاً مازال لم يأتِ بعد – كان نيتشه في كل مرة يتخلى عن الطريق الذي يسير فيه قبل أن يحظى بموطئ قدم أو أرضية جديدة؛ عموما، لقد تخلى عن أيّ مرفأ أو ميناء كي يواجه وحده العواصف اللامتناهية في بحر مفتوح متلاطم الأمواج

في كل اتِّجاه و باتساع. في هذا الصدد، أثبت مرحلة إنجاز نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت)) إنها غير كافية بالمرة – المهمة مازالت شاخصة أمامه برّمتها ، فكأنّ حالة الإثبات والإيجابّ الذي يحظى بها تقدم نفسها له بواسطة حالة النفي، و في الواقع كحالة سلب. تقدم الحالة الإيجابيّة نفسها إلى نيتشه كحالة جذابة و مفهومة لكنها سرعان ما تتحول و تنقلب إلى شيء يختلف تماما عن ما يبحث عنه. و بهذا، يصبح السلب/النفي أقْوَى حين يستولي على حالة نيتشه و يهاجمه بسبب إخفاقه في بلوغ الحقيقة الكاملة للوجود. كُلَّما حاول نيتشه الإمساك بسِمَة إيجابيّة تماماً لشيء ما كُلَّما يشعر أنه أسيرٌ و مقبوض عليه بواسطة شي يضرب بعنف و بلا رحمة و يهاجم كلّ ما في حوزته. لقد جرب و عاش نيتشه هذه الحالة بلا توقف، و نتيجة لذلك قبل تحدي كبير لا حدود له، سببَ له في نهاية المطاف أزمة متواصلة لحياته الروحية. لقد مر نيتشه من المؤكد في العديد من الأزمات، و لكن لانعرف إلاّ القليل عنها.

زد على ذلك، نحن نعي جيداً المكون و المرتكز الثابت و غير القابلة للتغير عند نيتشه، و لاسيَّما حين كان مشغولاً و منغمساً في التأويلات المتطلعة إلى الوراء و استعادية للأحداث، الذي تؤكد بطريقة مثابرة جهوده الأولى الذي تتطابق و تتماهى في المضمون و بشكل أساسي مع فلسفته النهائية. في عام (1886)، حين انتقد نيتشه في نصّه ((ميلاد التراجيديا)) المفاهيم الآتية: (((ميتافيزيقا الفن))، ((الرومانسية)) و ((التعزية-المؤاساة)) الميتافيزيقية) أدرك مع ذلك أن هذا النصّ في جوهره، كما تّم التعبير فيه عن إعادة ولادة ديونيسيوس، يشير إلى مقاصده الثابتة نفسها. يدعي نيتشه إنّه كان يصل دائماً في حياته بعد الأزمات الروحية إلى ذات القرارت: ((هذه القرارات دائماً مكتوبة من قبل، تخفي نفسها و تلفها تحت ستار من الضبابية بقدر ما تستطيع في نصّ ((ميلاد التراجيديا))، و كلّ ما تعلمته لاحقاً هو كيف أكون مندمجاً و منصهراً معها و أصبح جزءاً منها)) (من رسالة إلى أوفربيك، تموز، 1885). لقد لاحظ نيتشه في كتاباته المبكرة نفس البواعث الفكرية التي ظلت تحركه لاحقاً في حياته: ((حين اطالع و اتفحص كتاباتي... اكتشف أنّ الكثير من حالة الرضا-الذاتي التي أتمتع بها مردها إلى أني مازالت واقفا بذات المواقع و محافظا على نفس البواعث الفكرية التي تمفصلت و غدت مع مرور الزمن أكثر وضوحا و رسوخا... فضلاً على ذلك، مازلت أحيا طبقا لخططي الأولى الأصليّة (– أعني، شوبنهاور كمربي))) (من رسالة إلى أوفربيك، صيف عام 1884). بخصوص كتاباته عن فاغنر و شوبنهاور، يقول أخيرا: ((في كلا

العملين أنا وحدي من يتحدث و يتوقع... فلا فاغنر و لا شوبنهاور تّم عرضهما و تقديمهما من وجهة نظر سيكولوجية في هذين النصّين)) (من رسالة إلى جاست، 9 كانون الأول، 1888).

على العكس، لقد توقع نيتشه، و في عمر مبكر، و عبرَ عما يريد أن يكونه، و ما الذي يضمره و ينوي القيام به فعلاً. بل كان يراوده أيضاً حدس واضح كيف ستؤول الأمور و كيف ستكون نهايته. يقول نيتشه: ((ينتظرني شعور الوحدة الرهيب و المريع الذي يهاجم أخر الفلاسفة! تحيط به الطبيعة الفجة و القاسية من جميع الجهات، و نسور كاسرة تحوم فوقه تريد الفتك بي)). في هذا الوقت، كتب نيتشه ((أنا خطابات أخر الفلاسفة مع نفسه))، الذي يفتح أفاق عدّة متجددة للتفكير و التأويل و المعاني الاجتماعيَّة و الإبداعات الرمزية. يقول نيتشه: ((أطلق على نفسي لقباً أخر الفلاسفة، الفيلسوف الأخير، لأني ببساطة الرجل الأخير، لا أحد يتحدث معي أو يتوجه إلي بالحديث إلاّ نفسي، كما يأتي إليّ من بعيد صوتي يحدثني كرجل مَيْت!...بواسطته أخبئ وحدتي عن عيني نفسي و أسير بين جموع العامة و الحب على طريق الأكاذيب؛ و لأن قلبي...لا يقُوَى إطلاقاً على تحمل الأحاسيس التي تثير فينا الخوف – الخوف الذي يوقظ من النشوة المقدسة – و الهلع و شعور الوحدة، أفرض على نفسي بالقوة أن تتحدث معي كما لو أنّنا شخصان حميمان مختلفان)). كتب نيتشه هذه المقطوعة حين كان أستاذ في جامعة بازل، يحيط به الأصدقاء من كل صوب، يعيش في أوج حماسته و انحيازه للموسيقار فاغنر، خلال قسط النجاح الذي ناله نصّه ((ميلاد التراجيديا))، و حين لم تكن فكرة كتابة نّص ((هكذا تكلّم زرادشت)) تلوح لديه في الأفق أو تنضج بعد أو ربما حتى تخطر على باله.

و أخيراً، بوسعنا حقاً أنَ نتعلم الكثير من كتابات نيتشه في حِقْبَة الشباب، الممتدة تحديداً ما بين عام (1858) إلى عام (1868) بطريقة مدهشة – فحتى حين كان مجرد صبياً يافعاً، يعبر نيتشه بدقة عن البواعث و الأفكار التي غدت فيما بعد جزء من فلسفته اللاحقة في مرحلة النضج الفكري.

و أول هذه الأفكار المبكرة عند نيتشه هي توقف المسيحية، بفضائها العقلي القروسطي التي تظهر في مظهر الأرفع شأنا و الأكثر جدارة بالاحترام في هيئة الأُلُوهِيَّة، على أنّ تكون الصيغة المناسبة التي تزودنا بالثقة، القناعة المكينة و الشجاعة و تشبع الأعماق العميقة المظلمة للإنسان، و بذلك، غدت موضوعاً يثير بالنسبة لنيتشه الشكوك و يخضع للنقد و السّؤال. بهذا الصدد، يقول نيتشه: ((الثورات العظيمة على وشك الوقوع، الاندلاع، حين يعلم العامة أنّ المسيحية، مع رهبان

الصليب، مجرد دين قائم على افتراضات نسبية مقلوبة و شاذة في جوهرها زائفة لا صحة لها – يصبح وجود الله الذي يرثي المرء لقلة المخيلة لديه، سلطة الإنجيل، خلود النفس، و الوحي مجرد مشكلات عويصة إلى الأبد. أحاول أن أنكر كلّ شيء: من السهولة أن نهدم الأشياء، و لكن من الصعوبة أن نقوم ببنائها!)). يتحدث نيتشه هنا عن إعلان القطيعة مع كلّ ما هو موجود، لقد كانت تنتابه سراديب الهواجس ((و تستبد به الشكوك، ما إذا كانت الإنسانية قد تّم تضليلها فعلاً لأكثر من ألفي عام بواسطة الصور الزائفة المتخيلة التي لا صحة لها – فالصور الذي تصل إلينا من الخارج إلى دماغنا مقلوب حيث يُقَومها الجهاز العصبي. و هناك ناس لا يمتلكون هذا الجهاز العصبي فيكون كلّ شيء عندهم مقلوباً. أحكم أنت كم هذا متعب)).

زيادةً على ذلك، إنّ مفهوم الإنسان الذي غدا أكثر من إنسان ينبثق الآن فعلاً، و بهذا الصدد، يقول نيتشه: ((فقط الطبائع العميقة الكاملة قادرة أن تكرس نفسها مع عاطفة مشوبة و شغف رهيب متكامل للمهمة التي تريد أن تخرج الإنسان من مسارات و قيود الإنسانية)). إنّ ما هو أكثر من إنسان، و في أكثر المعاني ثورية، يسير بقوة نحو الأفق الفارغ للزمان اللامحدود للمستقبل المرتبط بفكرة الصيرورة الأبديّة. ثم يضيف: ((بعد كلّ شيء، و بعد كلّ هذا الوقت، من الصعب أنّ نعرف ما إذا كانت الإنسانية بذاتها... مجرد مرحلة من المراحل أم مدّة زمنية معينة في إطار قانون الكل العام لعملية الصيرورة... السّؤال هل هناك حدّ أو نهاية لهذه الصيرورة الأبدية؟)).

أيضاً، تظهر هذه التأملات الإيجابيّة، المأخوذة من الحِقْبَة المعاصرة، فعلاً حين يسأل نيتشه، على سبيل المثال، ما الذي يجعل أرْوَاح الكثير من الناس و نفوسهم تنحدر إلى هذا المستوى من الضحالة؟ ثم يجيب عن هذا السّؤال قائلاً: ((البنية و التصميم المهلك و المميت لجمجمة الإنسان و عموده الفقري، مركز و طبيعة أبويه و عملهم، شيوع كلّما هو عادي و تافه في بيئته...)).

و كما لو كان الهدف الأخير لعام (1888) متوقعا، كان نيتشه، الذي يقول إذا كنت تهمني شخصيا فأرجوك أن تلقي عليّ الاتّهام ((يفكر في الإطاحة بحزم، وبأسرع ما يمكن، و التخلص من ماضي العالم كليًّا – كان يريد الإنسان، المعاقب دون أن يكون بوسع العقاب أن يصل يوما إلى مؤازرة مرتبة الذنب، أنّ يصبح في مصافي الإلهة المستقلة و يكون شأنه شأنهم)) – و لكنه تبين ((أن كلمة تاريخ لا تعني أيّ شيء لنا عدا أن تكون مثل نشوة حلم، إسدال ستائر، طريق يعثر فيه

الإنسان بسذاجة على نفسه... طفل يستيقظ في صباح وردي متوهج يطرد ضاحكا بالسوط الحلم المخيف البارحة من رأسه)).

أمر غريب كل الغرابة، أن يعبر نيتشه – صاحب العين الباردة و النظرة الأبدية، و هذه بالمناسبة السمة المميِزة و الغالبة لمصيره و قدره، و هو مايزال فتى لم يتجاوز ربيع الخامسة عشرة (1859) بالكاد يتلمس طريقه مع أفكار غامضة و مترددة، و بطريقة لا تتوافق بتاتا مع وضعية الفيلسوف – عن فكرة الانعتاق و التحرر الذي يقود إلى حالة الاستقلال الجذري التام في هذه الأبيات الآتية:

لا أحد يجرؤ أبدأ

أنّ يطرح عليّ السّؤال بطريقة فظة و طائشة

أين يا تُرى سيكون منزلي و مأواي

إطلاقاً، لا يمكن للمكان أنّ يأسرني و يقبض عليّ

و لا الساعات الهاربة للزمان بوسعها اعتقالي في ثناياها

حراً أنا كالنسر أحلق عالياً، عالياً

الأصدقاء وشعور الوحدة

لم تمنع رغبة نيتشه المشوبة بالعاطفة لتواصل مع من حوله شعور الوحدة الفظيع من الازدياد و التضخم بفعل عوامل كثيرة خلال حياته – بالمناسبة قليلة هي الأمور التي تحدث عنها نيتشه بمل الثقة التي تحدث بها عن مفعول هذا الشعور – و قد شكلَ فيها علامة ممِيزة و واقعة أساسية ثابتة. تزودنا رسائل نيتشه، التي تمثل جزءاً حقيقياً و فعلياً لعمله لا ينفكّ في المحصلة النهائية عن حياته، ببينات موثقة تنطوي على إمكان يتيح لنا التحدث عن اختلافاته و تناقضاته.

تشتمل علاقات نيتشه على أناس من مناصب و رتب عالية مختلفة. كانت لنيتشه علاقات و روابط بشخصيات ذات مكانة عالية في زمانه. و كان محاطاً حقاً بأناس غير عاديين و استثنائين. بيد أنّ نيتشه لم يسمح في أن يكون أسيراً لتلك العلاقات و بالتالي لم تدمْ لفترة طويلة.

و لنذكر على هامش هذا السياق الآتي: تزودنا دراسة الوثيقة التاريخية لصداقات نيتشه ــــ الطريق الخاص الذي تصل كل واحدة فيه إلى مرحلة تؤتي فيها ثمارها، التعبير عن ماهياتها الحقيقية، مظاهر تطورها و التوقف و الانقطاع النهائي لها ــــ برؤية لا غنى عنها لوجود نيتشه كفيلسوف بالإضافة إلى تَجْرِبة لا مثيل لها عن إمكانات علاقات الصداقة و الزمالة التي عقدها مع أشخاص مختلفين و توطدت عراها. لا يقاس غنى و قيمة الصداقات بعدد الأشخاص الذين كان نيتشه يرتبط بهم بعَلاقة حميمة، لاسيَّما لا أحد يعرف حقاً ما يخبي له المستقبل، و إنمّا بتنوع الاتجاهات التي يمكن أن يفضي إليها و يؤدي إليها تحقق هذه الإمكانات التي تتوفر عليها هذه الصداقات و العلاقات فعلاً. تنحصر مهمتنا، في المقام الأول، في فهم هذه الصداقات كإمكانات و من ثم التعرف على الكيفية التي نشأت فيها حالة الوحدة التي قاساها نيتشه بالرغم من وجود هذا الكم من العلاقات. سنحاول في بحثنا أن نكشف النقاب عن الوقائع و الحقائق الآتية:

كان نيتشه مرتبطاً بعَلاقة عميقة بصديقين حميمين، هما: أروين روده و ريتشارد فاغنر. لم تستمر هذه العَلاقة طويلاً، وبالرغم مما ترتب عليها من نتائج غير سارة، أصبح هذان الشخصان بمنزلة صديقي الروح لنيتشه لبقية حياته. مادام كان برفقتهم فإنّ نيتشه لم يكن يشعر بالوحدة بعد إطلاقاً. و لكن بعد انقطاع عَلاقة نيتشه بهم بدأ بالحال و بشكلٍ صادمٍ مسلسل الشعور بالوحدة القاسي لنيتشه.

و هو يعاني من حالة الوحدة القاسية، و المرء حينما يمعن النظر طويلا في هذه الهوة تجتاحه تعاسة مريرة و مثيرة للأعصاب، حاول نيتشه أن يقيم علاقات جديدة بأصدقاء جدد، هما (بول ري، لو سالومي، التي كان ينظر إليها نظرةً في غاية الرومانسية، و ج. في. شتاين) معتقدا أن هناك نوعاً من الكيمياء تمشي بينهم. و بينما لم تكن تلك الشخصيات على مستوى أو معيار عالي أو تتمتع بنفس المكانة التي كان يتمتع بها صديقاه أروين روده و ريتشارد فاغنر اللذان قطع علاقته بهما، إلاّ إنها لم تكن شخصيات عديمة الأهمية أو تنقصها المكانة الاجتماعية اللائقة – و لكن، و كما كان الأمر من قبل، تسبب كل واحد منهم لنيتشه لاحقاً بخيبة أمل و إخفاق من نوعاً خاص أو على طريقته الخاصَّة. على مدار هذه الحِقْبَة، كانت هناك شخصية تقف في خلفية صورة هذه العلاقات هي: بيتر جاست، لم يكن هذا الرجل يحظى بنفس المكانة التي يحظى بها أصدقاء نيتشه الثلاث، الذين عقد الصلات معهم و عانى منهم الآمرين، كان مولعاً بخيالات نيتشه و يسبح في فضاءتها، و كان حقاً يقوم مقام البديل المناسب عن الآخرين لتعويض نيتشه عن كلّ ما ينقصه أو ما كان محروما منه في علاقته بهم.

بعض العلاقات الإنسانية، المعتقلة في إيقاع حاجاتها، خلافا إلى العلاقات السيئة الحظ الكثيرة التي أقامها نيتشه، كانت تمد يد العون و الدعم له في حياته. بيد أن كلّ ما تبقى من هذه العلاقات لم يكن له تأثير عميق على طبيعة نيتشه أو مهمته الفلسفيّة. و كإنسان لا يستطيع أن يستغني عن حالة الأمان (*Geborgenheit*)، التي لم يتوقف عن البحث عنها و حتى إلى تقصيها و التحري عنها، لم يوفق نيتشه ببساطة في العثور عليها لا في العلاقات الدائمة و لا في أيّ صيغة أخرى: لم يعثر نيتشه على حالة الأمان الذي كان يبحث عنها، مع أيّ فرد من أفراد عائلته أو في الصلات و البيئات الاجتماعيَّة شبه الدائمة التي كان يقيمها مع الكثير من الشخصيات البارزة، التي لم يترك ذهابها و مجيئها المستمر في حياته أيّ تأثير عميق و دائم يذكر عليه. كانت علاقات نيتشه الاجتماعية و الفكرية المتنوعة مع الكثير من الشخصيات البارزة تفتقر إلى سمة الوفاء و الإخلاص، و لم يقتصر الأمر على ذلك بل أمتد ليشمل حتى علاقته بصديقه أوفربيك الذي كان لا يبخل في تقديم يد العون و الدعم المستمر إليه.

في كلّ علاقته بأصدقائه كانت النتيجة دائماً تضخم و ازدياد الشعور بالوحدة عنده. علينا أن نعرف كيف غدت الوحدة بالضرورة سمة الاستثناء لوجود نيتشه. و بما أنّ الأمر يبدو كما لو أنّ

نيتشه لم يكن يفتقد أو يحتاج إلى الشروط الأساسية في تواصله خلال حياته كلها، فإنّ من الأهمية أن نفهم أنّ مهمته الفلسفيّة تحديداً، كما كانت، قد استنفذت فعلاً كلاً من قواه الفكرية و إمكانات عقد صلات الصداقة – التي يمكن أن تضعف، فهي ليست ذات هوامش واسعة – و التواصل مع الآخرين. و بالرغم من أن موقفه و وجهة نظره من الوحدة التي يعانيها و لم يسعفنا في تقديم الإجابة الشافية عن سؤالنا، فإنه مع ذلك يلقي الضوء عليها.

روده و فاغنر. — فقط اثنان من أصدقاء نيتشه أدّى دوراً مهماً و مصيرياً في حياته هما: أروين روده، صديق مرحلة الشباب، و ريتشارد فاغنر، الفنان الوحيد المبدع – الذي كل جزء من أجزاء عمله، و كل دور من أدوراه، محدّد، و لا مكان لأيّ شيء فيه إلاّ إذا كان ذلك معنى بالنسبة للمجموع – الذي كان يكبر نيتشه بثلاثين عاماً. كلا الرجلين كان يحظيا بإعجاب لا متناهي منقطع النظير من قبله.

وصلت عَلاقة نيتشه، ذات الحماسة العالية، مع روده[18] أوجها عام (1867). كان الاثنان، نيتشه وروده، يأتيان إلى المحاضرة معاً ((كأرواح متألقة متوهجة، مليئة بالقوة و الصحة و شجاعة الشباب، يرتدون زي الفروسية و مازالت سياط ركوب الخيل في أيديهم، يثيرون إعجاب الآخرين و كأنهم إلهان قادمان من السماء))[19]. لقد كان يطلق عليهم اسم ديوسكوري [التوأمان كاستر وبولكس]. كان كلاهما يشعر أنّه منفصل و مختلف عن الآخرين و((متفوق عليهم)) (رسالة من روده إلى نيتشه، 10 تشرين الأول، 1867). كان الاثنان يرتبط أحدهما بالآخر بشراكة أخلاقية-فلسفية يغلب عليها طابع الجدية: حالما يبدأ ((النقاش بينهما و يتحول إلى الخوض في الموضوعات العميقة حتى تسود حالة من الهدوء و الانسجام و الوفاق و التصالح بينهما قل مثيلها))[20]. لقد بدأ الحِوار و تبادل وجهات النظر و النقاش الجدي بينهما فعلاً في عام (1867). كان الرجلان يشتركان في مِيزة واحدة هي رفض أطروحات ((العصر الحالي))، عشقهما لشوبنهاور و فاغنر، تقدير و رأي عالي و سامي يكناه لمفهوم الدراسات الفيلولوجّية، استيعابهم و تمثلهم و تقديرهم للروح الإغريقية الرفيعة و السامية. و لكن مع حلول عام (1876) أصبح تبادل الرسائل بينهما، بفعل زواج روده، أقّل بكثير من قبل. و بعد هُنيهة من الزمن، توقف الصديقان عن تبادل الرسائل بينهما و لفترات طويلة، و لم يكن يتواصلان أو يتبادلان التحايا إلاّ في المناسبات أو ما ندر، و قد انقطعت علاقتهم نهائيا، و لا نعرف أين عصفت بها الريح، مع بداية مرض نيتشه عام (1887).

على غرار النهر المتدفق العذب، تمثل مراسلات الأعوام (1876-1867) وثيقة غير قابلة للمقارنة تورّخ لعلاقات نيتشه التلميذ الشاب المحلق في عوالم عالية. كانت واقعة أو حقيقة عدم استمرار نيتشه في علاقاته بأصدقائه إذا توخينا الدِقّة أمر حاسم و لكنها غدت في نفس الوقت تمثل تقريباً رمز لحقيقة أن الأخير كان يتحرك مدفوعاً برغبات و مطالب مطلقة تفرضها حقيقته الوجودية التي لا تطق العالم البرجوازي و أنّ كان ممثلوا هذا العالم من حوله لا يخلون من صفة النبل الإنساني. ما السبب الذي يكمن وراء ابتعاد نيتشه و انفصاله عن هذا العالم البرجوازي؟ هذا هو السّؤال الذي ينبغي الإجابة عليه.

مع الأخذ بعين الاعتبار الإخفاقات الفكرية اللاحقة، بوسعنا أن نكتشف، في الرسائل المتبادلة ما بين عام (1867) و(1876)، الآثار الممِيزة اللاحقة التي تشير إلى الخطر القادم و الهدوء الذي يسبق العاصفة:

في علاقته بصديقه نيتشه يعدّ روده نفسه محظوظاً بوصفه الشخص المتلقي للعطايا فيما يعتبر نيتشه المانح لها، فهو الشخص الذي ما انفكّ أن يقول: ((أنا انتمي إلى أولئك الذين سيبنون المجتمع الفلسفي الجديد)). في هذه العَلاقة كان روده يعدّ نفسه التلميذ، أنّها عَلاقة المبدع بغير المبدع – بهذا الصدد يكتب روده رسالة يعرض فيها اعتذاره و طلبه بكثير من الكياسة: ((بالنسبة لي، يبدو عدم انضمامي إليك في رحلة صيد الدرر و الآلئ في المحيطات العميقة للتفكير تخلي و نكران غير مُغتفر؛ بدلاً عن ذلك أسلي نفسي بحثا عن الفرح الطفولي و السعادة في صيد الأسماك الصغيرة و الحشرات الفيلولوجّية الضارة... و لكن خلال أوقاتي السعيدة المفضلة أنت معي دائماً حاضر في تفكيري و لا تغيب عن بالي... دعنا، يا صديقي العزيز، نكون دائماً معاً كواحد، حتى لو كنت أنت من يقوم بإزميله بنحت تماثيل الآلِهة السامية و أنا من يضع النمنمات و التفاصيل الصغيرة عليها)) (22 كانون الأول، 1871).

كان توق و شوق روده إلى صديقه الوحيد أكثر و أقْوَى و يفوق حتى توق نيتشه إليه، لما كانت صداقة الأخير، التي تتسم بالود و الِدفْء، تتحرك في الأساسّ بدافع مهمته الفلسفيّة. تعبر النبرة و الأسلوب العام لرسائل روده إلى نيتشه و تفصح عن الكثير من الحب الصادق المخلص لصديقه كما لو أنّه حشد كل عاطفته و ركزها نحو صديقه فقط. فهي تظهر مناشدات و نداءات روده المتكررة من أجل رسالة أو حتى سطر واحد مكتوب يتلقاه من نيتشه. لقد كان روده قلقاً و تراوده

الشكوك ما إذا كان نيتشه حقاً مخلصاً مثله و حسن النية و متعاطفاً يشاطره نفس الود و مشاعر الصداقة.

في عَلاقة روده مع نيتشه كان الأخير كالمركز الذي تدور حوله كل الكواكب. كان الأول لا يمتلك شيئاً يقدمه مقابل أو بالقياس إلى كتابات نيتشه و مشاريعه و أهدافه و طموحاته ذات السقوف العالية. كان روده يقدم المساعدات الفنّية، فيما يتعلق في الأبْحَاث الفيلولوجّية و حججها، التي يطلبها نيتشه منه عن طيب خاطر. بلغت هذه المساعدات ذروتها، حينما وقف الاثنان، رفاق سلاح في الجيش، بالضِدّ من الفيلولوجّي الكلاسيكي إينو ويلامويتز، مع أنّ تلك المساعدة تعبر عن صداقتهم أكثر من يكون عقد فيلولوجّي فكري جرى الاتّفاق عليه بينهم مسبقاً. و حين تّم نبذ نيتشه من قبل مجتمع الفيلولوجّيين، عبر روده عن موقفه الشجاع حين هَبَّ لمساعدة صديقه و الوقوف معه في هذا الوقت الصعب، و لاسيَّما في نشر أعماله ما كان لا يخلو من أن يعرض مهنة روده الأكاديميّة إلى الخطر و يلحق به ضرراً كبيراً.

بمِزَاج ينم على قدرة نادرة في حسم المسائل المهمة، أبدى روده لاحقاً موقفاً متحصفاً – بعد وجد نفسه بين المطرقة و السَّندان – كان حذراً و متعقلاً في مقارباته نحو كلّ ما هو متطرف، مسرف، مفرط و شاذ خارج عن العادة في أفكار نيتشه و مشاريعه: على سبيل المثال، فكرة التخلي عن العالم الأكاديميّ الشقي – التي لم تكن مشكلته في الشقاء بحد ذاته؛ بل كانت في عجزه عن الإجابة عن هذه المسألة لماذا هذا الشقاء؟ – و البائس و أجوائه الخانقة و تشكيل بدلاً عن ذلك جمعية عَلمانية مدنية؛ كانت مقاصد نيتشه تكمن في نقل أو التنازل عن منصب الأستاذية في الجامعة إلى روده في حين يتفرغ هو نفسه و يكرس حياته فقط لنشر أعمال فاغنر (بواسطة جولة من المحاضرات و ما شابه)؛ و أخيراً، كانت معظم التصاميم و الأطر الثقافية الباهظة لنيتشه المرتبطة بسلسلة من الواجبات و الأعباء الشاقة المرتبطة بها غير واضحة لروده من أدنى أساسّ فيها إلى أعلى الذرائع، الحجج و الادِّعاءات التي تقدمها و هي إلى ذلك لا يمكن أن تنجز بطريقة واضحة و ناجحة. هذا الموقف الدفاعي المعتدل من نيتشه الذي اتخذه روده كان لا يعبر لا على الرفض و لا على حس التفوق و السمو عليه.

دون قول أو القيام بأيّ شيئاً محدد و دون سابق أنذار، بدأت بوادر القطيعة في عَلاقة روده مع نيتشه تطفو على السطح و بدأت تأخذ شكلاً أكثر وضوحاً، و لاسيَّما بعد أن أصبح موقف روده

الحصيف المتعقل نحو أفكار و مشروعات نيتشه كصديق أكثر حكمة و حصافة و اعتدالاً و تروي، لقد شارفت المشاعر الأولية الصادقة نحو صديق الشباب – التي لم يستجبْ لها نيتشه أو يبادل روده نفس مشاعر الصداقة التي كان يتوقعها – على الموت و بدأت تنقطع و تلفظ أنفاسها الأخيرة، حيث توقف نيتشه أن يكون أو يمثل لروده المثال الملهم. كانت هذه الأمور تحدث أحياناً بين رجلين دون أن يكون هناك أيّ تدخل واعي لأيّ واحد منهم. في حالة روده، لقد طرأ تغير دقيق إلى حدّ بعيد، بينما كانت مشاعر نيتشه، التي شهدت زيادة و ارتفاع ملحوظ في وتيرة الشوق نحو صديقه، ظلت كما هي لم تتغير طوال مدّة التحولات التي شهدها تفكير نيتشه. منذ عام (1876)، أصبحت رسائل روده إلى نيتشه أقّل صدقاً يغلب عليها طابع التصنع و التكلف، بينما ظل نيتشه يعبر عن ذات المشاعر القديمة نحو صديقه بطريقة بسيطة و مؤثرة.

زد على ذلك، كانت أسباب اِنْفِصَال و الابتعاد بين الرجلين واضحة. ربما يكون حادثة زواج روده الذي يتزامن مع توقف المراسلات بين الاثنين السبب الأبرز و القشة التي قصمت ظهر البعير. لقد أوفت عَلاقة نيتشه و أشبعت حاجات روده للحب و التواصل لدرجة إنّها أصبحت محايدة منذ أن عثر الأخير على مشاعر الرضا و المتعة في نمط و طراز أخر مختلف. من جانب أخر، وصلت قوة مشاعر نيتشه نحو روده إلى درجة لم تعد تودي أو تقوده إلى حيوية الشباب، لكنها ظلت كما هي طوال حياته لم تتغير. فضلاً على ذلك، بعد زواجه غدا روده أكثر ارتباطا بالعالم البرجوازي و مؤسَّساته، يقبل آراءه، و يمارس و يضطلع بمهمة قواعد وظيفته الفيلولوجّية بانتظام بعيداً عن نيتشه.

كان التناقض و الخلاف، المتضخم بفعل عوامل كثيرة، بين طبيعتي الرجلين المختلفة يؤشر إنهما يمثلان حقاً عالمين متمايزين. ففي شبابهما، كان الاثنان يعيشان في عالم لامحدود من الإمكانات و يشعران بالألفة و التقارب بواسطة طموحاتهم الحيوية الغزيرة و الضخمة. لاحقاً، سلك كل واحد منهم طريقاً و اتجاهاً مخالفاً عن الآخر. بينما ظل نيتشه و بقى شاباً في روحه، تاركا العالم العيني الملموس مؤمنا في مهمته ومشروعه الذي يتوفر على معنى و حس وجودي. بدأ روده يكبر في السن، و أصبح يعيش عيشة برجوازية مستقرة يلقي بظلال الشك على من حوله. من الآنَ فصاعداً، باتت الشجاعة السمة الأساسية لنيتشه، فيما غدت السخرية و الاحتجاج السمة الطاغية على روده.

هيمن إحساس المعاناة المتواصل، الذي تشير إليه حالة الشك و الشوق في مرحلة الشباب على روده، بقوة و أصبح سمة أساسية في طبيعته و سلوكه بطريقة مؤثرة يرثى لها. بهذا الصدد، يقول روده، في رسالة يرجع تاريخها إلى بداية النصف الثاني من عام (1876) الآتي: ((لو كنت فقط باحثاً متكاملاً! خذ مثلاً فاغنر فهو شخصية متكاملة! لهذا السبب، أنا مجرد نصف باحث و ليس أكثر من واحد من عشرين بالمئة من فاوست))[21]. (2 حزيران، 1876) يعلم روده جيداً أنّ طريقه الذاوي و الذابل القلق سيقوده لا محالة إلى طريق المعرفة، بيد أن هذه المعرفة، بأهرامها الإبستمولوجية، عاجزة عن إنقاذه. ففي حالة من الشك التام و التردد، كان روده مطالب بأنّ يتخذ خطوة لازمة و حاسمة كما هو و واضح من هذين القولين الآتين:

في الثالث من كانون الثاني من عام (1869)، (حين بلغ الرابعة و العشرين من العمر)، كتب روده الآتي: ((اليقين الحقيقي الذي لا ريب فيه هو أرض الفلسطينيون، الناس الإصحاء، نموذج غوستاف فريتاج في الأستاذية، الليبرالية الوطنية الذكية للأغبياء. نحن أصحاب النفوس الضعيفة الواهنة لا نستطيع أن نحيا إلاّ في الطابع المؤقت المشروط، كما هو حال السمكة التي لا تستطع العيش إلاّ في الماء)). و في الخامس عشر من شباط من عام (1878)، (حين بلغ الثالثة و الثلاثين من العمر) كتب روده: ((في النهاية، ربما حالة من حالات الذهول و الدهشة المفيد تسمح للمرء و تجيز له أن يعيش في وضع جديد... زواجي كان بمنزلة الخطوة اللازمة الأخيرة التي جعلت من السلسلة المعقدة لتروس ساعتي أن تعمل أخيراً بانتظام ثابت لا يخذل... فيما يتعلق في الباقي، تدعو حالة الزواج – بوصفها عملية بيع محزنة تقود إلى العبودية؛ و استسلام آخر هو التفاني الزوجي – إلى الكثير من التأمل و إطالة النظر – إنّه شيء لا يصدق كيف بمقدوره أن يصنع الحياة، يصنع عصراً واحداً؟ فهو بمعنى من المعاني يصل بالمرء إلى قمة لا يوجد بعدها أو خلفها أيّ شيء)).

تجدر الإشارة هنا أن روده قد حافظَ على البعض من اهتماماته السابقة و لكنه في المقابل تخلى عن الكثير من مواقفة التي كان يشاطر نيتشه في مرحلة الشباب، كان ينظر إلى عالم الإغريق بوصفه موضوعاً لتأملاته بدلاً من أن يكون جملة من القواعد و المبادئ و القوانين الملزمة – كان يبحث في ساعات مدينة بايرويت البافارية المنسية عن المشاعر الرومانتيكية الضائعة، و يخضع تفكيره تماماً إلى قوانين الفيلولوجّيا. بناءً على ذلك، مع حلول عام (1878)، لم يعد بمقدور روده أن

يفهم ما الذي كان يبغيه نيتشه و يريده منه و قد قال لنفسه و للآخرين بوضوح: ((بالنسبة لي، أنا هو أنا – أنا ببساطة لا استطيع الخروج من جلدي و أغير من نفسي)) (من رسالة إلى نيتشه، 16 حزيران، 1878). و لفترة طويلة من الزمن، و بالرغم من رفضه لها، ظل روده واعياً بطبيعة نيتشه السامية الرفيعة و المتفوقة: ((أشعر مرة أخرى بذات الشعور الذي يراودني دائماً حين نكون معا: للحظة أشعر مع نيتشه بالسمو– أشعر أني أحتل مرتبة عالية كما لو وجودي كله هو عبارة نبل روحي)) (22 كانون الأول، 1879). بيد أنّ نيتشه سرعان ما أدرك أن مسافة أو البون شاسع يفصل ما بينه و بين روده، فقد أصابته الحَيْرَة و الذهول من جَراءِ إحدى الرسائل التي تسلمها من روده، و بهذا كتب إلى صديقه أوفربيك الآتي: ((صديقي روده، كتب لي مؤخّراً رسالة طويلة يتحدث فيها عن نفسه، هناك شيئان في الرسالة سبب لي بالحقيقة الأذى كثيراً، الأول هو نوع التفكير الطائش فيما يتعلق بوجهة الحياة عند هذا الرجل؛ و الثاني، وفرة و فائض الذوق الرديء الذي تتوفر عليه رسالته سواء تعلق الأمر في الكلمات أو في التعابير التي يستخدمها (ربما يطلق البعض من الباحثين في الجامعات الألمانية على ما يفعله روده ب ((الذكاء و الفطنة)) – نسأل السماء و نصلي إليها أنّ تحفظنا من هذا المرض))) (28 نيسان، 1881). توقف نيتشه عن الإحساس بمشاعر الصداقة الأصيلة نحو روده، يقول نيتشه: ((يكتب روده أن التصورات التي يحملها نيتشه عني هي غير صحيحة بالمرة... الرجل غير قادر أن يتعلم أيّ شيء مني – ليس لديه أيّ تعاطف مع حبي و مشاعري، رغباتي الحبيسة و معانتي)) (من رسالة إلى أوفربيك، آذار، 1882). بالرغم من كل ذلك ظل روده يكن لنيتشه آيات الاحترام و التقدير المبالغ بها و التي جعلته في النهاية يضع مسافة بينه و بين نيتشه: ((أنت يا صديقي العزيز تعيش في مناخ و طريقة تفكير مختلفة عني تماماً: كما لو أنك رفعت نفسك عالياً في السماء و فوق ضباب الغلاف الجوي في منطقة بعيدة لا يستطيع أيّ أحد الوصول إليها نشعر كلنا فيها بالدوار و الدهشة و الاختناق و نريد أن نقبض على الهواء و نتنفس بأيّ ثمن...)) (22 كانون الأول، 1883). من الواضح للعيان أنّ هذا الاحترام و التقدير، الذي يكنه روده لنيتشه، لم يكن في الواقع تلقائياً و يشعر به من ذات نفسه – بل كان أمراً مفروضاً عليه، و لهذا تحول فيما بعد إلى حالة رفض قاسي و مغيظ عبر عنه بوضوح إلى أوفربيك و لاسيَّما بعد قراءة روده لنص ((ما بعد الخير و الشر)):

((انتابتني موجة عارمة و حالة كبيرة من الاستياء بعد الانتهاء من قراءة هذا النصّ ... إنّهُ مَلآن بالمهانة البغيضة لكلّ شيء و لكلّ شخص. الجانب الفلسفي الحق في هذا النصّ كالجانب

السياسي حَدث غر و مجزأ كله ساذج و غير واقعي بمعنى الكلمة... لا شيء فيه يتعدى المفاهيم النزوية الغريبة الأطوار.... لم أعد قادراً على أخذ هذه المُسوخ التي لا حدّ لها على محمل الجدّ.... ليس بوسع تعبيرات الطبيعة و الفطرة الموهوبة أن تنجز مهمة ما يريد أنّ يقوله.... أجد من الصواب تماماً القول أنّ هذه الأفكار، التي يريد نيتشه التعبير عنها، ليس لها أيّ أثر أو مفعول يذكر... قبل كل شيء، أجد هذا الكتاب على وجه الخصوص مزعجاً للغاية بسبب الغرور و النرجسية و التعالي المتضخم للكَاتِب... في ضوء حالة العقم الذي يتوفر عليها هذا النصّ، الذي يحجب ما يمثله أو يلعب عليه، يلقي الكاتب نظرةً مختلسة خاطفة على كل مكان مع عقل تقليدي و انتقائي صرف... و لكن مع أنّ كلّ ما قيل و ما فُعل و تّم عمله، يبقى نيتشه – في هذا النصّ – شئنا أم أبينا مفكراً نقدياً و سيظل كذلك... بيد أننا نحن الآخرون الذين لا نشعر بالرضا عن أنفسنا أيضاً لا نتوقع أيّ تبجيل خاص لكلّ عيوبنا منه. ما يحتاجه نيتشه هو أن يعمل بصدق و أمانة وفق نمط و طراز حصيف و بارع من أجل التغير. أنا، الآن، أقرأ السيرة الذاتية للودفيغ ريشتر كي أهدأ من روعي بعد قراءة نصّ نيتشه المثير للأعصاب حقاً)) (1886)[22].

و أخيراً، أنكر روده، أمام أوفربيك، أنّهُ ساعدَ نيتشه حينما كان الاثنان رفاقاً في السلاح في الوقوف ضِدّ الفيلولوجّي الكلاسيكي إينو ويلامويتز و وصف الحادثة بأنّها لا تعد أن تكون مجرد حماقة صبيانية من قبله[23]. في عمله ((الروح الإنسانية: عبادة النفوس و الإيمان بالخلود بين الإغريق)) (1893)، الذي عالج فيه موضوعات كانت تمثل اهتماماً مشتركاً بين الاثنين في حقبة الشباب، لم يأتِ روده على ذكر اسم نيتشه إطلاقاً في مراجعه – و بذلك، حاول أن يبعد نيتشه و ينفيه عن ميدان الدراسات الكلاسيكية للعصور القديمة و يرمي به بعيداً.

يُلقي هذا الاختلاف في الطبيعة بين روده ونيتشه، الذي يرجع إلى التناقض الحاد بينهما، الكثير من الضوء على شخصية نيتشه و طبيعتها. منذ البداية، كان روده شخصية ميالة في طبعها إلى الشك، غير أصيل و ليس له جذور عميقة يميل إلى التخلي و ترك الأشياء على حالها و ينتهز أيّ فرصة متاحة و يستولي عليها و يستثمر دون قيراط من تردد أيّ مساعدة تقدم إليه. من جانب أخر، كان نيتشه منذ شبابه، و ظل طوال عمره شخصاً صادقاً مع نفسه، عكس روده تماماً: ((لا يمكن أن نحقق النجاح العظيم لا بواسطة أخذ الخطوة اللازمة باتِّجاه التكيف و تسوية الأمور، و لا بواسطة أيّ شيء في هذا العالم يحمل طابع التنازل ! بل بالأحرى بواسطة بقاء المرء فحسب

مخلصاً و أميناً لنفسه و صادقاً معها.... لذا، عليّ أن أوذي نفسي و أكون عنيفاً معها و أتخلص و أتخلى عن الكثير من الشخصيات التي نشأت و كبرت و تطورت معي و لاسيَّما إذا حاولت أن تجبرني أن أكون شخصاً ضعيفاً و شكاكاً و متردداً مثلها)) (من رسالة إلى جيرسدورف، 15 نيسان، 1867). و لكن مع حلول عام (1869)، كان روده قادراً على قول الآتي بثقة عالية: ((و هكذا نرى إذنْ، فقد حدث لي هنا و الآن كما حدث في مكان أخر الأمر ذاته في الماضي، فبعد موجة الغضب الذي اعترتني داخليا و أخرجتني عن طوري لمجرد أني لم اكن على قسط كافي من النباهة، ها أنا أعتزل كلّ شيء و أتقدم تدريجيا و ببطء بشجاعة و عزم نحو ما أريد كما هو الحال مع الآخرين...)) إنّهُ أخيراً مستعد ((للاستقالة و الاعتزال، لمواجهة الآلِهة ذات الأجنحة الثقيلة الشاحبة مع تناول شراب سيقان الخشاش المشوش للذهن...التي يطلق عليها الناس، المفرطون في الطيبة، أسماء القناعة و الرضا و الطمَأنينة)). لم يكن روده، كما هو الحال مع نيتشه، يحول كل خيبة أمل يتعرض لها في حياته أو في عمله إلى دافع يوظفه في المحصلة النهائية لغرض فائدته و معرفته، أو يحول كل مرحلة من مراحل حياته إلى شيء يجب التغلب عليه و عبوره – بل كان، بالأحرى ((يبحث عن مؤاساة و عزاء عن حالة الحَيْرَة و الذهول الذي تنتابه في العمل)) (15 شباط، 1870). بالنسبة إلى روده كانت النتيجة من جهة ((إنجازه)) في عالم المعرفة، و من جهة أخرى، الإرهاق و العبء الذي ترزح تحت وطأته روحه، و لاسيَّما مع الأشياء غير المستوعبة و المنجزة بعد، و بالتالي كان يرثي حاله على النحو الآتي: ((أنا، و آسفاه، لست روحاً حرة)). جعلت خيبات الأمل الذي تعرض لها روده منه شخص في حالة ميؤوس منها، ((يرى الأشياء لفترة طويلة، امتدت لأسابيع و شهور طويلة، بلا بارقة أمل تذكر)).(23 كانون الأول، 1873). كان روده لاحقاً صادقاً مع نفسه إلى حدّ بعيد و مدمر، و كان واعيا جدا لمنهجه هذا، و غدا نتيجة لذلك غاضب و مستاء بشكلٍ متزايد من نفسه. لقد فقد الكثير من حيويته و نشاطه، لأنّهُ لم يعد قادراً أن يتخلص من القيود التي تفرضها عليه تجارِب الحياة اليومية التافهة. و لكن مقاصده الطيبة ظلت تحتفظ على الأقّل بهدف إنجاز عمل فيلولوجي فريد و أصيل يتجاوز في العموم كلّما هو منجز لغاية الآن في هذا المجال. لهذا السبب، و بدقة أكثر، كانت عَلاقة روده بنيتشه ملتبسة، عرضة للشك و الشبه و غير جديرة بالثقة. أرادَ روده أن ينجز كل شيء بأكبر قدر ممكن من الصحة و الدِقّة بعيداً عن نيتشه، و أن يتحرك من حالة السلب إلى حالة الإيجابّ و يعاود العمل هكذا المرة تلو المرة. لم يعد هناك أيّ

شيء يربط روده بنيتشه باستثناء البعض من الذكريات الرومانسية البريئة – التي ما هي إلاّ وسيلة مؤقتة نعيش بها واقع لم نستطع أن نعيشه – الطيبة من الأيّام الخوالي.

المرة الأخيرة التي التقى بها الصديقان كانت في مدينة لايبزك و كان ذلك في عام (1886) بعد قطيعة بين الاثنين دامت لأكثر من عشر سنوات. كان وقتها، و ((بسبب خلافاته العديمة الأهمية حقاً، سيئ المِزَاج للغاية، و هذا بالمناسبة أمر يميز شخصيته بشكل نموذجي تماما))[24]. عاد نيتشه، الذي كان يعول على خَصْم ذكي و حاذق، إلى الماضي – عاد إلى الوراء بعد أنّ شاهد صديقه القديم واقعا في شرك ((خلافاتهما مرة أخرى و تذمر روده المستمر و شعوره بالغضب و الاستياء من كلّ شيء و من كلّ واحد))[25]. كتب روده عن نيتشه الآتي: ((كنت محاطاً بجو غريب لا يوصف – كان نيتشه يبدو شخصاً حقاً غريب الأطور لي في هذا الوقت... كان يبدو و كأنّهُ شخص قادم من أرض لم يسكنها أحد أو تطأها قدمٌ من قبل))[26]. بالمناسبة، لم يدخل نيتشه بيت روده و هو إلى ذلك لم يلتقِ لا زوجة روده و لا أطفاله. الأعوام اللاحقة لهذا الحدث شهدت قطيعة واضحة في المراسلات بين الاثنين، و الأمر مرده إلى الطبيعة المتغطرسة لروده و كلماته غير المحببة عن تاين. كلاهما حاولَ أن يصلح الموقف و يرمم بقدر الإمكان جسور التواصل بينهما مرة أخرى و لكن دون جدوى. بعد أن بدأت نوبات الجنون تنتاب و تهاجم نيتشه أقبل روده على تمزيق الرسائل الأخيرة التي تسلمها من نيتشه و رميها في سلة المهملات ما أثار حفيظة و غيض نيتشه العميق، لكنه لم يتخلص من كل رسائل نيتشه الباقية. حين سمع نيتشه بخبر وفاة روده من أخته إليزابيث، الملاذ الذي يهيّئ له الهدوء و السكينة والطمأنينة، نظر إليها ((بعينين حزينتين مفتوحة باتّساع، ثم قال: هل مات روده حقاً؟ قال ذلك بصوت ناعم ثم سالت دمعة كبيرة من عينه على خده))[27].

أما صداقة نيتشه مع ريتشارد فاغنر[28]، اللذان كلاهما ذُهِلَ لهذا اللقاء المفاجئ، فإنها تقدم لنا مثالاً متميزاً و صورة واضحة في غاية البساطة: وضع التبجيل المتحمس الذي أبداه الشاب نحو فاغنر، نيتشه في خدمة أستاذه: ابتدأ نيتشه عملية البحث و التأويل في نصه اللاحق ((ولادة التراجيديا))، الأرض المجهولة إذا جاز التعبير، و استمر فيه متزامنا مع عمله ((ريتشارد فاغنر في بايرويت)). و لكن نيتشه غير أحكامه لاحقاً بخصوص فاغنر. أولا، انسحبَ نيتشه بهدوء من هذه العَلاقة و سلك طريقة الفلسفي بعيداً عن الآخرين – و لكن في العام (1880) كتب نيتشه كُتيباً أو منشوراً صغيراً يحتوي على معلومات و حجج قَيّمَة حول فاغنر، الذي تغير فيه موقفه القديم منه إلى

الضِدّ تماماً. يبدو أن نيتشه قد هجر النجاح الكبير و المجد الذي كان يبجله و يهدف إليه سابقاً و بدأ يغيّر آراءه بطريقة غير مفهومة. البعض اتّهم نيتشه بالخيانة في علاقته بفاغنر، التي ترجع بجذورها و بدأت بوادرها الأولى بالظهور بعد نصّ ((إنساني مفرط في إنسانيته))؛ حين كان هناك آخرون ينظرون إلى – على أساسّ اتفاقهم مع نقد نيتشه لفاغنر – صداقة نيتشه السابقة بمنزلة فِرَار مُؤقت من نفسه و لجوئها إلى فاغنر. كلا التأويليّن للوقائع هو أحادي الجانب و محابٍ.

في المقام الأول، كان نقد نيتشه لفاغنر، الذي لم يستطع أن يكبح نفسه، موجوداً مسبقاً و ضمناً منذ البداية في تفكيره: لقد دَوَّنَ نيتشه جوهر و خلاصة هذا النقد منذ بواكير كانون الثاني عام (1874). بالنسبة للقارئ المهتم بالنظر إلى الوراء بطريقة استعادية للأحداث يمكن أنّ يميز الخطوط العريضة لهذا النقد حتى في نصّ ((ريتشارد فاغنر في بايرويت)) المنشور عام (1874). مع أنّ نقد نيتشه لفاغنر كان قاسياً و مدمراً للوهلة الأولى إلاّ أنّه كان منسجماً و مرتبطاً تماما بالشخص الموجه إليه النقد.

ثانياً، من البداية إلى النهاية، يعتبر نيتشه فاغنر و ينظر إليه في عصره بوصفه عبقرية فذة لا تضاه و غير قابلة للمقارنة. كان نقد نيتشه لفاغنر يمثل في الواقع نقده لعصره. مادام أنه لم يفقد الأمل و مازال لدية الإيمان و الثقة العالية بعصره و يؤمن بإمكانية تحقق و بزوغ شمس ثقافة و قيم جديدة فيه، وقف نتيشة بقوة إلى جانب فاغنر منذ اللحظة الأولى التي أدرك فيها أن عصره كليًّا سائر نحو الخراب لا محالة و بدأ يبحث عن ولادة جديدة للإنسان من أعماق مختلفة غير تلك الذي تصورها الأعمال الفنّية و العروض المسرحية المتداولة و التي يقف منها موقف المعارض بشدة. بقدر ما كان نيتشه يعدّ نفسه جزء من هذا العصر و ينتمي إليه بكل جوارحه، بقدر ما كان نقده لفاغنر هو نقده لنفسهِ كنصير و مشايع له.

لهذين السببين أعلاه، وبالرغم من موقفه المتحمس المناهض لفاغنر الذي يعبر عنه بلا مخاتلة، تحول نيتشه، الذي لا نعرف إلاّ النزر اليسير من الأفكار في خطوطها العامة التي خطرت على باله حين تعرف إليها آنذاك، ضِدّ أولئك الذين يريدون أن يستولوا على نقده لفاغنر، و يوظفه لغرض معين خاص بهم – و وقف منهم موقف قاسي لا هودة فيه يكشف النقاب و يبوح عن تشكل صياغات فكرية جديدة لديه. فبما أنّ هؤلاء لم يفهموا أو يستوعبوا و يهضموا عمق السّؤال حول وجود الإنسان، بل اكتفوا فقط بالقبض أو فهم أهمية و مغزى المعنى السيكولوجي للتأنيب و التوبيخ

المباشر لكلماته، فإنهم أخفقوا في استيعاب هذا النقد و عدّوا عمل ((قضية فاغنر، نيتشه ضِدّ فاغنر)) مجرد منشور أو كتيباً صغيراً ليس له أهمية تذكر يصب الزيت على النار في إشعال الحرب. بهذا الصدد يقول نيتشه الآتي: ((لن أعطي بسهولة الحق لأيّ أحد كان في أن يستولي على تقييماتي و انتقاداتي الخاصَّة و يوظفها لأغراض معينة خاصَّة به...لن أسمح لأولئك الرعاع و الحثالة في أن يستخدموا ألسنتهم الرديئة و يرددوا و يتلفظوا بأسماء العظام كاسم ريتشارد فاغنر سواء بصيغة المدح أو القدح)).

يرتبط تبجيل نيتشه و نقده لفاغنر، الذي تراوده بقوة أحلام الثورة في الفلسفة، حصراً بالإمكانية الإبداعية الخلاقة للإنسان الحي. أدركَ نيتشه أنّ فاغنر، بوصفه عبقري عصره، يمثل هذا العصر بحد ذاته و بحذافيره و هو حقاً لسان حاله. مادام كان يرى في فاغنر شخصية أسخيلوس الجديدة، و إنّهُ الإمكانية العليا المتحققة و المتَرْجَمَة على أرض الواقع، فإنّ إيمان نيتشه و ثقته تظل قائمة في هذا العصر. لكن حالما أخضع نيتشه مقاييسه و معياره للحقيقة، و عبقريته و جوهرة للسّؤال و النقد و التمحيص، حتى شارفت عوالمه المعاصره المبنية عن فاغنر بالانهيار و التفسخ.

جعل، شعور الوحدة عند الإنسان مع بواعثه للصداقة و الأمور التي تسبب قدراً كبيراً من القلق في هذا العصر، حب نيتشه، الذي لم يخفِ نواياه، لفاغنر يظهر بحق مشاعر النبل الإنساني و جلاله. لقد بينت محاولة نيتشه الأولى المباشرة في فهم فاغنر، و التعاون المباشر معه، مثال العظمة المتحقق فعلاً و واقعياً في هذا العالم: نشوء و نمو بذور الثقافة الجديدة التي تقوم و ترتكز على أساس عبقرية فاغنر و على تراث العصور القديمة و التفلسف الذي ينبثق من ماهية الإنسان الحقيقية. حين ألقى نيتشه الضوء على مشروع بايرويت لفاغنر، و على الظواهر المصاحبة له التي يطرحها و يقدم بموجبها معاييره للحقيقة و الواقع الموضوعي و ثقافة الإنسان، اكتشفَ أنّهُ على الرغم من عظمة و نبل العمل إلاّ أنّه في نهاية المطاف ليس أكثر من عرض مسرحي أخفقَ في التعبير عن معنى الوجود. لم تكتفِ هذه المقاييس في تحطيم كل القيم الذي كان نيتشه يؤمن بها في السابق و عثر عليها في الوقائع المعاصرة و جعلته ينفصل و يبتعد بالنتيجة عن كلّ الناس، بل جردته أيضاً من فرصة القيام بأيّ فعل في العالم و بالتالي الإدراك. فبينما كانت لدية رغبة كبيرة للعمل، البناء، و الإبداع معاً مع فاغنر ضمن حدود هذا العالم تحول فيما بعد تماماً عنه و لم يقم بأيّ شيء يذكر، عدا التأمل و التفكير و تدوين أفكاره الخاصَّة. منسياً، وحيداً، مهملاً، يائساً في علاقته

بكل الإمكانات المعاصرة من حوله، عقد نيتشه العزم و قرر الشروع في العمل في مهمة صناعة المستقبل الذي لم يرهُ بعد. كان نيتشه يرى في المهمة التي أراد فاغنر إنجازها – الارتفاع في الإنسان و السمو فيه إلى أعلى مستوى يمكن أن يبلغه – مهمته هو أيضاً في النهاية، و لكن الحلول الذي اقترحها نيتشه كانت مختلفة جذريا عن تلك الذي طرحها فاغنر. و بذلك، يتفق نيتشه، حتى في تاريخ لاحق، مع أولئك الذين يعرفون ((أني أؤمِنُ اليوم و اعتقد كما كنت في السابق، في المثال الذي يعتقد فيه فاغنر— لكن الفرق بيننا، أنني مازلت أتعثر في الإنسان، المفرط في إنسانيته، الذي وضعه فاغنر عقبة في طريق مثاله؟)) (من رسالة إلى أوفربيك، 29 تشرين الأول، 1886)

و بالتالي، على الرغم من الخصومة و مشاعر العداوة التي يكنها نيتشه لفاغنر لاحقاً، و الكثير من الأمور التي ينبغي الوقوف في وجهها، ظل الرجل مرتبطا على دوام به. لم يعثر نيتشه على أيّ أحد من معاصريه، يمكن أنّ يشاطره قلقه و مخاوفه حول مسألة وجود الإنسان مثل شخص فاغنر، الذي كان يفهمه و يحبه على حدّ سواء. حتى قبل ثلاث أعوام من وفاته، كتبَ نيتشه، بعد سماع المقدّمة الموسيقية لعمل ((بارسيفال))، هذا القروي البَرِيء الشيطان المسكين اِبْن الطبيعة، الآتي: ((تأثرت كثيراً بهذا العمل، و قد طار بي و جعلني أحلق عاليا في السماء إلى درجة أنّه أصبحت أهتز بقوة كُلَّما راودني التفكير فيه. إنّه ُكما لو أن أحدً ما، و بعد سنين طويل، عقد العزم أخيراً و قرر التحدث معي حول المشكلات التي تؤرقني و تزيد من قلقي، مع أنّه لم يقدم إلي الأجوبة المرجوة التي كنت على أتّم الاستعداد لسماعها...)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، 22 شباط، 1887). و بما أنّ نيتشه كان قد كرس نفسه تماماً إلى الجانب المعاكس لذلك، بدأ يشعر فجأة بهزة عنيفة مفاجئة، حين يقول ((مع صدمة حقيقة كبيرة ألمت بي، بدأت أعي كم أنا قريب جداً في الواقع من فاغنر)) (من رسالة إلى جاست، 25 تموز، 1982).

يعشق نيتشه في فاغنر، الذي وثق فيه و أفضى إليه بأشياء عدّة، وحدة الشخصية و البواعث النبيلة – ببساطة ثمة في الحياة تفاهمات من هذا القبيل، و عَلاقة نيتشه بفاغنر ليس استثناء، كما لو أن المهمة عند هذا الرجل عثرت على تجسدها الإنساني بحذافيره: ((إلى حدّ بعيد، يعد فاغنر من أكثر الناس الذي قابلتهم كمالاً و سمواً)) (من رسالة إلى أوفربيك، 22 آذار، 1883). ((أحببت هذا الرجل من كلّ قلبي، و لم أحب غيره في حياتي. نحن الاثنان نكاد نمتلك نفس الآراء و نفس الاهتمامات إذا جاز التعبير....)) ينبغي أنّ تكون عَلاقة نيتشه بفاغنر، الذي وثق به و هذا كلّ ما في

الأمر، كما تشير الشهادات، و الهوامش على الشهادات، و بينات ذلك العصر و طبقاً لها، المصدر الوحيد و الاستثنائّي لسعادة نيتشه؛ أنتجَ التقارب الإنساني الحميمي و الوعي بالمهمة بين الاثنين حالة من الذروة التي لا يمكن مقارنتها بمجمل العلاقات الكئيبة و غير المجدية التي أقامها نيتشه و عقدها في السابق أو فيما بعد. بهذا الصدد يقول نيتشه: ((باستثناء فاغنر، لم التقِ بأيّ أحد يمتلك مئات العواطف و الأهواء و الرغبات النبيلة و المعاناة، يمكن أن يفهمني بالضرورة مثل هذا الرجل)). (من رسالة إلى أوفربيك، تشرين الثاني، 1887) ((في الوقت الذي كنا نتبادل فيه مشاعر الحب و الود و الاحترام و نأمل أن يحقق كل واحد منا كلّ ما يصبو إليه الآخر ـــ كُنَّا فعلاً نعيش حباً نقياً حقيقياً عميقاً خالي من البواعث و النيات الخفية)) (من رسالة إلى جاست، 22 نيسان، 1883) و في نهاية نصّ ((هو ذا الإنسان))، يقول نيتشه الآتي: ((لا أعول كثيراً على الباقي من علاقاتي بالآخرين ، و لكني استثني منها أيام تربشن، أيام الإيمان و الثقة التي كنت أتحلى بها، السعادة التي كنت أعيش فيها و الأحداث السامية التي لا تقدر بثمن ـــ إنها حقاً اللحظات العميقة الصافية)).

مع الأخذ بعين الاعتبار هذا الوضع و مستتبعاته في علاقته بفاغنر بوسعنا أن نفهم فقط حجم الصراع النفسي المؤلم عند نيتشه الذي ترك في داخله شعوراً بالمرارة و نفاذ الصبر، و جعل منه الإرادة التي لا تلين في مهمة البحث عن الحقيقة كأمر محتم لامفر منه. بيد أن هذا الصراع لا يعني أصلا الانفصال عن فاغنر و قطع العَلاقة به – بل التمهيد و التهيئة لخوض الصراع نيابة عن فاغنر. في أثناء العَلاقة به، غدت حياة نيتشه مُكرسة تماماً لخدمة فاغنر – على سبيل المثال، حذف نيتشه و اضاف و ألحق الكثير من الفقرات على عمله ((ولادة التراجيديا)) أملا في أن يرضي فاغنر، و يحدث التأثير المطلوب عليه. غير أنّ نيتشه كان مستعداً فعلاً في التواصل و التعبير عن أفكاره فقط بواسطة حالة الصراع و المعاناة و دون الحاجة إلى فاغنر. بالنسبه لموقفه من الآخرين، أمثال دويزون، كان نيتشه واعظاً و موجهاً و قد وضع مسافة بينهما – كان لطيفاً ودوداً معه أيضاً لكنه وضع لائحة من الاتّهامات ضِدّه سرعان ما تجاوزها لاحقاً. لم يشهد هذا العصر عَلاقة كعَلاقة نيتشه بفاغنر: واصل نيتشه هذه العَلاقة ضمن أطر المعرفة التي تضع كل شيء على المحك. لقد التصقَ نيتشه و تمسك بهذه العَلاقة بواسطة بحثه عن الحقيقة التي لا تقبل التسوية و المساومات مع الاستعداد و بتواضع للمعاناة و التضحية من أجل إرضاء العبقرية المبجلة لفاغنر. يتغاضى نيتشه، بشكل غير ملحوظ، أو يتجاهل افتقاد فاغنر للاهتمام بالقضايا التي يحاول نيتشه أن يرفع من شأنها و

يعزز من وجودها بشكل غير مباشر، و بدأ يتغاضى عن اكتشافاته، التي ترجع إلى بواكير عام (1873)، تحت حُجَّة أنها تحمل العديد من الإمكانات المحفوفة بالخطر و العيوب الفعلية. لقد أجبر نيتشه نفسه بالإكراه على الكتابة عن فاغنر في بايرويت كما غامر في وظيفة النقد المحبب لديه أملا في أن يرضي فاغنر و يؤثر فيه. كان قلق نيتشه في أن يتم رفض نقده تماما من قبل فاغنر أمراً مفهوماً. لكن فاغنر أخفقَ في فهم وظيفة النقد عند نيتشه و لم يسمع فيه أيّ شيء عدا أصوات تأليه وتمجيده.

خلال العرض الافتتاحيّ لأوبرا فاغنر الذي جرت مراسيمه في مدينة بايرويت عام (1876)، اصطدم نيتشه بالجمع الغفير من الحضور الغالبية من ميسوري و أغنياء الطبقة البرجوازية و كذلك من أجواء الأبَّهة و العظمة التي أحَاطَت بالحفل. بالنسبة لنيتشه، لم يكن هذا الحال و الوضع الذي يحدث هنا يمت بأيّ صلة إلى عملية إعادة خلق الثقافة الألمانية الشعار المرفوع آنذاك بقوة و يشاطره فيه فاغنر بقوة. و أخيراً، وجد نيتشه نفسه، في هذه الأجواء، ضحية للوهم و الانخداع و عليه بالتالي أن يتخلص و يتحرر منه. و لكن لهذه اللحظة – حتى بعد أن قرر و عقد العزم على الرحيل بشكلٍ مفاجئ من مدينة بايرويت كي يكون وَحْدَهُ و يفكر بعيداً عن الآخرين – ظل الأمل يراود نيتشه في أن تحافظ عَلاقته بفاغنر على وجودها و أن تبقى، بالرغم من كل المنغصات التي بدأت تطفو على السطح، على ما هي عليه لا يصيبها التغير. حذف نيتشه من نص ((إنساني مفرط في إنسانيته)) العديد من الفقرات و المقاطع الذي كان يُعتقد إنها ربما تكون مؤلمة جداً لفاغنر باعثاً بدلاً عنها بآيات التوسل و التضرع من أجل الوفاء و الإخلاص، و عاش و هو يعتقد بقوة في إمكانية وجود الصداقة مع الاعتراف المتبادل باختلاف السبل الذي يسلكها الأصدقاء للوصول إلى مقاصدهم: ((أيُّها الأصدقاء، لا شيء يمكن أن يوحدنا و يجعلنا متشابهين، يكفي أن يستمتع الواحد منا بصداقة الآخر، إلى درجة يدعم كل واحد منا اتِّجاه الآخر، حتى و أن كان هذا الاتجاه يسير في الجانب المعاكس لاتجاهه... و بالتالي، ينبغي أن نكبر و ننضج معاً الواحد منا جنب الآخر كالشجرة التي تستقيم بغصونها عالياً بطريقة جريئة، لأنّنا بدقة يرفع كل واحد منا رأسه و يحلق عاليا بواسطة الآخر)). بيد أن آمال نيتشه بهذا الشأن باءت بالفشل و كانت محاولة عابثة لم تحقق النتيجة المرجوة. دقَ الصمت الثلجي المطبق الذي التزمه و أتخذه فاغنر اتجاه نيتشه – ما كان ينظر إليه نيتشه بوصفه ((إهانة كبيرة لا تغتفر)) (من رسالة إلى أوفربيك، 22 آذار، 1883) – المِسْمَار الأخير في نعش علاقتهم.

لم يلاحظ فاغنر – أو ربما غض النظر و ترك الأمور العسيرة تجري على هواها – حالة الصراع المرير الذي كان يعيشها نيتشه و محاولته غير المكترثة في التواصل الأصيل معه. و كما هو شأن الباحثين و الملاحظين لاحقاً، كان حدوث القطيعة بين نيتشه و فاغنر مفاجئة و لم يكن هناك أيّ بوادر مسبقة تشير إلى ذلك (في البداية، أوْلَى فاغنر اهتماماً كبيراً بنيتشه و تبناه فكريا، غير أنّهُ سرعان ما تخلى عنه بعد صدور عمله ((إنساني مفرط في إنسانيته))). بالنسبة لفاغنر، كان لقائه بنيتشه مجرد مصادفة أو حادثة عريضة لا أكثر. لقد كان فاغنر، على سبيل المثال، يكبر نيتشه بأكثر من ثلاثين عام، و قد وصل إلى حالة النُضْج الفكري الكامل كموسيقار و مؤلف موسيقي فذ، و كان ارتباطه بنيتشه في النهاية مجرد لخدمه عمله – بيد أنه كان مازال يعتقد أن حادثة اللقاء بنيتشه أيضاً واقعة أصيلة و استثنائيّة فريدة في حياته. في عام (1871) و بعد أن تسلم نسخة من نصّ ((ولادة التراجيديا))، كتب فاغنر إلى نيتشه الآتي: ((لم أقرأ طوال حياتي كتاباً أكثر جمالا و عمقا من هذا الكتاب... أخبرت زوجتي كوزيما أنك في هذا النصّ قد كبرت مكانتك في قلبي كثيراً: ليس هناك شخص أحبه فاغنر خلال حياته كلها أكثر منكما أنتما الاثنان: كوزيما و نيتشه....)) في عام (1876)، يقول فاغنر الآتي: ((بكل صدق، إلى جانب زوجتي أنت النعمة الوحيدة، التي وهبتها الحياة لي)). و في عام (1876)، كما يذكر فاغنر، بغض النظر عن نشر نصّ ((ريتشارد فاغنر في بايرويت)): ((إنّ كتابك هذا، يا صديقي، رائع! تُرى أين تعلمت كلّ هذه الأشياء المدهشة عني)). بعد ذلك، لم تصدر عن فاغنر أيّ كلمة أو تعليق تشير إلى محاولة لفهم نيتشه و الاقتراب منه. كلّما كان يفعله هو أن يعبر عن نفسه بازدِراء.

كان قطع العَلاقة بين نيتشه و فاغنر، و انفصال أحدهما عن الآخر، حادثا محتماً و أمراً لا مفر منه – و لكن، بينما كان نيتشه يرى فيه قطيعة لا رجعة فيها، كان فاغنر يقلل من شأنها و لا يعيرها أهمية كبيرة. لم تفارق مرارة هذه القطيعة ذاكرة نيتشه أبداً: ((لا شيء يمكن أن يعوضني إطلاقاً عن فقدان و ضياع حقيقة الإرادة المُصلحة و الخيرة لرجل مثل فاغنر خلال السنين الماضية... لم نتبادل قطا أيّ كلمة سيئة بيننا، و لا حتى في أحلامي، بل لم نكن نتبادل بيننا سوى الكلمات الطيبة المبهجة السعيدة و عبارات التشجيع، ربما لم أضحك في حياتي بقدر ما كنت أفعل ذلك و أنا برفقة السيد فاغنر. كلّ شيء أشرف الآن على النهاية – ما فائدة أن تكون على حق، بالضِدّ منه، في بعض النِقَاط ! كما لو كان المرء يريد أن يطرد و يمسح من ذاكرته أثار الصداقة الضائعة المريرة)) (من رسالة إلى جاست، 20 آب، 1880). لقد تّم التعبير عن مشاعر الفراق،

التي أحس بها نيتشه في خضم الأحاديث الأخيرة التي جرت مداراتها بينهما في مدينة سورينتو الإيطالية بطريقة ملفتة للنظر باستعمال الكلمات و العبارات الآتية: ((يجعلنا الوداع – و لاسيَّما حين ينفصل أحدنا عن الآخر لأن المشاعر و الأحكام الطيبة التي بينا لم تعد قادرة على خلق و صناعة الانسجام و الوفاق و التصالح و التوافق – قريبين جداً من الشخص الذي نودعه و ننفصل عنه، و نحاول أن نضرب بقوة و نهدم الجدار الفاصل الذي بنته الطبيعة بمهمتها المتناقضة التي تكفلت بها تجاه الإنسان و بموقفنا الهجين الذي نمارسه بحقها مستعينين عليها بآلاتنا و بالفكر الخلاق)). لم يشعر نيتشه ، في قرارة نفسه، بمشاعر الندم و الآسف في علاقته بفاغنر، و كانت ذاكرته تحتفظ دائماً حولها بالأمور الطيبة و الإيجابيّة: ((فليكن هذا خطائي، فلنسلم معاً أن هذا خطائي – بما في ذلك إيماني و اعتقادي بأنّنا نمتلك قدراً مشتركاً و متشابكاً – فإنّ هذا ليس من شأنه أن يسبب وهدة العار و الإهانة لا لفاغنر و لا لي؛ بل يجلب بدلاً عن تلك الراحة و مشاعر القداسة لشخصين تربيا و كبرا وحيدان و سلكا ببساطة طريقان مختلفان)).

ظلت صورة فاغنر لا تفارق مخيلة نيتشه لزمن طويل، و حاول جاهداً أن يتخلص من تأثيره و يشق طريقه بعيداً عنه كما كان يحاول أنّ يفعل في سنوات الصداقة و التقارب بينهما. يقول نيتشه: ((كان هذا الامتحان الأكثر صعوبة التي واجهته في حياتي، و لاسيَّما فيما يتعلق كيف يكون المرء عادلاً مع الآخرين – العَلاقة بفاغنر ثم الانفصال عنه، انقطاعها إذا صح القول)). (من رسالة إلى جاست، 27 نيسان، 1883) حتى في أكثر لحظات النقد المدمرة مرارة و صعوبة بيننا، كنا نصغي إلى بعضنا البعض بحماسة منقطعة النظير و بجدية عميقة و صادقة و نتسأل حول مصير وجود الإنسان في هذا العالم، و أقداره التي تقف وراء الباب، الحب الذي يتنكر مؤقتا بقناع الكراهيَه المكبوتة و ضغينة العاجز و البغض الشديد بمقتضى و بسبب الإمكانات الغريبة للنفس الإنسانية التي تتوفر عليها.

فترة الشعور المتنامي بالوحدة. ـــ حدثت القطيعة العميقة و الفاصلة في عَلاقة نيتشه بفاغنر في الأعوام التي تلت عام (1876) و التي تؤشر علامة التحول في طريقة النظر لديه إلى العلاقات الإنسانية و تدور حول سّؤال نحن مَنْ نحن؟

لم يكن عام (1876) يؤرخ لخيبة أمل نيتشه المطلقة حول مدينة بايرويت التي تُعرض على مسارحها أعمال فاغنر فحسب؛ بل يمثل أيضاً زمن الانفصال روحياً عن فاغنر. في نفس العام

أيضاً، تزوج أوفربيك صديق نيتشه، و شارفت مدّة عيش نيتشه معه في مسكن واحد لأكثر من خمس أعوام على النهاية. روده صديق نيتشه هو الآخر قد تزوج. في عام (1878)، ظهر نص نيتشه ((إنساني مفرط في إنسانيته))، مع أخبار ترأت للمسامع تشير إلى رفض فاغنر علناً لهذا النصّ و أفكاره، و موقفه من هذا الكتاب الممزوج بمشاعر الازدراء و الترفع – في حين صُطدِمَ صديقه روده من قسوة هذا النصّ، قائلاً: ((كيف بوسع المرء أن يتجرد هكذا من نفسه و يستبدل مكانها بأخرى))؟ (من رسالة إلى نيتشه، 16 أيار، 1878). تقريباً كلّ دائرة الأصدقاء المقربين الذين يحيطون بنيتشه، الذين كانوا معه ينظرون إلى فاغنر كمثل أعلى، ابتعدوا عن نيتشه و وضعوا مسافة بينهم و بينه، و بدأوا يديرون عنه ظهورهم و يشيحون عنه بوجوههم.

قرر نيتشه، الأقْوَى عودا و أصلب شكيمة، و أشد باساً، العاطفي بلا قصد، أنّ يأخذ على عاتقه عبء و مسؤولية أن يكون وحيدا كاملة بعد أن تحرر من كافة الالتزامات السابقة مع أصدقائه التي كانت تقيده و تشكل مصدر قلق له. بما أنّ نيتشه كانت تراوده بقوة رغبة العثور على عالمه الداخلي الخاص المنسجم مع العالم الخارجي عموماً، فإنّه كانت لدية سلفاً فكرة أن يسلك بالضرورة طريق مختلف عن الآخرين و لاسيَّما الأصدقاء منهم. معظم التَجارِب السلبية التي واجهها نيتشه، في محاولة الفهم و القبض على الإمكانات العامة المتاحة للتفكير، جعلت منه واعيا بشكلٍ عميقٍ بطبيعة وجوده كاستثناء غير قادر على تحقيق أهدافة و سعادته بواسطة اقتفاء أثر الآخرين و الاعتماد عليهم. كانت قرارات نيتشه و تعبيراتها الحاسمة، فيما يتعلق بأصدقائه، تسير كسلسة مترابطة الحَلقات تمتد من تجارِب الآلام و المعاناة، و خلوها من المعنى، التي تكبدها في حياته إلى وعيه العميق باختلاف مهمته عن مهام الآخرين، و من التعبيرات البسيطة المؤثرة للعزلة الإنسانية التي اختارها طوعا إلى حالة الشخص الفخور الواثق من نفسه و من خياراته فيما يتعلق بمهمته الفلسفيّة. على العموم، اتّخذ نيتشه قرار أن يكون وحيدا مع قناعة مكينة غير مسموعة أو معروفة مسبقاً تغطيها بعض التفاصيل المهمة. أصبح أعلان خطوبة صديقه روده موضوعا لكتابته بعض الأبيات الشعرية المرفقة مع الرسالة التي بعثها إليه: يغني الطير في المساء، ينادي معشوقته، وحيداً، هائماً على وجهه يتوقف كَيْ يصغي:

((لا، لن أحييك أنت المشرد الهائم على وجهه

بصوتٍ عالٍ

أذهب بعيداً من هنا

لأنك لا تفهم أغنيتي مطلقا!...))

كتب نيتشه، الرجل الذي ذهب ضحية المعنى، الآتي: ((ربما هناك عيبٌ ما سيئ في روحي. شوقي و رغبتي من نوع مختلف تماماً: من النادر أن أعبر عنه أو أوضحه)). (من رسالة إلى روده، 18 تموز، 1876).

شارف طريق نيتشه في السير وحيداً على البداية. من الآنَ فصاعداً، يعي نيتشه جيداً حجم هذه المحنة. على هامش السير في طريقه الجديد، حاول أن يقيم بعض علاقات الصداقة ببعض الأشخاص الجدد – كان نيتشه، في الواقع، يرتجف وحيدا كورقة في مهب الريح، يبذل جهود كبيرة لعقد علاقات الصداقة في ظل هاوية البؤس المطلق الذي يعيش فيها. ثلاث مرات أقدم نيتشه على تقديم أغلى ما يملك، أعني نفسه و ذاته العميقة، إلى أشخاص آخرين هم على التوالي: بول ريّ، لو سالومي، هنريخ.في.شتاين؛ و في كل هذه المرات الثلاث أصيب نيتشه بخيبة أمل كبيرة.

كان بول ريّ[29]، الذي يصغر نيتشه بخمس سنوات، رجل طب، و قد نشر بعض الأعمال التي تتعلّق بأصل المشاعر الأخلاقية و فصلها، على عَلاقة وثيقة مع نيتشه – و لاسيَّما خلال شتاء عام (1877-1876) التي قضاها في مدينة سيرنتو مع الكاتبة مالفيدا فون مايزنبوك – تطورت لاحقاً بفضل مدار الأحاديث التي كان يجريها مع نيتشه حول وجهات نظرهم المشتركة في الأخلاق. بوضوح، كان موقف نيتشه مضاداً لبول ريّ (لأن التحليلات التي كان يجريها ريّ على الأخلاق كانت قائمة بالأصل على النماذج الإنكليزية التي كانت تختلف في الأساسّ، المصدر من ألفها إلى يائها، التوجه و الأهداف تماماً عن نماذجه). من المؤكد، إنّ نيتشه لم يتعلم الكثير من بول ريّ (بما أنّ مواقع الرجلين الفلسفيّة قد تّم حسمها و تحديدها بشكلٍ قاطع قبل أن يتعرفا بعضُهم ببعض) – مع ذلك، كانت تلك الأحاديث و المناقشات التي يجريها نيتشه مع ريّ مصدر سعادة كبيرة له: كانت فرصة الحديث بحرية على الأقّل مع شخص واحد حول المشكلات التي تعدّ في ذلك الوقت راهنة و نهائية قد منحت نيتشه أحساس كبير بالشجاعة. كان الاتِّساق البارد لطرق التحليل الراديكالية تبعث في نفس نيتشه الارتياح (غير أنّهُ، في المقابل، أخفق في ملاحظة حجم الحماقة التي تحتويها بعض الأحيان). في هذا المناخ النقي الخالي من كلّ ما هو مقرف و موبوء، الخالي من الأوهام، كان بوسع

نيتشه أن يتنفس عميقا و بملء رئتيه شيئا من الهواء النقي لبعض الوقت. يقيناً، كانت مشاعر الإعجاب و الاحترام الذي يكنها نيتشه إلى بول ريّ عظيمة آنذاك، غير إنّها في نفس الوقت كانت تعلن بين طياتها عن قيام عَلاقة صداقة روحية ذات نبل عالي و سامي لكنها لا يمكن أن تكون بأيّ حال من الأحوال بديلاً للعَلاقة الكاملة التي لا مثيل لها مع فاغنر.

في ربيع عام (1882)، تعرف نيتشه، الذي يستدرج الأفكار في خطوطها العامة و يضعها في هيئة أحلامنا الكبرى، و في مدينة روما تحديداً، عن طريق كلاً من مالفيدا فون مايزنبوك و بول ريّ، على الكاتبة لو سالومي. [30]غير أن نيتشه في بداية ثمانينيات القرن الماضي في خريف العام ذاته قطع علاقته بهذه المرأة نهائيا – إنها من نوع النساء الرجل الذي تحبه ليس هو في أغلب الأحيان في نظرها سوى نوع من المشجب تعلق حبها عليه، تخيل بأيّ سهولة تجري عملية الاستبدال. كان نيتشه يعلق آمال كبيرة على علاقته بلو سالومي في بادِئ الأمر، التي وقفت أمامه ذاهلة ثّم جرحت من تأملاته للحظة، و أن يجد في هذه المرأة الذكية تلميذ نجيب يتبنى فلسفته و يلتزم بأصولها. كان نيتشه غارقاً بفيض المشاعر و الانطباعات التي خلفتها روح هذه المرأة، التي تعمد على إيحاء اللحظة، في نفسه – دون أن يكون هناك وجود لأيّ معاني إيروتيكية خفية بينهما – و قد انتهزَ نيتشه فرصة تعليم فلسفته إلى شخص آخر بادِئ الأمر على أحسن ما يرام. و بعد أن فصل نيتشه تفكيرة تماماً عن أيّ شخص آخر، (مع أنّهُ لم يرغب بهذا الانفصال من أعماق قلبه)، حاول أن يجعل من لو سالومي، التي تضفي على تعابير وجهه حين يراها نوعاً من الإشراق و الإشعاع، تلميذته التي يريد أنّ يعلمها و يبوح لها بأكثر الأسرار فلسفته عمقا و سِرّية: ((لم يعد بوسعي أن أظل وحيدا، أريد أن أتعلم مجددا كيف أكون إنساناً مرة أخرى. آه، في هذا الموضوع عليّ أن أتعلم كلّ شيء تقريبا!)) (من رسالة إلى سالومي، 1882). لم تقتصر العَلاقة بين نيتشه و لو سالومي، التي خلق التأثر المشترك بينهما رباطاً بين كائنين، على الاثنين حصراً: بل تعدت ذلك لتشمل بول ريّ و إليزابيث أخت نيتشه التي أدّت أدواراً متعددة. انتهت عَلاقة نيتشه – الذي كان ينزع في تفكيره إلى جعل المرأة و الحب و الشهوة مسؤولة في الدنيا عن صراع العواطف و الرغبات، عن الزنى و الموت و القتل و الحرب – بسالومي بخيبة أمل كبيرة و تحولت لاحقاً إلى حالة مرهقة تنطوي على الكثير من الإشكالات المحفوفة بالمخاطر بواسطة تكرار ذات العبارات و الكلمات في الرسائل التي كان يتبادلها الاثنان، حيث عرف نيتشه بفضلها بالصدفة الكثير....ألخ. و أخيراً، وصلت الأمور بينهما إلى نتائج لا تحمد عقباها إلى الحدّ الذي جعل نيتشه يصر على طلب صديقه

بول ريّ إلى المبارزة بسببها و على خلفية إحساسه بمشاعر الإهانة و انحطاط قدره إلى درجة لم يعد يطيقها. حتى الآن لا تتوفر لدينا معلومات كافية تخبرنا لماذا تفجر الوضع و صل إلى هذا الحد بين الاثنين و كيف شاع الخبر بين الناس و أمسى عاما.

في بادئ الأمر، عانى نيتشه – الرجل الذي يحلم بأشياء عصية و نفذ خلال قشرة العالم أو خلال العالم السطحي إلى قاع الكون، إلى سر الأشياء جميعاً، لقد أخترق الشبكة السحرية للحواس و اخترق ألعاب الضوء و الأصوات و الألوان و الإحساسات و أقام الجذور فيما هو حصري لا يتغيّر – واقعاً نوع من الشعور المرير بعدم الاستقرار و الرضوخ لم يكن يعرفه أو قد جربه من قبل – كان في وضع نفسي لا يحسد عليه. لم يكن مرد هذا الشعور إلى خيبة الأمل الذي أحس بها من جَراءِ أنّه أخيراً عثر على الشخص الذي يشاركه ((بدقة ذات المهمة)) التي يقوم بها: ((دون وجود هذا الاعتقاد المبكر و السابق لأوانه... كان يمكن ألّا أعاني كثيراً... من خطر الشعور في الوحدة... فحالما راودني حلم أنني لست وحيداً حتى شعرت أن الخطر الذي يتربص بي غدا مروعاً و مفزعاً. إلى درجة، هناك بعض الأوقات التي تمر علي أشعر فيها أنني لا اعرف نفسي و لا استطيع احتمالها)) (من رسالة إلى أوفربيك، 8 كانون الأول، 1883). زد على ذلك، كان نيتشه يشعر أنّه مقموعٌ بواسطة جملة من المشاعر و الأحاسيس الغريبة عن طبيعته يجهل كنهها. كان يشكو من كونه أصبح ((أخيرا ضحية جملة من المشاعر الوغدة و الفظة التي تحرض على الانتقام))، مع أنّ ((طريقته العميقة في التفكير ترفض الانتقام و العقاب ــــ الذي يخمد الحيوية و يحجر القلب و يكظم الغيض و يشحذ مشاعر العداء و النفور و يزيد من قوة المقاومة ــــ الذي من المستحيل أن نعرف لماذا يلجأ الناس إليه، و الذي يتصف اتصافا جوهريا و أوليا بالنية الهادفة إلى إثارة الرعب)) (من رسالة إلى أوفربيك، 28 آب، 1883).

حينما نجري المقارنة بين المشاعر، التي خلفها قطع عَلاقة نيتشه مع ريّ و لو سالومي، الذي لزموا الصمت لفترة طويلة، مع ضخامة التَجْرِبة المصيرية و عمق المعاناة التي عاناها من جَراءِ قطع علاقته بفاغنر، نجد أن هناك فعلا اختلافاً مدهشاً و لافت للنظر. بالتأكيد، إنّ ما قاله نيتشه عن نفسه عام (1883) يمكن أن يطبق على كلتا الحالتين – أعني، قطع علاقته بفاغنر و ريّ و سالومي، بهذا الصدد، يقول نيتشه الآتي: ((لدي طبيعة كثيفة و مركزة لدرجة أن كلّ ما يهاجمني و يصطدمني يذهب و يتحرك قاصداً ليحتل مركز وجود عندي)). و لكن هناك اختلافاً بين الحالتين:

بينما كانت مهمة نيتشه، بعد الانفصال عن فاغنر، ملزمة له و ظلّ ثابتا عليها؛ عانت ذات المهمة نوع من التردد و الاضطراب لبعض الوقت بعد قطع علاقته بكلاً من ريّ و سالومي مع أنّ نيتشه كان يعتقد أنّ الاثنين يشاركه هذه المهمة و أهدافها و يتفقان معه: ((كانت تراودني الشكوك بشكل رهيب في أني عاجز أن أضع بنفسي هدف – أنّ مشاعر الضعف، التي دبت في أواصلي، تهزمني و تطيح بي، في حين من المفروض أن يكون كلّ شيء، كلّ شيء، كلّ شيء يمنحني الشجاعة بدلاً عن ذلك!)) (من رسالة إلى أوفربيك، صيف عام 1883).

كشفَ نيتشه، الذي يمارس القارئ دوره داخل نُصوصه و لا يحيل إلى أيّ شيء خارجه، عن نفسه بطريقة تدل على سيطرته و تغلبه على ما كان يعدّه ضعف في داخله و بطريقة نحني رؤوسنا أمام بطولتها. بدلاً من مشاعر الاستياء، الامتعاض و الضغينة الغريبة أصلا عن طبيعته التي لم تتجاوز عتبة الوعي بعد، وظفَ نيتشه، بطريقة مفيدة، تجاربه ليولف فقط صورة للأشخاص الذي ارتبط بهم بعلاقات صداقة، و لاسيَّما لو سالومي في الوقت الذي انفصل تماما عنهم في الواقع و شارفت علاقته بهم حقاً على النهاية. بهذا الصدد يقول: ((لو[سالومي] امرأة ذكية إلى حدّ بعيد، أنا أدرك هذه الحقيقة و مُطلع عليها)) (من رسالة إلى أفروبيك، 24 شباط، 1882) كان نيتشه لا يود أن يعلن الحرب – كم هي حرفة كريهة حرفة الحرب – على أولئك الذين كانت تربطه بهم عَلاقة طيبة سابقة: ((كلّ كلمة سخط و استياء كتبتها بحق ريّ و السيدة سالومي تجعل قلبي ينزف دماً: يبدو أني غير مؤهل تماماً على صناعة مشاعر العداء، الخصومة و الحقد)) (من رسالة إلى أوفربيك، صيف عام 1883). كان نيتشه يرغب في فكّ العقد و توضيح كلّ شيء مع أولئك الأصدقاء دون أدنى نية في الاقتراب و الدنو منهم مرة أخرى: ((ينبغي أن أقدم بعض التعويضات إلى ريّ و السيدة سالومي جَراءِ الضرر الذي الحقته بهم و أن أصحح كم الأخطاء و أزيل سوء الفهم بينا...)) (من رسالة إلى أوفربيك، 7نيسان، 1884)

بدأ اليَأْس يدب في روح نيتشه و يفقد الأمل تماما في إمكانية العثور على شخص يشاركه مهمته الفلسفيّة بحميمة. لن يجرؤ نيتشه مطلقا على إعادة الكَرَّة مع نفس التوقعات، و في موضوع العثور على الصديق المناسب عدل عن رأيه و أراد أن يرجع أدراجه. مع ذلك، غدا شعوره بالوحدة حاداً و قوياً و أكثر عمقا و بدأت ملامح و تعابير وجهه تحدث في النفس أثراً أليماً. بالتأكيد، واصل نيتشه البحث عن أصدقاء جدد (من رسالة إلى جاست، 10 أيار، 1883)، و لكنّ دون جدوى في

العثور على أيّ أحد منهم حيث وجد أن مهمة إقامة عَلاقة على أسس إنسانية صرفة مع الآخرين باتت أشبه بالمستحيل، و كان يعاني من بعض المستطلعين الذين يمدون رؤوسهم الوقحة الضاحكة على حياته: ((بدأت أعرف أكثر فأكثر أنه لم يعد لي مكان بين هذه الموجودات الإنسانية – لم أرتكب أيّ شيء عدا الحماقات...و لهذا السبب، أبدو دائماً على خطأ)) (من رسالة إلى أوفربيك، 22 كانون الثاني، 1883).

جاء الفيللوجّي و الفيلسوف هانريخ فون شتاين[31]– إنّهُ من أولئك الذين لا يستطيع الخجل عندهم احتمال الصمت و يظنون أن من الواجب ملأه بالمبالغات – إلى مدينة سيلس ماري السياحية في آب من عام (1884) لزيارة نيتشه لثلاثة أيام. لم يسبق أن التقى الرجلان من قبل، كما أنّهما لم يلتقيا أو يرى أحدهم الآخر بعد هذه الزيارة إطلاقاً. كان يعرفان بعضهم البعض لفترة معينة تبادلا بواسطتها أعمالهم المنشورة، و مع بداية عام (1884) بدأ أيضاً يتبادلان بضعاً من الرسائل. في البداية، كان شتاين مهتماً كثيراً في نيتشه، و يعرف جيداً و يشعر بعظمته، و لكن دون أن يشعر أنّهُ ملزم نحوه بأيّ شي يذكر كما أن نيتشه، من جانب آخر، لم يمنحه على نحو حاسم أو يزوده ببواعث و حوافر جديدة؛ فقد جرب شتاين – كما فعل الكثير من قبله – و شعر و ميز بوضوح حالة الشدة و الحدة و العمق غير المحدد لشخصية نيتشه حينما كان يتحدث معه، و بهذا الصدد يقول شتاين في أحد رسائله إلى نيتشه الآتي: ((من المؤكد، أن شعوري و إحساسي بوجودي يزداد عمقا كُلَّما تحدثت معك)) (من رسالة إلى نيتشه، 1 كانون الأول، 1885). و في رسالة أخرى، يقول: ((يصبح وجود الحرية الداخلية حالما أتحدث معك، تَجْرِبة أخاذة و استثنائيّة لي)). (من رسالة إلى نيتشه، 7 تشرين الأول، 1885) بيد أن هذا لا يعني أن شتاين كان ضمنيا متفقاً مع عملية التفلسف مع نيتشه. بالنسبة لنيتشه، من جانب آخر، و بسبب منظور الصداقة الفلسفيّة، خلفت هذه الرسالة و أنتجت أخر هزة ناعمة في روحه.

بعد بضعة أسابيع من هذه الزيارة، كتب نيتشه إلى صديقه أوفربيك في (الرابع عشر من أيلول، 1884) الآتي: ((البارون شتاين جاء مباشرة من ألمانيا إلى سيلس ماري لغرض زيارة لثلاثة أيام، و بعدها سافر مباشرة لزيارة أبيه —— هذه الزيارة أعجبتني حقاً و تركت انطباعا حسنا في نفسي. هذا الرجل هو مثال رائع للإنسانية و الرجولة؛ لقد أبدى فهما كاملاً لما أقول و اتّفق معي في الكثير من الأمور، لأنه يمتلك فعلاً الموقف البطولي الأصيل للإنسان. أخيراً، عثرت على

شخص من نوعي و يفكر بنفس الطريقة التي أفكر بها يبدي آيات التقدير و الاحترام لي بشكل طبيعي و غريزي لا تكلف فيه!)). و في رسالة أخرى كتبها نيتشه إلى صديقه جاست في (20 أيلول، 1884)، يقول الآتي: بجواره و بالقرب منه، شعوري مماثل لشعور الأسطورة فيلوتتيس في جزيرته في أثناء زيارة نيوبتوليموس – أقصد، إنّه هو الآخر أيضاً يشعر بإيمان - فيلوتتيس ((دون سهامي و قوسي المشدود لا يمكن أن نغزو إيليون!)) فيما بعد ذكر نيتشه في كتابه ((هو ذا الإنسان)) عن شتاين الآتي: ((هذا الرجل بديع.... في الأيام الثلاث الذي قضاها في زيارتي كان يتمايل و يتغيّر من جَراءِ عاصفة الحرية التي وجد نفسه في وسطها، أصبح كما لو أنه له جناحان يحلق بهما و يرتفع إلى أعلى مدياته)).

شتاين هو الآخر كتبَ لنيتشه بنفس اللغة و ذات النغم و عبر عن نفس المشاعر الجياشة في رسالة مؤرخة في (24 أيلول عام 1884): ((بالنسبة لي، تشكل أيام سيلس ماري ذكرى عظيمة و جانب مقدس و مهم من حياتي. فقط بفضل تذكر هذا اللقاء، أجدني قادراً بإمانة على مواجهة رعب و هول الوجود أكثر من أن يكون هذا اللقاء مسعى جديراً بالاهتمام)). و في (شهر تشرين الثاني عام 1884) أرسل نيتشه إلى شتاين بعض المقاطع الشعرية، التي تظهر دور النشيد الشعري بفضل بنائيات قصائد الشعراء الألمان الكبار، (التي تتناول موضوعات الأصدقاء، البؤس و مملكته الحالمة فوق حقول الثلج المترامية الأطراف) التي وضعت فيما بعد تحت عنوان ((من على مرتفعات عالية)) و تّم إلحاقها و أُرفقَت بنص نيتشه ((ما بعد الخير و الشر)):

على أهْبة الاستعداد، أنا في انتظار الأصدقاء ليل نهار:

تعالَوا! أيُّها الأصدقاء الجدد! آن الأوان! آن الأوان! لا تتاخروا!

((أهدي أبيات الشعر هذه إليك، يا صديقي العزيز أحياء لذكرى لقاءنا في سيلس ماري و عرفان بالفضل و الامتنان لرسالتك التي بعثتها لي)). ردَ شتاين على رسالة نيتشه مقترحا أنّه ينوي، مع مجموعة من الأصدقاء، تدوين و تسجيل و توثيق مناقشة مضامين بعض من المقالات الراهنة التي تتعلّق بقاموس المفردات، المصطلحات، العبارات، المرادفات و المرجعيات الفاغنرية. تفاجأ نيتشه من هذا الرد، و شعر بالصدمة و الانزعاج كثيراً من رسالة شتاين: ((يالها من رسالة غريبة تلك الذي كتبها شتاين لي! و هل هذا هو فعلا رده على أبيات الشعر الذي بعثتها إليه – فعلا، أحياناً

لا أحد يتوقع كيف يتصرف المرء في مثل هذه الحالات)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، كانون الأول، 1884). لهذه الأبيات التي بعثها إلى شتاين أضاف نيتشه بعض الأبيات الأخرى قبل نشرها: ((هذه الأغنية شارفت على النهاية و أعلنت موتها – يبكي الحلو الجميل، على رؤوس الأشهاد، بصوت عذب من الحنين، يشكو حزنه إلى الله الذي لا يرسل إلينا اليأس ليقتلنا، بل يرسله إلينا ليوقظنا، و يموت من التوق على شفتي)).

قرر نيتشه أن يقطع علاقته بشتاين: لم تعد خيبة الأمل ذلك تشكل صدمة لنيتشه بالمرة، و ظلت مشاعر الحب و الاحترام الذي يكنه لسيد شتيان على حالها هي ذاتها لم تتغير. حين توفى شتاين في عام (1887) و هو في سن الثلاثين، كتب نيتشه، الذي وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه، الآتي: ((مازلت أشعر تماما بالصدمة و الاضطراب والذهول و عدم معرفة ما يجب القيام به بعد سماع خبر موت شتاين– أنا مغرم بهذا الرجل، ولدي ذكريات طيبة و جميلة معه، فهو ينتمي لفئة قليلة من الناس الذين وجودهم و حضورهم دائماً يجلب الكثير من السعادة – إنّ السعادة البسيطة تستحق الاعتبار أكثر من العذاب و بلوغها صعب جداً – و المتعة و السرور. لا تساورني أيّ شكوك في القول أنّهُ كان لي شخصاً متحفظاً، كتوماً و محتشماً)) (رسالة إلى أوفربيك، 30 حزيران، 1887) ((يا للهول، ألمني كثيراً موته، أنّهُ يمثل لي فقدان و خسارة شخصية كبيرة)). (من رسالة إلى أخته، 15 تشرين الأول، 1887)

لم يتوقف نيتشه طوال هذه الأيام من المجاهرة و التعبير عن شعور الوحدة التي يعانيه. لقد اعترف بوَطاءة هذا الشعور، و كان يرثي بواسطة نفسه و ينادي و يتوق إلى أصدقائه القدماء و هو في حالة من اليأس و القنوط. في أواخر عام (1884)، فكرَ نيتشه في أن يلجأ إليهم مرة أخرى – مع ذلك ((كانت فكرة... الإعلان عن نفسي، إذا جاز التعبير، بفضل كتابة نوع من الرسائل الشخصية (لأصدقائي).... تولد في نفسي شعور الإحْباط و الوهن)) (من رسالة إلى أوفربيك، 10 تموز، 1884. بعد عدة أسابيع، كتبَ نيتشه أنشودة الختام ((من على مرتفعات عالية)) كقصيدة وداع إلى أصدقائه القدماء، مع أمل واهن شديد الوَطاءة إلى شتاين. كان نيتشه يحن و يتوق لتلاميذه المريدين: يبدو أنّ المشاكل التي تواجهني راديكالية و على درجة عالية من الأهمية إلى درجة أننّي أدرك، و لأوقات و فترات متعددة في العام الواحد، التصور المتغطرس الذي أبوح فيه للمفكرين و المثقفين الذين أطالبهم فيه أن يضعوا أعمالهم على جنب و أن يكرسوا أنفسهم تماماً في الوقت الحاضر لفهم

أعمالي و ما أريد قوله. ما كان يحدث في كل مرة أقوم بذلك، و بطريقة غريبة و غامضة غير مألوفة، عكس ما كنت أتوقعه))[32]. هنا، تخلى نيتشه عن هذه الفكرة: هناك الكثير من الأمور التي تحاول أن تكبر و تنضج في داخلي – زمن البحث عن (التلاميذ و المدرسة) و كل شيء من هذ النوع (et hoc genus omne) لم يحن بعد (من رسالة إلى أوفربيك، 20 شباط، 1885).

و لكن كان هناك في الواقع شخص واحد بمنزلة البديل الذي عوض نيتشه عن كلّ الأصدقاء الذين حُرِم منهم خلال السنين التي عانى من شعور الوحدة المقيت. في تلك المدّة، بدأ نيتشه يبدي اهتماماً كبيراً في صديقه بيتر جاست[33]، الذي ظل على حاله لم يتغيّر مخلصاً و أميناً لنيتشه مكرسا نفسه لعلاقتهم منذ أن تعرف علية عام (1875) حتى مماته. فرادة و ندرة نوع الفهم الذي يتوفر عليه جاست في التعاطي مع الأمور و أحياناً في إعادتها إلى نصابها، قدرته على التعبير عن طرائق نيتشه، التي تغير طرق البحث و تجدده، و أهدافه و مقاصده، تبدو للأخير و كأنّها اجتماع سحري لذاته مع شخص آخر – بيد أن تلك الصفات تبقى دون أهمية و ثقل لأن نيتشه نفسه لم يكن يفكر جديا كثيرا في جاست أو قد وضعه قيد النظر و في الحسبان. كان نيتشه، في علاقته بجاست، يفضل أن يُنادَى بلقب ((السيد البروفيسور/ الأستاذ)) و تلك إشارة منه إلى حفظ الألقاب و المسافات بين الآخرين. كان جاست يساعد نيتشه في نقل و نسخ كتاباته و عملية التدقيق اللغوي لها و تحريرها لتصبح صالحة للنشر، و ظل نيتشه حتى أواخر حياته يرسل له الرسائل المفرحة و ذات النفس الإيجابيّ تماماً و يرفع من معنوياته المتأرجحة و يقوي ثقته بنفسه.

على سبيل المثال، حين تسلم جاست نسخة من كتاب ((هكذا تكلّم زرادشت))، الذي يجبر المرء على التفكير ملياً و كان فيه الجزاء من غير جنس العمل، كتب الآتي: ((ليس هناك في الوجود نصٌ يماثل هذا النصّ أو يضاهيه — لأن الأهداف و المقاصد التي تّم تحدديها في هذا النصّ عن الإنسان لم يتطرق إليها أي أحدّ إطلاقاً من قبل. يمكن للمرء أن يتوقع انتشار هذا الكتاب و تداوله على نطاق واسع، و أنه سوف يحوز على أهمية توازي أهمية و مكانة كتاب الإنجيل [العهد الجديد]، كما سيكون لعنوانه الأساسّي سلطة معرفية مؤثرة و لأفكاره و حججه طقم خاص من المفسرين و المعلقين...)) و يجيب نيتشه: ((انتابتني مشاعر من الدهشة، التعجب، التبجيل و الاحترام الممزوج بالخوف و التساؤل لدى قراءة رسالتك. لنفترض أنك على حق — فإنّ هذا يعني

أن حياتي لن تكون مجرد إخفاق و فشل في نهاية المطاف؟ أو على الأقّل أنا الآن الأكثر قناعة بذلك؟)) (من رسالة إلى جاست، 6 نيسان،1883)

لم يتوقف نيتشه على القول مراراً ما الذي يعنيه جاست له كصديق: ((أنا قلق، حزين، منزعج و غاضب و أشعر بالحزن تماماً، لأني غير قادر أن أقول كلمة صادقة و غير مشروطة إلى أيّ أحد — ليس لي أيّ أحد إطلاقاً في هذا العالم عدا جاست أتحدث أمامه بحرية كصديق)) (من رسالة إلى جاست، 26 تشرين الثاني، 1888).

وجه نيتشه بوصله خيالاته المضطربة، الموضوعة بشكل عشوائي بعضها فوق البعض، نحو شخص جاست. اعتبرَ نيتشه جاست الموسيقي المبدع و الخلاق الذي يعرف ماذا يختبئ وراء الإيقاعات المدعية و الترديدات الغنائية الرنانة، الذي تجاوز فاغنر، بفضل تقديمه نوعاً راقياً من الموسيقى غير الرومانتيكي يتناسب بشكل كبير مع فلسفته. كان نيتشه مهتماً باستمرار في المقطوعات الموسيقية، التي يؤلفها جاست، و يحاول نيابة عنه في نشاطاته أن يثير اهتمام مديري المسارح و قادة الفرق الموسيقية و يقنعهم في عزفها و تنفيذها. و في خطوة لازمة تتجاوز التوقعات و المطالب، كان نيتشه، على غير العادة، لطيفاً و على استعداد لمساعدة جاست بلا حدود و بأقَصى ما يملك.

تجسد الطريقة التي غدا فيها جاست لشخص نيتشه، المنعزل و المتوحد دون رفيق و الذي يقترح أن نعمل لمصلحة اللامنطقية، كل الواقع، الذي سلب نيتشه حقوقه، و كل حقوق نيتشه هي فتوحات، و أنكر عليه كل خدماته، و يضيء حجم المشكلة التي كان يعانيها نيتشه و يزيد، على العكس، من حِدّتها: استحالة أن يكون لنيتشه، خلال التَجارِب المتكررة لسنوات عدة، عَلاقة واحدة ثابتة و مستمرة قائمة على أسس جوهرية و تتغلغل إلى الصميم.

العناصر الثابتة في علاقات نيتشه الإنسانية. — وجد نيتشه – الذي كان لا يعترف في انكساراته و كان يتظاهر دائما بأنّهُ تمنى مصيره و ارتضاه بملء إرادته مهما حدث – في كلّ علاقاته المتنوعة بالآخرين، أنّ العنصر الفلسفي، المهم جوهريا و وجوديا بإطلاق، صعب المنال – بمعنى، لا نستطيع أن نضع أصبعنا عليه، فهو مراوغ، متهرب و غير متوفر: إنّهُ يتلاشى و يختفي بواسطة حركة وجوده نفسه الذي لا تنقطع. بيد أن كل علاقات الصداقة التي أقامها نيتشه بغض

النظر عند طول مدتها ظلت تحمل بدقة أثر المعنى و التَّذْكِرَة المتواضعة عليه بسبب فترة بقائها. يكشف إيقاع الوتيرة المستهلكة الكاملة لتَجْرِبة نيتشه الوجودية، في علاقاته المتعددة، عن نفسه بفضل طبيعته الاستثنائيّة في التعاطي مع من حوله. و لكن كموجود استثنائّي و فريد، تحاول طبيعته الخاصَّة أن تصل إلى ما هو إنساني بشكل طبيعي و كلي. و بينما لم يكن هذا الأخير، أيّ العنصر الإنساني حاسما إطلاقاً لم يكن نيتشه يريد الاستغناء عنه، و كان يريد الوصول إلى مقدار قليل أو ضئيل من السعادة الطبيعة – كان نيتشه يسعى للحصول و القبض عليه كما هو (مادام أنه لا يتعارض أو يصطدم أو يتداخل مع مهمته!)، و ذلك كي يحافظ على كلّما هو مهجور و منسي و ضائع في التَجْرِبة الإنسانية.

كان نيتشه يشعر دائماً بالرابطة الطبيعية و الألفة الحميمة نحو أفراد أسرته. فقد رافقته أخته و أمه و لازمته طوال حياته كلها. اعتنت كلاً من أمه و أخته به و هو مازال طفل صغير، و سهرا على صحته و تعهدا برعايته في أثناء مرضه، كما قاموا بتلبية كافة حاجاته و رغباته آنذاك. كان نيتشه يشعر دائماً بألفة و رابطة قوية تشده نحو أخته و أمه – ففي فِقْرة من نصّ ((الهائم و ظله)) (1879)، الكتاب الذي يمثل عالماً من الفوضى المنظمة بشكلٍ جميل، يلقي نيتشه الضوء على عَلاقاته بهم كما لو أنه يريد أن يعبر عن معنى هذه العَلاقة الإنسانية له و يمسك به بطريقة استثنائيّة و فريدة: ((فيما يتعلق بهذين الكائنين، لم أفكر بالأمر بعمق مطلقا – و لكن في قلبي تنمو دائماً جذور الحب العميقة نحوهما)). في عام (1883)، تعرضت هذه العَلاقة إلى توتر يُنذِرُ بالخطر من جَراءِ تَجْرِبة ارتباط نيتشه الفاشلة مع السيدة لو سالومي، و يبدو أنّ النتائج العاطفية التي خلفتها هذه العَلاقة ظلت قائمة و مؤثرة و لم تختفِ أو تتلاشَ تماما من ذاكرة نيتشه. في هذا الشأن، كشفت رسائل نيتشه عن حجم القوة العنيفة التي تحيط و تكتنف مناخ الحوادث الواقعة آنذاك، لاسيَّما التي وردت ذات يوم على باله دون أن يخلو ورودها من أحداث بعض الحَيْرَة و الارتباك لديه.

كشفت هذه العَلاقة عن حجم التناقضات الرهيبة بخصوص التعبيرات و الكلمات التي قُيلّت عن و حول السيدة لو سالومي كانت هذه التناقضات تظهر بدقة الموقف الذي يميز المفاهيم و الصياغات العقلية، بوصفها كوامن لطاقة برسم الاستطلاع، لنيتشه: كان الأخير متقبلاً و مفتوحاً على جملة من الإمكانات المتعددة، سار في طريق البعض منها مأسورا بثبات و لكن ما لبث تقريبا أن تركها و سار فيما بعد بدلاً عنها في طريق الإمكانات الأخرى المختلفة عنها تماماً. و نتيجة لذلك،

و في مِزَاج متحمس تغلب عليه سمة سرعة الإنفعال، صدرت عن نيتشه و هربت الكثير من التعبيرات المتسرعة و المتعجلة التي سرعان ما تراجع عنها و سحبها. في بواكير شهر تموز، و تحديدا في العاشر منه، من عام (1865)، كتبَ نيتشه إلى أخته إليزابيث أنّهُ يميل الآن إلى أن يرى ((كلّ الأشياء – الأشياء، الأشخاص، الملائكة و الناس و الشياطين – قاتمة، مظلمة و قبيحة تماماً في بعض اللحظات الساخطة المستاءة و القلقة البال))، و في أحد المناسبات، يعترف لها في الآتي: ((أنا في غاية السعادة، لأني مزقت بعض الرسائل التي كنت أنوي أن أبعثها لكي – إنّها فقط تعبير عن مشاعر و أحاسيس كائنات المساء و الليل القلقة – بيد أن الرسالة التي كنت أود أن أبعثها إلى أمي، التي مازالت تحتفظ بطبعها و نوعها و صورها الذهنية، هربت مني لا أعرف أين)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، آب، 1883). بدأ نيتشه يميز تناقضاته، و يعي إنّها فعلاً متجذرة بعمق في طبيعته: ((أيّ شخص يعيش وحيداً تماماً مع نفسه... و يرى، فضلاً على ذلك، الأشياء ليس فقط من جانبين؛ بل من ثلاثة و أربع جوانب، فإنّهُ يحكم حتى على تجربته الشخصية بطريقة مختلفة)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، آذار، 1885).

في الحياة النظريّة، و لأغراض تتعلّق بالمعرفة و الاستعداد، يصبح من المنطق أن يكشف المرء عن إمكانات مختلفة – و لكن في الحياة العملية تفرض عليه الضرورة أن يقرر و يحسم من الذي سوف يختاره من بينها. يبدو أن نيتشه لم يقرر أي من إمكانية من الإمكانات ينبغي أن يختار إلاّ حينما يتعلق الأمر بمهمته حصراً كمفكر مبدع و خلاق، و بذلك، لم يسمح لنفسه في التدخل في مساراتها، بل ترك هذه الإمكانات تمضي إلى حدودها القصوى. فيما يتعلق في الشؤون الإنسانية، كان نيتشه يتصرف كشخص يسمح ببساطة للآخرين بأنّ يقرروا نيابة عنه حينما يتعلق الأمر بقطع العَلاقة بهم. على سبيل المثال، كان هذا هو الحال بالضبط حينما قرر نيتشه و عقد العزم على قطع علاقته بالسيدة لو سالومي. في هذه النقطة تحديداً، بَدَا نيتشه أخيرا و كأنّه الشخص المذنب الذي نبذه و أهملوه الكل – الشخص الذي يشعر في أعماق وجوده أنّهُ فعلا ليس ذا أهمية تذكر لأيّ أحد، و لهذا كان متمسكا بقوة بروابطه الغريزية الطبيعية: ظل أفراد أسرته يشكلون له أكثر الناس الذين يثق بهم. بالتأكيد، يشعر المرء أحياناً بأنّ نيتشه كان شخصاً حزيناً، خائفاً و مليئاً بالعواطف السلبيّة، تحيط به السحب الثقيلة و الغيوم الداكنة من كل جانب، إلى درجة أنه لم يعر إلى أمه الحبيبة أيّ اهتمام و لم تعنِ له عاطفيا الكثير. في حين لم تشاركه أخته أيّ من اهتماماته الفلسفيّة. مع ذلك، لم يتخلَ نيتشه إطلاقاً لا عن أمه و لا عن أخته في حالات الصراع و الاختلاف – مع أنّ هذا كان

يحدث مؤقتا – بل على العكس، كان يفضلهم على كلّ الناس في هذا العالم، و كان يشعر إزائهم غريزياً بمشاعر الثقة و الارتياح: فقد ظلوا معه حين تركه كل الناس الآخرين و تخلوا عنه، و لم تساوره أيّ رغبة أو هاجس في قطع العَلاقة بهم أو يدير ظهره إليهم مع أنّ وجود الكثير من الأسباب التي تدعوه إلى ذلك. ترجع رابطة الدَّم و الذكريات إلى بداية مرحلة الطفولة التي برهنت بأنّها ليست فقط منيعة لا تقهر و لكنها أيضاً غنية بمعانيها الإنسانية و لا تقدر بثمن.

كان اهتمام إليزابيث، أخت نيتشه، و رعايتها له و قلقها عليه ذا مردود إيجابيّ و درس نافع مليء بالعبر للأجيال القادمة فيما يتعلق بالروابط الأخوية. يعود الفضل في حفظ المعرفة الموثقة بطريقة جيدة، نظرا لوجود العديد من المستندات التي تصفه و تثبت كل جوانب حياة نيتشه و لاسيَّما مدّة الطفولة، فقط إلى أخته، التي احتفظَت في الكثير من المخطوطات و الوثائق و النُصوص و الأوراق المكتوبة بخط يد نيتشه، و بضمنها المواد التي تّم نشرها بعد وفاته، و جمعت و حافظت على وثائق قدر لها لاحقاً أن تكون حقاً على أهمية كبيرة. بالطبع، فقط عملية نشر هذه الوثائق بالتمام سوف يكشف النقاب لنا و يفصح عن الصورة الكاملة عن نيتشه.

حتى نهاية حياته، سمح الود و الانفتاح الاجتماعيّ الذي تتمتع به شخصية نيتشه له في أن يعقد عَلاقات حيوية مهمة بدائرة كبيرة من الشخصيات من مختلف المشارب و الصنوف. بعض هذه الشخصيات ظلت لفترة من الزمن محافظة على علاقتها به ثم ما لبثت أن هجرته و تركته لتعاود بعد حين الاتصال فيه، لكنها ظلت تقف خلف الكواليس أو خارج دائرة الضوء لا يلاحظها أحد، و كان نيتشه ببراءة و طيب خاطر يعاود الاتصال بها في الأوقات المناسبة و من وقت للأخر. و بينما لم يكن و لا واحد من هذه الشخصيات يمثل ضرورة لا غنى عنه بالنسبة إلى نيتشه – إلاّ أن هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، لم يخلُ أحيانا من بعض الإشارات و الروابط و الصلات العاطفية و بوادر حسن نية كبيرة و منافع و مصالح إنسانية و متعة و بهجة ذات أهمية كبيرة [34]. الوجود مع الآخرين الذين لم يبخل في مساعدتهم و أجواء العَلاقات بهذه الشخصيات كان أمراً ضرورياً و حيوياً و لازماً لا بديل عنه بالنسبة لنيتشه. واحد من هذه الشخصيات، التي سنأتي على ذكرها بالحال كانت لها حقاً عَلاقة ممِيزة لبعض الوقت مع نيتشه كما تكشف المراسلات.

من بين زملاء الدراسة، نخص بالذكر، على سبيل المثال، دويزون، كروك، و ف. جيرسدورف، الذي ظلا على عَلاقة وطيدة مع نيتشه. بعض الشخصيات الأخرى المهمة الأخرى

انضمت إلى قائمة معارف نيتشه لاحقاً، من أمثال كارل فوكس (1872)، مالفيدا فون مايزنبوك (1872)، ف.سيدلتز (1876) و آخرون. و خلال العقدين الأخيرين من حياة نيتشه، لعب السفر برفقة الأصدقاء دوراً مهماً متزايداً في حياة نيتشه، غير أنّه لم يصل إلى درجة الأهمية الكبيرة.

من بين دائرة نيتشه الكبيرة من الأصدقاء احتلَّ دويزون[35] مكانة مرموقة خاصَّة. لا يوجد في مراسلات نيتشه كلها موقف تعليمي و وعظي صارم للغاية كالذي كان تحتويه رسائله إلى صديقه دويزون. ارتبطَ وعي نيتشه في مكانته المتفوقة بالاهتمام الجاد بالتطور الفكري لدى دويزون، الذي كان في الواقع متجها صوب إنجاز شيء أساسي و مهم غير مسبوق طبقاً و حسب توقعات نيتشه. و بهذا، حفز نيتشه دويزون و شجعه و صفق له بحرارة على إنجازاته الرائعة و حثه على المضي في طريقه. في هذه العَلاقة، مكنَ و عدلَ وضوح و صفاء شخصية نيتشه و موقفه المثير للإعجاب في البحث عن الحقيقة، دويزون لاحقاً من أن يعلن بصراحة عما كان يفكر فيه و يجول بنفسه أمام نيتشه دون تحفظ. يبدو كلّ واحد من هذه الشخصيات كما لو أنه حقق درجة من العظمة النموذجية المطلوبة بواسطة عَلاقته بنيتشه – كلّ واحد منهم حقاً وفقاً إلى مستواه و إمكاناته. في الواقع، كُلَّما ازداد اهتمام المرء في عَلاقات نيتشه بأصدقائه، و درس كل شخصية من الشخصيات التي كان على صلة فيها على حدة، كُلَّما اكتشف بوضوح و لاحظ دائرة الشخصيات المرنة و الطيعة التي كانت مرتبطة فيه و كيف غدت مضيئة بفضل قربها منه و كيف عملت بدورها على جعل نيتشه يبدو أكثر وضوحا في مهمة سبر الأغوار النفسية الإنسانية.

فيما يتعلق ببعض الشخصيات الأوروبية البارزة المهمة، التي ارتبط بها نيتشه و أعلن أنها تتمتع باحترام و مهابة غير مرغوب فيها، بوسعنا ذكر، على سبيل المثال، جايكوب بوركهاردت[36] و كارل هيلبراند [37]. لقد التمسَ نيتشه فعليا الإرادة الخيرة فيهم، و راقب كل الفوارق الدقيقة التي تكاد لاتدرك في أحكامهم، وشعر أنه واحد منهم، غير أنّه لم يعِ و يلاحظ حجم التحفظ الصامت البالغ و التنكر اللذان ابدياه نحوه لاحقاً.

فضلاً على ذلك، من الشخصيات الرفيعة التي كان نيتشه يكن لها احتراماً و وداً كبيراً، مع أنّها تجاهلته و كانت تعدّه مجرد شخص غير مؤثر، السيدة كوزيما فاغنر وهانس فون بلوو.

و لكن على رأس الشخصيات، التي دافعت بقوة عن نيتشه، يقف حقاً مؤرخ الكنيسة واللاهوتي فرانز أوفربيك[38]. منذ عام (1870)، كان أوفربيك بجانب نيتشه لا يفارقه، في البداية رفيقاً و زميلاً له و بعد ذلك صديق للفتى الشاب لن يألوا جهداً في مساعدته في الشؤون العملية حينما بدأ نيتشه للتو بالنضوج، و أخيراً ظل من الأصحاب المخلصين له حقاً طوال حياته. بوجود أوفربيك صديقا لنيتشه، منحت الطبيعة عطاياها السخية لنيتشه و عائلته بكرم – لقد كان دوام و استمرارية هذه العَلاقة ببساطة هِبَة و نعمة لا تقدر بثمن. لقد تجلى سلوك أوفربيك الصادق و الموثوق فيه بطريقة غير مألوفة: لعقود من الزمن، كان الاستعداد الداخلي المستمر عند أوفربيك يعبر عن نفسه على شكل أفعال صغيرة متكررة من المساعدة و تقديم العون لنيتشه بإخلاص.

لم تنشب الخلافات إطلاقاً في العَلاقة بين نيتشه و أوفربيك، لأنّها لم تكن عَلاقة حميمة جداً في الأمور التي كانت حقاً تهم نيتشه: لم يكن نيتشه يتوقع أن يلتقي أوفربيك في مناطق عالية في التفكير في مهمته الفلسفيّة الواقعية. كان أوفربيك بمنزلة موطىء قدم أو محطة استراحة في ظل الموجات المتقلبة من الناس و الأشياء التي صادفته.

كان نيتشه يحترم قدرات و إنجازات أوفربيك الفكرية – كان معجباً بقدرته على الثَّبات و التحمل. هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، عبر عنه نيتشه بوضوح في البعض من الفقرات في الرسائل التي كان يرسلها إليه:

((أشعر دائماً بالسعادة الغامرة حين أفكر فيك، و في الكيفية التي تنجز فيها عملك – أشعر كما لو أن هناك قوة طبيعية تتمتع تماماً بالصحة تعمل على نحو أعمى و بتهور في داخلك، لكن عقلك يظل يشتغل و يعمل بذكاء مع أفضل المواد وأكثرها أهمية... أنا مدين لك بالكثير يا صديقي العزيز، و لاسيَّما حين سمحت لي أن أشاهد دراما حياتك من على مسافة قريبة جداً)) (من رسالة إلى أوفربيك، تشرين الثاني، 1880). ((في كل مرة نلتقي أشعر بعمق السعادة التي يعبر عنها هدوئك اللطيف و حزمك الرزين أيها الطيب)) (من رسالة إلى أوفربيك، 11 تشرين الثاني، 1883). ((على نحو لا يتّم إنكاره، يزداد الأمر و الحال أزعجا و صعوبة في تجشمك عناء مزاملتي و مساعدتي، أعرف ذلك جيداً، الفضل يعود في ذلك إلى توازنك و رباطة جأشك، إذْ بفضلهما ستبقى صداقتنا هادئة مستقرة و معقولة و واقعية بعيدة عن التعرض لردود فعل عاطفية شديدة أو تأثيرات استثنائيّة في مواقف المرء المألوفة)) (من رسالة أوفربيك، 15 تشرين الثاني، 1884).

لقد منحت طبيعة أوفربيك المستقرة تماما، ذكائه و وضوحه لنيتشه الكثير من الارتياح الذي عبر عنها في رسائله إليه كصديق يشاركه أعمق الأفكار و أكثرها سِرّية، مع أنّهُ لم يكن يتوقع، في مثل تلك الحالات العادية، أن يفهم أوفربيك الدوافع و البواعث و النوابض الفكرية لوجوده. ثقته العالية بأوفربيك كانت تقريبا بلا حدود. كانت كلّ الأمور تسير على ما يرام، ما عدا في السنين الأخيرة، ازدادت حالة السخط عند نيتشه، حين انتهزَ ببراعة نادرة فرصة الكتابة إلى أوفربيك بطريقة لا تخلو من السخرية و التهكم اللاذع: ((بدأت فعلا مخاوفي و قلقي يقل، و بدأت أشعر بالراحة بعد أن عرفت أنّ قارئاً رائعاً و دقيقاً و أحكامه تصدر دائماً عن حسن النية مثلك مازالت تروداه الشكوك حول جدوى مقاصدي الحقيقية و منطقيتها)) (من رسالة إلى أوفربيك، 12 تشرين الثاني، 1886).

في عَلاقة أوفربيك بنيتشه، كان الأول مستقلاً في توجهاته الفكرية ليس فقط لأنّه كان أكبر من نيتشه عمراً بل و لأسباب يطول شرحها. و حين كان يضعه معشر الباحثين في مرتبة دنيا من نيتشه – الشيء الذي كان يعرفه و يقبله دون إشكال – كان أوفربيك يعرف بلا أدنى شك، مع ذلك، أن له مكانة متمِيزة في عالم نيتشه بفضل منجزاته الفكرية الخاصَّة. يتوفر تفكير أوفربيك على مسألة البحث عن الحقيقة الأساسيّة والجذرية، التي يمكن مقارنتها في بعض النواحي بعملية البحث عن الحقيقة عند نيتشه، و الطريقة الموضوعية غير المنحازة في الملاحظة، و الاستعداد للسماح في تحقيق أيّ إمكانية: كل هذه الأمور لم تقود أوفربيك للآسف، كما هو الحال مع نيتشه، إلى مديات الحدود القصوى البعيدة الواسعة المترامية الأطراف، بل جعلته يتوقف عن إنجازه بسبب تقدمه في العمر في أسلوب مُمتِلِئ في المشروطات و التحفظات، الذي لم يعلن أيّ نتيجة نهائية متسقة، بل قدم بدلاً عن ذلك تناقضات بقيت على حالها و لم يتّم حلها ديالكتيكيا، (على سبيل المثال، نظام الرموز و العلامات الذي بدأ في صياغته بطريقة واعدة في البَدْء). بصدد علاقته مع نيتشه يقول أوفربيك ((نيتشه ليس رجلاً عظيماً بالمعنى الصحيح للكلمة))، ثم يكمل ((ما إذا كان نيتشه حقاً رجلاً عظيماً – أمر أشك على الأقّل فيه كثيراً))[39]. يعي أوفربيك بعض الشيء طبيعة نيتشه و تفكيره، و قد أصاب كبد الحقيقة و عينها في ذلك، لكن موضوعيته كباحث تطورت في اتجاه غلق تماما و صادر إمكانية الدخول إلى طرائق نيتشه، و كانت حقاً بمنزلة طريقة للهروب إلى الأمام. قلة العاطفة عند أوفربيك أنتجت سَعَة معرفة خاصَّة، لا تفتقر تماما إلى العظمة، مكنته، كشخص ملحد، من أن يحل، و لو بطريقة غير ملائمة صعبة المراس و لكن بوعي و بنمط أمين، المشكلات الموروثة في دراسة

اللاهوت – (بعبارة أخرى، لم يتحدث أوفربيك عن قناعاته أمام تلاميذه قطّ و قد حدَّدَ و حصرَ نفسه فقط في مهمة ذكر الأقوال و الآراء التاريخية-العلمية و الإشارة إليها بشكلٍ موضوعي). جعلت المعرفة الواسعة التي يتمتع بها أوفربيك الرجل على عَلاقة قريبة بأسئلة و رؤى نيتشه دون أن يمنع نفسه في أن يكون أميناً مع صديقه بطريقة عملية. لقد فعل أوفربيك كلّ ما بوسع المرء أن يفعله في مواجهة عبقرية نيتشه كاستثناء: لقد ساعد نيتشه بروح متواضعة، و كان يستقبله باحترام و برهبة مع أنّه كان لا يفهم الكثير مما يقوله نيتشه آنذاك و – دون أن يسمح ذلك في أن يجرح مشاعر نيتشه – و تحمل بصبر و شجاعة الأشياء الصعبة و غير السارة التي كانت تصدر من نيتشه، الذي لا يطاق أحياناً،كي ينجز واجبه نحوه كصديق. ليس الفضول اللجوج و لا التطفل الدخيل و خدمة الاستسلام-الذاتي بل الإخلاص البعيد عن العاطفة الذي كان يربط بين أوفربيك و نيتشه. لقد كان عمق الإخلاص و الأمانة، و عمق القدر، هو الذي ترجم نفسه بصورة جلية ناصعة نفسه في العَلاقة التي تربط بين الاثنين.

حدود قدرات نيتشه في عقد و إقامة عَلاقة الصداقة و تحمل الشعور بالوحدة. ــــ من المحزن – كثيراً لدرجة أن المرء تراوده الشكوك و لا يصدق – أن يرى نيتشه في هذه المواقف المحرجة حقاً: كيف يرتبط بالناس و يعقد عَلاقة بهم بطريقة عشوائية يعبر فيها عن مشاعر الألفة و الحميمة نحوهم دون سابق معرفة[40]، وكيف قدم مرة دعوة إلى طالب شاب مغمور غير معروف لمرافقته في رحلة و تلقى الرد بالرفض[41]، و كيف قدم عرض للزواج مفاجئ بامرأة رفضته، و في مناسبة أخرى طلب من شخص آخر أنّ يبحث له عن زوجة[42]، وكيف اقتربَ بادئ الأمر من ك كلاً من ريّ و سالومي و كيف تعامل معهم لاحقاً. يدرك نيتشه جيداً هذا الأمر المثير للاهتمام حقاً، حين يقول: ((الجنون المفاجئ لهذه الساعات المؤلمة، و لاسيَّما حين أكون وحيداً، يجعلني أحتضن أيّ أحد أصادفه أو القاه في طريقي بلا تميز و أعامله و كأنّه صديق و هَبّة من السماء، ثم ما البث أن أقطع علاقتي به، رافضا أيّ مساعدة أو اهتمام منه – مع شعور يملئنيء بالاشمئزاز و القرف – شعور بالغثيان في داخلي)). (من رسالة إلى أخته إليزابيث،8 تموز، 1886)؛ ثم يشير إلى معاناته في مكان آخر على النحو الآتي: ((إنّهُ الشعور بالعار و الذنب من جَراءِ هذا النوع من اللطف الإنساني الذي أبديه حتى الآن في معاملة الأشخاص كنظراء لي)) (نفس الرسالة أعلاه). لكن نيتشه كان قادراً على التعامل مع هذه الحالات و حالات أخرى و معالجتها: ترينا طريقة التغلب على هذه الصعوبات الصفات و الخصائص المميِزة لنيتشه بدلاً من أن الانغماس و التورط بها.

إنّ الصورة المرسومة عن نيتشه بوصفه بطلاً و رجلاً حديدياً قوياً لا يمتلك حظ المبتدئين، يعتمد و يعول على نفسه في المقام الأول و يتحرك في عالم صُلْب لا يتزعزع لم تطأه قدم من قبل، هي زائفة. في الواقع، بطولة نيتشه هي بطولة من نوع أخر مختلف. كان نيتشه – و أكثر ما كان يسممه هو أنه لا يعرف إلى من يوجه شكوكه – يعاني مأساوية القدر الإنساني، أو يد القدر الفظة الشريرة و الخفية الثقيلة، التي تكبح و تقمع فيه كل صيغ و أشكال الإنجاز الإنساني. مدفوعا بالبواعث الإنسانية و نوابضها الفكرية، كان عليه أن ينحرف المرة تلو الأخرى عن مسار مهمته (*Aufgabe*) بفعل تبسيطها و عرضها بشكلٍ لا يرقى للطموح. على سبيل المثال، كان عليه أن يجد طريقا يكون فيه أكثر فعالية، و أن يبحث عن مخرج و منفذ لتَرْجَمَة إصراره على تدريس و تعليم أصدقائه و الإيمان فيهم: كانت بطولة نيتشه تكمن في النهوض و السير مجددا بعد كل إخفاقه و فشل يتعرض لها. هذا هو السبب الذي يفسر لنا لماذا غدت قراراته لاحقاً فيما يتعلق بالنشاطات و الأفعال الحياتية أكثر سلبية شيئاً فشيئاً. هذا التطور الرائع المهيب في تجربته الفكرية الخاصَّة غير المرتبطة فعليا في أيّ شيء أصبح أمراً ممكناً بفضل حقيقة أنّهُ كان حذرا لم يرغب في الانغماس و التورط في العَتَمَة و الغموض المبهم الذي لا ينفذ إليه لعصره، و كان متحرراً تماما من إمكانية التعلق بأيّ وهم من الأوهام.

بوسعنا أن نناقش شعور الوحدة التي كان يعاني منه نيتشه على مستويين: (1) من وجهة نظر سيكولوجية، – و هنا ينبغي القول، مع نيتشه ليس هنا حقيقة سيكولوجية إلاّ خاصَّة و هذا صحيح و لكن ليس هناك من فن إلاّ و هو عام. كل المشكلة هنا عنده إظهار العام بواسطة الخاص؛ و جعل العام يظهر بواسطة الخاص – بوسع المرء أن ينتقد طبيعة نيتشه التي تميل إلى الوحدة، و يحكم عليه بواسطة المقياس المطلق لإمكانية الوجود الإنساني عموما – و لكن هذا يعني بفعلنا هذا أنّنا ظلمنا نيتشه و لم نكن عادلين بالطريقة التي حكمنا فيها عليه بما أنّ المنهج، الذي وظفناه، يقدم بطريقة لا مهرب منها استنتاجات ازدِرائية تحط من قدره؛ أو (2) ربما يشعر المرء بالمهمة غير المفهومة أبدا كليًّا الذي استهلكت و استنفذت طاقة نيتشه الفكرية، ويتعرف بواسطته إلى وجوده كاستثناء و فرادة و أصالة، و بهذا يصل إلى فهم مقَبُول لنيتشه بذاته.

(1) يمكن للنقد السيكولوجي، الذي ينطلق من مستويات و مواقع سطحية، أن يقدم لنا عرضاً مقَبُولاً يتجلى في الصورة الآتية: لم تمنح الاستقلالية، البهجة الدافقة و الاستحسان الداخلي الثابت

العزيمة الذين اطلقوا صيحة النفي في وجه كل أنواع الأسْر و الإكراه، التي بلغها نيتشه بفضل إرادته في البحث عن الحقيقة، لا الثقة في النفس و لا حس اليقين – الذي يجب عليك أن تومن بفضيلته و قوته العاملة – في هذا العالم الذي كان يرجوه – بل جعلت منه بدلاً عن ذلك شخصاً حساساً جداً بطريقة تتجاوز مقاييس عدم أهليته و ضعفه: لا يستطيع نيتشه أن يعيش إلاّ في عالم النبالة، في عالم من النبل. و لكن بما أنّ نيتشه لم يكن دائماً نبيلاً، أو يتصرف بنبل بسبب الظروف المحيطة به، فعليه أنّ يتحمل في كثير من الأحيان عمى و حَقارة و وضاعة و زيَف الآخرون؛ كان يعلن مراراً هزيمته أمام الذعر و الخطر و الخوف، الذي يسببه الآخرين، و قد وصل أخيراً إلى حالة من خيبة الأمل الكبيرة أعلن على أثرها القطيعة مع الكل من أصدقائه دون استثناء. كان نفور نيتشه يزداد شيئا فشيئا من كل شيء يواجهه و يلتقي فيه في الحياة. لم يكن راضياً على أيّ أحد من حوله – بل حتى على نفسه. عندما حاولت النظرة المتبصرة للمعرفة الواسعة لديه أن تملا الفراغ الذي خلفته غرائزه المفقودة الضائعة، حطمت الحقيقة التي أتى بها كل شيء و حولته إلى خراب و أرض يباب بلا رحمة عن طريق تطبيق المقاييس الصارمة المطلقة. كان نيتشه دائماً يلقي بالضرورة بظلال من الشك على كل واحد يلتقيه مادام أن الرغبة في التواصل مع الآخرين، كما هو الحال في الباقي من رغباته الطبيعية، لا تتسامح أو تقبل أيّ صيغة من صيغ الدجل و الخداع. كلّ ما يخص طبيعة نيتشه يحتوي و ينطوي على بذور الفشل و الإخفاق، لأن الطرق المخادعة و المضللة و تسويات الخلافات الزائفة المتبعة عند الآخرين غريبة عن طبيعته. و بينما كانت الأمانة متجذرة في مواقفه الصادقة و الأمينة، لن يكتسب أو يربح حس المسؤولية للواقع الروحي الحاضر عنده، الذي لم يكن كاملاً أو نبيلاً تماما، أيّ قوة في أعماق نفسه. خدم نيتشه علاقاته دون أيّ تأثير إيجابيّ؛ كان يعلم و يلقن الآخرين الدروس فقط بفضل التحدي دون الدخول في نزاع و معركة على قدم المساواة. يبدو أنّ نيتشه يمتلك شيئاً ما لا يجعله مستعد للتواصل مع الآخرين في مناخ التاريخ الراهن الملموس و ما يطرحه (على الرغم أن هذا الأخير يمكن أن يقود، حتى دون تسوية للخلافات، إلى تعزيزات مثمرة و سمو و نبل عام في عالم يتطور بفضل قوة مضيئة، في التغلب، بدلا من قوة مهلكة). من الممكن أن يكون نيتشه، و في مناسبات عدة و هذا لا يخفى على أحد، قد عانى جرح و أذى الكبرياء أكثر من إخفاقه بالتواصل مع الآخرين – و هذا يمكن أن يشير، من وجهة النظر السيكولوجية، و يدل على بغض و عدم الرغبة عند نيتشه في هذا التواصل. يمكن للتواصل الحقيقي بين الناس أن ينجح حين لا يكون هدفه إهانة بعضهم البعض و احترام

خصوصياتهم و حرياتهم و استقلالهم، لأنهم سيبقون على حالهم و يبقون في أماكنهم، يرفضون التخلي عن العالم الحقيقي الملموس لمصلحة الحالة المتخيلة للاستقلال خارجه. فقط بهذه الطريقة نبقى مستعدين لتحرير الأشخاص الآخرين و أنفسهم من التشابكات، التعقيدات، الارتباطات و الحواجز الواسعة – و فقط بهذه الطريقة بوسعهم حقاً أن يوجهوا الأسئلة نحو الآخرين و يجيبوا عن أسئلتهم. الناس من هذا النوع ربما يتمنون أن يكونوا متطفلين لكنهم بدقة متواضعين قانعين بزاويتهم الصغيرة المنعزلة، و مترددين في هذه المواقف التي يتخلى فيها نيتشه و يقلع عن هذه القيود و الكوابح و التحفظات: على سبيل المثال، في أحد المناسبات، قطع نيتشه حبل التواصل مع الكل بطريقة صريحة و في أسلوب جارح و مهين عياب ميال للنقد القاسي؛ و حين كان يعاني مرة أخرى من شعور الوحدة كان يرمى بنفسه بطريقة غير ناضجة خرقاء بين أحضان أول شخص غريب يصادفه في الطريق – أو حين يقترح طلب الزواج بطريقة عشوائية. إنّ السبب في هذا الإخفاق ربما يعود إلى أن رغبة نيتشه في التواصل، لكنه لا يريد روابط مع موجود مستقل آخر، و عليه فهي ليست حقاً إرادة في التواصل على الإطلاق. كان نيتشه لطيفاً و ودياً بطريقة استثنائيّة و على نحو رائع، و كان يأخذ دائماً بروح المبادرة، و على استعداد غير عادي لتقديم المساعدة، لكنه كان دائماً يبدو لا يحب إلاّ نفسه فقط، و حين يحب شخص آخر فإنّه لا يعتبره أو يُنّظر إليه إلاّ بوصفه ملاذاً لنفسه أو موطئ قدم؛ إنّهُ يفتقد مشاعر الإخلاص الحقيقية نحو الإنسان. فهو يتوق إلى الحب – الذي يساعد على تحسن من صحة الناس – و يشتاق إليه، لكنه يخفق في أسر و الاستيلاء على لحظة الاستجابة التلقائية التي تعدّ ذاتها شرط تحقق الحب. بناءً على ذلك، مع أنّهُ يعبر مرارا عن مشاعر الشكر و الإقرار و العرفان بالفضل لكلّ شي منحته الحياة له، لكنه يبدو قادراً على أنّ يكون بصراحة جاحداً و ناكراً للجميل و غير مخلص في التواصل (كما يرينا في ملاحظاته للآخرين من حين لحين أخر عن السيد أوفربيك و حتى عن أمه وأخته). كان نيتشه يتمسك بقوة، حينما يتعلق الحال بحاجاته الماسة إلى التواصل الإنساني، و في علاقاته بالآخرين، و لاسيَّما حين يكون الشخص المقابل في تلك العَلاقة صبور و جاهز دائماً لمساعدته (كما هو الحال مع صديقه أوفربيك و أخته إليزابيث)، أو حين يكون من مريديه المخلصين (كما هو الحال مع جاست). في الواقع، كانت حالة الاستقلالية و العظمة تستهوي نيتشه و تشده بقوة؛ لم يكن يعتقد من وجهة نظره على الأقّل، أنه يخدع نفسه، و لاسيَّما فيما يتعلق بأولئك الأشخاص الصبورين القريبين منه جداً في صلاته، و كان يكتب لهم بالعادة، بطريقة لا تخلو من اللباقة بشكلٍ غير مألوف بعض الشيء

يصاحبها الحذر، الحيطة و الاحتراس، و تتضمن الكثير من عبارات الشكر و العرفان و الامتنان الموجهة إليهم. كان نيتشه مشدودا بقوة كي يصل إلى حالة العظمة القصوى، و يكافح ليحكم على الأشياء بصواب بواسطة هذا المقاييس؛ بيد إنّهُ ترك الآخرين، المرتبطين به، مع مشاعر الحَيْرَة و الغموض و الارتباك و القيود القابضة، فهو لا يريد أن يدخل في وحدة أو عَلاقة ديناميكية بأيّ أحد أو يعمل على تحقيق الذات المتبادل بواسطة الحُبُّ مع و لأجل الآخر. ظل نيشة دائماً عياباً و ميالاً إلى النقد القاسي أو متحمساً في علاقاته بالآخرين (لاسيَّما حين يكون في حالة من التعبير العميق عن الصداقة و تمجيد الآخرين بتفاني تام). لاينبغي أنّ يغرب عن بالنا السّؤال الآتي: هل كان نيشة يحب الآخرين من أعماق قلبه فعلاً ــ الحُبُّ الذي ينتج التواصل و يحتفظ به حياً، لأنه يطوق و يحتضن الواقع الموضوعي الوجودي بدلاً من أن يكون مجرد معايير مطلقة لأصنام مُتخيلة ببراعة؟ ألم يكن نيتشه، يعاني، في المحصلة النهائية، من شعور الوحدة الفظيع المتزايد، و هل هذا مرده لأنه لم يكنْ عاشقاً لأيّ أحد أو لم يكن يكون معشوقا؟

(2) فقط أولئك الذين لا يؤمنون في مهمة نيتشه الفلسفيّة – التي هي موضوع عملي لا موضوع له بل هو شريحة من الحياة – و وعيه لها، يمكن أن يقبلوا مثل هذه المناقشة السيكولوجية عنه. إذا كان نيتشه – الذي يومن أنّ من الشناعة أن يضحي المرء بمهنته في سبيل حبه – يحب نفسه و يحب الشخص الآخر فقط كأناء أو وعاء له، فإنّ مهمته المستهلكة لقواه العقلية الملحاحة و الكثيرة المطالب مع ذلك تفرض عليه أن يكون موجوداً استثنائّياً. يمكن أن يمنح نيتشه بصدق كل روحه لشخص آخر حين يرى فيه إمكانية لتحقيق مهمته الضرورية (كما فعل مع فاغنر)؛ أو يمكن أنّ يخضع نفسه إلى مهمة غير محددة لم تخرج بعد من ظلال التفكير – لكنه غير قادر أن يخضع نفسه للتواصل الإنساني المستهلك بمعناه المألوف العادي بحد ذاته. ينتج هذا العجز من حالة الإيجابيّة الوجودية التي ترثها مهمته كشخص استثنائّي.

إذن، لايرجع السبب الحاسم في شعور نيتشه في الوحدة، و يتحدد بطريقة مقنعة و كافية، عن طريق التفسير السيكولوجي و تخريجاته. كانت جوهر حالته و وجوده العقلية يفرض عليه أن يتصرف بطريقة مضادة لإرادته، أيّ ضِدّ تطلعه و انفصاله عن الآخرين، كشخص فريد. فأفكاره، حين يعبر عنها بشكل مفتوح و واضح، تثير بالضرورة رعب الآخرين و خوفهم. تحمل نيتشه من جَراءِ ذلك الكثير من التضحيات، التي كان ملزم أن يقوم بها، بممانعة كبيرة، و بهذا الصدد يقول:

((حتى الآن، و بعد حديث سائغ و مريح يمتد لساعات عن أفكاري مع أناس غرباء تماما؛ تظل فلسفتي كلها مترددة، متذبذبة، متمايلة و متقلبة: يبدو أنّ المرء يكون حقاً أحمق جداً حين يلح في اتباع طريق الحقيقة على حساب الحُبّ، و حين أكون عاجزاً عن التواصل مع الآخرين و إيصال أحسن ما لدي إليهم دون تخريب و تهديم مشاعر الزمالة و الرفقة و المودة)) (من رسالة إلى جاست، 20 آب، 1880).

خلال حياة نيتشه، كان هناك دائماً تناقض واضح لا مفر منه بين ما كان يرغب فيه كإنسان من جهة و ما كان يمني النفس أو يتمنى أنّ يقوم به كحامل لأعباء هذه المهمة، من جهة أخرى. و بذلك، كان يرثي و يندب وحدته، و لكنه كان أيضاً يحبها و يحتفي بها – كان يعاني فقدان الكثير من الأمور الإنسانية العادية و السوية، و كان يحاول أن يجد علاجاً لهذه المشكلة، لكنه مع ذلك اختارَ أن يكون وجوداً استثنائيّاً. بهذا الصدد يقول: ((إنّ تناقض مواقفي و صور و صيغ وجودي قائمة على حقيقة أني أشعر أن كلّ الأشياء التي احتاجها كفيلسوف راديكاليّ – الحرية من قيود المهنة، الزوجة، الطفل، الأبوة، العقيدة...إلخ – هي مجرد صيغ من الحرمان، و من حسن الحظ أو الطالع أنّي موجود حي و ليس مجرد آلة تحليلية)) (من رسالة إلى أوفربيك، 14 تشرين الثاني، 1886؛ و رسالة مماثلة لتلك إلى أخته، تموز، 1887).

بوسع المرء الملاحظ أنّ يدرك تأثير القدر في مهمة نيتشه، إذا لن يأخذ بعين الاعتبار كلّ ما هو رائع و جدير بالملاحظة في حياة نيتشه بوصفه مجرد واقعة سيكولوجية، و يبادر بدلا من ذلك بالإصغاء إلى السجل الموجز للنِقَاط و الأفكار المكتوبة لمساعدة الذاكرة و الرسائل المكتوبة التي تخصه وحده لا غيره. بوسعنا أن نفهم و نستمع إلى هذا السجل الموجز، كتعبير فعلاً عن قساوة قدره، حين يكتب التلميذ الشاب إلى أمه: ((ليس هناك أيّ شخص يمكن أن يمارس تأثيره الآن عليّ الآن بما أنني في طور المحاولة أولا أن أطلع و أتعرف إلى الشخصيات التي اعتبرها أعلى مني)) (من رسالة إلى أمه، كانون الأول، 1862). لقد سارت قوة القدر خلال طرق حياة نيتشه التي سلكها بوضوح و مشى معه يداً بيد: فقد كان جزء من هذا القدر يرافقه في حله و ترحاله منذ تعرفه بفاغنر و قطع علاقته به إلى التعرف على روده و تركه له. غدا تأثير القدر أكثر وضوحا على نيتشه، و لاسيَّما في أواخر عمره: ((كلّ حياتي تتحطم أمام ناظري: هذه الحياة الخفية الغريبة تتقدم برّمتها خطوة لازمة واحدة إلى الأمام كل ست سنوات، و لا ترغب في الواقع بأكثر من هذه الخطوة، بينما

كل الأشياء الأخرى، و بضمنها علاقاتي و صلاتي الإنسانية، تهتم فقط في إقناع نفسي كي أكون دائماً ضحية الضرورة التي تقود هذه الحياة الخفية برّمتها)) (من رسالة إلى أوفربيك، 11 شباط، 1883). و في رسالة إلى صديقه جاست، يقول نيتشه: ((يعيش الإنسان في الواقع حياةً مرهقة برّمتها إذا كانت مرهونة و مأسورة بعمله: و بهذا يفقد موهبة إرضاء الآخرين. في أحيان كثيرة، المرء يصبح جدياً تماما، و الآخرون يشعرون بذلك: هناك جدية شيطانية وحشية شريرة تقف خلف هذا الشخص الذي يصر على احترام عمله...)) (من رسالة إلى جاست، 7 نيسان، 1888).

انتجت حياة نيتشه، السيرة الفريدة من نوعها الذي قضت العمر تتحمل وزر أفعالها، و التي كانت مكرسة لتحقيق هذه المهمة، إرادة جديدة للتواصل – التواصل مع الناس الذين لديهم نفس الحاجات، نفس التفكير، نفس المهمة، و كذلك التواصل مع التلاميذ و الاتباع و المريدين. كان نيتشه له توق استثنائيّ و فوق العادة للتواصل مع كلا النوعين من الناس.

(1) على الرغم من القيمة الكبيرة التي يعزيها إلى الصداقة، الاّ أن نيتشه لن يألوا جهد، المرة تلو الأخرى، على أن يفحص و يستقصي و يراجع و يبحث في علاقاته بأصدقائه بدقة و عناية، و لا يتوقف على التساؤل ما إذا كان قد جربوا نفس الصدمة التي هزته بقوة و اقتلعته من جذوره، ما إذا كانوا أيضاً يعرفون ما يعرفه هو سلفاً و فعلاً:

كانت تَجْرِبة التخلي عن كلاً من لو سالومي و ريّ صعبه جداً، لأن معهم كان نيتشه ((يستطيع التحدث عن الأشياء و التفكير بها بحرية))، كان هذا الحال، المثير للاهتمام حقاً، ((يثير اهتمامه – و يعرف بواسطته أن بوسع المرء أن يشعر بالثقة التي لديه في تكوينه و في روحه، تلك الثقة التي ترفض أن تعبر عن نفسها)) دون قناع (من رسالة إلى أخته إليزابيث، آذار، 1885). كان نيتشه يشكو بسبب ((افتقاده و تعذره على العثور على الشخص المناسب الذي يمكن أن يشاطره التأمل و التفكير و إطالة النظر ملياً في مستقبل الناس)) (من رسالة إلى أوفربيك، 11 تشرين الثاني، 1883). و في رسالة أخرى إلى أوفربيك، يقول نيتشه: ((في هذا الوقت، لدي رغبة كبيرة في عقد أحاديث سِرّية معك و مع جايكوب بروكهارت، كي أسئل كيف تسنى لك أن تستوعب هذه الحاجة المؤلمة بدلا من أنّ تسرد الأخبار عنها)) (من رسالة إلى أوفربيك، 2 تموز، 1885). يقول نيتشه أيضاً إلى صديقه أوفربيك الآتي: ((في الواقع، لقد أوقعت رسالة جايكوب بروكهارت في نفسي الكثير من الكآبة، على الرغم من أنها كانت مليئة بآيات و مشاعر الاحترام السامية لي. و لكن هل

لهذا الأمر أهمية الآن! ما أريد أن أسمعه، أصغي إليه هو (محنتي، كربي و مصائبي العسيرة الموجعة! هذا الحال يجعلني ألتزم الصمت بعد كلّ هذا!)...لا افتقد أيّ أحد من الناس إلاّ أولئك الذين يشاركوني اهتمامي و قلقي)) (من رسالة إلى أوفربيك، 12 تشرين الأول،1886). و في رسالة إلى أخته، يقول نيتشه الآتي: ((منذ طفولتي و حتى الآن، لم أعثر على أيّ شخص يمتلك نفس محنتي، كربي و مصائبي العسيرة الموجعة للقلب و ضمير ناصع كالضمير الذي أمتلكه)) (من رسالة إلى أخته اليزابيث، 20 أيار، 1885).

(2) الرغبة في التواصل المنبثقة عن مهمة و حاجة البحث عن تلاميذ و مريدين و اتباع:

كانت كتابات نيتشه – صاحب الموهبة الأكثر جمالا و لكن المحور لا يمر بالمركز بالضبط فتكون النتيجة أنّهُ يبعثر نصف قوته في حركات ناحية الخارج تضعفه هو و تبلبل ما حوله – و لاسيَّما في الصيغة التي نشرها، تقوم مقام ((صنارة صيد))، ((شباك))، محاولات للإغراء: ((أنا في حاجة إلى تلاميذ و مريدين و اتباع و أنا مازلت حيّ يُرزَق لم أمت بعد، و إذا كانت الكتب – التي ألفتها تتبلور وفقا للآخرين و لهذا لا نريد أنّ نتعرف فيها إلى أنفسنا – و التي نشرتها حتى الآن لن تؤتي أكلها و ثمارها و لم تؤثر كصنارة صيد، فهذا يعني (إنها أخطئت في ندائها). أكثر و أفضل الطرق فعالية في التواصل هي التي تكون بين إنسان و إنسان آخر، و هي لا يمكن أن تكون و يجب ألّا تكون (علنية))) (من رسالة إلى أوفربيك، تشرين الثاني، 1884). حين يستمع نيتشه إلى ما يقال من حوله، يتعجب مما يتراءى إلى مسامعه: ((لم أعثر على أيّ شخص جدير بالاعتبار– المرة تلو الأخرى أعثر على نفس الصيغة الغريبة و الولع الشاذ بغرائب الأمور (الغباء الذي يستشيط غضبا و جن جنونه) المتلهف و المتحمس على أن يتّم تمجيده كفضيلة)). و في رسالة أخرى يقول: ((شوقي الذي يتوق بقوة للحصول على تلاميذ و اتباع و ورثة يجعلني نافذ الصبر و يبدو أنه حتى بدأ يقودني إلى ارتكاب بعض الحماقات خلال السنين الأخيرة...)) (من رسالة إلى صديقه أوفربيك، 31 آب، 1886). و في مكان آخر يقول: ((ربما اعتقد دائماً، و بطريقة سرية، أنّه لم يعد بوسعي أن أظل وحيداً في هذه النقطة من حياتي التي وصلت إليها: هنا، أريد أن أتسلم العهود و النذور و أداء القسم، أريد أن أعثر على شيء و أنظمه...)) (من رسالة إلى صديقه أوفربيك، 10 تموز، 1884). فيما يتعلق بنصّ ((هكذا تكلّم زرادشت))، الاسم الذي يجده نيتشه عذبا و ثقيلا في آن واحد، يبدي الأخير و يعبر عن الرأي الآتي: لم أسمع صوت الجواب المنشود بعد هذه المناشدة التي صدرت من

أعماق روحي، هذه تَجْرِبة حقاً رهيبة و فظيعة... إنّها تحررني من كلّ الروابط و القيود مع الناس الأحياء من حولي)) (من رسالة إلى صديقه أوفربيك،17 حزيران، 1887). و ها هي عشرَ سنوات تمضي ولن يصلني صوت هذا الجواب بعد. و في عام (1887)، كتب نيتشه إلى أوفربيك، ((من المؤلم، على مدى الخمس عشرة سنة الأخيرة لم يكتشفني أحد ما، أو يحتاج لي، أو يحبني، يا للفظاعة)).

ضحى نيتشه، الذي كان هناك شيء يجذبه للناس على حين فجأة، بكل الضرورات العامة للوجود الإنساني من أجل الشروع في مهمته و تحقيقها – كانت مهمته تتطلب التواصل، و قد فشلت رغباته الشغوفة في أن تترجم هذا التواصل بطريقة ملموسة. يبين نيتشه لنفسه هذا الإخفاق، الذي كان أكثر المتشائمين لا يتوقع هذه النتيجة، على النحو الآتي:

تتضمن طبيعة المعرفة، بشكل لا مهرب منه، معاناة الشعور بالوحدة، و لاسيَّما حينما تهيمن و تستحوذ على حياة الباحث كلها: ((هل ينبغي للمرء أن يفترض الصواب كي يرى معنى الحياة في المعرفة))، حينها ((ستنطوي حياته بالضرورة على مشاعر التغريب، النفور، الابتعاد، و الانفصال و ربما حتى الفتور)) (من رسالة إلى صديقه أوفربيك، 17 تشرين الأول، 1885). كانت أثار هذا التغريب، النفور، الابتعاد، تتفاقم بفعل طريقة نيتشه في التفكير و المعرفة: ((في معركتي السِرّية و القاسية، التي لا هوادة فيها، ضِدّ كل شيء يحبه الناس حتى الآن و يبجلوه... أنا نفسي تحولت، على نحو عفوي غير مقصود، إلى كهف — شيء مخفي لا يمكن العثور عليه حتى إذا أراد المرء جديا أن يبحث عنه)) (من رساله إلى ف. سيدلتز، 12 شباط، 1888).

يرى نيتشه، الذي حدث انقلاب كبير في نفسه، أن هناك سبباً إضافياً أخراً أساسياً يكمن وراء شعوره في الوحدة يتجلى في حقيقة أن أيّ تواصل حقيقي لا يمكن أن يكون ممكن إلاّ بين شخصين على نفس المستوى. هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، لا يمكن أن يكون و يحصل، لا بين أولئك الذين يقفون في مكانٍ عالٍ، و لا أولئك الذين يقفون في مكانٍ واطئ متواضع و عادي. يقول نيتشه: ((يقيناً، يمتلك أولئك عقولاً أكثر جمالا و دقَّة و روعة ورقة و نبل مما لدي؛ غير أنّهم لا يأتون لي بأيّ نفع أو فائدة، عدا بلوغي المساواة معهم، و بهذا يستطيع أحدنا أّن يساعد الآخر)). و نتيجة لذلك، نقيم في الكثير من الأحيان، و نتدبر بعض من العلاقات أو الصلات العلمية كي نهرب و نتخلص من حالة الجزع و الحصر النفسي و الشجن الذي يخلفها الشعور بالوحدة؛ بهذا الصدد، يعترف نيتشه ((أنه تعرض إلى الكثير من خيبات الأمل و التناقضات)) في حياته، مع أنّه كان يشعر في وجود مثل هذه العلاقات ((بالطبع بالكثير من حالات السعادة و التألق و الإشعاع أيضاً)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، تموز، 1887).

مع كل حالة الشغف و العاطفة المتأججة التي يمتلكها، كان نيتشه يتوق إلى عقد علاقات بأشخاص من مستوى عالي. بهذا الصدد يتسأل: ((لماذا حدث هذا الأمر على هذا النحو؟ لماذا لا أعثر على أولئك الناس الذين يصل بريقهم و ضوئهم إلى مسافات أبعد مما يصل إليها ضوئي؟ لماذا لا أعثر على واحد منهم يرى في أو يعتبرني أو ينظر إلي بوصفي واحداً منهم؟)).كان نيتشه يتوق في الواقع بشوق لعقد العلاقات فقط بهؤلاء الأشخاص من هذا النوع! لكن الأمور جرت على غير هذا المجرى، و لم يحظ بإقامة أيّ عَلاقة بهم أو حتى يظهروا في حياته، و قد عانى نيتشه بدلاً عن

ذلك الكثير من حالة اليأس و القنوط. بهذا الصدد يقول: ((أصر على أسناني بغضب، أحاول أن أهزم، أتغلب و اصرع وحش سواحلك و شواطئك الضحلة – أصر على أسناني بغضب كالموجة البرية المتوحشة التي تريد أن تستحوذ، بكراهيَة و نفور و مقت، على الرمال كلها في هذه الشواطئ)).

هنا ربما نحتاج إلى وقفة لندقق، لم يلتقِ نيتشه أبدا بشخص ند أو مساوي له، سواء في نوعه أو مكانته، و لذلك كان الرجل مُجبراً في النهاية لقول الآتي: ((أنا فخور جداً في التفكير أن هناك إنساناً ما يمكن أن يحبني، يتطلب هذا الأمر أو يستلزم أولاً أن يعرف حقاً مَنْ أنا و مَنْ أكون. بنفس هذا القدر اعتقد أنه لا يترتب عليّ أبدا أن أحب شخصاً ما: يستلزم هذا أن أعثر، و لو لمرة واحدة، على إنسان من مستواي...لم أحظَ قطا على الثقة و الصديق الذي يمكن أن يشاركني مشاغلي و اهتماماتي، أو حزني، أو يرفعني عاليا من الفرح – علامة الإحساس ببلوغ السعادة – و يثير إعجابي)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، آذار، 1885). ربما يرتجف نيتشه و يهتز من فرط فكرة عدم المساواة في المرتبة، المكانة و الرتبة بين الناس، و توقف التواصل بينهم في نقطة معينة حاسمة: ((عدم التواصل مع الآخرين هو أشد أنواع إحساس الوحدة رهبة و فظاعة، و يبدو أن الاختلاف هو القناع الأكثر قساوة و صرامة من أيّ قناع حديدي أخر. يمكن للعَلاقة الكاملة أن توجد فقط بين الأنداد، المتساويين، المتماثلين. الأنداد، المتساويين، المتماثلين(*inter pares*)! يا لهُ من تعبير طيب و مُسكِر...)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، 8 تموز، 1886). بيد أنّ نيتشه كان عليه أن يتحمل عبء ينوح به كاهله نتيجة عدم المساواة هذه، و عن هذا فقد كتب: ((تدفعني، المسافة الأبدية التي تفصل بين إنسان و إنسان آخر، إلى الشعور بالوحدة)). ((أيّ أحد يقف أمام غوته– أعظم الحقوق الإنسانية أن لم يكن أعظمها، الفرصة التي لم يحالفني الحظ للأسف في الحصول عليها – للتحدث معه، سينال حقاً شرف الحكم عليه بواسطة أنداده و نظرائه)). ((ليس هناك شخص حيّ يُرزَق له الحق في أن يمدحني و يشيد بي و يقرظني)). ((لم يعد بوسعي إطلاقاً العثور على الشخص الذي يمكن أن أطيعه أو أشرف عليه و أقوده)).

حينما يراجع نيتشه شريط حياته، الذي لم يتصف بمسحة من التزلف، و ينظر إلى الوراء، يشعر أنّ الأحداث التي حصلت في الماضي، الذي يكتسب ميزات المستقبل كما يكتسب المستقبل ميزاته و بهذا تصبح الضرورة ملازمة للحرية، لا يمكن لها أن تحدث بطريقة مختلفة أو متغايرة،

بمعنى لقد كان الشعور بالوحدة ممزوجا بطريقة لا فكاكّ فيها مع طبيعته منذ زمن الطفولة المبكرة: ((حتى حينما كنت طفلاً صغيراً، كان شعور الوحدة بهذه الطريقة لا يفارقني، اليوم أبلغ من العمر الرابعة و الأربعين عاما، و مازالت و آسفاه أشعر بذات الشعور)) (من رسالة إلى أوفربيك، 12 تشرين الثاني، 1887).

لقد كان الشعور بالوحدة جزء لا يتجزأ من حياة نيتشه، الذي لم يكن فيه الخيارات أمامه واسعة، و كان غير قادر على تجنبه أو الهروب منه: ((أتوق بشغف كي التقي في الناس، و أبحث عنهم في كل مكان. و لكني لا أعثر إلاّ على نفسي — لم أعد إطلاقاً أتوق أو اشتاق إلى نفسي!)) ((لا أحد يأتي لزيارتي إطلاقاً. بالنسبة لي، فلقد ذهبت إلى الكلّ أطرق بابهم، غير أني لم أجد أيّ أحد منهم هناك!)).

لقد عبر نيتشه عن هذه النتائج التي توصل إليها، خلال العقد الأخير من عمره، مع شعور متزايد تغلب عليه الحدّة بطريقة حزينة لا توصف تصل أحياناً إلى درجة قريبة من حالة اليأس و القنوط، لنستمع مثلاً إلى مقطع من أكثر المقاطع تعبيراً، بين كَمَيَّة مثله، كتبه على شرف الشعور بالوحدة:

((الآن، لم يعد أي شخص، من أولئك الذين مازالوا على قيد الحياة ، يحبني؛ كيف بوسعي، بعد كل هذا، أن أحب الحياة!)). ((ها أنت تجلس هناك على نفس الشاطئ، تشعر بالجوع و البرد: أن هذا لا يكفي كي يحفظ و ينقد حياة أحد ما من الخراب)). ((أنت تشكو لأنني استخدم ألوان صارخة في التعبير؟...ربما امتلك طبيعة تميل إلى الصراخ و العويل، (كما هو حال الظبي الظمان الذي يبحث عن الماء العذب).إذا كنتم أنتم تمثلون هذا الماء البارد العذب، فإنّ صوتي لا محالة سيناديكم بطريقة عذبة، جذابة، ساحرة، و سائغة. بالنسبة للشخص الذي يعاني وطأة شعور الوحدة تكون حتى الضوضاء و الجلبة له تعزية و مواساة)). ((إذا كان بوسعي أن أعطيك فكرة عن شعوري بالوحدة! لتسمع، أنا حقاً لا أشعر بأيّ رابطة سواء مع الأشخاص الذين مازالوا على قيد الحياة أو الموتى منهم – الآلم يغادر هؤلاء الموتى و يستمر في داخلنا نحن الأحياء. هذا شعور مريع، فظيع و رهيب لا يمكن وصفه...)) (من رسالة إلى صديقه أوفربيك، 5 آب، 1888). ((من النادر أنّ أسمع أو يتناهي إلى مسامعي صوت صديق حميم و دود. أنا الآن وحيدٌ، وحيدٌ بطريقة عابثة وغبية... لسنين طويلة

لم استنشقَ حتى الآن هواءً عذباً، لم أشعر بأيّ قطرة أو مَسْحَة إنسانية حميمة، لم أشعر بنَفس الحب)) (من رسالة إلى سيدلتز، 12شباط، 1888).

المعجزة – بكل الذلاقة السفيهة الكثيرة الجلبة و الابتذال، بوصفها القدر الذي يملي شروطه – التي أصبح نيتشه قادراً على القيام بها هو تخليه عن كلّ شيء. في الواقع، الكلمات التي سوف نذكرها لاحقاً من النادر أن تقال أو من النادر أن تحدث: ((ما الذي تعلمت حتى يومنا هذا؟ أن أمنح نفسي المتعة و السرور في كل المواقف التي تصادفني – هنا أنا لا أحتاج الآخرين أو إلى أيّ أحد كان بالمرة)).

بعد التحولات التي حدثت في الشهور الأخيرة من حياته، توقف نيتشه عن المعاناة، و نسي على ما يبدو كل الذي حصل له في الماضي، بهذا الصدد يقول: ((حتى المعاناة من الوحدة هي بالأحرى حُجَّة، ذريعة، عذر و ستار. كنت أعاني فقط دائماً من الكثرة، التنوع و التعدد...في بواكير حياتي – تحديداً في سن السابعة – كنت أعرف مسبقاً و فعلاً، و بطريقة لا تخلو من الغرابة، أنه ليس هناك كلمة إنسانية واحدة يمكن أن تصل إلي: هل هناك أيّ واحد منكم لاحظ أو رأى أني دائماً حزينٌ جداً بسبب ذلك؟)).

المرض

تحتوي أعمال نيتشه – الذي لا يستطيع أن يفكر إلاّ و القلم بيده – على الكثير من الأسئلة التي تتعلّق بمعنى المرض – تكمن قيمة الحالات المرضية التي عاناها نيتشه في كونها ترينا تحت العدسة المكبرة بعض الأوضاع التي و أن كانت عادية تصعب رؤيتها بالعين المجردة – و دلالاته. عانى نيتشه، تقريبا بصورة مستمرة، من أمراض شتى خلال العقدين الأخيرين من حياته الإبداعية، التي كانت مليئة بالمادة و الآلم و الفرح و العذاب – و بكلمة واحدة مليئة بالعزة، و التي انْتَهَت للآسف بحالة الجنون. كي نصل إلى فهم مناسب لنيتشه، و نطلع على حقائق مرضه الصادمة التي عانى منها الكثير، ينبغي أن نميز أولا بين هذه الحقائق معناها و دلالاتها الممكنة من جهة و معرفة موقف نيتشه من هذا المرض، من جهة أخرى[43].

الأمراض.— في الثامن من كانون الثاني عام (1889)، وصل أوفربيك إلى مدينة تورين الإيطالية كي يعيد صديقه المعتل المريض عقليا – الذي انهارَ انهيارا كاملا حين كان يسير في أحد

شوارعها، حيث بدأت بوادر الجنون عليه واضحة – إلى وطنه. بعض الرسائل ، التي تشير إلى جنون نيتشه، و صلت إلى (أي. هوسلر و ج. بوركهارت) جعلت الدكتور السيد ويلي، طبيب الحالات العقلية المختص، الذي تّم طلب مشورته الطبية في مدينة بازل، أن يتخذ قاصداً و بشكل ملح و عاجل الإجَراءِات و الخطوات الضرورية اللازمة. لقد تدهورت، في الواقع، حالة نيتشه الصحية و العقلية بشكل حاد ينذر بالخطر. في اليوم السابق، عُثِر على نيتشه في أحد شوارع المدنية ممداً مغشيا عليه. أما الآن ، فقد وجد أوفربيك نيتشه ((جاثما مرتعداً في أحدى زاويا الأريكة التي يجلس عليها بطريقة مريبة)) – ثم يضيف ((اندفعَ نحوي مسرعا و احتضنني بعنف و حماسة، ثّم غرق في نوبة من الارتعاش بعدها عاد إلى الأريكة)). بعد وهلة انطلقَ يغني بعض الأغانِ الصاخبة، و هو يعزف على البيانو بطريقة ثائرة تستشيط غضباً، ما لبث أن بدأ يرقص بطريقة سوقية بذيئة و يقفز إلى الأعلى، بعد ذلك ((بدأ يتكلم بصوت ناعم تغلب عليه صفة السمو و بطريقة رائعة مستبصرة، و بصورة لا يمكن التعبير عنها، عن أشياء مهيبة و مدهشة عن نفسه بوصفة خليفة الإله الميت))[44]. أصبح نيتشه مختلاً عقليا و غدا مجنونا رسميا و ازدادت و تضاعفت أعراض الجنون بشكلٍ ملحوظ حتى وفاته عام (1900).

نحن ملزمون بطرح السّؤال الآتي: متى و أين بدأت علامات المرض تظهر حقاً على نيتشه؟ لا تظهر أو تبين الرسائل، التي تّم كتابتها قبيل تاريخ 27 كانون الأول من عام (1888)، أيّ علامة هذيان من هذيانات الجنون عند نيتشه. في هذا اليوم تحديداً، كتب نيتشه رسالة واضحة إلى فوكس، لكنه في نفس اليوم لاحقاً كتب رسالة أخرى إلى أوفربيك: ((أنا الآن فقط منكب على كتابة مذكرة إلى المحاكم الأوروبية تتضمن رأيي ضِدّ الاتّحاد الألماني. اعتزم القبض على (الرايخ) متلبساً و وضعه في قميص الجنون الحديدي. اعتزم شن حرب أعرف أنّها يائسة و متهورة)). كانت الأيام اللاحقة مليئة بالتغيرات، التدهورات، الانتكاسات، الاختراقات الروحية، و إثارة الأفكار الوهمية التي أعلنها في رسائل و زلات مضنية مكتوبة على ورق رَدَيء يدوي الصنع. غدا نيتشه أخيراً إلهاً – أصبح نيتشه ديونسيوس و الإله المصلوب كلاهما في آن واحد. غدا نيتشه كل البشر، الأحياء منهم و الأموات، الذين يمكن أن يكونوا قساة و فظيعين. و تّم تحديد دور لكل واحد من أصدقائه. على سبيل المثال، كوزيما فاغنر أصبحت أريادن، و روده تّم وضعه بين مصافي الإلهة و غدا إلهاً من الآلِهة، بوركهات هو الآخر أصبح معلماً عظيماً. الخلق و تاريخ العالم – الذي له معنى يمكن الإحساس به في تشبيه هو الموسيقى – بكل مفارقاته المؤلمة و تفاهات الوجود و تقلباته، أصبحت

كلها خيوط متشابكة تمسك بها يد نيتشه. من المهم جداً التنويه بأنّه لم يتم اكتشاف أيّ إشارة أو إلى علامة من علامات الجنون قبيل تاريخ 27 كانون الأول من عام (1888). أيّ أن عملية البحث في كتاباته عن إشارات لجنون نيتشه قبل هذا التاريخ هي بالأحرى محاولة عابثة عديمة الفائدة و لاطائل من ورائها.

يشير الوصف لهذا المرض، الذي ظهر على نحو مفاجئ، إلى حصول حالة ذهان، هوس، و اضطراب عقلي متشنج عند نيتشه نتيجة خلل حاصل في الوظائف العقلية. تتضمن هذه الحالة المرضية اضطراباً عضوياً في الدَّماغ، ربما يحدث شلل تدريجي، و لكنه على كل حال عملية انحطاط و تفسخ حدثت بفعل أسباب خارجية عرضية بصيغة عدوى أو سوء استخدام لمواد سامة (علما أن هذا الأمر الأخير، المثير للاهتمام حقاً، غير مرجح و لم يتم إثباته علمياً)؛ ليس هناك شك من أن هناك استعداداً وراثياً طبيعياً عند نتيشة للإصابة بهذا المرض.

من غير الممكن أن نستخدم الأدَوات الحديثة في الوقت الحاضر لتحديد أو تشخيص متى بدأت بالضبط بوادر و أعراض و علامات المرض العقلي عند نيتشه قبيل تاريخ 27 كانون الأول من عام (1888). ينبغي للمناهج الحديثة في الفحص البدني الجسدي، (و لاسيَّما في إجَراءِ أخذ السوائل من العمود الفقري في أسفل الظهر عن طريق إبرة دقيقة مجوفة، و غالبا ما يتم ذلك لغرض تشخيص داء المريض)، أن تُوظف إلى جانب تلك المعطيات و الأعراض المرضية النفسية كي يصل المرء إلى تشخيص دقيق و يكتشف عن علامات بداية ظهور الشلل، و التي لم تكن متوفرة في ذلك الوقت. في الواقع، كان نيتشه يُعَاني المرض بصورة دائمة بعد عام (1873)، لكنه لم يعاني أيّ عوارض ذهنية عقلية مرضية و كان يتمتع إلى حدّ بعيد بسلامته العقلية. ألقى المرض العقلي لنيتشه، في حالته النهائية، بظلاله عليه، و بدأ، العديد من الناس يقترح أن أعراضه و بوادره و علاماته كانت تبوح و تكشف عن نفسها من حين لحين طوال حياة نيتشه و لفترة طويلة و بأشكال مختلفة. بيد أن هذه الفرضية تشوه الحقائق و تجعلها أكثر غموضا و التباس و إبهام و مواربة، كما حال الرأي الذي يقول إنّ نيتشه كان يتمتع بسلامة حالته العقلية تماماً حتى نهاية عام (1888). إنّ تشخيص مرض نيتشه، كما هو، يعتمد على تطور الإجَراءِات و التقاليد الطبية و أدواتها و مخططاتها التصنيفة في تلك المدّة التي لم تبلغ اليقين و الكمال في تشخيصاتها في أيّ حال من الأحوال بعد. كي نصل، حتى لو أقتضى الأمر، إلى جواب افتراضي للسّؤال عن كلّ ما يرتبط

باضطرابات الدَّماغ، التي ظهرت علاماتها و بوادرها أخيرا عند نيتشه، ينبغي للمرء أن يقارنها، أولا، مع تقدم حالات الشلل الذي تّم ملاحظتها في أعداد كبيرة من المرضى في عدد من المستشفيات و المؤسَّسات و المصحات العلاجية في المانيا و أُورُوبَّا. بيد أن مثل هذه المقارنة تظل في الواقع غير كافية بما إنّها لا تمثل إلاّ نمطاً و طرازاً سطحياً يزودنا بالمعطيات السيكولوجية كي نتعرف إلى المغامرات الفكرية التي خاضها نيتشه خلال العقود التي سبقت حالة الانهيار الواضح بسبب المرض[45]. ثانيا، يمكن مقارنة نيتشه مع الشخصيات المرموقة التي، كما هو معروف، عانت الشلل أو كانت قريبة من ذلك، على سبيل المثال، ريثل لاناي، موباسان، هوغو، ولف، و شومان[46]. مع أنّ السير الذاتية لتلك الشخصيات المهمة، و بسبب كثرة الأقوال المتكررة عنهم، لم تزودنا بمعلومات أكثر من تلك الذي زودتنا بها تواريخ الأشخاص العاديين غير المبدعين، إلاّ أنّه لا توجد حقاً نتائج حاسمة و معلومات دقيقة تّم التوصل إليها حتى الآن بفضل المقارنة بين هذه الشخصيات و نيتشه.

في الواقع، لا تبين مثل هذه المقارنات لنا ما الذي كان يسبق، ربما لعقود، علامات التفشي الحاد لحالة الشلل عند نيتشه، أو إذا حدث فعلاً ما الذي يكون جزء من الأمارات و الأعراض في المراحل الابتدائية للمرض. بما أنّنا لا نعرف، بشكل مؤكد، و نجهل حتى يومنا هذا، فليس أمامنا، في حالة نيتشه إلاّ مهمة بسيطة في التعرف، بواسطة الوصف، على مسار المرض و الأشواط التي قطعها، و إدراك الحالات العقلية التي يمكن التحقق منها سيكولوجيا و التي لا يمكن اعتبارها أمراضاً بشكل مؤكد، دون معرفة ما هي الأشياء التي تشكل المرض الواحد و ما هي الأمراض المختلفة الأخرى الذي تحدث لتهاجم نفس الشخص في نفس الوقت.

المهم في هذا الوصف هو معرفة بشكل أساسيّ التحولات النفسية و الجسدية التي تعرض لها نيتشه و التي أنتجت أعراض المرض الذي لا شفاء منها. هذه التحولات هي على النحو الآتي:

(1) بعد تعرض نيتشه إلى نوبات حادة من الزحار، في أثناء عمله كممرض خلال الحرب، تعافى نيتشه على ما يبدو بشكلٍ كاملٍ، لكنه ظل بعد ذلك يعاني بعض الاضطرابات المتكررة في المعدة و على فترات متقطعة. بدأت تلك المعوقات و الأعراض بالظهور تدريجيا ثم ما لبثت أن غدت كثيرة و مألوفة و زائراً غير مرغوب فيه منذ عام (1873) فما فوق. زدعلى ذلك، كان نيتشه يعاني نوبات صداع حادة و عنيفة، مع معاناة شديدة من الضوء الساطع، أعراض القيء، شعور

يشبه الشلل العام، و علامات و أعراض مثل تلك الذي يعاني منها و يجربها المرء في مرض غير مشخص بعد – و رويدا رويدا جعلته هذه الأعراض طريح الفراش لا يغادره. لفترات متعددة، كان نيتشه يغيب عن الوعي لفترات طويلة (من رسالة إلى إيزر،كانون الثاني، 1880). كما ازدادَ مرض قصر النظر، الذي كان يعاني منه نيتشه منذ فترة الشباب، سوءا و بدأ يشكل متاعب دائمة عنده في الروية؛ بالإضافة إلى تلك النوبات الحادة، كان هناك آلام الصداع و الضغط المستديم في رأسِهِ (من رسالة إلى إيرز، شباط، 1880). و بذلك، أصبح وجوده الفكري يعتمد و يعول، أكثر فأكثر، على الآخرين في القراءة له و تلبية الأوامر التي يصدرها.

كانت هذه الأمور و الحالات المرضية، التي أُبتلي بها نيتشه طوال حياته، ذات مستويات مختلفة من الشدة و القسوة – و كانت هناك حال تتراوح ما بين بعض التحسنات و التفاقمات على حدّ سواء الذي تحدث في حالته الصحية بالتناوب و أحياناً بطريقة غير منتظمة و مربكة. باشر نيتشه، مع ذلك، ضارباً بعرض الحائط كل تلك المعاناة في عام (1885) في الكتابة – الذي يبدو له أحياناً أنّ الكتابة بالرغم ذلك تمنع من الحياة و أنّ من الممكن أنّ يوضح المرء أفكاره بالأعمال أكثر من الكلمات – باشر مرة أخرى بعد حالة انقطاع ((مع حالة ضعف في النظر واضحة ما لبثت أن غدت أكثر سوء بشكل متسارع يصعب أحكام السيطرة عليه)). فمن جهة، كان عام (1879) العام الأكثر سوءا في حياته طبقا إلى أحد رسائله ((لقد عانيت ما يقارب أكثر من 118 يوماً من نوبات و آلام حادة و كل الذيول الجسدية التي تنشأ عن هذا الشطط – بالطبع لم أحسب لك النوبات المتوسطة القوة)) (من رسالة إلى إيرز، شباط، 1880)؛ من جهة أخرى، حصل بعض من التحسن الطفيف في حالته الصحية، و الآن هذه التحسنات الجديرة بالملاحظة! بالتأكيد، لم تدم لحّد الآن أكثر من خمس أسابيع (من رسالة إلى ماريا بومغارتنير،20 تشرين الأول،1879).

مع أنّ قسوة و فظاعة هذه الاضطرابات الصحية، المعاناة الدائمة من المرض، و التحولات العميقة في وجود نيتشه، لم يكن التشخيص للمرض، الذي يجمع الأعراض بطريقة لا لبس فيها، و بصورة ممِيزة و مفهومة بوضوح، حاضر و دقيق. كان هناك حديث تناهى إلى مسامع الكثيرين عن معاناة نيتشه من صداع نصفي مزمن حاد، و اضطرابات نفسية-عصبية جَراءِ استيائه و نفوره و على وجه الخصوص من فاغنر، و يعاني أيضاً من مرض في نظام الأعصاب، و لكن النتائج التي توصل إليها المعنيون لم تكن واضحة و يلفها الغموض و لاتربطها بالحقيقة إلاّ علاقات بعيدة للغاية.

في شهر آيار من عام (1897)، أجبرَ المرض نيتشه – الذي مرت أمام ذهنه حياته كلها فيما يشبه الومضة الواحدة. كل يوم عليه كان قطعة جديدة من العذاب – على التخلي عن عمله كأُستاذ في الجامعة، المكان الذي يشعر فيه بلذة كبيرة على الرغم من رداءته، حيث بدأت حياة التُجْوال و الترحال فعليا – الدنيا واسعة و لا حاجة به إلى البقاء في هذا الركن الصغير إلى الأبد. و في صيف نفس العام ظهر عمله ((فاغنر و ظله)). قضى نيتشه الشتاء اللاحق في مدينة ناومْبورغ مع أمه، غدت حالته الصحية تزداد سوءاً بصورة مؤلمة توقع نيتشه نهاية حياته (رسالة الوداع الذي كتبها إلى مالفيدا فون مايزنيوك، كانون الثاني، 1880).

(2) في مطلع شهر شباط من عام (1880)، غادر نيتشه باتجاة الجَنُوب، حيث بدأ هناك بتدوين بعض الملاحظات و الأفكار الجديدة في كراريس مجمعة، و التي قادت في المحصلة النهائية، إلى نشر نصّ ((الفجر)). في ذلك الوقت، شهدت حياة نيتشه تطوراً روحياً تدريجياً ملحوظاً كشف عن نفسه بفضل إعادة صياغة أفكاره، و وعي حقيقي واضح لمهمته، ترافقه ثقة عالية بالنفس. بوسعنا أن نلاحظ هذا التحول و تطوراته من شهر آب من عام (1880) إلى حدّ وصله إلى القمة أو حدوده القصوى في شهر تموز-آب من عام (1881) حيث حفز كثير و طور من تفكير نيتشه خلال عامي (1882) و (1883).

أي إمرئٍ يقرأ رسائل نيتشه و كتاباته، وفقا للتسلسل التاريخي، و يحتفظ في كلاً من الماضي و الحاضر في ذهنه و بذلك يلاحظ بوعي السياق التاريخي لكلّ قول من الأقوال و العلاقات الزمنية لكل قول مع الآخر، لا يمكن أن يهرب أو يغض الطرف عن حقيقة الانطباع القوي و الاستثنائّي في أن نيتشه، في هذا الوقت، قد مر بتَجْرِبة تحول عميق و قاسي و بجو خانق لا يكاد يطاق. لم يكشف هذا التحول و يبوح عن نفسه فحسب في مضامين و مستتبعات تفكيره و في أفعالة الإبداعية شتى، و لكن أيضاً في الصيغ و مآلات الأشكال التي كانت تطلبها تجربته و تفترضها مقدما – غاص نيتشه، خلافاً عن أيّ فيلسوف آخر، في أعماق نفسه، كما لو أنّهُ يعيش في أجواء و مناخات جديدة، ما كان يريد قوله بدأ يأخذ نمطاً و نبرة جديدة غير مسبوقة، أما مِزَاجه، الذي ينفذ إلى عمق كل شيء بحدة، فلم يكن هناك توقع أو إشارة أنّه سيكون كذلك مضطرباً قبل عام (1880).

نحن لا نسأل، الآن، عما إذا كان التحليل-السيكولوجي لتطور نيتشه الروحي[47] كان صائبا؛ نحن لانشك، في الواقع، في حقيقته. لكننا نطرح السّؤال المتعلق بمعنى المضامين الروحية و أهمية

المعنى الوجودي الذي يأسر و يهمين على أفق التفكير عند نيتشه – نحن لا نلقي بظلال الشك على الروابط الداخلية بينهما كما تّم الكشف عنها في العرض الكلي في كتاب ((الفجر)). و لكن نسأل بالأحرى ما إذا كان هناك شيء ما موجود بذاته لم يظهر و يبوح عن نفسه بعد في حياة نيتشه كعنصر لا يتوفر على ضرورة روحية و وجودية يضفي على حياته لوناً جديداً ليس بالضرورة جزء منه – أو بعبارة أخرى، ربما لا تكون هناك عناصر و عوامل، واحدة و ثابتة تتنوع عبر مفاهيمها، تدخل في خدمة هذه الحوافز و البواعث الروحية و الأهداف و التي يشير أصلها إلى ما نطلق عليه بغموض ((العامل البايلوجي)).

لا ندرج، المنهج الذي تّم توظيفه في التفكير و التأمل و إطالة النظر في التَجْرِبة العميقة التي مر بها نيتشه عام (1880) و ما تبعها، و نضعه تحت صنف المقولات الطبية أو نبحث عن ((أعراض مشتبه فيها))؛ إنّ الحال لا يعدو أن يكون في الواقع أكثر من مجرد مقارنات تاريخية و لا يخرج عن ذلك. ليس الأمر ملاحظة الظواهر بحد ذاتها، و لكن العثور بالأحرى على ما إذا كانت هذه الظواهر جديدة و اختيار تلك الذي لم تكن موجودة من قبل، و تحديد المجال الواقعي الذي تبقى فيه هذه الظواهر جسديا و روحيا غير مفهومة و غريبة قياسا إلى ما سبقها.

يبدأ هذا العرض من الانطباع العام الذي وصلنا إليه بفضل القراءة التاريخية الدقيقة المتسلسلة التي تحتاج إلى رفعها إلى مرتبة تجعلها فناً من الفنون. يهدف هذا العرض إلى إحداث التأثير في القارئ، بقدر ما يصطدم و يواجه نفس الأسئلة خلال دراسته لنيتشه، و إرشاده إلى طريق فهم ملائم لنيتشه ، بواسطة عرض الأقوال و تقديم الوقائع الشخصية المتعلقة به. في نفس الوقت، ليس هناك دليل أو برهان مقدم، بواسطة مناقشة التفاصيل، يمكن أن يقودنا بشكل محتم إلى خاتمة تتعامل مع تأثيرات مرض نيتشه السلبي على تفكيره. بالنسبة لنا، الانطباع العام عن هذه المسألة مهم و ذو معنى عميق، بمعنى أن يمكن أن يقودنا، في المرحلة الحالية الحاضرة من معرفتنا، إلى ذلك الذي لا يمكن البرهنة عنه، و لكن يظل ممكناً إذا لم يكن محتملاً. إنّ السّؤال الإشكالي الجدير بالطرح الذي يقلق الباحث في فلسفة نيتشه، و يمثل أساساً صلداً لفهم حياته، هو السّؤال الذي يتعلق بأهمية و مدلولية التَجْرِبة التي وقعت و مر بها نيتشه ما بين العامين (1883-1880): هل كانت هذه التَجْرِبة مجرد تطور روحي ملزم محض، أم إنّها حدثت بفعل تأثير عوامل بايلوجية و روحية إضافية شتى. (على سبيل المثال، العوامل المعترف بها، و التي يمكن تميزها و التعرف عليه، و

التي تعود مبدئيا إلى ميدان العلوم الطبيعية، الميدان الذي يبدو أكثر الميادين موضوعية، الأمر الذي أكتفي هنا بمجرد الإشارة إليه)، لقد حدث شيء في هذه التَجْرِبة قاد فيما بعد العمل الإبداعي لنيتشه و دفع به إلى مدياته القصوى – شيء يقدم نتائج لم تكن في الحسبان أو معروفة في مواقع نيتشه المعرفية السابقة، و بهذا يمنع الباحث من أن يفهم وجوده بشكل كامل و يسبب الكثير من الغرابة التي تضع بينه و بين الباحث مسافة لا يمكن عبورها[48]. من مجموع العدد الوافر من أقوال نيتشه، التي يمكن توظيفها كمادة واقعية للبحث، سوف نقدم لاحقاً البعض منها لأغراض المقارنة:

حين كان إحساس الاقتراب من النهاية يهيمن على ذهن نيتشه في شهر كانون الثاني من عام (1880) حيث لم يتوقف عن ترديد القول الآتي: ((اعتقد أني أكملت المهمة، أكملت عمل حياتي الرئيسي، مع أنني لم اخصص لها الوقت الكافي، مازال لدي الكثير الذي ينبغي أن أقوله، أشعر بالغنى خلال كل ساعة من الساعات الخالية من الآلم!)) [من رسالة إلى أخته إليزابيث، 16 كانون الثاني،]1880) – عانت طبيعة الثقة بالنفس الذي يتمتع بها نيتشه، تجربته في الوجود، و مِزَاجه تحولات هائلة.

من مدينة مارنباد، يكتب نيتشه، الذي يعرف أنّ التَجْرِبة تعلم أكثر من النصيحة، الآتي: ((بصورة متواصلة أتمتع في الأونة الأخيرة بمعنويات عالية لا حدود لها)) (من رسالة إلى أوفربيك، 2 آب، 1880). و في رسالة أخرى، يقول ((ذات مرة، كنت أتمشى، و أنا سعيد جداً، في غابة كثيفة الشجر و لاحظت رجلاً يحدق بي بحدة حين مر بالقرب مني: في هذه اللحظة شعرت أنّ وجهي يعبر عن سعادة مشعة...)) (من رسالة إلى أوفربيك، 20 آب، 1880). و من مدينة جنوا، يكتب نيتشه إلى أخته إليزابيث، الآتي: ((أنا مريض طوال الوقت، و لكن معنوياتي أفضل بكثير مما كانت عليه و بطريقة لا يمكن مقارنتها مع السنين الماضية في ذات الوقت)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، 25 كانون الأول، 1880). ومن مدينة سيلس ماري، يكتب: ((ليس هناك إنسان يمكن أن يلائمه تعبير و كلمة مكتئب و محبط مثلي. أصدقائي، الذين يدركون و يفهمون جيدا مهمتي في الحياة، يجمعون على رأي أن لم أكن الأسعد بينهم فإنّي على أيّة حال أكثر البشر شجاعة...مظهري، زيادةً على ذلك، ممتاز و نظامي، شكل و مظهر عضلاتي يشبه عضلات الجندي بسبب رياضة المشي المتواصل غير المنقطعة لدي، ثم أن معدتي و بطني مازلتا بمظهر و شكل جيد. أما جهازي العصبي فهو في حالة رائعة، متحمس للغاية و قوي جداً، مع الأخذ بعين الاعتبار الأنشِطَة الكثيرة

التي انخرط فيها و أمارسها دون انقطاع!)). و في رسالة أخرى إلى صديقه جاست، الذي كان يريد أن يخطب وده و كان دائماً لدية رغبة قوية في عقد حديث معه، يقول: ((شدّة المشاعر و اتِّقادها يجعلني ارتعد وأضحك على حدّ سواء...خلال نزهاتي الطويلة على الأقدام تنتابني أحياناً حالة من البكاء... إنّها دموع الفرح و البهجة؛ في أثناء ذلك أغني و أتحدث بسَفاسِفُ الكلام – كلاما تافها لا قيمة له، مُمتلِئ برؤى جديدة تضعني في القمة و أحلق عالياً فوق رؤوس كلّ البشر)) (من رسالة إلى صديقه جاست، 14 آب، 1881). و من مدينة جنوا الإيطالية، يكتب نيتشه: ((هنا من مدينة جنوا أشعر بالفخر و السعادة، مبدأ العطية تماما – أو كولومبوس؟ أمشي، كما كنت معتاداً أن أفعل في وادي أنجادين في سويسرا، أسير على المرتفعات بصرخات من السعادة مع ومضات براقة من المستقبل الذي لم يجرؤ أحد قبلي في أن يحلم فيه. و سواء نجحت أو لم يحالفني الحظ في إنجاز مهمتي الكبيرة، فإنّ هذا يعتمد على شروط تقع خارج إرادتي و ليس في متناولي تعود في الواقع، إلى (طبيعة الأشياء). صدقني: قمة كل التأملات الأخلاقية، العمل في أُورُوبَّا، و حتى أكثر من ذلك أشعر أنّها في حوزتي أمتلكها. ربما لم يأتِ بعد الزمن الذي سوف ترنو فيه النسور إليّ بشيء من الرهبة و الخَشْيَة و الذهول)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، 29 تشرين الثاني، 1881).

كانت هناك بعض الأوقات السيئة، تمتد لأيام و أسابيع، التي تزعج نيتشه كثيراً و تدخل عِنْوَة لتكدير اللحظات السامية التي كان يعيشها. بدأ نيتشه يعيش الآن بطريقة مختلفة تماما عما كان سابقاً، لكنه كان يقوم مع محيطه في بعض الأمور كي لا يجافي آدب اللِيَاقَة. بالطبع، لم تكن نوبات المرض المعتادة، الزائر المزعج، غائبة فقد كانت تزوره بين الحين و الآخر – بيد أنّ معاناته الجسدية كانت أقّل قسوة و ألمَا مقارنة بما كانت عليه في غضون عام (1882). بهذا الصدد، يكتب إلى إيسلر، معبرا عن اللحظات المفضلة و السعيدة من عام (1882)، الآتي: ((عموما، أعدّ نفسي الآن متعافي أو على الأقّل في طور التعافي)). كانت شكوى نيتشه من نوبات المرض الذي تهاجمه بين الحين و الآخر، و متاعب النظر الذي يعاني منها، و لاسيَّما في اعتماده المؤلم على حالة المناخ و الطقس، لم تتوقف إطلاقاً خلال السنين اللاحقة. من الآن فصاعداً، لقد تم تجاوز التناقض الموجود بين نوبات المرض الذي يعانيها و الفترات التي كان حراً منها، و تم استبدلها بحالة تناقض أكثر حدة بين الحالات الحادة للتَجْرِبة الإبداعية في الوجود و حالة الحزن، و الغم و الانقباض و السوداوية الرهيبة و التي كان يعانيها و تمتد لأسابيع و شهور من الاكتئاب – كلّ ما يجرد الإنسان من القوة و يضعفه هو الاكتئاب – أحياناً. و بطريقة مماثلة، ظل نيتشه، حين كان يعاني حالة الجدب و القفر العقلي بين

العامي (1876) و (1880)، يحتفظ روحيا باستقلاليته و سيادته و لم يشعر في أيّ حالة من الأحوال أنّه فقد مكانته أو حصل على دعم أقّل من قبل: فقط، جسدياً كان يشعر أنّهُ كائن ميؤوس منه، يتوقع نهايته قريبا (خلال هذه السنين، كان نيتشه، على الرغم من الحيف الذي لحق فيه من الناس، واعيا لامتلاكه معنى المساحة الواسعة للتفكير، صفاء البساطة، و الميل لتجنب القصدي لتعصب: كان يتنفس بعمق و يعي ذلك جيداً). و لحد العام (1881) و ما بعده، لم يكن نيتشه يدرك التغيرات المفاجئة من العدم إلى الوجود و الانتكاس و الارتداد إلى العدم – من ذلك الحين فصاعدا، لم يكن نيتشه يعيش، بحالة إيجابيّة عالية يرافقها شعور الجذل و الابتهاج فحسب، بل كان أيضاً يجرب ضرورتها بواسطة مشاعر اليأس – اليأس ذلك الشعور الذي يعتري المفكر الذي يحاول جاداً أن يفهم الحياة الإنسانية و أنّ يجد لها ما يبررها، اليأس شيء ينتهي إليه المفكر الذي يحاول جاداً أن يعيش الحياة على أساس العدل و العقل و الفضيلة، اليأس خط يقسم الإنسانية إلى قسمين: إلى هذه الناحية الصبية و إلى تلك الناحية الكبار – و القنوط خلال الفترات التي يختفي و لا يظهر فيها إلى الناس. لم يحصل نيتشه على حالة الاستقرار و اليقين و الاعتماد المنتظم الجدير بالثقة إطلاقاً. كان الصعود و الهبوط و التأرجح في حالته النفسية ظاهرة استثنائيَّة و فوق العادة. و بينما ينظر إلى الماضي يكتب نيتشه الآتي: ((خلال السنين الماضية، كانت حماسة مِزَاجي المتأرجحة بين الصعود و الهبوط تشعرني بالرعب – الذي لا يمكن الحصول منه على شيء صالح – و الهلع)) (من رسالة إلى فوكس، 14 كانون الأول، 1887).

تثبت الرسائل التي كُتِبَت في هذا الوقت ما كان يروم نيتشه أن يعلن عنه لاحقاً بوضوح و ثقة: كُتِبت الأجزاء الثلاث الأولى من كتاب ((هكذا تكلّم زرداشت)) في غضون عشرة أيّام، في حالة عمقت و شددت و رفعت عالياً من شرط نيتشه الطبيعي الكلي و في طراز غير مسبوق أو مسموع من قبل قل مثيله، عقبته حالات من اللا أمل و الفراغ و اليأس و القنوط. حينما غدت هذه الحالات واضحة و قابلة للنقل، تحدث عنهما، بطريقة شجاعة، بوصفهما ((محفزات ذهنية للإبداع))، و قد وصف طبيعتها الغامضة العميقة على النحو الآتي:

((من الصعب أن ترفض فكرة أن تكون مجرد تجسيد، مجرد لسان حال، ناطق بلسان، مجرد وَسْط لقُوَى غامرة، مادام تكون روح المرء ملاذاً للبقية القليلة الباقية من الخرافات. غدا مصطلح الكشف و البوح، بمعنى مفاجئ، و بيقين ورقة لا توصف، شيئا مرئيا و مسموعا – شيء

يهز المرء بعمق، و يرمي به بعيداً – يصف ببساطة الوضع الواقعي الملموس الموضوعي و الحقيقي. المرء يصغي اليوم بحذر، لكنه لا يبحث عن أيّ شيء؛ يأخذ لكنه لا يسأل من الذي أعطى، الفكرة تومض بقوة كالبرق، مع الضرورة و دون تحفظ – لذلك، أنا غير قادر على الاختيار. نشوة الطرب و الجذل المبتهجة إلى أقصى الحدود، الضغط و الشد الهائل الضخم، الذي يفكّ قيود أسره و يعتقها في مناسبات بواسطة جريان الدَّموع، الذي ينمو فيها سلام المرء أولا بطريقة غير مقصودة كعاصفة لا تلبث أن تهدأ، حالة من حالات الوجود تقع تماما خارج سيطرة المرء أو في متناوله، مع حالة وعي أكثر تميزاً لهزات دقيقة تعد و لا تحصى و رعشات دقيقة في أصابع القدم – هذه الأعماق من السعادة لا تظهر فيها المشاعر الأكثر ألما و حزنا و كآبة كتناقض بل كشيء ضروري شيء مطلوب، كلون يحتاجه و وفرة و فيضان الضوء، الذي هو الآخر يقاوم و يصارع كقلب الإنسان، كي يكون؛ كل السعادات طوعية تماما، و لكنها عاصفة من مشاعر الحرية – هناك بعض حريات في التفكير يريد الرجال الاحتفاظ باحتكارها – من المطلق، من القوة، من الألوهيَّة... و الأكثر روعة في كل هذا لا أرادية الصور، المقارنة و التشبيه – لم يعد المرء يمتلك مفهوم ما هي الصورة، ما التشبيه و المقارنة)).

إلى جانب أيام الخلق الفعال و محفزات الإبداع خلال هذه الأعوام ظهرت عند نيتشه حالات تَجْرِبة الوجود الذي تمثل أعماقاً سحيقة مخيفة لا قعر لها تنذر بانِفراط العقد الذي ليس بالمستطاع جمعه. غدت هذه الحالات الآن تجارِب محدد المعالم تجعل المرء يرتجف و يشعر بالقشعريرة – أصبحت الآن قمماً صوفية للوضوح الكامل. من النادر، أن يتحدث نيتشه عن هذه الحالات، غير أنّه إذا صادف و فعل، فإنّهُ يتحدث بطريقة حاسمة و قاطعة لا ريب فيها.

((كنت ساقطا في هاوية من المشاعر المتضاربة، قاتم النفس و مظلم المِزَاج، و لكني نهضت بطريقة مستقيمة تماماً من هذه الأعماق كي انطلق محلقا عاليا إلى سموي)) (من رسالة إلى أوفربيك، 3 شباط، 1883)، و فيما بعد، كتب نيتشه: ((كان دجى الليل يخيم عليّ، يحيط بي من كلّ حدب و صوب؛ لكني مع ذلك، كنت أشعر بالضوء و أراه ––– و لفترة وجيزة من الزمن، كنت أشعر أني تماما في فضائي و مجالي الملائم تنير دربي مصابيحي المضيئة)) (من رسالة إلى أوفربيك، 11 آذار، 1883). و يقدم نيتشه، في الاقتباس اللاحق، صورة لما لا يمكن وصفه، بطريقة رائعة من التشبيه و المقارنة المقنعة: ((أقف بثبات، و لكن بطريقة مفاجئة أشعر بالتعب و الإعياء. من

أمامي أرى الهاوية، ومن خلفي... تقف الجبال شامخة. مرتعشا، أصل أخيرا للقبض على شيء ما. هنا أرى الشجيرات – أمسك بها، غير إنّها ما تلبث أن تتفتت بين يدي كالتراب. أشعر بالقشعريرة و الاهتزاز، أغمض عيني من شدة الإحساس. أتسأل، أين أنا يا تُرى؟ أتطلع، انظر إلى الليل ذي اللون الأرجواني الأحمر القرمزي الجميل – إنّهُ يحاول أن يرسمني بفرشاته، يشير إليّ، يوجه لي دعوة مفتوحة، يحاول أغرائي. أتسال أيّ نوع من المشاعر هذا الذي تحسه؟ ما الذي جعل صوتك يخفت و ينخفض بهذه الصورة المفاجئة و على حين غرة، لماذا تشعر بنفسك كما لوكنت مدفونا تحت عبء و أنقاض المشاعر الثملة الغامضة و المبهمة؟ مِم ّ تعاني الآن يا تُرى! نعم المعاناة —— الكلمة الصائبة الدقيقة لوصف حالك! أيّ أفعى يا تُرى لدغت قلبك؟ أترك قلبك – هذا الطائش الجموح – لا تدخله في أسئلتك الصعبة. إنّهُ يسير دائما ًعكس الروح. و لكي تسير خلفه لابد لك من أقدام قوية راسخة)).

المقامات و الحالات المتنوعة للضوء الصوفي، التي تكره اختلاق الحيل و انتَحال الأعذار و تلفيق الأكاذيب، نوبات الارتعاد و القشعريرة المحفوفة بالخطر و المرعبة، الروح الخلاق الملهمة، كلّ هذه الحالات تعود إلى التَجارِب التي عاشها نيتشه بين عامي (1884-1881). منذ عام (1885)، لم يكن هناك أيّ ذكر لمثل هذه المشاعر، تجارب الوجود، و الاكتشافات الفلسفيّة التي توصل إليها. حينما كتب نيتشه، في المناسبة الأخيرة إنّهُ ((لا يتبع أيّ قواعد، أو يلتزم بأيّ حدود))، و أمسى ((فجأة، بين عشية و ضحاها، كريشة في مهب الريح))، و كان وضعه الآن كالشخص العاجز على التسلق عاليا أو الهبوط إلى الأسفل، دائماً قريب من الخطر باستمرار، لايمتلك أي جواب لسّؤال ((إلى أين؟)) (من رسالة إل جاست، 1887)، فإنّ هذا لم يكن بالإشارة إلى الحالات التي جربها نيتشه، و لكنه نشأ في الواقع لاحقاً من قلقه من عدم إنجاز مهمته و الفشل فيها – في حين تعلن و تشير تعبيراته المبكرة إلى حدود التَجْرِبة التي عاشها. الآن، يشعر نيتشه، في قرارة نفسه، ببساطة ((بالعذاب ليل نهار بسبب مشاكله الفلسفيّة)) (من رسالة إلى أوفربيك، ربيع عام 1888). و في مناسبة أخرى، يكتب نتيشة أيضاً عن هذا الحال، المثير للاهتمام حقاً: ((خلال الأسابيع الماضية المنصرمة، أشعر بأحاسيس غريبة – لدي ميل، و قدرة و رغبة عارمة للقيام بعمل إبداعي))؛ إنه فقط سّؤال تفرضه الأفكار – أننا لا نتواصل بالأفكار، بل نتواصل بالحركات، بالإشارات الإيمائية التي نحولها بفضل التدوين إلى أفكار – المفاجئة في خطوطها العامة التي تتبادر إلى الذهن على

حين غرة ((لكتابة شيء ما دون ترخيص أو أذن مسبق)) حتى في الليل (من رسالة إلى فوكس، 9 أيلول، 1888).

الحالات الحادة الشديدة الصعوبة، التي عانها نيتشه، كانت ترافقها مشاعر التهديد و العرضة للخطر الاستثنائيّة. كانت الحدّة و الشدة و الضغط العاطفي الذي يتعرض له غير طبيعي و لا يطاق: ((تشير الهواجس التي تنتابني هذه الأيام، و تمر بي، إلى أني فعلا أعيش حياة خطرة جداً، أنا واحد من تلك الأحاسيس التي ربما ستنفجر في أيّ وقت في وجه هذا العالم، لدي هذا الشعور غالباً!)) (من رسالة إلى جاست، 14 آب، 1881). اعتبر نيتشه لاحقاً كلّ نص ((هكذا تكلّم زرادشت)) بمنزلة ((انفجار قوة متراكمة مختبئة لعقود من الزمن – في هذا الانفجار يمكن للكَاتِب بسهولة أن يتحول قطع صغيرة و يتشظى. غالبا، ما يروادني هذا الشعور...)) (من رسالة إلى أوفربيك، 8 شباط، 1884). حتى حين لا تكون حالة الدَّمار و الطمس التام غير مهددة لنيتشه و لا تشكل خطراً عليه كان وجوده و حياته غير مستقرة تماما، و كانت التَجارِب الحادّة، المرة تلو المرة، تجعل منه يشعر بالمرض مباشرة: ((تمر مشاعري و تعاني الانفجار العنيف كافية للحظة واحدة أن تنتج التغير المنشود... تجعلني أشعر بالمرض و القشعريرة تماماً (يحدث هذا، على سبيل المثال، لمدة اثنتي عشرة ساعة، لتدوم الحالة بعد ذلك، لأكثر من يومين أو ثلاثة أن لم يكن أكثر))) (من رسالة إلى أوفربيك، 11 تموز، 1883). ((أكثر السبل النافعة و المفيدة، هي الطريقة الأكثر حساسية في العيش، لاسيَّما لحظات الحماسة التي تنتابني كالضوء الساطع الذي يقلب نظام الوظائف الجسدية و يربكه؟)) (من رسالة إلى أوفربيك، 26 كانون الأول، 1883).

بفضل ما تم ذكره آنفاً، يظهر هناك نوع من الوحدة غير المنفصلة التي لافكاكّ فيها عند نيتشه ما بين الروح الإبداعية من جهة، و التَجارِب التي كانت غير معروفة المصادر، الخارجة من العدم، التي تهاجمه و من ثم تتغلب عليه، من جهة أخرى. الشخص الذي لم يستوعب و يهضم بواسطة كُلّية هذه التَجارِب و بواسطة التحولات الكاملة للمناخ ربما يقول عن كل حالة خاصَّة أنّها الطريقة التي يكشف الإبداع فيها و يبوح بها عن نفسه. مع ذلك، لا تعد الحجج الآتية بمنزلة براهين أو أدلة، غير أنّها تشير إلى أن العلميات الإبداعية الخلاقة عند نيتشه، و التي غرضها تحقيق و إنجاز الأشكال السابقة لفلسفته، تمتلك أساس لا يمكن ببساطة اعتباره صفة أو مِيزة إلى الشخص المبدع في ظل غياب ((العامل البيولوجي)) المضاف:

(أ). تفترض مشاعر البهجة و الحالات الجذلة صيغة من صيغ الهجوم و الأسر و الاستيلاء الذي يقود المرء إلى التفكير و جعله يعتقد بأنّها تحدث بفعل أسباب غير طبيعية. في العَلاقة بالأهمية الروحية لهذه المشاعر و الحالات الروحية و دورها في خلق و إنتاج هذه الأهمية، تعدّ الأوقات التي حصلت فيه و سياقاتها و فواصلها الزمنية أمراً عرضياً. فضلاً على ذلك، إنها تكشف عن سمة خاصَّة عند نيتشه فقط من العام (1881) حتى العام (1884).

(ب) تقترح ــــ أقصد العدد الكامل من الحالات التي تتحدى علاقتها المتشابكة و المعقدة الفهم، بالإضافة إلى تنوعاتها المفككة و غير المترابطة، السابقة على فترات الإبداع، تلاشيها التدريجي منذ عام (1884)، تطابقها وتماثلها مع الظواهر التي تذهب خلف أو ما بعد العمليات الروحية التي أثرت في السياقات الزمنية لنيتشه ــــ و تسمي العمليات التي أثرت في تشكيل نوازع نيتشه الفكرية عموما، حيث غدت أيضاً فيما بعد عاملاً مساعداً في عمله الإبداعي.

(ج) عانى نيتشه، و للأول مرة، حين كان في عمر السادسة و الثلاثين قابعاً في ركنه يفكر، تلك التَجارِب الحادّة، التي حملته إلى ما بعد و خلف حقول و عوالم الحوادث الإنسانية العادية. منحت الطبيعة الأشخاص المبدعين الأمزجة المجيدة الجليلة و السامية، البصيرة و المعرفة العميقة، التحفيز و الحضور الذهني المثمر – بيد أنّ هذه الأشياء تختلف بشكل أساسّي من ألفها إلي يائها عن الأشياء التي قام نيتشه بتجربتها في هذا العمر، على سبيل المثال مفهوم الحماسة و الدفء يختلف عن النار الحقيقية و أشد منها عند نيتشه. إن حالة الشخص المبدع الخلاق هي حالة طبيعية ومن النادر، كما هو متوقع عموما، أن تقارن مع حجم و فرادة و ندرة التَجارِب الغريبة الأطوار التي عاناها نيتشه كوقائع سيكلوجية و طبيعية. يبدو أن ثمة شيئاً جديداً أنبثق من بنيته البيولوجية في كليتها له عَلاقة في إبداعه.

لا يمكن الإجابة عن السّؤال المتعلق بطبيعة العامل البيولوجي عند نيتشه. إن ما حدث لنيتشه – الذي يحذر دائما أولئك الذين يتوهون في التفاصيل – منذ عام (1880) و لحدّ الآن، يبقى حقاً غير معروف تماماً. لكن، عين الملاحظ العادلة غير المتحيزة، الباردة فقط و المتزنة و المترفعة و اللامبالية، التي تدرس رسائل نيتشه و كتاباته كليًّا و تتأمل و تطيل النظر بها بعناية، بالكاد تشك في أن أمراً حادّاً و مهماً قد حصل له. ليس هناك مبرر لاعتبار هذه الحالة أو الحدث كعلامة أو مظهر أول لحالة الشلل، مادام أن تَجْرِبة الشلل كما نعرف لا تبين، بواسطة المقارنة بين الحالات، المراحل

الابتدائية منها إنها جزء من الشلل، كما لا تتطابق هذه الحالات الابتدائية في المراحل المبكرة بأيّ شكل من الأشكال مع الشلل كعملية مدمرة. إنّ وصف حالة نيتشه المرضية بأنّها حالة شيزوفرينيا أو انفصام شخصية يبدو لي أنّهُ مجافي للحقيقة و مجرد محاولة عابثة لا جدوى منها، بما أنّ مقولات و حالات التشخيص، في أحسن أحوالها، تظل غير دقيقة و لامعنى لها من الناحية المرضية، و تصبح، بكل معنى الكلمة، لا معنى لها حين يتم تطبيقها دون أدلة و براهين ملموسة – أيّ بعبارة أخرى أطلاق التعبيرات الآتية: المريض النفسي، مصاب بالذُّهان، الأعراض، العلامات، الأمارات (كما رأينا و لاحظنا في حالة الرسام فان كوخ، و الكاتب المسرحي أوغستين ستريندبرغ). ولدت ملاحظاتي عن ملامح وجه نيتشه و مظهره الخارجي، المفصولة كما لو أنها مكسورة و منفصلة و مخترقة على الرغم من وحدتها الطبيعية، عندي قناعة أنّهُ حتى في ظل غياب التشخيص، ينبغي أن نتحدث هنا، على الرغم من ذلك، عن العامل البيولوجي في حالة نيتشه و الذي تم أخيراً تميزه و التعرف عليه و إدراكه كعلامات تقدم في بحوث الطب النفسي المتقدمة التي يعول عليها و تؤخذ بنظر الاعتبار.

بدأ التغير الأخير الحاسم في حياة نيتشه أولى بوادره مع نهاية عام (1887). أسفر هذا التغير عن انبثاق ظواهر جديدة في التفكير هيمنت تماماً على كلّ شيء عند نيتشه بعد شهر أيلول من عام (1888). أصبح نيتشه الآن، واثقا أول مرة، بأنّ نشاطه الفلسفي سوف يحدد مساراً تاريخاً-العالم-كان واثقا جداً من أن جنونه في نهاية المطاف سوف يحدث قفزة أبعد ذات معنى تعمل على تحقيق الخيال الذي سوف يحل محله و يأخذ مكانه الواقع. بعد هذه الخطوة اللازمة، بادر نيتشه إلى تثبيت و ضمان نجاحه المباشر (المشروع الذي لم يكن معتاداً عليه)، و طرح أسلوب جدلي و سجالي جديد في الكتابة، و أخيراً سلم روحه إلى شعور النشوة التي تمتص كل شيء.

تعبر الملاحظة الجديدة الأخيرة عن حدّة إضافية يمكن سماعها في تعبيرات نيتشه الغريبة نوع ما، يقول نيتشه: ((من الممكن أن أكون الفيلسوف الأول في هذا العصر —— صاحب الغريزة الشاكة، النافية، المتوقعة، التحليلية، المغامرة، الساعية وراء البحث و الاختبار و المقارنة و الموازنة و الحيادية و الموضوعية —— أو في الواقع ربما أكون أكثر من ذلك بقليل، ربما أكون الفيلسوف الحاسم الذي ينّبِئ بمصير ينذر بالسوء بين ألفيتين)) (من رسالة إلى سيدلتز، 12 شباط، 1888). كان نيتشه لا ينفكّ أن يعبر عن هذه الفكرة طوال هذا العام. كان يتحدث عن ((المهمة

الحاسمة المنتظرة التي سوف تقسم تاريخ البشرية – بوصفها كتلة يُضحى بها تجاه اِزْدِهَار نوع واحد من البشر الذين هم أقْوَى من غيرهم، و هو الذي يشكل تقدما – إلى قسمين)) (من رسالة إلى فوكس، 14 ايلول، 1888)، و يقول أيضاً: ((فيما يتعلق بالنتائج والآثَار، أحياناً انظر إلى يدي بنوع من الريبة و الشك، لأنّه يبدو لي أني بهما وحدهما أمسك بمصير الإنسانية)) (من رسالة إلى جاست، 30 تشرين الأول، 1888).

بينما ظل الشعور بالثقة، و لاسيَّما فيما يتعلق في موضوعه و أهدافه، عند نيتشه عاليا و مفهوما على مدار هذه المدّة، بما أنه جزء من نمط و طبيعة تفكيره كان يعبر عنه بشكل متكرر خلال سنين طويلة منذ عام (1880)، باشر نيتشه، الآن، بنشاط فلسفي جديد مختلف و غريب عن طبيعته السابقة. مع أنّه كان يرفض بشكل مكرر، خلال السنين الماضية، فكرة أن يكتب أحد ما عن فلسفته (على سبيل المثال، بَنيث، من رسالة إلى أوفربيك، 22 كانون الأول، 1884) – و مع أنّ رغبته العارمة في الهروب من عذابات الشعور بالوحدة و أن يحظى، كما يحلم البعض، بتلميذ مريد حقيقي واعد (ليس من باب الدعاية لفلسفته و نشرها) – انخرطَ نيتشه، الآن، في مشروع فكري جديد: أبدى نيتشه اهتمامه و تشجيعه و تقديم المساعدة في تَرْجَمَة النُصوص الفلسفيّة و إقامة علاقات بمديري و المهتمين بشؤون الفن، مع أمثال شبيتلر، براندس، وستريندبرغ.

مازال نيتشه، في أواخر شهر حزيران من عام (1888)، قادراً أن يمارس و يضطلع بمهمة مهنة الكتابة الفلسفيّة مرة أخرى، ((مازالت مواقعي المعرفية الفلسفيّة المضادة إلى الأخلاق المسيحية، التي تضفي على الإنسان قيمة مطلقة و هي قيمة تتعارض مع صغره و وجوده، غير ناضجة بعد في الوقت الحاضر – مازال هناك الكثير من الأمور التي لم يتم إعدادها بصورة مناسبة بعد. كانت فكرة عمل دعاية لكتابتي الفلسفيّة غريبة عني تماما. لم أحرك ساكنا في هذا الاتجاه بعد)) (من رسالة إلى كنورتز،21 حزيران، 1888). و لكن في شهر تموز، قدم نيتشه إلى فوكس نصيحة مفصلة في كيفية أن يُكتبَ شيء عنه إذا سنحت له الفرص. في شهر آب، حينما لم يستجب فوكس لنصيحته، كان نيتشه يمني النفس أو يتمنى ألّا تُأخذ ((الوصفة الأدبية))، التي قدمها إلى فوكس، على محمل الجدّ، و لكن في شهر كانون الأول، عاود نيتشه الكرة من جديد متصلا بفوكس من جديد: ((ربما تعيش مِزَاج المحارب؟ أرى من المناسب جداً أن يقف موسيقي موهوب مثلك ضِدّ فاغنر علانية... بكراس أو كتيب صغير...اعتقد أن اللحظة الآن مواتية. مازال بوسع المرء أنّ يقول

عني أشياء صحيحة تصل تقريبا إلى حد قول التفاهات السخيفة لعامين على الأقّل)) (11 كانون الأول، 1888). كان نيتشه مبتهجاً بشأن الخبر الذي ترأى إلى مسامعه بأنّ براندس بصدد إلقاء بعض المحاضرات عنه؛ مكتوبة بطريقة حيوية بطلب من براندس (10 نيسان، 1888)، غير أن نيتشه، في ذات الوقت، كان ينظر إلى تلك المحاولة و يعتبرها بقدر ما هي ذكية بذاتها إلاّ إنها أسلوب رخيص يفتقر للنبل و طريقة رخيصة غير محترمة للدعاية قياسا بموقفه المبكر العام من المسألة برّمتها. بعد مدّة وجيزة، قدم نيتشه إلى ناشريه تضليل غير مطلوب قاصداً لفت انتباه القراء إلى محاضرات براندس عنه – يروي نيتشه القصة إلى صديقه جاست على النحو الآتي: ((تركت الأمر كله إلى فريتش ليعلن شيء ما إلى الأعلام عني، حول نجاحي في كوبنهاغن)) (من رسالة إلى جاست،14 حزيران، 1888). بيد أن الناشر لم يمتثل إلى طلب نيتشه، ما ازعجه كثيراً مع أنّ ذكرى النجاح الأخير النسبي الذي أصاب مسعاه قد أنعشه بعض الإنعاش و هون من الأمر. إضافةً إلى ذلك، طلب نيتشه من جاست أن يكتب إلى مديري و المهتمين بشؤون الفن عن نصّه ((حالة فاغنر)) (من رسالة إلى جاست، 16 ايلول، 1888)، و بعد أن تم ذلك، أصر نيتشه على ظهور نشر و طبعة خاصَّة لنصّ يتضمن مقالة جاست مع مقالة من مقالات فوكس (((حالة نيتشه، ملاحظات هامشية لموسيقيين)) [من رسالة إلى جاست،27 كانون الأول، 1888]). كانت كتابات نيتشه تقصد أن تكون مؤثرة بشكلٍ مباشرٍ – بالذات في هذه اللحظة – و نتيجة لذلك، كُتِبَت طبقاً لخطة و تصميم لغرض النشر في سياق محدد.

إشارة أخرى يمكن أن نلتقطها بفضل لغة الرسائل الحادة التي كان يعلن فيها نيتشه من وقت لآخر قطع علاقته بالأصدقاء المقربين أو الشخصيات التي كان يبجلها، و خير مثال على تلك الرسالة التي بعثها نيتشه إلى روده في الحادي والعشرين من شهر أيار من عام (1887). ثم بعد تلك الرسالة التي أعلن فيها القطيعة التامة مع بولو في التاسع من تشرين الأول من عام (1888): ((السيد الكريم المحترم، لم أتلقَ رداً منك على رسالتي التي بعثتها إليك مؤخراً، لن أكتب إليك من الآنَ فصاعدا أيّ رسالة مرة أخرى، أعدك بذلك. لا يساورني الشك و أنا متيقِّن لديك فكرة أن من يعبر لك عن أمنيته هو الروح الأولى لهذا العصر: فريدريك نيتشه)). تبع ذلك قطع علاقته بمالفيدا فون مايزنبوك في الرسالة المؤرخة في الثامن عشر من تشرين الأول من عام (1888)، و رسالة الوداع الذي بعثها إلى أخته في كانون الأول من عام (1888).

إذا ما أراد المرء أن يقارن بين السنوات المثيرة التي قضاها نيتشه في كتابة نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت)) مع حجم الإثارة التي حصلت في عام (1888)، سيجد أنّ الاخيرة تبين زيادة في حجم وحدة مشاعر العدوانية، و القسوة العنيفة، و الإسراف في استخدام الألفاظ العقلية و الفكرية الصرفة عند نيتشه، في ظل غياب الرؤية و العبارة و الصفاء. لقد هيمنت إرادة الفعل عند نيتشه بقوة على كلّ شيء.

و لكن العلامة الحاسمة لهذا الشرط الجديد عند نيتشه هو حالة النشوة – الشعور بالنشوة إحساس يقابله زيادة في القوة – التي ظهرت ملامحها بين الحين و الآخر في سياق هذا العام (1888)، و أصبحت تظهر باستمرار خلال الشهور الأخيرة من هذا العام.

هذه النَغْمَة، بهدوء، تم سماعها، أول مرة، في الرسالة التي بعثها نيتشه إلى سيدلتز (12 شباط، 1888): ((لقد جاءتني هذه الأيام بجمال وقح صفيق و ماجن – لم يكن هناك أكثر كمالا من أنهُر أو أمسيات هذا الشتاء القارص)). بتاريخ (27 من أيلول من عام 1888)، كتبَ نيتشه إلى صديقه جاست: ((رائعاً وضوح كلّ شيء في هذا العالم، الألوان الخريفية، المشاعر الفضولية لخير و سعادة كلّ الأشياء)). و يكتب، فيما بعد، الآتي: ((أنا أكثر الأشخاص الممتنين في هذا العالم – أعيش في مِزَاج ربيعيحقاً. هذا هو وقت حصادي العظيم، كل شيء سهل لي، كلّ شيء طيب لي...)) (من رسالة إلى أوفربيك، 18تشرين الأول، 1888) ((انظر إلى نفسي في المرآة، لم اشاهد مطلقا نفسي هكذا من قبل بمعنويات عالية مثالية، و بنظام تغذية صحي جيد، أشعر أني أصغر سنا بعشر سنوات مما أنا عليه... أشعر بالسعادة لأن لدي خياطاً ماهراً و أقابل بالاحترام في كلّ مكان أذهب إليه كشخصية غريبة مِميزة و مشهورة. أنا متيقِّن، في الترتوريايا، تقدم إلي أشهى و أفضل الأطعمة... بيني و بينك، لم أعرف قطا، حتى يومنا هذا، ماذا يعني أن أكل بشهية مفتوحة كما لدي الآن... هنا الأيام تمضي يوما بعد الآخر بذات الكمال غير المقيد و فيضان ضوء الشمس الوضاء... شرب القهوة في مقاهي الدرجة الأولى، اِرْتِيَاد الاماكن الصغيرة الجميلة، فعلا ذات جودة عالية، إنّه في الواقع خاصية و مِيزة أولية رائعة، لم أكن أعثر عليها أو أعرفها تماما من قبل...)) (من رسالة إلى جاست، 30 تشرين الأول، 1888). إنّها نَغْمَة السعادة التي لم تبارحني ولم تنقطع بعد ذلك عني مطلقا. ((هكذا استمر في عملي بإيقاع مدوي صاخب و مِزَاج جيد. إضافةً إلى ذلك، كل واحد هنا يعاملني بغاية الاحترام و الذوق و التهذيب الرزين، كشخصية مِمِيزة تماما، يفتحون الباب عندما

أريد أن أدخل مكان ما بطريقة مهذبة لم أعهدها أو أجربها من قبل في أيّ مكان)) (من رسالة إلى أوفربيك، 13 تشرين الثاني، 1888) ((أنا مستمر مع هذه السخافات، لدي الكثير من الأفكار المهرجة و المضحكة، ابتسم أحياناً، (لا أستطيع أن أفكر بكلمات أخرى للتعبير عن ذلك)، ليس أكثر من دقائق في وجه الشوارع الفارغة)) (من رسالة إلى جاست، 16 تشرين الثاني، 1888). ((ربيع يوم خريفي وافر العطاء جديد قادم، حفلة موسيقية عظيمة و رائعة، و هي في محصلة التحليل النهائي، الحفلة الأكثر قوةً و صخباً في حياتي؛ تحفر روحي بشكل مستمر على أخاديد وجهي التكشيرة المبتسمة كي أتقلم مع السرور و المتعة المفرطة إلى أبعد الحدود التي أعيش فيها...)) (من رسالة إلى جاست، 2 كانون الأول، 1888) ((لعدة ايام، أتصفح كتاباتي و أشعر، لأول مرة، أن بوسعي أن اتعامل و أتقلم معها، لقد أنجزت كل شيء على نحو ما يرام، و أنا لا امتلك أيّ فكرة إطلاقاً عن ذلك)). (من رسالة جاست، 9 كانون الأول، 1888) ((اكتشفت من جديد الورقة، أول شيء بوسعي أن أكتب عليه...و بنفس الطريقة عثرت على قلمي، و محبرتي الغالية الفاخرة المصنوعة في نيويورك... قبل أربع أسابيع، بدأت أفهم كتاباتي بصورة صحيحة، فضلاً على ذلك، بدأت أثمنها و اقيمها و غدت عزيزة على قلبي... الآن، أنا مقتنع تماما أنّ جميع الأشياء لي، قد تحولت و غدت أحسن و أفضل مما كانت عليه سابقًا في البدايات المبكرة الأولى؛ و أنّ كل كتاباتي هي جسد واحد و لها غرض و مقصد واحد)) (من رسالة إلى جاست، 22 كانون الأول، 1888). كتب نيتشه لصديقه أوفربيك بمناسبة أعياد الميلاد بنبرة ملئها السعادة و الاعتراف بالجميل الذي تندو عند تلفظه بهذه الكلمات: ((أنّ ما رائع هنا في مدينة تورين هو السحر المتكامل الذي يولفه وجودي للآخرين...حينما أدخل إلى متجر كبير، كلّ الوجوه التي تنظر و ترنو إليّ تتغير ملامحها... أحصل على ما أريد بطريقة مختارة و مجهزة بعناية و تُلبَى طلباتي بعناية فائقة... لم يكن لدي مطلقا أي تصور عن ذلك، سواء تعلق الأمر في اللحم الذي أكله أو مع الخضروات التي أتناولها، و لا في الأطعمة و الوجبات الإيطالية الشهية المقدّمة لي... فيما يشع من وجه النادل، الذي يقوم في خدمتك في المطعم، بريق من السعادة و الأدب و الكياسة و اللطف...))

بعد أيام قلائل، بدأ نيتشه ينتكس و يعاني حالة سيئة انتهت بالجنون، حيث استمر يعيش لعقد من الزمن في حالة أفول غير مبالي.

أولا، لا يعتمد فهم نيتشه على امتلاك و حيازة التشخيص الطبي الدقيق لحالته المرضية. و لكن من المهم أن نفهم أنّ المرض العقلي، الذي أصاب نيتشه و الذي بدأت أعراضه و علاماته و بوادره بالظهور في نهاية عام (1888)، كان مرضاً عضوياً في المخ، ناشئ عن أسباب خارجية، و ليس عن استعداد داخلي عنده؛ ثانيا، في منتصف عام (1888)، كانت بنية نيتشه الروحية بمجملها قد تحولت نحو الأسوء بفعل عوامل بيولوجية: ثالثا، يسبق عام (1888) وجود المرض العقلي بتأثيراته العميقة في التفسخ و الانحلال و يكشف عن تغيرات في مِزَاج نيتشه و سلوكه لم يجربها أو يعهدها من قبل.

فيما يتعلق بتشخيص مرض نيتشه، ربما من وجهة النظرة المفضلة و المتعارفة، كان هذا المرض العقلي، في نهاية عام (1888) يشير إلى الشلل. زد على ذلك، بدأ نيتشه يعاني علامات الروماتزم الحادّ في عام (1885)، و التي تطورت إلى آلام مضنية و مبرحة في ذراعية و أسنانه تم تشخيصهما لاحقاً كالتهاب سحايا بسبب عدوى ما يُجهل سببها، بعد ذلك بدأت الانتكاسات الصحية بالتوالي، و بدأت حالته تزداد سوءاً، كما بدأ الصداع النصفي يهاجمه أكثر من قبل أيضاً (و الذي كان بلاشك جزئيا نتاج علامات صحية معقدة يمكن احتماله – لكن السّؤال المهم الذي يدور في فلك هذه المقاربة هو ما إذا كانت كل تلك الحالات، التي وقع نيتشه ضحيتها، هي علامات إلى مرض من نوع آخر؟)؛ إنّ ظهور علامات المرض منذ عام (1873) كعملية عصبية-نفسية حدثت بسبب قطع علاقته بفاغنر و انفصاله عنه نهائيا – التحول من عام (1880) إلى عام (1882) – هو الإشارات الأولى لمرض الشلل اللاحق الذي أصاب نيتشه؛ الأحاسيس الكثيرة المسممة للفترة اللاحقة من حياته و انهياره بذاته كنتيجة إلى تأثير السموم الذي كان يتناولها (و على وجه الخصوص الحشيش). إذا قبلنا بهذا المبدأ من التوضيح، بقدر الإمكان، أيّ أن علامات مرض نيتشه العقلي حدثت بفعل سبب واحد، سوف نصل إلى نتيجة مفادها أنّ كل الحالات التي لحقت بنيتشه بعد عام (1866) كانت في الواقع مراحل مختلفة متعاقبة قادت في نهاية المطاف إلى حدوث الشلل عند نيتشه. لكن هذا الحال، المثير للاهتمام حقاً، يظل تماما مفتوحا على السّؤال. إنّ المقولات الطبية تكون ذات معنى و مدلول بالعَلاقة بالمفاهيم الفلسفيّة لنيتشه حين لا يشك فيها المرء و يتقبلها كما هي. باستثناء النتيجة التي تقول إنّ المرض العقلي لنيتشه هو يقيناً شلل، كلّ التشخصيات الطبية الأخرى هي مجرد شكوك لا ترق إلى اليقين بأيّ حال من الأحوال.

المرض والعمل ـــ هناك من يعتقد أنّ مرض نيتشه كان حالة من التدهور المذل و المخزي. فهم يعتقدون بقناعة أنّ ربط أعمال نيتشه بمرضه يمكن أن تحط من قدره و تذمه. بهذا الصدد يقول بعضهم: ((أعمال نيتشه هي مجرد أعمال رجل مشلول و مجنون لا ينبغي الركون إليها)). فيما يقول آخرون: ((إنّ نيتشه لم يكن مريضاً عقليا قبل عام (1888))). يفضل العقل الكسول المتبلد حق الاختيار البسيط: أما أن يكون نيتشه مريضاً، أو أنه يمثل عالم العظمة التاريخية. نيتشه ينكر أن يكون كلا الحالين في وقت واحد. ينبغي لنا أن نرفض و نعارض تلك الاستنتاجات التقريرية المريرة النهائية المطلقة غير المؤهلة و كذلك كل محاولات إنقاذها و الدفاع عنها، بما أنّه لا هذه و لا ذلك الأخرى تكشف عن أيّ فهم دقيق و صحيح لتفكير نيتشه أو أيّ استيعاب لحقيقة و طبيعة الحياة الواقعية الموضوعية التي عاشها الرجل. في كلتا الحالتين أعلاه، يستخدم التأكيد الدوغمائي القطعي، في البحث في حالة نيتشه، لغرض إعاقة و إيقاف عجلة البحث و خنق و كبت الاستقصاء و التمحيص.

عموما، قيمة عملية الخلق عند نيتشه، ربما تقييم و يتم الحكم عليها طبقاً إلى جوهرها الروحي – ليس هناك عَلاقة بين العوامل السببية الأساسيّة و قيمة النتاج الفلسفي و الفنّي. لا يتم أخذ الكلام و اعتباره رديء أو حسن من حيث القيمة حينما يكون قائله معتادا على تناول زجاجة من النبيذ مسبقاً كي يحرر نفسه من مشروطات الكبح و النهي المثبط للهمم و العزيمة. لا تخبرنا السببية، خطأ العقل الأساسّ المتسمر، التي تعدّ كل معلول مشروطاً بعلة فاعلة، غير المفهومة جوهريا للعملية الطبيعة، و التي جميعنا متورطين و منغمسين فيها، أيّ شيء فيما يتعلق بالوضوح – الذي يشعر المرء بتعزية فيه – و الغموض، المعنى، و قيمة الحوادث الروحية التي تنشأ بفعلها؛ بل تكشف فقط و تبوح – إذا كانت معرفتنا تمتد بعيداً – عن عدم الوضوح و الفهم في مستويات مختلفة تماماً. ترسيمات الحدود العامة هذه – و بضمنها السببية – بلا أدنى شك مع ذلك، غير كافية في حالة نيتشه.

حين تمارس العمليات الباثولوجية المرضية أو عوامل بايولوجية أخرى تأثيرها على الحوادث السيكولوجية للإنسان، تنشأ في الواقع و تظهر على السطح أسئلة كثيرة متنوعة: هل كان هذا التأثير المرضي نافعاً أم ضاراً أم محايداً على نيتشه؟ هل كانت الإمكانية الروحية، عند تأثير المرض، تفترض مظهراً جديداً تحت هذه الظروف الجديدة؟ و إذا كان الأمر على هذا الحال، فأيّ

الاتجاهات هذا يمكن التحقق منها؟ هذه الأسئلة لا يمكن التعامل و التعاطي معها بواسطة مناهج قبلية عقلية و لكن فقط وفق مناهج تجريبية – و من الأفضل أن يتم بواسطة دراسة مقارنة بين المرضى الذي يشبهون أعراض مرض نيتشه. إلى الحدّ أنّ أي معرفة تجريبية يتم الحصول عليها ينبغي أن نسأل بعد تلك مباشرة السّؤال الآتي: أيّ حالة من حالات الخلق الإبداعية الخاصَّة التي لا بديل لها نشأت دون أن يكون أصحابها بلا مرض (يؤكد الجواب أنّ هذه الحالات هي في الواقع إعلان مذهل عن الوقائع الروحية في هذا العالم)[49]. الآن، علينا أن نسأل ما هي العيوب التي يمكن أن تميزها العين الناقدة دون الإشارة إلى أيّ مرض و ينبغي أن ترتبط بالمرض، و ما هي العيوب التي ربما تحدث بسبب نوع من المرض (في هذه الحالة، ربما الجواب ينقذ نقاء و صفاء العمل، لأننا سوف نعثر على الطريق الذي يميز بين العيوب الغريبة عن الروح و العوامل المشكوك فيها الحقيقية للحركة الروحية بحدّ ذاتها).

لا يمكن ذكر مثل هذه الملاحظات المرضية بالنسبة للشخص الذي يوظفها دون أن يكون هناك نتائج تُنذِر بالخطر مترتبة عن ذلك. بدلاً من تزويدنا برؤية عن التألق المحض للأعمال عند نيتشه، فإنّ الاستخدام و التوظيف غير الكفوء لها من شأنه أن يشوه من عظمة الإبداع و المبدع على حدّ سواء، و يجعلهما غامضين و مشوشين. إنّ الحكم النقدي المفترض الذي يدافع عن وجهة النظر هذه أو تلك بتأكيده أنها مرضية لا يمكن، بواسطة التقدم من المعنى و المضمون للعمل الروحي، أن يحدد أم لا ما إذا كان هذا العمل الروحي المبدع لنيتشه يُعزى إلى المرض. إنّ الأمر برمته ليس علمياً كما هو أيضا مخادع أن نرفض أولا العمل الذي أمامنا كحالة مرضية و تقديم من ثّم الرفض كنتيجة للتأكيد الموضوعي للحقائق المبنية بواسطة التحقق السيكولوجي.

بالنسبة للإجابة عن الأسئلة المتعلقة بطبيعة و نوعية العَلاقة بين مرض نيتشه و عمله، هناك بعض النِقَاط المتاحة التي تصلح أنّ تكون نقطة انطلاق في البحث. أمامنا الكثير من الأسئلة المفتوحة التي يجب أنّ نضعها في الحسبان إذا أردنا أن ندرس نيتشه بشكل مناسب و دقيق. يمكن المضي في منهج التحقق التجريبي للعَلاقة بين مرض نيتشه العقلي و عمله فقط بشكل غير مباشر. بهذا الصدد، سنتبع الطريقين الآتين:

(1) ينبغي أنّ نبحث عن الحوادث التاريخية المهمة في حياة نيتشه. حينما تتفق التغيرات في أسلوب نيتشه و طريقته في التفكير و أفكاره الأساسية و تتطابق و تتماهى مع التحولات في حالته

الصحية و الجسدية، حينها تصبح العَلاقة بين الاثنين ممكنة، إلا إذا كان التغير الروحي يُفهّم في نفس السياق الذي تُفهم بها التحولات الروحية الأخرى في شخصية الفيلسوف الذي هو قيد الدراسة و البحث. هذا المنهج، و بسبب تشخيصاتها غير المحددة، لا يقود إلى نتائج واضحة – بل يقود بالأحرى إلى جملة من العلاقات و الصلات التي تبقى في ذات الوقت مفتوحة على احتمالات كثيرة. تقدم حياة نيتشه، في الواقع، و تعرض نوع من التماثل و التوازي بين التطور الروحي لعمله و سيرته الذاتية التي يمكن التحقق منها أو تفترض التحولات و التغيرات السيكولوجية.

(أ) يسير تطور الحالة الجسدية المختلفة عند نيتشه، منذ عام (1873)، بالتوازي مع ((الانفصالات و القطائع)) الروحية و المعرفية الكبرى لديه. بيد أن مرضه في هذه السنين لم يبلغ درجة التحول النفسي السيئة، بمعنى تظل عَلاقة هذه الحالة الجسدية بأيّ تحول و تغير روحي عنده مجرد عَلاقة سطحية خارجية و عرضية ليست ذات أهمية. مع أنّ حقيقة أنّ نيتشه لم يتماثل للشفاء أبدا من أمراضه أو يحظى بحالة صحية تامة تعد في الواقع أمر في غاية الأهمية و قاطع في حياته ، غير أنّ ذلك لا يشكل أمراً حاسماً و قاطعاً في صياغة نمط تجاربه الروحية. من جانب آخر، هناك تأثير غير مباشر جدي، لا يمكن إنكاره، تركته الحالة التي عانى منها على قابليته و قدرته على العمل، و لاسيَّما معاناته من ضعف النظر الذي ابتلي به و بدأ يعيقه عن القراءة و الكتابة بصورة طبيعية. هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، ساهم، و لكن ليس بصورة حاسمة، في بلورة صيغة كتابة الشذرات و النبذات القصيرة الذي انتهجه نيتشه و بدأ يسود في منشوراته بعد عام (1876). إنّ عملية التفكك و الانفصال عند نيتشه، المنبثقة عن أسباب ناشئة ضمن سياق تطوره، هي بالتأكيد قد تعززت و نمت بواسطة مرضه و لكنها ليست مشروطة به.

(ب) منذ عام (1880)، يخطو مسار الحوادث، عند نيتشه، و الطريقة التي تنظر إليه بالتوازي مع التحولات في عمله كليًّا:

يفصح أسلوب نيتشه الجديد عن نفسه بواسطة قوة الصور، التشبيهات و الاستعارات الصوفية المتزايدة، التي تعبر عن انحطاط و وهان فيزيولوجي، و لكن أيضاً مرونه الرؤية، الرنين الذي تمتلكها كلماته، القوة الدافعة لإملاءتهِ، جودة التراكيب اللغوية التي يستخدمها و موجز تعابيرها، الطبيعة و المناظر الخلابة المرسومة أكثر فأكثر مع الحياة، و المحملة و المثقلة بالقدر – هذا الأسلوب عند نيتشه يبدو كما لو أنه متحد بكلاً من الحياة و القدر، حيث كلاهما يصبحان نيتشه

نفسه. لقد لاحظ بعض الأصدقاء العنصر الجديد عند نيتشه: ((أنت يا صديقي..لقد بدأت تعثر على صورتك. لغتك أيضاً بدأت تعثر على أصواتها الكاملة الممتلئة)) (رسالة من روده إلى نيتشه، 22 كانون الأول، 1883).

نشاط جديد و متزايد بصورة تدريجية، بدأ يحل عند نيتشه محل التأملات و الأسئلة، و يخدم مقاصده في تقويض المسيحية – التي تجري باتجاه معاكس للغرائز الغالبة و للعرف السائد و التي من شأنها أن تفضل المصالحة مع الصدفة بل مع العبثية الميكانيكية لجميع الأحداث على نظرية القوة التي تتدخل في جميع الحالات – ألواح نظمها الأخلاقية، و الفلسفة التقليدية، و جميع المذاهب الموروثة و المسلمات التعسفية المفروغ منها التي أنبتتها و التي أصبحت مرجعية مشتركة و ضرورية، و يستبدلها بتراكيب فلسفية جديدة لم يتطرق أحد إليها من قبل. بالطبع، كان اتجاه هذا العزم و التصميم واضحا حتى خلال حِقْبَة طفولته.

كانت الأفكار الفلسفيّة الجديدة الأساسية – فكرة العود الأبديّ – أن ما يبدو بعد قليل أنّهُ الأقدم هو الذي بدأ في بادى الأمر أنّهُ الأحدث – ميتافيزيقا إرادة القوة، التفكير الراديكالي بواسطة فكرة العدمية – العدمية المثل الأعلى – القيام بالأشياء المزعجة عن طيب خاطر – لأكبر قوة يمتلكها العقل و الحياة الفياضة: مدمرة جزئياً و ساخرة جزئياً؛ و مفهوم السوبرمان – عند نيتشه ذات أهمية استثنائيَّة و سِرّ غير معروف له. تقوم هذه الأفكار، التي إنهال عليها نيتشه بسيل من الأسئلة التي كانت تشغل باله، في خطوطها العامة و ترتكز على حدود التَجارِب الفلسفيّة الأصيلة التي طغت و هيمنت عليه أول مرة. العديد من هذه الأفكار، و بضمنها فكرة العود الأبديّ، ظهرت في كتاباته الأولى المبكرة. و لكن ما كان في السابق يبدو مجرد إمكانية تحول الآن إلى واقع حقيقي– إنّهُ يملك الآن قوة ساحقة غالبة و طاغية لا تقاوم للحقيقة الجاذبة في نصوصه.

لم يمتلك نيتشه فقط الحساسية الفلسفيّة البارعة الكاملة التي لا ينضب لها معين أول مرة، لكنه كان مهموما و يتحرك بواسطة التَجارِب الأصيلة للوجود إلى درجة أنّ كلّ شيء في السابق – سواء أكان حصيفاً و حكيماً أو حالماً كثير الرؤى، محموداً أو مذوماً – يظهر فقط عنده كتأمل عقلي صرف و إطالة النظر. يبدو نيتشه الآن يتحدث من مواقع جديدة عن عالم جديد.

تحتفظ المقاربة الجديدة عند نيتشه، بالعودة إلى انطباعاته الأولى، بالتوتر و الشدّ المدهش بواسطة تثبيت الأفكار و الرموز في خطوطها العامة التي بدأت الآن تتكسب أشكالها النهائية. إنّ ما كان سابقاً يمتلك خصوصية، تم الآن هضمه و استيعابه و تم منحه أهمية و دلالة مطلقة، دون استبعاد إمكانية أن يتم تخفيف نبرته في حركة عنيفة شديدة مضادة. لقد ارتبطت، في تفكير نيتشه، أكثر أنواع العدمية تطرفا مع الإيجابّ غير المشروط. هذا التواجد و التصاحب للفراغ المفاجئ مع الرموز القسرية يمكن أن ينتج مِزَاجاً مسترخياً و هادئاً عند القارئ يشعره في بادى الأمر بالبرد و القشعريرة، في حين يتم في اللحظة القادمة، التي تشكل العمود الفقري لتفكير الفلسفي الأصيل عند نيتشه، التعبير عن لب الفكرة المرادة.

(ت) يتزامن استئناف الخلق المنظم للصرح الفلسفي الرئيس عند نيتشه، خلال عام (1884) مع الاختزال و النقص المفاجئ في التَجارِب الصوفية الغامرة، التي زودت، من عام (1881) إلى عام (1884)، نيتشه بالنوابض الفكرية المحركة لعملياته الإبداعية. غدا المناخ أكثر عقلانية من قبل. لقد كان التحول، الذي حصل خلال عامي (1884) و (1885)، عميقاً جداً: حالات نيتشه العقلية و عمليات الخلق و الإبداع حصلت قبل ذلك و بعد ذلك – لقد طغت عمليات التفكير و البناء الفلسفي المنظم و التَجارِب العدوانية المشاكسة و سادت لديه. ((إعادة تقييم، تقييم جديد: محاولة قَلّبِ كلّ القيم الأخلاقية التي ظهرت على المسرح. لاحظ رايهاردت الظاهرة – في البَدْء على نحو مفاجئ، ثم ما لبثت أن أصبحت معقولة مع أنّه لم يتم البرهنة عليها حتى الآن – أنّ نيتشه لم ينظم و لا بيت شعري واحد خلال سنوات حياته الأخيرة. حتى أبيات الشعر (فينسيا: على الجسر...) المحببة و الشاهد على الانفجار الأخير عند نيتشه المترجم في أغنية ترجع في الواقع إلى السنين الأوائل من حياة نيتشه))[50].

مع نهاية عام (1887) و مرة أخرى في مطلع و بواكير عام (1888)، حدثت لنيتشه أزمة صحية و هي بالمناسبة مشابه للأزمة التي حدثت له عام (1884) حيث تشير إلى محاولته لبناء ((الصرح الفلسفي الرئيس)) – و لكن بدلاً من إنجاز هذه المهمة الأخيرة و العمل عليها، انشغل نيتشه في تتبع الإيقاعات القسرية غير المتوقعة لنوع من الأفكار التي بدأت تشتغل في تفكيره، مع إهمال واضح للمهمة التي كان لها أهمية أساسية في ذلك الوقت الذي كان يريد إتمامها. كان نذير و بوادر وقوع المرض العقلي يسير يداً بيد في توازي مع كتاباته الجديدة. إنّ ما هو لافت للنظر، في

هذه الكتابات، مع ذلك، هو التغير و التحول الحاصل عند نيتشه ليس في الجوهر الروحي أو في معنى و مدلولية تفكيره، و لكن بالأحرى في صيغة التواصل مع الآخرين.

(2) نحن نتفحص تفكير نيتشه هنا طبقا للظواهر التي من المتوقع أن تحدث نتيجة لتغير العمليات العضوية في جسده. بما أنّ تشخيص يقيني موثوق فيه لحالات نيتشه المرتبطة بالحوادث الحاصلة له قبل عام (1888) غير متوفرة و متاحة لنا، فإنّنا لا نبحث عن علامات و أعراض لمرض محدد. في حالة نيتشه، نحن نرى أنّ المنهج الذي يتحرك و ينطلق من معرفة العمليات الباثولوجية (المرضية) و أسبابها إلى ما معروف أنّهُ يخص هذه العمليات غير مجدي و نافع. كلّ ما بوسعنا أن نفعله هو أن نفترض وجود ما دون-العامل العقلي البيولوجي، حتى و أن كان بتشخيص نمط غير محدد، و نتسائل ما هي التغيرات في مظاهر النشاط العقلي لدى نيتشه التي تكون مماثلة إلى تلك التغيرات التي تصف و تميز كلّ الأمراض العقلية العضوية.

ليس عمل نيتشه من النوع الذي يملأنا بالإعجاب غير المشروط. فهذا الرجل لدية القدرة أن يقلب مِزَاجنا الفلسفي رأسا على عقب، يؤثر فينا بشكلٍ عميق، و يوقظ نوابضنا الفكرية و محفزاتنا و بواعثنا، التي هي في حالة فوضى و ما من إنسان يستطيع أن يحيا دون أن ينظم هذه الفوضى – يزيد من حماستنا، و ينير دروب رؤيتنا، و لكن هذا لا يمنع من أنه يترك فينا، و بشكل مكرر، انطباع الفشل و الإخفاق و السقوط في الفراغ أو يمارس و يضطلع بمهمة ذات تأثير قمعي علينا بواسطة الضيق و القصور في الطرح، الاعتدال المفرط، و اللامعقولية. ربما لا يمكن لهذا النقص عند نيتشه أن يتم توضيحه ببساطة كنتيجة للحركة التي ينبغي أن تظل مفتوحة طبقاً إلى طبيعة أهدافه الفلسفيّة؛ كما لا يمكن اعتبارها مجرد نتيجة اعتماد التفكير و المضامين عنده على استعدادنا القهري لجعلها مناسبة و ملائمة، كما لا يمكن القول أن هذا النقص، عند نيتشه، يرجع إلى ماهية عملية التفلسف كليًّا و حيثياتها لديه. على العكس، يبدو أن شيئاً ما غير مناسب و موافق دخل هنا إلى هذه الماهية، شيء ما من المؤكد، لم يكن مقلقاً أو مزعجاً عنده حتى عام (1881). بالطبع، ليس من الممكن أن نفرق، بشكل نهائي و موضوعي كامل، بين الانفتاح الحقيقي الذي يتطلبه الهدف الذي يسعى إليه و الإخفاق و الفشل الصريح الذي مني به؛ و لكن كي نطرح أو نثير السّؤال ينبغي أن نكون أولا واعين جيداً لمهمتنا: ينبغي أنّ نفهم المعوقات، التي وقفت حجر عثرة في طريق نيتشه،

كي ندخل بشكل حاسم و عميق في مسار حركة التفكير الفلسفي النيتشوي و نفهمه. بإيجاز، هنالك ثلاث معوقات رئيسة:

(أ) يفتقر نيتشه إلى قدرة كبح و تقيد أفكاره، و ذلك بسبب طبيعة مِزَاجه المتقلب بشكل مفرط. فهو يتيح الفرصة كاملة لظهور الموضوعات المتطرفة و القصوى، و يسمح، عن طريق اختزال وجهة نظره، للإسراف، المغالاة، و الأشياء المسرفة المنطوية على مبالغة أن تطفو على السطح، و يقدمها بصيغ بسيطة مفهومة عن طريق طرح نقيض القضايا الدوغمائية الجازمة و القطعية المألوفة المتعارفة. التقليل من استخدام اللباقة المعتادة و من حدّة مواقفه النقدية، التي لم تُفلح دائماً في الهيمنة في صيغها الحاضرة على الموقف بسبب البواعث القديمة التي تستعيد السيطرة، قادت نيتشه صاغراً إلى طريق المجادلات الطائشة و التوبيخ القاسي و الذم العشوائي دون قصد – و لكن حتى في هذه النزعة، التي تبدو أحياناً في غاية السلبية، يتوفر العمق الذي يمكن أن يضلل القارئ و يجعله في حالة حَيْرَة و ارتباك، يأخذ أخطائه و حماقاته على محمل الجِدّ، حتى ينجح في إدراك مقاصد نيتشه على الوجه المناسب. كان نيتشه يتبنى عن قصد و عمد المواقف المتطرفة، التي لا تخاطب إلاّ آذانَ العدد القليل: فمن جهة، كان يحاول أن يصل إلى أقصى مديات الحجج لا ليبقى ثابتا و واقفاً هناك؛ بل كي يحدث التأثير المناسب في الوحدة الديالكتيكية مع الضِدّ أو النقيض لها. من جهة أخرى، يبحث نيتشه أيضاً عن ((سحر الحالة المتطرفة)) التي تربح دائماً بواسطة إثارة حالة الصراع و المناجزة. هاتين الخاصيتين، من أجل الوصول إلى الدرجة العالية القصوى، يمكن تميزها كشيء يحصل بشكل غير واعي عند نيتشه نتيجة إلى قلة الكبح و السيطرة على أفكاره.

(ب) تحتوي غرابة التفكير النيتشوي على عنصرين مميزين. الأول، تفتقر أفكاره إلى قوة الكبح و السيطرة، الشيء الذي قاد بدوره إلى التبذير أو المحدودية، و بالتالي إلى تشويه الجوهر الصحيح دون طمسه بغير قصد – أما العنصر الثاني، الذي يؤشر نفور نيتشه، فقد جلبت حِقْبَة ما بعد عام (1881)، مع إثارتها الجديدة، التَجارِب الصوفية الجديدة، التي تختلف من ألفها إلى يائها عن كلّ ما يمكن أن نعانيه، بكلّ المديات و الحدود القصوى التي تبلغها و الجمال الي تكشفه لنا و تأثيرها العميق فينا. زد على ذلك، أصابت غرابة هذين العنصرين معاصريه بقوة. بعد أخر لقاء لنيتشه مع صديقه روده في عام (1886)، كتبَ الآخير يصف نيتشه: ((كان محاطا بجو لا يوصف من الغرابة، لقد وجدت أمامي شخصاً غامضاً استثنائيّاً و مذهلاً تماما. هناك شيء ما فيه لم أعرفه

من قبل و لم استطعِ أن أضع أصبعي عليه، بينما كل الأشياء السابقة التي تميزه سابقاً لم يعد لها وجود؛ يبدو كما لو أنّه شخص غريب قادم من أرض لم تطأها قدم أو يعيش فيها أيّ أحد من قبل))[51]. يشير نيتشه نفسه إلى ((الغرابة التي لا توصف للمشكلات التي يعانيها منها و يحاول إضائتها))، و يقول ((إنّ الكثير من الناس، و لفترات متعددة من هذا الصيف، لاحظوا هذه الغرابة و أدلوا بشهادتهم بصددها)) (من رسالة إلى أوفربيك، 14 ايلول، 1884).

(ت) أما المعوق الثالث، أو بالأحرى، المعوق الأساسيّ، بين تلك المعوقات الثلاث، فقد حدث في نهاية عام (1888)، حين توقفت عملية التقدم الروحي لنيتشه قبل أوانها بفعل مرض الشلل. لهذا السبب، توقف تطور تفكير نيتشه و ظل بصورة أو حالة غير مكتملة تصف كلّ شيء ما عدا أنّ تصف فلسفة نيتشه كمركب كليّ كامل. يصف نيتشه، قبل مدّة قصيرة من نهايته المفاجئة و غير المتوقعة، بأنّ عمله الحالي غير ناضج و أبعد أن يكون عن الكمال. هيمنت على هذا العمل، و لاسيَّما في المدّة الأخيرة من حياة نيتشه، نزعة الكتابات الجدلية و السجالية، و التي تمتاز بتوتراتها الحادّة التي لا مثيل لها، و بصيرتها الثاقبة فيما يتعلق بالأمور الخاصَّة المهمة، و لا عدالتها، و أخيراً أسلوبها الطاغي و الساحق الذي لا يقاوم. و بهذا، لم يبقَ وجود نيتشه، كما يعبر عنه في السنين الأخيرة من حياته، إشكاليّة كبرى إلى الأبد بسبب نهايته المبكرة قبل الأوان. كما لو أنّ الحادثة الروحية المتمثلة بنيتشه، الأكثر حدّة، أو بالأحرى الأكثر حسما، للقرن الماضي، قد تم تدميرها بفعل كمين نصبته السببية المحايدة للطبيعة، و بهذا تم منعها من بلوغ عظمتها الواضحة المتأصلة.

الآن، سنقتفي أثر طريق معرفة العَلاقة بين مرض نيتشه و عمله، ينبغي أن نتوقف و نتمهل قليلا كي نتأمل و نطيل النظر بمعنى و دلالة أهدافنا في هذا الكتاب.

إن السّؤال الإشكالي الجدير بالطرح، الذي ربما لايكون حاسما إلى حدّ بعيد، لكنه مع ذلك بالغ الأهمية و الدلالة في فهم نيتشه بشكل كامل، يدور تحديداً حول التحول الروحي الحاصل له منذ عام (1880) و إمكانات التتطابق و التماهي مع الحدث البيولوجي الناشئ حديثا. حول هذه النقطة، لا يوجد في وقت الحاضر، دراسة دقيقة موثقة قائمة على كل المواد البحثية المتوفرة عن نيتشه موضوعة في سياق تاريخي منظم و رصين – هذه النقطة هي أكثر المتطلبات إلحاحاً فيما يتعلق بدراسة السيرة الذاتية لنيتشه. في الحقيقة، أول من التفت إلى انتكاسة نيتشه الصحية و حالتها السيئة

و ميزها هو الباحث بون جوليوس موبيوس، لكن نظرته كانت مثقلة بالكثير من الأشياء اللامعقولة و السخيفة، و لهذا لم تحظَ أطروحاته بأيّ قَبُول في الأوساط الأكاديمية. إنّ انتكاسة نيتشه الصحية، الغامضة و المبهمة، بحد ذاتها إلى حدّاً ما، (و هذا يشمل حتى طبيعة التشخيص الطبي لها)، أمست أكثر وضوحا لي، و أكثر مألوفية بعد الفحص الدقيق لمراسلات نيتشه و الأعمال التي تم نشرها بعد وفاته المعروفة لحدّ الآن لنا.

يبدو أنّ التحولات في تفكير نيتشه و تجاربة، التي بدأت منذ بواكير عام (1880) واستمرت حتى عام (1888) كانت بفعل تأثير العامل البيولوجي، سرعة بديهية الرؤية في النمط الجديد من التَجْرِبة، و مواقف نيتشه الفلسفيّة الجديدة من كلّ شخصية فكرية مؤثرة لا يمكن إنكارها. من غير المنصف الاعتقاد بأنّ التطورات الضرورية في تفكير نيتشه، التي تولف العظمة الروحية و العمق الوجودي له، هي نتيجة لمرضه أو تغيرات العامل البيولوجي غير معروف، أو ما يدل على غموض طبيعته الاستثنائيّة و أهميتها العالمية المتزايدة. إنّ تقديمنا للأمور بهذه الصورة، و لو بشروط ملائمة، غير منطقي و هو أشبه بالمراوغة و الالتباس، يقلب و يقوض و يحط بشكل سرّي من قدر الموضوع الحقيقي ذو المدلولية و الأهمية التي لا يمكن الاستغناء عنها ضمن الكلّ. ربما يقال، أنّ هذا الطرح يكشف النقاب عن الخلق و الإبداع الروحي عند نيتشه و من ثّم مباشرةً يرفضه بوصفه مجرد مرض.

للإجابة عن هذا التساؤل، نقول بالتأكيد لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أنّ نحدد ((هُوِيَّة)) نيتشه؛ بل أنّ كلّ ما نعرفه ، بالأحرى، عنه دائماً لا يتعدى مجرد بعض من الوجوه و المظاهر الخاصَّة من وجهة نظر أو زاوية واحدة، و ليس نيتشه كليًّا. فضلاً على ذلك، يشير هذا التحول و التغير المحير و الملغز الدائم لديه من مظهر إلى أخر، كما لو أنّ الاثنين واحد، إلى حجم الفجوة المظلمة التي لا نستطيع عبورها و النفاذ و التغلغل إليها. لا تعد حقيقة وصول نيتشه، أول مرة، إلى مكانته الرفيعة كفيلسوف مطلع عام (1880) على الأسرار الاستثنائيةّ التي باح بها – فهي مماثلة لظروف وصول هولدرلين و فان كوخ إلى مكانتهما الأول كشاعر و الثاني كرسام ، و أن كان ينبغي التنوية مرة أخرى، بطريقة مختلفة. لم تكن ((العوامل المرضية)) لنيتشه – الإشارة إلى العنصر البايلوجي غير المعروف كونه ربما يكون مع أسباب العمليات المرضية المميِزة لدية – فقط ذات طبيعة مزعجة و مقلقة له ، بل أنّها أيضاً جعلت، و بطريقة مختلفة، ما لم يتوقع حدوثه أمراً

ممكناً. الآن، و أول مرة، يشعر نيتشه، في قرارة نفسه، أنّهُ أمسك بالمصادر الذي عرف بواسطتها أنّه وضع قدمية على سكة البدايات. تذكرنا، طبيعة نيتشه الغنية بإمكانات التأمل و إطالة النظر و التفكير و أصالته الكاملة غير المنقوصة، بمفكري اليونان قبل سقراط — و لكن ينبغي التنويه إنها لم تكن كذلك قبل عام (1880). يبدو أن التنوع الأسلوبي، عند نيتشه، ينبثق من نفس الأساسّ الذي يتم التعبير فيه عما هو غير مسموع أو معروف سلفاً. بلاشك، هناك نمو و تعاظم للقوة الشعرية في أسلوبه الفلسفي. المعرفة الكُلّية، عند نيتشه تبدو فيها هزيمة الصعوبات و التغلب عليها مجرد لُعْبَة، هي قبل كلّ شيء نجاح مضمون دون عوائق، معبر عنها في كلّ مقطع لفظي، مع الوعي المحترق للوجود، المنبثق من أعماق ينابيعه التي تصبح مباشرةً لغة دون أن يحدث تغير في وساطة التأمل. إن ما يبدو للوهلة الأولى مؤثر، بصورة عرضية و غريبة، سرعان ما يتحول لدى نيتشه إلى حقيقة عميقة أو غرابة ذات مغزى لما هو استثنائّي و نادر. الروح، عند نيتشه، تمنح المعنى حتى إلى الجنون، و بهذا تنفذ و تتغلل عميقا في الملاحظات المجنونة التي غدت جزء لا يتجزأ و لا مفر منه في عمل نيتشه.

تتطابق تَجْرِبة الأزمة الروحية لنيتشه – الإحساس بالعزلة، رفض التقاليد، رفض الدين، و رفض الدنيا – و التي بلغت ذروتها بعد عام (1880) الرعب الهائل في مواجهة ضخامة و عمق رؤاه المستقبلية، وجوده المستغرق تماما في تَجْرِبة الحصول على موضع قدم و مكان في هذه اللحظة من تاريخ العالم الذي يواجه فيه خطر الانحلال الحاضر بقوة حيث كلّ شيء فيه يعتمد على الإنسان و يعول عليه – و تتماهى مع الحالات المؤلمة الحادّة و الكئيبة ذات الأصول و المناشئ المتنوعة التي مر بها؛ كذلك يمكن فهم حالة الثقة العالية بالنفس الذي يتمتع بها نيتشه، و المشروطة مرضيا، و تبريرها وفقا لتلك الأزمة. أيًّا كان يرغب في أن يقرر و يحسم هنا حالة نيتشه مع منهج أما-أو الواضحة يحول الواقع الغامض إلى شيئاً لا لبس فيه، على حساب الحقيقة الممكنة التي تتطلب هنا أن يتم الاعتراف باللغز في حياته و السعي لاكتشافه في كلّ الطرق الممكنة.

بناءً على ذلك، هناك في الواقع ثلاث مقاربات، في العَلاقة بمرض نيتشه و عمله، ضرورية لامفر منها: أولا، التحقيقات و الاستقصاءات التجريبية للوقائع؛ ثانيا، تسمح عملية نقد عمل نيتشه للقارئ في أن يرفع من عمله و يزيل تلك العيوب و الفجوات التي يمكن أن تعدّ معوقات عرضية نشأت بفعل المرض، مع نظرةً تحاول الوصول إلى مفهوم نقي مجرد لطريقة نيتشه في التفلسف؛

ثالثا، ساهم التصور الأسطوري المتزايد عند نيتشه في الإضفاء على مرضه معنى إيجابيّ، و غدا تعبيراً بارعاً عن الوجود، و كشف دون واسطة أشياء كثيرة بالغة الأهمية ربما لولا ذلك بقيت مخفية و مطموسة لا يمكن الوصول إليها.

تكمن أهمية المقاربة الأولى في توظيفها إلى منهج العلم التجريبي – ما ينطوي على أمور كثيرة مفيدة تنتظر من يقوم بها – الذي لا يمكن أن يصل إلى حدود المعرفة التي هي في النهاية شاملة. تعد المقاربة الأولى الشرط الأساسيّ في تحقيق المقاربة الثانية و الثالثة؛ دون المقاربة الأولى، تصبح المقاربة الثانية – المقاربة النقدية – مقاربة غير منهجية لا يتم الركون إليها، و بهذا تكون نقداً غير مقيد، و لاسيّما مع ((مرض)) نيتشه؛ أما المقاربة الثالثة – المقاربة الأسطورية – فإنّها تتحول إلى حماسة غير واقعية. إنّ المقاربة التي تبحث في تفكير نيتشه عن الحقيقة المجردة النقية سوف لم يكن بوسعها مطلقا أن تُفصل و بشكل نهائي عن هذه الحقيقة أيّ شي لا يمت بصلة وثيقة للموضوع، أو إزالة أيّ شي يعد خطأ أو خرق غير لائق، أو أيّ شيء ما قصد منه أن يضيء لون أو نَغْمَة لغرض الإغراء و الإقناع. ليس بوسعنا أنّ نعطي نظرة نيتشه الأسطورية للواقع عموما تعبيراً ناقلاً للمعنى. من غير الممكن أن يتم استبدال، واحد من هذه المقاربات مع الآخر، معنى التحقيق التجريبي و تطهير و تنقية الكلمات بشكل نقدي من جهة، و التعبيرات الأسطورية من جهة أخرى – كما يجب ألاّ يتم الخلط بينهما.

موقف نيتشه من المرض.ـــ هنا، من الضروري أن نميز بين سّؤالين مختلفين تماماً؛ الأول هو موقف نيتشه من مرضه الذي يمكن التحقق منها طبياً أو يمكن تشخيصه و تخمينه، و الثاني هو حديثه الذي يطغي عليه روح التأويل الوجودي عن ((كونه مريض))، و الوظيفة التي لعبها المرض في مجمل حياة نيتشه.

إذا أردنا، أولا، أن نسأل عن رد فعل نيتشه و موقفه من أمراضهِ و كيف قام بتأويلها و تفسيرها و الحكم عليها طبياً، ينبغي أن نفرق مرة أخرى بين: (أولا) المحن و المصائب التي أصابته و ألمت به و المعوقات العنيفة التي عاناها منذ عام (1873)؛ (ثانيا) التغيرات و التحولات السيكولوجية التي أصابته منذ عام (1880) من جَراءِ مرضه، و التي نشأت بفعل تأثيرات ((العامل البيولوجي)) و من جرائه و لم يكن بالإمكان تشخيصها طبياً؛ و (ثالثا) الذُهَان، الهواس و الاضطراب العقلي الذي كان يعاني منه نيتشه منذ عام (1888) و أعراضه التي عاناها بشَدَّة في

السنين السابقة. تنبثق هذه الأسئلة مع إمكانية التحقق من موقف المريض – و حقده، فترات جنونه هي أيضا فترات ارتيابه و بغضه للبشر – من مرضه (العامل الذي لعب دوراً مهماً في كل جلسات العلاج النفسي الذي خضع لها نيتشه)، و اكتشاف بشكل دقيق و فهم الأسباب التي تقف وراء مرضه و كيفية الشفاء منه (كانت هذه الأشياء تمثل إشارات و معطيات مهمة للطبيب النفسي في فهم طبيعة المرض الذي أصابه). هناك دائماً سّؤال يتبادر إلى الذهن يتعلق بالكيفية التي يرى فيها المريض مرضه من وجهة نظر طبية – وجهة نظره، كإنسان، بوسعه أن يفترضها و يأخذها على عاتقه و يقبلها ما لم يكن مرضه نفسه عائقاً ويمنعه من ذلك. سّؤالنا حول نيتشه، في هذا الصدد، يأخذ الاتجاهات الثلاث الآتية:

(1) كانت طريقة تعامل نيتشه مع الحالات التي ألمت به — و تبدو و كأنّها بلايا و محن جسدية مستعصية، على سبيل المثال، (النوبات الانتيابية: التكرار المفاجئ للنوبات و التشنجات و الهجمات المرضية المفاجئة، معوقات النظر، آلام الصداع المزمن .... إلخ) — تتطابق و تتماثل أولا مع اتباع العادة المعاصرة المتعارفة آنذاك: كان نيتشه دائماً يستشير الأطباء، و المختصين، و أصحاب الشأن في المجال الطبي، سائلاً أيّهُمْ أنّ يصفوا له حالته بدقة، و يشخصوا مرضه فقط وفقاً لأسس المعرفة العقلية. مع ذلك، خضع نيتشه إلى العديد من طرق علاج أخرى جديدة غير فعالة بما أنّ معظم الأطباء الذي عالجه كان يطبقون مقاييس و طرق العلاج القديمة و لم يكن يفهمون و يشخصون الحالة وفق قواعد علمية صلبة، مفترضين أنّهم – ليس فقط في الحالات الخاصَّة البارزة و المميزة – يقدمون علاج فعال و ناجع لمرضه. بعيداً عن استشارات و آراء الأطباء، حاول نيتشه أن يتعرف إلى طبيعة مرضه و يعالجه على أساس ملاحظاته الشخصية و الإشارات و التلميحات التي كانت تمر به في أثناء القراءة و يقوم بالتقاطها و تسجيلها. ليس بعيداً عن الأطباء، الذي يستخدمون منهج الإقناع الإيجابيّ و الإيمان المطلق بالسلطة العلمية، يبدو نيتشه أحياناً يخلط ما بين المناهج العقلية و الأدوات المعرفية المُبرهن عليها تجريبياً و المفاهيم الإيجابيَة للإمكانية في فهم حالته الصحية. ربما يكون قد نجح إلى حدّ ما في الاختيار الموفق – مستخدما معطيات الأرْصَاد الجوية بدقة – للمناخ المناسب و تقلباته على الأقّل لمعالجة حالته. بالنسبة للباقي، كانت حياة نيتشه مليئة بالمحاولات التجريبية اليقينية غير الضرورية للعلاج:((كل أنواع المحاليل والأدوية الممزوجة التي كان يُعالج بها نيتشه و يتناولها كان يتم تحضيرها على موقد ساخن في غرفة نيتشه في مدينة بازل بنفسه))، هنا يتحدث أوفربيك عن المدّة المتعلقة بنيتشه و الممتدة من عام (1875) فما فوق[52].

فيما بعد، استخدم نيتشه كل أنواع الأدوية، الأملاح و بعض المحاليل للشرب، و فضلاً على ذلك ممارسة كلّ التمارين العقلية التي تساعد على الاسترخاء و النعاس و النوم (تناول كمية كبيرة من هيدروات الكلور على سبيل المثال)، على الرغم من أن فعالية التمارين العقلية التي كان يقوم بها نيتشه لمساعدته على النوم بشكلٍ روتيني كانت مشكوكاً فيها للغاية، و أخيرا تناوله لعينة من الحشيش المحفوف بالخطر ربما حصل عليها كوَصفَة من رجل ألماني مجهول. كان نيتشه في بعض المناسبات، فخوراً في الأدوية التي يصنعها و((يخترعها)) بنفسه: ((أحسَ بطعم الانتِصار حينما وصف لي دكتور بريتنك محلول حامض البوتاسيوم الفسفوري الذي سبق أن حضرته و تناولته بنفسي من قبل – أصبح الطبيب راضيا و مقتنعا تماما في فعالية هذا الدواء أو البلسم الشافي؛ و بذلك، غدوت أنا بنفسي مخترعاً لدوائي. أنا فخور بنفسي، لأني عالجت نفسي بنفسي و شفيتها أيضاً من مرض التيفوئيد الشتاء الماضي...)) (من رسالة إلى أوفربيك، 27 تشرين الأول، 1883).

بيد أنّ هذا الثناء الذي يغدقه نيتشه عادة على العلاجات الوهمية التي كان يتعاطها ليشفى من مرضه كانت زائفة و غير ذي فعالية، فهي أولا لا تعد جزء من إنجازات نيتشه و لا هي ثانيا ذات أهمية كبيرة تذكر. في الواقع، يكمن إنجاز نيتشه في حقيقة أنّ على الرغم من كلّ شيء كان الرجل قادراً أن يحرر نفسه من الاستشارات المستمرة التي كان يطلبها من الأطباء و توصياتهم و ارشاداتهم و القلق الذي يساوره حول أمراضه. هذا التحرر كان جزء من العلاج-الذاتي من المرض الذي منعه، خلال الحالات و الأوقات المحفوفة بالخطر و الكالحة، من التفكير و الكتابة كما لو أن هذا المرض غدا المحور الحيوي لحياته. و بينما كان نيتشه يعاني تبعات مرضه و نوباته المؤلمة، نجح إلى حدّ ما مع ذلك في الهروب من كلّ أنواع الهستيريا، الاضطرابات العصبية، القلق، الحصر النفسي، التلهف، الشجن، و الانشغال الذي كان يعانيها.

من وجهة النظر الطبية، كان نيتشه مخطئ فيما يتعلق في تشخيص مرضه. خلال عام (1880) حين حصل نوع التحسن في معاناته الجسدية، و بدأ مباشرةً تطور عظيم في تفكير نيتشه على وشك الحدوث، كتب نيتشه، في روح مودعة، رسالة إلى م. ف. ميزنبيك في (14 كانون الثاني، 1880)، مطلعها الآتي: ((بعد عدة أعراض تُنذر بالخطر و مؤلمة، كنت على وشك الإصابة بالسكتة الدَّماغية)). كما كتبَ أيضاً إلى البعض من معارفه رسائل متنوعة عن اقتراب نهايته.

(2) نعتقد، أن العامل البايلوجي، المُلاحظ بوضوح في حالة نيتشه، و منذ عام (1880)، لم يكن مُدركاً و مُميزاً بوضوح من قبله، مع أنّه قد لاحظ مع الكثير من الدهشة التغير الحاصل لديه في ((المذاق)) الذي يسبق انبثاق حالات التفكير الجديدة. بيد أنّ نيتشه، كشخص يلاحظ الأشياء بعقل موضوعي بارد، كان يركز و يعير، في بعض الأحيان، انتباهه على الإمكانية التي تربط ما بين الخلق و الإبداع الروحي من جهة و العمليات الجسدية و البايلوجية و تحولاتها، من جهة أخرى. من الطبيعي أن يولي نيتشه اهتمام بهذا الأمر، على الرغم أن كلّما عثر عليه في هذا الشأن لا يتعدى أن يكون أمراً عرضياً لا يعتد به. و بهذا ، على سبيل المثال، يقول إلى صديقه جاست الآتي: ((ليلة البارحة، اكتشفت و توصلت إلى الحل، اكتشفت بأنّ الذروة الحاسمة في تفكيري و قرض و نظم الشعر، اللذان يتمثلان في نصّين ((ولادة التراجيديا)) و ((هكذا تكلّم زرادشت))) يتطابقان و يتوافقان مع الحد الأقصى من تأثير القوة الجاذبة – بينما، من جهة أخرى، يمثل اختياري للفيلولوجّيا، (و شوبنهاور) (نوع من الإرتباك الذاتي) و بطريقة مماثلة أيضاً نصّ ((إنساني مفرط في إنسانيته))، و الذي أيضاً كان كناية عن كتاب سجالي (الذي تصادف و تتزامن كتابته مع أسْوأ أزمة صحية تعرضت لها) يتوافقان مع الحدّ الأدنى لقوة التأثير المقصودة)) (من رسالة إلى صديقه جاست، 20 أيلول، 1884).

(3) لم يميز نيتشه المرض العقلي الذي ألم به و كان يعانيه منه (حيث من النادر أن يعي الشخص الذي يعاني من الشلل بمرضه و تكون له معرفة به، كما أنّه لم يكن يتوقع أنه سوف يصاب فيه مطلقاً. في عام (1888)، حينما حصل تغير على مستوى حياته العاطفية، و عانى نوع خاصّ من الشدّ و التوتر، بدأت فعلاً تظهر عليه علامات و أمارات الجنون الذي سرعان ما طغت عليه – و كان نيتشه على يقين بخطورة مرضه و بثقة لا تزعزع على مواجهته. مع ذلك، لم يخطر في بال نيتشه قط أنّهُ سيصاب بالجنون، لكن كانت تساوره مراراً فكرة الموت المفاجئ – الذي يوحي بنهاية كل شيء، أن أشد و أعمق ما يعانيه الإنسان من خوف هو خوف من حتمية الموت، و حين تكون له عَلاقة بالقمر و بالنجوم يحصل على عَلاقة صافية بالموت – أو السكتة الدَّماغية و ما شابه. كتب نيتشه ذات مرة رسالة إلى أوفربيك يعود تاريخها إلى (الرابع من أيار من عام 1885) قال فيها: ((في بعض الأحيان تساورني الشكوك بأنك ربما تميل إلى الاعتقاد بأن كاتِب نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت)) هو مجرد رجل أحمق لا قيمة له. في الواقع خطري عظيم جداً، لكنه ليس من هذا النوع و لا يمت للحماقة بأيّ صلة يا عزيزي)).

فيما يتعلق في حقيقة أن نيتشه أضفى المعنى و المدلولية على المرض في حياته و منحه وظيفة، و بالمقابل منحه المرض هو الآخر مِيزة و فائدة و أفضلية، فإنّ الأمر لا يعدو أنّ يكون أكثر من أمر عرضي و ذي أهمية ثانوية. مما لا شك فيه،أحدث مرض نيتشه في داخله رغبة جامحة في التحرر من أعباء عمله الأكاديمي في الجامعة، و نجح في ذلك بواسطة حصوله على التقاعد، كما أوجد المرض لنيتشه المبرر للانفصال و الابتعاد عن الناس و الأشياء البعيدة عنه: ((جنبني المرض و أنقذني من الإخفاق في الامتثال، العنف، و اتخاذ الخطوة العدوانية)). و لكن لم تكن هذه الأشياء، في أيّ شكل من الأشكال في مرض نيتشه، ذريعة أو وسيلة إلى ((الاضطراب العصبي)) الذي يعانيه: بما أنّ المرض كان متأصلاً و راسخاً و عميق الجذور في جسده، الذي بدأت تعتريه مظاهر الوهن، فإنّ النتائج و الآثار الخارجية كانت ليست ذا أهمية.

لا يستمد المنهج التأويليّ، الذي استخدمه نيتشه في تحديد و تعين وظيفة لمرضه في العملية الكُلّية لإبداعه الروحي، من اعتبارات نفعية أو من معرفة العلاقات السببية التي يمكن التحقق منها تجريبيا بواسطة الملاحظات المفصلة. بهذا الصدد، يقول نيتشه: ((ببساطة، أنا لست روحاً فقط، أو جسداً فقط، و لكن مازالت شيئاً ثالثاً، أعاني دائماً من الكلّ و ضمن الكلّ... فتوحاتي الذاتية هي وحدها في الأساسّ قوتي العظيمة)). (من رسالة إلى أوفربيك،31 كانون الأول، 1882). على أساس هذا الشيء الثالث، أيّ وجوده، الذي يساند و يوجه كلاً من الروح و الجسد، و الذي يتجلى في حركة النفس الضابطة لإيقاعها الهاضمة و المستوعبة لكلّ شيء، تم دراسة تأويل نيتشه الرائع لمرضه و موقفه منه بطريقة مفصلة. يتجاوز التأويل الوجودي عند نيتشه مقولات المنفعة – التَجْرِبة اليومية في جميع الأزمان التي تربط بين مفهوم الطيب و النافع باعتبارهما متشابهين من حيث الجوهر – بالإضافة إلى المقولات الطبية و العلاجية. التحليل الآتي، الذي سوف نتناوله بعض الشيء بالتفصيل، يضفي أبْعاد جديدة على مفاهيم المرض و الصحة عند نيتشه:

تحمل مفاهيم نيتشه للمرض و الصحة خاصية و معنى غامض: المرض الذي يشتق من الصحة و يقوم بدور خدمتها – و من ضمنه و خلاله تنبثق صحة الوجود – هو في الواقع إشارة إلى هذه الصحة. الصحة هي معنى طبي، يرجع بشكل نموذجي إلى الوجود دون جوهر، و تصبح علامة على المرض الصحيح. أنتج، تبادل كلمات ((الصحة)) و ((المرض))، مظهر من التناقض، لأن بيانات، تصريحات و آراء نيتشه بهذا المجال تميل بشكل قاطع إلى إبراز المرض و بالضِدّ من

مشاعر الرضا-الذاتي التي هي نتاج الصحة الجيدة، و هي إلى ذلك تتضمن على النقيض من ذلك تثمين و مدح بوضوح إلى الصحة و تحقير و ازدِراء للمرض. كان نيتشه، و بشكل متكرر، كثير السخط على أولئك الفارغين و التافهين، الذين يتمتعون بصحة جيدة، و التي أصبحت تصريحاتهم مجلبة للسخرية، بيد أنهم يبتعدون عن مواجهة أيّ شيء غريب عنهم و غير مألوف. بهذا الصدد يقول نيتشه الآتي: ((بالطبع، تميز الكائنات الفقيرة و رسومها و تدرك كم شاحبة هي الألوان، و كم بائسة و تبدو كالشبح صحتهم)). يشجب نيتشه و يوصم بالعار مناهج التعليم غير المثقف و المستنير الذي اخترع: ((لعاداته، لوجهات نظره، لرفضه و لرعايته، مصطلح عام مؤثر اسمه ((الصحة))، تخلص من كل المعوقات للسلام بواسطة ارتيابه في أن يكون مريضاً أو شخصاً غريب الأطوار)). في الضِدّ من هذا الطرح، يؤكد نيتشه الآتي: ((في الواقع، هناك حقيقة مزعجة هي أنّ ((الروح)) لديها عادة الانحدار، مع تعاطف خاص، نحو الجانب غير الصحي و غير المجدي)). لا تخفي هذه الصياغات حقيقة أنّ كلّ فلسفة نيتشه تفضل الصحة تستحسنها و تحابيها و تكره و تذم المرض – تبحث عن إيقاع الهزيمة و التغلب على كلّما هو مريض. مرة أخرى، الاختلاف في مفهوم الصحة هو الذي يصنع هذا التناقض في رؤية نتيشة و يجعلها ممكنة.

لم يكن مفهوم، الصحة الذي اكتشفه نيتشه و ميزه، غامضاً بالعرض أو من باب الصدفة. يقول نيتشه: ((لا يوجد شيء اسمه الصحة بحد ذاتها. إنّ هدفك في الحياة هو الذي يحدد و يعين ما الذي يجب أن تعنيه الصحة للجسم... ينبغي أن يتم التخلي و هجران ... المفهوم العادي المتعارف عن الصحة. بالطبع، يبدو مفهوم الصحة، عند شخص ما، مختلف و نسبي و في الضِدّ عما يكونه عند شخص آخر)). و في موضع آخر يقول: ((الصحة و المرض لا يختلفان جوهريا و في الأساسّ...ينبغي ألّا نضع مبدئين أو كينونتين مختلفين لهما... في الواقع، هناك فقط اختلاف بالدرجة بين هذين النوعين من الوجود...)).

و بذلك، إنّ ما يحدد تأويل نيتشه الوجودي، القائم على التعمق في التدبر و التفكير لاستخرج الحقائق الكامنة، هو أن فكرة الصحة لا يمكن العثور عليها في الوقائع و الحقائق البيولوجية أو الطبية، و لكن تقوم و ترتكز في الواقع على قيمة الرجل، الشخص في كُلّية مرتبته الوجودية. فقط حين نرى الأمور من هذا المنظور و في ضوء تلك المعطيات، تصبح النقاشات الغريبة التي اجراها

نيتشه عن مرضه لها معنى: لقد تخلى و تنازل عن نفسه إلى المرض، أبدى عناية و اهتماماً فيه و سجل ملاحظاته عنه، ثم تغلب عليه و أوقع به الهزيمة. هذه العملية يمكن أن نتتبعها بالتفصيل:

المرض كشيء يحدث بشكل طبيعي، لا يرجع، طبقاً لهذا التأويل أعلاه، إلى أصل أو أرومة شخصية؛ بل بالأحرى إلى أصل طبيعي. يتطلب تعقب مسارات هذا التأويل مستوى أخر مختلف تماماً عن التفكير السببي السائد في الرؤية و المعرفة. إدخال المعنى الوجودي و حقنه في لا معنى الحدوث الطبيعي، دون الإصرار، مع ذلك، على شرعية السببية الكُلّية، يعد في هذه الحالة من طبيعية سحرية خرافية. بناءً على ذلك، شيء ما يتمنى أن يتواصل مع الوجود يحدث المرض من أجل أن يكون مؤثراً وجوديا بواسطته. كان نيتشه كثير الامتِنان لمرضه، لأنّه ساهم بشكل حيوي و حاسم في تطوره و غناه الروحي و العقلي. و بما أنّ نيتشه كان يرى الوضع المعقد لمرضه بواسطة استعادة شريط الأحداث الماضية التي مر بها، فإنّه كان يروم، دون أن يعي ذلك، أن يحقق و يترجم مهمته الحقيقية بواسطة دراسة الفيلولوجّيا، المهنة الأكاديمية في الجامعة، تبجيل و توقير ريتشارد فاغنر و شوبنهاور، الذي ترك لدية الانطباع الأقْوَى بين الانطباعات الأولية كرجل فارس صارم النظرات حازم الشخصية يحسن السير وحده و ليس حاجة إلى أمر يأتي من الأعلى، و بواسطة موقفه المثالي الرومانتيكي: ((وحده المرض الذي أعادني إلى صوابي)). و في موضع آخر يقول: ((المرض هو الجواب المناسب في كل مرة نميل فيها إلى نلقي بظلال الشك على مصداقية الطريق الذي نسلكه في تحقيق مهمتنا، و لاسيَّما حينما نحاول أن نجعل مهمتنا أكثر سهولة لنا بواسطة سلوك بعض الطرق غير اللائقة... ندفع كلّ ما هو غالي و عزيز كي نحصل، قبل فوات الأوان، على لحظات السلام و الطمَأنينة!)) و لكن حين نادى المرض نيتشه كي يرجع إلى مهمته غدا حينها ضيفاً ثقيلاً لم يتوارَ أو يفارقة مرة أخرى. طبقا لهذا التأويل، كان نيتشه، مع ذلك يتوقع، حتى أخر أيام في حياته أن المرض سيهزمه... ((هذه المهمة جعلت مني مريض، و لكن ستجعل مني بالتأكيد أيضاً أحسن حالا....)) (من رسالة إلى أوفربيك، 12 تشرين الثاني، 1887).

يظل المرض، الذي لا يمكن أن نتوصل إلى عقد اتّفاق معه، و لا يهم الطريقة التي حدث فيها، بالنسبة لنيتشه غير معروف و محدداً و مجهولاً في معناه. كل شيء يعتمد على الطريقة التي يتصرف فيها الوجود و يفعل و يتصرف اتجاه المرض: المرض هو محاولة خرقاء لبلوغ الصحة: حين نأتي لطلب العون و المساعدة الطبية ينبغي أن نأتي بصحبة أرواحنا. يعيد نيتشه تأويل مرضه

المتواصل، و يفعل ذلك، في الواقع، بطريقة تمكنه من التغلب عليه: هو يعبِئ المرض و يجنده في خدمته، إذا جاز التعبير – فهو يميز خطورته و كيف يصبح سيداً، إذا لم يكن المرض ذاته فعلى الأقّل مخاطره.

يعتقد نيتشه، الذي يرى العالم بخياراته التي لا تعد و لا تحص، أنّ المرض الذي تم توظيفه في خدمة أغراضه الفلسفيّة، مكنه من أن يكتشف الطبيعة الخاصَّة لتفكيره الجديد: ((لقد منحني مرضي حق إكمال طريق الرجوع إلى عاداتي... لقد منحني ضرورة أن أبقى واقفاً بثبات، متراخيا و بطيئا، علمني أن انتظر كما انتظر مجيء صديقٍ عزيزٍ و أكون صبوراً... و لكن أليس هذا هو فعلا التفكير!)) كما غدا المرض لي بمنزلة أداة التَجْرِبة والملاحظة. ذات مرة، أخبر نيتشه طبيبه الخاص بالآتي: ((لقد جعلني المرض ميدانا للتجارب و الاختبارات التعليمية في الميدان الروحي-الأخلاقي، و لاسيَّما تَجْرِبة المعاناة – هذا العطش السار للمعرفة رفعني بيده عالياً إلى مكان أشعر فيه أخيراً بالانتصار على كل عذابتي و خيبات الأمل الذي ألمت بي)). (من رسالة إلى إيزر) و في نصّه ((هو ذا الإنسان))، يتذكر نيتشه: ((في وَسْطَ العذابات – و لنحترس عند قرأتنا لكلمة عذاب من أن ينتابنا الغم و الكآبة – التي أعيشها رافقتني بشكل غير منقطع، و لثلاثة أيام متتالية دون إرادتي، عذابات مريعة من نوع خاص بسبب آلام الجمجمة و نوبات القيء المزعجة للبلغم التي تنتابني و تسومني سوء العذاب، و لكن و على الرغم من ذلك أشعر أني أمتلك وضوح التفكير الديالكتيكي للشخص الماهر بامتياز في الجدل و السجال الفلسفي، و تفكير عميق متأني بالأشياء، لكني غير مؤهل للتعاطي معه بمهارة لاعب الجمباز المرنة، و لا حتى أمتلك الهدوء و رِباطَة الجأش و البراعة بشكل كافي تحت ظروف أكثر صحة لي)). أخيراً، فسر نيتشه مرضه كقوة دافعة يستطيع بواسطتها، أن يتحرر من المساعدات الخارجية و كلّ الأفكار المثالية الزائفة و التافهة، من الحاجة إلى الدين، بوصفه خطأ من أخطاء العقل الذي كان يسميه لوثر ((العاهر اللعوب))، و الفن، مدفوعا بقوة إلى الأمام في طريق الاعتماد الحقيقي على الذات – بهذا الصدد يقول في رسالة إلى السيدة مالفيدا، الآتي: ((فيما يتعلق بالعذاب و الإنكار، ربما حياتي في السنين الأخيرة تقارن أو تشبه إلى حدّ ما حياة الزاهد المتنسك الذي نعثر عليه في كل زمان و مكان؛... فقط شعوري في الوحدة الذي جعلني اكتشف مصادري الثمينة)) (من رسالة إلى مالفيدا فون مايزنبوك، 14 كانون الثاني، 1880).

مع ذلك، يجلب المرض، في نفس الوقت، تبعاته الوجودية المحفوفة بالمخاطر. و فوق كل شيء، يمكن أن ينتج، طبقاً إلى التأويل النيتشوي لتجاربه الخاصَّة، شعور الغرور و الغطرسة و شدة الاعْتِداد بالنفس الذي يجعل المرء ينسحب و يدير ظهره إلى كلّ الأشياء و يعبر عن آرائه في صيغة معرفة عميقة و تبصر يزيل و يكشف القناع الزائف بشجاعة عن الأشياء: حينما يتلاشى كل السحر الصغير – هناك تأثير يمارس على شخص ما عن طريق السحر و العبث و المِزَاج – المزيف للحياة و يختفي، حينها سيفكر الشخص الذي يعاني ((بنوع من الازدراء و السخرية... بهذا العالم الغامض و الضبابي غير الواضح الذي يتحرك فيه الإنسان السليم و المتعافي، الذي دائما يبحث عما يعطي حياته معنى و قيمة، دون تردد و حَيْرَة))؛ ((فالشخص الذي يعاني يفكر بازدراء و سخرية في كل الأوهام النبيلة و العزيزة على القلب... و بنوع من حدة الإدراك و الاستبصار المخيف....)) يحث و ينصح نفسه و يحذرها: ((كن جسوراً و تجرأ على أن تكون أنت أول من يتهّم نفسه... تمتع و أنعم بتفوقك و سلطتك كقاضي. تعالى على آلامك و معاناتك)). ثم، و بطريقة غير مسبوقة ((ينشأ فخر و اعتزاز و كبرياء الشخص، الذي على الأقّل يفهم و هو مريض، على هيئة التواءات و تعرجات حقيقية للغطرسة و الغرور و التكبر)). و لكن حينما تبدأ الأشعة الخافتة و المعتمة للسكون و الشفاء بالظهور، فإنّ ((النتيجة المحفوفة الأولى التي تواجهنا و نبدأ الصراع الحقيقي معها هي هيمنة و سيطرة الغطرسة و التكبر... بعيداً، بعيداً عن هذا الفخر و الاعتزاز، نذرف الدَّموع و نبكي، أنه المرض و مزيد من الالتواءات!.. ننظر ثانية بعيون تواقة يملأها الشوق و الرغبة إلى الناس و الأشياء... نحن لا نشعر بالغضب حين يمارس سحر الصحة و فتنتها مرة أخرى الدور المرسوم له)).

يمكن للمرض، الذي يحاول نيتشه أن يفسر نتائجه الوجودية الخطرة، أن يعني أيضاً أن مضمون التفكير يحدث بفعل تأثير الحياة و بواسطتها – بعبارة أخرى، بواسطة نوع من الحالات التي يفكر بواسطتها المريض. بدلا من الإلحاح على التفكير أن يذهب خلف أو أبعد من نفسه، يرسم المرض، في حالة نيتشه، ملامح التفكير في نفسه إذا جاز التعبير. لهذا، يتسأل نيتشه هل يمكن أن ينشأ أيّ نوع من الأفكار الفلسفيّة بفعل عامل أخر غير المرض.

كي يحرر نفسه من عبء و مشقة التفكير المستهلك في خدمة حالة المرض المهيمنة، يحاول نيتشه أن يجرب الحالات المتنوعة بطريقة يمنح بها نفسه إليها، بشكل مؤكد، لمجرد لحظات

قصيرة، و لكنه كان يفعل ذلك فقط كي يعارض هذه الحالات بطريقة أكثر حدة بواسطة معرفتها بدقة. لقد سمح نيتشه لكل حالة أن تتكلم بواسطته، لكنه لم يسمح لأي حالة منها أن تنتصر عليه. في المرض، لم يجرب نيتشه فقط غطرسة و كبرياء الاستبصار البارد للمرض، و لكن أيضاً سموم الشفاء؛ في هذا النمط، يرى نيتشه الصحة من منظور المرض، و المرضى، بوصفهم الخطر الأكبر الذي يتهدد الأصحاء، خلافا إلى الأصحاء. مرة، كشف نيتشه عن أفكاره بسبب ضغط المرض عليه ليرى كيف ستكون النتائج، و في مرة أخرى، أخضع الأفكار التي انبثقَت في مدّة المرض الشديد في خطوطها العامة إلى نقد الصحة. غدا نيتشه كثير الامتنان و الشكر لمرضه الذي لا يقبل الشفاء: ((أنا واعي تماماً للفائدة التي أجنيها عموما، من جَراءِ وضعي الصحي المتقلب [و المرض]، و سمة الأفضلية التي أتمتع بها و تميزني و تبزني على كل المفكرين و المثقفين الأصحاء أصحاب البنَى القوية المتينة من حولي. الفيلسوف هو الرجل الذي يشق طريقه بواسطة العديد من حالات الصحة و المرض المرة تلو الأخرى، مستوعبا أيضاً الكثير من الفلسفات – ببساطة، تتغير أحواله الروحية بصورة مستمرة و عميقة من جَراءِ ذلك؛ الفلسفة أو الظاهرة الفلسفيّة هي فن التغير و تحول المظاهر الذي لا ينقطع)). يشير المرض عند نيتشه إلى ((الطريق الذي يتبعه الكثيرون و يعارض أنواع معينة من التفكير)). لقد غدا المرض عنده ((المعلم الأول للشك و الريبة العظيمة)).

تتطلب و تتضمن عملية التغلب على المرض و الشفاء منه، و هنا الكثير من الأمور التي ينبغي الوقوف في وجهها، عند نيتشه معاً جعل كلّ أشكاله و أعراضه مادة لا غنى عنها في إقامة المعرفة، بالإضافة إلى التغلب على كافة نزعات التفكير العدمي الذي ظهرت في أثناء مرضه – امتلاك المرء مقدما صحة قوية حقيقية – هذا النوع من الصحة ((يتخلى مؤقتا عن الجسد و النفس على حدّ سواء لمصلحة المرض))؛ ((لكنه مع ذلك لا يستطيع أن يفعل و يؤثر و يقيس قوته دون المرض بذاته و يستخدمه كوسيلة و صنارة صيد للمعرفة)). يقول نيتشه: ((يحتاج الشخص، العطشان و التواق إلى تَجْرِبة النطاق الكامل للقيم المهيمنة السائدة و الأشياء المرغوب فيها، إلى أن يكون أولا معافى و ذا صحة قوية و عظيمة: نوع من الصحة لا يمتلكها الشخص لمرة واحدة فقط و ينتهي، بل يكتسبها بشكل مكرر و مستمر، سوف يكتسبها و علية أن يكتسبها، لأنه يتخلى عنها المرة تلو الأخرى و عليه أن يتخلى عنها لذا عليه أن يكتسبها)). عادة ما يربط المرء، في صيغ الكلام المستخدم، مفردات الصحة و يدمجها مع المرض؛ هذه الصحة لا يمكن أن تكون مريضة أو مصابة بالمرض بالمرة عدا حين تكون وسيلة لتحقيق غايتها و أهدافها. إنّ مقياس صحة الروح هذه هو

((كم من المرض بمقدورها أن تتحمل و كيف تتغلب عليه — و تصبح معافاة)). و بما أنّنا لا يمكن أن نصل إلى الصحة إلاّ بواسطة المرض و معانته، فإنّ نيتشه مع الرأي الذي يقول ((بدقة، فقط الكُتّاب الذين يعانون المرض – و لسوء الحظ، كل العظام من بينهم – يكونون واثقين مما يفعلون و يكتبون

بنبرة تنم على الثقة و الصحة و القوة تتلمسها بوضوح في كتاباتهم، لأنّهم صناع حقيقيون مهرة و بارعون من الرأس حتى أخمص القدمين متمكنون من أدَواتهم يعرفون جيداً في فلسفة الصحة و الشفاء أكثر من أولئك الكُتّاب المعافين الذين يتمتعون بصحة ممتازة)).

هناك مبادئ للتأويل تبين أن نيتشه كان يعي تماماً و يفهم جيداً مرضه كعلامة و عرض وأمارة للصحة القوية العظيمة التي بوسعها أن تقهر و تهزم أيّ شيء.

هذا الحال يكشف النقاب عن نفسه بوضوح بواسطة إرادة نيتشه المتواصلة و طلبه للصحة. بهذا الصدد، يقول نيتشه: ((إذا كان هناك أيّ شيء يمكن أن يقال حين يكون المرء مريضاً، ضعيفاً، فإنّه الأتي: الغريزة الطبيعية من قبيل السليقة عند الإنسان في أن يكون معافى و سليماً – أعني الغريزة المتشددة عند الإنسان تبدأ في أثناء المرض تلين و تفقد حضورها)). و لكن بعد أن بدأ المرض يتمكن منه و يترك أثاره عليه، كان نيتشه واعيا ((لعظمة إرادته العنيدة و المتماسكة التي لا تلين في طلب الصحة)): (إلى الأمام) أخاطب نفسي، أقول لها، (غداً سوف يكون حالك أفضل؛ اليوم يكفي أن تتصرفي بصحة جيدة).... كانت إرادة الصحة و العافية، تمثل علاجي و دوائي الوحيد)).

زيادةً على ذلك، كان نيتشه، مع ذلك، يعي، بلا أدنى شك، طبيعته كوجود معافي يتمتع بصحة جيدة. بالتأكيد، كان دائماً يندب حظه بسبب قسوة المرض الذي ألم به، و لاسيَّما في الرسائل التي كان يبعثها إلى أصدقائه و معارفه؛ و بهذا الصدد يقول: ((عدم الارتياح، الضعف، الاضطراب، العجز، الإحباط و الوهن، هذه هي النتائج الناشئة عن سوء حالتي الصحية)) (من رسالة إلى أوفربيك، كانون الأول، 1885)؛ بل حتى كان يطلق عن سنين شبابه المبكرة ((سنوات الانحطاط، الانحلال و التدهور)) (من رسالة إلى جاست، 7 نيسان، 1888). و لكن بالرغم من مرضه، كان نيتشه متمسكاً بالقناعة الأساسيّة المكينة الآتية: ((مرة أخرى امتلك زمام الأمور بيدي، مرة أخرى، أجعل من نفسي معافى و بصحة جيدة))؛ في الواقع هذه القناعة مستمدة من أمنيَة أنّ يتمتع بصحة جيدة. ((لا يمكن للطبيعة المريضة بالعادة أن تكون متعافية و سليمة و تجعل من نفسها أكثر صحة؛ على العكس من ذلك، يمكن للشخص السليم و المعافي، صاحب الصحة الجيدة، أن يحول حتى المرض إلى طاقة إيجابيّة و منشط حيوي للحياة)). إنّ طريقتي في أن أكون مريضاً أو

معافياً اتمتع بصحة جيدة هي جزء مهم من شخصيتي. يقول نيتشه: ((حين افتقر إلى أيّ أثَر أو عارض مرضي واضح في أوقات المعاناة من مرض يُنذرُ بالخطر و مميت لا أشعر أني مريض)).

الخاتمة

كل واحد من الأجزاء الثلاث، التي قدمنا بواسطته حياة نيتشه، و سيكولوجية نيتشه المرهفة التي تنفذ إلى الأعماق، يكشف النقاب عن حجم الخراب و الدَّمار الذي عانه هذا الإنسان و طاله في كل مفاصل حياته. لم يصل تطوره الروحي لذروته و لم تؤتِ جهوده الفلسفيّة و عمله ثمارها بسبب المرض. لقد ظلت أعماله الفلسفيّة غير مكتملة، و بقيت مجرد كومة من الأنقاض. كانت حياة نيتشه و ((لأسباب كثيرة يطول شرحها عبارة عن إشكاليّة وجودية دائمة)). لقد قادته صداقته – بالرغم من كثرتها و تنوعها – إلى الشعور بالوحدة المقيت الذي ربما لا يمكن أن يقارن بأيّ شكل من الأشكال. لم يقتصر مرض نيتشه على إنهاء حياته و تحويلها إلى خراب، بل قد تطور أيضاً تدريجيا، و أصبح جزء لا فكاك منه إلى درجة أننا من النادر أن نتصور نيتشه يعيش و يعمل بمعزل أو منفصل عن المرض.

و بشكل يتجاوز التوقعات والمتطلبات، بوسع المرء أن يعثر على شكل الاستثناء الرائع، في صيغة مفرطة و متطرفة، في كل مكان من حياة نيتشه: النداءات المبكرة لتبوئه مركز أستاذ جامعي في الفيلولوجّيا بسن مبكر، الصعوبات المثيرة و الكبيرة التي كانت تواجهه في طريق نشر كتبه، و لاسيَّما مع الناشرين، التي وصلت إلى حدّ البشاعة، وجوده الذي كان عبارة عن هروب نحو الاتجاه الخاطئ. في عام (1888)، في أثناء شعوره بالوحدة تماماً، انبثقت قابلية نيتشه بامتياز في ممارسة الجدل و السجال الفلسفي، لدرجة أنّها غدت سلبية لا حدود لها، لا تقدم أيّ جواب إلى اللا -الراديكالية، بل كانت تقدم جواب النعم بلا حدود. هذا الطريق، الذي سلكه نيتشه، ربما لا يفضي أو يودي إلى أيّ شيء.و لكن سابقاً، و خلال العقد الأخير، حتى التَجارِب الصوفية، عند نيتشه، بلغت حدّ اليقين الكامل للوجود: في قصيدته الديونسيوسية الحماسية، ((غروب الشمس))، يقول نيتشه، أرى نهار حياتي ينطفي و يمضي بعيداً على حين غرة: ((ينبغي أن لا تشعر بالعطش أطول بكثير من ذلك

يا قلبي الظمأن المحترق!))

من الأفواه المجهولة أشعر بالنسيم،

– و تنحدر البرودة العذبة العظيمة...

ثم يخاطب نفسه:

كن قوياً و شجاًعاً يا قلبي

و لا تسأل أبدا: لماذا؟

شوقه: ((آه، أيّها الفرح الذهبي، اقبل! أيّها الموت الأكثر سرية، صاحب المذاق الحلو!)) كي تكون كاملا: ((أجعل الأمواج تدور و تلعب. تغرق الأشياء الثقلية جداً في بحر النسيان الأزرق))؛ يعثر على طريقه على مشارف الوجود المفتوح بشكل لامتناهي: ((أيتها السمكة الفضية الوضاءة

يوشك قاربي أن يمضي بعيداً)).

الكتاب الثاني

الأفكار الأساسية لنيتشه

من النادر أن يكون نيتشه قد ترك موضوعاً مهماً و حيوياً لم يتعاط معه أو يعلق عليه. فمن مجموع كتاباته الكثيرة و المتنوعة بوسع المرء أن يقدم تصانيف و عناوين مختلفة تتعامل، فعلاً و بطريقة عملية، مع الكثير من الموضوعات، الكبيرة منها و الصغيرة – على سبيل المثال، تلك التي تتعاطى و تتعامل مع موضوع الدولة – بوصفها صناعة القانون و الهيمنات الاجتماعيَّة – و الدين – الذي أخفق في تفسير الظواهر الطبيعية – الأخلاق – التي تخلق إنسانا ضعيفا و عاجزا ذليلا يركن للهدوء – و العلم بقضِّه و قضيضه و على الرغم من برود أعصابه و تجرده عن الهوى ما زال خاضعاً لسحر كلام الدين و الميتافيزيقا – الفن، كمال الكينونة، الإنهاء، السير نحو الامتلاء؛ الفن بوصفه مباركة الحياة و إثباتها – و الموسيقى؛ أو الموضوعات التي تتعاطى و تتعامل مع طبيعة، الحياة، المرض، عمله، عَلاقة الرجل بالمرأة – ليس هناك من كائن يفوقها تفنناً عندما تريد أن تسيطر و تقهر و تستبد – و الحب، الزواج، العائلة – التي تصيبنا بالضجر و الاشمئزاز، المرء يضجر كثيراً في العائلة – الناس، العصور و الحقب الزمانية المختلفة، التاريخ، الشخصيات التاريخية، التعليقات و التفاسير الفلسفيّة، و كذلك مع أخر مشكلات الفلسفة المعاصرة. يتمتع كل موضوع من هذه الموضوعات أعلاه، إذا أخذناه على حدة، بالثقل الفلسفي بدرجة صغيرة أو كبيرة؛ لكن الفهم الصحيح لتعابيره المحددة و الخاصَّة لهذا الموضوع تعتمد بشكل رئيس أولا على القبض و استيعاب الجوانب و الصفات المِميزة لحركات تفكير نيتشه و معرفته للموضوعات التي تحكم تفكيره.

بوسع المرء أنّ يفهم و يستوعب الجوانب و السمات المِميزة لتفكير نيتشه بواسطة المسارين الآتيين: اقتفاء طريق النفي و السلب غير المحدود و التمسك أيضاً بالإثبات و الإيجاب. و لكن حتى في جانب النفي عند نيتشه، هناك دائماً نعثر على أصول إيجابيّة ثابتة و حاضرة للطبيعة الشاملة تعبر عن نفسها بشكل غير مباشر بواسطة النفي و السلب. من جهة أخرى، على العكس من ذلك، ينطوي النقل المباشر للحقيقة عند نيتشه و إيصالها، دائماً و بشكل ضمني، على عنصر التناقض و الاختلاف الذي يدمج مرة أخرى المواقع المختلفة، التي تبدو أكثر إطلاقاً كلها في الحركة الشاملة – ما عدا حين يسقط نيتشه، خلافا لطبيعته، في فخ الولع الدوغمائي، الرغبة و التثبيت العقائدي (الشيء الذي ينتج قطيعة، صدعاً و خرقاً في تفكيره، كان لا يمكن، في الواقع لحسن الحظ، أنّ يبلغ أو يصل إلى مدياته القصوى).

في المحصلة النهائية، تنبثق مشكلة نيتشه الفلسفيّة، كما يراها بنفسه، من جانبين هما: النفي [السلبيّ] و الإثبات [الإيجابيّ]. ليس من المعقول أن نفترض، أنّ نيتشه، و بعد مروره بمرحلة نقدية حاسمة، هيمنت على تفكيره، قد توصل نتيجة لذلك إلى نوع من الإيمان الجديد. فلقد كان خطر الشعور بالعدم و الوعي أيضاً بالوجود كلاهما يرافقنه منذ زمن مبكر أيّنما حل و حاضران معاً بقوة بشكل متزامن في تفكيرهِ. و في الأعوام الأخيرة من حياته، كان يعتبر نفسه، إلى جانب بوركهارت وتاين من بين أكثر العدمين الراديكاليين تطرفا في هذا العالم، ((مع أني أنا نفسي لم يساورني شيء من الدهشة و الاضطراب و اليأس إطلاقاً أو يكون عندي حتى محل شك في العثور على الطريق الذي أبحث عنه – العثور على النافذة التي أطل بواسطتها على العالم و أصل إلى (الشيء الذي أريده))) (من رسالة إلى روده، 23 أيار 1887).

حتى وقت انهياره، كانت الأقوال السلبية و الإيجابية لديه يقف الواحد منها مقابل الآخر في تناقض و اختلاف حادّ لا يثير قلقه أو اهتمامه في آن واحد. فمن جانب، يقول نيتشه: ((لا أود أنّ أنحت أو أصنع أيّ أوثان أو أصنام جديدة ... أريد أن أقوض و أحطم كل الأوثان و الأصنام (التقويض: كلمتي المفضلة و المخصصة للمثل العليا) و هذا هو جزء لا يتجزأ من مهنتي و تجارتي الجديدة الرابحة)). من جانب أخر، يقول: ((بعد سنين طويلة، مازالت تساورني الرغبة و الحقيقة في أنّ أفعل تلك مرة أخرى، حتى لو اضطرني الحال أن أقوم بذلك علانية – أنّ أقوم بما كنت نفسي أقوم به دائماً المرة تلو المرة؛ أعنّي، أن أرسم صور المثل الجديدة على الحائط، و لا ابتغي فقط القاء الضوء هنا على فعل هذه المثل فحسب، بل و على دلالتها و كشف النقاب على ما خُبيَّ ورائها و تحتها و فيها)).

من وجهة نظره، يعد هذا التناقض و الاختلاف المنهج الوحيد الضروري تماما الذي ينبغي أنّ نتبعه بعد إعلان ((موت الله)). يطلق نيتشه على المُثل اسم ((الأوثان))، حين تمثل هذا المُثل الماضي؛ في حين يطلق عليها اسم الحقيقة حين تمثل المستقبل. بهذا الصدد يقول نيتشه: ((إلى أولئك الذين لم يعد بوسعهم أن يجدوا العظمة في الله، بوصفه شبكة من الأوامر و النواهي و الغائيات التي تتخفى وراء عَلاقة السببية، سوف لن يجدوها أو يعثروا عليها في أيّ مكان إطلاقاً – فأما عليهم أنّ ينكروها أو يقوموا بخلقها)). ينزع نيتشه و يعمل على خلق هذه العظمة: ((أنت تسمي هذا التدمير-

الذاتي للإله؛ لكنه في الواقع يغيّر فقط غطائه و جلبابه الخارجي... سوف تراه مرة أخرى قريباً، بمظهر جديد، يقف ما وراء أو خلف ألواح الخير والشر)).

إنّ ما يظهر الطابع الثنائي المتناقض في وعي نيتشه و سلوكه الفعلي – على سبيل المثال، السلب و الإيجاب، الإنكار و التأكيد، الكون و الفساد، الهدم و البناء – يحدث و يسبب مشكلة زائفة حين نتوقع جواباً إيجابياً في المستوى الذي يكون فيه الحكم السالب و النافي صحيحاً:إنّ الفهم العقلي يُعّبر عنه بطريقة يكون بها مفهوماً لكل واحد. في هذه النقطة، كلّ شيء يعتمد و يعول على المعرفة و البصيرة الفلسفيّة الأصلية العميقة:

إنّ الكليّ العقلاني المُدرك هو، بحد ذاته، ذي طبيعة سلبية و محفوفة بالخطر – أعني، أنّ الفهم العقلي (*Verstand*) بذاتهِ هو إجَراءِ تحليلي مُفصّل للغاية ذي طبيعة كُلّية. فقط الواقع التاريخي الزماني (*Geschichtlichkeit*) للوجود، الذي لا يستغنى عنه و لا بديل له، ليس ذا طبيعة كُلّية – بمعنى إنّهُ يقف على أرضيته الصُّلْبة مرتبطا بمصادره الذي تعود له حصراً، و بذلك يمتلك طبيعة إيجابية. هذا الواقع أو الوجود، مع ذلك، لا يبقى فقط متخفيا و لكن أيضاً غير جوهري و مهم حتى يتم إلقاء الضوء عليه بواسطة الفهم. في الواقع، لا يمتلك نيتشه، بل يتبع بشكل غير واعي، هذه المعرفة و البصيرة العميقة، التي قادت شيلنغ – صاحب هذه الفكرة – نفسه إلى أنّ يميز فلسفته السلبيّة من فلسفته الإيجابيّة. إنّ الإنكار و السلب، بوصفه نمطاً من أنماط ظهور الفهم العقلي، هو بحد ذاته تأكيد يصب في خدمة الواقع التاريخي. يدخل هذا الأخير، مرة أخرى، حين يعبر عن نفسه، في ميدان العقل ثم ينحل و يتفكك حين يتم التعبير عن هذه الحركة في الكلمات. و بينما، يوجد العقلي دائماً بوصفه أمراً مشروطاً بواسطة شيء أخر، و تعتمد شرعيته و سريان مفعوله على هذه العَلاقة والإِشتراط؛ نجد أنّ التاريخي هو عبارة عن واقع مكتفي-بذاته يندمج و ينصهر و يدخل في صلة مع الصيرورة.

دون أفق الفلسفة السلبية و مجالها من غير الممكن أن توجد الفلسفة الإيجابية. فقط بواسطة تنقية و تطهير العقلي، و التعرف على بؤسه و محنته، بوسع الإنسان أنّ يصبح واعيا حقاً بأصالته التاريخية: الحقيقة الجديرة بالثقة. يتمفصل وعي الإنسان، بأصالته التاريخية، فقط بواسطة العقلي، و الذي بمقتضاه و استناداً له يصبح بمقدوره، على الأقّل و لو بشكل غير مباشر، أنّ يتمسك بجذوره التاريخية. بناءً على ذلك، يوظف الإيجابّي، كأساس للأصالة التاريخية للوجود، كل أنماط العقلانية

و يتحرك في كل اتجاهاتها و يسلم نفسه تماما لها، لكنه في نفس الوقت يوحد هذه الاتجاهات و يقودها على أساس مصدرهُ و سياقهُ التاريخي. و بينما لا يستطيع هذا الأصل التاريخي أن يعرف نفسه، فإنّهُ، مع ذلك، يضيء نفسه بطريقة متعذر قياسها ضمن كُلّية و عمومية ما معروف و نتاجاته.

حينما يظهر الإيجابّي بصورة أقوال و تعبيرات مباشرة محددة و راسخة في الكلام و الكتابة، يتحول إلى شيء عقلي-كلي، و يدخل إلى مجال و منطقة التفكك و الانحلال اللامحدود. لأن الإيجابي يقتضي بطريقة لامفر منها أنّ يتخذ الشكل اللفظي و يصبح معروفا حينما يُمّتص و يُسّتوعب ضمن محرق العقلانية الكلي، مع أنّ هذا الأمر في سياق العقلانية يعد خطأ، لأنّها لا تفهم طبيعته. في صورة المذهب الكلي المدرك و صيغته، يتحطم الإيجابي من جذوره، بما أنّ الفهم يجعل منه شيئاً كلياً و مجرداً خالياً من الزمان و التاريخ و الاختلاف و التنوع. يحدث هذا ويأخذ مكانه، في أكثر الصيغ راديكاليّة، حينما يُسّتخدم مذهب التميز بين السلبي و الإيجابي (أو بين الفلسفة العقلية و الفلسفة التاريخية) لاستبعاد و إقصاء الفهم، حيث تم بعد ذلك رفض كل الاختبارات العقلية في أقوال و تعبيرات الطبيعة العقلانية الواقعية.

هذه التأملات أعلاه تشير إلى الموضوعات التي تثير قلق و اهتمام نيتشه بشكلٍ عميقٍ فبقدر ما يحاول نيتشه أن يعبر عن الإيجابيّ بشكلٍ مباشرٍ، يصبح المضمون أمراً مثيراً للجدل و السجال و مفتوحاً على السّؤال. و بقدر ما يبحث و يجرب فإنّهُ يرسي دعائم الطلب الاستثنائيّ للوجود الممكن في العالم. يتفلسف نيتشه استناداً إلى موقف فلسفي جديد أوجدته القرون التي سبقته:

تكون الفلسفة الساذجة، القادرة على تقديم صورة الله، العالم و الإنسان فيه بطريقة مرضية، عمياء ليس بمستطاعها أن تميز الفرق بين العقلانية الكُلّية و التاريخية المرتبطة بالصيرورة: الواقع التاريخي للوجود. يمكن لها أن توصل أو تنقل قيمها بواسطة الصور و المفاهيم بصراحة مباشرة هادئة و صافية دون أنّ تسقط بالضرورة في فخ الخطأ الوجودي. فيما بعد، أيّ بعد انهيار السذاجة، عاملها المهم، مازالت هذه الفلسفة قادرة أنّ تزودنا بالرضا الجمالي – الذي يعتقد كانط أنه قد شرف الفن حين نوه في معرض كلامه عن مواصفات الجمال – المستعيد للأحداث و المتطلع إلى الوراء، بسبب بساطة و كمال عملها، كما أنّها مازلت تمثل مصدر جاذبية للفرد المتمسك بها. و لكن و بسبب انهيار المنظومة الكُلّية و السلطة غير القابلة للسّؤال عند الله، النفس و العالم بدأنا أخيراً نتلمس أثار

التميز و الفرق بين الكُلّية العقلانية و الأصالة التاريخية الوجودية و نشعر به و نتعرف إليها، و بدأت الأسئلة الشكية المعوقة تطرح نفسها و تظهر واضحة للعيان ضمن ميدان العقلاني. بالنسبة لنيتشه، هذه الأسئلة كانت على النحو الآتي: ما هو الإنسان؟ (الفصل الأول)، ما هي الحقيقة؟ (الفصل الثاني)، ما الذي يعنيه التاريخ و العصر الحاضر؟ (الفصل الثالث)، البحث عن إرادة المستقبل و أصالتها التاريخية و موثوقيتها (الفصل الرابع)، تأويل العالم في هذه اللحظة الجارية (الفصل الخامس)، الوحدة الصوفية للوجود (الفصل السادس).

بالنسبة لنيتشه، تحتوي هذه الأسئلة الشكية المعوقة على البواعث و النوابض الفكرية التي تقود إلى نتائج أكثر إيجابية: عشق الجانب النبيل في الإنسان، كموقف يعبر عن شجب و إدانة لأن النبل كنبل هو يأس الإدراك و التحقق، الجدية العنيدة للحقيقة التي تنادي إلى وضع الحقيقة نفسها موضوع السّؤال؛ و معرفة و إدراك الشخصيات التاريخية المهمة التي تشعر بالحزن من جَراءِ اكتشافها أنّهُ ليس للتاريخ من معنى أو هدف.

من بين الأمور التي يُنّظر إليها بإيجابيّة، نجد أنّ ((إرادة المستقبل))، التي يُعّبر عنها نيتشه على شكل رسم تخطيطي ل ((السياسة العظيمة))، تتجذر دائماً لديه بعمق في مفهوم ((الخلق)) (*Schaffen*) غير المحدد. كذلك نعثر على مذهب ((إرادة القوة)) كباعث و دافع محفز لأولئك الذين يقودون الحركة و الهجوم المعاكس ضِدّ النزعة العدمية، بوصفها كناية عن هذا الكلل الذي يصيب الإنسان، مع أنّ هذا المذهب يقوض نفسه بنفسه و يقضي عليها بواسطة حركته الدائرية. كما أننّا نعثر في الحالات الصوفية على تَجْرِبة الوجود، حيث يتم التعبير عنها في مذهب ((العود الابديّ)) – العالم الذي تتكرر فيه الحوادث مثلما تتكرر فيه فصول السنة بعد أن تتم دورتها، العالم الذي يمر بدورات لا متناهية كل منها مماثلة في كل صغيرة و كبيرة – الممتِلِئ بالتناقضات.

لا يفهم الطبيعة الحقيقة لإسهامات نيتشه الفكرية إلاّ أولئك الذين يستجيبون لها بنفس الطريقة التي يفكر بها. لهذا السبب، يبدو تفكير نيتشه في بعض الأحيان أو المناسبات فارغاً، و في مناسبات أخرى ذات مضمون عميق يتحرك على مستويات مختلفة. في الواقع يكون تفكير نيتشه فارغاً و ليس له مضمون فقط لأولئك الذين يبحثون عن شيء ما صحيح و صائب ثابت لا يتغيّر في كل الأوقات و الأزمنة؛ لكن نفس التفكير يمثل إنجاز لا يضاهى لأولئك الذين يجدون أنفسهم يشاركون في حركة تفكيره و مساراته التي لا تتوقف عن التغير و التحول. حينما تتأثر أفكار أحد ما و

مشاعره بالبواعث الأصلية لتفكير نيتشه فإنّ تطورات الأفكار السلبية في خطوطها العامة تنجز و توصل نتائجها بفعالية أكثر من الأقوال الإيجابية، التي تبدو في عقلانيتها الزائفة كالقشور الفارغة. من جانب آخر، ربما تجعل الأقوال الإيجابية المرء متحمساً يفقد السيطرة على نفسه و يفقد الإحساس بالتناسب عندما نقترب منها رمزيا و نعدّها مجرد علامات. أخيراً، يمكن للأقوال السلبية أن تتحول إلى شيء مضجر و ممل حينما تكون خالية من الصور، التفكير الإبداعي أو الرمز و لا تبق معها.

بالضِدّ و على عكس من فلاسفة الماضي العظام، يبدو نيتشه، و على نحو مميز، أكثر صدقا مع نفسه و لاسيَّما في أقواله السلبيّة أكثر من أقواله الإيجابيّة. مع أنّ الهدف النهائي عند نيتشه – توصل إلى ما لا تستطع – الذي ينبثق من القُوَى الحقيقية الأصلية الباعثة و المحركة من تفكيره، غير واضح إلاّ أنه ليس هناك قارئ جاد لا يعي أو تفوته طبيعة هذه القوة: لقد حطم نيتشه المنظورات المقيدة القديمة و قدم بدلاً عنها فضاءً جديداً مفتوحاً – لقد علمنا نيتشه كيف بوسعنا أنّ نثير الأسئلة العميقة الحاسمة دون أيّ خَشْيَة، و كان النقد الذي تتوفر عليه فلسفته، على العكس من نقد كانط، لا يضع حدود و قيوداً على بحثنا؛ فهو يقدم لنا وفرة من الإمكانات الموعودة و يوقظ فينا قُوَى تنمي و تحيي البواعث الداخلية لنا.

1
الإنسان

المقدّمة: استياء و سخط الإنسان (242) وجود الإنسان (247)

ماذا يعني وجود الإنسان في هذا العالم — الإنسان موجود قابل للتغير بالأساسّ (السُّلوك الإنعكاسي، الرغبات و الدوافع الإنسانية و تحولاتها) **الإنسان كخالق لنفسه (الأخلاق) (268)** نقد نيتشه وهجومه على الأخلاق — الدائرة المزدوجة — مطالب نيتشه (الدفاع عن الفرد و خصوصيته بالضِدّ من الكلّ و العام، براءة الصيرورة، الإبداع-الخلق، الإنسان كخالق و مبدع لنفسه) الإبداع كحرية دون الترسندالي/ التعالي. الحضورية و الذاتية تقلب ذاتها.

مفهوم الإنسان عند نيتشه كقوة نشيطة ودافعة (307) الإنسان السامي — معارضة عبادة - البطل — السوبرمان.

المقدّمة: استياء و سخط الإنسان

حين تصبح الحقائق المسلم بها و المفروغ منها المقبُولة عمومًا و على نطاق واسع في وضع حرج لا يطاق و لا يمكن الدفاع عنها، يصبح نيتشه قلقاً جداً و بشكل كبير على الإنسان و يبدي اهتماماً منقطع النظير فيه. من بداية الطريق إلى نهايته، كان باعث نيتشه، و محركه الفكري، هو عدم رضائه و استيائه من وضع الإنسان الحالي – و كان يتوق للعثور على الطريقة التي ينجح فيها في تحقيق إمكاناته الحقيقية. و بهذا تعدّ السمات و الخصائص الأساسيّة لتفكير نيتشه هي حُبّه، الذي يعبر عن نفسه، حينما يشعر بخيبة الأمل، على هيئة إنكار مخيف للوجود الإنساني، يعاود الظهور في هيئة تأكيد عاطفي للطبيعة الأساسية الجوهرية للإنسان.

لا يتوقف نيتشه عن إبداء مشاعر الآسف الشديد و غير المحدود على وضع الناس الحالي: ((ما الذي يثير نفورنا من الناس اليوم؟ كيف لمثل هذه الحشرة الطفيلية أو القملة – الإنسان – أن تسود و تتضاعف...))، ((يقف الناس هناك غير واعين أو عارفين ببؤسهم. فكلّما تجولت بينهم و وسطهم أشعر بنوع من الاشمئزاز يفترس قلبي)). لا يوجد واحد فيهم إنسان على نحو كامل: ((دائماً الشيء نفسه: شظايا، بقايا، أطراف، وحوش مقززة – و لكن من المؤكد ليس رجالاً!)). ((لقد حطموا كل شيء بكلامهم و حديثهم التافه المج، و لم يكتفوا بذلك بل قاموا بخداع و تضليل كلّ شيء. أنا أرفض و أمقت حتى الهواء الذي يتنفسونه)). لقد غدت المشاعر المرضية الشديدة للاشمئزاز نحو الإنسان تكتسب، عند نيتشه، تعبيرات رمزية موضوعة في جمل مخيفة و مروعة: ((بطريقة لا يساورها الشك، ليس هنا أكثر قبحاً، في كل الأماكن التي يرتادها المسافر حول العالم و يروم اكتشافها، من وجه الإنسان)). لكن، حب الإنسان، مع ذلك، يبقى عند نيتشه الأساس الحقيقي الوطيد للشعور بالآسف نحوه، و لاسيَّما حين يعبر عن نفسه في التَّذْكِرَة الآتية: ((ربما كان شامفورد معتاداً أنّ يقول: ذلك الذي لم يعرف شعور الكراهيَة و البغض الشديد في الأربعين من عمرِهِ سوف لم يحب الإنسانية قط)).

حتى شخصية القس، الذي كان يعيش وراء العالم، وراء الزمان و كان وراء الكلمات أيضاً، في نصّ – ((هكذا تكلّم زرادشت)) – كان في الماضي يحب الإنسان لكن غدا لاحقاً يحب الله – الوجه الأكثر ألقا لليأس و الوجه الأكثر ألقا للأمل – بدلاً عنه. بهذا الصدد يقول: ((لا أحب الإنسان، و هو لي أيضاً كائن بعيد من الكمال. حب الإنسان يعني حقاً الموت لي – الحال الذي يُعجل في

نهايتي؛ إنّه النوم بعد التعب و إنزال الثقل عن الكاهل بعد طول تحمله. إنه شيء لذيذ و بديع – ليس النوم من الناحية النفسية سوى دليل على حاجة ماسة إلى الراحة... و عملياً فالموت هنا هو المغوي تحت أغطية أخيه النوم)). بالضِدّ من القديس، يتمنى نيتشه، الذي يدفعه هدفه إلى ما وراء اليأس و الأمل، أن يبقى في هذا العالم، العالم الذي يتبع مجرى ضروري ليس محكوما بقوانين و كلّ قوة فيه تحقق نتائجها النهائية في كل لحظة، كي يقدم خدماته إلى الإنسان. فهو يفهم أن حب القديس إلى الألوهيَّة هو في الواقع نتيجة إلى عدم رضائه على الإنسانية التي تعذبه كثيراً. بيد أنه يعدّ هذا أمراً مرفوضاً و كريه، لأن القديسين ((يريدون الهرب من هذا العالم و الذَّهاب إلى العالم الماورائي بدلاً من بناء شيئاً للمستقبل)). في الواقع، ((الشعور أو الاعتقاد القوي هو السبب وراء سوء الفهم الذي يقع فيه أولئك الذين يؤمنون بقوة عليا و عذبتهم الصورة القبيحة للإنسانية)). إذنْ، الشعور بالاشمئزاز و القرف من الإنسان هو في الواقع أمر يُنذِرُ بالخطر. حين أصاب الرعب نيتشه من جَراءِ الصورة المقززة التي يحملها الإنسان فإنّ هذا يرجع بالضرورة إلى ذكرى ((أيام الكآبة السوداء التي ابتلي بها، و شعور الازدراء و الاحتقار إلى الإنسان)). إنّ شعور الازدراء و الاحتقار – لا يمكن أن نربي الناس إلاّ حين نعاملهم باحتقار؛ فالاحتقار الأخلاقي إذلال كبير بسبب أذى كبير أكثر من الجريمة – هو نفسه زمن تحول و انتقال، لأن ((المستعدون العظام هم أيضاً متعدون كبار)).

بناءً على ذلك، يقاوم نيتشه هذا الشعور بالاشمئزاز و القرف لديه بقوة: ((أصبح شعور الاشمئزاز و الغثيان الذي يعتريني، و أعانيه بسبب الإنسان، و غدا أمراً عظيماً – كما أنّي أشعر بالقرف و الاشمئزاز من الغطرسة و العُنْجُهية الأخلاقية لمذهبي المثالي. أشعر أنّي قريب من أولئك الذي أشعر نحوهم بالقرف و الاشمئزاز، و أبحث عن ذاتي و نفسي في كلّ ما ازدريه... أقف بالضِدّ من كل أولئك الذين يتهمون الإنسانية بالسوء)). في هذه النقطة، يفرض نيتشه على نفسه الواجب الآتي: ((بالنسبة لي، ينبغي أنّ لا يكون هناك أيّ إنسان يثير كراهيتي أو شعوري بالاشمئزاز و القرف)). ((أليس أكثر المحتقرين و المزدرين للإنسان هو أكثرهم أحسانا له؟)) زد على ذلك، عثر بوضوح على الحقيقة الآتية: ((أنا أعشق الإنسان و أعشقه أكثر حين أعارض هذا الميل و النزوع)).

كانت رغبة نيتشه، الذي يريد أن يلقي بالفضيلة والخجل و الحقيقة عن كاهله ليخفف عن نفسه، وتوقه إلى الرجل الحقيقي، مع أنّ مشاعر الاحتقار و الاشمئزاز الذي تعتريه أحياناً بسببه، بمنزلة القوة التي تحرك تفكيره وتستولي على جل اهتمامه وتركيزه. بهذا الصدد يقول نيتشه: ((كيف حدث أو انتهى بي الحال دائماً إلى أنّ أكون جائعا إلى نموذج الإنسان الذي لا يكون صغيراً و ضئيلاً في نظر الطبيعة أو في تفكير رجل يتجول وَسْط التلول المحصنة في جنوى؟ لا أعرف حقاً كيف يمكن لي أن أعثر عليه؟)) لقد أصابت زرادشت الحَيْرَة حين اكتشف أنّ هذا الحزن و الأسى، الذي يشعر به نحو الإنسان، لا يشاركه فيه الآخرون:((أنكم تشعرون ببالغ الحزن و الأسى فقط على أنفسكم و ليس على الإنسانية... لا أحد يتحسر أو يشعر بالحزن منكم على الشيء الذي أحزن و اتحسر عليه)). دائماً تأخذ الشكوى عندكم شكل الاشمئزاز ثم بعد تلك المناشدة: ((هذا الموقف أجده تماما أمراً لا يحتمل؟... عليّ أن أشم رائحة الأحشاء الداخلية للنفس ذات الطراز القديم، عليّ أن أشم الرائحة الكريهة لغرق الموتى في خطاباتهم! في الأساسّ، كل شيء آخر يمكن التعاطي و التعامل معه... و لكن من وقت لآخر، إذا كانت هناك أيّ عناية سماوية تمنح لي، فإني ربما القي بواسطتها نظرةً خاطفة – نظرةً خاطفة – إلى شيء كامل، شيء بلغ غايته و ذروته، شيء سعيد، قوي و منتصر،... لمحة خاطفة نحو و إلى الإنسان الذي يبرر الإنسانية، لمحة خاطفة إلى حظ خلاص و كمال الإنسان الذي هدفه و غرضه الإيمان بالإنسانية بقوة و صلابة)).

بالرغم من كل المذكور آنفاً، كان موقف نيتشه النهائي يتضمن التأكيد على الإنسان كما هو و على كل إمكاناته المختلفة المفتوحة على اتجاهات متنوعة و غير متوقعة وبقوة لا تقاوم. لقد تم قهر موقف نيتشه السابق – ((بحثت بدقة و صبر بين الرجال لكني لم أعثر فيهم على مثالي)) – و التغلب عليه. في النهاية، لقد سارت الأمور مع نيتشه بطريقة مخالفة لما كان يريد و يمني النفس؛ لقد وجد أنّ الإنسان – ليس كما كان يعتقد– كائن رائع و موقر. لكن نيتشه عموما ظل يزدري ((الإنسان كما كنا نرغب نحن له أنّ يكون، إضافة إلى كلّ المثل العليا الأخلاقية الموضوعة عنه)). إنّ ((ما يبرر وجود الإنسان هو حقيقته كما هو لا كما نريده نحن له أن يكون)). لقد وجد نيتشه أنّ ((الإنسان الواقعي هو أكثر سموا من بعض الناس، أو من أولئك الذين يحلمون له بنموذج غير واقعي، أو نموذج الإنسان المثالي)). إنّ الأسئلة و الأمنيات و الرغبات التي تنتابنا بالعَلاقة بالإنسان هي مجرد ((استطرادات سخيفة و انحرافات عن الموضوع لا معنى لها)). و لكن هذا التأكيد مازال لا يعبر

عن قناعة و رضا و سلبية: ((إنّ الرجل غير المقيد تفرحه حقيقة الإنسان و طرائقه، و هو مازال مستمر بذلك!)).

قادت حقيقة – أنّ كلّ شيء نجده واقعياً، محبباً، شريفاً، جليلاً، أو حتى حقير و تافه، بوسعنا الوصول إليه فقط بواسطة صورة بشرية، و بواسطة النمط الذي بوسع المرء أنّ يجرب فيه الوجود – نيتشه إلى طرح السّؤال الأساسيّ الآتي: ما هو الإنسان؟ هذا السّؤال لا يخبرنا عن موضوع محدد بوضوح، لكنه مع ذلك يحيط بحقيقة مَنْ نكون (*das Umgreifende, das wir sind*). و لكن كي نجيب عن هذا السّؤال ينبغي أولا أنّ نحدد شيئاً واضحاً معيناً بدقة و نفهمه. هذا الشيء المحدد يمكن أنّ يكون الوجود التجريبي الملاحظ للإنسان، و الذي بواسطته يمكن أن أموضع حالاته الذاتية-النفسية و أعبر عنها بشكل واقعي ملموس. أو ربما يكون ما يعتقد فيه الإنسان أنّهُ شيء صحيح و ساري المفعول موضوعيا ك (العقل، الأخلاق، الله). أو ربما يكون مثال الإنسان النموذجي، مع أنّ المثال دائماً، في صيغة محددة، يبدو غير حقيقي و واقعي.

ربما ينبغي عليّ أنّ أبحث في الإنسان من وجهة نظر سيكولوجية أو تأويلية، مع هذا، لا ينبغي أن أكون على الحِياد في التعامل معه، و انظر إليه بوصفه شيئاً موضوعياً مُلاحظ – بمعنى انظر إليه و كأنّه شيء مجرد غريب في هذا العالم. بل العكس، أنا أمثل ما أبحث عنه أما بالقوة أو فعلاً. إذنْ، تتضمن معرفة وجود الإنسان، مكانه في العالم، و تقلباته اللامحدودة، ضمنا و صراحة، عَلاقة بإمكانيات سلوكي أنا تحديداً. لم يعد التفكير ببساطة مهمة البحث عن المعرفة، بل أصْبح مطالبة بالحرية. يرتبط السّؤال المتعلق بطبيعة الإنسان بعدد من الأسئلة الإضافية، على سبيل المثال: ما الذي يحتاجه الإنسان كي يصنع ذاته؟ ما الغرض الذي يخدمه التحول و التغير الذي يمر به؟ بناءً على ذلك، هناك موقفان عميقان مختلفان للإنسان نحو نفسه: [1] يمكن أنّ يلاحظ ذاته و يبحث ببساطة في تفاصيلها كوجود ذات طبيعية كذا و كذا تعاني التحولات و التواترات الفكرية و السياسة و الاجتماعية في هذه الحِقْبَة التاريخية طبقا إلى القوانين المكتشفة؛ [2] و يمكن أنّ يخضع ذاته إلى المعايير الصارمة و يفرض على نفسه متطلبات ينبغي أنّ يقبلها بصدق إذا أراد أنّ يتحقق من عملية إعادة خلقه و تكونه. فهو لا يستطيع أنّ يفعل شيئاً دون الآخر، لأنّ عملية فصل الاثنين يمكن أنّ تشل و تفقر مواقفه. بيد أنّ الفصل المثيودولوجي بينهما أمر لا يمكن تجنبه كوسيلة مؤقته. نحن نطلق على محاولة مراقبة و رصد وجود الإنسان أسمي ((الأنثروبولوجيا)) و

((السيكولوجيا))، بينما نطلق على المحاولة الجادة في البحث عن الطبيعة العميقة له اسم ((الفلسفة)). و بينما تبحث السيكولوجيا، و تقوم بالاكتشافات و بالتوقعات و التنبؤات، تطالب الفلسفة و تحتكم إلى، تعرض الإمكانات، و تهيء الطريق لاتخاذ القرار.

تمثل كل سيكولوجيا إنسانية ضمنيا اهتماماً في الإمكانات و مطالبة ملحة بتطور إضافي للذات؛ و كما هو الحال في كل الفلسفات، تستمر السيكولوجيا في لعب دور وسائل التعبير بالإضافة إلى الشرط الذي دونه تظل المطالبة الفلسفيّة ضعيفة و ضئيلة.

لغرض الكشف و التوضيح، من الضرورة أن نقوم، متى ما كان ذلك ممكناً، بفصل الشيء الذي يعود إلى الكل بطريقة غير منفصلة: أولا، باشر نيتشه بدراسة موضوعية لوجود الإنسان ككائن يعاني التحولات السيكولوجية المتواصلة في مسرح الحياة و العالم الكبير. ثانياً، يضع يده على حرية الإنسان – التي أُكرِهت بالقوة على الاستتار و ضيق عليها الخناق، و كُبِتت و أُعّيدت إلى الداخل، و لم تعد تملك بعد ذلك إلا أن تمارس و تنسكب داخل نفسها، و التي شكلت بداية الضمير المتعب – و يؤكد أنّهُ الطريق الذي يقوده إلى تحقيق ذاته. و أخيراً، يبتعد عن الإنسان الموجود في الواقع، حيث يرى في رمز السوبرمان الفكرة و العقيدة التي تعبر بطريقة غير محددة عن ما الذي سيكونه الإنسان في المستقبل حين يكون الفاتح لنفسه و لإمكانيته. أصبح نطاق معرفة نيتشه للإنسان، أول مرة، دليلاً في التطور المحطم بعناية لنوع التفكير الذي ينبثق بواسطة التناقضات.

وجود الإنسان

حين يضع الإنسان يده على منابعه و يتعرف إليها يكتشف إنّهُ أكثر من مجرد وجود-في-العالم (*Dasein*): فهو وجود خاضع للتغير و يعمل جاهداً على تحقيق نفسه بواسطة جهوده الذاتية. و لكن بواسطة تعقيدات و تشعبات وجوده، يستمر، بالإضافة إلى الأشياء الأخرى المحيطة به، في الحياة على مستوى الوجود.

و بقدر ما يفكر نيتشه – مع احتفاظه دائماً بالهدف الذي يمارس و يضطلع بمهمة وظيفة الفلسفة من أجله – بالوجود، فهو يحاول أولا، بواسطة استخدام المقارنات، أن يحدد الموقع الذي يمكن أن يحتله الإنسان حقاً في هذا العالم، و ثانيا، البحث عن الإنسان في تقلباته و تحولاته السيكولوجية.

ماذا يعني وجود الإنسان في هذا العالم ـــ ينظر نيتشه إلى العالم و بعد إطالة النظر و التأمل فيه يتسائل ما الذي يعنيه حضور الإنسان فيه؟

تُعبر، التَجْرِبة القديمة ذات الأهمية الصغيرة والمتلاشية للإنسان في علاقته بالكون – الذي كله يتبع أسلوب المصالحة و المعادلة بين المتناقضات – عن نفسها حين يعثر نيتشه فيها عن حقيقة الموجود العضوي، و بهذا الصدد يقول الآتي: ((ليس الإنسان سوى قطرة صغيرة من بحر الحياة ضمن هذا العالم – فهو مجرد مخلوق تافه و ضئيل عديم الأهمية مقارنة بالطابع الكلي الضخم لوحشية محيط ذلك الذي يأتي إلى الوجود ثم ينقضي و يزول)). ثم يقول: ((الحياة على هذه الأرض – مأوى المجانين لردح طويل من الزمن، حيث نعرف جيدا ما يعنيه ضياع الزمن – هي مجرد لحظة مستعجلة و جارية و هاربة، حلقة قصيرة، استثناء دون سياق))؛ ((ليس الإنسان فيها سوى نوع من الحيوانات أيامهُ معدودة)).

من أجل أنّ يقوم قسراً بنقل انطباع التناقض بين تفاهة و ضآلة الإنسان، من جهة، و وقاحته و غروره و تكبره من جهة أخرى، يعبث نيتشه، إذا صح التعبير، مع الفكرة الآتية: ((إذا كان الله هو الذي خلق العالم، فإنّهُ جعل من الإنسان القرد الذي يقوم بتسليته خلال أوقات أبديتّه الطويلة المضجرة)). بيد أنّ وعي الإنسان الذاتي الفضولي و الغريب الأطوار المحب للاطلاع يقف في الضِدّ من هذا الدور المناط إليه من قبل الله و قوانينه التي تدمرها المادة و الهيولى: ((ماذا تعني أكثر مشاعرنا غرورا بالقياس و مقارنة مع أكثر المشاعر تواضعا، بمعنى إنّ الإنسان يدرك، بواسطة مشاعر التواضع، إنّهُ موجود حصرا ضمن الطبيعة و يحيا في هذا العالم)).

في ضوء الحجم الكبير الذي لا يقاس لهذا الكون المترامي الأطراف، تقود هذه التاملات نيتشه إلى تَجْرِبة أكثر الأفكار تناقضاً و مفارقة (*Gedanken-versuch*) في خطوطها العامة: الطبيعة اللاعضوية هي الوجود الحقيقي. صيرورتها اللامحدودة خالية تماما من الخداع و الزَيف و الكلام العاري عن الصحة؛ و بذلك، تحقق التوحد مع طبيعة الكمال الملائم للإنسان – بهذا الصدد يقول نيتشه الآتي: ((إنّ استراد و افتداء الإنسان من الحياة الزائفة و عودته إلى الطبيعة يمكن أنّ يكون حقاً مناسبة تستحق الاحتفال)). بهذا، ((نكون صادقين تماما مع أنفسنا...ينبغي أنّ يُعّاد تأويل الموت، ذلك الفخ الذي يداهمنا بلاسابق إنذار، الذي نخشاه! فبواسطة فهم الموت على حقيقته ننسجم و نتوافق مع الواقعي، أيّ مع العالم غير الحي!))

في العالم الحي، المفعم بالنشاط و الحيوية، يقارن الإنسان عادة بالحيوان. في الواقع، يبدو كما لو ((أنّنا، جميعا و الطبيعة معنا، نضغط بقوة نحو الإمام باتجاه الإنسان السامي و الرفيع، نضغط باتجاه شيء يقف عالياً فوقنا)). و لكن مع نوع من الرعشة و الاهتزاز و القشعريرة ينتابنا، نعثر ((هنا على وحوش رقيقة و مهذبة، نعيش في وسطها، مستعدة للافتراس دائماً و فعلاً... شرطها المستمر يكمن في الحرب، بوصفها جميع الأشكال التي تجلى العقاب – في الماضي العقاب يُطهر أمّا في العالم المعاصر فأنّهُ يُدنس؛ العقاب دَيْن نؤديه نتخلص من ذلك الذي مادام أردنا المعاناة بسببه. إذا سلمنا بقوة العقاب نقترب من الشفاء – بواسطته عبر التاريخ عن نفسه، طريقته تتبدى في خداع الواحد للآخر و سحقه إذا أقتضى الأمر، بكائه و عويله حين يكون أو يمر في محنة و كرب و صراخه من شدة الفرح حين يكون منتصر – كل هذا دليل على استمرارية حالة البهيمية و التوحش)). و بذلك، هناك العديد من العبارات و الفقرات التي يطلق فيها نيتشه على الإنسان، و العقاب الذي يتفنن في ممارسته، بوضوح لا لبس فيه اسم الوحش و البهيمة، على سبيل المثال: ((الإنسان هو الوحش المفترس الأول)) و ((لو قدر أن (يمنع هذا الوحش) الكئيب المجنون الذي يعرف باسم الإنسان... بدرجة ما من أن يكون متوحشاً و بهيمياً في أفعالة و سلوكه، فإنّ وحشية و بهيمة أفكاره سوف تنفجر و تخرج إلى العلن بصورة مخيفة لا قبل لنا بها و لا نقُوَى على إيقافها)). في الواقع، يعدّ ((الإنسان أكثر الحيوانات قساوة و فظاظة))؛ فضلاً على ذلك، ((هو أكثر الحيوانات شجاعة))، ((و حين يفكر فإنّهُ حيوان يحكم و يقاضي الآخرين بطريقة قَلّ مثيلها)).

بيد أنّ الإنسان، في الواقع، ليس حيواناً. فهو يميز بين ذاته و الحيوانات الأخرى، فمجرد أن يفكر أنّه ممكن أن يكون كالحيوان، أو يكون لديه إمكاناته، يثير هذا الإحساس خوفه و فزعه و قرفه حتى. إنّ العنصر المميز و الحاسم عنده هو خشيته أن يكون كالحيوان – طبيعة الاختلاف بين الإنسان و الحيوان. في الحقيقة، إنّ انتصار الإنسان في صراعاته مع كل الحيوانات الأخرى مما بلغت ضراوتها منحه مكانة خاصَّة بين الكائنات. بيد أنّ الاختلاف الواضح، بين الإنسان و باقي الحيوانات، يكمن في السلسة، و ليس الحركة، المتواصلة التي يمتاز بها الإنسان بمقتضى و بسبب قدرة الوعي-الذاتي لديه التي تميزه و تجعله قادراً على فعل أشياء كثيرة لا تستطع بقية الحيوانات القيام بها. الإنسان، طبقاً إلى نيتشه، يعرف جيداً أنّهُ مختلف عن باقي الحيوانات، على سبيل المثال، بواسطة أمتلاكه الذاكرة. و لكن الإنسان يعتقد أيضاً، و بطريقة خاطئة، طبقاً إلى نيتشه، أنّهُ يتميز و يختلف عن باقي الكائنات بسبب أمتلاكه للحرية. بواسطة وعيه بوجوده، يمتلك الإنسان موقف

متناقض اتجاه الحيوان: فمن جهة، يحسد الإنسان الحيوان على ما يبدو عليه من حالة سعيدة، و من جهة أخرى، بوسعه أنّ يلاحظ لعنة الحياة البهيمة المتوحشة التي أُبّتلي بها الحيوان؛ و بهذا الصدد يقول نيتشه الآتي: ((بوسع المرء أنّ يتخيل ليس هناك كائنات أكثر سوداوية و كآبةً من الوحوش المفترسة)).

أما الاختلاف الأساسيّ الآخر بين الإنسان و الحيوان، في المقام الثاني، يمكن أن نتعرف إليه و نميزه، طبقاً إلى نيتشه، بواسطة اعتبار الإنسان مصدراً للإمكانيات اللامحدودة غير المعينة بعد: على عكس الحيوانات، التي يتصرف كل واحد منها، طبقاً إلى القوانين التي تحكم نوعه، ((يعد الإنسان حيوان لم يُثّبَت أو يكتمل شكلهُ الأخير بعد (*das noch nicht festgestellte Tier*))). بعبارة أخرى، لم يعد الإنسان، في الواقع، فقط حيوان، بل وجود مازالت طبيعته غير محددة بعد. إنّ عدم تحديد إمكانات الإنسان – الكائن الذي لا يمكن أن يعيش الحياة دون أفق يظهر بداخلهِ وجود ثابت و محدد كشرط للحياة – اللامحدودة و تعينها يمكن أنّ يحمل معه تهديد حقيقي يأذن بالفوضى العارمة، مع نتيجة يكون فيها الإنسان و كأنّه مرض يُنذِرُ بالخطر أصاب الوجود: ((إنّ السبب الذي يكمن وراء انتصار الإنسان في صراعه مع جَلّ الوحوش الكاسرة من حوله هو ذاته السبب الذي يكمن وراء تطورهُ الباثولوجي الشديد الخَطرَ)). بناءً على ذاك، هناك فجوة و البون شاسع أو صدع في الإنسان. إنّ التأكيد المجازي بأنّ الإنسان هو مرض يتكرر عند نيتشه مراراً: ((تمتلك الأرض جلداً، و قد أصيب هذا الجلد بالمرض. واحد من أخطر أمراض هذه الأرض الذي تفتك بها هو الإنسان)). لكن نيتشه حين يتحدث عن الإنسان بوصفه حيواناً غير محددة طبيعته بعد، فإنّهُ يحتفظ في ذهنه بمعنين. الأول، يعد ظهور و انبثاق المرض، الذي يطلق عليه الإنسان، بمثابة خطأ أساسي فادح؛ و لكن، في المعنى الثاني، يقول نيتشه هذا المرض بدقة هو الذي يشكل قيمة الإنسان الحقيقية.

يظهر ((مرض)) الإنسان بواسطة حقيقة أنّ التطور الإنساني بمجملهِ يقوم على الأخطاء الراديكالية. يصبح الإنسان ((إنسان)) فقط بواسطة الوهم و الحماقة: ((إنّ الوحش و البهيمة التي في داخلنا مُصر أن يكذب على الآخرون و أن يكذب الآخرين عليه، بالمناسبة المرء لا يكذب أنّ الكلمات تخونه و يحلم بصوت مرتفع.... دون كذب و زَيف الفرضيات الأخلاقية يبقى الإنسان مجرد بهيمة بكماء و صماء)). لقد تم اختزال الأخطاء التي لامفر و مهرب منها في تطوير الإنسانية إلى ((فكرة أساسية مفادها أنّ الإنسان هو الموجود الوحيد الحر أو هكذا يعتقد في عالم ليس بحر – إنّهُ

صانع المعجزات الأبدي، الحيوان الرائع، نصف الإله، معنى الخلق، و الذي لا يمكن تصور أمر عدمه، المفتاح الذي يزودنا بالحل و يفكّ أسرار الكون)). بناءً على ذلك، ((الإنسان كذاب و مفتري كبير للغاية، كائن مزيف، حيوان صاحب أغوار نفسية مظلمة)). عكس حال الحيوانات التي تتكيف غرائزها من أجل أداء مهمة خاصَّة، يعبر الإنسان عن مرض الإنسانية بواسطة حقيقة أنهُ مجرد حُزْمَة و جملة من الإمكانات غير المنجزة بعد ذات ((طبيعة غير محددة))، و لا يقبل التحديد إلاّ ما ليس له تاريخ – إنّه ((جملة من التقييمات المتناقضة، و بناءً على ذلك هو جملة من الرغبات المتناقضة)).

إنّ السبب الذي يجعل من الإنسان مريض هو ذاته الذي يشكل و ينشيء قيمته. أصْبح المرض ذاته و غدا هو الحامل للقيم. على سبيل المثال، في العَلاقة بالسديم و الفوضى الإنسانية الخاصَّة، التي يمثلها النوع الكهنوتي، و التي يرفضها نيتشه في الأساس جملة و تفصيلاً، يضيف الأخير أنّهُ بسبب هذا النوع الكهنوتي المحفوف بالخطر للجنس البشري ((غدا الإنسان كائناً مثير الاهتمام، و اكتسبت النفس الإنسانية أول مرة، بالمعنى الدقيق للكلمة، عنصري العمق والشر الخطيرين – الصيغتين الأساسيتين، اللتين يظهر خلالها، و لحدّ الآن، تفوق الإنسان و صدارته في هذا العالم على كل الكائنات الأخرى!)) فضلاً على ذلك، و قبل كلّ شيء، إنّ السبب الذي يكمن وراء مرض الإنسان هو في الواقع عظمته. السّؤال هو كيف أصبح الإنسان، أكثر من أي حيوان آخر، مريضاً، لا يشعر بالأمان، متقلباً، غير محدد المعالم، متردد غير عاقد العزم؟ ((من المؤكد إنّ الإنسان كائن مغامر، مبتكر، يعترض، يتحدى الصعاب ، يرفض حكم القدر أكثر من أيّ حيوان آخر: الإنسان بذاتهِ مجرب كبير غير مقتنع و موجود غير راضي بالمرة على نفسه، يتصارع مع الحيوانات الأخرى، الطبيعة، و الإلهة من أجل الهيمنة و القوة – الإنسان برسومه و معانيه و ظلاله هو الكائن الذي لم يُهّزم بعد و يعيش دائماً في المستقبل)).

من هنا، يقول نيتشه، في أحد المناسبات: ((لا يمثل الإنسان أيّ تقدم أبعد من الحيوان))، إنّ ما يثير اهتمام نيتشه حقاً، في العَلاقة بالإنسان – و الذي ليس إنساناً بعد – إنّ الأخير أصبح مثل الحيوان (أيّ أنّهُ يتطابق أو يعمل وفق نوع محدد ثابت من الوجود)؛ إنّ نقصان النوع الإنساني و اضمحلاله – اقتراب الإنسان من أنّ يكون شخصاً متوسطاً عادياً – قد وقع؛ فبينما يعتقد أنّهُ يرتفع و يسمو يوما بعد يوم بواسطة الحضارة، التي هي ليس أكثر من تدجين الأوابد البشرية لتجعل منها عن

طريق تربيتها حيوانات طيعة و متمدنة، هو في الواقع يتراجع و ينهار و يغرق، و((أنّ زراعة و رعاية الفضائل التي بموجبها يزدهر و يتضخم القطيع ببساطة تصنع و تطور ما يسمى بحيوان القطيع في الإنسان))، مع نتيجة ممكنة أنّ ((الإنسان)) الحيوان يمكن أنّ يعيش بطريقة تقليدية.

إنّ ما يقصده نيتشه بهذه السمات للإنسان حقاً شي يلفه الغموض. فبدلاً من أن يتحدث موضوعياً عن الوجود الذي يميز بين الإنسان و الحيوان، نجده يتحدث بإيجاز فقط، بدلاً عن ذلك، عن حدود الوجود (*Daseinsgrenze*) الذي يعود و يرجع فقط إلى الإنسان بحدّ ذاته. كلّ إشارات عدم التحديد-الوضوح، الزَّيف-اللاحقيقة و المرض، النور المزيف و ذلك الهواء العطِنَ، أيّ ظَلّ مَسيخ القاه الواقع على جدار دماغ الكائن الضيق – الوهم الذي ثلاثة أرباعنا أو أكثر سيعيشون فيه و سيموتون فيه، الذي يبدو كأنّه خسارة في الإنسان، هي في الواقع إمكانية المصدر (*Ursprung*) الحقيقي الذي يتملص و يتهرب من كل الملاحظات الموضوعية بطريقة غير مرنة. بما أنّ فلسفة نيتشه، مع ذلك، موجهه نحو هذا المصدر، فإنّها توظف بقوة المعرفة و السيكولوجيا فقط كوسائل.

الإنسان موجود قابل للتغير بالأساس.— تشير حقيقة الإنسان أنه ((حيوان غير مُثّبت طبيعته بعد)) حيث كُلَّما ازداد فهمي لها يزداد حكمي عليها اعتدالاً – فهي متغيرة باستمرار لا تتوقف عن التحول و دون حدود. يعود هذا الدافع الأول في مصدره إلى طبيعة الإنسان الذي يريد أن يرسم خطاهُ في الوجود. لكن هذا المصدر، و الإنسانية التي تنبثق منه، تصبح أولا مرئية سيكولوجييكولوجيا كوجود بواسطة الآراء الواقعية الخاصَّة، التقييمات، الأهداف، الأغراض، و في ترتيب الحوادث النفسية و التحولات المشتقة منها. هناك عدد من الإمكانات المختلفة المفتوحة على الحوادث السيكولوجية. تسمح حقيقة كون الإنسان كائناً متغيراً غير مُثّبت بعد في أن يختبئ دافع معين و يتخفى وراء باعث أو دافع آخر، و لا يقتصر الأمر على ذلك بل يمكن أن يتحول دافع أو باعث معين لديه إلى نقيضه. في هذه النقطة تحديداً، عمل نيتشه على تطوير نظامه السيكولوجي الرائع – إنّها السيكولوجية التي تنزع الأقنعة التي يجيد نيتشه استخدمها بحرفية عالية، و التي بجانب النظام السيكولوجي الذي وضعه الفيلسوف كريكغارد، تضيء طبيعة النفس البشرية و كلّ مستتبعاتها اللاحقة (حيث غالبا ما ينفصل عن السياق العقلي الواسع الذي يموضع فيه نيتشه نظامه السيكولوجي، و يعادل في أطروحاته أكثر من سلسة من الأشياء السطحية، و التكرارات المبتذلة و

التافهة، و التطبيقات البراغماتية) إنّ فحص السمات الأساسية لهذه السيكولوجيا ينبغي أنّ يربط غنى التفكير عند نيتشه مع المفاهيم الأساسية الحاسمة:

يتكون الإطار النظريّ، الذي يمكن أن يُفّهم (*Verstehen*) بواسطة النظام السيكولوجي عند نيتشه، من نقطتين: (1) العَلاقة الأساسية التي يرتبط الإنسان فيها مع نفسه حين يرى و يُقيم نفسه، و حتى يخدعها و يتركها للتعفن؛ و (2) طرائق عمل الغرائز، البواعث، الدوافع و الحوافز و تحولاتها عند الإنسان.

(1) السلوك الإنعكاسي: من المحال للإنسان أنّ يرى نفسه. يبدو أنّهُ أمراً محتوماً لا يمكن تجنبه أنّ ننظر إلى الأشياء الخارجية بدلاً من أن ننظر إلى طبائعنا الداخلية و عملياتنا النفسية و أغوارها العميقة. يعلم الإنسان حقاً ماذا يريد و ما الذي يفعله. يطلق نيتشه على هذه العملية اسم ((الوهم البدائي)). تعد وجهة نظرنا الذي نكونها عن الآخرين أفضل بقليل من تلك التي نكونها عن أنفسنا: ((المرء دائماً يقف بالعادة بعض الخطوات قريب جداً من نفسه و بعض الخطوات البعيدة جداً عن جيرانه. بمعنى، إن المرء يحكم على جارهُ بنمط عام، في حين يحكم على نفسه في ضوء السمات و الحوادث الخاصَّة و التي هي عرضية و سخيفة. تعتمد وجهة النظر، التي نتبناها عن أنفسنا فقط، و إلى حدّ طفيف، على ما نحن حقاً وما نفعل بالضبط، لأن أفعالنا في الغالب يتم اقتراحها علينا من قبل الآخرين)). ((لقد كان الشعراء و الفنانون – الذين هم بحاجة دائماً إلى سند و سلطة يستندون إليها و مسلك للاستقلال مناقضاً لغرائزهم الخاصَّة – أول من زودنا في الأطر النظريّة لهذا الغرض)).

على الرغم من النقص الذي نعانيه في معرفة- الذات، لكننا، مع ذلك، لا نتوقف عن تقييم أنفسنا باستمرار. تقف أحكامنا الأخلاقية، أولا، على ميزان يتأرجح بين كفتين أو طرفين هما الثقة و عدم الثقة بالنفس. فقط عدد ضئيل من الناس لهم فعلاً ((الثقة بأنفسهم)). البعض من هؤلاء يمتلك هذه الثقة ك ((عمى نافع))، بينما ((يُفرض على الآخرين اكتسابها)). فهم يستخدمون كل إنجازاتهم السابقة بصور أولية كحجج بالضِدّ من أولئك الارتيابين و الشكاك. إنّهم أشخاص من نوع منتقدي الذات العظام – بمعنى أنّهم دائماً يعانون الألم باستمرار من أجل تبرير و تسويغ إيمانهم بذواته و ثقتهم بأنفسهم، لأنّهم يعيشون وفقا لمعايير عالية. و لكن مثل هذه الأمور نادرة. إنّ ما موجود حقاً و عموماً و سائد في كل مكان هو في الواقع ((الريبة و عدم الثقة الداخلية للإنسان بالنفس لا العكس)).

إنّها توجد بعمق داخل ((قلوب و أروَاح كل أولئك الذين يعتمدون و يعولون في وجودهم على الآخرين، و كذلك توجد في حيوانات القطيع)). هذه الريبة و عدم الثقة بالنفس يمكن فتحها و تكسير أسوارها فقط عن طريق التأكيدات التي تأتي خارجياً: ((بواسطة مجد و بريق الأسماء التي لم تشوبها شائبة و تأييد كل الأنواع العظيمة)). على المرء أنّ لا ينخدع بالحقيقة التي تقول أنّ عدم الثقة و الريبة التي يعانيها الأغلبيَّة من الناس لا تنتج التردد و السُّلوك المتواضع، بل تنتج على الأصح بدلاً عن ذلك الوعي-الذاتي السامي الجليل: ((هذا النوع من الناس يسمم نفسه من أن أجل أنّ يتجنب الارتعاش الذي تسببه المواجهة مع ما يحيط بهم)).

ثانيا، يُنّجز التقييم – الذاتي للإنسان بواسطة قطبين رئيسين هما احترام-الذات و احتقار-الذات و الحط من قيمتها. الشخص الذي يحتقر ذاته يعاني الشعور بالعار و الخزي في داخل أعماق نفسه و وجوده؛ ينتج التسمم-الذاتي للنفس عند الإنسان حالة معتادة من العداوة و الحقد و الخصومة: أنّ المرء ((غير الراضي و المستاء من نفسه دائماً يهيّئ سبل الثأر و الانتقام من نفسه: و نحن الآخرون بالتأكيد سنكون الضحية)). إذنْ، ((هناك شيء ضروري)) يجب أنّ نقوم به لمصلحة مجتمع الإنسانية: ((هذا المرء أصبح راضياً على نفسه)). في نفس الوقت، هناك بقايا من احترام-النفس دائماً موجودة و حاضرة. ((من يحتقر نفسه مازال يحترم نفسه بوصفه محتقراً)). لكن احترام-النفس الحقيقي يظل السمة الأساسية للأرستقراطي. إنّ احترام-الذات عند الأغلبيَّة – كشيء مخالف للوعي-الذاتي للأرستقراطي الذي يتجذر بعمق في داخل وجوده – لا يشير إلى الوجود الكلي للمرء، و لكن فقط إلى إمكاناته: ((كل واحد يتمتع بوقت جيد و طيب حين يعثر على روحه السامية الرفيعة و الجليلة)). يتعامل الناس بطريقة مختلفة مع الروح السامية والجليلة: البعض منهم، بواسطة التعامل معها، يصبحون بأنفسهم ممثلين مسرحيين، ((و البعض الآخر يخشون الروح السامية الجليلة، لأنّها تفرض عليهم مهام و مطالب جسام)). و أخيراً، الإعجاب-بالنفس، تفادي احترام-النفس يعني خسارة الوجود الحقيقي للنفس الإنسانية: ((لم يعد الشخص الواهب العظيم يمتلك أيّ شي يقدمه حين يبدأ يكن آيات الإعجاب و الشكر إلى نفسه... و ما أن يبدأ ينظر إلى نفسه بهذه الصورة حتى يصبح الخادم و العابد لها – فهو لايستطع إلاّ أنّ يطيع– أعني، بعبارة أخرى، أنّ يزيف نفسه)).

إنّ عجزنا عن رؤية أنفسنا، إلى جانب نزعات التقييم الذاتي المبالغ فيها التي تنتظم كمعرفة للذات، يجعلنا نعيش في حالة خداع مستمر للذات. تتخفى حقيقتنا الواقعية و تتخبى عنا بطرق عدّة: (أ) يتحدد الإطار النظريّ، الذي نرى بواسطة أنفسنا، بواسطة اللغة. وبما أنّ الكلمات، التي تؤلف جسد اللغة، هي بالعادة أسماء للحالات الشديدة القصوى المفرطة، و بما أنّه حين تغادرنا الكلمات يغادرنا أيضاً كلّ ما يوجد لأجلنا، فإنّ مظهر النفس، الذي يُنّقل بواسطة تلك الحالات القليلة التي لها أسماء و التي تقدم للوعي، سوف يرتبط بما يختلف و يتعارض مع ما نحن حقاً و مَنْ نكون. (ب) بطريقة لا واعية، نبحث عن المبادئ التي تتفق مع أمزجتنا: ((أفكارنا و أحكامنا تُؤخّذ على إنّها أسباب لطبيعتنا)). نحن نؤل و نفسر أنفسنا فكريا. (ت) يقود النجاح دائماً إلى الزَيف: ((غالبا، ما يتم إرضاء الضمير، غريزة القسوة التي تتجه إلى تفريغ نفسها داخل الإنسان بعد أن تعجز عن تفريغها في الخارج، عن طريق تمجيد الفعل، بيد أنّ الإخفاق و الفشل يلقي بظلال الندم على أكثر الأفعال الجديرة بالتبجيل و الاحترام)). في البداية، نادر ما تكون ((الحوافز، البواعث و الغايات واضحة و بسيطة بشكلٍ كافٍ – بل في بعض الأوقات حتى الذاكرة و مقاماتها تظهر غامضة و ملبدة بواسطة النجاح المتحقق و المنجز)).(ث) ينبغي لصور الماضي أنّ تكون مقْبُولة و مناسبة و مستساغة لنا. ((يحاول المرء أنّ ينسى الكثير من ماضيه و يتعمد إقصائه و مسحه من الذاكرة... نحن نشترك بنشاط و فعالية في هذا النوع من خداع-النفس)). (ج) نحن نسمم أنفسنا بواسطة وجهات النظر الذي يشكلها الآخرون عنا: ((ما نعرفة عن أنفسنا ليس عاملاً حاسماً و قاطعاً في صناعة سعادتنا... في مرات عدّة، يتم قهرنا و سحقنا ابتلاعنا فجاءة بواسطة ما يعرفه الآخرون عنا (أو التفكير فيما يعرفونه عنا)، و نكتشف أنّ آرائهم يمكن أن تقهرنا و تتغلب علينا)).

و بذلك، ينتج من النِقَاط التي ذكرناها أعلاه، أنّ الذات، التي نعيش بشكل واعي بواسطتها، هي ليست بأيّ حال من الأحوال ذاتنا الحقيقية غير المزيفة: الغالبية العظماء من الناس يعيشون معظم حياتهم ((فقط بواسطة وهم و سراب و طيف الأنا.... بناءً على ذلك، كلنا معا نعيش و نقيم تحت غيمة الآراء اللاشخصية و الخيالات التعسفية و التقييمات الاستبداديّة و الاعتباطية. تعتمد، قيمة الآراء هذه القريبة جدا من الهيمنة على الحياة كلها، على الناس الذين يصنعوها و يطوقونها و يغلفونها: من هذه الآراء ينشأ التأثير الضخم للأحكام العامة حول (الإنسان))).

مع أنّ الإنسان أعمى اتجاه نفسه أو حينما يتعلق الأمر في معرفة نفسه ، وهو أسير حالة خداع-الذات التي يعيش فيها – و مع أنّ كل التقييمات الذاتية-النفسية التي يعيش بموجبها – إلاّ أنّهُ قادر على تشكيل و صياغة طبيعته. تعد عملية تشكيل و صياغة ذاته من أكبر المهام أو الإمكانات إذا توخينا الدِقّة التي يجربها و ينفتح عليها الإنسان: ((في الإنسان يتحد الخالق و المخلوق)). الخطوة الأولى اللازمة التي يحاول أن يقوم بها هي السيطرة على النفس حسب الطريقة الأكثر شيوعا: ((حينما يفتقر الإنسان إلى السيطرة على النفس و ضبطها في الأشياء الصغيرة فإنّ تطبيقها على الأمور المهمة يذبل و يذوي. كل يوم يفشل الإنسان في منع الأشياء التافهة من التأثير عليه فإنّهُ حتما سيقضي اليوم اللاحق بطريقة سيئة و يكون بالعادة مهددا)). دائماً يعمل التهور على قهر السيطرة على النفس، و في هذه النقطة تحديداً حاول نيتشه أنّ يطور طرائق جديدة لمقاومة ذلك. إذا أراد المرء أنّ ينجز مهمة السيطرة على النفس و يكملها عليه أولا أن يعرف ما حدث و هدف و غاية كل شيء يأخذ على عاتقه القيام به. هنا نتحدث بطريقة مجازية: ((ينبغي أنّ تأكل ليس فقط مع فمك و لكن أيضاً مع رأسك، و إلاّ سوف يحطمكَ فمك النهم هذا)). ينبغي للمرء أنّ يسعى إلى نوع من السيطرة على النفس التي تتضمن التحرر، و أنّ يتجنب خطورة عدم الوثوق في الضربات الحرة لجناحية و أنّ يعلن الحرب – التي كل الناس يردونها و هو وحده من يحصل عليها – دائماً على نفسه: ((لأن المرء ينبغي أنّ يكرس كل جهوده الفكرية تماماً إذا أراد أنّ يتعلم شيئاً واحداً غريباً عنا كلّ الغرابة)). تتحول السيطرة على النفس إلى خراب حين تصبح اعتداء على النفس. إنّها تعبير عن وحشية إرادة القوة، الوسيلة التي يفلت بواسطتها العالم من كل تشويه، مصدر الرغبة و الفعل، التي تعذب و تجلد ذاتها نتيجة الفرح العارم الذي تتحصل عليه من جَراءِ إنتاج المعاناة. على عكس ذلك و خلافا له، كان الإغريق، طبقاً للوائح المعقولة و المعتدلة، يمتازون بالحكمة: ((لقد قبلوا العنصر الإنساني، المفرطة في إنسانيته، كشيء لا يمكن تجنبه و تفاديه، و بدلاً من شجبه و إنكاره، منحوهُ تبريراً و تسويغاً ذات مرتبة سامية و رفعوا من شأنه عن طريق مزجه و تجسيده في شعائر المجتمع و العقيدة. لقد كان أمراً مألوفاً لديهم أنّ يتم إطلاق و تسريح الشر و الحوافز و الدوافع المشكوك فيها – الشر الذي لم يكن ينتاب المسيئين خلال آلاف من السنين تجاه إساءتهم أيّ انطباع سوى الانطباع الشخصي– بدلاً من محاولة إباداتها و استئصالها و التخلص منها تماما... كان الإغريق مقتنعين في قَبُول الشر، بوصفه شيطنة الطبيعة، و لكن بجرعات معتدلة لا هي بالقاتلة و لا هي بالمسممة للأشياء التي تؤثر بها)).

(2) الرغبات – الدوافع و تحولاتها: من النادر للإنسان أن يعرف الدوافع و الرغبات التي تدفعه على الفعل و تحثه دائماً. فهو لا يعرف منها إلاّ الكبيرة و الضخمة، عددها و قوتها، انحسارها وتدفقها، لعبها و لعبها المضاد – و فضلاً على كل ذلك تظل القوانين التي تحكم تغذيتها و تنشيطها و تحفزها غير معروف له. إنّ عملية تغذية و تنشيط الرغبات و الدوافع هي ليس أكثر من مسألة مصادفة و حظ لا أكثر: ترمي الحوادث بغنائمها الآن و هنا إلى هذه الرغبة و إلى تلك الرغبة. تمثل تجاربنا الطعام المبعثر أمام ناظرنا على مائدة طويلة عامرة بواسطة يد عمياء نجهل فعلها. كل رغبة أو دافع من الدوافع يرى في حوادث اليوم وسائل ممكنة لتحقيق أهدافه؛ و تؤثر بشكل هائل، كما كانت، في كل حالة يجد الإنسان نفسه فيها.

و بقدر الإمكان، تحاول الرغبات و الدوافع الإنسانية، التي تكون دائمة واقفة على شفير الحرب، أنّ تتجنب كل شيء ربما يبدي مقاومتها و يريد إيقافها. بيد أنّ مسالة رضائها و إشباعها تكون بالعادة دائماً محبطة بسبب وقائع الحال، لأن الظروف التي تحدث تجبر الإنسان في مجمل الأحوال و أغلاها أنّ يدجن (*hemmen*) أو يقمع (*unterdrücken*) رغباته و دوافعه. بيد أنّ الرغبات غير الراضية و السعيدة و المقموعة دائماً تعثر عبر طرق ملتوية على وسائل تطلق نفسها و تحررها بواسطتها.

إنّ عملية قمع و كبح الرغبات الدوافع تغير تماماً من شرط، حال و ماهية الموجودات الإنسانية. ((كل الغرائز تتحول تذهب و ترجع إلى الداخل حين يتم تجريدها من إمكانية الإشباع و التفريغ و التدفق الانطلاق الخارجي. بهذه الطريقة تتطور و تخلق ما يطلق عليها (النفس) عند الإنسان. كل العالم الداخلي للإنسان رقيق جداً، و مع إنّهُ مضغوط بين جلد مشدود يتسع و يتمدد و يصبح منتفخاً – و يكتسب العمق العرض و الطول – إلى درجة يتم منع و كبح إمكانية الإشباع و التفريغ و التدفق و الانطلاق الخارجي بواسطتها)).

بما أنّ القمع، الكبح و النهي هو المصدر الرئيس لنمو النفس و نتاج الروح، و كذلك الانحرافات و الأخطاء المزورة، لذا يعمل في أوقات معينة بالإيجابّ والوعظ – الذي جرد الغباوة من راحة الضمير – و في أوقات أخرى بصور سلبية مع رغبة في إخفاء الأشياء:

يعدّ – التخلي عن الحاجة الملحة إلى الإيمان التقليدي في الله، غريزة تأسيس الماوراء – الذي استخدم في الديانات الكبرى كوسيلة للعقاب، الديانات التي تطلب من الإنسان القيام بالخير و استئصال الشر و هي بهذا تنفي الحياة التي تحوي غرائزها على الإثبات و النفي – و الحاجة إلى حارس و صديق – بالنسبة إلى نيتشه مثال للتأثير الإيجابي في قمع و قتل و كبح الرغبات و الدوافع، و بهذا الصدد يقول نيتشه الآتي: ((هناك بُحيرة ستقاوم، في يوم ما، كل محاولة تحاول أنّ تستنفذ و تستهلك مياها أو يُبّنى عليها سَدّ كي يتحكم في قوتها و يكون مخرجا و منفذاً لها. و منذ هذا اليوم و منسوب مياه هذه البحيرة يزداد و يرتفع عاليا أكثر فأكثر بطريقة لا تتوقف... ربما يتسلق المرء عاليا من أيّ وقت مضى و تزداد بحيرة مياه حينما يتوقف أنّ يسكب و يصب قطرات نفسه في أوانِ الله (*in einen Gott ausfliesst*)))، أمّا مثال النتيجة السلبية فهو التالي: ((أنّ تفكر في الانتقام – غريزة الانتقام تدفع الناس في كل مكان للبحث عن المسؤوليات. لقد ملكت هذه الغريزة زمام الإنسانية خلال آلاف السنين حدّاً صارت تحدد الميتافيزيقا و علم النفس و العلوم الاجتماعية و الأخلاق – و كيف تقوم بتنفيذه هو في الواقع قضية موجزة تشبه هجوم الحمى القوية. إنّ التفكير في الانتقام – الفائدة الاجتماعية هي التي ضمنت للعقاب قوته و كرامته – دون أنّ تملك القوة و الشجاعة لتنفيذه يعني أنك تفسح المجال الواقعي لتسمم روحك و جسدك معاً)). فمن جانب، يمثل حجم المنع و الكبح، الذي ينبغي التغلب عليه و تجاوزه، مصدر لتطور النفس الإنسانية؛ و من جانب آخر، يمثل مصدراً لخداع النفس و تفسخها، و مرضها و تلوثها، و عفنها، بما أنّ كل هذا المنبثق من التحولات يحدث بسبب قمع و كبح الرغبات و الدوافع و منع تصريفها. في كل هذه الملاحظات السيكولوجية العميقة لنيتشه يهيمن الجانب السلبي بقوة. يكشف نيتشه النقاب في المذكور آنفاً عن شعور القوة في وجوه و أشكاله المتنوعة، بالإضافة إلى شعور الاستياء و الامتعاض عند الضعفاء – الذي مهما كان أمر الاحتقار الذي نكنه له فمن الممكن أن نكون نحن أيضاً مازلنا مصابين بعفونته – الذي يهيمن على المثل كي يوظفها كطرائق غير مباشرة للوصول إلى التفوق و السمو و نيله. لقد أكد نيتشه، على وجه الخصوص، على أنواع السيكولوجية العامة للتحول:

(أ) الحصول على شعور الرضا و الامتنان بواسطة الزَيف. بينما لا يمكن أنّ يتم إشباع شعور الجوع بواسطة المسرات الحالمة، يمكن للرغبات و الدوافع ذو الرؤى الحالمة أن تشبع و تقبل ذلك. ليس فقط أحلامنا وحدها الذي لها نزعة البحث عن ((التعويض، ضمن الحدود المتاحة، حيث الإخفاق المؤسف يريد أن يعثر على قوته))، و لكن أيضاً حياتنا اليقظة – و لو دون حرية

التأويل التي نعثر عليها في الأحلام – تريد أن تقرأ المعاني الخفية في الأشياء: ((يتوقف معنى و الدلالة المناسبة لدينا على أيّ واحد من رغباتنا و دوافعنا يكون في حالة سطوة و صعود و يهيمن على الأخريات)). كذلك من الصواب القول: إنّ كل حادثة تكون مختلفة جذريا في المعنى تبعا نوع الشخص الذي تحدث له – لماذا السير من الفكرة؟ فلو سرت من حادث معروض جيد لاستقرت الفكرة و سكنته من تلقائها. تمثل تجاربنا المتنوعة و المختلفة من شخص إلى آخر، ((بصورة كبيرة، حصيلة ما نضع فيها نحن من معنى أكثر بكثير ما تكون هي أو مما تحتوي هي بنفسها أو تحتمل في الواقع)): إنّ التَجْرِبة المُعاشة هي محض تلفيق و افتراء أبْطاله نحن. ينفتح العالم الواسع من الرموز – الأشكال الرمزية العدّة التي تتخذ معاني جديدة لا تنتهي و لا تفرغ – الذي يعتمد و يعول على نوع الأحلام السارة، أمام أنظارنا بإتساع: مهما ترمز إليه الأشياء و الأفكار داخل التَجْرِبة من معاني فإنّها في نهاية المطاف ليس أكثر من تضليل للواقع و نتاج تأويل الذات.

(ب) إطلاق و تسريح التوترات و الضغوطات في طرق غير ملائمة. حينما يفتقر الإنسان إلى المنافذ و المخارج المناسبة لتصريف رغباته، و لا يستطيع أن يحرر نفسه مما غدا في نظره شيئاً عظيماً لا يغتفر، و يكون، فضلاً على ذلك، ضعيفاً جداً و ليس بمستطاعه الحصول على ما يريد و أن يكون ما يريد– فأنّ الضغوط و التواترات السامة ستكبر في داخلهِ و تتمكن من روحه. تحاول النفس إطلاق و التخلص من الرغبات بواسطة استبدالها بواقعٍ ملموسٍ، سواء كان توبيخاً ساخطاً أو فعلاً و نشاطاً مدمراً، بهذا الصدد يقول نيتشه: ((حتى النفس ينبغي أنّ يكون لها مستنقع تصرف فيه و تفرغ قاذوراتها النتنة التي تتصاعد منها رائحة تزكم الأنوف. هذه المهمة و الغاية الأخيرة يتعهد في القيام بها أشخاص معنيون، المؤسَّسات، الطبقات و البيئات الاجتماعيّة، البلد، و العالم – و حتى الإله الجليل)). هذا التيار، المجرى، و الجدول، الذي تدفقه يأخذ شكل القذف و الافتراء الذي لا ينتهي، ربما يكون غير ضار: ((هذا الافتراء و القذف في كلام الناس في الغالب ليس المقصود منه أن يكون موجها لنا و لكنه ببساطة تعبير عن الضيق و وطأة القلق عند النفس، الغيظ، الانزعاج، دعابة سيئة، و مِزَاج عكر ينبثق من مصدر مختلف تماما)). مع ذلك، يمكن لتسريح و التخلص من الرغبات والتوترات و الضغوطات أن يكون مهمة أكثر فعالية و نشاطاً: ((الإنسان الذي يخفق في إنجاز مهمة معينة يضع اللوم في إخفاقه على الإرادة الشريرة لشخص ما بدلا من الصدفة التي تحررنا من عبودية الغرض و التي تمنحنا أحياناً مصادفات سعيدة هبات عظيمة كبسطة في الروح و الجسد.... لأن الإنسان يمكن أن ينتقم أو يثأر لنفسه من الأشخاص، لكنه

يجب ببساطة أن يبتلع المعاناة و الأذى العرضي و يقبل ذلك)). نيتشه يرى في مسيحية باولين، المثال الذي يعمل في خدمة مشروع اضطراب المشاعر، المثال الذي يجسد كيف أن التحول السيكولوجي الحاصل و الحاجة اللاحقة لتحرير و إطلاق التوترات و الضغوطات يصبح المسؤولية الأولى للإنسان: ((حتى باول يعتقد أنّ التضحيات التي يقدمها الإنسان هي ضرورية من أجل أن نتغلب على استياء و غضب الإله العميق و نكفر عن الخطايا التي ارتكبناها – يمكن السير وراء أثار خاطئة و المهم عدم الإصرار على هذا. منذ ذلك الوقت، و المسيحيين لا يكفون و لا يتوقفون عن البحث عن ضحية كيف ينفسون بواسطتها عن عدم رضائهم و استيائهم من أنفسهم. بعض الأشياء الجيدة، أو أشياء أخرى ذات قيمة مشابهة، ينبغي أنّ تموت لغرض التكفير عن خطاياهم، سواء كان الإنسان، العالم، أو التاريخ، أو المتعة، أو القناعة أو الطمَأنينة المسالمة للآخرين)).

طبقَ نيتشه أيضاً نظامه السيكولوجي لإطلاق و تحرير و تسريح التوترات و الضغوطات بواسطة الفعالية البديلة الموجهة نحو الأهداف البديلة لغرض فهم العديد من المجرمين و مقاصدهم: أما أن يكون المجرم —— المجرم على أية حال يجازف بحياته و شرفه و حريته، أنّهُ إنسان شجاع، و كما لا يجب اعتبار العقاب تكفيراً أو دينا لأنه ليست هناك عَلاقة بين العقاب و الذنب – العقاب لا يطهر لأنّ الجريمة لا تدنس؛ كما في كل الجرائم تقريبا تتجلى مزايا يملكها كل رجل حقيقي، المجرم يشكل العنصر الأقْوَى و الأعلى في صفوف مجتمعنا —— نفسه قد أخفق في فهم مقاصده و أفعاله أو مهما يكن نوع الاستيعاب و الامتصاص السيكولوجي و الإدراك الذي يتحصل عليه فإنّهُ يتم تزييفه بواسطة سوء الفهم.

و أخيراً، يعدّ النظام السيكولوجي بالنسبة لنيتشه المنهج البسيط للحديث و الكلام بصوتٍ عالي بوصفه أمراً مهماً و أساسياً جداً و أكثر الأنواع و الطرق أمنا لإطلاق و تسريح التوترات و الضغوطات. الناس تمتلك الكثير من الأسباب المقنعة كي تكون ممتنة إلى عمل الكهنة و القساوسة – الإنسان الذي أصبح حيواناً مثيراً للاهتمام، أسوأ الأعداء و أعجز الخلق – و المعلمون و المثاليون – هؤلاء الرعاة الذين هم أيضاً من فصيلة الخرفان كمثل الذي ينعق بما لا يسمع – الذين يمكن أن يستمعوا إليهم و يكونوا مستودعاً و بئراً لأسرارهم، و العناية بهم، و لايقتصر الأمر على ذلك بل يمتد ليشمل إصغائهم إلى أكثر الأشياء سوءاً و وقاحة و قذارة (لأن الشخص الذي يعبر عن نفسه هو في الواقع يحرر نفسه من أعبائها الثقيلة، و الشخص الذي يعترف بأخطائه يمهد الطريق السهل

للنسيان). هنا يظهر قسراً و إكراهاً و إلزاماً ملحاً كبيراً بين القس و الشخص الذي يعترف. لأنه نتيجة للاعتراف يشعر البعض من الناس، ذي أمزجة معينة، بالمرارة الساخطة.

(ت)التسامي/ التهذيب هو ما يطلق عليه نيتشه – الذي يضع حقه في الفلسفة موضع السّؤال– تحول في الدوافع و الرغبات الخشنة الغليظة إلى أشياء مصقولة و مهذبة. ((حين تصبح الرغبات أكثر عقلانية تكتسب اسم جديد، باعث جديد، و قيمة جديدة. و غالبا ما تكون متعارضة مع الحالة السابقة للرغبة كنوع من التناقض)). بالنسبة لنيتشه، على سبيل المثال، لا يوجد ((بالمعنى الدقيق للكلمة، شي اسمه سلوك غير أناني و لا يوجد هناك ما يسمى بالتأمل النزيه بالمرة. هناك ببساطة بعض التسامي و التهذيب يبدو فيه العنصر الأساسيّ متطاير جدا بحيث لا يكتشف إلاّ بواسطة أكثر الملاحظات تهذيبا)). لذلك، يتحدث نيتشه عن ((الناس انطلاقا من زاوية الجنس المهذب)). لأن الرغبة الجنسية – عند المتدينين يضللون و يحتقرون الغريزة الجنسية التي تجد نفسها مجبرة على إشباع نفسها بواسطة الأشباح: الرب، الإنسان، الطبيعة – عند الإنسان، و أداتها الشيطانية المرأة – التي تبدو دائما أكثر عقلا عندما تبدو أكثر استسلاما – قادرة على تحمل الكثير من ((التهذيب و الصقل من جَراءِ و بواسطة سلطة العقل و تتحول إلى أشكال أكثر تهذيبا مثل (حب الإنسانية، عبادة مريم و القديسين...يقول أفلاطون حب المعرفة و الفلسفة هو نتيجة لتهذيب رغبة الجنس و صقلها). في غضون ذلك، يظل التأثير القديم المباشر للرغبة الجنسية هو السائد في حياة الإنسان)). ((تخترق درجة و نوع وظيفة الجنس عند الإنسان و تنفذ إلى عمق روحه – فهو القادر على كل شيء لأنّه لفحة من أنفاس الإله)).فضلاً على ذلك، حينما تخلق التَجْرِبة الجمالية – التي قليلة هي الأمور التي تحدث عنها شوبنهاور بمثل الثقة التي تحدث بها عن مفعولها – ظهورها، فإنّ الجنس لايتم الإطاحة به و خلعه من عرشه و لكن فقط يجري تحويل و تغير في مساراته.

يحدث تسامي و تهذيب الرغبات و الشهوات النظام، الذي يجيد دائماً استعمال الحمية التي تحرك جميع الأهواء القوية، و لنذكر على هامش هذا السياق، فقط بواسطة القمع و القسر و الكبح، ولعل القارئ قد تمكن أن يحرز ما الذي رافق كل هذا، و تحت ستار كل هذا. خلال ((الفترات الدورية المتكررة للإكراه و الصوم – التي ينصح به غاية النصح و كذلك كطريقة للمحافظة على الاستعداد الكامل للاستمتاع بالطيبات –)) التي تحفظ ماء الوجه، لا تتعلم الرغبة فقط كيف ((تخضع نفسها إلى الذلة و الانبطاح و السطحية و المهانة و الانحطاط، و لكن أيضاً تجعل نفسها أكثر طهارة

و نقاوة و كثافة. هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يزودنا بفكرة لتوضيح التناقضات الموجودة في تاريخ أُورُوبَّا المسيحية – إخراج النفس البشرية عن أطوارها، إغراقها في حماة الرعب و صقيع الجليد و دوار الحمى و النشوة، تاريخ جميع صغائر البؤس الذي تتولد عن توعكها و تعاستها و قرفها – بطلة غرائز الإذلال و البغض، ورثة كلّ ما ولد من أجل الاستعباد و البحث عنه و كأنّه مدعاة للنشوة و المتعة... لقد تحولت فيها الشهوة، التي لا تُلتغى عند ظهور الشرط الجمالي بل تتخذ وجها أخر ليس إلاّ، إلى الحب (*our-passion*) نتيجة للسيادة القامعة التي مارسها التسامي و التهذيب على الرغبات و الدوافع الإنسانية الغريزية)).

غالبا، ما ينظر نيتشه إلى التسامي و التهذيب، السفينة التي مخرت عباب البحر بأقصى سرعة، ببساطة بوصفه تحول في الرغبات القديمة دون الاعتراف صراحة أنّ الروحي له مصدر جديد بذاته. و لكن في نفس الوقت، هذا المصدر ضمنيا يفترض الأمر الآتي: ((الذي يفتح قلاع و حصون عواطفه سيضع يديه على أرض صالحة خصبة. في الواقع أو هكذا أظنَّ، نثر بذور الأعمال الروحية الطيبة في تربة العواطف المكبوحة هو الخطوة اللازمة القادمة التي ينبغي القيام بها. يمثل الفتح و الاستيلاء الوسيلة بدل من أنّ يكون الهدف: ما لم يتحقق ذلك الهدف، سوف تنمو كل النوابت و الأعشاب الضارة و الأشياء الشيطانية الأخرى في التربة الغنية التي تم تركها، و حالا ستصبح الحوادث أكثر مجونا و شهوة من قبل)).

(ث) ليس النسيان – الملكة الفاعلة، الحارسة، المراقبة، و المكلفة بالحفاظ على الأمن السيكولوجي و الطمَأنينة و على مراسيم اللِيَاقَة – ببساطة عملية أوتوماتيكية للذاكرة، لكنها متطلب من متطلبات الحياة الضرورية، غير الممكنة دون الفرضيات الخيالية عن الأشياء في الوجود، لغرض نجاح الاستيعاب النفسي للتجارب: ((النسيان هو ليس فقط خمول و همود.... و لكنه أيضاً شيء فعال، و في المعنى الصارم، هو قوة إيجابيّة كابحة و مانعة مسؤولة عن حقيقة أن كلّ ما نعيش بواسطته و نجربه نستوعبه لا يدخل الوعي خلال عملية الاستيعاب و الامتصاص السيكولوجي (الواحد يمكن أن يطلق عليه صناعة النفس) بدلا من قوت الجسد (التأسيس)... أيّ واحد تكون لديه هذه العدة الكابحة و القامعة والمحطمة لا ينجز أيّ شي)): الذاكرة، الأداة التي يستطيع الإنسان في بعض الحالات بواسطتها أن يحبط وظيفة النسيان، فضلاً على ذلك، تتأثر بتلك الرغبات و الدوافع التي هو عازمة على الاحتفاظ بها. ((تأخذ مقامات الذاكرة، الحالات التي يقطع

بها الإنسان وعوداً على نفسه، في الحسبان فقط الوقائع التي تعترف بها و تقبلها الرغبات و الدوافع – أنها تتعلم فقط الأشياء التي تتحول إلى موضوعات للرغبة! تمثل معرفتنا، التي تزور الواقع و تبدل الصيرورة تبدل ليس بالطفيف، أضعف أشكال حياتنا المخروطية، لذلك هي ضعيفة في مواجهة الرغبات و الدوافع القوية)). من جانب آخر، بإمكان الرغبات و الدوافع المتحولة أن تقمع و تكبح و تزيف ذكرياتنا. ((تقول ذاكرتي (لقد فعلت ذلك). و يظل كبريائي و فخري عنيدا يقول (لا أستطيع أنّ أفعل ذلك). في النهاية تستسلم ذاكرتي)).

لاحظ نيتشه أنّ الآلية السببية السيكولوجية تؤدّي دوراً مهماً في تلك التحولات (الارتباط، العادة، الكَلَل) التي تحدث للذاكرة و النسيان. دون قصد، و بصورة تلقائية، وظف نيتشه المفاهيم النظريّة الممكنة للآلية غير الواعية في تدعيم مقارباته السيكولوجية، بيد أنه، مع ذلك، لم يطور هذه المفاهيم بصور منهجية أو دفع بها إلى مدياتها القصوى.

يحدث التحول في الحوافز و الدوافع و الرغبات، الذي يجبر المرء على التفكير ملياً، بواسطة التغير الذي يُفرض عليها بالإكراه؛ بل أحياناً يأخذ هذا التحول مكانه حتى بواسطة القهر بوصفه تأويل جديد وتكيف جديد يصبح معنى و غاية، أو الطمس. بالنسبة إلى نيتشه، تكشف ((ثقافة البشرية)) – كُلَّما كان لها ذاكرة متعبة كُلَّما كان مظهر عاداتها و تقاليدها رهيبا – عن نفسها في نطاق واسع على ((هيئة قمع و إكراه منظم لحوافزها و دوافعها ورغباتها)). تمثل قوة كلّ إنسان التكامل الطبيعي غير المنحرف لرغباته ودوافعه في السعي لتحقيق هدفه. لكن نيتشه ميزَ أيضاً إكراه و إجبار و قمع الرغبات و الدوافع و الشهوات و إجبارها على التلاشيء تماما و دون بقايا حين بَيَنَ، في النهاية، كيف العواطف يمكن أن تضمحل و تصبح ضعيفة مع مرور الزمن لا قوة لها بواسطة قمع و مصادرة كلامها و إشاراتها و إيماءتها الملائمة، أو حين ينادي بإضعاف و استئصال الحاجات التي تشبع سابقا بواسطة الدين أو الظاهرة الدينية، التي علينا ألّا نستخف بها لأنّها تبدو لنا منذ بدايتها ظاهرة بشعة و مؤلمة، بوصفها تصور ليس له صله في الواقع التاريخي، و التي تشبع الآن بواسطة الفلسفة أو الظاهرة الفلسفيّة.

يميز نيتشه، آخذاً بعين الاعتبار إمكانات مختلفة، بين أنواع الرغبات و الدوافع بطرق عدّة متنوعة: البعض منها يشتق من فائض الطاقة، و البعض من الفراغ؛ و البعض الآخر مستمر في حضوره، البعض الآخر منها دوري متكرر، و البعض منها حاجات ثابتة تحتاج إلى الإشباع

المتكرر – بينما ينمو بعضها بشكل سريع، ثم أن هناك البعض منها لا يستقر و يصبح أكثر جوعا كُلَّما أطعمته كما يعاني تغيرات أساسيّة حاسمة حينما تتطور. كما أنّ هناك أسماء لا تحص للرغبات و الدوافع و الحوافز و الشهوات الإنسانية، المادة التي تتلقى فعل الطبيعة المكونة و المسيطرة، على سبيل المثال: الرغبة في المتعة – حالة المتعة التي نسميها نشوة هي الشعور بقوة كبيرة – الرغبة في الصراع، إرادة القوة – الأسلوب النبيل في تقييم الأشياء – الرغبة في التفوق (*agonales Bedürfnis*)، إرادة الحقيقة، التوق للمعرفة، الحاجة إلى الراحة، غريزة القطيع...إلخ. أدرك نيتشه أيضاً أنّ سيكولوجية كل باعث و حافز هي إشارة دالة على طبيعة السيكولوجي الذي يُقبله كأداة للتفسير – و لاسيَّما حين تكون هناك نزعة إلى تميز و التعرف على رغبة أو دافع واحد كشيء فعلا حقيقي، بهذا الصدد يقول نيتشه الآتي: ((كُلَّما يبحث المرء بصورة مستمرة، و يرى، و يهتم فقط في الجوع، الرغبة في الجنس، الغرور، كما لو أنّ هذه الرغبات هي فقط الدوافع الحقيقية الممكنة... على المحب الحقيقي للمعرفة أن يصغي بجد))، لأنهُ سوف يتسلم تعليمات عن الحقائق ((من الرأس العلمي لجسد القرد، العقل الجيد على نحو استثنائّي و المرتبط بالنفس العادية – لا يوجد شيء نادر الحدوث بين الأطباء و علماء وظائف الأعضاء)). نتيجة لذلك، يختزل نيتشه كل الرغبات و الدوافع إلى رغبة و دافع واحد، هو: إرادة القوة. و لهذا السبب، لا يقدم نيتشه فقط تفسيراً إلى تعدد الدوافع و الرغبات، و لكن أيضاً إلى مذهب قوة أساسيّة واحدة.

يشير المخطط الموجز أعلاه، الذي يقدمه نيتشه، للصياغات السيكولوجية و محتواها، القائم على التمرين الفكه على التذكر و التركيب للأفكار الغريبة الأطوار الذي يستخدم الحروف، العلامات، الاعداد، العلامات الموسيقية و غيرها من الرموز الخطية، إلى سعة وعمق مناطق التفكير النيتشوي الكاملة و المكتفية ـ بذاتها بشكل غير عادي. بينما يميل الإنسان العادي إلى اعتبار هذا البورتريه يظهر شيء شبه كافي عنه، لا يرى فيه نيتشه سوى أرض يحرثها و يزرعها بشكل واسع ثم يتجاوزها بسرعه. على أية حال، ترجع هذه الأفكار في خطوطها العامة إلى جزء صغير من عالم نيتشه الواسع الذي أُضيفَت إلى مناخ آرائنا بواسطة جمع من ممثلي السيكلوجيا المشهورين الكاشفة للأقنعة.

يمثل هذا التوضيح للنفس الإنسانية، بواسطة البواعث السيكولوجية المفصلة الواضحة، لنيتشه في الواقع فقط لحظة في مسار التطور الطويل الكلي الذي يمر به و يعانيه موقف الإنسان

نحو نفسه. في ظل غياب التوضيح المناسب يظل الإنسان محتاراً و تظل الأمور غير واضحة له، و بذلك لايكون حراً، و لكن بالأحرى يستسلم بنفسه إلى إدراكه السايكولوجي. يبدأ الإنسان يعي نفسه بعد أن يمر بهذا الطور أو تلك المرحلة، يقوده فعلاً و سلفاً هدف جديد، و يؤازره الحافز الذي يحول عالم المعرفة إلى حرية و يحول الملاحظة السيكولوجية إلى نشاط داخلي. كان نيتشه مهتما بشكل حقيقي بهذا التقدم الحاصل. فقط لأجل هذا التقدم نحتاج – ((مدرسة الشك)) – لهذا النوع من السيكلوجيا الكاشفة النقاب و المميطة اللثام و النازعة للأقنعة. يمثل الشك و الارتياب عند نيتشه فقط مرحلة ينبغي أن يمر بها المرء و من ثّم يبني عليها كي يصل إلى المراد المطلوب.

مهما يكن الإنسان، فهو ليس وجوداً مفترضاً و جملة من الحوادث يمكن أن تدرك و تفهم بواسطة الدافع السيكولوجي. يخضع وجود الإنسان الحقيقي، الذي لايكون واضحاً و ظاهراً بواسطة الحالة الحاضرة المؤقتة، فقط إلى جملة من القواعد و المبادِئ التي تحكم التقلبات و التغيرات السيكولوجية.

الإنسان كخالق لنفسه (الأخلاق)

تعني حرية الإنسان أنّ قابليته للتحول تتضمن أكثر من مجرد تغيرات طبقًا للقوانين الطبيعية التي تُطبَق على الوجود: ببساطة، إنّهُ الموجود المسؤول على تحولاته.

على مدار التاريخ الإنساني، كان المسؤول على إحداث هذه التحولات في دوافع و رغبات الإنسان هو مبحث الأخلاق. نحن نطبق مصطلح ((الأخلاق)) على القوانين التي يخضع لها سلوك الإنسان و مواقفه كي يكون الإنسان بواسطتها، أول مرة، هو ما هو حقاً. ليس للعالم المعاصر من خِيار سوى الاعتراف بتأثير الأخلاق المسيحية، و كلماتها المنمقة التي معها بالذات اكتسبت النفس البشرية عمقها و خبثها، في تفاصيل حياته. حتى حين يصيب إيمان الإنسان الشك و يبدأ بالتردد و التمايل تظل الأخلاق عنده أمراً بيناً و بديهياً و أساساً لا يتزعزع ضمنا.

هجوم نيتشه و انتقاده للأخلاق – و صناع الحكايات الأخلاقية الذين يؤمنون بكلّ شيء و لا يتورعون عن ركوب الموجة – أيّنما وجدها، في كلّ الصيغ المعاصرة المتعددة تقريبا ليس من أجل أن يخلص الإنسان من سلسلة قيودها و نيرها و لكن على الأصح إجبار الإنسان لبلوغ، تحت النير و القيود الثقيلة التي يرزح تحتها، مرتبة عالية و سامية. لقد كان واعياً أنّ قيمة الأخلاق يمكن أن

تسبب مشكلة كبيرة. في كل مراحل الفلسفة، (حتى عند الفلسفة الشكية)، كانت الأخلاق تمتلك قيمة عالية يشار لها بالبَنَان. الحال ينطبق أيضاً على كلّ العقائد التي تشكل الأخلاق عمودها الفقري. بهذا الصدد يقول نيتشه: ((حتى الشخص الذي يرفض وجود الله يظل بغض النظر عن ذلك ملتصقاً و متمسكاً بالايمان بالأخلاق بقوة)). بناء على ذلك، حالما تنبثق مشكلة الأخلاق و تطرح نفسها حتى تصبح، في رأي نيتشه، راديكالية متجذرة و تثير السّؤال، الذي ظل يشكل بوضوح تحدي لآلاف السنين.

عن طريق الهجوم و النقد و التنكر إلى القانون الأخلاقي و الحرية، اللذان يمثلان وقائع حيوية و فعالة في التَجْرِبة الإنسانية، يأمل و يعلق نيتشه آمالاً كبيرة على أن يقدم و يطرح تحدياً جديداً يساعد على ظهور و انبثاق ما هو حقيقي و مميز عند الإنسان الباقي في المنطقة الرمادية، أيّ لا أحد يعرف عنه شيئاً. أن ما يطلق عليها الحرية التي ينالها الفرد بواسطة الإصلاح غدا، طبقا لنيتشه، يُسمى عملية الخلق. كان نيتشه، الذي ما انفكّ يتسأل كيف يتسنى للإنسان أن يتغلب على ما طبع عليه طيلة قرون عدّة من الزمن، يريد أن يستبدل الطبيعة و يضعها محل الواجب، و كان يريد أن يستبدل ما يطلق عليه المسيحيون النعمة و افتداء الخطيئة – التي لا يمكن أن يولد منها أيّ خير – و الواقع التاريخي للفرد و ما تم قَبُوله كشيء صالح عموما من قبل الناس ببراءة الصيرورة.

هجوم نيتشه على الأخلاق. ـــ يعتمد هجوم نيتشه – الرجل الكيس و البعيد النظر، النقي دون مكر و بريئا و عذبا، بلا حدود، مع الآخرين، و قاسياً مع نفسه فقط، و حين ينسحب من عزلته فإنه كان يفعل ذلك لإحساسه أن الأعمال المطلوبة منه قاسية و أن ساعته محدودة – و يعول دائماً على نوعية و خصوصية و طبيعة السمات الأخلاقية التي هي قيد البحث و السّؤال. أولا، يقوم هذا الهجوم و النقد في أساسه على موضوع تعدد النظم الأخلاقية و إمكانية البحث و الاستقصاء في أصولها و فصولها، ثم ما يلبث أنّ ينتقل بعد ذلك في شن هجومه على ادّعاء بلوغ المطلق أو الماوراء الذي تقدمه المطالب الأخلاقية لهذه النظم و تسعى للوصول إليه.

تعددية الأخلاق وأصولها: تسلب التعددية الأخلاقية من كلّ أخلاق صلاحيتها الكُلّية المفترضة. تشير خصوصية و فرادة و ندرة كل نظام أخلاقي أن ليس هناك جملة من الأحكام الأخلاقية يمكن توضيحها بالإشارة إلى وجود الناس عموماً، ((و لكن بالإشارة إلى وجود نوع خاص جداً من الناس، الأعراق...ألخ، و في الواقع، فيما يتعلق تحديداً بالناس الذين أكدوا أنفسهم

بواسطة معارضتهم لناس آخرين و طبقات أخرى، و الذين يريدون أن يكونوا في تعارض دائم مع الطبقات الأدنى)). إذن، كل نظام أخلاقي ينفصل تاريخيا عن الآخر بوصفه إمكانية تاريخية متحققة بين الأخريات.

لا تقود حُجَّة نيتشه أو تتطلب رفض الأخلاق بكليتها، لأن المطالب الأخلاقية، ربما تملك، في خصوصيتها التاريخية، إلزامات ضرورية تفرضها على نوع خاص من الناس في لحظة تاريخية معينة. ليس من الضرورة التخلي و نبذ الصَلاحِيَةِ العامة الكُلّية لقانون الإنسان كإنسان، و لكن فقط الصَلاحِيَةِ الكُلّية الخالدة لمضامين محددة لهذا القانون. يبقى مطلب الشرعية عموما، و الذي يُفهم كتوافق مع مصدر الإنسان بحد ذاته، غير قابل للإلغاء، مع أنّ مضمونه غير قابل للتعبير عنه و الإمكانات التي يفتحها لنا عدّة مربكة.

ينبغي للمرء أن يميز، فيما يتعلق بالسُّلوك – يجب أن نعمل شيئاً، و بالتالي نحن بحاجة إلى قاعدة سُّلوك – بين السُّلوك الأخلاقي، من جهة، و الحكم الأخلاقي، من جهة أخرى. يرفض نيتشه حقيقة الأحكام الأخلاقية دون التأهيل أو المسوغات العقلية. تقدم ملاحظة نيتشه السيكولوجية، فيما يتعلق بأصل و تطور هذه الأحكام الأخلاقية و فصلها، لنا معيناً لا ينضب. من بين الأشياء الأخرى، نجح نيتشه في كشف النقاب عن المتعة التي تكمن وراء إحداث الألم و السماح للغرائز العنينة و الضعيفة في الانتقام، عادة المبالغة و التمجيد الذاتي، متعة و لذة الشعور بالقوة، أكذوبة السخط و النقمة الأخلاقية، الأحكام الوقحة في أخلاق غرائز الشفقة و إنكار الذات و التفاني، بوصفها عارضاً من عوارض الانحطاط. تطال سخرية نيتشه في الواقع كل النظم الأخلاقية الحاضرة و تعدّ حقاً أمراً قاطعاً و من أشد عوارض ثقافتنا الأوروبية إزعاجا و مرضا – شكل مصير الأوروبي الآن و في المستقبل: الأوروبي العبد الأكثر ذكاء، مجد في العمل، شديد التواضع، بالغ الفضول، المتعدد، الرخو، الضعيف الإرادة – سديم شامل من الهوى و الذكاء.

لاتحتاج سيكلوجية الحكم الأخلاقي، ذات الحقيقة الإرشادية لكلّ واحد، أنّ تكون في أي حال من الأحوال تفنيداً للأخلاق بحد ذاتها. مع أنّ الحكم الأخلاقي – و لاسيَّما الأحكام الصادرة بحق الآخرين – ربما تكون مستحيلة من حيث إنّها تطرح غائية دوغمائية، فإنّ الأخلاق، بحد ذاتها، تبقى في النتيجة، واقعاً عقلانياً حاسماً لا مفر منه.

طبقاً إلى نيتشه، يتمتع نموذج الأخلاق السقراطية واليهودية – المسيحية بصَلاحِيَة عامة و تأثير كبير في الحياة في أُورُوبَّا – أُورُوبَّا القائمة على الفكرة البالية و المحتقرة فكرة تساوي الحقوق و الأصوات الانتخابيَّة. كان نيتشه يهاجم الأخلاق بواسطة الكشف عن أصلها و فصلها و مراحل تطورها. يشير نيتشه إلى الأخلاق بوصفها ((جملة من شروط بقاء و نمو و تطور الإنسان الفقير – التي لم تُخلق عيونه ليرى – و المستلب و المريض كلياً و جزئياً)). و يطلق عليها اسم ((أخلاق– العبيد))، مناخ جمعيات التآمر و السرية. يطمح الضعفاء، و المهمشين الذين تقطعت بهم السبل الخليط المشوش من جميع أنواع الملل الصغيرة، أيضاً في إرادة القوة – إنّهم متعطشون لأدّى دور الجلاد: ((إنّها غريزة القطيع بالضِدّ من غريزة الأقوياء و المستقلين، غريزة الحزن و الفقر المضاد للمحظوظين، غريزة المتوسط و العادي بالضِدّ من الاستثناء)). بالرغم من ضعف هذه النظم الأخلاقية إلاّ أن جميعها تعثر في الأخلاق على وسائل و أدوات السيادة و الخلق للقوة الداخلية (و أخيرا الخارجية). لأن مثل هذه القيم الأخلاقية، التي على المرء ألّا يألو في تميز و الدِقّة في دراسة غاياتها، هي في الأساسّ تقييمات يتبناها أفراد حقيرون و ذو منزلة دنيئة، نَماذِج معينة في السُّلوك تضمن لهم و توفر الحماية؛ و حين تسود هذه القيم، فإنّ وجود خالقها و حاملها – أعني، الناس الضعفاء و الحقيرين ذوي المنزلة الدنيئة، الأرواح المفعمة بالقرف و الغباء و المسكنة و السقم و صغارة النفس، يبلغون مراكز القوة المتزايدة، بينما تستهلك و تنخفض و تنحدر قيم الأقوياء و المتوهجين. ((يبدأ تمرد و مناهضة العبيد، الحفاة العراة الذين لا مجير لهم، في مجال الأخلاق الذي بدأ مع اليهود، هذا التمرد الذي يجر في أعقابه تاريخا طويلا من عشرين قرنا، حين يصبح شعور الاستياء و الامتعاض، الذي ما انفكّ يساورهم، خلاق و مولد للقيم و تمرد مظفر)). أما الأشخاص الأقوياء و الناجحون، الذين لا يكونون بحاجة لأن يصطنعوا بناء سعادتهم عن طريقة مقارنة أنفسهم بأعدائهم و الذين لم يفصلوا بين السعادة و الفعل النشيط، الأقلية، و الذين هم دائماً أقلية، يضطرون أنّ يقبلوا بتقييمات الأغلبيَّة و يخضعون إلى الضعفاء و العاجزين و المقهورين الذين ينوؤن تحت عبء مشاعرهم العدائية المسمومة.

فيما يتعلق في الحجج التي تتناول الأصل و التطور الذي يظهر في كلّ مشهد و التي تلغي شرعية الأخلاق، يقدم نيتشه القول الآتي: ((إنّ الذي يمتلك معرفة عميقة في الشروط التي ينبثق بواسطتها الحكم الأخلاقي بهذه الطريقة فإنّهُ لا يمس حتى قيمته)). ((هذه القيمة تبقى غير معروفة و مجهولة حتى حين يكون المرء واعيا للشروط التي نشأت بواسطتها)).

هذه التأكيدات، التي يطرحها نيتشه أعلاه، و التي لا يستطيع المرء أن يشيح بناظريه عنها، ترفض بأيّ شكل من الأشكال إرساء دعائم فكرة أن هناك صَلاحِيَة مطلقة للأخلاق. لكنها فقط تحاول في الواقع أن تبين أن هنالك بعضاً من الآراء و الاعتبارات أثبتت إنّها حاسمة و مهمة في العَلاقة بسّؤال القيمة المتعلق بأيّ نظام أخلاقي مُعطى. لأنه ((حتى لو كانت الأخلاق ليست ذو جدوى نافعة و مفيدة)) عند الإنسان، ((و ليس لمفهوم الأخلاق أيّ عَلاقة تذكر بقيمة الإنسان))، فإن هذا الحكم الأخلاقي السلبي الصادر على الأخلاق من قبل نيتشه سيكون مستحيلاً طرحه ما لم يكن هناك فعلاً بعض القيمة الإيجابيّة فيها التي تفترض أن تقدم مقياساً و معياراً للحكم. إّن بوسعنا الآن أن نتسأل: ما غرض نيتشه و غايته من إعلان موت و انحلال الأخلاق و نهايتها؟ يخبرنا نيتشه أنّهُ يريد الإنسان أنّ يبلغ ((أعظم و أعمق درجات القوة التي يمكن أن يبلغها أو قادر على الوصول إليها دون الأخلاق)). هذا الطلب الجاد الذي يطرحه نيتشه لا يقل محورية و مركزية و حزما و قوة و تصميما و عناد عن أي طلب أخلاقي آخر. بناءً على ذلك، لا يستهدف هجوم نيتشه الأخلاق في العموم – بل هو بالأحرى موجهها تحديداً إلى نوع خاص من الأخلاق من وجهة نظر أخرى مختلفة.

فيما يتعلق بإرجاع نسب و أصل الأخلاق المسيحية ـــ بوصفها مثال للأهواء المكبوتة و الغيظ الكظيم و التعطش للانتقام و الحقد، الحيلة التي يعمد إليها المقهورون و المسحوقون و المستضعفون تحت وطاءة العجز الحقود: حدث ما دليل على الانحطاط، إلى شعور الاستياء و الامتعاض و الضغينة الصلفة و الفظاظة و الحاجة إلى الاضطهاد و لكلّ ما إليها تتجه ضِدّ أصحاب هذه الغرائز التي يشعر بها العبيد و الضعفاء، ذرية المضطهدين و المحرومين و المغّتصبين أولئك الذين سيقوا و بيعوا بمثابة العبيد، و حقد هذه الكائنات التي تتعذر عليها الاستجابة الحقيقية، أيّ اسّتجابة الفعل لا اسّتجابة ردّ الفعل ـــ ينبغي أن نضيء الجانبين الآتيين: من جانب، الكثير من الحوادث و الحالات الحاصلة في المسيحية – بوصفها أفلاطونية مخصصة للشعب – يمكن في الواقع أن تُفهم و تفسر وفقا لشعور الاستياء و الامتعاض و الضغينة؛ بينما، من جانب أخر، كل التقييمات الأخلاقية، التي ظلت طريقها و تشوهت بفعل شعور الاستياء، خضعت إلى هذه الانحرافات فقط بسبب أنّها مشتقة ومنبثقة من مصدر آخر. نيتشه نفسه توقف قليلا (أمام هذه الظاهرة البادية المدهشة) يسوع: إذا كنت عادلاً يا يسوع فيجب أن تعطي القوة لمن هم على حق لا من هم على باطل. ففيها وجد نيتشه التحقق و الترجمة الفعلية لطريقة الحياة الحقيقية الأمينة و

الصادقة دون أي ادِّعاء أو زيَف أو باطل. بهذا الصدد يقول: ((هناك، في الواقع، فقط مسيحي حقيقي واحد مات على الصليب)). من ((سخريات تاريخ العالم)) أنّ ((تركع الإنسانية جاثية أمام معنى و تبريرات الإنجيل الزائفة)).

بعبارة أخرى، يفترض هجوم نيتشه على الأخلاق، أولا، وجود قيمة، بناظم وضعي للضبط، غير قابلة للإلغاء تقف فوق كل أخلاق خاصَّة (تفترض و تستلزم مصدر الأخلاق الخاصَّة التي ينادي بها نيتشه)، و ثانيا، هذا الهجوم يترك إمكانية، أنّ الأخلاق الزائفة، و التي بسبب طابعها الأنثوي الذي لا يجد غضاضة في إطلاق تسمية المثالية عليه، يمكن بشكل أساسي أنّ تنبثق من المصدر الحقيقي، مفتوحة.

المطالب الأخلاقية غير المشروطة: واجه نيتشه نقديا و اصطدم بأنماط متعددة من الأخلاق – على سبيل المثال، الأخلاق الدينية – شعور الإنسان بالخوف و الرعب أمام نفسه و في نفس الوقت شعور رائع بالسعادة و التفوق – و الأخلاق الفلسفيّة، الحيل الذي شكلتها الحياة و كان ديدنها على مر العصور تبرير الشر الكامن فيها (– ذات المطالب غير المشروطة و مضامينها الملزمة عموماً و كليّا. تقييم المسيحية دعائمها على أساس قانون الله، الذي اكتست معه الروح بلون الحداد: ((تفترض المسيحية، و هذا بالذات أمر ليس مدعاة للفخر، منذ البداية أن الإنسان غير قادر على معرفة ما خيره و ما شره. المرء يؤمن أنّ الله وحده هو من يعرف تلك الأشياء. تنبثق الأخلاق المسيحية من مصدر ترسندالي متعالي سامي فوق هذا العالم و يقع في منطقة بعيدة و ليس في المتناول. هذا المصدر لا يخضع للنقد، فمصدره الله، ثم أن مقدار فشله و نجاحه في الحياة يتحدد بواسطة قوة الإيمان التقليدي بوجود الله، المتعلقة أصلا بالبحوث النفسية و اللغوية)). تعتمد الفلسفة الأخلاقية أو الأخلاق فلسفيا على قابلية و قدرة العقل – و كلّ مبادئ الفكر: (الشيء)، (الأنا) ، (الجوهر)، (الوجود)، (الغائية) – أننا ننكر العلل الغائية، فلو كانت للوجود غاية تسير نحوها لتم بلوغ هذه الغاية – (العلية)، (الوحدة)، (الُهُوِيَّة) التي هي مجرد أوهام يخلقها العقل و يسقطها على العالم من أجل مهمة تفسيره – فهي لا ترسي دعائمها على أسس مشتقة من أيّ شيء خارجي، و لكن على الوعي العقلي المتزايد لمصدرها الكائن في الطبيعة الما ورائية و الفوق – حسية للإنسان. فهي تهتم و تراعي القانون، ليس كأمر إلهي، و لكن كمطلب إنساني لكل وجود عقلاني. إنّ ما

تكشف عنه الأخلاق ليس ببساطة وجود الإنسان كموجود يتحدد بواسطة نوعه بواسطة الطبيعة) – و لكن بالأحرى أصل و أرومة الإنسان الترسندالي المتعالي.

لم يرفض نيتشه فحسب أطرُوحة أنّ الأفعال الأخلاقية يمكن أن تكتشف موضوعيا (و بالمناسبة كانط هو الآخر رفض هذا الطرح، بما أنّه يعتقد أنّ صحة الفعل لا يمكن أن تتحدد بواسطة طبيعته و سماته الأخلاقية، و لكن بالأحرى بواسطة شرعيته و صلاحيته)؛ و لكنه رفض أيضاً معنى و صَلاحِيَة المطالب الأخلاقية الداخلية للقيام فعلاً انسجاما و تطابقا و تماثلا مع القانون الأخلاقي. (و سواء كانت الأخلاق واقعية مجردة أو ببساطة تنبثق من بواعث المنفعة – التي تقدمها مؤسسة قضائية، أو تقليد اجتماعيّ، أو عرف سياسي، أو شكل من أشكال الفن، أو شعيرة من الشعائر الدينية، الميل، و تهتم بالغايات – امتلاك المرء الغايات و الأهداف و المقاصد باختصار كونه يريد يسوي إرادته أن يصبح أقْوَى إرادة و أكبر – الخارجية، فإنّها لا يمكن طبقا لكانط أنّ تستقر بواسطة الوسائل التجريبية:) لم يرفض نيتشه الصَلاحِيَة الكُلّية للمضامين الخاصَّة للمطالب الأخلاقية فحسب، و لكن رفض أيضاً قانون شرعية السُّلوك المتطابق مع السُّلوك الأخلاقي ذاته. فندَ نيتشه لا مشروطية الأخلاق – سواء كان في صيغة الشكل الفلسفي الأصلي المكتفي-ذاتيا أو في صيغة اشتقاقاته الدينية – على النحو الآتي:

(1) الأخلاق كواقع غريب: إذا كانت الأخلاق غير مشروطة، فإنّ مطالبها تمتلك صَلاحِيَة مطلقة. ينبغي لمضمونها أن يتم اكتشافه أو سماعه، ليس كشيء تجريبي و لكن كواقعة عقلية. و في خلاف ذلك، يؤكد نيتشه على الآتي: ليس هنالك وقائع أخلاقية. الأخلاق، ببساطة، بناء قائم على ظواهر معينة – بدقة أكثر، إنّها سوء فهم أو تفسير خاطئ. بعبارة أخرى: ((ليس هناك ظواهر أخلاقية، و لكن هناك فقط تفسير أخلاقي للظواهر)). ليس هناك للأمور الأخلاقية أيّ عَلاقة من بعيد أو قريب مع الأشياء ((بحد ذواتها))؛ إنّها ببساطة لا تتعد أنّ تكون مسالة رأي... إنّها جزء من عالم الظواهر.

ليس الأخلاق أكثر من تأويلّ، ينبغي أنّ يكون هناك شيء ما موجود كي نقوم بتأويله و تفسيره. سيتسأل المرء في هذا الإطار: ما هذا الشيء الذي يمكن تأويله أخلاقيا؟ واحد من أجوبة نيتشه عن هذا السّؤال يوجزها التعريف الآتي: ((الأخلاق هي علامة لغة المشاعر و الأحاسيس))، و هذه المشاعر و الأحاسيس بدورها علامة لغة و وظائف ما هو عضوي. في بواكير حياته

الفلسفيّة، طرح نيشة سّؤال ما إذا كانت ((أحكامنا و تقييماتنا الأخلاقية، مثل الأحلام و الظواهر السيكولوجية، مجرد صور و أوهام للعملية الفسيولوجية غير المعروفة لنا؟)). و في تاريخ لاحق يزودنا نيتشه في الإجابة لهذا السّؤال عن طريق القول إنّهُ كان معتادا أنّ يرى في كل الأحكام الأخلاقية نوعاً خاطئاً لعلامة لغة يتم بواسطة وسائلها إبلاغ حقائق و وقائع فيزيولوجية معينة.

بهذه الطريقة، يعبر نيتشه، بواسطة استخدام مصطلحات بيولوجية دقيقة، عن ما يطلق علية بالمعنى الواسع المتعارف، الواقع، الحقيقة الفعلية، الطبيعة. تقوم الأخلاق بتزويدنا بنوع من التأويل لهذه المفاهيم الأخيرة. بواسطة هجومه على الأخلاق، توصل نتيشة إلى نتيجة مفادها أنّ الأحكام الأخلاقية تجعلنا نُزيِف أنفسنا و الواقع الذي نعيش فيه، و نصبح موجودات أقّل واقعية و عرضة للفساد، و لاسيَّما حين نحاول أن نتجاوز الواقع، و نتيجة لذلك، تقودنا هذه الأحكام إلى الضلال الأعظم و الغَوَاية التي من شأنها أن تقود البشرية من ثّم إلى العدم – الغواية في أشد أشكالها تجهّما و أشدها وَطْأة، تلك الغَوَاية التي من شأنها أن تقود، عبر طريق الموارية، إلى تلك القيم اليهودية. بدلاً من ترك أنفسنا نسيطر على الطبيعة و نسودها في نمط طبيعي، نسقط بسبب الأخلاق في شرك التخيلات و الأوهام و نجعل أنفسنا ضحايا لواقع غير مرئي و غير مرغوب فيه، و نتيجة لذلك، مادام أننّا نتصرف وفق الأخلاق، سنفتقد في الواقع إلى الإمكانات الحقيقية لنا، و سنسمح بهذا إلى ((الحظ بأن يكون قانون له سلطة عليّنا)).

بما أنّ الأخلاق أمر غريب عن الواقع، و إنّها تبقى غير واقعية بسبب المبدأ الذي تقوم عليه، ينظر نيتشه إلى الفلسفة الأخلاقية و يعدّها ليس أكثر من مخلوق مسخ صنعته المخيلة الخصبة يشغل نفسه بالأوهام الباطلة – في هذا الصدد يقول نيتشه: ((في مجمل أطوار تاريخ التطور الأخلاقي، لم تُفلح الحقيقة في أن تظهر و تعبر عن نفسها: فكلّ المكونات المفاهيمية للأخلاق ...هي مجرد خيالات، و كلّ تأويلاتها السيكولوجية، الأشكال الإضافية التي لها صلاحيات ذاتية، هي تحريفات و تشوهات، و كل صياغاتها المنطقية – و هنا بالمناسبة يصير المنطق ضرورة ليس من أجل معرفة الحقيقة و أنّما لتحديد عالم يجب أن نسميه العالم الحقيقي – التي تم جرها من قرنيها إلى مملكة الأكاذيب، هي مغالطات لا أكثر. إنّ الإشارة المميِزة التي يمتاز بها فيلسوف الأخلاق هي الغياب التام لأيّ نوع من الطهارة، النظافة و الأمانة الفكرية)).

في المقام الأول، يفترض هجوم نيتشه على الأخلاق و نقده لها بإمكان معرفة ما هو الواقع، و معرفة أنّ هذا الواقع يوجد بطريقة يمكن أن أتعامل معه كشيء ببساطة معطى. و لكن، في فلسفة نيتشه يبقى الواقع كله في ذاته هو مجرد نمط من التأويل[53] – نوع من البناء التأويليّ لا يوجد أيّ شيء خلف أو ما بعد حدوده. ليس لدي إلاّ وعي واحد للواقع؛ أنا لا أعرف الواقع كشيء مستقل يوجد خارج عني و عن تأويلاتي.

في المقام الثاني، يفترض نيتشه القيمة المطلقة لهذا الواقع الذي يطلق عليه اسم الطبيعة. بيد أنه لا يحافظ على هذا الرأي أيضاً، من حيث إنّ كلّ قيمة له يمكن أن تكون قيمة لواقع واحد فقط و طريق لتأويلّ هذا الواقع.

تقوم السمات الأساسيّة الخاصَّة لهجوم نيتشه على الأخلاق و نقده لها و ترتكز على عدم وجود صلة بين الأخلاق و الواقع الملموس، و هذا الأمر يبدو معقولا: ينتقد نيتشه بشدة الحقيقة السيكولوجية التي تدور حول طرق السُّلوك الذي تدعي إنّها أخلاقية، مشيراً إلى التفاوت و التباين الحاضر و الموجود في كلّ السُّلوك الإنساني بين ما المقصود و المراد من جهة، و ما يحدث حقاً كنتيجة إلى الفعل، أو الهجوم في الممارسة غير المسؤولة للفعل في المبدأ و إنتاج الشر في دافع أعمى للتضحية و العثور على الراحة في ترك تحقيق النتيجة الناجحة بيد الله، من جهة أخرى. و لكن جذور أهمية المطلق التي تحرك الناس و تحفزهم للقيام فعلاً لم يصل إليها نيتشه أو يمسك بها. طبقاً إلى تفكير نيتشه، المرء ينبغي أنّ يميز بين الحقيقة السيكولوجية التي ترتبط بالظواهر الخاصَّة للوجود الإنساني و التعبيرات الفلسفيّة للحقيقة التي تهتم بالمصدر بذاته، لأن الأخير وحده يخضع للنقد و يُضَع موضع السّؤال حين نحاول أنّ نقبض على جذور الأخلاق.

(2) الأخلاق كتضاد ونقيض للطبيعة: كي تكون الأخلاق ((غير مشروطة)) ينبغي أنّ توجد و تعمل بالضرورة فقط لمنفعتها. لاتحتاج الأخلاق أنّ تبرر و تسوغ نفسها بالقياس أو الإشارة إلى شيء خارجي تقصده؛ بل هي بالأحرى مقياس كل الأشياء الموجودة – المقياس الذي بموجبه أمّا علينا أن نقبل الأشياء أو نرفضها. كي نرسي دعائم القيمة العليا للأخلاق على أساسّ صيغة ((الأخلاق من أجل الأخلاق))، طبقاً إلى نيتشه، علَيّنا ليس فقط قَبُول الغياب التام للواقع الملموس و لكن أيضاً أنّ تدفع ثمن التقليل من أهمية الواقع و شأنه و التعامل معه بفظاظة. لا يستطيع الواقع الملموس، في أيّ حال من الأحول، أنّ يجتاز امتحان الأخلاق؛ فهذا الامتحان يحكم مسبقاً على

الطبيعة ببساطة إنها غير أخلاقية و هي تعمل بالضِدّ من القيمة الأخلاقية، و بذلك، ينبغي أنّ لا توجد. كما هو الحال مع ((الجمال من أجل الجمال)) و ((الحقيقة من أجل الحقيقة))، فإنّ ((الخير من أجل الخير)) هو ((صيغة العين الشريرة التي تنظر و ترنو إلى الواقعي بعين باردة))، ((لأنه بما أنّ الحياة، التي ليس هناك فيها سوى الصيرورة، في الأساسّ شيء غير أخلاقي أو ليس له أيّ عَلاقة بالأخلاق من بعيد أو قريب، فإنّها ستكون دائماً على خطأ و سيئة من وجهة نظر الأخلاق (و لاسيَّما الأخلاق المسيحية غير المشروطة))).

نيتشه يذعن لحقيقة أنّ تميز القيمة و أنظمة التراتبية، التي تزودنا بها الأخلاق، يمكن الدفاع عنها – و لكن فقط تراتبية لذلك الذي يحيا بواقعية ملموسة، و يمثل إشارات للشروط الأساسية للوجود و تقدم بعض الصور الخاصَّة للحياة. و لكن كانكشافات و تجليات إلى العالم العالي السامي —— و التي ينبغي أن تكون هكذا إذا كانت تريد أن تكون غير مشروطة – تتحول الأخلاق إلى شيء ضِدّ الحياة و تكتسب الصفة أو السمة المحطمة للحياة. نيتشه يصر أن أيّ شيء يصبح أخلاقياً ((سوف يسلب الوجود عظمته و يخصي، يحذف، يشوه الإنسانية و يختزلها إلى كتلة بائسة لا توصف تشبه الناس الذين يقطنون في الصين)).

بيد أن هجوم نيتشه، الذي يدعي أنّ الأخلاق تقف في ((الجانب المضاد من الطبيعة))، يمكن تقويضه و دحضه، و لاسيَّما حين يناقض نيتشه نفسه و يتحدث بوضوح و يصر على أن ((الأخلاق هي جزء لا يتجزأ من الطبيعة)). بهذا الصدد، يقول نيتشه: كلّ شيء يعود إلى الطبيعة و يخصها – حتى القوة الجاذبة التي يمتلكها كلّ ما هو معارض لها من الأشياء، الأشياء التي تبدو معارضة و مضادة للطبيعة. إنّ التعديلات و التحولات و التغيرات التي تحدث في وجود الطبيعة بسبب الأخلاق هي في الواقع متعددة و كثيرة. في وصف لطبيعة النظام الأخلاقي بوسع المرء أن يقول الآتي: ((إنهّا النبتة التي تضلل و تخون الأرض و التربة التي نبتت و نمت فيها)). و بهذا، تتحول الأخلاق إلى طقم من الآراء المسبقة التي يعتقد بها نوع من الناس. فهي ليست سبب بل نتيجة – إنّها ذاتها نتاج للطبيعة. فبوصفها، نتيجة، بحد ذاتها، لتطور نوع خاص من الإنسان – الإنسان الذي يدفعه افتقاده إلى المقاومات الخارجية و الأعداء و وقوعه في قبضة انتظام التقاليد، إلى التمزق بضيق و ملل، إلى اضطهاد النفس و التآكل إلى الارتعاب و تحقير الذات – ينبغي اعتبار الأخلاق، في كلّ صيغة من صيغها، ظاهرة طبيعية. هاتان الطريقتان في النظر إلى الأخلاق – كلاهما كشيء مضاد

للطبيعة و كشيء بذاته يعود تماما للطبيعة – يظهران في التاريخ على أنّهما يحاول أحدهما أن يقوض و يقضي على الآخر.

في محاولته رفض كل نوع من أنواع اللامشروطية التي تمتاز بها الأخلاق، لا يستطيع نيتشه أن يفعل إلاّ على أساس لا مشروطية جديدة. فهو يعرف جيداً أنه لا يستطيع تجنب ذلك. كُلَّما حاولنا أن نُقيم شيئاً من الأشياء بطريقة غير مشروطة ستكون تجربتنا أخلاقية صرفة، و بالعكس، كُلَّما كانت تجربتنا أخلاقية في الطبيعة، فإنّنا نتعامل مع شيء غير مشروط. من غير الممكن ((أنّ نجعل التَجْرِبة الأخلاقية ببساطة نسبية؛ فهي بالأساس غير مشروطة)). في التعارض بين القيمة غير المشروطة للطبيعة و لا مشروطية الأخلاق، يفعل نيتشه بالضبط ما يقوم سابقا بشجبه. فهو يصدر حكماً قيمياً مطلقاً. إنّ أساس الأخلاق المطلقة المعبر عنه في الكلمات الآتية ((تقييمي هو الكلمة الأخيرة))، و الذي يرفضه نيتشه، هو ذات الشيء، مع ذلك، الذي يعبر عنه لا إراديا (مع أنّهُ يعرف ذلك).

الدائرة المزدوجة. ـــ كل الحجج الغامضة ضِدّ الأخلاق، التي يقدمها نيتشه، يمكن نقدها سلباً و تقويض نتائجها الحاسمة بواسطة اللجوء إلى معتقداته و مبادئه الأخرى. يمتلك نيتشه طريقة جديدة في إثارة الأسئلة النقدية – البصيرة النافذة التي تمارس نقدها – التي تخلق مرتكزات من أجل انطلاقات جديدة – و لاسيَّما الأسئلة الأكثر غموضا و التباس و إبهام ومُوَاربَة – التي تتحرك في مسارات دائرية لا مفر و مهرب منها. أولا، يؤكد نيتشه على أنّ الأخلاق هي نتاج اللاأخلاقية و إرادة القوة، ثم يؤكد بإلحاح أيضاً على أن نقد الأخلاق بذاته مشتق من النوع الأعلى للأخلاق.

(1) الأخلاق كنتاج للا أخلاق – أو إرادة القوة: يعتقد نيتشه، منذ البداية، أنّ الأخلاق تنبثق و تأتي من شيء آخر ليس له عَلاقة بالأخلاق – أعني، إرادة القوة و تاريخها و المراحل و الأطوار التي مرت بها. تمثل الأخلاق ((حالة خاصَّة من اللا أخلاق الواقعية، حالة خاصَّة بحتة تعود إلى الطبيعة على الرغم إنهّ تسير في اتجاه معاكس لها)). بالنسبة لنيتشه، هذه الأمور السيكولوجية يمكن إدراكها في الحالات الشخصية الإنسانية، هذا الحبيس ذو التطلعات و الآمال اليائسة: ((المرء لا يصبح أخلاقيا لأنّهُ كائنا أخلاقياً بالأساس. يمكن للخضوع إلى الأخلاق أنّ يظهر روح العبودية، أو الغرور، أو الأنانية، أو الطيش – و لكن جوهريا ليس هناك في هذا الأمر أيّ شيء أخلاقي أو يمد بصلة إلى الأخلاق)). خلافا لذلك و على العكس منه، ((تقوم أخلاقنا، التي تدخل نطاق المهازل، و

ترتكز على نفس الأساسّ من الأكاذيب و التشويه و التحريف الذي يعكس خبثنا و أنانيتنا)). تاريخياً، هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يمكن ملاحظته على نطاق واسع: ((كلّ الوسائل التي استخدمت حتى الآن لترويض البشرية، التي تعاني لعنة خلو الألم من المعنى بحد ذاته، و جعلها تتبنى الأخلاق هي في الأساسّ ليس لها عَلاقة بالأخلاق)). يمكن أن نضرب مثلاً على ذلك في الإشارة إلى كل أساليب الاحتيال و المراوغة في عالمنا – و الذي كلهُ فريسة للتنافر – التي تعدّ مبررة أخلاقيا في سبيل الغايات المنشودة للترويج – أقصد، الاحتيال الذي تم اختراعه و نُفذ لمنفعة الكنيسة – التي تتوقف في كل مكان عند السطح، عند الإشارات، عند الموقف، و عند الكلمات، و تؤولها تاويلا تعسفياً، إنها تملك منهجا عقلانيا في التزوير النفسي – أو تحقيق نهاية جيدة بناء على النظريّة القائلة بأنّ الغاية تبرر الوسيلة (*pia fraus*)، و لاسَّيما في الإرث – كلّ ما تقدمه من أجوبة جاهزة لكنه لا يمتلك إطلاقاً تَجْرِبة طرح الأسئلة الجريئة – الذي خلفه لنا الفلاسفة و الكهنة – أول شكل من أشكال الحيوان السقيم البنية الذي يحتقر بصورة أسهل مما يكره – الساهرين على التقاليد القديمة الحسنة و أقوالهم التي لا تقف على أرضية صلبة و ممكن أن تصمد أمام النقد الذي سلبت و أفقرت الطبيعة الإنسانية. فلا مينو، و لا أفلاطون، و لا كونفيشوس، و لامعلمي اليهودية – هؤلاء الماكرون بالفطرة و يملكون كل الأفكار الخرافية، مع أنّهم لا يعرفون كيف يمنحون أنفسهم أمتيازاً أو عزاء – كان لديهم أيّ شك في أن لهم كلّ الحق في أنّ يكذبوا. بناءً على ذلك، ((كي ينجح المرء في خلق و إقامة دعائم الأخلاق عليه أنّ يكون أولا وفياً و مؤمناً بطريقة لا تتزعزع بعكس ذلك)). لقد ظلت الأخلاق تتمتع بمواقع قوية و ناجحة لوقت طويل فقط بفضل إرادة القوة.

حتى لو كانت النزاعات، التي يتم الاختلاف حولها هنا، صحيحة في مجملها و ليس فقط جمعاً كبيراً من الآراء، فإنّها ينبغي أنّ تكون أولا مقنعة، بما أنّ النمط الذي يتطور به الشيء و يصل إلى هدفه، هنا و في أيّ مكان أخر، ليس حاسماً و قاطعاً بقدر كبير سواء بالنسبة للمعنى أو قيمة النتاج المنجز. و لكن بقدر ما تم التأكيد عليه، من قبل نيتشه، فإنّ كل نظام أخلاقي، هو في مجمله، نتاج عملية تطور بدلاً من أنّ يكون مسألة تطور لعلاقات شخصية – فالمعنى الحقيقي للأخلاق، كشيء خاص جداً، مع مصادره و منابعه، مطموساً بفعل اختزال الوجود و تحويله إلى مجرد مقولة كُلّية واحدة (على سبيل المثال، الطبيعة، الواقع). في الواقع، ليس الأخلاق هي الأمر أو الحال غير المشروط، كما يدعي الأخلاقيون، و لكن بالأحرى الطبيعة الواقعية.

(2) إشتقاق نقد الأخلاق من نوع الأخلاق الراقية و السامية: كان الرفض القاطع للأخلاق بذاتها من قبل نيتشه، الذي يلجأ إليه كوسيلة من وسائل الرفض لحماية نسق ذاته، نتاج معالجته العميقة لهذا الموضوع الذي يتجلى بوعي في الدائرة الآتية: كشف التطور الأخلاقي أنّ عملية البحث عن الحقيقة في الأخلاق أخضعت أخيراً الأخلاق نفسها و جذورها و المواقع التي تنطلق منها للسّؤال و البحث و التمحيص – غدت الأخلاق موضع شك بفعل أسباب أخلاقية صرفة. فبواسطة الحكم من زاوية أو مقاربة الحقيقة التي تطلبها الأخلاق بذاتها و تبحث عنها، تم اختزالها في نهاية المطاف إلى مجرد مظهر خارجي زائف، و بالتالي فقدت حقها في إدانَة أيّ زعم أو ذريعة تُثار ضِدّها. و بذلك، تحدث عملية ((التغلب الذاتي على الأخلاق)) و تأخذ مكانها فقط بواسطة الأشخاص الأخلاقين: ((يمثل نقد الأخلاق المرحلة العليا و القصوى من الأخلاق)). ففينا وبواسطتنا، تنجز الأخلاق عملية تقويضها الذاتي. بما أنّ واحد من أكثر المعاني الأخلاقية قوة و نفاذا و تألقا هو معنى الحقيقة والبحث عنها، فإنها، بواسطة ((إصرارها على الحقيقة، تضع و تلف الأخلاق عقدة حبل المشنقة حول عنقها وتخنق وتقتل نفسها بنفسها – إنّ أخر مطالب الأخلاق هو انتحار الأخلاق)).

و لكن في هذه الدوائر، التي يشير لها نيتشه، يظهر لدية كلاً من (1) التأكيد-الذاتي بالإضافة إلى (2) انتحار الأخلاق معاً. لأنه كما أنّ التأكيد الذاتي يختزل الأخلاق إلى حالة خاصَّة من حالات إرادة القوة، كذلك الأمر مع انتحار الأخلاق، حيث تصبح الأساسّ الذي بموجبه يتم تحطيم و تقويض الأخلاق بواسطة الأخلاق ذاتها. في كلتا الحالتين، لا يهاجم السلب عند نيتشه لب الموضوع، مع إنّهُ يقدم أصول و خطوط انِحدار الأخلاق و نقدها بشكل ملموس. دون هذا التقديم الملموس و عرض

الأمثلة الصُّلْبة ستبقى هذه الدوائر، التي أشار إليها نيتشه، مجرد أمور صورية مجردة لا قيمة لها. يمكن أن تكون نتائجه – ليس المنطقية، أيّ ليست بوصفها التصور المنطقي الذي يقتضي تطابق المفاهيم بإزاء النصّ الواحد و لكن تلك التي تشتق من أسس وجودية – شاهد كافي، بواسطة التأكيد-الذاتي بالإضافة إلى السلب-الذاتي، على انتحار الأخلاق.

وبما أنّ نقد نيتشه للأخلاق يتجاوز و يخترق الحدود و يتغلغل إلى الصميم، فإنّهُ مجبر، في الواقع، أما إلى إلغاء أقواله و تشذيبها في الدوائر المبنية بوعي لغرض الاتِّساق، أو أنّ يتركها في صيغة غير ممِيزة على حالها يناقض الواحد منها الآخر.

في البداية، يكمن هدف نيتشه من طرح هاتين الدائرتين، كنقد و هجوم على الأخلاق، في جعل نتائجهما نهائية: النتيجة الأولى، اختزال الأخلاق، بحد ذاتها، تماما إلى نقيضها؛ و النتيجة الثانية المطالبة برفض الأخلاق و تقويضها انطلاقا من أسس و مواقع الأخلاق السامية الرفيعة، أخلاق الأقوياء التي شقت طريقها بقوة و شيدت لنفسها أينّما كان روائع تاريخية لا يمحوها الزمن. و لكن، حين ينظر نيتشه إلى الواقع (الطبيعة) ليس بوصفه ذا طابع أخلاقي أو لا أخلاقي، و لكن بالأحرى كوجود شامل و مطوق للأشياء، فإنّهُ سيكون مضطرا بالنتيجة إلى رفض إدانته للأخلاق: إن عملية شجب و إدانة الأخلاق بذاتها هي ببساطة واقعة موجودة ضمن الطبيعة – أيّ إنهّا واقعة من الوقائع الموجودة ضمن الطبيعة؛ و حينما أشجب و أدين شيئا واحدة موجودا في الطبيعة فإني أدين و أشجب الطبيعة كليًّا، بما أنّ الأشياء فيها كلها متشابكة بعضها مع البعض الأخر ومرتبطة معا بعلاقات معقدة. و بهذا، حين أشجب هذه الإدانة، كما أفعل هنا، فإني أفعل بالضبط الشيء نفسه الذي ألوم و أوبخ فيه أولئك الذين يصدرون الأحكام الأخلاقية: أنا أشجب و أدين الكلّ. ينبغي أنّ أقول نعم للطبيعة حتى بواسطة التأكيد على الإدانَة و الشجب الأخلاقي الذي فقط رفضته الآن. في هذه الدائرة – تلك الكرة التي لا تكتمل إلاّ لتتحطم – كل المواقع تلغي و تقوض بعضها البعض الأخر أو يقضي عليه، و ليس هناك مفر أو هروب من ذلك.

و لكن، حتى لو احتفظ المرء بهذه المواقع كلها حول الأخلاق، فإنها تظل مع ذلك متناقضة بطريقة صارخة لامفر منها، بمعنى إذا تم التعبير عن واحد منها فينبغي أن نتجاهل الآخر و لا ناخذه في الحسبان. لقد ترأى إلى أسماعنا، يقول نيتشه: ((إنّ بوسع المرء أن يعيش خارج أسوار الأخلاق))، و كذلك على العكس من ذلك سمعنا أيضاً ((إن بوسع المرء فقط أنّ يحيا بواسطة

الطريقة الأخلاقية المطلقة في التفكير)). مرة أخرى، ينبغي القول، ((إنّ الأخلاق ، من جانب، مخطط تأويليّ يستطيع بموجبه الإنسان تحمل الحياة – بالمناسبة، في الحياة لا يُحل أي شيء. كلّ شيء يستمر. و يبقى المرء رهن الشك. و سيبقى إلى النهاية دون أن يعرف شيئا. و في انتظار ذلك تستمر الحياة و كأنّ شيئاً لم يكن. من هذا ياخذ المرء نصيبه كما ياخذ الباقي كله – و من جانب أخر إنّ العالم المُؤول والمُفسر أخلاقيا أمر لا يحتمل حقاً)).

مطالب نيتشه. — إذا وضعنا نصب أعيننا المعنى الأساسّي لمجمل هجوم نيتشه – الروح الفكرية القلقة و الجادة – على الأخلاق، (و هو بالطبع شيء لا يمكن أنّ يُفهم بواسطة حُجَّة واحدة)، سنجد أنّهُ يتضمن أكثر بكثير من مجرد هجوم على التأويل المسيحي، الذي يعدّ سلوك الإنسان شريراً، و أكثر بكثير من مجرد هجوم على النظم و البنَى الأخلاقية المتداولة التي تم قَبُولها من قبل الفلاسفة أو القناعات الأخلاقية المتداولة و تلاقي مقَبُولية في المجتمع بين الناس. يحقق هجوم نيتشه على الأخلاق انتصاراً على كلّ الظواهر الجامدة الثابتة و الدوغمائية المشتقة من الأخلاق المقَبُولة عموماً و على كلّ نِقَاط ما بعد أو وراء مصدر الأخلاق بحد ذاتها، و لا سيَّما في الواجب الأخلاقي المقَبُول و الواجب ذات الصَلاحِيَة الكُلّية. فقط من خلال هذه المقاربة و من هذه الزاوية، نفهم كيف أنّ نيتشه كان واعيا للتضمينات المدهشة التي تحملها هذه المقاربة (فبسببها ((انقسم التاريخ الإنساني إلى قسمين))): ((يضرب الضوء الساطع للحقيقة بقوة و دقَّة ذلك الذي يقف عاليا على جبال الحاضر. ذلك الذي يفهم أن ما يتم إلغاؤه و طمسه يمكن أنّ يحمل معنى عميقاً يمكن أن نمسك به... يكشف النقاب عن ضحالة الأخلاق و لا معنى القيم الأخلاقية التي يؤمن بها المرء أو ينبغي أنّ يؤمن بها)). يعتبر التساؤل النقدي، الذي يخضع فيه نيتشه الأخلاق للبحث و التمحيص، استثنائّياً و رائعاً، غير إنّهُ لا يمثل قمة تفكيره و تجربته: لا يمكن لهذا التساؤل أنّ يُفّهم ما لم نفهم أولا المطالب الحقيقية الإيجابيّة لنيتشه التي تصارع بقوة كي تنال الاعتراف بها و تميزها. إنّ أفكار نيتشه حول الأخلاق غنية و عميقة و ليس من السهل أن يتم هضمها و استيعابها بسهولة بواسطة التعبير عنها و حصرها في سلسلة من الأقوال العدوانية التي يلغي و يقوض أحدهما الآخر. على العكس من ذلك تماما، يحوي الأسلوب أو الشكل على عكس المضمون في فلسفة نيتشه على إشارات عميقة القصد ينبغي التركيز على مدلولاتها و معانيها الوجودية.

لا يمكن لمطالب نيتشه – الرسمة القابلة للتلوين – أن تكون بمنزلة البوصلة الهادية للإرادة الهادفة. فقد بدأ الرجل خطواته الأولى بصورة عميقة، لأنه كان يروم الوصول إلى الوجود الممكن للإنسان، و يترجمه على أرض الواقع، بواسطة إضاءة نماذج الوقائع الوجودية المهمة التي يتصورها. مطالب نيتشه هذه، التي تعبر عن جوهر وجوده، و التي تقف بالضِدّ من الأخلاق المسيحية – و هنا ينبغي ألّا نخلط بين دعوة المسيح الأولى في أصالتها و صفاتها و الممارسات و المطالبات الكهنوتية المشوهة لهذه الدعوة – سوف يتم توضيحها بواسطة الاتجاهات الأربعة الآتية:

(1) يدافع نيتشه عن الفرد و خصوصيته بالضِدّ من الكلّ و العام: تقوم نوع الأخلاق، التي يقف نيتشه بالضِدّ منها و يعارضها، و ترتكز على أساس و جوهر عام مقَبُول لكلّ الناس و متداول بينهم، على سلطة الإله المعبود، و على سلطة العقل. يعارض نيتشه هذا النوع من الأخلاق بالقول: ((تحاول الأخلاق، التي أدعو إليها، إلى التقليل أكثر فأكثر من شأن النزعة الكُلّية المجردة للإنسان و جعله بدلاً عن ذلك أكثر فردية و ارتباطا بالطبيعة... و أقّل استيعابا و فهما من قبل الآخرين)). بالنسبة لنيتشه من المهم أنّ نفهم إنّهُ ((ليس هناك نظام أخلاقي واحد يمكن أنّ يجعلنا أخلاقيين)) – كان نيتشه يريد أن يضع الإنسان فوق كل النظم الأخلاقية و المقولات الكُلّية العقلية. لكنه لم يكن يقصد من وراء ذلك أن يمنح الفرد المنعزل، بحد ذاته، مساحة حرة لنزواته الطائشة. بل كان يهدف بالأحرى إلى بلوغ أعماق الواقع التاريخي الوجودي (*existentielle Geschichtlichkeit*) للإنسان كي نعي القانون الذي يترجم الوضع الإنساني الطبيعي الملموس و يكون مسموعا بصيغة واضحة. و بهذا، يقصد نيتشه بكلمة ((الفرد))، ليس الشخص المنعزل الخصوصي الوحيد، و لكن الوجود الإنساني الملموس و القريب على الطبيعة الذي يعرف دائماً ((أننا أكثر من مجرد أفراد؛ و نحن إلى ذلك أيضاً سلسة كاملة مكلفين بمهام مستقبل هذه السلسلة كليًّا)). ربما بوسعنا القول ((إنّ الإنسان هو الإمكانية التي تحاول الوصول إلى النوع الذي هو أعلى من الإنسان)).

تفقد أقوال نيتشه التي تعبر عن الفرد، و لاسيَّما حين تقتطع من سياقاتها و تؤخذ على أنفراد، الكثير من معانيها الوجودية.

(2) براءة الصيرورة. بواسطة هجومه و نقده اللاذع للأخلاق يتوصل نيتشه إلى نتيجة مفادها الآتي: إذا كان صحيحا أنّ الإيمان التقليدي بالأخلاق يعني بالمقابل أننّا ندين الحياة و نقلل من شأنها، فإنّنا ينبغي أن ((نتخلص من الأخلاق و نرمي بها بعيداً كي نحرر الحياة من أسرها)) و

((نحاول أنّ نكون لا أخلاقيين كالطبيعة)). إذا كان الإنسان، و لاسيَّما حين تكون قواه ممتلئة و نبيلة، هو جزء لا يتجزأ من الطبيعة و قسم منها، فإنّ مهمتنا القادمة تكمن في إعادته إلى حضن الطبيعة مرة أخرى و إلى الحقائق التي تحتويها. إنّ حديث نيتشه عن هذا المطلب، و منحه بعض الفسحة، يظهر في مضمونه ((هجومه على ألفي عام من الانحراف عن مسار الطبيعة و التقليل من أهميتها و شأنها و تدنيس و انتهاك الإنسان)).

في الواقع، يبقى كل شيء في الطبيعة، طبقاً إلى نيتشه، و بضمنها الأخلاق، أبينا أم رضينا مندمجون فيه، نتاج نوع معين من الطبيعة، و علية فإنّ كل المطالب تعد حمقاء لا معنى لها. إذا كان كلّ ما يوجد ويحدث من حولنا ينبغي أن يعود إلى الطبيعة، فإنّه لا يوجد شيء فوق الطبيعة، و لا شيء يوصم بالعار بقدر الأشياء، و بضمنها الأخلاق، التي تعارض الطبيعة.

في الواقع، توصل نيتشه إلى تلك النتيجة الأخيرة حين عقد العزم – على المرء أن يعقد العزم حالاً، لم يترك نفسه للتفكير – على التخلي و سحب كل مطالبه و إيقافها. هنا، نجح نيتشه، و أول مرة، في استعادة و استرداد البَراءة الكاملة للصيرورة، و إحدث تأثيراً كبيراً في عملية تحرير السُّلوك الإنساني كليًّا من الكثير من المعوقات: ((لقد تم التخلص من التناقض في الأشياء، ولقد تم حفظ تماثل و تجانس و وحدة كل الحوادث و علاقاتها المتشابكة)). لم يعد نيتشه بحاجة إلى أن يقصي أو يستبعد أيّ شيء، و بدأ يولي اهتمام بدلاً عن ذلك بوحدة المتناقضات كلها – بعض الأحيان تجرب الكثير من الأشياء الغريبة كلها دون أن تجمعها بوضوح في ذهنك، لكنك عاجلاً أو أجلاً تكشف وحدتها السرية. و نتيجة لعملية تحرير السُّلوك الإنساني الذي قام بها، لم يكن نيتشه ينوي أو يضمر من وراء هذا التحرر التخلي و التخلص و إلغاء ما كان يهاجمه و يوجه إليه سهام نقده. و بينما تعادل إرادة نوع واحد من الأخلاق في الحجم و تساوي سلطة و طغيان أنصارها و مريديها و ممارسة استبدادهم على الفئات الأخرى المختلفة من الناس، يعترف نيتشه ((إنّهُ لم يشن حرباً ضِدّ مثال الأخلاق المسيحية المصابة بفقر الدَّم – كُلَّما أمنا بالأخلاق كُلَّما كان ذلك إدانة للحياة – من أجل القضاء عليها أو التخلص منها... يمثل استمرار المثال المسيحي واحد من أكثر الأشياء المرغوب بها... و بهذا، نحن اللا أخلاقيين نحتاج إلى قوة الأخلاق كي نعزز من مواقعنا و قوتنا: غرائزنا في الحفاظ على أنفسنا تتطلب أنّ يبقى خصومنا و المناؤون لنا أقوياء متكافئين)).

بهذه الطريقة التي أتبعها، اكتسب نيتشه معرفة عميقة فيما يطلق عليه ((براءة الصيرورة)) (*Unschuld des Werdens*) – معرفة عميقة تفتح حصون الأنظمة الأخلاقية الأخرى الذي تتبنى ثنائية الخير و الشر و الطيب و الخبيث، هذا التقسيم الذي يهلل له الزهاد، و تنتهي إلى اعتباره من عداد تخيلات الإنسان.

في الواقع، أيّنما يهيمن السخط و النقمة، التي تطلق العِنان لنفسها، و الرغبة و الإلحاح في اكتشاف الذنب: يجب أن يكون المرء لاهوتياً ليؤمن بالقوة التي تدمر الذنب – و أيّنما تكون هناك محاولات لتثبيت المسؤوليات بين الناس —— فإن هناك ((سلب واضح لبَراءة الوجود و إفقار لها)). لا ينبغي أنّ نلقي باللائمة على الآخرين – و لا على الله – الذي لا يتصرف إلاّ انطلاقا من كونه طيباً خيراً، و لا على المجتمع، و لا على الأبوين، و لاعلى الأسلاف؛ لا نحتاج أن نخضع حواسنا لرغبة الانتقام و تعطشه، لانحتاج أنّ نرمي باللائمة على أيّ أحد بسبب ما نعانية في الحياة و نبحث عن كبش فداء، أو تسفيه لدوافعنا و حواسنا و غرائزنا. بل في الواقع، لنا الحق في أنّ يكون لدينا نظرةً تشمل كل الأشياء – حتى لو كنا نرفضها للحظة – ضمن السلسلة الكاملة للحوادث و نتقبلها.

كُلَّما حاولنا أنّ نلقي باللائمة على أنفسنا كُلَّما كنا نخضع إلى التعصب الأعمى و محدودية و قصر النظر الأخلاقي. كان نيتشه يريد أنّ ينجز هدف وعي البراءة. و لكن ما السبب الذي يدعو نيتشه أن يتجشم عناء مهمة إثبات براءة الصيرورة في كل الطرق الممكنة؟ ((ألم يكن ذلك من أجل أن أخلق لنفسي إحساساً في اللامسؤولية الكاملة – أن أموضع نفسي ما وراء أو ما بعد المدح و الذم، من أجل أن أكون مستقلاً مع أيّ شيء يرتبط مع البارحة و اليوم – من أجل تعقب هدفي بطريقتي الخاصَّة؟)) لم يعد تحصيل السعادة يمثل عيباً لأيّ واحد. حينما نحوز على معرفة براءة الصيرورة ستكون هناك بانتظارنا، و أول مرة، إمكانات عظيمة و سامية تقدم نفسها لنا بسخاء: ((في الواقع، وحدها براءة الصيرورة و الإيمان بها التي تمنحنا شجاعة كبيرة و حرية عظيمة في هذا العالم)).

مع ذلك، حين حاول نيتشه و أراد أنّ يوفق بين المتناقضات و المتضادات، و أنّ يرى الطبيعة فقط كطبيعة واحدة منسجمة و كلّ الأشياء كأشياء طبيعية، و أنّ يصل إلى براءة الصيرورة و يمسك بها، اكتشف، من حيث لا يدري، الحقيقة الآتية: لا شيء ينتج و يتبع عن التأمل و إطالة النظر الصرف وَحْدَهُ: ليس هناك فقط لا وجود لأيّ مطلب و لكن أيضاً لا وجود لأيّ دافع أو حافز باعث أو سبب. و لهذا السبب، يرجع إلى الأطروحة التي تقول الآتي: ((لا يوجد أيّ حافز أو باعث

يمكن أن يشتق من الطبيعة كما هي معروفة)). إنّ مفهوم ((ما وراء الخير و الشر))، الحقيقة التي ظلت منفلتة، هو مفهوم فارغ شأنه شأن مفهوم ((الماوراء)) المعروف في الميتافيزيقا الذي يرتقي بنا إلى مصاف الماورائيات – الحقيقة هي إرادة التحكم في تعدد الأحاسيس و تصنيف الظواهر بالتسلسل حسب مقولات محددة. يخلق بالمرء أنّ يريد و يرغب بشيء ما، أنّ يتحرك و يعمل ما بوسعه لتحقيقه، و أنّ يتلقى التوجيه و الإرشاد من اتجاه و بوصلة هذا الشيء. هذا الاتجاه لا يتم تزويده بواسطة الصيرورة بحد ذاتها – إنّهُ دائماً مُحّتوى و موجود ضمن الصيرورة بصيغة فعل حقيقي بواسطته يبين الواحد ما هو و ماذا يريد، وبواسطته أيضاً يصبح مباشرةً مرة أخرى موضوعا للمطالب في مواجهة المتناقضات و أن يكون قادراً أما إلى الإصغاء إلى هذا القانون أو لا يعير آذاناً مصغية إليه.

لا تسمح طريقة نيتشه في التفلسف للإنسان المفكر أن يغرق بسلام في البراءة الهادئة للصيرورة. على عكس ذلك تماما، ينبغي أن يكون قادراً، بواسطة الإصغاء إلى مصدر الإمكانية، تعلم ما الذي يدعو التاريخ إليه بواسطة وضعه الخاص. مادام تفكير نيتشه يهدف إلى قيادتنا و جعلنا نَمِر بواسطة التناقضات و المتضادات الذي قوض أحدهما الآخر، حيث القانون المحدد و الصلد يمنح الطريق و الأولوية و يفسح المجال إلى القانون الشامل الذي يصبح فقط معروفاً تاريخياً، فإنّ هذا التفكير يفقد بالضرورة كل وضوحه بسبب هذه التناقضات. إذاً لم يكن نيتشه مقتنعا بهذه الأقوال الأخيرة فيما يتعلق ((باستعادة بَراءة الصيرورة)) أو ما يتعلق بضرورتها أو براءتها – بل يتمنى و يمني النفس بدلاً عن ذلك، أنّ يشدد على العامل الخلاق للحرية، و الذي يطلق علية ((الإبداع)).

(3)الإبداع/الخلق (*Schaffen*): يمثل الإبداع المطلب الأعلى عند نيتشه: إنّهُ الوجود الحقيقي و الأصيل الموثوق به – فهو حجر الزاوية و الأساس في كلّ النشاطات الإنسانية:

الخلق كعملية تقييم: ((دون التقييم ستكون جوزة الوجود فارغة من المعنى؛ فوجود المعنى، مهما كان أمره، هو أفضل مع عدم وجود أيّ معنى على الإطلاق!)) الإبداع يعني ((تغيير و قَلّبِ القيم جميعها – تغير في وجود كلّ المبدعين)) ((حتى الآن لا أحد يعرف ما الخير و ما الشر – عدا المبدع! فهو الوحيد الذي يخلق و يضع الأهداف للبشرية و يمنح الأرض معناها و مستقبلها: إنّهُ الموجود الذي يجعل إبداعه لشيء ما خيراً أو شراً)).

الخلق هو الإيمان (*Claube*): الخلق هو نقص الإيمان التقليدي العقيم. ((يمتلك المبدع دائماً الأحلام النبوئية و المعجزات الكونية، التي يكون بواسطتها مُهَيَّأً لرؤية عالم آخر حقيقي — إنّهُ الشخص الذي يؤمن بالإيمان!))

الخلق كحب: ((كلّ حب عظيم ... مازال يمني النفس و يتمنى و يصبو إلى الإبداع — و خلق موضوع حبه!)).

في عملية الخلق يكمن الإلغاء و التدمير: فقط كمبدعين بوسعنا أنّ نلغي و نهدم السابق و القديم. ((كلّ المبدعين أشخاص قساة أفظاظ و غليظو القلوب و صارمون و مستعدون.)) من أجل ما أحب أضحي بنفسي و بأصدقائي و زملائي و بكل شيء أيضاً — ((هذه هي لغة كل المبدعين)). إرادة الخلق هي إرادة الصيرورة، إرادة النمو، إرادة تشكيل الأشياء و منحها الصور و الهُوِيَّة... كما تتضمن إرادة الخلق التقويض و الدحض و التحطيم. ((مع الخير الخلاق، الذي يمثل الخير الأعلى، يمشي يداً بيد الشر الأعظم)).

((الإبداع بمجمله عملية تواصل مع العالم و الطبيعة (*Mitteilen*))). تزيد اللحظات العظيمة من الإبداع لأيّ إمكانية و قوة التواصل و الفهم عند الإنسان. ((الخلق يعني: أنّ نمنح أرواحنا و أنفسنا بسخاء و صدق للشيء الذي نقوم بخلقه، إن نتركها فارغة، فقيرة تماما بعد أن نسكب كلّ شيء في ما نبدعه – أعني، أن نكون أكثر حبا و عطاءاً)).

كل سمات و خصائص الإبداع تولف وحدة:((يمثل العارف، المبدع، العاشق و المحب شخصية واحدة)). هذه الوحدة، ((أيّ وحدة الإبداع تركيب عظيم لشخصية العارف، العاشق و المدمر و المبيد)) معاً، أو هي ما نطلق عليها ((الوحدة في قوة المبدع، العاشق و العارف)).

يمثل شرط الإبداع ألما عظيما و افتقارا للمعرفة. ((الخلق — هو الولادة الحقيقة، التي لا يعرفها نيتشه و أن كلّ ما يزعمه هو الاقتراب منها، من رحم المعاناة و الألم و بذور التناقض...إذا كان على المبدع أن يوجد بالضرورة فإنّه يحتاج أولا المعاناة كي ينجز مهمته)). ((أنّ ترى بواسطة شبكة قديمة بالية و حواس تخفي أكثر مما تكشف القناع الأخير – يعني ببساطة معاناة ملل كبير و عظيم و نهاية وشيكة لكلّ المبدعين)).

بلوغ حالة الخلق الاصيل. ((تظهر الحرية و تتجلى فقط في عملية الإبداع)). ((تقوم سعادتنا و ترتكز على الأعْمِدةالأساسيّة للخلق)). ((يتجاوز المبدع نفسه ماضيه – و يتجاوز حاضره و حالته المعاصرة)).

بالنسبة لنيتشه، فإنّ القيمة السامية و الرفيعة للمبدع غير مشروطة: ((حتى أكثر الأفعال الإبداعية تفاهة هي أفضل بكثير من الحديث عن ما تم إبداعه)). ((لا يكمن خلاصنا في المعرفة بل في الإبداع)). ((يجب أن يكون هدف المرء من التعلم فقط لغرض الإبداع)): ((على المرء أنّ لا يتعلم من الشيء أكثر من عملية إبداعه. فضلاً على ذلك، الطريقة الوحيدة التي نعرف بها الشيء على حقيقته هو محاولة إبداعه وصناعته)).

و لكن من هذا المذكور أعلاه عن الإبداع يبدو أنّ المبدع كما لو أنه خفي و غير مرئي أو محجوب: ((أغلب الناس تمتلك فهماً بسيطاً للعظمة، أيّ شخصية المبدع. بيد أنهم يقدرون و يكنون احتراماً كبيراً إلى المحرضين و المقلدين للأشياء العظيمة)).

يبقى الإبداع و الخلق، طبقاً إلى نيتشه، الذي يستبشر فيه خيراً، بالضرورة شيئاً غير محدد و غامض. إنّهُ واحد من إشارات فلسفية عدّة، مماثلة، على سبيل المثال، إلى ((الحياة))، ((إرادة القوة))، ((العود الأبديّ))، الذي يتبلور بمفهوم واضح و محدد الملامح. فغالبا ما يصطدم تفكيرنا بهذه المفاهيم أما سلبياً، بواسطة ضياعه في الفراغ أو بواسطة سوء الفهم بسبب تبسيط الأمور المبالغ فيه – أو إيجابياً بواسطة ترجمته إلى بواعث و دوافع واقعية مثمرة. في كل نوع من أنواع التفلسف نعثر على الأشياء التي لا يمكن تصورها و التي يتم التعبير عنها و لكن ليس بكلمات واضحة لا تحتمل الشك و التردد. يتعاطى نيتشه مع الإبداع دائماً بوصفه بديهية أو شيئاً واضحاً- بذاته، غير إنّه مع ذلك يخفق في التعامل إطلاقاً مع موضوعه. لم يطور نيتشه أو يوضح طبيعة الإبداع. إنّهُ لا يمكن أن يكون إطلاقاً هدفاً للإرادة أو هدفا تنجزه الإرادة – الإرادة لا تملك الماضي بل تريده أن يعود بوصفه مستقبلا. بيد أن صياغات نيتشه حول الإبداع تمتلك كل القوة كي تكون نداء غير مسمى للذاكرة و القبض على الوجود الحقيقي الأصيل.

في الواقع، الإبداع هو شيء بدائي أصيل و أساسي، لكنه ليس البداية الأولى كما لو أنّ لا شيء يوجد قبله. إذا كان بعد تقويض الأخلاق يصبح الإبداع بمنزلة الأخلاق الجديدة، فإنّ المبدع

يظل، مع ذلك، محافظا على الأخلاق في هذا التقويض و الدحض. بناءً على ذلك، يحافظ نيتشه، بواسطة تفكيره، على موقعة و ملخصه أنّهُ لا يريد في أيّ حال من الأحوال أنّ يقوض و يحطم الأخلاق و ينكر وجودها و يقضي عليها.

ببساطة، لم يكن نيتشه متردداً في القيام في الأمر الآتي: ينبغي أن ((نحرس و نحمي أنفسنا من الاندفاع العنيف فيما يتعلق بالقيام أو المضي في استبدال نظامنا الأخلاقي المعتاد و المتعارف عليه بنظام جديد من تقييم الأشياء)). بل كان يحاول بوضوح أن يحافظ على منظومة الأخلاق التقليدية المتعارفة: ((علينا أنّ لا ننسى الأمر الآتي أننا ورثة هذه الأخلاق الحالية حينما نحاول تقويضها. نحن نمتلك المعنى الأخلاقي — الذي دونه سنكون مجرد ريشة في مهب الريح أو ألعوبة في يد الصدفة الغاشمة أو اللامعنى — كإرث عظيم حصلنا عليه و أورثتنا أيّاه الأجيال السابقة)). ((ينبغي أنّ لا نقلل من قيمة و شأن أو نبخس قدر تاريخ آلاف من السنين من الأخلاق و النظم الأخلاقية التي نمَت و ترزعت و ترسخت بعمق في أروحنا!)) فإذا أردنا اكتشاف المسار الإبداعي للإنسان على وجه التحديد، ينبغي أنّ نفترض مقدما و قبل كل شيء أنّ لدينا نوعاً غنياً من الإرث الأخلاقي. في الواقع، ((لدينا الرغبة في أنّ نكون ورثة كل النظم الأخلاقية السابقة و لا نخترع نظام أخلاقي جديد. كل أفعالنا ما هي ببساطة إلاّ نوع من رد فعل نظاماً أخلاقياً ضِدّ صورهُ و صيغهُ السابقة التي أُستهلكت و تهَرَت)).

في النهاية، يضع نيتشه القوة الإبداعية لورثة النظم الأخلاقية، التي تجر في أعقابها تاريخاً طويلاً، في مواجهه و صراع ضِدّ الضغط المتولد من المسيحية و التأثير الذي مارسته على المرء على مدى آلاف السنين: خلال هذا الصراع الخفي الطويل – صراع يتوسل أحياناً هذا النفاق المرضي الذي يولد الاشمئزاز، نفاق المواقف الكثيرة الجلبة التي تتطوع لأدّى دور النقمة النبيلة – ((خلقت المسيحية – الحب الذي خرج من الكراهيَة المتغلغلة الجذور – في أُورُوبًّا توتر روحي رائع...خلقت لنا قوساً و سهماً نستطيع أن نصيب بواسطته الأهداف البعيدة)). هناك محاولتان حدثت على مر التاريخ ((أُطلِقَ السهم فيها من القوس المتوتر المشدود، المرة الأولى بواسطة الحركة اليسوعية، و المرة الثانية بواسطة حركة التنوير الديمقراطية)). لكن نيتشه مازال يحتفظ بقوسه مشدود و لم يطلق سهامه بعد، فهو يريد أنّ يحافظ و يزيد من مقدار التوتر و شدته في هذا العالم

كمصدر للإبداع و الخلق الذي يتجاوز كل الإبداعات السابقة. في نقد الأخلاق، إنّ ما يقوض بشكل خلاق – بما أنّه ليس نهاية كلّ شيء – يعود ليؤكد ذاته بطريقة جديدة كأخلاق مبدعة وخلاقة.

بالنسبة لنيتشه، يعي الرجل جيداً أنه وارث ((تراث أخلاقي غني)) يعيش عليه، و هو في موقع يؤهله لمعالجة الأخلاق كوهم يمكن أنّ يدخل النفس في مجاهيل معتمة، لأنّها ((أمر غريزي لا مفر منه)) (من رسالة إلى فوكس، 29 تموز، 1888). بالتأكيد، لا تشتق الأخلاق أو تستمد وجودها من الضمير الأبدي، الذي يعمل كمولد حقيقي للأحداث و الظاهرات المثالية و الخيالية، كصوت في الإنسان كما يعتقد رجال الدين، الذين افلحوا في استغلال الشعور بالذنب، أولئك الذين يسممون ثقتنا بالإنسان و بأنفسنا ويشككون بها – مسيرِّوا شؤون التقديس، هؤلاء الدعاة و الماكرون، الفنانون الحقيقيون المختصون بشؤون الشعور بالإثم، الذين يستهدفون الحقيقة، أصحاب الكلمات المعسولة على الدوام الذي يخالطها شيء من الرأفة و المراعاة و التساهل و يعممون طريقتهم في التقدير بشكل وراثي – بل من الموقف الإيجابّي الأصيل و الموروث بالنسبة لنيتشه تاريخياً. كشخص، يقف موقف الرافض للأخلاق المسيحية – خُذ نقيض ما تقوله تحصل على الحقيقة – و يبحث عن إرادة القوة، يشعر نيتشه، في قرارة نفسه، إنّهُ ((مازال مرتبطاً بعصر الأمانة و التقُوَى الألماني القديم)). انطلاقا من مواقفه الفكرية، يشعر نيتشه – أنّ حياته حرب لا هوادة فيها، حرب مع الله، مع الرياح، مع الجليد، مع الموت – إنهُّ غير قادر على تطبيق الاستنتاجات التي توصل إليها في مذهبه الفلسفي: طبقاً لنيتشه، من المناسب جداً التحدث عن كل أنواع الأنظمة اللا أخلاقية أو الداعية إلى اللا أخلاق على الأقّل؛ و لكن العيش وفق تلك الأنظمة المضادة للأخلاق أمر أخر تماماً. بهذا الصدد يقول نيتشه، ليس بمقدوري، على سبيل المثال، أن أنقض العهد الذي قطعته على نفسي لأيّ أحد كان أو أكون قاتلا للآخر – هذه الأمور تعلمتها من المسيحية. قدري أنّ أشعر بالكآبة لمدة قصيرة أو طويلة ثم أموت بعد ذلك.

(4) الإنسان كخالق و مبدع لذاته: ينظر نيتشه إلى الإنسان، الذي لا يمكن أن يستمري الصمت في وقت نحتاج فيه إلى الصوت، باعتباره أكثر من موجود يعاني التغيرات بطريقة مجهولة: لم يرواده الشك في أنّ الإنسان كائناً حراً معنياً بتطوير نفسه و ذاته. كان هدف نقد نيتشه للأخلاق يكمن في جعل الحرية الحقيقية للإنسان بالضبط أمراً ممكناً مرة أخرى قدر الإمكان. بيد أن

حرية الإنسان، و حر من أجل ماذا؟ لها معناها الخاص: إنّ حرية تحقيق-الذات هي ببساطة الإبداع. صاغ نيتشه مفهوم الإنسان، كمبدع و مطور لنفسه و خالق لذاته، في الطرق الثلاث الآتية:

(أ) بما أنّ الإنسان كائن مبدع خلاق باستمرار، بوسعه أنّ يدرك قيمة الأشياء، يقيسها و يعيرها، ويقوم بتقييمها و وزنها، فإنّهُ ليس هناك قيم مطلقة ثابتة و نهائية توجد كوقائع بحاجة فقط إلى اكتشافها. بل، تمثل القيم الأخلاقية، عملية نتاج الإنسان و فعله المتغير، الصيغة أو الأداة التي يمسك بها، في لحظة فريدة من الواقع التاريخي، ليس فقط بشروط وجوده و لكن أيضاً بذاتهِ كهُوِيَّة. القيم الأخلاقية، في الواقع، ليست صيغ نهائية ثابتة مكانها الماوراء إطلاقاً، بل ينبغي أنّ يتم خلقها و إبداعها دائماً و في أيّ وقت من قبل الإنسان. و هذا السبب الذي يكمن وراء تبني نيتشه، و لاسيَّما في اللحظة الحاضرة لتاريخ العالم، مهمة قَلْبَ كلّ القيم و تحويل مساراتها، و خلاص العالم و براءته من كلّ الأوهام الميتافيزيقية التي تعرضه.

(ب) فضلاً على ذلك، يحدث التغير في العَلاقة بالنقطة الأساسية، و مفادها إنّ الإنسان موجود يقيم عَلاقة بذاته، بواسطة النظر إليها، تقييمها، بل حتى لدية الاستعداد أن يكون مخدوعا بخصوصها و اعتقاد العجب فيما يرى و يفعل بواسطتها – بل يعطيها أحياناً صورة معينة مبالغة فيها بعيدة عن الواقع. يحدث في هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، بالإضافة إلى البحث و الاستقصاء السايكولوجي في ذاته، شيء دائماً لا يمكن ملاحظته سيكولوجيا، مع أنّ هذا الشيء الصعب ملاحظاته و الإمساك به يولف ضماناً حقيقياً لواقعه الإنسان ككائن موجود في هذا العالم. إنّ وجودي، وما أمثله أنا، يأتي كأنّهُ هدية إليّ من العالم الخارجي. إذنْ، يحاول نيتشه أنّ يخبرنا أنّهُ خلف كل نتيجة و أثر سيكولوجي تحليلي يكمن سر غامض و مبهم للعمق الحقيقي الذي يقيم التنظيم الذاتي للإنسان دون قمع و سيطرة و عنف ضِدّ الذات. حينما تنبثق الدوافع و الحوافز الأساسية، اندفع كإنسان خلف و ما وراء كلّ الواقع السايكولوجي، نحو الشيء الذي يمنح هذا الواقع السايكولوجي شكله و مضمونه. السّؤال هنا ليس القبض و فهم المقياس القابل للاكتشاف سيكولوجيا و الوسيلة بين الحدود، لأن ما يقصده نيتشه بهذه الكلمات – أيّ المقياس و الوسيلة – يتجاوز أيّ معنى سيكولوجي. غير أنّ الذات التي تستدل عند نيتشه بكلاً من المقياس-المعيار و الوسيلة، منسجمة مع التغير الذي يحيط بها أكثر من المعرفة السيكولوجية: ((من الأفضل أنّ لا نتحدث إطلاقاً عن شيئين عظيمين جداً هما: المقياس-المعيار و الوسيلة. قليل من الناس جداً يعرفون طبيعة

و خصائص القُوَى و تركيباتها و التكهنات و النبوءات و البشائر، التي تأتي إليهم من مَسارات غامضة و تجارِب داخلية و تحولات، أو يجيدون تفسريها. إنّهم يبجلونها كأشياء إلهية فحسب و يتجنبون قدر المستطاع التصريحات و الحقائق الصاخبة بشأنها)).

(ت) و أخيراً، يتحقق التغير المنبثق عن البواعث و الحوافز التقييمية، ضمن وَسْط و ميدان السُّلوك المنعكس، بواسطة قدرة الحركة ضمن طبيعة الإنسان، التي لا توجد كوجود متميز و مستقل، و لكنها تمتلك وجودها بواسطة عملية الصيرورة التي تحقق بواسطتها و بواسطة ذاتها. هذا هو بالضبط ما يعدّه نيتشه ظاهرة الإنتاج الذي أكون بواسطتها داخل معنى الإمكانية الوجودية – إنهّا الظاهرة البادية التي تتجاوز كل التحولات السيكولوجية المرئية و كلّ العمليات البيولوجية المعروفة. الإنسان، كمبدع و خالق، يتغيّر بواسطة التقييمات الأخلاقية التي يفترضها و يصبح في نفس الوقت هو ما هو فعلا. و لهذا السبب، يجعل نيتشه، بناءً على ذلك، مطلب بيندر، الشاعر اليوناني العظيم، الآتي نفسه مطلبه: أن تكون نفسك، أن تصبح ما أنت عليّه!

تحاول جدية نيتشه الفلسفيّة الصارمة، التي لا تنفكّ عن اختراق المعاني الأولى الذي يعني اختراق العصور، عمل كلّ ما بوسعها لتقويض و شل الشفقة و أخلاق الإيثَار و الغيرية و الرثاء و العاطفة الأخلاقية بوصفها ميل للهروب من الذات. لم يقبل تفكير نيتشه بأيّ فرضية، طلب، أو قانون، أو مضمون محدد منبثق عن الأخلاق و يبني عليها. كان تفكيره معني، بشكل غير مباشر، بإضاءة الإعماق الداخلية التي يتم إعاقتها و وقف صيرورتها بواسطة اللجوء إلى قانون مشتق أو قياس أخلاقي ثابت.

حين يتمسك المرء في الأخلاق الكُلّية، التي ترتكز في مطالبها على الثوابت غير المرنة و المنطقية و غير المشروطة، يصبح الرجوع إلى الطبيعة أمراً أشبه بالمستحيل. حينها يكون المرء لا محالة مهدداً في الغرق في بحر لا محدود من الفراغ. التمسك بالقوانين الأخلاقية الثابتة يتبعها بسهولة التخلي عن النزوات و الأهواء و الحوادث، على سبيل المثال، المنبثقة من مصدر الإمكانية التاريخية الأصلية الفريدة.

في النهاية، العناصر و الدوائر المتناقضة في حركة تفكير نيتشه – المجموعة المركبة التي تغير قيمتها و ترتيبها، في كل حالة خاصَّة، بحيث إنّنا نجد حيناً هذا العنصر هو الغالب على جميع

العناصر الباقية بينما نجد حيناً أن عنصراً آخر مغايراً هو الذي يغلب – هي ببساطة وسائل لمس بشكل غير مباشر للشيء الذي يقع ما وراء الصورة، القانون، و الشيء المعبر عنه. في تفكير نيتشه، لا شيء يمكن أن يكون في هذا الحدّ، و لكن كلّ شيء يجب يكون فيه (في هذا الحدّ). يجب أن ينتهي تفكير نيتشه دائماً بإشارات يأتي بواسطتها الوجود إليّ: إشارات تشبه في مضمونها ((الطرق السرية للتحولات الداخلية للنفس البشرية))، ((الإيمان في أنفسنا)) ،((الإبداع))، إشارات تشبه حقيقة الحياة كضوء ((راقص)). و لكن كل الصيغ تبقى غامضة و متناقضة حينما يتضمن الإيمان بوجود كائن صيرورته لا تشتق من ما هو أو من مَنْ هو. فيما يتعلق بسؤال من نكون نحن بالأساس؟ هذا يعادل و يساوي القول الآتي: ((يمثل إيماننا بأنفسنا رابطة قوية، ضربة قاهرة – و جناحاً حقيقياً نطير و نحلق عاليا بواسطته)).

الإبداع كحرية دون الترسندالي المتعالي. — ينبغي لنا أنّ نفحص بدقة فكرة الإبداع التي تأخذ مكانها و تحدث بواسطة الحرية، أو بعبارة أخرى، الإبداع كحرية. طبقا للمعنى الموظف في فلسفة الوجود، يقيم مفهوم الحرية سواء بالمعنى المسيحي المتعارف أو بالمعنى الكانطي، التي أصبحت أفكاره جثة فلسفية متفسخة، عَلاقة مع التعالي، مع الترسندالي. تمثل الحرية إمكانية الوجود المتناهي – إنّها محددة بواسطة الترسندالي / التعالي، و تعتمد على مصدر غير واضح و مفهوم يقع على هذا الحدّ (سواء كان يطلق عليه ((نعمة)) أو ((يكون أمراً معطى لذاته))). القرار يشير إلى أن كلّ شيء يمتلك معنى و مدلولاً أبدياً هو في الواقع من صنيع الحرية. بعبارة أخرى، الحرية توجد تاريخياً كوحدة للزماني و الأبدي معاً، و كقرار لظهور الوجود الأبدي.

رفض نيتشه هذا النوع من الحرية. و أعلن بوضوح أنّهُ يتبنى موقف سبينوزا في هذه المسألة، لأن الأخير كان ببساطة لا ينكر فقط وجود حرية الإرادة – هذا الاختراع الذي أوجده الفلاسفة و عرفته أُورُوبَّا للمرة الأولى بكلّ ما فيه من جسارة و شؤم؛ الحيلة القذرة التي ابتدعها رجال الدين – التي غالباً ما تقوم مقام القوة محققة أفضل النتائج – الذين وحدهم الكذب الخسيس يناسبهم، الذين يعطون أنفسهم حق محاكمة الإنسان في حين لايستطع أيّ أحد منهم أن يتحمل حقيقة واحدة تتعلّق بالإنسان – و وجود النظام الأخلاقي في العالم، و لكن أيضاً حتى وجود الشر الحقيقي. (من رسالة إلى أوفربيك، 30 تموز، 1880). إنّ الحرية التي يعترف بها نيتشه و يؤكد عليها تعادل في وجودها و قيمتها و تساوي الحرية المتجذرة في نفس المرء، مصدر الحياة فيه، دون اللجوء إلى

الترسندالي أو إلى الماوراء. هذه الحرية لدية تتضمن الجانب السلبيّ والجانب الإيجابيّ على حدّ سواء. تمتلك الحرية الجانب السلبيّ بمعنى إنهّا تنبذ، تتجاهل، تخترق، و تنكر ما هو واقعي و ما هو ملزم: ((إنّها تريد أنّ تقطع عَلاقة الإنسان و تفصله عن ماضيه (تفصله عن بلده، معتقده، أبويه، و رفائقه)، أن ترتبط و تصاحب المنبوذين و المهمشين (في التاريخ، و في المجتمع)؛ تريد الإطاحة بما هو مبجل و موقر و تدافع عن أكثر الأشياء الممنوعة...)) أما فيما يتعلق بالجانب الإيجابّي، فإنّهُ يؤكد على أن ثمار الحرية يكمن و يوجد بواسطة عملية ((الإبداع/ الخلق)). لا يمكن للجانب الإيجابي أنّ يحدث و يأخذ مكانه دون وجود الجانب السلبي معه، لأنّهُ لا يمكن أنّ يتحقق إلاّ باجتياز الجانب السلبي. يبين لنا ديالكتيك المقال الأول لزرادشت في نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت)) أن هذا الطريق يقود الإنسان إلى الخدمة و المصلحة، ثم بعد ذلك إلى رفض هذه الخدمة و المصلحة ثم أخيراً إلى طريق الإبداع. و لكن، إذا فصل الجانب السلبي نفسه عن الجانب الإيجابي، و بقى سلبياً على حاله، سيكون بِناءً على ذلك مجرد حرية فارغة و مزيفة. كذلك يبرر وجود الجانب السلبي بواسطة الوضع الإبداعي للجانب الإيجابي الذي يقوم الأول بتهيئته و يقرر و يحسم ما سيتبع. وَحْدَهُ سيكون الجانب السلبي مجرد خدمة دنيئة وضيعة مطيعة تعمل و وفقا للتقاليد. لهذا السبب، يوجه نيتشه إلى هؤلاء الذين يدعون إلى تحرير الإنسان من كلّ قيودة لغرض الحصول على الحرية، السّؤال الآتي: ((تطالبون بالحرية من أجل ماذا؟)) فهو غير مبالي ب ((التحرر من)) و التعبير عن الرأي الآتي ((أنّ هناك الكثير من يتجاهلون أنّهم ذو قيمة كبيرة حينما يتحررون من عبوديتهم و لا يعبئون بذلك)).

وبما أنّ الحرية السلبية غير كافية بالمرة، فإنّها ينبغي أن تنجز و تنفد بواسطة وجهة نظر الحرية الإيجابية الإبداعية. إذا كان الإبداع الإيجابي ليس الأساسّ في إلغاء الإلزامات الوجودية (و هنا السّؤال حول الجانب الوجودي و ليس الأساسّ الجدلي و السجالي)، فإنّهُ يمكن للمرء أن يصيح في خوف: ((ينبغي أن يتم إطلاق سراح كلابك البرية الصاخبة من أقفاصها)). و على نفس المنوال، ضبط دوافع النفس الجامح و كبحها ليس أمراً كافياً، حينما ينبثق ذلك من الإنكار التافه لأيّ شيء يمتلك وجود غريزي و ليس من الجوهر الإبداعي الإيجابي: ((نعم لقد نجحت في تحرير نفسك، و لكن لماذا تتصرف و كأنّك مهزوم و مقهور و مغلوب على أمرك؟ أريد أن انظر فقط إلى المنتصر...)) فهو وحده المبدع و الخلاق.

إنّ مفهوم نيتشه للحرية دون الترسندالي المتعالي، الذي يدخل ضمن نطاق الأشياء التي لا يمكن الحكم عليها بل يمكن أن تُدأَّر، لا يقصد، بأيّ شكل من الأشكال، الرجوع إلى مجرد الحياة، بل أنّه يقصد حياة الإبداع و الخلق الأصيل. أنّ إنكار نيتشه للأخلاق لا يعني إلغاء الأخلاق بمجملها و لكن التمسك بما هو أكثر من الأخلاق – أعني، هدف تحفيز و تشجيع الإنسان على تحقيق أعلى الإنجازات و تحقيق معظم الإمكانات. بالتأكيد، دون الله يقود هدف نيتشه إلى خسارة جذرية لكلّ الروابط والإلزامات: كلّ ما تبقى هو أن يعيش المرء كما كان من قبل و أنّ يسمح للحياة أن تتواصل و تستمر كما كانت دائماً قبل وجود فكرة الإله و الأخلاق. و لكن هذا التأويل يحول فكرة نيتشه إلى نقيضها. فالتحدي الذي تطرحه هائل، لأنّها تلقي عبء المشقة كاملا على كاهل و عاتق الفرد وحده. فهو يطلب من كل واحد منا كفرد أن يتبع طريقاً جديداً غير أمن مُمتِلِئ بالمخاطر لا يعززه أو يؤيّد وجوده بعد المجتمع الطبقي و يجب أن يحصل على علاقاته و رابطه من داخل نفسه. يبحث نيتشه عن هؤلاء الذين هجروا و تخلوا عن الأخلاق كي يقوم بترطيب العلاقات الإنسانية، لكنهم مع ذلك مازالوا مرتبطين بروابط و علاقات أكثر سموا يتعذرها تغيرها. الأهم من ذلك كله، أولا و قبل كل شيء، لم تعد الأخلاق شيئاً حقيقياً و واقعياً – إنّها فقط عرض مسرحي فارغ، مضلل و مخادع. و بشكل لا يخلو من المخاطر، يصرح نيتشه في الآتي: ((إذا كنت ضعيفاً و لا تقُوَى على منح نفسك القوانين التي تسير عليها، إذنْ دع المستبد الطاغية يستعبدك في نيره و يقول لك: (أطع، صر بأسنانك و أطع أيها العبد!) ، و كلّ خيرك و شرك سوف يغرق تماماً في طاعته)).

يمكن للمرء أنّ يعثر على أدلة قاطعة فيما يتعلق بهذا التأويل لمذهبه. قادت أفكار هذا المذهب نيتشه لاحقاً إلى حالة من الوحدة المؤلمة و وهجها الجليدي الذي ظل يعاني منها في وجوده حتى مماته. شعر الرجل بخيبة أمل كبير من جَراءِ سوء الفهم الكبير الذي تعرض له مذهب اللا أخلاقي الذي يدعو إليه – بمعنى آخر، كان يُتهَم على رؤوس الأشهاد و على نطاق واسع بإنّ مذهبه هذا في إرادة القوة – المفهوم الذي أراد نيتشه أدخال كلّ شيء فيه. ما من ضربة مقص لإيقاف مادته. أراد أن يسكب فيه كلّ شيء: ما رأى و ما عرف و كلّ ما تُعلمه حياة الآخرين و حياته – هو ((أقّل أخلاقية)) من المذاهب الأخلاقية الأخرى المتعارفة. لقد أراد نيتشه في مذهبه هذا أنّ يعيش المرء و يحيا بواسطة حالة الإبداع و الخلق حصراً و في مستوى أعلى من كلّ النظم الأخلاقية. ((في داخلك))، يكتب نيتشه ((يوجد دافع أو واعز يجبر الأنانية المقدسة على طاعة الأوامر العليا. في البداية، يمكن أنّ يقع المرء فريسة سوء الفهم و يخلط بينه، تحت تأثير اللعنة، و بين نقيضه:

الأنانية و السعادة في فريسة القط الذي لا يرغب بأكثر من أن يعيش...)) و ((لكن هذا المعنى للحياة المجردة هو ببساطة شعور خواء و فراغ الحياة...؛ شيء أجده فعلا بغيض و كرية و مقرف في الإنسان)) (من مراسلاته مع لو سالومي، 1 تشرين الثاني، 1882). و قد عبر نيتشه على النقيض من هذه الفكرة و حتى بطريقة أكثر اختصاراً: ((لقد أخبرتني لو سالومي بنفسها أنها لا تؤمن بأيّ نظام أخلاقي ــــ و افترض إنّها مثلي أكثر صرامة في هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، من أيّ شخص آخر)) (من مراسلاته مع ريّ، 1882). هذا المطلب، الواجب المحدد، ذات السقوف العالية، الذي لا يستطيع المرء أن يعيش وفقه – أيّ أن تعيش دون الأخلاق – لا يوجد على أرض الواقع، و لا يمكن تحقيقه وفق قانون محدد. إنّ ما تهدف إليه هذه الأخلاق الجديدة هو بوضوح نقيض الحياة اللا أخلاقية المجرد.

بالتأكيد، يصف نيتشه نوع الأخلاق الجديدة و السامية غير المحددة – الفكرة التي ترغم الآخرين على مراجعة معرفتهم – بأنّها تحديداً ((أخلاق الإبداع و الخلق))، بيد أنّ ما يفتقر إليه نيتشه في هذا الصدد هو إنّهُ لا يعبر عن هذه الأخلاق في أيّ مضامين محددة و قوالب و مقولات واضحة. مع ذلك، بوسعنا القول إنّ محاولة قَلَّبَ كلّ القيم الأخلاقية و إعادة تقييمها تعبر بدقة عن مضمون ((الأخلاق)) الجديدة التي يدعو إليها نيتشه: ((مَنْ هذا الذي يريد أنّ يخلق و يرسي دعائم هدف يقف و يحلق عاليا فوق رؤوس الإنسانية و الأفراد كلها معا؟)) طريق الأخلاق الجديدة لم يعد طريق الأخلاق السابقة الذي يريد ((المحافظة)) على مواقعه التقليدية. ليس هناك أيّ هدف للإنسانية – و لهذا السبب يدعو نيتشه بقوة لتبني ((الأخلاق التجريبية: أنّ يضع كل مرء لنفسه هدفاً محدداً يختلف به عن الآخر)). بمعنى، ((استبدال الأخلاق بواسطة إرادة الهدف و نتيجة لذلك إرادة الوسائل التي تحقق لنا هذا الهدف)).إنّها جوهر المستقبل الذي يصبح حراً: ((سوف يطلقون عليك، بسبب هذا الحال لقب محطم و مقوض الأخلاق – و لكنك بالأحرى أنت المكتشف لنفسك و لذاتك)).كل شخص عليه أنّ يعتمد و يعول على نفسه. مفهوم الكفاية-الذاتية ينبغي أن يتم تطويره بقوة. ((ينبغي أنّ نحرر أنفسنا من الأخلاق كي يكون بوسعنا أنّ نعيش أخلاقيا))، أو مرة أخرى: ((علينا أنّ نقوض الأخلاق و نبطلها كي نحقق الإرادة الأخلاقية المستقلة و الحرة)).

حين طرح نيتشه مقارباته الاستثنائيّة، بوصفها أفكاراً ذات حيوية واعية لضرورات الانعتاق أملا أن تكون حاملة لمعطيات مغامرة فلسفية مستجدة، بخصوص الأخلاق الجديدة التي كان ينادي

بها – ذات المصدر العميق غير المتحقق – فقد كان يراوده الاعتقاد بأنّ بوسعه الوصول إليها و تحقيقها دون الإله و الترسندالي. بهذا الصدد، يقول: ((إنّ تحكم على الأمور دون اللجوء إلى الله و الاستعانة بأحكامه و وصاياه، هذا يعني أنّهُ لم يعد هناك وسائل مضللة و زائفة تخدع الإنسان النبيل الصادق في حياته)).

بما أنّ نيتشه كان يروم أنّ يحدد معالم المصدر الإبداعي، الحقيقة الصغيرة التي يحملها معه، يفسره، و يرسم خطوط غامقة حولها، عند الإنسان، و يمسك بها بعيداً عن و بمعزل عن الترسندالي، فإنّه لم يعثر في بحثه هذا، بالرغم من أنّهُ كان يرغب بشيء أكثر من الحياة، إلاّ على المعرفة البيولوجية، أو لم يجد بين يديه إلاّ جملة من الوقائع السيكولوجية و الاجتماعية فحسب كمحرك لهذا الإبداع. إنّ الأخلاق الجديدة، التي يدعو نيتشه إليها، هي ((أخلاق الطبيعة)) ، و هذا الأمر تم تأكيده على الرغم من كلّ الأفكار التي تجعل منها أمراً لا يطاق، و لاسيَّما حين يقول: ((كلّ المذهب الطبيعي في الأخلاق – أعني، الذي يحمل فكرة، و مفهوم، انطباع، و صدى أخلاقي، محكوماً في الواقع بغريزة الحياة في نهاية الأمر)).

على سبيل المثال، يوضح مطلب ((حاول أنّ تكون نفسك)) بواسطة الإبداع، الهدف الأساسي لنيتشه – صياغة الأخلاق الجديدة ليس بواسطة الاحتكام للمصادر الوجودية لتأكيد الوقائع الطبيعية (و بذلك الموجودات القابلة التحقق منها بطريقة ملموسة داخل العالم المصنوع فعلا من أجل البصر). في التطابق مع هذا الطرح أعلاه، يؤكد نيتشه على الطبيعة المتغيرة و المتطورة لهذا الوجود و صيرورته بدل من الإيعاز إليه بطبيعة ثابتة معينة له، حيث يقول الآتي: ((يصبح الرجل محترم فقط لأنّهُ محترم – أعني، لأنّهُ ولد مع رَأسُمَالِ الغرائز الغنية للطبيعة و شروطها المفضلة من حوله. من جانب أخر، ندرك اليوم أنّ من الاستحالة الفصل تماما ما بين الجانب الأخلاقي و الجانب الفيزيولوجي للإنسان)). من المستحيل في مستوى الوجود أن نفصل العامل الفيزيولوجي أو السببي (و لا نقول أيّ شيء بخصوص العامل السيكولوجي و الاجتماعي) عن الوجود الممتلئ بالقيمة و المعنى بفضل الإنسان. كلّ ما نعرفة عن أنفسنا عن طريق البحث و الاستقصاء العلمي يرتبط بحقيقة المعنى و الغاية اللذان لانستطيع العيش دونهما. و لكن، بصورة غير منفصلة عن الوجود المُلاّحظ الذي نعرف بواسطته مَنْ نكون، هناك أيضاً شيء آخر مهم ينبغي ذكره: يتجاوز منبع الإنسان و نشأته بذاته و يتعالى على العلم وسلطته المعرفية. لا يمكن التميز بين الواقع

الفيزيولوجي و السايكولوجي إلاّ مفهوميا – الأمر الذي لا يسمح في أن يكونا متشابكين الواحد مع الآخر و يسمح بفصلهما في الذهن فقط: (1) الوجود الذي ينبغي أنّ أكونه ربما يمتلك ببساطة معنى و مدلولاً في أن يكون هكذا أو على تلك الشاكلة (مع عاقبة حجب الإنسان لحقيقة أنّهُ موجود يأس و قانط): إنّهُ فقط موجود على هذه الشاكلة و بهذه الطريقة؛ لم يعد الواجب إذاً يمتلك معنى حقيقياً و لكن فقط كضرورة عنيدة متصلبة. أو (2) أن الوجود الذي يجب أن يكونه الإنسان يعني أيضاً القوة الشاملة و المطوقة للإمكانية (das umgreifende der Möglichkeit)، و التي لا يمكن أن أعرفها كشيء ثابت و محدد و لا يمكن أن يعرفها أيّ أحد آخر – و هذه بالمناسبة تشكل هُوِيَّة الإنسان. هذه الإمكانية تبقى مفتوحة و تبوح، و تبين المرة تلو الأخرى، من أكون أنا (بينما يقود الحجب-الذاتي لها فقط إلى التأكيد المتكرر لنفس عقدة النقص و مركَب الدونية أو التفوق المتخيل عند الإنسان). على مستوى الحقائق و الوقائع الفيزيولوجية، ينكر نيتشه ((السمة الثابتة)) و يدين و يشجب ((إيمان الرجل، الإنسان العادي، بما هو عبدُ لكدحه و عمله أو بما هو دابة للركوب، بوصفه وصل إلى صورته النهائية الأخيرة)). من الزاوية السيكولوجية، و خلافا لهذا الإيمان الأرثوذوكسي التقليدي، نحن في الواقع موجودات حرة، نختار ما نريد من مجموع إمكانات متنوعة و مختلفة متوفرة و متاحة و متيسرة أمامنا. و لكن هذا المصدر الذي بواسطته يتم تقرير ((أننا حقاً أحرار)) في فعله – هذا الوجود لا يمكن تشخيصه بواسطة الإجَراءِات الموضوعية لعلم دراسة الشخصية و أنواعها و تطورها و لكن بواسطة مَنْ نكون نحن – إنّه قرار يتعلق بما ((نريد أن نكونه نحن بذواتنا!)). خلافا لذلك يمكن أن يكون الأمر ((محفوف بالخطر)) جداً و يكون مكشوفا لكل أنواع سوء الفهم. إنّ القانون المحدد للإنسان و معنى وجوده و يحسم الأشياء هو القوة الإبداعية فحسب. إذنْ، حين يقول نيتشه ((حاول أن تكون نفسك))، فإن هذا يعني تحدي مباح و مسموح به في نطاق عدد قليل محدود من الناس، لكنه يعدّ أمراً لا لزوم له و غير ضروري في نظر القلة القليلة من تلك القلة، بل حتى هذا التحدي – الإنسان بوصفه قوة إبداعية، و أن الإبداع هو المبرر الوحيد لوجود الإنسان – ربما يصبح دون معنى حين يبجل المرء النظرة التي تقول أنَ الإنسان يمتلك طبيعة موضوعية محددة و ثابتة. و لكن معنى الخطر الوجودي الحقيقي و المتمثل بحقيقة أن الإبداع ربما مطلقا لم يحدث – و الذي يطالب به الوعي النيتشوي بإلحاح و مثابرة غير عادية – قد تم نقله و إيصاله بصوت مسموع إلينا.

المحايثة تعكس و تناقض ذاتها. ـــ أيّ أحد منا يعتقد أنّهُ يمتلك نوع الحرية، التي ينكرها نيتشه، فإنّهُ يرى أو يعدّ تلك الحرية غير منفصلة عن نفسه، و في هذه الحرية أو في شعوره أنه حر يجرب كلاً من حالتي الإلغاء و الأمان في مواجهة الترسندالي. لكن، الإبداع، الذي يستبدله نيتشه بدلاً عن الحرية الوجودية بوصفه تحقق الجوهر الوحيد لنوع حريته، ينتهي داخل نفسه أو يضيع، بما أنَهُ يعتمد و يعول فقط على نفسه. يمتلك الإبداع الشخصي، سواء واجه المعوقات في طريقه أو استمر و واصل فيه بلا معوقات، طبقاً إلى فلسفة نيتشه، وعيا في القدر بدلاً أن تكون له عَلاقة بالترسندالي. بدلاً من الترسندالي يضع نيتشه في مكانه ((الضرورة))، التي يجب ألّا نتحملها فقط بل يجب أن نحبها أيضاً، مقتنعا ميتافيزيقاً أنّ كلّ حادث يقع لي و كل واعز أو دافع يتحرك في داخله يظهر كمعنى في العَلاقة بكلّ خطوة من خطوات تطوري كمبدع. و بهذا، لا تدرك الضرورة – التي لا تغير مجراها بأيّ فعل من أفعالنا – بصورة مغايرة تماما عن الحرية، التي ينكرها، مع أنهّا تختلف من ألفها إلي يائها بشكلٍ أساسيّ عن الضرورة المؤولة سببياً لنظام الحوادث السايكولوجي و البايلوجي. و على الرغم من كلّ شيء، ينتج النوع الأول من الضرورة أعلاه لنيتشه الوعي الترسندالي/ المتعالي للوجود ضمن الكل؛ أما المعنى الثاني من الضرورة، فيقدم له فقط نوعاً من المعرفة النسبية للعلاقات الخاصَّة ضمن العالم.

قادَ، موضوعي الإبداع و الخلق دون الترسندالي / المتعالي و الوجود-الذاتي للإنسان دون وجود الله، نيتشه، الذي لم يكمم فم الحقيقة، بالضرورة إلى استنتاجين مهمين. حينما يتوقف تناهي الإنسان على أن يكون دليلاً على التناهي، لأنّه لم يعد مرتبطاً بأيّ لا تناهي خارج وجوده – أعني حين تواجه الحرية الإبداعية الخلاقة العدم بدلاً من الترسندالي (بمعنى حين لم يعد الإنسان يؤمن بأيّ شيء خارج ذاته فإنّ تناهيه و محدوديته لم يعد إشكاليّة أو عائق و لايؤخذ بالعادة على محمل الجِدّ)، فحينها أما (1) يكون الإبداع واقعاً زمانياً تاريخياً مؤقتاً لا يمتلك صَلاحِيَة المعيار أو لايكون معياراً صالحاً يُطبق على الأشياء، أو (2) يؤلّه الإبداع و يتم تبجيله كشيء سامي. و فيما يعبر الاستنتاج الأول عن التجنيس، يعبر الاستنتاج الثاني عن المعنى الهجين. في الواقع، كلا الاستنتاجين ليس لهما أيّ عَلاقة بالترسندالي المتعالي من بعيد أو قريب – بل كل واحد منهم، بالأحرى، يمثل طريقاً تصبح بواسطته ثقة الإنسان بنفسه راسخة واضحة و قوية و تتحول حدوده من عوائق بالمفهوم التقليدي إلى وسائل ناجعة لتحقيق حالة الاكتمال و الإنجاز. عبر نيتشه عن هذين الاستنتاجين بلغة فريدة و جريئة قلبت حقاً التفكير المنطقي، هذا المفهوم المستكشف منذ أرسطو –

الذي يخطئ حين يلخص المشاعر المأساوية في شعورين مزعجين: الخوف و الشفقة، لأنه لو كان على صواب لكانت التراجيديا فن يُنذِرُ بالخطر – و حتى الوقت الحاضر، نفسه رأساً على عقب.

(1) في تبني مقاربة، تقع في الأصل، خارج مواقع و ميدان الأخلاق، يعتقد نيتشه، الذي يسير على خطى الأبطال – الصدف الموفقة التي نجدها في الجنس البشري – إنّهُ يتفق إلى حدّ بعيد مع يسوع المسيح. بهذا الصدد، يذكر نيتشه الآتي: ((وقف يسوع، الذي تكمن أهميته كموقع للعدالة و العقاب يمكن أن يستعمل و يؤول و يبدل باتجاهات مختلفة كل الاختلاف، بالضِدّ من هؤلاء الذين يحكموننا، كان يريد أن يحطم و يقوض و يقضي على الأخلاق السائدة في عصره، الأداة التي يتمكنون بواسطتها من الظُفُر بنا)). ((يقول يسوع... إذا كنا أبناء الله حقاً! فلماذا نقلق أو نهتم بالأخلاق و شأنها)). كان نيتشه يرى في دعوة يسوع الثورية التحقق المتوقع لفكرته (نزع ضبابية التقديس و التبجيل عن الأشياء)، كان يرى فيها أكثر من دعوة إلى قيام أخلاق جديدة – و هذا بالضبط الذي كان نيتشه نفسه يسعى جاهدا لتحقيقه: ((الله، الذي ينبغي أن يُدّرك كحالة متحررة تماما من الأخلاق، يحتوي في داخلة على كلّ التناقضات، يعمل على معالجتها و تبريرها في ظل العذاب الإلهي: الله بوصفه الموجود في منطقة ما وراء ...الخير و الشر)).

بالتطابق مع طبيعة هذه المقدّمة أطلق نيتشه، في المراحل المبكرة من حالة الجنون الذي أصابته، على نفسه اسم – المصلوب – و كذلك لقب ديونيسيوس.

(2) بذات الطريق تظهر الثقة بالنفس عند نيتشه في تجاوز كل حدود الأخلاق و قيودها، و تبدو و كأنّها عكس و قَلْبَ لطبيعتها و السير عكس اتجاهها – حينما لا تهدف الوصول إلى المنشأ أو الأصل (لم يعد هناك أيّ شيء موجود عدا الطبيعة و الواقع) بل نحو الفعالية المنتصرة ضمن العالم: ((نحن اللا أخلاقيين، نشكل اليوم بلا منازع القوة الضاربة: كل القُوَى الأخرى بأمس الحاجة إلينا. نريد أنّ نعيد بناء العالم على أسسّ الصورة التي نرتئيها)). كلّما يظهر من الأخلاق على أنّ لديه صَلاحِيَة و شرعية كُلّية يتقوض و لاشيء يبقى سواء الواقع الوحشي الصارم و القاسي إلى حد مؤلم في أضِدّاده، الذي لا يبعث الثقة في النفس فيه أي شيء عدا تحقيق النصر لنفسها. إذاً، يمكن للمرء أنّ يستنتج و يعتقد ما إذا كنا تُركّنا ليس مع المزيد من الأخلاق بل بالأحرى مع القليل منها —— الذي يقتصر فقط على وجود قوة الطبيعة. في الواقع، تنفصل الثقة-بالنفس عن الانتصار الشيطاني، في تكشيراته الساخرة، في هذا التعبيرات و الأقوال الآتية الرائعة: ((نحن اللا أخلاقيين– المؤيدين

لمذهب إرادة القوة – القوة الوحيدة اليوم الذي لا نحتاج إلى حلفاء و مناصرين كي نحقق الانتصار... نحن لا نحتاج حتى إلى أنّ نكذب... نحن حتى دون الحقيقة نستطيع أنّ نستولي على السلطة الحاضرة في كلّ مكان و تمتاز بتجميع كلّ الأشياء ضمن وحدتها التي لا تقهر... إنّ السحر الذي يقاتل في صفنا هو سحر القمة و الصرامة النهائية – سحر المنتصرين)).

و لا واحد من الأقوال و التعبيرات المذكورة آنفاً يعبر عن روح و ثقافة الموجودات المتناهية المحدودة التي تعيش حالة من الشدّ و التوتر مع الترسندالي المتعالي و مرتبطة بقوة بالواقع التاريخي. بما أنّ المطالب الأخيرة لنيتشه لم تترك مكاناً لروح الشخص الذي يشعر مقيداً بسبب معرفته المحدودة و المتناهية يصبح كلاً من التأليه و التعظيم حتى العبادة و الغرق في الدرجة القصوى (كفعالية طاغية عند الإنسان)، أمور ممكنة. حينما يبدو التناهي، و الوجود الممكن للإنسان، ملغي و مطرود و مستعبد و محتقر في هذا العالم بسبب وجود الترسندالي، فإنّ الموجودات المتناهية، أمثالنا، تشعر أنّها صامتة خرساء لا حول لها و لا قوة. عطفا على ذلك و في العَلاقة به، تتحول الحرية، في تفكير نيتشه بهذا إلى حالة إبداع و خلق – و لكنها، في حالتها الغامضة غير المحدودة مع ذلك، لا تقدم لنا أساس صلد و أرضية ثابتة يمكن أن نقف عليها بثقة و ثبات؛ في حين أن الإبداع و الخلق بدوره يُستهلك و يذوي في انفجار يخلف وراءه آثار الإله الوهمي و العدم.

و أخيراً، دائماً حين نعود من التأليه و التبجيل و الشيطنة و الانحراف نعثر على المجال الواقعي الصلد و المحدد و المهيء للتطبيق في تفكير نيتشه. في الضِدّ من حالة التأليه و التبجيل و المبالغة في الحالات القصوى المتطرفة، يبدو تفكير نيتشه مُهَيَّأً دائماً للعودة لقَبُول فكرة القول الآتي: أمر أساسيّ لنا و لرجولتنا ((أن لا نخدع أنفسنا فيما يتعلق بموقعنا الإنساني الذي نحتله و الأرضية التي نقف عليها: بل علينا أن نتقدم بحزم طبقاً إلى معيارنا)). بيد أنّ الإنسان ينبغي أن يعثر على حدوده في هذا العالم بواسطة اقتفاء طريق الحياة. وبواسطة البحث عن هذا الطريق، ينجز نيتشه مهمة الإنسان المتمثلة بوضع الحدود لنفسه.

بالتأكيد، هناك أوقات يشعر الإنسان فيها أن هذا الطريق عديم الفائدة و ميؤوس منه. فوضعه، الذي لا يسمح له أما أن يعيش وفقا للأخلاق أو دونها، يُوصف على النحو الآتي: ((ربما يساورنا الاعتقاد و الشك أنّ الشيطان – الذي يخرج الأشياء من محيطها قبل أن يهاجمها – اخترع

َالأخلاق كي يعذب الإنسانية بها بواسطة و بحُجَّة غرورها و كبريائها، و ثانيا لأن الشيطان أحياناً يسلب هذه الكبرياء من الناس ليجعلهم يعانون جحيم احتقار الذات و الحط من قيمتها)). استحالة هروب الإنسان من هذا الوضع يجعل الإنسان ((ربما يفكر ببساطة في التواري عن هذا العالم بسبب أخلاقه و عذاباتها)).

بيد أن الحل، الذي بقي متاحاً أمام نيشة، تشير إليه في الواقع العبارات الآتية: ((نحن اللا أخلاقيين الذين لدينا الجرأة أن نحيا في عالم خالي من الأخلاق – نحن الوثنيين – نعرف بماذا يفكر و يعتقد الوثني: يريد أنّ يتصور و يخترع موجودات أعلى من الإنسان)). يعتقد نيتشه أنّ هذه الموجودات، التي تتجاوز الإنسانية في مقامها، من المتوقع لها أن تنبثق وتخرج من معطف الإنسان، الذي لا يكف عن تشكيل نفسه و صياغتها في هذا العالم. في مكان الإله و الأخلاق تكمن صورة الإنسان الذي يصبح ذا معنى و قيمة بواسطة حثنا للصعود فوق إلى الأعلى نحو السامي.

مفهوم الإنسان عند نيتشه كقوة نشيطة ودافعة

تمثل مفاهيم الإنسان أما (1) حالة وصف للأنماط الواقعية الملموسة للحياة أو (2) إنهّا خطط وتوقعات للإمكانات الإنسانية المقبلة. تتحرك المفاهيم التي صاغها نيتشه حصراً على هذين المستويين أعلاه. يمثل المستوى الأول تعدداً و تنوعاً كبيراً في الصيغ والصور الوجودية: الأنواع و الأنماط الاجتماعيّة، على سبيل المثال، التاجر، السياسي، الكاهن، الذي يريد الاستئثار بحق الانتقام، و قس الأرواح – الذي ربما لم يكن الرجل المناسب للدفاع عن مثله الأعلى، لنفس السبب الذي يجعل المرأة تخفق دائماً في محاولتها عندما تتصدى للدفاع عن المرأة؛ فهو يريد أن يجعل من نفسه النموذج الراقي للإنسانية. يريد الهيمنة على الذي يملكون القوة ليكون القوة الأكبر بواسطة وسيلة العلم، أيّ أن الكاهن، الذي يحتفظ لنفسه مباشرةً بالحق في الكذب وحده الذي يمتلك الحقيقة و الفضيلة و هو الوسيط بين الله و الإنسان – الباحث، بالإضافة إلى العديد من الاختصاصات الأخرى المتنوعة. ليس من الضروري أنّ نعيد ترتيب هذا الكم الوفير المسهب من الدراسات السيكولوجية عن هذه الاختصاصات و ننقلها أو نقدم تقرير عنها. الشيء المهم الذي ينبغي ملاحظاته هو أن حتى هذه التمثلات السيكولوجية تنقل حالة استياء و سخط غامض يقود الواحد نحو ((الإنسان المتفوق)). طبقاً إلى المستوى الثاني، فإنّه يبين لنا طرقاً متعددة يتجاوز بواسطتها الإنسان نفسه و يتعالى عليها. أما أنّ يغدو الإنسان و يصبح رجلاً متفوقاً بصورة جيدة لكنه مع ذلك يجد نفسه في خطر بواسطة

الوقوف بالضِدّ من واقعية الحياة – بوصفها نتيجة من نتائج الحرب و المجتمع نفسه وسيلة للحرب – أو يجد نفسه مُستهلَّكا بواسطة إحساس عدم الرضا عن النفس الذي يصيبه بالإحباط و يحتاج إلى التغلب عليه. إذاً، ينظر نيتشه أخيراً، فيما وراء كل ((الرجال المتفوقين))، نحو الإمكانية الأخيرة و يعثر على نموذج ((السوبرمان)) في المستوى الثالث – بوصفه الهدف و الوَسْط الحقيقي الوحيد الذي يعثر فيه الإنسان على نفسه.

ليس مفاهيم الإنسان مجرد تمثلات وتصورات للواقع الإنساني، و لكنها أيضاً صيغ واضحة-بذاتها ، يفترضها الإنسان كي يحقق إمكاناته و يترجمها إلى الواقع – و هذه المفاهيم هي أما أنواع مثالية يقوم بواسطتها الإنسان بتوجيه نفسه، خلافا للأنواع المضادة الأخرى التي ينبغي أن أتجنبها، أو أنواع موجه و مرشدة للطريق الذي يجب أسلكهُ. تمتلك هذه المفاهيم، في الأساسّ، وظائف متخيلة استخدامها كي أطور نفسي، حينما انظر إلى الأنواع المثالية، خلافا للأنواع المضادة، و بوسعي بواسطتها أنّ أعي حجم القوة الدافعة للأنواع المرشدة و الموجه في أشكالها غير المحددة. يمثل مفهوم ((السوبرمان)) عند نيتشه، القول الذي يبدو مزعجاً للآذان العجوزة و ثقيلا عليها، واحد من الأنواع المثالية و الأنواع المضادة لما هو شاع في آن واحد. فهذا المثال عن الإنسان يعلن على أنّ كل المفاهيم الأخرى المحددة عنه ينبغي تقويضها، و يشير في نفس الوقت، الذي لم يفت بعد، على أنّه انحراف عن طريقه الحقيقي حينما يتم اعتباره كاملا. من جانب آخر، يؤدي الشكل غير المحدد ل ((سوبرمان))، بوصفه مثال مرشد و موجه، وظيفة منعي من الانهيار و الضمور بينما نحيط و نتمسك بالمثال المحدد.

تشير خطط، توقعات و تنبوات نيتشه، التي على دروب جديدة تمضي، إلى حجم الصراع الذي يعيشه الإنسان الحقيقي، الذي دائماً يحتاج إلى فرصة ثانية على الأرض، و ما يعانيه. اللامساواة بين الناس لا تعني فقط أن هناك طرقاً لا تعد و لا تحص في إدراك وجودهم الواقعي، و لكن أيضاً هناك مفاهيم عدّة عن الإمكانات الإنسانية التي يمتلكونها لا يمكن أنّ تكون أو تنتظم في خيط واحد و تجمع معا في مثال واحد مفرد صالح. حينما أجد مفهوم الإنسان يحوم أمامي، خلافا لكونه موضوعاً مطروحاً للتأمل، و يؤثر بي بشكل فعال و يستحوذ على انتباهي، حينها فإنّ كل أقوالي و تعابيري و مطالبي و إرادتي تصبح بمنزلة صراع صامت من أجل تحقيق هذا المفهوم، الذي يظهر ليلبي حاجة تاريخية قصوى، فعلاً. يتحدى نيتشه، و يقف بالضِدّ من مفهوم ((الخير و

العدل السائد)) الكاذب و كأنّه لا طريق غيره صحيح و يمثل الحقيقة و يحتكرها بإطلاق: ((أنتَ لا تصارع من أجل العدالة، فما أنت إلاّ شخص واحد، أنت تصارع من أجل أنّ تنال و تظفر و تحقق النصر لمفهومك عن الإنسان. انظر! هذه هي إرادة زرادشت للعدالة: ينبغي لكلّ المفاهيم الأخرى عن الإنسان أنّ تتهشم و تتكسر على صخرة مفهومه عن السوبرمان)).

عانى نيتشه كثيراً في صياغة مفهوم الإنسان. كانت مهمته – في أنّ يراه بصورة صحيحة و فعالة-واضحة له، و لاسيَّما في مرحلة الشباب، و على وجه التحديد حين طرح على نفسه السّؤال الآتي: ((مَنْ يا تُرى يكرس نفسه و يجعل من ذاته حارساً و فارساً لخدمة الإنسانية – تلك الخزانة المقدسة التي لا تنتهك حرمتها و التي أُودعت و وضعت كل الأعراق المتنوعة ثروتها و كلّ ما تمتلك تدريجيا فيها؟ مَنْ الذي سيرسم صورة الإنسان الحقيقي لنا؟)) إنّ كلّ ما كانت تطالب به نظم الأخلاق السابقة قد نفذه نيتشه و لكن بلا جدوى: ((ليس بوسع الأخلاق أنّ تفعل أيّ شيء عدا أنّ تبني صور متخيلة زائفة و كاذبة للإنسان... ربما تؤثر هذه الصور كثيراً في بعض النوعيات من الناس أو في الآخر)).

كي نقدم مفهوم نيتشه عن الإنسان، و نصفه بدقة عالية، نحتاج ربما أنّ نلقي نظرةً فاحصة على المادة الغنية الكثيرة المتاحة في المستوى الأول مع مخططه الرائع للحياة كما هي. غدت صورة الإنسان عند نيتشه حقاً أكثر ديناميكية في المستوى الثاني – أيّ بدأت تظهر ملامح ((السوبرمان)). فيما يقدم المستوى الثالث لديه صورة كاملة للسوبرمان، بيد أن هذه الصورة مع ذلك كانت مجردة جداً و بعيدة عن الواقع الملموس إلى درجة إنها سرعان ما بدأت تتلاشى و تخبو و تسقط في العدم.

الإنسان السامي. ـــــ وضع نيتشه إيمانه و ثقته العالية تماماً و بالأساسّ في مفهوم السوبرمان التي ترتسم على صفحة وجهه هالة غبطة. قوضت فكرة السوبرمان، التي اخترقت ذهن نيتشه على غير علم منه، كل المثل، التي تعرف إليها نيتشه مسبقاً، و بدأت تستحوذ عليه تماماً إلى درجة أنه بدا يتعامل معها على أنّها مفهوم متكامل و كافي. و بذلك ننتهي إلى أن يصف لنا نيتشه، بواسطة شخصية السوبرمان، الإنسان المتحرر من قيوده و أغلاله – ((المتحرر من المفاهيم الخاطئة الجسيمة و الهامة، التي غيرت مجرى حياة الإنسان، و لاسيَّما تلك الذي نعثر عليها في حقول الدين الذي تحفر هاوية عميقة وحدها المعجزة و وهن الاحتقار الكبير يستطيعان اجتيازها – مفعول أيّ

دين من الأديان يعمل بقوة حينما تكون الوقت الذي تعانيه سيئاً جداً، على سبيل المثال عندما تفقد عزيز عليك أو شيء من هذا القبيل – الأخلاق و الميتافيزيقا الرؤية الكلاسيكية ذات الطابع الماورائي)) – الذي يبلغ أخيرا و يحقق أعظم أهدافه: ((فصل الإنسان عن البهائم المتوحشة)). هذا النوع من الحرية الخلاقة، مع ذلك، لا يمنح لأيّ شخص كان، بل ((فقط إلى الشخص النبيل)). ((إنّهُ الشخص الذي ينبغي أنّ يحيا دائماً من أجل الفرح))، الشخص الوحيد الذي يمكن أنّ ينجح في هذه المهمة: ((إنّهُ مازال زمن الأشخاص الراقيين و المتفوقين الساميين و رفيعي الطراز)).

يعتقد نيتشه بقوة بوجود السوبرمان، الذي يصدر عن نزعة الإنسان المركزية في حيازة إرادة القوة، بشكل واقعي ملموس في الحياة، بيد إنّه يعي أيضاً حجم التهديد المرير المستمر الذي يتعرض له دائماً. إنّهُ يتعرض لخطر شديد من الخارج و الداخل على حدّ سواء. فكونه شخصاً فريداً و استثنائيّاً فوق العادة يريد المجتمع أنّ يحطمه و يكبح طموحاته بواسطة القيود التي يفرضها على الناس العاديين؛ الذي يجعلهم خاضعين، مرضى، يعانون الكآبة، الحزن و الغم. فقط ((أولئك الأقوياء على سبيل المثال، بيتهوفن و غوته)) بوسعهم أنّ يقفوا بثبات يواجهوا هذا المجتمع و أغلاله. و لكن ((حتى هؤلاء الأقوياء يعانون من أثار الصراع المتعب و الشدّ و التوتر الذي يصيبهم بالكلل من جَراءِ المواجهة المستمرة مع الناس و المجتمع: يتنفسون بثقل من جَراءِ عوارض التعب و الأعياء و الكلل – و مِزَاجهم و سلوكهم الطيب سرعان ما يصبح عنيفا بسهولة)). يعدّ المجتمع العدو الأول القاسي و العديم الشفقة لهؤلاء الأشخاص المتفوقين. ((الناس بالعادة تكره فكرة النوع العالي و السامي من الإنسان)). فالمجتمع يعاقبهم على انفصالهم عنه و عن الآخرين و لا انتمائهم، و يعد هذا بمنزلة خطأ أو سيئة أو مثلبة أو عيباً. ((على الرغم من النجاحات المتواصلة و المتوالية، و في أماكن متعددة و متنوعة من هذا العالم... التي تعكس تفوق الإنسان الراقي))، إلا أنّ ((سقوطه و إخفاقه مازال يشكل القاعدة)). إنّ الاستثناء – يجب على الاستثناء أنّ لا يحارب القاعدة، لأن القاعدة هي شرط من شروط الاستثناء – للأقوياء الذي لهم حقاً أنّ يحالفهم الحظ السعيد ((كي يقوموا بالخطوة السليمة اللازمة في المكان و الزمان المناسب)). يغلب على الطابع العام لوجود ((أولئك الأشخاص المتفوقون، صفة الانتظار في كل زاوية من زوايا هذه الأرض – و التي كل خطوة صغيرة تمت عليها كانت لقاء ثمن باهظ – يعرفون بشق الأنفس أنّهم ينتظرون، و يعرفون بدرجة أقّل أنّهم ينتظرون بلا جدوى)).

حين بدأ نيتشه يفقد إيمانه بالإنسان، الذي وضع نفسه في جلده و فكر بعقليته، و بكل الأشياء المميزة التي تحظى بمكانة مشرفة و مرموقة في هذا العالم، توصل إلى قناعة مفادها أنّ مفهوم الإنسانية النبيلة غير واقعي – الإنسانية يموت أفرادها الراقون بسهولة أولئك الذي نجح فيهم التطور الذي يتناوب عليهم حسن الحظ و النكد. إنّهم معرضون لكل أشكال الانحطاط: إنّهم يشكلون أقصى درجات التطور و هذا يكفي لجعلهم على حافَة الانحطاط – و لا يمكن أنّ يتحقق بصورة ملموسة. طبقاً إلى نيتشه، يظل مفهوم الإنسان النبيل أمر سري و غامض. بسبب شعوره بالإحباط من كل الأشياء المرئية المحيطة به، بدأ نيتشه يضع ثقته بالإمكانية الآتية: ((ربما يتلاشى الشيء الجميل – الذي لم يكن جميلا لو أنّ التناقض لم يصبح واعيا بذاته ولو أنّ القبح لم يخاطب نفسه بقوله أنا قبيح – ذو السلطة العالية، الذي يولد من الظلمة و من النادر أن يولد قبلها، في ليل لا نهاية له.... مازال الرجل العظيم، و لاسيَّما في الأشياء التي تقود الأمور العظيمة المبجلة، التي تدمر نفسها بنفسها في هذا العالم، غير ظاهر و مرئي بعد و كأنّه نجم بعيد المنال: انتصاره على القوة يظل بلا شهود، و نتيجة لذلك تكون احتفاليتَّه بلا أغنية و لا مغني)). النقطة التالية تبدو أيضاً وثيقة الصلة بهذا الموضوع: ((حتى الآن لا يوجد فنان – بالمناسبة لا تقاس عظمة الفنان بالأحاسيس التي يثيرها و إنّما حَسَبَ درجات ارتقائه نحو الأسلوب الرفيع – ارتقى بحق إلى مهمة تمثيل الرجل السوبرمان و الراقي و السامي – أيّ الموجود البسيط و الكامل في آن واحد. ربما يكونون الإغريق، في مثال مدينة أثينيا، يرون أبعد و أحسن من أيّ واحد يرى في عصرنا الحالي، عصر الحروب أو عصر صِحافة التسلية، عصر السطحية – العصر الذي لم يبدع مثلما أبدعَت العصور الأخرى من الأعمال)).

لقد فقدَ الرجال النبلاء، كوقائع و وإمكانات متطورة، بالنسبة لنيتشه، أيّ مدلول و معنى. أصبح نيتشه بشكل متزايد ساخطاً عليهم و على كل الصيغ الممكنة التي يخرجون منها.

بالنسبة لنيتشه – نشأة التصادمات بين الشخص و النظام هو في رأينا بمثابة مُحكات لتقييم عظمة الشخصية – كلّ صيغة من صيغ العظمة الإنسانية هي عرضة للشك بموجب و بفعل السبب الحقيقي لصعودها. فهو يطرح السّؤال الآتي: ((هل أنتم أيها الرجال الرفيعين ذو المكانة العالية السامية جادون في تسلقكم أم لا... هل تندفعون إلى الأعلى بسبب الانحطاط و الخسة التي تشعرون بها في دواخلكم؟ هل تتهربون من أنفسكم أنتم يا من ترغبون بتسلق الأعالي؟)) يضع نيتشه هؤلاء

بالضِدّ من نظرائهم أولئك الذين يملكون منذ البداية المكانة العالية و المرموقة:((أولئك الذين ينتمون حقاً إلى الأعالي!)) بيد أنّ نيتشه يخضعهم إلى الشك أيضاً أيّنما يلتقي بهم.

تعي شخصية ((السيكولوجي)) في داخل نيتشه حجم التزوير عموما المُمأَّرس بشدة في تبجيل وتوقير العظماء: ((كم يتحمل من عذاب الشخص الذي يعرف الرجال المتفوقين على حقيقتهم، و مَنْ هم!)) و بذلك ينتهي نيتشه إلى اعتبار الشعراء – الذي يعتقد أن الحقيقة موجودة بشكل أكثر عند الشعراء: إنّ كلّ ما لم يخلق إلاّ بواسطة الذكاء وحده فهو خاطئ – ((الموجودات التي تستجيب للحظة، الملهمون، المشبعون بالحس، الطفولة الحمقاء، العبثيون، المتعجلون في الثقة بالأشياء و الشك فيها في أن واحد – هؤلاء الذين يحاولون بالعادة أنّ يخفوا جروحهم الشخصي في داخلهم، يستخدمون كتاباتهم كأداة للانتقام من أنفسهم جَراءِ الدنس الداخلي العالق فيهم، يفتشون عن النسيان الهارب من مرارة الذاكرة الدقيقة و الحادة جداً في رحلاتهم و مغامراتهم الشعرية....)).

غير أن نيتشه لا يعثر على عدم كفاية الإنسان و أهليته، الفكرة التي تتفلت من مراقبة عقلنا، فقط بسبب انحرافاته التي لا تعد و لا تحصى؛ فحين قام بدراسة الصيغ الرفيعة و السامية للإنسان، اكتشف عدم كفاية ماهيته و جوهره الحقيقي. على سبيل المثال، يعدّ نيتشه الوجود البطولي أعلى شيء بالنسبة للإنسان، مع ذلك فإنّه مازال يمثل إمكانية بعيدة له تلوح في الأفق و ما وراه: لم يكن نيتشه مقتنعا أنّ البطل الذي يعشق عليه أن يجر ((الثور من رقبته أو قرنيه))، بل كان يريده أن يكشف النقاب عن ((عيون النسر الحادة)) – هذيانات البطل تعلمنا ما لا نستطيع أن نتعلمه من أذكى تحليل صادر عن أكثر الناس وعياً. إذنْ، الطلب الذي فرضه و وضعه نيتشه أمام البطل: ((عليه أنّ ينسى أنّ يكون بطلاً... فاندفاع عاطفته لم يصل بعد إلى صفاء الجمال الذي بدأ يفنى منذ أن أصبح ظاهرة و تاريخاً على وجه الأرض، هذا أمر محزن لا نحاول جادين إلى تغيره لِئَلّا سبيل إلى تغيره. لا يمكن بلوغ الجمال بأيّ إرادة عنيفة ...)) حتى البطولة الحقيقة تكشف عن عدم كفاية الإنسان المستمرة. شخصية البطل مازالت غير متحققة و مكتملة بعد، لغتها تحمل في داخلها صفة الإنسان، أيّ كل الهزائم و التضحيات مازالت في طور التحول و انتقال: ((هذا هو سر النفس، فبعد أن يهجرها البطل، يجعلها الأمل مرة أخرى – تحلم في البطل الخارق أو السوبرمان)).

كان نيتشه دائماً يشك في التاريخ حينما يحاول المرء فيه ببساطة أن يختلق و يزيف صورة الرجل المتفوق، لأنه يعتقد أن استخدام هذا المثال كنموذج هو في الواقع علامة من علامات الحياة

المزيفة و المخادعة. و خير مثال على ذلك، فلسفة القدماء. فهم ((يجدون من الضرورة أن يخترعوا (بصورة مجردة) و يقدموا صور للرجل الكامل – الطيب، الخير، العادل، الحكيم، الديالكتيكي، الجدلي، السجالي – باختصار، خيال مآتة أو فزاعة، قرد مخادع مسبب للأذى صنعه الفلاسفة القدماء لنا: نبتة يتم استئصالها من جذورها، إنسانية خالية من الغرائز المنتظمة، فضيلة تقوم و ترتكز فحسب على أسس منطقية باردة)).

كل أسئلة نيتشه النقدية عن الإنسان النبيل تقود إلى نفس الخاتمة: لم يكن نيتشه، الذي يريد دائماً الوصول إلى شيء عالي، راضيا إطلاقاً على مضمون أيّ شخصية، سواء كانت حقيقية أو متخيلة. كُلَّما كان عشق نيتشه عظيما للشيء كُلَّما كانت تجربته تثير ألماً عميقاً: ((إنّ ما يثير إزعاجي و يقض مضجعي حول الإنسان، و يجعلني أعاني، هو كماله و ليس خطاياه أو حماقاته الكبيرة)).

يعثر، حب نيتشه للإنسان المتفوق و استيائه و سخطه منه، على وصفه العميق و الدقيق و المحرك في الجزء الرابع من نص ((هكذا تكلّم زرادشت)). يبدو أنّ البشر ذوي المكانة الرفيعة و السامية يفهمون ما يقول زرادشت، إنّهم يبحثون عنه و يتوقعون منه أن ينقذ حياتهم من الضياع و من بؤس عدم الرضا من هذا العالم، الناس و أنفسهم. كل واحد منهم يكشف عن أثر من العظمة في لا كفايته الحقيقية و أوجه قصوره. على سبيل المثال، يظهر الملوك عدم رغبتهم و كرههم لقيادة العامة؛ و يظهر ((أصحاب الضمائر الحية)) حجم التضحية بالنفس الذين يبذلونها في البحث عن موضوعاتهم المختارة و المرادة؛ و يعي ((الساحر)) دائماً أنّ غنى روح الظهور أمام الجماهير – التي تشكل الأكثرية الساحقة من المستضعفين و المقهورين من كل نوع، التي تستمع إلى اللغة الأكثر تأثيراً و متعودة على فكرة الشرعية – لا تشكل العظمة؛ بينما هناك دائماً من ينصح ((البابا الأخير)) بالعادة و ينوره بخصوص المسائل التي تخص الله. يحتقر ((أكثر الناس قبحاً)) نفسه و لا يتسامح مع الشفقة بوصفها تخنيث شائن للشعور و ذر الرماد في العيون – يعيش ((الشحاذ الحر))، الذي يوهم نفسه أنّ الضعف نفسه حرية، حالة نكران راديكالية للذات؛ يظهر ظل ((المفكر الحر)) قساوة في شكية كلماته، قيمهُ و أسمائه العظيمة. كل هؤلاء يقولون و يفعلون شيئاً ما صحيح. للحظة، بوسع زرادشت أنّ يمنح حبه لكل واحد منهم كما لو أنّهُ يرى فيهم شيئاً منه و من نفسه. كل واحد من هؤلاء يريد نوع خاص من الاحترام، كل واحد فيهم له نِقَاط عماه الواضحة حين يحاول أنّ يفهم

فكرة زرادشت. بخيبة أمل كبيرة و عميقة، يخاطب زراشت البشر ذوي المكانة الرفيعة و السامية على النحو الآتي: ((من غير ريب، ينبغي أنّ نكون جميعنا بشر متفوقين ساميين، و لكن ليس متغطرسين و أقوياء و مفترين أكثر من اللازم – بالنسبة لي. ما يتعلق بعبارة (بالنسبة لي) الأخيرة فأنّي أقصد بها الجانب العنيد المتعذر تغيره و الصامت في داخلي)). رفض نيتشه هنا يفترض العديد من الصيغ. لا يولي نيتشه اهتماماً في ((البشر الكثير الشوق و الاشمئزاز و الملل)). إنّ الأساس في وجود هؤلاء البشر و حياتهم هو العدم. لهذا السبب، يوجد في كلّ حاجاتهم عنصر الخوف – الخوف من الآلم و الدنس و الهلاك أسباب لفشل كلّ شيء– الذي يجعلونهم يتجنبون المغامرة في الأفعال الحاسمة و التعرض لخطر الإخفاق: ((بالطبع كل هؤلاء، الذين يشبهونك، و الذين يقفون على أقدام ضعيفة عاجزة، سواء كانوا يعرفون ذلك أو يخفونه عن أنفسهم، يريدون أن تتم معاملتهم بتساهل و تسامح)). نتيجة لذلك، يخضع نيتشه وجود هؤلاء الأشخاص، من الأساسّ، إلى السّؤال: ((أنتم أيها البشر ذوو المكانة الرفيعة و السامية، أنتم أيها المتفوقون، ألاّ تشعرون بالفشل و العجز و الإخفاق؟)) مازال الإخفاق و الفشل ينال القيمة بواسطة التضحية، لكنهم يفشلون و يخفقون أيضاً في ذلك: ((أنتم أيها البشر ذوو المكانة الرفيعة و السامية، أنتم أيها المتفوقون، لم يتعلم أيّ واحد منكم الرقص ما وراء نفسه! ما الذي يهم إذا أصابكم الإخفاق و الفشل!)) الطريقة التي تكشف عن إخفاقكم و فشلكم بسبب سوء الفهم بلا رحمة، توجزها المقاطع الشعرية التي يصفها فرحكم بحضور زرادشت و تخلصكم من بؤسكم، تاركين أنفسكم للفرح و الضوضاء و الضحك: ((معي ينسون تماما البكاء بفعل المحنة و الكرب، و لكن لسوء الحظ مازالوا يبكون)). مازالوا ((لا يرون في زرادشت الرجل العظيم الموعود)).

معارضة عبادة - البطل —— لا أحد بوسعه أنّ يجتاز الاختبار إذا كان الهدف هو الكمال. أيّ شخص يجعل من نموذج خاص معين للإنسان دين له، كما لو أن هذا الإنسان كامل، فإنّهُ يحط من قدر إمكانياته الإنسانية و يذلها. في كلا الأساسين أعلاه، يشجب نيتشه الخضوع غير المشروط لنفوس البشر لأيّ رجل كان و مهما كانت مكانته و درجته. التاريخ يقدم إلينا أمثلة مرعبة بهذا الخصوص: ((البشر، أولئك الذين يحيطون بنابليون...، يصبغون روح قرننا بلون الانبطاح و الخضوع الرومانتيكي المقرف أمام البطل)). أولئك المتعصبين للمثال المتكون من لحم و دَم، طبقاً لنيتشه، هم على حق مادام كانوا سلبين، لأنّ أصلهم الحقيقي يكمن فيما ينكروه و هم مطلعون على ذلك إلى حدّ بعيد. و لكن حالما يؤكدون، بطريقة مطلقة و بلا ريب، على مثالهم في الشخص

الطبيعي، يصبحون مخادعين، لأنهم يضعون شخصية البطل الذي يريدون في مكان بعيد لا يمكن الوصول إليها إلى درجة يصبح فيها غير مرئي و لا يمكن الوصول إليه. فضميرهم يدرك بسرية كيف حدث هذا. حينما ((يخدع حتى الشخص المؤلهة نفسه علنا و بطريقة مفتوحة في صيغة مقرفة و بغيضة مثل اللا-إله الذي هو إنساني مفرط في إنسانيته))، حينها يصل عُبَّاد البطل المتعصبين إلى حالة جديدة من خداع-النفس: هم يختلفون بشدة مع أنفسهم بشأن ذلك و كمفسرين يجربون شيئاً ما في طبيعة الاستشهاد و العذاب العظيم.

السوبرمان. — تخلى نيتشه عن كل نوع من أنواع ((السوبرمان))، النافذة التي نطل منها على العالم، و رفض كل نوع من أنواع التأليه و التعظيم حتى العبادة لأيّ شخصية بسبب الباعث الفكري الذي لم يسمح له أن يرسي دعائم مضامينه و محتوى أفكاره على أرضية محدودة و يسجنها في أطر كُلّية ثابتة. إذا فشلنا مع القوة العالية التي نؤمن بها فذلك لأنّ هناك قوة أخرى أعلى و أ قُوَى منها. و إذا فشل الإنسان حتى في تبنيه لنموذج ((السوبرمان))، فالسّؤال الذي سوف يطرح نفسه: كيف بوسع الإنسان أن يتجاوز نفسه؟ أراد نيتشه أن يزودنا، بواسطة فكرة السوبرمان، بالجواب عن هذا السّؤال. كل واحد منا يواجه الفشل و الإخفاق الكلي، لهذا السبب يهتف زرادشت بقوة: ((بما إنّ الإنسان كائن مَعْرِض للفشل و العجز و الإخفاق، دعنا لا نتوقف و نحاول في كافة المجالات الواقعية و الاتجاهات و نستمر في التقدم!)). تذهب رؤية زرادشت عميقا و إلى أماكن بعيدة غير مأهولة لتصل إلى ما هام جداً بالنسبة له: ((شخصية السوبرمان قريبة جداً إلى قلبي، و هي تمثل اهتمامي الأول و الوحيد – و ليس الإنسان: في الإنسان، لا أحب جاري، أو الفقير، أو الحزين-المتألم، أو الأفضل... ما أحبه في الإنسان حقاً بوصفه مرحله تحول و انتقال و انحطاط)). لا يهتم نيتشه لا في الجانب المرئي و لا المخفي عند الإنسان – بل في المستقبل الذي يكمن وراء الإنسان الذي ينبغي أن يبلغه.

تحقيق فكرة السوبرمان في الواقع هو مهمتنا القادمة: ((في طبيعتنا، توجد هناك قوة مفطورة مركزة في الإنسان، تثوي و توجد هناك رغبة غريزية فطرية لخلق وجود أعلى منا. لخلق شيئاً ما وراء أنفسنا. هذا هو الهدف الذي يحفزنا أنّ ننتج، كما إنّهُ السبب الملح وراء نشاطاتنا و إنجازاتنا. و كما أن الإرادة تضع لنفسها هدفا تحاول بلوغه، كذلك يفترض الإنسان موجوداً، يمنح له، أثناء

وجوده في هذا العالم، معنى و هدف و غاية لحياته)). ينبغي لموجودات أنّ يتم خلقها، ((في مواقفها المتسامية، بطريقة أبعد و أعمق بكثير وما وراء حدود النوع الإنساني كليًّا)).

هل كان إيمان نيتشه و اعتقاده هو الباعث وراء خلقه و إبداعه لفكرة السوبرمان. يقول نيتشه الآتي بترقب: ((على الرغم من ذلك، تخطر على بالنا بعض الأحيان، فكرة الرجل المخلص المحرر... الذي يمنح الأرض معنى و هدفاً... هذا هو الانتصار الحقيقي على الله و العدم معًا)). هذا في الواقع يعني البديل هنا عن الألوهيَّة العظيمة، كما هو الحال في مذهب ((العود الأبديّ)) الذي يلعب دوراً مهماً في تاريخ فلسفة نيتشه. ((لقد مات الله. و هدفنا أن يحيا بدلا عنه السوبرمان و يعيش)).

تبقى صورة السوبرمان، كما يراها نيتشه، غير محددة الملامح و غامضة بعض الشيء. يكمن ثقل فكرة نيتشه هذه في الوزن الذي يحدده لها و الثقل الذي تحظى فيه. و لكن حتى هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يبقى غامضاً:

يطلب نيتشه من الإنسان أنّ يثبت ناظريه نحو المرتفعات و الأعالي السامية الشاهقة. و ينصح، موجها كلامه إلى أولئك الذين يروموا أن يفهمون طبيعة و خاصية البشر العظام، بالآتي: ((ينبغي أنّ تكون لك القدرة في أن ترى الموجودات التي تقف على مرتفعات شاهقة و على بعد مئات الأميال فوقنا!))

لكن، مفهوم كهذا تغلب عليه بالطبع الصفة التأملية. إنّ ما يحسب حقاً عند نيتشه هو النشاط و الفعل الذي يبغي تحويل هذه الفكرة و ترجمتها إلى واقع ملموس و صُلْب. في معظم تفكيره تقريبا، يكافح نيتشه بقوة من أجل الإعلاء من شأن مهمة تحقيق فكرة السوبرمان، و ذلك بواسطة الحركة التي تنتج و تولد الجديد، و لاسيَّما بواسطة و عبر ((تقوية التناقضات و الفجوات، و القضاء على الاتِّساق و التماثل و الانتظام و النسقي – منطق النسق التزوير الذي يمارسه النسقي و هو أسوء تزوير على الإطلاق – و إضاءة الجهود الخلاقة المبدعة للقوة المتفوقة و الرفيعة السامية)). بطريقة لا مفر منها، تعمل فكرة السوبرمان على زيادة حجم الخطر الذي يثير، في صيغته القصوى، السّؤال الآتي: ((كيف بوسعنا أنّ نضحي بتطور الإنسانية كي نساعد السوبرمان على الانبثاق و بلوغ

الوجود))؟ يدعو الموقف الأساسيّ الحقيقي إلى التضحية -الذاتية – بالمناسبة قوة التضحية و فعالية الكفارة هي أمور يفعلها الإنسان العادي كي يخيف

الآلِهة و يجعلها ترتعد – كي ينبثق الوجود الأعظم و يأتي إلى الوجود: تمتلك الإنسانية قيمة فقط بوصفها تمثل مرحلة انتقال و انحلال. الأمر الذي يتطلب منا ((أنّ نرقص ما وراء أنفسنا)).

بيد أنّ نيتشه لم يخبرنا مطلقا كيف لهذه الفكرة أنّ تتحقق عمليا على أرض الواقع. لقد طورَ نيتشه فكرة التضحية-بالذات، و كل مواقف الانفتاح، و دفع بها إلى أقصى مدياتها قدر المستطاع. بيد أن فكرته الكُلّية و اللامتناهية، التي تقول أنّ كلّ النشاط الإنساني الحقيقي ينبغي أن يمتلك قوة دافعة نحو الأعلى، تحولت في نهاية المطاف و بشكل غير مقصود إلى مفهوم بايولوجي للتوليد و التهذيب يتوقع أن يخرج منه موجود جديد يقع بين حدود الإنسان العادي من جهة و السوبرمان من جهة أخرى.

بما أنّ نيتشه أخضّع، و بصورة مستمرة، كل المواقع إلى التساؤل النقدي الصادق، فإنّهُ يقوض و يقضي، و بطريقة مفهومة، حتى على ((الأفكار العالية السامية)) المجردة التي تتضمنها فكرة السوبرمان (على سبيل المثال، فكرة الله): ((نحن دائماً نتطلع نحو الأعالي، نحو ميدان السحب العالية، نطلق بالوناتنا المرحة الملونة نحو هذه الأماكن العالية ثم نطلق عليها أسماء الآلِهة و السوبرمان. إنّها تمثل، بعد كلّ شيء، فقط ضوء كافي لإنارة هذه العروش! – لكلاً من الآلِهة و السوبرمان. كم أنا متعب من كل هذا العجز، القصور و لا الكفاية...)).

2

الحقيقة

الحقيقة العلمية و الفلسفيّة (321)

الموقف المنهجي — الأصل و حياة المناهج — حدود العلم — العلم و الفلسفة.

نظرية التأويل: الحقيقة والحياة (341)

الحقيقة كوهم. تطبيق النظريّة — الدائرة الحقيقة و الوجود — الحقيقة و علاقتها بقُوَى الحياة التي تحددها و تقوم بتحطيمها — بلوغ وعي الوجود حدوده.

رغبة نيتشه التي تتوق للحقيقة غير المحدودة (366) الأمانة — العدالة — كيف تغلبت إرادة الحقيقة على نفسها — الشك غير المحدود.

انحلال العقل (386)

الاختراق الترسندالي/المتعالي للحقيق. — (398) عدم القدرة على نقل الحقيقة.خطر الحقيقة/ الخطر المقدم بواسطة الحقيقة — الحقيقة و الموت. — بما إنّهُ لا يوجد أيّ شيء حقيقي، فإنّ كلّ شيء مباح.

وصلت محاولة نيتشه، في صياغة مفهوم صحيح عن الطبيعة الإنسانية، و انتهت إلى نتيجة مفادها تفسخ مفهوم الإنسان العادي و موته و انحلاله. كانت الإرادة المتحمسة عند نيتشه بصدد هذه النقطة جريئة إلى حد أنّها توصلت في نهاية المطاف إلى نتائج بالغة الخطورة. لقد غدا الإنسان، مع نيتشه، كائناً عرضة للضياع، و ذلك يعود، إذا جاز لنا التعبير، إلى حقيقة أن كل أحكامه الأخلاقية و نظمه القيمية أصبحت عرضة للشك و السّؤال – لهذا السبب، كان نيتشه قلقاً و مشغولاً جداً في العثور على حقيقة من مَنْ يتكون وجود الإنسان. النتيجة، أصبح المفهوم الكليّ للحقيقة، سرّ العقلانية، في الفلسفة عرضة للشك، و بدأت إمكانية الحقيقة و العقل كلاهما تفقد مواقعها القديمة و بدأ تأثيرها ينحسر و يؤذن بالتلاشي و الزوال. حينما نبدأ بالتحري عن الحقيقة، تبدأ كلّ أسس الفلسفة التقليدية بالانهيار و تتشظى، و تسفر عن نفسها في مظاهر تاريخية مختلفة، و هذا بالمناسبة ما حصل بالضبط مع منظومة الأخلاق حيث تبدأ بالانهيار حالما يتم خضوعها للاِمتِحَان و النقد و الفحص و السّؤال.

في نفس الوقت، حينما نتأمل و نطيل النظر في طرائق تفكير نيتشه، نجد أنّهُ دون العدة الفلسفيّة المكونة من عمليات التقويض و الدحض و الإبطال و السلب و النقد و معاوله، التي تكشف عن الوجود و تمارس فعلها و تأثيرها على نطاق واسع، يصبح وجود هذا التفكير أشبه بالمستحيل. عند نيتشه، لا يقتصر الأمر فقط على وجود شيء يتم تجريبه قبل أنّ يتم إبطاله و تقويضه و لكن أيضاً يعدّ التقويض و الدحض و الإبطال و السلب و النقد، الذي نلتقي به كموضوع، أساساً في تأكيدات نيتشه و نتائجه الإيجابيّة. لهذا السبب، كل حكم سلبي في فلسفته يستمد زخمه و قوة دفعه من المصدر الإيجابّي و نتائجه المثمرة. على سبيل المثال، أصبح رفض نيتشه للجوهر التاريخي، حينما تحقق فعلاً لديه، نوعاً جديداً من السيادة عليه.

في الواقع، لا يمكن أنّ نضع أفكار نيتشه – التي تخاطب أصحاب الأذهان الحرة المُعَومة العنيدة المتشددة البطولية القانتة الذين هم فخر زماننا – و لاسيَّما المهتمة في اكتشاف ماذا يعني أن يكون الشيء حقيقيا، في نظام واحد متسق. مع أنّ هذه الأفكار في خطوطها العامة – الوسيلة الوحيدة لينقذ نفسه منها هي أن يقولها لنا – مرتبطة الواحد منها مع الآخر و منصهره معه، إلاّ أن نيتشه يؤكد كي نكتشف ماهيتها و أصلها الحقيقي علينا اِقتِفاء ثلاث مصادر مستقلة مغلقة و متكاملة، و هي على التوالي: (1) العلوم المنهجية؛ (2) النظريّة التي تقول ينبني وجود الحقيقة بواسطة الموجودات

الحية؛ و (3) الشغف اللامحدود بالحقيقة. من هذه الحالات الثلاث، نصل إلى المواقع الفكرية التي تضعنا على الطريق الذي يبدو أنه ينتهي بالفشل و الإخفاق: كان نيتشه يهدف إلى نهاية العقل و موته و إنهاء سلطته. أخيراً، قادت كل تلك الأفكار و التأملات عن الحقيقة في خطوطها العامة إلى تجاوز الاختراق و التقدم المفاجئ في المعرفة و القفزات النوعية.

الحقيقة العلمية والفلسفيّة

يتعامل نيتشه – الذي يتصرف وفق قاعدة: يجب أن يكون المرء جرَيئاً في إرادة ما يريد – مع الحقيقة في العلم و كأنّها مصدر مباشر لنا. حتى في حالة تعرض هذا المصدر إلى الشك، و خضع للسّؤال و النقد و التمحيص، يظل مع ذلك يحتفظ باستقلاليته و موقعه المناسب. تبنىَ نيتشه بشكل قاطع الأساسّ العلمي، و كان ينظر إليه بوصفه حجر الزاوية لإشباع حاجة البحث عن الحقيقة.

الموقف المنهجي. ـــ طبقاً إلى نيتشه، يحدد المنهج و يعين حدود العلم و يرسم ملامحه بدقة. ((يرسي ليس فقط المعرفة النافعة و لكن أيضاً الروح العلمية دعائمها على الأعْمِدة الأساسية الصلدة)). لا تعد النتائج الواقعية الملموسة للعلم، دون المنهج، صفات أو خصائص نوعية معينة بحد ذاتها أو أمور يعتد بها لجُلّ الباحثين: ((إذا ضاعت المناهج، سوف تسقط كل وسائلنا الدفاعية التي من شأنها أن تمنع الخرافات و الهراء من الانتشار)). يرجع الفضل في وجود المعرفة الصحيحة الموثوق بها إلى وجود المنهج و تأثيره.

من الصواب القول إنّ نيتشه لم يكتشف منهجاً جديداً في العلوم الطبيعية – كما أنّه لم يقدم على خطوة واحدة يوضح بواسطتها منطقياً المناهج العلمية. و بما أنّه كان يعدّ المعرفة العلمية الواسعة، بفضل المنهج، أمراً مُعطى مفروغاً منه و مسلم به بمنأى عن أيّ شك و تساؤل، فقد كان مهتماً بدلاً عنها في مسالة التقييم الأخلاقي و مستتبعاتها. لم يكن نيتشه مهتما بموضوع المناهج بحد ذاتها – بل كان مهتما بالأحرى في موضوع الموقف المنهجي، وشتان بين الحالين.

يجلب الموقف المنهجي، طبقاً إلى نيتشه، حالة الأمان و السلام إلى هذا العالم: ((يرواد العَالِم و الباحِث معًا نوع من الرضا العميق الثابت بسبب حقيقة أنّ النتائج العلمية هي أشياء غير قابلة للإلغاء كما إنهّا قادرة على تزويدنا بالوسائل التي يتيح لنا استخدامها الحصول على اكتشافات جديدة

مدهشة. و يمكن أنّ يكون الحال خلاف ذلك أيضاً! في الواقع، نحن مقتنعون بالتغيرات الدائمة للقوانين و المفاهيم الإنسانية التي تحدث بفعل الثقة بالنتائج العلمية و مناهجها و هي مدعاة للتعجب و الدهشة!)) يقود المنهج إلى مستوى من الحقيقة تزود كلّ الذين يوظفونها بتجارب فريدة لا غنى عنها لنمط واحد فقط – من مجموع أنماط متعددة – من الوجود: ((كم هو عظيم أنّ تكتشف شيئاً محسوباً و محدداً طبقاً لمنهج محدد! هناك قوانين تظل حقائقها بعيدة عن متناول أيّ شخص دون استخدام المنهج!)).

يبحث الموقف المنهجي عن اليقين بدلاً من الإقناع، و عن حُجَّة الحقيقة الراسخة بدلاً من مضمون المعرفة. و بذلك ينتهي به الحال إلى أنّ يقبل حتى ((الحقائق البسيطة المتواضعة))، و ينظر إلى ((الحقائق المضجرة، المملة، المؤكدة و الدائمة على أنّها متفوقة و سامية بسبب نتائجها و مستتبعاتها المهمة في تحصيل المزيد من المعرفة)).

يقوض الموقف المنهجي و يقضي على كلّ نوع من أنواع المعرفة المطلقة من أجل حيازة معرفة نسبية و متغيرة بالجزئيات التي تنجز و تحقق شيئاً نافعاً في هذا العالم: ((معرفة الجزئيات، بواسطة منهج محدد، ثمينة و قيمة و بذلك ننتهي إلى أنّ تطعن و تكذب ادِّعاء المعرفة المطلقة))؛ ((لقد بدأ الإيمان التقليدي بالحقائق النهائية و المطلقة يتضاءل و يذوي و يضمحل شيئاً فشيئاً)). يسمح العلم ((بسيادة الإنسان على الطبيعة)) دون متطلبات اللجوء إلى المعرفة النهائية للسبب و النتيجة. حينما يحوز هذا الموقف بصورة مؤكدة و منهجية السيطرة على العلاقات بين الأشياء التي يمكن أن تكون معروفة عن طريق المعرفة النسبية، فإنّهُ لا يفقد نفسه في المعرفة المطلقة أو في سلبية اللامعرفة الشاكة في كل شيء.

بفضل فهمه الدقيق لحقيقة إنّ المعرفة الصحيحة – التي هي مجرد تفسير و ليس شرحاً – تقوم في أساسها على المنهج، يميز نيتشه، بشكل إضافي، أنّ الموقف المنهجي ليس ببساطة خاصية تعود لعلم واحد من العلوم يقف بطريقة حيادية من الحياة – بل هو بالأحرى إمكانية مفتوحة لكلّ إمرئٍ في تفكيره و تأويله للمعطيات التجريبية التي تحيط و تؤثر فيه و تشكل فعاليته. يصف نيتشه الروح العلمية (أيّ، روح المنهج) كخاصية للعقلانية الإنسانية بواسطة وضعها مقابل نقيضها على النحو الآتي: ((لا يهم عدد الناس الأذكياء الذين يتعلمون النتائج العلمية، فالمرء يكتشف سريعاً بواسطة حديثهم الساخر الذي يتناهى إلى مسامعه أنّهم يفتقرون إلى روح المعرفة العلمية الحقيقية،

أيّ تنعدم لديهم الثقة الغريزية الضرورية و الشك في ضلال و انحرافات التفكير. فمجرد وصولهم إلى البعض من الفرضيات حول شيء ما معين يملأُهم بالحماسة، و مجرد معرفتهم لبعض الآراء و الحقائق البسيطة يجعلهم متعصبين حتى النخاع)). بالضِدّ من اضطراب و ضجة و لغط الآراء و التأكيدات، تمثل سيادة المنهج العلمي صراعاً هادئاً مستمراً. ((الناس ذو العقلية العلمية)) يعرفون، قبل كلّ شيء، ((أنّ قدرة التسلية التي تتوفر عليها كل أنماط التصورات و الخيالات و الآراء المسبقة الكسولة ينبغي أنّ تخضع للمراقبة الشديدة بواسطة الروح العلمية و مناهجها)). بسبب النتائج المخيبة للأمال، و بفعل افتقاد وجود المنهج في مجالات الحياة، يصر نيتشه على النقطة الآتية: ((في الوقت الحاضر، و تحديداً الآن، يخلق بكل إنسان أن يكون له إطلاع دقيق و معرفة كافية على الأقّل على علم واحد: حينها فقط سيعرف قيمة المنهج و ضرورة توخي أقصى درجات الحذر في التعاطي مع من حوله)). في الواقع، العمل بجد في واحد من العلوم الصارمة و الدقيقة – التي حري بها أنّ تشرع من الآنَ فصاعدا بتهيئة الشروط التي تخدم مهمة الفيلسوف المقبل غير القادر أيضاً على الاضطلاع بدور الحكم النزيه و المقدر الموضوعي في النقاش الذي نثيره هنا – يزيد من طاقة الإنسان، و قدرته على الوصول إلى الاستنتاجات الدقيقة و المهمة، كما يزيد من صلابته و إصراره و مثابرته، و يعلم الإنسان كيفية الوصول إلى هدفة و إنجازه بطريقة متروية و صبورة. و بذلك، في العَلاقة بهذه السمات أعلاه، يصبح المرء قريب من روح العَالِم و قارباته.

كان نيتشه، الذي بَنَى سماء جديدة في زمن من الأزمنة قد استمد المقدرة اللازمة لهذا البناء من جحيمه بالذات، و الذي تراوده الكثير من الآمال و الخواطر، شديد الإصرار في مطالبته اقتفاء تعاليم و شروط المنهج العلمي، بالإضافة إلى وعيه للقيمة التي لا يمكن الاستغناء عنها الناتجة فقط عن هذا المنهج – كما كان يدرك أيضاً الخطورة الاستثنائيّة التي ترافق تقدمه في مسار التاريخ الإنساني. في السنين الأخيرة من حياته، حين اكتشف أنّ كلّ جهود المختبر العلمي للعالم القديم هي جهود عقيمة و طاقة مهدورة، قدم نيتشه الملاحظة الآتية: ((كلّ الأشياء الضرورية، بوصفها قدرية الوقائع الصغيرة، للثقافة القائمة على التعلم – كل المناهج العلمية – موجود فعلاً و سلفًا هناك. كلها أُكتشفَّت بفعل القابلية العظيمة غير القابلة للمقارنة للقراءة مع تميز الشرط الضروري للتراث الثقافي و لوحدة العلم؛ تقدم علم الطبيعة، في اتِّحاد و تحالف مع علمي الرياضيات و الميكانيكا، في أحسن الطرق الممكنة – إنّ معنى الحقائق و الوقائع، أخر و أكثر المعاني قيمة، لها مدرستها الخاصَّة بها... كلّ شيء ضروري مع مواصلة العمل المكتشف. المناهج (و يجب قول ذلك أكثر من عشر مرّات)

أشياء ضرورية و صعبة جداً؛ و ظلت تصارع و لفترة طويلة ضِدّ التعود و الكسل الذي نجهله أكثر من غيره من بين جميع النزعات، إنّه الأكثر احتداما و الأكثر ضرراً مع أن عنفه لا يحس به و الأضرار التي يسببها تظل مستورة. إنّ ما نستعيده مع انضباط-ذاتي لا يوصف – مقاربة عادلة و غير منحازة نحو الواقع، الإجَراءِ الحذر، الصبر المتظافر مع الجدية فيما يتعلق بالأمور الصغيرة، و كلّ ذلك الذي يخص أمانة المعرفة التي هي ليس شرح لمعاني موجودة في الواقع بل هي إضفاء معاني على الواقع – هو الأشياء التي كانت موجود فعلاً و سلفًا! موجودة منذ أكثر من ألفي سنة)).

أصل وحياة المناهج. — لا يتم تطبيق المناهج بطريقة آلية، لأنّ حقائق العلم ليست منظمة و مرتبة لتكشف عن نفسها بطريقة حيادية لا مبالية كما هو شأن الحقائق الأخرى. ليس هناك شيء يسمى عملية نزيهة تُكشّف الحقائق أوتوماتيكيا بواسطتها. عن طريق اقتفاء أصل و تطور المنهاج العلمية سيكولوجيا، يبين نيتشه أنّ هذه المناهج تتسلم حيويتها من أساس هو بالأصل غريب و معادي للحقيقة. لا يمكن أن نأخذ المنهاج على محمل الجدية، و نعول عليها، حين تتطور وفقا للحسابات الروتينية بواسطة وسائل عقلية ميكانيكية جديرة بالثقة في خدمة غرض معين متناهي ليس إلاّ.

الشيء الغريب عن الحقيقة (و نتيجة لذلك اللا منطقي و لاعقلي) يمكن مع ذلك، أن يزودنا بالأساسّ و ماهية المعرفة المتعددة الوجوه. هنا الكثير من الدوافع و المحرضات على التملص، الملل، التعود، و هذه الأشياء عموما تقود إلى المعرفة السطحية. لكن المصدر المثمر للمعرفة الحقيقية العميقة، مع ذلك، هو الضرورة، بالرغم من ذلك يمكن للوعي المقنع القهري لها أنّ يحجب المعرفة العميقة. يجب أنّ نستفاد من الأوقات الخطيرة و العصيبة التي نَمِر بها، لأن المعرفة تصبح عنيدة و متصلبة و محتومة حين يكون الموضوع – الذي ما هو إلاّ تأثير الذات على الذات، صيغة من صيغ الذات – هو: اكتساب المعرفة أو موتها! ((حتى تصبح الحقائق منقوشة على أجسادنا بحد المدْيَة، نظل نحتفظ بشكلٍ سري بنزعة الاستخفاف بها)).

زد على ذلك، تتطور المناهج في كل مكان كنتيجة لتَجْرِبة و توظيف الجانب المضاد و المعاكس للإجَراءِ العلمي – أيّ الخضوع لكل السمات التي ربما تظهر فيها الأشياء كنتيجة لطرق ممكنة متنوعة للتعامل معها: ((ينبغي أن نجرب و نكتشف طرقاً مختلفة في التعامل مع الأشياء، نكون معها سيئين أو لطيفين على حدّ سواء، و معاملتها بالتناوب بعدالة و عاطفة و برود. مع نفس

الأشياء، نجد رجل يتحدث بصيغة رجل الشُرَطة، و آخر معها مثل كاهن يسمع الاعترافات و يعطي الغفران و المشورة الروحية، في حين يتحدث آخر معها كتائه و هائم و فضولي. هناك من الناس من يتعاملون مع الأشياء بتعاطف و حنو و هناك أناس آخرون يبطشون بها)). لا يمكن أنّ يتم اكتساب المعرفة حتى تجتمع القُوَى المختلفة في داخلنا معا في ((نظام عضوي عالي)). القُوَى الموجودة ضمن التفكير العلمي، تشكل، حينما يتم فصلها، عامل حاسم حين تنضم إلى قُوَى أخرى يقوض و يقضي و يحدد الواحدة منها الأخر بشكل متبادل، و يضع كل واحد منهم الآخر تحت المراقبة. و بهذا، ((مع دافع و إلحاح الشك، نرفض، ننكر، ننتظر لنرى، نجمع المعلومات و المصادر الواردة في المراجع، و نحلل)). ((وسائل المعرفة، الحالات و العمليات التي يهيّئ الواحد بواسطتها الطريق إلى المعرفة... – الوهم، الجذل، التجريد، نزع الإحساس، الاكتشاف، الحدس، الاستنتاج، الديالكتيك، الاستدلال، جمع المواد و تفكيكها، التفكير الموضوعي، التأمل، إطالة النظر – .... كلّ هذه الأدوات حينما تؤخذ على حدة و انفراد في وقت أو آخر تعدّ كل واحدة منها بداية و نهاية – و هي إلى ذلك تشكل المضمون، الذهب، و المجموع النهائي للقيم المعرفية)). لكنها لا تصبح الدوافع و النوابض الفكرية بالمعنى المتعارف للمنهج العلمي ما لم يعزز الواحد منها و ينشط من شأن الآخر و يقيده و يحد من سلطته في نفس الوقت.

في الواقع، الموضوعية، كما يراها نيتشه، هي ماهية و عنوان المعرفة العميقة و البصيرة العلمية الممكنة بفعل نتاج و تعاون قُوَى مختلفة. و لكن من زاوية البواعث و النوابض الفكرية، التي هي نقطة البداية الحقيقية للمعرفة و شرطها، الموضوعية ((لا يمكن أنّ تُفهم بوصفها وعياً نزيهاً لا مبالي – و هذا في الواقع هراء و حماقة – و لكن تُفهم بالأحرى بوصفها قدرة المرء إلى إخضاع الإيجابيات و السلبيات إلى السيطرة أما باستخدامها لإحداث تأثير ما في البحث أو استبعادها عن ساحة العمل لظروف يقدرها الباحث)). الطريقة الوحيدة التي بوسعنا بواسطتها أنّ نعزز و نعلي من شأن الموضوعية هو ((كيفية الاستخدام المعرفي للمنظورات المختلفة و المعاني العاطفية المتنوعة)).إذنْ، علينا أنّ لا نكون ناكري للجميل بشأن ((التحولات الحاسمة في سلم و مراتب القيم المعتادة و المتعارفة و التي تهاجم الروح الإنسانية بعنف في الضِدّ منها... كُلَّما عبرنا عن مشاعرنا بالكلمات عن الشيء، وكُلَّما و وجهنا نظرنا نحوه مباشرةً، كُلَّما كان مفهومنا و تصورنا عن هذا الشيء أكثر كمالا، و كُلَّما غدت موضوعيتنا أكبر)). ((من حين إلى أخر، و بين الفينة و الفينة، نعزز من وجود الحقيقة و نعلي من شأنها بواسطة وسيلة العدالة المزدوجة... حين نرى و نلاحظ

جانبي الشيء الواحد بعد الآخر، بيد أنّنا دائماً ننكر و نتنصل عن الجوانب الخفية منه بواسطة الاعتقاد الزائف أنّ الجوانب التي نواجهها فحسب تحتوي على الحقيقة في كليّتها)).

و بذلك، يشكل الصراع دائماً المصدر الأول للمعرفة العميقة والبصيرة: تعدّ موضوعية التحقيق و الاستقصاء المنهجي نتيجة للقُوَى التي تتصارع لتفرض كل واحد منها سلطتها و قوتها على الآخر – تتجذر الموضوعية في الحياة نفسها، و هي حقيقة ملموسة فقط إذا كانت جزء من الحياة. فضلًا علاوة على ذلك، يمارس الإجَراءِ النقدي لصياغة الأشياء عمله و يضطلع في مهمته في ضوء فكرة الصَلاحِيَة و المعرفة الموثوق فيها و المحمية بواسطة الصراع بين معشر الباحثين للعثور عليها. ((إذا لم يكن كلّ واحد إنساناً قلقاً و مهتماً بشكلٍ عميق في حقيقته، أيّ قلق على وجوده حينها سوف لم يكنْ هناك منهج للبحث إطلاقاً... ينتج الصراع الشخصي المرير بين المفكرين أخيراً تهذيب للمنهج المؤهل لاكتشاف الحقيقة)). إنّ عنف الصراع بين العلماء و الباحثين و التنافس بينهم هو وحده الذي يعزز من شأن مسألة التقدم في العلم – على سبيل المثال، يحتاج الشخص أن يكون مرتاباً و شكاكاً نحو التأكيدات و النتائج التي تطرحها الحقول الفكرية الأخرى البعيدة و المختلفة عنه و يخضعها للفحص و التدقيق، ((بما أنّ الاختبار الشامل الذي لا يستطيع إطلاقاً أنّ يقوم به الفرد أو ينجزه وَحْدَهُ يحدث بالإجبار نتيجة كل واحد من المتنافسين في ميدانه غير موثوق فيه للغاية و يكون مُرّاقب في كلّ خطوة يقوم بها من قبل الآخرين)).

حدود العلم. —— حين وجد نيتشه أنّ المناهج يمكن أن تمثل الأساس الأصيل الذي تقوم عليه صَلاحِيَة المعرفة العلمية، و أطلع على الشروط التي يمكن أن توظف في خدمة الحياة (و تعرف أيضاً إلى ندرة و قلة تحققها بنجاح و سرعة انحطاطها و فقدان أهميتها)، اكتشف القيمة المطلقة في العلم المنهجي. بواسطة تجربته الشخصية، أطلع نيتشه جيداً على دور إرادة المعرفة التي تستهلك نفسها بطريقة مسرفة عاطفيا في الموضوع المبحوث كما لو أنّ العلم يمثل غاية بحد ذاته و لاشيء آخر يوجد بجانبه. لقد كان نيتشه أكثر من أيّ فيلسوف آخر تَبَاهَى في حِقْبَة سيطرة العلم و هيمنته على المشهد الإنساني – و كان يرى أيضاً في نفس الوقت كيف يرتكب المرء خطئاً فادحاً حين يحاول أن يصيغ كل الحقائق بطريقة علمية. في محاولته التأويليّة للعلم، غدا نيتشه واعياً بوضوح لحدود العلم المعينة التي يعبر عنها عن النحو الآتي:

(1) المعرفة العلمية الواقعية الصلدة هي ليست معرفة الوجود. مع بعض التحفظات، يعبر نيتشه في مناسبات عدة عن الرأي الذي يقول إنّنا نقترب من معرفة ((الماهية الواقعية لعالمنا)) أكثر بواسطة العلم. حتى قبل أنّ يصرح بهذا الرأي، يعتبر نيتشه الفكرة التي تقول ((إنّ السير و تتبع خيوط السببية التي تتقاطع يجعلنا نصل إلى أعماق الوجود)) هي ((وهم خبيث)) يمكن أن يقود العلم في الواقع المرة تلو المرة إلى نهايته و حتفه. بناءً على ذلك، لا تظهر العلوم بسبب وجود المشكلات الكبيرة و علامات الاستفهام – فبينما تتعامل العلوم في الواقع ((بنمط صلد و ملموس مع موضوعات جزئية منفصلة و مختلفة كل على حدّة و حسب اختصاصه))، يظل الكون كليًّا أشبه بكتاب مغلق أمام هذه العلوم و عِصِيّ عليها. فإذا لم تصل المعرفة العلمية إطلاقاً إلى الحقيقة الأكثر صدقا للكون، فإنها، و لهذا السبب بدقة، لن تحوز حتى على معرفة محدودة منها: ((في النهاية، يُعبد العلم الطريق لسيادة المعرفة الغائبة ـــ أحساس أنَّ (المعرفة) ببساطة لا توجد و لن تحدث... و أنّ فكرة المعرفة بذاتها متناقضة)). من الأعماق، التي لا يمكن أنّ يصل إليها العلم، يأتي شيء غريب عن العلم إلى الوجود: ((هناك قُوَى مخيفة تواجه (الحقيقة العلمية) مع حقائق من نوع مختلف تماما)).

(2) ليس المهم حيازة الحقيقة بل البحث عنها و طلبها– لأن هذا وحده الذي يرضي الإنسان. هذا هو بالضبط معنى و دلالة السعي وراء اليقين. أيّ إمرئٍ يبتهج بحيازة الحقيقة العلمية يُظهر بالعادة غرور سخيف لامتلاكه ((السلطة و السيادة)) على موضوع صغير مختاراً بعشوائية بصورة أقّل أو أكثر، بينما يرفض كل شيء آخر و يقف موقفاً محايداً من الجهل السحيق السيئ الذي يحيط بمعرفته. ((لهذا السبب، يكشف ليسنغ، أكثر المنظرين أمانة وصدقا، و بطريقة محرجة للعقل العلمي، النقاب عن السر العميق الذي يكمن وراء العلم و بملاحظة تنطوي على الكثير من الخطورة مفادها أنّهُ معني بالبحث عن الحقيقة أكثر من الحقيقة نفسها)).

(3) لا يزودنا اليقين العلمي بأيّ ضمان فيما يتعلق في الأشياء الأكثر أهمية. يرتبط هذا اليقين منهجياً في المعرفة المكتسبة للأشياء المحددة و النسبية – بينما يمثّل الأمان المطلوب الذي يتوفر عليه عمومًا عامل الثقة في الأشياء كليًّا. يقول نيتشه في أحد ملاحظاته: ((إنّ الحكم المسبق الذي يقول إنّ اليقين هو أفضل من اللايقين و أمواج البحار المفتوحة)) ليس موجها بالضِدّ من اليقين المنهجي/ الميثودولوجي للعلم، و لكن ضِدّ إرادة الأمان و الضمان ضمن الكل. فقط ((الشخص

المفرط الضمير روحيا – المرض العميق الذي كان على الإنسان أن يقع بتأثير ذلك التحول الذي هو أكثر التحولات التي خضع لها جذريا، ذلك التحول الذي حصل عندما وجد نفسه مكبلا تكبيلا نهائيا بأغلال المجتمع والسلم)) – هو الذي يبحث عن الأمان و الضمان، و عليه ينصحه زرادشت بأنّ يبحث بدلاً عن ذلك عن ((الشجاعة، المغامرة و البهجة في اللايقين و لا تعب)).

(4) لا تمنح المعرفة العلمية معنى أو غرضاً أو هدفاً للحياة. ((إنهّا لا تشر إلى الطريق؛ لكنها يمكن فقط أنّ تكون نافعة حين يكون الاتجاه معروفاً مسبقاً)). وهي إلى ذلك ليس بالضرورة نافعة و لكن ربما تكون فقط كذلك. بوضوح، لا يضمن العلم أو يحقق الخلاص و النداء اليائس نحوه بواسطة أدواته. ليس هناك ((انسجام و وفاق وتصالح مسبق بين خدمة الحقيقة و رَفَاهيَة الإنسانية)).

(5) لا يستطيع العلم أنّ يجيب عن الأسئلة المتعلقة بمعناه الخاص. لا يمكن للمهمة العلمية و العمل العلمي أنّ ينجز وظيفته إذا لم يكن هناك سبب ما يتملص أو لا يخضع للتبرير و التقييم العلمي. ((لو لم يكن هناك ناس غير علميين بالمعنى الذي يمثله و يعنيه العلم لنا، الوجود المدّرك، ستكون المعرفة مجرد مسألة لامبالاة كاملة!)) وسواء كانت إرادة العلم مدعومة و مؤيدة بواسطة الأهداف و الأغراض العملية (المنفعة)، أو بواسطة أخلاق الحقيقة، أو متعة الوعي التأملي، أو بواسطة الأهداف التي تضعها الفلسفة – فإنّها، في كلّ الأحوال، تمثل دائماً شيئاً إضافياً تساعد على انبثاق العلم و تمنحه معناه و مدلوله. هذا النوع من البحث عن الحقيقة هو نوع متعارف عليه عموما.

لنُرجع الوقائع إلى صيغ مُوجَزة، بواسطة الكشف عن هذه الحدود و إضائتها، أصبح نيتشه واعيا تماما في لا أساس و ضعف تبرير الادِّعاء الذي يقول إنّ العلم هو غاية و هدف بحدّ ذاته —— الأطروحة التي يعدّها نيتشه ذات أصول حديثة نسبياً. كان عمل العلم دائماً مثمر، و لكن بوصفه وسيلة لا غاية. خلال عملية صعود وجهة النظر المسيحية، التي تريد حملنا على الإيمان بربنا، و التي تقول ((إنّ العلم هو من المسائل الثانوية، و هو ليس ذا نتائج نهائية و غير مشروطة، كما أنه ليس موضوعا للعاطفة))، لم يكن العلم في الواقع نتاج حب المعرفة – بل كان ببساطة ((الشرط و الروح الممِيزة لثقافة العصر والمجتمع))، توظيف نبيل لكلاً من الحَظّ و سوء الحَظّ معاً. حين أصبح مشروع العلم هذا نوع من الغاية بحد ذاته، غدا يُعرف بأنّهُ ((شيء غير مؤذي، مكتفي بذاته، و بريء حقاً)). يتعاطى العلم مع الحقيقة طبقاً إلى التراث و مخزوناته ذو الأبعاد الكونية المتعارف

عليها و بواسطة طريقة بحث عن المحسوس الذي يخضع إلى الشروط التي تفرضها العقيدة الدينية – العقيدة التي تعبر عن ضرورة شروط الوجود، و عن الخضوع لسلطة نظام الأشياء و تجعل المرء ينمو و يزدهر و تكسبه قوة. هذا هو النوع من البحث عن الحقيقة المتعارف عليه عموما – سواء تم تأييدها و اسنادها بواسطة العقيدة المسيحية، أو بواسطة المواقف غير المفندة و لا جدال فيها نحو الحياة – و أن ((الحقيقة هي كلّ متماسك يوجد فقط في النفوس القوية و غير المؤذية و المسالمة المسرورة السعيدة (كما كان أرسطو) – فقط مثل هؤلاء الناس مؤهلين حقاً للبحث عن الحقيقة)).

الأطروحة الحديثة التي تقول العلم من أجل العلم لديها في الواقع مصدر أخر. في الأساسّ، الاهتمام المسالم بالعلم، المذكور آنفاً، يتضمن تماماً إنكار الإرادة الراديكالية في البحث عن المعرفة و امتلاكها. بل أن الشروط التي تحكم قبضتها و تسيطر على العلم ضمنيا تتعرض للهجوم بلا هوادة من قبل العاطفة التلقائية و غير المقيدة نحو العلم. تستحوذ النزعة و الإلحاح غير المشروط – غير الملاحظة بالتأكيد اليوم – على العلم. مادام أنّ هذا الشغف و العاطفة شغالة و بفعالية تنبثق و تعمل بموجب متطلباتها، فإنهّا تتغلغل و تنفذ إلى أعماق العلم، تحافظ على مناهجه و تدعم ميزان الحقيقة العنيد الصُّلْب الذي يبحث على نوع الحقيقة التي لا حدود لها ضمن ميدان الجزئيات المحسوسة و تجلياتها، و تدافع عن العلم بالضِدّ من كل نوع من الغموض، و تضع نصب عينها نوع من الحقيقة لم تعد بالمرة علمية. في الواقع، يظل هذا الشغف و العاطفة غير مشروط، و في محاولة اكتشاف حدود العلم، يذهب ما وراء المناهج العلمية و يسود على التَجارِب الجديدة للتفكير الفلسفي. و لكن إذا تطابق هذا الشغف نفسه مع منهج البحث العلمي، فإنّهُ بالتأكيد سيفضي إلى الكثير من الانحرافات. يصف نيتشه الفرضيات الواقعية لهذه الانحرافات على النحو الآتي، و لاسيَّما حين يتعلق الأمر في مذهب العلم من أجل العلم المشكوك فيه:

حين يكون العلم ((مازال يشبه حالة من الشغف، العاطفة، الحب، الحماسة، المعاناة))، فإنّه يكون بمثابة النسخة المهذبة لل((المثال الزهدي))، الذي عُوّلج دائماً من قَبِلِ الفلاسفة بشيء من التعاطف و التحبيذ، العلامة التي يتميز بها أرْدَأ العصور التي مر بها الجنس البشري، غريزة تشويه الحياة و الحط من قدرها، الذي يمكن أن يتحول إلى موقف عدائي بإزاء الحياة و ينتهي إلى العدمية الثمرة الناضجة التي لم يكن أحد يتوقع قدومها مع أنّ كلّ شيء في الشجرة مهيئا لهذا القدوم. مثل

هذا العلم يقوم في الأساسّ على الأخلاق – إنّه إرادة الحقيقة ((بأيّ ثمن كان)). و لكن في الممارسة الواقعية، هذا الحال، المثير للاهتمام حقاً، يتحول إلى ((قلق النفور و الابتعاد و الانفصال عن المُثل))، و إلى نوع جديد من خداع-الذات: ((كم مرة، يخبي أصحاب الكَفَاءَة و أكثر رجالنا المتعلمين اجتهادا و براعة، أصحاب المهام النبيلة، الذين يسهرون على فوانيس الزيت المحترق، المعنى الحقيقي عن ذواتهم!)) لا يريد نيتشه أنّ يفسد المتعة و السعادة التي يستمدها الناس الصادقون الذين يعملون في المجال العلمي من ممارسة مهنتهم؛ بل، على العكس، كان مسروراً بما يقومون به. و لكن مازال العمل العلمي يمارس و يضطلع بمهمته و كأنّهُ فرع صارم يبين أنّ العلم المعاصر كليًّا ليس له هدف، إرادة، مثال، و عاطفة متحمسة نحو الإيمان العظيم. كمثال زهدي منحدر و هابط، هذا العلم فقد تماماً معناه و مغزاه. أصبح ((العلم، في الوقت الحاضر، و هذا الأمر غير مصرح به و معترف فيه، لا يؤمن بنفسه إطلاقاً)). مازال يحافظ على نفسه بواسطة وسائل القُوَى الشبحية للمثال الزهدي – الذي يتعلم الإنسان بواسطته كيفية ممارسته قوته على ذاته و السيطرة على نفسه؛ و يمثل جميع التطلعات إلى ما وراء الأمور – التطلعات المضادة للحواس، للغرائز، للطبيعة، للحيوان، لكلّ ما يعادي الحياة و يفتري عليها – التي تقوم مهمته الأساسية في ((فحص الحوادث العامة لغرض استقصائها)). هذا يتضمن ((الإرادة التي تقف أمام الواقعي)) و تمنع كل من السلب و الإيجاب معاً و تنتهي في ((إنكار و رفض كلّ التأويلات)).

(2) لاحظ نيتشه فقدان الثقة المتسارع في الدين في الوقت الحالي. بما أنّ العلم حقق إنجازات نافعة كثيرة بدأت الناس تضع ثقتها الكبيرة فيه، و نتيجة لذلك بَدَأُوا يخضعون تماماً له و يسلمون بسلطته كما كانوا يخضعون للدِين من قبل. في هذه النقطة تحديداً، غدت الحاجة إلى الأمان عند الإنسان، الذي أصبح حيواناً دون كناية أو استعارة بلا شرط و لا تحفظ و إرادة للتهوين، حاجة ملحة نشطة و فعالة و في غاية الأهمية: هنا، في الواقع ((لا يختلف أو ينفصل الولع و الشغف في البحث عن الحقيقة في الجوهر عن الولع و الشغف في الحصول على الأمان)). ((إرادة المعرفة و اليقين هي في الواقع انعكاس لحالة الخوف الذي يولدها اللايقين بتوليد نواتج هجينة مضطربة لا تستقيم و موازين العقلية في محدداتها المعيارية)). إنهّا ببساطة البحث عن العالم الثابت الأمن غير المتغير. في العادة، يبحث الضعف، الذي يتسلل عبر الطرق السرية و يفسر لنا بعض العلاقات التي قد تكون أَشَدُّ العلاقات استعصاء على مداركنا نحن البشر المعاصرين، عن شيء مقنع يأمل و يعلق آمالاً كبيرة للعثور عليه الآن في صيغة اليقين العلمي الصُّلْب (مع أنّ زَيف ذلك بما أنّ التأويل

المتواصل لا قدرة على مواجهة كل الأشياء من الخصائص الأساسية للعلم). في المعرفة العلمية، يعمل الضعف في المقام الأول على زيادة القوة و ليس الاهتمام أو الشغف و الولع غير المحدود بالحقيقة كما يشاع. و بذلك، تحول اليقين العلمي إلى نوع من الحقيقة العملية الوطيدة و الراسخة التي تحولت بدورها إلى مثابرة قلقة.

هذا التحول نحو الاهتمام في العلم و إيلاءه أهمية استثنائيّة بدأ يأخذ مكان الدين، بوصفه خوفاً من الفراغ و حاجة إلى هدف، و وظيفته، حيث بدأت الحاجات الحيوانية المعبر عنها بسخرية لاذعة تجد ضالتها على النحو الآتي: ((هدف العلم الحديث هو التخلص من الألم و التمتع قدر الإمكان بحياة سعيدة ممكنة – الحصول على نوع من النعيم الأبدي، بالرغم من تواضع و بساطة الوعود التي يقطعها العلم بالقياس إلى الوعود المتنوعة التي يعلن عنها الدِين)).

(3) حين يتعقب العلم الحقيقة دون صرامة منهجية ضمن حدوده الملائمة و اختصاصه، و حين ينجز الكثير من الأمور غير المقصودة، تظهر حينها الكثير من الأخطاء النموذجية – أيّ محاولة لتغطيتها لا تفد – للمعرفة المزعومة للوجود – و نتيجة لذلك يضيء اليقين الذي يحاول العلم أن ينجزه مع الحقيقة الفلسفيّة التي يمكن أن تنبثق من مصدر حقيقي أصيل. حينما يكتشف رجل العلم أنّه لم يعد يطيق أو يحتمل فراغ موضوعه، يكتشف حجم فقر و جدابة بحوثه و استكشافاته الزهدية – التي تظهر القانطين من الناحية الفيزيولوجية و تتلمس من قبيل السليقة و الغريزة الشروط الملائمة للروحانية الرفيعة – ((وميض السراب، المعروف بالأنظمة الفلسفيّة، مع كل سحر القُوَى الخادعة التي تزودنا بالحلول لكل لغز)). أيّ إمرئٍ يخضع لهذا المذكور آنفاً يخسر العلم. مرة أخرى، الواحد يمكن أنّ ((يجمل و يزخرف)) العلم: ربما يبحث المرء عن تسلية و((استيعاب و تمثل للعلم الذي يحتوي و ينطوي على كل أنواع التوضيحات الرائعة و الملفتة للنظر)). أو ربما تفترض العلوم الوحدة الشخصية في ((الطبائع الخاصَّة التي يوجد العلم لأجلها – أو على الأقّل تبدو كذلك... أولئك الناس من هذا النوع مسؤولون عن وهم و خديعة أنّ العلم الآن مكتمل و قد وصل أخيراً إلى هدفه)) – و بذلك يخلقون نوعاً من السحر المدمر للعلم الذي ((يُظلِل العاملين المؤهلين الحقيقين و المخلصين في هذا المجال.... هؤلاء الأشخاص هم الفلاسفة بالعادة)).

إذا حدث و أن قادت القيمة الأساسية المفترضة للعلم إلى الكثير من الانحرافات، فهذا في الواقع مرده إلى ضياع المصدر الأصيل لعامل الإرادة العاطفية المحفز للمعرفة. هذا المصدر، في

الواقع، هو الذي أُقيمت فوقه أسس علمنا الحديث، و لا يخلو من الصحة بصدده القول الآتي: ((هناك مهمة في مسار التاريخ يجب أن تتولى المعرفة القيام بها حتى تكون أكثر من مجرد أداة)). بيد أنّ السّؤال النقدي المطروح من قبل نيتشه يذهب إلى ما وراء هذه الانحرافات متجها نحو المصدر بذاته. هنا، لا يثبت مصدر المعرفة الحرة و غير المشروطة للمعرفة أنّهُ شيء معروف، بل كشيء يؤكد و يساند الإرادة للمعرفة – أعني هنا تحديداً الإيمان بقيمة المعرفة: ((حتى العلم يستمد قوته و تأييده من الإيمان التقليدي، الممتِلئ بالإكراهات و القيود؛ لا يوجد أيّ علم بالمرة يأخذ الأشياء على عوائنها أو يعدّها أمراً مفروغاً منه دون إخضاعها أولا للسّؤال و التمحيص)). في أساس العلم الحديث تكمن الفرضية التي تقول ((ليس هناك شيء أكثر ضرورية من الحقيقة و كلّ الأشياء الباقية مجرد أمور ثانوية لا قيمة لها)). فيما يتعلق بالطريقة النقدية التي يخضع فيها نيتشه معنى هذا الإيمان التقليدي في العلم للسّؤال، سنقوم بتوضيحها و إلقاء الضوء عليها في الجزء اللاحق من هذا الفصل. و لكن دعنا أولا أن نفحص الطريقة التي يصل فيها العلم إلى نتائجه و خط التفكير الذي يقتفيه بواسطة النظر إلى العلم في ضوء حدوده المناسبة المرتبطة بصورة وثيقة بمعنى وغرض الفلسفة.

العلم و الفلسفة —— من المهم لنيتشه أنّ يميز و يدرك نوع الحقيقة الموروثة و الملازمة للمنهج العلمي، و أن يكون واعيا أيضاً لحدود الحقيقة العلمية. فكما هو كما معروف يسلم نيتشه أنّ هذه الحقيقة ليست نهائية و ثابتة و مطلقة. لا ينبثق السّؤال عن حدود العلم و معالمه النهائية عند نيتشه من نوايا هدامة – و لكن يحركه بالأحرى هدف النفاذ إلى الماهية الحقيقة للعلم و جوهره بذاته. ((النقطة المرادة و المبحوثة هنا هي سيادة العلم و ليس التخلص منه)). حين يتم النظر إلى العلم و فحصه بطريقة واضحة جداً، نكتشف بما لا يقبل الشك أنّهُ نشأ من رحم الفلسفة. في المحصلة النهائية، يفترض و يشترط العلم وجود العاطفة والشغف كلاهما كشرط أساسي للمعرفة. تمثل المناهج العلمية في حقيقتها عدة التفلسف و أدواته. إنّ العلم الحقيقي و الفلسفة الحقيقية كلاهما شيء واحد: ((لا تستطع الفلسفة أن توجد بذاتها أو بمعزل عن العلم؛ كلاهما يتبعان نفس النمط من التفكير و لكن في مجالين مختلفين تماماً)). بما أنّ ((كلّ العلوم)) تقوم على ((الأساسّ العام للفلسفة، فإنّ مساعي الفيلسوف في المحصلة النهائية تتطابق أن لم تكن تتماهى بصورة مثالية مع مساعي العلم... ينبغي الإشارة إلى الوحدة العظيمة بين البواعث و النوابض الفكرية الإدراكية عموماً بين العلم و

الفلسفة)) – الوحدة التي تهجر ((رجل المعرفة الذي يبحث فقط عن الشذرات و النبذات القصيرة و المقتطفات و تدير ظهرها إليه)).

و بذلك، يمكن العثور على الحقيقة التي يبحث عنها نيتشه في النقطة التي يتوحد بواسطتها العلم و الفلسفة معاً. فعلى الرغم من أنّهُ لا العَالِم يمكن أن يكون فيلسوفا و لا الفيلسوف الذي هجر العلم و لدية عَلاقة أصيلة بالعلم هو الآخر يمكن أن يكون عَالِما، هناك مع ذلك إمكانية لاعتبار المنهج العلمي و المنهج الفلسفي قطبين لكلّ موحد – بيد أنّ نيتشه يعمل باستمرار بالضِدّ من ذلك على فصل و عزل هذين القطبين الواحد عن الآخر كما يعلق على النحو الآتي:

يضع نيتشه بشكل قاطع و يرسم بدقة معالم و حدود العلم، و يعبر عن ذلك في بادئ الأمر بمصطلحات إيجابيّة: ((نحن معشر الباحثين نتمتع بالروح العلمية لدرجة أنّنا نقبل بشهادة الحواس الذي لا تكذب أبدا فهي تظهر الصيرورة و الموت و التغير... أما الباقي فهو هراء و يتعلق بوقت ما قبل تطور العلم الحديث أو تطبيق المنهج العلمي – أعني حقول الميتافيزيقا، اللاهوت، السيكولوجيا و الإبستمولوجيا)). مرة أخرى، العلم هو ((علم صوري، علم من الإشارات كما هو الحال مع المنطق، و المنطق التطبيقي و الرياضيات)).

لاتعدّ الحقيقة، التي يولي رجل العلم الاهتمام بها كثيراً، واحدة من الأشياء التي يقوم بخلقها و إبدعها بنفسه. في الواقع، يعدّ الوجود، مصدر الحقيقة، بالنسبة لرجل العلم، أمراً مفترضاً و موجوداً مسبقاً، و في محاولة ((الكشف)) عنه يعتقد أنّهُ يعثر على الحقيقة و يقوم باكتشافها. فالوجود منذ البداية مبرر له بوصفه أمراً شاملاً و معقولاً.

و أخيراً، هناك نقطة ملازمة و موروثة هنا و هي أنّ أيّ عمل علمي يُنجز و يُنفذ دائماً ضمن ميدان خاص محدد و جزئي منفصل – و إذا بحثنا في هدفه، فإنّنا نكتشف أن هذا الميدان الخاص ينطلق و يفترض بالضرورة الموقف الذي يعدّ الحياة كلّ كامل: بمعنى، ((الإيمان بالرابطة و الاستمرارية و جدوى التواصل بين العمل العلمي في كل مجالاته و اختصاصاته المتنوعة كي يُبرر اشتغال العَالِم في مجال صغير محدد يرضيه و يشعره بالثقة و أنّ العمل الذي يقوم به ليس جهد عابث)).

تساهم حقيقة أن العلم يمكن أنّ يكون مستقلاً بصورة كبيرة عن الفلسفة و يمثل الشغل الشاغل لحياة معشر الباحثين و العلماء، حيث يحتم عليهم التخصص في مجال علمي واحد محدد إنجاز المهام الخصوصية المحددة لهم بحرفية و سيادة عالية للعلماء دون التفكير في معنى النشاطات التي يقومون بها العلماء الآخرون في اختصاصاتهم المتنوعة الأخرى – ما قاد نيتشه في المحصلة النهائية إلى طرح السّؤال الناقد و الشاك في بواعث و مزايا و حقيقة وجود هؤلاء العلماء في اختصاصاتهم المختلفة. انطلاقا من المعرفة الشخصية التي اكتسبها نيتشه من حياته الأكاديمية، يصف الأخير، بطريقة وقرة لا تخلو من الاستخفاف و الذم المبطن، غنى صفات العديد من الرجال المثقفين و العلماء الباحثين:

بغض النظر عن الطريقة التي يكون فيها، يعد ((العَالِم المثالي بشكل مؤكد واحد من أكثر الأدوات الموجود قيمة و نفعا في هذا العالم)). يوضح نيتشه لنا ((لماذا يكون العَالِم أكثر نبلاً من الفنان، الذي تشيع بين جنباته تلك الأنانية المخيفة التي نعدها بالفنان، الذي يعرف كيف يبرر نفسه عبر نتائجه منذ الأبد كالأم عبر طفلها: فهو أكثر بساطة، و أقّل طموحا، و أكثر اعتدالاً و هدوءاً، و يشغل نفسه تماماً في أشياء تستحق أن يقدم المرء التضحيات الشخصية بصددها)). عظمة و فقر هذا الكائن [العَالِم] يقدمها نيتشه على لسان زرادشت بواسطة الشخصية التي هي ليس أكثر من السلطة الفائقة لدماغ طفيلي مبتز. كان نيتشه يصف لنا نفسه، بالضِدّ من العَالِم، كباحث مستقصي: ((أنا لا أعرف أكثر من حقيقة أني لا أعرف إلاّ الشيء النصف أو حتى أقّل من الكثير من الأشياء!... أبحث بلا هوادة عن الأساسّ و الأصل. ليس يهم ما إذا كان كبيراً أو صغيراً؟ أو إذا كان مستنقعاً آسناً أو سماء زرقاء صافية.... حيثما أضع نزاهتي و استقامتي و صدقي على جنب بعيداً حتى أشعر و كأنني بحق شخص أعمى أو أريد أن أكون أعمى. و لكن كُلَّما حاولت أن أعرف أصبح، بالرغم عني، شخصاً نزيهاً و أميناً، أيّ شخص صعب، صارم، متوحش قاسي و عديم الشفقة بلا هوادة)).

تحتل الفلسفة الجانب المقابل للعلم بطريقة قاطعة. تتمتع الفلسفة بأهمية موازية إلى العلم، و هي ليست مدينة في وجودها إليه بأيّ شكل من الأشكال، و مازالت تنجز مهمتها الإدراكية و التواصلية، التي يمارس العلم بواسطتها وظيفته. أصبحت الفلسفة على هذه الشاكلة بالنسبة إلى نيتشه أكثر من مجرد قطب أو مجال للمعرفة يقف مقابل العلم. رسم نيتشه، في الواقع، بورتريه إلى

شخصية الفيلسوف مع مفهومه لطبيعته و مهمته الفكرية التي تمتزج بطريقة غير منفصله و لا فكاكّ فيها مع ما يمكن أنّ تنجزه الفلسفة عموما:

يكتشف الفيلسوف مهمته حين ينبثق الوجود برمته يتجلى و يظهر للعيان – في حين يقدم العلم يقيناً منهجياً حول الجزئيات حصراً. تؤدي ذات الفيلسوف وظيفة ((إعادة إنتاج و اختزال العالم كليًّا بواسطة المفاهيم و المقولات الكُلّية، بوصفها نوع من جبلة الأشياء التي يفهمها الذهن بيسر و الذي يخوله أن يقول عنها أنّها معقولة على الإطلاق بالنسبة للذهن نفسه)). ينبغي للفيلسوف، من حين إلى آخر، أنّ يتجاوز كل مرحلة يصل إليها، و يجازف في كل موقف و تَجْرِبة تواجهه، يتأمل و يطيل النظر في كل وجهة نظر تخطر على باله، و يستفاد من كل تعبير يحصل عليه. ((بيد أنّ كل هذه الأشياء، المراوغة و المتغيرة و في حالة سيلان دائم و التي لا يجد فيها الفيلسوف أكثر مما يضعها هو فيها، هي مجرد مقدمات لنتائج لاحقة. فمهمته تكمن في خلق القيم و تحديدها من علياء ذلك الشعور بالفوارق بين الأقوياء و الضعفاء السادة و العبيد. فضلاً على ذلك، يحمل الفيلسوف في ضميره و تقع على عاتقه مسؤولية لا محدودة تكمن في مهمة تطوير الإنسانية و الدفع بها نحو الأمام)).

ينغمس الفلاسفة، كالخبراء، في أداء مهامهم بشكل عميق. فهم يحملون على عاتقهم مسؤولية و مديونية مئات المحاولات و الإغراءات، يعرضون أنفسهم للخطر باستمرار، و سعادتهم تكمن في الانتفاع من ((التَجارِب الخطرة)) التي يخوضون غمارها. أحيانا ((يشعرون أنهّم أشبه بالحمقى البغيضين و علامات الاستفهام الشديدة الْخَطَر)). تمثل أفكارهم دائماً أسئلة و أجوبتهم ليست نهائية بالمرة. ربما، ((يصح تماما أنّ نطلق عليهم لقب فلاسفة الخطر)).

في العالم المعاصر – إنهم دائماً خصوم الحاضر أن لم يكونوا أعدائه الخطرين. و نتيجة لمعرفتهم العميقة، فإنّ لديهم الكثير مما يصرحون به بقوة تثير الدهشة، على سبيل المثال: ((حين ينقضي جيلين، لا أحد سوف يتمسك بالآراء السائدة التي تهدد باستعبادك اليوم بعد)). لكن معرفتهم ليست سلبية دائماً – تقوم معارضتهم لعصرهم على قابليتهم السرية في التفكير، و على ((عظمة الإنسان الجديدة، الذي يمضي أبدا و يتوغل بعيداً عن نقطة الانطلاق، و الطريق غير المطروح أو مطروق لعظمته بعد)).

في الواقع، الفلاسفة موجودات مكتفية-بذاتها، لا تطلب المعونة من أيّ أحد و هنا تكمن عظمتهم. لا يحتاجون لمرساة أو ميزان يضبط عقيدتهم الفلسفيّة. مذهبهم الشكي ((ذكوري بجرأة و امتياز.... هذا النوع من الشكية، الذي يَتَبَنَّوْنَ، يحتقر الكل دون أنّ يشعروا بالذنب. إنّهُ يقوض و يقضي على كلّ شيء، و لكنه يكسب في نفس الوقت موضع قدم – الشكية لديهم لا تؤمن بأيّ شيء لكنها لا تترك نفسها تضيع في الإلحاد و لا الإيمان، تعلي من شأن الحرية الخطرة للروح لكنها تمسك بتلابيب العواطف و تجعل أمور القلب تحت السيطرة)). تزود شكية الفيلسوف بأكثر من المذهب الشكي: ((مقاييس موثوق بها للقيمة، التطبيق العقلي للمنهج الموحد، و شجاعة فطنة متبصرة و لاذعة – هذه هي سمات الرجال الفلاسفة الذين يقفون وَحْدَهُم دون عون من أيّ أحد و يتحملون مشقة مسؤوليتهم بشجاعة نادرة... لا يطالبون بالحقيقة و لا ينسجمون معها كي (يرضون أنفسهم) أو(يهذبوها) أو (يستخدمونها كمصدر للإلهام))).

فقط التَجْرِبة العقلية الشاملة و الصادقة للوجود الإنساني كليًّا تمكن المرء – في ظل مواجهة العالم الواقعي وَحْدَهُ و الوصول إلى الشكية الايجابيّة و استخدمها كمصدر مفيد و ضروري للنفاذ و التغلغل إلى أعماق الحقائق – في أّن يصبح الفيلسوف الذي يقود، و يخلق القيم، و يقوم بتنظيمها و يحدد منازلها و مكانتها و مراتبها. قدم نيتشه، حينما كان مازال شاباً، الملاحظة الآتية: ((كل المفكرين العظام يرسون دعائم القوانين المتعلقة بالمقاييس، المعاير، يصغون و يزنون الأشياء بحذر)).

فيما يتعلق في العَلاقة بين الفلسفة و العلم اللذان يقفان كقطبين متناقضين الواحد أمام الآخر، ينبغي أن تكون القيادة و تحسم الزعامة لمصلحة الفلسفة. لأن كل العلوم، في الواقع، تعتمد بلا استثناء في فرضياتها على البصيرة و المعرفة الفلسفيّة العميقة لتعزيز أهدافها و ترسيخ و تكريس معانيها – حتى الطرائق (المناهج) العلمية تستمد مصادرها و مرجعيتها من الفلسفة. ((بوسعنا أنّ نعثر على أمثلة تشير إلى البعض من آثار التفكير الفلسفي في مركز التفكير العلمي)).

في كافة المقاييس، تسبق الفلسفة العلم. نجحت الفلسفة في ((أنّ تعزز من مواقع التقدم الروحي للإنسان خلال قرون عديدة، و نجحت في منحه كل الثمار الأبدية النافعة العظيمة)). بالنسبة للعلم عكس الفلسفة، ((لا وجود للشيء الكبير و الصغير)). تختلف الفلسفة عن العلم في إنّها ((تختار، تستخرج و تلخص الأمور غير العادية، المثيرة، الصعبة، و الإلهية))، و((تُلفت الانتباه

نحو ما فارغ، عقيم، و ما فائض لا لزوم له و غير ضروري)). في الواقع، ينتج بالضرورة أنّ الفلسفة ((تقودنا نحو طريق الأشياء التي تستحق أنّ تُعّرف))، بينما يعالج العلم، من جهة أخرى، دون تميز كل شيء يمكن أنّ يُعرف و يُستخدم. بما أنّ مفهوم العظمة متغير و نسبي، ((تبدأ الفلسفة مهمتها أولا بواسطة تزويدنا بقوانين العظمة)).

حين يصبح التميز و الاختلاف بين الفلسفة والعلم حاسماً ونهائياً واضحاً، وكل روابط الوحدة بينهما تنحل و تبدد نهائيا، حينها تتوقف كلاً من قيادة و زعامة الفلسفة بالإضافة إلى معنى و مدلولية العلم و تنقطع (و نتيجة لذلك يتوقف أيضاً التميز بالضرورة بين الحقيقة و اللاحقيقة): هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يمكن أنّ يحدث و يأخذ مكانه وفق طرق عدّة:

حين تعتقد الفلسفة، و بطريقة مثيرة للشفقة، إنّها يمكن أن تؤدي دوراً و وظيفة العلم، فإنّها سرعان ما تصبح قوة مضادة للعلم. كل الفلسفات، و منذ سقراط – هل أفلاطون هو الذي يتكلم هنا؟ – شنت حرب شَعْواء على العلم. ((إنّها ذات الحرب الذي شنتها لاحقاً الكنسية ضِدّ العلم)): ((الناس يريدون أن يظلوا أحرار في تلمس و البحث عن (طريقهم) و مسارهم الخاص. ... يكرهون منهج السير خطوة بعد خطوة و النظام الصارم الذي يتبعه العلم بالضرورة – كما إنهم لا يحبون عصر العلم و لا يطقون زمانه. إنهم يكرهون الامتثال لقاعدة الإنْتِظار ثم دعنا نرى ما سيسفر عليه الموقف، و لا يستسيغون الحيادية الشخصية لرجل العلم)). ((مجمل تاريخ الفلسفة، بل كله، مُخترق من قبل الخطأ و الزَّيف. باستثناء المذهب الشكي النادر المحترم حقاً، أخفقَت غريزة النزاهة الفكرية في الظهور و نيل السيادة الكاملة)). في الواقع، يعتقد نيتشه ((أنّ الفقر العقلي لخليط الفلاسفة اليوم الذي لا يستطعون أن يروا بأنفسهم لأنّهم يفتقرون إلى المسافة الضرورية اللازمة للرؤية، و لاسيَّما أولئك الذين يعدّون أنفسهم و ينظرون إليها بوصفهم فلاسفة واقعيين أو وضعيين، و اختزال غنى الفلسفة و اتساعها إلى مجرد مبحث للإبستمولوجيا فقط))، هو السبب الذي يكمن وراء شعور العَالِم بنسيان مشاعر التفوق على الفلاسفة، و إلاّ عليه أنّ يطيعهم. لهذا، ((استعاد الفلاسفة المعاصرون مكانتهم تحت سلطة العلم))، مع أنهّم لم يكونوا منتجين علميا. لم يتبقَ في الواقع أيّ شيء لهم من المعنى الحقيقي للفلسفة.

في الوقت الحالي، أحدث العلم تغيرات غير ملائمة في المراتب فيما يتعلق بالعلم و الفلسفة معاً، و لاسيَّما أنّ الناس المتعلمين بَدَأُوا يلعبُون دور الفلاسفة. ((يعبر التصريح باستقلالية العَالِم، و

تحرره من قيود الفلسفة))، بشكل أساسي عن أفكار ((الرجل السوقي المبتذل)). ((بطريقة مليئة بالغطرسة و الغرور و خالية من الحس السليم، يضع الفيلسوف القوانين، و لمرة، يؤدّي دور السيد، الفرد الذي لا يشبه إلاّ ذاته المتحرر من أخلاقية التقاليد و العادات، القوي، ذو الإرادة الخاصَّة المستقلة الدؤوبة، المتحدر من نسل الآلِهة التي لا تحمل البشر عبء العقاب بل عبء ما هو أنبل، عبء الخطأ – ماذا أقول؟ – إنّهُ الفيلسوف)). يقف المتخصص في العلم غريزيا بالضِدّ من كل المحاولات التركيبية للفيلسوف، العمل الجاد ضِدّ وقت الفراغ اللطيف، بينما يرفض المنفعي الفلسفة بوصفها تعاقب للأنظمة الفاشلة التي لا تعود على الفرد بأيّ منفعة.

يعرف نيتشه التفلسف (بالرغم من أصدارهِ للأوامر) بأنّه البحث حتى النهاية. ربما يتسائل المرء كيف يتسنى للفلسفة أنّ تحوز الصدارة و الأولوية على العلم، إذا كانت هي لا تمثل الحقيقة المطلقة. لم يبين نيتشه إلاّ ما ندر كيف بوسع المرء أنّ يمارس و يضطلع بمهمة هذه القيادة في الواقع، ثم أنّ الصياغات المطمئنة التي نلتقي بها هناك و هناك معه لا تخبرنا دائماً ما هي الفلسفة حقاً. بل أنّ الفلسفة، كبنية مفهومية، و عمل نهائي و مكتمل، و كجسد عقلي لجملة من الأفكار المتسقة داخليا – عمليا، في خطوطها العامة، كما يظهر على مر تاريخها – نجدها أمراً يثير دائماً لديه الشكوك. يقيناً، ليس لهذا يبحث نيتشه عن الأمان و أساس محدد للحقيقة.

نظرية التأويل: الحقيقة و الحياة

لقد تم اعتبار الحقيقة وجوداً أبدياً و معروفاً لأولئك الذين يعيشون على مقربة منها: إنّها وجود لا يتغيّر و لا جدال فيه نحتاج أنّ نكتشفه.

جعلت معرفة نيتشه العميقة لحدود العلم – الذي أثبت أنّ غياب الفرضيات فيه هو حقاً وهم المراوغة – و تجربته مع النوابض و الحوافز الفكرية المحركة للفلسفة الإبداعية فيلسوفا شاكاً بامتياز في وجود الحقيقة الثابت و غير المتغير. في مسار بحثه عن المذهب الشكي و حججه، طور نيتشه نظرية الحقيقة على النحو الآتي: كل المعرفة هي مجرد تأويل للوجود و تفسير له تزودنا به الذات الحية و العارفة – ليست هناك حقيقة لا توفر التسلية للتفكير و الاعتقاد معا – أعني، الوجود الشامل الذي هو نحن (*wie sind das Umgreifende des Seins das*)، و هذا ربما يشير إلى

كلّ الوجود هناك. و بذلك، ليست الحقيقة شكلاً مستقلاً بذاته أو شيئاً غير مشروط و كلياً تماما و منفصلاً عنا؛ بل تتضمن بشكل غير منفصل الذات الحية للإنسان و العالم الذي يقوم ببنائه و صناعته. بيد أن هذا العالم، كما يبدو لنا، و يشبهنا إلى حدّ بعيد، في عملية تغير زماني و تاريخي مستمر.

تتطور هذه النظريّة عند نيتشه – الذي يعرف أن كلّ نظرية تجد في التطبيق نهايتها و برهانها – بفعل الشك الذي يعبر عن العزم و التصميم في ألّا نكون مخدوعين بأيّ شيء يظهر واضح ثابت و مؤكد غير مشكوك فيه. بواسطة تقويض كل المحاولات المبتسرة التي أسست للحقيقة الأبدية الثابتة، يحاول نيتشه النفاذ إلى الحقيقة الأصلية التي تُنير، كمصدر للمعرفة، طريق الوجود الحي بحد ذاته. تتأرجح الأفكار المتضمنة في خطوطها العامة هنا في هذه النظريّة بين إنكار كلّ إمكانية للوجود الثابت للحقيقة و الاصطدام بالحقيقة المتغيرة التي لن يقبض عليها أو تُفهم بعد – لا تتوفر مثل هذه الأفكار على تعبيرات واضحة و مفصلة بعيداً عن نظرية الوجود المؤثرة الخاضعة للتأويل[54]. بدورها، تقود نظرية الحقيقة هذه بصورة متعذر تجنبها أو تنتهي إلى السّؤال عن حقيقتها، و في كلّ حال، عن المعنى الذي يمكن أن يُقال و تعدّ به حقيقة حين يتم الحكم عليها بواسطة معاييرها. بناءً على ذلك، سنحاول أنّ نضيء هذه النظريّة للحقيقة، المعروضة بطريقة نقدية، في الصفحات الآتية.

الحقيقة كالوهم. —— يؤمن نيتشه أن ماهية الإنسان و جوهره – الصيغة الوحيدة للحياة الإدراكية التي نطلع على الأشياء بموجبها – ينبثق من مسار الصيرورة الكُلّية كطريق فريد لا نظير له لتأويل الوجود: ((تعدّ الظاهرة الكُلّية للعقل أمراً مجهولاً لنا؛ نحن نعرف فقط الحالات الخاصَّة)). إنّ الطريقة التي نرى فيها، و نفكر، و نفهم العالم هي في الواقع نتاج نوع العقل الذي نمتلكه. على نفس المنوال، مع ذلك، ((كلّ نوع من أنواع العقل له طريقته الخاصَّة في فهم العالم)).

ينبغي لطريقتنا في تأويل العالم أن تقوم على دعامة أن الإنسان موجود يدرك الأشياء داخل الزمن و التاريخ، و أنّ تغير كل شيء يعدّ أمراً صحيحاً، و بذلك واقعي. فقد تعودنا، و منذ آلاف السنين، أّن نرى العالم بحجج و ادِّعاءات و طموحات أخلاقية، و جمالية، و دينية مع ميول و عواطف و مخاوف عمياء ترسخت بفعل عامل الزمان و غدت تدريجيا أفكاراً ملونة بشكل عجيب، مخيفة و مفعمة بالحيوية... يجيز العقل الإنساني، السبب في تزييف شهادة الحواس بخلق عالم غير

هذا العالم، و يسمح للمظهر بالضياء و اللمعان و يدمج كل الأشياء مع مفهومه الأساسي الخاطئ... إنّ هذا الذي نطلق عليه الآن العالم هو في الواقع نتاج جملة من الأخطاء و الأوهام التي تراكمت و ترسخت تدريجيا على مر العصور في سياق التطور العضوي.

الحقيقة بالنسبة إلى الموجود المدرك العارف الحي ببواطن الأمور، بكل هوامشها و تعليقاتها، هي الطريقة التي يدرك بها العالم. لكن الحقيقة، التي ترتبط بالحياة، يطلق عليها نيتشه تعبير ((الخطأ)): ((الحقيقة هي نوع من الخطأ الذي لا يستطيع المرء أن يعيش دونه)). من حيث إنّ هذه الحياة، التي تظهر بوصفها تناقض و آلم، هي شرط لا غنى عنه (*sine qua non*) لنمط وجود الأشياء الأخرى، و لاسيَّما الموجود الوحيد الذي يطلق عليه (الدّزاين [وجود-الإنسان- في-العالم])، و الذي يمتلك قيمة أصيلة، هذا الخطأ في الواقع لا يمكن أنّ يُرفض: ((نحن لا نعدّ الحكم الخاطئ كاعتراض موجه ضِدّ الحياة))، لأن رفض الأحكام الخاطئة يعني رفض الحياة بذاتها. ينبغي للمرء أنّ ((يسمح باللاحقيقة في أن تكون شرطاً للحياة)). ((الحقيقة)) هي الخطأ الذي يعزز من الحياة بحد ذاتها.

الحقيقة التي يؤمن فيها الإنسان و يعتقد بها هي الخطأ؛ ليس لأنّها فقط تتطور و تعاني التغير و التحول، و لكن أيضاً كونها متعددة كتعدد أنماط الوجود: ((هناك أنواع عدّة من العيون، و بهذا يوجد لدينا أنواع عدّة من (الحقائق). و عليه، ينتج و يتبع بالضرورة أنّهُ ليس هناك حقيقة واحدة)).

مثل هذه الأقوال يمكن أنّ تكون ذا معنى و دلالة فقط من وجهة نظر نوع الحقيقة – غير القابلة للتحقق، ربما كما هي، في مستوى الحياة – التي تكتشف خطأ المعرفة التي تعمل في خدمة الحياة. هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يتضمن معنيين مختلفين و مميزين للحقيقة: لنبدأ مع المعنى الأول، تظهر الحقيقة كنوع من الخطأ الذي يساند الحياة و يعزز من وجودها. لكنها تظهر[في المعنى الثاني] كشيء بعيد من الحياة كما لو أن على المرء أن يهجر الحياة كي يصل إلى معيار يمكن بواسطته أنّ يتم تميز و التعرف على الأخطاء.

كانت طريقة تفكير نيتشه، التي تضرب فيها مطرقته بحنق على جدار سجيته، تدور بطريقة محسوبة في كيفية التغلب على هذه الثنائية. إنّ ما يطلق عليه الخطأ الذي يرفع من شأن الحياة و يعزز من وجودها هو وحده يمثل الحقيقة الكاملة – مع أنّنا لا نستطيع أن نطلق عليه لا حقيقة و لا

خطأ. ((الحقيقة هي شيء أحمق لا معنى له. هذا الميدان الكامل لثنائية ((الحقيقة-الزَّيف)) يعمل ضمن منظور العلاقات بين الموجودات الحية و ليس مع الوجود-الذاتي. ليس هناك موجود حي يعيش كوجود- ذاتي مستقل)). انطلاقا من وجهة النظر هذه، ((لا تعني الحقيقة أو تشير إلى إنهّا تقف مقابل الزَّيف – بل إنها تعني، في حالات أساسية، العلاقات بين أنواع مختلفة من الأخطاء و المغالطات الواحدة مع الأخرى)). لهذا السبب، يطرح نيتشه السّؤال الآتي: ((مَنْ يجبرنا أنّ نفترض أنّ هناك تناقضاً أساسياً بين الحقيقة و الخطأ؟ أليس هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، كافياً ليجعلنا نعتقد أن الوهم يختلف في الطبيعة و الدرجة و الكيفية، و أن هناك ضلالاً أكثر إشراقا و أكثر قتامة و هناك صفات نغمية و لونية للوهم؟)).

بيد أنّنا مازلنا لا نقبل عملية الفصل بين الحقيقة و الزَّيف – لأن دون هذا الفصل و التميز بين الاثنين لن يكون بوسعنا أنّ نتحدث بشكل مثمر و ذي معنى عن الحقيقة. فقط بمقتضى هذا التميز و الفصل يمكن للمرء أن يقوم بمحاولات متناقضة أو متنافرة ظاهريا لإزالة النقائض بواسطة التأكيد على أنّ الحقيقة و الخطأ يختلفان فقط بدرجة الوهم و ليس في النوع. حين تبنى نيتشه وجه النظر هذه، تلاشي كلّ شيء له صَلاحِيَة جوهرية ثابتة و ذلك بواسطة التغير المستمر، غير الجوهري و المتمرد – أيّ أنّ الظهور السريع الزوال يعادل الوجود بذاته. ((الحقيقة)) ((ليست شيء ثابت موجود أمام ناظري يحتاج أنّ يُكتشف و يفشى سره – بل إنّها شيء ينبغي أن يتم خلقه و إبداعه. تعبر كلمة (الحقيقة) عن اسم عملية أو سلسلة من التغيرات، فهي ليست شيئاً نهائياً بذاتها، ليست عملية الصيرورة تعي الحقيقة بوصفها شيئاً مستقلاً، ثابتاً و محدداً – و لكنها بوصفها شيئاً يمنح الحقيقة و يقرر و يحسم وجودها)).

تكتسب الأفكار في خطوطها العامة حول وهم الحقيقة معنيين حين يتم توضيحها: أولا، تشكل هذه الأفكار نظرية يمكن أن تطبق على التوضيحات السوسيولوجية-السيكولوجية للظروف التي تعدّ الأشياء بواسطتها حقيقية. هذا الأمر ينسى ما معنى أنّ تكون النظريّة بذاتها صحيحة و مهتمة بشي ما، بدلاً أن تكون معنية فقط في الحقيقة التجريبية المنطوية و المرتبطة مع العلاقات الخاصَّة بين نماذج السُّلوك الإنساني. ثانيا، النظريّة نفسها وسيلة للتعبير عن الوعي الفلسفي للحدّ، و هي طلب وجودي و سمة مبدئية لوعي الوجود بحدّ ذاته.

تطبيق النظريّة. —— يريد نيتشه أن يوضح الواقع السوسيولوجي-السايكولوجي بواسطة وسائل النظريّة المتعلقة بالأخطاء الكُلّية للوجود الذي يصبح ممكناً بواسطة هذه الأخطاء – تطبيق النظريّة، و التي طبقها كلّ المعرفة (أيّ، الآراء المتعلقة بما هو صحيح) هو التقيد الذاتي الإكراهي للحياة بما يناسبها في لحظة معينة و ظروف الإصغاء إليه حيث يمكن توضيحه على النحو الآتي:

إنّ الحقيقة التي تجعل الناس يرتبط أحدهما بالآخر ينبغي أن تكون أولا قابلة للنقل. في الواقع: ((هناك أنواعا مختلفة من العيون... و بذلك ننتهي إلى أن هناك أنواعاً مختلفة من الحقائق)) المحددة بالشروط التي تجعل من قيام المجتمع ممكناً. لأنه، بالنسبة إلى المجتمع، و الناس الذي يعيشون فيه، فقط الشيء الصحيح، أو كذلك يعتقد، يمكن أن يكون قابلاً للنقل و التداول. إذاً، يتم قَبُول النقل و التداول الكلي بشكل غير واعي كمصدر و معيار للحقائق التي تعزز من الحياة بواسطة الوسائل الشائعة. الحقيقة هي الشيء الذي تقبله الشيفرة الاجتماعيّة التقليدية السائدة لتدبير العقول و الأفراد و الجماعات كي تعزز من غايات المجموع. تمثّل الحقيقة ((جيش متحرك من المجاز)) تتحول بعد طول الاستخدام إلى صيغ نهائية و حاسمة للمجتمع الإنساني. سيتم إدانة المجتمع و يطلق لقب ((كذاب/ مفتري)) على الشخص الذي يسيء استخدام قوانينه التي تم قَبُولها بصورة غير واعية، و بهذا اعتبار المجازات التي ينادي بها المجتمع غير واقعية و حقيقية. إنّ أعضاء المجتمع مُجبرين أنّ يكذبوا طبقا للعرف الثابت المتداول و المألوف. بعبارة أخرى، ينبغي أن نكون صادقين بواسطة ممارسة لُعْبَة المجموع طبقاً لعلامات و إشارات النرد التقليدية المتعارف عليها. إنّ تقوم بفبركة الأشياء و اخترعها يعني أنك تكذب، و وفقا لهذا المنظور كل شيء يتجاوز العرف التقليدي للحقيقة في المجتمع هو زَيف. أنّ تكذب بهذه الطريقة يعني أنّ تضحي بعالم من المعاني و المدلولات يقوم عليها بقاء المجتمع. و العكس، هناك حقائق صادمة محرمة و ممنوعة: هذا التهديد لسلامة و بقاء المجتمع يواجه أيضاً بلا هوادة بواسطة منع أيّ فرد من التفكير و قول الحقيقة الأصيلة المخالفة لما متعارف عليه.

كان نيتشه يمني النفس أن يقبض و يفهم، و بطريقة واضحة، الحياة، الواقع و البيئات الاجتماعيّة-السيكولوجية الموجودة دون الحاجة إطلاقاً إلى أن نعي المشكلة الواقعية للحقيقة. إنّ ما يدعو إليه نيتشه هنا هو في الحقيقة تقيد-ذاتي غير واعي. يحاول نيتشه أنّ يلقي الضوء على نمط الحياة الذي يعلي و يعزز من شأن الخطأ و الزّيف و يستمد قوته من عدم الشك، و كذلك يشمل حتى

العامل القابل للنقل سلفًا، أعني العامل العقلي. فبسبب قدرته الكُلّية على النقل يلقي نيتشه بظلال الشك على العامل العقلي، حين يشير إلى الآتي: ((يُعتقد أن كلّ ما هو برهاني عقلي و ممكن إثباته و إقامة الدليل عليه هو بالأحرى صحيح — هذا التعريف هو في الحقيقة تعريفاً اعتباطياً و استبدادياً لمفهوم (الصحيح)....إنّ الجانب المخفي هنا هو حجم المنفعة التي يتوفر عليها مفهوم الصحيح في سهولة فهمنا للأشياء، لأن ما هو برهاني ممكن إثباته و إقامة الدليل عليه يحتكم و يلجأ إلى، أكثر من أيّ شيء أخر، إلى ما هو مشترك و كلي في رؤوسنا (أيّ، المنطق و ما يظهر عليه من ترفّع في الحركة تختبئ أيضاً، و بعبارة أوضح تختبئ مطالب فيزيولوجية للحفاظ على نوع معين من الحياة). هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يبين بشكل طبيعي معيار المنفعة – الذي يمثل تاريخها سلسلة متصلة الحلَقات من التأويلات و الممارسات المتجددة باستمرار الذي لا تحتاج أسبابها مطلق الحاجة إلى ضرورة الربط بينهما – الذي يصب في المحصلة النهائية في مصلحة الأغلبيَّة)). إذنْ، الصَلاحِيَة الواضحة-بذاتها للاستنتاجات العقلية، التي تنقل بصورة كُلّية عامة، هي لا وعي التقيد-الذاتي للحقيقة التي تفرضها متطلبات الحضارة بوصفها عصور التدجين الإرادي و القسري للإنسان، فترات التعصب ضِدّ المثقفين و ضِدّ الجريئين.

حين يتم توظيف النظريّة بهذه الطريقة، ينبغي، أولا و قبل كلّ شيء، أنّ ندرك أنّ درجة صَلاحِيَة المعرفة التي تزودنا بها تبقى غير محددة و قاصرة، لأنه ليس من المبرر و المعقول القول إنّها صالحة لكل البشر. فقط حين نبين تجريبا و بشكل صلد ملموس (*in concreto*) حدود التطبيق الملائم للنظرية سيكون حينها لها معنى في العَلاقة بالمعرفة الإنسانية. و في المقام الثاني، من مميزات هذا النوع من النظريّة، المتعلقة بالمعرفة، أنّ نتائجها غالبا ما تكون ليست من النوع الذي يمكن أنّ نصل إليها بواسطة الملاحظة النزيه و بواسطة القدرة الإدراكية السلبية و الحيادية. و بينما تبدو مثل هذه العروض المقدّمة أعلاه مجرد تطبيقات لنظرية، فإنّ جوهرها الحقيقي هو، في المقام الأول، طلب: و سواء تسلينا بها عن مضض أو نجدها مفيدة جداً و تنير دربنا، فإنّ النظرية تنجح بلا أدنى شك في تغير شيءٍ ما في داخلنا.

عموما، مثل هذه الأفكار في خطوطها العامة أعلاه تتحرك بالأساسّ في اتجاهين، و تسعى إلى هدفين مختلفين. يشير نيتشه إلى قيود و حدود الوعي في الوجود الذي ينجز مقاصده بواسطة وجهة نظر الوجود الواقعي. إنّه يفعل ذلك بواسطة إحداث، في التفكير، مقاربة نظرية في الحياة

لتأويل الوجود الذي حقيقته ليس أمراً ثابتاً و نهائياً بقدر ما هي شيء يُخلق و يتغيّر دائماً. مع مفاهيم، يغلب عليها الطابع السيكولوجي و الاجتماعي، يلجا نيتشه إلى تفسير الوجود الممكن، بعبارة أخرى (حياة النخب بتساميها و انسجامها و تمجيدها). في كلتا الحالتين، يتفلسف نيتشه، لكن جملة المفاهيم و المبادئ و الإجَراءِت التي تنبثق لديه تميل إلى التفسخ و التحلل و التحول إلي مجرد أفكار نظرية للبحث، لأن الطرق المختلفة لفهم الحقيقة، حين ننظر إليها بوصفها أنواع مختلفة من الحياة، تبدو كحقائق موضوعية قبل التحقق و البحث. هذا يقود إلى ((التطبيق)) الذي يهدد بتجريد النظريّة من سماتها الفلسفيّة. تظهر السمات الفلسفيّة بوضوح على السطح حين نتبع بحذر الدائرة المنطقية التي تؤكد على هذا التفكير، لأن هذا الأمر وحده الذي يمكننا من أنّ نشعر بالمنشأ و المنبع الفلسفي.

الدائرة. ــــ صيرورة الحياة هي حقيقة الحياة، حقيقة الحياة هي عملية سير و تعاقب – أيّ ينبغي أنّ تكون الحياة بذاتها نوع من الخطأ. حتى حديثنا الآن عن هذه الحقيقة الثابتة ينبغي أنّ يكون أمراً مشكوكاً فيه. هنا، تفكير نيتشه يجد نفسه في وضع يبين لنا السمة الضرورية للتفكير الذي يحدث على الحدود الفاصلة:

حين تحاول المعرفة أن تدرك المعرفة، أو تحاول الحقيقة أن تبحث عن الحقيقة، حينها يبدأ التفكير يتحرك بدائرة مفرغة. و لكن حين يكون تأكيد الذات بواسطة إنارة الحقيقة، فإنّه لا توجد هناك أيّ مشكلة. و لكن، حينما تقوم الدائرة على التغلب على الحقيقة بواسطة ذاتها، فسيكون أما التغلب على الذات نهائي و الحقيقة تنشأ أو تأكيد جديد للذات ينبثق كمصدر جديد للحقيقة يظهر ضمن الدائرة. هذا التفكير بالحقيقة بواسطة الحقيقة لا هو بالمفيد و لا يمكن إيقافة بأيّ عامل خارجي. هناك إمكانيتان لتلاشي و زوال هذه الدائرة بواسطة الأساس الذي تشير إليه. و لكن، كيف للواحد أنّ يقرر و يحسم بينهما؟

دعنا نفترض أنّ التقويض-الذاتي للحقيقة يُحتم بواسطة الصَلاحِيَة المطلقة للحقيقة – أيّ بواسطة معرفة الحقيقة المشكوك فيها باستمرار في الحياة كعملية صيرورة. بيد أنّ (1) صَلاحِيَة الحقيقة حول الحقيقة تتضمن النقطة الثابتة للحقيقة غير المشكوك فيها (عدم القابلية المنطقية للارتباط الذاتي) و السّؤال الذي يطرح نفسه، التحرك من النقطة الثابتة (حتى لو كان الحال فقط سلبياً)، هو كيف بوسعي أن استمر في معرفة حقائق إضافية. أو (2) ربما يتساءل المرء ما إذا كانت

نتائج التقويض الذاتي للحقيقة تعني نهاية البحث – لهذا السبب، فانّ جهود الفلاسفة في البحث عن الحقيقة هي تماماً مجرد عبث و كما لو أنها لم تحدث.

بلاشك، يرفض نيتشه كلتا الإمكانيتين، أيّ (1) إرساء دعائم نظام جديد للحقيقة على أساس النقطة الثابتة المكتسبة التي لا ريب فيها (نوعاً ما مماثل إلى نمط و طراز تفكير ديكارت – استطيع الشك في واقع كلّ شيء و لكن ليس في واقع شكي)، و (2) نهاية العمل و البحث عن الحقيقة. لا يقصد نيتشه في الواقع أيّ واحد من هاتين النقطتين.

الآن، دعنا نفترض، بدلاً عن ذلك، أنّ التفكير في الحقيقة يتواصل بواسطة أساس نطلق علية الوجود، و هذا الأساس هو حياة الحقيقة، التي تعلن عن نفسها بواسطة الأفكار، فإنّه سوف ينبثق من ((حياة الحقيقة)) أن الاختيار بين الدائرتين يتحول لمصلحة التأكيد-الذاتي للحقيقة. الحقيقة، بوصفها إضاءة لمصادر الوجود، تنبثق بواسطة حركة التأمل-الذاتي في الوجود، الذي لا يقوضه أو يقضي عليه – بل يعمل على تأكيده و يتحرك بالضِدّ من الفراغ الميّت للشكُلّية العقلية في الإمكانية الأولى المذكورة من الإمكانيتين أعلاه. هذه الشكُلّية لا تستطع الدفاع – الدفاع و الهجوم ضرورتان لدى كلّ ما هو حي؛ إنّهما ليس أمراً اختيارياً بل حتمياً – عن نفسها. إنّها عمياء لا تر الحقيقة الأصيلة و حتى محطمة لهذه الحقيقة كما يبين معيارها للصحيح الملازم لها.

يتبنى نيتشه الإمكانية الثانية من بين الإمكانات المذكورة أعلاه. تسير أفكار نيتشه، حول الحقيقة، في طريق متواصل من التناقضات بما أنّها لا تفرغ نفسها في صيغ ثابتة نهائية بل تظل الأقل متغيرة و مفتوحة على احتمالات شتى. في حقيقة الأمر لا تمثل هذه الأفكار في خطوطها العامة أقّل من ارتباك لا معنى له إذا كانت لا تساعدنا على أن نجرب الحدود التي يمكن أنّ تبوح عن نفسها فقط بشكل غير مباشر. حينما تبلغ مفاهيم نظرية نيتشه للحقيقة هذه الحدود، فإننّا نجرب نوع من التفكير يستخدم بطريقة لا مفر منها التناقضات كعلامات غير مباشرة. ليست نظرية نيتشه نظرية حول موقف أو حالة معينة – بل هي محض وسائل فلسفية للتعبير أولا عن مطالبة وجودية بالحقيقة الأساسيّة التي تخرج من رحم الحياة الأصيلة، و ثانيا تعبر عن إمكانية الحياة التي تتجاوز الوعي الحميمي للوجود.

الحقيقة و الوجود. — حين أشار نيتشه، على سبيل المثال، إلى الفلاسفة المثاليين (و الذين يطلق عليهم بالعادة لقب ((الفلاسفة الطيبين و العادلين)))، كان ((لا يريد و بأيّ ثمن أنّ يرى كيف يتشكل الواقع النهائي السامي...)) ما يقوله نيتشه هو صحيح و ينطبق على كل حياة: اللاحقيقة أو الكذب هي شرط وجود الحياة، ما موجود في الروابط الأخرى لتأويل الوجود الحيوي هنا يصبح عند نيتشه أداة للهجوم على وهم الحياة. و بهذا، يبدو أنّ هذه الكذبة غير متطابقة مع الوهم الذي يشكل حقيقة الحياة بذاتها. يميز نيتشه بين الوهم العام، الذي هو شرط لامفر منه للحياة و الوهم الخاص الذي يحدد النوع الخاص للحياة (و يظهر كي يحسن من الوضع الخاص). من أجل أن نميز الوهم الخاص علينا أن نفهم و نكشف و نرفض سيكولوجياً و نقرر الأمور وجودياً (من حيث إنّ التفكير يتضمن نشاطاً داخلياً بدلاً من حكم تأملي.)

في الواقع، تمتاز إرادة نيتشه بالتميز و الفصل بين الحقيقة و الوهم بالوضوح القاطع حول هذه النقطة. لقد اكتشف نيتشه أن وهم الحقيقة ليس هو نوع واحد – بل هناك أنواع متعددة الحياة بذاتها. الحياة ليست متجانسة أو متماثلة، لأنّه هناك اختلافات أساسية في مراتبها. يؤكد، و يتحقق و يهاجم نيتشه في نفس الوقت الشيء نفسه (الزَّيف أو اللاحقيقة كشرط للحياة) – بمعنى أخر، يطالب بالحياة ذي المرتبة العالية و يرفض الحياة الأدنى منزلة. كمظهر يواجه مظهراً آخر، يمكن أنّ يعدّ أحدهما زائفاً و غير حقيقي في العَلاقة بالآخر. حينما يشير نيتشه إلى مثال معشر الفلاسفة المثاليين الطيبين و العادلين الذين يحجبون أكاذيبهم فإنّه يقصد الإشارة إلى نوع الوهم العام. في هذه النقطة، الزَّيف و الحقيقة يواجه أحدهما الآخر كخطأ وصواب وهمي.

فيما يتعلق بنوع التفكير الذي يلتمس الحياة السامية ذات المرتبة العالية (و التي تمثل، بشكل أساسي، الوجود الممكن)، تظهر لدينا المزيد من التناقضات حين يتم الحكم على الأشياء، المتشابهة شكليا و مختلفة ماديا، بطريقة مغايرة و مخالفة. و بذلك، ليس هناك سِرّ فيما يتعلق في التناقضات التي تظهر حينما تحاول إرادة الحقيقة الدائمة و الثابتة و المكتشفة أن تؤكد في مناسبة شرط الحياة و في مناسبة أخرى رفضها لهذا الشرط بوصفه خنق للإنسان.

يتمسك نيتشه بحقيقة أنّ العالم المدرك و المعروف هو شرط الحياة. في هذا العالم تعدّ ((إرادة الحقيقة عنصر استقرار و رسوخ يعمل على ترجمة الحقيقة و الثبات ... إلى وجود)). بهذا الصدد، يقول زرادشت: ((إرادة الحياة هي إرادة العقلنة لكلّ شيء في الوجود... فأولا، و قبل كلّ

شيء، ينبغي أن نجعل من الوجود أمر معقول)). في الواقع، الحياة تحتاج إلى حقيقة موجودة ثابتة غير متغيرة. إنّ صيغة الحقيقة التي تحتاجها الحياة لغرض ثباتها، لها وجهة نظر أخرى، ذات تأثير مغاير على الحياة، أقصد نوع التأثير الذي يشلها و يجعلها غير قادرة على الحركة و يوقف دواليب عجلاتها: ((يعدّ التأكيد على أن الحياة ببساطة موجودة هناك أمام الإنسان كما هي من أكثر المذاهب المغرية. حين يتم الاعتقاد بذلك، فإنّ إرادة الاختبار، و التحقق، و ممارسة النظر في العواقب و القيام بالتَجارِب ينشل و يتوقف عن العمل تماما... هنا يتضرع شعور الكسل – و راحته التي هي فتنة خفية للنفس توقف أكثر الملاحظات أحتداماً و أكثر العزائم عناداً. يجب القول إنّ الكسل كغبطة للنفس يعزيها عن خسائرها و يعوضها عن جميع خيراتها – و يتوسل بسبب الحقيقة...إنّهُ أكثر راحة للمرء أن يتكيف مع هذا التأكيد بدلا من أن يخضعه للامتحان و الاختبار))[55].

هناك تناقض حرفي واضح أخر يظهر حينما يرفض نيتشه، كعلامة للحياة الضعيفة الواهنة، الاعتقاد أنّ العالم، بشكل أساسي و كما ينبغي أن يكون، ضرورة لا مفر منها للحياة الإبداعية الخلاقة. فهو يرفض هذا الطرح، حين يكتب الآتي: ((الاعتقاد، الذي شاع و ذاع منذ القدم، بأنّ العالم يجب أن يكون هكذا الآن، و إنهُ يوجد على هذا الحال منذ القدم، هو في الواقع اعتقاد عقيم و غير مجدي لا يريد أو ينوي خلق العالم كما يجب أنّ يُخلق. فهو يفترض أنّ العالم كما هو حاضر ثابت.... (إرادة الحقيقة) هي علامة ضعف لإرادة الخلق)). و لكن ينبغي أنّ يكون هناك فرق بين الاعتقاد بالوجود الثابت المشتق من الحياة غير المنتجة – الاعتقاد الذي يرفضه نيتشه وجودياً بواسطة وسائل التوضيح السيكولوجي – و الاعتقاد في الوجود الذي يعود إلى الحياة بحد ذاتها و يبغي إضاءتها فلسفيا. هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يصبح واضحاً، لاسيَّما حين يصف نيتشه على ما يبدو المبدعين بأنّهم، كما يقول، معشر من العجزة و الضعفاء، و لكن هنا وبلهجة مؤكدة و حذرة يقول الآتي: ((توجه البواعث و النوابض الفكرية الإنسان نحو العالم المتغير الموجود في متناول يديه. فحاجته كمبدع تحتم عليه أن يخلق العالم الذي يريد أن يعمل فيه كما يراه – أو كما يتوقعه. مثل هذا التوقع (الاعتقاد في الحقيقة) يمنحه الدعم و المساعدة و حافز و باعث و حتى سبب كبير في مواجهة الأشياء بشجاعة)).

تبدو عملية-الحياة، التي تمتلك الحقيقة بواسطتها وجودها الخاص، كوهم متغير و متواصل، لنيتشه بمثابة حركة لا متناهية تقبل دائماً شكل الحقيقة النهائية و الثابتة ثم يحدث بعد ذلك انحلالها و

موتها. و لكن، المعنى الفلسفي للحياة يتحدد بواسطة ما سوف يكونه الإنسان كنتيجة لها. إذا كانت كل الحقائق التي تخص و تنتمي إلى الوجود و يمكن أن تندمج في الحياة تعاني الانحلال و الذبول و عرضة للتغير، فإنّ الحقيقة ليست إطلاقاً، كما يُعتقد، بأنّها واقع مستقل ثابت و نهائي يمكن أنّ نشعر معه بالرضا. بل على العكس: ((إنّ تكون على صواب هو أنّ تكون قادراً على الارتقاء في الجنس البشري و السمو فيه مع واقع متغير و غير نهائي)).

الحقيقة وعلاقتها بقُوَى الحياة التي تحددها وتقوم بتحطيمها. ــــ تخترق التوضيحات السيكولوجية في العلاقات الواقعية و الدوافع و النوابض الوجودية لانسجام و توافق الحقائق الحيوية، في أقوال نيتشه العدّة، الدوائر المغلقة التي لا مفر منها، و التي لا يمكن لا للحياة و لا للحقيقة (هنا كتصور أضِدّاد) أنّ يكون أحدها مستقلا عن الآخر. يؤكد نيتشه على ثلاث اتجاهات ينبغي لتطور الحقيقة أنّ تسير فيها في العَلاقة بالقُوَى الأخرى للحياة التي تهدد في تحطيمها، و في نفس الوقت تزودها بشروطها التي لا مفر منها:

(1) إذا كانت الحياة تستلم التعبير و السمات الخاصَّة بها، فإنّ هذا يجب أن يحصل بفعل تأثير العالم – بالإضافة، ينبغي أنّ نتذكر أنّ الحقيقة غير المؤثرة لا وجود لها إطلاقاً. في ظل غياب الإرادة للتواصل و كذلك التأثير، فإنّ وجود إرادة ثابتة للحقيقة غير ممكن. (2) تنطوي الحقيقة على جملة من القُوَى تجعل وجود هؤلاء الفلاسفة الذين يتأملون في الحقيقة و يتسلون بها أمر ممكن. (3) دون القوة المحركة و الدافعة للمعرفة التي يزودنا بها الاعتقاد، لن يكون هناك إطلاقاً عملية بحث عن الحقيقة. و لكن كل هذه الشروط يمكن أنّ تكون محطمة أيضاً. انطفاء و تلاشي البحث عن الحقيقة يمكن أنّ يكون نتيجة و بفعل النِقَاط الثلاث الآتية: (1) الاستقلالية المفترضة بواسطة تأثيرات الحقيقة؛ (2) الصراع مع القوة؛ (3) الاعتقاد و الإيمان المطلق الذي يحفزها و ينفخ فيها الحياة. الأفكار الآتية في خطوطها العامة يمكن أنّ تحدث ثلاث نزعات أمامنا:

(2) ينبغي للناس، بطريقة لا مفر منها، أنّ يأخذوا على عاتقهم مهمة ضمان تأثير الحقيقة – حتى لو كان الأمر يقتصر فقط بالحديث عنها. هذه المسألة تمثل لنيتشه معنى و مدلولاً رائعاً و عجيباً، لأنّ التأثير بحد ذاته أمر غامض و عميق و في غاية الغرابة: يمكن للتأثير أنّ يستمر فقط من حين يكون مفهوما و مقنعا. مع ذلك، هذا التأثير يتحول إلى ضِدّه حينما يكون مقنعاً، أيّ ينتشر و يعلن نفسه بواسطة الاقتراح و يقود إلى عدم التفكير أو عدم الإكتراث.

الموقف الحيادي نحو التأثير، الذي يُفْتَرض بواسطة الواحد الذي يمني النفس، من أجل الحقيقة، أنّ لا يقول أيّ شيء عدا الحقيقة، هو نفسه لا حقيقي و زائف، لأنّهُ أعمى نحو معنى التأثيرات و مدلولاتها. ((ببساطة، إنّ الشخص الذي يدعي أن الحقيقة هي فقط التي تتكلم يفترض إنّهُ يمتلك الحقيقة سلفًا. و لكن، إذا كان هذا يعني أن المرء يأخذ فقط ما هو حقيقي فإنّهُ هناك بالتأكيد حالات أخرى من المهم أنّ تنقل في طريقة تؤثر بالشخص الآخر كي يعدّها و يقبلها كحقيقة)).

إذا كان ما أبحث عنه هو التأثير فقط، فإنّي لست بحاجة إطلاقاً للبحث بعد عن الحقيقة، و لكن فقط عن الوسائل المؤثرة حصراً. ليس فقط حقيقة القول الذي يلفظ لغرض التأثير هو غير منطقي و هام من وجهة نظر المهتم فقط في التأثير، بل يمكن حتى القول ((إنّ كلّ شي يمتلك تأثير الحقيقة ينبغي أنّ لا يكون بنفسه حقيقيا)). كيف لهذا الذي بالأصل حقيقي أنّ يفقد حقيقته نتيجة للترتيبات التي صنعت لغرض نشر التاثير الذي يوضحه نيتشه تاريخيا حين يضع أمام أنظارنا الوسائل و المناهج التي توظفها المدرسة الحقيقية ((لوسائل الإغراء و الإغواء)).

يتلمس نيتشه و يرى بوضوح الضرورة التي لا مفر منها للتأثير. لكن حين يتحدث عن هذا التأثير، يمكن للمرء أنّ يلاحظ حجم السخرية و التهكم الذي تنطوي عليها تعبيراته – بمعنى آخر، الإيجابّ الذي هو أيضاً سلب. بهذا الصدد يكتب نيتشه الآتي: ((الدعاية و نشر المعلومات و الإشاعات أمر غير محترم و سيئ لكن لا أحد ينكر إنه أُسلوب في غاية الذكاء و مؤثر جداً)). اليوم من الضروري على الأقّل ((أنّ نستخدم الكلام غير المألوف و الخشن لغرض الانسجام و الوفاق و التصالح مع عصرنا. الشخص الذي لا يرفع صوته بالزعيق و لا يصرخ سوف لم يكون ببساطة موجوداً في هذا العالم)).

بغض النظر عن العامل المفترض الذي يشكل التأثيرات، فإنّ الأخيرة تتحول إلى شي متناقض مع الحقيقة الأصلية، و بصرف النظر عن الطريقة التي ترتبط بها بعملية الانتشار العام، تبدو هذه التأثيرات منظورة و مصنوعة بواسطة سياق التأملات الواقعية عند نيتشه. لم يميز نيتشه و يدرك فقط ضرورة التواصل و لكن الكفاية-الذاتية للحقيقة: ((يمكن طرح الفرضية على النحو الآتي: (هذه الفكرة لا يمكن أن تكون حقيقية!) شيء مروع حقاً. (و إنها لا يمكن أنّ تُقبل كحقيقة!) لقد تركتني أشعر بالبرد و القشعريرة، لأني كنت اعتبرها في السابق أمر مفروغ منه)).

(3) أينّما ندرك الحقيقة و نقبض عليها فإنّ الأمر دائماً ينطوي على عنصر القوة. في العالم الموضوعي، تعتمد الحقيقة على القوة الراسخة و الموثوق فيها التي تجيز أو تعيق تواصلها – و ضمن العالم الذاتي للفرد تعتمد الحقيقة على النوابض المحرضة و الاستفزازية لإرادة القوة عند المفكر حصراً.

جوهرياً، إذا أخذنا الحقيقة بمفردها، و قمنا بعزلها عن الأشياء الأخرى التي تحيط بها، فإنّها لا تشكل أيّ قوة تذكر. ((بل، ينبغي أن تجذب القوة، التي تغير من وسائلها، إلى جانبها، أو تنضم إلى رتب القوة، و إلاّ سوف تتلاشى و تذوب المرة تلو المرة!)) هذا الخطر، على سبيل المثال، يظهر حينما تبرز عادة عدم التفكير و الاكتراث باستمرار عند الرجل العادي و تصبح عاملاً حاسماً و محدداً: ((نتيجة للتعود التام، يخضع الإنسان نفسه إلى كلّ ما هو قوي))، و بذلك ينتهي به الأمر إلى أن يصبح العدو الأول للحقيقة. يفضل الإنسان ألّا يتعب نفسه في التفكير و لا يريد أنّ يتعلم و أن يكون متنور، ببساطة: ((التنوير يثير السخط و النقمة، يريد العبد المستاء من مصيره الذي تصنعه الطاعة العمياء – الذي سيظل صوت القطيع يرن في داخله، الذي يكظم أحلامه تارَة أو أن يكون فريسة التفجر العاطفي تارَة أخرى – نظام من المقولات الثابتة، و أن لا يفهم إلاّ اللغة المستبدة للطاغية)).

مادام، تسود في عملية الإبداع إرادة القوة عند المفكر – و التي دونها لا يمكن له أن يشرع في عمله الفلسفي – فإنّ كل مبررات النقد تتقوض بالتالي. لأن الدليل الملموس للقوة تظهر ملامحه بواسطة الشعور المتصاعد و المشتد للقوة – بعبارة أخرى، إنّ مطالبة القوة بأنّ لا تتجل بما هي قوة، و بأن لا تكون أرادة فتح للأرض البكر و تعطش للمقاومة و الانتصار أمراً لا معنى له.

(4) لا يتم البحث عن الحقيقة و ملاحقتها لأسباب و صلاحيات موضوعية كما يحصل في الادِّعاء الرئيس للعلم. ينبثق البحث عن الحقيقة بفعل الإيمان التقليدي: كلّ صراع من أجل الحقيقة وجد في العالم نتيجة لصراع من أجل الثقة و الأمان المقدس الذي يبحث عنه الإنسان. بمعزل عن مأساة الصراع – و حقيقة كلنا خلقنا هكذا بحيث لا نستطيع أن نكون أفضل مما نحن. و اعتقد أن أعظم ذكاء هو الأكثر تألماً من حدوده – لا يهتم الإنسان أو يأبه بالاستنتاج المنطقي ((ليس هنا حافزاً باعثاً أو نابضاً فكرياً أساسياً للبحث عن الحقيقة – أيّ البحث عن الحقيقة بمعزل عن الارتباط بالنتائج و العوامل العاطفية أو التي لها صله بها)). في المحصلة النهائية، يجب أنّ يكون هناك إيمان

بالحقيقة (حتى لو كان هذا الإيمان مزيف)، تصبح الحقيقة بموجبه شيئاً يستحق أن نصارع و نضحي من أجلها: ((حتى المذهب الشكي يتضمن و يقوم في تفاصيله على الإيمان بشيء محدد – الإيمان بالمنطق)). في الواقع، ((لا يوجد شيء اسمه باعث أو نابض فكري للمعرفة و الحقيقة، هناك فقط يوجد باعث في الإيمان بالحقيقة. لا تعد المعرفة الصرفة و المجردة أمر محفز)).

إذا كان الإيمان، أقصد الإيمان بالحقيقة، و الرغبة في الإيمان بالحقيقة هما شرطين ضروريين دونهما يصبح البحث عن الحقيقة أمراً بالمستحيل، فإنّ هذين العاملين يمكن أن يتطوران أيضاً و يتحولان إلى تهديد سافر للحقيقة. يحدث هذا الأمر حين يكون الإيمان، أو انحرافه إلى رغبة في اللا-إيمان – أعني، عندما تقدم البواعث و الحوافز نفسها بوصفها معيار للحقيقة. كل صيغة من صيغ الإيمان تعد نفسها صحيحة، لكن معيار-الحقيقة الذي يوظفها لمصلحة يختلف تماما عن معيار الحقيقة الموضوعية، المنهجية، ذات الصَلاحِيَة الكُلّية و القائمة على أسس صلدة مقَبُولة. لأن معيار حقيقة الإيمان هو ((دليل القوة)) الذي يمد يد العون لأولئك الذين يعتمدون و يعولون عليه في عملهم. على العكس تماما، يمكن للحقيقة الموضوعية و المنهجية ((أنّ تكون على مر التاريخ مؤلمة، خطيرة، مميتة، و مصيرية)). عموما، ((يتشكل الإيمان بواسطة وسائل هي بالضِدّ تماما، و في الواقع و حصريا، من المبادئ المنهجية للفحص و التحليل و البحث العلمي)). هذه المعايير الزائفة للحقيقة، التي لا تكشف الحقائق بقدر ما تحجبها، و التي تعمل تطبيقاتها بواسطة البحث عن الأدلة و البراهين، لتقويض الحقيقة هي، طبقاً إلى نيتشه، مجرد ((اختبار و امتحان للقوة))، و هي، على سبيل المثال، (أ) إرادة السعادة؛ (ب) الشهادة، و (ج) السُّلوك الفاضل.

(أ) تَجْرِبة المتعة في العَلاقة بالحقيقة و العثور على السعادة، ضرب البهجة البسيطة الذي يمكن تحويله إلى قاعدة، لا يمكن أن تشكل أدلة قوية ومقنعة. على العكس تماما، يبين لنا تاريخ فتوحات الحقيقة ((كان على الإنسان أنّ يصارع من أجل الحقيقة في كلّ خطوة من خطوات هذا الطريق – فمن أجل الحقيقة أنكر تقريبا كلّ شيء يرغب فيه بشكل طبيعي، و أنكر كلّ شيء يحبه. لهذا السبب، عظمة النفس الإنسانية مطلوبة: طلب الحقيقة و خدمتها هي من أصعب الخِدْمَات إذ لم تكن أصعبها)). و بينما يدعي الإيمان، طبقاً إلى نيتشه، ((أنّه شيء حقيقي، لأنه يجعلنا سعداء))، يستنتج البحث العلمي عن الحقيقة الموضوعية من تجاربه الأمر الآتي: ((لما كان الإيمان التقليدي يهدف أن يجعل منا أناس سعداء، فإنّه يتبع عن ذلك بالضرورة اختلاق الأكاذيب)). دائماً تضيع

الحقيقة و تصبح من الأشياء المطمورة حين تتصدر إرادة السعادة المشهد و تفرض سيطرتها. و بذلك، تنطلق الفلسفة – بذاتها كنوع من الإيمان – من هذه العلوم التي تبحث عن الحقيقة بحد ذاتها حينما تطرح السّؤال الآتي: ((أيّ من طرق معرفة العالم و الحياة تمكن المرء من أنّ يكون سعيداً؟)) إنّ المرء الذي يبحث فقط عن سعادته ((يكون بالضرورة غير مبالي و حيادي اتجاه كل المعرفة غير المثمرة و المفيدة و يكون معادي تماما إلى الحقائق الخطيرة و المحطمة)). و لكن، في الجانب الأخر، تعدّ المطالب الصادقة و الصُّلْبة بالحقيقة أموراً حيادية و غير مبالية بالسعادة: ((التاريخ يخبرنا ليس هناك انسجام و وفاق و تصالح و عَلاقة مسبقة بين تعزيز الحقيقة و رَفَاهيَة وسعادة الإنسان)).

(ب)على مدار التاريخ الإنساني، هناك الكثير من الأمثلة و الشواهد عن تضحية الإنسان، الذي يتأجج الماضي البعيد و المظلم في داخله، في نفسه واستشهاده من أجل الإيمان. حينما يتحدث نيتشه عن الحقيقة بحد ذاتها كما لو أنّها شيء ثابت غير قابل للتغير و يمكن القبض عليها في نقائها و بكوريتها الأصيلة بواسطة الوَسْط الحيادي للتأمل الخالد، فإنّه يستبعد الشهادة التي قدمتها تضحيات الشهداء و دمائهم في سبيلها: ((الدَّم في الواقع هو أسوء و أقسى شهادة ممكنة على الحقيقة – إنّهُ يسمم حتى المذاهب الأكثر نقاءً، و يتحول إلى جنون و كراهيَة تستقر في قلوبنا)). و أكثر أهمية من أيّ شيء أخر، إنّ الحقيقة العلمية، و بمعونة طبيعتها، غير قادرة على أن تكون مقَبُولة أو مرفوضة بواسطة الشهادة. يلقي نيتشه بظلال الشك على الباحث الذي يصل إلى هذا المستوى: متى ما تم القبض على الحقيقة (أيّ، المنهج العلمي) و السيطرة عليها بواسطة أولئك الذين يرون و يحسون فيها تنفيذ لأجندة الحرب، فإنهم يعلنون بواسطة الحرب الذي يشنونها، ((أن مفهوم الحقيقة غير المشروط تماما هو من ألد أعدائهم و خصومهم – يصبحون متعصبين على الأقّل فيما يتعلق بمواقفهم)). تعبر كلمات، ((الإقناع)) و ((الإيمان))، و التي تمثل فخر مفهوم الشهادة و خيلائه، عن أكثر الأسماء غير المفضلة و غير الملائمة للمعرفة العلمية. يفترض معشر الباحثين، الذين يتناولون الأشياء بالفحص و التحليل، في معركتهم، موقف خصومهم – أعني، معشر المؤمنين – الذين يرون يد الله في كلّ مكان، تحل و تربط و تتصرف في كل شيء من أجل خلاص أنفسنا، لقد اصبح الخطأ هنا واجباً-فضيلة- و الاحتقار مساعدة، و غريزة التدمير ممنهجة تحت اسم خلاص البشر – و يبحثون كي يقرروا و يحسموا أسئلة الحقيقة ((بواسطة التضحيات و التصميم البطولي))، فهم يعملون بشكل مباشر على تعزيز هيمنة المناهج غير العلمية أو المضادة لها: ((بواسطة وظيفة

الشهداء يصلون إلى تفاهمات و تسويات فيما يتعلق بإنجازاتهم)). في هذا الصدد، يقدم نيتشه النصيحة الآتية: ((أحذر من (الشهادة و المعاناة من أجل الحقيقة)! حتى لو كان دفاعك عن الحقيقة كما لو أنّها شخص ما غير مؤذي و أخرق و ضعيف يحتاج أنّ ندافع عنه! أذهب و اختبى! و خذ معك أقنعتك و أسلوبك المهذب حتى لا يتعرف إليك أيّ أحد من الأشرار!... شهادة الفيلسوف، و تضحياته بنفسه من أجل الحقيقة، تضيء لنا حجم التحريض و النفاق و قدرة الممثل البارع المختبئ في داخله)).

(ت) لا يعدّ ((السُّلوك الفاضل)) معياراً و مقياساً للحقيقة – فهو لا يقول أيّ شيء سواء كان ضِدّ أو مع الحقيقة: (([1]الحقيقة لا يتم إثباتها و البرهنة عليها بنفس الطريق التي نبرهن بها عن [2] ((الصدق)) – كم هي مغيظة قضية الصدق هذه. لا أفكر إلاّ بصدق الآخرين و إذا عدت لنفسي فلا أعود ادرك ما تعنيه هذه الكلمة. أنا لست إلاّ ما اعتقد أنا هو- و هذا يتغيّر دون انقطاع بحيث إنّ كياني في الصباح ما كان سيتعرف على كياني في المساء لو لم أكن أنا لأضبط الأمور، كما لا يمثل الثاني حُجَّة لاجل الأول)).

إذا كانت معايير يقين الإيمان و الاعتقاد – دليل القوة الذي يُعبر عنه بطرق متنوعة كإرادة السعادة، الشهادة، و السُّلوك الفاضل – يتم استبدالها بمعايير الحقيقة، فإنّ الحقيقة ينبغي أن يتم استئصالها. تتطلب الحقيقة النقد و ليس العبادة و التمجيد و الإيمان الأعمى. في العَلاقة بمثل هذه الحقيقة، يقول نيتشه: ((نحن معشر الباحثين عن المعرفة نرتاب في كلّ ما يقوله أيّ نوع من أنواع معشر المؤمنين و نحترس بالضبط من كل صنوفهم التي لا يعتد بها)).

و لكن يبقى نيتشه يتمسك ليس فقط في مبدأ ((لا الإنسان و لا الوحش قادر أن يعيش دون الأمان الاستثنائّي الذي يزودنا به الإيمان التقليدي و الاعتقاد))، و لكن أيضاً نحن نعتمد و نتكل عليهما كمصدر أساسي لكلّ غنى و كمال وجودنا :((نحن معشر المسيحين، الفلاسفة، الشعراء، الموسيقيين ينبغي أن توجه إلينا آيات الشكر و التقدير لوفرة و فائض التَجارِب الغنية العميقة المحركة التي سرنا في طريقها و أنتجنَها)) إذا كان نيتشه حريصاً و مصراً على منع من مثل تلك التَجارِب من الانتشار باتساع ((فعلينا أنّ نستحضر الروح العلمية.... تهدئة عاطفة الاعتقاد التي تبحث عن الحقيقة النهائية التي لا تزعزع))، لكنه لم يتخلَ إطلاقاً عن هذا الأساسّ لكلّ المعرفة.

فضلاً على ذلك، حين أخضع نيتشه الإيمان التقليدي و الاعتقاد للسّؤال بواسطة تطبيق معيار الحقيقة الموضوعية، لم يمنعه هذا من أنّ المطالبة بنوع الإيمان و الاعتقاد، الذي يخصه، و الذي يمثل منبع الحقيقة. لم يتحدث نيتشه عن ((اعتقاده...)) و عن اعتقاد ((أولئك الذين لهم إيمان أخر مغاير عنا فحسب...)) بل قال أيضاً مؤكداً الآتي: ((لأنك شخص عقيم و مجدب، فإنك تفتقر إلى الاعتقاد و الإيمان التقليدي. و لكن ذلك الذي فُرِضَ عليه الإبداع دائماً و ليس له من خلاص إلاّ فيه... يؤمن إيماناً راسخاً في الاعتقاد!)) مرة أخرى، ((ليس العمل و لكن الاعتقاد والإيمان هو العنصر الحاسم هنا و يرسي دعائم نظام المراتب في هذه النقطة...، و بعض اليقين الأساسي أو آخر)). و لكن بالعَلاقة باعتقاده، يصرح نيتشه أنّهُ لا يمتلك المعيار الذي يقوي من كلّ اعتقاد أو إيمان بشكل طبيعي: ((إذا كان هناك اعتقاد أو إيمان يقود إلى النعمة، فهناك أيضاً اعتقاد و إيمان آخر لا يقود إليها)).

و سواء كان هذا الأمر يتعلق بالتأثير، القوة، الاعتقاد، في كلّ حالة تتعرض الحقيقة إلى الخطر أو يتم حجبها أو تقويضها، فإنّ ذلك يمثل بمنزلة يَنبوع ينبثق منه البحث عن الحقيقة. هذا وحده يجعل من أقوال نيتشه المتناقضة و المتضادة ليست فقط مفهومة و شاملة و لكن أيضاً لا مفر منها و لا مناص من الإصغاء إليها. في الصراع من أجل الحقيقة هناك دائماً قوة دافعة تسير بالضِدّ من شروطها التي لا ينبغي أن يتم التخلص منها بصورة نهائية إذا أردنا للحقيقة أنّ تبقى في هذا العالم و لا تغادره إلى عالم آخر.

بلوغ وعي الوجود حدوده. أنتجت الفكرة الأساسيّة للوهم الكلي للحقيقة رؤية و معاينة للوجود تتحرك في ثلاث خطوات كما لو أنها تشبه الدائرة: (1) في المقام الأول، في البَدْء يتم استيعاب الحقيقة المجردة، المختلفة عن عالم المظاهر الوهمي العام، و فهم مضامينها؛ ثم (2) إنّ التوافق و الانسجام بين الحقيقة و الوهم الذي لا مفر منه يجعل من الحياة تبدو إشكاليّة كبيرة؛ (3) و أخيراً، كل الوجود بأوهامه الكُلّية، يتم فهمه و القبض عليه و إرجاعه إلى مواقعه السابقة، بواسطة التحولات التي تحدثها الإرادة الخيرة للوهم.

(1) تُعرضّ الخطوة الأولى أعلاه الحُجَّة الآتية للخطر. إذا كانت العملية الحيوية الأساسيّة التي تتغير مع و ضمن تغير بنية العالم بوسعها، و بمقتضى طبيعتها، أن تعرف الوجود فقط كوهم يشبه الوجود الثابت بذاته و ينبغي أنّ يعدّ الشرط الأساسيّ للحياة – حينها سيكون السّؤال الذي يواجه

المرء، المهتم بالفلسفة، ليس سّؤال ديكارت حول إمكانية حدوث الخطأ، بل على العكس تماماً، أعني، السّؤال الآتي: ((كيف تكون المعرفة ممكنة إذا كانت قائمة على الخطأ أو على أساس خاطئ))؟ هنا، مع هذا السّؤال، يتم بلوغ الحقيقة – بوصفها بصيرة و معرفة عميقة للعملية الحيوية، التي يكون الخطَأ بالنسبة لها شرطاً ضرورياً – بواسطة تفكير نيتشه. كان نيتشه يتوقع أن يبلغ التحليل و الفحص العلمي نفس المعرفة العميقة التي وصلت إليها الفلسفة، و بهذا الصدد يقول: ((في يوم ما، سيحتفل العلم بانتصاره الكبير بواسطة فتوحاته لميدان تاريخ أصل التفكير و فصله)). صحيح، إنّ هذه المعرفة العميقة للعلم سوف تحررنا، و لو بقدر طفيف، من عالم المظاهر و التي أصبحت، بواسطة عمليات الحياة، جزء ضروري لنا، ((و لكنها على الأقّل ترفعنا فوق هذه العمليات و تجعلنا نأخذ مسافة منها)). حينما ترجم نيتشه مفهومه للوعي الفلسفي للحدود و أدخله في مشروع البحث العلمي، مؤكدا أن من مهام العلم الأساسيّة هو ((قياس درجة الوهم و الزَّيف و تشخيصهما و البحث في ضرورة الخطَأ الأساسيّ بوصفه شرطاً حياتياً لا مفر منه للوجود الحساس))، كانت بذهنه فكرة أنّ من الممكن الوصول بسهولة إلى الحقيقة المجردة عن الكلّ.

تظل هذه الحقيقة مختلفة جذريا في السمة عن حقائق الحياة، التي تظهر كخطأ حين ننظر إليها من هذه الزاوية. للحظة قصيرة، يقف المرء و يتسامى فوق الحياة و يضع مسافة بينه و بينها كي يتأمل و يطيل النظر فيها. هذا النوع من التسامي هو وعي متعالي لفينومنولوجية الوجود – إنّه مماثل لبنية الوعي الكانطي للوجود. و لكن من حيث إنّهُ يساوي و يعادل الدراسات العلمية لسيكولوجية و سوسيولوجية التطور التاريخي للمعرفة، فقد أساء هذا المرء فهم هذا التعالي الفلسفي، و اعتقدَ مخطئاً أنّه يمتلك معرفة على الأشياء كلها فقط بواسطة دراسات الأشياء الفردية المحسوسة في هذا العالم.

في كلا الحالتين يمضي التفكير قدما في عمله و حسب خطته حين يصبح متطابقا مع الحياة. يخضع هذا التفكير إلى ضرورات الحياة – و الأخيرة تُعرف و تُميز كخطأ حينما يُكتشف أنّ الحقيقة غير ملائمة مع أغراضنا الحيوية و أنّ هذه الحياة مشروطة ((بواسطة منظور الوهم-الزَّيف)).

(2) هنا تبدأ الخطوة الثانية. ((السّؤال الأخير، المتعلق بشرط الحياة، يطرح نفسه... إلى أيّ مدى يمكن للحقيقة أن تكون مندمجة و مرتبطة مع الحياة؟)) مع هذا السّؤال، يمكن أن نطرح إلى جانبه سّؤال أخر كيف يمكن للمعرفة و الخطأ أنّ يتوافقان و ينسجم الواحد مع الآخر، يجيب نيتشه

الشاب عن هذا السّؤال على نحو الآتي: ((إرادة المعرفة و إرادة الخطأ هما يشبهان ظاهرة المِدّ و الجزر)). نستطيع، بل ينبغي، أن ندمج الاثنين معا تماما كما نعيش تَجْرِبة النهار و الليل على حدّ سواء. لا يعد التواصل و التماس بين الاثنين، مع ذلك، حلا من الحلول. يوصي نيتشه و يقترح في آن واحد أنّ مفهوم ((الإنسان الحر، الذي يحيا بلا مخاوف، أو يحلق عاليا فوق البشر، العادات – التي تشل الإنسان و عليه أن يقلع نفسه منها – القوانين، التقييمات الأخلاقية للأشياء)) يزودنا بالحل. بناءً على ذلك، لا تعني طبيعة المعرفة الفلسفيّة العميقة للحقيقة بذاتها – المعرفة العميقة التي لم تعد خاطئة – إنّها تنبثق من الحياة، لأنّها في الواقع تعطيل فلسفي للحياة. إنّ الشيء الذي هو حقيقة من زاوية هذا التسامي هو ليس حقيقة من زاوية الحياة، و ما هو حقيقة ضمن الحياة، من وجهة النظر هذه هو الوهم. إذا شعرنا أنّ شيئاً ما، ضمن الحياة، ((ينبغي اعتباره صحيحاً – فإنّ هذا لا يعني أنّهُ صحيحاً))، فما هو مهم بالنسبة لهذه الحقائق السامية أنها لا تبد إطلاقاً كالحياة، بل إنّها فقط تملك معنى يقف عاليا فوق الحياة و يتسامى عليها. إذا كانت المعرفة الفلسفيّة العميقة للعملية الحيوية كليًّا تشكل معنى معيناً، فإنّ مفهومها للحقيقة عن حقيقة الحياة ينبغي أنّ يكون بشكل ملحوظ مختلف عن الخطأ الذي يعدّ مبدأ أساسياً و جوهرياً للحياة. لا يمكن للحياة بذاتها أنّ تبلغ و تهضم السابق دون تبطل حقيقتها و تقوضها بذاتها. علينا أنّ نحب الحياة و نرفع من شأنها لغرض المعرفة؛ علينا أنّ نحب الخطأ و نعلي من شأنه من أجل الحياة... – هذه هي الشروط الأساسيّة لكل العاطفة التي نتملكها نحو المعرفة.

و بذلك، نجد أنفسنا أمام ازدواجيَّة الحقيقة التي تظهر أولا في الحياة التي تساند و تدعم الخطأ و من ثّم المعرفة الحقيقة لهذا الذي يعدّ ضرورياً لخطأ الحياة. تستمر الحُجَّة، التي تقف على أرضية صلبة لعدة أسباب، جيئة و ذهابا: ((الحياة هي شرط المعرفة؛ بيد أنّ الخطأ هو شرط الحياة – الخطأ هو الحالة الأكثر عمقا في الحياة. لا يمكن التخلص من الخطأ بواسطة رويته و تشخيصه كما هو... علينا أن نطيل الوقوف عند الخطأ، أن نحبه و نجعله بمنزلة الأرض الذي نحرثها و نسقيها كي تثمر، لأنه ينَبوع و مصدر المعرفة)).

(3) تنبثق الخطوة الأخيرة من فجوة و انقسام الحقيقة التي لا يمكن الدفاع عنها: من جانب، الحياة الخاطئة؛ و من جانب آخر، التسامي و الارتفاع عنها، كشيء هامد و فاقد للحياة لكنه فكرة صحيحة. يمثل الغوص و التوغل داخل الضرورة الحيوية للخطأ، وهم الحقيقة، و الإعماق السحيقة

التي ينبغي أن نتجاوزها في عملية بحث لا ينتهي عن الحقيقة عند نيتشه السبب الذي يكمن وراء مطالبة نيتشه أن نتمسك بوعي و عن قصد و عمد بالحقيقة في صيغتها المحددة المفترضة دائماً داخل الحياة الواقعية – نحن دائماً نعيش ضمن عالم الماوراء و المابعد؛ لا نمتلك يقينياً أيّ شيء عدا الوهم، لكننا نجرب هذا الوهم كوهم؛ فهو يشكل لنا شيفرة الوجود. إذا كان الوجود، ببساطة، وهماً، فإنّ وهمه، كحدّ، يحول و يغيّر وعينا تماما للوجود. بناءً على ذلك، التفلسف من هذا النوع يفرض علينا أنّ نتعاطى مع الوجود الحقيقي ضمن حدود الوجود، و بذلك ((نبقى مخلصين و أمينين للأرض)).

أولا، يطالب نيتشه، أن نحصر أنفسنا في حدود الحاضر. تبقى الحقيقة تتحرك بذلك المجال الواقعي الذي يتجسد في الهنا-و-الآن. لا يوجد هناك شي يقع خلف أو ما بعد أو ما وراء هذا العالم يمكن أن يسمح بأنّ يخدعنا و يضللنا مع الحياة المعاصرة. نبقى نشعر ((بالحيادية و اللامبالاة)) نحو الأسئلة المتعلقة بالأشياء الأخيرة – و علينا أن ننتظر كي نسمع و نصغي إلى ((ما سوف يقوم العلم باكتشافه)) عنها. من الضروري للبشر أن يكونوا متيقنين حول المنظورات و الأفاق البعيدة كي نعيش الحياة بكل امتلائها وأغراضها... ((مرة أخرى، غدونا جيراناً طيبين للأشياء القريبة جداً منا بعد أن ابتعدنا عنها كثيراً)). بهذا الصدد، يضع نيتشه أو يرسم الخطوط العريضة لطقم المبادئ التي تحكم و تسيطر على الحياة المثمرة: لم يعد المرء يتخذ كخط هادئ ما يظهر في الأفق – الأشياء الأكثر بعدا و التي تفصلها عنا مسافة طويلة غير محددة مثل السحابة التي تبتعد عنا كثيرا في السماء: ((ينبغي للمرء أنّ يتحقق من الأشياء بواسطة درجة قربها قبل أنّ يحدد الاتجاه و البوصله لمسيرة حياته)). تعدّ ((الحقائق و الإمكانات الأساسيّة مادة معرفية كافية)) ((كي نعيش و نفكر بواسطتها)). يشكو نيتشه من افتقادنا إلى قدرة الملاحظة: ((إنّ ما جعل الأرض، و أُناساً كثيرين، ميدان لسوء الحظ و المنكودين و خائبي الرجاء، هو في الواقع الجهل بأكثر الأشياء ابتذلا و عمومية، و الفشل في النظر بشكل حادّ إليها...)) إنّ ما يقع في متناول أيدينا يتوفر في الواقع على أهمية لا تقارن، لأنّهُ يتضمن الضرورات التي تعتمد عليها حياتنا تماماً. ينبغي ببساطة أن نشعر تماما أنّنا في منزلنا في هذا المجال الواقعي الذي لا نحبه إذا أردنا أن نحصل على الحرية للاختيار بين الإمكانيات المتاحة لنا: ((علينا أن نأخذ على محمل الجدّ أكثر الأشياء تواضعا، الأشياء التي تم احتقارها و الحط من قيمة و تجاهلها لأزمنة و سنين طويلة، بل في كل الأزمنة بسبب العادات المترسخة في التفكير... فنحن نكتشف دائماً أنّ ((العالم الأصغر)) أو التفاصيل الصغيرة هي أكثر

العوامل الحاسمة التي تقرر مصير الأشياء)). في ضوء اللغة الجريئة، التي بدأ يستخدمها في أواخر سني حياته، يقول نيتشه: ((الأشياء الصغيرة، على سبيل المثال – الطعام، المكان، المناخ، إعادة الخلق و جميع حالات الترفيه عن الذات – هي أشياء أكثر أهمية، بشكل لا يقارن، أشياء أكثر أهمية من أيّ شي يعدّ و يُنّظر إليه مهم لنا حتى الآن)).

من العبث النظر، و أن نطيل التحديق في المناطق و الأماكن البعيدة. كل بدايات و منابع و مصادر الظواهر الواقعية هي أما أصول يتعذر الوصول إليها أو ليس هناك نتائج ملموسة بخصوصها ((ينمو معنى و مدلولية المنشأ و تتسع بسرعة بواسطة محاولة إضاءته بمقتضى سلاحي المعرفة العميقة و التأمل. بيد أنّ الأشياء القريبة من حولنا و في داخلنا تبدأ تدريجيا تسفر عن لونها و عظمتها و روعتها و رونقها و أسرارها و غنى المعاني التي تتوفر عليها بطريقة تتجاوز كلّ التوقعات و الأحلام في الماضي)).

في محاولة لفت الانتباه إلى الأشياء القريبة منا لا البعيدة عنا، يولي نيتشه اهتماماً بالفائدة و المنفعة التي يمكن أن نجنيها منها. في الواقع، يظهر التحديد-الذاتي للحقيقة حين يطلب منا نيتشه أن نؤكد طبيعة و ماهية الوهم و ما هو – أنّ نريده، و أن نضع ثقتنا فيه. إذا كانت الرغبة في المعرفة تبدأ بالكشف عن كلّ الأوهام، فإنّنا سنقبض، نتيجة لذلك، على معنى و ضرورة الوهم و نفهمه بدلاً من الاستغناء عنه. كما لو أنّهُ يتم تعليق العمل بإرادة المعرفة بواسطة الوهم، بينما ترفض الخضوع إليه، لأن إرادة الحقيقة تميز و تتعرف إلى الوهم في أثناء الإذعان إليه: ((هذا الاعتقاد في الحقيقة يسير و ينطلق نحو نتيجته الأخيرة – أعني، إذا أردت أن تعبد و تُؤلّه فعليك أن تعبد و تُؤلّه الوهم أو الفكرة الخاطئة و هذا هو ببساطة الكذب الإلهي – و ليس الحقيقة!)) مع هذا الطرح تصبح الحقيقة أمراً منيعاً لا يمكن الاقتراب منه أو صعب اللحاق به، إنّه أشبه في البحث عن إبرة في كومة من القش: ((لم نعد نؤمن أنّ الحقيقة ستظل حقيقة كما هي حين يرفع عنها النقاب و تكشف عن وجهها ... ينبغي للمرء أن يبدي الكثير من مظاهر الاحترام إلى الطرق المتواضعة التي تخفي بواسطتها الطبيعة نفسها منا بموجب طقم من الأسرار وعدد من اللايقينيات المتعددة الألوان... آه، هؤلاء الإغريق ما أروعهم! يعرفون جيداً كيف يعيشون وفقا لذلك: كي تقوم بذلك عليك أن تتوقف بشجاعة عند السطح، عند الثنيات، عند الجلد و تعبد و تُؤلّه الظواهر... كانوا الإغريق الذين أسبغت الطبيعة لطائفها عليهم أناس بسيطين – بسبب العمق الذي تتوفر عليه طبيعتهم!)).

إرادة الوهم في التفلسف، تتعارض دائماً مع ((النزعة الرفيعة السامية للعارف الذي يفضل أن يأخذ و يفهم الأشياء بعمق و بدقة وبواسطة وجوهها المتعدد – إنّها نوع من أنواع الوحشية في الضمير العقلي...)) و لكن هذا التفلسف يعي أيضاً ((أيّ شي يكشف النقاب و يميط اللثام عن ماهية و جوهر العالم الذي يقف أمام عيوننا، سيسبب لنا الكثير من الإزعاج و خيبة الأمل و عدم الرضا بشكل غير مقَبُول. إنّهُ ليس العالم بذاته، بل العالم كفكرة لنا (خطأ)، التي هي غنية جداً في المعنى و غنية جداً في الدلالة و رائعة و مدهشة)). و بذلك، يرجع الفيلسوف إلى الوهم.

تربطنا الحدود غير الواعية و مقصودة و تقيدنا بالخطأ؛ كما يجعلنا التحديد الواعي و القَبُول المتواضع للوهم متيقظين و غير بعيدين عن ميدان جميع التساؤلات السابقة. بيد أنّ الحقيقة، التي يتم إقصاها بواسطة هذه القيود و المحددات، تظل تتأرجح بطريقة تثير التهديد في خلفية المشهد أو الصورة. تطرح الحقيقة نفسها، بطريقة حتمية، معروفة، لإنّ الإنسان، حينما يتفلسف، لا يتوقف عن طرح الأسئلة، التي تنتزع اعترافات و أسرار، بالرغم من كل النيات الصادقة و الطيبة فيما يتعلق بالحدود، الأفاق، المنظورات و الأوهام المطروحة. في التفكير، يجرب المرء أمراً أكثر من أنّ يكون ممارسة لُعْبَة كسولة للعقل – على الأصح، يجرب نوع من النفاذ و الاختراق و التقدم المفاجئ و بطريقة إضافية و أبعد في شيء ما لا يسمح لنا إطلاقاً في الراحة و الركون إلى أيّ حد من الحدود أو المنظورات الثابتة.

بناءً على ذلك، لم تكن إرادة الحقيقة عند نيشة، و إلى أجل غير مُسَمَّى، تعيد تأكيد و بشكل مواظب نفسها بالرغم من طبيعة الأسئلة النقدية التي كان يطرحها – و لكنها كانت تمثل له بالأحرى دائماً و بحماسة شيئاً واقعياً و حقيقياً. كان صراعه من أجل الحقيقة يفرض عليه بصورة مستمرة الحقيقة بوصفها شيئاً واضحاً-بذاته، و قد سمح له هذا التصور بالدفع بها إلى مدياتها القصوى إلى أنّ وصلت إلى شفا الهاوية.

رغبة نيتشه التي تتوق للحقيقة غير المحدودة

يبحث نيتشه عن اليقين المنهجي الموجود في العلوم؛ بيد أنّهُ يفعل ذلك فقط بواسطة ترسيم حدود العلم بطريقة قاطعة و حاسمة لا تردد فيها. طورَ نيتشه نظرية الحقيقة كتأويل تزودنا بمادته الموجودات الحية كي نترجم و نحقق دائرة التفكير. كان نيتشه يتحرك ليس بدوافع الإرادة المحطمة و المقوضة المفروضة عليه؛ و لكن بدافع الرغبة النهمة في البحث عن الحقيقة غير المقتنعة أو قابلة بمعرفة الأشياء الجزئية فقط أو الوصول إلى نوع من اليقين أو آخر– بيد أنّ هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، فرض على نيتشه أن يسير خلف أو ما وراء ما هو محدد و معروف مفهوميا متجهاً بعيداً نحو الينابيع و متعقبا أثر الأصول التي نشأت منها الأشياء و تاريخ التكوين. غالباً ما كان نيتشه يعترف بهذه العاطفة و الرغبة في الحقيقة و يقدرها كثيراً – و بهذا الصدد يقول: ((ما الذي تعنيه صفات طيبة القلب – الذي لا ياتيك بالرأفة عند الطلب – الرقة و العبقرية إذا كان مالك هذه الفضائل أقل حماسة حول معتقداته و أحكامه، و توقه ضعيف و عنين نحو رغباته الداخلية و حاجته العميقة و الدفينة... أنّ يكون المرء محاطاً بكل أنواع الغموض الإبهام و المواربة و لا يقين الوجود و لا يجرؤ على إثارة التساؤلات حولها... – هذا ما أجده والله فعلا أمراً معيباً و مهيناً و جديراً بالازدراء)). ((الرغبة في الحقيقة، بغض النظر عن كلّ الاعتبارات، هي التي تسمى الأشياء، و لاسيَّما أكثرها ندرة – حتى الآن هذه الرغبة معروفة و لكن للآسف ما زالت مطموسة!)) هيأ نيتشه نفسه و تركها مَأسورة بلا تحفظ و كرسها لهذه الرغبة – كان نيتشه قادراً على الرد على كل الاعتراضات المنبثقة عن ما ضروري أو مفضي نحو الحياة: ((تهدف فلسفتي – لإنقاذ البشر من الوهم و الزَّيف، الذي لم ترهُ عين و لم تسمع فيه أُذْن و لم يخطر على بال بشر، مهما كان الثمن!)) لأن، ((المعرفة أصبحت رغبة لا تتردد في أن تقدم أيّ نوع من التضحيات لتحقيق هدفها)). لا شيء سيكون قادراً على فتحها أو اقتحام أسْوارها: ((إنّها الصرخة السعيدة من أجل المعرفة – إنّها البكاء الأخير)).

انطلاقا من الرغبة المتقدة في البحث عن الحقيقة، التي استولت عليه تماما، يعانق نيتشه الأمانة (*Redlichkeit*) ويضمها بقوة إلى صدره كفضيلة جديدة، و يعتبر العدالة (*Gerechtigkeit*)، النية الحسنة المتبادلة بين أناس متكافئي القُوَى تقريبا، هي نية حسنة قوامها تكيف البعض مع البعض الآخر و إحياء الوفاق بواسطة تسوية من التسويات، عطفا على ذلك، أكثر مواقف الإنسان جلالة و مهابة. و لا واحد من هذين النوعين من الحقيقة – أعني الأمانة و العدالة – يمكن تشخصيه بواسطة العلامات التي لا لبس عقلي فيها – و لا واحد منهما يمكن اعتباره مثال

بلاستيكي خالي من الحياة. بل على الأصح، تتكون الحقيقة من عناصر تعرض وجودها للتهديد عطفا على الصراع القائم فيما بينها. تتطلب العاطفة غير المحدودة للبحث عن الحقيقة أنّ تبلغ و تصل إلى مدياتها القصوى و قامتها الكاملة، و لاسيَّما حين تتلفت نحو نفسها و تخضعها للسّؤال و النقد و التمحيص.

الأمانة ـــ حينما تتلاشى كل الصيغ المحددة للحقيقة، و تبدو أنّها على وشك الاختفاء، تبقى الأمانة كملجأ أخير لنا. فحين تنحل و تتلاشى المعرفة، تقدم الأمانه نفسها كبداية جديدة إنها لا يمكن أنّ تتقوض مادام أنّ الذات التي تحملها مازالت باقية. يحتضن نيتشه الأمانة و يضمها بقوة و حرارة إلى صدره، لأنّها تمثل له تعبيراً عن الحقيقة الموروثة عند الإنسان و الأداة التي تخترق و تنفذ إلى كلّ شيء – إنّها ببساطة تعادل ((النزاهة الفكرية)).

تمثل الأمانة مسلمة و فرضية وجود الإنسان المفروغ منها في هذا العالم؛ و على عكس العدالة، التي تعني كلّ شيء يمكن دفع ثمنه كلّ شيء يجب أن يُدفّع ثمنه، لا تحظ الأمانة بمزيد من المديح و الإشادة و الثناء. ((إنا لا أقصد هنا أن الأمانة بحد ذاتها هي شيء سامي و نقي: إنّها تعني لي المطالبة بالنقاء و الصفاء. بغض النظر عن ماذا يكون الإنسان – عبقرياً أو ممثلاً – عليه فقط أن يكون نقياً و شفافاً و أميناً!)) بيد أنّ المطالبة بالأمانة لا تحدها حدود معينة: ((من الاستحالة لي أن أميز الإنسان العظيم غير الأمين مع نفسه واضعاً أصبعي على مواطن الخصوصية فيه)).

واحد من أهم أنواع الأمانة هو أن نكون ((شفافين و صادقين مع أنفسنا)). بواسطة هذه المِيزة يصبح تطور الذات، بشكل أولي، بالنسبة للفرد ممكن. أولا، ((يجعلنا تطور-الذات أشخاصاً مستقلين في طموحتنا و بواعثنا و نوابضنا الفكرية))؛ و ثانيا، قدرتي على المعرفة تعتمد، في المقام الأول، على أمانتي، بهذا الصدد يقول نيتشه الآتي: ((ليس لأنّ عيونك توقفت عن الرؤية و الإدراك و الفهم، و لكن لأنّ الأمانة قررت و عقدت العزم أنّ تغادر هذه العيون، و بذلك لم يعد بوسعك أنّ ترى أيّ شيء)). و بذلك، ((في العَلاقة مع كلّ شيء واقعي، تصبح الأمانة أدباً و أخلاقاً و حشمة، مع شرط استبعاد الحالمين غير الواقعيين ببساطة منها كونهم مرضى)).

يتحدث نيتشه، الذي عليه أن يهتم بالتفكير في أنّ يكون على مستوى المواهب التي أودعها الله فيه، عن الأمانة و كأنّها فضيلته المحبوبة، أو فضيلتنا الأولى الذي تتمتع بقيمة تنويمية هائلة –

الفضيلة الجديدة، الحساب الشخصي الذي لم يخامر ذهنه قطا من قبل: ((في كل الأمور الأخرى، نحن ورثة الفضائل أو ربما المبذرين لها دون حساب)). طبقاً إلى نيتشه، لم تظهر الأمانة، لا بين الفضائل السقراطية و لا بين الفضائل المسيحية – التي مع أنّها تعلم أن إيمانها كاذب فهي تريد أن ترى فيه رافعا للغرائز المنحطة و إلحاحا ساميا و تنشيطاً و وقاية – و وهمها السيكولوجي: ((الأمانة ببساطة هي واحدة من أكثر الفضائل فتوة و عنفوانا الذي لم تنضج بعد، فهي مازالت غير ممِيزة أو مدركة و يتم خلطها مع فضائل أخرى مختلفة، كما من النادر أنّ تكون واعية بذاتها – لأنّها مازالت في عملية تطور)). ((أنا أول البشر الذي يمتلك النزاهه الفطرية و العاطفية الذي يقاتل بشراسة بالضِدّ من كل (الأكاذيب المقدسة) أكثر من أيّ نوع أخر من الزَّيف و اللاحقيقة)).

لماذا ظلت فضيلة الأمانة – التحلي بالفضيلة التي يعرف كيف تنتظر – نادرة الوجود حتى زمننا الحاضر؟ على هذا السّؤال يجيب نيتشه عن النحو الآتي: لأن هناك الكثير من الأسباب التي تجعل الإنسان غير صادق و مزيفاً مع ضمير مرتاح. على سبيل المثال، تؤمن الناس بمجد الله الأعظم (*majorem dei gloriam*) أو يصرحون أنّ الأشياء صحيحة لأنهم يتمنون أو يريدون لها أنّ تكون كذلك، و لكن في الظروف التي يشعرون فيها بالإيثار يجربون عدم الشعور بؤخزات الضمير، أكبر الأمراض و أشدها إزعاجا، أو تأنيبه، صوت المجتمع الذي يحدد ما الخير و ما الشر، بسبب حجم اللاحقيقة و الزَّيف الذي ينطوي عليه التقييم الإيثاري – بالمناسبة القسم الإيثاري في خدمة الأنانية الفردية: هذه هي واحدة من الخدع المعتادة في القرن التاسع عشر – و لا أنهم ((حينما يتملكهم شعور الإيثار – و الذي هو شكل من الأنانية يظهر بانتظام في ظروف فيزيولوجية خاصَّة؛ يعطي أهمية كبيرة جداً للفرد ذلك حين تستغله قُوَى أعلى: الخوف الديني من نفسه، الحالة النفسية للنبي، الشاعر – يعتقدون أنّ من الممكن لهم أنّ يضعوا الحقيقة على جنب و لا تشكل مصدر قلق لهم)). حتى بينَ الفلاسفة لا شيء نادر الوجود أو أكثر ندرة مثل الأمانة الفكرية. فهم لا يخضعون إلاّ لجملة من الحقائق المعينة، ((لأنهّم يعرفون ما الذي عليهم أنّ يقوموا بالبرهنة عليه)). ((حبهم للخير)) يقوض و يحطم و يقضي على نزاهتهم، و يقدمون ((مشاعرهم الجميلة)) كحجج.

و أكثر من أيّ شيء آخر، الجماهير، التي اعتادَ ناظريها أولا على النور الزائف و الضوء المتقلب الذي يضع الرأس موضع القدم، لا تعنيها الأمانة لا من بعيد و لا من قريب: ((في ظل غضبهم الأعمى يكرهون العارف و أكثر الفضائل فتوة و أزدهارا تلك الذي نطلق عليها الأمانة)).

مع ذلك، ترسم الأمانة حدودها. و في نفس الوقت تقريبا، يلجا نيتشه إلينا و يتوجه إلينا بحُجَّة و طلب الأمانة غير المقيدة، ثم يعمل بعد ذلك لوضع الحدود لها. على سبيل المثال، يقول الآتي: ((حينما نشعر في يوماً ما بالتعب من جَراءِ و بسبب الأمانة... ينبغي أنّ نبقى، مع ذلك، أقوياء متكافئين صارمين و نحتفظ برباطة جأشنا، نحن أخر الرواقيين في هذا العالم!)) و لا نتيجة لذلك، يطالب: ((دع الأرواح الحرة ترى أن أمانتنا ليس مصدراً لتكبرنا و خيلائنا و غرورنا، فخرنا، محدوديتنا و غبائنا! كل فضيلة من الفضائل تنحو نحو الغباء، و كل نوع من أنواع الغباء ينحو نحو الفضيلة – الإنسان لا يصير أفضل حين تقدم له الفضيلة كشيء يمكن البرهنة و يتطلب المرتكزات – الملطخة بالضلال الأخلاقي. دعنا نتوخى الحذر كي نتجنب أنّ نكون قديسين و أشخاصاً مضجرين و مملين نتيجة للإفراط في الأمانة و الإخلاص)).

يتوفر التحديد-الذاتي للأمانة على معنيين: (1) تفرض علينا الحياة، إذا ضربنا صفحا عن المبالغة المشوقة فيها، التميز بين أن أكون أميناً مع نفسي – و بالمناسبة ما من شيء يمكن أن يصبح أكثر اختلافا عني سوى نفسي بسبب هذا التحول الدائم للأشياء – و أن أكون أميناً مع الآخرين. ينبغي للمرء أن يتعلم كيف أن يكون غير أمين مع الآخرين إذا كان أميناً و صادقا مع نفسه:((يستمد الخداع و الزَّيف و التزوير وجوده ... من شعور أن يكون المرء أمينا مع نفسه)). و لكن مرة أخرى، (2) يصبح الشخص الأمين مع نفسه شخصاً مشكوكاً فيه و مثيراً للريبة بين الآخرين.

(1) وجد نيتشه أنّ علينا أن نرسم حدود الأمانة أولا (أ) كي نسمح للتسامح، الذي هو إرادة التماس العذر للآخرين، في أن يوجد: ((دعنا نسير و نتحرك بطريقة إنسانية نحو الأمانة، حتى و أن كان فيها مفك الإبهام الذي يسبب سفك دماء الكبار ذي النزعات الأنانية – أولئك الذين يرومون أنّ يخضعوا العالم كليًّا إلى معتقداتهم)).

ينبثق التحديد-الذاتي للأمانة أيضاً (ب) من التقييم الصادق للإمكانات الحقيقية: في العالم الذي نحيا فيه من الصعب أن تعيش دون أن تكذب – من المستحيل أن تعيش دون الأكاذيب و الزَّيف. يعتقد نيتشه أن مشكلة الحقيقة الأصيلة الموثوق بها لم يتعاط معها أو يواجهها أيّ أحد حتى الآن بصدق و شجاعة. ((الأشياء السخيفة و الحجج السطحية التي قيّلت ضِدّ الكذب و بحقه تعبر عن طريقة ناظر المدرسة الساذج)). الغريب، حينما يتم المطالبة بقول الحقيقة بواسطة الأمر ((ينبغي أن لا تكذب))، فإنّ ((الكذابين و المفترين دائماً، وما أكثرهم، يعرفون الواقع ويمتلكون نظرةً أمينة

(يرفضون أن يكونوا مخدوعين) لدرجة عالية، لأنهم يعرفون جيدا ويَعُونَ عدم التوافق – هذه الحقيقة العامة مع الواقع الذي بين أيدينا)). في الواقع، الحقيقة ممكنة فقط تحت ظروف معينة و محدودة جداً. ((كلّ العالم و المحيط الإنساني المستخدم ينبغي أن يكون صغيراً، ناعماً، يستحق الاحترام، و المنفعة و الأفضلية ينبغي أنّ يكون في صف الحقيقة لا ضِدّها.)) في الواقع، الوضع هو على النحو الآتي: ((المرء يقول ما يفكر فيه، و هذا الأمر (صادق) فقط في ظروف معينة – أعني، حين يفهمه الآخرين (*inter pares*)، فضلاً على ذلك، حين يجعله الفهم منسجما و بحرارة مع الآخرين. في المواقف الغريبة، عادة ما يخبي المرء نفسه، أيّ واحد بالعادة يفضل أنّ يعبر عن أمنياته و عن نفسه بدلاً من أنّ يعبر عما يفكر فيه حقاً)).

(2) في الواقع، وجود الأمانة غير المرسومة الحدود و المعالم ربما يكون مستحيلاً، و بسبب هزيمة-الذات، يتجاوز نيتشه عالم الوقائع الإنسانية و يذهب نحو كلمة الميتافيزيقا كوهم، ويشير إلى ما ملازم و موروث في التحديد الذاتي للأمانة. التأكيد على أنّ ((الحقيقة هي نزعة غير طبيعة في عالم، هو في الأساسّ، زائف)) يمكن أن يشير إلى التخفي و سوء التقديم، و لكن ربما يمكن أن نراه أيضاً يشير إلى شيء ملازم و محايث و موروث في طبيعة الحقيقة بذاتها. حتى حين كان في عمر مبكر، كان نيتشه يرى و يعتقد جازماً أن فقط وهم الفن هو الطريق الأقصر نحو الحقيقة. ((إنّ تكون تماماً صادقاً مع نفسك – هو دافع بطولي رائع للإنسان مُحاط بالأكاذيب من كل مكان! إنّهُ أمر ممكن تحقيقه فقط بمعنى نسبي جداً... فيما يتعلق بحقيقة الفن: إنّها الحقيقة الوحيدة الموجودة الآن في عالمنا الذي نعيش فيه)). لكن في المحصلة النهائية، الحقيقة، بالنسبة إلى نيتشه، لها معنى و مدلولية، فقط ((كاداة للإمكانية العليا الخاصَّة للزيف))، و فيما يتعلق بالحقيقة يعتقد نيتشه ((أنّ الحقيقة هي مجرد واحدة من وسائل المعرفة؛ إنها سُلم و ليس بسُلم)). في النهاية، تصبح الحقيقة معنى يؤكد: ((إنّ الشخص الذي يقول أنّهُ صادق دائماً ينتهي به المطاف ليدرك أنّهُ كاذب و يكذب دائماً))، وبوسع نيتشه أن يقول لنفسه: ((كيف أعرف كم من الزَّيف ضروري لي إذا كنت بشكل مكرر أسمح لنفسي الاستمتاع بترف و رَفَاهيَة الحقيقة؟)).

العدالة — طبقاً إلى نيتشه، الذي يدشن هجوم على القيم الذي تخلق إنساناً ضعيفاً عاجزاً، الحقيقة و الأمانة، يتسلمان معناهما الملائم من العدالة – لا يمكن أن نتصور العدالة دون حرية مطلقة – و التي وحدهما تجعل من وجودهما ممكنا. يتفق موقع نيتشه العملي و الإرادي و التوجيهي

و المواعظي و ينسجم في عثوره على حقيقة أنّ الأمانة ببساطة مسألة نقاء و طهارة – لكن العدالة، التي تُجمل عملية دمارها الذاتي بما يسمى الخلاص – إذا لابد أن تسوء جداً حالة المرء، و لابد أن يعاني الآلم و المرارة و اليأس و القرف حتى تتكون لديه حاجة إلى الخلاص إلى الدِين القائم على الخلاص و حتى يفقد متعته بحكمة أفكاره و توافقها و يجشم نفسه مشقة الاتجاه إلى الإيمان بالمعجزة التخليص – هي مسالة شفقة و رثاء و اِنْفِعال مفرط للقلب. يعترف نيتشه على النحو الآتي: ((نحن كائنات غير متجانسة و مليئة بالتناقض، نتوهج بالنار و نحن الآن نشعر بالبرودة و الصقيع في أرواحنا – نريد أن نركع للعدالة بوصفها الإله الوحيد الذي يقف فوقنا)). ((في الحقيقة، لا أحد يطالب بتبجيلنا أكثر من ذلك الذي يمتلك الدوافع و القوة المريدة للعدالة. لأن في العدالة، التي يكون فيها الإنسان العدائي الحيوي العنيف اقرب مئة مرة إليها من الإنسان الارتكاسي، تكمن الفضائل السامية و النادرة، شيم الأقوياء – الذين يصبحون ضعفاء حين تواجههم غرائز القطيع المنظمة و جُبْنُ الضعفاء و العامة – وتتوحد و تحافظ عن نفسها و تخبي نفسها في أماكن و بحار عميقة لا يسبر غورها)). حين يصعب الوصول إلى العدالة و تحقيقها، يقول نيتشه الآتي: ((كنت متأخرا في اكتشاف أني كنت حقاً أريد شيئاً ما – أعني العدالة – العدالة التي سوف تأتي يوما ما ليس من تلقاء ذاتها، فهي لا تملك ساقين لكن بواسطتنا نحن. نحن الذين نضعها على أكتافنا و نأتي بها. (ما هي العدالة، و كيف يمكن أنّ تتحقق و تصبح ممكنة؟ وإذا كانت أمراً غير ممكن كيف ولدت الحياة؟)، أنا لا أتوقف عن توجيه لنفسي باستمرار هذه الأسئلة)). كان موقف نيتشه في كلّ الأوقات على النحو الآتي: ((بغض النظر عن الطريقة التي تكون بها الأشياء، فلتكن الأشياء كما تكون ما همنا، أريد أن أكون عادلاً و أدفع هذا الأمر المثير للاهتمام حقاً، نحو مدياته القصوى بقدر ما استطيع)). البحث عن الحقيقة هنا يبرر و يسوغ وجودي أول مرة: ((فقط من حيث إنّ الإنسان الصادق مصمم بشكل قاطع أن يكون عادلاً هل هناك مِيزة عظيمة في صراع البحث عن الحقيقة التي يتم تمجيدها و تبجيلها في كل مكان بطريقة تسبب القلق إلى الآخرين و إزعاجهم دون تفكير)).

ما هي العدالة؟ يجيب نيتشه – الذي لو كان يشعر أن عمله باق لتركه يدافع عن نفسه و لما حاول أن يبرره دون انقطاع – عن هذا السّؤال بواسطة معاني أقواله التي تبدو متناقضة و غير منسجمة و متضادة فيما بينها بعض الشيء.

لعل في هذا ما يشير إلى الوجوه التي ينبغي البحث عبرها عن رغبة العادل. يروم الإنسان العادل – الذي يحمل بين جنبيه أخطر أنواع الفضول و حب الاطلاع و يتضمن موقفه على الدوام شرطا إيجابيا – الحقيقة ((ليس فقط في الصيغة الباردة العاجزة للمعرفة، و لكن أيضاً في صيغة القاضي الذي يصدر الأوامر و يعاقب؛ ليس كحالة أنانية صرفة للفرد و لكن كحق مقدس قائم على إعادة ترتيب كل حدود الممتلكات الشخصية)). بما أنّ الحقيقة هي شرط و ماهية العدالة، فإنّ من الطبيعي ((للعدالة أن تبتعد، و تعتريها مشاعر السخط و النقمة، عن أيّ شيء أخر يسبب الإرباك و الغموض لأحكامنا عن الأشياء – نتيجة لذلك، العدالة خَصْم للقناعات الثابتة و الأحكام المسبقة، لإنّها تنحو منحى أعطاء كلّ ذي حقاً حقه، حَيّ كان أو مَيْت، حقيقي كان أو متخيل، تريد منح الشيء الذي يعود للشيء حقاً، و هي تدعو إلى نظرةً واضحة غير متحيزة و لا شائبة فيها. في المثال الأخير، تسلم العدالة حتى إلى (القناعة) العمياء و القصيرة النظر الذي تنتج خصمها أو ما يناوئها من أجل الحقيقة)). هذه الإرادة لأن يكون المرء عادلا – إعطاء كل نوع في الوجود حقه و ما يخصه فعلاً – ليس لها حدود. وبما أنّ كل إمرئٍ يحتاج إلى تبرير فلسفي عام لطريقته في الحياة و التفكير، يصر نتيشة على أنّه ((حتى الشر، بوصفه كلّ ما ينشأ عن الضعف، و الأحداث المشؤومة المؤسفة، أو الرجل الاستثنائّي ينبغي أن يمنح بعدالة فلسفته، حقوقه، و مكانه في الأرض تحت الشمس! نحتاج إلى نوع جديد من العدالة!... حتى لو كانت الأرض الأخلاقية دائرية! فإنّ لديها ترياقها أو عدالتها التي لها كلّ الحق في الوجود)). هنا للتأكيد ((ينبغي لنا أن ننفي و نطرح كل الفخامة الزائفة من هذا العالم مرة أخرى، لأنّها تقف بالضِدّ من مطلب العدالة التي تؤكد بأنّ كلّ الأشياء التي تحيط بنا لها الحق في العدالة و تطالب أن تكون موجودة!)).

بيد إن السّؤال الإشكالي الجدير بالطرح هو هل العدالة حقاً موجودة؟ هل بوسع المرء أن يتخيل على كلّ حال، حتى لو استعان بكل أنواع النباهة و الحذاقة، فخاً أخطر من هذا الفخ؟ ((من النادر، أنّ نعثر على العدالة بين الناس العاديين، لأنهم من النادر أن يعرفوا أو يدركوا كنهها بسهولة – و حتى على فرض أنّهم يعرفوا فإنهم سيواجهوها مع شعور الكراهيَة والبغض الشديد القاتل.... قليل هم الناس الذين يقومون بخدمة العدالة، و الوقائع، على الأقّل، بهذا الصدد قد وفرت لنا إشارات كثيرة تماما – و في الحقيقة فقط العدد القليل منهم يريد أنّ يكون عادلاً، و القليل من الآخرين لديه القوة، التي تغيرت وسائلها، و القدرة و الإمكانية أنّ يكون عادلاً)).

من حيث إنّ هناك شيئاً اسمه العدالة، ينبغي للمرء و خليقاً به أن يتجنب بحذر الغموض و الارتباك إذا كان يريد أن يرى العدالة وفقا لمعناها و ضوئها الحقيقي. في الواقع، العدالة هي الكلمة التي أُسِيء استخدامها على نطاق واسع و باستمرار: في الكراهيَة، و الحسد، و الخبث، و الرغبة في الانتقام – تحت مسمى الانتصار للعدالة، و الضغينة، و الاستياء يتحدث الشخص الضعيف عن العدالة التي هو نفسه لا يمتلكها و ليست بحوزته: ((بسرية عالية، تبتهج النفس بحقيقة أنّ الانتقام، بوصفه تكريس تحت اسم العدالة، يمكن ينفذ بعدالة كاملة)). و يضيف نيتشه: ((سعادتي و بهجتي تكمن في أني أعثر في كل أنواع الانتقام – الذي يخترق كتاباتي من ألفها إلى يائها و يحكم تطلعاتي بأسرها و كأنّهُ خيط العدالة الأحمر اللون – على الشرارة الحارقة التي تخرج من جَراءِ ضرب المطرقة لسندان العدالة)).

العدالة الحقيقية – التي ينبغي البحث عن أصلها في المناطق التي يعشش فيها الحقد، الذي يغيّر اتِّجاهه الكاهن، و في مناطق الشعور الارتكاسي – تستمد من الشعور الفعال – عالم الشعور الذي تشكله الأحاسيس و المقاصد و التقييمات بالقوة الهائلة و العدّة العاملة ضِدّ بعضها البعض مثلما تجسد كل حياة عضوية – و ليس كما هو الحال مع الانحراف الذي يشتق من رد الفعل الارتكاسي. توظف مشاعر ردود الفعل العدالة كمظهر زائف كي يخلق للإنسان العاجز المشاعر الزائفة للقوة بواسطة شيء يبدو صالحاً جوهريا أو غير حقيقي كالمطالبة بالعدالة. أو مرة أخرى، تحول مشاعر ردود الفعل الارتكاسية العدالة إلى عاطفة و شعور ولع ما تهمنا التسميات! ((عموما، جرعة صغيرة من الاعتداء و الهجوم، الخسة، الدس و التملق كافية، مع ذلك))، ((لجعل المرء غاضباً و عدوانياً و تقصيه من ميدان العدالة من وجهة نظر الآخرين)).

من جانب آخر، في الحالة الاستثنائيَّة للقوة الشخصية غير المألوفة، التي صرف نيتشه بعض الجهد على وضعها، يمكن لشعور الفعال للعدالة أنّ يكون ممكن حتى حين يكون الشخص الذي يتبناه ضعيف جسديا: ((حين يأخذ هذا الشعور مكانه فعلاً، يستمر الشخص العادل، الذي يحتفظ اتجاه سيل الإهانات الشخصية و الشتائم و الشبهات بموضوعية مترفعة لا تلين، في أن يكون عادلاً (و ليس فقط شخص ببساطة بارد، متواضع، بعيد، و حيادي يضع بينه و بين الأشياء مسافة، فإنّ يكون المرء عادلاً هذا يعني أنّهُ يتصرف دائماً وفق نمط و طراز سلوك إيجابيّ) حتى اتجاه أولئك الذين يختلفون معه و يصفون سلوكه بالخاطئ – حين تظل، عدالة هذا الشخص و العين القاضية لديه مع

نبلها و وضوحها و عمقها النافذ إلى الطبقات السميكة و الموضوعية المحسنة و المتصدقة، صافية لا سحابة تلبد سمائها حتى تحت تأثير الجروح الشخصية و الذم و تشويه السمعة و الشك و الشُبهة – هذا شيء يعبر عن نوع من الكمال و نمط من السيادة العليا السامية الرفيعة في العالم، و في الواقع من الحكمة ألّا نتوقع حصولها و ألّا نؤمن به في أيّ حال من الأحوال أيضاً بسهولة)).

فقط هذا النوع من العدالة الفعالة يصل إلى الحكم الصحيح: ((فقط القوة السامية و العليا بوسعها أن تحكم، و يجب على الضعيف أنّ يكون متسامحاً إذا لم يكن يؤدّي دوراً محفزاً إلى القوة أو يحول محكمة العدالة إلى مسرحية)).

انطلاقا ًمن وجهة نظر العدالة الفعالة، وجد نيتشه أنّ المعرفة – بالرغم أنّهُ في البداية عليه أن يتسأل و ينكر و من ثّم يعلن الأحكام السلبية – تصبح في النهاية إيجابيّة، لأنّها سلمت بحقيقة كلّ الأشياء: ((نحن نفهم و نجرب كل الأشياء، و ليس لدينا مشاعر عدائية في داخلنا... بالنسبة لنا (كلّ الأشياء على ما يرام) — و نجد من الصعب أن ننكر ذلك. نحن نعاني كُلَّما غدونا لا عقلانيين جداً في معارضة أيّ شيء)).

و بذلك، تبدو العدالة مثالاً غامضاً و معتماً حتى و أن كان بوسع المرء أن يكون عادلاً، غير أنّ نيتشه يرى هذا الأمر أشبه بالمستحيل. مادام أنّ العدالة يتم ممارستها فقط بواسطة ((الإنسان الذي يسعى للتخلص من الشكوك، التي لا يمكن غفرانها و التسامح معها، و الحصول على اليقين المحكي... و مادام أنّهُ يتحرك من مواقع الفضائل النادرة للشهامة و الأصالة إلى الفضيلة الأكثر ندرة التي تُدّعى العدالة)) – و لا يريد مثل ((الشيطان أن يدرك الأمور ببرودة)) و((ينثر من حوله الجليد، و يهيّئ الطريق و المناخ لسلطان و عظمة السوبرمان)) – فإنّ هذه الفضيلة – الجنون النبيل، استثناء جميل، صحبة امتياز، امتلاك نبرات قوية – لا يمكن أن تتحقق على أرض الواقع – بلا رحمة هذا ما يجب أن يكونه الإنسان الذي يدعي الفضيلة. بطريقة تشبه الشيطان حين يدعي ((التواضع و يكون ذليل و وضيع))، ينبغي للإنسان أن يُكفر ((باستمرار عن وجوده الحقيقي عن إنسانيته و الضياع التراجيدي لجوهره، و لاسيَّما في صراعه من أجل تحقيق الفضائل المستحيلة)). بما أنّه ليس بوسعنا أن نحصل على المعرفة الكاملة، و غير قادرين أن نعيش دون أصدار الأحكام الأخلاقية، أي بتعبير أخر، بما أنّنا ينبغي أن نقوم بتقييم الأشياء في ظل غياب المعرفة الكافية، فأنّ

من المستحيل لنا أن نكون عادلين في أحكامنا: ((بالنسبة للشخص الذي يفكر بعمق فإنّهُ سيكون دائماً على خطأ بغض النظر عن الطريقة التي يتصرف بها أو يحكم بها على الأشياء)).

في ظل هذا العالم غير العادل بالضرورة، يستمر نيتشه في الصراع من أجل العدالة و يطالب بها للإنسانية و البشر بوصفها ضرورة. و لكن، بغض النظر عن الصيغة التي يعبر فيها هذا الصراع عن نفسه، ينبغي أنّ يخضع دائماً نفسه للسّؤال و التحليل و الفحص في مستويين (1) فيما يتعلق بطبيعته الأساسيّة و الجوهرية؛ (2) و فيما يتعلق بعلاقته بالواقع.

(1) تصبح العدالة، بحد ذاتها، عرضة للسّؤال والنقد حين تكون خالياً من الحب المقوض و المحطم الذي يصبح فيه المحب سخيا، لأن غناه يؤهله لذلك، يصبح جزئيا و مغامراً، حمار كرم و براءة، يؤمن جديداً بالخير و الفضيلة لأنه يومن بالحب. ((لا يمكن أنّ تمنح أيّ شي للناس الذين هم بالأصل وفعلاً عادلين: فهم وحدهم من يرجعون كلّ شيء يحصلون عليه إلى الآخر. إذنْ ، العدالة هي لعنة العشاق)). يقيناً، لم يكن نيتشه يمني النفس أو يتمنى هنا أنّ يبالغ في تقدير نوع من الحب الأعمى: بوضوح، يعد الحب – حب الله، حب القديسين، حب النساء يظل واحداً في أصله – أكثر بلادة في الحس من العدالة، و لهذا السبب بدقة هو الأكثر مقَبُولية و استساغةً و مناسبة لكلّ الأشياء: فهو نزيه، غير متحيز، و موضوعي شأنه شأن المطر. لكن زرادشت له رؤية جوهرية مختلفة للحب، حين يقول: ((أنا لا أبه كثيراً أو تهمني عدالتك الباردة الخالية من الحياة.... قلي أين أعثر على العدالة التي تحب بحرارة مع عين مدركة و عارفة)). بما أنها مكتفية-بذاتها تماما، تفقد العدالة الجوهر الذي يأتي فقط من الحب الواضح النظر و ليس الأعمى – الحب للمرأة يخلق أسلحة جديدة، غنى جديد، أشكال و ألوان جديدة، جاذبية و غَوَاية جديدة. تكون بنية المحب أقْوَى و أكبر حجما من بنية غير المحب. بينما يعتبر نيتشه العدالة شيئاً أولاً و رفيعاً و سامياً، لكنه مع ذلك، يقول: ((تظهر العدالة أمامنا، و لذا أقوم بتحطيم الأوثان و أشعر بالعار....و أجبر عيني على النظر باتجاه ما غير مرغوب فيه و كريه – انظر هنا و هناك لأخذ حبي بين يدي)). حينما تكون العدالة مكتفية-بذاتها، لا يمكن أن يُقّرض الحب – و الافتقار للحب واضح في الاقتباس الآتي: ((أنا شخص عادل بطريقةٍ مؤلمة، أضع مسافة بيني و بين الأشياء و احتفظ بها)). بالنسبة لنيتشه، يعدّ الحب الواضح النظر و ليس الأعمى بشكل طبيعي مجرد مثال، و لا يمكن أن يتحقق على أرض الواقع بواسطة العدالة بحد

ذاتها – إنّ الحب يبدو لنا تافهاً و قد عزمنا أن نكره بعضنا البعض. إذنْ، نتيجة لمعرفته بالحب، لم يجد نيتشه أمامه أيّ خِيار سواء أن يخضع العدالة للسُؤال و التحليل والفحص.

(2) العدالة أيضاً تثير التساؤلات حين يتم النظر إليها بواسطة الوجود الواقعي:

أولا، لا تنفصل اللاعدالة عن الحياة بحد ذاتها، لأن الحياة كلها مشروطة بمنظور زيفها الذي لا مهرب منه. اللاعدالة هي دائماً في الواقع شيء عظيم التأثير ((كُلَّما كانت الحياة أقل تطورا، ضيقة، فقيرة و ناقصة و غير مكتملة لا يمكن لها أن تتجنب اعتبار ذاتها كمعيار و غاية لكل الأشياء و لا يمكن أن تكف أو تقلع عن الخضوع للسّؤال و التقويض، و بوسائل سرية و بطريقة مواظبة – كلّما كان هذا عالياً و سامياً و عظيماً و غنياً)). بيد أنّنا ينبغي ألّا يفوتنا أنه حتى الحياة الغنية السامية و العظيمة تحتاج إلى شي من اللاعدالة. إذا كان لهذه العدالة أن تقاضي نفسها، دون تسويات، و من منظور تاريخي، فإنّها لا محال تتقوض و تحطم نفسها أمام خصمها و مناوئها اللاعدالة. ((العدالة، كما تتبدى من وجهة نظر تاريخية... هي فضيلة – تحلي بالفضيلة – مخيفة تثير الرعب. أحكامها دائماً تعادل التقويض و الدحض الكامل و السحق. حين تكون العدالة وحدها المسيطرة و تغيب اللاعدالة، فإنّ الغريزة الإبداعية تضعف و تُجهَض)).

وقائع الوجود الإنساني مسؤولة على نوع من ((العدالة)) مختلفة عن العدالة الوجودية للحب الواضح النظر و ليس الأعمى – و هذه العدالة هي عدالة في الطبيعة. عدالة الطبيعة ليس لديها صَلاحِيَة القانون الأخلاقي، بوصفها القانون الكلي الذي يحكم الظواهر و يتحكم في صيرورتها الدائمة، و لكنها تعتمد، بدلا من ذلك، على مجموع من القُوَى، تعمل هي أيضاً على إخضاعها للسّؤال و التحليل و الفحص. ((هذا النوع من العدالة يسود فقط بين الأشخاص الذين لديهم تقريبا قوة متساوية.... حين لا يكون هناك قوة سامية رفيعة واضحة، و الصراع ينتج فقط ضرر لا معنى له، يصبح وجود الاتفاق المتبادل ضرورة.... و نتيجة لذلك، ستكون العدالة انتقاماً و تبادلاً يحدث تقريبا بين القُوَى المتساوية المنغمسة فيها)).

لكن نيتشه نفسه يسلم بلا كفاية نوع العدالة المذكورة أو الموصوف أعلاه. إنّها مجردة و خالية من الحب و الفعالية الإبداعية – إنّها حالة ثابتة استاتيكيَّة ممكنة تحت ظروف زائلة و عابرة للقوة. حتى على المستوى السوسيولوجي، إنّها أكثر من تبادل بين الأفراد حينما تتطور من رحم

الفعالية الشاملة. كلّ المسألة الآن تظهر لنيتشه تحت منظور جديد، مع أنّها تظهر مختلفة و بالضِدّ من ما كان موجوداً سابقاً: ((في المقام الأول، أن ما هو أكثر قوة هو بالضبط الإرادة و القدرة لتحقيق القوة السامية و الرفيعة. الحاكم هو الذي أولا يرسي دعائم (العدالة) – أعني، يقيس الأشياء طبقا لمعياره الشخصي)). و كما مُلاحظ من وجهة النظر هذه، ((أعطى كل ذي حق حقه ستكون إرادة العدالة و ستكون النتيجة فوضى عالمية عارمة)). أصبحت العدالة ((وظيفة القوة العميقة)) التي ترنو و تذهب ما بعد المنظورات المحدودة للخير و الشر، و نتيجة لذلك تمتلك مِيزة المنظور الواسع و العريض – أعني، ((مقاصد الحفاظ على شيء أكثر أهمية من هذا أو ذلك الشخص)). إنّ القوة التي يُشار إليها هي الحياة الإبداعية: ((العدالة، بوصفها نمطاً من أنماط التفكير، و التي بواسطة التأمل و إطالة النظر بالقيم، تبني، تستبعد و تلغي و تقوض و تقضي على – هي، في الواقع، الممثل الرفيع و السامي للحياة بذاتها)). غدا زرادشت شخصاً ((عظيم و غير مبالياً))، لأنّه ((صورة و كشف لنوع من العدالة، التي تشكل و تبني، و نتيجة لذلك ينبغي أيضاً أنّ تقوض)).

العدالة بوصفها واقع ميتافيزيقي: فقط خطوة واحدة في اتجاه لا محدودية الحياة الإبداعية، و سنصل لوجهة النظر الذي تقول لم تعد العدالة إشكاليّة أو مشكلة للحقيقة الإنسانية – بل بلغت المستوى الترسندالي المتعالي. حين تصبح العدالة مثار شك و ريبة كإمكانية إنسانية، نجد نيتشه دائماً يعيدها إلى مركزها السابق في صيغة ميتافيزيقية. لم تعد العدالة نفسها العدالة التي يعرفها البشر ويصارعون و يقاتلون من أجلها، بل غدت ((عدالة أبديّة))، ((عدالة حاكمة)) – لم تعد جوهر البحث عن الحقيقة، و لكنها جوهر الأشياء كما تحدث.

يرفض نيتشه أن تُقاس العدالة بمقياس الشعور بالذنب – الإنسان الذي علية أن يفتش عن سبب ذنبه بالذات في أثم أرتكبه في الزمن الماضي – الذي أخرَ حدوثه العقاب و التكفير عنه: ((يقع الثواب و العقاب – الذي يستخدم أحيانا كوسيلة لمنع المذنب من الأذى و التمادي في إلحاق الضرر، أو تبرئة الذمة تجاه الشخص المتضرر بشكل من الأشكال، أو كوسيلة للتعويض عن المنافع و الامتيازات التي كان المذنب يتمتع بها، أو كوسيلة لتطهير العرق أو الحفاظ على طراز اجتماعي معين – في مركز نتائج أفعالنا – هذا التفكير الذي يقول بالعدالة الجوهرية و الملازمة – النميمة، المخاتلة، الرشوة، الفخوخ المنصوبة، و كلّ الفن الذي ينضح مكرا و رياء، فَنّ الشرطي و المتهم – هو زائف تماما)). غير أنّهُ مطلع على نوع أخر من العدالة الميتافيزيقية التي من غير الممكن

وجودها دون ((الانتهاك و المخالفة و الخرق و الإثم)). يصطدم نيتشه بهذا المفهوم للعدالة بواسطة أو بالعَلاقة بشخصية أسخليوس الذي ((يرسي دعائم العالم الأولمبي على معيار العدالة و موازينها)) و ((يرى موريا متوجاً كعدالة أبدية)). كلاً من معاناة بروميثيوس و الجرأة التجديفية للفرد، و توقع الشفق و الفجر الكاذب بين الإلهة في تهديد أوليمبوس، يحتم التسوية و المصالحة لتحقيق العدالة، التي يخضع لحكمها بوصفها الأداة التي تعيد الحال إلى نصابه. ((بواسطة الانتهاك و المخالفة و الخرق و الإثم، يربح البشر الأشياء الرفيعة و السامية، و التي بواسطتها بوسعهم أن يشتركوا معاً و عليهم بالضرورة أن يقبلوا النتائج المترتبة على ذلك)): إنّ الخطيئة الفاعلة هي ذاتها الفضيلة البروميثيوسية الأصيلة. إنّها الأساسّ الذي يكون كلاً من الإلهة و البشر لهم الحق فيه.

وجد نيتشه أن مفهوم العدالة الأصيلة عند هرقليطس لا ينطوي لا على انتهاك، مخالفة، و لا على أثم أو خرق أو ما يترتب على ذلك من نتائج – و بهذا الصدد يقول نيتشه عن هرقليطس الآتي: ((العالم عند هرقليطس، بذاته، هو مزيج من التجاويف الكُرَوِيّة التي تتحرك و تتغير بصورة مستمرة. كل الصيرورة لديه تنشأ من صراع الأضِدّاد، و الحرب الضروس بعضها مع البعض الآخر... هذا الصراع، الذي يعبر عن التغير، بين الاضِدّاد – التي هي ليست أضِدّاداً من الناحية الموضوعية، بل من الناحية الذاتية، و أن الفنان الميال للسبح في الخيال لا يتجنب الرياضة البحتة و المنطق لأنّها تبين من أمر هذا و ذاك شيءٌ ينتقصه و أنّهُ بالفطرة يميل إلى ناحية أخرى – هو أبديّ. و هو إلى ذلك يحكم و يهيمن على كلّ شيء، و هذه هي بالضبط الحرب، الحياة الهمجية، التَّجْوال المتشرد، التي تكشف عن مفهوم العدالة الأبدية. إنّه مفهوم رائع و استثنائّي يجعل الصراع مستمر و منتظم و يفرض نظام عدالة صارمة طبقا للقوانين الأبدية... إنّه يشبه الإله إيريس إله الصراع والشقاق و الفتنة و الحرب عند الشاعر الإغريقي هزيود التي تتحول إلى مبادئ كُلّية عامة مهيمنة و ناظمة... كما لو أن كلّ إغريقي يقاتل وَحْدَهُ، وله وحده الحق في ذلك، بينما تقرر التدابير و المعايير اللامتناهية الأمنة القاضية في كل لحظة مَنْ هو المنتصر بين الأطراف المتحاربة – كما هو الحال في الصفات المتضادة التي تتصارع فيما بينها.... الأشياء بذواتها غير موجودة، إنّها فقط وميض و تطاير من الشرر الذي يرسم سيوفاً – إنّها البريق اللامع للنصر المظفر في الحرب بين الكيفيات المتضادة/ الاضِدّاد، حيث تنوعها ينتج بالضرورة تنوع في المنهجيات)). ((لم يعد هرقليطس يرى الأطراف المتحاربة و القضاة ينفصل أحدهما عن الآخر– فالقضاة أنفسهم يبدون و كأنّهم جنود محاربة في حين يبدو المقاتلون أو الجنود و كأنّهم قضاة. في الواقع، بما أنّ هرقليطس لم يرَ في

نهاية المطاف سوى عدالة الحرب الأبديّة المهيمنة، فإنّهُ يعلن بجَراءِة أنّ الصراع و الحرب بين الأضِدّاد هي التي تشكل العدالة الأبدية)). بعبارة أخرى، ((كلّ شيء موجود هو صحيح و خطأ في آن واحد، و صحته و زيفه كلاهما يمتلك التبريرات و التسويغات اللازمة و بالتساوي)).

بالنسبة لنيتشه أيضاً، يبدو الإرادة الإنسانية – التي ليس هناك إرادة إلهية أبدية تتحكم فيها – تفترض وظيفة متواضعة لمفهوم العدالة المجرد الكلي لا يليق به. العدالة هي صراع الحقيقة مع نفسها، و نتيجة لهذا الصراع تستمر في أنّ تشكل إلزام غير مشروط (تعبير فلسفي واضح و متزايد للجوء و الإحتِكَام إلى النشاطات الداخلية للفرد)، حتى إثناء إخضاعها للسّؤال، يتحول من ثّم إلى المستوى الميتافيزيقي؛ هنا، و في تأمل و إطالة النظر صرف، تتوقف العدالة في أن تكون عملية فلسفية فعالة و نشطة و تتحول بدلاً عن ذلك إلى عنوان لصراع الوجود بين الأشياء – و بذلك، يؤمن نيتشه بصوابية القول: ((العدالة سعيدة في ملاحظة الأشياء؛ و لكنها تخاف أنّ تكون واحدة منها)).

كيف تغلبت إرادة الحقيقة على نفسها. —— نمت إرادة الحقيقة، التي لم تستند عبر تاريخها الطويل إلى منهجية واحدة، من تربة الأخلاق: ((يعدّ معنى الحقيقة واحداً من أكثر المعاني الأخلاقية المزدهرة قوة و نقاءاً)). يعي نيتشه أنّ حياته قائمة على البواعث و الحوافز و النوابض الأخلاقية – إرادة الحقيقة بلاحدود – حين يقول ((نحن معشر الباحثين عن المعرفة اليوم لا نؤمن كثيراً بالإلهة – و قد علمنا احتراسنا شيئا فشيئا أن نستخلص بهذا الصدد نتائج معاكسة لتلك الذي نستخلصها في ما مضى – ونقف بالضِدّ من التفكير الميتافيزيقي، و فكرة العالم الأخر التي تحقق بهجة و سلوى و تجعل الإنسان، نتيجة لطلاق عنيف مع ماضيه، و نتيجة لقفزة في أوضاع جديدة نتيجة إعلان الحرب على الغرائز القديمة التي كانت تجعله قويا، يفقد ذاته و ينسى آلامه المبرحة الخفية التي لا تحتمل و لا تطق، و مازلنا نأخذ نارنا من المشاعل التي أُضيئت بواسطة المعتقدات التي ترجع بعيداً إلى مئات السنين من الماضي)). قبل أنّ يخضع نيتشه الإرادة اللامحدود للحقيقة، التي تطورت بفعل المعتقدات التراثية التقليدية و مخزوناتها ذو الأبعاد الكونية، للسّؤال النقدي، غدت العاطفة الإدراكية، المشتقة من الحقيقة، بدورها موضع للشك و الارتياب بذاتها. تُدفع الدائرة، التي تنطوي الآن على عاطفة الشغف في الحقيقة، إلى مدياتها القصوى. إذا ((كان الاعتقاد في الحقيقة يبدأ مع الشك في كلّ الحقائق التي تم قَبُولها و الركون لها سلفًا))، و إذا كان هذا الاعتقاد لا يقبل أيّ إلهه بجانبه، فإنّ عاطفة شغف الحياة ينبغي أن تخلص و تنتهي مع طرح السّؤال إلى أيّ من المعتقدات ينبغي أن

تخضع؟ الهاوية التي لا قرار لها تسفر و تبوح عن نفسها. و بذلك، يثير الشك، الذي تم التوصل إليه، بواسطة النقطتين التاليتين:

(1) الخصومة و إبداء العداء للحقيقة (في العَلاقة بالنظريّة التي تقول أنّ الوهم هو ضرورة حيوية) هو السبب و المبرر وراء رفضها و التنكر له: ((تمثّل المعرفة غير المشروطة الوهم أو الكمير/ الحيوان الخرافي الذي يعود إلى حِقْبِة و عصر الفضيلة، الذي لدية القدرة أن يحطم الحياة و يقوضها في الأساسّ. ينبغي لنا أن نقدس الكذب، أوهام الاعتقاد، بالإضافة إلى اللاعدالة)). بناءً على ذلك، ((لقد نقلنا هذا النفور و الكراهيَة من إرادة الحقيقة إلى (الحقيقة بثمن باهظ)، هذا الاهتياج و العاطفة و الحب المشبوب للشباب للحقيقة و طلبه لها)).

(2) خلال منعطفات الطريق الطويل نحو المعرفة يجب أن يخضع هذا الطريق و يعاني التقلبات و تغير الاتجاهات. الشرط الأول لهذا النوع من المعرفة، الذي لا يتراجع خائفا أمام أيّ شي، هو الاعتقاد بالعدم أو باللاشي. ((مادام أنك مازلت تشعر أن النجوم (تقف شاخصة فوقك)، فإنك تفتقر إلى الرؤية الواضحة و شجاعة معشر الباحثين عن المعرفة)). بيد أنّ الحقيقة ينبغي أن تتوقف في أن تكون ((شيء فوقنا)): ((الصادق! هذا هو التعبير الذي أطلقهُ على الشخص الذي سحق و قمع قلب العاشق الهائم، داخلا بشجاعة و جَراءِة أرض اليباب القفر و الخراب بلا إلهه)). و عليه أنّ ما يطلق عليهم أرواح حرة هم ليسوا أحراراً: ((إيمانهم بالحقيقة يجعلهم، بدقة، أكثر حزما و رسوخا وأكثر صراحة و حزما من أيّ أحد أخر)). لا تشكل الأسئلة الراديكالية النقدية أيّ خطر على الخطوة الحاسمة التي عقدوا العزم على القيام بها: ((لا شيء حقيقي هناك، و عليه كلّ شيء مباح.... هذه هي حرية الروح، حيث تُحجب الحقيقة عن الاعتقاد الفج)).

وجد نيتشه في الطرح أعلاه – وبالاستناد إلى أن شقاء الإنسان و ضجره و يأسه دفعه إلى خلق عالم ثاني وهمي يكون بمنزلة عزاء و سلوى و يحفل بالألغاز و يغص بالتناقضات و بالوعود المستقبلية بحيث تودي إلى تغير وجه العالم تغيراً فعلياً – الذي يبدو فيه قدر كلّ شيء أن يتلاشى و يزول و يختفي نتيجة التقويض و الدحض-الذاتي الذي تمارسه إرادة الحقيقة، نقطة تحول في التاريخ الإنساني – أعني، بزوغ شمس العصر الحاضر الواعد. هذا التحول و التَقَلُّبَ في المفاهيم، التي تتطور جدليا عبر الممارسات النصّية و عبر تلاقحها مع بعضها البعض، يتطابق و يتماهى عند نيتشه مع فكرتي إلغاء الذات و نفيها و موت الله. حين ينتهي هذا الرعب المفجع، الذي يمتد لأكثر

من آلفي سنه، في تعليم و ممارسة التمرين الفلسفي على الحقيقة بتحريم كذبة الاعتقاد في الله، فعلينا أن نأخذ في الحال الخطوة الآتية: بعد أن توصلت الحقيقة في المسيحية – التي يكرهها نيتشه غاية الكره لأنّها ابتكرت كلمات و مواقف بهية لتلبس الواقع البشع رداء القانون و الفضيلة و الألوهيَّة – إلى سلسة من النتائج، ينبغي أن تختار منها أخيراً النتيجة الأقْوَى – النتيجة التي تتجه في الضِدّ من نفسها و من طروحاتها. هذا الأمر المثير للاهتمام حقاً، يحصل حين نطرح السّؤال الآتي: ((ما الذي تعنيه إرادة الحقيقة و تمثله؟)) في الواقع، نيتشه في موقع يؤهله أن يقول هذا التالي يجب أن يحدث: ((كلّ الأشياء العظيمة تقوض نفسها بنفسها بواسطة فعل إلغاء الذات و نفيها)).

و لكن هذا الانهيار في الدائرة التي يختزل نفسه إلى مجرد لا شي هو حدّ تفكير نيتشه. أما أن الدائرة تتسلم الجوهر و المضمون بواسطة الحركة الدائرية التي تحيي الصراع نيابة عن الحقيقة باعتبارها أمراً مفروغاً منه و قَبُولها دون سّؤال أو اعتراض أو الاختراق الذي يكشف شيئاً إضافياً في هذا الحدّ من التفكير.

الشك غير المحدود. — تصبح حركة تفكير نيتشه – القائم على الحقيقة الآتية: كلّما أريد أن أعمله هو أن اقدم الواقع من ناحية؛ و من ناحية أخرى أقدم ذلك الجهد المبذول لتشذيبه – ضفيرة متشابكة، كما يحدث في أغلب الأحيان، كُلَّما تحتم على إرادة القوة التنازل و الاستسلام. و لكن دائماً هناك تقدم جديد على وشك البداية – لأن هدف البحث وجود حقيقي أصيل بدلاً من العدم الذي لا يمكن أن يتصوره العقل. فهذا الهدف يمثل وجوداً حقيقياً أصيلاً يصارع، بموجب الإرادة العاطفية للحقيقة، في صيغة الشكية التي لا يمكن استئصالها، في إصرار متجدد. رفض نيتشه أن يضع حدّ ((لشكه و ريبته)) في ما يتعلق في عملية التفلسف لديه بوصفها ((مدرسة للشك))، و اقتفاء طريق ((الخطر المحتمل))، حيث يحاول أنّ يغامر في كل فكرة ممكنة في نمط و طراز ((تجريبي)) صرف. تحاول عاطفة الشغف في البحث عن الحقيقة دائماً أن تعيد تأكيد نفسها حينما تخضع للسّؤال، لكنها تخفق في أن ترسي دعائم نفسها على أرضية صلبة. و كما لو أن يد القدر تحركه، يشعر نيتشه، في قرارة نفسه، أنّهُ مجبر على الكشف مباشرةً عن كلّ انتصار فكري يحرزه و يخضعه من ثّم إلى الأسئلة النقدية غير المحدودة للمذهب الشكي. لم ينتكس نيتشه أو يسقط في فخ عدم نظرية الحقيقة التي تتخلص من نفسها بواسطة الحركة الدائرية – بل نجح في أن يملأ هذه الدائرة مع كلّ التطورات الجديدة بواسطة إعادة تأكيد إرادته للحقيقة.لم يتعثر نيتشه أو يسقط في أيّ

مستنقع من مستنقعات المعرفة المزعومة الصحيحة و المحدد للطبيعة، بل عمل بدلا من ذلك على رمي هذه المعرفة في دوامة تفكيره ليقوم بفحصها و تحليلها و نقدها و الكشف عن أصولها و المطموس فيها.

انحلال العقل

لم تكن بصيرة نيتشه – الذي كان هدفه في أن يسير إلى الأمام راساً. إنّهُ هو نفسه كان الهدف و هو ما كان يقذف به إلى الأمام – و معرفته العميقة الكاشفة عن حدود العلم، بل في الواقع تعليله للحقيقة، بوصفها وهم و انتحار لكلّ الحقائق الأخرى (كما هي) ضمن الدائرة المتواصلة و المتكررة للسمات المتغيرة، الذي قاده إلى طرح التساؤلات الشاكة في العقل عموما. كُلَّما حاول نيتشه أن يتعاطى مع [1]الأخلاق، [2]الحقيقة، أو [3] موت الله – الحقيقة التي ترتكز على إرادة القوة و إرادة القوة التي ترتكز على جريان الزمان – فإنّه دائماً يسقط نتيجة لذلك في أتون العدم. و لكن ما كان نيتشه يقصده هو العبور، بواسطة هذه الأدوات الثلاث أعلاه، من العدم إلى الوجود الذي لا يمكن أنّ يتم إدراكه عقلياً. كان يريد أن يصل إلى الوجود بواسطة اقتحام و عبور حصون العقل.

ينطوي هجوم نيتشه على العقل ويفترض أربع صيغ:

(1) بالضِدّ من التأكيد القائل بأنّ الحقيقة نعثر عليها في التفكير، يقدم نيتشه نظريته في التأويل (Auslegung) و ذلك بمعونة الفكرة التي تقول أن كلّ نتاج العقل هو مجرد و هم. هذه النظريّة تشكل منطقاً خاصاً و فريداً لنيتشه: كل مقولات التفكير هي أوهام زائفة، لكنها ضرورية للحياة – إنها مفيدة ونافعة، و هي أدوات للسيطرة و الهيمنة على هذا العالم. بعبارة أخرى، أيّ أخفاق في الإيمان بهذه المقولات، التي تعني أنسنة العالم و تفسيره وفق صيغ إنسانية إدخال النظام إلى العماء و الفوضى و تخليص العالم من الخوف، يعني نهاية الجنس البشري. و لكنها تظل مع ذلك زائفة و غير حقيقية – إنّها أوهام خيالية زائفة برسم الخدمة. فهي لا تشتق من الوجود و لكن من الشرط الذي وحده يجعل من التفكير ممكناً – أقصد شيئاً ما يبقى يتطابق مع نفسه. فقط الأشياء التي تبقى على حالها (على سبيل المثال، الأمثلة المتطابقة، و الكينونات الاستاتيكيَّة الثابتة) هي التي تمتلك الوجود الحقيقي للتفكير. هذه الفرضية للتطابق-الذاتي للوجود ((ضروري إذا أردنا أنّ نفكر و

نرسم الاستنتاجات، لأن صيغ المنطق يمكن أن تطبق فقط على الشيء الثابت الذي يبقى على حاله)). يطور نيتشه هذه الأطروحات و يدفع به خطوة بخطوة إلى الأمام على النحو الآتي:

يتطلب التفكير في مبدأ الهُوِيَّة وجود قانون عدم التناقض – أعني تقريب عالم الصيرورة من عالم الوجود. لكن هذا القانون، هو الآخر ببساطة، محض خيال و وهم آخر، ذات أفق مضلل، الهدف من ورائه تحقيق أغراض العقل في الوجود. بمعنى، ((نحن نخفق في محاولة نفي أو تأكيد الشيء و نفس الشيء)) – و هذا القانون هو مجرد حكم تجريبي ذاتي يعبر عن قصور و لا قدرة القابليات و القُوَى الإدراكية العقلية للإنسان و يؤكد الضرورة التي لا مفر منها للوجود الثابت بذاته. ((لا يزودنا هذا القانون بمعيار للحقيقة، و لكن يمنحنا فقط نصيحة بخصوص ما الذي يجب أنّ نعتبره حقيقة و ما الذي لا نعتبره)).

إنّ قانون الهُوِيَّة وقانون عدم التناقض المستحيل كلاهما، طبقا ًإلى نيتشه، يعثران على جذورهما في الأنا التي تفرض نفسها كموجود متطابق واحد و ثابت. دون هذه الفرضية لا يمكن للأنا أن توجد. يستخدم نيتشه الأنا كاداة يهاجم بواسطتها مذهب المثالية الألمانية و أطروحاتها عن ((الأنا)) بوصفها العنوان الزائف لتفكير الوعي عموما. بما أنّ المبدا الأساسّ الفاعل و الرائد و الحاسم من وجهة نظره في كلّ العمليات العقلية و أرضيتها الصُّلْبة هو((الاعتقاد الراسخ و القاطع في وجود الأنا))، فإنّنا سنواجه لا محالة المسألة الآتية: ((ينطوي تفكيرنا بذاته على الاعتقاد بوجود الأنا... و عملية التنازل عن هذا الاعتقاد يعني ببساطة أنّنا نصبح عاجزين تماما عن التفكير)).

تساند مفاهيم الأنا، الهُوِيَّة، و قانون عدم التناقض المستحيل بعضهم البعض و يساعد أحدهما الآخر بشكلٍ متبادلٍ، حيث يعمل كل واحد منها على تزويدنا بالدائرة التي تساعد التفكير في الانبثاق في صيغ تفاسير مناسبة ضرورية لوجود الإنسان و كبريائه الفكري. أما الأسباب التي تؤيد هذه الفرضية فيتعذر علينا عرضها هنا

الآن، بما أنّ هذا هو الحال مع كل المقولات المنطقية، و ينطبق أيضاً عليها كلها، على سبيل المثال (الجوهر، الموضوع، المحمول، بالإضافة إلى، السببية، و المذهب الآلي... ألخ) و جميعها تهتم فقط في التطابق و الاختلاف دون تناقض، فإنّ كل هذه المقولات، التي يضعها العقل و يصنعها لغرض خدمة نمط من أنماط الحياة، يتطلب الثبات و الدوام، و كأنّهُ شرطه الضروري – أعني، كل

هذه المقولات تم اختلاقها و فبركتها بواسطة الإنسان لغرض السيطرة على صيرورة العالم غير المنقطعة. بواسطة الشذرات و النُبْذات القصيرة المختلفة التي دوّنها نيتشه بوسعنا جمعها و الوصول بواسطتها إلى مذهب متطور للمقولات يبين في طراز مكرر مضجر أحياناً أنّ كل مقولة تنطوي على سمات الهُوِيَّة و الثبات، و تقدم خدمة للحياة و إلى إرادة القوة، العلامة الميتافيزيقية المميِزة على الوجود.

إنّ النتيجة التي توصل إليها ((المنطق)) النيتشوي، و التي يمكن التحقق منها مراراً، هي كالآتي: بينما يمثل العقل، الذي لم يُدفع ثمناً باهظاً في التاريخ أرفع من ذلك الذي دفع لقائه، أداة الحياة التي نقبض بواسطتها و نميز ما بين ما هو صحيح و ما هو زائف – أعني، نفهم و نقبض على الوجود الثابت و الدائم: ((ليس بوسع عقلنا أن يقبض و يفهم الصيرورة بحذافيرها – فهو يصارع من أجل البرهنة على عدم التغير و الصلابة الكُلّية الباردة لكلّ شيء)). بيد أن سمات عالم الصيرورة، غير المهيئ لعقولنا لفهمها و تناضل كي تثبت أن كلّ الأشياء ثابتة لا تتغير، و صفاته ((لا يمكن التعبير عنها بواسطة الصيغ و الوصفات و المعادلات الثابتة للعقل))؛ فهذا العالم يعدّ و يُنظر إليه ك ((خطأ))، ((و متناقض بذاته)) و غير القابل للمقارنة و التناسب مع المنطق بتاتاً. في الواقع، ((المعرفة و الصيرورة يقصي و يستبعد أحدهما الآخر بطريقة متبادلة... نوع الصيرورة يضيء وهم أو خدعة الوجود)) – أعني، الوجود بوصفه شيئاً ثابتاً و دائماً و يتمتع بهُوِيَّة-ذاتية. هذا الوهم أو التضليل هو ممكن فقط كنتيجة لدائرة التفكير-الذاتي. الهدف من وراء هذه التوضيحات و الشروحات، القائمة على النظريّة التي مفادها كلّ تفكير البشر قائم على التأويل، هو التأكيد على محدودية العقل و أنّ حجته أو ادِّعاء الحقيقة ينبغي التخلص منه لمصلحة ادِّعاء أخر قائم على تأويل و حجج و ادِّعاءات مختلفة تماما.

(2) في حياة الإنسان، العقل شيء ليس ضرورياً، ينطوي على الكثير من المخاطر، كما إنّهُ موجود مستحيل. إنّهُ شيء غير ضروري تماماً: ((لا ينبغي أنّ تعدّ لاعقلانية الشيء حُجَّة ضِدّ وجود العقل– بل على الأصح شرطه الأساسيّ)). إنّهُ شيء محفوف بالخطر و ينطوي على مجازفة: يجازف الإنسان بحياته و صحته و شرفه نتيجة لكبريائه و إرادته. حين يعتزم العقل أن يزودنا بمعرفة كلّ الأشياء، يصبح أداة مدمرة و هدامة و خطيرة. فيما يتعلق بالسّؤال ((ما إذا كان العقل، مع قدرته الكُلّية المفترضة للمعرفة، عملاً ما يكفي للحفظ بدلاً من التهديم؟)) يجيب نيتشه على النحو

الآتي: ((إذا كانت الإنسانية تتصرف وفقاً إلى العقل و شروطه – أعني، طبقا إلى رأيه و معرفته، فإنّها سوف تتلاشى و تُفنى من على وجه الأرض سريعا)). إنّه أمر غير ممكن. ليس هناك حقيقة واحدة من حقائق العقل، التي تقدم لنا يد العون كما نعتقد أو هكذا نعتقد على الأقّل، قادرة أن تجعل البشر يفهمون بعضهم البعض. حينما يختار، على سبيل المثال، رُسل التسامح أن يرسوا دعائم حجتهم على المعرفة العقلية العميقة، نعثر دائماً بين السطور في حججهم على أنّ هناك استثناء بواسطة بعض ((الحقائق الأساسية)) التي لا تدعوا إلى التسامح مع العقل و تقف في الضِدّ منه. ((انشطار العقل أمر مفهوم إذا كان لدينا فعلا عقل واحد! لكن الرجل المتسامح ليس له خِيار أخر ينبغي أن يعتمد و يعول على عقله بكلّ تفاصيل ضعفه و تنوعاتها)). في الواقع، ليس هناك عقل واحد فقط يؤدي وظيفة أساسية محددة واحدة للإنسان.

ماذا يعني هذا الهجوم الذي شنه نيتشه ضِدّ الإيمان بالعقل؟ فيما يتعلق بحقيقة أنّ العقل، كوجود مستقل، يساعد على اكتشاف حقيقة وعينا الوجودي للوجود، و يعبر عن حقيقة عقلانية ذات صَلاحِيَة و مشروعية كُلّية، متوفرة لكلّ واحد، و بذلك ننتهي إلى أنه قادر على تزويدنا بأساسٍ مشترك للحياة في المجتمع – يحاول نيتشه أن يخضعها للسّؤال و التحليل و الفحص و التمحيص، لأن العقل، في الواقع، يشوش حقيقة الوجود المستدامة و يزيدها غموضا و التباساً و إبهاماً و مواربة و إرباكاً و عتمة بدلاً من أن يوضحها. تكشف عملية التفلسف عند نيتشه عن هذه الحقيقة العميقة – الحقيقة هي ضرورة تحضيرنا لأنفسنا عالماً يكون فيه وجودنا ممكنا – حيث يعثر فيها فقط على أخطاء العقل التي تكييف الحياة و التي يطلق عليها ((الحقائق الأساسيّة)). هذا الاكتشاف يمثل ببساطة أن التفكير محدد بلحظات زمانية قصيرة – محكوم بزمنه؛ بيد أنّ نيتشه لم يرضَ على هذه النتيجة التي توصل إليها أو كان مقتنعا فيها.

(3) فيما يتعلق بالسّؤال الميتافيزيقي ما إذا كان العقل هو قوة عالية و سامية متفوقة في العالم، كان جواب التفكير الفلسفي الكلاسيكي دائماً على هذا السّؤال بالإيجاب، على الرغم من نوعية الأجوبة المختلفة التي يقدمها بهذا الصدد. على عكس ذلك، ينفي نيتشه نفياً قاطعاً و ينكر قدرة العقل الميتافيزيقي على أن ينفذ إلى الكل ويتغلغل فيه: ((العقلانية الوحيدة المعروفة اليوم لنا هي هذا الجزء الصغير الذي يعود إلى الإنسان و يطلق عليه العقل)). في الواقع، إنّ القُوَى العاصفة و المضطربة في هذا العالم خاليه تماما من العقل. ((ليس العالم ملخصاً أو انعكاساً للعقلانية الأبدية،

إنّها حقيقة تنكشف بشكل قاطع بواسطة إدراكنا أنّ العالم الذي نعرفة و نطلع عليه – عقلانيتنا الإنسانية – ليس أمراً عقلانياً بالمرة، و ليس له عَلاقة بالعقل لا من بعيد و لا من قريب)). لأنه حتى في أكثر الناس حكمة يمثل العقل الاستثناء و ليس القاعدة، الاستثناء الذي يثبت القاعدة، و ليتفضل من شاء ليدلني على حالة واحدة لا تطبق فيها هذه القاعدة: إنّهُ الفوضى والسديم – الذي ليس بوسعنا إقامة النظام فوقها كما أنّنا غير قادرين بالصوت العذب في أعماقنا أن نجعله يطغي على الهدير و الدَّمدمة – و الضرورة و النجوم التي تحوم فوقنا – هذه هي القاعدة. ((حينما نأخذ كلّ شيء بعين الاعتبار، نكتشف شيئاً واحداً غير ممكن و مستحيل هو: العقلانية. قليل من العقل ينثر ذراته بين النجوم المتلألئة – هذه العجينة المختمرة، التي اسمها العقل، تتحرك و تتقلب في كل اتجاه يخطر في بالك)). يقول نيتشه أنّه من المدهش حقاً أن يكون هناك شيء اسمه العقل. كيف دخل هذا العقل إلى العالم و تحت أيّ ذريعة من الذرائع؟ ((كيف دخل في هذا العالم غير العقلي الذي لا يتوقف في صيرورته– لقد حصل بواسطة الحادث الطارئ العابر الحاصل بطريقة غير متوقعة. العقل، في الواقع، أشبه بالأحجية أو السر لا نعرف عنه شيئاً إلاّ بواسطة ما يجود به علينا الظن و التخمين)).

بالعادة أنّ الاعتقاد الميتافيزيقي التقليدي في عقلانية العالم هو أما يرافق الإيمان الكلاسيكي التقليدي في الله أو ببساطة يتطابق معه. بالنسبة لنيتشه كل من هذين التصورين أعلنا نهايتهما. لقد كانت عملية الإيمان بالحقيقة و ببساطة نتيجة إلى الإيمان في ((الله كحقيقة، و أن الحقيقة هي في المقام الأول حقيقة إلهيه صرفة.... و لكن هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، أصبح منسياً و مطموساً، بفعل حجج الزَّيف و العمى و الأكاذيب التي نمت على نحو متزايد حولها – حيث يثبت الله أنّه كذبتنا التي ترسخت و ظلت تحافظ على نفسها لردح طويل؟))

إنّ هدف نيتشه، الذي أعياه البحث و الذي تنشأ بين أفكاره علاقات جديدة و تشابهات جديدة و تناظرات جديدة، و كل فكرة تنشئ لنفسها لهذا الغرض لغة من صيغ و اختصارات و إمكانات تركيبية و الصيغ المتسابقة و الصيغ الحوارية، من هذا الهجوم و النقد، هو رفض الاعتقاد و الإيمان و منح الثقة إلى الموضوعية العقلانية للكل كمبدأ يمكن أن يُدرك و يتصور. إنّ الفرضية التي تتعاطى مع العقل و تتصوره بوصفه شيئاً كلياً مطلقاً يمنع نيتشه من إلقاء نظرةً خاطفة على الوجود و النفاذ إليه. تخفي عدوانية و مشاكسة و هجوم نيتشه الاحتكام و اللجوء إلى المصدر في الإنسان،

الذي يصل إلى اليقين-الذاتي و ضروبه المدعاة للتأسّي و العزاء، بدلا من اللجوء و الاختفاء وراء العقلانية الكُلّية المفترضة للوجود و التي يندرج هو نفسه تحتها.

(4) يعادل مضمون هجوم نيتشه – و الذي إذا لم يفعله هو فمن يفعله، و إذا لم يفعله حالاً فمتى يكون ذلك – في حجمه و تأثيره، حين يتم النظر إليه تاريخياً، محاولة رفض الفلسفة الكلاسيكية التقليدية. لما كان الفلاسفة يبحثون عن الحقيقة و الوجود في ذاته في العقل، و يحاولون أن يبنوا و يشيدوا نوعاً من المفاهيم الكُلّية المنطقية الثابتة لفهم الواقع و الهيمنة عليه، فإنّ ليس أمام نيتشه خِيار سوى رفض هذه المفاهيم و الصيغ الكُلّية. بناءً على ذلك، الفلسفة التقليدية، بمجملها، ينبغي أن تفقد و تخسر معناها و تغادر مواقعها الواحد تلو الآخر. كان هجوم نيتشه موجهاً بالضِدّ من أكثر ممثلي الفلاسفة المعارضين له شهرة المفكر بارمنيدس: ((يقول بارمنيدس، (لا يمكن للمرء أن يفكر في العدم)، و نحن نقف في الجانب المعاكس، حيث نقول (كُلَّ ما ما يكون موضوع لتفكرينا ينبغي أنّ يكون العدم بالتأكيد وهم و خيال متقلب لا أكثر))) حينما يعدّ المنطقيين ((الحدود، التي يعتقدون بها، هي حدود الأشياء))، يرد عليهم نيشة: ((سأعلن الحرب على كل هذا التفاؤل المنطقي)). كان رفضه الوثوق بأيّ فلسفة تؤكد الصَلاحِيَة المطلقة للعقل قد أمتد ليشمل، على رأس الكلّ، ديكارت أبو الفلسفة الحديثة و الممثل الشرعي للعصر الجديد، و((نقد اعتقاده الجازم في اليقين المباشر للتفكير)). كان نيتشه مصمماً أن يكون فيلسوفاً شكياً أكثر حتى من ديكارت، الذي لا يؤمن بأيّ شيء عدا العقل بذاته و يعتقد أن وضوح و تميز المعرفة يصلح أن يكون أساساً مؤثوقاً للحقيقة. بيد أن نيتشه وجد أن الحال على ((عَكَسَ ما يقول به ديكارت – أعني، إعلان الثورة ضِدّ السلطة المطلقة لعقل الإله، و لاسيَّما حين يفكر بشكل أعمق)). كما رفض نيتشه محاولة هيغل – الرغبة في تأليه الكون و الحياة، لنجد في التأمل و الدراسة السعادة و الهناء، فهو يبحث عن العقل في كل مكان، فللعقل ينبغي أن نخضع و نستسلم – الذي لم يضمر إطلاقاً الود له، ((كأحد الجبابرة القوطيين))، المتمثل ((بحقن و إدخال نوع العقل عَنْوَة في عملية التطور و التاريخ)). و كفيلسوف ((يقف في الجانب المضاد و المعارض، عثر حتى في المنطق على نمط أو نوع من أنواع اللاعقلانية و العرضية الحادثة)). هذا الرأي يطبق عمومًا ٍ: ((منذ آلاف السنين، و الفلاسفة يعملون على صياغة مومياء المفاهيم الكُلّية و يعالجونها و يؤثرون بها ببراعة.... فهم يعدّون الموت – هذا الكائن الأصم – التغير، و العمر، بالإضافة إلى الإنجاب و النمو، و ينظرون إليها بوصفها اعتراضات – رفض

للثبات. الوجود شيء يختلف عن الصيرورة، و الصيرورة هي ليست الوجود.... بيد أننا الآن، كلنا نؤمن في الوجود على حساب الصيرورة إلى حد اليأس و القنوط)).

لم تبلغ وجهة نظر نيتشه – الذي تكون فيه الفكرة ليست لُعْبَة أو مجرد تمرين أو استماعاً بل هي وعياً مركزاً بتدريب فكري – في مواجهة العقل وجها لوجه، كحامل لوعينا للوجود – على الرغم من أنّ التأثير التاريخي الذي لايقدر بثمن الذي أحدثته هذه المواجهة في مجرى التفكير الحديث الذي يتحرك نحو تقويض كل القيم (و الذي وضعنا يدينا فيها على الفكرة الخفية الذي نحاول نتعاطى معه في كلّ فصل من الفصول التي قدمناها عن الأفكار الأساسيّة لنيتشه في هذا الكتاب في خطوطها العامة) – إطلاقاً أو تصل إلى توضيح كافي لما ينطوي عليه التفكير الفلسفي و العوامل التي تجعل منه ممكنا.

أولا، يعدّ الرأي الذي يتحدث عن صراع نيتشه مع العقل وجهة نظر غير دقيقة و مغالى فيها كثيراً. علينا أنّ نتعرف أولا ما الذي يقصده نيتشه بالضبط حين يستخدم تعبير ((العقل))، و لاسيّما للمصادقة و الإقرار على شيء ما: ((يبذل الجزء الصغير، الذي يمتلكه الإنسان، و يطلق عليه العقل الذي لم يعد يفلح في الخروج من دائرة الخطوط، جهداً كبيراً للحصول على مبتغاه، و يؤدي بالإنسان أحياناً نحو التهلكة و الدَّمار – على سبيل المثال، حين يتخلى الإنسان عن حريته الفكرية و يسلم نفسه إلى (العناية الإلهية))). و بذلك، و بنصيحة من ((العقل))، يطلب منا نيتشه أن نتبع طريق العقل بحكمة و تروي في التعاطي مع الأشياء وأخذها بقوة بأيدينا، بدلاً من الخضوع إلى الكسل و التحجر العقلي و الإذعان المريح للحوادث و سيرها و الذي نطلق عليه اسم ((العناية الإلهية)) أو قبس من هذه النار الإلهية: إيقاظات، إيحاءات قُوَى عليا و بلاغات و نداءات من ميادين حقيقية موضوعية خالدة. يقيناً، لا يستطيع العقل الإنساني أن يتعامل و يتعاطى مع كلّ شيء من حوله، كما لا يستطيع أن يقبض على الكون و يفهمه كله (يصبح العقل نقمة ومصدر خراب حين يتبع و يؤمن الإنسان بمثل تلك الآراء التي تعلقت بالذنب و تركت الرأس). لكن العقل ينبغي أن يستمر في العمل طبقاً إلى المقاييس التي لم يخضعها نيتشه للنقد ليحدد طبيعتها و مقاصدها بعد.

فضلاً على ذلك، يدافع نيتشه عن العقل و أسبابه بالضِدّ من أعداء العقل، الذي يرفض بواعثهم الفكرية، و المواقع التي ينطلقون منها؛ و بهذا الصدد يقول: ((بين الشخصيات الورعة التي تتظاهر بالتقُوَى بوسعك أن تكتشف كراهيَة العقل بيسر في كلماتهم.... و بذلك يخدع الضمير العقلي

السيِّئ، أو الصوت الذاتي الباطني – النبتة التي لم تنبت لولا زوال كمية هائلة من الحرية من العالم تحت ضربات مطارقها – لديهم على الأقّل نفسه)). فضلاً على ذلك، رفض نيتشه أن يتم وضعه في خانة الفلاسفة، الذين ينتقصون من قيمة العقل و يقللون من أهميته، ((و يحتقروه و يذموه مع الذات بواسطة ممارسة المراسيم الزهيدة: هناك ميدان الحقيقة و هناك ميدان الوجود و لكن العقل يُقّصى بالضبط من دخول كليهما!))

و الأهم، يسلم نيتشه نفسه بسلطة العقل، الأمر المحفوف بالمخاطر، و قوته و يقبل أحكامه. إذنْ، ليس العقل مجرد إجَراءِ أو عملية أو طريقة شخصية لفهم الأشياء، كما أنهُ ليس حتى وعي مفكر – بل هو بالأحرى ك ((عقل عظيم)) أو كبير ل ((الجسد)) يحيط بكل شيء، بينما ك ((عقل صغير))، يطلق عليه اسم تعبير الروح، (*Geist*) هو فقط أداة يستخدمها الجسد، بوصفه أوليغارشية فعلية يهيمن فيها الجزء على الكلّ. أو مرة أخرى، في العَلاقة بسمات سلوكنا، التي تبقى في الوقت الحاضر غامضة و مبهمة و تبدو كأنّها حوادث عرضية، يتحدث نيتشه عن ((العقل بوصفة المهمة المستقبلية الواعدة التي سيعمل على كشفها)). مع مفهوم ((العقل العظيم))، يبحث نيتشه عن المعنى العميق، المطمور تحت الركام، الذي يبدد و يزيل كل مشاعر العداء و الكراهيَة ضِدّ العقل، حتى و أن كان هذا المفهوم، الذي يقدم لك المعنى الذي تحتاجه، يتم الإشارة إليه بواسطة الجسد و يبقى غير معروف و محدد الملامح و السمات تماماً إلاّ بواسطته. مثل هذا القول لا يطبق إلاّ على العقل العظيم الكبير: ((سعادتنا الوحيدة تكمن في وجود العقل، و كلّما يوجد في العالم، عدا ذلك، هو مجرد قصة حزينة و آسف. مع ذلك، عزائي الوحيد في العقل السامي و الرفيع الذي أعثر عليه في عمل الفنان بوصفه استقلالاً أمام قصر النظر الأخلاقي و البصر الأعمى أو الاستهزاء بهما)).

تعطي صياغات نيتشه الإيجابيّة والسلبية المتناقضة على حدّ سواء لمهمته في انحلال العقل مظهر الغموض الذي تنطوي عليه معاني هذه الصياغات بشكل متبادل:

فإذا أخذنا أقوال نيتشه السلبية عن العقل، على حدّة، سنجد إنّها تحاول أنّ تقلل من أهمية العقل و تحط من شأنه. من الواضح، كُلَّما حاول نيتشه أنّ يكون لامباليا و غير مكترث بالعقل، كُلَّما تقوضت، نتيجة لذلك، كلّ مطالبه المنطقية و غدت باطلة. إذنْ، تميل أقواله المتناقضة إلى أن يقف أحدها بجنب الآخر بصمت، كما لو أنه لم يلتفت إليها أو يجرب وخزة تعارضها. أصبحت التناقضات، عند نيتشه، بخصوص العقل غير ديالكتيكية أو سجالية و لا يمكن أن تنتج كما هي

حركة مثمرة. زد على ذلك، إنّ حقيقة أن يقول نيتشه الآن شيئاً ما عن العقل و بعدها في نفس اللحظة شيئاً آخراً مختلفاً يترك للقارئ في حَيْرَة من أمره و تردد، و يخرج في تصور أنّ كلام نيتشه غير محدد و واضح و يقبل جميع الاحتمالات بنفس القدر. أخيراً، و بهذا الصدد، ينبغي أن نلاحظ أن ولع وشغف نيتشه في حقيقة التنظيم و الترتيب يبدو من الممكن استبداله أو حتى تفسيره في الرغبة في إيجاد نظام فكري مجرد.

و لكن ليس كل أقوال نيتشه، عن العقل، وثيقة الصلة بما حقاً يقصده أو يروم قوله. في الواقع، الانحرافات (*Abgleitungen*) تقريبا عند نيتشه أمر لا يمكن تجنبه من حيث إنّه يستخدم تعبيرات ((العقل)) ، ((الفهم)) و ((التفكير))، دون ضبط منهجي في تحديد المعاني و توسيعها. فأقواله، الموجهة ضِدّ هؤلاء الذين يسلمون بوجود العقل كقوة مفروغ منها و شيء واضح وضوح الشمس، تفترض سلفًا بعض التصورات الواضحة-بذاتها عن العقل بذاته. إذنْ ، أصبح مفهوم العقل عند نيتشه، بالعادة غير معين و محدد، يتداخل، من جهة، مع التفكير و الرأي، بينما تتداخل المعرفة عنده، من جهة أخرى، مع الهُوِيَّة، النظام، و القوانين، و تلك الثلاث تتداخل بدورها مع تأويلات الوجود الضرورية و الحيوية، و كذلك مع العقل و الفهم لغرض خلق الذرائع و الوسائل النافعة للفعل.

و بذلك، تعثرت و فشلت محاولة نيتشه في إنجاز مهمة انحلال العقل بشكل مؤقت. بعاطفة مشوبة، كان نيشة يناضل من أجل الحصول على شي أسمى و أرفع من العقل و يتفوق عليه، شي يشكل نمط ما يطلق عليه ((العقل العظيم)) الخاص به. لقد شن نيتشه هجومه على العقل بواسطة سلاح ((العقل العظيم)) أو الكبير ضِدّ ((العقل الصغير)) المخصص للفهم الذي يعتبر نفسه يمتلك المعرفة و الحقيقة المطلقة بشكلٍ كاملٍ. و لكن انطلاقا من وجهة النظر الكانطية، هذا الهجوم يعدّ غير نقدي بما فيه الكفاية بما أنّ العقل العظيم أو الكبير لم يتم توضيحه تماما في كليته و حيثياته من قبل نيتشه. و بهذا، كُلَّما يخفق العقل العظيم أو الكبير في أن يقدم له الهداية أو الطريق الموثوق فيه، يصبح نيتشه شكاكاً مرتاباً بكلّ شيء و يتخلى عن تأكيداته الإيجابيّة و السلبيّة بخصوص العقل على حدّ سواء. بيد أنّ هذا التخلي، الذي لا هوادة فيه، مع ذلك، هو نفسه واحد من الظواهر التي تبين كيف أن تفكيره في العقل يشتق من مصدر لا يقتصر فحسب على الحياة التأويليّة لما هو معطى، و لكن يشمل أيضاً ((حياة)) الحقيقة، التي ينبثق منها، على الرغم من كلّ شيء، التأكيد الذاتي للحقيقة.

لا تقدم صياغات نيتشه، المتعلقة بحياة الحقيقة، نفسها بشكل واضح تماما و بصيغة السلام الكانطية المقنعة. و لكن نيتشه، في المحصلة النهائية، كان يقصد ببساطة قول الآتي: حياة الحقيقة تشمل كلاً من العقل والوجود و مصدرهما، مع أنّ هذا المصدر بحدّ ذاته غير معروف. فقط بواسطة الكشف عن المعرفة الواقعية و الفعالية و النشاط المؤثر عمليا يمكن لهذه الحياة أن تميز نفسها كعملية مستمرة للتوضيح لا يمكن أنّ تبلغ هدفها النهائي. هذه الحياة ليس حياة بمعنى الوجود البايولوجي و السيكولوجي و السوسيولوجي (لأن أنماط الوجود هذا يمكن أن تخضع إلى البحث و الاستقصاء و الفحص التجريبي) – بل إنها الحياة بوصفها مصدراً يفهم ك كلاً من الموضوع و فعل الفحص و التحقيق. كان نيتشه دائماً يتطرق إلى هذا الموضوع، لكنه لم ينجح إطلاقاً في القبض عليه و فهمه وفق نمط فلسفي قاطع و نهائي – هذه هي القوة المحركة لعملية التفلسف لديه و الباعث لقهر و التغلب على كل ذلك المعروف.

بسبب القوة الشاملة و المطوقة القابلة للإدراك و التميز في تفكير نيتشه حول حياة الحقيقة (مع أنّها تصبح موضوعاً أو تتجسد موضوعيا)، يبقى تفكير نيتشه فلسفيا، و لا يضيع في تفاصيل فروع العلوم الإنسانية، التي لا يمكن لموضوعها أنّ يكون علميا بنفس الدرجة من العلمية التي تجدها في البحوث الفيزيائية، على سبيل المثال، السيكولوجيا، أو يتعثر، بشكل نهائي، في الأزقة العمياء للمنطق أو الأسلاك المجدولة و شائكاتها للمواقف العنيدة المتعلقة فيه و التي لا هوادة فيها.

ينبغي للتفلسف أنّ يستخدم العقل كأداة و ميدان لفهم أساسه (على الرغم من أن ماهيته تشتق من العقلانية المفرطة). حين يتم تقديم العقل بطريقة ميثودولوجية في حتمية طبيعته الشاملة المضيئة و الدافعة، وحين لا يتم الخلط بينه و بين الفهم أو العقل الثابت و التناهي الهادف، و حين يتم تميز وظيفته الكُلّية المفصلة بواسطة المنطق الفلسفي و وسطه —— حينها فقط بوسع التفلسف أن يسير في واحد من المجريات العظيمة للتاريخ. و بذلك، حين تُفهم طبيعة و ماهية العقل، يصبح تفلسف نيتشه بمفرده الإنجاز العظيم للعقل، على الرغم من إخفاقه في دفع توضيحاته المنطقية و نتائجه المقدّمة في هذا الشأن إلى مدياتها القصوى[56].

بغض النظر عن حجم المهمة الشاقة و الحاسمة التي يمكن أن تنبثق لنا من تفكير نيتشه، فإنّ لدينا الشكوك أنّها تبدو هكذا لنيتشه. ليست الحقيقة، بالنسبة له، تقع فقط خلف أو ما بعد العقل (على الرغم من أن هذه الحقيقة دائماً نعثر عليها و تكون مسموعة و قابل للنقل عن طريق العقل)، و لكنها

أيضاً دون العقل، وبالضِدّ منه، تبدو بوضوح شنيعة، رهيبة، فظيعة، مشوهة الخلق، و ظلمة تثير الرعب و الخوف المروع. بواسطة الاختراق و التقدم المفاجئ في المعرفة المذهل الذي صنعه، يتحدث نيتشه عن هذا بالضرورة بطريقة تخفي الكثير و تبوح بالقليل كما سنبين في القسم التالي.

مع إنجاز مهمة انحلال العقل، نجح نيتشه في خلق بداية جديدة للفلسفة: طريقة مبتكرة الهدف منها العثور على نوع من العقل أكثر عمقا – عملاق جديد، كما يؤكد، ينبغي أنّ يخرج من رماد و قمقم التفلسف. مع استيقاظ كلّ نفس من سكون سباتها العميق الفاقد للحس، هذه المعركة الرهيبة التي لا هوادة فيها، معركة البداية الجديدة يجب أن تُخاض بأيّ ثمن و مهما يكن الثمن و الخسائر. لكن، هذه المهمة لها سمتان أو وجهان: أصبح العقل الآن متحقِّقاً من ذاته، يصارع نفسه بوصفها جوهر الظلام والليل، و الذي بمعزل عنه يفقد طبيعته، و في نفس الوقت يصارع ضِدّ خصومه و أعدائه الذين يتنكرون بأقنعة الحماقات و السفائف و الهراء و بكلّ ما هو ضِدّ العقل.

تواجه – عملية التفكير للعقل و عيشه، الذي يحاول أن يطوق كلّ شيء، و هو يبحث عن نفسه و يتبنى دائماً طرق نقدية مهمة لإضاءة الأشياء الغامضة من حوله و يذهب خلف الحدود المقررة – الأشياء وجها لوجه و الذي هي ليست نفسها و تكتسب هويتها بواسطته. يبدو العقل، في هذه المعركة، كما لو أنه و خصمه متحالفان، كما لو أنّهما لا يمكن أن ينميان و يزدهران و يتضخمان أحدهما دون وجود الآخر.

مع ذلك، نفس العقل يجد نفسه في مواجهة إرادة راديكالية مضادة ترفض أن يتم إضاءتها بواسطة أيّ حركة، و تستخدم بدورها العقل كوسيلة، و تسرق منه كل أقواله و آراءه الحيوية تتمثلها و تستوعبها و تحولها إلى نزوة خيال ثرثارة غير مسؤولة لا أكثر. تعمل هذه الإرادة المضادة، التي تنضم إلى فوضى الليل، بطريقة مخادعة مع العقل و تستخدمه كأداة لغرض إخفاء الفوضى خلف مظاهر النظام الخارجي الذي تصنعه.

ينطوي هذا الصراع، المواظب الذي يستمر بحظوظ مختلفة من النجاح، بين العقل و القُوَى المضادة له، على أكثر المحن و المحاكمات و التَجارِب راديكالية و قسوة في تاريخنا. يقدم لنا نتيشة، في هذه الاتجاهات الثلاث الآتية ((1) العقل العظيم/ الكبير؛ (2) ظلام و عَتَمَة الليل؛ (3) المعارضة المناهضة العقل)، رمز هذا الصراع المرسوم بأحرف ظلت مقروءة في تاريخ البشرية

بأسرها، أكثر الأقوال و الآراء تطرفاً. ففي مسيرة صراعه المرير، ينبغي للعقل أنّ يكون ما هو فعلاً و يؤدي وظيفته، حتى و أن كان لا يعرف نفسه – بمعنى آخر: عليه أن يخترق و يقتحم كل الحواجز و العقبات التي تواجهه و يعترف بها، و في المحصلة النهائية، يتقهقر و يرجع إلى نفسه. و بهذا، إذا كانت حياة نيتشه، و لاسيَّما فيما يتعلق بمفهوم العقل العظيم/ الكبير، هي حدث حاسم، فإنّنا سوف نعثر على نقطة البداية لفلسفة المستقبل هنا معه.

يبدو أنّ أقوال و تعبيرات نيتشه تدل على أيّ شي و كل شيء. حيث نجد، في المحصلة النهائية، أن بعضها يعود إلى البعض الآخر و تترتب بواسطة الخيط الناظم لفكرة ((العقل العظيم)) أو الكبير الذي كان يروم إرساء دعائمه. هذا الأمر المثير للاهتمام حقاً، يجب أنّ يكون واضحاً للقارئ حتى في أحلك حالته – حتى حينما يبدو أن نيتشه يتنازل عن الحقيقة مقابل إنجاز مهمة الاختراق و التقدم المفاجئ للمعرفة.

الاختراق الترسندالي المتعالي للحقيقة

توفر حدود العلم مساحة و مكان للتفلسف الذي يبحث عن أساسه و مصدره. تسمح النظريّة، التي تقول إنّ الحقيقة لها وجودها الخاص في الحياة، للحقيقة أما أنّ لا تحصل على أيّ شيء في الحياة أو فقط تمنح نوعاً من الخطأ الضروري للشكل العضوي المعطى. يفهم هذا الشغف بالحقيقة بطريقة يجد نفسه يتبلور دائماً و بصورة مستمرة بهيئة شيء غريب على الحقيقة. يبدو أن العلم يغرق مرة أخرى في بحر التفلسف، و الحقيقة في الحياة، و إرادة الحقيقة في شروطها المظلمة و الغامضة. دائماً سّؤال الحقيقة يقود إلى شفا الهوة العميقة الجذور أو الكارثة: في كلّ خطوة من الخطوات اللازمة علينا أنّ نقوم بقفزة أو انتقال مفاجئ أو علينا أن نتبع أسلوب المسافة المقطوعة بوثبة. في النهاية، يكسر نيتشه طوق الدائرة عن طريق إنجاز الاختراق المتعالي و النفاذ إلى التعبيرات الغامضة إما بواسطة صياغات متطرفة أو بواسطة الصمت المعبر، حيث كان يريد أول مرة أن يبوح أو يخبي الأساس أو المنشأ الأصيل الحقيقي لأفكاره فيما يتعلق في الحقيقة.

سّؤال الحقيقة هو بالأحرى سّؤال الأسئلة – أو السّؤال الأول؛ إنّه يتطابق هنا مع سّؤال الوجود لنا. يريد هذا السّؤال الوصول إلى الفرضيات التي لا مهرب أو مفر منها لكلّ الأفكار و

التداخل و التشابك الأعمى العابر بينها، و الأفعال التي يدعي صلاحيتها و شرعيتها. يقوض هذا السّؤال خططاً و حجج السائل: إنّه ببساطة يثير الشك في كلّ المظاهر المحددة سلفاً و الأفكار المسبقة، و يوسع أفق السائل و يدفع به إلى مدياته القصوى، إنّه يفصل السائل عن أيّ أساس منطقي خاص.

ينطلق سّؤال الحقيقة من معناه الأساسي حالما يحدد و يرسم حدوده بواسطة تبني بعض الفرضيات المفروغ منها كما لو أنّها بديهيات و بينات لا يرقى إليها الشك. و لكن بما أنّ التفكير لا يستطيع أن ياخذ خطوة نحو الإمام دون ترسيم حدوده – أعني، دون درجة من التحديد الصارم، فإنّه يحدث أنّ الحقيقة التي تتحدث عنه سرعان ما تتوقف أن تكون حقيقة بما أنها تصبح حقيقة خاصَّة مع حدود ممِيزة و مرسومة بدقة. في التحليل الأخير، من غير الممكن أن نطرح سّؤال ما هي الحقيقة فعلاً؟ لأن السّؤال عام، مثل الكلام العام، و غير محدد و لا يقبل شروط السّؤال الموضوعي. غير أن هذا اللاتحديد لا يعني أنّه شيء غير مهم أو عدم، و العمل معه يعود في الواقع إلى ميدان التفلسف فيما يتعلق في معرفة العوامل التي تشكل الحقيقة و تنشئها.

تسفر قوة التفكير الفلسفي عند نيتشه ومقدرتها عن الإفصاح عن نفسها بواسطة سعيه المتواصل في تقويض كلّ صيغة من صيغ الحقيقة و صورها تحاول أن تعتزم أو تدعي أنّها هي الحقيقة بذاتها. في كلّ الأحوال، تتحول الحقيقة إلى مجرد ممثل أو وكيل أو ناطق باسم بدل من أن تكون متجسدة شخصيا بذاتها.

و بينما إلى حدّ هذه النقطة كان موضوعنا ينصب على توضيحات نيتشه، التي تنحو منحى سيكولوجيا يرتبط بغريزة الإنسان، للأنماط و الصيغ التي تعبر عن الحقيقة و تمثلها، فإنّ موضوعنا الآن يجب أن نرى كيف أنّ التفلسف عنده فيما يتعلق أو على أساس الحقيقة بقي غير مرسوم و محدد الحدود و الملامح تماما – الحقيقة بلا حدود أو ضفاف التي تبدو كلّ شيء يختزل فيها إلى عدم. لأن، التركيز المباشر على الحقيقة بذاتها بدل من إخضاع كل صيغة محدد للحقيقة للسّؤال سوف يجعلنا نضيع في أفق غير محدد الملامح و ليس له حدود مرسومة. فقط حين يتحدث بسلبية يمكن للمرء أن يكون قريبا من الحقيقة و بالتالي يستطيع تجاوزها. طبقاً إلى نيتشه، الحقيقة لا يمكن أن يتم نقلها، و هي تبوح و تكشف عن نفسها فقط بشكل غير مباشر؛ إنها محفوفة بالخطر، تشبه

الموت – بل أنّها حتى أصل و مصدر القول الآتي: إذا كانت الحقيقة غير موجودة في هذا العالم هو القاعدة، فليس من قبيل الشذوذ عن القاعدة أنّ يكون كل شيء مباحاً.

تعذر نقل الحقيقة –– يشكل تعذر نقل الحقيقة الأصيلة الموثوق بها، و التي لم يتبلور مصطلحا ناجزا عنها بعد طبقاً إلى نيتشه، واقعة لا يمكن إنكارها أو التهرب منها – فالحقيقة تكف أن تكون حقيقة حين يتم التعبير عنها، و حين يتم وضعها في أشكال و قوالب محددة و جاهزة. هذه النقطة تم الإشارة إليها في الحِوار الدائر بين الفيلسوف الإغريقي بيرهو و الشكي و الرجل العجوز الذي يقدمة نيتشه. يقول بيرهو، الذي يروم أن يعلم الآخرين بشكل غير مباشر و دون تعصب، الآتي: ((أريد أنّ أحذر الناس من أنفسهم، حذار من النفس الإنسانية))، فهو يريد أنّ يكون معلماً وأستاذ الشك و عدم الثقة و الريبة، ((الشك الذي يظهر في هذا العالم بوضوح – الشك و الارتياب في كلّ واحد و في كلّ شيء، و في كلّ مكان)). أما بخصوص الاعتراض و الاتهام الذي يقول أنّ كلماته متعصبة و تؤكد الحقيقة في شكلها الدوغمائي الأخير و النهائي – حقيقة الشك– فيرد عليه بيرهو: ((أنت على حق!، أريد أن إلقي بظلال الشك و الريبة على كل الكلمات التي نتداولها)). فيرد علية رفيقه القديم ((إذنْ، من الأفضل لك أن تصمت، أنّ تلتزم الصمت تماماً)). و في نهاية الحِوار، و بنبرة يسودها الشك، يقول بيرهو: ((أما زلتم، لا يفهم أحدكم الآخر تماماً بعد؟)) ثم يبدأ بيرهو بالضحك و يوجه السّؤال الآتي: ((هل الصمت و الضحك يعبران الآن عن فلسفتكم كليًّا؟)) فيرد عليه الشكي: ((لن يكون هناك شيء أكثر سوءاً منهما)).

بالنسبة لنيتشه، الضحك يعد تعبير عن الحقيقة المتعذر نقلها وإبلاغها: ((حاول أن تتعلم كيف تضحك من نفسك و ألّا تأخذها على محمل الجِدّ – تعلم الطريقة التي كيف يجب للمرء أنّ يضحك!))، ((أنا نفسي أضع التاج على رأسي، شخصيا أمجد ضحكي و أعليّ من شأنه)). مكانة الفيلسوف تتحد و تقاس بالمكانة و المساحة التي يعطيها للضحك في فلسفته. بناءً على ذلك، يمكن للواحد أن يقول: ((دوي ضحك الشخص و ضجته، الذي كان يحاول أن يضحك ليتجنب السخرية، تتجاوز في قوتها و معناها زئير أيّ وحش من الوحوش الضارية و الكاسرة)) – و بهذا الصدد (يقول زرادشت): ((تتغير ملامح الإنسان و تتحول تعبيرات وجهه تماما حينما يضحك! و ليس في هذا الكون أيّ موجود يشبه حين يقوم بذلك!)) و في أمكان كثيرة من كتاباته بهذا الصدد ، يحذرنا نيتشه: من شعور الكرب و الغم و المعاناة تنبثق الحقيقة التي لا توجد كلمات تعبر عنها أو يمكن أن

تصفها: ((لقد اخترع أكثر الحيوانات حزنا و أساً و كآبةً على هذه الأرض، التي لم يتبقَ عليها سوى أخوانه في الكراهيَة، الوسيلة التي يتغلب فيها على كل ذلك – لقد اخترع الضحك)). ((أولئك الذين تعرضوا للأذى العميق يضحكون من كلّ قلبهم كما يضحك الأبطال الأولمبيون العظام)).

تقديس الضحك، و ضوء الرقص، و الانتصار على ثقل الروح و كآبتها اللذان يعودان لهما معا. يضغط نيتشه باتجاه الحقائق التي بوسعنا أن نرقص بواسطتها، كما أنّه مطلع بصورة جيدة على نوعية الاعتراضات التي يمكن أن توجهها الحقائق المحددة و الثابتة التي لا يصيبها التغير في شكلها النهائي و تدعي أنّها مطلقة: ((ليس هناك أقدام بوسعها أن ترقص على نغم هذه الحقائق، و لهذا السبب، هي لا تمثل، لنا، حقائق في أيّ شكل من الأشكال)). ((لا أعرف بالضبط ما الذي تبغيه روح الفيلسوف أكثر من أن تكون راقصاً بارعاً. بالتأكيد الرقص، إذا جاز لنا التعبير، هو تقُوَى الفيلسوف و خدمته السماوية الإلهية)). ((في أكثر لحظات انسجامه و وفاقه و تصالحه و تساميه))، يقول زرادشت: ((الآن، أصبحتُ ضوءاً، الآن أحلق بعيداً بجناحي نحو السماء، الآن انظر إلى نفسي – الآن ترقص الإلهة معي))[57].

خطر الحقيقة – الخطر الذي تسببه الحقيقة. ـــ كان نيتشه يقصد بالحقيقة، التي يطلق عليها تعبير خطرة، في بعض الأحيان المعرفة المعينة المحددة، و في أحيان أخرى، الوجود غير المحدد و المعين للحقيقة بذاتها، و يظهر في صيغة المعرفة المحددة المعينة. و هاتان الفكرتان يعالجهما نيتشه بطريقة منفصلة في كتاباته.

الحقيقة في صيغة المعرفة العميقة، أحد الصفعات المؤلمة التي نتلقها، وهم كل الحقائق، تبقى سلبية. إنّ المناقشة النيتشوية السابقة لتناقض الحقيقة بوصفها مظهراً ضرورياً للحياة، و الحقيقة بوصفها معرفة عميقة بهذا المظهر، تسبب مشكلة هي أنّ نيتشه يعدّ هذا الأمر مبكراً يشكل تهديداً على الحياة بذاتها. ((نحن منذ البداية، كائنات غير منطقية، و نتيجة لذلك نحن أشخاص أثمين، ثم أنّ لدينا القدرة لمعرفة و تميز ذلك جيداً. هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، واحد من أعظم تنافرات و تضاربات و لا انسجام الوجود، كما إنهُ واحد من أصعب المشاكل و ليس من اليسير العثور لها على حَلّ)). كيف بوسعنا التسامح و العيش مع هذا التناقض و اللا انسجام تم التعبير عنه بواسطة التساؤل الآتي: ((هل يتعمد المرء التشبث بشكل غير صحيح بالكذب، و لايستطع تجنب فعل ذلك، أو هل الموت يمكن أن يكون الحل فعلاً)) لكلّ هذا التناقض و اللا انسجام بين الحقيقة و الزَّيف؟ لكن، حياة

الإنسان، الذي تحول من إنسان مريض إلى إنسان أثم، كليًّا غارقة بعمق في الزَّيف و اللاحقيقة و ((لا يمكن للمرء أنّ يخرج من هذا المستنقع دون أن يقوم بتطوير شعور الحقد – بوصفه رغبة في مشاغلة النفس عن الألم بواسطة الهوى – الفوضى و بذور الانحلال الذي تهدد القطيع دائماً، حيث تتراكم المادة المتفجرة الشديدة الخطر – العميق الدفين المكبوت، الفعل الذي لا ينازعه منازع في فهم أخلاق المستعبدين، بالضِدّ من ماضيه)). و لكن هذا الحال أيضاً يقود إلى مخاطر بمعنى ((لم يتبقَ للمرء فقط سوى طريق واحد للتفكير، و كتَجْرِبة شخصية يخوضها ستقوده إلى اليأس و القنوط، و كأمر نظري سيقوده إلى فلسفة الانحلال)). و قد اختار نيتشه أن يواجه الأمر الآتي: نيتشه ((يعترف أنّ اللاحقيقة و الزَّيف هما شرط الحياة... في هذه النقطة و أكثر من أيّ مكان أخر، ينبغي للمرء أنّ لا يشعر باليأس و الحزن (لدرجة الموت) بسبب إدراكه لهذه الحقيقة)). في مواجهة هذا الخطر، الذي بين الأخطار جميعا يعد الخطر الذي لا ينازعه منازع، و الذي يعد أعظم الأخطار، ((ينبغي للمرء أن يستدعي الغرائز الإبداعية الأساسيّة لصناعة المعنى، و يلجا إليها باعتبارها أقْوَى من مشاعر القيم و المنقذ الوحيد)).

حين ينظر نيتشه إلى الحقيقة، بوصفها استطلاعاً لدينامية الخلل الفكري، و بوصفها أيضاً خطأ تتطلبه الحياة بالضرورة كشرط، فإنّهُ دائماً، و بطريقة لامفر منها، يضع الحقيقة بحد ذاتها في خلفية أو مكان غير واضح يتجنب أن يتم فيها ملاحظتها، ليس فقط في رفض و إنكار لكلّ الحقائق المحددة، و لكن أيضاً كإمكانية إجَراءِ اتِّصال مع الوجود بذاته. هذه الحقيقة، التي هي سلبية و إيجابية بنفس الوقت، من حيث هي تقع خلف كل الحتميات، و ببساطة هي ذاتها، و من حيث إنّها أيضاً تظهر كمعرفة للوجود، ينبغي أنّ تثبت و تبرهن في كل الصيغ و الأشكال إنّها خطر على الحياة – أيّ على الوجود المرتبط مع الخطأ و الزَّيف. نتيجة لذلك، تخضع إرادة الحقيقة، من وجهة نظر الحياة، إلى السّؤال الآتي: ((هل ما يوجد في داخلنا حقاً هو إرادة الحقيقة؟ لماذا لايكون بدلاً من إرادة الحقيقة إرادة اللاحقيقة و الزَّيف؟ و لماذا لا نسعى إلى اللايقين بدل من اليقين؟ أو حتى إرادة الجهل بدلاً من المعرفة؟))

و بذلك، ينبغي أن نعدّ الإنسان محظوظا، لأنّه لا يعرف إلاّ القليل عن نفسه. الطبيعة – التي تقسو على من حياهم القدر: إنّها تراعي جانب العامة و تحميهم و تحبهم – صامتة، أو تمر مرور الكرام على الأشياء و شذراتها الأكثر حكمة في العالم، و تعين و تحدد هُوِيَّة الإنسان ضمن الوعي

المخادع المتغطرس الباعث عن الفخر: ((و آسفاه))، بناءً على هذا، لتمنحوا الآذان المصغية إلى ((الفضول القاتل الذي يمعن النظر و التركيز بصعوبة، في كلّ الاتجاهات، في الشقوق و الصُدوع، و من ثّم يدرك أنّ كلّ الإنسانية تعتمد على الرحمة و القساوة، الطمع و اشتهاء لما يملك غيره – النهم الذي لا يشبع، ارتكاب القتل و الجرائم)). فالإنسان لا يستطيع أنّ يعيش إلاّ في لا مبالاة و لا اكتراث نحو جهله، ((يمتطي ظهر النَّمِر و يلتصق به بينما تغلفه و تغطيه نشوة الأحلام)). في هذه الحالة تتحطم غريزة الحقيقة و تغدو خراب. من السذاجة ((أنّ نفترض، دون المزيد من اللغط الإضافي، أنّ المعرفة لا تصل إلى أيّ شيء عدا ما مفيد و نافع للإنسان و كأنّ لاشيء أخر عدا ذلك يستطيع – و حتى يجب – أن يوجد)).

إذا كانت الحياة تعتمد فحسب على المظاهر الزائفة، فإنّ الحقيقة إذنْ ((مبدأ مقوض و محطم، ضار للحياة))، في كليّتها، و في كلّ تجلي فردي. هذا يرتبط بشكل خاص مع البشر الذين مازالوا يتطورون: إذا كان كلّ إنسان يصارع من أجل النُّضْج يحتاج إلى يغطي نفسه بالأوهام و الأكاذيب، و بسحابة حجاب واقية، فإنّ الحقيقة التي تبدد و تزيل هذه الغيوم و السحب الثقيلة تعادل تحطيم جرثومة الحياة و تدميرها.

إذنْ، لقد أدركنا أن هناك حاجة ملحة تفرض على نيتشه القول إنّهُ لامبالي و غير مكترث أو مهتم دائماً بالحقيقة، و حين يتحدث عنها فإنّهُ يتحدث بلغة مضادة لطغيان و استبداد ((الحقيقي)): ((أنا حقاً لا أعرف لماذا ينبغي أن يكون الحكم المطلق للحقيقة مرغوبا فيه و مستحباً. يكفي الحقيقة أن تكون قوة عظيمة فحسب. لكنها ينبغي في نفس الوقت أن تُمّنح الفرصة كي تقاتل و أن يكون لها أعداء و مناوئين – و ينبغي للمرء أن يرتاح الآن من عذاب الحقيقة و ذلك بجعلها منسجمة مع اللاحقيقية و الوهم)). يصبح المرء محبطاً مع الحقيقة و تراوده مشاعر الإخفاق، لأن ((كلّ معارف الحقيقة عقيمة و غير منتجة)).

بيد أنّ نيتشه لا ينظر أو يعدّ الخطر، الذي تنطوي عليه الحقيقة، يشكل اعتراضاً قوياً و حاسماً ضِدّ الحقيقة. فهو يقبل، عن طيب خاطر، إمكانية الضرر و التحطيم الذي تحدثه الحقيقة. ((التعرض للضرر و الأذى و الهدم من مهام الفيلسوف كما هو طلب المنفعة و البناء أيضاً من مهامه)). معرفته للمخاطر الذي تنتظره تجعله يفهم كلاً من إرادة الجهل و الشجاعة من أجل الحقيقة.

يمثل الخطر الأرضية و المنشأ الأصيل الذي يسند و يُؤَازَر الإرادة الراديكالية للجهل: ((هناك أوقات يكون فيها العمى ضروري، و البعض من أخطائنا و أصول و بُنود الإيمان التقليدي ينبغي أنّ تُترك على حالها و لا تمس – على الأقّل، مادام تجعلنا أحياء)). هذا يفسر لنا كيف من المنطقي القول: ((على نحو حاسم، هنا الكثير الذي فضلت أنّ لا أعرفه باختياري. الحكمة المتوحشة ترسم الحدود و تضعها للمعرفة)). ((أن يكون المرء هو ما هو، هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يفترض أنّه لا يمتلك أدنى فكرة عن مَنْ يكون)). حتى العلم يرسي دعائمه على إرادة رفض أن يعرف أشياء يقينية: ((منذ البداية، عليّنا أن نعرف كيف نحافظ على جهلنا و افتقارنا للمعرفة... حتى الآن يرسي العالم دعائمه على أساسّ الجهل الصُّلْب و الثابت العنيد، كما يرسي دعائم إرادة المعرفة على أساس الإرادة القوية: إرادة اللامعرفة، إرادة اللايقين و اللاحقيقة و الزَّيف)).

بسبب المخاطر الذي تحيط بطلب الحقيقة، تتطلب الإرادة الحقيقية للمعرفة الشجاعة – لا تعمل شيئاً بدافع الخوف من القطيع: ((كلنا، بلا استثناء، جبناء نخشى الحقيقة و نخاف منها)). ((بيد أن الزَّيف جبَّنَ)). ((تساوي خطوة الاقتراب من الحقيقة تماما شجاعة الرجل الذي يخطو نحو الأمام. غير أبه بأيّ شيء سيصطدم به. تقاس القوة الروحية للمرء بالمقدار الذي يتحمله من الحقيقة، بقدر ما يتحمل من قسوة الحقيقة، بدقة أكثر، لأن المقدار الذي يحتاجه غامضاً و محجباً و غير معروف)). و لكن، ((حتى أكثرنا شجاعة لا يجرؤ على قَبُول ما يعرفه حقاً)). يعترف نيتشه (في أحد شذرات نصّه ((هكذا تكلّم زرادشت)) أنّ ((هناك شيء اسمه الدفاع غير الواعي عن النفس، الحذر، الإخفاء، و الاحتراس حينما يواجه المرء المعرفة الصعبة.... هناك شيء لا أود أن أخبر نفسي به، لقد وجدنا أن وسيلتنا الوحيدة للحفاظ على ثبات الحقيقة هو خلق الوجود الذي يمكن أنّ يديمها و يرسخ من جذورها – أعني، نصبح عمياناً طواعية و نخدع أنفسنا مرة أخرى)).

الحقيقة و الموت. —— خطر الحقيقة يفوق أيّ خطر آخر. الحقيقة كلها و برّمتها هي الموت – أو هكذا يعتقد نيتشه بلا ريب. فهو يحاول القبض على ما يريد قوله بخصوص هذه النقطة بواسطة رموز مختلفة، بالرغم من أنه لم يفلح في محاولته تلك، أو يكون واضحاً على الأقّل بما فيه الكفاية بهذا الصدد.

في مرحلة مبكرة من عمره، كان نيتشه يروم بواسطة الرموز المنهجية أن يقبض على الوحدة بين المعرفة النهائية و الغرق المروع و الشنيع في هاوية اللاطبيعة القاتلة و المحتمة.

((أوديب، قاتل أبيه، زوج أمه – أوديب الشخصية التي حلت رموز و أحاجي و لغز أبو الهول! ما الذي يخبرنا هذا السر الثلاثي الأبعاد؟...حيثما يكمن السحر الحقيقي للطبيعة و أيّنما يوجد يتم تحطيمه بواسطة قوة فعالة – و ينبغي أن تعدّ المخالفة الشنيعة و الوحشية للطبيعة السبب وراء حدوثه. لكن السّؤال، كيف يتسنى للمرء أن يجبر الطبيعة على أن تتخلى عن أسرارها فقط بواسطة إثارة المعارضة الناجحة و الإعلاء من التناقض الناجح – أعني، بواسطة اللاطبيعة أو اللاطبيعي؟... المرء الذي يحاول الكشف عن أسرار الطبيعة ينبغي أنّ يكون أيضاً قاتل أبيه و زوج أمه، ينتهك كلّ ما هو مقدس في قوانين الطبيعة. في الواقع، يبدو أنّ الأسطورة، التي يذكرها نيتشه عن أوديب، مهتمة فقط في القول إنّ الحكمة هي رجس و عمل بغيض غير طبيعي، و أنّ أيّ أحد يعبث مع الطبيعة و يسخر منها و يحاول أن يرمي بها نحو الهاوية بواسطة حكمته عليه أن يعاني تبعات و نتائج التَجْرِبة المريرة لانحلال الطبيعة و ذوبانها في داخله)).

في صيغة يوتوبيا صرفة، يرسم نيتشه – الذي يعرف أنّ المرء يكون شديد الارتباك في التعبير عن أفكاره حين تكون عواطفه صادقة – على الهوامش المأساوية و آليات اشتغالها مفصلة في أكثر من شذرة صورة انحدار الإنسان و سقوطه بوصفه ((السقوط التراجيدي الأخير و المروع للمعرفة)). يمكن لمعرفة الحقيقة في النهاية أن تبقى هدف الإنسان الوحشي الوحيد، و يمكن أن تتطلب أحيانا من الفرد التضحية بكلّ الإنسانية. المشكلة ستكون على النحو الآتي: ((ما الباعث الإدراكي الذي يتغلب على كلّ البواعث الأخرى و يجعل الإنسان يضحي بروحه من أجل ضوء نبوئي من الحكمة يشع و يَتَلألَأ في عينه؟ ربما حين نعقد أواصر الأخوة مع ساكني و قاطني الكواكب الأخرى لغرض المعرفة، و ينقل الناس حكمتهم و معارفهم من كوكب إلى كوكب آخر لبضع من آلاف السنين القادمة – ربما حينها ستصل الحماسة المتوهجة للمعرفة إلى مستوى سامي و رفيع يجيبنا عن كلّ الأسئلة الصعبة التي صدعت رؤوسنا!)).

بالنسبة للسّؤال ما إذا كانت الإنسانية أو البشر يريدون الموت من أجل الحقيقة – هذا السلك الذي لا يُقهر و الذي ينظم أذهانا حرة بلا منازع – فإنّ الجواب عن هذا السّؤال، و لاسيَّما في رسوم اليوتوبيا التي يقدمها نيتشه، ينطوي في الواقع على مخاطرة كبيرة و لكن ليس بإرادة مباشرة. ((يمكن للإنسان أن يموت و يتحطم تماماً بفعل الولع و الشغف في الحقيقة!... إنّ غريزتنا الإدراكية و المعرفية أقْوَى من أن تسمح لنا أن نحصل على جائزة السعادة دون معرفة السعادة، الوهم

المتأصل و الراسخ بشكل آمن في نفوسنا، أولا. كلنّا، بلا استثناء، نفضل أن نموت على أن نتخلى أو نتراجع عن طلب المعرفة، طلب الحقيقة)).

حين طرح نيتشه الشاب، الذي يعرف أن الخير و السلام يولدان الجبناء؛ أما الصلابة و الشدة في الحياة فهي الأم، على نفسه السّؤال الإضافي الآتي:((هل من الجائز أن نضحي بالإنسانية من أجل الحقيقة))، كان في ذهنه الرد الآتي: ((من النادر أن يكون ذلك ممكن.... لو كان الأمر هكذا أو ممكناً، فإنّ الموت سيكون فريداً و استثنائياً في طرازه، و سيكون، بالأحرى، طريقة رائعة للهروب من الحياة. و لكن لا أحد يستطيع، دون درجة من الوهم، أن يكون متيقِّن من امتلاكه للحقيقة.... أما الجواب عن سّؤال ما إذا كان من الممكن أن نضحي بالإنسانية من أجل وهم فينبغي أنّ يكون سالباً – ينبغي الإجابة بلا كبيرة)).

لاحقاً، و بعد أن أحدث تفكيره طفرة نوعية، بل كان بمثابة قطيعة معرفية، في مقارباته، التي تقترب من مستوى التصدي المباشر لظاهرة الاستعصاء، يجيب نيتشه عن ذات السّؤال على النحو الآتي: ((نحن خبراء في تَجْرِبة الحقيقة، و التعاطي معها، إلى درجة أننّا في يوم من الأيام سنلقي حتفنا بسببها! و ليس بوسع المرء أن يفعل أيّ شيء لتغير ذلك!)).

بعد أن تخلى عن الأحلام اليوتوبية، و تخطي إشارات التحذير بالأحمر وقوفا على حافة الهاوية، بدأ نيتشه يتناول بالفحص و التحليل مسألة عدم التوافق بين الوجود و الحقيقة: ((قد ينبثق من البنية الأساسية للوجود بالضرورة حقيقة أنّ الإنسان يمكن أن يتحطم بفعل و تأثير المعرفة الكاملة)). في هذه الحالة تقضي الحقيقة على كل الأوهام – ((إنّ الوسيلة الكبيرة و الفعالة التي تعجل في هزيمة الإنسانية هو عملية (تحطيمها–الذاتي!))). الحقيقة، كواجب غير مشروط يمكن أن تكون ذا نزعة عدائية و استحواذية – قوة محطمة إذا جاز لنا التعبير. من الصواب القول أنّ ((الحقيقة تقتل – في الواقع، تقتل نفسها، (من حيث إنّها تعرف أنها تقوم على الخطأ و الزَّيف))) – و كذلك يتبع بالضرورة أيضاً ((أنّ إرادة الحقيقة —— يمكن أن تخفي إرادة الموت)).

لكن، نيتشه كان يريد أن يوصل تجربته العميقة لنوع المعرفة التي يمكن أن تبرهن و أن تكون مصيرية و محتمة إذا اكتملت و تمت ليس بواسطة الكشف العقلي، و لكن بواسطة الأغاني و

القصائد التي تزودنا بضوء مشع مفاجئ و أقوال و شذرات منفصلة تضرب المرء بقوة فورية من الأنوار الخاطفة:

بطريقة مفارقة ومتناقضة مع الذات، وجد نيتشه أنّ ماهية المعرفة تنبثق من الحب، و في مسيرها و تقدمها المتعاقب، تحطم هذا الحب و تقضي عليه: ((يريد الباحث عن المعرفة الاتحاد مع الأشياء، حين يرى نفسه منفصلا و بعيداً عنها – هذا هو ديدنه و ولعه و شغفه)). بيد أن هذا الحال يقوده إلى عمليتين حاسمتين له أو إلى موضوعات معرفته. أما أن يحاول أن يجد حلول لكلّ شيء بواسطة المعرفة (((الصراع لجعل كلّ شيء روحي))) أو يترك نفسه تضيع بين الأشياء يتركها تلقي مصيرها أو (((موتها و حتفها المأساوي))).

الإمكانية الأولى (كلّ شيء يتم حله بواسطة المعرفة) تم تجريبها و التعرف عليها تماما بواسطة ((أغنية الليل)). هذه الأغنية ((هي واحدة من الأغاني التي كان يعشقها))، فهي تعبر عن مَرْثِيَّة الإنسان الوحيد الذي يعثر على هويته بواسطة البحث عن الحقيقة المجردة المحضة. و نتيجة لذلك، لم يكن هناك أحد يحب نيتشه كما أنّه لم يحب أيّ أحد؛ لقد استهلك نفسه في الاستعداد و التأهب و الرغبة في الحب – الحب غير المحدد و مرسوم الملامح، بلا عالم، و بلا صديق: ((أنا الضوء؛ آه كنت الليل! أعيش و اقتَاتَ على ضوئي و أشرب النيران المتوهجة المنبعثة من قلبي. أنا أجهل السعادة تماما، و كيف يحصلون عليها أولئك الذين يبحثون عنها! أنا الليل: وآسفاه عليّ أن أكون الليل! و أعاني العطش و الظَمأ إلى الأشياء المسائية وشعور الوحدة الدائم!)) هذا الشعور الاستثنائّي الفريد، الذي هيمن على نيتشه، يجد التعبير عن نفسه لاحقاً: ((بما أنّ هناك الضوء الفائض الوضاء و الشمس الجميلة، التي تشبه الطبيعة، من المعيب و المخجل ألّا نعشق)). هذه هي الحقيقة، كافيه بنفسها و تبلغ الكمال بنفسها دون الحاجة إلى أيّ أحد. عذاب الحقيقة كضوء مستهلك، كوجود، يصبح روحاً مجردة نقية، لا تغير من ملامحها و لكنها تصبح بالأحرى كوجود يأخذ صورة الشبح.

في نفس الصدد، يتناول نيتشه و يمر على الإمكانية الثانية (يترك نفسه تضيع بين الأشياء، يتركها تلقي ((موتها و حتفها المأساوي))) بطريقة تغلب عليها لغة الرمز. يقول نيتشه عن ((أغنية الليل)): ((إنّها الجواب لأيّ قصيدة حماسية عن عزلة الشمس عن عزلة الشمس وَسْط الأشياء المضيئة، التي تشبه عزلة أريادن أميرة كريت في الأساطير الإغريقية – التي تخبرنا أنّ الرجل القديم في نفسه قدرات لا

نملكها نحن الآن و لا نفهمها إلا نصف فهم – وَسْط الضوء...فهذه الأغنية إلى جانب إنها تعرف مَنْ أنا تعرف أيضاً أريادن مَنْ تكون!))

الشخصيات الأسطورية أريادن، القصائد الحماسية الإغريقية، المخلوق الأسطوي مينوتور، ثيوسيوس الملك الأسطوري و مؤسس أثينا، و ديونسيوس إله حصاد العنب و صناعة النبيذ الطيب، أصحاب المقامات الرفيعة الذين يُستأمنون وحدهم على هذا السر العتيد – كل هذه الشخصيات و الأساطير الإغريقية يشير إليها نيتشه بكلّ ما تحويه من أسرار غامضة، حين يريد أن يبوح أو يقترح السر الأخير للحقيقة: الحقيقة هي الموت، شيء نشتهيه و نرغب به مع عاطفة و شغف و ولع يريد أن يُختم بموت مأساوي.

هذه المتاهة، المباشرة الخالي من اللف و الدوران، لا مهرب منها، و القضاء علينا من قبل المخلوق الأسطوري مينوتور محتمة و وشيكة لا مهرب منها – هي هدف و قدر أولئك معشر الباحثين عن المعرفة. إذنْ، أيّ إمرئٍ يسعى للحصول على الاستقلال الكامل للمعرفة، ((يبرهن أنّهُ لا يخشى التعرض إلى الخطر الوحشي. يدخل الباحث عن المعرفة دروب المتاهة، و يواجه المخاطر الذي تستلزمها الحياة ضمناً و التي تتضاعف آلاف المرات بشكل محتم و يحصيها – و هو إلى ذلك بوضوح يجهل كيف و أين ضَلَّ الطريق، يعزل نفسه و يشعر أنه مستهلك و مستنفذ شيئاً فشيئاً بواسطة الكهف الذي يقطن به مينوتور، أيّ ضميره. من المؤكد و المفروغ منه أن شخص مثل هذا سيهلك و يموت، هذا يحدث لأن لا أحد من الآخرين يفهمه أو يبدي مشاعر الشفقة و التعاطف معه. كما أنّه لا يستطيع التراجع عن الطريق الذي قرر و عقد العزم أن يسلكه!)) بازدِراء، يثير هذا الفيلسوف المستقل الجديد مهنة الفلاسفة القدماء الذين يعلمون الطرق و الوسائل التي توصلنا إلى السعادة و الفضيلة: ((لماذا يتحول الواحد منا و يصبح فيلسوفاً... أو شبحاً؟ أليس من أجل التخلص من الفضيلة و السعادة بمعانيها المألوفة الفجة التي أكل عليها الدهر و شرب؟ نحن بالطبيعة سعداء جداً و أناس فاضلون جداً، و لا يراودنا إغراء أن نكون فلاسفة قِيد أنملة – أعني، أن نكون لا أخلاقيين نسعى إلى إرادة القوة، المبدأ المشكل للأشياء، و مغامرين... لدينا الفضول الخاص حول المتاهة، و نتحمل المعاناة و آلام من أجل التعرف على شخصية المخلوق الأسطوري السي دمينوتور)). يقطن الفيلسوف ((في كهفه عاما بعد عام، و نهاراً و ليلاً، وَحْدَهُ مع أفكاره،

يجري مع نفسه حوارات حميمة. يمكن أن يكون هذا الحال هو المتاهة و لكنه أيضاً يمثل له منجم من الذهب)).

مثل هذه الحقيقة يمكن أن تقودنا إلى المتاهة و إلى قوة مينوتور. بناءً على ذلك، مازال الباحث عن المعرفة له هدف أخر مختلف تماما عن كل الباقين: ((بغض النظر عن ما يقوله لنا، لا يبحث رجل المتاهة عن الحقيقة، و لكن دائماً عن السيدة أريادن أميرة كريت في الأساطير الإغريقية)). يقود البحث عن الحقيقة إلى شيء مختلف عن الحقيقة – شيء ما يشبه الحقيقة إلى حدّ ما، و لكنه غير موجود بين الحقائق التي نقبض عليها و نفهمها كحقائق. لم يقل لنا نيتشه مَنْ تكون أريادن هذه أو يفصح عن شخصيتها و هويتها؛ ربما لأنّه لا يستطيع فعل ذلك.

و بدورها، تمثل أريادن الموت. فكما تزودنا، هذه النقطة، بالجواب عن سّؤال ((عزلة الشمس وَسْط الأشياء المضيئة))، أعني – إلى الروحانية المجردة و المحضة المبعدة عن الوجود أما بواسطة الاتحاد مع وجودها أو بواسطة التخلص من متاهة الحقيقة، كذلك الآن تخلت عن ثيوسيوس في مهمته في البحث عن الحقيقة: ((يقول ديونيسيوس إلى (أريادن)، أريادن (أنت المتاهة – المتاهة التي ضاع ثيوسيوس فيها، لم يعد لديه أيّ خيوط من الأمل يتعلق بها. ما الذي ستكسبينه حينما لا يكون فريسة لمينوتور؟ إنّ ما يستهلكه و يستنفذه الآن لهو أكثر سوءاً بمئات المرّات من يكون فريسة إلى مينوتور).))، فتجيبه أريادن: ((هذا هو حبي و رسالتي الأخيرة إلى ثيوسيوس: سأفعل كلّما بوسعي لتحطيمه)).

و لكن حتى هذا الذي ذكرناه أعلاه لا يمثل الكلمة النهائية لنيتشه. على الأصح، يصبح ديونيسيوس الحقيقة الجديدة حينما يصبح ثيوسيوس ((سخيفا لا يطاق)) – أيّ، يصبح متعصباً في البحث عن الحقيقة وبأيّ ثمن كان. نيتشه، و كما هو الحال مع ثيوسيوس، قد ضاع في متاهة أريادن، كحقيقة، و لكن بطريقة مماثلة إلى ديونيسيوس غدا يمثل الحقيقة التي تتجاوز كلاً من الموت و الحياة. من وجهة النظر الأخيرة، بوسعه القول لأريادن: ((أنا متاهتك))[58].

هل أن ديونيسيوس هو الحقيقة، التي تريد أن تتخلص من الظلام، بوصفه شيئاً يعود إليها بذاتها، يفتديها و يقضي عليها، لأن نِقَاط التحول المتناقضة للبحث عن الحقيقة ضمن ميدان الإنسان وصلت إلى الوجود، و الذي هو الآن أول مرة – في شخصية ديونسيسوس – يمثل الحقيقة؟ كلّ

الفهم – في الواقع، كلّ التَجْرِبة الواقعية – توقف نيتشه عن التعبير عنها و لم يعد يتطرق إليها. فأريادن، ((كجواب عن عزلة الشمس وَسْط الأشياء المضيئة))، كمساعد في التخلص من الخيوط المتشابكة لمتاهة الحقيقة، و كمتاهة بحد ذاتها، أدريان التي غدت بمنزلة المتاهة بالنسبة لديونيسيوس – كلّ هذه المواقع ظلت فيها شخصية أريادن، عند نيتشه، رمزاً مبهماً يلفه الغموض.

في المحصلة النهائية، يخلص نيتشه ، في موقعه الفكري النهائي، للقول إنّ الحقيقة النهائية و الأخيرة هي الموت. هنا شخصية زرادشت عند نيتشه تمثل الرمز و الوسيلة التي تعلن حقيقته السامية و الرفيعة، التي تمثل أوج و ذروة الوجود، و قدر الضرورة الذي يكمن في سقوطه. هل الإنسان يريد الموت من حيث إنّه الحقيقة، و هل يتجنب ذلك فقط من حيث إنّه زَيف؟ في تفكير نيتشه، تبقى كلاً من الهاوية الغامضة للموت في الحقيقة و الحقيقة في الموت، أموراً متعذراً تفسيرها و توضيحها.

((بما إنّهُ ليس هناك حقيقة – و لا يوجد أيّ شيء حقيقي، فإنّ كلّ شيء مباح))

. —– حين تخضع كل الحقيقة المعينة في العالم إلى السّؤال، و نسلم أن كلّ شيء يمثل الحقيقة فيه زائف، فإنّ الرأي الذي يقول بإنكار الحقيقة ينبغي أن يؤخذ بنظر الاعتبار و على محمل الجدّ. حينما يقتطع هذا القول من السياق الذي ورد فيه – و غالبا ما يقوم نيتشه بتكراره – و يتم النظر إليه على حدّة و منفصل، فإنّهُ يبدو إلى حدّ بعيد غير مفهوم أو معقول أو حتى مقَبُول. إذا أخذنا هذا القول أعلاه بذاته و تفحصناه، سنجد إنّهُ يفتقر تماما إلى أيّ إلزام؛ إنّهُ يعبر عن نزوة لدعوة فرديه، مغالطة، و عمل أجرامي، لا يجد تبريراً له حتى في مجرد الهوى العاطفي كالاغتصاب و العنف و الإذلال و الاعتقال و التعذيب. لكن هذا القول بالنسبة إلى نيتشه، على العكس، يحرر فعلاً البواعث الإنسانية العميقة و الحقيقية من قيودها، كما لا يعوقه أو يقيده أيّ شكل أو صيغة من صيغ الحقيقة الثابتة و النهائية، التي لا يعترف بوجودها. يسبب الولع و الشغف في الحقيقة، و لاسيَّما في هيئة الشكوك الراديكالية المتواصلة عند نيتشه، في تقويض كل المظاهر المعينة و المرسومة الملامح. و بينما الحقيقة كشيء ترسندالي متعالي – كحقيقة غير مرسومة الملامح تماما – لا تكذب طبقا إلى رأي الفلاسفة، فإنّ كل حقيقة خاصَّة فردية موجودة في العالم تكذب إذنْ. فقط الوجود التاريخي الصُّلْب و المتماسك للإنسان، الذي يقدم نفسه بواسطة صيغ غير معروفة أو محددة هو الصحيح و الصادق. أن ما يلقي بظلال الشك على الحقيقة هو ليس الحدود

المرسومة لها، و لا التفكير في الحقيقة المطلقة، و لكن وجود الإنسان بمشاعره المتناقضة في العالم. يقول هاملت، بطل شكسبير، الآتي: ((قد تشك في الحقيقة بأنّها كاذبة، لكننا لا يمكن لك أن تشك في حبي لها)).

بواسطة إخضاع كل صيغ الحقيقة الثابتة إلى السّؤال، نجح نيتشه في تقديم أكثر الأفكار – الأفكار يقول اعترف لكم تهمني أكثر من الناس، تهمني فوق كل شي. إنها تعيش، تقاتل و تحتضر كالناس و لكن بلا ثرثرة – و الآراء استثنائية و فرادة، بهذا الصدد، يقول نيتشه الآتي: ((إنّ ما أعنيه (بحرية الروح) هو معنى خاص جداً، يتجاوز معنى (الحقيقة) التي يسعى إليها الفلاسفة و مريدون الحقيقة بمئات و اضعاف المرات في صرامته و في أمانته و شجاعته... لي قناعة راسخة، أن الفلاسفة السابقين هم أناس مهينون خليعون و جديرون بالازِدراء، يختبئون متنكرين بملابس نساء يطلق عليها: الحقيقة...)) فقط هذا الموقف المنفتح نحو الممكن، تحت قيادة صارمة للإنسان الموجود في العالم، يمكن أنّ يقول: ((لا شيء يمكن أن يكون حقيقي – لا شيء حقيقياً)). معنى هذا القول ليس رغبة جامحة، و لكنه في الواقع أو على الأصح إشارة: ((ينبغي الآن أن نمنح الدليل الرفيع السامي للوجود إلى نوع الإنسان النبيل، الذي تبين لنا فعلاً و في جميع العصور نظرا لكونه الأقْوَى و الأنبل قد امتاز حقاً بجميع الأزمنة بحرية نظر و راحة ضمير و ما انفكّ أن يقدم دونما انقطاع تفسيرات جديدة و اتجاهات جديدة باعتبار أنّ التكيف خاضع أصلا لنفوذه وتأثيره)).

فقط النبل الفطري الإنساني بوسعه أنّ يقبل و يرضى بهذا الحجم الضخم من سلبية هذه الفرضية و يواجه المشاكل و يتعرض لها بواسطة الخوض بإيجابيّة في التاريخ، الذي ليس فيه عدل أو طيبة، و تفعيل الإرادة الإبداعية لمواجهة العدم. فالنبل الإنساني وحده من يمتلك الدوافع و القُوَى الذي تخوله أنّ يخضع وجود الحقيقة المعينة و المرسومة الحدود للسّؤال لغرض الوصول إلى شيء أسمى و أرفع. الآن، بما إنّهُ لا ((يوجد)) أيّ شيء حقيقي، فإنّ ((كلّ شيء)) مباح. إذنْ، الإنسان موجود حر. فقط حين نشير إلى الوجود المنبثق من أعماق التاريخ و تفاصيله المثيرة يصبح قول نيتشه أعلاه له معنى. و لكن حتى هذا المعنى يتقوض بسرعة: هذا القول له معنى فقط كتعبير دقيق عن لحظة حاسمة.

حتى في سياقات التفكير النيتشوي، يمكن أن يبقى هذا القول صحيحاً فقط حينما يحمل الأخير الحقيقة التي يستمتع بها كلها معه. تحوي الصياغة المقتضبة لهذا القول أعلاه غموضاً و مواربة

مدمرة، لأن القناعات التي يريد أنّ ينقلها هي بالضبط تسير بالاتجاه المعاكس لما يريد نيتشه و يرغب أنّ يقوله بصورة غير مباشرة. فكقول، يغلب عليه طابع الراديكالية، غير قادر بشكل جوهري على تزودينا بهداية أو أيّ طريق يمكن أن نقتفيه. بل إنّهُ ببساطة يعني الغرق في عدم الإمكانيات غير المحددة التي ترافق نهاية كل حقيقة. فهو، بهذه الصيغة، يطمس أو يلغي الفرق بين حقيقة المظهر، التي تعلي من شأن الحقيقة، و النزوات الكاذبة للفرد، كذلك يلغي الفرق بين التاريخ و الفوضى. بهذا التفسير – الذي لا يقل خطأً عن المحاولات السابقة، مع أنّها لا تخلو على الأقّل من معنى بحد ذاته، فضلا على أنّه قابل للصمود من الناحية السيكولوجية – سيكون حينها كل الوجود موحداً و منتظماً و متماثلاً و في نفس المستوى – كلّ شيء يكون مظهراً لنفس الصيرورة التي تصارع مع نفسها داخليا تحت ستار تعددية إرادات القوة المتصارعة. سيكون الحدّ الأخير لهذا الطرح معنى فارغاً و عبثاً.

ضمن حدود السياق الواسع لتفكير نيتشه، لا يمكن لنا أن نصل إلى نتيجة نهائية و قول فصل نهائي بخصوص هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً. يقف هذا القول على قمة هرم و بناء التفكير النيتشوي حول الحقيقة، التي تريد التعبير، في صيغة يغلب عليها طابع السلب الساحق، عن أكثر تأكيدات الحقيقة عمقا بدلا من التعبير عن الصيغ العامة التي يمكن نقلها بيسر. و لكن بدلاً من الاستعانة في الرموز التحذيرية، يزودنا نيتشه بصيغة جدلية و سجالية محاربة تنقل لنا تعبير اليأس و القنوط بدلاً من الوعي في المصدر.

بما أنتّا نسلك بتعمد طريق الحركة الديالكتيكية التي لا تبلغ فيه الحقيقة هدفها (وبما أنها لا يمكن امتلاكها و في النهاية تنكر نفسها)، فإنتّا نكون مجبرين على الرجوع إلى وجودنا التاريخي الحاضر للعثور عن المنجز التاريخي و العثور عن مخرج. بواسطة معرفتنا بهذه الحركة الديالكتيكية، نصبح فعلا واعين بأنّنا لا نمتلك الحقيقة إطلاقاً. فقط المثابرة و المواظبة في تتبع و سلوك طريق الحركة الجدلية و السجالية يمكن أن يهزم خطر الوهم الذي ينتج حينما نستخدم صيغ نيتشه

المنفصلة كأقوال ميتة، فبمساعدة الأفكار الديالكتيكية – هذه الأفكار لا توجد إلاّ بواسطة الناس، و لكن هنا ما يؤثر في النفس أنها تعيش على حسابهم – في خطوطها العامة، سنكون أمام خيارين أما نبرر كلّ شيء يقوله أو ندين و نشجب كل شيء بطريقة اعتباطيّة.

3
التاريخ و العصر الحاضر

الصيغ التي يكشف فيها التاريخ النقاب عن نفسه لنيتشه (419) السمات الأساسيّة الكلية للتاريخ — العصور، الناس، الرجال.

الدلالة و المعنى الحيوي للوعي التاريخي. (427) الأخطاء الجوهرية المتسمرة في العلم التاريخي — تأثير الحياة المدمر على العلم التاريخي. — التاريخية الصادقة و الحقيقية.

العصر الحاضر(434)

صورة هذا العصر — مات الله — أصل العدمية الأوروبية. — معنى هذه الأطروحات.

الإنسان ليس موجوداً ثابتاً لا يتغيّر: وجوده، ببساطة، يتغيّر و يعيد تشكيل نفسه من جيل إلى جيل آخر. إنّهُ صنيعة التاريخ و نتاجه الفريد. يسير تاريخ الإنسان في حركة مستمرة لا تتوقف – و فعلاً كان واحد من مهام الفلاسفة الأساسية جعله يعي هذه الحركة و تفاصيلها المثيرة. المسار الذي تسلكه هذه الحركة تحدد بشكل عميق وعي الإنسان بوجوده. حين يكتمل هذا الطريق، ضمن الإطار النظريّ لفلسفة التاريخ الشاملة، سوف نشعر بالأمان ونثق في المصدر الذي نشئنا منه، و الجوهر الذي نعيش وفقه، و الأساسّ و الأرضية التي نقف عليها بثبات، و الزمن الذي سوف نعثر على أنفسنا فيه، و حجم المهمة التي سوف نواجهها في عصرنا الحالي و نجاعتها – عصر غرور إظهار المرء نفسه على مسرح الأحداث، التبعية للدعاية الاجتماعية و الشعوذة. و لكن في حالة نيتشه هذه الكُلّية تعطلت و تبعثرت، و هذه النظرات العامة التي يقدمها فقط ليس أكثر منظورات نسبية مباشرة للمحاكمة. نتيجة لذلك، يتحطم تفكير نيتشه التاريخي و ينهار، إذا جاز لنا التعبير. بوسعنا ملاحظة الاتجاهات الثلاث اللاحقة التي سار بها تفكيره. أولا، كان نيتشه متفرجاً ذكياً على العملية التاريخية الواقعية برّمتها: بواسطة إطلاعنا على منجز الوعي بتاريخ العالم – بوصفه وسيلة إضافية في تطور القوة الحيوية و ازديادها – يريد نيتشه أن يكتشف الوقائع الأساسيّة و الروابط الأساسيّة السببية التي تحرك العالم. ثانيا، في ميدان التاريخ نفسه، غدت حقيقة هذا الوعي التاريخي، و معانيه للحياة، موضوعات للبحث و التحليل و الفحص و كذلك لشكوكه اللاحقة. فهو يتعامل، الآن، مع الذاكرة التاريخية – بوصفها عالماً بكامله من الأمور الجديدة الغريبة من الظروف و أفعال الإرادة – بواعثها، صورها، و نتائجها النهائية. ثالثا، توجهَ نظر نيتشه و اهتمامه إلى عصره، حيث كان تفكيره التاريخي منصباً في المقام الأول على سبر أغوار التاريخ و فهمها. كان نيتشه يروم أن يفهم عالم اللحظة التاريخية المهمة التي يشارك في صناعتها، مع هدف معرفة ما الذي تم تقريره حقاً الآن في حركة التاريخ. خلافا إلى الفلاسفة المسيحين، و هيغل و من أتى بعدهم أيضاً، لم يكن نيتشه قادرا على تحديد بدقة، بواسطة معرفة كُلّية عالم التاريخ، أين نقف اليوم؟ ومَنْ نحن ؟ بل تحرك في الواقع، كما كان الفلاسفة المذكورون أعلاه يفعلون، بنفس العاطفة يدفعه نفس الباعث لحيازة الوعي التاريخي. واقفاً على نقطة تحول في مشارف التاريخ، يحاول نيتشه جاهداً أن يسبر معنى التاريخ كي يزودنا تفكيره في الاتجاه الذي ينبغي أنّ نسير فيه.

الصيغ التي يكشف فيها التاريخ النقاب عن نفسه لنيتشه

لم يكن نيتشه، التي تكمن أهمية خطاباته الفلسفيّة في آلية إنتاج المعنى الخاصَّة بها، باحث متخصص يسعى إلى إيجاد تحقيقات منهجية صارمة و متماسكة (ربما فقط و لفترة وجيزة في شبابه حينما مارس علم فقه اللغة كفيلولوجي كلاسيكي عَتِيق) – كما أنّه لم يكن فيلسوفاً استدلالياً في التاريخ في المعنى المتعارف عليه يحاول أن يطور بناء متماسك محكم ليعبر عن وعيه التاريخي الحاضر. بل كان في الأحرى مفكراً عميقاً و عارفاً يقدم لنا ملاحظاته الوفيرة و الخصبة، و يعبر عن رؤاه المتنوعة للأشياء بأقوال واضحة و مقتضبة. بالتأكيد، في بعض المناسبات، يُهزم نيتشه أمام سلطة البهجة الجمالية، التي تبغي أبدية كلّ الأشياء، لمظاهر الأشياء؛ الأشياء التي تظهر قواعد لعب الطبيعة و أسرار خلقها؛ أشياء تجمع المختلفات في ذاتها، بذور غريبة الشكل – و في مناسبات أخرى يكون ضحية العظمة الجذابة. لكن بواعثه و نوابضه الفكرية كانت تسعى و ظلت نحو إرادة الفهم حصراً: كان يريد أن يعرف العملية التاريخية بتفاصيلها من أجل أن يقيم بدقة الشؤون الإنسانية في هذا العالم.

السمات الأساسية الكُلّية للتاريخ. — كان نيتشه يريد أن يفهم، بواسطة طريقته في الكلام عن الأشياء، و يقبض على القوانين المهيمنة على العملية التاريخية بالإضافة إلى الضرورات السوسيولوجية و الأنماط المتنوعة للسلوك البشري. يسعى نيتشه إلى اكتشاف مسار الحوادث التي تختبئ وراء الوفرة اللامحدودة للظواهر في التاريخ. هذه المحاولة، التي تقلب أفاق النظر عاليها سافلها، ساهمت، إلى حدّ بعيد، في انبثاق عدد من الملاحظات التي تجسد الاتجاهات التي سارت بها وجهات نظره في التاريخ:

(1) الطلب الأول الحصول على منظور واسع و عميق:كان السّؤال الذي وجه نيتشه باتجاه الطريق الصحيح الذي ينبغي اتباعها هو: كيف بدأ التاريخ و متى، و ما هي العوامل التي ساهمت في بداية حركته؟ كان جواب نيتشه – الذي حصل على قطع من الواقع مكنته من التغلب على الإحساس بالعزلة و الانفرادية – عن هذا السّؤال على النحو الآتي: لم يبدأ التاريخ فعلا حتى انبثاق و نشوء الدوافع الإبداعية الشخصية و تأكيدها لنفسها – التاريخ هو الحركة المشدودة العدائية بين الأفراد، من جهة، و الثبات غير المرن للنظم الكُلّية التي تخضعهم و تهيمن عليهم، من جهة أخرى.

عصور ما قبل التاريخ، التي تتيح لنا التحدث عن تناقضاتها و اختلافاتها و توتراتها، كما يبنيها نيتشه، حَجْر حَجْر، محدّدة حصريا بواسطة التراث و مخزوناته ذي الإبعاد الكونية المقيد

تماما، و بمنأى عن طرح السّؤال تماما. ليس هناك شيء مهم حدث في تلك العصور. أكثر المشاعر رهبة و رعبا كان يعانيها ناس في تلك العصور هو شعور العزلة و الوحدة. كان وجود الفرد في تلك العصور ليس متعة بقدر ما هو عقاب. كلّ الماسي و المخاوف في هذه العصور آنذاك مردها لعزلة الفرد و وحدته. كُلَّما حاول الفرد أن يتصرف وفق ((غريزة القطيع))، بدلاً من التصرف وفقا لميوله الشخصية، كُلَّما غدا كائناً أخلاقياً مطيعاً في نظر نيتشه. تسبق ((أخلاق العادة)) عالم التاريخ، و فصوله المحملة بدروس الفواجع، بدهور طويلة. تشتمل العصور الطويلة – و التي بالمقارنة معها يمثل ((عالم التاريخ)) فقط ((جزء صغير من الوجود الإنساني يبعث على السخرية)) – على ((التاريخ الحقيقي و الأساسّي الحاسم الذي يحدد السمات الإنسانية)).

يحدث التغير خلال العملية التاريخية، في استطالات المجال الحيوي الذي يخصه، دائماً بواسطة القطيعة المعرفية مع التراث و مخزونه الإنساني ذي الأبعاد الكونية: ((التفكير الحر هو من يصنع التاريخ)). بيد أن ((الروح الحرة)) ضعيفة بالمقارنة مع التراث. أن نطرح سّؤال عن الكيفية التي يحقق فيها التاريخ نفسه هو أن تسأل عن ((أصل النُشوء و التكون))، و هذا يعني أن نسأل عن البداية المتكررة و الدورية للتاريخ الواقعي.

تستمد صياغة نيتشه للتاريخ من اعتماد الفرد على نظام كليّ عام، والاِتكال المتبادل لهذا الكلّ على الفرد وبالعكس (من أجل أن يكون ك كلاً من الوجود الإنساني و تعزيز قوته، و في كلّ المستوين الثبات الاجتماعي و التغير التاريخي أمراً ممكناً). هذا لا يتناقض و لكنه يكتمل بواسطة قوله ((ليس هناك أكثر ضررا على المعرفة العميقة الجيدة في الثقافة – التي تريد شيئاً غير الذي تريده الحضارة: ربما تكون أهدافهم متعارضة – من التأمل وإطالة النظر – حين يكون المرء رائق المِزَاج فإنّه يتجه فطريا إلى اختيار الأمور المحفوفة بالخطر مثل التأمل– في العبقرية و النبوغ و لاشيء آخر)). هنا نيتشه يروم أن يستخدم ((عبادة/ دين الثقافة)) كترياق إلى دين/ عبادة العبقرية: الحرية الكبيرة في إطار القانون و المرح الرباني و الطيش في مواجهة أصعب الأمور. لأن صدى كل شي إنساني – سواء كانت أداءات الرجل الشبيه بالنملة جنبا إلى جنب مع أعمال العبقرية – ينبغي أن لايضيع مرة أخرى: ((كيف نجرؤ على الاستِغناء عن الشائع و العميق و الرائع في كثير من الأحيان دون أن يكف اللحن أن يكون لحن؟)).

يكشف هذا اللعب المتبادل عند نيتشه – الذي كان يريد للطبيعة و العالم أن ينعكسا في روحه بصورة جديدة – حينما نتأمل و نطيل النظر في الكلّ، عن حتمية صارمة. يتعارض الإصرار على الخِيار الحر مع وجود الاعتقاد ب ((النظام الكلي الحتمي و الصارم الموجود بذاته في كل مكان، باختصار بغياب القرار الفردي الشخصي. حتى هذه اللحظة، بذل الإنسان جهداً شاقاً للوصول إلى اتفاق وعقد فيما يتعلق بالعدد الكبير من الأشياء و فرض قانون المطابقة أو فرض نفسه عليها و التطابق معها)). حينما تقاتل الأرواح الحرة بالضِدّ من العرف العام المتفق عليه كليا بحثاً عن انتصار، مع معشر الباحثين عن الحقيقة في طليعة الجيش، فإنّ هناك في الجانب الآخر تنبثق حاجة إلى ((الغباء الفاضل و إلى المضاربة بالوقت الجامد للروح البطيئة، و ذلك من أجل أن يبقى أنصار و مريدو الإيمان الكلي العظيم معاً)). فمن جانب، يقود فعل الفرد الحر، الذي يُدّار بواسطة الخِيار الشخصي، إلى الفوضى الاجتماعية، و إلى التنصل من المديونيات و الواجبات المفروضة بواسطة الاختلافات الشخصية و الهرمية و أشكال التراتبية و الفوارق، و هذا يشكل في الواقع و في المحصلة النهائية خطراً كبيراً على الجماعة؛ ومن جانب أخر، تستطيع الجماعة – كُلَّما تعاظمت مقدرتها تضاءل شأن الأهمية التي توليها لتقصير أعضائها، لأن هؤلاء الأعضاء ما عادوا يشكلون خطراً على وجود المجموع – معًا أنّ تحافظ على نفسها – ((بواسطة امتلاك أعضاء المجتمع الروح الحيوية الجماعية، التي هي نتاج خضوع الأفراد إلى المبادئ المقبُولة و المعقولة عمومًا، و التي يُعاقب عليها العرف إذا فكر أحد في انتهاكها و غير خاضعة للمناقشة و السّؤال (أي، أنها نتاج المعتقدات العامة))) – من الأخطار الأخرى المحدقة بها: ((الغباء المتزايد تدريجيا نتيجة الوراثة – إنّ الوراثة تنتصر على كلّ شيء. هناك بعض الأشرار لا شيء يمكن أن يصلحهم، كُتِبَ عليهم ذلك؛ إنهم لا يؤمنون أن هناك الكثير من الأشياء الجميلة جداً نراها إذا كنا أقل شراً)). لقد أدرك نيتشه حجم التناقض الذي تحتويه حركة التاريخ، في استطالات المجال الحيوي الذي يخصه، و حين كان يعي أنه يمثل استثناءً إبداعياً، فإنه كان يسلم و يقبل في مطالب التاريخ صاغراً. ((نحن الآخرون الاستثناء والخطر. نحن دائماً بحاجة أن ندافع عن أنفسنا! حسناً، شيئاً ما في صالح الشخص الذي يمثل الاستثناء ينبغي أن يقال مادام أنّهُ لا يريد أن يكون القاعدة)). إذنْ، لا تمثل كراهيَة الناس العاديين للفيلسوف أي قيمة و لا تساوي أيّ شيء. لأن الفيلسوف بدقة، ((هو الاستثناء الذي عليه أن يحمي القاعدة – عليه أن يحافظ على ثقة الإنسان العادي في نفسه)).

(2) بالنسبة إلى نيتشه، الذي كان سعيداً لوجود من يصغي إليه و يفهمه، يمثل مسار التاريخ، في استطالات المجال الحيوي الذي يخصه، عملية ترويض و تدجين للإنسان و تعويده على الانضباط و جعله قادراً على القيام بالوعود، بواسطة قوة و تأثير الأخطاء الميتافيزيقية، الدينية و الأخلاقية، التي تؤدي دور المؤاسي في جميع مصائب الوجود و تعمل اليوم على تدمير احترام الإنسان القديم لذاته. نقطة بداية التطور هو الإنسان بوصفه كائن بري و متوحش و قوة طبيعية ليس لها قانون و لا تعترف بقانون. هذه الحقيقة تبدو الآن تماما منسية. يعدّ عصرنا و ينظر إليه بمثابة مناخ معتدل مقارنة بمناخ الفترات الاستوائيّة السابقة: ((حينما نرى و نلاحظ كيف التغلب على أكثر المشاعر غضبا و كسرها عن طريق القوة المدهشة و المخيفة للمفاهيم الميتافيزيقية – نحن نواجه بوضوح القوة التي تستطيع في بعض الظروف السعيدة أن تصنع المعجزات و أن تتجاوز بقفزة واحدة في جيل واحد سُلَّماً من الأجداد و من الأجيال و يجعل من الشخص رفيعاً، نشعر و كأنّنا نرى في أم أعيننا نموراً برية متوحشة في المناطق الاستوائيّة يتم سحقها بواسطة الأفاعي الفظيعة المشوهة الخلق. حتى في أحلامنا لن نواجه فظاعات مثلما تلك الذي واجهها الناس في الماضي في حياتهم)). و لكن ما حدث بعد ذلك بواسطة ذلك هو ترسيخ و تكريس شرط وجودنا. إن وجودنا هو، ببساطة، نتاج هذه التحولات في تلك الحوادث. ((يبدو أنّ كلّ الأشياء العظيمة ينبغي أولا أنّ تخطو على الأرض ككائنات وحشية مشوهة و مخيفة متنكرة بأقنعة الجبروت و الهول كي تخط مطالبها الأبدية في قلب الإنسانية)). هذا التشوية هو العنوان الحقيقي للفلسفة الدوغمائية: و أبرز مثال عن ذلك التشويه الأخير نجده في مذهب (الفنتداتا) في أسيا أو الفلسفة الأفلاطونية في أُورُوبَّا. نحن الأن حقاً ورثة كل القوة التي تصارع بالضِدّ من الخطأ و الزَّيف الذي بدأ ينشأ و يعزز من وجوده. ((إذا نجح المرء في أن يستنتج و يقتطع تأثيرات مثل هذه الأخطاء، فإنّهُ سينجح في استنتاج مفاهيم الإنسانية، و النبل الإنساني معها أيضاً)).

(3) يكشف التاريخ النقاب عن القُوَى الرهيبة و المفزعة المعمرة التي يخفيها الإنسان خلف أغطية سميكة لكنه لا يجرؤ على تحطيمها. فهذه القُوَى ضرورية و لا مفر منها لإدامة وجوده. ((ليس ظاهرة الثقافة و متلازماتها إلاّ قشرة ضعيفة من الاستغاثة بوجه الفوضى النارية)). في كلّ مكان نرى تلك القُوَى و هي تؤازر الزخم أو القوة الدافعة الأولى:((هذه القُوَى البرية مثل وحشية قطاع الطرق محطمة مع أنّ نشاطها ضروري... فهي طاقة رهيبة – تلك التي نطلق عليها شر – و هي معمار و هندسة دائرية و دروب مُعبدة للإنسانية)). كل ثقافة متفوقة تبدأ من البربرية. في هذه

البداية ((هناك الكثير من الأشياء العظيمة – التي تقتضي منا الصمت حيالها أو الحديث عنها بتعظيم – يتم حجبها و الستر عليها)). لكن الفظاعة، المقلوبة ظهراً لبطن، التي تضفى عليها الطابع الروحي و تؤلِهُ بشكل يتزايد يوما بعد يوم، تستمر في الحصول في كل الأوقات – ببساطة هناك الكثير من الحجب و الستر لأنّهُ لاحد يجرؤ على التحدث و كشف النقاب عنها. ((لقد تم اختراع آلة التعددية كي تقوم بالأشياء التي ليس للأفراد الشجاعة التي دافعها اليأس للقيام بها. لهذا السبب، يكون المجتمع – دراسة المجتمع ثمينة جداً نظراً لكون الإنسان كمجتمع أكثر سذاجة منه كفرد. و ما نظر المجتمع يوما إلى الفضيلة إلاّ باعتبارها وسيلة لبلوغ القوة و السلطة و النظام – أكثر أمانة و أرشادا بمئات المرات، فيما يتعلق بطبيعة الإنسان المضطرب و المرتبك المتشكك في الأسباب و المسببات، من الفرد)). معظم الوسائل التي يتم بموجبها إنجاز العديد من الأشياء، التي يوافق عليها الفرد، متوفرة و بيد الدولة – التي دخلت مسرح الأحداث حاملة سمات الطغيان المخيف، سمات الجهاز الآلي المميت الذي لا يعرف الشفقة – على سبيل المثال: تقسيم المسؤوليات، إصدار الأوامر و القيادة، و سلطات التنفيذ؛ سبر غور فضائل الطاعة، الواجب، حب الوطن، و حب الحاكم، الدفاع عن مقتضيات الشرف و الكرامة، الصرامة، القوة، الكراهيَة، و أخيراً الانتقام – المفاهيم التي كانت بداية نشأتها مروياً بالدَّماء شأنها شأن كلّما هو عظيم على وجه الأرض.

السمات الأساسية الكُلّية للتاريخ. — العصور، الناس، الرجال. تزودنا الأنماط العامة للحوادث بمنظور واحد مهم للتفكير التاريخي و استطالات المجال الحيوي الذي يخصه عند نيتشه. فيما تزودنا أفكار نيتشه و وجهات نظره الأخرى عن العصور الإنسانية، و الرجال العظام بمنظورات مهمة جديدة. يتأمل نيتشه و يطيل النظر، بإيجاز، في عصور الحضارة البدائية الوحشية الفجة، التي على الجيل الذي على قيد الحياة يعترف دائماً بواجب حقوقي و وجداني تجاه الأجيال السابقة، و يصفها لنا بالإضافة إلى العوالم القديمة، الهند، المسيحية، عصر النهضة، عصر الإصلاح، الحركة الألمانية و الإنكليزية التي قامت بشكل أساسيّ على يد الدهماء و سَمّيت (حركة الإصلاح) دون أن ننسى ما سوف ينجم عنها من بعث للكنيسة، عصر التنوير الذي وضع لوحته الساذجة عما يريد، و ناس العصر الحالي. بيد أنّ الشخصيات التي تزين صدر التاريخ فيها لا تبدو له أنّها تملك ذات القيمة على حدّ سواء. مع ذلك، ينقل نيتشه بصورة واسعة لنا مساحات واسعة من عالم الوقائع التاريخية و كانت تقييماته و تأملاته دائماً مركزة و عميقة بشكل حاد: وجودياً، كان نيتشه مرتبطاً دائماً مع موضوع يعده نقطة مضيئة في التاريخ: العصر الإغريقي الذهبي. بينما

تكشف أقواله المهمة الأخرى عن ظواهر عصر النهضة، العصر الجرماني ما قبل التاريخ، العالم الروماني و نفحة الطيبة الرعوية التي تعبق برائحة عصرها الذي ربما يكشف النقاب عن علاقات مماثلة، إنها انبثقت في لحظة معينة لكنها لم تتطور لاحقاً إطلاقاً لظروف يطول شرحها. فقط العالم الإغريقي، الذي بلغ من القوة مبلغاً لم يصل إليه حتى الآن أحد على وجه الأرض و لو في الحلم، الذي استغرقه تماما، نال اهتمام نيتشه بصورة واسعة في الكشف و التحليل و الفحص. خلال حياته، كشف نيتشه تلقائياً قدرة تحليلية عظيمة لأعمال الفلاسفة الإغريق. هذا يرتبط مع هدفه في تحقيق و ترجمة الطبيعة الألمانية الرفيعة و السامية، و التي كان يراها مماثلة لطبيعة الشخصية الإغريقية. و لكن بينما سلم نيتشه أنّ العالم الإغريقي هو العالم المثالي و هو العالم البعيد عن المسألة لكماله[59]، كانت النقطة المحورية للتاريخ (كما كانت شخصية المسيح – الذي فزع كثيراً عندما فكر أن المسيح لم يوفق تماماً في مهمة التخليص – تمثل للمؤمنين بالمسيحية) بالنسبة له هو العالم الجرماني و مستقبله الذي يراه في خطر حقيقي من جَراءِ مساراته الخاطئة. بناءً على ذلك، أخذ حبه لألمانيا التي كان يحلم بها شكل – و الذي يضع كل آماله عليها و على مستقبلها في ظل العالم المتعفن و الخرب – عاطفة ولع و شغف نقدي لاذع زادت حدته طوال حياته.

الإغريقي – لم يخلق للحياة في الجماعة بل خلق ليكون الملك في مملكة أحلام من صنعه – هو ((الشخص الذي أنجز الكثير))، أما الناس ((الإغريق فهم وحدهم العباقرة في تاريخ هذا العالم))، بالتأكيد، ((الإغريق هم الناس الذين لم ينالوا التقدير الملائم لهم أو التقديرات السامية، الطرق الواضحة المعالم نحو المحبة، التي تنشئ المقامات و المراتب كما تنشئ المسافات الفاصلة بينها)).

العصور الإغريقية القديمة هي ((موطن الثقافة الحقيقي الوحيد))، أما ((العالم الإغريقي فهو الإمكانية العميقة الوحيدة للحياة الحقيقية)). لهذا السبب، يؤكد نيتشه: ((حتى الآن، اعتبر العصور الهلنستية هي الثقافة السامية و الرفيعة الوحيدة ذات الولادة المتجددة)). إذنْ، إذا حاولنا أن نتأمل و نطيل النظر في العصور القديمة من وجهة نظر تاريخية تقليدية لا تضطلع بكل متغيرات التاريخ و استطالات المجال الحيوي الذي يخصه فإننا سنفقد و نضيع القوة الثقافية التي تتوفر عليها هذه العصور. و ستكون معرفة الإغريق، بحد ذاتها، نتيجة لذلك، معرفة خالية من روح الثقافة الحقيقية – إنّهُ السّؤال حول ((القرار المتخذ و صحته فيما يتعلق الثقافة)). على طريق اقتفاء أثر ثقافتهم و

أسسها المتينة، يطمح نيتشه ((أنّ نكون إغريقين أكثر من الإغريق يوماً بعد يوم، في البداية في المفهوم و التقييم ... و في نهاية فيما يتعلق، كما هو مأمول، بالتعامل مع أجسادنا و قواها! على تلك المسألة أعقد أمالي العريضة في بناء الحياة في ألمانيا)).

كان نيتشه مقتنعاً أنّ ((بوسعنا التعلم الكثير من معارف الإغريق العظام، و حرص على تلقي هذه المعارف)). فقط بواسطة مصادر المعرفة الإغريقية، التي اكتسبت وسائل أغزر و أصلح من قبل، كان يعتقد أن بوسعه أنّ يفهم خلل و عيوب عصره و زمنه، و بهذا الصدد، يقول: ((فقط من حيث إنني تلميذ مُواظب على دراسة العصور القديمة و التأمل بها، و لاسيَّما العصور الإغريقية، بوسعي أن أنال شهادة تلك التَجارِب الأبدية – أعني، أن روحي، وَسْط هذه العصور، تشعر و كأنّها طفل يمرح بين حدائق العصر الحالي)).

مع ذلك، ينبغي للمرء ألّا يفهم أنّهُ من ((خلال رفض الروح الألمانية، و الطريقة التي يعيشون فيها، أنّهُ يستطيع العبور، إذا جاز التعبير، و دون جسر مباشرةً الضفاف إلى العالم الهنلستي، الذي غدا شيئاً غريباً بالنسبة لنا، و تفصلنا عن مسافة زمنية طويلة)). كان هدف نيتشه، على الأصح، ((إنّ يحدث نهضة و ولادة جديدة للإغريق و أمجادهم يجدد بواسطتها الروح الألمانية الحالية و يبث فيها الحياة)). مع الأخذ بعين الاعتبار، ((إنّ على المرء أولا بالطبع أنّ يعرف كيف يبحث عن الأماكن الخفية و السرّية للروح الألمانية على الرغم من صعوبة النظر في قرارة هذه الأمور الخفية عدا أن الكشف عنها عملية مؤلمة)).

فقط حينما تنضج كل التأملات و تصل إلى محطتها الأخيرة، و تصبح المعارف و الحقائق التي وصلتنا عن طريق الإغريق لحماً و دماً بالنسبة لنا، حينها يكون بوسعنا أنّ نعيد الأفكار و الأحاسيس الإغريقية في خطوطها العامة إلى الحياة و ننفخ في ظلالها و أطيافها الروح. بدافع حاسته التاريخية القوية، كان هدف نيتشه بوضوح هو أن يطابق بين فهمه التاريخي للعالم و إحياء و إعادة تجديد مصادر العصور القديمة لغرض رَأَبَ الصدع و تجاوز الفجوة و الاختلاف القائم بين الإغريق و الألمان. فمنذ كان شاباً يافعاً، كانت هناك أمنية تراوده و لا تفارق مخيلته هي أنّ لا يكون مجرد ((تلميذ مجتهد يغوص و يغرق في بحور العصور القديمة و تفاصيل تواريخها))، بل كان يفضل، بدلاً عن ذلك، أن يبحث عن أفكاره و نماذجه و مثله ((عن طريق النظر بشجاعة إلى عظمة العالم البدائي للإغريق القدماء، و مظاهر شجاعتهم، و نبلهم الإنساني)). يمكن للباحث ملاحظة، أنّ

نيتشه، في أواخر سنينهُ، كتب بوضوح على البواعث و النوابض الفكرية التي دفعته في البداية السير في مهمته تلك – أعني، ((أنّ نبل التفلسف الألماني و رفعته ينبت من تربة العصور الإغريقية القديمة، و أنّ أي ادِّعاء حول الأصالة و يقول بعكس ردم الصدع و إعادة أحياء العَلاقة الوطيدة بين الاثنين، يجافي تماما الحقيقة و الصواب، إلى جانب كان هدف الألمان الحقيقي يكمن في إعادة الحياة إلى الرابطة التي تعرضت للتمزق و الهدم مع الإغريق، بوصفهم النموذج الأكثر تطورا و رقيا و سمواً حتى عصرنا الحالي)).

الدلالة و المعنى الحيوي للوعي التاريخي

كان نيتشه متأثرا بعمق في حقيقة أنّ طبيعة الإنسان، خلافاً إلى كافة الكائنات و الوحوش الأخرى، هي نتاج التاريخ – أعني، إنّهُ نتاج التراث غير الواعي و الذاكرة الواعية للإنسان. دون التاريخ، في استطالات المجال الحيوي الذي يخصه، يتوقف الإنسان أن يكون إنساناً. فهو يبلغ كل خطوة في الحاضر بواسطة السيطرة على الماضي – في حين يحاول أنّ يدفع نفسه بعيداً، و يضع مسافة بينه و بين الماضي، حيت يتعلق الأمر بمعرفة ما إذا كان هناك مستقبل. إذنْ ، بينَ نيتشه، أنّهُ يحتاج التاريخ كي يستفاد و ينتفع من النماذج العظيمة فيه عن الإنسان – علاوة على أن يستمد منه الشجاعة و يستلهم الحافز و السبب في نشاطه و فعاليته الحاضرة، و السمو و الارتفاع بطبيعته، و التماس العزاء من حالة اليأس و القنوط (بواسطة أكثر اللحظات التاريخية أهمية) – كان نيتشه يحتاج التاريخ كي يتعرف إلى حقيقة أصله كفرد، و كان يعشق التاريخ و يحبه حباً جماً (و لاسيَّما تاريخ العصور القديمة)؛ و كان يحتاج التاريخ كي يهزم، بواسطة الحوافز و النوابض الفكرية المنتجة لوجوده الحاضر، الوجود البائس (بواسطة عدة التاريخ النقدي).

يحول العلم التاريخي، عند نيتشه، الذاكرة التاريخية إلى معرفة. أصبح الأخير مطلعا على أهمية التاريخ في عصر يفتخر فيه المرء في أن يكون فريداً و استثنائيّاً و أصيلاً تاريخياً. و كان بمنزلة الفيلسوف الأول بلا منازع الذي أخضع العلم التاريخي إلى السّؤال و الفحص و التحليل و التقصي الفلسفي.

الأخطاء الجوهرية في العلم التاريخي. — ليس العلم التاريخي معرفة ذات صَلاحِيَة أبديّة شاملة تقوم على صيغ جاهزة مكتملة و حالات ثابتة غير متغيرة. بل أنّ التاريخ (*Historie*)، كمعرفة تتغير مع التاريخ (*Geschichte*)، يُفهم كسلسة للأحداث التاريخية ضمن العالم. لا شيء في الماضي يموت و يمضي بعيداً عنا بلا تغير. كلّ شيء ينبثق من يَنبوع حقيقي أصيل يظل يعيش خلف أو ما بعد الحاضر الجديد و يعاني التحولات التي لا يمكن التنبأ بها و السيطرة عليها.التاريخ دائماً منسي – و هو بالمناسبة من المطمورات – و لكن دائماً يعيد أحياء نفسه، دائماً يتم اكتشافه، بعد أن يتم معرفته لفترة قصيرة، كما يزودنا دائماً بالبواعث و النوابض الفكرية التي كُرسَّت و ترسخت الآراء فيها بأنّها عديمة الأهمية و الدلالة. فمع القوة الحيوية الفياضة الفعالة الإبداعية، التي يتوفر عليها التاريخ الحقيقي، ليس بوسعنا إطلاقاً أنّ نعرف يقيناً ما الذي يحدث في الواقع حقاً. يعتمد الماضي على طبيعة الموجودات الحية في أيّ وقت معطى؛ تتجذر البواعث و النوابض الإنسانية السِرّية في الطبيعة التي تجعل التاريخ مصدر اهتمام لنا: قوة الدافع، المعيار، المثال و المثال-المضاد. لهذا السبب، من جهة، لدينا التاريخ الحقيقي، الذي لا يمكن أنّ يتحول إلى مادة معرفية علمية بالمعنى الصارم و الدقيق؛ بينما، من جهة أخرى، لا يمكن للتاريخ أن يحافظ على حقيقته دون الفحص و الكشف و التحليل الدقيق. مع ذلك، يحتاج الفحص و الكشف و التحليل الدقيق إلى تطبيق مادة علمية، فرضيات، و كلّ العوامل التي يحتاجها الإنسان كي يفهم (*Verstand*) التاريخ و يميزه، و يكون مجبرا على قَبُولها و تبنيها كشيء واقعي يتطابق و يتماثل مع ما كان يقصده. في الضِدّ من ذلك و على عكسه، تستخدم الذاكرة التاريخية (die geschichtliche Erinnerung)، مع فهم متكامل إلى هذه الوقائع المادية، العين التاريخية الثاقبة – التي تنظف الضمير كما يطهر شعاع نور الماء الآسن– للموجود الذي يتجاوز مداها الفهم و قادرة على تحقيق ذاتها بواسطة الذاكرة التي تجعل الأشياء ممكنة.

و الأهم، أنّ المعرفة الكُلّية و الشاملة للماضي أمر مستحيل، ليس لأن المادة التاريخية كبيرة و لا يمكن نقلها أو أنّها وصلتنا بصيغة منقوصة لا تلبي الطموح – و لكن بسبب الإمكانية اللامحدودة لكلّ إنسان يمكن أنّ يكون عارفاً و مدركاً و يفهم فقط بواسطة الذاكرة التي تولد و تخلق نفسها بواسطة عالمها الخاص بها. كي تعرف الماضي، التي تغوص جذريا فيه بعمق، هو أن لا تتطابق و تتماهى معه، و لا حتى أنّ تفكر في اختراقه و النفاذ إلى أعماقه. في الواقع، أيّ معرفة كُلّية شاملة مفترضة للماضي تقوض محاولة الاستيلاء على الذاكرة بواسطة مظاهر علمية و

وجودية زائفة خاطئة للمعرفة. كي يتغلب على هذه المشكلة، يطلب نيتشه من الحياة المعاصرة – أعني، غير التاريخية، المساعدة و العون. في القيام بهذه الخطوة، مع هذا، يبدو أنّ نيتشه أخفق في ملاحظة الفرق، الذي لا يلبث أن يتسع هنا، بين الوجود غير-التاريخي، و حياديته و نزاهته الوحشية، الموجودة عند الحيوان، المستمدة من الجهل و النسيان و ضياع الذاكرة، و الوجود التاريخي المختلف الذي هو الإنسان بحق – أعني، الوجود الأصيل في الحاضر كذاكرة، و المصدر الحقيقي للرؤية التاريخية.

لم يُبدِ نيتشه، الذي كان محتماً عليه أنّ يكون صيرورة و معارضة للغايات، غيظه و امتعاضه، و ينفس عنه، ضِدّ المنهج العلمي أو الذاكرة التاريخية – بل كان موجها بالأحرى ضِدّ أولئك المؤرخين، الغائب عنهم الذهن التاريخي، الذين يدعون أنّهم يستخدمون مناهج العلم المجرد و يدعون أيضاً معرفة أشياء كثيرة ليس لهم معرفة بها أو يمتلكوها إطلاقاً. هذا الخلل واضح و يمكن ملاحظته بواسطة كل عمليات التفكير الذي يقومون بها. على سبيل المثال، حينما يصرون على أنّ الضرورة، الذي لا تترك أيّ مجال للصدفة، هي التي تسيطر و تضبط إيقاع سير الحوادث، و حينما يواجهون الضرورة تجدهم يرفضون بل حتى ينكرون السّؤال ((الأساسي)) الآتي بالنسبة لنيتشه و المتعلق بكيفية اكتساب المعرفة التاريخية العميقة: ((ما الذي سينتج حين يحدث هذا أو ذلك الشيء؟)) مجد النجاح، الذين يسعون إليه هؤلاء المدعون الكبار، يثير فيهم روح ((التفاؤل التاريخي)) الزائف، و يساهم في إخفاقهم في فهم ((كم هو وحشي و عديم الإحساس و أحمق لا معنى له التاريخ هو)). بالضِدّ من أولئك، يصرخ نيتشه بأعلى صوت و بإحساس مؤلم: ((كلّ شيء تم قمعه بواسطة الإرادة الناجحة سوف يثور و يتمرد لا محالة)). هؤلاء المؤرخون، و في نزعاتهم الاستحواذية على العلم، ينتجون التاريخ و يصنعوه بطريقة تعبر عن ((سخرية و هزء المنتصرين و موقفهم الذليل الخانع في مواجهة الوقائع)).

تأثير الحياة المدمر على العلم التاريخي —— إنّ المبدأ الخاطئ، الذي يؤدي وظيفة الأساسّ لكلّ التاريخ العلمي، ليس مسألة غير منطقية. كان نيتشه مسحوقا و مقهورا بواقعة أنّ اكتشاف حقيقة التاريخ يمكن أن تحطم الإنسان. في نصّه الفلسفي، ((فيما يتعلق بتوخي الفائدة و عدم الفائدة لتاريخ الحياة))، الذي نشره في فترة شبابه، توصل نيتشه إلى قناعة مفادها أنّ ((فائض)) التاريخ يمكن أنّ يتحول إلى شر عظيم إذا لن نجيد التعامل معه بحرفية. في المقام الأول، حين تتطور الحاسة

التاريخية على هيئة قابلية انتحال، فإنّ كلّ طبيعة غريبة و شخصية استثنائيّة تصبح ضعيفة. و بعد أنّ تحول إلى شيء غير جوهري مهم و أساسيّ بسبب التكلف التاريخي الذي أحدثه المؤرخون و أضفوه عليه، غدا الوجود الداخلي الشخصي للإنسان مهموساً بمعرفة الماضي، و غير قادر على فهم الحاضر – غدا وجوده و واقعه الحي الملموس الحاضر منبوذاً و يدعو للنفور. و في المقام الثاني، هذه المقاربة هي نتاج تصور مفهومي الموضوعية و الإرادة العادلة. و النتيجة هي أنّ التاريخ يدمر الغرائز الإنسانية الاستثنائيّة و يستأصلها من شأفتها. فبواسطة الوعي المبتسر و غير الناضج، يعوق التاريخ نُضْج بَذْرَة الحياة كلها. يعتقد المؤرخون أنّ الإنسانية وصلت أخيراً إلى درجة النضج الذي ينتج عنه طبيعيا بداية مرحلة الانحطاط و التفسخ، و في النهاية لا يخلف ورائه إلاّ الوعي الساخر و العبث و اللا أهمية و انحلال و اضمحلال كلّ شيء. خلال ذلك، يطور الإنسان معرفة العظمة و لكن دون أن يكون لها أيّ قدرة لتبنيها (التاريخ كذاكرة)؛ و يحاول أن يدرس الماضي فقط بوصفه ماضي و لا يحترمه (التاريخ القديم)؛ و يدين و يشجب كليًّا ما يحدث دون سبب حقيقي و فقط في طريقة ضارة (التاريخ النقدي).

و لكن السّؤال الإشكالي الجدير بالطرح هو: ما معنى ((الفائض)) في التاريخ؟ قبل الرد على هذا السّؤال يجب أنّ نعرف أنّ إلى جانب الذاكرة، التي بموجبها يتميز الإنسان و يختلف عن الحيوان، يحتاج الإنسان طبقاً إلى نيتشه أيضاً النسيان – الذي ليس كناية عن طاقة راكدة و حسب كما يعتقد أصحاب العقول السطحية الذين يشكون من البلادة و البلبلة في آن واحد؛ بل هو أميل إلى أن يكون قدرة فاعلة، ملكة عرقلة و تعطيل بالمعنى الحقيقي للكلمة – الملكة التي يشترك فيها مع الحيوان. فلكي يتحمل تبعات الذاكرة التاريخية دون أن يتحطم بسببها، يخلق بالمرء أنّ يقوم بتغيرها و تكيفها و جعلها ملائمة كي يتحملها. ((القوة البلاستيكية)) المخترعة بواسطة المؤرخين بوسعها أنّ تحدد هدف التاريخ و استيعابه دون كارثة. إنّ قساوة التاريخ و فظاعته و وحشيته يمكن أن يتم تحملها بواسطة درجة القوة التي تتوفر عليها الشخصية – أعني، قوة الشخصية التي تشرع في المهمة.

يطلق نيتشه على قوتي الذاكرة و النسيان، الذي لم يصبح هذا المعنى على ما معروف عليه اليوم إلا بعد تحولات و تحويرات كثيرة في منشئها الأصلي، القوة التاريخية و القوة اللاتاريخية في الإنسان بوصفه حيواناً فلسفياً بطريقة غريزية للوصول إلى أحسن الأحوال. و بما أنّ الإنسان يحتاج

إلى القوتين معا، فإنّهُ يعيش دائماً في حالة تناقض، و يعلن أنّ كليهما أساسي طبقاً للسياق الذي يرد فيه.

في مناسبات عدّة، و في ظل غياب المصادر الأساسية، أعلنَ نيتشه و بصراحة رفضه للتاريخ طبقاً للفهم المتعارف عليه. فهو يعدّ ((مهمة أو مشكلة علم التاريخ محلولة)) ((حين يتم شجب و إدانة الدورة المتماسكة لمحاولات الماضي)). يصبح علم التاريخ، بكل الثورات الفكرية التي اشتهر بها، حينها شيئاً سطحياً و غير ضروري زائد. ((و بدلاً عنه يجب أنّ نبحث عن علم يتعامل مع المستقبل)).

التاريخية الصادقة والحقيقية (*Geschichtlichkeit*). — مع أنّ كل الأقوال السالبة التي صرح نيتشه بها فيما يتعلق بالتاريخ سابقاً، إلاّ أن مقارباته الإيجابيّة نحو التاريخ، في استطالات المجال الحيوي الذي يخصه، ظلت، هي السائدة و المسيطرة على أطروحاته الرئيسية. فهو يقدم لنا بحرفية عالية إمكانية الكشف عن المعنى التاريخي للعصر الحاضر، الذي يعتقد أنه يزودنا بقدرة الذَّهاب خلف و ما وراء أشكال الثقافات الثابتة و غير المتغيرة كي نعثر على الوجود الجديد بواسطة الدراسة المقارنة للثقافات المختلفة. انطلاقا من وجهة النظر هذه، يمكن لنيتشه أن يثني على عصرنا الحالي باعتباره نتاج عوامل معقدة و غنية للبحث و الكشف و التحليل مقارنة بالعصور الأخرى. حين نتأمل ونطيل النظر في كل الماضي، نتمتع حقاً في منجز كل الثقافات...و نتغذى على ثمار كل العصور ذات المناشئ الراقية و الدَّماء النبيلة... في حين تستطيع الثقافات السابقة أن تقدم نفسها للأجيال اللاحقة و لا شيء أكثر من ذلك. و لكن مثل هذه ((المتعة)) هي ليست مجرد تأمل سالب، بل تدر منافع لا حصر لها علينا – بل وأكثر من ذلك متاح لنا الآن: ((المرء الذي يشعر أنّ كل التاريخ الإنساني– و كانّه تاريخه – يشعر أيضاً، بواسطة التعميمات الهائلة، بحزن و غم و كآبة و مرارة و كارثة مأساة البطل في أمسية معركة غير محسومة النتائج بعد لا تخلف إلاّ جسد مثخن بالجراح و أصدقاء صرعى من حوله. لكن هذا البطل يتحمل هذا الحزن و الغم و الكآبة و المرارة و الكارثة بشجاعة قل مثيلها – يسير و أمامه و خلفه أفق غني يمتد لأكثر من آلاف الأعوام هو الوارث الوحيد و الشرعي له، فكشخص ينتابه شعور النبل الأكثر نبلا من كل النبلاء القدماء و في نفس الوقت يمثل أول سلالة النبالة الجديدة، يمنحه هذا الإحساس حقاً شعوراً بالسعادة قل نظيره و

غير معرف بعد... هذا الشعور المفاجئ الذي يضرب الإنسان كالصاعقة يُدّعى بالمعنى الكامل – الإنسانية!)).

يثني نيتشه على المحاولات الذي تريد فهم تاريخ الحياة والكون و تذهب بعيداً خلف و ما وراء محاولات فهم الإنسان إلى مفهوم اللاتناهي: ((في عملية صراعنا من أجل معرفة التطور التاريخي بمجمله، و الذي، و أول مرة، ينجح في تحطيم الجدران القديمة الفاصلة بين الإنسان و الحيوان، و الأخلاق و الطبيعة))، بدأنا أخيراً ((نميز و نتعرف إلى طبيعة الصراع الذي نخوضه من أجل عبقرية و نبوغ الإنسانية في المستقبل ضمن الكلّ. إنّ تصور التاريخ كليًّا يعد جزء من الوعي-الذاتي الكوني)).

مع أنّ كشفه للنتائج المدمرة للعزلة الذاتية-النفسية للوعي التاريخي – و مع أنّ وجهة نظره التي ترى أحيانا الماضي فقط كسلسلة متعاقبة و متوالية لا أكثر، نجد أنّ نيتشه كان ملتزماً بطريقة متحمسة بالتاريخ، و كان يمثل له جوهر و نواة كل تحدياته و انتقاداته و مقارباته الفريدة. يتحدث نيتشه بعبقرية صادمة عن إمكانية فقدان الماضي و ضياعه و خرابه: ((أليس لديك ولع في الماضي؟ ألا ترى، كيف هجرانه يعتمد و يعول على... الرحمة، الروح، عدالة كل نشوء و تولد؟ أليس هناك لحظات يظهر فيها لنا وحشاً عظيماً يجبرننا على إنكار وجوده تماماً، حيث يجعل من أذاننا طرشاء وصماء لما يقوله – بل حتى يمنحنا أحيانا السوط الذي نجلد فيه الماضي و نعامله معاملة سيئة. بيد أن زرادشت لا يريد أن يضيع أو يفقد أيّ نوع من أنواع الماضي أو يرمي به إلى المياه الآسنة)).

بالنسبة لنيتشه، الإعماق السرية للماضي تمثل المصدر الحقيقي للمستقبل. ((نخصب الماضي و نلقحه كي يولد لنا المستقبل – دع هذه المهمة تكون الحاضر بالنسبة لي)).

العصر الحاضر

إذا كان الماضي مازال مختبأ و ينتظر أن يتم تفتيش ادراجه و إيقاظ إمكانيته السامية و الرفيعة والكشف عنها، فإنّ الحاضر يعني نداء للقبض على ما الذي تقدمه اللحظة الراهنة و فهمها.

انطلاقا من مهمة وعي الحاضر يتصور نيتشه الماضي و يفهم المستقبل. كان الأخير يريد أنّ يعرف فعلاً ما الذي يحصل الآن في الحاضر.

صورة عصره. — حين كان نيتشه شاباً يافعاً كان أكثر ما يخيفه، و يسبب له الفزع و الرعب، هو صورة عصره. لقد اكتشف أعراض استئصال الثقافة من جذورها بلا رحمة: ((لقد تراجعت مياه الأَديان – و التي هي في نهاية المطاف كناية عن أنظمة من الفظاعة – و انحسرت و خلفت ورائها مستنقعات آسنة و بركاً ضحلة تزكم رائحتها الأنوف. و بدأت الأمم تنفصل عن بعضها البعض و تناصب أحدهما الأخرى العداء في نمط و طراز وحشي قل نظيره. ...لقد قام العلم بحلّ و التخلص من كل روابط الإيمان التقليدي القوية و الصارمة الذي لا تشوبه شائبة... غدا كل شيء يعمل على تعزيز و الإعلاء من شأن البربرية القادمة... من المؤكد أنّ القوة هي الحاضر – و هذه في الواقع قوة هائلة، لكنها برية و وحشية، بدائية، و هي تماما قاسية و بلا رحمة... كلّ شيء على وجه هذه الأرض محدد بواسطة قُوَى الشر الخشنة – بما أنّ الشر استمر كل هذه المدة فيمكن أن يستمر إلى مدة أطول– بواسطة الأنانية – الأنانيات الجمعية هي أكبر مهيئ للسيادة الفردية؛ و وظيفة النبلاء هي التي ترث هذا التهذيب – المقيت لهؤلاء المنغمسين بحمية و نشاطات فضولية في البحث و بواسطة طموحات العسكرين الطغاة ذوي البزات الأنيقة. يكشف وجود الإنسان الحديث، الذي لا يجيد فن الإصغاء، النقاب و يبوح عن صفتي الفقر و الاستهلاك الذي لا يوصف و حتى لا يصح ذكره، مع أنّ وجود ((التنوع الكبير الذي لا يوصف الذي تم استعارته و ورثناه من الثقافات السابقة لتنوير الإنسان و تلطيفه)). معرفة الثقافة كانت طبقاً لنيتشه، هي البديل عن الثقافة. في ((حياة الإنسان الداخلية، في العصر الحاضر، يسود الضعف و العجز ذات المناطق الرمادية – الكذبة التي تحول الضعف إلى جدارة و الجُبُن إلى حكمة – النخر و القضم، عدم الرضا، السأم الأكثر مللاً، و البؤس الكاذب)). ... ((لا شيء يقف على ساقيه بثبات مع الإيمان الصُّلْب بذاته...كلّ شيء في طريقنا زلق و خطر، و زد على ذلك، أنّ صلابة الجليد البارد التي مازالت تساندنا و تقدم لنا العون بدأت بالذوبان سريعاً: قريباً، لم يعد بمقدور و بوسع أيّ أحد المشي في الطريق الذي نمشي عليه الآن)).

نيتشه لديه بعض الأشياء تقف في صف الحاضر يريد أن يقولها، مع أنّ الأخير بلاشك بالعادة يؤكد غايته و هدفه: ((نحن نسبق الإغريق في إنارة العالم بواسطة التاريخ الطبيعي و

الإنساني، و معرفتنا أعظم بكثير من معرفتهم، و أحكامنا أكثر تواضعا و عدالة من أحكامهم. زد على ذلك، و حسبي أن أضيف، معنا تسود الإنسانية الأكثر لطفاً... في محصلة التحليل النهائي، نحن نفضل أنّ نعيش في عصرنا الحالي على أنّ نعيش في عصر آخر – و هذا الأمر يعد ركيزة أساسية لنجاح مهمة العلم و ثقته بنفسه، فضلاً على ذلك، لم يتوفر لأيّ جيل سابق مثل كم المعلومات و المصادر الواردة في المراجع و المعارف و المتع المتوفر لنا إطلاقاً.... و لكن مع كل هذا الحجم الكبير من (الحرية) تكون الحياة، بوصفها توافقا بين الحالات الداخلية و الخارجية، جيدة فقط حين نتمنى أن نفهم الحدث لا أن نشارك فيه – أيّ استخدام الذبابة الحديثة كمرهم... و بذلك، ينبثق خطر أنّ معرفتنا سوف تنتقم منا، كما انتقم الجهل، و عبر عن نفسه، خلال العصور الوسيطة...)).

فحص و تحليل دقيق لأصل تحولات العالم الضخمة و الهائلة يكشف النقاب عن ظاهرة ملموسة – بمعنى أخر يكشف عن الآلة أو الماكنة التي تمثل القدر: إنّها أداة تغير العالم الذي نعيش فيه؛ حيث نصبح، بواسطتها و عبرها، غير مبالين أو مكترثين و محايدين نحو الموضوعات التي نتعاطى و نتعامل معها و بلا روح. لأن هذه الآلة ((لا تابه بالعواطف الإنسانية، و تزيل بل تطمس البعد الإنساني في تعاطيها و تعاملها مع الأشياء الخارجية، كما إنها تزيل مزاياها و عيوبها الشخصية – و بذلك ننتهي إلى أن لا تتوفر على أيّ صفات أو بعد إنساني. في العصور القديمة، كانت الأدوات المنزلية و الملابس رمز للاحترام و التقدير المتبادل و التضامن و التكافل و التماسك بين الناس – أي رمز لكلّما هو شخصي، أما الآن فإنّنا نعيش فقط في حالة من العبودية المجهولة العامة)) التي تلغي كلّما هو شخصي. لقد أثرت هذه الآلة بشكل فعال في أحداث تغيرات كبيرة في حياة الإنسان بواسطة استخدام التقنيات و الأساليب الفنّية التي تتطلبها. إنها ((لا تدفع الحوافز و البواعث الإنسانية إلى الأمام بل تعمل على إعاقتها... كما أنّها تسبب انشغال البال و الرتابة)). هذه الآله تترك تأثيرها و سيطرتها ليس على حياة الفرد فحسب بل حتى تتعدى على حياة المجتمع بمجملها. إنّها ((تقدم نماذج لتنظيم حياة الناس في المجتمع، بوصفها تتابع دائم لعدد من ظاهرات التذليل و الإخضاع المتفاوتة في مدى عنفها مدى استقلالية الواحدة منها عن الأخر، و لا يقتصر الأمر على ذلك بل يتعداه ليشمل وضع استراتيجيات الحروب – التي نعثر على تاريخها في الصراعات و الانتصارات و المصالحات و الاندماجات العرقية و انعكاسها في خضم أحساب الآلِهة و أنسابها و في أساطير المعارك و الانتصارات و المصالحات التي قامت بين هؤلاء الآلِهة. فهي لا تعلم المرء الاستقلال الذاتي. بل تحول الناس إلى تروس في آلة كبيرة، و كل فرد من الأفراد إلى

مجرد وسيلة و لُعْبَة)). بإيجاز، ((الصحافة، طرق سكك الحديد، و التلغراف كلها مقدمات لنتيجة أمتد العمل فيها، لهذه الآله، لمئات السنين لا يجرؤ أيّ حد للوصول إليها أو حتى التحدث عنها)).

زيادةً على ذلك، ينظر نيتشه، الذي كان يؤكد ما فائدة منع ما لا نستطيع منع، إلى القطيع بوصفه هو الذي يحدد ملامح و خطوات عصره – بهذا الشأن يقول: ((إنّ العصر الحالي يعود إلى فئة من الرعاع و الجماهير الغوغاء)). ((تمثل العامة أو إنسان العامة الكذاب تحديداً خطراً حقيقياً على عصرنا)). فهو لم يعد قادراً على تمثل و استيعاب المعرفة التي ورثها من العصور القديمة. إنّ ((نمط الحياة الحديثة ذات الوجوه المتعددة للسرعة يطفئ الإنسان. في عالمنا هذا، الكلّ يتحدث لكن لا أحد يصغي لأيّ شيء)). كل واحد غارق في المياه الآسنة و لا أحد يجرؤ على العوم في المياه العميقة النقية بتاتا. ((كل إمرئٍ يقول ما يعتقد فيه أو ما يقوله بالعادة)) – ((كلّ شيء من حولك يخدعك)).

إنّ محاولة القضاء على شعور الفراغ، الذي تخلفه الحياة، الذي نعاني من جَراءِ السأم و القنوط الذي يفتك بنا يفضي منطقيا إلى البحث عن مصدر التسمم: ((يبدو أن هذا العصر متخصص في إنتاج السم و بكل أنواعه. نحن نعرف و نلاحظ أنواع السموم السائدة التي نتذوقها في الموسيقى، أو العبادات العمياء التي تمارسها أرجل الناس و أعضائهم الأخرى – و كذلك في الحوادث اليومية. نلاحظ التسمم في مظاهر التراجيديا – أعني، رعب مشهد التدمير اليومي؛ نلاحظ هذا التسمم و نعرفه في العمل الذي لا معنى فيه و لا حس)). حتى ((المعتقدات الصوفية – هذا الرعب و الهلع الشديد من الحواس بل حتى من العقل هذا التخوف من السعادة و الجمال – لم تخلُ من أثار هذا التسمم بوصفها نتاج حقد شرس على العلم و الفكر و الشهوة أو لعنة على الحس و الفكرة تركزت في زفرة حقد واحدة – بل حتى شعائر التضحية بالذات التي تمارسها))، غدت هي نفسها، مع بعض التحويرات، مظهراً من مظاهر هذا التسمم.

زد على ذلك، السمة المِميزة و الأساسيّة هي أنّ العلم، و هذه حقيقة، تجرد تماما من جوهره، و يحاول جاهداً أن يبحث عن إنجاز و إكمال هذا التسمم في صيغ دراماتيكية فارغة خالية من المعنى. حتى ما هو مسرحي الآن يأخذ الناس بعيداً عن واقعهم الحالي و كأنّه شيء حقيقي، و كل واحد غدا أكثر فاكثر يفتش له عن دور في هذا المسرح كي يلعبه بدلاً من أن يعيش بشكل حقيقي و واقعي وصادق. يحاول نيتشه أنّ يجيب عن السّؤال الآتي: ما الذي يحدث اليوم ((حينما يرتعش كل

شيء و الأرض تهتز برّمتها و تشعر بالقشعريرة و تهز كتفيها من الضجر))؟ يحاول نيتشه أنّ يعطي المضمون العميق، الوحدة و الصوت الواحد للكل التحذيرات التي يطلقها بخصوص هذا العصر: اللا إيمان في هذا العصر أصبح واقع قائم و ملموس، و هو الحقيقة السائدة بلا منازع.غدت صفة اللا إيمان الحقيقة الأساسية الواضحة و السائدة:

((لقد مات الله)) ـــ إنّ الصفة المعرفية العميقة السائدة في كتابات نيتشه الأخيرة، التي لا تقول الحقيقة فحسب، بل تفتح عَلاقة مع الحقيقة، أعلنت نفسها بشكل مبكر و دون لغط – حتى قبل عام (1872): ((أما أن نقتل هذا الدِين أو ندعه يقتلنا. أنا أؤمن بالمثل الألماني القديم الذي يقول: كل الآلِهة – و تصورها الذي لا يودي بالضرورة إلى هذا الإسفاف في التخيل الذي لم نتمكن من التّوانِي للحظة واحدة عن إعادة بنائه– ينبغي أنّ تموت)). في نفس الوقت، يقول نيتشه بصدد عصره الآتي: ((لقد تشظت الإرادة الخابية (موت الله الذي يعمق من شعور العدمية التي تستخلص منها قيمنا السائدة أخر استنتاجاتها) و نُثّر رمادها على رؤوس الأفراد – كانت تسعى دائماً نحو تحقيق الوحدة الضائعة المفقودة، غايتها دائماً مزيد من الانحطاط و التدهور)). في نهاية سبعينات القرن التاسع عشر، كتب نيتشه: ((فقدان الإيمان و ضياعه غدا أمراً مألوفاً و سيئ السمعة... و يتبعه الآن بالضرورة توقف و انقطاع الخوف تماما من السلطة و فقدان الثقة)). لا شيء يبقى على ما هو عليه، ((و لكن يعيش اللحظة فقط من أجل أكثر الأهداف رداءة ...)) تتكرر فكرة موت الله في أشكال متعددة و في نسخ مختلفة الواحدة منها يتبع الآخر. يعبر نيتشه، في مرحلة من مراحل تحول الفكرة التي تتحول إلى شعار ينضوي النبلاء تحته، عن محاكاة تهكمية ساخرة يشبه فيها الناس كأسْرى و سجناء و يسوع ابْن السجان الذي مات للتو. يقول الابن: ((عليّ أن أحّرر كل أولئك الذين يؤمنون بي، فأبي في السماء، بالتأكيد، مازال حياً)). و في مناسبة أخرى، يتحدث نيتشه بشكل مباشر، و بعاطفة مشبوبة، عن ((المجنون)) الذي يبحث عن الله مع فانوس أو مشكاة في الصباح المنير الباكر في السوق العامة. أحد المارة الضاحكين يسأله ((إلى أين ذهب إلهك يا تُرى؟... ينبغي أنّ أقول لك الأمر الآتي: لقد قتلناه كلانا، أنا و أنت فعلنا ذلك... و لكن كيف فعلنا ذلك؟ هل كنا فعلا قادرين على شرب ماء المحيط المالح؟... إلى أين نحن ذاهبين؟... أليس نحن ضالين كما لو أننا تائهون في بحر العدم اللامتناهي؟... كيف علينا أنّ نعّزي أنفسنا نحن القتلة، الذين نسكن شواطئ القهر و القتل – القتلة مع سبق الإصرار و الترصد؟ العمل العظيم لن يتم إنجازه، و بصرف النظر عن مَنْ يأتي من بعدنا، فهو لامحالة يعود إلى تاريخ سامي أرفع من كل التواريخ التي مرت علينا

حتى الآن)). حين نلتزم جميعنا الصمت و نبدو حائرين، يرمي هذا الرجل المجنون بمشكاته على الأرض و يقول: ((لقد جئت هنا مبكراً قبل الأوان...؛ إنّهُ ليس زمني، مازال الوقت لم يحن بعد. مازالت الحادثة الوحشية تسير في طريقها إلينا و لم تصل بعد، مازالت أخبارها لم تتراءَ على مسامع الناس و ترقى إليها بعد.... الفعل مازال بعيداً عنهم أبعد من أكثر النجوم بعدا عنا – و لكن شرعوا بها مع ذلك)).

لم يقل نيتشه، ((الله غير موجود)) أو ((أني لا أومن في الله))، لكنه قال ((إنّ الله قد مات)) – أعلن عن النذر المستطيرة التي عبقت بها الأجواء من تهدية بخراب و تقويض القديم. لقد كان نيتشه متيقِّناً من هذا و لم يراوده الشك في حقيقة الواقع الحالي حين تأمل و أطال النظر بعمق و استبصار في عصره و في طبيعته الشخصية.

فيما يتعلق بالإجابة عن سّؤال لماذا مات الله؟ يتحدث نيتشه، الذي يخضع الثراء الداخلي فيه الأشياء الخارجية و يستولي عليها، عن طريق ضرب الأمثال: ((لقد مات الله بسبب شفقته على الناس)). و لكن حين يموت الله، فإنّهُ دائماً يموت ميتات عدّة ومختلفة. ((و لكن لماذا ذهب الله ضحية جريمة قتل؟)) لقد نظر إلى أعماق الإنسان و الهاوية التي تسكنه، و القبح و الشعور بالعار و الذنب الذي يعتريه، الإنسان الذي يعذب نفسه بسبب الضمير القلق المتلذذ بمرضه، و تواضعه الذي لا يعرف أيّ شيء من الاعتدال و عدم المغالاة فاكتشفَ ((أنّ...الإنسان المدجن الذي لا يجدي في مسكنته و عتهه شيئاً، علة الشقاء و الألم الذي يعتبر نفسه بمثابة الغاية و التعبير النهائي، لأي قُوَى على تحمل الشهادة القاسية التي تدلي بها الحياة بأمانة)).

أصل العدمية الأوروبية. —— و بهذا، فإنّ السّؤال هو: لماذا مات الله؟ يمكن الإجابة عن هذا السّؤال في عدة طرق. ففي صيغته اللارمزية يظهر هذا السّؤال بوصفه بحثاً و استقصاء في الأصل التاريخي للعدمية المعاصرة. يعتقد نيتشه أنّ العدمية – و بالمناسبة الإنسان يفضل أن تكون له إرادة العدم على ألّا تكون له إرادة بالمرة – ترجع في جذورها إلى المسيحية —— ظهور الإله المسيحي، بما هو أرقى ما توصل إليه البشر من تعبير عما هو إلهي، و قد عمل أيضاً على ظهور أقصى حدّ من الشعور بالواجب على الأرض – و إلى تأويلاتها (أيّ، تأويلاتها الأخلاقية) للعالم. لأن، في المحصلة النهائية، ((لقد تطور معنى الحقيقة كثيرا للغاية بواسطة التأويل الأخلاقي للعالم، و أصبحت تثير الغثيان و الاشمئزاز بفعل الزَّيف و الكذب الذي تحتويه بواسطة التأويل الأخلاقي

المسيحي للعالم. لقد خلقت المسيحية تصور زائف للعالم، بفعل أطروحاتها الأخلاقية، لقد أصبح يمكن ملاحظة حجم الكذب بواسطة البواعث و الحوافز التي أوجدتها بذاتها. و نتيجة لذلك لم يعد هناك أيّ شيء صادق باقي. يعول وجود المسيحية – هناك ضرورة من طبيعة عليا تساعد باستمرار على نمو و أزدهار هذا الجنس العدائي تجاه الحياة – في كلّ ركائزها و قيمها، على خلق العالم الكاذب، و حينما يتم التأمل و إطالة النظر في الزَّيف بعمق فإنّهُ سرعان ما يتلاشى بالضرورة و يصبح كأنّهُ عدم لم يجربه الإنسان قطا)). لقد حان الوقت ((أنّ ندفع الضريبة الباهظة عن كوننا غدونا مسيحيين لأكثر من آلفي عام: لقد فقدنا ركائزنا الأساسيّة و قوانا المستقرة التي نعيش بواسطة و نحتفظ بأنفسنا أحياء بصورة سليمة، و للحظة نشعر بالضياع تماما... كلّ شيء زائف بكلّ معنى الكلمة)).

يعتقد نيتشه، من وجهة نظر أو زاوية منطقية، يكمن مرد نشوء العدمية نتيجة إلى الاعتقاد الخاطئ بالمقولات الكُلّية، التي يتيه المرء في متاهة نتائجها، مثل، المعنى و الكلّ – أيّ أنها تمتلك صَلاحِيَة كُلّية حين تطبق على العالم. إذا افترضنا خطأً أنّ هذا العالم له معنى شامل، حينها بما أنّ الإنسان الأمين يمكن أن يكتشف ذلك، فإنّ النتيجة ستكون الفراغ الذي يخلف خيبة أمل مخيفة – عذاب ((بلا فائدة و عبث)). ((هذا المعنى يمكن أن يكون النظام الأخلاقي للعالم، زيادة وتعاظم الحب...؛ الاقتراب و الدنو نحو الشرط الكلي للسعادة؛ أو التقدم صوب الحالة الكُلّية للعدم – مازال الهدف هو الحصول على المعنى. الصفة السائدة لكل هذه الأنواع من المفاهيم هو شيء ينبغي أن ينجز و الوصول إليه بواسطة العملية ذاتها؛ و قد أدراكنا الآن لا شيء تم إنجازه و الوصول إليه بواسطة تلك العملية))؛ تحتوي ((خيبة الأمل من الغرض والغاية – و هذه الغاية من العمومية بمكان، بحيث تبدو مصالح الوجود البشري خارج نطاقها محدودة، مسكينة، ضيقة الأفق – المفترضة للصيرورة)) على ((السبب الحقيقي الذي يقف وراء العدمية)). يظهر شعور العدمية ((حين يعتقد المرء أن الكلّ المنظم وفق معايير كُلّية أمر مفروغ منه و موجود فعلاً مع شعور عميق بالترابط و التماسك و الاعتماد المتبادل و توقف الشيء على الشيء الآخر، معتقدا أنّ رَفَاهيَة المرء و سعادته تتطلب منه أن يكون مخلصا لهذا الاعتقاد)) —— بيد أنه يكتشف ((أنّ كلّ شيء عام و كليّ بهذا المعنى هو مجرد محض خيال زائف و غير موجود!)) مرة أخرى، فإنّ النتيجة هي العدم في صيغة ضياع كلّ القيم: ((يتوقف الإنسان عن الإيمان التقليدي بقيمتهِ حينما يكتشف أنّه لا يوجد هناك أيّ كلّ ثمين لا متناهي يعمل بواسطتها و هو جزء منه)).

واحد فقط من هاتين المعرفتين العميقتين يتم الحصول عليه (لا تخدم الصيرورة أيّ هدف و لا يمكن السيطرة عليها بأيّ وحدة شاملة)، و الأخرى تهرب الصيرورة باتجاه شعور خيبة الأمل و تترك المرء فريسة له: ((إدانة و شجب عالم الصيرورة كوهم، و محاولة خلق عالم ثابت أخر ترسندالي يقع خلف أو ما وراء هذا العالم)). طبقاً إلى نيتشه، هذه هي الكذبة الكبيرة التي خرجت بها علينا الأفلاطونية-المسيحية، الانهيار الكبير الذي يسبب أو ينتج هاوية العدمية. الناس ((تقبل حقيقة الصيرورة على أنّها الحقيقة الوحيدة، ترفض أن تسير نحو الدروب السِرّية للوصول إلى عالم ما وراء هذا العالم، ترفض الذَّهاب نحو إله زائف – لكنها أيضاً لا تستطيع أن تحتمل هذا العالم، عالم الصيرورة، حتى حين ترفضه و تنكره)). و بذلك ننتهي إلى تنشأ العدمية حينما يكون وعينا في الوجود محدداً بشكل قاطع بواسطة التناقض بين العالم الماورائي الذي تم الإعلاء من شأنه و زيادة قيمته و تبجيله بالتفكير فقط، من جهة، و العالم الظاهري الواقعي الذي نعيش فيه و يُوِلّف حقيقتنا، من جهة أخرى. كي نكشف الزَّيف – الشكل المقدس للفجور: أنّنا لا نعترض على الفجور إلاّ بنسبة لمن لا حق له فيه، و لقد ذُمت الأهواء كلها تقريباً بسبب أولئك الذين لم يكونوا أقوياء كفاية ليغيّروا مجراها لمصلحتهم – علينا أنّ نواجهة المعضلة الآتية: ((علينا أما نتخلص من تبجيلاتنا السماوية الماورائية —— أو نتخلص من أنفسنا)). أيّ، أما علينا أنّ نرفض ((العالم الحقيقي)) بوصفه زائفاً، و بهذا تصبح كل القيم الذي تدافع عنه باطلة لا يمكن الدفاع عنها، أو أهجر حقيقتي و حينها لا استطيع مواصلة الحياة. و بهذا، ليس مهم مَنْ ساختار في هذا الوضع، فالعدمية ستسفر عن وجها و تظهر لنا في كل الأحوال أما بهيئة رفض و سلب للقيم أو رفض و سلب للحياة: ((العدمي هو الشخص الذي يقرر و يحسم أنّ العالم كما ينبغي أنّ يكون لا ينبغي أنّ يكون كما ينبغي أنّ يكون – و أنّ العالم كما ينبغي أن يكون هو مجرد كذبة و هو غير موجود: بناءً على ذلك، الوجود ليس له معنى...)).

في تأويل الأفلاطونية-المسيحية (*Weltanschauung*) – الذي يريد أن يكشف منطقيا عن الصفة المطلقة لصيغ المقولاتية (إنّ السبب وراء العدمية هو الإيمان بمقولات العقل) – يحاول نيتشه أنّ يقبض على العدمية المعاصرة تاريخيا. بيد أن عصره كان لا يعي تماماً ما يحدث له و لا يعرف كيف نشأ هذا الشعور بالعدمية. كان نيتشه مرتعبا من رؤية ما كان لا أحد يراه و يعرفه سواه و لا أحد يقلق بشأنه. الحدث ((كبير و جلل... حتى إلى درجة لا يسع المرء إطلاقاً أن يقول أنّهُ يعرفه – أو يقول أنّ لديه وعي عام لتضميناته ومستتبعاته و تفاصيله أو يدرك حجم الانهيار الذي

يمكن أنّ يسببه، حينما يتم تقويض الإيمان التقليدي، لأن هذه العدمية مبنية على هذا الإيمان... و هي نتيجة له)).

معنى هذه الأطروحات ـــ تدور أطروحات نيتشه الرئيسية، التي تعمل بموجب النصّ بما يقول و ينص عليه، النصّ لديه ليس سوى حقيقته الباطنة سوى روياه، حول نشوء العدمية، ((موت الله))، و حركة الإنسان نحو الثورة غير المسبوقة، و تمثل بالنسبة له حاجات ملحة. تمثل هذه الأطروحات تجربته لعصره – التَجْرِبة التي فهم بواسطتها مَنْ هو و مَنْ يكون؟ إنّها تزيل كلّ الوسائل السِلَسة و اللطيفة للراحة و الطمَأنينة في هذا العالم وتقدم نفسها استجابات مختلفة تبعا لطرائق تأويلها. على سبيل المثال، الشخص الذي يسمح لنفسه أن تُسحر جماليا بواسطة الروعة الدراماتيكية لهذه الأطروحات نفسه لا يفهم مغزى هذه الأطروحات. فهو سوف يستنتج منها المبدأ المحدد الآتي: ليس لله وجود، و الغرق في بحر الإلحاد – غير أن هذا ليس ما قصده نيتشه بالمرة. و لهذا السبب، ينبغي لنا أنّ نبحث، بطريقة نقدية، في معاني و مضامين و مدلولات هذه الأطروحات.

هذه الأطروحات لا تعبر، أو لا يتوقع لها أنّ تعبر، عن معرفة مسار الحوادث الإنسانية برّمته، لاسيَّما الأزمة الحالية بذاتها التي تعيشها الإنسانية. لأن القول التاريخي و الفلسفي الفاصل، فيما يتعلق بالمؤشر، الذي يخبرنا إلى أيّ طريق يسير العالم – القول الفاصل الذي يهيمن على التفكير التاريخي المتعلق بالإنسانية من القديس أوغسطين إلى هيغل، الذي بلغ بالعقلانية الغربية أعلى قممها، تقريبا بطبيعة الحال – لم يكن يحظى باهتمام نيتشه و ليس له مكان بتاتا في تفكيره.

رفض نيتشه التفسيرات التي قدمها الفلاسفة السابقين و اتباعهم، الذين صاروا في الحكايات و منذ سنين طويلة خرجوا من السباق، فيما يتعلق بتفسير العالم، و بالعمليات التي تجري فيه لأغراض تتعلّق بتوضيح و تبرير طبيعة عصرهم و بيان فعل الله وتأثيره في مسار التاريخ و استطالات المجال الحيوي الذي يخصه. كان ما انفكّ يرفض هذه التفسيرات و الأطروحات على الملّ و يسخر منها. و على عكس ذلك، يؤكد نيتشه أنّ ((الإنسانية، كليًّا، ليس لها هدف أو غرض)) – و إنّ ((الإنسان كنوع لا يعد وجوده تطوراً أو تقدماً بالمرة)).

إذا كنا نتحدث عن وجود هدف للإنسانية – أمِن الضروري أنّ يركز المرء عينيه على هدف إذا أراد أن يقود نفسه في الحياة – فإنّ هذا الهدف، طبقا إلى نيتشه، لا يظهر في النهاية، و لكنه

يظهر و يتجلى بالأحرى بواسطة ممثليها من الشخصيات الرفيعة و السامية. ((ليس للإنسانية أيّ هدف عدا صناعة الرجال العظام بجانب الأعمال العظيمة)). مازال ظهور الشخصيات الرفيعة و السامية، و هذا فقط من قبيل الصدفة، أقدم ما في العالم و إلى هذا الأصل النبيل أُرجِّعت كل الأشياء، و يعد حادث من حوادث الحظ و هي في المحصلة النهائية أيلة للذبول و الفساد.

إنّ مسار التاريخ الإنساني، بوصفه نص بأطروحاته و بياناته، مبهم و ملتبس. فهو ليس تقدماً تماماً و لا هو تراجعاً و انحساراً تماماً، و لكن كلا الحالين إذا جاز التعبير. كلّما يُعدّ و يُنظر إليه مستقبل جيد و واعد من زاوية هو أيضاً سيئ و محبط و رديء من زاوية أخرى: ((من السذاجة، بل حتى من الحماقة، الاعتقاد أنّ وعود المستقبل بالفجر السعيد الجديد للإنسانية السامية ستشمل و تحوي معها السمات العظيمة للعصور الماضية و الأيام الخوالي التي سبقتها)). ((ربما حتى عملية ولادة و انجاب العبقريات تقتصر على زمن وحقبة تاريخية معينة من تاريخ الإنسانية حصراً. و ربما سيقترب الإنسان... من هدفه الحقيقي في منتصف الطريق بدلاً من نهايته)). ((لا يهم إلى أيّ مرحلة عالية و متقدمة يمكن تصل الإنسانية إليها – فربما تكون في نهاية المطاف في مرتبة دنيا حتى من تلك التي كانت عليها باديء الأمر)).

تنتج النظرة، التي تقول أنّ كلاً من العمليات التي تجري في العالم و تاريخ الإنسانية بحد ذاته يشكلان المعنى الذي يسير باتجاه تحقيق هدفه نفسه، حالة من السلام داخل الإنسان و تثير الشعور بالأمان و الاطمئنان فيما يتعلق في أصوله الإلهية و السماوية و هدفه التاريخي النهائي. بالطبع، وقف نيتشه بالضِدّ من هذا التأويل عبر((شعوره الجديد: يقيننا الذي لا يرقي إليه الشك.... لماذا يجب علينا أنّ نستثني نجما صغيرا من هذا المشهد الأبديّ الكبير الرائع (للصيرورة)...؟)).

و لكن حتى السمة الكُلّية المتأصلة في هذا الشعور الأساسيّ لا تبقى على ما هي عليه بما أنّها سوف تدعي أن لقولها الصَلاحِيَة المطلقة فيما يتعلق بالكلّ. حينما يتم إنكار أصل الكلّ و وجود هدف للتاريخ، فإنّ شعور اليأس و التقويض سوف يعترينا و يظهر على الملأ. يصوغ نيتشه هذا الوضع على هيئة الإمكانية الآتية: ((نشعر أنّنا كبشر مبددون (مبددون ليس فقط كأفراد بل أيضاً كمجموع)، نلاحظ أمام أعيننا كيف يتبدد المرء الذي يتفتح كالزهر، و يُستّهلك بواسطة الطبيعة – لقد أسي تأويل مقولة الطبيعة ليتم البحث في العلل الغائية و في المقابل تم رفع الحياة و قوتها التي تمت تعليتها بشكل مفرط إلى مقام الوسيلة – هذا هو الشعور الكبير، شعور التبدد السائد و الضياع، الذي يطغي

على كل المشاعر و يهيمن عليها)). ((إذا نجح المرء في تثبيت هذا المعنى في الوعي الإنساني و سار عليه، فإنّه سوف يحطم هذا الوجود اللعين ويشتمه. حينما ندرك ذلك الشعور، و نسلم بأنّ الوجود خالي من المعنى و الغاية و الهدف، فإنّ هذا التصور سيفرض نفسه بقوة على سلوك الإنسان في هذا العالم و يترجم عمليا)).

أخيراً، أُجبِرَ نيتشه على أن يخوض هذه المعركة المفتوحة ضِدّ هذا الشعور و القيام بمحاولة ترجمة كل وجهات النظر الأخرى اللاحقة بها في كليّتها. يدرك نيتشه جيداً أننا و بسبب وجودنا داخل هذه العملية و ليس خارجها، فإنّنا نعجز عن الإبلاغ عنه و نقلها[60]. إذنْ ، ليس المعرفة المحددة لعصرنا، التي يجب أن تقبل كصَلاحِيَة كُلّية، هي بيت القصيد حين يكتب نيتشه و يعلن عن صيحته الشهيرة الآتية: ((لقد مات الله)). مثل هذا القول، الذي له صمته و فراغاته و زلاته و أعراضه و أصداه، ليس له معنى على الرغم من النبرة التأكيدية و الشحنة الصارمة التي يحتويها و يوظفها نيتشه هنا و في أماكن أخر من كتاباته بخصوصه. إنّ اعتبار هذه الأطروحة بمنزلة الإعلان عن الحقيقة بحد ذاته من شأنها أن يبسط و يسفه كثيرا المعنى الذي يقصده نيتشه، كما أنّهُ سوف يسيء إلى موقف نيتشه أو ((ما نعرفه حتى الآن)) و يجعله تافهاً و يطيحه إلى الحضيض بدل من أن يرفع من شأنه و يقوي من مواقعه المعترضة لما يقصده. يظهر قول نيتشه أعلاه درجة الشدّ و التوتر من خطر تحقق معناه كإمكانية تترجم على أرض الواقع، كما يعكس، كنداء الساعة الأخيرة، غموض و لا يقينية الدرب الذي سوف تسلكه الأشياء بعد ذلك. ربما لا يتحقق المضمون الفعلي لهذا القول إلاّ لأولئك الذين يؤمنون به بطريقة قطعية جازمة لا تحتمل اللبس. (ربما يكون نيتشه المغوي و المغري الذي يغرز بذور العدمية بواسطة هذا القول، لكنه يتفق و يتلائم مع نوع الإنسان الذي يخضع إلى هذا الإغراء و الإغواء). زد على ذلك و حسبي أن أضيف، ينبغي الإشارة أن هذا القول يبشر ببداية واقع إنساني جديد سامي و رفيع يقدم نفسه على هيئة درب جديد للتفكير يتضمن الارتقاء بالإنسان و بشأنه عالياً، أو ربما يؤدي لنا وظيفة الدافع الذي يحفز القيام بكل شيء بحزم و كذلك يوفر إمكانية رفض هذا القول و نقده و محاولة الدفع بأقصى المديات نحو الفكرة النقيض – أعني، أن الله ليس مَيْت أو لم يمت بعد.

لم يكن يراود الشك نيتشه بخصوص هذه الأفكار التي كانت تعيش معه. فهي لم تكن بمجملها تشكل معرفة – بل كانت موقفاً يحافظ على الشدّ و التوتر الفكري الهائل الذي لم يفارقه كمصدر

أساس و باعث فكري مهم له. ففي سن مبكرة، يسجل نيتشه الملاحظة الآتية: ((كل إمرئٍ يهاجم عصره، فإنّه بالضرورة يهاجم نفسه أولا: ما الذي يراه حقاً في هذه المحاولة أكثر من نفسه في هذا ؟)) و لاحقاً، يتحدث بطريقة لا تفارقها الدهشة: ((منذ عهد ليس بالبعيد، فقط اعترفت لنفسي أني حتى الآن مازلت شخصاً عدمياً تماماً: الطاقة التي أصرفها و استنفذها، النمط الراديكالي الذي انتهجه كعدمي يؤشر أنّي أخدع نفسي بخصوص الحقيقة الأساسيّة)). مع ذلك، لم يكن نيتشه عدميا إطلاقاً، ثم أن تراجيديته ليست ذات صبغة عدمية (إنّ تراجيدية نيتشه لا تتسق مع ما يطلبه العدمي). زد على ذلك، معرفته العميقة بخصوص أطروحة ((لقد مات الله)) – أصعب شيء هو توضيح الواضح – تفرض عليه مهمة شاقة و رهيبة و في غاية الصعوبة لا تمت بصلة مع العدمية.

هذه المهمة تتضمن على الأقّل الصراع ضِدّ الذي لم يعد وجوداً وهو الآن يبدو في طور الصيرورة و التكون – الصيرورة التي تمارس هيمنتها و سيطرتها على العالم: مهمة السلب الفعال والمنتج: على الرغم من الإعلان عن موت الله إلاّ أن ظله مازال يعيش بيننا: ((طبيعة الإنسان هي هي لا تتغير، نحتاج ربما إلى مجي الآلاف من السنين الكهفية حتى يسفر عن ظله. و نحن – نحن مازلنا لم نهزم أو نقهر حتى الآن ظله!)) طبقاً إلى نيتشه، هذه المهمة ليست باليسيرة و لا يمكن إنجازها بطبيعة الحال – فهو يقارنها مع التضحية الأخيرة بسلوك الوحشية الدينية: ذات مرة أنّ لم تخني الذاكرة، ضحى الإنسان بالبشر و دفع بهم كقرابين لإرضاء الله و استدرار عطفه؛ ولم يكتفِ بذلك بل تعدى الأمر كي يقدم أكثر غرائزه قوة و حيوية قرباناً إلى الله – لكنه اكتشف الآن ((إن ّالتضحية بالإله لا تنفع في شي و ليس لها جدوى – هذا السِرّ الممتلِئ بالمفارقات الوحشية القصوى – هذا الاكتشاف ألقى بظلاله على هذا الجيل الحالي و ظل يتطور حتى هذه اللحظة)). في هذه المسألة تكمن الإرادة الراديكالية للوجود الحقيقي، كما لو أنّها تعلن عن نفسها – إذا كان الله قد مات فلم يتبقَ أمامنا سوى أنّ نهزم أيضاً ظله – ظلاله و أطيافه إذا جاز التعبير.

و لكن في رفضه التسليم بأنّ العدم هو النتيجة النهائية، يمضي نيتشه، مع أنّ هناك الكثير الذين يناصبونه العداء، بقوة في مهمة تقويض العدمية و التخلص منها. يعدّ نيتشه فلسفته

اللاحقة كليًّا، و بضمنها ((السياسة العظيمة/ الكبيرة)) – فن تحمل التوتر الشديد في عَلاقة مختلف درجات القوة بعضها مع البعض الآخر – و ((عالمه في التأويل))، و مذهب ((العود الأبديّ)) و ينظر إليها بوصفها حركة مضادة إلى هذا العدم و تقدم حلولاً له.

فضلاً على ذلك، بالنسبة لأيّ أحد لم يقع فريسة خداع و كذب النخب الطليعية البارزة، يحتوي تفكير نيتشه و ينطوي على التأكيدات الإيجابيّة و لا يخلو منها في كلّ سلب و رفض و تقويض. و التساؤل النقدي، الذي يطرحه، يحاول أنّ ينقل قوة الإصرار و تصميمه على الوصول إلى المصدر، المنشأ، الأصل – و الأصالة التي تدور حول الوجود و بلوغها. ربما لم يوفق نيتشه في التعبير عن تأكيداته تلك بصورة تكفي من الإيجابيّة، إلاّ أن مِزَاجه الإيجابيّ ظل بأمانة دائماً حاضراً بقوة في تفكيره حتى حين يأخذ على الأخير شكل أكثر التحليلات راديكالية و تقويضا لعصره.

4
السياسة العظيمة / ميتافيزيقا إرادة القوة

المقدّمة: معنى السياسة العظيمة (450) وجهة نظر نيتشه في الواقع السياسي (457)

الضرورات الأساسيّة في كلّ العلاقات الإنسانية (الدولة، الحرب و السلام) –– الوضع السياسي الحالي (الديمقراطية) **رؤى المستقبل الممكن (473)**

طرائق الديمقراطية –– عالم التطور السياسي للأمم –– التحولات الروحية في طبيعة الإنسان. –– السادة الجدد.

مهمة السياسة العظيمة (492)

المشرعين –– درب السياسة العظيمة/ الكبيرة –– التربية و التهذيب.

السياسة العظيمة و الفلسفة (506)

المقدّمة: معنى السياسة العظيمة

يتوق نيتشه للعثور على طراز الإنسان الأصيل الذي يقوده لتجاوز كل الصيغ اليائسة و البائسة السابقة التي مر بها الإنسان. في ضوء الحقيقة التي توصل لها، اكتشف نيتشه أنّ كلّ شيء في هذا الكون يعاني التغير و التبدد و الانحلال. بالنظر إلى العصر الذي يعيش و يحيا فيه، شاهد نيتشه بأم عينيه و ترأى له حجم الانحطاط التاريخي العام الذي يلقي بظلاله الثقيلة على كلّ شيء في هذا العالم. كما لو كان شخصاً مسحوَّراً و مستغرَّقاً بواسطة القدر، هيمنت على نيتشه فكرة السلب و الرفض، التي لا مناص من التعبير عنها في شوائبها و زوائدها وأقنعتها التداولية، للصيغ السابقة الفكرية التي كانت في متناول يديه و ورثها عن الفلاسفة الآخرين – و توقف لإطالة النظر، على غير عادة الفلاسفة، كثيراً عند فكرة أو شعور العدم. لم يكن نيتشه يبحث عن السلب، الرفض و الإنكار بحد ذاته، بل كان يبحث باستمرار عن شيء ما إيجابيّ أو بارقة أمل في المواقف التي تواجهه. لكن الشيء الإيجابيّ، الذي كان نيتشه يبحث عنه، ليس صورة صلبة متماسكة للرجل الحقيقي و الواقعي، أو تأكيد انبثاق الحقيقة الجديدة – بل، إنهّ يريد بالأحرى شيئاً مختلفاً تماماً عن أيّ معيار من المعايير المكررة السابقة. لقد كان نيتشه صريحاً جداً إلى درجة أنه لا يتراجع أمام أيّ صعوبة من الصعوبات أو شائكة من الشائكات كما لم يخشَ أيّ شيء، و لهذا واجه بشجاعة كل العقد و الأناشِيط و القناعات السابقة، التي كانت التسليم بها من قبل مفروغ منه و لا يخضع لنقد أو يُضع موضع السّؤال، سواء كانت هذه القناعات دينية أو أخلاقية أو فلسفية أو علمية أو سياسية – و قد فعل ذلك كي يصل إلى المصدر النهائي و الينبوع الحقيقي للإمكانيات الإنسانية عموما. و في عملية البحث عن هذا المصدر، طور نيتشه ما يسمى بالسياسة العظيمة/ الكبيرة، ميتافيزيقا ((إرادة القوة)) – التي تعطي لكلّ شيء شكله المميز الذي ينفرد به عن سائر الأشياء على عكس السياسة التي لا وجود فيها لإيمان المرء بحقه – أعني، البراءة و ما يسود فيها من الكذب و العبودية للحظة – و صوفية ((العود الأبديّ)). كلّ الفلاسفة السابقين، بلا استثناء، احتفظوا في الإطار النظريّ الذي تحركت بواسطته نتاجاتهم الإبداعية الفلسفيّة؛ لقد كان هناك دائماً لديهم عالم يبقى الإطار الكلي له ثابت على نفس الحال حتى لو كانت مضامينه الشخصية، ميادينه ، و مهامه تعاني التغير و التحول بصورة ملحوظة. الآن ، على المرء أنّ يبدا كما لو أنّه يبدا من جديد. بناءً على ذلك، تعدّ إرادة نيتشه الإيجابية واحدة من الحجج المهمة: فبينما يتم بسهول إساءة فهم تعبيراتها، كإيجابيّة خاصَّة، فإنّها

بالرغم من ذلك تصارع بصبر من أجل تضمين و إدراج لكلّ ما هو أصيل و فريد لم يوجد بعد في أطروحاته الفلسفيّة.

لم ينبثق مفهوم ((السياسة العظيمة/ الكبيرة)) (Grosse Politik) من همَّ واحد من الهموم، و لكن من همَّ وقلق حقيقي و أصلي على مكانة و مستقبل الإنسانية يتخلل و يتغلغل في وجود نيتشه كله. يحدد وجوب تطور الإنسان بالضرورة، حتى يبلغ تحقيق و ترجمة كل إمكاناته و قواه، ملامح التفكير السياسي عند نيتشه. هناك ثلاث دروب مفتوحة، في حقل السياسة، تقدم نفسها لنيتشه كامكانيات واعدة:

(1) تُوِلّف الوقائع السياسية الآتية (الدولة – كناية أو بوصفها طائفة أو عرق الغزاة الأسياد، المزود بتنظيم قتالي فضلا على مقدرته في التنظيم، يطبق بمخالبه الهائلة دون تردد أو تفكير على شعب قد يكون أكثر عدد منه بكثير، لكنه يفتقر إلى التعضي و الاستقرار – الحرب و السلام، الوضع الحالي للديمقراطية الأوروبية) موضوعات التفكير السياسي الرئيسة لنيتشه. لم يكن نيتشه يتوقع أن يصل إلى معرفة نهائية فيما يتعلق بموضوع السياسة، بل كان يروم بدلاً عن ذلك الوصول إلى تقييمات تخدم الإنسانية من وجهة نظره. غدت قيم نيتشه، الحازمة في أصولها و غير المحدد مفهوميا في أهدافها، المعيار الذي يُقَاس بواسطته الوقائع التي تم تفسيرها من قبله الباقية منها والزائلة.

(2) يمثل مفهوم السياسة العظيمة/الكبيرة، عند نيتشه، عملية خلق مستمر للمستقبل، ليس الغرض منها معرفة ما الذي سيحدث في الواقع – بما أنّه لا يوجد إنسان يمكن أن يعرف ذلك – و لكن من أجل معرفة الاحتمالات الممكنة المؤثرة و نظل في مواقع تتيح له رؤيتها و ملاحظتها و مراقبتها. لا ينظر نيتشه إلى المستقبل الخاضع للسّؤال و النقد و التمحيص، و الذي يعتمد و يعول عليه كل شيء، بوصفه شيئاً محدداً و مرسوم الملامح و موجوداً سلفًا فعلاً، بل بوصفه شيئاً ينبغي أنّ نقوم بخلقه بذواتنا و هو المبرر و المسوغ الكبير لوجودنا. هذا المستقبل المؤثر بالتأكيد فينا مازال غير مقرر أو موجود بعد. انطلاقا من هذه الفكرة، يقول نيتشه الآتي: ((أعشق بجنون لا يقين المستقبل و القسم المجهول و غير المعروف فيه بعد)). لكن، يرجع ليقول لنا رؤى الإمكانات المستقبلية تحدد إرادتنا الحاضرة بشكل حازم، و تؤثر بشكل واسع: ((أريد أن أعلمك التحليق معي عالياً في سماء المستقبل البعيدة)). بواسطة ميدان الإمكانيات المتاحة – أيّ المستقبل – نستطيع أن

نؤثر بشكل فعال في حاضرنا. ((يؤدي المستقبل وظيفة الشرط للحاضر بقدر ما هو أيضاً شرط للماضي. إنّ ما سوف يكون و ينبغي أن يكون هو أساسّ ما هو موجود فعلاً)).

بما أنّ الإمكانية و الخط الذي يتحقق فعلاً من سير الحوادث – و مقاومتها يدعونا إلى نقل بنائنا المثالي إلى عالم الحلم و الأمل و الحياة المستقبلية التي يتغذى فيها إيماننا بكل خيباتنا فيها – يسوده الغموض بسبب العدد الكبير و المتنوع من الأحداث الممكنة التي تحيط به و تختلط به، لن يصل نيتشه إلى نظرة فاصلة و محددة مرسومة الملامح بدقة عن المستقبل – بل اكتفى بوضع أو رسم مخطط معين لغرض العمل بموجبه. إذنْ، القارئ الذي يتوقع من نيتشه أن يرسم له طريقاً واضحاً لاقتفاء الحقيقة بطريقة لا يشوبها الغموض، و سوف يأخذ بيده من حين لحين لغرض الوصول إليها، سيصاب بخيبة أمل كبيرة، و لاسيَّما بخصوص أفكار نيتشه المتعلقة في المستقبل، و سيجد أنّها أفكار مرنة و طيعة للغاية في تفاصيلها و ليس لها شكل نهائي بل مفتوحة على كافة الاحتمالات – و خصوصا حين يرى أن كلّ شيء يقوله نيتشه بهذا الصدد يتحول بعد فترة وجيزة إلى عالم من التناقضات و التعددية و التنوع و الاختلاف. كان نيتشه لا يعرف كيف يرسم حدود إمكانات المستقبل و يعين هويته – بعبارة أخرى، لم يكن نيتشه يعرف كيف يصل إلى ((خلق و تشكيل أسطورة المستقبل)).

يقود التنبوء العقلي في المستقبل مفهوم السياسة العظيمة/الكبيرة عند نيتشه إلى الوعي الحازم في اللحظة الحاضرة للإنسانية و تثمنيها. حينما يتم فهم الحاضر من منظور واسع كلي وشامل، فإنّ العصر الحاضر سيكون أكثر و أشدّ وضوحا. بيد أن هذا الوضوح كان يسبب لنيتشه الكثير من القلق، و كان السبب الذي يكمن وراء أكثر مطالبه الجديدة راديكالية. بالنسبة لنيتشه، اللحظة الحاضرة هي أثمن لحظة، و هي تقف فوق كل شيء في الأهمية. ((كل العلامات تشير أنّ الثقافة الأوروبية في اللحظة الحاضرة في حالة حركة... كما لو أنها تتحرك باتجاه الكارثة و الفاجعة: كالسيل الهائج الذي ينطلق بأقصى سرعته نحو نهايته لا يوقفه شيء)).

(3) يحتاج هذا الوضع الصعب إلى وضع معايير دقيقة لغرض تجنب الخطر المحدق فينا. يجب أن يكون هناك شيء جديد يواجه بواسطته الإنسان عصور التفسخ و الانحلال و الاضمحلال التي تمتد لآلاف السنين – ينبغي أن يكون هناك شيء نقي يخرج من أعماق الإنسان يفرض على الوجود نفسه بقوة. لكن تلك المهمة مازالت غير منجزة: ((ما الذي ننتظره حقاً؟ بالتأكيد ليس

الضجيج الكبير للدعاة و المبشرين و أبواقهم؟ هناك نوع من الهدوء يمتلك تأثيرات خانقة: لقد استمعنا طويلا و بما فيه الكفاية له)). كل شيء مُعدّ للتغير و التحول الكبير، ((كلّما نحتاجه هنا هو الرجال العظام المقنعون)). يتخيل نيتشه أولئك الرجال العظام المقنعون – أصحاب الحُجَّة – بطريقة تعكس الفزع المروع لمفهوم العظمة. فبواسطتهم و بهم ينبغي لمهمة السياسة الكبيرة أن تُنجز. مَنْ هم، و ما هو عملهم و واجبهم في هذه اللحظة؟ إنّهم الراديكالين الذين سيقومون بقَلّبَ سلم كلّ القيم و تحويل مساراتها، و بهذا يمكن أن نطلق عليهم لقب ((المشرعين الجدد)).

مع أنّ السياسة العظيمة، اللوحة التي تصطبغ بلون حزين منفر، تبدأ من عملية قَلّبَ سلم كل القيم الأخلاقية رأساً على عقب و تحويل مساراتها واضعة في ذهنها مستقبل الإنسانية – غير أنّ نيتشه لا يريد أن يبدأ من جديد، و كأنّه يبدأ من الصفر أو الفراغ، بواسطة أحداث و وقوع القطيعة تماماً مع الماضي برمته. فهو لا يريد أن يفقد التاريخ، في استطالات المجال الحيوي الذي يخصه مع أنّ عليه الآن أن يخضع له في محاولة تحرير نفسه من أسر التراث التاريخي و مخزوناته ذي الأبعاد الكونية. يعتقد نيتشه أنّ البداية الجديدة يمكن أنّ تكون ممكنة بواسطة صياغة مفهوم ممكن واسع و عميق عن الماضي بالإضافة إلى المستقبل. كان هذا بالضبط الذي يدور في ذهنه حين قال: ((أبحث عن حَقّي، عن لوح قيمي الجديد – أين يا تُرى يمكن أنّ أعثر عليها، من أين لي أنّ أخذها ؟ عليّ أن أخذها من القيم القديمة و حدود هذه القيم)).

يكون مصدر فلسفة نيتشه السياسة العظيمة (خلافا إلى ((السياسة الصغيرة)) المهتمة أصلا في الشؤون الخاصَّة للدولة، أو ((السياسة المباشرة)) المهتمة في التأثير المباشر و الواقعي للفعل السياسي) سابق لأي نشاط محدد. و يطلق نيتشه عليها تعبير ((الخلق)) [61]. ينبثق مفهوم نيتشه في التفكير السياسي من الوعي في مصدر الخلق ضمن الحركة المتجهة بالضِدّ من كل ذلك الذي يوجد أو يحدث نحو المستقبل و مازال غير محدد المعالم.

ينبغي أنّ نقتفي أثر هذه الدروب المتشابكة الثلاثة عند نيتشه – (1) البحث و الفحص الدقيق للواقع السياسي؛ (2) رؤيته للإمكانات المستقبلية؛ (3) المهمة التي وضعها للسياسة العظيمة – بعد الإشارة غير المباشرة، بواسطة جملة من النِقَاط التي تعارض بعضها الآخر، إلى الطبيعة الخاصَّة أو خصوصية تفكيره السياسي:

بعد قطعيته و انفصاله و نفوره عن الواقع تماما، غدا نيتشه مهتماً أول مرة حقاً بالمشكلة الحساسة التي يطلق عليه تعبير ((السياسة العظيمة)). ففي شبابه، و دون التفكير في السياسة، عاشَ نيتشه مع أمل وحلم يراوده في تجديد الثقافة الألمانية بواسطة الإبداعات الفنّية للموسيقار فاغنر، الذي عمد في أواخر حياته إلى امتداح العفة التي تنطوي أيضاً على الإشادة بالشهوة، و الترحيب بها. بعدها، بدأ نيتشه يحلم بعالم هادئ كالأديرة، نظام من المعرفة لا يروم تغير العالم و لكن يفهم الوجود. هذا الحلم بدأ يتسع و ينمو إلى درجة جعلت نيتشه ينسحب من السياسة و عوالمها تماما: ((علينا أن نشغل أنفسنا بشي أكثر نبلا بعد أصبح الانشغال بالسياسة بوضوح شيئاً سيئ السمعة للغاية و قذر؟)) بعد شعوره بالوحدة و العزلة القاتلة، و انفصاله عن العالم و عن كل من يحيط به، بدأ نيتشه النظر في الوجود الإنساني بواسطة مسح العصر الحاضر و فحص و التأمل و إطالة النظر في منظوراته و محاولة تصور مستقبله البعيد، بادئا رحلة البحث عن الهدف فيه: السياسة الكبيرة و العظيمة تقرر مسار هذا العصر و تجيب عن الأسئلة المتعلقة بمستقبل الإنسان. وجد نيتشه أنّ السياسة فعلا ((جذابة و أن مفاهيمها السابقة تفتقر تماماً إلى توضيح مقَبُول)). لأن ((حين تدخل الحقيقة المعركة ضِدّ الزَّيف، الذي يمتد في عمره لآلاف السنين، فإنّنا لا محالة سنشهد ثورة تتجاوز كلّ شيء، شي عظيم و كبير لم نحلم به بعد. لقد تم تمثل و استيعاب السياسة في الحرب الأيدولوجية .... أنّ السياسة العظيمة و الكبيرة لا توجد على الأرض قبلي)).

يطلق نيتشه على نفسه، المسترسل عميقا في الأحلام أو الانحدار في مزالق نوع من الخدر، لقب ((أخر الرجال المناوئين للسياسة الألمانية))، حتى يميز تفكيره السياسي عن التفكير السياسي السائد من حوله، بعد النجاح الذي حققه ما بين عامي (1871-1870)، مستسلما إلى رضا-النفس البرجوازي للسياسة في تلك الأيام، واضعاً قيم خاطئة للحوادث الجارية، مدركا دائماً لمعنى و مدلول القوة الواقعية – التي تنطلق من الأحداث و تلائم أفكارها مع الأحداث – وحدها و تعاظمها و اتجاهها نحو الكمال. بطريقة تنم على السخرية، يقول نيتشه إنّ معشر الباحثين الذين تحولوا إلى سِّياسيين، حددوا أنفسهم بمهمة القيام بالدور الكوميدي الذي يعمل على جعل السياسة تمارس وظيفتها القذرة بضمير مرتاح صافي لا يساورة أيّ إحساس بالذنب أو الشعور بالعار، زد على ذلك ((أنّ أيّ فلسفة تعالج مشكلة الوجود و تغير من مقارباتها و تحاول أن تحل هذه المشكلة، التي هي أعوص مما يتصوره البعض، بواسطة التأمل و إطالة النظر في الحادثة السياسية هي فلسفة مخادعة و تجلب وهدة العار و مدعاة للتهمك)).

ما عدا نيتشه، التي ستغدو كل صبواته فضائل في النهاية، كلّ المفكريين السِّياسيين الآخرين، النيات المبيتة التي تعطي ذريعة أخلاقية، يعتبرون السياسة ميداناً محدداً و مرسوم الملامح بدقة. فهم ينظرون إليها مرتبطة بالله أو الترسندالي أو يعزونها إلى الواقع الإنساني الخاص. على سبيل المثال، ينبثق التفكير السياسي (كما هو الحال مع هيغل) بواسطة مخطط الأنظمة الكُلّية المتطورة، و يعبر عن الواقع الملموس بواسطة النظام الكلي للوعي-الذاتي؛ بدقة أكثر، تزود بالتبرير و الشجب و معنى الإنجاز بواسطة الوعي الحقيقي للوجود الشامل – أو إنّها يمكن أن تطور (كما هو الحال مع ميكافيلي) الوقائع و الحقائق الخاصَّة و معانيها و مدلولاتها لغرض تحقيق استقلالية القوة – و بذلك، يتم تطوير المواقف و قواعد السُّلوك أما كتقنيات سياسية أو طلب و لجوء مباشر لأولئك الذين أفعالهم تخرج عن سياقات المألوف كاملاً، لكنها تنبثق من إرادة القوة، التي تستغرق جميع الأشياء ثم تعديها من جديد في حركاتها الدائرية، وحضور العقل و الشجاعة. لم يتبع نيتشه أيّ من هذين الطريقين: لم يقدم نيتشه بناء فلسفياً سياسياً كاملاً كالذي قدمه هيغل مثلاً، و لا تقنية سياسية عملية كالتي قدمها ميكافيلي. بل بدلا من ذلك، استمد نيتشه تفكيره السياسي من قلقه على وجود الإنسان حصراً، مع أنّه لم يعثر على الحل الشامل القادر على أن يخلص الإنسان من مشاكله. يتصور نيتشه أصل الحوادث السياسية دون أن يكون منغمسا بطريقة ميثودولوجية في الوقائع الملموسة للنشاط السياسي كونها تكشف عن نفسها في الحياة اليومية في عملية صراع من أجل القوة بين البشر. كان نيتشه يعلق آمالاً كبيرة في أن ينتج حركة تُسرع الخطى في إرساء الدعائم الأساسية للوجود الإنساني، و كان يطمح بواسطة تفكيره أن يفرض على أولئك الذين يسمعوه ويفهموه أن يدخلوا في تلك الحركة و يمارسون مهمتهم فيها. لم يحدد أو يعين نيتشه مضمون هذه الحركة و يرسم ملامحها سياسيا أو أثنولوجيا أو سوسيولوجيا. بل، أن العامل الذي يحدد و يؤكد كلّ الأحكام و يرسم حدودها في هذه الحركة، كما يرى، يزودنا بها وحده الموقف نحو الوجود كليًّا. إنّه ليس مهمة السياسة، بل مهمة الفلسفة، و بواسطة غنى الإمكانات المتوفرة و دون اللجوء إلى المبدأ العقلي، و توظيف الطريق المتناقضة و المتعارضة بينها يمكن بوسعنا، و تحت قيادة فكرة إنقاذ الإنسان و تقدمه، أن تحدد هذه الحركة و ترسم ملامحها.

بالمقارنة مع الصروح التقليدية المشيدة لعلم السياسة و فلسفة التاريخ، يهدف التفكير السياسي النيتشوي، غير المتيقن من أنّنا أصبحنا بهذه الأفكار نسلك طريق أفضل من الناحية الأخلاقية، إلى إضاءة غياب الوحدة المنطقي و الاتِّساق، و الإجَراءِات المفهومية الدقيقة. يتجنب

جوهر تفكير نيتشه أيّ تعبيرات واضحة لا لبس فيها، لكنه يظل يقدم و يولد جواً موحداً بالكامل. هذا النوع من التفكير يهجم على روح الإنسان مثلما تهجم العاصفة، غير أنّه لا يتبلور مفاهيميا في صيغ واضحة و حاسمة. فمن حيث يقصد نيتشه أن ينتج و يخلق هذا المناخ و تلك الأجواء، فإنّهُ يتجنب بناء أيّ شيء مماثل إلى المذهب. في تفكيره السياسي، نفس جمع الإمكانيات تُجرب بنفس الحماسة دون أنّ يكون هناك أيّ محاولة لتوحيدها لتحقيق هدف الموضوع بوضوح. إنّ الجهاز المفهومي الذي يوظفه نيتشه، في تفكيره السياسي، لم يقصد من ورائه التعبير عن الحقيقة المفترضة في صيغتها النهائية الثابتة، بل يقدم نفسه كأدوات للمرونة غير المحدودة التي تحكم إرادة التفكير غير المرتبطة بأيّ شيء أو أجندة. يهدف هذا الجهاز في صياغاته الحد الأقصى للقوة المقترحة. فقط بواسطة ربط قوة التعبير هذه مع القدرة على التغير نكتشف حينها أهمية و مغزى هذا التفكير.

أيّ باحث يحاول أنّ يصوغ نظاماً عقلياً متكاملاً من أفكار نيتشه السياسية، و يحاول أن يُفّعل خِيار طرح السّؤال عنها، فإنّه بلا شك يمارس و يضطلع بمهمة عملية تزوير و تزيف فظيعة بحقه. يكشف تفكير نيتشه الحر الإرادي، الذي يتحدد اتجاهه حيويا و ليس مفهوميا، النقاب عن أهم السمات حين يبحث المرء فيه فقط عن نقيض أو الأطروحة النقيض لما يحتويه و ينطوي عليه.

وجهة نظر نيتشه في الواقع السياسي

أبدى تفكير نيتشه – الذي تعاظمت عليه الصعوبات و استحكم عليه الحصار، حيث الأفكار و الخواطر تختلط و تضطرب في داخله من حين إلى أخر – اهتماماً كبيراً في الضرورات الأساسية والمستمرة للعلاقات الإنسانية: أولا، حالة الحرب و السلام. و بعد ذلك، وجه انتباه إلى الوضع السياسي المعاصر: الديمقراطية في أُورُوبَّا – النفور من كلّ ما يأمر، و من كلّ ما يريد أنّ يأمر، هذه الفوضوية العصرية و الأشياء القبيحة، التي تخلق أثراً كئيباً في النفس، التي تستحق تسميات قبيحة و قد اتخذت شكل بدأ يتسرب داخل أكثر العلوم دقة و صوابا و أكثرها موضوعية في ظاهرها – و التأثير الذي تمارسه أحكامها المسبقة داخل العالم الحديث، الذي يعيق كل بحث يمس مسألة الأصول. كان تفكير نيتشه يولي اهتماماً كثيرا في الأفكار و الأمور الكبيرة و العظيمة و النظر إليها بصورة مغايرة بدلاً من الموضوعات الصغيرة الملموسة الخصوصية، فقد كانت تحدد اتجاه و بوصلة السياسة الكبيرة لديه و من أين تنبثق.

الضرورات الأساسية في كل العلاقات الإنسانية. ــــ الحاجة إلى السلطة – التي تمثل مجموع المؤسَّسات التي تضمن خضوع المواطنين في إطار الدولة – الحاكمة و المهيمنة التي تسير أمور الناس (الدولة)، بالإضافة إلى الإمكانية المستمرة لقيام الحرب و السلام، يزودان الإنسان في الحدود و البواعث التي يحيا بواسطتها. نادرا ما يتحدث نيتشه عن معنى و دلالة الدولة و الحرب في صيغ تاريخية محددة مدعمة بالأمثلة الملموسة، و لا عن التغيرات التي طرأت عليها، و لا على تأثيراتها في سياقات تاريخية – بل كان يركز في تفلسفه بشكلٍ أساسي بدلاً عن ذلك على حدود الوضع الإنساني عموما.

الدولة: من حيث أصلها و واقعها الملزم القامع، الدولة في رأي نيتشه – الذي يحب الدولة و مفهومها لأن الناس يخطئون معها – هي قوة مدمرة لاغية و مستوعبة و ماصة لقُوَى الآخرين – تستعبد البشر و الأفراد ككتل بشرية بقسوة دون أن يرف لها جَفْن. و من جانب آخر، دون الدولة، لا يمكن أن يوجد لا مجتمع بشري و لا ناس و لا أفراد مبدعون. ((فقط بواسطة القيود و الملزمات الحديدية للدولة يمكن أن تسيطر على الناس، التي تحكمهم، و تجعلهم يعيشون معًا... و أيضاً بواسطة التقسيم الطبقي و بنائه الهرمي)). و بذلك، تقوم الدولة – التي سرقتها ليس سرقة أحد – في أسسها على الحاجات الإنسانية الضرورية و نجاعتها. وبما أنّ هذه الحاجات تمارس على الأفراد تأثيراً داخلياً قاهراً و ملزماً، فإنّ وجود الدولة يصبح ملزماً و مفيداً للغاية لهم على الرغم من قوة التطفل و التدخل الذي تمارسها لفرض الحياة عليهم. ليس التاريخ فحسب يبرهن ((كيف أنّ الخاضعين للدولة لا يهتمون كثيراً للأصل الوحشي الذي كان وراء نشوئها))، بل أيضاً يدّون حماسة منقطعة النظير في الخضوع و الاستسلام و الإذعان لها و لمتطلباتها، و لاسيَّما ((حين تكون قلوب الناس مسحورة بشكل لا إرادي بالحالة المتنامية للقوة للدولة المليئة بمعنى الأسرار العميقة... و بالأخص، حين يتم التفكير بحماسة بالدولة كهدف و قمة يبذل بواسطته الفرد الغالي و النفيس من التضحيات و يمارس نحوها الواجبات كي يحافظ على وجودها)).

يحاول نيتشه، الذي أفرط في الاستسلام لأحلامه و أيّة صدفة آلت به إلى هذه الفكرة، أنّ يوضح معنى و قيمة الدولة بواسطة البحث و الاستقصاء في الدور المؤثر و المنوط لهذا الشرط الممارس على حياة الفرد. بالنسبة إلى نيتشه، الدولة تمنح أختام مِميزة للأفراد، الناس، و الثقافة على قدر عالي من الأهمية.

الثقافة توجد فقط بواسطة الدولة. بالطبع، لا يمكن للثقافة في الواقع أن توجد دون ((جمع مقنع و راضي من العبيد – هذا العرق الذي أحرز النصر المُؤَزَّر في كفاحه ضِدّ التوعك – العرق المغلوب الذي قد انتهى به الأمر إلى استعادة الغلبة بغرائزه الذهنية و الاجتماعية و السياسية، و ينزع بقوة نحو الكومونات أو العاميات ذلك الشكل الأكثر بدائية – و دون الشروط التي تنتج الدولة))، ((دون النسر الذي يقضم و ياكل أكباد اتباع بروميثيان مروجي الثقافة)): و لكن أنّ تحاول أنّ تقف موقف المعارض لهذه الشروط هو أن تقف موقف المعارض للثقافة. إنّ دوام و استمرارية الشؤون الإنسانية يمكن أن يتم إنجازه فقط بواسطة الدولة. لا يمكن لأيّ ثقافة أن تنمو حين يجب على الإنسان أن يبدأ بصورة متواصل دائماً من جديد و من الصفر. بناءً على ذلك، ((حُنْكَة الدولة يجب أن تكون قائمة دائمة. هذا الأمر من الأهمية إلى درجة أنّه يفوق حتى الحرية، كانعتاق من كل قيد، و قيمتها)). كان الوضع السياسي الذي يعيش فيه نيتشه وحده الذي جعل من أطروحاته السياسية و كأنّها تعبر عن أعراض الحكومة المضجرة و الحزينة الكئيبة: في الواقع، الأفراد ليس لهم باعث أو دور في بناء مؤسَّسات الدولة التي تم التخطيط لها لقرون أو يكاد يغيب تماماً، و هذا ينشئ فرقاً مدمراً بين ((وجودنا السريع الزوال المضطرب و الصفاء المستمر للعصور الميتافيزيقية التي ورثناه من تاريخ الفلسفة)).

في محاولته إضاءة معنى الدولة و تحديد طبيعتها و هويتها، الذي قَلَّبَ الأمور عاليها سافلها، يضيء نيتشه أيضاً حجم الخطر الذي يمكن أنّ تشكله علينا كأفراد. هذا وحده يكفي لكي يحرز المرء النقطة الآتية: حينما تتخلى عن أسسها و وظائفها الإبداعية، تصبح الدولة قوة عمياء تهدم الوجود الحقيقي للإنسان بواسطة ((عملية المساواة – المعاملة بالمثل أو بالتساوي تفتقر إلى النبل، إلغاء القيمة الشخصية)) بين الأفراد. حين يمجد هذا النوع من الدولة و يتم الإعلاء من شأنه، فإنّ نيتشه يبدي انزعاجه و يطلق عليه تعبير ((الصنم الجديد))، حيث يرى فيه العدو الحقيقي لكلّ ما تحاول الدولة الحقيقة القيام به و تحقيقه: الناس، الثقافة، و الإنسان ككائن مبدع:

أولا، تسبب الدولة المنحرفة، الذي لا يخشى نيتشه أن تقع عليها نظرةً مستطلعة ناقدة، ((موت مواطنيها)). ((أكثر الوحوش افتراسا هي...(الأنا، الدولة، و الناس))). إذا لم تتطابق مصالح الدولة مع مصالح الأفراد، فإنّ مفهوم الجماهير سينفجر و تثور و تنتصر: ((لان هناك ولادة جديدة، و أعداد الناس بدأت تتزايد، تم اختراع الدولة كجهاز يدير شؤونهم الكثيرة و ينظمها!)).

ثانيا، إنّ الدولة التي تخفق في أداء مهمتها على أكمل وجه تصبح العدو الأول إلى الثقافة. بدأ نيتشه يعارض تمجيده للدولة بواسطة تأمله في مفهوم الدولة الذي نشأ في الثقافة الإغريقية و إعجابه به، لاسيَّما حين بدأ يلاحظ أنّ الدولة بمفهومها الحديث هي بمثابة أداة تقف حجر عثرة بوجه الإبداع – و إنها ليست إلاّ قوة ضاربة تسيطر بمخالبها الحديدية على الجماهير ((الفائضين عن الحاجة)): ((إنّ فكرة ثقافة الدولة نشأت تماما حديثاً... كل العصور العظيمة – الذي يشكل الطبع المخيف جزءاً منها لذا يجب ألّا ننخدع به – كانت تعاني تفسخ و انحلال سياسي: دائماً العظمة في الثقافة هي ليس لها عَلاقة بالسياسة – بل إنّها بالأحرى تقف دائماً موقفاً مضاداً منها... فتح غوته قلبه شخصيا إلى نابليون – عشق إمكانيات جديدة للروح جعل فضاء الروح أوسع، استشراق الإرادة، فجور كبير، رغبة في اكتشاف أحاسيس جديدة أو إعادة خلقها و الحكم بها – لكنه سرعان ما أغلقة عندما كانت حروب التحرير و مجازرها في أُورُوبَّا على الأبواب)). ((تدين الثقافة في إنجازاتها السامية و الرفيعة إلى العصور السياسية الضعيفة و المتفسخة)).

ثالثا، الدولة هي أداة لتحطيم الفرد. إنّها ((إجَراءِ و ترتيب ذكي لحماية الأفراد الواحد من الآخر – و لكن إذا بالغت في وظيفتها هذه، فإنّ الفرد سرعان ما يبدأ بالضعف و التلاشي تماما و يتوقف عن الوجود و التكون – الهدف الرئيس للدولة هو إعاقة و إحباط تقدم الأفراد، لا، لكن هذا يشكل خطراً كبيراً)). حين تتوقف الدولة عن الوجود يبدأ الشخص غير الزائد أو الضروري، بالتفتح و التجلي: هنا تبدأ أغنية الضرورة، اللحن الفريد و الاستثنائيّ الذي لا بديل له. بناءً على ذاك، ((دعنا نستغني عن الدولة قدر الإمكان و نرمي بها بعيداً!)).

أخيراً، ينجز نيتشه مهمته في تقويض الدولة حين يصرح في الآتي:((الشخص الذي يضحي بالدولة حتى لا يساوم أو يخدع مثلهُ الأعلى يمكن أن يكون الوسيلة التي تحقق الدولة بواسطته وحده و تبلغ وجودها الكامل و معناها قدر المستطاع)).

كان نيتشه كثير الشكوك في كافة أشكال الدولة و نظمها، لذلك لم يفكر في تحدي سلطاتها العليا الراسمة لحدود الوجود الإنساني: لقد أثرت هذه الدولة على البشر النبلاء ((المعبرين عن المشاعر السامية و الرفيعة، و يتصرفون في العلاقات القائمة بينهم بمهارة بارعة حيال كلّ ما يتعلق بالمراعاة و التحكم بالذات و الإخلاص و الكبرياء و الصداقة)). يتسائل نيتشه، ((لماذا على الحكمة و الحصافة أنّ تسود بدلاً من البواعث البطولية للفرد في بناء الدولة و خلقها: لماذا لا يوجد إيمان في

سمو و رفعة و نبل السيادة الشخصية)). هذا يتضمن ((الاحترام للعرق و المسنين.... الاحترام للموتى... الإجلال الروحي للمنتصرين: فرحة لقاء المثال وجهاً لوجه)).

يطري نيتشه وجود الدولة، و لاسيَّما حينما ينظر إلى حركات الناس، الثقافة، و القدرة الإبداعية للإفراد، و ينظر إليها و يعدّها بمثابة الشرط الضروري لإنتاجها. لكنه يرفض دور الدولة المخرب لشخصية الفرد و قمع بواعثه الحيوية، و خصوصاً حينما تعمل كقوة صلبة و متماسكة لمصلحة الجماهير و الناس العادين و لا تهتم بالمرة بالأشخاص الفريدين الاستثنائييّن غير المنتمين أو المنسجمين مع القطيع و لكن فقط في ((الناس العادين الزائدين عن الحاجة و غير الضرورين)).

بالاتّفاق مع هذه السمة الثنائية للدولة، يدرك نيتشه الفهم المزدوج للقانون. من المؤكد، أنّ القانون – هو صيغة واقعية لبعض شروط بقاء جماعة ما و التي تتم ممارستها ضِدّ جهة معينة خاصَّة حين تكون ضِدّ الجماعة – دائماً يعبر عن ((إرادة ترسيخ و تثبيت، و بصورة دائمة، السلطة السائدة للعلاقات)). و لكن هذه العلاقات (1) أما تمثل هيمنة رغبات العامة أو إنسان العامة التي تهتم فقط في الحفاظ على وجودها بواسطة فرض القانون، الذي يتراكم و ينمو و يزداد قوة و يترسخ بشكل ليس له حدّ على شكل تشريعات و نظم أساسية؛ (2) أو قوة العَلاقة التي تؤازر القانون الذي يؤكد و يكرس هيمنة النبل الحقيقي. في الحالة الأخيرة/ الثانية، يُنظر إلى القانون بوصفه وسيلة للحفاظ على التراتبية الهرمية للبشر – الأشخاص المبدعين؛ و بينما يكون المشرع، في الحالة الأولى، ببساطة هيئة تشريعية غير شخصية، يكون المشرع في الحالة الثانية شخصاً فوق القانون و أسمى منه. و كذا يكون العقاب – بوصفه النهج الذي سار عليه الباحثون في أصل الأخلاق حتى الآن الذين يكتشفون في العقاب غاية معينة كالانتقام أو الترهيب – أيضاً مختلف في الأساس و الجوهر في الحالتين. تعبر الحالة الأولى عن الفعل المنفعي (القصاص/ العقاب – بوصفه انتقاما قد تطور و نما بشكل مستقل عن كلّ فرضية ذات صلة بحرية الاختيار و الإكراه – الردع، الإصلاح) الذي يساعد المجتمع أو المجرم – في حين يكون الباعث في الحالة الثانية للعقاب هو ((إرادة القوة المُشكلة))، و كي تصبح صورة الإنسان المصلحة – لا صورة الإنسان الطامح الذي يحتاج إلى أسباب خبيثة ليظل محترماً – بمنزلة المعيار للقانون: ((ينبغي أنّ يكون النوع النبيل السامي الرفيع في الإنسان هو شرط وجود و بناء المجتمع، و من هذا الأساس يستمد المجتمع حقوقه القانونية و الشرعية في الصراع مع القُوَى المعادية له)).

ليس مهم كيف ينظر نيتشه إلى الدولة، لأنه في المحصلة النهائية يمجد الدولة و الدور الذي تلعبه. و لكن مع التخلص من كلّ الأوهام و وضعها على جنب، يكشف نيتشه النقاب عن الصيغ الحقيقية التي تظهر بواسطتها، و من ثّم يعثر على معناها و مدلولها و وظيفتها في رفع مستوى الإنسان و الارتقاء به. تخدم الدولة الغرض الأقصى للإنسان و تصبح إمكاناته الإبداعية بمثابة المعيار لتقييم الحالات الواقعية.

الحرب والسلام: ينظر نيتشه إلى الحرب في واقعها المرير الذي لا يمكن إنكاره، كحدّ ليس وراءه حدّ، و تعريف ليس وراءه تعريف – وسلية للقتل و الإبادة و في نفس الوقت شرط – للوجود الإنساني. تعدّ الحرب شأناً من شؤون الدولة الأساسية بوصفها السلطة النهائية التي تقرر مسار الأشياء؛ تتجلى الدولة و تسفر عن صورتها بواسطة الحرب و أحياناً هي التي تحدثها. دون الحرب تتوقف الدولة عن أداء وظيفتها. الحرب، و إمكانية الحرب، كلاهما تحيي المعاني و المشاعر المتراجعة للدولة و تستعيد عافيتها. حتى فترة شبابه، ما انفكّ نيتشه التعبير عن فكرة ضرورة قيام الحرب للدولة و لوجودها كما هو ضروري وجود العبيد – و أخلاقهم الذي تحتاج دائماً و قبل كلّ شيء إلى عالم مواجه لها و خارج عنها لكي تولد – للمجتمع؛ و في فترة متأخرة، لم يتوقف أيضاً عن القول: ((الحياة – دون هدف يعني أنّ تتصرف المغامرة بك – هي نتيجة للحرب، و المجتمع نفسه ما هو إلاّ أداة للحرب – إنّه سببها و نتاجها)).

لكن يجب أنّ لا نفهم من هذا أن نيتشه كان عدواً للسلام و من الممجدين و المطبلين للحرب. فأمانته، كمفكر، لم تسمح له أن يأخذ موقفاً نهائياً إطلاقاً بهذا الشأن، كما لو أن كل حدّ مميز و معترف به لوجودنا [من الحرب و السلام]يخضع لحكمنا و تشريعاتنا في نهاية المطاف.

إذنْ، يمعن نيتشه النظر كثيراً في الفكرة المضادة للحرب – أعني فكرة السلام. بيد أنّ السلام الذي يدافع عنه يختلف عن رأي أنصار السلام الذي يحاولون أن يفرضوا السلام بقوة بواسطة استخدام جيوش هائلة أو بواسطة نزع السلاح تدريجيا. كان نيتشه يطرح اليوتوبيا، التي رسم ملامحها، كحَلّ بالضِدّ من كلّ اليوتوبيات الأخرى المتعارف عليها في زمنه: ((ربما قريبا سيأتي اليوم العظيم حينما يتم الفصل بين الناس و تحدد المقامات و المكانات بواسطة الحرب و الانتصارات المسجلة... و سيتم الإعلان الآن عن الآتي: (حين نتوقف عن الحرب)، و ننزع أسلحتنا، و نتخلص من الشعور القوي لقتل الآخر – سنكتشف حينها أن هذا الطريق وحده هو الذي

يقود إلى السلام الحقيقي. ... يفتقد ممثلو الحرية في عالمنا المعاصر – استقصاء شاملاً: يعني الطبع الغامض لعالمنا المعاصر – كما معلوم جيداً، إلى قابلية التفكير في طبيعة الإنسان، أو أنّهم يعلمون جيداً أنّهم يعملون دون جدوى (حين يطالبون بالتخفيف التدريجي للعبء العسكري))).

تختلف الفكرة البطولية للسلام جذريا من ألفها إلى يائها عن فكرة مثال السلام الذي يدعو إليه أنصار السلام، لأنّها تعبر عند نيتشه عن جوهر الموقف الإنساني. و من جهة أخرى، ليس لها أيّ صلة بفكرة الفيلسوف كانط عن السلام الأبديّ و تفاصيله، من حيث المبادئ العقلية للشروط المحددة للسلام الممكن. لكن كلاً من كانط و نيتشه بدلاً من تشيد و بناء إمكانات مباشرة للسياسة العملية، يكتفيان بتوضيح طلبهم للفكرة ذاتها. لم يتوقف نيتشه من الإعلاء من شأن فكرة السلام على الأقّل كإمكانية. يدافع نيتشه عن فكرة السلام، بطريقة نبوئية، حيث يقول إذا أخذنا فكرة السلام على محمل الجدّ، فإنّ هذه الفكرة تبدو مثالية لا يمكن أنّ تتحقق في أيّ حال من الأحوال عن طريق القوة و السلاح أو يمكن أنّ تبقى على قيد الحياة أو يكتب لها الحياة بأيّ صراع تحاول أن توظف فيه القوة و السلاح. و بذلك، يتوقع أنّ ((حزب السلام))، دون أي تردد، سيحضر و يمنع أعضائه و أولادهم من الاستمرار في الحرب، كما سيمنع السير بأيّ طريق ربما يؤدي لاحقاً إلى استخدام السلاح و القوة. و بذلك ((يمنع اللجوء إلى المحاكم)). هذا الحزب، ببساطة، يرفض أنّ يحارب. فهو مخلص إلى فكرة السلام ليس بدافع الضعف، بل بدافع النبل الذي تتوفر دائماً منذ البداية فيه درجة رفيعة من الأنسنة، و لذلك هو خالي تماماً من أيّ نوع من أنواع مشاعر الاستياء و الامتعاض و يعبر دائماً عن موقف الرفض و ((العداوة لمشاعر الانتقام)). أما الحزب المعارض لحزب السلام، فإنّهُ يختلف في الطبيعة و الجوهر عنه، و فكرته الرئيسة مرتبطة ((في شن الحرب و استحضار التناقضات و ممارسة القمع و الكبح ضِدّ نفسه: إنّهُ حزب المقموعين: الإنسان المكبوت في حياته الداخلية، عندما يتوقع برعب على فرديته مسجونا في الدولة بغية التدجين، ذلك الإنسان الذي أبتدع الضمير المتعب لكي يسيء لنفسه بعد أن قطعت الطبيعة الطريق على رغبته في الإساءة إلى الغير – العين المتمرسة التي تعتاد نوع من التقييم و التقدير للحدث الذي يسبغ عليه طابع الجرم – على الأقّل للبعض من الوقت؛ لكنهم قريبا يصبحون حزبا كبيرا)).

يضع نيتشه مباشرةً ((حزب السلام)) في الضِدّ من ((حزب الحرب))، و الذي يسير في اتجاه معاكس متسق لا هوادة فيه – ((إنّه يضفي شرفاً رفيعاً على السلام بوصفه وسيلة الحروب

الجديدة القادمة)) – يبين مرة أخرى إنّهُ لا يستر أو يخفي حدود الوجود الإنساني و لا يتجاهل الوقائع الحاضرة غير الصادقة.

يؤمن نيتشه بحتمية الحرب و حصولها، حيث تتجذر سيكولوجيا و غريزيا بعمق في داخل الإنسان: ((في الوقت الحاضر، تترك الحروب التي خاضتها المسيحية – إسقاط لمقاييس القطيع على مجال الغيبيات – مشاعر الكراهيَة و البغض الشديد و بتسعير أوارها الذي لاحدود لها، و التحريض في نفوسنا و نتذوق مرارتها و بهجتها و أهوالها التي خلفتها)). إنّها الكشف المحفوف بالمخاطر، رِحْلات المحيطات المجهولة، اكتشاف الجبال الوعرة المنعزلة – إنّها البدائل غير المرخصة للقتل. يشير نيتشه أنّه أمر أساسي للحروب أن تقوم بالضرورة من رماد هذا الإكراه الغامض، إذا أرادَ الإنسان أن يحتفظ بإمكانية الحقيقة بدلا من التخلي عنها. ((لا تتوقع الكثير من الإنسان، و هذا من باب النزوة الخالصة، أنّ يفعل أيّ شيء حين لا يعرف أن يحارب أو يجيد القتال – لا يمكن إجبار الناس على القتال رغما عنهم)). بوسع المرء أنّ يقول: ((إنّ الإنسان المرهق بالضرورة، الذي يعيش في ظل حضارة متقدمة، بالضبط كما يعيش الأوروبيون الآن، يحتاج إلى الحرب، لكن ليس أيّ حرب بل أكثرها فظاعة و عنفا – و يقفز مؤقتا في أتون البربرية – كي يدمر هذه الثقافة التي تجثم على صدره و الوسائل التي تقف وراء وجودها)).

يظهر موقف نيتشه الفلسفي الأساسيّ، فيما يتعلق بخطورة الحياة – التي تجري من حيث وظائفها الأولية بصورة جوهرية عبر المخالفة و الانتهاك و السلب و التدمير و لا يسعنا أن نتصور مجراها بشكل أخر – جلياً في البعض من أقوال شخصية زرادشت في نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت)): ((إذا لم يكن بوسعك أنّ تكون قديساً للمعرفة، فكّن على الأقّل واحد من محاربيها... لقد قلت مراراً أنّ السبب وحده الذي يبرر حتى الحرب؟ إذاً دعني أقول لك أنّ الحرب وحدها من يبرر أيّ سبب... بناءً على ذلك، حاول أن تعيش حياة الحرب و طاعتها. ما أهمية العمر الطويل الذي نعيشه؟ و ما الذي يريد أن يدخره المحارب!)) و لكن – كما هو حال قديس المعرفة – الشخص الذي لا يريد أن يواصل الحرب علية مع ذلك ((أنّ يتعلم من الحروب: عليه أن يدخل الموت في نطاق المصالح الذي يحارب من أجلها – يدخله في الحيز ذلك الذي يجعل منا مبجلين و مهيبين)).

مع ذلك، يجب ألّا يفوتنا القول إنّ تمجيد الحرب لم يكن غرض نيتشه أو واحداً من أولوليات اهتمامه. كما هو الحال مع الطبيعة، الخالية من الغرض و الغاية، ((تحدث الحرب دون أنّ تبدي أي

اهتمام أو يهمها كثيراً مصالح الفرد و قيمته)). في ازدراء منطق الحرب و التعبير عن كراهيته لها، يقول نيتشه: ((الحرب تجعل المنتصر شخصاً غبياً – بالمناسبة يكفي المرء أن يكون غبياً ليكون مضحكا – و تجعل من المهزوم حاقداً و خبيثاً))؛ و في استحسانها و تأييدها له من جهة أخرى، يقول: ((إنّها تجعل البشر طبيعيين و تحولهم إلى برابرة متوحشين؛ أما بالنسبة للثقافة، فإنّ زمن الحرب هو في النهاية زمن الحرب – زمن الذَّهاب إلى النوم، النوم العادل الذي يعطينا ما تمنعه اليقظة عنا – يخرج منها المرء المنتصر منتصراً سواء كانت نتائجها خيراً أو شراً)).

هذا النوع من التفكير الذي يطرحه نيتشه، القائم على نقد و من ثّم الكشف عن الأصول الحقيقية للأشياء و طبيعة الأرضية التي نشأ عليها، يتطلب منها الوقوف طويلاً عند الحدود القصوى دون أن نكون مخدوعين بشرط أو مصدر كل الوجود الإنساني. يقتفي نيتشه أثر مطالب و مواقف الوجود الإنساني الأخيرة دون التخلي عن الأساسّ الذي بواسطته تتطور الإمكانيات المتناقضة. يضيع المعنى، الذي فقدانه إلى جانب الغاية يعني الموت، حين يتم عزل و فصل الأقوال الخاصَّة به بعضها عن البعض الآخر. فقط الكلّ يكشف النقاب عن معنى وجه الوجود بطريقة تفرض عظمة الرؤية، و عمق الإيحاء و الإلهام، و الاندفاع بقوة نحو الأعلى و التي يطلق عليها نيتشه مصطلح ((السياسة الكبيرة)).

الوضع السياسي الحالي (الديمقراطية) —— من الناحية التاريخية مفاهيم الدولة و الحرب و السلام قادرة على افتراض و طرح صيغ متعدد لا تحصى. تشير حقيقة أن كل العلاقات الإنسانية – في خطوطها العريضة علاقات الدائن بالمدين – تعاني باستمرار و تتعرض إلى الكثير من التغير إلى المعنى الآتي و هو أن أيّ فترة أو حِقْبَة زمنية هي في الواقع نِقَاط متسلسلة من التحول و الانتقال و التغير. إدراك نيتشه جيداً العصر، الذي كان يعيش فيه، و تلمس خطورة المرحلة التاريخية المهمة التي كانت تقع بين آلفيتين أو حقبتين زمنيتين. فهو ينظر إلى العصر الذي عاش فيه بوصفه إعلاناً صريحاً عن نهاية التاريخ السابق في استطالات المجال الحيوي الذي يخصه و الأذن بدخول مرحلة تاريخية جديدة غير مسبوقة. بواسطة التأمل و إطالة النظر في عصره و توظيف مخزونه، كما هو، يجد نيتشه أنّ الديمقراطية مفهوم كليّ شامل يقرر و يحسم تقريبا كلّ شيء نيابة عن الفرد. فهو وحده يمكن أنّ يزودنا بتربة صالحة لكلّ بذور و أشكال المستقبل الذي ينبغي أنّ تنبت و تنمو و تكبر – إنّهُ الواقع السياسي السائد في أعقاب قيام الثورة الفرنسية، النطاق و الجو العام الذي تم التعرف عليه من

قبل الفيلسوف السياسي الفرنسي دي توكفيل: ((محاولة دمقرطة أو جعل أُورُوبًا ديمقراطية – التي هي شكل طبيعي من أشكال المسيحية، شكل أقل خداعاً منها – بالكامل لم تتوقف إطلاقاً عن المضي في مساعيها)). حتى الذي يحاول أن يعارض الديمقراطية – بالمناسبة، في العصور الديمقراطية يكره الناس إرادة القوة و يتم التقليل من شأنها – فإنّهُ يفعل ذلك بواسطة و باب الوسائل التي تزودها به الديمقراطية، و بذلك يصبح حتى المعارض للديمقراطية يسير في ركابها و بفعل المعارضة التي يبديها يُعلي من شأن الديمقراطية و يعزز و يقوي من مواقعها. بمعنى أيّ فعل يعارض و يقاوم الديمقراطية من شأنه أنّ يساهم بصورة فعالة ومن حيث لا يدري في تعزيز و تقدم الديمقراطية. الديمقراطية، في الواقع، القدر الذي يهدد كل موجود و يأذن باستئصاله و قلعه من جذوره و ليس هناك مفر من ذلك.

مازالت طبيعة الديمقراطية غير محددة الملامح على نطاق واسع. في الواقع، الفكرة الموجودة في ذهن نيتشه عن الديمقراطية، الذي كان مستفزاً ومتطيراً من أطروحاتها، هي ليست صيغة خاصَّة لمؤسَّسة سياسية أو نظرية سياسية خاصَّة أو مذهب سياسي. إنها ليست نظرية الإرادة العامة التي تريد أن تجعل من نفسها أمراً محسوساً و مؤثراً بواسطة سبل الديمقراطية، لأن هذه الإرادة للبشر هي نفسها غير محددة و غير ملموسة ما عدا في الصيغة التي تسيطر فيها و يُسيطر عليها و تتحول إلى شكل. الاستجابة لأولئك الذين يرون و يلاحظون، على سبيل المثال، عن طريق التعبير المناسب لحق الاقتراع العام، حيث تقرر الأغلبيَّة بشكل نهائي في حالات السراء و الضراء – و بهذا الصدد يقول نيتشه ممتعضاً: لا يمكن للأغلبيَّة أن تكون المعيار و الأساسّ في تقرير هذا الحق، لأنّها بفعلها هذا سوف تُؤسَّس أولاً لحكم الأغلبيَّة الساذجة الغبية؛ بمعنى إجماع أولئك الذين يؤكدون إخضاع أنفسهم إلى الأغلبيَّة يصبح هو المعيار و الأساسّ. ((لهذا السبب، فإنّ معارضة الأقلية حتى لو كان عددها قليل كافية لإلقاء ظلال الشك على الديمقراطية و ثرثرتها و ضجيجها و تكشف إنها لا تعمل و غير فعالة و بليدة و غير عملية في الغالب؛ كما عدم المشاركة في التصويت هو الأخر يعد شكلاً من أشكال المعارضة التي يمكن أنّ يُفضي إلى انهيار النظام و العملية الانتخابيَّة برّمتها...)) هذه الأفكار في خطوطها العامة و أخرى مماثلة نعثر عليها بشكلّ مألوف في كتابات نيتشه، التفسير الواثق الخطوة الذي يعد بتنشئة صلبة راسخة، و لكن بالمناسبة لم تمس هذه الإفكار إلاّ السطح. إنّ العملية الديمقراطية الواقعية، كما يفهمها نيتشه، هي حدوث عميق الجذور: في المقام الأول، الدولة و الحكومة كانوا لأكثر من آلف عام و نصف خاضعتين لمعاييرْ و مقاييس الدِيانة

المسيحية و تعمل بموجبها. استمر هذا الحال في تحديد و تعين طبيعة و أهداف الحكومة الديمقراطية مع أنّها تحاول أن تنكر جذورها الدينية المسيحية تلك. ثانيا، بما أنّ الإيمان التقليدي المسيحي و تأثيره بدأ يتضاءل و يأخذ بالضعف، فإنّ يحتم على الدولة و الحكومة معاً أن تواصلا المسير دون الإستعانة بخدمات الدِين:

(1) في رأي نيتشه، يوضح الأصل المسيحي للديمقراطية، الافتراء المقدس، و يضيء البواعث و النوابض الفكرية، كما يمكن اكتشاف و العثور عليه في كل الصيغ التي تتجلى و تتمثل بها. فبينما كان الإغريقي يفعل و ينجز الأشياء الكبيرة، أدَّى إساءَة روما استخدام السلطة، في المسيحية، إلى الثورة العارمة و الناجحة للعبيد و الضعفاء و المهمشين – أسمال بالية و أناس لا يتصور المرء أن يكون في العالم من هو أفقر منهم – و أسفر عن نتيجة مهمة هي أنّ تاريخ أُورُوبَّا يمثل، في نظر نيتشه، انتصاراً متجدداً ((للضربات الغرائزية الحقودة للعبيد و الضعفاء المعطوبي الأجساد و المنخورين المتسوسين و العامة الذين يريدون أن ينالوا تاج الحياة الأبدية)) و الاستمرار في الثورة، تهافت أخر معاقل النبلاء التي كانت مازالت مقروءة في أُورُوبَّا التي تعبر صيغ الديمقراطية و الاشتراكية لاحقاً عن انتصارها النهائي.

(2) وبما أنّ الإيمان التقليدي المسيحي، الأوحال الملتصقة بقاع الروح ورجاله الذين يتصفون بضرب من الإبَاء يثير الضحك، بدأ الآن بالذبول و الانحلال، فإنّ الحكومات الديمقراطية أيقنت أن عليها أن تحث الخُطا بإصرار و تجعل الأغلبيَّة أو الجماهير هي التي تحكم دون الدِين. تعرف نيتشه إلى هذه النتيجة العملية و تفاصيلها، في صيغ متنوعة، كما يقدمها في المخطط الآتي:

لما كان الدِين – أو الاستسلام الدِيني أكبر عملية غِشّ يمارسها الإنسان– يهدي من روع الإنسان، و هذا ليس أسوء الأشياء بالنسبة لنيتشه، و يرضي حاجته في أوقات الحاجة و الريبة و الأزمات و المشاكل الروحية، بينما يعفي الحكومة و لا يوجه إليها اللوم، وبما إنّه يحمي و يحافظ على مشاعر العامة الموحدة و إنسان العامة، فإنّهُ يجعل قيام الحكومة ممكن و يساهم في ثباتها و ديمومتها. حين يبدأ الدِين يلفظ أنفاسَه الأخيرة، فإنّ أساس الدولة و بواعثها الديمقراطية – التي تسعى إلى إرساء أسسّ المسيحية العَلمانية الهشة و غير معقولة – تتعرض إلى الاهتزاز بقوة و تصبح هذه الحالة هي المهيمنة. إنّ الدولة التي تهيمن عليها هذه البواعث تتوقف أن تكون السِرّ المقدس و تصبح حينها مجرد أداة بيد إرادة العامة – إنسان العامة. فهي لم تعد تتمتع بأيّ جزاء أو

واعز دِيني. و بعد حدوث التغيرات المتكررة في الموقف و التَجارِب العبثية، غدا الموقف الشاك و المرتاب في كلّ الحكومات عند نيتشه هو السائد في النهاية: ((النتيجة هي أنّ المفهوم الديمقراطي للدولة يعني موت الدولة، و وجوب تحرير حياة الفرد الخاصَّة (أنا حذر هنا، أنا لا أقول : الفرد جزافاً و أتخذ حياله ما يلزم من الحيطة و الحذر))). فبواسطة ملاحظة و نقد و شن الهجوم على الوضع الديمقراطي بمجمله من كل الجوانب، يضيء نيتشه شرط الناس غير المؤمنين في المسيحية في الوقت الحاضر و الذين تم قمعهم و كبح تحركاتهم و السيطرة عليهم بواسطة المثل المسيحية التي لم تعد مفهومة منذ زمناً بعيد. الأحزاب السياسية ذات النزعات الديمقراطية انتهى بها الحال إلى تقسيم المجتمع إلى طبقتين.

أصبح العالم الديمقراطي يبتعد شيئاً فشيئاً عن الدِين و يعده شيمة من شيم الذوق الرديء، ثم أنّ معنى و مدلول الطبقات بدأ ينحسر و يتقلص و يلفظ أنفاسَه الأخير إذا جاز التعبير. و بهذه نشأت و بدأت تظهر بوضوح في المشهد فقط و على العلن مجموعتان من الناس بين العامة: أولا، أولئك المالكون للثروات الذين لا يدركون أنّ المرء قيد يكون فاضلاً بشكلٍ يختلف عنهم؛ و ثانيا، أولئك الذي لا يمتلكون أيّ شيء، أيّ البرجوازيون و الاشتراكيون. كان اِنتباه نيتشه منصباً على القاسم المشترك بين هاتين المجموعتين. وبما أن كلتا المجموعتين منفصلة و بعيدة عن الدِين و لا تتمتع بأيّ أساس أو إمكانية للوجود الإبداعي، فإن ّكليهما، من وجهة نظر نيتشه، يقودان إلى الوجود الواهم المزيف الذي ليس له أيّ مستقبل بغض النظر على القوة التي يمتِلكهّا كلاهما في الوقت الحاضر.

يؤكد نيتشه أنّ البرجوازية، على سبيل المثال، تفتقر إلى التبرير الحقيقي المناسب لوجودها: ((فقط من له روح ينبغي أن يكون له ممتلكات – فدون حصول الأفراد على ممتلكات خاصَّة تصبح الملكية خطراً عاماً يهدد الجميع)). و لأن وجود المالكيين لا قيمة له و غير جوهري، يحاولون بكل قوة و تنتابهم رغبة جامحة في زيادة ثرواتهم حتى يضفوا على حياتهم شيئاً من المعنى و القوة يحتمون به و يقفون ورائه – في الواقع، إنهم يعانون صراع بين ماضيهم و سأم الحاضر الذي يفتك بهم. إنهّم يتخفون و يتنكرون وراء قناع الثقافة و الفن، و لهذا ((يثيرون حسد الفقراء و المهمشين غير المتعلمين، النظرة الكظيمة التي يزجيها إليك من أساءت الدنيا استقبالهم مذ أتوها، الأشقياء الذين لا يوقظون في القلوب إلاّ عاطفة الشفقة و المغلوبين على أمرهم، قطيع الخائبين و المغضوب

عليهم و الضالِّينَ و التعساء و المرضى من كل جنس و نوع الذين لا ينفكون عن الثرثرة حول شؤونه الخاصَّة و إقحام الله في أدنى و أتفه الأحزان التي يتخبط بها... بما إنّهم يكرسون مفهوم أنّ (متعة الثقافة)، العجينة المذهبة، هي حكرٌ على أولئك الذين يمتلكون المال)). العلاج الوحيد الناجع ضِدّ الاشتراكية – أن لمخجل لكل منظري الاشتراكية أن يقرروا بإمكانية وجود ظروف و تركيبات اجتماعية لا تنمو فيها الرذيلة، و المرض، و الجريمة – تدخل الجريمة ضمن مفهوم الثورة على النظام الاجتماعي و الثائر لا يعاقب بل يتم سحقه. قد يكون الثائر إنساناً تعساً و محتقراً و الثورة بذاتها لا تتضمن شيئا يستدعي الاحتقار و بالنسبة لنظام اجتماعي فإنّ ثورة إنسان ما بذاته لا تحط من قيمته، بل هناك حالات يجب علينا فيها أنّ نبجل ذلك الثائر لأنّهُ يشعر في مجتمعنا بشيء يجب محاربته – و البغاء و البؤس. فهذا يعني القضاء على الحياة – هو ((أنّ يعيش الإنسان حياته بتواضع و اعتدال و اقتِصاد ... و مساندة الدولة حين تفرض الضرائب على أيّ شيء غير ضروري و زائد. ألا تريد مثل المعالجات و الحلول؟ ثم يعترف البرجوازيون الذين يطلقون على أنفسهم (الليبراليون) على رؤوس الاشهاد بإنّ ميولهم و رغباتهم تشكل تهديد و رعب إلى الاشتراكيين، و هي أشياء لا يمكن تجنبها في عقيدتهم. لأنه، إذا كانون لا يمتلكون الثروة، فإنّ كل مبررات وجودهم ستتقوض و سوف يصيب ميولهم التغير و يتحولون في النهاية إلى اشتراكيين)).

أما اعتراض نيتشه على الاشتراكيين فأنّهم يمتلكون ذات الموقف، الذي يمتلكوه البرجوازيون، و لكن تحت ظروف و شروط مختلفة، فهم أيضاً لايفكرون إلاّ في الوجود بدل من التفكير في مكانة الإنسان. هدفهم و مقصدهم هو ((إدارة الكسل في الطبائع العادية و المألوفة للإنسان)).

يحاول نيتشه أنّ يقوض و يقضي على موقف ((الاشتراكيَّة))، و بذلك ينتهي أنّ الأخيرة تصر على تجاهل ((اللامساوة الواقعية بين البشر)). و بما أنّه نتيجة لذلك، سيتخذ جمع العامة العادين القرارات، فإنّ الاشتراكيَّة – التي هي ليست اكثر من وسيلة لإثارة الفردانية؛ فهي تتصور أنّه لكي يتم تحقيق شي ما يجب القيام بعمل موحد، تنظيم قوة ما – تتحول في شكلها النهائي إلى حكم و طغيان و استبداد أكثر الناس غباءا و أقلهم شأنا. هذا الطغيان و الاستبداد يعبر عن نفسه في ((أخلاق حيوان القطيع أو العبيد، الشكل العزيز اليوم للقطعان البشرية على قلوب الكثيرين، الذين يضمن النكوص إلى طباع الأسلاف الأولين و الردة الوراثية)): ((الحقوق المتساوية للكلّ))،

((المطالب المتساوية للكلّ))، ((قطيع واحد بلا راعي))، ((نعاج تشبه الخراف)). فيما يتعلق بأصل الاشتراكيَّة، يطلق نيتشه على الاشتراكييِّن تعبير ((المثال الكسول وسوء الفهم البديل للمثل الأخلاقي المسيحي)).

فمن حيث أنّ ((الاشتراكيَّة)) تحاول أنّ تطرح نفسها كجواب عن سّؤال العمل، يرفض نيتشه هذا السّؤال جُمْلةً وتفصيلاً، لأنّهُ يعدّه صياغة خاطئة و عنيفة، و بذلك يصرح: ((لا استطيع أنّ أفهم ما الذين يريدون القيام به مع هذا العامل الأوروبي الكادح المسكين البسيط بعد أنّ قاموا بتحويله نفسه إلى سّؤال)). و يطرح السّؤال فقط على هذا النحو: كيف يمكن للإنسان أن يحصل على الانسجام و الوفاق و التصالح و الرضا مع مهمته الضرورية الخاصَّة؟ كيف يمكن لنظام اللامساواة أن يتم تبريره و إعطاء المسوغات لمستتبعاته حينما يتم طرد و إلغاء العقاب الديني و أثره على ازدياد نفاذ البصيرة و حدّة الذهن، و على تطور الذاكرة و نموها، و على إرادة التصرف بعد ذلك بمزيد من الحذر و اليقظة و الحيطة و الكتمان؟

إن ما ينظر إليه نيتشه و يعدّه السمة الأساسيّة و الفاصلة في العصر الديمقراطي ينبثق حينما نسأل كيف سيكون الوجود الإنسان فيه؟ فهُوَ يرى الجماهير، و يرى الضغط الذي يمكن أن يمارسوه، حين يقول ((إنّهم كثيرون- كثيرون-جداً)) – إنّهم تسوية موحدة. محتقرا للجماهير و ما يأتي من ورائها، يطالب نيتشه بالآتي: ((أخلقوا و اجترحوا لأنفسكم مفهوم (الناس) بدلاً من مفهوم (الجماهير)، لكن عيبكم يكمن في أنّه ليس بوسعكم إطلاقاً أن تتخيلوا أنكم يمكن أنّ تفكروا بطريقة أكثر نبلا و سموا بما فيه الكفاية)). لكننا يمكن أن نلتمس بسهولة العذر بأنّ نيتشه كان في فقرات عدّة حين يذكر تعبير ((الناس)) (*Volk*) فإنّهُ كان يقصد أو يشير إلى ((الجماهير)) (*masse*).

تحطم الجماهير أولئك الأشخاص، الموجودين بين الناس، الذين يحاولون أن يحققوا ذواتهم و وجودهم و يريدون أن يجعلوا وجود الناس، بواسطة حضورهم الحقيقي، له معنى و مدلول معين. مع الجماهير، يتوارى كلّ شيء جميل عن الأنظار، لا يوجد معنى أو مدلول أو قيمة، و ليس هناك أي فرصة للفرد أنّ يحقق ذاته و وجوده. إنهّم مجرد أرقام ترتدي ((الزي الموحد.... و بهذا، بدأ رمل الإنسانية، الضعيفة حتما اتجاة العديد من الأمور، يتكوَّم و يتكاثر، الكل متساوون، صغار جداً، مستديرون جداً، سهلو الانقياد جداً، و مملون جداً)). يرفض العصر الديمقراطي أيّ نوع نبيل و سامي و رفيع من الناس. مواطنيه لم يعد بوسعهم أنّ يروا مكانة الإنسان: إنّهُ عصر القطيع، التاريخ

بأسره يشهد أنّه يخفي في ثنياه رغبة الطغيان، الذي لم يعد يعتقد بالقديسين و الرجال الفاضلين – بالنسبة للبرجوازيين لم يعد يؤمنون إطلاقاً في الطبيعة أو المكانة العليا للطبقات الحاكمة؛ أما بالنسبة للحرفيين العلمين، فإنّهم لم يعد يؤمنون بالفلاسفة. في رأي نيتشه، الجماهير – التي يشعر نحوها بالعطف و الشفقة و بالاعتبار و لكن ليس بالحب – تستحق الاهتمام و الانتباه فقط من وجهة نظر ثلاثية... كنسخ ضبابية مطموسة للرجال العظام... كمقاومة للعظيم... كأداة بيد العظيم... أما الباقي فدع الشيطان و الإحصاء يأخذهم. الجماهير موجودة في كلّ مكان، موجود بينهم المتعلمون و غير متعلمين، لم يعد البشر يجرؤن أنّ يكونوا أنفسهم بغض النظر عن المعسكر و المكان الذي يجدون أنفسهم فيه أو في صفهِ، و الأهم من ذلك لا يرغبون إلاّ في الرَفَاهيَة و الازدهار و الراحة و إشباع ملذات الحواس – تشويش الحواس يوازي فوضى العالم. يتوقع نيتشه نتيجة أنّ هذا العالم الديمقراطي لا محالة ((سيتحرك باتجاه نوع من العبودية الروحية لم نعرف أو نرى مثيلها من قبل)).

رؤى المستقبل الممكن

بما أنّ نيتشه، الذي لا يستطيع أن يعطي نفسه إلاّ بكاملها، كان قلقاً و مهتماً كثيراً في متابعة الشرط الإنساني، فقد وجهَ أفكاره، بكلّ طاقتها، نحو مستقبل الإنسان الأوروبي و إنقاذه، بصورة امتزجت بها توضيحاته و شروحاته العامة للسياسة المعاصرة بيسر مع دراساته الشامله و العميقة لما سيأتي به المستقبل من أحداث جسام في أُورُوبًّا و العالم – الشيء الوحيد الذي تمت البرهنة عليه هو كون العالم لا يريد بلوغ حالة تكون دائمة؛ لذلك يجب أن تتصور ذروته ليست حالة توازن. كان نيتشه ينظر دائماً إلى الحاضر بوصفه الجسد الذي ينطوي على الجرثومة و على التهديد المشؤوم القادم من الأشياء التي ستأتي في المستقبل. إذنْ، لم تكن رؤى نيتشه متنوعة و مختلفة فحسب؛ بل كانت تحتوي على خيارات حاسمة: فقد لاحظ و شاهد بأم عينيه سقوط الإنسان و انحداره و لكنه شاهد أيضاً صعوده و ارتقاءه. كان مفهومه للسياسة العظيمة/ الكبيرة يتطلب نمط إرادي من التفكير تتشابك فيه و تمتزج معاً رؤى التقويض و الدحض و الرؤى الجديدة للإبداع معاً؛ و كان هدفها، في الواقع، هو إنجاز تشخيص سريع للواقع بواسطة الوسائل التأملية من أجل أن يمنع وقوع وضع شديد الْخَطَر و مريع ممكن في المستقبل.

تفضي الديمقراطية –أقصد الحكومات غير الدينية في أُورُوبَّا التي نشأت في أعقاب حدوث الثورة الفرنسية – برؤيتها السائدة والمهيمنة إلى عالم و نوع من الإنسانية يرزخ تحت سيطرة ((سادة جدد)). و لكن زيادة على ذلك، كان في ذهن نيتشه، خلافا لذلك، مسارات أخرى ممكنة للديمقراطية قلَّما كان يتناولها بالبحث و التمحيص و لكن يمكن أن نعثر عليها هنا و هناك متناثرة في أماكن عدة من كتاباته. زد على ذلك، كان نيتشه يجري تأملات عدّة في المستقبل كان جُلّها يتعاطى مع عالم التطور التاريخي للأمم في علاقتها بعضها بالبعض الآخر و كذلك في رؤى التغيرات الممكنة في طبيعة الإنسان عموما في ظل الديمقراطية.

طرائق الديمقراطية — يعد مفهوم الديمقراطية عند نيتشه – الذي لا يعرف رأيه منه، أنّهُ لا يبقى زمناً طويلاً على حاله، فهو لا يرتبط بشيء. لا يستطيع الحكم عليه لأن كيانه يتفكك و يترمم دون انقطاع – من أكثر المفاهيم الملتبسة الذي يتيح لنا التحدث عن تناقضاته و اختلافاته و توتراته. من مجموع الإمكانات المختلفة التي كان يقوم بفحصها من حين إلى حين آخر بخصوص هذا الموضوع يمكننا القول أنّ هناك ثلاث اتجاهات رئيسية مدهشة و ملفتة للنظر، بالرغم من أنها كانت تسير بمسارات مختلفة.

واحد من هذه الإمكانات الثلاثة يشير إلى أنّ العالم، المحكوم خارجيا و المنظم داخليا، يتحقق بواسطة المعرفة – إرادة المرء في أنّ يرى الأمور على نحو آخر – و التعقل و الحصافة، و يتوحد بواسطة ((تحالف الأمم)) فيما بينها. مع أنّ نيتشه قد اكتشف شيئاً حزيناً و رتيباً في البشر في عصره، يعمل ((بقوة و بتعمد و وعي باتجاه ترسيخ و تكريس الديمقراطية و مستقبلها في هذا العالم))، إلاّ أنّه وبالرغم من ذلك كان يعي تماماً مقدار الأشياء المهمة و الاستثنائيّة التي يمكن أن تحدثها الديمقراطية: ((من الممكن أن تفكر الأجيال القادمة في العمل الديمقراطي بوصفه تشيد و بناء سدود صخرية و أسوجة و حيطان حامية – عمل في الواقع يثير الكثير من الغبار الذي ينتشر على الثياب و الوجوه... يبدو أن عملية دِيمَقرطة أو جعل المجتمع ديمقراطياً مهمة ترتبط في سلسة من المعايير الوقائية الهائلة... بواسطتها ننجح في أنّ نميز أنفسنا كأفراد و نضع مسافة بيننا و بين العصور الوسطى. الآن، عصر الصروح السيكولوجية المبنية من كتل ضخمة غير منتظمة قادم لا محالة! إرساء الأسسّ و الأعْمِدة الأمينة الأخيرة كي يتم تشيد بناء صروح المستقبل كلها عليها دون مخاوف أو مخاطر مقلقة!)) لم يولِ نيتشه اهتماماً يذكر أو بالكاد اهتم في مسألة توضيح هذه الأسسّ

و الأعْمِدة الأساسيّة، طبيعتها و طريقة عملها: لكنها يقيناً كانت تشمل كل القُوَى و الأعمال الروحية و الفوضى أيضاً. في هذه الأسس و العواميد الأساسيّة يعد قيام السلام الصعب و إرساء دعائمه ممكن و قابل للتنفيذ: ((النتيجة العملية الأولى... هي الإرادة الديمقراطية لكلّ عصبة الدول الأوروبية المتحالفة، و يكون لكل دولة فيها حدود جغرافية عملية محددة، و تمثل نموذج من التقسيم السياسي المماثل لنظام الأقاليم. سيتم بالكاد أخذ الذاكرة التاريخية للماضي لأيّ أمة من هذه الأمم بعين الاعتبار بما أنّ شعور التقُوَى و الإيمان الخاص و العائد لهذه الأمم لهم حصراً سيتم تدريجيا استئصاله من الجذور)). في هذا العالم الجديد، كل شيء يتقرر طبقا إلى المبادئ العقلية، و يتشكل وفقا إلى الإدراك الفعال. دبلوماسيي المستقبل ((سيكونون تلامذة الثقافة، الفلاحين، خبراء التنقل و السفر، و لديهم الأسباب و التأملات النفعية العملية – وحدهم يعملون بدلاً من أنّ يكون ورائهم جيوش تساندهم و تقاتل معهم)). في هذه النظم الديمقراطية يحصل الناس على القوة المطلقة – التي يريدها البعض بسبب مزايا السعادة التي تمثلها – التي لا تشبه في شيء نظيرتها تلك التي يحصلون عليها مع ((النظام الاشتراكيّ، كمذهب قائم على التغيرات التي تتعلّق بحيازة الممتلكات و توزيعها)). لكن الناس الذي تكون في يدهم السلطة و القوة في النظام الديمقراطي، خلافا إلى الاشتراكيَّة، يقومون بتوزيع الثروات و الملكيات و ينظمونها؛ و يقفون، على سبيل المثال، بالضِدّ من ((أمراء البورصة و تبادل الأسهم و سوق الأوراق المالية))، و يحاولون ((أنّ يقيموا و ينشئوا طبقة متوسطة تنسى بطريقة أمنة و تبتعد عن الاشتراكيَّة كسرطان يجب التخلص منه و اجتثاثه)). هذه الديمقراطية، التي يتحدث نيتشه عنها ((كشيء قادم إلينا بقوة)) و التي أكد (أنّه لا يقصد بها الديمقراطية الحالية)، ((يعمل على خلق و ضمان نوع من الاستقلالية لأكبر عدد من الناس))، بواسطة القتال و النضال و التخلص من ألد ثلاثة أعداء للاستقلال وهم: الفقراء المحرومين-المعدمين؛ الأغنياء؛ الأحزاب.

ثانيا، في الواقع، الإمكانية المضادة لكل ذلك سوف تتحقق إذا سيطرت الاشتراكيَّة و وصلت إلى السلطة. لأن الاشتراكيَّة تسعى، و بكلّ المستطاع، للاستيلاء على ((القوة السياسية، و تطمح إلى حجم من السلطة يفوق في حجمه تلك السلطة التي كانت بيد الحكم المطلق المستبد سابقاً – في الواقع، تسعى الاشتراكيَّة بقوة إلى تهميش الفرد و استئصال شأفته، بطريقة تفوق كل الطرق التي عرفناها في الماضي)). طبقاً إلى نيتشه، هذه الطريقة خطيرة جداً، لأنّها لا يمكن أن تفضي إلى أيّ شيء ثابت و مضمون. بالنسبة للاشتراكيَّة، ((لا دور تلعبه التقُوَى الدِينية في بناء الدولة... لذلك،

هي لا تطمح أن تبقى إلاّ لفترة قصيرة، توجد هنا و هناك، وبواسطة سلاح الحكم الإرهابيّ. بناءً على ذلك، إنّها تهيء الأرضية لسِرّ الحكم القائم على تسريد الإرهابّ)).

يشير نيتشه باقتضاب إلى الإمكانية الثالثة. إذا فشلت الديمقراطية في إقامة نظام عقلاني لعصبة الأمم، و إذا، قامت بشيء مختلف ربما يفضي إلى ((موت الدولة))، حينها سينتج الآتي: لا تعم الفوضى و السديم فحسب، ((بل سينشأ أيضاً حيلة أكثر ملائمة و منفعة من اختراع الدولة تتغلب على الدولة و تقوضها)). بالطبع، لا يريد نيتشه أنّ ينخرط في نشر هذا التصور حينما لا يوجد أحد حتى الآن يجرؤ أن يشير إلى حَبَّات البذور التي ستنمو في المستقبل. ((دعنا نتمتع بالثقة... أنّ الدولة في الوقت الحاضر على الأقّل تبقى قائمة لوقت معين، بينما كلّ محاولات التقويض المتهورة و المتحمسة المتربصة بها يتم هزيمتها و الإطاحة بها!)).

عالم التطور السياسي للأمم ـــ معظم المشروعات المتعلقة بالمستقبل الممكن للديمقراطية تهتم في الشروط السياسية الداخلية للدول؛ مع ذلك، هذه المشروعات يجب أن يتم تحدديها و رسم ملامحها مادام أنّ تعددية الدول موجودة و تأخذ مكانها بواسطة العلاقات السياسية بين الدول. الطريقة الاستثنائيّة التي تتطور بها الدولة، و المختلفة عن طرق تطور الدول الأخرى المألوفة، هي وحدها الذي تحدد و تقرر تطور الإنسان. تكشف رؤية نيتشه للمستقبل عن نفسها كحالة عجيبة و واعدة. يتنبأ نيتشه ((بتعاقب عدد من القرون العسكرية التي تسودها الصراعات و الحروب العالمية الدامية الكبرى، التي لم يحبل التاريخ حتى أيامنا هذه بحدث أهم منها، بصورة غير متساوية في التاريخ))، كما يعتقد دون تردد ((أننّا دخلنا الآن العصر الكلاسيكي للحرب على نطاق واسع – عصر الحروب العلمية التي تساندها الجهود الوطنية الشعبية))، ((ستشهد هذه الأرض حروباً دموية لم تشهد مثلها من قبل)).

أول مرة في تاريخ الإنسانية، يتحدد معنى هذه الحروب بواسطة محاولة السيطرة على العالم و حكمه. غدا ((عصر الحروب الوطنية)) بين الدول جزء من ((من المقدّمة الكاملة لشروط الحاضر الأوروبي)) – تكشف الإمكانات العظيمة للمستقبل عن نفسها فقط حين ننظر إلى المشهد السياسي و الاقتصادي كُلَّه: ((لقد ولى زمن السياسات الصغيرة: القرن القادم سيجلب فعلاً معه الصراع و الحروب العالمية الكبيرة من أجل السيطرة على العالم و إدارته اقتصاديا – سيجلب معه قسر و إكراه السياسة الكبيرة)). يمكن للتفكير السياسي أن يستمد معناه الحقيقي فقط من التفكير بهذا

الهدف. إنّهُ مسألة ((الدخول في معركة للسيطرة على الأرض و حكمها بالقوة مع احتمالات غير مُتَنَبَّأ بها أو مسيّطر عليها))، و فوق ذلك و ما بعده، في توظيف كلّ شيء روحي – في التفكير و الكتابة – ((كي تقوم أُورُوبًّا لمصلحته، بعد تهيئة و تقريب الإمكانيات البعيدة، بمهمتها الكبيرة على أحسن ما يرام: إدارة الثقافة و الوصايا على الأرض كلها)).

يتسائل نيتشه – الذي لا يستطيع أن يضبط شكوكه و الحَيْرَة تجعله في حالة رعب – ما هو المعنى الذي سوف تحصل عليه الأمم التي سارت في طريق القدر هذا، و يحاول أن يمعن النظر في وجودها الخارجي كما هو. يحكم نيتشه على البعض من هذه الأمم بطريقة سطحية لا تخلو من التعجل: في الوقت الحاضر الأمريكيون ينضبون بسرعة – يبدو أنهم ربما يمثلون القوة التي ستسود في المستقبل و تسيطر على العالم. ((أما الإنكليز – الذين كُلَّما أفرط تفكيرهم في استعمال الحرية يزدادون تعلقا بالأخلاق إلى درجة أنّ أشدّ المتزمتين بينهم هم بعض مفكريهم الأحرار – فلم يعد أحد بالمرة يصدقهم أو يصدق أنهم لديهم القوة الكافية كي يستمروا بلعب الدور القديم الذين كانوا يلعبونه حتى للخمسين عاماً القادمة... ينبغي للمرء الإنكليزي أنّ يكون اليوم جندياً إذا أراد ألّا يفقد سمعته كتاجر)). أما ((فرنسا الحاضرة، فإنّها تمثل الإرادة المصابة بأكثر الحالات خطورة)). فقط الروس و الألمان يثيرون اهتمام نيتشه من وجهة نظر السياسة العظيمة و الكبيرة:

يعتقد نيتشه بوسعنا في المظهر الخارجي للروس أن ندرك ونتعرف إلى علامات القوة الاستثنائيّة و المستقبل الفريد: ((علامات القرن القادم: مدخل الروس للثقافة: عظمة و فخامة الهدف. الاقتراب من البربرية. يقظة الفن و استيقاظ الفنانين، شهامة الشباب و أصالته، الجنون و عظمة الخيال)).

ما الذي ستكونه ألمانيا في المستقبل أن جاز لنا الحديث من زاوية سياسية؟ من جانب، يقول نيتشه، بلغة تسودها النبرة المنزعجة الآتي: ((الألمان أنفسهم ليس لديهم أيّ مستقبل)): لكنه يقول أيضاً، من جهه أخرى، أنهّم بجدارة يمثلون يوم قبل البارحة و يوم بعد غداً – الألمان ليس لهم اليوم أو الحاضر. ينطلق نقد نيتشه للألمان، الذين يتفوق على نفسه، من الحب اللامتناهي و خيبة الأمل الذي أصابته بسببهم. ربما حين يرى نيتشه أنّ الألمان ليس لهم أيّ قيمة تذكر، فإنّ هذا يُفّسر بوصفه إشارة إلى المستقبل الجديد القادم: ((الألمان الآن لا يمثلون أيّ قيمة تذكر، و لكن في المستقبل

سيكون لهم شأن كبير... نحن الألمان نطالب لأنفسنا بشيء غير معروف بعد أو ثمة أحد قد طلبه من قبل – نحن نطمح إلى أشياء أكثر مما كان لدينا من قبل!)).

في مشاريع نيتشه للعالم السياسي، هناك إمكانيتان تلعب دوراً رئيسياً: أما أنّ التفسخ السياسي لأُورُوبَّا ، الذي انتقل من خانة الحوادث الخفية إلى الظاهرة، يعبر عن القدر الأوروبي المنحدر و المتراجع مع جَمع الحكومات هناك؛ أو الوحدة السياسية لأُورُوبَّا وحكم العالم بواسطة أُورُوبَّا.

في الواقع، هيمنت الإمكانية الأخيرة على أفكار نيتشه و مقارباته: ((ما يشغل بالي و يحوز على اهتمامي أولا هو – أُورُوبَّا الموحدة و غير المجزئة)). و لكن القدر الخارجي لأُورُوبَّا، في نهاية المطاف، في العالم يتحدد بواسطة القدر الداخلي لها؛ لذلك، يطلب نيتشه: ((أنّ يتم إجبار أُورُوبَّا على أن تقرر ما إذا كانت إرادتها المتراجعة و المنحدرة فعلا يمكن أن نطلق عليها تعبير (إرادة). علينا أن نمنع الإنسان العادي المتوسط من النمو. علينا أن نفضل و نتعلم التقويض و الدحض بدل تشيد تلك الصروح المزيفة)). أُورُوبَّا ربما عالم يوشك على الانقراض– بيد أنّ نيتشه يرى في أُورُوبَّا الفرصة العظيمة و الأمل الوحيد للإنسان عموما على هذه الأرض. فمن جانب، يرى نيتشه في مستقبل الأوروبي ((أكثر الحيوانات الذكية عبودية، كادح جداً، متواضع بالأساسّ، فضولي جداً، طفل مدلل أفسدته التربية، ضعيف الإرادة – فوضى كوزومبولتية من المؤثرات و طراز لتكوين العقل بنمط كليّ ثابت))؛ الخطر الحقيقي هو ((أنّ تكبر أُورُوبَّا و تنمو غبية و يصبح الأوروبي بشكل متزايد تافه ضئيل الأهمية)). و من جانب أخر، يعتبر العرق الأوروبي عرقاً سامياً و متفوقاً مقارنة مع ((الأعراق)) الأخرى و هذا الحال نتيجة البيئة و الوَسْط الاجتماعي الذي يعيشه وبواسطة الوظيفة و ((المهمة المفروضة عليه)). يفضل نيتشه نموذج ((الأوروبي)) و يأمل فيه بواسطة ((العلامات التي تخرج أُورُوبَّا منها و تتجلى في صراعها كي تكون متوحدة)). يعتقد نيتشه أنّه يستطيع أن يدرك و يتصور هذا الاتجاه الواقعي العام في الجهود السِرّية لنفوس أولئك أكثر الناس عمقا و أكثر ممثلي هذا القرن من الرجال الذين ((يحاولون أن يتوقعوا مَسار المستقبل الأوروبي)). دائماً يلاحق نيتشه هذه الفكرة – التي تبدو اليوم على قصد كبير من العمومية و يُتخّذ حيالها ما يلزم من حيطة و احتراس– إلى خاتمتها النهائية و يدفع بها إلى أقصى مدياتها. من هذه الزاوية، يمكن للروح القومية-الوطنية، بناءً على ذلك، التي تتجلى بنفسها في عصره يمكن أن تمثل علامة من علامات الخطر، و مفادها ((كلّ شيء الآن يشير إلى المصالح و المنافع الكبيرة العامة)):

((إنّ القومية-الوطنية، كعقيدة، و في الطريقة التي تُفهم بها الآن، تفضي إلى المحدودية و قصر النظر)). يرى نيتشه في عظمة نابليون عظمة ((أُورُوبَّا في وحدتها السياسية))، كما يؤمن أن هناك إشارات تبين ((أن وحدة الأوضاع الاقتصاديّة لأُورُوبَّا سوف تحدث و تأخذ مكانها أيضاً بالضرورة)). كما كان يعتقد أنّه يستطيع أنّ يرى حتى ((ما يحدث في الأساسّ – تلاشي الروح القومية-الوطنية و خلق نموذج الإنسان الأوروبي بدلاً عنها)).

مع ذلك، هذه ليست الإمكانية الوحيدة. في ظل الخطر الذي يحدق في أُورُوبَّا، و إمكانية تعرضها للزوال على ((أيدي الغوغاء))، يصر نيتشه، في أحد المناسبات، على التحرك بسرعة لإنقاذ ما تبقى أو ما يمكن إنقاذه. علينا أن ننقذ ما ينبغي أن ننقذهُ في الوقت المناسب و بأقصى سرعة ممكنة! هناك بلدان معينة، بعكس أُورُوبَّا، صعب أنّ نصل إليها لإنقاذها، و لهذا تراجعت فيها الثقافة و تقهقرت بشكل مريع – على سبيل المثال، المكسيك. و في مناسبة أخرى، كان نيتشه يفكر بجدية في محاولة إقامة الوحدة بين ألمانيا و روسيا. كان نيتشه يريد ((تحالف ألمانيا مع روسيا... بسبب تراكم إرادة القوة بين البلدين و نموها و تعاظمها، و كذلك بسبب الضعف و التقهقر الذي أصاب العبيد هناك: تعد سيادة و سيطرة العالم الألماني-الروسي بلا جدال واحداً من أعظم الإمكانات المتاحة بعالمنا)). ((أجد أن هناك نزعة عميقة نحو العظمة في الشعور الذي يعتري العدمي الروسي أكثر بكثير مما هي موجود عند النفعي الإنكليزي... نحتاج أنّ نتعاون مع الروس على وجه السرعة... لا نحتاج إلى المستقبل الحالي!)) فكرة هذا التعاون راودت نيتشه مَرّة أخرى في ظل التهديد الذي يشكله المستقبل الروسي الطاغي الذي لا يقاوم. هذا التهديد الذي يجعل كل شيء آخر قزم بالمقارنة معه في هذه اللحظة: ((ربما يكون الروس سادة أُورُوبَّا و أسيا الجدد – و ربما تستعمر روسيا كلاً من الصين و الهند. و بسيطرتهم تكون أُورُوبَّا شأنها شأن اليونان إبَّان خضوعها لحكم روما)). هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يمكن أن يكون إمكانية محتملة على المدى البعيد: روسيا و الكنيسة – الكنيسة التي حلت محل الفلسفة القديمة من أجل إنقاذ الروح من أجل إنقاذ الخلاص فقد أمنت بالقوة التكفيرية للعقاب من جهة و بالقوة الماجنة للمغفرة من جهة أخرى – كلاهما لهما الأفضلية: ((كلاهما بوسعه أن ينتظر)).

بيد أنّنا نجد نيتشه – الذي يشعر أحياناً بالخوف من أنّه صحا أبكر من اللزوم – يفكر بطريقة مختلفة حين يستعيد الوعي الأوروبي كامل قوته. فهو لايرى في روسيا – مع احتياطيّ هائل من

الطاقة و الإرادة – إلاّ الخطر الكبير القادم الذي يحدق فينا، و يمكن إذا دققنا أن تكون السبب وراء إمكانية إضعاف أُورُوبَّا، و بتالي يقظتها بواسطة إشعال شرارة مقاومتها للعبودية. بل كان نيتشه حتى يمني النفس أن يزداد التهديد الروسي لأُورُوبَّا خطورة لأن هذا من شأنه، أن يحفز، إذا جاز التعبير، في تطوير إرادة القوة – الفكرة العظيمة دائماً موجودة، نجدها على شكل احتمال أو إمكانية أو أمل مصور بدائياً في العصور المبكرة – لديها و أنّ تنمو و تضع لنفسها أهدافا سامية للآلف عام القادمة.

و بينما تطغي على هذه المفاهيم نزعة تشكيل الوحدات الكبيرة – عالم الحكومات الأوروبية – ربما يكون لنيتشه تصوراً آخراً مختلفاً في ذهنه، فهو يعتقد أنّ هدف الوحدة السياسية في أُورُوبَّا لا يمكن أن يتم إنجازه إلاّ بواسطة القُوَى الخارجية في معركتها من أجل القوة و السيطرة و السلطة: إنّ ((التشرذم و التفتت في الهيئات السياسية الصغيرة التي هو أبعد المنظورات الأوروبية السياسية مازال من الممكن تخيله))، في حالة الدول الحقيرة و التافهة التي تبتلعها الدول الأكبر منها، في حين يتم ابتلاع الأخيرة بواسطة الدول المسخ المتوحشة الكبيرة ذات الآلة المخيفة، ثم تنفجر ((دولة المسخ المتوحشة الكبيرة الأخيرة في النهاية، لأنّها تفتقر إلى الطوق أو الحزام الذي تشد به ظهرها و جسدها: كراهيَة الجيران أو الدولة المجاورة التي تحيط بها)).

كل هذه الرؤى للمستقبل عند نيتشه، التي تريد أن تجعل من نفسها قرابين و هبات، تصل، المَرّة تلو المَرّة، إلى النتيجة أو النقطة النهائية لكنها سرعان ما تبدأ هذه النتيجة بالانهيار و التحطم. ليس هناك حالة استقرار في شؤون مستقبل هذا العالم. في الواقع، يحاول نيتشه بأمانه أنّ يتعقب هذه الشؤون إلى نتائجها النهائية، و يواجهها بكلّ ما تحمل من مخاطر، تزعزع عالمه المعاصر و تقلق وجوده، حتى يضيئها من جميع الجوانب و تصبح واضحة. فهو يعمل على تقويض معنى الأمان الزائف الذي ينشأ بفعل الاعتقاد أنّ الأهداف الكُلّية الموضوعة تضمن بطريقة أمنة أن العالم مرتب و يسير في نظام ثابت وفق قوانين مطردة. إنّ ما يظهر لنا و نصل إليه في الواقع هو الريبة و الشك في كلّ اتجاه و في كلّ شيء في هذا العالم – و أنّه ليس هناك دليل واضح يقيني لا تشوبه شائبة أو تدور حوله الشكوك يمكن أن يكون في متناولنا. تمثل رؤى نيتشه للواقع حقاً الهاوية العميقة المستغلقة على الفهم – و بهذا، لم يلزم الأخير نفسه أو يلتزم بأيّ إمكانية مستقبلية.

بواسطة النظر خلف أو ما وراء الشروط السياسية الداخلية و التراكيب و الاتّحادات السياسية الخارجية في دول أُورُوبَّا، يركز نيتشه أخيراً انتباهه على مشكلة تطور الإنسان عمومًا.

التحولات الروحية في طبيعة الإنسان. — بواسطة سلسلة الرؤى العريضة عن الإنسان يتطرق نيتشه إلى موضوع طبيعة الإنسان و خصوصيته:

تنتج التكنولوجيا/ التِقَانَة، على سبيل المثال، إمكانات الحياة غير المعروفة في الماضي، مع نتيجة أنّ الإنسان قادر على تطوير وعي جديد بوجوده و ذاته مختلف عما سبق. ((في هذا القرن الجديد، بدأ الإنسان يحكم سيطرته على الطبيعة، و بدأ هذا الشعور، في الحيازة و السيطرة، الذي يراوده يمنحه الكثير من القوة و الطاقة أكثر مما يستهلك منها...الطيران و التحليق لوحدنا سيمنحنا قوة تقويض كل المفاهيم و الأطر الثقافية السابقة... سنصل إلى عصر الهندسة حينما يبني الإنسانية و يشيد مَرّة أخرى صروح الأبدية، كما فعل الرومان من قبل)). ((في المستقبل، سيكون، أولا، في البداية، عدد كبير من المؤسَّسات التي يدخلها المرء طواعية للعلاج؛ و ثانيا، سيكون هناك أيضاً عدد كبير من أنواع العلاج المختلفة ضِدّ السأم، لأنهُ في كلّ وقت بوسع المرء أن يستمع إلى المحاضرات و ما شابه ذلك حول الحلول الناجعة لهذا الشعور؛ و ثالثا، ستكون هناك المهرجانات و الأعياد البهيجة و ما يرافقها من إبداعات فريدة للأفراد من شأنها أنّ تسهم في تحقيق الهدف من إقامة هذه المهرجانات)).

هذه التحولات و التغيرات، التي تعتمد على تطور التكنولوجيا/ التِقَانَة، و لاسيَّما في العَلاقة بالفرص الكثيرة المتاحة للمعرفة، تقدم لنا خطر تلاشي و قتل الثقافة نفسها بيدها. ((غدت الحياة مرهقة ومتعبة و مضنية بشكلٍ متزايدٍ و ربما نتسأل عطفا على ذلك هل القابلية التي يمتلكها الإنسان كافية للتعامل مع هذا الدرجات العالية من الإرهاق السيكولوجي و السقم)). حتى المعرفة، على الوجه الخصوص، يمكن أنّ تكون لا تحتمل: و ((حينما لا يجلب العلم السرور و المتعة و الراحة المرجوة و يقتل الكثير من المتع التي كانت توفرها حقول و ميدان الميتافيزيقا، الدِين، و الفن))، وحين تصبح الحياة مهددة بشعور اليأس و القنوط، حينها نكون بحاجة إلى قوتين متناقضتين: ((الحرارة التي يجب أن تنتجها الأوهام، ولع المحاباة، العواطف – بينما نوقف النتائج الضارة و الخطيرة في الإفراط في الحرارة تماماً بمساعدة التشخيص العلمي)). يمكن التنبوء إذا لم يتم استيفاء الشرط المزدوج ذي الشقين، فإنّ ((الاهتمام في الحقيقة سينقطع، و سيتقدم الوهم و الخطا، و الزَّيف

خطوة إلى الأمام يد بيد و سيحصل على موطئ قدم، و ستفتح الفانتازيا مرة اخرى الأراضي التي خسرتها و كانت من قبل تحت سيادتها خطوة بخطوة – و ستكون النتيجة القادمة تدمير العلم و إغرق الإنسانية في بحر البربرية؛ و عليه ينبغي للإنسانية أن تبدأ مرة أخرى من جديد... و لكن من أين لنا بالطاقة التي تعيننا في فعل ذلك؟ و مَنْ يضمن لنا أن لدينا دائماً القوة مرة أخرى أنّ نقوم بذلك؟)).

فضلاً على ذلك، حين يرى نيتشه أن كلّ شيء في حالة تغير و تحول خطيرة، و حين يفكر في الثورة في البيئات الاجتماعيةّ التي هي على الأبواب، فذلك لأنه لن يكون إطلاقاً مقتنعاً بالأفكار التي تلد حماسته التَوّاقة إلى تحقق النبل الإنساني، الذي شهد يقظة رائعة و مقلقة إبَان عصر النهضة، بواسطة هذه الأفكار في خطوطها العامة. في هذا الصدد ستكون ((النتائج له مخيبة للآمال و أقل مما هو متوقع و لا يوازي سقف طموحاته: فشل المرء دائماً في أن يحقق ما يريد و ما يصبو إليه، و الأمثلة واضحة بهذا الصدد و بخصوص ما حدث إبّان الثورة الفرنسية. حين يتلاشى التأثير الكبير وسموم العواصف الرعدية الصاعقة سيشعر المرء بخيبة الأمل و من الواضح سيحتاج إلى الكثير من الطاقة و العمل و الأفكار الجديدة كي يبدأ من جديد)). لا يمتلك المرء إلاّ تخمينات غامضة تنطوي على خطورة كبيرة فيما يتعلق بالتأثير الذي يخلفه موت الله و الأمور المتصلة بحس الإجلال و التقديس، انهيار منظومة القيم القديمة، خيبات الآمال في لا جدوى الأعمال الإبداعية، و تأثير الكوارث التي لا يمكن تصورها على الطبيعة الداخلية للإنسان. ((في القرون القادمة، ربما ستظل القُوَى الدِينية نشطة و فعالة كما هو الحال مع الدِين الإلحادي لبوذا، كما لا يبدي العلم أيّ اعتراض على المثال الجديد. و لكن لن يكون هناك حُبّ كليّ للإنسانية! ينبغي أن يولد إنسان جديد. أنا نفسي بعيد من هذه الولادة و ليس لي أيّ رغبة في ذلك! و لكنها تظل احتمال وارد)).

حين أطال نيتشه النظر و تأمل في المستقبل البعيد، يدرك – مع الأخذ بعين الاعتبار و تبني المفهوم التطوري لأصل الإنسان – الإمكانية القصوى التي يتوفر عليها، فبعد أنّ نشأ و تطور أصلا من القرد، ((فإنّهُ سيتحول مرة ثانية إلى قرد، حيث لا أحد يبدي أيّ اهتمام، في تلك النهاية المدهشة لهذه الكوميديا السوداء)).

يبدي نيتشه قلقه بصدد الإمكانات المحطمة للإنسان و حلمه بشأن الإنسان النبيل السامي و الرفيع، الذي يتخلص بحركة واحدة من كثير من الحشرات الطفيلية التي تكون مقيمة و معششة عند

غيره و بدأ يتململ كما لو أنه يستيقظ من سبات، كما تعبر عن ذلك شخصية زرادشت في كتابه ((هكذا تكلّم زرادشت)) في رمزية تطغي عليها صفة العظمة في مَعْرِض ذكره لشخصيتين متعارضتين هما ((الرجل الأخير)) الحقير العبد – الذي نظر طويلا بعين السوء إلى ميوله الطبيعية بحيث انتهى الأمر بهذه الميول إلى أن شكلت هي و الضمير المتعب جنسا واحداً – الذي تستبد به الكراهيَة للجنس البشري– شخص من سقط المتاع، من جهة – و ((السوبرمان)) – الغاية التي ينبغي أن يتوفر نوع أخر من الذهنيات، ذهنيات تصلب عودها بفعل الحرب و النصر، ذهنيات أصبح الفتح و المغامرة و الخطر و الآلم بمنزلة الحاجات عندها، من أجل الوصول لها – الذي نعلق كل أمالنا عليه، من جهة أخرى.

السادة الجدد. —– تختلف وجهة نظر نيتشه في إمكانية القيادة الجديدة عن رؤيته للمستقبل العالم غير المستقر. فيما يتعلق في رؤية نيتشه للعالم، يتصور نيتشه العالم بوصفه شيئاً ينزلق بعيداً، إذا جاوز التعبير – و لكن فيما يتعلق في إمكانية القيادة الجديدة، يبحث نيتشه عن تحول متماسك جديد للعالم الذي يسير بلا قيادة. يرى نيتشه الآن العالم، الذي يدين بوجوده إلى الديمقراطية، كطريق لجلب و استحداث سلطة جديدة. لقد سلم نيتشه بأنّ الديمقراطية هي قدر الغرب و نقطة البداية لأكثر الإمكانات الممتلئة بالأمل، مع ذلك، كانت تقييماته تسير بالطريق المضاد إلى ما يظهر له. بالنسبة لزرادشت، يعبر في هذا الصدد، عن ((كراهيته إلى النظام الديمقراطي الذي يدعو إلى المساواة بطريقة سطحية)) و إنّهُ في الواقع ((سعيد لأن الأشياء وصلت إلى هذه النقطة. لأنّه الآن فقط بوسعه أن ينجز مهمته)) . ((ديمقرطية أُورُوبَّا))، أو جعلها محكومة بواسطة نظام ديمقراطي مبرر بواسطة النتائج التي تجعله ممكناً – أعني، أنّه مبرر((في نفس الوقت بواسطة حقيقة الترتيبات الإكراهيَة و الفوارق لولادة الطغاة الجدد)). لأنه بواسطة تقويض الإيمان الدِيني التقليدي الشديد وسيلة الخلاص التي تولد شكوكا اتجاه موضوعها، و بواسطة الانحلال اللاحق، من الآنَ فصاعدا، لكلّ القيم التي كانت مقَبُولة من قبل بعد جهد جهيد، و بواسطة نمط و طراز الحياة غير المبدئي في كلّ الطبقات، و بواسطة تحول الإنسان إلى مجرد ذرة من ((الرمل)) – سوف يزداد نتيجة لذلك حضور اللايقين و الشك و الريبة و يصبح كبيراً لدرجة سوف يزحف الناس على بطونهم في التراب و لا يجرؤون على رفع رؤسهم قبل نشوء قيادة قوية للإرادة. إنّها نفس الشروط التي يتطور بها الإنسان العادي، ((حيوان القطيع المجتهد الذي يُدعَّى الإنسان))، و ذاتها التربة التي ينمو بواسطتها الناس الاستثنائيّن بمواصفاتهم الخطيرة الجذابة. ربما يصبح الرجل القوي – التقدم الذي

يبدو دائماً على شاكلة إرادة و رغبة و اتجاه نحو القوة الأشدّ بأساً كما يتم دائماً على حساب عدد كبير من القُوَى الدنيا – أقْوَى و أكثر غنى من قبل.

أفكار نيتشه المتعلقة في السياسة المستقبلية يؤجزها سّؤاله عن طبيعة أولئك السادة الجدد و خصائصهم و يشعرون أنّهم بشر من مرتبة رفيعة. تتعين طبيعة السادة الجدد، الذين يستخدمون الديمقراطية كأداة بينما يعملون في نفس الوقت على تحطيم جوهرها، و تتحدد بواسطة الوضع الآتي:

في المقام الأول، مَسار الأشياء لم يعد متروكا للأشياء تقرره بنفسها؛ بل يمكن أنّ يقوده إنسان من الطراز السامي الرفيع قادر على الإحاطة بواسطة أفكاره، بكل الإمكانات الإنسانية. ((فعلا، نحتاج إلى فيلسوف و قائد من طراز أو نمط جديد)).

في المقام الثاني، في العصر الخالي من الإله، ينبغي أن يظلوا هؤلاء السادة الجدد ثابتين دون الإيمان في الله، و أن يصدروا قراراتهم بحس عالي من المسؤولية – تحمل المسؤولية و لا تخشَ أيّ تهديد – قائم على الإيمان العميق في أنفسهم لا أكثر. لاسيَّما علاقتهم مع الناس ستكون ذات طابع جديد تماما. حكم الأغلبيَّة، حكم الجماهير الذي يعبر عن نفسه بواسطة المعايير الأمنة الديمقراطية، التي تساوي بين الناس و تحطم الاختلاف و التنوع في شخصياتهم، يتم استبداله بواسطة حكم ممزوج بين جوهر هؤلاء المحكومين مع إرادة السادة. هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، لا يحدث بواسطة المعرفة العميقة الفعالة لأولئك الذين يطيعون – بل بواسطة ضعف الجماهير، التي بلا إله، التي تهتف بأعلى صوتها طلبا للقوة و السلطة. سادة الأرض الجدد ((ينبغي أن يجلسوا مكان الله و يحصلون على الثقة المطلقة للمحكومين)). يعلق نيتشه آمالاً كبيرة على ((الحكم الجريء و الجسور القائم على القاعدة العريضة للقطيع الذكي و يعول عليه كثيراً)).

إذنْ، يتوقف مستقبل الإنسانية – الذي أحشر نفسي في شؤونه لأنّها شئوني أيضا – على سادة المستقبل. يحذر نيتشه من كلاً من إمكانات هؤلاء السادة و مخاطرهم. فمن وجهة نظر سيكولوجية، يحدد نمط و طراز الجماهير أو القطيع، الذي يجب أنّ يُحّكم، طبيعة السادة الذين ينبغي أنّ يحكموا. لأنهم ليس ديكتاتور يحكم على أساس بعض الحقائق المجردة أو لأنهم يجسدون شخصية ((السوبرمان)) العظيم – يكون العظيم عظيما باللعب الذي يترك رغباته تمارس و بالقوة الكبيرة

جداً الذي تعرف الوحوش الرائعة التي هي رغباته كيف تستخدمها – بوصفه لا ينصاع لأية قدرة من القدرات بل بالعكس يؤمن بتفوقه عليها كلها – بل ينبغي أنّ يكونوا أول الناس الذين ينالون الثقة غير المشروطة للجماهير في عالم خالي من الإله، و يمثلون الرجل المناسب للعامة. ينبغي أنّ يكون هناك تفاعل حميمي و فعال بين السادة الجدد و الناس الذين يحكمون. من الأهمية بمكان القول:هنا نريد أن نعرف أيّ الناس الذين يرفضون و يقاومون تحويلهم إلى قطيع يطيع فقط[62].

من جهة، تتحدد طبيعة العبيد-الجماهير، الغد نصيب الحائرين، و تُرسّم ملامحها بواسطة طبيعة السادة، أولئك الذين يمثلون الشعور العام، الأساسيّ الدائم و المسيطر الذي يشعر به عرق متفوق غالب، و متعارض مع عرق أدنى. لقد لاحظ نيتشه هذه العَلاقة بوضح في عصره: ((نحن لا نكف عن إصدار الشكوى بسبب افتقار الجماهير إلى الانضباط و التدريب العالي و ضبط النفس و اتباع طقم من قواعد السُّلوك...؛ فهم يعبرون عن أنفسهم و يكشفون عن طبائعهم غير المنضبطة إلى درجة تكشف فيها التَجْرِبة إنّهم حقاً يفتقرون إلى الانضباط و التدريب؛ فبغض النظر عن الطريقة التي نتصرف فيها، فإنّنا نقود الجماهير إلى الطريق – نحن وحدنا أما نرفع من شأن الجماهير أو ننزل بهم إلى الحضيض، ندمرهم بالضبط كما هو الحال مع أنفسنا الذي أما نحسن تهذيبها أو نسيء إليها و نهدمها)).

من جهة أخرى، يعتمد السادة – الحق الذي يخول صاحبه إطلاق التسميات، و يذهب شوطا بعيداً جداً، بحيث إنّ بوسعنا أنّ نعدّ أصل اللغة نفسها بمنزلة فعل من أفعال السلطة صادر عن أولئك الذين لهم الغلبة و الهيمنة – مع ذلك، في طبائعهم على الجماهير: ((قوة منظمة و شخصية من الطراز الأول مثل نابليون، الذي كان مؤشراً أخيراً على طريقة الأولوية للعدد القليل التي تتجسد فيه مشكلة الإنسان النبيل بلا منازع، على سبيل المثال، ينبغي أن يكون منسجما مع البشر المنظمين بطبعهم!)). إذنْ، ((أيّ أحد يتعاطى، في الماضي، مع الإنسان و وفق المقاييس الكبيرة و على نطاق واسع، فإنّهُ يحكم عليه بالضرورة وفق الصفات الأساسيّة التي يمتلكها... هذا ما كان نابليون، الخليط المركَب من ما هو لا إنسان و من يتخطى الإنسان، يفعله ببساطة. لم تكن الفضائل المسيحية تعني أيّ شيء له لا من بعيد و لا من قريب، فقد كان يتعاطى معها بوصفها صيغ فارغة عابثة لا جدوى منها و عدم)). ((بيد أنّ نابليون نفسه، مع ذلك، أفسدته الوسائل التي أراد أن يوظفها لخدمة أهدافه، كما فقد صفة النبل الذي كان يتحلى بها. فمن أجل أن يؤكد نفسه بين الرجال بطريقة مختلفة، كان

مجبراً أنّ يطبق عمل وسائل مختلفة – و بناءً على ذلك، لم يكن قيصراً، الذي كان نابليون مثله و فعل ذات الشيء الذي فعله، بالضرورة شخصية سيئة)).

من أجل أن تُضّبط حركة الجماهير – العبيد – و الذي منظرهم المشوه وحده سيعرف كيف يشفيهم – و يتم السيطرة عليهم بالضرورة، و في ضوء الأخطار الرهيبة المحدقة و المتربصة في الإنسانية في العالم الديمقراطي، يصبح تطور الإنسان السامي و الرفيع ضرورة ملحة، و في هذا الشأن يبدي نيتشه و يعبر عن كلاً من قلقه و توقه لرؤيته: ((إنّ الصورة التي نحملها عن أولئك القادة أو السادة الجدد...، الحاجة الملحة لوجود أولئك القادة، و الخطر الكبير الذي ينتظرنا إذا لم يأتوا أو يتحولوا، لظروف معينة، إلى أناس أشرار و سيئين – هذه في الواقع الأشياء التي تثير قلقنا الحقيقي و تجعلنا مكتئبين)).

و بينما لم يكن نيتشه – الذي يرفع شعار لا تخجل من أفكارك – قادر على أن يعطينا صورة بلاستيكية خالية من الحياة عن أولئك السادة الجدد، فانّ صورتهم كانت أمامه دائماً و لا تفارق مخيلته. يقول نيتشه: ((سادة الأرض الجدد سيشكلون الأرستقراطية القادمة روحاً و جسدا، الأرستقراطية المتدربة و المتأهبة دائماً – في نظام تقديرها القديم الذي تقدم للشعراء دائماً مادة غريزة يتغنون بها – على استيعاب كل العناصر الجديدة و تمثلها...)) لقد كان نيتشه يتصورهم بوصفهم ((أيقونة صخرية تصقل أمسنا، الطهارة و القداسة الجديدة، رجال حقيقين يتخلون عن ملاحقة السعادة و ينكرون كل وسائل الراحة)). فهم يعدّون طلب السعادة، و اختلاجاتها المجهولة الهُوِيَّة أمراً يخص الرعاع أو الشخص الأكثر تواضعا و ضعفا، و لا يمد لهم بصلة لا من بعيد و لا من قريب. ((فهم يبنون وجهة نظرهم و يستمدون شرعيتها بواسطة تاريخ مواظب ملي بالعبر و المعاني يمتد لآلاف السنين منح نقطة الانطلاق لإرادة الفلاسفة–أصحاب الأذهان العنيدة المتصلبة التي ينشدون الوضوح الفكري، ذوي العقول التي تهفو إلى ضم العالم الفكري في تنظيمات متحدة المركز و حلمت بتوحيد الجمال الحي للفكر و الفن مع قوة الصياغة السحرية للعلم الدقيق – و الفنانين– أولئك المتملقين الوقحين الذين يتزلفون السلطات قديمة العهد كانت أو حديثته، الذين كانوا خدماً متواضعين لأخلاق ما لفلسفة أو دِيانة ما – الطغاة في البحث عن القوة و السلطة)): ((إنّهم الناس ذو الطراز الرفيع و السامي الذين يرومون أن يوظفوا أُورُوبًّا الديمقراطية كي يحكموا السيطرة على أقدار الأرض و يضطلعون بمهمة وظيفة الفنان الذي يرسم بورتريه (الإنسان)

نفسه)). هذا الطراز الرفيع من الناس لديهم موقف تعبر عنه بدقة ((محاورة أفلاطون تيجيس)). بعبارة أخرى، ((كل واحد منا يريد أن يكون سيداً أو أميراً على الناس، كلهم إذا كان هذا الأمر ممكناً، بل يريد حتى أحيانا أن يؤدي دور الله إذا سنحت له الفرصة)).

من أجل أن يقوي أواصر العَلاقة بين الحاكم و المحكومين، و من أجل أن يرفع من مكانة و شأن بعض الأشخاص و يعلي من مراتبهم بقدر الإمكان، يمارس السادة الجدد، بتروي و تعمد، و يأخذون على عاتقهم مهمة تغير الإنسان و تحويل مسارته و سككه القديمة – ببساطة أنّهم يريدون أن يغيّروا هدف و مقاربات العصر الديمقراطي الساعي بقوة إلى المساواة بين الناس. أن الأوان لمنهج التربية – أنّ أفضل تربية في هذا العالم لا تتغلب على الغرائز القبيحة – و القيادة، الذي يبدو بعيداً و ليس في المتناول، أن يرسي دعائم أسس تسهم في وحده و ((ديمومة الشروط)) التي تنتج الإنسان السامي و الرفيع: ((قناعة السادة الجدد بوجوب نهوض الإنسان و الارتفاع إلى مستوى عالي و سامي في دولة ((العبودية)). لهذا، من الضروري ألّا نقيم الأنواع المختلفة من الناس وفقا إلى مقياس واحد يطبق على كل الناس و يلغي تنوعهم و اختلافهم. إنّ الموقف الذي يصف كلّ نوع من الوجود ينبغي أن يعكس الأمر الآتي كلّ فرد يحتاج إلى أن يمنح فرصة لتأكيد ذاته، و ينبغي أن يوجه الحكام جهودهم و مساعيهم لمساعدة الإنسان بهذا المسعى كي تثمر و تؤتي أكلها)). بما أنّ مفهوم ((السعادة بالنسبة للإنسان العادي، بمعناها العادي المُتعارف، أن يكون إنساناً متوسطاً و عادياً، فإنّها ليست ذات قيمة كبيرة بالنسبة لأصحاب التفكير العميق أو محل اعتراض و رفض من قبلهم)). ((السيادة، في ميدان واحد، تخصص الغريزة الطبيعية))، ينبغي الإعلاء من شأنها و تثبيتها كموقف يعبر عن طريقة وجود الحياة الإيجابيّة. من جهة أخرى، ((أيّ شيء يحاول أن يقوض و يقضي على عمل الغريزة، السعادة، شعور الرضا الذي يرافق وجود الإنسان المتواضع ينبغي رفضه و التخلص منه قدر الإمكان)).

المشكلة الرئيسة لتحول و تغير الإنسان، التي تتبادر للذهن للوهلة الأولى، هي العَلاقة بين العامل و رب العمل و التحولات و التعديلات التي تحدث عند كليهما. طبقاً إلى نيتشه، فشل العالم الديمقراطي فشلاً ذريعاً في التعاطي مع هذه النقطة: إنه ليس سؤال اكتشاف كلّ فرصة و استثمارها لغرض الربح – بل التركيز على ((رَفَاهيَة العامل، وضعه الجسدي و النفسي و رضائه الجسدي و الروحي)). من الأخطاء الجسيمة أن نفكر فقط في العمل و الأرباح التي يمكن أن نجنيها منه و ننسى

و نهمل تماماً العامل كإنسان. ((إنّ الممارسة المعتادة في استغلال العامل و مص دمه أصبحت غبية و مقرفة في العالم الغربي– غدت عملية استلاب واضحة تمارس على نطاق واسع على حساب المستقبل، و تشكل تهديداً سافراً لبنية المجتمع و لحمته الإنسانية)). كان نيتشه يتنبأ بنوع جديد من علاقات العمل، نموذج يعكس شكل العَلاقة العسكرية: ((تظل عَلاقة الجنود بقادتهم أعلى و أسمى من عَلاقة العمال برب العمل.... من الغريب أن يخضع الأشخاص الأقوياء – الذين يحيون الماضي و غدا معاً الذين يأتون كالقدر، بلا سبب و لا علة، و لا حيثية و لا حُجَّة، يحضرون بسرعة البرق بكلّ فجائيتهم و كلّ إقناعهم و بكلّ غيريتهم، بحيث حتى لا يشكلوا حتى موضوعا للكره و البغض– من الأفراد لطغاة و لقادة الجيش، و لكنه خضوع أقل ألما من الخضوع إلى الأشخاص غير المعروفين و النزهين كما هو الحال مع أباطرة الصناعة و المال.... حتى الآن يخلو أصحاب المصانع الأغنياء من أيّ صفة من الصفات التي تعزو إلى الإنسان النبيل و الرفيع السامي الذي يكن تقديراً كبيراً لعدوه....ربما، إذا كانوا يمتلكون صفات النبالة و المهابة و الروح الأرستقراطية بالوراثة، فإنّه لن يكون هناك داعي لقيام اشتراكيَّة القطيع أو الجماهير. إنّ الجماهير مهيئة في الأساس تماما لقَبُول دور العبيد – العبد الذي يريد أن يكون سيداً يحكم؛ بل يريد أن يخدم، كانت الخدمة قوته و فنه و كان يجيد فهمها كلّ الإجادة، إلاّ أنّه لم يكن يخدم من هب و دب بل كان يشترط فيما يخدمها أن يكون أعظم و أقْوَى سيد – و أيّ نوع مقترح من العبودية، و تبرهن دائماً على وجود الإنسان السيد السامي والرفيع، الذي يتصرف كما لو أنّ الخير يجب أن ينتصر دائما على الشر – الشخص الذي ولد كي يقود الآخرين – و حين لا يبحث لنفسه عن قيمة إلاّ في خدمة الآخرين فإنه قد أصابه الضجر و شرع في الانحطاط – بواسطة نبل و سمة السُّلوك و الموقف!)) يعدّ نيتشه ((الدولة المعاصرة للعبودية دولة بربرية، بما أنّهُ لا يوجد فيها سادة حقيقيون تنجز الأعمال الحقيقية))؛ مستقبل العامل تحت سطوة و سيطرة السادة الحقيقين لن يكون أقل ((عبودية من الأنظمة السابقة، و لكن يظل ذي ماهية مختلفة)): ((ينبغي للعمال إذنْ أن يتعملوا أولا أن يكونوا جنوداً، و يعيشوا أوضاعاً و مشاعر الجندي، قبل أن يكونوا عمال. المكافآت الشرفية، منح الرواتب، و لكن ليس الأجر! ليس هناك عَلاقة بين الدفع و الإنجاز بالمرة! و لكن وضع الإنسان في المكان المناسب، طبقاً إلى نوعه، كي يصل إلى أعلى مستوى من الإنجاز الذي تسمح فيه قابليته)). لذا، يصبح الازدهار و المتعة اليومية مثار قلق لهؤلاء العمال الذين يخدمون – تبادل و عكس الأدوار التي يلعبها الآن البرجوازيون و العمال غدا ضرورة: ((دع العمال يقومون بتغير أساليب حياتهم و

يحسنوا منها كما يفعل البرجوازيون الآن؛ و لكن فوقهم دائماً توجد القوة المِميزة التي تمسك بالاقتصاد بيدها، الطبقة العليا والسامية: الفقراء و البسطاء الذين يمتلكون القوة)). فقط الإنسان الحقيقي، الذي يمتلك أخلاق السيد في الأمر و القيادة، الذي يستطيع أنّ يقطع الوعود و وضعت بين يديه السلطة على الظروف و على الطبيعة و على المخلوقات ذي الإرادة الأضعف من إرادته و العلاقات الأقّل أمنا و اطمئناناً، قادراً على تحمل الشرط الضروري للدغات أفاعي العبودية، جاعلاً من هؤلاء الذين يعملون سعداء و راضين بواسطة منحهم ما يستحقون، منحهم فرصة احترام من يقودونهم بغض النظر عن مَنْ يكونون.

مهمة السياسة العظيمة

بتبني أسلوب التفلسف السالب يحدث نيتشه، الذي لا يشعر بأنّه على طبيعته أكثر ما يمكن إلاّ في ما هو خارق للعادة، قطيعة مع كلّ الأشياء التي يشترك فيها الناس و لاسيَّما في الإيمان التقليدي بها، و التي تحظى باعتراف و قَبُول كليّ بينهم، سواء كان الأمر يتعلق في الله، أو الأخلاق، أو العقل و ما شابه. فهو يرفض فكرة المساواة – أعني، أن يكون الأفراد في مجتمع ما أو دولة متساويين بينهم لا يختلفون عن بعضهم البعض و ليس لكل واحد له بصمته أو ختمته الخاصَّة به. بالنسبة لنيتشه، الناس لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يكونوا متساويين أو سواسيه بالطبيعة. ((ليس هناك ما يسمى بمُدَوّنة حقوق الإنسان)). كما أنكر أن يكون أيّ وجود للحق بذاته. كُلَّما كان نيتشه يصادف مفهوم يدعي الصَلاحِيَة الكُلّية المطلقة، كُلَّما كان يرى فيه ببساطة مثال نموذجي للكذب كما هو الحال بالنسبة له مع الصَلاحِيَة الكُلّية المطلقة ((للحقيقة)). الناس غير قادرين على يجتمعوا أو يتفقوا بخصوص الحقيقة ذات الصَلاحِيَة الكُلّية – لكنهم مع ذلك يفرضونها على أنفسهم و يتصرفون وفقاً لمتطلباته.

بما أنّه ليس في الحقيقة محكمة أعلى في سلطاتها من الناس أنفسهم و لاسيَّما فيما يتعلق في الأسئلة المتعلقة بمراتب الناس و قيمة الإنسان و مَقَاييس الحقيقة و الزَّيف، فإنّ القرارات المتعلقة بتلك المسائل يتخذها في الواقع الأشخاص الأكثر قوةً و نفوذاً و الذي هم في السلطة و بيدهم القوة و زمام الأمور. كانت وصية نيتشه الأخيرة، فيما يتعلق بالعالم، هي على النحو الآتي: عليك أنّ تقاتل وتصارع من أجل القوة. بمعنى سياسي ضيق، هذا يعني الصراع من أجل إقامة دولة القوة بالمعنى

الحرفي. من وجهة نظر السياسية الكبيرة، يعني أن تصارع و تقاتل من أجل القوة بمساعدة الأفكار الإبداعية التي تحول و تغير و تشكل بصورة غير مرئية البشر. لا تبلغ الحقيقة مكانتها الحقيقية، و لا تصل إلى مبتغاها، إلاّ بواسطة الصراع من أجل القوة – هنا يكمن كلاً من منابعها وحدودها.

يمثل السادة الجدد – الذين يتوق نيتشه لرؤيتهم في المقدّمة – قيام نموذج الإنسان النبيل الرفيع السامي في العالم الذي هو دون إله؛ أخذت السياسة العظيمة/الكبيرة لنيتشه على عاتقها مهمة تزويد أولئك السادة بالتأويل الفلسفي الكافي الذي يحتاجون و جعلتهم على علم بأنفسهم و يعرفون مهامهم: ((أنا أكتب خصيصاً لفئة أو نوع من الناس لم يوجد أو يخلق بعد، أكتب إلى: سادة الأرض الجدد)).

المشرعين —— تعد نقطة التحول في التاريخ، في استطالات المجال الحيوي الذي يخصه – أعني تحديداً، ((محاولة قَلْبَ كل القيم)) هي الشرط الذي لا مفر منه في فعل البناء الجديد الذي يروم نيتشه القيام به. لقد حانت اللحظة المناسبة لطرح المشكلة الكبيرة للقيم أول مرة، ...حيث العاطفة الروحية و الحرية، التي تتمتع بالانعتاق من كل قيد اجتماعيّ، وصلت إلى درجة لم تكن متخيلة أو وصلتها من قبل و بدأت تقُوَى و تترسخ كمشكلة رئيسيّة و ذات أهمية قصوى عند الإنسانية و تتطلب أخذ قرار بخصوص قدرها..... (من رسالة إلى صديقه أوفربيك، 18تشرين الأول، 1888).
و لكن عملية قَلْبَ القيم، التي ندين لنيتشه بالمحاولات الوحيدة التي بذلت حتى الآن من أجل إنشاء تاريخ لأصل الأخلاق و فصلها، لا يمكن أن تنجز في اللحظة الحاضرة و في أجواء تسودها أما التقييمات العرضية أو مشاعر الكراهيَة و البغض الشديد و الأهواء المنحرفة التي يتشبع الهواء برائحتها الخفية التي تفصح عن اسمها، و لكن ينبغي أن ينطلق إنجاز هذه المهمة من مواقع و مصادر و منابع عميقة نقية. بناءً على ذلك، ((قبل أن نقوم بوزن الأشياء و تقييمها)) يجب أن نضمن أولا عملية تنقيح لكل الأحكام القيمية السابقة و ندرجها في ((المقياس الجديد الذي سنتبعه – أعني، اتباع أعلى نوع من العدالة للعقل السامي الذي ينظر إلى التعصب و يعتبره من ألد أعدائه المميتين)). إذا اقتصر الأمر، في تلك المحاولة، على التوصيات و التخمينات، التي تتعدى بصورة ضئيلة عن الاستبدل و الإنابَة، فإنّ الحال لن يكون ذا قيمة تذكر و مجرد جَمْع من الآراء السطحية و إعادة إنتاجها. إنّ العملية الإبداعية – هذه المنابع الكبرى للروح، فيضانات الروح الذي غالباً ما تكون خطيرة و منبثقة بعنف، يريد العقل الأخلاقي الضيف المشؤوم أنّ ينضبها عوضاً على أن

يستغل قوتها و يوقرها – لقَلَّبَ القيم ينبغي تمنح التعبير المناسب و تكون لسان حال المصدر و الينبوع الذي يشكل أساساً ضرورياً لتطوير الوجود. عملية قَلَّبَ القيم ينبغي ألّا تخدم تقييم مفرد واحد يمارس من أجل متعته وأغراضه الشخصية فحسب – أن الرجل الذي يتصدى لهذه المهمة ينبغي أن يكون لدية القابلية و المؤهلات التي تخدم المهمة بمعنى يرى كل الإمكانيات كليًّا و يحمل معه عمق و معنى الوجود الإنساني المستقبلي. يشدد نيتشه في مطالبته الوصول إلى أقصى حدود الإنسانية و يذهب خلف و ما وراء كل الإمكانيات الإنسانية المعروفة، إلى درجة، أنّ في تحقيق هذا الطلب سيتحول أيّ اشتراك غير مشروط للإنسان في واقعه التاريخي إلى حالة تعصب غير مجدية. هذه المحاولة الإبداعية لقَلَّبَ القيم هي بالضبط الذي يطلق عليها نيتشه تعبير التشريع: إنّه ليس غرض المحاولة الفلسفيّة التشريعية الشاملة أنّ تشكل المفاهيم العادلة و الأخلاقية لما كانت هذه المفاهيم، في دورها، هي في الواقع نتيجة التقييم الشامل.

القوانين، في صيغها العارية المجردة، تعمل بصورة تقويضية مدمرة في نهاية المطاف. تصبح هذه القوانين حية و حقيقية حين يقوم تشريعها بفضل المشرعين الإبداعيين. ((فقط حين تنمو الحياة و تغدو قوية، و تتكدس القوانين من حولها و تصبح غير ذي جدوى))، حينها يصبح القول الصيني القديم الآتي قابل للتطبيق: ((لقد انقرضت الممالك القديمة و تلاشت عن الوجود، لأنّها كانت لديها الكثير من القوانين المكدسة غير النافعة؛ أو أكثر مما يستوجب)). ((و آسفاه))، يصرخ نيتشه، ((إنّ ما مهم عند المشرع، بل و حتى أكثر من أهمية القانون ذاته، هو الرغبة العارمة في إبقاء هذا القانون مقدساً – الإطناب في التقييم يجعل الشيء كله مقدساً – بدافع من الحب و الاحترام)). أولئك الذين يتمسكون بالقوانين ((يبحثون، في الواقع، أولاً عن الرجل العظيم الذي يتم محي و تقويض أيّ من القوانين و التخلص منها أمامه)).

إن ما يميز مفهوم ((السياسة العظيمة/ الكبيرة)) عند نيتشه – كبديل عن كل المشاريع الأخرى المهترئة – هو أن في الارتباط مع المشرع، لا يتم التعامل بالمرة مع السياسي النشيط، و لكن بدلاً عنه يتم التعاطي مع الفيلسوف، الذي يحتاج دائماً إلى سند و ذخر – لم يتعاطَ نيتشه مع نموذج سياسية خاصَّة لوضع واقعي متماسك صُلْب، لكنه تبنى الوضع التاريخي للعالم في عصره بالتفصيل. على الرغم من أنّ نيتشه كان مهتما بالرجال الذين سوف يديرون حركة التاريخ، و توقع أن تلعب الشخصيات الأساسيّة للفاتح، المشرع، و الفنان دوراً في ذلك إلاّ أن الشخصية الحقيقية و

المشرع الحقيقي للمستقبل كانت له هو الفيلسوف حصراً و لا شخصية غيره: ((إنّهُ وحده من يجيب عن سّؤال أين و لماذا ؟)).

أعلن نيتشه عن هدف التفكير الفلسفي بواسطة نوع المطالبه التي ربما لم يسمع فيه أحد من قبل. كان نيتشه واعيا تماما في حجم التأثير الإبداعي، الذي لا يقارن، الذي يمكن يمارسه و يضطلع به تفلسف الحقيقي – طريقته في التفلسف – و يعده بحق ظاهرة استثنائيّة. يحاول الفلاسفة ((بلوغ المستقبل، و الوصول إليه، بواسطة الضربات الناعمة لفرشاة الفنان المبدعة)). يريد الفلاسفة الوصول إلى ((القوة، إلى السلطة التي يمتد عمرها إلى آلاف السنين، ليجترحوا منها و يستحدثوا مَسارات جديدة غير مطروقة من قبل أو دروب لم تطأها قدم من قبل))، يهيئون بواسطتها إلى مغامرات و تجارِب ((كبيرة)) من التدريب، الانضباط، و الولادة بالجملة. و بنزعة، تطغي عليها قوة الاعتداد بالنفس، يؤكد نيتشه تفوقه على كل الفلاسفة الآخرين: ((نحن الفلاسفة، الذين نستشعر التفكير بحساسية عالية، نصنع دائماً أشياء لم تكن موجودة من قبل، نخلق: عالماً دائم النمو من التقييمات الأخلاقية، الألوان، الأوزان، المنظورات السلالم، الأحكام الإيجابيّة و السلبيّة على حدّ سواءَ. هذا الشعر، الذي نكتبه بفضل ملكة الذاكرة الحافظة و الدربة و المران المتكرر، يتحول لاحقاً إلى لحم و دم، و يترجم إلى واقع ملموس، بعبارة أدق يتحول إلى واقع عادي ملموس و مكان مألوف بفعل أولئك الناس الذين نطلق عليهم الناس العمليين. (هذا هو تقليدنا))). و من حيث أولئك الفاعلين العمليين يمتلكون الأفضلية و الفرصة في التعامل مع الواقع الصُّلْب و المتماسك بحرفية عالية، يرد نيتشه على كل المتهكمين و الساخرين ضِدّ ضعف تفكيره الذي يوصف بالحلم اللاواقعي و المغامر: ((تتوهم نفسك أنك حر.... نحن، المثمنون، الذين صنعنا مجدك و مَنْ تكون، نحن مَنْ ضبط ساعة نهوضك و إيذان البَدْء بالعمل!)) إنّ العَلاقة بين التفكير الإبداعي و الفعل الإبداعي – اختلافها و تطابقها – تغيرت كثيراً في الصياغات اللاحقة التي وضعها نيتشه. كان نيتشه يشير إلى الساسة، في فلسفته العظيمة، بوصفهم ((سادة الأرض))؛ و في مكان و وقت آخر يطلق عليه تعبير سادة السادة: ((خلف هؤلاء الحكام، يعيش الناس الساميون الرفيعو الطراز، السادة الجدد المتحررون من العقد و الروابط، و لا يشكل الحكام لهم إلاّ أدوات يستخدمونها وقت الحاجة لتحقيق الأهداف الكبيرة المرجوة)). لا يمارس تأثيرهم مفعوله بواسطة الأفعال المباشرة أو المرئية، بل تظهر نتائجه على المدى الطويل البعيد بشكل حاسم: ((إنّ كلماتهم الناعمة هي وحدها التي تجلب العاصفة: أفكارهم القادمة على أقدام الحمائم و الطيور هي التي ستقود العالم لاحقاً نحو السمو)).

((معهم يتحول العالم إلى يَنبوع و مجهز للقيم الجديدة، تلزم مخترعوا الضوضاء و الضجيج و تأمرهم بالصمت و تخرسهم بطريقة تجعل من ضوضائهم غير مسموعة)).

كان نيتشه يعي جيداً أنّ طريقة التفلسف الذي يتبناها تجري أحداثها خلال منعطف تاريخي شديد الخطورة: ((الأهم من ذلك كله، مَنْ يشعر و يعي مثلي ماذا يعني الإحساس بثقل الخيوط المبدعة التي تحدد ولادة الأشياء من جديد!)) (من رسالة إلى صديقه أوفربيك، 21 آذار، 1884). كان نيتشه يعلق آمالاً كبيرة، بل لا نجانب الصواب إذا قلنا يملئه الأمل، بأنّ الجيل القادم سيحدث التأثير المراد الذي جهزت و هيئت و خططت له أفكاره و عمله الفلسفي، و ((سيواجه المشاكل التي مادام عذبته و سببت الأرق له، و التي مازالت حتى الآن تشكل السبب المباشر لبقائه على قيد الحياة – الحياة على الهامش تعد أفتراء على الحياة – و جَلّ همه أن يجد لها الحلول الناجعة و يترجم هذه الحلول إلى أفعال عملية و إرادة)) (من رسالة إلى صديقه أوفربيك، 20 حزيران، 1887). كان نيتشه يصارع من أجل هدف حياته الرئيسي: ((مهمتي تتلخص: في حَثّ و مطالبة الإنسانية في حل المشكلات و تسوية الأمور التي سوف تساهم و تحسم أمر كلّ شي، في تشكيل المستقبل برّمته!)).

في نفس الوقت، كانت مشاعر الخوف – الذي إذا لم يكن من الممكن التغلب على الخوف المميت بوضع العقل مكانه، فقد كان من الممكن توجيه هذا الخوف و تنظيمه و منحه شكلاً و وجهاً و تحويل الاضطراب اليائس للمجانين إلى وحدة ثابتة قوية، إلى جوقة قوامها أصْوات فردية ثائرة هائمة على وجهها – و الذعر تنتابه مراراً كُلَّما أقبل على التفكير في حجم التأثير الذي يمكن تتركه الفلسفة على الكلّ، و لاسيَّما طريقته في التفلسف الذي يتبعها، و التي لم يتبناه أيّ واحد من قبل: ((حتى الآن، تاريخ الفلسفة ليس بالتاريخ الطويل، إنّه مجرد مرحلة البداية، إنّهُ مازال لم تعلن أو تشن الحروب بعد بسببه و باسمه... دعنا نعيش وجودنا التمهيدي و أن نتركه للازدهار، دعنا نشن الحرب ضِدّ آرائنا و نخضعها للنقد القاسي – نحن نعيش وَسْط الزمن الإنساني، الزمن الذي يمثل: عظيم الثروات أن لم يكن أعظمها!)).

دروب السياسة الكبيرة. —— من الناحية السياسية، كان جواب نيتشه الأول – الذي أحصى كل شاردة و واردة – عن سّؤال ما الذي علينا أن نفعله؟ يؤكد على ضرورة وجود شروط السياسية الكبيرة الراسخة، التي ينادي بها، قبل القيام بأيّ فعل سياسي محدد. فقط لأن المصدر الإبداعي للسياسة الكبيرة – قَلْبَ القيم و أعادة تشريعها – هو مصدر مهم هذا لا يعني، في المحصلة النهائية،

ينبغي أن يكون هدفاً. يمكن للسياسة أن تنبثق منه، و لكن لا تقوم بخلقه. هذا المصدر ليس شيئاً واقعياً استطيع أنّ اختاره بتروي كهدف لي لأني أجده نافع و مرغوب فيه. في الواقع، كي تتحقق عملية قَلَّبَ القيم و إجَراءِ التشريع من جديد غايتها هناك شرطان ينبغي إنجازهما. أولا، ليس التشريع الإبداعي فقط مسألة منطقية أو يتعلق بالإرادة الفعالة؛ فهو يستمد من عمق و مدلولية و جوهرية رؤية الإنسان المبدع. مع ذلك، في رأي نيتشه ((ربما يكون الإنسان اليوم، بل ولفترة طويلة، ينتظر عبثاً وصول هؤلاء الرجال العظام المبدعين)). ثانيا، ينبغي للتقييم الجديد، الذي ينطلق من التقييمات الإبداعية السابقة أن يواجه و يصطدم بالاستعداد و الإمكانات التي يتوفر عليها العالم – ينبغي أن يكون للإنسانية فعلاً هذا الإصرار غير الواعي الذي يساهم في إحداث مهمة قَلَّبَ القيم و إعادة تشريعها: ((قَلَّبَ سلم القيم و إعادة تشريعها – ما الذي تعنيه تلك المحاولة عبر الكلمات و الجذور؟ ينبغي للحركات التلقائية أن تكون حاضرة في هذا القَلَّبَ.... أيّ مذهب ربما يكون بلا نفع ما لم يأخذ في الحسبان المخزونات الاحتياطية من الطاقة و القنابل الموقوتة و الديناميت في تدابيره و تنظيماته المتعلقة بقَلَّبَ سلم القيم)).

يعلم نيتشه جيداً أنّ هذه الشروط الحاسمة للسياسة العظيمة/الكبيرة، التي ينادي بها – بشرى النبأ السعيد – غير موجودة بعد. هذا الأمر يقف في تعارض صادم مع ما يعرفة و يميزه عن هذا العصر بدقة بوصفه اللحظة-التاريخية للعالم الذي تصبح فيه أكثر الإمكانيات البعيدة و المهام العظيمة قريبة التحقق و مرئية– بهذا الصدد يقول نيتشه الآتي: ((فيما يتعلق في المستقبل، و الأفاق الهائلة لأهداف العالم الإنساني، في الواقع، أنّ شمسها تتسع لتضيء و تدفي كل قاطني هذه الأرض، و تقدم نفسها لنا واضحة أول مرة في التاريخ)).

ما يميز وجهة نظر نيتشه هنا هو السعي الجاد إلى تصور الحدود و تحديد لمفهوم الكل غير المحدد. فبسبب اهتمامه بأكثر الإمكانات بعدا و بالأفاق العقلية الجديدة، من النادر لتفكيرة أن يبلغ مرمى الفعل المتماسك الصُّلْب في العالم الواقعي و الفعلي، و نتيجة لذلك و بسبب هذا الإخفاق، يأخذ شكل الجدل و السجال و الهجوم العنيف الواقعي بلا شفقة، لكنه لا يشكل واقعاً تجريبياً. و سواء كانت السياسية العظيمة الكبيرة، التي يطالب بها نيتشه، ترتبط في الماضي أو في المستقبل أو الحاضر، فإنّها تبدو مراراً كما لو أنّ كل شي فيها يصبح غامضا و مطموسا بل حتى مدفوناً في أعماق بعيدة.

الماضي لم يعد يشكل بالمرة أيّ شيء: ((هناك الكثير الذي ينتظر الإنسانية في المستقبل؛ كيف نجرؤ على التفكير أن بوسعنا العثور على المثال في الماضي ؟)) ينظر نيتشه إلى المستقبل بوصفه شيئاً واسعاً و واعداً جداً، عالم مترامي الأطراف، بالكاد يمسه الإنسان المعاصر أو يقترب منه: ((ليس مدهشاً أو من باب المفاجأة أن بعض آلاف من السنين تعد ضرورية للعثور عن نقطة الاتصال مرة أخرى مع الإنسان – مرور بعض آلاف من السنين أمر لا مفر منه!)) يُدّرك الحاضر بوصفه الإنسانية الشاملة بكليتها؛ إنّهُ التاريخية الصُّلْبة المتماسكة للفرد و للناس (*Volk*)، الذين تعيش بينهم و معهم، و تهدد في الاختفاء نتيجة الحقيقة الآتية: ((صراع القوة بين الدول الكثيرة أصبح المنظور المألوف للعالم)).

يؤمن نيتشه بقوة: ((بنَبَوات ونذر المستقبل! ساعة الغبطة الأبدية السرية، الاحتفال في المستقبل القادم، الأصوات البعيدة التي تتناهى إليه و القادمة من أصقاع بعيدة و ليس في الماضي! أنّ تعيش الأمل! و اللحظات الهنيئة!)) و بذلك يخلص، بخصوص هذه المطالب، بالقول: ((أرفع الستائر مرة أخرى و أعرض أفكارك على كبار الملاّكي كي تحدد و تعين الأهداف المباشرة!)) لكن التمسك بهذه الأهداف ليس من اختصاص أو عمل السياسة الكبيرة، و بذلك، لن تقوم بملاحقتها و السعي ورائها.

التأمل و إطالة النظر في الحدود و الشؤون البعيدة هو في الواقع جوهر السياسة العظيمة/ الكبيرة و ماهيتها. بالنسبة لنيتشه، لم تعد العناية الإلهية توزع بركاتها على الإنسان تقوده و ترسم ملامح قدره. لقد مات الله، و لم يعد الإنسان، الذي حل محله، يثق في أيّ قوة عدا نفسه – لقد مات الإله و الآن نريد الإنسان الأعلى أن يحيا. و بهذا، علية أن يأخذ زمام الأمر بنفسه و أن يرسم قدره بيده لا بيد أخرى. من أولوليات أهداف هذا التفكير القصدي غير الترسندالي لنيتشه أن يجعل الإنسان واعيا بمهمته الحقيقة ودوره في هذا العالم – بدأ الإنسان الآن يقترب من المهمة العظيمة و يحدد بدقة المشكلة التي تواجهه: ((كيف يمكن أن نحكم هذه الأرض برّمتها؟ أو ما الهدف و الغرض من وراء وجود الإنسان – فهو ليس مجرد موجود ينتمي للناس أو عرق معين – و كيف يتم تربيته و تنشئته؟)) ((ينبغي للإنسان نفسه أن يتولى مهمة حكم الأرض على نطاق واسع، و أن يستخدم معرفته الغنية في حماية القدر المستقبلي للثقافة بعيون حريصة لا تنام)). إذنْ، ما الذي ينبغي لنا أن

نفعله؟ ((علينا أن نتخذ القرارات الصائبة الطويلة الأمد فيما يتعلق بالمناهج على مدار قرون! لأنه في المستقبل ينبغي أن تكون قيادة و توجيه مستقبل الإنسانية بأيدينا لا بأيدي غيرنا!)).

و لكن مرة أخرى هذا المنظور، بقدر ما هو فخم بقدر ما هو عقيم تماماً، كما أنّه من النوع الذي لا يمكن إنجازه الآن و أنه لا يمثل حل. إذا كنت أقوم بدور الله، و هو بالمناسبة يجعل الإنسان سعيدا داخل هذا الإحساس دون البعد الترسندالي المتعالي، و أقتفي أثر المناهج القائمة في أسسها على معرفتي، و أريد أن أحكم سيطرتي على الكلّ، فإنّي سوف أحدث حالة من الشجار و العراك الصاخب ما لم أكن ملما و مطلعا و عارفا على الكلّ. لكن نيتشه يصر أن هذه المعرفة، التي نحتاجها و نعتمدها و نمضي معها في أداء مهمتنا، لا توجد إلاّ في صيغة عشوائية: ((على أيّ حال، علينا أنّ نبلغ و نصل إلى المعرفة التي تتعلّق في شروط الثقافة التي تذهب خلف و ما بعد أيّ شي، من الآن فصاعدا، و تؤدي وظيفة المعيار لتحديد أهداف العالم إذا أرادت الإنسانية أنّ تتجنب تقويض و تهديم نفسها بنفسها، وذلك بواسطة عمل حكومة كُلّية مدبرة. هنا، في الواقع، تكمن المهمة الصعبة للعقول العظيمة في القرن القادم)).

بدلاً من تطوير نظرية سياسية غير غامضة أو ملتبسة، يكشف تفكير نيتشه النقاب عن هاوية الوجود و غموض الواقع. كل المحاولات التي رسمت استنتاجات نهائية، فيما يتعلق فعلاً بالمتماسك الملموس، تنتهي بالفشل في ظل غياب الشرطين الذين يراهما نيتشه نفسه متطلبات ضرورية للفعل السياسي الممكن: [1] قَلّبَ كل القيم و إعادة تقييمها من جديد و تطوير إيمان مؤثر و فعال؛ [2] و معرفة علمية تطغي عليها الرابطة السببية فيما يتعلق بالشؤون الإنسانية تتجاوز كل المعرفة السابقة. ما لم يكون هذان الشرطان أعلاه حاضرين و متوفرين، يصبح من العبث النظر بالنسبة لنيتشه إلى أيّ استنتاج يتعلق فعلاً بالمتماسك الملموس. إذا كان المرء، في العَلاقة بالشرط الأول، يتصرف كما لو أنه يعتقد في نيتشه، و يحفزه هذا الاعتقاد، لإنجاز مهمته بواسطة تفلسفه كليًّا، فإنّه يبقى يشعر بحاجة إلى الإجابة عن سّؤال ما موضوع هذا الاعتقاد و كيف يمكن تسويغه: يمكن أنّ يكون نيتشه النبي المزيف الذي تقود معتقداته إلى الضلال و الزيغ. أما فيما يتعلق في الشرط الثاني، إذا كان الواحد يخطط و يتصرف كما لو أن المعرفة التي تكون ضمن أفق التحصيل و التحقيق العملي في العالم تساوي المعرفة الخبيرة للكلّ، حينها فإنّ التأثير المرجو لن يحدث إطلاقاً – أيّ إساءة فهم لنيتشه و تفسيره بطريقة خاطئة، يمكن أن تؤدي إلى القَبُول بمذهب وضعي رخيص بدلاً من

المعرفة. في كلتا الحالتين، نحن نقتفي أثر نيتشه. سنرتكب خطا فادح إذا اعتقدنا أنّ نيتشه يعتزم رسم مخطط يمكن لنا ببساطة أن نستولي عليه أو نغيره. هذا الوضع الذي لا جدال فيه يبرهن على نفسه في السياسة الكبيرة و ذلك بواسطة حقيقة امتناع نيتشه عن التفكير نيابة أيّ أحد، فكلّ ما كان يسعى فقط بصراحة هو تحقيق هدف وجود ((السادة الجدد)).

التربية والتهذيب — خلال حياة نيتشه كلها، كانت وجهات نظره المتعلقة بالمناهج و تطبيقاتها تنبثق من اتجاه واحد فقط: مفهوم التربية، الذي تبناه منذ نعومة أظافره، حيث فسح الطريق بدوره لمفهوم آخر في غاية الأهمية هو مفهوم التهذيب و الذي بدأ التعبير عنه في مراحل متأخرة في فلسفته.

ينظر نيتشه إلى التعليم بوصفه مصدراً و أداة التطور عند البشر الذي مازالت غير موجودة – التربة التي تثمر منها بَذْرَة المستقبل. ((سيأتي قريبا الزمن الذي تتجه أفكار و اهتمام الكل نحو حقل التربية و تهتم به و تمنحه التقدير و المكانة التي يستحقها)). و لأن تطور الإنسان ينبغي العثور عليه بصورة نهائية في نمط و طراز التعليم الذي يقدمه نيتشه، ينظر الأخير إلى التربية بوصفها الراسم الحقيقي لحدود الوجود. ضمن هذه الحدود، يعتقد نيتشه جازما أنّ الإنسان النبيل الرفيع السامي قادر على ترجمة المعنى الحقيقي للتربية على أرض الواقع. مع هذه الفكرة – التي تبدو في ظاهرها طبيعية جداً و تفرض نفسها بشدة، و اضطر الناس إلى وضعها في محل الصدارة لكي يفسروا كيف يكون شعور العدالة على الأرض – قدم نيتشه مقترحات متماسكة و قوية، لكنها بحد ذاتها لم تكن لا بالحازمة و القاطعة و لا هي بالمقترحات التي يمكن الدفاع عنها أو تصمد أمام النقد، بوصفه قوة من جملة القُوَى العظيمة التي تحافظ على الحياة و تؤكدها.

على سبيل المثال، يقترح نيتشه – الكائن الجموح الذي لا يروض – فكرة تنظيم التربية – التي هي الآن الوسيلة التي تدمر بواسطتها الاستثناء لمصلحة القاعدة – و التعليم و يشرحها في سلسلة من المحاضرات التي تتناول مستقبل مؤسَّستنا التربوية و التعليمية. تطغي على مقترح نيتشه المذكور آنفاً سمة الديمقراطية بما إنهُ يأخذ بعين الاعتبار تعليم كل الناس و يختار من كل المستويات بلا استثناء. بيد أن هذا المشروع، إذا دققنا به كثيراً، نكتشف إنّه يمتاز أيضاً بالنزعة الأرستقراطية من حيث إنّهُ يولي اهتماماً بفئة النخب أو الأفضل: ((لا يمكن أن يكون هدفنا تعليم كلّ الجماهير، و لكن يجب أنّ نختار منهم الأفراد المميزين بحذر الذين نريد تعليمهم – الأشخاص المؤهلين حقاً و

نوفر لهم كل المستلزمات كي ينتجوا لنا أعمال عظيمة و كبيرة ذات قيمة دائمة ومستمرة في قابل السنين)). بالنسبة لنيتشه، ينبغي أن يكون لنظام تعليم الناس أن يختار أفراده بعناية و حرص كبير و يقتصر على النخب. ((ينبغي أن تكون إدارة العملية التعليمية بطريقة مبتكرة جديدة مختلفة عن كلّ ما سبق. تشجع المؤسَّسات الحالية، التي يتردد عليها عدد كبير جداً من الناس/ الجماهير ليتلقى تعليمهم الدِيني، و تعتبر ملاذاً مناسباً لتنمية غرائزهم الدِينية، على تبني أوهام و مفاهيم الصور الخرافية و الأسطورية وتكرس من وجودها و تبقى مخلصة لها و تتحرك في إطار خدمة تقاليدها و عاداتها و أعرافها و سننها، و الالتزام بقوانين الدولة، أرض الوطن، و اللغة – كل هذه الميادين و الحقول يمكن الوصول إليها مباشرةً و التعبير عنها – بواسطة الأفعال التقويضية و الدحض للعنف.... يتضمن نظام تعليم الناس المتبع الآن الحفاظ على فقدان و انعدام الوعي المفيد و الصحي عند الإنسان، و أخذ القصد الكافي من النوم للحفاظ على صحتك)). يوجه نيتشه اللوم إلى عصره و إلى مؤسَّساته التعليمية الضعيفة و الفاسدة، بكل سَنَنها و قواعدها من رموز و صور، و ينتقد بدوره معاييرها، و يقف بالضِدّ من طروحاتها الرئيسية، لاسيَّما في الدفاع و الدعوة عن سياسة تعليم القلة و النخب حتى يتم تقوية المؤسَّسات التعليمية و التربوية بواسطة هذه النخب و تحويلها إلى مؤسَّسات مكتفية بذاتها. لم يكتفِ نيتشه بذلك بل طرح مقترح ما يسمى ((مثال تعليم الحلَقات أو الدوائر الصغيرة)): ((ينبغي أن يكون لدينا حلَقات و دوائر تعليمية كالحلقات الموجودة في الأنظمة القديمة للرهبان و لكن فقط مع محتوى و مضمون و مقاربة أوسع و أكثر دلالة)).

في محاولته التخلي كل المفاهيم المتعارف عليها في عصره، التي تشجع على ضعف الذهن و قابليته في تلقي الأوهام، يستخدم نيتشه صفة التنوع الذي يتوفر عليها تفكيره للكشف عن التناقض الكامن في مفهوم التعليم في عصره: كلّ شيء نتوقع إنجازه بواسطة التعليم موجود و مفترضا فعلاً سلفًا كحاضر في الشخص الذي نريد تعليمه، يا لها من محاولة فارغة عابثة.

في صراعنا نحو السمو، الذي كُلَّما ارتفع أكثر ازداد لذلك الذي يصعد، نتوقع و نأمل أنّ تتحقق الأحلام و نتمنى أن ننثر، في أرض الأجيال القادمة، البَذْرَة التي فشل جيلنا الحالي في زرعها و تنميتها. لكن التَجْرِبة تبرهن لنا أنّ الموجود فعلاً و مسبقاً، و ليس الجديد، هو فقط القادر على التطور. و عليه، فكي نحصل على تعليم نافع و مفيد، ينبغي أولا أن نتحرر من الأحكام المسبقة، و البلبلة التي تحدثها التي تتمادي في غيها حتى الكره، عن التعليم: ((ينبغي للمعلم الحقيقي و الصادق

أن يعلم تلامذته الماهية الحقيقية لطبيعة الإنسان كإنسان– أن يعلمهم الشيء الذي نفتقر إليه و لا يتم تلقينه بالمرة أو التطرق إليه في مؤسَّستنا التعليمية الحالية.... معلمك ينبغي أن يكون الشخص الذي يحررك من أوهامك و جهلك)). يحتاج المرء إلى المعلمين أمناء و حقيقين و صادقين لا مزيفين كي ((يرى بصورة صحيحة، المرء ينبغي أن يتعلم كيف يفكر و كيف يتحدث و كيف يكتب)) بطريقة جديدة غير مسبوقة من قبل. و لكن حين يكون مستوى التعليم ضعيفاً و متدنياً، يصبح هدف التعليم إنتاج ((أفراد متساويين و غير متميزين أو مختلفين بعضهم عن البعض الآخر، معتادين على طاعة القوانين و اتباع العادات و التقاليد والأعراف السابقة و السير وفق نظمها دون سؤال أو نقد – إنّ المؤسَّسات التعليمية و التربوية الحالية تقترح في نظمها، و تعمل على تطبيقه بصورة عملية، على أن يكون الإنسان عبداً و ليس حراً))، كما لو ((أنّه نسخة مكررة لما تم إنتاجه سابقا))، و بهذا، فإنّ ((التعليم بالأساس هو الوسيلة التي ندمر بواسطتها الاستثناء لمصلحة القاعدة)).

في تأكيد على طبيعة الحدّ و رسم معالمه، يتقدم نيتشه، السجين الذي يهفو و يرنو بخياله إلى الحرية، و يتحرك خلف و ما بعد حدود هذه المواقع المذكورة آنفا. كان نيتشه يتوق إلى رؤية الإنسان السامي و الرفيع الطراز في المستقبل – المهماز الحاد الذي يغرز في لحم الحاضر – بشكل واقعي ملموس، و لم يعد مقتنعا فقط في الأمل بحدوث ذلك، بل كان يمني النفس و يتمنى حقاً و من كل قلبه أن يرى نموذجه متحققاً في الوجود و لا يظل مجرد فكرة نَظريةً. ينبغي للسياسة العظيمة/ الكبيرة أن لا تطيل الوقوف أمام بوابات المؤسَّسات التعليمية و التربوية الحالية، التي لا تجيد فعل أيّ شيء عدا أما إنتاج ناس متساوون بلا مزايا و لا بصمات لا يختلفون و يتميزون بعضهم عن البعض بأيّ شيء، أو الكشف عما هو موجود و حاضر فعلاً و مقدّمَا. إن المفاهيم التربوية للتعليم الحالية المهترئة لا تساعد على تطوير المَناشِئ الأساسيّة للإمكانيات الإنسانية الواعدة، بل تعمل بدلاً من ذلك في إعاقة تقدمها و تطورها و خنقها. إن التعليم الذي يقتصر فقط على تلقين الأفكار بمضامينها، و إيصال جسد المعرفة كما هو إلى التلاميذ دون نقاش أو نقد و تحليل و تمحيص، و تطوير القدرات الإنسانية – القدرات المرعبة التي يمكن أن تكون أرض خصبة تنشأ منها وحدها الإنسانية – بطرائق قديمة عفا عليها الزمن و أصبحت في ذمة الماضي، و تقديم ((الموضوعات الثمينة و القيمة بطريقة فجة)) – تلقين العواطف و الأفكار بلا روح – هو مجرد تعليم غير كافي و خاوي و محاولة عابثة. زد على ذلك، ينبغي أن تدور مهمة التعليم المستقبلية حول الوصول إلى المناطق العميقة و السِرّية و غير المطروقة للإنسان و كشفها للوجود، و تزويدنا بالأساس الذي

يمكن أن ينطلق منه هدفه و مشروعه في التعليم. بعبارة أخرى، ((خلق بشر أفضل من هؤلاء الموجودين الآن هو المهمة الأولى للمستقبل)).

إنّ المهمة التي يدعو إليها نيتشه – حيث تفكيره يضع اللامتناهي مع الغامض و الناقص. ينتظر من الحياة ما ينقصها هنا – في الوصول إلى المناطق العميقة و السِرّية للإنسان و جلبها إلى الوجود بإضاتها ذات وظيفة مزدوجة: أما ((الترويض)) – عن طريق العقاب الذي يزيد الخَشْيَة – التي تضطر الأقوياء لأن يكونوا أقوياء، بل تضطرهم أحياناً لأن أن يكونوا رهيبين – و نفاذ البصيرة، و بقدر ما يجعل البشر عقلاء، يجعلهم كذلك خبثاء – أو ((التربية)) – التحكم بالشهوات و الرغبات، التي تجعلهم بُلهاء. ترويض الإنسان المتوحش، يعني عند نيتشه إصلاحه تهدئته و تسكينه و إعادته إلى حالة السلام – أعني، إضعافه طبقا لمقاييس و معايير الحالة الطبيعية السوية لهذا العصر. التربية، من جانب آخر، الإكراه و التصعيد القسري لمنزلة الإنسان، إنّها المهمة التي تقتضي تنشئة حيوان و تعويده على الانضباط حتى يتمكن من قطع العهود على نفسه و يفهم معنى المسؤولية. يعتبر نيتشه، كلاً من الترويض و التربية، و ينظر إليهما كشرطين ضروريين، لكنه كما يرى الأمور الآن فإنّ ((التربية هي التهذيب))، و ليس هناك فرق كبير بينهما.

و لكن كيف للتعليم ينجز مهمة ((التهذيب))؟ المشكلة الأولى التي ينبغي أنّ نقوم بحلها هي: ما نوع الإنسان – الذي يثير شعور القرف تجاهه أكثر من العطف الشديد – الذي نريد أنّ نقوم بخلقه و تربيته و تهذيبه؟ ((ما نوع القيمة السامية الرفيعة المرغوب فيها، التي تستحق العيش و تكون واعدة جداً في المستقبل ؟)) في محاولة يعبر فيها عن مقاصده بلغة بايولوجية مبسطة، يعتبر نيتشه من الأهمية لقدر الناس أن تبدأ الثقافة خطواتها الأولى من المكان الصحيح.... و المكان الصحيح هنا هو جسد الإنسان، إيماءته، ((نظامه الغذائي، نظام وظائف الأعضاء أو النظام الفيزيولوجي عنده، و أما الباقي فأنّه ينبثق من ذلك)).كذلك من المهم أيضاً الأخذ بعين الاعتبار التقارير الطبية الصادرة بخصوص الزوجين قبل الزواج، بالإضافة إلى المعايير التي تمنع الناس المرضى، التي ثمة هوة عميقة محفورة بينهم و بين الأصحاء، و نوعهم من التكاثر لما لذلك من تأثير مدمر على بناء المجتمع لاحقاً. لكن مفهوم نيتشه للتربية يذهب في مقارباتها لما هو حتى أبعد من الميدان البايلوجي: يعدّ نيتشه التفكير الإبداعي للفرد نفسه صيغة من صيغ التربية، لأن المفاهيم من شأنها أن تغير و تحول بصورة مؤثرة وجود الإنسان الذي يفكر فيها – إذنْ، يعتبر نيتشه هذه ((المفاهيم بمثابة

تجارِب و دروب مهمة يتعين بواسطتها و بواسطتها الحفاظ على نوع الإنسان السامي و على ديمومته حيث يتسنى له اختبار وجوده و يعيش إمكاناته الحقيقية)). في الواقع، أفكار نيتشه التجريبية، طريقته في التفلسف تسعى، بلا أدنى شك، إلى إحداث أثر فعال في طريقة التربية.

مع ذلك، حين يفكر نيتشه في أولئك الذين يوجهون بوصلة الأقدار الإنسانية – أعني، الرجال الذين يطبقون أفكارهم في قطاع التربية – لا تعرف ما يمكن أن تفعله بنا التربية الأولى المتزمتة. إنّها تترك في قلبك حقداً لا يمكن أنّ يشفى – و يمارسون و يضطلعون بمهمة تأثيرهم الأخلاقي على الإنسانية، و جعل الإنسان يتصرف وفقا لنوعه و طرازه، فإنّه يكتشف إنّهم يقفون بالضِدّ من أفكاره و يحاول أن يواجههم بواسطة ((فضيلة مفهوم السياسة الكبيرة)) الذي يطالب فيه. إنّ المشكلة التي كانت تستحوذ على انتباه نيتشه و تقلقه حقاً هي كيف يمكن أن يكون الإنسان – الذي لا يفعل في هذه الحياة ما يريد – موجوداً فاضلاً، كيف نجعل من البشر أناس فاضلين؟

و بذلك، تفترض وجهة نظر نيتشه، فيما يتعلق بمفهوم التربية التهذيب أوّلا – لكن فكرته عن التهذيب أما تكون غامضة و غير محددة المعالم، لأنّها تعدّ التفكير مجرد وسيلة، أو تكون ضيقة الأفق بسبب مسورات الخصوصيات البيولوجية التي تقترحها. و لكن هنا، كما هو الحال في أماكن أخرى من نصوصه – و التي هي ببساطة منشورات تشير إلى الكثير من الإيضاح إلى الميول الجديدة، حيث كلّ ما تريد مؤلفاّته أن تنافس شيئا – يبدو أن المضمون الخاص الذي يطرحه نيتشه، و حتى و أن كان يبدو أنّه يزودنا بالحل الكامل، نادراً ما يكون ضرورياً – لكن ما يحسب حقاً في محاولة نيتشه الثابتة التي لا تزعزع و لا يرف لها جَفْن هو النظر بعمق في الحدود، و إزالة القيود و الموانع، و محاولة تقويض كل الأحكام التراثية المسبقة وكل الصيغ المكروه المتعلقة بالتعليم و تفكيكها.

السياسة العظيمة و الفلسفة

غنى الإمكانات التي يتوفر عليها التفكير النيتشوي السياسي – الذي كان عازماً عزما أكيداً على ألّا تعوقه الأوهام و يبتعد عن الاشمئزاز الذي يمكن أن يوصل الكائنات الأكثر تردداً إلى حلول متطرفة – لا يسمح لأي وجهة نظر خاصَّة – سواء كانت جذابة أو بشعة – أن تكون معزولة أو ينظر إليها خارج السياق. كلّ تعبير من تعبيراته و فكرة من أفكاره و شذرة من شذراته تحتاج أنّ يتم

توضيحها و يعاد تأويلها بواسطة و وفقا للتعبيرات و الأفكار الأخرى. هذه الأفكار في خطوطها العامة التي ترد في السياسة الكبيرة عند نيتشه لا تشكل كلّ كامل و مستقل واحد؛ و لا حتى في أيّ مكان من نصوص نيتشه يمكن يدعم فكرة إنهّا تشكل يوتوبيا جديدة. يشكل الكلّ غير المحدد المعالم، بالضِدّ من أجزائه المحدد و المرسومة المعالم بدقة، عند نيتشه مِيزة الانفتاح غير المحدد المعالم الصريح على تأويّلات مختلفة و متعددة. هذا الانفتاح غير المحدد المعالم هو الذي يصف و يرسم المسار المحتمل للأشياء و طريق فعلها مادام أننّا لا نسمح لتفكيرنا أن يتم أسره بجوانب الرؤية الفردية للمستقبل. بناءً على ذلك، يظل مفهوم نيتشه في السياسة الكبيرة، و للأسباب التي ذكرناها، يلفه الغموض: يبدو أن نيتشه يحاول أن يوظف أحكام و مطالب تطغي عليها صفة العمومية الكبيرة ليحدث ميدان النشاط و الفعل الذي يجعل من الإنسان مادة معرفية للبنية الإبداعية و ذلك كي يقوم بتغير و تحويل الإنسان إلى وجود أفضل و أحسن يتمتع بمكانة عالية و رفيعة الطراز. و لكن، مع أنّ مصطلح السياسة عند نيتشه يبدو أنه يتضمن شيء يجب أن يحدث هنا و الآن، فإنّ شروط نيتشه بخصوصه لا تنتج أيّ فعل متماسك و صُلْب بشكلٍ مباشرٍ فيما يتعلق مع المهام التي تعد نافعة. في هذا الصدد، لا تقدم السياسة عنده أيّ تصور محدد للسياسة المرتبطة في ميدان خاص من ميادين النشاط الإنساني، و لكنها توقظ، إذا جاز لنا التعبير، فحسب المِزَاج السياسي الأساسي من نومه المتجه نحو إمكانات الوجود الإنساني كليًّا و ترجمتها إلى الفعل: إنّها تهتم، بواسطة التفكير، في إضاءة الجوانب العميقة الملحة عند الإنسان، و دفعها على السطح – أيّ زرع البذور الجنينية المتنامية لوجود الإنسان السامي في الوعي الحي. و لكن هذه المهمة للسياسة الكبيرة ليست واضحة و تظل غامضة ما لم تفهم و تُموضع في السياق العام لفلسفة نيتشه كليًّا.

من السهولة المرور على الأفكار العظيمة المبالغ فيها لدى نيتشه في خطوطها العامة، و النتائج التي تشمل كل السخافات و الأشياء غير المعقولة؛ كما سيكون من السهل لنا أن نتأثر بها و نتحمس لها و حتى ننجذب نحوها. و لكن بدلا من ذلك، يجب أنّ نحاول أن نحدد بوضوح بواسطة اتجاهات ثلاث الفلسفة التي يستمد مفهوم ((السياسة العظيمة/ الكبيرة)) نفسه لديه و ما هي مراجعها الفكرية:

(1) في المقام الأول، بما أنّ هدف هذا النوع من التفكير الذي يلامس الوجود الإنساني كليًّا (و بالعادة يبدو مدهشاً للواقعي، المهتم بالأساسّ في الحاضر) فلسفي بشكل جوهري، فإنّ بوسعنا

النظر إلى الوراء، إلى السلسة الطويلة من الأسلاف، الذين لا نكف عن تقديم الأُضْحِيات، و نقيم الأعياد، و بيوت الصلاة و شعائر التقدير و التبجيل لهم. بوسعنا أن نصف هذا الهدف – ليس الهدف زيادة الوعي بل إعلاء القوة، هذا الإعلاء يتضمن منفعة الوعي – بواسطة عملية مقارنة بسيطة. من العادي جداً، أن يطالب الشباب بتغير الواقع و كل شيء من الجذور. متجاهلاً كلّ العمل الشاق الذي يتطلبه إقامة و صناعة الواقع الصُّلْب المتماسك، و مُدّير ظهره إلى كل الأعمِدة الأساسيّة التاريخية للاعتماد و الاتّكال على المطلق، يعتقد الشباب بجاذبية هذا الهدف و رؤيته في تقويض و التخلص من القديم، و في المثال الذي يتطلبه لبناء الوجود من الأساس. الفلسفة عموماً تتضمن شيئاً يجعلها قريبة جداً من موقف هذا الشباب الثوري المتحمس الذي يريد أن يقوض و يقضي بعجالة على القديم و يبني بدلاً عنه صروح جديده تعكس رؤاه المستقبلية: العاطفة التواقة المنبثقة من العظمة الداخلية لحدس الوجود (الميدان الكامل للإمكانية) في تحقق الواقعي و إنجازه. فمن حيث إنّه حلم يمكن أن يذهب هذا الهدف بعيدً خلف كل الحدود والقيود. لكنه أكثر من مجرد حلم بما أنّه يتوقع الشيء الواقعي بواسطة التأمل و إطالة النظر في الممكن، الملكة التي تمكن الذهن من إبقاء ماله و ما عليه ضمن نطاق صلاحياته، حتى و أن أخفق بواسطة الفعل الصريح (في هذا الجانب يشبه مفهوم نيتشه للسياسة الكبيرة في الواقع مفهوم الفلسفة السياسية لأفلاطون و أفكار كانط السياسية، التي تشكلت بعد الحملة الفلسفيّة الحديثة التي حصلت في أُورُوبَّا ضِدّ السياج الدوغمائي المغلق الذي شكله اللاهوت أو الثيولوجيا المسيحية). إنّه ُالإرادة المنقّية و المبعّدة من الواقع إلى الميدان غير المحددة للحاضر غير الواقعي بعد. الإنجاز المجرد، الغم الذي يضخم من أحزان المخيلة الذي يقود ضلال اليوتيوبيا، أو في حالة نيتشه، ينتهي في البكاء الذي يميل إلى العويل الأجوف نتيجة لمحاولته الفاشلة للسيطرة على صوته في حضور الفراغ. و لكن نحن مدينون للأفكار المنقولة عن حياتنا الحزينة التي يعتقد إنّها بلغت معناها الإبداعي بواسطة بعض المفكريين العظام. إنّ ما يكشف النقاب عن القانون الذي يشكل كل القوانين المحددة يصبح من ثّم الأساسّ لقابليتنا في صناعة الإرادة الهادفة.

(2) في مواجهة الجانب غير المتوقع للأحداث، الذي يثير الفزع، و في مواجهة غموض كل الأفكار المرتبطة بالأفعال السياسية الخاصَّة التي ينبغي أن تنجز، ناهيك عن استشعارهُ بضرورة نقد المصادر القديمة، يعثر نيتشه على المصدر الكلي الوجود و العلم الذي يعتمد و يعول عليه كلّ شيء و الذي يصبح بموجبه الكلّ فوضى يعاد ترتيبها، يعثر على ذلك الذي يرجع دائماً إلى الوراء إلى نفسه: الفرد كوجود مستقل لايجرؤ أيّ أحد على انتهاك حرمته. في هذه النقطة يبدو نيتشه كما لو أنّهُ

يتطرق إلى اللا- سياسي، الوجود الفرد المستقل، كقطب كبير مضاد إلى السياسي، و لكن بطريقة كأنّ السياسات الإبداعية كلها تستمد منه.

حين وضع نيتشه، العقل الجديد الذي يطمع إلى التعرف على ما منع التفكير فيه و أبعد عن دائرة الاستطلاع و الاستكشاف لكي تبقى مشروعية أنواع السلطة و الحاكمية الموروثة، التي أمر الله باحترامها، في المخيال السياسي و الدين المسيحي، و ركز جُلّ اهتمامه و انتباهه على الوجود المستقل للفرد، فقد كان يفكر في الأساسّ أولا في نفسه و ثانيا في الطريقة التي يحيا فيها في عصره، الذي لم يجده نافعا أو يجدي بشيء و لم يساعده إطلاقاً على العثور على نفسه. في هذا الصدد يكتب: ((هناك نوع من الناس حتى الآن يعودون إلى الأزمنة القديمة – أعني، إلى الطبقات الحاكمة، على سبيل المثال، الكهنة – أولئك الذين خلقوا للعبيد مسيحهم، و يعانون من الهزال المعوي و الوهان العصبي في جميع العصور، و العجز الذي يولد لديهم كراهيَة قمطريرة، كراهيَة ذهنية سامّة – الأرستقراطيين، و المفكريين. أما نحن الآن فإنّنا لا ننتمي بالصلة إليهم لا من بعيد و لا من قريب، لأنّنا لا نعود إلاّ إلى عالم العدم والفناء)). ما الذي تبقى لديهم ليقوموا فيه؟ ((مرفوضين بواسطة الزَّيف و الباطل، و التحليق السِرّي عادوا لمواجهة ما تم التغلب له سابقا، عادوا إلى الخدمة الليلية في المعابد التي غدت خربة! و بالمثل، إلى الخِدْمَات التي تقدم في الأسواق و القاعات العامة!))، ((لقد غدا هؤلاء الرجال أعلاه يتمتعون بقدر عظيم من الاستقلالية، المناقض للغرائز الأساسيّة، بفضل النظام القاسي من الإكراه الذي مارسوه على أنفسهم و رفضهم أن يكونوا مواطنين عاديين أو ساسة أو من أصحاب الأملاك.... ربما تحتاجهم الإنسانية حينما يتوارى الرجل العادي و المتوسط، الذي يعاني الفوضى و سكرات الموت و يلفظ أنفساه الأخيرة، عن الأنظار. آه، يا لا الهول، يا لا السخرية من أولئك الذين يقدمون أنفسهم بوصفهم منقذين للناس!... ينبغي أن نكون مستعدين! ينبغي أن نكون الأعداء الأبديين لأولئك الذين يعيشون بيننا يتهربون و يدفنون أنفسهم في وحل الأكاذيب و يطالبون دائماً ليس فعلاً و لكن برد الفعل!)).

كان نيشة – الذي يريد ضبط الأفكار و المبادئ الأساسية التي تُبنَّى عليها المعرفة النقدية في خطوطها العامة بواسطة فكرة تجعل كلّ ما هو مستقيم ملتوي – يطالب أولئك الذين يتبعون خطواته لا خطوات الآخر بالتحلي بالقوة الداخلية للوجود المستقل: بالنسبة لأولئك الرجال الذين يعنون لي تقريبا كل شيء، أريدهم أن يعانوا، أن يكونوا وحيدين، أن يعانوا المرض – يجب أن نتفق لنؤكد أنّه

يمكننا أن نعترض على الهوى بما نعترض به على المرض، ورغم هذا -فإنّنا لا نستطيع الاستغناء لا عن المرض و لا عن الهوى. أنّنا نصدم الحياة صدمة رائعة بهذه الأمراض الرئيسية – و التفسخ و الانحلال، و الداء الذي ينم على وجوده عبر عوارض العطف و الكآبة. أريدهم أن يكونوا مطلعين على عذاب الشك و الريبة و أزمة الثقة و البؤس – أن يكون مهجورين منبوذين و لا أحد يريد أن يتكلم أو يتعاطى معهم: ((ليس لي أيّ شفقة أو تعاطف معهم لأني لا أريد منهم أيّ شيء سوى ذلك الذي يبرهن اليوم عن نفسه سواء كان بشخص جديد لديه ألواح جديدة من القيم أو لم يكن: أعني– الشخص الذي يقف بثبات و إصرار أمام عاتيات الزمن)).

الرجل الذي يغرس بذور الشجاعة: ((أنت واحد من أولئك الذين يمتلكون ذواتهم! أنت الموجود الحر المستقل! نصيحتي لا تقاتل ضِدّ آراء الخير و الإحسان و البر التي يمتلكها العبيد، الروحية التي يغذيها انتقام الكهنة و نفخها العاجزون و أداة نفوذهم المفضلة و رخصتهم العليا التي تخولهم الوصول إلى السلطة بواسطة خنق كل المشاعر الحية، النشاط الآلي، البهجة المسكينة. بغض النظر عن الصيغة السياسية و الاجتماعيّة التي تحدث بها هذه الآراء، فإنّها لن تكون كلها في نهاية المطاف سوى مجرد صيغ من صيغ العبيد المبتكرة – و ستكون أنت الحاكم مهما يكن شكل هذه الصيغ – لأنك وحدك من ينتمي إلى نفسه بصدق و لا يرجع إلاّ إليها)).

في اقتفاء آثار الشخص الذي ينتمي إلى نفسه ويتبع خطواته، يعثر نيتشه على المكان الوحيد المهم للتفكير الإبداعي[63]، الذي يتماهى مع السيادة الحقيقية (ذات الطبيعة غير المرئية) و المعرفة العميقة (التي لم تعد تتصرف بطريقة عملية) و يتطابق معا. و بذلك ينتهي نيتشه إلى أنّ ((السياسة العظيمة/ الكبيرة)) يمكن أن تأخذ مظهر التأمل المجرد الصرف: ((أهدافي و المهام الملقاة على عاتقي هي أكبر من كل المهام الأخرى و أكثر شقاءً، وما أطلق عليها السياسة الكبيرة يزودني في الواقع بموقف متقن و ممتاز مع نظرة العيون الثاقبة و الحادّة للطير في الحاضر)) (من رسالة إلى صديقه أوفربيك، 2 أيار، 1884). لم تعد السياسة الكبيرة تعبر عن أنّ أيّ إرادة للحكم أو يتعذر عليها فهم ذلك، و لكنها في تفكيرها تعتزم أن تحكم في النهاية: ((الميل نحو الحكم يظهر مراراً لي كعلامة داخلية دالة على الضعف.... الطبائع الأقْوَى هي التي تحكم و تسود، إنّها الضرورة... حتى و أن كانت هذه الطبائع تدفن نفسها مدى الحياة في حديقة كوخ قديم سِرّي!)) بالنسبة إلى نيتشه، الفلاسفة المبدعون هم الأقْوَى نوعاً بين كل الفلاسفة، ليس لأنّهم يمتلكون القوة التي يتغلبون بها على

معاصريهم و يفوقوهم، و لكن بسبب الطريقة الاستثنائيّة التي يسيطرون فيها و يتحكمون في أنفسهم، و بواسطة تفكيرهم يحركون العالم و يجرونه من أذنيه: ((تنبثق الطبائع الأخلاقية العظيمة بوصفها كوابح-ذاتية و ممتصات للصدمات... خلال أزمة الانحلال و التفسخ. إنّها طبائع حاكمة (تلك التي يشير إليها كلاً من هرقليطس و أفلاطون) للعالم المتغير و المتحول تنجز وظيفتها و تمارس تأثيرها عليه فقط بواسطة التحكم و السيطرة بنوابضها الفكرية لا به)).

و بذلك ننتهي إلى أن نيتشه، الذي لم يكن يحسن التزام الصمت وقتاً طويلاً كافيا، يرى الرجال بوصفهم أنواعاً يختلف أحدهم عن الآخر. في هذه النقطة، لا يتحرك نيتشه بحافز الشعور إنّ الإنسانية تتطابق و تنسجم مع حقوق الشخص غير القابلة للمصادرة و القيمة التي لا يستغنى عنها – يرفض نيتشه هذا المفهوم و يعتقد بدلا عنه أنّ الفرد، بحد ذاته، هو المصدر الأخير لكلّ عمليات الخلق و الإبداع، و في قدرته الإبداعية وحدها يتجلى وجوده الذي يحبه و يحترمه. يواصل نيتشه الإصرار على طلبه حتى يصل إلى النقطة التي لا تهتز أو يصبها الارتعاش، حيث تعد هذه النقطة، مع ذلك، بمثابة انتصار لهدوء و رِباطَة الجأش للإنسان و عالمه الداخلي وَسْط كل الإخفاقات التي يعاني. بما أنّ الصيغة الملموسة للإنسانية، في النهاية، هي إنّ الإنسان هو المبدع لكل الأفعال العظيمة – التي تفسد من تلقاء ذاتها بفعل ضرب من التهافت-الذاتي – التي تطرح أهدافاً جديدة و تقوم بتحقيقها، فإنّ وجود الفرد المستقل و الحر يعد شرط دائم و أساسي في تحديد كل شيء في هذا العالم. الوجود-المستقل للفرد، في رأي نيتشه، هو ((الأَقْوَى)) و الشرط الأساسّ، حتى في الحالات التي ينتصر بها الأَقْوَى بين العامة، لما كان العامة/ الجماهير – أصغر فضيلة تجلب لهم المديح – بدورها، ينبغي أن يتم قيادتها في الأساسّ بواسطة الأقوياء الذين يحددوا مسارتهم. كان نيتشه يولي الاهتمام دائماً بالطريقة التي ينبغي أنّ يوجد فيها الفرد-المستقل تحت كل الظروف بغض النظر عن اختلافها، و ذلك حتى توثق تفاصيل وجوده (existieren) تحت مختلف الظروف و تدعم بالأدلة و تبرر وجود الإنسانية، و حتى يكون أيضاً مهيئاً تماماً إلى المهام المستقبلية في قادم الأيّام. وإذا ما افترضننا وجود هذا الفرد-المستقل بهيئة سيد يظهر على أنّهُ وحيد لا أحد يعرفه أو نفترض يظهر بصورة غير متوقعه، فإنّ المرء في نهاية المطاف، و في الزمن الذي يساوي بين الكلّ، يعبر نوعا ما عن نفسه بوصفه العامل النهائي الذي يحدد مجرى و مسار الأحداث.

حتى في الوقت الذي كان يشعر به بخيبة الأمل الكبيرة، وبأنّ المستقبل أمر ميؤوس منه، ظل نيتشه يحتفظ بابتسامته المعهودة، و لم يحيد نظره أو يفقد التركيز على الإمكانية المستقلة للفرد أو يتوقف عن أخذ هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، نصب عينه: ((المئات من الذكريات الحزينة التي كنت أعانيها و خصوصاً من شعور الوحدة العميق القاتل في مدينة فينيس – هنا في الواقع تكمن معجزة هذا الشعور: انبثاق و تجلي صورة إنسان المستقبل)).

(3) في الفصول القادمة، سنقدم الأفكار الأساسيّة لنيتشه على نحو منفصل. هذه الأفكار بالمناسبة هي إمكانات تجريبية يخضعها نيتشه إلى نقد صارم و يكشف عن تناقضاتها الدائمة و انحلالها و سلبها لنفسها. و في مناسبات عدة، تظهر هذه الأفكار في خطوطها العامة على هيئة سلسلة من الأفكار المكتسبة بالصدفة – لكن نيتشه، في الغريزة و القصد، يضعها في ناظم فكري فضول واحد يجمعها بينها كلها. على سبيل المثال، ترتبط أفكار نيتشه السياسية و الفلسفيّة بعضها مع البعض الآخر برابطة قوية. يمكن التعبير عن هذا الاستنتاج على النحو الآتي: يشير مفهوم السياسة العظيمة/ الكبيرة لديه، و الذي هو بالأحرى إرادة الفعل للمستقبل، إلى إرادة الإنسان السامي الرفيع الطراز: السوبرمان، بوصفه سبيلاً و وسيلة نحو هدف. في الواقع، أُورُوبَّا – الجو الخاص الذي يعبق برائحة مستشفى المجانين و مصحاته – بحاجة إلى هذا النوع من السيد الذي يعد واحد من المتطلبات الأساسية لنهضتها. هذا العرق من السيد، بواسطة إنسانيته و إرادته، ينتج حركة-مضادة للنزعة العدمية، التي تعني انخفاض قيمة القيم السامية، التي تنبثق من لوحة القيم القديمة و تقييماتها الأخلاقية – و لاسيَّما لوحة الأخلاق المسيحية و تقييماته، التي تسعى إلى حتفها، التي تعلم المرء أن يحمر خجلا من جميع غرائزه. هذه الحركة-المضادة، التي استهلَّها التفلسف النيتشوي، تتجذر في المفهوم الأصلي للوجود عند نيتشه. التفلسف ليس مهنة أيّ أحد، بل إنها مهنة تقتصر على السادة، إنّها مهنة تجمع ما بين مذهب التصوف التأملي (مذهب العود الأبديّ: كما وجدت الأشياء في الماضي قرون و آلاف من السنين ستأتي عصور مشابهة في المستقبل. و إذا كان نيتشه اليوم يذكر الناس و يطالبهم أن يوجهوا أبصارهم إلى الأخطار التي تهددنا، و يلعب هذا الدور غير المحبب الذي يثير شيء من السخرية، دور النبي و النذير الواعظ في هذه اللحظة فهو مستعد أن يتلقى السخرية و كله أمل يقول أن يقرأ أكثركم النُصوص إلى أخرها و أن يحقني بعضكم في بعض النِقَاط) و التأويل الميتافيزيقي للوجود (إرادة القوة، بوصفه مشروع باتجاه المستقبل) مع الروية الطموحة في تحقيق وجود السوبرمان على الأرض في المستقبل القاهر للمثال الزهدي على جميع

الصُّعُد المهمة تقريبا. هذا الأمر المثير للاهتمام حقاً، ليس معرفة شيء ما يوجد من قبل، و لكنه بالأحرى باعث و نابض فكري لتقويض العدمية – المسرحية العظيمة ذات المئة فصل المعدة للقرنين القادمين من تاريخ أُورُوبَّا – و الإطاحة بها، يهدف في الأول إلى استنتاج مفهوم الصيرورة الأبدية المتواصلة البيضاء التي تغير أسماء

المقدس الكلمة السمينة الحروف التي تحل عند نيتشه محل علامة الاستفهام الهزيلة، ثم يصل إلى نتيجة أنّ العالم هو دون معنى و ليس له هدف و أن كل الأفعال و النشاطات هي غير ذي جدوى و عبث. هذا الإغراء في النقض و السلب النهائي موروثٌ في العدمية القوية الحادّة التي تنتج لاحقاً تحول راديكالي إيجابيّ لا يرتبط لا في عالم الماوراء، و لا في الله، و لا في المثال – بل يرتبط بدلاً عن ذلك مع كُلّية الوجود الواعي للعالم كليًّا و كموجودات فردية. في الفصلين القادمين، سنحاول أن نبين المعنى و المدلول الشامل لل((سياسية العظيمة/ الكبيرة)) عند نيتشه.

5
تأويل العالم

العالم كتأويّل و تسجيل للأحداث (517)

تأويّل نيتشه الجديد للوجود (إرادة القوة) (526) التأويل الأساسيّ. (التحديد الأساسي للحياة كإرادة القوة، التحديد الأساسيّ للحياة بواسطة الصراع، التحديد الأساسيّ بواسطة المنظورات التأويليّة، التحديد الأساسيّ بواسطة الاختلافات الأساسيّة في النوع) — الوقائع الملاحظة التي ينطلق منها. (سيكولوجية الشعور بالقوة، المبادئ السوسيولوجية الأساسيّة للقوة، القوي و الضعيف) — تأويّل العالم بوصفه ظهوراً و تبدياً لإرادة القوة. (المعرفة، الجمال، الدين و الأخلاق – العالم غير العضوي، العالم العضوي، الوعي) — السمة النقدية لميتافيزيقا إرادة القوة.

العالم بوصفه محايثة صرفة/حضور صرف (572)

أسباب نيتشه لرفض نظرية العالمين — الحضور المجرد كصيرورة، حياة، و طبيعة — التدمير -الذاتي لأفكار نيتشه حول العالم.

إنّ الإجابة عن السّؤال المتعلق بطبيعة الواقع النهائية بواسطة تزويدنا بصورة أو بناء مفهومي ثابت عن العالم في كليته يعد دائماً من وجهة نظر نيتشه خطئاً فادحاً. مع ذلك من الصواب القول إنّ الطريقة المثالية لوصف و تقييم فلسفة أيّ فيلسوف هي حصراً الطريقة التي يدرك فيها الأخير العالم و يؤوله.

يعدّ نيتشه – كان يسوء كبرياءه أن يتعرى أمام الأدب الصافي الذي يحيطون الآخرين أنفسهم به – واحد من سلسلة الميتافيزيقيين الطويلة الذي كان مفهومه عن الوجود يعتزم أن يكون ذي طبيعة شاملة – و بهذا يفهم و يدرك العالم كليًّا، و يعتقد ليس هناك من أشياء سوى الصيرورة و الحياة. كان المفهوم الرئيس و الأساسيّ الذي يحرك فلسفته بمجملها هو مفهوم ((إرادة القوة)). هذا النوع من البناء الميتافيزيقي يضع نيتشه في عَلاقة واعية دائمة بإمكانيات تأويلّ العالم و تفسيره بطريقة رائعة.

في النقد الذي ينبت حاضراً واعداً في نُصوص نيتشه، يتبع الأخير، الذي يرى ما يريد أو يتوقع ما يرى، جرياً على العادة التي جرى عليها الفلاسفة، خطى كانط، و هذا مؤشر ليس بالسيئ. فهو ينظر إلى طرح الأسئلة النقدية – الظاهرة التي تعجبه و يطيب لها – التي ورثها عن كانط، أمر مفروغ منه و عليه لم يعد يقبل أنظمة الميتافيزيقا الدوغمائية الساذجة. و بذلك، ننتهي إلى القول إنّ المبادئ الأساسية لميتافيزيقا نيتشه قد تشكلت بفعل تأثير تحولات الفلسفة النقدية لكانط و تأثيراتها. في ظل عملية التحول هذه، طورَ نيتشه النظريّة التي تقول إنّ العالم كله يوجده بوصفه بناء تأويليّ– و أن معرفة العالم هي تأويلّ للعالم، و أن فلسفته فلسفة ((إرادة القوة)) ما هي في الواقع إلا تأويلّ جديد لهذا العالم.

و أخيراً، تتميز ميتافيزيقا نيتشه بحقيقة علاقتها المرسومة الملامح بدقة مع هذا العالم فقط، و ليس مع عالم الماوراء أو أيّ عالم أخر مشابهة. بالنسبة لنيتشه، الذي كانت له نظرةً غريبة و كأنّهُ ينظر في كل الاتجاهات، لا يوجد واقع أو عالم ترسندالي متعالي. كان نيتشه يمني النفس في التخلص من هذه الثنائية القديمة أو التميز بين الواقع الأساسيّ و ظواهره السطحية (بين العالم الحقيقي و عالم الظواهر). لأنّه لا يوجد، من وجهة نظره، إلاّ عالم واحد هو العالم الذي نحيا فيه: لا شيء موجود بجانب ((إرادة القوة))، و التي وحدها، و بواسطة صورها المختلفة، تشكل عالمنا.

فمن وجهة نظره الميتافيزيقية، العالم يوجد كحضور و جوهر نقي تحكمه إرادة القوة، التي تخترق مجمل كتابات نيتشه.

العالم كتأويل و تسجيل للأحداث

دائماً نشعر بخيبة أمل كبيرة، وبنزوع مقدس للنقاء، كُلَّما حاولنا أن نفكر في العالم بالصورة الغامضة التي يبدو فيها لنا أول مرة بذاته. حينما نفكر في العالم، نحاول أن نبحث عن المعنى و نتمتع به، لأنّه التصور الذي بواسطته نفهم العالم و نموضعه. يقول نيتشه: ((إذا كان الوجود دون تأويل؛ – أعني، دون معنى ممكن و غاية و هدف، سيتحول ببساطة إلى (حماقة و هراء عابث)))، و في جانب أخر، يتسائل ألاّ يتضمن ((الوجود كله طبيعياً حق ممارسة التأويل و يشجع عليه))، ثم يجيب هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، ((لا يمكن اكتشافه بواسطة الفحص-الذاتي للعقل، بما أنّه في ظل تحليل العقل الإنساني لا يمكن لنا أن نتجنب النظر إليه خارج الصيغه المنظورية الخاصَّة به)). ماذا سيكون الوجود حقاً دون هذا – أعني، عملية إنتاج التأويلات، بمعنى نحن لانستطيع أن نكتشف الوجود بواسطة استخدام العقل الإنساني، الذي يدرك بشكل ثابت نفسه بالإضافة إلى الأشياء بموجب المفاهيم و المقولات الثابتة التي بناها و التي تخصه وتنتمي و تعود إليه وحده و ليس لها عَلاقة بالعالم. في الواقع مع النقطة الآتية ستصبح أُطرُوحة نيتشه الأساسيّة على النحو الآتي: كل الوجود هو نتاج عملية التأويل و التفسير حصراً و لاشي آخر. ((ليس هناك شيء اسمه وجود الأشياء بذواتها كما ليس هناك شيء يسمى المعرفة المطلقة: الطابع الوهمي المنظوري يعود إلى الوجود)). ليس هناك شيء يدعى ((الحوادث بذاتها. إن ما يحدث حقاً هو مجموعة أو جملة من الظواهر يتم اختيارها و جمعها و توحيدها بواسطة الوجود المُفسر و المُؤوَّل)). و بذلك ينتهي نيتشه ليستنتج الآتي: (1) ليس هنالك ما يسمى الإدراك المفهومي الصحيح للواقع الثابت و المكتفي-بذاته؛ و (2) الإبستمولوجيا أو المعرفة أمر مستحيل.

(1) يبدو أنّ الإدراك، بمعنى محاولة الإمساك و الاستيلاء على الوجود بحد ذاته، بالنسبة إلى نيتشه، أمراً سخيفاً لا معنى له: ((إنّ تفهم و تمسك بالشيء يعني أن نتخلص من العلاقات المنظورية المحيطة به – يعني أن لا نفهم أو نقبض على أيّ شيء، و نسيء فهم طبيعة المعرفة)). مثل هذه المعرفة هي ليست معرفة – بل تأويل، هي في الواقع ليست توضيح أو شرح؛ بل عملية

إضفاء المعنى على الشيء: ((ليس هناك طقم من الحقائق أمامنا – أمام ناظري – علينا أن نكتشفه، بل أمامنا بالأحرى: كلّ شي في حالة تدفق و صيرورة و تبدل، كل شيء مراوغ و متملص و غامض، كلّ شيء هارب؛ وآرانا و مفاهيمنا و مقولاتنا حول الأشياء المتغيرة في الأساسّ هي وحدها الأكثر ثباتا من كلّ الأشياء التي هي في صيرورة متدفقة و دائمة)).

(2) يزدري نيتشه مبحث الإبستمولوجيا بوصفه محاولة نقدية لتحليل القدرة الإدراكية و المعرفية للإنسان فحسب – و هي ببساطة حقاً محل احتقاره و عدم ترحيبه. بالاتّفاق مع نظيره هيغل، يقول: ((كيف يمكن لآلة الإبستمولوجيا أنّ تكون قادرة على تحليل نفسها حينما تكون هي نفسها تعتمد بصورة رئيسية على التحليل ؟)) بما أنّه من السخف للعدة الإدراكية للإبستمولجيا أن تباشر بمحاولة الإدراك و المعرفة نفسها، فإنّ نيتشه ينظر إلى أيّ فلسفة اختزلت نفسها لمجرد مشروع إبستمولوجي على أنّها مجرد مهزلة كوميدية و كذبة.

و لكن ربما يطرح المرء السّؤال الآتي، أليست أُطرُوحة نيتشه الرئيسية تدور حول المعرفة كتأويل للإبستمولوجيا؟ الجواب قطعا لا – فهي في الواقع، بعيدة عن الإبستمولوجيا، إنّها محاولة لفصل وعينا في الوجود عن كلّ شيء آخر محدد و مرسوم الحدود، و نتيجة لذلك فصله عن الحقيقة بالمعنى الثابت و غير المتغير – إنّهُ محاولة في الواقع لتوسيع أفق معرفتنا بلا حدود، و تقويض أطروحة الوجود الثابت الذي لا يصيبه التغير، و تبرير و تسويغ الظاهر المتغير و المتدفق بوصفه وحده الواقعي و الحقيقي[64]. الآن، ينبغي أن نفحص بدقة ما الذي يعني هذا عند نيتشه بالتفصيل.

التأويل بوصفه مجاز ـــ التأويل بوصفه مجاز يُستّخدم على نطاق واسع للتعبير عن العَلاقة الأساسية بين الإنسان و الوجود – و هو مأخوذ عند نيتشه و مستمد من عملية تأويل النصّ في العمل الفلسفي. ببساطة، ينطوي النّص، طبقاً إلى نيتشه، على المعنى، و يقتصر دور التأويل على كشف عن هذا المعنى و إظهاره. بعبارة أخرى، النصّ هنا هو الشيء الواقعي و الثابت الذي لا يتغيّر – إنّه الوسيلة التي يُنقَّل المعنى بواسطتها، و الذي ربما يفهم أو ربما لايفهم بصورة ملائمة و مناسبة. و عملية التأويل، الذي تذهب في محاولتها أبعد من ذلك، تفتح الباب على مصراعيه للخضوع للسّؤال. يكمن عمل الفيلولوجّيا [فقه اللغة] في الاقتراب من النُصوص القديمة، و اكتشاف المعنى فيها، بواسطة إضاءة التصورات المبتسرة و الخيالية، التي تنشأ من كراهيَة الواقع، التي تحتويها على نطاق واسع. فبواسطة التعاطي مع الوثيقة الأدبيّة و الفلسفيّة من كتُب، على سبيل المثال، تعبر

الفيلولوجّيا عن طروحات الفهم الجديد الذائعة الصيت المنتصر للأشياء – و بذلك، و بواسطة فهم النُصوص، تخلق الفيلولوجّيا نُصوصاً جديدة أخرى، علم أخلاق جديد، و دفتر شروط جديدة، و لوائح جديدة، وطريقة في النظر جديدة في السُّلوك و الحياة. تزودنا الحركة الأصيلة و الديالكتيك الجديد للفيلولوجّيا عند نيتشه بمجاز مناسب للتعبير عن فهم الوجود بواسطة الصروح الفكرية التي يقوم الإنسان ببنائها. فهو يوظف و يطبق المجاز، ويلح على الدور المحوري الذي يلعبه، بواسطة الفيلولوجّيا، على كلّ أنواع المعرفة. ترتبط الفيلولوجّيا عند نيتشه بموضوعين مهمين و مختلفين تماما. يطلق نيتشه على ((مطابقة الطبيعة للقانون)) كتفسير، تعبير ((تأويل و ليس نصّ)). كما يصف بنفس الطريقة نشاطات الفلاسفة بوصفها تأويلات مختلفة: ((نحن المتابعين للشؤون الأوروبية و الملاحظين لاتجاهاتها، يسعى قدرنا بكلّ ما أوتي من قوة على مواجهة النصّ الغامض و غير المقروء الذي يكشف عن نفسه إلينا أكثر فأكثر و نحاول أن نفهمه... بينما يزيد عدد الأشياء النادرة و ضجيجها في داخلنا... الذي يطالب بالكثير من الضوء، الهواء، الحرية، و التعبيرات اللفظية الجديدة)).

يبدو أن نصّ الوجود أمر متماسك، موثوق فيه و قادر و مُشّيد بطريقة صحيحة، و لاسيَّما حين يصرح نيتشه بالآتي: ((حين تكون قادراً على قِراءة النصّ كنصّ كما هو، دون السماح لأيّ تأويل آخر يمتزج به، فإنّ هذا يعد حقاً من أعظم و أكبر التَجارِب الداخلية التي يخوضها الإنسان و أكثرها براعة. ربما ينبغي القول أنّ هذه التَجْرِبة التي ذكرنها للتو، من النادر جداً حدوثها أو تكون أمراً ممكناً)). أو مرة أخرى: ((نحتاج إلى الكثير من الفهم كي نطبقها على الطبيعة، و إلى نفس النوع من القابلية التوضحية المدربة بإحكام الذي يمتلكها الفيلولوجّي [فقيه اللغة أو العَالِم في فقه اللغة المقارن] المعاصر و التي يوظفها في قراءة كلّ أنواع النُصوص التي يتعاطى معها. يكمن هدف الفيلولوجّي الرئيسي و غايته في فهم ما مكتوب، دون إضافة بعد الإحساس أو افتراض المعاني المزدوجة)). بيد أنّنا نجد أن نيتشه يدافع عن اتجاه تماماً مخالف عن هذا الاتجاه الذي تبناه سابقاً: ((نفس النصّ يحتمل تأويلات و بناءات لا تعد و لا تحصى: ليس هناك ما يسمى (التأويل الصحيح) الوحيد)). في الواقع، هذه النقطة الأخيرة على درجة عالية من الأهمية عند نيتشه و هي فعلا حاسمة في فهم مقارباته الفلسفيّة اللاحقة – إنّ هذا النوع من المجاز هو الذي يكشف النقاب عن الوظائف العدّة المتنوعة للتأويل الممكن للوجود: ((إنّ الافتراض الذي يقول أن هناك تأويلاً واحدً صحيحاً لكلّ الأشياء – أو هناك تأويل واحد فقط صحيح – تبرهن التَجْرِبة في نطاق واسع على

خطئه... إنّ ما غير صحيح يمكن البرهنة و التحقق منه بطرق عدّة؛ بينما الصحيح دائماً لا يمكن التأكد منه.... بعبارة أخرى، يقول الفيلولوجّي: هناك فقط تأويل واحد مفرد جميل)) (من رسالة إلى صديقه فوكس، 26 آب، 1888).

كلّ أولئك الشعراء و الموسيقيين الذين يتدفقون عزما و حيوية، و الذين يستدعي وعيهم التحليق بعيداً في عالم الأحلام، يكشف النقاب عن المشاعر و الأحاسيس بطريقة استثنائيَّة رائعة، و يضيء أيضاً أصل الغموض في أفكاره – كلّ هذه الأشياء هي مجرد علامات، صروح مشيدة، بناءات، أعْمِدة أساسيّة، و إمكانات في الوجود. ((و بما أنّ غياب الهدف و المعنى في هذا الوجود أمر مفروغ منه و مسلم به – تصبح إذاً مهمتنا، التي لا يمكن الهروب منها و تجنبها، قراءة و صناعة و إضفاء المعنى عليه)).

((هذا يمكن أن يطبق على الأساليب و النغمات، و على أقدار الناس أيضاً. يمكن أن يتم تأويل هذه الأقدار بطرائق مختلفة و وفقا لأهداف و غايات مختلفة)). و بذلك، إنّها تعكس تأويلنا للوعي. في الأحلام، التي يكون بواسطتها الإنسان مهيئا لرؤية عالم آخر حقيقي – هل ينبغي للمرء أن يهتم بأحلامه؟ و هل يمكن تفسير الأحلام؟ الجواب ينبغي للإنسان أن يهتم بكلّ شيء لأنّ الإنسان يستطيع تفسير كلّ شي– يسير الوعي في طريقه دون معوقات، و لكن ربما من الصواب القول ((أنّ كلّ عمل ما نطلق عليه الوعي هو تأويل خيالي رائع، بصورة كبيرة أو صغيرة، لكلّ الأشياء المجهولة و غير المعروفة و لكنها موجودة و يمكن الشعور فيها في النصّ، سواء كان الطبيعة أو كتاب مقروء... في نهاية المطاف، ما هي تجاربنا؟ أن لم تكن ما نقرائه نحن فيها و نحملها أكثر مما هي تحتويها!)) و بذلك، أنّ أفكارنا، التي تنبثق من العقل، يلفها الكثير من الغموض و الإبهام: ((بواسطة الطريقة التي تنبثق بها أفكارنا تقدم نفسها بوصفها علامة إلى العديد من المعاني التي ينبغي إعادة صياغتها و سبكها حتى نتخلص من الغموض و الإبهام. إنّها محاولة جعل الحال واضحاً – الإجابة عن السّؤال: كيف و من أين؟ الذي لا أعرف الإجابة عنه.... أنّ منبع و مصدر التفكير يظل غير واضح و مختبئ و مبهم؛ ربما يكون احتمالاً قوياً أنّه مجرد علامة لحالة شاملة إلى حدّ بعيد... ينبثق منها شيء يعبر عن نفسه بواسطة طقم من العلامات. و بذلك، إنّهُ موجود مع كل إحساس، و هذا يعني لا شيء بذاته. حينما ينبثق هذا الإحساس علينا القيام بتأويله، و بذلك ينبغي ألّا تصيبنا الدهشة من حجم الغرابة التي تتوفر عليها تأويلاتنا بين الحين و الآخر!)).

حين ننظر من هذه الزاوية، فإنّ النصّ الذي نريد تأويله، و بسبب تعدد معانيه، يكاد يشبه الشيء غير الموجود، و بهذا، هناك احتمال ألّا ننظر إليه بوصفه معيار لحقيقة التأويل. و لكن من جهة أخرى، يصر نيتشه على أن النُصوص الحقيقية ينبغي أن يتم حمايتها من التسمم الذي يمكن أن تسببها التأويلات الخاطئة و المبالغ فيها لها. في هذا الصدد، يطالب نيتشه بضرورة رجوع الإنسان إلى الطبيعة موطنه الحقيقي. ينبغي أن نكون ((أولا، سادة على العديد من الصروح الوهمية المشيدة و الفارغة؛ و ثانيا أنّ نكون سادة على المعاني التي لم تكن حتى الآن سوى خربشات و رسوم هاوية على جدران النُصوص الأصيلة لإنسان الطبيعة (homo natura))).

هنا، و انطلاقا من نقطة أنّ أيّ شرح يدعي أنّه واضح ربما يتعرض إلى الانهيار، تبين تناقضات نيتشه النوابض و البواعث الفكرية التي تحركه. يرتكز الوجود و يقوم عند نيتشه بوظيفتين؛ الأولى، تزويدنا بالتأويلات؛ و الثانية، إنتاجها. إنّهُ بمنزلة الدائرة التي تجدد حركتها بصور مستمرة دائمة في الوقت الذي تبدو إنّها تلغي في ذات الوقت نفسها. ففي مرة تكون موضوعية و في مرة أخرى تكون ذاتية؛ تظهر أولا كجوهر و من ثم جوهر يلغي نفسه و يتجاوزها باستمرار مع وجود حالة مستمرة من التساؤل و الشك و الاستجواب و هذا النزاع المميت. هذه الدائرة تجمع ما بين الوجود و العدم، و العالم الحقيقي و العالم الظاهري. مع ذلك، ينبغي أنّ لا نبالغ في تبسيط هذه الأفكار في خطوطها العامة. لا يشير نيتشه إلى دور الأنا، التي تفرض نفسها، و تقوم بخلق العالم، العالم الذي هو مجرد انعكاس إلى أفكاري أنا، الوعي-الذاتي لعالم المثالية المعروف لنا، أو حتى العالم كموضوع للبحث و الاستقصاء بواسطة العقل النقدي الذي يضيئه و يتبين وجوه الحق و يتعقلها و يعتمد عليها ليواصل منازعاته. بالضِدّ من هذه الأفكار – التي تظهر، بدرجة حتميتها المتزايدة كنتيجة لطريقة نيتشه في الكلام – تقف نقطة ارتكاز لتفكيره: الذَّهاب خلف كلّ الحدود و المواقع الثابتة إلى النقطة التي تخولني، كشخص فريد من نوعه و لا يضاهيه أحد، أن أقرا، في الحقيقة، الوجود (أعني – أن أقوم بخلقه و بنائه و اختراع المعنى) بما أنني كائن يقوم و يرتكز في هويته على تأويل الوجود. في كل هذه الأقوال و التصريحات، التي يطغي عليها طابع الكُلّية و التعميم، يشير نيتشه إلى تاريخية الوجود في العالم، أو الإنسان بوصفه وجوداً تاريخياً. إنّ العدد غير المحدود من التأويلات المتطورة تاريخيا هي فعلا أساس لوجودنا-في-هذا-العالم و تسويغ له، فكمصدر أصيل ينقل الإنسان كل التأويلات و ينظر فيها و يوظفها في قراءة النصّ بذاته. في هذه النقطة تحديداً، لا يتم تَجْرِبة الحقيقة فقط كنمط آخر من التأويل نكتشفه و نستمتع به، بل يتم

تجريب حقيقة وجود-الإنسان-في-هذا-العالم-بذاته – الحقيقة المطلقة التي تقدم نفسها إلى الإنسان، الذي يقرأ، حين يكون في وعيِهِ التاريخي الممتلئ، العالم بوصفه شيفرة أو نصاً مشفراً إذا جاز التعبير. حينها، فإنّ الحقيقة ((هي)) حقيقتي، و لكنها في نفس الوقت ليس حقيقتي فقط، لأنه بينما تصبح، في المقام الأول، تاريخية كتلك الذي أجد فيها نفسي ممتزجا مع الوجود، فإنها، ثانيا هي الوجود بذاته، و الذي – يطلق نيتشه عليه تعبير إرادة القوة – في طراز يصبح فيه وجودي كما هو أنا.

على الرغم كل الوجود، طبقاً إلى نظرية التأويل، هو صروح مشيدة من الأفكار، و مع أنّ النصّ ينبغي أن يقّرأ من الخارج و من الداخل من قبلي – و مع أنّي أنا في الواقع النصّ الوحيد الذي عليّ أن أقرئه، يظل نيتشه يشير إلى إمكانات أخرى غير ذلك. هذه العملية لا تستمر في الانبثاق في سلسة لامتناهية: مع أنّني باستمرار أعاني التغير و التحول، ككائن يقدم التأويلات، فإنّي في النهاية أضع حجر الأساسّ الذي أبني عليه. هناك شيء حازم و ثابت يظل يتعذر على التأويل حله أو حتى المرور علية و مسه: ((في الأساسّ، هناك شيء ما في داخلنا، (في أعماقنا)، لا يمكن نقله أو تعلمه أو الوصول إليه –غرانيت أو صخرة القدر الروحي.... و في العَلاقة بالمشكلة الأساسيّة؛ (أعني – الأنا) غير المتغيرة التي تتكلم بعلو صوتها... في نفس الوقت الذي يعثر فيه المرء على حلول للمشكلات الأساسيّة... ربما يمكن للمرء أن يطلق عليه (قناعات). في حين يراها نيتشه فيما بعد كعلامات طريق تشير إلى المشكلة التي هي نحن – بدقة أكبر، طريق إلى الغباء العظيم الذي هو نحن، و تشير إلى قدرنا الروحي و طريقنا الذي لا يمكن أنّ يتم إصلاحه و دائماً (يذهب عميقا))).

تجلي التأويل ــــ يبين نيتشه، و الذي أحياناً تكون لديه ثقة بفكرة ما أكثر مما تحتمل الفكرة نفسها، بوضوح، في المبدأ و في التطبيق، أن التأويل يتبدى وفقا للطرق الأربعة الآتية (1) قَلّْبَ و إعادة تقييم لوحة القيم الأخلاقية؛ (2) الصيرورة المستمرة؛ (3) تميز و إدراك طبيعة التأويل؛ و أخيراً (4) ضمن المجال الواقعي يستلم كل تأويل ممكن مكانته و قيمته:

(1) إنّ ما نطلق عليه تعبير ((تأويل الوجود))، يعتقد نيتشه، إنّهُ لا ينفكّ بتاتا عن عملية تأويل-القيمة. قيمة العالم تكمن في تأويلاتنا. ليس التأويل عملية محايدة و نزيهة – يشكل التأويل في ذاته القيمة بواسطة إغداق آيات التقدير و الاحترام عليها و التوصيه. هذا يفسر لنا بدقة لماذا كان هناك عنوانين رئيسين لنصه ((إرادة القوة))، الذي لم يسعفه الحظ في إنجازه، أعظم ما كتب

(*magnum opus*) – ((محاولة لقَلْبَ كلّ القيم)) و ((محاولة لتأويل جديد للعالم)) – يكادان يعبران عن ذات المعنى. وصولا إلى أكثر التميزات تجريدا للمقولات، التأويل هو تعبير عن الإرادة و أداة لإشباع الحاجة إلى إصدار الأحكام حول الوجود طبقاً إلى القيم الذي يتبنها المفسر.

(2) لا يمكن للتأويل أن يكون محدداً و مرسوم الملامح – إنّهُ دائماً في عملية صيرورة مستمرة. ((إنّ ما هو أساسي و جوهري للموجودات العضوية هو التأويل الجديد للحوادث: التعددية المنظوريّة الداخلية هي بذاتها حادثة))، ((إنّ العالم الذي مثار اهتمامنا و قلقنا معًا هو ليس حقيقة و لكنه وهم.... إنّه في حالة من التدفق و الصيرورة المستمرة – تحول في شكل الخطأ الذي يريد الاقتراب من الحقيقة، لأنّه ليس هناك (حقيقة))). أيّ شيء يريد بناء نفسه سيكون مهوسا و عرضة إلى عملية إعادة بناء في المستقبل لا تتوقف. و بذلك، ((كل عملية إعادة تقييم للوحة القيم يقوم بها الإنسان (تتضمن) تقويض التأويلات الضيقة القديمة، و يبني بدلاً عنها منظورات و أفق جديد)).

(3) تصل عملية التأويل غير المحدودة إلى نوع من الاكتمال بواسطة الفهم-الذاتي للتأويل – أعني، في تأويل التأويل. هذه الخطوة، التي تبناها نيتشه بتعمد، تتضمن تميز و إدراك التأويل، دون إهمال مرجعيته الوجودية.

قبل أن نصل إلى هذه النقطة، من الضروري أن نسلم أن التأويل هو تماما صحيح بلا تحفظ. ((لمئات السنين كان الإنسان، الذي يزرع نفسه بين النقيضين الله و الشيطان الذي يهتم اهتماماً خاصاً بالهاربين من الدنيا و التائبين، متعلق، يمسك بيده و بأسنان مشدودة، بالتأويل الديني للوجود))، و يقوي من ((إحْساَس خوف الغرائز و الخوف منها، تلك الذي تتحول بالذات إلى ذنوب تجاه الله، و الذي نتحسسه بطريقة غامضة و مبهمة، و يقوي في داخل الإنسان قناعة أن بوسعه أن يحصل على الحقيقة، و هذا بالمناسبة أمر حسن له، حين لا يزال لا يمتلك بعد من القوة ما يكفي لتحملها)).

غير أنّ نيتشه عقد العزم على أن يحرر نفسه من هذا النير و العبودية، بالرغم من وضع كل أنواع العِصِيّ في دولايب فلسفته. بالطبع، ((نحن الآخرين لا نقْوَى على النظر في كل الزوايا التي تحيط بنا: إنّه فضول خائب الرجاء و مخيب للآمال أنّ نكتشف أن علينا أن ننتظر لنعرف أنواع العقول الأخرى و المنظورات الأخرى الذي لم توجد بعد)). و لكن عزائنا اليوم أنّنا على الأقّل

نعرف أنّنا بعيدين عن تلك السخافات و النظر بواسطة الزاوية التي نجيد النظر منها و ننتهي بالقول إنّها وحدها الزاوية الصحيحة للرؤية. في الواقع، نجد أنّ العالم واسع، و ((يصبح مرة أخرى غير محدود، كوننا لا نستبعد، أو غير قادرين على ذلك، إمكانية أنّه يحتوي و ينطوي على تأويلات غير محدودة لا تعد و لا تحصر. مرة أخرى، تنتابنا الرعشة من رأسنا إلى أخمص قدمينا حين نعلم....)) فقط الرجل من الطراز الرفيع و السامي يقُوَى على الاحتمال – أعني، يستطيع أن يتحمل ((العالم الذي يقبل بتأويلات غير محدودة لا تعد و لا تحصى)). فيما يتعلق ((بتعددية التأويلات كعلامة تعبر عن القوة))، ((لا ينكر هذا الرجل الصفة الغامضة و غير المستقرة للعالم)).

(4) ليس التأويلات إجَراءِات اعتباطية، و ليس كلها لها قيمة واحدة. في المقام الأول، خلف أو ما بعد البناء المفهومي، هناك مستوى عالي من نشاط التأويل و إعادة التأويل. فضلاً على ذلك، لا التأويل، و لا نوعه، و لا معناه، و لا حتى مضمونه، يخضع إلى النقد في طراز الإبستمولوجيا القديمة الذي يعمل، دون الخضوع للسّؤال، مع معيار متخيل لصَلاحِيَة الحقيقة الواحدة المرتبطة بالوجود المطلق – في الواقع، أو على الأصح، نحتاج إلى النقد الذي يزودنا به الطريق الحيوي للحوادث: ((كل تأويل من التأويلات هو أما علامة من علامات النمو أو الانحدار)). خاضعا ًإلى التأويلات المتوفرة له، أيّ العين النقدية، العين الثاقبة التي تتعرف اليوم لدى الإنسان على بقايا و آثار وحشية الحياة، يعثر نيتشه على أنّ ((التأويلات القديمة كلها لها أهمية و عَلاقة بالحياة: إنّها تقوم بمساعدة و موازرة الحياة، و تجعلها أما محتملة أو غير محتملة و غريبة الأطوار – تقوم بتهذيبها و تشذيبها، و حتى تقوم بفصل ذاك الذي يسبب مرضها عن ذلك الذي يسبب موتها)). من جهة أخرى، هناك التأويلات القوية و المهيمنة التي يقف نيتشه بالضِدّ منها و يعدّها من ألد أعداء الحياة: على سبيل المثال، التأويلات المسيحية، و التأويلات الفلسفيّة الشائعة. يروم نيتشه أن يقدم، بدلا عنها، نموذجاً أفضل من التأويل: ((إنّ التأويل الجديد، الذي أطرحه، يمنح فلاسفة المستقبل، كسادة جدد على الأرض، النَزاهَة، الحيادية، الصدق و الأمانة التي يحتاجون إليها)).

تأويل نيتشه الجديد للوجود (إرادة القوة)

لانستطيع إن نجيب عن سّؤال ماهية و جوهر هذا العالم كليًّا. نرتكب خطأ كبيراً، إذا حاولنا أن نغير من غرابة كل العمليات التي تجري فيه بكل غموضها و تفاصيلها و أسرارها، و نحولها إلى

عالم مألوف و معتاد يناسبنا و يخصنا، كي نحكم السيطرة عليه و نفهمه، و نستطيع التعاطي معه، و من ثّم نقول مخدوعين: ((كلّ شيء يرجع إلى الإرادة (كلّ شيء يريد)؛ كلّ شيء هو متعة و ألم (كلّ شيء قدرة تتحمل)؛ كلّ شيء في حالة حركة (كلّ شيء يتدفق)؛ كلّ شي نَغْمَة (كلّ شيء يصدر عنه صوت، كلّ شيء منسجم)؛ كلّ شيء له روح (كلّ شي يفكر)؛ كلّ شي هو رَقَم – إنّ الأرقام لا تبرهن عن شيء – (كلّ شي يعتقد و يظن))). حذر َنيتشه بقوة ضِدّ كل المفاهيم الكُلّية و الشاملة: ((دعنا نحمي أنفسنا من فكرة أنّ العالم هو موجود حَيّ...أو أنّ الكون عبارة عن آله....دعنا نحمي أنفسنا من فكرة أو تصور أنّ هناك قوانين و سَنَن كُلّية في الطبيعة....دعنا نحمي أنفسنا من فكرة أنّ العالم يخلق بشكل أبديّ المستجدات)). نحن نعيش ضمن هذا العالم، و العالم كليًّا هو أمر ليس في متناولنا إطلاقاً و يتعذر علينا الإمساك به.

يقدم نيتشه – الذي يؤمن أنّ التفلت من المسألة ليس حلا لها – هذه الأفكار العميقة المدهشة و الحاسمة في خطوطها العامة كتأويل جديد إلى العالم كليًّا، و يحاول أن يعرض الأشياء، التي توجد فيه، و يقدمها بشكل أمين واقعي مختلف و صادم نوعا ما. يقتضي الأمر منا أن نكتشف ما الذي كان نيتشه يقصده بالتحديد من القيام بهذه المحاولة. إنّ مفهوم وجود العالم، الذي يشير إليه نيتشه، هو في الواقع بناء خاص جداً و وجود مطلق معاً. ربما يطرح المرء السّؤال الآتي: ما العالم، و ما طبيعته؟ و يجيب نيتشه: ((إنّهُ لا هو ذات، و لا هو موضوع، و لا هو طاقة، و لا هو مادة، و لا هو روح، و لاهو هو نفس. ينبغي أنّ نأخذ نصب أعيننا، أن هذه التصورات و التفسيرات، التي تعاني التواترات الفكرية و السياسية و الاجتماعيّة، التي نعزوها إلى العالم لا تختلف كثيرا عن الأوهام أن لم تكن أكثر ضررا منها. هذا هو ما اعتقد فيه بقوة، ومن المحزن جداً أن نتصور الحال خلافا لذلك! بالطبع يجب أن نميز العالم عن كلّ شي أخر موجود، و يمكن أنّ يوجد – و عن كلّ الأوهام! ينبغي أنّ يكون العالم بمنزلة العائلة الأصلية التي يرجع الكلّ إليها بالنسب و القرابة)).

هذه الأفكار في خطوطها العامة تزودنا بصورة بليغة و واضحة بأهداف و مقاصد و معنى نوعية التفكير الأنطولوجي الذي يطالب به نيتشه. لقد رفض وجود العالم و وفقا للصورة الحالية. مع ذلك، نجد إنّ تأويل العالم عند نيتشه يأخذ شكلاً محدداً في الوصف الذي ما انفكّ نيتشه في التعبير عن رفضه له.

دعنا نبدأ – يطلق نيتشه على ما موجود حقاً، و هذا بالطبع يشمل الكلّ، اسم الحياة التي تنشأ جوائح حقيقة من جَراءِ تخمتها. ثم يكتشف بعد ذلك الحقيقة الآتية و يصرح بها: أيّنما توجد الحياة، توجد معها أيضاً إرادة القوة. بما أنّ الحياة – و لاسيَّما النفي الذي يطلق في وجهها و الذي يكشف عن كَمّيَّة من أشد الإيجابياتّ دقة و حساسية – تعكس إرادة القوة و تعبر عنها، فإنّ ((إرادة القوة ينظر إليها بوصفها المعادلة المختزلة و المصغرة للنزعة العامة. و بذلك، أصبحت إرادة القوة عند نيتشه الوصف المحدد و المرسوم المعالم بدقة لمفهوم (الحياة))). ثم يواصل القول بهذا الصدد: ((الحياة هي مجرد مثال مشخص لإرادة القوة؛ و لكن يبدو من التعسف، و بعيداً عن الصواب، أنّ نؤكد على أنّ كل شيء فيها يحاول أن يبلغ أو يريد الوصول إلى صيغة من صيغ إرادة القوة)). الآن، ((تمثل إرادة القوة الجوهر الداخلي للوجود))، و الحياة تمثل نمطاً واحداً من أنماط الوجود فحسب، و هذه ليست النهاية، ((لأن كُلَّما ما كان هناك انحلال و ذبول... كُلَّما ضحت الحياة بنفسها – أكراما لعيون القوة)). و لا نبالغ إذا قلنا إنّهُ ((حتى الإرادة العظيمة للإنسان تجازف بحياتها، دون تردد أو يرف لها جَفْن، من أجل القوة)). لكن ينبغي التنويه أيضاً بالآتي: لقد توصل نيتشه إلى مفهوم إرادة القوة المحددة و المرسوم المعالم بطريقة لا تختلف عن الطريقة التي تتبعها الميتافيزيقا، عدوته اللدودة، في إنتاج مفاهيمها السابقة. ((إذا فحصنا العالم من الداخل (*ab intra*) و دققنا النظر فيه – العالم المحدد و المرسوم طبقا للصفات العقلية – سنكتشف إنّهُ ببساطة يعبر عن إرادة القوة و لا شيء آخر بجانب ذلك)).

يمكن القول أننّا يمكن أنّ نفهم طبيعة الوجود، و يكون حقاً في متناول أيدينا فقط، بواسطة طبيعة الحياة المتغيرة و المتحولة و إرادة القوة. ببساطة: ((يزودنا المجال الواقعي لإحساسنا في الحياة و القوة... بمعيار الوجود)). ((الوجود هو عبارة عن المفهوم الكلي لل (الحياة)– أعني، المفهوم الكلي إلى (الإرادة)، (الفعل)، (الصيرورة))).

بيد أنّ مفهومي ((الحياة)) و ((إرادة القوة)) يفشل كلاهما – سواء أخذنهما بالمعنى المباشر المألوف أو بالمعنى البايلوجي و السيكولوجي المحدد – في التعبير عما يجول حقاً في خاطر و ذهن نيتشه. بما أنّ هذه المفاهيم أو التعبيرات تستخدم للإشارة إلى الوجود، فإنّها تبقى ((متعذرة على الفهم و لا يسبر غورها)). إنّ تأويل العالم عند نيتشه، الذي أفسح عنده نقطة البداية، ينبغي أن نحتفظ فيه و نضعه من الأن فصاعدا نصب أعيننا لأهميته القصوى. إنّ هذا التأويل هو ليس معرفة لا من بعيد

و لا من قريب. تفسير العالم كحياة و إرادة قوة، إذا تؤخينا الدِقّة، يرجع إلى حقيقة أنّنا نفهم و نتصور حصراً فقط تلك الأشياء التي نقوم ببنائها: ((كُلَّما زادت معرفتنا في الأشياء بواسطة شبكة المفاهيم و التصورات و المقولات الكُلّية، كُلَّما ابتعدنا أكثر عن الوجود و أقتربنا من مفهومه فحسب)). يستوعب تأويل نيتشه، الذي يعترف علانية أنّ المعرفة كلها عملية تأويل، و يتمثل هذه المعرفة بواسطة التأكيد على أنّ إرادة القوة بذاتها تحتاج من أيّ وقت مضى إلى أن يتم تأويلها. تأويل نيتشه هنا هو في الواقع تأويل للتأويل نفسه – و لهذا السبب يختلف في المضمون عن كلّ التأويلات السابقة الساذجة التي تم المباشرة بها دون وعي كامل لسمتها وطاقتها التفسيرية.

ينبغي الآن أن نرسم مخططاً أساسياً يشير إلى المفاهيم التي كان نيتشه يستخدمها لتوضيح الوجود العميق المبهم الذي لا يمكن سبر غوره، و التي يقف على رأسها مفهومان ((الحياة)) و ((إرادة القوة)) و يشيران إليه. في البداية، ينبغي أنّ نفحص التأويل الأساسيّ بحد ذاته، و بعدها ننتقل إلى الفروع التجريبية المعرفية التي تزود نيتشه بمضمون أفكاره الأساسية و الرئيسية، و أخيراً، ينبغي أنّ نوسع معرفتنا في قضية تأويل العالم كليًّا كتجلي و تبدي لمفهوم إرادة القوة الذي يتناوله نيتشه بالتفصيل.

التأويل الأساسيّ —– إنّه السّؤال الذي يجمع العديد من التحديدات/ المحددات و القوالب أو الخيوط الناظمة – المنتشرة بشكل واسع هنا و هناك في أعمال نيتشه – بطريقة عميقة المعنى و الدلالة، بحيث إذا حاولنا فصلها بعضها عن البعض الآخر، أو أخذنا واحد منها و فسرنها خارج السياق، فإنّنا سنفشل فشلاً ذريعاً في فهم المغزى من ذكرها بوضوح. و لا واحد من هذه المحددات و القوالب أو الخيوط الناظمة أو الأقوال يمكن أن يؤدي الوظيفة و الغرض في فهم ما يريد نيتشه التعبير عنه، لأنّهُ لا يشير في الواقع إلاّ إلى جزء محدد و خاص من الكلّ. و لكن حين نأخذ كل هذه التحديدات و الأقوال، التي يذكرها نيتشه معاً، فإنّنا سنجد إنّها تنجح في التعبير عن المعنى الحقيقي الذي يضيع فعلا إذا حاولنا أن نفصل بين هذه الأقوال و التحديدات و نحاول أن نفسرها كل واحدة منها على حدة.

(1) الخيط الأساسي الناظم للحياة ك((إرادة القوة)): الحياة هي تقييم – تقييم للوح من القيم. ((من أجل أنّ نحيا ينبغي أن نُقيِم لوحة الأخلاق)). بما أنّ الحياة ببساطة تتضمن التقييم، التثمين، التخمين، الأفضلية، العزلة، و أن يكون المرء مختلفا عن الآخرين، فإنّها تريد أنّ تكون شيئاً مختلفاً

عن الطبيعة، لأن الطبيعة، بعكس الحياة، باهظة الثمن بلا حدود و غير مبالية بلا مقاييس. ليس الوجود شيئاً يقف أمامنا و علينّا أن نقيمه؛ بل أنّه التقييم بذاته)): ((التقييم بذاته مايزال هو الوجود. حتى حين نقول (لا) للوجود، فإننّا نظل نكون من نحن، و نظل ملتصقين بالوجود، و نسير في الطريق المخالف لهذه اللا التي قلناها)).

الحياة عملية تقييم مستمرة، تعزو القيم و تنسبها إلى تدفق الصيرورة التي هي نفسها تخضع لها. ((أنّ تعيش في هذا العالم هو أن تتعلم الطاعة، طاعة الوجود)). لكن الغريزة العميقة، التي تقف وراء الإرادة، تظل مختبئة، ((لأنّنا، في الحياة العملية، دائماً نتبع و نقتفي أثر هذه الوصايا و الأوامر و النواهي، لأنّنا نحن تلك الوصايا و الأوامر و النواهي)).

((ليس الإرادة شوق و توق، و صراع و مطالب: إنّها تميز نفسها عن هذه الأشياء و ذلك بسبب شعور القيادة، إصدار الأوامر، السلطة التي تتوفر عليه)). إنّ تريد يعني أنّ تريد شيئاً ما، شعور القيادة، إصدار الأوامر، السلطة تعود إلى طبيعة هذه الإرادة.

تطيع الحياة، التي عبارة عن تقييم إلى لوحة القيم و إرادة إلى القوة، و تصدر الأوامر، و تمتلك معياراً دائماً لنجاحها: ((الحياة هي يَنبوع المتعة و السرور)). بما أنّ ((الماهية الداخلية للوجود هي إرادة القوة، فإنّ كل نمو في القوة يجلب المتعة و السرور، و أنّ الشعور بأنك عاجز على أن تقاوم و تصبح سيداً هو في الواقع شعور في غاية الألم)). إنّ ((الفعل الذي يُستمَد من غريزة الحياة يسفر عن نفسه بوصفه الفعل الصحيح الذي تتضمنه المتعة)).

((و لكن مَنْ يشعر بالمتعة، مَنْ يريد القوة ؟... سؤال قد يبدو سخيفاً! بما أنّ إرادة القوة، و بالتالي الشعور بالمتعة و السرور و الاستياء، هي مشاعر أساسية لا مهرب منها)). ((تعدّ إرادة القوة الحقيقة الأخيرة التي نستطيع أن نخترقها و ننفذ إليها))؛ ((الجوهر الداخلي للوجود)) و ماهية العالم.

(2)التحديدات / القوالب أو الخيوط الناظمة بواسطة الصراع:لا يوجد واحد من هذه التحديدات يوجد منفصلا أو بمعزل عن وجود الصراع. ((المعارضة، المقاومة، التجاوز، الانتهاك، التعدي كلها أمور ضرورية للصراع)). حين نفحص الصراع ونطيل النظر فيه، نكتشف إنّهُ دائماً

صراع مع الآخرين و مع نفسه – و في كلتا الحالتين، يعمل على تطوير الإرادة التي تنمو و تكبر. (((أنّ تريد و تريد أكثر– النمو و زيادة القوة– هذا هو جوهر الحياة بذاتها)).)

في المقام الأول، الحياة ((دائماً تمارس وجودها على حساب الحيوات الأخرى))، و نتيجة لذلك، ((تسحق الأشياء الغربية و الضعيفة، التي تواجهها، و تقوم حتى باستغلالها و استثمارها)). هذا هو معنى ((الحياة بشكل أساسي – أعني، بواسطة عملية أداء وظائفها الأساسيّة، تستخدم و توظف الأدوات التي تحدث الضرر و الأذى، القمع، و الإبادة، و تبلغ نوع من اليقين أنّه لا يمكن لها أن تحيا دون هذه الأشياء الفظيعة)).

بعبارة أخرى، لا شيء أكثر صعوبة من الحصول على أيّ شيء كان – الحياة ((عملية مستمرة و نوع من العلاقات الواعدة مع القوة.... إنّها صراع، يمكن أن نلاحظه بوضوح بواسطة العَلاقة القائمة بين الحاكم و المحكوم – إنّها يمكن أن تكون أيضاً مقاومة و رفض طاعة الأوامر)). ليس هناك مضمون محدد يمكن أن يرسم ملامح و حدود الحياة بدقة مثل فكرة أنها صيغة متدفقة لعمليات متنوعة من أجل زيادة و نمو القوة، ((كل الحوادث و العمليات فيها هي عبارة عن اختبارات تؤكد على علاقات المكانة و القوة)).

الحياة ليس فقط شيء يمارس وجوده على حساب حياة و وجود الآخرين – بل إنّها تعيش حتى على حساب نفسها. ((إنّها ذلك الشيء الذي يقوض نفسه و يوقع الهزيمة فيها دائماً و يقضي عليها)). ((الحياة – هذا يعني باستمرار أن نبتعد رويداً رويداً عن ذلك الشيء الذي يعاني سكرات الموت، يوشك أن يموت، أو يلفظ أنفاسه الأخيرة أو في النزع الأخير – ما الموت سوى بغل يحملنا إلى الحياة الأبدية)).

ترجع الحاجة إلى التقويض و الدحض في الحياة إلى حقيقة أنّ الحياة هي في الواقع محكمة (ein Versuchen). القبض على هذا المبدأ و فهمه يعني بلوغ الحالة الشديدة القصوى للحياة – بمعنى أنّ تجرب أشياء كثيرة و تقوض أشياء كثيرة كي تجمعها كأدلة دامغة في هذه المحكمة. ((دع الحياة تنشئ المئات من المحاكم الذي تعقد لغرض محاسبتنا، دع إخفاقنا و نجاحنا يشكل الدليل و البرهان القاطع الذي يطرح علانية أمام قضاة تلك المحاكم)). سيان، الذي يشترك فيه مع الحيوان. فلكي يتحمل تبعات الذاكرة التاريخية دون أن يتحطم بسببها، ((يخلق بالإنسان و ينبغي له أن يتمنى

أنّ يصيبه الفَنَاء، و يتلاشى من على وجه الأرض الذي تعاني أزمة لا نظير لها، كي يكون قادراً على القيام و النهوض من موته مرة أخرى.... دع الروح تعيش العديد من التحولات – دعها تكون حياتك الحقيقة و قدرك فعلا)).

بما أنّ الحقيقة أو الواقعة الأساسية، إرادة القوة، يمكن أنّ تُعبر عن نفسها فقط بواسطة الصراع، ((فإنها بالضرورة تبحث عن ذلك الذي يعارضها و يظهر ضروب المقاومة إليها)). و بما أنّ المعارضة تولد الكبت، و الكبت يولد الاستياء – و هذا أمر لا يمكن لأنفذ القضاة بصيرة و أكثرهم إنسانية يشك فيه و في مفعوله – فإنّ الأخير يمثل لحظة ضرورية في كل النشاطات الإنسانية. ((إنّ شعور عدم الرضا يعد باعث و نابض مهم جداً في تحريك المياه الراكدة في الحياة و واحد من المحفزات المهمة لها)). ((تبحث إرادة القوة عن الاستياء في صيغة المقاومة. في قلب و مركز الحياة العضوية توجد إرادة المعاناة)).

تبحث إرادة القوة عن الحياة كما هي في الواقع: ((كُلَّما ظهرت الحياة على وجه الأرض، يظهر معها الألم – أن ما يبعث على التمرد في وجه الألم ليس الألم بحد ذاته بل عبثية الألم و افتقاده لأيّ معنى – و التناقضات)). من المهم بمكان أنّ نعرف ((إنّ الحياة بذاتها تتطلب العداء، الخصومة، الموت – الأثر الذي يتركه الله على الإنسان الذي يلمسه – و صليب الشهيد)). ببساطة، ((الحياة ـــــ عذاب!))

بناءً على ذلك، هذه النقطة أعلاه تعدّ شرطاً أساسياً للحياة الأصيلة: ((لكي تدرك الحياة إدراكاً كاملاً و بحذافيرها ينبغي أنّ تقف فوقها أن تمطيها، وتنظر و ترنو إليها من أعالي مكان مرتفع!)) الحياة بوصفها إرادة القوة هي ليست فحسب إرادة الحياة بحد ذاتها. تخضع الحياة إلى الوجود الأصيل، الذي يشكل إرادة القوة، بل لا يقتصر الأمر على ذلك فحسب بل وتضحي بنفسها من أجله. تعاود الحقيقة بمفهومها القديم الظهور في تفكير نيتشه: ((حب الحياة هو تقريبا ضِدّ الحُب الطويل للحياة. كل حُب يفكر في اللحظة و في الأبديّة – لكنه إطلاقاً (لا يدوم طويلا))).

الوقوف فوق الحياة، والنظر إليها من مكان عالي، يكشف النقاب عن نفسه في إرادة الخطر. بالطبع، ((حين تعيش الحياة بصدق، و بكل امتلائها، فإنك ستواجه لامحالة كلّ المخاطر و الصعاب غير المتوقعة))، و لكن الحياة على الأرجح ((تبحث عن شيء غريزي يرفعك إلى قوة عالية و

سامية رفيعة الطراز: حياة الخطر)). ((يراهن المرء بحياته في هذه اللُعْبَة نتيجة للإرادة الغزيرة و الفخمة، لأن كلّ خطر عظيم نواجهه يجعلنا أكثر فضولا بخصوص حدود قوتنا و شجاعتنا)). و حين يضحي المرء بحياته في معركة من المعارك، فإنّ كل انتِصار يتحقق هو بالأحرى ذم و احتقار للحياة. لهذا السبب، يقول نيتشه ((إنّ السر في صناعة ثمار الوجود و التمتع بها يكمن في الكلمات الآتية: عش في خطر، عش في أقصى الدرجات التي تتطلبها الخطورة!)).

ينظر نيتشه – الذي يريد نقطة ارتكاز يستطيع أنّ يقفز منها. فهو لا يستطيع أن يعيش دون يقين – إلى الحياة، التي تطرح نفسها متلونة بألوان المخيلة و الروح، بوصفها إرادة القوة، (أعني – إرادة الزيادة في درجات القوة، التحسن، الصراع من أجل النمو)، و هي في الضِدّ من التحديدات التي تبدو للوهلة الأولى مرتبطة بها و لها صلة فيها. و خلافا إلى الفيلسوف هربرت سبنسر، يقول نيتشه: ((الحياة ليست محاولة تعديل للشروط الداخلية و الخارجية – بل إنّها إرادة القوة التي ترسم المصادر الداخلية للخضوع و الاندماج أكثر فأكثر لما هو (خارجي)))؛ إنّها ليست ببساطة رد فعل، بل فعل. و في الضِدّ من العَالِم تشارلز داروِن – الذي بالغ بشكل غريب بخصوص تأثير الظروف الخارجية: الشيء الأهم في صيرورة الحياة هو تلك ((القوة الخلاقة)) التي تخلق الأشياء من الداخل إلى الخارج التي تستخدم الظروف الخارجية و تستغلها – و الأشكال الجديدة التي تم خلقها من الداخل إلى الخارج ليتم خلقها لهدف ما – يقول نيتشه: الحياة ليست صراعاً من أجل البقاء أو الوجود، لأن هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، لا يعد إلاّ حالة استثنائيّة؛ بل إنّها في الواقع صراع من أجل القوة، صراع من أجل شيء أفضل و أكثر مما لدينا. و بالضِدّ من سبينوزا، الذي يعود فيه العالم معه لتلك الحالة البريئة الذي عرفها قبل ابتداع الضمير المتعب و تبكيته، لايعدّ الحفاظ على الذات أمراً جوهرياً: الحياة تمارس وظائفها لزيادة عظمة الذات – كل عظمة تنحية للأخلاق – و الإعلاء من شأنها بدلاً من الحفاظ على الذات. و بالضِدّ من شوبنهاور، الرجل الفارس الصارم النظرات الحازم الشخصية الذي يحسن السير وحده و لا حاجة به لأمر ياتي من الأعلى، بل بحاجة إلى أعداء ليظل صافي الذهن، يقول نيتشه: إنّ ما يطلق عليه تعبير ((إرادة)) هو ليس إلاّ كلمة خاوية فارغة من المعنى، لأن في وصفه لهذه الإرادة، كان شوبنهاور – الذي دون هيغل، دون المرأة، دون إرادة العيش و إرادة البقاء في هذا العالم، ثمة مجال كبير للمراهنة أنّهُ لم يكن يقُوَى على البقاء دون هذه الأمور كلها بل كان اختفى و توارى – يحذف و يهمل هدفها و يرميه في هامش بعيد. ليس هناك شي موجود اسمه الإرادة، ((لأن إذا كان الشيء غير موجود كيف بوسعه أنّ يريد

– و كيف لذلك الذي يمتلك الوجود فعلاً مازال يريده! هناك إرادة فقط حين يكون هناك حياة ينبغي أنّ لا نقول إرادة الحياة، بل إرادة القوة بدلاً عنها)).

(3) القوالب أو الخيوط الناظمة الأساسيّة بواسطة المنظورات التأويليّة: حين نصدر الحكم الآتي أنّ كلّ الوجود هو عبارة عن تأويل، و أن الوجود كله عبارة عن منظور– و إذا أهملنا هذه السمة في العالم، فإنّه لا شيء يتبقى لنا، و سنوجه إلى أنفسنا السّؤال الآتي: كيف لمبدا الوجود هذا أنّ يرتبط مع إرادة القوة؟

إنّ إرادة القوة، عند نيتشه، هي التي تمارس التأويل (تأويلات). إنّ الحياة بوصفها حياة مشروطة في المنظور الآتي: الحياة ممكنة فقط تحت إشراف و قيادة القُوَى الذي تصنع المنظور. يمكن لإرادة القوة أن تُفسَّر بواسطة أدوات المنظورات التي تزودنا هي نفسها بها. ((إنّ الاختلافات في القوة يمكن ألّا تجرب نفسها كما هي في الواقع)). تعمل الموجودات على تأويل الكينونات الأخرى المشابهة لها وفقا لمعيار القوة. ((الحقيقة، بوصفها تأويل، ليس له أيّ عَلاقة بالسلطة و أنّما يرتبط بالحرية، هي في الواقع أداة و وسيلة للحصول على السيادة على شيء ما)). و بينما كل شيء يحدث في الحياة العضوية يملك قوة ساحقة و طاغية لا تقاوم، فإنّ هذه القوة هي ((إعادة تأويل، إعادة ترتيب متجدد – و نتيجة لذلك يصبح المعنى و الغرض السابق بالضرورة غامضاً لأنّنا نبتعد عنه)). ((كلّ مركز من مراكز القوة له منظوره الخاص به – أعني، تقييمه الخاص المعين به تماما، و نوع الفعل و رد الفعل الذي يعود له. ليس هناك نوع آخر من الفعل إطلاقاً غير هذه، و ما العالم إلاّ اسم للميدان الواقعي – المسرح الذي تمارس عليه الأفعال لعبتها الكلية)).

إذا كان المرء يبحث عن هُوِيَّة مَنْ يقوم فعلاً، مَنْ يزودنا في المنبت و الأساسّ، مَنْ يريد القوة، و مَنْ يقوم بتأويلها، فإنّ نتيشة يصرح عطفاً على ذلك بالآتي: ((لا وجود لذرات-الذات)) – ((العملية التأويليّة نفسها توجد كصيغة من صيغ إرادة القوة))، لا ينبغي لنا أن نضع مؤولاً و مفسراً خلف التأويل. ((إنّ تحولات و تقلبات الذات ليس لها وجود و أساس ثابت: بالعادة الميدان الذاتي دائماً ينمو أو يضمحل؛ النقطة المركزية في النظام الذي يخصه دائماً تتغير)). ليس الميدان المنظوري هو من نتاج سلوك ذوات الأجيال السالفة التي تريد الحفاظ على نفسها: ((إنّه ليس موجوداً خصوصياً، بل أنّه الصراع بذاته، الذي يباشر و يواصل مهمة العمل في الوجود – الصراع الذي ينمو و يكبر، و يصبح من ثّم وعياً - بذاته بواسطة وسائل الوجود العضوي)).

إنّ يكون الشيء معروفا يعني أنّ يكون مُؤلاً و مُفسَّرا بطريقة مفهومة، و قد وصف نيتشه الاثنين كروح (*Geist*)؛ و كوجود روحي (*Geistiges Dasein*) في المعرفة الموجودة ضمن منظور التأويل المعطى. هذا الوجود التأويليّ للمُعروف و المُفسر يتحرك في دائرة: إنّه يؤدي وظيفة إرادة القوة للحياة التي أنتجته، لكنه سرعان ما يصبح مستقلا و يفكّ ارتباطه بالحياة و يتجاهلها و يدير ظهره لها. و بذلك، يبدو متطابقا مع الحياة حين يتم تمثلها و استيعابها من قبله، لكنه يبدو غريبا و منفصلا أكثر منها من حيث إنّه، بدوره يقوم بتحديدها، و تشكيلها، و خلقها و حتى التضحية بها. بما أنّ الروح، بناءً على ذلك، هي الحياة، تودي أحيانا وظيفة وأداة خادمة الحياة، و أحيانا تصبح السيد على الحياة، ربما يقول المرء، بطريقة لا تخلو من المفارقة، أن الحياة أكثر سمواً و أقْوَى من المعرفة، و إنها ليس وسيلة للمعرفة. أو نسمع ((حين يناقض الحياة والمعرفة أحدهما الآخر، فإنّهُ لا يحدث صراع جاد بمعنى الكلمة))، و في نفس الوقت، يصبح الصراع بين الحياة و المعرفة أكثر قوة كُلَّما سنحت الفرصة أن يواجه أحدهما الآخر مدفوعين ببواعث القوة التي كلاهما يمتلكها. فإذا تم، في مناسبة، اعتبار الروح ((آله و وسيلة في خدمة أغراض السمو في الحياة و الارتفاع بشأنها و جعلها أكثر نبلا))، فإنّه يمكن القول أيضاً، مع حُجَّة مماثلة في قوتها، إنّ ((الروح هي الحياة، و هي ليس آلة، بل هي جزء لا يتجزأ من الحياة)).

حينما أسفرت إرادة القوة عند نيتشه عن نفسها بوصفها جوهر و ماهية للوجود المطلق، فإنّ السّؤال الذي ما انفكّ يطرح نفسه هو كيف للإرادات المتعددة التي تنتج من تجزئة و تهشم الوجود أن يرتبط بعضها مع البعض الآخر. هذه العَلاقة بين الإرادات أما تتضمن الفهم التأويليّ أو لا تتضمن، لكن الرضوخ و الطاعة أمر ممكن بينها فقط حين يسود الفهم: ((ما نوع الإكراه الذي يمكن أن تفرضه إرادة النفس الأقْوَى على إرادة النفس الضعيفة؟ ربما يكون خضوع النفس الضعيفة الظاهر – يا لمبلغ ما تتحمله في الواقع من أنواع من البؤس و الحرمان و الاضطراب و العاهات و الهموم و الوحشة – يتجذر في إخفاقها في فهم ما الذي تريده – على سبيل المثال، لا نستطيع إلى نوجه الأوامر للصخر في التحرك... الفهم ممكن فقط بين الإرادات التي تكون قريبة بعضها مع البعض الآخر و يستوعب و يتمثل بعضها الآخر، و هذا يفسر لنا لماذا الرضوخ و الطاعة أمر ممكن بينها)). حين طبق نيتشه إرادة القوة ميتافيزيقياً على الوجود المطلق، كان يستخدم تعبير ((التأويل)) بالمقابل بمعناه الواسع. وكلّ هذا يعني نوع من التأويل – أعني، سلسلة من العلامات مع تنوع لا متناهي من المعاني الممكنة: ((كلّ شي مادي هو نوع من العلامة الدالة في طريق الحوادث

المجهولة، كلّ شيء نفهمه و نشعر به كعلامة أو عرض أو أمارة. إنّ العالم الذي يجعل نفسه معروفا لنا بواسطة هذين الجانبين يمكن أن تكون لديه الكثير من العلامات)). مع ذلك، يعدّ المجهول و غير المعروف، بالأساسّ، إرادة القوة. و بذلك، يعتبر نيتشه الوجود كله نوعاً من الكلام ((تفهم بواسطتة القُوَى بعضها البعض))، لكنه في نفس الوقت يعثر على الرِّيْع الراديكالي الواعد الممنوح بسخاء في نسيج العالم و بين طياته بسبب الطرق المتباينة التي يسير فيها كلاً من الكلام و الفهم و يمارسان وظيفتهما: ((في العالم غير العضوي حيث لا وجود لسوء الفهم، الاتصال يبدو في غاية الكمال. الخطأ و الفهم يوجدان في العالم العضوي الذي يرتبط ارتباطاً حميماً بأفكار القهر و السيطرة و القمع))؛ ((أن العمل الذي يمنح الحياة وجودها هو الفهم العظيم للخطأ)). المرء ربما لدية أو يحصل على انطباع أن الحياة مرتبة و منظمة كي تُظهر و تبين الجوانب المريعة – أعني، الخطأ، الخداع، النفاق – العلامة الممِيزة للنفوس الحديثة، الكتب الحديثة و البراءة الكاذبة المتجسدة في الأخلاق – المرح و التألق المرهف للسعادة المصطنعة الزائفة، و خداع-الذات.

(4) القوالب أو الخيوط الناظمة الأساسيّة بواسطة الاختلافات الأساسيّة في النوع: بينما لا تلازم إرادة القوة، كما تم صياغتها من قبل نيتشه، أو تتأصل في أيّ أساس أو قوام من القوامات، بل تتطابق و تتماهي مع الصراع المعتمد على ذاته و المكتفي-بذاته – تبقى ادِّعاءات نيتشه الحاسمة تشتق من حقيقة أن إرادة القوة ليست نوعاً واحداً ثابتاً. هذه الإرادة، في الواقع و كما هي، شيء يريد أن يحيط بكل الاختلافات الأساسية و الهرمية و أشكال التراتبية والفوارق.

هناك العديد من الصياغات التي يستخدمها نيتشه ليصف لنا القوة كشيء متجانس يعرض فقط الاختلافات الكَمَيَّة. القول الآتي بهذا الصدد واضح لا لبس فيه: ((تقاس قيمة أيّ شي في الحياة بكمية القوة التي يمتلكها))، و في مناسبة أخرى، يقول: ((يمكن أن نحدد كميات القوة و مكانتها و نرسم خطوطه بدقة، و لاشي أخر بوسعنا القيام به أكثر من ذلك)). و في موضع أخر، يقول ((تعتمد مكانتك، في المقام الأول، على كَمّيَّة القوة التي تتمتع بها)). و يضيف ((تتكون القيمة و تقوم على كَمّيَّة القوة العليا التي يستوعبها و يتمثلها الإنسان)). في هذا الصدد، تساوي كَمّيَّة القوة كَمّيَّة القيمة، و تكون القوة، بحد ذاته، التي يتمتع بها الفرد بمنزلة المعيار الذي يحدد مكانته.

لكن مفهوم ((القوة))، عند نيتشه، يظل يشوبه بعض الغموض. لا يمكن لدرجة و كَمّيَّة القوة، في أيّ حال من الأحوال، أن تكون مماثلة إلى نظام المكانة التي يتمتع بها الفرد، و هذا في الواقع

السبب وراء الكثير من الإشارات الكثيرة التي وردت و التي بمجملها تستخف و تستهين و تقلل من قدر القوة بدل من أنّ تعلي من شأنها: ((يدفع المرء ثمناً باهظاً كي يبلغ القوة، البحث عن القوة تجعل المرء حقاً يبدو غبياً و ساذجاً في كثير من الأحيان)) – ((البحث عن القوة هي عملية صعبة و مضجرة، و تحتاج بذل المزيد من الأعمال الشاقة المملة)). هذه التصريحات و ما شابه تبين أنّ القوة و القيمة ببساطة لا يتطابقان عند نيتشه. نتيجة لذلك، يتوصل نيتشه أخيراً إلى نتيجة هي التخلي عن اعتماد كَمّيَّة القوة كمعيار– و بهذا، ليس الكَمَيَّة ، بل الكيفية هي العامل الحاسم في تحديد القوة: ((لا تقبل النظرة الميكانيكية إلاّ التفسير الكمي للقوة، لكن القوة لا توجد و لا تقييم إلاّ في الجانب الكيفي)). بل ربما حتى الكميات تكون علامة من علامات الكيفيات: ((في العالم الكمي الصرف، كلّ شيء مَيْت، جامد، لا يتحرك)). و لكن، تبقى كميات القوة هي علامات واضحة للكيفية. في مجال السياسة، على سبيل المثال، كنا قد لاحظنا في حياة الدولة الكميات الكبيرة من القوة ليس بالضرورة تتطابق مع القيم العليا و السامية لها.

إنّ انفصال تاثير القوة الواقعية (*de facto*) عن القيمة العليا و انسلاخها عنها يمكن أن يتسبب في شر راديكالي خطير في العالم. ((إذا كان نفس الشخص القوي، الذي يمتلك المقدرة على الذات و القدرة التي تغلغلت فيه حتى أعمق أعماقه ثم تحولت إلى حالة غريزية – إلى غريزة السيطرة، المصدر الحقيقي للمشاعر السامية))، فإنّه ليس بأيّ حال من الأحوال تكون الصفات الرفيعة المستوى، حيث تكون خالية من القوة، سامية و عالية بشكل مطلق، لأن قيمتها يكون مشكوكاً فيها: ((دائماً، حين لا يكون السامي هو الأكثر قوة، فلأنه يفتقر إلى القوة، و لا يمتلكها إلاّ كشذرة أو ظل؛ من جانب أخر، حين لا ترتبط القوة (*de facto*) مع القيمة السامية فإنّ النتيجة ستكون مدمرة ومخربة)): (إنّ سوء استخدام الأباطرة الرومان للقوة) هو السبب الذي يكمن وراء انتصار الأخلاق الضعيفة المنزوعة الأنياب في أُورُوبَّا كلها – على سبيل المثال، حققت أخلاق العبيد و الضعفاء – هذه المشاعر المستفيضة الموشّاة بأقدس الأسماء– التي جميع غرائزها انحطت قيمتها و غدت عديمة الفائدة – أكبر عقبة تنتصب في وجه البشرية التي مازالت تعاني، برّمتها، من مضاعفات هذا العلاج الساذج الذي تخيله الكهنة – أخلاق الانحطاط و إرادة النهاية، الذين لا حول لهم و لا قوة إلاّ صناعة القصص الوهمية عنها تلك الذي تبعث على الضحك كسائر ما عداها، انتصاراً كبيراً في جميع أنحاء أُورُوبَّا كلها الذي تعاني اِحْتراب سياسي؛ لأن مفهوم الأخلاق في المسيحية كان ببساطة يسمح للضعفاء و يجيز لهم الحصول على السيادة و انتهاز الفرص بكلّ ما

تحمله الكلمة من معنى؛ و كانت النتيجة فوضى، بمعنى لا قوة الإمبراطورية الرومانية تم التغلب عليه و كسر هيبتها بشكل كامل، و لا قوة مسيحية جديدة واضحة الملامح نشأت و أرست دعائمها و غدت فعالة تمثل القيم الأخلاقية العليا، بعبارة أخرى: القوة الرومانية كانت فظة جداً و غير مهذبة، أما القوة المسيحية، الساكنة التي لا تقْوَى خجلا، التي أُستخّدمت ببراعة من قبل الضعفاء و المهمشين و المسحوقين، الذين اسقطوا مفهوم الفعل الحيوي بمعناه الحقيقي، و لاسيَّما الميتافيزيقا الكهنوتية و ما فيها من عداء للحواس يجعل المرء كسولا و محتالاً، فإنّها تنم على الكثير من الدهاء المبطن. بواسطة كل هذه الأفكار في خطوطها العامة، يبدو لنا أن الجمع ما بين القوة و القيمة أمر في غاية الصعوبة و لا يمكن الدفاع عنه – من الواضح، إنّ القوة العظيمة، بحكم الواقع (*ipso facto*)، لا تمتلك قيمة أخلاقية كبيرة، لا من بعيد و لا من قريب، و لا تمد بأيّ صلة لها. ومن حيث إنّنا نحاول الجمع بينهما و نساوي بين الاثنين في تفسيراتنا، فإنّ هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، لا يمكن أنّ يكون منطقياً و مقَبُولاً. و لكن نحن نحاول أن نساوي بين الاثنين، و نجمع بينهما، و ذلك كي نصحح كم من الأخطاء و ننظم بواسطته الفوضى التي تحيط بنا و نعيش فيها؛ و بهذا الصدد بوسعنا أن نقول صحيحاً مثل مَس: ((هذا هو بالدِقّة المعنى الذي كان نيتشه يروم في إيصاله لنا، بمعنى كان يريد القول إنّ الإغريق كانوا، بشكل لا يقبل المقارنة، أكثر قوة من الرومان، لأن الأخيرين كانوا (حكام) أكثر من كونهم (مشرعين))) [65].

بعد أن انتهينا و أدركنا من أن كلاً من القوة و القيمة لا يمكن أن يتطابقا – مع أنّه لغرض البَدْء ينبغي أنّ نقول أنّ كليهما نفس الشيء – يمجد نيتشه و يعلي من شأن القمة و الذروة الحقيقي للوجود و أوجها كقوة نحدس وجودها و لكننا لا يمكن أو نعجز عن تصورها، أو مرة أخرى، التعامل بنمط نافذ و بعيد النظر، مع السّؤال الآتي، لماذا لا يكون الوجود السامي ذو الطراز الرفيع هو بالضرورة أيضاً الوجود المنتصر؛ و بهذا يكون أمامنا طريقان.

لا يودي الطريق الأول إلى نتائج معقولة. فهو يقود فقط إلى تعبيرات مكررة تنبثق من الترنيمة الممِيزة للحياة إلى سِرّ الوجود كنقطة تلتقي فيها كلّ التناقضات و تتوحد و حيث تتضمن الدرجة العالية من القوة و تنطوي على الحرية التي تتحرك من زاويتي الخير و الشر و كذلك من زاويتي الخطأ والصواب.

من جانب آخر، يقود الطريق الثاني إلى إضاءة أنواع التقييم، و هذه بدورها تلقي الضوء على مصدر الاختلاف بين أولئك الذين يريدون القوة و أولئك الذين يريدون فقط أن يمتلكوها دون استخدامها. و لكن بدلاً من البحث في التعددية غير المحدودة الممكنة التي يمكن أن نجدها في ماهية إرادة القوة، يستنتج نيتشه، بواسطة تميز و التعرف على باعثين أو محركين (هناك، ((توجد إرادتان تتصارع على الفوز بالقوة))): [1]باعث القوة و[2]باعث الضعف، بمعنى نمط و طراز الحياة النازلة و نمط و طراز الحياة الصاعدة، إرادة الحياة – التي جرى تعريفها بأنّها تكيف داخلي مع الظروف الخارجية يتخذ باستمرار مزيد من الفعالية، أيّ بطريقة تنظر لجوهر الحياة كإرادة القوة – و إرادة العدم، غريزة الصعود و غريزة التلاشي و الفَنَاء.

إذا كان نمو و زيادة القوة بحد ذاته هو نفس زيادة و نمو القيمة، و ينبغي أن نتفق هنا على الأقّل حول هذا المعنى، فإنّ مسار الحوادث سيكون واضحاً و جلياً لا لبس فيه – و سيكون النجاح في الفوز بالقوة برهاناً و دليلاً على حيازة المكانة و القيمة. لكن ملاحظة العالم و النظر إليه بعيون فاحصة يبين بما لا يدع مجال للشك أنّ الأعلى مكانة و قيمة يمكن أن يتحول بسهولة إلى إنسان ضعيف – بل يمكن حتى القضاء عليه من قبل أولئك الذين ليس لهم مكانة و قيمة و لكن لديهم في الواقع قوة.((يصبح القوي ضعيفاً حين يكون في مواجهة غريزة القطيع المنظمة – التي تجد التعبير عن نفسها بواسطة التضاد بين ((الأناني)) و ((المنزه))، و لابد أن يكون قد انقضى وقت طويل حتى استتب الأمر لهذه الغريزة، بحيث أنّ التقييم الأخلاقي ظل أسير لهذا التضارب و متورط فيه لردح طويل من الزمن – دهاء الضعيف، الأعداد الكبيرة الساحقة المتفوقة للجماهير.... المرء دائماً يضطر أن يدافع، و الأمثلة كثيرة، عن القوي ضِدّ ظلم الضعيف، و المحظوظ ضِدّ جمع غير المحظوظين... إذا أراد أن يعبر عن الواقع بواسطة منظور الأخلاق المسيحية – يا للجرأة و اليقظة التي تستخدمها من أجل اختيار وسائلها، و التي بجعلها الإنسان أفضل تكاد تكون إذنْ مرادفة للحط من منزلته – فإن هذه الأخلاق ستقدم الضمان المؤكد أن الناس العادين هم أكثر قيمة من الناس الاستثنائيّن؛ أيّ أن القاعدة أكثر قيمة من الاستثناء.... كل ّهؤلاء الذين أراهم أمامي و حافظوا على وجودهم لحدّ الآن كان نتيجة لحالات المساومة و التسوية و التفريط بقيمة الحياة)). ((الضعفاء يا لهم من ناس أذكياء، فهم حتى أكثر ذكاء من الأقوياء...؛ يفهمون الأمور بطريقة في غاية الدهاء)). و بذلك، فإنّ الوضع هو على هذا الشكل: ((نحن أكثر عرضة للهلاك بسبب قوتنا لا بسبب ضعفنا)). ينبغي أن نضيف أيضاً، أنّ الأقوياء يحطم بعضهم البعض الآخر؛ لأنه، ((من الطبيعي للأقوياء أن

يثور أحدهما على الآخر بالضبط كما الحال طبيعي أن ينحو الضعفاء – أنت الذي أعطيتهم الحب و الفضيلة و الخشوع لماذا لم تعطهم القوة – بأقصى قوة يمتلكونها إلى الوحدة و الاصطفاف فيما بينهم و التوحد بينهما و تجنب الأقوياء)). هنا، السّؤال الأساسيّ هو: ((لماذا انحدرت الحياة على هذا النحو، غدت مرتعاً خصباً للحثالة من الناس ؟)) لقد تمت الإجابة عن هذا السّؤال أخيرا: هذا الأمر المثير للاهتمام حقاً، حدث نتيجة انحراف و تشوه و فساد القيم الأخلاقية التي تنشأ حين يهيمن الضعفاء و العبيد و يبتكرون ميزاناً و معياراً جديداً للقيم الذي تشوه الحياة و تهينها، و تشوه القيم السامية الرفيعة الطراز و إيقاظ الشعور بالإثم عند المذنب الذي يكابد ألما داخليا مختلفا عن ذلك الذي قد يكابده فيما لو كان ضحية لكارثة طارئة أو لظاهرة مرعبة من ظواهر الطبيعة، و القوة الأصيلة – إنّ أرادة القوة عند الضعفاء و العبيد هي بالتأكيد نوع آخر مختلف من الإرادة، لأنّها تعمل فيما وسعها لذم و تشويه و الحط من قدر القوة الأصيلة و الحقيقة للأقوياء. هذه الإرادة الضعيفة و العَنِينة للقوة تستخدم الروح، بواسطة الضعفاء و العبيد، كأداة فعالة لتحقيق النصر المؤزَّر النهائي و الصارخ لهذا الانتقام، على الأقوياء بشكل غير واعي و خبيث – كما إنّها تحدث تحولاً كبيراً في وجود الإنسان كليًّا في العالم.

و بسبب طبيعة أولئك الذين يسعون إلى القوة – خلافا للمرء الذي حشا حياته بكدسة من الالتزامات تفقد كلّ معنى غذا ضعف برهانه – لم يعرج نيتشه أو يفكر في الاختلاف الأساسيّ بين الصيغتين المفترضة بواسطة إرادة القوة أو يضمن و يشير إلى النتائج السلبية و غير المؤهله إذا كان واحد منهم غير موجود. فكلاهما من وجهة نظره أساسي. يتسأل نيتشه ما إذا كان انتصار الضعفاء و المهمشين و الناس العاديين يقدم ضماناً للحفاظ على الحياة و إنقاذها – أعني، الحفاظ على النوع، و ما إذا كان هذا الانتصار يمثل خط الدفاع الأول الضروري ضِدّ شي مازال يمثل الأسوء من وجهة نظر العبيد، بهذا الصدد، يقول: ((هب أنّ الأقوياء أصبحوا يهيمنون على كلّ شيء – حتى في تحديد لوحة القيم و سلمها... هذا سيقود الضعفاء إلى احتقارهم و الحط من قيمهم و البحث عن كل الوسائل المتاحة للقضاء عليهم... و لكن السّؤال هو هل نحن نريد العالم حقاً خالياً من مساهمة الضعفاء: حريتهم، إذعانهم و خضوعهم، روحهم، و مرونتهم في الانصياع للأوامر – هل نريده حقاً خاليا من كلّ تلك الأشياء المهمة ؟)) زد على ذلك، الضعف، و الوهان المديد الذي يعقبه أحيانا تغير في مِزَاج البشرية حيث ينقلب هذا المِزَاج إلى عكس ما عليه، شرطاً أساسياً و ضرورياً، لأن طبيعة الضعيف، الناعمة و الأكثر تهذيبا، تعد حقاً خطوة مهمة و ضرورية في طريق ((التقدم،

الذي يقاس بالنسبة لعظمة التضحيات التي ينبغي أن تبذل بكلّ ما أوتيت من جهد و توظف كلّما لديها من طُمَأنينة و رباطة جأش من أجل إنجازه)). أخيراً، الانفصال و التخلي عن الحياة خطوة ضرورية جدا للحياة بذاتها. ((حتى حالة التفسخ ينبغي ألّا نشن الهجوم عليها و نأنف منها)) كونها لا تستحق حقاً كلّ هذا الشجب و الإدانة – بل هو في الواقع ((نتيجة ضرورية للحياة)).

في هذا السياق، بوسع المرء أنّ يفهم لماذا تبدو أحكام نيتشه على القيمة يسودها الشيء الكثير من الغموض و الالتباس في الكثير من كتاباته التي تبدو مضجرة نوعاً ما و لكن هناك أشياء جيدة فيها قائمة على السخرية، و السخرية الذاتية، و يحتاج المرء لفهمها إلى مفتاح ينبغي العثور له أولا لكشف مكنونها: هذه الأحكام تشتق من المعنى الخاص جداً لوجهة النظر الذي تنبثق منها. تخدع ماهية إرادة القوة نفسها دائماً، على سبيل المثال، حينما يواجه الناس، في وجودهم الحالات الطارئة الحرجة و يجبرون على مواجهة الخطر:((كُلَّما كانت الرغبة ضعيفة في التحاق المرء في ركب الأقوياء...)) كُلَّما كبرت لديه الرغبة و الإصرار لتوحد مع مَنْ مثلهِ و العمل تحت رآية واحدة، و كُلَّما كان سهلاً و يسيراً للمرء أن يستنتج و يستدل على وجود الضعف بصورة واضحة لا لبس فيها – و كُلَّما كان الإلحاح قوياً في الإصرار على التنوع، الاختلاف، و الاضمحلال الداخلي كُلَّما زادت و نمت القوة الساكنة أكثر فأكثر. و على نحو لا يخلو من المفارقة، يمكن للقوة الحقيقي، عند الوجود السامي و الرفيع الطراز، أن تحرر نفسها بينما ترفض فخ الزيادة و النمو المباشر للقوة.((من الخيانة السعي وراء القوة. يسعى الرجال رفيعي الطراز إلى الإنقاص منها لا الزيادة فيها لأن لديهم منها ما يكفي)).

كيف وضح نيتشه – الذي ينظر إلى نفسه بوصفه واحداً من الرجال الأقوياء و أول المشاركين في المعركة ضِدّ كلاً من القُوَى الوحشية و الهيمنة الواقعية الملموسة لفئة الضعفاء على العالم – بشكل نهائي التناقض الذي تنطوي عليه العَلاقة بين القوة و القيمة، كما هو واضح في الأقوال الآتية: ((أنا لا أتحدث عن العبيد الضعفاء – فهم يريدون و يرومون في قرارة أنفسهم الخضوع و الطاعة؛ و في كل مكان يعانقون العبودية بحماسة صاخبة لم يسبق لها مثيل على وجه الأرض منقطعة النظير... لكنني عثرت في طريقي مع ذلك على القوة حيث لا أحد ينظر إليها أو يلتفت إليها: عند الناس الضعفاء والعبيد البسيطين هناك رغبة جامحة في الاستيلاء على الحكم و إدارة الحال بأنفسهم)).

الوقائع المُلاحظة التي ينطلق منها. ـــ استولت مشكلة القوة و حازت على اهتمام نيتشه لفترة طويلة من الزمن قبل أن يأسر تفكيره فجأة موضوعة ماهية وجود ((إرادة القوة)). تعد قفزة نيتشه – من القبض على وجود الوقائع الفردية الخاصَّة في العالم بواسطة تنوع مفاهيم القوة غير المحددة و مرسومة المعالم بدقة إلى ميتافيزيقا الوجود كإرادة غير محددة الملامح و إلى القوة المطلقة من ثمّ – غير واضحة في تسلسلها المنطقي – أعني، أنها تفتقر إلى الكثير من الاتِّساق. لكن المعطيات التجريبية الملموسة تبقى قريبة و نقطة البداية (terminus a quo) في نظامه الميتافيزيقي. فهو يجمع الملاحظات و يكدسها ثم يحاول أنّ يقدمها في ثلاث صيغ تأويليّة يسودها الغموض. بيد أن هناك بعضاً من الأقوال التمهيدية ربما تسعفنا في أداء وظيفة الإشارات و النِقَاط الدالة إلى الطرق الذي يسير فيه تطور كتابته بهذا الشأن بالمعنى الكامل (extenso).

(1) سيكولوجية الشعور بالقوة: إلى أي مدى كان مفهوم ((إرادة القوة)) طيعا أنّ صح التعبير في علاقته بالمفاهيم الأخرى؟ لا يمكن لمفهوم نيتشه ((إرادة القوة)) أن يتطابق، بأيّ شكل من الأشكال، مع مفهوم الدوافع التي تهدف إلى تزويدنا بشعور بالقوة. فبينما يرتبط الأول مع الوجود الحقيقي الذي يصبح تجريبياً؛ نجد أنّ الثاني يرتبط بالتَجْرِبة السيكولوجية الملاحّظة. واحد يتضمن و ينطوي على الإرادة المجردة لتحدد مسار وجوده؛ و الآخر هو سعي واعي للحصول على متعة الشعور بالقوة. لكن السيكولوجي، مع ذلك، يشكل النقطة التجريبية للانطلاق التي تزودنا بالتوضيح المناسب و التباين كُلَّما كان الحديث يدور عن إرادة القوة. يطور نيتشه مقاربة سيكولوجية بخصوص الشعور بالقوة بأسلوب نافذ لا يخلو من الفرادة و الندرة.[66]

يتحدث نيتشه بقرينة أو صلته إلى نتيجة مفادها إنّ إرادة القوة تتنكر بأكثر الأقنعة إثارة للدهشة لتخط مطالبها السرمدية. تقوم إرادة القوة بتحويل أشكالها و تضليل و خداع نفسها بحثاً عن مسألة الرضا-الذاتي – و لهذا فهي لا تستقر على حال، بل تترك دائماً مكانها القديم و تنتقل إلى مكان جديد بحثا عن هذا الهدف المراد، و هذا بالمناسبة واحدة من الحقائق الأساسية للواقع السيكولوجي: دائماً يعبر الشخص عن إرادة القوة سواء كان هذا التعبير يسبب الأذى و الضرر إلى الآخرين أو يجلب المنفعة و الإحسان إليهم. مثلاً، أولئك الأقوياء، المتباهين بأنفسهم، بعيداً عن الغلو و المبالغة و بصدق، يجدون دائماً الباعث على الفخر؛ و لا يكتفون بذلك، بل يبحثون عن أندادهم و

أقرانهم من الشجعان من أمثالهم ليتصارعوا معهم إذا اقتضى الحال ذلك و تصل الأمور أحيانا حتى إلى قتل أحدهما الآخر إذا اضطرتهم الظروف إلى فعل ذلك – من جانب أخر، شعور العاطفة و الشفقة نحو الآخرين يعدّ الشعور الطاغي، و أكثرها قوة، بين أولئك الضعفاء الذين لا طاقه لهم في قتال الآخرين، كما لا تساورهم الرغبة، بأي ّشكل من الأشكال، الرغبة للقيام بالفتوحات الكبيرة. الوسائل القديمة في الحصول على العزاء في مواجهة المصائب و المكروه هي من جعل أولئك الضعفاء يعانون و الأقوياء يشعرون بالعزة و الفخر: حتى الناس الذين يشعرون بالخزي و الذل بوسعهم أن يزودوا أنفسهم بشعور القوة بواسطة شجب و إدانة الآخرين و جعلهم يشعرون بالذل و العار و الذنب بسبب قوتهم. إنّ الصراع من أجل التميز و الاختلاف هو ببساطة صراع لتقويض و هزيمة أندادك بكافة الوسائل و الحيل المتاحة و فيها الكذب و التنكيل و الإساءة بطرق غير متخيلة.

كما وجد نيتشه أيضاً أنّ أكثر الشخصيات التي تبحث دون هوادة عن الإرادة الروحية للقوة هم الفلاسفة، الزهاد المتنسكون، الكهنة، و الرهبان النساك في أقوال لا تسمن أو تغني من جوع: اكتشف البرابرة إنّ ((السعادة التي لا توصف موجودة في مشهد التعذيب)) – أعني، يقومون بتعذيب الآخرين جسديا و نفسيا؛ أما الزهاد المتنسكون، الذين اكتشفوا في الآلم أقْوَى علاج لتقوية الذاكرة، فقد وجدوا السعادة في تعذيب أنفسهم: ((السعادة هي أكثر المشاعر حيوية في إثارة القوة، و ربما لم يتم دفع هذا الشعور إلى مدياته القصوى مثلما حدث في نفوس الزهاد المتنسكين المؤمنين بقوة بالخرافات)). إنّ الانطباع الذي تركته إرادة القوة، عند الزهاد المتنسكين، نجح حتى في التأثير على الأقوياء الذين يعبرون عن إرادة القوة جوهريا في اتجاهات خارجية. و بذلك، غدا مفهوما لدينا لماذا يركع الأقوياء دائماً أمام القديس بوقار و احترام قل مثيله، كما يركع المرء أمام الأسرار الوحشية التي تروض الذات... فهم يكتشفون فيه معنى القوة السامية و الرفيعة. إنّها ((إرادة القوة وحدها الذي جعلت منهم يقفون بصمت مخيف و يثير الدهشة أمام القديس في وضع تملئه الرهبة و الخشوع)).

و لكن، إذا كانت إرادة القوة تريد، في فصلات عامة، و بصورة مستمرة، أن تخلق شعور القوة في صيغة معينة أو أخرى و بلا هوادة، و إنّها في المحصلة النهائية باعث و نابض سيكولوجي أساسيّ عند الإنسان، فلماذا يجب أنّ يوجد في الأساسّ شيء اسمه الخضوع و الطاعة بالمرة؟ يقدم نيتشه أجوبة متنوعة، تتحول إلى أسئلة جديدة و بحوث جديدة و أوضاع عامة و احتمالات، عامة عن هذا السّؤال: ((بالعادة يخضع الناس أنفسهم إلى القوة أو كلّ شيء ينحو باتجاه القوة)). فهم لا

ينفكون من استخدام القوة التي تتطلب الشجاعة و ممارستها. إنّ العطش للخضوع و الطاعة هو المِيزة الأساسيّة للحياة التي في طريقها إلى الانحدار و التفسخ. لكن الخضوع، في هذا الحال، الذي يتضمن لا فعالية و تعطل إرادة القوة و توقفها عن العمل هو في الواقع مجرد صيغة مهذبة و مروضة لإرادة القوة التي يمتلكها الأقوياء حصراً. ربما يقول الضعفاء و هذا بالمناسبة لا يخلو من الصحة: نحن نخضع أنفسنا كي نتمتع بشعور القوة. و هناك أخيراً، اتجاه معاكس متناقض يظهر بين الأقوياء: ((أولئك الذين يسعون نحو القوة بأقصى ما يستطيعون يجدون أنفسهم مغلوباً على أمرهم. حين يكون المرء ضعيفاً تماما ! يجد نفسه منغمسا، دون إرادته، في لُعْبَة القُوَى البدائية الوحشية، التي لم يكن ثمة فيها وجود لأيّ شي مجاني، و كأنّ القوة شر لابد منه)).

من البداية، توصل نيتشه إلى نتيجة مفادها: ((إنّ كلّ النظام السيكولوجي للإنسان منذ العصور القديمة حتى يومنا هذا، القابل للنقاش من الوجهة التاريخية، الذي حقق معرفة عميقة متبحرة تتحلى بالجرأة و الهمة، و تحويلة بطبيعة العدالة الاجتماعية، قائم في صروحه المشيدة على سلطة الأحكام و الآراء الأخلاقية المسبقة: لم يكن هذا النظام يجرؤ، أو يفكر حتى، في المغامرة – ما أجمل كلمة مغامرة، ما يجب أن يحدث. كلّ المدهش الذي ينتظرني – و الغوص في أعماق و أغوار النفس البشرية. لحد الآن، أن لم تخني الذاكرة، لم يجرؤ أحد أن يمعن النظر في السيكولوجيا كعلم تشكل الموروفولوجيا أو كمذهب يتعلق بانبثاق و نشوء إرادة القوة بأكثر المعاني اتساعاً)). فحين أصر نيتشه على الرأي الذي يقول ينبغي أن نعترف أنّ ((السيكولوجيا هي المعلم و الخادم الأول لكلّ العلوم، و أن العلوم الأخرى موجودة بالأساسّ كي تهيء الطريق له و تقوم بخدمته عن طيب خاطر))، فهذا لأنه كان يعتقد أنّها ((المهيء و الصانع الأول للمقاربة المهمة في التعاطي مع المشكلات الأساسية – أيّ المشاكل التي ستقلق غداً أولئك الذين سياتون غدا؟ لهم أريد أن أكتب)) – فهذه المقاربة التي تقوم بتقديمها السيكولوجيا لا تقود إلى العلم، و لكن بشكل مباشر إلى ميتافيزيقا إرادة القوة.

(2)المبادئ السوسيولوجية الأساسيّة للقوة: تؤكد السوسيولوجيا على وقائع المجتمع الإنساني – القرف الفردي المخنوق و المستَعاض عنه بالتطلع إلى ازدهار الجماعة – بوصفها الميدان الواقعي للعلاقات الإنسانية الأساسيّة حيث في ظل غيابها لأي قُوَى المرء على البقاء على قيد الحياة حتى و لو لفترة قصيرة. إنّها الأدوات التي وجدت لخدمة السيد. على سبيل المثال، ((الاستثمار و

الاستغلال... هو نتيجة للوجود الحقيقي لإرادة القوة و حضورها. تمثّل حقيقة إرادة القوة العامل الأساسيّ و البدائي في التاريخ)). داخل المجتمع – نحن أكبر من الفرد: نحن السلسة برّمتها النامية، السلسة و مستقبلها – و الدولة هناك صراع مستمر من أجل القوة. لقد لاحظ نيتشه هذا الصراع من أجل القوة، في الواقع، و لاسيَّما في تأثير القوة الباعثة و المحركة و النوابض الفكرية، التمويه، التخفي و ارتداء الأقنعة للفرد، و شتى الأسلحة المستخدمة في هذا الصراع وما أكثرها.

(أ) المشهد الأول، تزود حياة الإغريق نيتشه بمثال عن عظمة البانوراما الرائعة لكلّ شيء، بما أنّها تضيء طبيعة الإنسان الحقيقي بصورة ناصعة قل مثيلها. في حياة الإغريق، وجد نيتشه ((النَّمِر الذي يجد السعادة في الفِنَاء الفسيح المترامي الأطراف))، الإنسان الذي يرى ((وحشية الانتصار الكامن في ذروة الابتَهَاج المندفع نحو الأعلى)). لم يبدِ الإغريق، و خلافا لكل الديانات – التي تفرض على المؤمنين بها نظاما ما يودي إلى حالة الإنهاك الكفيلة بإثارة تلك في الوعي. يعتقدون أنهم قد ولجوا منطقة علوية تتوقف فيها معرفة أيّ شيء-مظهر قوة علوية – و الفلسفات السائدة في العالم، مشاعر الخوف و الرعب من العالم أو نمط و طراز الحياة التي واجهوها و اصطدموا بها – بدلاً عن ذلك، ((خاضوا معركة الصراع بشجاعة و بسرور بالغ و إيمان بتحقيق النصر المؤزر في هذه الحرب الضروس)). في هذا الصراع الهلنستي المثالي ، كانت الإله إيريس هو أول من أشعل نار الحسد، الفتنة و الحقد و استئصال شافة الميؤوس من شفائهم بقَلَّبِهم على أنفسهم. غدا الصراع الشرط الأساسي و المبرر الأول في حياة و وجود الإغريق. فبواسطة النبذ، استبعدوا كل الشخصيات النادرة التي تفوقها لا جدال فيه و التي يمكن أن تقضي على كل تنافس، و ابقوا فقط القُوَى الذي تستطيع التنافس فيما بينها و تحيي سباق الحياة. إذا حاولنا أنّ ((نزيل عنصر الصراع و التنافس و المسابقة من حياة الإغريق، نجد أنفسنا نمعن النظر في حفرة ما قبل هوميروس– أعني، غابة الكراهيَة – الغريزة التي تحمل الأقوياء على الانقضاض على الضعفاء في القطيع – و البغض الشديد و الحسد و المتعة في الفَنَاء)).

(ب) ينبثق المشهد الثاني حين نحاول إجَراءِ المقارنة و نضيء الاختلاف بين القوة الخارجية في الواقع و القوة الداخلية الحقيقية في عالم القدماء، العالم المجهول المعالم بإسره. الدولة التي تخفق في تحقيق أهدافها تتحول إلى كائن فظيع مشوه الخلق – لهذا السبب، لم يعثر نيتشه على شيء سامي في الإمبرطورية الرومانية، التي تجسد نموذج الدولة التي أخفقت في تحقيق أهدافها، حين يقارنها

في حاضرة المدينة أو دولة المدينة الأثينية. يعتبر نيتشه انحدار و انهيار الإغريق و ينظر إليه بوصفه مثالاً ساطعاً على حقيقة أنّ قوة الأغريق الواقعية لم تكن سامية و رفيعة في الحد الكافي في القيمة: ((إنّ الهزيمة السياسية التي مني بها الإغريق و ألحقها بهم أعدائهم تعد واحد من أكثر المصائب الثقافية إيلاما على البشرية، التي ترى خلاصها و مستقبلها مرهوناً بالهيمنة المطلقة للقيم الأرستقراطية، لأنّها فتحت الباب على مصراعيه إلى نظرية حراثة و بذر أرض الثقافة و التمتع لاحقاً بثمارها أمر ممكن التحقق فقط بوجود رجال مدججين بالسلاح من رأسهم إلى أخمص قدميهم. و لذلك، حققت القوة المتوحشة المتنامية للعبيد النصر المؤزر على السادة الأرستقراطيين الحقيقيين، الأخيار و الجميلين و السعداء!)) هذا يؤكد مطالب نيتشه و مفادها ((على الإنسان السامي و الرفيع الطراز أن يقف على رأس هرم السلطة في الدولة))، و أن ((يكون الحاكم الفعلي السامي للأرض)). وإذا لم يحدث هذا الأمر المثير للاهتمام حقاً، فما هو العمل إذنْ؟ ((تعد الهيمنة الاقتصادية، دون وجود البشر السامين و الرفيعي الطراز من السادة، حقاً تدنيس و إنتهاك حقيقي لا يغتفر)). ((لا ينطوي القدر الإنساني على سوء الطالع و مأساة أكبر من ألّا يكونوا السادة، البشر السامين و الرفيعي الطراز، القادة الحقيقي للأرض و الطليعة التي تمشي عليها. و لهذا يصبح كلّ شيء خطأ، شنيعاً و مشوه الخلق)).

(ت) تزودنا الشهوة البخيلة للسعي لجمع المال الحديثة، المال الذي يعطي أعلى شعور بالقوة، بالمشهد الثالث الذي تعمل بواسطتها القوة و تمارس تأثيرها في المجتمع. لا يعد جمع المال بطريقة بشعة و جشعة حاجة حقيقية، و لكنه في الواقع نفاذ صبر مفزع و بغيض يزود الضعفاء – يا ربّ سَلح الخراف كي لا تأكلها الذئاب – بأدوات النصر و الباعث له: ((الشهوة إلى القوة، و التي فقدانها مصدر الخوف، تستخدم وسائل مختلفة، لكن نفس البركان يستمر في الانفجار و التدفق... و الشيء الذي تم إنجازه سابقا لوجه الله ينجز الآن لغرض المال... كل هذه الوسائل، اليوم، تزودنا بشعور القوة و التفوق و الضمير غير المضطرب الذي لا يعاني الوخزات إطلاقاً)).

(ث) المشهد الرابع، لم تشن حرب الصراع من أجل القوة ضِدّ المعاصرين فحسب و لكن شملت أيضاً الناس في الماضي التي وصلت إلينا أعمالهم عن طريق التراث التاريخي و فصوله المحملة بدروس الفواجع. ((إنّ العملية الأساسية في كلّ التاريخ و المقومات التأسيسية له هي إعادة تأويل المادة التراثية و مخزوناتها ذي الأبعاد الكونية التي وصلت إلينا بواسطة إرادة القوة

المعاصرة، مع نتيجة أنّ أيّ شي موجود، بغض النظر عن أصله، سيتم الاستيلاء علية و استغلاله و استثماره مع قوة سامية تعيد بنائه و تشكيله و تضعه في صيغة جديد للاستخدام)).

(ج) المشهد الخامس، تتنكر إرادة القوة بصورة روتينية معتادة بأقنعة كثيرة. في المسرح السياسي – و أجوائه المفتعلة التي ساهمت كثيراً في اختلال توازن الناس – يبدأ العبيد، الشعوب التي علقت ذات يوم لوح قيم و قوانين الخير فوقها، بالمطالبة بالعدالة – تفسير يتخذ هيئة الحرص على تنظيم الأمور، تفسير لما هو عادل في نظرها و بالتالي مسموح به، و أما هو ظالم و بالتالي ممنوع – من أولئك الذين تكون زمام القوة و الحكم في أيديهم. حينما يصلون إلى المرحلة الثانية من الخُطَّة التي يتبعونها، يبدأ العبيد بالمطالبة في الحرية – أعني، يريدون أن ينفصلوا تماماً و يبتعدوا عن أولئك الذين في السلطة. و أخيرا، يتحدثون عن ((المساواة في الحقوق)) – التي لايسعها إلى أن تلتحق بالاتجاه العام الذي تسلكه إرادة الحياة، بوصفها واحدة من وسائلها الخاصَّة، بوصفها وسيلة لإيجاد وحدات قوة و مقدرة أعظم فأعظم – بمعنى مادام إنّهم لا يخضعون لأيّ أحد يحاولون أن يمنعوا أعدائهم من الزيادة و النمو في قوتهم. التمتع بباعث القوة يثير النشاط و الحيوي في طبقة العبيد، التي تعاني شيء سقيم في تقاليدها الغالبة المنافية للفعل و النشاط، بالإضافة إلى الأقوياء، و لكن بدلاً من التعبير عنه في عملية تحليل-الذات يأخذ أقنعة الحق و الفضيلة: ((كم هي مجنونة أحكامنا الأخلاقية! حين يحصل المرء على القوة، في نطاق ليس معروفا من قبله حق المعرفة، نطاق يمتنع بترفع وإباء حتى على معرفته كما هو، و يتمتع بها، يشعر بالسعادة و بالخير و هذه بالضبط اللحظة التي يبدأ يطلق الناس... عليه تعبير... الشرير!... الفاتحين العظماء – كل العظماء كانوا مجرمين و لكن بأسلوب رفيع – دائماً يعبرون عن أنفسهم بواسطة اللغة البائسة للفضيلة و بلغة مؤثرة. بالعادة يكونون دائماً محاطين بالقطيع/ الجماهير الذين يجدون أنفسهم في حالة من الهيجان و الشعور غير السوي، و لا يصغون إلاّ إلى لغة التمجيد الذي تثير الحماسة و الفضول في داخلهم)).

(ح) المشهد السادس، في رأي نيتشه – كلّ البواعث الخفية المؤثرة في التاريخ الإنساني تم توظيفها في وقت ما من قبل أولئك العبيد الذين يبحثون عن القوة – هي بمثابة القناع الذي تتخفى خلفه أخلاق ـ العبيد، و هنا نجد سمة نمطية للطبع تحدد التسمية، و التي من بدايتها المبكرة، تقف في الضِدّ من أخلاق السادة الأرستقراطيين، الصياغات القالبة لمفاهيم العصر القديم الذي تطالب باحترام حق المسافة إلى الأبد و بوجوب الفصل بين الواجبات. إنّ ما يميز طبيعة الناس الذين يكون

في يدهم قوة اجتماعية هو ليس الخِيار الواعي للأسلحة التي يستخدمونها في معركتهم، بل كيف يقتربون من التاريخ و يفهمونه. عمومًا، يؤكد نيتشه على الآتي: ((إنّ الأدوات التي اكتشفها الإنسان و تمنحه الشعور بالقوة تتشكل من مادة معرفية لتاريخنا الثقافية)).

(3) القوي و الضعيف: يتخلل هذا التناقض بين القوي و الضعيف، الذي له نصيب كبير من الواقع، تماثل الرؤى و الإيقاع، التأويل الأساسي لإرادة القوة عند نيتشه، و يمثل نقطة انطلاقه في تقديمه وجهات النظر العديد الغامضة التي يجدها في التفكير الحالي – و لاسيَّما في المهن الطبية؟ و بما أنّ نيتشه غالبا ما يقتصر اهتمامه على النتاجات الخيالية للعلوم الإيجابيّة المعاصرة، أخفق في التعبير عن التميز و الاختلاف القائم بوضوح بين النتائج التجريبية الواضحة من جهة و المعاني الغامضة التي يتم إيصالها عن طريق التصورات العامة، من جهة أخرى: أخفق نيتشه في فهم الاختلاف بين المرض بمعنى عملية الاكتشاف العلمي المميز (بمساعدة التنوعات العددية من الأسباب) و المرض بمعنى طرح الأسئلة غير المكتملة التي تبحث عن معنى و تجنب المظاهر المؤذية التي يتجلى عبرها الفساد الداخلي و الإصابة السِرّية بالمرض. زد على ذلك، أخفق في التميز بين أنواع السُلوك المنعكسة التي يمكن أن يطلق عليها ((مرض)) و ((صحة))، (بعبارة أخرى، الفرق بين الناس الذين يعرفون أنهم مرضى أو نكبة ألمت بهم لكنهم يتصرفون بطريقة لا تدل على أنهم مرضى بل كأصحاء من جهة، و بين الناس الذين يعرفون أنهم أصحاء لكنهم يتصرفون و كـأنهم مرضى من جهة أخرى). لم يكن طرح التوضيح المفهومي المنظم هدف نيتشه المباشر – التناقضات اللفظية التي يستخدمها لا تجعل حدسه الوجودي غامضا، و لاسيَّما حينما ينطوي الأمر على النتائج الواقعية للعلم التجريبي[67]. فضلاً على ذلك، تبدو وجهة نظره مرتبكة و تخلط ما بين المستمد و المشتق من التأويل الشامل للإنسانية في كليّتها مع المعرفة الخاصَّة للحقائق الفردية و الخصوصية للوجود الإنساني الذي هي وحدها الصحيحة من وجهة نظر العلم. توضع الأنماط و الأطر الثقافية للعصر تحت نفس المقولات مثل تزامن أعراض المرض العصابي. لا تحدث الأنماط الفسيولوجية-السيكولوجية للوجود الإنسانية و الأنماط الوجودية للواقع الأساسية و لا تتجلى أو تتبدى في نفس المستوى دون الاختلاف بين الأوصاف التي تميزهم. لكن نيتشه لاحقاً يفصل نوع الحياة المنحدرة التي على وشك الموت عن نوع الوجود، الذي بالرغم من انحداره و تراجعه، يظل ثميناً و يؤدي دوراً مهماً كشرط لحياة السكون. قاد عرض نيتشه الواسع لهذه الأشياء الفهم العقلي أنّ يعبر عن الاستياء الذاتي في مفاهيم موضوعية، مع معرفتها المفترضة لكلّ أنماط

الوجود من أجل منح الصلابة للحكم الذي يصدره. لكن هذه العروض تسبب الضجر و الإرهاق للشخص الذي يعشق الوضوح بسبب صفة التكرار الممل الذي تتوفر عليها مع العدد الكبير من الأفكار الغامضة و غير المحددة التي تحتاج التعبير عنها بوضوح.

دعنا نهمل توضيحات الأخطاء النفسية – الخطأ النفسي الذي نشأ عنه التعارض بين الأخلاقي و غير الأخلاقي و النزاهة و الإيثار و نكران الذات كلّ هذا بالمناسبة وهم و غير واقعي – و الفسيولوجية، البايلوجية، الشخصية، و السوسيولوجية التي نصادفها عند قراءة نيتشه، و نركز بدلاً عن ذلك في إرساء دعائم بعض المقولات التي قام نيتشه بتوظيفها بواسطة التميز بين نمطين من الحياة:

بينما تكون السمة الممِيزة لحياة الضعيف الفوضى، تكون السمة التركيبية و التأليفيه هي الصفة الغالبة و الممِيزة لحياة القوي. و بينما تحتوي الأولى على ((شخصيات متعددة و حياته تتوفر على عنصر الفوضى التي تثير الاهتمام))؛ نجد في الثاني ((جملة من القُوَى المختلفة و الموحدة باتجاه تحقيق هدف واحد)). و بينما تخلو إرادة الضعيف من أيّ مركز موحد، و تنمو من تعددية البواعث السيكولوجية المتنوعة التي تفتقر إلى القائد و الموجه؛ تنشأ إرادة القوي – الرجل الذي لا يتعلق في الحياة – بكل دقتها و وضوحها من تعاون البواعث و الحوافز النفسية المتعددة التي تقع تحت هيمنة و سيطرة باعث واحد يسودها كلها. و بينما تسود بين العبيد الضعفاء صفة التواضع التي هي نتاج الفقر و لا الوجود؛ يمثل التواضع عند السادة الأقوياء فرح عارم في ضبط النفس و اِبتِهاج الراكب على ظهر الجواد الناري.

الضعيف هو رجل التسويات و الاتجاه الضيق الواحد، الرجل الذي يقف في منتصف الطريق و لا يجرؤ على التحرك، الرجل المتوسط العاجز – إنّه عجز القُوَى العقلية فيه على حَلّ التمرين النقدي اللازم و الحاسم. من جهة أخرى، يمثل الرجل القوي ((الصفة المتناقضة للوجود في أكثر الصيغ قوة و جبروت)).

و بينما يفتقد الرجل الضعيف للقدرة على تنشيط و تشغيل الحوافز المنبه؛ يقوم الرجل القوي بإثارتها و تنشيطها و تحويلها و السير فيه بطرق إيجابيّة مثمرة. و خلافاً إلى ردود الفعل المفاجئة و غير المقيدة للضعيف، يبين الرجل القوي و يعبر عن نفسه بواسطة المماطلة و التسويف و تأخير

الإفصاح عن ردود الفعل. و بينما ليس بوسع الضعيف أن يقاوم الحافز لأنّهُ مقيد و مشروط بالحوادث العرضية، فإنّه يبالغ في تجاربه و يجعلها فظة إلى حدّ الشناعة، و النتيجة هي تبديد شخصيته. يحكم القوي السيطرة على الحوادث العرضية بواسطة تحويلها إلى قدر. ربما يقول الرجل القوي أيضاً، ((حسناً، الضربة التي لا تقصم ظهري تقويني)). ((هذا الأشياء المسموحة فقط لرجال من الطبائع القوية – التسلية، المغامرة، اللا-إيمان، و الفسوق – تثبت بالضرورة إنّها حاسمة و مهمة جداً للطبائع الضعيفة إذا ما سنحت لهم الفرصة لممارستها)). ((هذه العوامل التي تعمل على الحَطّ من قدر الإنسان الضعيف، الذي يجد نفسه مذنبا و ممتهنا إلى حدّ يجعل التكفير عن الذنب أمراً مستحيلاً، هي نفسها العوامل التي تصنع سُمُوّ الرجل القوي و عظمته و قدرته)).

ليس بوسع الضعيف أن يتعايش مع التَجارِب؛ فيما يمتلك القوي قابلية التعايش معها و إعادة تشكيلها و تركيبها بما يخدم مصالحه. ((هؤلاء الذين يمتلكون القليل من القوة سوف ينزفون حتما حتى الموت فقط من تأثير تَجْرِبة صادمة واحدة... كما ينزف الجرح الغائر و المتمزق)). (للتأكيد، لا يتحدث نيتشه عن القوي و الضعيف حين يقول الآتي: ((أحب الشخص الذي تبقى نفسه عميقة، حتى حين يعاني جسده من الجراح و تكون مثخنة و يمكن أن يَهْدَأ بفعل تأثير التَجارِب التافهة و العابثة))؛ لأنّهُ يتعامل مع الإضاءة الوجودية للإيمان و العالم الداخلي، التي تنبثق تماماً من مستويات مختلفة). في مستويات التعارض و الاختلاف بين القوة و الضعف، يؤكد نيتشه ((أن الرجل القوي – القوي في الغرائز و البنية، يهضم أفعاله، مهما تكن عسيرة على الهضم، كما يهضم الطعام الذي يتناوله، له قدرة جبارة على التعايش مع التَجارِب التي تتطلب دفع أثمان باهظة و ثقلية)).

حياة الضعيف فقيرة وفارغة، بينما حياة القوي غنية و وفيرة و غزيرة الإنتاج. كلاهما يعاني؛ و لكن بينما يعاني الضعيف من الفقر و التعب الوراثي و ذبول الشباب قبل أوانه، يعاني القوي من الوفرة و الغنى و الفائض.

يري الضعيف السلام – إنّ السلام شيء حي لابد أن ينمو أو يصغر كليًّا شيء حي، لابد أن يتكيف و يتجاوز المحن و يجتاز التغيرات و التحورات – الانسجام، الوفاق، و التصالح، الحرية، المساواة، الحقوق المتساوية؛ و يريد أن يعيش في وضع لا يتطلب منه بالضرورة أن يدافع عن نفسه؛ نجد القوي، من جهة أخرى، يعيش في وَسْط الخطر، و ينحاز للمسائل التي تثير الشكوك و الأشياء العويصة. ((و بينما نجد الإنسان الضعيف يعمل ما في وسعه لتجنب المجازفة و الطرق

الصعبة؛ نجد القوي يعمل كلّما بوسعه للعثور عليها و العيش وسطها)). و بينما يكون الضعيف – إنساناً حاقداً ليس صريحاً و لاساذجاً و لا مخلصاً اتجاه ذاته، فنفسه مريبة و فكره يهوى الخبايا و الدهاليز و السبل الخفية، و كلّما يتخفى و يتوارى بأسره يستهويه – ينتهز أيّ فرصة للإنتقام، نجد القوي، الذي يمتلك فائضا غريزيا من القوة الحيوية و المولدة المتعافية التي تذهب إلى حَدّ تمكين من النسيان، شجاعاً و فارساً مقداماً يمتلك شفقة المتسامح، و هذه أمور عرفت بها النفوس الكبيرة على مر الزمان.

تأويل العالم بوصف ظهور و تبدي لإرادة القوة. —— يعثر نيتشه على إرادة القوة، و يلاحظ وجودها، في كل مظهر من المظاهر الذي تتبدي فيه الطبيعة. كُلَّما حاول نيتشه أنّ يتناول بالبحث و التحليل و الفحص ((أساس و طبيعة الأشياء))، و يريد الكشف عنها، يعثر على إرادة القوة. تاريخ العالم بمجمله تجلي لإرادة القوة في أشكال و صيغ متعددة لا حصر لها.

تشبه ميتافيزيقا إرادة القوة عند نيتشه – الذي لا يريد أن يبدو وقحا لكنه يرتعب من العواطف و الأفكار الجاهزة – كما قام بتطوير أسسها و مقارباتها، إلى حَدّ ما النظم الميتافيزيقية الدوغمائية التي تم طرحها في الماضي. بعبارة أخرى، حينما نقارن ميتافيزيقا إرادة القوة مع وجهة مذهب لايبنتز في المونادات (الذات-الذرات)، نجد أنّ مذهب نيتشه ليس مونادات أو يمد بالصلة إليها لا من بعيد و لا من قريب – بل هو بالأحرى عملية زيادة و نمو أو نقصان و تقلص في وحدات القوة. ليس هناك أيّ انسجام أو وفاق أو تصالح في العالم عدا في أسس المواقع المستمرة نتيجة الصراع الناشب و القائم بين القوة و الكَمَيَّة التي تشكل الوجود. و لكن، كما هو الحال عند لايبنتز، نعثر هنا على درجة كبيرة أو صغيرة من الوضوح فيما يتعلق بالمونادات و القوة، بمعنى أن كل موناد من المونادات يفصح عن كمية من القوة (أعني تأويل لايبنتز للموناد يشبه تأويل نيتشه لإرادة القوة). متوزعة و منتشرة في مكان في هذا العالم، تشكل هذا التغيرات الصغيرة و الكبيرة المستمرة لكميات القوة الوجود الحقيقي. فإذا أراد المرء أنّ يجمع كلّ أفكار نيتشه المحددة و المرسومة المعالم في هذا الموضوع، سنصل إلى صورة الكلّ المنظم نسبيا الذي يبدو متطابقا مع النظم الفلسفيّة التأملية العظيمة في القرن السابع عشر– نصل إلى أنّ التأمل و الحكمة من الأشياء الطيبة الكريمة التي يلوح أنّها لا تنمو إلاّ بعيداً، إلاّ على هامش الحياة. أما من كان يعوم في تيار الحياة و يصارع أمواجه فأعماله لا شأن لها بالحكمة، إنّها تحدث كالقدر لأنّها يجب أن تحدث و تعاني.

و بذلك، ينتهي المطاف بنيتشه – الذي عمل ما بوسعه لتنبيهنا عن الممكن، و الحفاظ على وعينا بخصوصه، و الكشف عن أخر المنظورات، و الإفصاح عن التأويلات الكثيرة بخصوص العالم – إلى جعل إرادة القوة الشيء الفردي ذي الصفة المطلقة. بدلاً من الاستجابة إلى الأسئلة الكبيرة بواسطة الرجوع إلى الشروط العامة للتاريخ المعاصر المستقل للإنسان، يلجأ نيتشه إلى الشروط الكُلّية ليبين الوجود الأصيل و يفسره بواسطة تجسيد إرادة القوة.

تمثل المهمة الرئيسية و الكُلّية للميتافيزيقا عند نيتشه، المتوترة و المتحفزة لبلوغ أهداف جديدة، ((تشكل إرادة القوة و تكونها)). تقدم تحولات إرادة القوة، المفصلة و المحددة، كتوازي و تماثل إلى الظهور المرئي للصيغ و الصور المختلفة لكلّ الأشياء. يتبع نيتشه الجذور العميقة لهذه النقطة بدقة و يغوص بها بعيداً. هنا، يمكن أن نلقي الضوء على بعض النِقَاط الرئيسية المهمة التي ذكرها نيتشه بخصوص هذا الموضوع و التي بقدر ما تثير الإعجاب فإنّها لا تخلو من قدر كبير من الغرابة.

مع ميتافيزيقا إرادة القوة، هناك طريقين مميزين يختلف أحدهما عن الآخر منهجيا: (1) إذا اقتفينا أثر الطريق الأول، سنجد أنّ نيتشه يسعى، بكلّ ما أوتي من قوة، ليفهم الوسائل المختلفة التي تبني و تشكل الكون، الذي نقوم بخلقه بواسطة التأويل حين نقوم بتجريب العالم أما إبستمولوجيا، أو جماليا، أو دينيا، أو أخلاقيا. هذا الطريق، عند نيتشه، يقود إلى ما يسمى لديه بتأويل التأويل: يستخدم نيتشه تأويله الخاص به لغرض إضاءة كل التأويلات الأخرى. فبينما تنبثق الصيغة التأويلية دائماً من إرادة القوة، من الأهمية أن نلاحظ، بأنّها سواء كانت تعبر عن إرادة الصعود أو السقوط أو الانحدار، أو حياة قوية أو ضعيفة، فإنّ الأمر يظل عرضياً. بناءً على ذلك، أن ما يقدمه التأويل كحقيقية، أو جمال، أو دين، أو أخلاق هو بالمناسبة دائم ملتبس يكتنفه الغموض: ربما يظهر هذا التأويل بوصفه علامة تعبر عن الضعف أو القوة، أو علامة عما يبدو إنّهُ يحتوي و ينطوي على نفس المضمون (على سبيل المثال، العدمية – و التي ليست هي سبب الانحطاط و منطقه – التسمم الجمالي، أو القانون الأخلاقي)، الذي ربما يكون له معنيان مختلفان، فكلّ هذا يعتمد على أساسه. (2) يسعى نيتشه إلى تأويل العالم بحد ذاته، باستخدام العضوي، غير العضوي و الوعي في هذا التأويل، و يبني، على أنقاض الفلسفات السابقة، ميتافيزيقيا ما أساءت الحياة فهمه و تفسيره حينما

تستجيب، بطريقة لامفر منها لفترة موقتة، إلى طقم خادع من الشروط، يزودنا بتأويل إلى ما تم وصفه أعلاه. مخطط ملخص لهذين الطريقين، يمكن أنّ نقدمه على النحو الآتي:

(1) الصيغ التأويليّة للعالم. (أ) المعرفة: حين أبدَى نيتشه اهتمامه في الحقيقة، التي هي ليست حرة في طبيعتها كما أنّ الخطأ ليس عبداً، و علاقتها في الحياة، وجدَ أنّ معيارها الحقيقي يكمن في ((زيادة و نمو شعور القوة)): يقف العقل موقف المنحاز و المحابِ من هذه ((الفرضيات)) الذي تمنحه شعور القوة، الأمان، و يقبل بكلّ هذه الفرضيات، بكل عؤانها و علاتها، على إنّها عناوين الحقيقية. إنّ ما هو حقيقي ((هو ذلك الذي يمنح التفكير الشعور العظيم بالقوة – أعني، السيادة التي تمنحها ((قدرات اللمس، الرؤية، و السمع – حيث بواسطة هذه الوسائل يمتلك المرء قدرة المقاومة المكتسبة)).

بناءً على ذلك، يوضح نيتشه ((أنّ المعرفة يتم توظيفها كوسيلة للقوة)) – ((تتطور إرادة الحقيقة في ظل خدمة إرادة القوة))؛ ((ينحو العلم الطبيعي، و بواسطة استخدام صياغاته، و يسعى أنّ يعلمنا كيف نخضع عن طيب خاطر إلى قُوَى الطبيعة))؛ ((إنّ درجة شعورنا في الحياة و القوة تمنحنا معيار و مقياس للوجود، الواقع، و اللا-وهم)).

يتم السيطرة و التحكم ب((منطق)) نيتشه – المتوتر كقوس لا يزيد الجهد إلاّ توترا على توتر – بواسطة هذا التأويل. ((لا يحتوي قانون عدم التناقض أو ينطوي على معيار أو ميزان للحقيقة، و لكن فقط على صيغة أمرية ترتبط بذلك الذي يعتبره و ينظر إليه بوصفه شي صحيح و حقيقي)). حين وضح نيتشه معنى المقولات الخصوصية، كان يعتقد أن ((كلّ المعاني تستمد نقطتها المرجعية من إرادة القوة، أو هي ذاتها تمثل إرادة القوة)). حتى حقيقة أن هناك لحظات متطابقة – فرضيات المعرفة المقولاتية أو المعرفة التي تعتمد على المقولات – تقوم على نفس الأساس: ((إرادة التعين و التحديد و التشخيص و الهُوِيَّة هي إرادة القوة)).

(ب) الجمال: الجمال – أو الإرادة التي تعني في تنمية قاسية للأشكال – هو الصورة التي يقوم الفن بخلقها لتصبح ملاحظة و مرئية من قبلنا. و هذا يبدو من الرقّة و الكياسة بمكان: ((حبنا و عشقنا للجمال... هو إرادة خلاقة... متعتنا و فرحنا الكبير يكمن في ذلك التشكل و التحول السرمدي

الذي يحيط بنا)). ((إرادة الجمال)) – الانشغال بحكم الجميل هو سّؤال حول القوة – تعني ((تطور الصور القاسية و العنيفة التي تفتقر إلى الرحمة: فالأكثر قوة هو حقاً الأكثر جمالا)).

يمثل معنى الفن، بوصفه الصيغة التي تظهر و تتبدى بواسطتها إرادة القوة، ((الباعث الأكبر للحياة)). إنّهُ افتداء و خلاص الفنان العارف الذي يرى و يريد أن يرى السمة المخيفة و المرعبة المشكوك فيها و المختلف عليها للوجود، و لكنه يريدها كجزء من الحياة (حياة البطل) – إنّها افتداء و خلاص المتألم، الذي يتعلم، بواسطة الفن، حالات العقل، التي تزداد فيها المعاناة و تتوضح و تتأله. تحدث إرادة القوة بواسطة الفن – الفن الذي يكشف النقاب عن حالة الأشياء و يبوح بها دون مخاوف.

يظهر الاختلاف، في كلاً من الدرجة و النوع ضمن إرادة القوة، في صيغة الفنون المختلفة: ((الشعور السامي العالي الرفيع للقوة، و الضمان الذي يكسب تعبيراً يتوفر على أسلوب فني رائع يمتاز بالرقي)). في فن الهندسة المعمارية، ((يكمن سَمّ الإرادة العظيمة و ثمالتها التي تتطلب التعبيرات الفنّية بلا استثناء – يمتلك الأقوياء دائماً مِيزة المهندسين المعماريين الملهمين الكبار)).

يذهب الفن في تأثيره بعيداً – هذا ما تحسسته سليقة أفلاطون العدو اللدود له بل أكبر عدو أنتجته أُورُوبًّا حتى الآن – خلف حدود الفنان و ما ورائه الذي لا يمثل سوى الشرط الأول لنتاجه، و يصل إلى أعماق وجود العالم. تجعلنا كلاً من إرادة القوة و إرادة الحياة كلاهما نتمسك بقوة في وهم الجمال: ((ليس العالم بذاته سوى فن... وهم...؛ في عالم الوهم... تظهر الإرادة المقولاتية للمعرفة كانتهاك للإرادة الميتافيزيقية الأولية)).

(ت) الدين و الأخلاق: رُجْحَان الشعور بالآلم على الشعور باللذة هو سبب الدين و الأخلاق. يعتبر نيتشه كلاً من الدين و الأخلاق بصورة رئيسة، و إنّ كان ليس بصورة كُلّية، صيغ من الظهور و التبدي لإرادة القوة عند العاجز. رجل الدين التقي، الذي يدافع عن مرجعيته و سلطته و يفسد صحة الإنسان في كل مكان مارس فيه سيطرته – حينما يزداد احترام الناس له يصبح من السهل عليه أن يخدعهم– هو ((الشخص الذي يشعر أنّهُ غير حر، يحاول بأقصى ما يمتلك من قوة أن يحتال كي يهذب من أحواله – أعني، نزعاته الغريزية في الخضوع و الطاعة)). ((الأخلاق، في

قناع أخلاق-العبيد، الذي ثمة عبء هائل ينوء فوقها و تشعر بنفسها عاجزة عن أداء أبسط الوظائف، هي الوسيلة الناجعة التي ينجح بواسطتها الضعفاء في السيطرة و الهيمنة على الأقوياء))[68].

(ث) تأخذ الإرادة القوية شكل الأخلاق، و لكن لاتتبنى أغراضها: تريد أن تستخدمها فقط كوسيلة. لا تُورَث إرادة اللطف في طبيعة الأشياء – طبيعة اللطف و الرقة ليس لها أيّ عَلاقة بطبيعة الأشياء أو تمد لها بصلة لا من بعيد و لا من قريب؛ بل إنها تتطور في صيغة أو نمط اجتماعي ((كنتيجة لحقيقة أن الكلّ العظيم يناضل من أجل أن يحفظ نفسه في صراعه ضِدّ كلّ آخر)). إذا نظرنا إلى الإرادة ((من وجهة نظر الأخلاق))، فإنّ هذا سيمكننا من أن نفهم ((الأخلاق كمذهب يتعلق بعلاقات القوة)) و التي تنبثق بواسطتها و في ظلها الظاهرة البادية المسماة ((الحياة)). بعبارة أخرى، الأخلاق هو علم العلاقات و السيطرة التي في ظلها تنشأ الظاهرة المسماة الحياة – أو المجال الذي بوسعنا أن نشتبه بأنّه قد شهد نشأة أولى بذور الكبرياء عند الإنسان و تفوقه على الحيوانات الأخرى.

إنّ تأويل الظواهر كإرادة للقوة ينبغي أنّ يفترض سمة مختلفة تماما حينما تكون هذه الظواهر – الممتدة من العالم اللاعضوي إلى العالم العضوي إلى الوعي (و التي تعتبر هنا إنّها مجرد تجليلات للوظيفة العضوية) – مجرد حوادث طبيعية لا تعي نفسها أو معروفة لنا ((من الداخل)) (ab intra).

(2) البناء الميتافيزيقي النيتشوي. (أ) العالم غير العضوي: ما نوع السببية التي تكمن في طبيعة الجماد؟ ما الذي يوجد – في هذه العناصر الميتة، التي نراها في الخارج (*ab extra*) و نحاول أن نفهمها بواسطة وسائل تصنيف القوانين الطبيعية و الصيغ الأخرى المُنظمة – بشكلٍ أساسي و بمعزل عن الملاحظ؟ هذا السّؤال القديم ينبغي أن تتم الإجابة عنه بشكلٍ مكررٍ، و لكن دائماً وفق نمط و طراز متخيل. هنا، أيضاً يطبق نيتشه تأويله المعتاد: ((إذا كنا نعتقد في سببية الإرادة، فإنّنا ينبغي أن نأخذ على محمل الجدّ الافتراض بأنّه ليس هناك أيّ نوع أخر من السببية؛ و بذلك، كل شيء يحدث ميكانيكيا من حيث إنّ القوة في داخله شغالة و فعالة – حتى قوة و فعل الإرادة)).

في الحقائق النهائية المطلقة للعالم غير العضوي، ليس هناك وجود للأشياء، ((و لكن الكَمِّيَّة الديناميكية، المرتبطة بجذب كل الكميات الديناميكية الأخرى))، و التي تقوم ماهيتها على الفعل و التأثير على الآخر. بيد أنّ الفعل و التأثير ينشأ من إرادة القوة. ((لقد تم صياغة قوانين الطبيعة لغرض خدمة علاقات إرادة القوة)). لكن السّؤال هو: ما هي إرادة القوة هذه التي لا نستطيع أن نراها أو نجربها، أو نتحقق منها تجريبيا؟ في الواقع، ((إنّها لا بالوجود، و لا بالصيرورة، بل عاطفة الشفقة و اِنفِعَال مفرط – إنّها الحقيقة الأولية، الأكثر ابتدأ، و المصدر الوحيد للصيرورة و الفعل)).

إذا كانت إرادة القوة تمثل الحقيقة النهائية المطلقة، فإنّ نيتشه، الذي كان يستشعر بأنّ كلّ شيء يسير نحو الانحطاط و إلى حال أكثر رداءة لا مبالاة، يظل يفكر فيها بطريقة مشابهة للإرادة التي نقوم بتجريبها بإنفسنا. إذا كان كلّ شيء هو ببساطة إرادة، فإنّنا يجب أنّ نكون قادرين على الفعل و التصرف كإرادة. و لكن كيف تفعل و تتصرف الإرادة كإرادة؟ ((طبيعياً، الإرادة لا تستطيع أنّ تفعل و تؤثر على المادة، بل على إرادة مثلها و تشبهها)). تبرهن الإرادة إنّها فعالة و مؤثرة فقط حين تدرك و تميز إرادة أخرى و تُدّرك أيضاً بواسطتها: ((الكينونات غير العضوية يمكن أن تؤثر فقط الواحدة منها على الآخر... بواسطة الفعل و من مسافة؛ إذنْ، (المعرفة) بالضرورة مفترضة وموجودة في كلّ فعالية: كلّ شيء تفصلنا عنه مسافة ينبغي أن يُدرك. ((العالم الكيميائي محكوم بالإدراك المتحمس للاختلاف في القوة)).

لا تنفصل المعارف الإدراكية للغير عضوي في التمثلات، التصورات، المشاعر، الأفكار عن إرادة القوة بتاتاً. يحدث الانفصال، أولا، في المستوى العضوي، و تكون النتيجة عدم الدِقّة و إمكانية الخطأ. هذا يفسر لنا لماذا إدراك قوة القيمة و العلاقات القوية هي تماما دقيقة و مضبوطة فقط ضمن العالم غير العضوي: ((الحقيقة تسود في العالم غير العضوي)). ((يبدأ اللا تحديد و الوهم خطواته الأولى مع العالم العضوي)).

نتيجة لذلك، عثر نيتشه – الذي لا يعدّ إرادة القوة الفعل الشاذ أو الاسم الممنوع من الصرف – من وجهة النظر تلك، أنّ العالم غير العضوي يبدو أعلى من العالم العضوي: ((الميدان الذي لا يوجد فيه خطأ يقف عاليا: العالم غير العضوي هو روحية غير شخصية)) – أعني، إنّه إرادة القوة التي تنسجم و تتماهى مع نفسها، غير منقسمة تقدم نفسها دائماً بصورة واضحة و هي حقيقية. و بينما تمثل الحياة العضوية حالة خاصَّة، ((فإنّ العالم غير العضوي هو تركيب عالي من القُوَى، و

هو الأعلى و الأكثر مهابة و جلالة. في العالم غير العضوي لا وجود للخطأ و لا للتحديدات المنظورية، فهما غائبان منه تماما)). ينظر نيتشه إلى العالم غير العضوي بحماسة منقطعة النظير: ((العالم غير العضوي – العالم المَيْت، يتحرك بشكل لا متناه، معصوما من الخطأ، قوة تصارع قوة أخرى! و لكن مع العالم العضوي المدرك كلّ شيء مزيف و وقح)). العالم غير العضوي هو ليس معارضاً للعالم العضوي، لكنه أساسه و أصله – بعبارة أخرى، العالم غير العضوي هو القاعدة في حين يمثل العالم العضوي الاستثناء.

(ب)العالم العضوي: ((الروحية غير الشخصية)) للعالم غير العضوي هو السبب الذي يجعل العالم العضوي عملية تشخص تنجز أولا بواسطة البنَى الأصيلة و الطارئة المفهومية و التأويل، و التي بواسطتها ينجح الأفراد في خلق عالمهم الخاصَّة بهم: ((ينسج العالم العضوي خيوط كل الموجودات في عوالم صغيرة متخيلة... عوالمها الخارجية.... تعدّ قدرته على الخلق (البناء، الاختراع، الإبداع) أمر جوهري و أساسي)). ((لغرض الحفاظ على الذات كلّ كائن عضوي لدية وجهة نظره الشخصية في الرؤية. إنّها الطريق الذي يفضي و يؤدي إلى الحفاظ على نفسه)).

في المقام الثاني، العالم الذي يقوم الكائن العضوي بخلقه، كي يساعده في الحفاظ على نفسه و هو مألوف له، يتم بواسطة الذاكرة، التي تسبق في وجودها كل الوعي: ((أن ما يميز العالم العضوي عن العالم غير العضوي هي حقيقة أن يقوم بمراكمة حصيلة و غلة التَجارِب، و التي نتيجة إليها و بموجبها يصبح مختلف تماماً عما كان من قبل....)) ((افترض أن يكون هناك ذاكرة و نوع من الروح في كلّ كائن عضوي: هذه العدة في وجود الكائن العضوي الذي نعتقد لصغرها أنّها غير موجودة، هي في الواقع في غاية الأهمية و خطيرة)). في كلّ حكم حسي إدراكي يحضر كل تاريخ النظام العضوي السابق و يكون شغال و فعال. ((في مملكة العالم العضوي ليس هناك شيء منسي، و لكن هناك نوعاً هاضماً و متمثلاً و مستوعباً لكلّ ما تم تجربته من قبل في الذاكرة)).

يمعن نيتشه و يطيل النظر في طبيعة العالم العضوي. فأهميته تزداد (في الضِدّ من النقص في قيمة العالم العضوي مقارنة مع العالم غير العضوي): ((أنا متأثر جداً بواسطة مبدأ القوة العضوية، و لاسيَّما في قدرته على دمج مواد العالم غير العضوي. لا أعرف كيف أوضح ببساطة وجود الهدف في ظل العملية المتطورة. قريباً سأبدأ في الإيمان و أسلم أنّ هناك كائنات عضوية سرمدية))؛ ((فالعالم العضوي مازال لم ينبثق بعد)).

إنّ العامل الذي ينتج التنظيم الحيوي للحياة و يعزز من وجوده، لا هو بالهدف، و لا هو بالقصد، و لا هو بالعرض. لكن التوضيح الميتافيزيقي لنيتشه يبين ((إنّ ظهور مثل هذه الغائية (التي هي أسمى بطريقة لامحدودة من كلّ الفن الإنساني) هو ببساطة نتاج إرادة القوة التي تعمل و تمارس تأثيرها في مسار كل الحوادث – إنّ الزيادة و النمو في القوة ينتج أنماط من التنظيم الحيوي الذي تعطي انطباع بوجود الغائية؛ و أن الأهداف الواضحة مقصودة. على الأصح، حالما ينجح القوي في فرض سيطرته و إحكامها على الضعيف و يجبره أن يعمل لمصلحتهِ، يبدأ نظام المكانة و تمفصلاته التراتبية يرسي دعائمه و يخلق وهم العَلاقة مع الغاية النهائية [الغائية])).

لا تنتج إرادة القوة ميداناً ثابتاً من الصورة السرمدية و الأبدية؛ و لكنها تقوم، بدلا من ذلك، بتحويل كل الصور في عملية تدفق و صيرورة مستمرة. يبحث نيتشه، و يحاول أن يكتشف، الاتجاه الذي تسير فيه الصيرورة في تدفقها الدائم. بالضِدّ من البديهية المفترضة المقررة و المقَبُولة ومفادها أن الحياة تنحو منحى إنتاج صور سامية و من طراز رفيع، و أن الحياة بحد ذاتها هي أعلى في القيمة من المادة الميتة، يعتقد نيتشه ((أنّ الحياة انحدرت في مسارها و تقهقرت نحو الأسفل حيث انتهى هذا التدهور في إنتاج الإنسان. يمثل الإنسان، أكثر الموجودات حكمة و حيلة – انحرافاً كبيراً لا يغتفر في مسيرة الطبيعة و التناقض-الذاتي (إنّهُ أكثر الكائنات التي تعاني): في هذه النقطة، و مع ظهور الإنسان على وجه الأرض، غرقت الطبيعة في أعماق المحيط. و بدأ العضوي في التفسخ و الانحلال و الفساد)).

يرى نيتشه، الذي يتعقب و يتبين الأصل الذي نشأت عنه الأشياء، العالم العضوي كسلسلة من التغيرات المستمرة لتحقيق إرادة القوة دون أيّ هدف أو اتجاه واحد محدد. حتى الإنسان، كموجود عضوي، هو نتاج و تجلي إرادة القوة بشكل مشخص، و نتيجة لذلك هو صيغة أو صورة آيلة للذبول. ((يمثل الإنسان بقاء نظام التعضية، المنبثق في خط واحد مفرد، على قيد الحياة)). من حقيقة إنّهُ مازال موجوداً، ينبثق نظام مميز من التأويلات – يظهر حقيقة الإنسان – لا يتغيّر. و لكن ما الذي سيحدث في الخطوة القادمة لاحقاً؟ ((عدم (رضائنا)، (مثالنا)... هي ربما نتيجة لهذا النوع من التأويل الموجودة كقابلية في داخلنا – أعني، موقفنا المنظوري. ربما ينتهي الأمر في الحياة العضوية أخيراً أن تحطم نفسها بنفسها نتيجة لذلك.... ليس هناك أيّ شك في سقوط الحياة العضوية (حتى على مستوى الصورة السامية) مادام أنّ سقوط الفرد – الفرد نفسه ساحة قتال بين مختلف

أجزائه (من أجل الغذاء و الفضاء) و تطور مرتبط بانتصار بعض الأجزاء و سيادتها و بهلاك الأجزاء الأخرى و تحولها إلى أعضاء – نتائجه الأخيرة أمر محتم)).

(ت) الوعي: يطلق نيتشه على صورة و حياة الإنسان تعبير جسده. ليس جسد الإنسان مجرد جثة مُشَرَحة، كما أنّه بالتأكيد ليس مجرد جثة فحسب – بل هو وظائف حيوية شاملة غير واعية في مجموعها. حين قارنَ نيتشه بين الجسد، و الوعي، اكتشف كم هو ((الوعي ضيق و محدود مقارنة بعمل الجسد)). فحتى الروح، بكل عملها الدقيق و تعقيداتها، لا تصل في مستواها و لو بشكل بسيط إلى عمل الجسد في أداء وظائفه. ((كم هو قليل ذلك الذي ينجزه الوعي لدينا قياساً بما ينجزه الجسد!.. و هو ليس ضروري بالمقارنة مع ما تقوم به أصغر وظيفة في الجسد... ليس هناك عضو من أعضاء الجسد كان فقيراً و غير معقد في تطوره... إنّه في النهاية العنصر الأخير الذي يظهر بعد عملية تطور و معاناة طويلة.... كل شيء واعي يتمتع بأهمية ثانوية مقارنة بالأهمية الأولى الذي تُعزى إلى الجسد... ينبغي أنّ نأخذ نصب أعيننا أنّ الروحي، بكلّ ما يمتلك من مكانة عظيمة ما هو في نهاية المطاف إلاّ علامات لغوية تعبر عن كتاب الجسد و النظرة القبيحة المبغضة التي تنقم على تفتحه و رفاهيته)).

ليس الجسد مجرد صيغة مرئية – بل إنّه الحدث الحي للتشخص الذاتي، إنّه الكل الشامل الذي يطوق إرادة القوة: في الواقع، ((إنّ الجسد الإنساني، الذي يرتبط فيه و يندمج كل وجود عضوي في سلسلة معقدة، و يسترجع كل الماضي – الذي لا يترك المرء بسهولة – كما يتدفق المستقبل بواسطته و من بعده منه على هيئة تيار عظيم – هو في الواقع يثير الدهشة و السّؤال أكثر مما تثيره نمط و طراز النفس القديم)). طبقاً إلى نيتشه، الإيمان بالجسد هو أقْوَى و أكبر من الإيمان في الروح. الجسد هو ((عقل عظيم)) يستخدم ((عقل صغير)) كأداة و وسيلة[69].

في الواقع، الغرض الرئيس من هذه الأفكار التي يطرحها نيتشه هنا في خطوطها العامة هو ذم الوعي و الحط من قدره، و الذي لا يساوي، في نظره، بحد ذاته أيّ شيء. في الرد على هؤلاء الذين يرفعون من شأن و قدر الوعي، يقول نيتشه أنّ ((الوعي)) يتأرجح مثل الجواد الأعرج يميناً ويساراً، و لا يلاحظ أو يرى إلاّ القليل و فقط في اتجاه واحد فقط شيء واحد و ينسى تماما الأشياء الأخرى – بمعنى أنّ يترك خربشاته فقط على جدران الأشياء و سطوحها، إنّه فقط رؤية قاصرة على العالم الداخلي – فعل الاستدخال بوصفه غرائز لا مجال لتصريفها أو تحول قوة قمعية ما دون

انفجارها في الخارج تقلب إلى الداخل – و الخارج– بل حتى هذه الرؤية غير فعالة ما لم يتم ترتيبها بصيغة مقولاتية كُلّية تلائم الوعي و فهمه و لا تمت بصلة أو عَلاقة إلى حقيقة الأشياء المُلاحظة. زد على ذلك، ليس الوعي إلاّ علامة أو عرضاً من أعراض العالم الغني في حوادثه الحقيقة – إنّه فقط منتج للغاية، خالي من الفعالية السببية، و نتيجة لذلك كل السلسة المتعاقبة للوعي هي تماما وحدات منفصلة لا قيمة لها.

و لكن ما هذا الشيء الذي يحدث و يقوم الوعي في خدمته و يؤدي إليه وظيفة الآله و الوسيلة؟ إنّه إرادة القوة، مرة أخرى: ((كل فكرة، شعور، و إرادة... هي بمجملها نتاج حالة كُلّية من علاقات القوة بكلّ البواعث التي تدخل في تشكيل بنيتنا)). ((هذا الذي نطلق عليه تعبير الوعي ما هو إلا آلة وسيلة يمارس الصراع بواسطتها – و ليس الذات – فعله كي يحفظ وجود الإنسان)). ((في الواقع، نحن لا نرى هذا الصراع بأم أعيننا، لأنّه يحدث وراء الكواليس بطريقة خفية)).

السّؤال الآن هو كيف نشأ الوعي فجأة وَسَط هذا الصخب كله؟ في المقام الأول، ينبغي أن يُفهم الوعي بوصفه وسيلة لخدمة إرادة القوة. يفسر نيتشه وجود الوعي بواسطة الوضع الذي يحدث بسبب ضغوط الحاجة و متطلباتها. في الواقع، الحاجة تجبر البشر بالإكراه على أنّ يفهموا بعضهم البعض بسرعة و بدقة. ليس هناك فهم متبادل بين البشر دون الوعي. ((تهذيب الوعي و تقوية مواقعه له صلة وثيقة مع قدرة الإنسان و قابليته على التواصل مع الآخرين، و التواصل له، في دوره، عَلاقة بالحاجة للتواصل)). الوعي هو الرابطة التي تجمع بين الناس معًا: ((يسير تطور الكلام و تطور الوعي جنبا إلى جنب و يداً بيد)).

طبقاً لجذور هذه النظرة، و المواقع التي تنطلق منها، يجد نيتشه أنّ الخاصية الفريدة للوعي هي ليست أمراً يقتصر على فرد واحد بحد ذاته، بل أنّها عامة. الوعي ((لا يخص في الواقع الوجود الخصوصي للبشر))، بل أنه على العكس، ((يتطور بصورة جيدة في العَلاقة بالمنفعة التي يجلبها إلى المجتمع و إلى القطيع)). إنّ الوعي بوصفة شيئاً ((لا يخص فرد معين)) هو ((القاسم المشترك الأدنى)) للإنسان – ((إنّهُ الوسيلة الناجعة للتواصل، بدلاً من الحسي الكامل و المثال السامي)).

لما كان الوعي ليس له أساس ضمن ذاته، و هو فقط نتاج الحاجة الملحة، فإنّهُ عرضه للخطر كثيراً: ((انحطاط و تفسخ الحياة يُشّترط بالضرورة بسبب القابلية غير العادية لخطأ

الوعي)). ((كل الأفعال و النشاطات الحقيقية و الأصيلة ليس لها عَلاقة بالوعي لا من بعيد و لا من قريب))؛ ((ينبغي أن نبحث عن الحياة في الميدان الذي ليس له أي صله مع الوعي أو ليس هناك إمكانية لهذا الوعي للتأثير، ينبغي أن نبحث فيها عن الإمكان الذي تنطوي عليه)).

إذنْ، يجد نيتشه الوعي مرة أخرى مليئة بالمعاني و المدلولات الأساسيّة و الغامضة. الوعي هو ((العملية التي تعمق و تخلق العالم الداخلي للإنسان)) – أو ذلك الذي يحاول أن يكون قريباً بقدر الإمكان من المركز البايلوجي له. إنّ ما ينجزه الوعي، حينما أحاول أنّ أمد يدي للوصول إلى شيء ما، هو أمر مبهم و غامض لا يمكن فهمه و عملية معقدة لا يمكن فك مغاليقها – هنا، في الواقع، المعرفة و الفعل يقعان في مكانيين مختلفين. ((من جانب آخر، يمضي نابليون صعودا في أكمال حملته. في هذه الحالة، كلّ شيء معروف و واضح لهذا الرجل... لأن كلّ شيء ينبغي أن يُقاَّد و يُأتمر – و لكن هذا يتطلب الخضوع من أجل أن يَتّم تفسير و تأويل الكل و التكيف معه وفقا لما تفرضه ضرورة اللحظة)).

بيد أنّ الأقوال الآتية لنيتشه تبدو في معناها و كأنّها تمثل استغاثة و مناشدة و احتكام إلى الوعي: ((الطبيعة، بمجملها، حمقاء صامتة، خرساء، و مغفلة، و بما أننا نرجع إلى الطبيعة، فإنّنا عبارة عن كائنات حمقاء و مغفلين. حتى حين نكون حمقاء و مغلفين فإنّ هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، له اسم في غاية الجمال: الضرورة. دعنا، حينما تضيق عليّنا الأمور، نطلب السعادة من الضرورة!)).

السمة النقدية لميتافيزيقا إرادة القوة. ــــ إذا اكتشف المرء الطرق العدّة التي كان يبحث عنها من أجل أن يفسر و يفهم إرادة القوة كجوهر و ماهية لكلّ الأشياء، فإنّه سينتهي به الحال مع الرأي الآتي: إنّ الصيغة الغالبة على تفكير نيتشه، و القوانين التي تحكمه، هي تحديد الأساسّ المفترض الذي تقوم عليه الأشياء في بناءتها و أصولها. كل الظواهر يتم توضيحها بواسطة الوحدة التي تشتق و تستمد منها: كلّ شيء هو في الواقع عدم، و هو ((فقط)) أو ((فحسب)) مجرد إرادة القوة في تغيراتها و تحولاتها غير المنقطعة. إنّ الشيء الذي يعدّ أساس لكلّ الأشياء يمكن أن نصل إليه، طبقاً إلى نيتشه، فقط حيت يظهر على أنّه مطلق. تندمج عملية التأكد من المعاني المتعددة في الملاحظة التجريبية مع البناء التأويليّ كتفكير مطلق و تطبيقها على الوجود في نمط لا يحتاج إلى التحقق منها تجريباً أو السيطرة عليها لاحقاً.

حين تبنىَ نيتشه هذه الطريقة الميتافيزيقية في التفكير، فإنّه يبين بلا شك كم كان يناصب الخصومة و العداء لنقطة البداية في تفكيره و إلى هدفه.

في المقام الأول، كان نيتشه، الفيلسوف الذي لا ينفكّ عن تأويلاته المختلفة، واعيا أنّ إرادة القوة هي الأساسّ الذي يؤكد على أنّ كلّ الحوادث هي ((مجهولة و غير معروفة))[70]: أنّ يكون لك اسم شيء و أن تكون معروفا شيء آخر مختلف. يختلف تأويل العالم وفق وسائل العدة المفهومية الثابتة جوهريا عن تأويل العالم كليًّا. التأويل الأخير لا يقدم شيء، لا يشتق منه شيء، و لكنه فقط يدور حول قراءة و فك شيفرة الواحد. إذاً، في المقام الثاني، يدرك نيتشه أنّه بدلا من وضع الفرضيات و ابتكارها حول الوجود الذي يؤكد نفسه بصفة الأساسّ للأشياء، نبحث عن الشيء الذي يمكن أن نميز ((بواسطته عَلاقة كلّ الأشياء فيه))[71].

إذا تمسكنا بقوة في نقطة البداية عند نيتشه، التي حرص بخصوصها في انتقاء الألفاظ المناسبة، و لاسيَّما فيما يتعلق في أطروحته الميتافيزيقية الدوغمائية الرئيسية التي عبر عنها بشكل متنامي و متزايد، فإنّنا ينبغي أن نتسأل ما هو الشيء الذي يمثل السمة أو الخاصية التي يميز كلّ شيء نفسه بواسطة العَلاقة بها و أيضاً عن مستوى آلية اشتغالها، و ما هي الأشياء الواقعية و الأساسيّة التي ليس له عَلاقة بها.

يمنحنا مفهوم العالم، كإرادة إلى القوة، صورة ناصعة، و بضمير صافي لا تشوبه شائبة، عند نيتشه فكرة واضحة عن الصراع، بحد ذاته، الذي تنغمس فيه كلّ الأشياء و تعاني بسببه من التغير و التحول بواسطة آلة الحرب الضروس. يزودنا العالم، في كلّ تفاصيله، بالسياق الذي تبلغ بواسطته إرادة القوة المبتهجة أعلى حالة التأكيد لذاتها. العالم دائماً يشجع باستمرار و يحث على إرادة القتال. كل القوة الواقعية و الرغبات في القتال تجد نقطة اجتماعها و ملتقاها في الوجود الإنساني، ليس فقط بمعنى أنّها تعترف بهذه الحرب و لكنها أيضاً تشتق منها و تتوصل إلى المعاني الكبيرة بواسطتها.

كلّ شيء، يعتمد بالدرجة الأولى و يعول على إرادة القوة، وما تحاول أن تؤكده، و ما تريد أن تكونه. إنّ الاختلافات الكَمَيَّة، و مكانة و نظام الأنواع المختلفة لإرادات القوة، و الصيغ المختلفة التي يمكن أن تفترضها القوة، هي التي تقرر قيمة الرغبة المتماسكة الحقيقية في الحرب. مع أنّ

النظام الميتافيزيقي لنيتشه عمل جاهداً على توضيح هذه الفكرة – دليل نيتشه إلى المتعالي و لغزه – لكن الغموض ظل يلازمها، و لاسيَّما فيما يتعلق بالسّؤال عن مَنْ هو الذي يشعر بهذه القرابة مع إرادة القوة و يجد نفسه فيها، و إذا كان هذا ممكن فبأيّ طريقة يشعر بها؟ ففي بعض الأوقات كل الموجودات تتمتع بإرادة القوة – بينما في أوقات أخرى التمتع بإرادة القوة يقتصر حصرا على مرتبة و مكانة و صنف و طبقة معينة صغيرة و محدودة من البشر.

لقد تم التسليم أن الأطروحة الرئيسة لميتافيزيقا نيتشه هي دون أدنى شك إرادة القوة. إنّها المحاولة المناسبة و الوسيلة الناجعة، كما تم فهمها من قبل نيتشه، لأولئك الصقور الذين يودون و يرمون القيام بهجوم معاكس ضِدّ العدمية.

يمكن أن نرسم حدود هذه الأطروحة الميتافيزيقة لنيتشه فقط بواسطة إلقاء الضوء على كلّ الأشياء التي ليس لها عَلاقة بإرادة القوة. لا يضيء تأويل نيتشه، بدقة متناهية، مبدأ العَلاقة بكلّ شيء موجود. للتأكيد، فهو يأخذ بعين الاعتبار الجزء المهم الذي يؤدّي دوراً في عملية الإبداع الإنساني بواسطة إرادة القوة و يميز إمكانية كل الأشياء التي ربما تغرق في بحر إرادة القوة و تكون بمنزلة وسيلة لهذه الإرادة. مع ذلك، هذا التأويل يفتقر إلى شيء يتعلق بالوجود الأصيل للإنسان، الذي ليس له عَلاقة، لا من بعيد و لا من قريب مع إرادة القوة، و إنّه يتم اكتشافه بمعزل و بعيد من إرادة القوة. في الواقع، إرادة القوة ليس لها عَلاقة بالوجود-الذاتي الذي يأخذ بزمام المسؤولية كاملة نحو نفسه، إلى درجة إنه يكون حقاً وجوداً مستقلاً غير مشروط بأيّ شيء و يجد نفسه فقط بواسطة العَلاقة بالترسندالي، و يحاول التواصل، كصراع للحب، لا يرتبط لا بإرادة القوة و لا بممارستها، بواسطة أفق حر و مفتوح بحق. للتأكيد، كشفت ميتافيزيقا نيتشه عن انحرافات هذه الأنواع من الوجود الأساسيّ. بيد أن جوهرها ظل كما هو و لن يمسه نيتشه.

هنا، تريد النقطة الاساسية في ميتافيزيقا نيتشه أن تقرا و تحل شيفرات الوجود بواسطة مذهب إرادة القوة بعيدا عن كلّما هو ترسندالي متعالي. المرء، الذي يكون في عَلاقة بالترسندالي، ليس له أيّ صلة مع إرادة القوة و تفصيلاتها. يكشف الوجود النقاب عن نفسه بوصفه صراع يقاتل ضِدّ إمكانية هذا الميتافيزيقا / ميتافيزيقا إرادة القوة (مع أنّ الصراع الناشب من أجل القوة غريب على طبيعته) ويرفض أن يتم توضيحه و فهمه و الإحاطة به بواسطة تفسيرها. هذا الوجود يقبل

محاولة نيتشه في إضاءة السمات الخاصَّة للوجود في النمط الواقعي، و لكنها يبتعد عنه حين يحاول أن يفهم الوجود بذاته.

حدّ إضافي آخر يظهر في ميتافيزيقا إرادة القوة عند نيتشه حين يتم تأويل العالم غير العضوي و العالم العضوي، بما أننّا في هذا المستوى يمكن أن نقبل القرابة بين هذين العالمين و إرادة القوة فقط من وجهة نظرنا الشخصية و ليس كما يقول الواقع. إنّ الموجود هنا هو فقط نوع من التشابه و المماثلة مع قوة-الإرادة و قوة-العلاقات، خالي من القيمة المعرفية و الإدراكية و غير قادر أن يعرض أيّ قرابة حقيقية مع ميتافيزيقا إرادة القوة.

في العَلاقة بترسيم حدود إرادة القوة، أن ما هو أساسيّ و مميز في كلّ مَسار تفكير نيتشه هو الحدود و المعالم التي تم تحدديها بواسطة نيتشه نفسه. لم يصل نيتشه إلى المذهب الذي كان يطمح للوصول إليه إطلاقاً، و كان ديدنه أن يخضع كلّ فكرة و وجهة نظر لديه إلى عملية فحص و تحليل دقيقة و اختبار إمكانيتها بواسطة إيراد الفكرة و وجهة النظر المخالفة لها على نطاق واسع. ينبغي أنّ لا يفوتنا القول بأنّ مذهب إرادة القوة هو ليس نظاماً ميتافيزيقياً بالمعنى المتعارف، و لكنه بالأحرى ميدان لتجريب-الأفكار ينجز بواسطة العملية التي تتناول الوجود بالتحليل والفحص. عبر نيتشه عن عدم رضائه على الأنظمة الميتافيزيقية السابقة بواسطة طرحه لتأويله الخاص للحياة التي يهيمن عليه مذهبه في العود الأبدي – إحساس لم يلبث وجدانه أن ثار عليه، أتاه في رعدة قدسية، خاطر يشبه التفكير يصور له أن هذه الفكرة ستغير منه و من حياته و سيتطلب منه شيء أعظم بكثير مما تطلب هو من نفسه – و الذي يبرهن، بدوره على نسبيته.

لهذا السبب، لا يرتبط مفهوم الحقيقة عند نيتشه بكل الأهداف السابقة التي وضعتها الأنظمة الميتافيزيقية الدوغمائية التي هيمنت في السابق على التفكير العقلي عموما. ظهرت الحقيقة العقلية، في هذه الأنظمة الميتافيزيقية، في هيئة بناءات و مقولات و تصورات مفهومية ثابتة. و لكن هذه المقاربة لا تساوي شيئاً من وجهة نظر نيتشه الفلسفيّة – فهو لايعتقد بأنّ هذه الأبنية يمكن أن تزودنا بالحقيقة النهائية حول الوجود بذاته، مع أنّه من حين إلى آخر، يخضع تفكيره لها، و لاسيَّما بواسطة الصيغة الدوغمائية التي يفترضها.

بانّت ملامح حقيقة التفكير الفلسفي لنيتشه، و ظهرت إلى المقدّمة، حين توصل إلى حقيقة أن كلّ مذهب، بلا استثناء، هو نسبي و زَيف ادِّعاء امتلاك الحقيقة المطلقة. و من أجل تقوية وجهة النظر هذه وتدعيم مواقعها، و تحمل تبعات الذاكرة التاريخية دون أن يتحطم بسببها، ينبغي للمرء و خليق به أن يخترق و يقتحم كل حصون الأَسْوار المطوقة، و يدافع عن السمات الغامضة للوجود ضِدّ كل وجهات النظر الدوغمائية الجامدة التي تهدد الوجود و تريد نسفه و تدميره.

العالم بوصفه محايثة صرفة/حضور صرف

تناول التفكير الميتافيزيقي، أبتدأ من بارمنيدس و مروراً بأفلاطون والمسيحية و صولا إلى كانط – الذي وجد بعده جميع الفلاسفة الفوقانيين مواقعهم معززة – بالدراسة و التحليل و الفحص، نظرية العالمين بالتفصيل بعد أنّ سلم بكافة أطروحتها: يوجد ما وراء أو مابعد أو خلف عالمنا المتناهي، القابل للكون للفساد، عالم الصيرورة، عالم الوهم الزماني، عالم الوجود بحد ذاته، عالم أولي، لامتناهي، غير قابل للفساد و التلاشي، العالم الحقيقي الماورائي. بالمعنى الديني: إنّ الله موجود، وهو الذي خلق هذا العالم – لنترك للرب مهمة الحكم على الأشياء، إذا لم يكن الله فمَنْ تريده أن يكون.

يقف نيتشه موقفاً نقدياً و رافضاً لهذه الثنائية [عالم ظاهر و عالم حقيقي] بغض النظر عن الطريقة التي تطرح فيها نفسها، و يقاوم بقوة فكرة ((الماوراء)) أو ((ما بعد)) مقابل ((هنا و الآن))، اللامرئي مقابل المرئي، العالم الماورائي الحقيقي مقابل العالم الظاهري الزائف، و عالم السعادة مقابل عالم المحنة. طبقاً إلى نيتشه، هذه الثنائية و التناقض، بين عالمين مختلفين، هي مجرد تأويل كما هو الحال مع كلّ المعرفة الأنطولوجيّة. في صراعه القاسي ضِدّ نظرية العالمين، كان نيتشه مهتما ليس فقط في رفض هذا التأويل بحد ذاته، و لكن أيضاً المبدأ التأويليّ الخاص به أو بعض أنماط التأويل الخاصَّة ذات العَلاقة. لا تمتع التأويلات بقيمة متساوية؛ بل يمتلك البعض منها الأسبقية و الأولوية على التأويلات الأخرى في المكانة و الأهمية.

أسباب نيتشه لرفض نظرية العالمين ـــ بغض النظر عن الطريقة التي يتم فيها إدراكه، العالم الحقيقي هو وحده العالم الظاهري الذي أمامنا الآن و هنا و يعاد إنتاجه المرة تلو الأخرى.

طبقاً إلى نيتشه، تعدّ الثنائية أو العالم الماورائي الحقيقي مقابل العالم الظاهري الزائف مجرد حالة زَيف و وهم و سطحية، لاسيَّما إذا كان العالم الأخر الماورائي – الطريقة التي ننتقم بها لأنفسنا ضِدّ الحياة بخلقنا هذا الوهم حتى يتمكن المرء من الاستعاضة عن هذا الوجود الأرضي – غير المعروف لنا و لا نستدل عليه أو نصفه إلاّ بواسطة تكرار نفس المقولات و المضامين المأخوذة أصلا من العالم الظاهري الذي نعرفه فحسب. لم يرفض نيتشه إمكانية وجود العوالم المتعددة بالإضافة إلى هذا العالم الذي نعيش فيه. بيد أن هذا العوالم لم تكن محط أهتمام نيتشه بأيّ حال من الأحوال، لكنه يرجع ليؤكد أنّ العالم الأخر – كان الناس يخافون فيسلمون بأنّ هناك عالما علويا. لقد عزوا وجود هذه العوالم الثانوية إلى الظل و الحلم، إلى النوم و الليل إلى المخاوف الذي تثيرها الطبيعة – هو العالم الوحيد الذي يؤثر في وجودنا كليًّا.

يصبح معنى نظرية العالمين واضحاً بواسطة البواعث و الأسباب التي تقف وراء ظهورها: في الواقع، حين يواجه البشر باستمرار في العالم الكثير من الحوادث العرضية الصادمة، اللايقين الذي يثير المخاوف و القلق، و الصدمات المفاجئة، ينتهي بهم الأمر إلى اعتبار هذا العالم و التسليم بأنّهُ شر و أمر مدعاة للخشية و الخوف. حين يواجه الناس صعوبة في الاندماج مع كلّ ما يثير خوفهم و قلقهم و يسلب الراحة منهم، تبدأ لديهم حالة من الصراع ضِدّ كلّما يقلقهم و يخيفهم بواسطة ابتكار أشياء عديمة الجدوى موضوعيا، و لكن ذاتيا تمنحهم القدرة على تأويل الحوادث التي تجري لهم بطريقة تعزز من الراحة و الأكذوبة المطمئنة و تثير الأمان و السلام في قلوبهم: تحدث الحوادث، يعتقد بعض الناس، و تأخذ مكانها، بواسطة كائن (الإله)، لهذا السبب يحاولون أن يقيموا نوعاً من الاتفاقية المربحة، أو نوعاً من العقود المرابية، كي يأخذوا الإجَراءِات اللازمة و الاحتياط اللازمة التي تضمن لهم إدراك الشر مقدما وإحباط نواياه. أو ربما يستفيدون من تعليل أخر للشر و يوظفونه لإعطاء تخريجات و تبريرات معينة، على سبيل المثال: الأشياء تبدو حقاً شريرة جداً، مع ذلك و مع مرور الوقت سنجد أنّ هذا الشر الذي يكمن فيها وجدَ حقاً لمصلحتنا و خيرنا – أو مثلاً أن سوء الحظ و النكد الذي يلازمنا هو بالأحرى عقاب إلهي نستحقه عن خَطايا اقترفناها و يجب قَبُوله بطيب خاطر. في كل الأحوال، تساعد التأويلات الناس و تمكنهم من الاستسلام للشر عن طيب خاطر، و بطريقة مخادعة يتم التخلص منه و لو بدرجة قليلة، كي تستعد قواهم جيدا في مواجهة الشر و السيطرة عليه و اختزاله تماما. فضلاً على ذلك، يخشى الإنسان – جرح الوجود الأبدي – التحول في حياته، لأنّه يجلب الثلاثي [1]اللايقين و[2]الصدفة و[3]المفاجأة بوصفها شروراً كبيرة،

كما يخشى بصورة كبيرة التغير بحد ذاته، و لذلك يجد الراحة بواسطة خلق عالم آخر يمتاز بالثبات و لا يتعرض للتغير، مع أنّ هذا العالم يظل غير واقعي و غير معروف – أعني، أنّهُ عالم زائف – يكون الصدق ميلا مخالفا للطبيعة – غير حقيقي بامتياز. كما يخشى عواطفه و رغباته (على سبيل المثال، الرغبة في القوة، المتع الكبيرة...ألخ) و يعمل على إخصاءها و جعلها تتلاشي و تنمحي من العالم الواقعي كي يقوم بمعادلة التحرر منها مع الوجود الحقيقي، بمعنى يجعل التخلص منها ثمن الحصول على العالم الحقيقي إذا جاز التعبير. هذا التأويل، الذي يلجأ إليه الإنسان من حين إلى آخر، هو دائماً محاولة الهروب من هذا العالم إلى عالم آخر، و هو في الحقيقة غير موجود و محض هراء، و بهذا الصدد يقول نيتشه: ((الضجر أو السأم الغريزي و القنوط من الحياة هو وحده من يولد و يخلق عالم آخر)).

حينما يتم الانتهاء من خلق العالم الآخر و تأكيده، يبدأ الإنسان بعدها محاولة الحفاظ عليه بواسطة طقم من الإغراءات و الإغواءات الجديدة المستحدثة. فكون هذا العالم غير معروف و مجهولاً يمثل عامل جذب لنا و يبث فينا و يشيع الأمل و يشجع على القيام بالمغامرات و في نفس الوقت قيام الفرضيات التي لا أساس لها من الصحة. فقط لأنّنا نعتقد أن عالمنا، الآن و هنا، مألوف و معروف لنا، يجعلنا هذا نستغني و نفوت فرصة البحث و الاستقصاء فيه بشكل إضافي و أبعد. نحن نعتقد ربما بسهولة بوجود عالم مختلف عن هذا العالم الذي نعيش فيه و نأمل أننا سنكون مختلفين فيه. كلنا نعتقد أنّه حتى هذا العالم الحاضر، الذي نعيش فيه، يمكن أن يكون بصورة مختلفة، و بهذا نتخلص من الضرورة و القدر. و بما أنّنا نعتقد أنّ العالم الآخر هو عالم حقيقي، فإنّنا نعدّ هذا العالم الحاضر الظاهري، من وجهة نظر أخلاقية، غير حقيقي، زائف، غير أمين و سطحي؛ بيد أن هناك تناقضاً صارخاً حصل بين العالم الذي نبجله و العالم الذي نشكله نحن بأنفسنا، و بذلك لا يبقى أمامنا سوى خيارين أما القضاء على تبجيلنا أو القضاء على أنفسنا.

النتيجة المنطقية لهذه الثنائية هو تشويه لهذا العالم الحاضر و تحويله هو و الحياة التي نعيش فيها إلى مسخ. لقد فقد العالم، الذي نعيش فيه و نحاول الاندماج فيه، مصداقيته و ضعفت الثقة فيه. العالم الحقيقي هو حقاً ((محل الكثير من الشكوك و هو أكثر استهلاكاً من العالم الحاضر الذي نعيش فيه: لقد كانت محاولة خلق عالم ما ورائي (حقيقي) من أكثر المحاولات خطورة في اِغْتِيِاَل و قتل الحياة و سفك الدَّماء الكثيرة على الأرض)).

لم يكن نيتشه دائماً ببساطة ينكر فكرة العالم الحقيقي، لاسيَّما حينما ينشأ كتأويل بفعل تأثير إرادة القوة. كان نيتشه – الذي أحب الفلسفة لأنّها ذات أخطار، و هذا السبب الذي من أجلها نحبها، فلا يسعى إلى الطرق السهلة الخالية من الأخطار إلاّ الضعفاء – يعزز باستمرار من مواقع هذه الفكرة بواسطة اختلافه مع أفلاطون و بالضِدّ من ثنائية عالم الحس المتغير وعالم المثل الدائم – المنتصب بذاته و بهائه الغريب الوقح أمام أعين البشرية و وعيها – و لا يكف عن توجيه النقد إليها : أفلاطون، كفنان، يفضل الظهور المتغير على الوجود الثابت. يرى الفنان، الذي ما من أحد يضارعه استعداداً للانحلال، بعيداً عن كلّما يتصل بسمو الفكر و صرامته و انضباطه الذي يظل مفصولا عن الواقع انفصالاً مطلقاً، القيمة الحقيقية للشيء في الظلال و الأطياف التي يخلفها الشيء بعد أن يرحل و يغادر. أو كما يرى، كُلَّما كان الشيء أقل واقعية كُلَّما زادت قيمته. ذهب أفلاطون بعيداً و بجَراءِة خلف هذه المرونة و التغير الذي يتوفر عليها العالم الحسي حين قال: كُلَّما يكون الشيء أكثر مثالية كُلَّما يكون وجوداً حقيقياً و صادقاً. كان يفضل غير الحقيقي أو عالم المثل على الوجود الذي نطلق عليه حقيقي أو عالم الحس. هذا العالم الحقيقي للمثل يكون فحسب في متناول الرجل الحكيم الذي يعيش فيه و من أجله. إنّ ما يصرح به أفلاطون بخصوص عالم المثل يعادل القول الآتي: ((أنا أفلاطون أنا الحقيقة)). تنبثق فكرة العالم الحقيقي من هذا المصدر، و تظهر قابلية الخلق الجبارة التي يتمتع بها الإنسان، و لاسيَّما في رسم طرق الهروب من التغير و التحول نحو الأسوأ. في المسيحية – الكنز الكبير الذي يزخر بأشد موارد التعزية و تهدئة الروع في سبيل المؤاساة و السلوان – هذا العالم الآخر لا يمكن الوصول إليه و بلوغه الآن و في الوقت الحاضر، و لكن يمكن الخاطئين و المذنبين أن يبلغوه لاحقاً بشرط بعد أن يعلنوا توبتهم و يعبروا عن آسفهم لما اقترفَوه من أخطاء في الماضي. هذا العالم الآخر يتحول مع المؤمن – الذي يعيد إنتاج الدائرة التواصلية للمعنى و من المستحيل الخروج منها – إلى مجرد فكرة لا أحد يمكن بلوغها أو الوصول إليها، و لا يمكن أن تكون محلاً لقطع الوعود، لكنها مع ذلك تظل تشكل عزاء للآخرين و تقدم المن و السلوى لهم كما تفرض عليهم ألزاماتها و مديونيتها و مسؤوليتها عليهم. إنّها هي هي الشمس القديمة التي نراها بواسطة ضباب الشكية التي تشبه ((مدينة كوينغسبيرغ الباهتة و الممتقعة)). و أخيراً، تخضع المسيحية قدرتها غير المعروفة تماماً و المسروقة للعزاء و الأمر و تلبسه ثوب الوضعية الإيجابيّة (اللا أدرية). لقد اقترب زمن إعلان الرفض و غدا وشيكاً جداً. و لكن هذا

الرفض، الذي يبشر به نيتشه، لا يعني أنّ العالم الظاهري ينبغي أن يبقى لنا، لأنه قد تم رفضه إلى جانب رفض العالم الحقيقي، و الأفق و الباب الآن مفتوح على مصرعيه لعالم نيتشه لا غير.

المحايثة المجردة/الحضور المجرد كصيرورة، حياة، وطبيعة —— هنا السّؤال هو: ما الذي يتبقى بعد رفض و تقويض كلاً من العالم الظاهري الذي نعيش فيه و العالم الماورائي الحقيقي؟ يجيب نيتشه تبقى لنا (1)الصيرورة، (2) الحياة، (3) الطبيعة بكل خصوبتها – بمعنى فقط ما هو غير مستقر كليّا و المتغير الذي لا يمكن تصوره بشكلٍ أساسي هو الموجود حقاً. يشير نيتشه إلى هذا العالم، الذي لا هو بالعالم الظاهري الذي نعيش فيه و لا هو العالم الماورائي الحقيقي، و يطلق عليه تعبير العالم الحقيقي و الواقعي، و لكن بما أنّ الحديث عنه هو بمثابة تجسيد له، فهو يقوم بتزييفه، حين يتحدث عنه، أو أن يسمح له بالتلاشي و الانحلال.

(1) استبدل نتيشة مفهوم ((الوجود))، الذي يطلقهُ الفلاسفة على الأشياء التي يدركون كعلامة على الثبات، بمفهوم الصيرورة، بوصفة الحقيقة الوحيدة في عالمنا. إذاً، الثبات، من وجهة نظر نيتشه، ليس له قيمة – إنه حتى غير موجود. في الواقع، يلتمس نيتشه الحُجَّة و يبرر ((القيمة الزائلة للمذهب المغري الذي يلتف حول بطن الأفعى و يعدّه أكثر حيوية و قيمة من الثبات ——)). و لكن هذا لا يعني، طبقاً إلى نيتشه، أنّ علينا أن نسلم أنفسنا صاغرين إلى سلطة الحوادث العرضية المتغيرة الأنية (((إذا أمنا بقوة في الحياة، فإنّنا سنكون أقل ميل للاستسلام لسلطة اللحظة.... أنت فقير جداً و لا تمتلك فضيلة التحلي بالصبر و الانتظار))). على العكس، أنّ الشيء الذي يغامر، و يضحي بذاته، و يتلاشى هو فقط الشيء الحقيقي و الواقعي و له قيمة في الوجود. إذا أردنا إن نفهم الوجود بشكلٍ صحيحٍ، فعلينّا أن نفهمه كما هو – أعني، في حالة تغير و تدفق و سيلان مستمر لا يعرف الثبات. إن تعبير ((الما-وراء)) أو ((الما-بعد)) يجعل فهم الوجود أمر غير ممكن. إنّ محاولة وضع معنى و ماهية الحياة في مكان خارج الحياة، أيّ في ((عالم ما ورائي)) – عدم – تعني إزالة و محو من الحياة كلّما هو أساسي و جوهري و حقيقي فيها: ((هذا العالم ليس أبديّ)) (non alia sed haec sempiterna). هذه الأبديّة الجديدة للعالم الذي يطلق عليها نيتشه تعبير الصيرورة سوف تظهر في الفصل القادم على هيئة فكرة ((العود الأبديّ)).

(2) بالضِدّ من كل شي صُلْب، مجرد و مفترض و الانحراف نحو العدم الذي يقود إليه فكرة ((العالم الماورائي))، يدافع نيتشه بقوة عن الحياة بوصفها صيرورة. فمن جانب، ((الحياة))، هي

الكلمة التي يستخدمها نيتشه للإشارة إلى الوجود من حيث يمكن تصنيفه بواسطة مقولات البايلوجيا – و من جهة أخرى، هي علامة تشير إلى الوجود النهائي الذي هو نحن وحدنا و لا شيء أخر بجانبه. و بذلك، إنّ الحياة التي تم تأكيد وجودها بطريقة غير مشروطة لا يمكن أن تكون إطلاق أكثر من معنى غامض و ملتبس. لا يمكن الإمساك بمعناها إلاّ بوصفها تحولاً و تغيراً من الوجود الأصيل الشامل إلى الوجود الفردي المحدد، و ينظر إليها كموضوع للبايلوجيا. حتى فيما يتعلق بالجوانب الإيجابيّة فيها فإنّها يتم التعبير عنه فقط بواسطة الجوانب السلبية الموجهة أصلاً ضِدّ صيغ الحياة التي أخفقت في بلوغ مستوى الحياة الأصيلة. هذا ما كان نيتشه يعنيه إجمالا، حين يقول: ((هل الحياة واجب؟ هذا الأمر هو كلام فارغ تماما، كلام لا يغني أو يسمن من جوع. الحياة هي فقط وجود يحتاج إلى قيمة؛ و هي في الواقع، يمكن أن تكون بسهولة عرضة للشك)). حين تيقن نيتشه أنّ الحياة قبيحة و شنيعة بما فيه الكفاية، و حين يعبر بصراحة عن ((كراهيته للوحوش)) و((الحقد و الكراهيَة)) فيها – حيث يحيط المقت حتى بمظاهر الإباء – الموجه ضِدّ الشيء و الشخص الذي لا نستطيع الوصول إليه، و إلى ((كلّ الأشياء التي يكون مصدرها المستنقع و المياه الآسنة))؛ يتسأل: ((هل الحياة، التي تتصرف أحياناً دون وجه حق، هي حقاً عبارة عن مستنقع و مياه آسنة؟)) كان نيتشه أيضاً يضمر العداء إلى ((أولئك الذين يلقون بضلال الشك على قيمة الحياة و يقللون من شأنها)). هذا كله يعتمد على التميز بين الحياة فحسب من جهه و الحياة الأصيلة من جهه أخرى. على سبيل المثال، أكد نيتشه على الاختلاف بين نمط الحياة السامية و الرفيعة الصاعدة و نمط الحياة النازلة الوضيعة، كما ميزَ أنظمة مختلفة فيما يتعلق في مكانة الأفراد – مع أنّه كان يفعل ذلك بواسطة إمكانات الوجود و ليس بواسطة عرض الحالات و تقديم الوقائع الموضوعية. مع ذلك، أنّ التصور الذي تكشف عنهُ أقوال نيتشه عن الوجود ليست وثيقة الصلة بهذه النقطة، لأن الاتصال الموثوق فيه مع الوجود غير ممكن حينما ينظر المرء إلى الحياة بوصفها حضور صرف. على العكس، يقود مفهوم الحياة هذا بشكل محتم إلى المراوغات و الألعاب اللغوية التي تنتهي بنمط بايلوجي زائف من المعرفة في تلك الحالة.

لهذا السبب، يبتعد نيتشه دائماً عن تلك الأحكام الدوغمائية النهائية. يؤكد نيتشه أنّ الغموض اللامحدود يتخلل كل ظواهر الحياة، ثم يضيف مباشرة: ((ربما يكون هذا الغموض هو أعظم سر تمتلكه الحياة: إنّهُ الثوب المذهب و المطرز بإمكانيات ساحرة الذي ترتديه، المُمتِلئ بإمكانات الوعد، المقاومة التي لا تحنث بوعدها، التواضع، الاعتدال، السخرية، العواطف المنفعلة، و الإغواء. نعم

الحياة هي المرأة – التي يجب الاختيار بين عشقها أو معرفتها، و لا يوجد أمر وَسْط – بامتياز! (*vita femina*))) هذا الغموض الذي يكتنف الحياة بمجملها يمكن يثير إلى حد بعيد الريبة و الشك: ((الثقة في الحياة غادرتنا منذ زمن بعيد.... إنّ حبنا للمرأة هو الذي يثير الشكوك و الريبة حولها))؛ لكن هذا الشك و الريبة و عدم الثقة مندمجة مع التأكيد غير المشروط للحياة الذي يهيمن على تفكير نيتشه و يتخلل جميع أفكاره – بمعنى لم تعد الحياة توجد بوصفها فكرة؛ بل كحالة ديونيسيوسية فياضة ترقص على أناغيم ((الأغنيات الرائعة)) لزرادشت.

الموت يعود و يرجع إلى الحياة، و هو جزء منها. دعنا نحترس من القول إنّ الموت هو النقيض للحياة. تستمد ملاحظات نيتشه عن الموت من فلسفته الخالية تماما من سحر الترسندالي المتعالي، و الذي يميزها الموت و يطغي عليه بصورة عريضة كما تبدو له. في الحقيقة، الإنسان في الحياة محاط بالموت من كل الجهات، و يواجهه في كل لحظة و يستجيب له و يتفاعل معه، و كان نيتشه مهتما في تأويل الحياة من زاوية الموت على وجه الحصر. تمثل الحياة بالنسبة إلى نيتشه إشارة و علامة (*signum*) للوجود المبدع الذي يتسلم معناه من الخلق و الإبداع، و لكن في نفس الوقت يمكن أن يُدرك (مراراً على وجه الحصر) كموضوع بايلوجي يمكن فحصه و تحليليه بواسطة البحث العلمي. أراد نيتشه إنّ يقول أنّ الحياة هي فقط شيء حيوي و خالية من الترسندالي المتعالي. إذاً يعتبر نيتشه الموت و ميدان المَيْت لا يعبران في الواقع عن أيّ شيء إطلاقاً.

و لكن بواسطة مواجهة الموت، يلتقي نيتشه، الساقط في فخ أو شبكة من الأكاذيب اليائسة، بشعور الخوف مما سيحدث بعد الموت – الموقف الذي يختلف تماما عما كان يعتقد به نيتشه – الأصل التاريخي الذي تعرف إليه بواسطة دراسة الأسرار الدينية للاهوت المصريين القدماء المتعلق بالموت و الحساب و مصير النفس و الإنسانية بعد الموت، اليهودية – الشعب الكهنوتي الذي لم يعرف معنى للراحة في صراعه مع أعدائه و المتغلبين عليه إلاّ عندما توصل إلى إجَراءِ تحويل جذري على جميع القيم، أيّ عندما توسل فعلا انتقاما روحيا في جوهره، الحقود بلا منازع – و المسيحية. كانت فلسفة نيتشه مضادة و مختلفة عن هذا الموقف – بعبارة أخرى، الموت هو المصير ((النهائي)) الأخير، الحقيقة النهائية، و المنتصر الأخير، ((ما يحدث بعد الموت ليس بالمرة يدخل في خضم اهتماماتنا)). الموت يزيل و يتخلص من كل المخاوف الذي تأتي بعده أو تنتج منه. على العكس، معرفة العدم الصرف للموت يزودنا بأساسّ عميق و قوي لتجنب الخوف الذي مازال

له مكان في خزانة أفكارنا: ((الموت أمر كافي ليجعلنا بمأمن عن الخوف من الحياة)). بعبارة أخرى، الموت شيء و الخوف من الموت في الحياة شيء آخر.

الموت، بوصفه الشيء الذي يفيء بوعوده و لا يخون العهد الذي يقطعه على نفسه، هو أما حادث طبيعي لا يمكن أن نتجنبه، أو يمكن أن نستقدمه و نعجل بوقوعه بتعمد بواسطة الانتِحار. ينبغي للمرء أنّ يفكر في الاثنين: يقين الأول و إمكانية الثاني.

في النهاية، يحدث الموت الطبيعي، الذي لا يكبح جماح نفسه، في وقت ما دون مساعدة أو تدخل مني، و هذا الحال لا يثير مخاوف نيتشه. إنّ ما يعنيه نيتشه بواسطة الحياة هو أنّ لا نريد أو نطلب العيش إلى الأبد و ألّا نموت، و لكن أن نرفع من غرض الحياة و نضعه فوق الحياة: ((كُلَّما عاش المرء الحياة بكل امتلائها و حيويتها و نشاطها، كان قريبا و مستعدا من يجعل منها تستسلم إلى أول تَجْرِبة منفردة جيدة)). فبوصفه يعدّ عن النهاية، يعتبر الموت واحداً من تعبيرات البالغة للحياة عن نفسها.

يمكن للمرء أن يسود على الموت و الحياة و يسيطر عليهما معاً بواسطة الطريقة التي يفهم و يدرك بها كلاهما: ((ينبغي للمرء أن يبتهج بموته حتى لو كان ذلك بدافع النكاية المحضة من الحياة: أنّ يحتفل و يقيم الأفراح ضِدّ هذه المرأة – و لاسيَّما المرأة الفاضلة يا عزيزي التي تستفيد من كلّ شيء – التي تريد هجراننا و التخلي عنا! —— عنا)).

من يقين الصفة الإبداعية الممتلئة للحياة ينتقل نيتشه إلى ازدِراء و سخرية كل أنواع الخوف من الموت الذي كان يروم أن يصغي إليه بأكبر انتباه ممكن. في المقام الأول، هذا الخوف من الموت ((ربما يبدو، عمومًا، أقدم من الألم و المتعة)). هذا الخوف يأتي من رغبتنا في أنّ نعيش إلى الأبد خالدين – هذه الرغبة تطغي على كل شيء، بيد أنّ العيش دون النشاط و الطاقة لا يعدّ أو يُنظر إليه بالمرة كحياة حقيقية. في المقام الثاني، هذا الخوف من الموت، الذي يبدو و كأنّه ((المرض الأوروبي)) الشائع الآن، ناتج نسبيا عن الرعب الذي نشعر به مما سوف يأتي بعد الموت. المرء الذي يخضع إلى هذا الخوف و يجعله يتملكه سيكون أسير لفكرة الخوف من جهنم.

كان نيتشه واحداً من سلسة معينة من المفكرين، الذي يطمح في تقويض و إيقاع الهزيمة في أحساس الخوف و التغلب عليه بوصفه يمكن أن يحطم حياة الإنسان و وجوده – وباعتباره أيضاً

علامة على الوجود المريض الذي يفتقر إلى الثقة و الاعتماد على النفس. يحاول هؤلاء المفكرون و نيتشه معهم أن يفتحوا قلاع الخوف و يستأصلوا جذوره التي تنبت في أرض الجشع الفارغ و أن يقوضوا و يقضوا على الخوف الذي يسبب الكثير من المعاناة بسبب بشاعة و قساوة الذي ينتظرنا في الحياة الأخرة. التحرر من الموت هو شرط و نتيجة ليس فقط للحياة الممتلئة الكاملة بالمعنى النيتشوي و لكن أيضاً يجعل الحقيقة الوجودية لنشوة الطرب و الوجد، كما أضائها سورين كريكغارد، أمر ممكن بواسطة الترسندالي. و لكن السمة السائدة و المهيمنة في فلسفة نيتشه التي ستقودنا إلى الانحرافات و الخروج عن المسارات على نحو الآتي:

بما أنّ الخوف من الموت – الشعور الذي يغرقنا في الذهول – هو دائماً علامة من علامات الوجود الشرير، فإنّ نيتشه يعلن موقف المعارضة له بواسطة عدم التفكير فيه – كما لو أنّه ببساطة شيء غير موجود أو لم يحدث. وبما أنّ الموت هو اليقين الوحيد بخصوص ما سوف يحصل في المستقبل، فإنّ نيتشه يجد ((من المذهل حقاً أن يكون هذا الموت الشائع المعروف و اليقين لكل واحد منا لا يمتلك تقريبا تأثيراً على الإنسانية)). بيد أنّ هذا لم يمنع نيتشه من تذكرينا بهذه الحقيقة من حين إلى حين أخر. و لكن، على العكس ذلك تماما، يكتب نيتشه: ((أنا سعيد أنّ أرى أن البشر لا يفكرون في الموت! و لهذا، يجب أنّ أجعلهم يفكرون أنّ الحياة هي أكثر أهمية و قيمة من الموت)).

طبقاً إلى نيتشه، بوسعنا التعالي على الموت و هزيمته بواسطة الانتِحار – لكن هناك شيئاً أو عنصر من الجُبْن يدخل الانتحار. لو استطاع أن يستشف البلية العظيمة التي سببتها حركة القطيعة لما كان له عذر. طوال حياته، كان نيتشه، كرجل ذي قيمة كبيرة حقاً، يشيد بالموت الاختياري الطوعي (العقلي)، الذي يجري اختياره بملء الإرادة، كشي مختلف عن الموت غير الاختياري و الطوعي (الطبيعي). بهذا الصدد يقول: ((ينبغي أن نقوم بتحويل الحقيقة الغبية للفسيولوجيا إلى ضرورة أخلاقية)). الموت الطبيعي ((موت يحدث تحت ظروف خطيرة، موت غير حر، يحدث في الوقت الخاطئ – إنّهُ ببساطة موت جبان. من منظور حُبّ الحياة المحض، نحن نريد للموت أن يحدث بطريقة مختلفة: نريد الموت أن يكون حر، واعيا، دون مفاجأة أو ضوضاء، و نريده يحدث بطريقة غير عرضية)).

لماذا أراد نيتشه أن يعبر عن رغبة الإنسان العظيم في الانتِحار – كما تم التعبير عنها في العصور القديمة، و لاسيّما في فلسفة الرواقية بوصفها أساساً من عمل الساميين: الكرامة في شكلها

الصارم باعتبارها قانوناً، و الفضيلة باعتبارها عظمة و مسؤولية و اسماً للسيادة الشخصية؟ يميز نيتشه أيضاً بين ماهية الإنسان، وجوده الداخلي الذاتي عن جسده وجوده الخارجي – أعني، كما يميز((القلب و النواة)) عن ((الأشياء البائسة من القشرة الخارجية)). في الموت الطبيعي، ((يذوي الجسد و يذبل، و يمرض مراراً لذا يقرر الحارس الغبي، السيد متى يجب أن يموت سجينه الأرستقراطي. الموت الطبيعي، هو انتِحار طبيعي – أعني، فَنَاء الوجود العقلي بواسطة الوجود غير العقلي – إنّ كلّ انتحار منفرد، حين لا يكون دافعه الغِلّ، هو في بعض نواحيه صادر عن شرف النفس أو عن الازدراء)). نيتشه يتجاوز الحياة و يحاول أن يذهب إلى ما هو أبعد منها من وجهة نظر يمكن أن يتم بواسطتها الحكم على الحياة، تأكيدها، أو رفضها، لكنه يفعل ذلك بطريقة تبقى الماهية الداخلية للإنسان – أكثر من الحياة – يفكر فيها كحياة، كطبيعة أساسية محضة، و لكن ليس كوجود يواجه الترسندالي المتعالي. بما أنّه لا يوجد شيء خارج الحياة، فإن الحياة تُفهَّم على أنّها ليس فقط كقوة مفوضة و لكن أيضاً جهة تصدر الأحكام الصحيحة، التي أصبحت حقيقية عبر تحوير ذاتي، على وجودها و إمكانيتها. هذا الحكم الذي تصدره الحياة القصد من ورائها تقييم معنى الحياة – أعني، تحديد و تعين ما إذا كان هذا المعنى ((مبدع و خلاق)) أم لا.

بواسطة منظور الحكم على معنى الحياة، و تقليص مجال الحكم، يتعامل نيتشه مع المرض بوصفه شيء يجعل من مسألة الإبداع و الخلق مهمة مستحيلة: ((المريض، هذه الدابة القميئة، هو كائن طفيلي يتغذى على جسد المجتمع – هناك حالات لا يستطيع فيها الشخص الوقح و غير المحترم العيش، لأنه لا يتوافق مع المعايير المقَبُولة و المسلم بها بصورة واسعة. إنّ استمرار الاعتماد النباتي الجبان للمريض على نصائح ممارسي الطب العلمي، حين تفقد الحياة معناها و كل مبرراتها، يجب أنّ يتم إدانته بقوة و يُعامَل بازدراء من قبل المجتمع. الأطباء يجب أن يكونوا الوسيطين في هذا الازدراء...)).

هذه الحالة المزرية للمرض الطويل و المزمن تقود إلى الموت، بالإضافة إلى أن أيّ حياة فارغة طويلة، تقف في تعارض مع الانتِحار ((كموت مكتمل)): ((يموت الشخص المنتحر ميتة المنتصرين محاطا بأولئك المحملين بالأمل و النذور... الموت بهذه الطريقة حسن و رائع، ويأتي بعده في الروعة الموت في المعركة... و لكن أشد ما يثير كراهيَة المقاتل و المنتصر معًا هو ابتِسامة

الموت الذي يتسلل كاللص.... دع ضوء روحك وفضيلتك يتلألأ حتى في لحظة موتك كمساء يتوهج على الأرض و يضيئها و إلاّ سوف يكون موتك فقيراً لا يحتمل و لا يطاق)).

يقصد نيتشه في هذا الموقف أن يقتحم حصون الموت الطبيعي بواسطة تحويله إلى فعل حر. مع نيتشه، الذي بدأ الفكر يستقي مرتكزاته من الطبيعة، يتحول الموت إلى فعل من أجل الحياة – أعني، فعل أكثر من الحياة نفسها بمعنى يشرف على الحياة و يسيطر عليها و يمسك بتلابيبها. من هذا ينبغي أن ينتج و يتلو الآتي: إذا كان كلّ الوجود ناجحاً تماماً، فإنّه لأحد سوف يموت موتاً طبيعياً بالمرة، بل الكل سوف يموت ((موتا حراً)) و في ((الوقت المناسب)): ((ترجع حكمة التفويض و التنظيم البارزة للموت إلى أخلاق المستقبل التي مازالت غير مُفكر فيها و الذي بزوغ فجرها سيمنح سعادة غير مسبوقة لا توصف إلى أولئك الذين يشهدون انبِلاجها)).

إنّ السّؤال الإشكالي المهم الجدير بالطرح هو السّؤال الذي يتعلق في الموت الحر: متى هو ((الوقت المناسب)) لحدوث الموت، بعد أن خيب حدوثه كلّما كان متوقعا منه؟ للإجابة عن هذا السّؤال، يفكر نيتشه في الإمكانيتين الآتيتين. الأولى هي: موت أولئك الذين لم يكن وجودهم و حياتهم منذ البداية على ما يرام أو لم يكن في حوزتهم ((النوع المناسب من الحياة)): ((إذا كان المرء لم يعش إطلاقاً في الوقت المناسب فكيف له أن يموت في الوقت المناسب؟ هل كنا نتمنى عدم ولادة هذا الشخص!)). ينصح نيتشه الكثير من الناس الذي لا لزوم لهم بالموت! إلى هؤلاء، يقول نيتشه: ((حينما يبتعد المرء عن نفسه، و يضع مسافة بينه و بينها، فإنّه يكون قد قام بشيء عظيم لا يقدر ثمنه، و نتيجة لذلك هو الشخص تقريبا الذي يستحق أن يعيش.... أما الآخرون، الذين سرعان ما ستبدو شهواتهم مفرطة حين لا نشاركها إيَّاها، فسوف لا يطيقون النظر إليه من شدة الغِلّ و الحسد و الغَيْرَة)). و لكن كيف بوسعنا أن نعثر على تلك الكلمات ذات المعاني الدالة التي تصف هذا الشخص – و كيف لنا أن نتعرف إليه و نشخصه؟ على نحو يثير المفارقة، هذه الكلمات واضحة جداً إلى أيّ أحد يستطيع أن يستوعبها، و لكنها تظل تماماً خالياً من المعنى حين يتم فهمها، لأن الذي يستطيع أن يستوعبها هو وحده من يستحق العيش. بالضبط، الشخص الذي من طراز سامي و رفيع، و في لحظة من الغموض المنطقي، يمكن أن ينتحر بواسطة هذا الأمر الذي يشكله معنى تلك الكلمات، بينما الإنسان الضعيف من طبقة العبيد، الذي بحاجة ماسّة للمساعدة، الذي يكون هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، و الكلمات بالأصل موجهه له، لن يستجيب لها أو يحرك ساكنا لأنّه لا يفهم معانيها.

ثانيا، يفكر نيتشه بأولئك الذين عاشوا بطريقة حسنة. ترى ما هو ((الوقت المناسب)) لموتهم؟ متى تشارف قدرتهم الإبداعية على النهاية، متى يكون ((الزمن المناسب للنهاية و التعاقب)): متى يكون لهم من المستحيل أن ((يعيشوا الحياة الإبداعية والمعاني التي تحملها)). إذا تم في الواقع تعين زمن الموت، فيجب أن يتم ذلك في نمط و طراز عام غير محدد. إذا تم تحديد الحال و تعينه بواسطة الحُجَّة، فإنّ تطبيقها على حالات خاصَّة سيقود إلى النتيجة الآتية: أما أنه ليس الوقت المناسب للموت أو يكون دائماً الوقت المناسب اعتمادا على تقييماتي الشخصية، أو على ذلك الذي ينظر إليّ و إلى حياتي الطبيعية بعين من التعاطف أو الكراهيَة – الطريق الوحيد إلى الحُبّ – و البغض الشديد حسب الحالة. أو ربما يتحدد الوقت المناسب للموت وفق معايير خارجية موضوعية متوحشة. أخيرا، إنّ الأمر يقرر يحسم بحرية لحظة موت الشخص ربما يحدده نمط و طراز عيشه القائم أصلا على اتّخاذ القرار: ((أنّ تعيش هو أن تمتلك إرادة الموت حين يحل الوقت المناسب!)) هذا هو في الواقع الحال الذي يصل إلى أعمق مستوى، لكنه مع ذلك في نفس الوقت يظل غير محدد أو معين، و يقصي كل إمكانات التحديد و التعين و التواصل بطريقة أما يتلاشى هذا الحال، المثير للاهتمام حقاً، أو يتحول إلى صيغة أخرى حالما يتم النطق فيه.

يضع هذا الحال الإنسان أمام مهمة مستحيلة. غياب الترسندالي أو العالم الآخر المفارق في فلسفة نيتشه، يضع كل الإمكانيات بيد الإنسان كما لو أنّها تحت سيطرته و يمكن أن يستخدمها و ينقلها من القوة إلى الفعل بواسطة قدرته و جهوده الإبداعية. لكن الإنسان لا يمكن له أن يكون مثل الله أو يؤدي دوره الذي ينظر بكثب و طريقة فاحصة. مع ذلك، المعرفة العميقة يمكن أن تقدم إمكانيات متنوعة لفعل الاستثناء الذي يشعر بالنفور و الابتعاد عن هذا العالم الذي يجيد التملص من جميع المصطلحات الوصفية و الحيادية الباردة القابلة للتطبيق عمومًا. هنا يشير نيتشه إلى سِرّ النبل الإنساني – الحريق الذي يتجدد في يوم من الأيام بعنف أشد لأنه كُبِح لمدة طويلة – إمكانية الاستقلال الرائع، طلب البطل الذي ليس من السهولة نقله – وحدته و الابتعاد غير المزعج عن العامة و النفور منهم الذين يحكمون عليه أما بالإعجاب أو بتوجيه الاتِّهامات الظالمة نحوه. و لكن من الصعب توضيح كيف للسِرّ، بواسطة التوضيح المقَبُول، أن يتكلم بواسطة هذه الإمكانية (((الموت في الوقت المناسب)))، سواء تم ذكره، أو تعليمه. حينما يتم النظر إلى هذه الإمكانية في الواقع التاريخي فإنّها تتحول إلى الضِدّ.

إن موقف نيتشه، الذي شرع في هذه الآوِنَة بالتفكير و بتعميق آرائه، من الموت هو نتيجة ضرورية للحذف المتعمد للترسندالي من فلسفته. هذا الحذف يظهر في الصيغتين الآتيتين:

مادام أن نيتشه يفكر بهذه الطريقة، و هذا بالمناسبة يشكل له سبباً كافياً لكي ينتهي نفسه من هذه المسألة، لا يمكن للموت يحتفظ بأبعاده العميقة. يعي المرء تناهيه و محدوديته و إمكانية وقوفه بحسم بوجه الأسرار، الذي يُعزيها نيتشه خطأ كإمكانية ((تقتصر فقط على المعنى الديني))، حيث يوجه العقل السامي (الله) أوامره و وصاياه إلى العقل الأدنى (الإنسان) كي يخضع لها و يطيعها. بمعزل عن الطريقة الدينية في التفكير في الموت، لا يتمتع الموت الطبيعي بأيّ قيمة أو تمجيد يذكر. ((يقف نيتشه في موقفه هذا بالضِدّ من الكوميدية المسيحية المعذبة و البائسة المنكودة الحظ المصنوعة خصيصاً عندما تحل ساعة الموت)). يعتقد نيتشه أنّ ((فعل الموت ليس له معنى كما تعزو إليه التأويلات الدينية الموقرة من المعاني المتنوعة))، و ينظر إلى العملية الفيزيولوجية من وجهة نظر ضيقة للملاحظ غير المتأثر بالعوامل الخارجية، ليقول: ((ليس هناك بين الناس من تفاهة متداولة أعظم من تفاهة الموت)).

إنّ الموت، كحادث يستطيع الإنسان التعامل معه و إفراغه من عمقه الذي يدين فيه إلى علاقته بالترسندالي، له عَلاقة برأي نيتشه الذي يقول أنّ المَيْت لا يتم تقديمه كميت. لم تؤثر على نيتشه الذاكرة التاريخية الميتافيزيقية أو تخترق وجوده، و ليس هناك خلود (حيث ظهر بدلاً عنه مفهوم ((العود الأبديّ)) دون ذاكرة)[72]. يضع نيتشه الرجال العظام في الماضي أمام عينيه بوضوح و بشفافية. مع نيتشه، يبدو الأمر كما لو أنّ الأساسّ الأسطوري للوجود الأنطولوجي المرتبط بالميت ضاع في فلسفته عن الحياة التي لا تذهب أبعد أو خلف نشوة و جذل الإبداع. نتيجة لتمجيد الحياة، و الإعلاء من شأنها، تم اختزال الموت عند نيتشه و غدا أمراً لا يتمتع بأيّ أهمية و ضاع في تفاصيل العملية الإبداعية التي وحدها من يضفي المعنى على الحياة.

(3) في الضِدّ مع الترسندالي في علاقته مع الله – الذي يصمت دائما في هذه الدنيا و ليس إلاّ الشيطان يتكلم – و الأخلاق و معاني الأخلاق المتعارف عليها للخير و الشر و الجمال و حقيقتها التي تعمل بالضِدّ من الطبيعة و تحاول ((الحط من قدرها)) – يطالب نيتشه في ((رد الإعتبار للطبيعة))، في الاعتراف و تميز أخلاق-الطبيعة، و قيم الطبيعة بدلاً من قيم الأخلاق المألوفة و المتعارف عليها – بمعنى تحل الطبيعة محل الأخلاق.

وبالضِدّ من جان جاك روسو – القاعدة المبنية على العاطفة الطبيعية كمصدر للعدالة، إثبات أنّ الإنسان يتسلق مدارج الكمال كُلَّما أقترب من الطبيعة – الذي كان مرتبكاً في التميز بين القيم الأخلاقية و قيم الطبيعة، لا يريد نيتشه ((العودة إلى الطبيعة))، بل يروم بدلا من ذلك ((أن يُعليّ من شأن الطبيعة و يسمو بها و يجعلها حرة و خالية من الخوف و لها الجرأة للقيام بالمهام الصعبة.... لنعبر عن ذلك بمثل: كان نابليون، بالنسبة لي، يمثل حالة العودة إلى الطبيعة)). و لكن ليس هناك شيء اسمه ((العودة إلى الطبيعة))، ((لأنّه لم يكن لحد الآن لدينا الحالة الإنسانية الطبيعية الفريدة.... يصل المرء إلى حالة الطبيعة فقط بعد صراع طويل و مرير؛ فهو لن يعود مطلقا إليها)). ليس الطبيعة شيء آخر سوى ((النصّ الأساسيّ المخيف للطبيعة الإنسانية، النصّ المفتوح و غير الكافي بنفسه و تام)) – إنّه سّؤال تحول الإنسان و عودته إلى الطبيعة.

و لكن يبدو من المستحيل اكتشاف، من اللغة الفلسفيّة الموظفة و المستخدمة من قبل الفلاسفة القدماء – بالإضافة إلى اللغة التي يوظفها نيتشه – ما هي الطبيعة حقاً. الطبيعة تُفهَّم كموضوع للعلوم الطبيعية – أعني، القُوَى الذي تحكم سيطرتها على الإنسان؛ و لكن في وقت آخر يشير معنى الطبيعة إلى ماهية الإنسان نفسه و إلى الوجود المطلق.

يميز نيتشه، الذي يعرف ما لا يمكن أن نغيره فلا فائدة من الشكوى منه، بشكل جيد سوء استخدام كلمة ((الطبيعة))، و كيف هو الآخر مذنب و يتحمل بعض من المسؤولية في سوء الاستخدام الذي تعرضت له بالرغم من محاولته إعادة تشكيل الطبيعة و معناها من جديد: ((حسناً تريدون أن تعيشوا وفقا للطبيعة)) يخاطب الرواقيون. الطبيعة ((لا مبالية و بلا قياس...، من دون نوايا و لا اعتبارات من دون رحمة و لا عدل مثمرة و مقفرة و مبهمة. إذا اعتبرنا هذه اللامبالاة كقوة بذاتها، فكيف يمكن لك أن تعيش وفقها ؟... تصور أن الأمر الموجه لك هو على النحو الآتي: (عش طبقا للطبيعة) يعني بالأساسّ الشيء نفسه عش طبقا و وفقا للحياة – السّؤال إذن كيف يمكنك أن تفعل خلاف لذلك؟ لماذا تبحث عن مبدأ لذلك الذي هو أنت و يجب أن تكونه؟)) يبدو كما لو أن نيتشه يرفض أقواله حينما يقول عن ((الطبيعي)) الآتي: ((الشر يولد دائماً نتائج ملفتة للنظر! الطبيعة شريرة! دعنا إذاً نكون كالطبيعة. هذا النوع من الاستنتاج يوظفه أولئك الذي يرومون خلق الإحساس)). حتى خلال مرحلة الشباب، و بعد أن رأى العاصفة التي تجلبها بأم عينيه و جرب رعبها المهول، يعبر نيتشه عن قَبُوله بسمو و تفوق الطبيعة و علو كعبها على لوحة و مُدَوّنة أخلاق

الخير و الشر للإنسان: ((لقد جربنا حالة الطرب و الجذل و الوجد غير القابلة للمقارنة... كلّ ما يهمني هو الإنسان و إرادته المضطربة! كلّ ما يهمني أبدية الأمر الآتي (يجب) و (لا يجب)! كم كان مختلف مذاق الضوء، العاصفة، و حبات المطر: القوة الحرة غير المقيدة للطبيعة خالية تماما من أيّ شي أخلاقي)) (من رسالة إلى فون جيرسدوف، 7 نيسان، 1866). لكنه يتحدث، فيما بعد، بطريقة ذامة لهذه ((المتعة التي تمنحها لنا عظمة الطبيعة غير المبالية في الخير و الشر)) كنوع من تَجْرِبة الطبيعة في تَجْرِبة ((الفنان العدمي)).

حينما ينظر نيتشه إلى ((نموذج العظمة)) – الشيء الذي لا يحدد برقم و الذي لا يمكن تحديد قيمته إلاّ بضخامة الجهد المبذول للحصول عليه، و أن بعض الناس أفنوا حياتهم في سبيل الحصول عليه – و إلى ((الإنسان في الطبيعة)) – الوجود الأكثر ضعفا و أكثرها رقة – و يجعل منه سيداً و يفرض علية الكثير من القيود و القُوَى الغبية التي يرزح تحت نيرها، و يطلب من الآنَ فصاعدا من الإنسان يتجاوز الإنسان و يكون فوقه، يقف أمام قُوَى الطبيعة الأخرى، تلح على المرء الرغبة في أن يطرح السّؤال الآتي: ((ما الإنسان حقاً؟ هل هو طبيعة ربما غدت سيدة على الطبيعة؟)) غير أنّ نيتشه كان مهتما و منشغلا تماماً في مهمة ((تقويض الطبيعة بواسطة الرجل العظيم))، و التميز بين البنية الداخلية العميقة للإنسان و طبيعته، ليجعل وجود المعيار و المقياس ممكناً و لاسيَّما في المهمة التي وضعها لتحديد ((المجال الواقعي الذي يمكن أن يقول الإنسان فيه نعم ! إلى طبيعته)).

تشير ((الطبيعة)) بأصابعها إلى ذلك الشيء الذي تحول إلى مسخ و أُلغِي وجوده بفعل التناقضات و الافتراءات اليائسة، التي انبثقت من الطريق الذي يسير فيه و يعرض نفسه. إنّه سّؤال ما إذا كانت الوسائل قُدِمَت له بواسطة الطبيعة الأساسيّة التي تسمح بالقبض حتى على هذه الطبيعة الأساسية المتأصلة. بيد أنّ هذه الطبيعة الأساسيّة المتأصلة الصرفة هي التي كان نيتشه يبحث عنها.

التدمير – الذاتي لتفكير نيتشه للعالم. —— سواء اعتبرنا العالم عملية صيرورة للحياة أو صيرورة للطبيعة، فإنّ الوجود، عند نيتشه، و بفعل ضرب من غريزة المحافظة على الوجود الشخصي وتأكيد الذات، يظل سلسلة من عمليات و إجَراءِات تأويل صرفة – أعني، يكون فيها الوجود مؤوّلا و مُفسَّرا. يستخدم نيتشه تعبير ((العالم الظاهري)) على النشاطات الإبداعية للمفسرين لهذا الوجود، التي تتحول بالتحقق من قوة إلى فعل، حتى بعد أنّ رفض ثنائية العالم الواقعي و العالم الظاهري (((السّؤال ربما لا يكون هناك طرق عدّة لخلق العالم الظاهري))) و الذي تمثل له

تناقض لا يمكن تجنبه، لأن العالم الظاهري له ببساطة هو العالم الحقيقي. بيد أنّ نيتشه نفسه، و بالرغم رفضه لثنائية العالمين، لم ينجَ من السقوط في فخ ثنائية العالم الظاهري و عالم الحقيقة و كان يستخدمها و يعول عليها أحيانا لتزويده بالحلول للمشكلات و الصعوبات القاهرة. هو نفسه يشير إلى هذا الأمر و في مواضع عدة من كتاباته بوضوح.

من جانب، إذا كان عقلنا مبنيا بطريقة تحتم عليه أن يرى كلّ شيء بواسطة منظور (أعني– يخلق عالمه تأويلياً) لغرض الحفاظ على الأنواع، و إذا كان، من جانب أخر، قادر على تميز المنظور و ما عمله، فإنّ العقل يجب أن يعتقد دائماً أنّ حقيقته هي الحقيقة الوحيدة المعترف بها – و يميز أنّ هذه الحقيقة هي الحدّ المنظوري. و لكن حين يُنّظر إلى هذا الاعتقاد من هذه الزاوية و نتأمل و نطيل النظر به – أعني، كونه الحقيقة الوحيدة، فإنّه يكف أن يكون اعتقاداً صحيحاً؛ و هو ليس إلاّ رأياً فاسداً و يكشف عن تهافته.

هنا، يشير نيتشه، الذي حزر منذ مدة طويلة ماذا يريد، بوضوح إلى منهجه في تأويل العالم، بالإضافة إلى موقفه من التناقض الذاتي. فمن جهة، يجد نيتشه في هذا المنهج إمكانية الارتفاع عاليا فوق الحياة و اكتشاف القوة الداخلية القادرة على السيطرة على تناقضاتها[73] و التعامل معها – و من جهة أخرى، كان مستعد دائماً إلى رفض المعرفة المقوضة للعملية الإدراكية كاستحالة منطقية: ((يجب أن لانأخذ بعين الاعتبار مفهوم التناقض الذاتي على أنّ عقلنا هو وجود و في نفس الوقت اعتقاد (Glaube))). بالتأكيد ، إنّ التميز و الاختلاف الأساسيّ بين الحقيقة و الوهم (و المستمدة من الاختلاف بين العالم الظاهري و العالم الواقعي) ، الذي يوظفه نيتشه دائماً، أجبره على تأويل عقلنا في طراز متناقض بذاته، الذي يرفضه هنا بواسطة تطبيق – و بطريقة الاستثناء – قانون التناقض، الذي لا يحوي على معيار للحقيقة و لكن يحتوي على إشارة تدل على ذلك الذي يعبر عن الحقيقة، كاختبار نهائي لحقيقة تأكيداته فيما يتعلق بالعقل، الذي هو تأويل و معرفة لطبيعته التأويليّة. و لهذا، ينتهي نيتشه إلى القول: ((دعنا نتخلص من الشيء-بذاتهِ و معه أكثر المفاهيم غموضا الظهور))، صحيح أنهّ لا يقْوَى على فعل ذلك، لكن قناعته ظلت ثابته في رفضه لكل الصياغات الوجودية الخصوصية التي تشوه العالم و الحياة، و لاسيَّما حين تعبر عن نفسها بواسطة صيغة ثنائية عالم الظاهر و عالم الحقيقية – بينما تتهرب من هذا العالم بواسطة رحلتها الغامضة إلى عالم المابعد أو ما وراء. كان نيتشه، الذي يحسن الظن في كلّ الأشياء المحسوسة، مدفوعاً بمصدر

وضوح و عمق فهم العالم الذي يتبدى بنفسه و يبدو متشابكاً. إن ما هو مميز في تأملات نيتشه للحقيقة، التي تحاول تجمع أفكارها و تطلق شراراتها، هو الدائرة المعبرة التي تمنحنا دائماً حركات و أبعاداً جديدة للتفكير، و التي تصبح أخيرا في أفكاره – التي تجد أصلها في المحيط العملي، محيط المنفعة، و لذلك تملك إيمانا حيا – عن العالم قوة مقوضة للميتافيزيقا بعد أن أضحت الأخيرة صيغة دوغمائية لا تطاق: تعمل إرادة القوة بوصفها محاولة تأويلية شديدة المراس يؤمن بها مؤقتاً كأداة لتقويض الميتافيزيقا. هنا، تصبح التناقضات في الميتافيزيقا معوقاً كبيراً، لأن هناك نهاية ميتة لها تمنعها من أنّ تعطي أيّ شيء جديد. نحن نأمل في التحرر من قيود هذه الميتافيزيقا لأنّها تريد أنّ تكون أكثر من مجرد مجاز خاص ممكن مصمم لغرض طرح السّؤال حول حدود علاقتنا بها و كيف نفهمها و متى تتوقف هذه العَلاقة.

في نقده لنظرية ثنائية العالم – عالم الظاهر و عالم الحقيقة حس المسافة و الترسيمة النافعة و السهلة الاستعمال – يتعامل نيتشه فقط مع الصياغة بصفتها ثنائية عقلية خام تنتهي حتما أما في فراغ المابعد أو فراغ العدم. نتيجة للتفكير بهذه الطريقة، كان على نيتشه أن يستغني عن الطرق الذي تستخدم مقولات ((الواقع و الظاهر))، ((الحقيقة و الوهم))، ((الوجود و الموجود)) التي تسمح – بعيدً عن أي افتراضات للعالم الآخر المختلف عن العالم الحاضر– بالتعبير عن هذه المبادئ الوجودية التي تكشف عن شفافية الأشياء و تفكّ شيفرة طبيعة العالم (Chifferesein). خلال هذه المدّة من تفكيره، لم يكن نيتشه واعياً لكل تأويلات وجود العالم، المكتسبة بالتحقيق التأملي (طبقا لمطالبه) و التي لا تعطِ تنازلاً إلى أيّ شيء لا يبين نفسه كحاضر هنا و الآن و يتجنب اختزال وجود العالم إلى مجرد مقولات فردية خاصَّة أو إلى ذلك الذي يمكن فهمه و القبض عليه بواسطة معرفة محددة: في هذه التأويلات، ليس هناك ((عالم آخر)) يعكس أحلام خادعة، و علاقتها بالترسندالي المطلق (الله) تدعم، ضمن هذا العالم، الوجود الذاتي لأولئك الذين يتسلون بأفكارهم.

6

الحدود و المنابع

المقدّمة: السّؤال الأساسي (تبرير العناية الإلهية في ضوء وجود الشر) (594) يَنبوع وعي الوجود: ((الحالات/الشروط)) (603) المجموعة الأولى: الدافع إلى الصعود و الارتفاع، المجموعة الثانية: المواقف الأساسيّة (النبل، الوجود البطولي، الروح الديونيسيوسية؛ المجموعة الثالثة: أنماط وعي الوجود.

تأكيد مفهوم الوجود (620)

الصيرورة ــــ العود الأبدي: (1) الحجج المساعدة و الداعمة للمذهب؛ (2) ترسندالية التفكير اللاغية للمذهب الطبيعي؛ (3) لحظة التفكير؛ (4) التأثير الوجودي للتفكير؛ (5) التأثير التاريخي؛ الموجز و السّؤال: الله أم الدائرة ــــ حب القدر.

العناصر الأسطورية في طبيعة نيتشه (658)

العنصر الأسطوري للطبيعة ــــ ديونيسيوس

المقدّمة: السّؤال الأساسي (تبرير العناية الإلهية في ضوء وجود الشر)

لا يمكن للمرء أن يبحث في طبيعة الوجود – الشكل المتأخر جدا بل الرفيع و المرهف من أشكال الحكم و الاستقراء – دون أن يسأل في نفس الوقت عن قيمة و معنى الوجود. خلافا لجميع الموجودات التي تعيش بطريقة عشوائية و سلبية و غير نقدية في العالم، يشعر الإنسان – و الإنسان وحده – بالقلق على حياته، و لا يكف عن أن يتسأل هل الحياة تستحق أن تعاش أم لا؟ هل الوجود هو أفضل من العدم، و بهذا الذي يستدعي السّؤال و يثير البحث و الاستقصاء، إذا جاز التعبير، أما أن تتم إدانته أو تبريره؟ يعادل تبرير الوجود و تسويغه – حين يتم افتراض الخالق الإلهي – تبرير و تسويغ وجود الله (تبرير العناية الإلهية في ظل وجود الشر)، و لكن السّؤال الذي يطرح نفسه يدور حول النظرة الإلحادية بخصوص الوجود؟ ذاتياً، يبدو أن هذا السّؤال يتعلق بتأكيد أو سلب الحياة، أما موضوعياً، فهو يولي الاهتمام بمعنى و قيمة العالم.

يثير نيتشه، و لكن في طراز تغلب علية صف الأصالة و الفرادة، السّؤال القديم حول تبرير العناية الإلهية في ظل وجود الشر – السّؤال الذي تم إثارته بقوة و على نطاق واسع في العصور القديمة من قبل بروميثيوس أسخيليوس و في ((كتاب العمل))، و تم مناقشته في الأزمنة الحديثة عقليا من قبل الفيلسوف لايبنتز. بواسطة السّؤال حول معنى و قيمة العالم اكتسبت فلسفة نيتشه قوة دافعة ساحقة، و وسائل أغزر و أصلح، ومن الطريقة التي كان يؤكد فيها على الوجود، أو من طريقته في التفكير في هذا التأكيد – الذي كانت مرادفة عنده للوجود – بلغت فلسفته مستوى تحقيق الإنجاز.

لا يشبه السّؤال عن قيمة و معنى الوجود أيّ سّؤال آخر لا في المقاربة و لا في المنظور و لا في المنهج. لا يكون المرء جدياً حقاً في حياته لحين أو حتى يصطدم بهذا السّؤال. يبدو نيتشه دهشته من عدم طرح هذا السّؤال أو إثارته، كما يبدو اندهاش أكبر عن الملاحظة التي تؤكد على الرغبة الجارفة للإنسان في طلب المعرفة و السعي إليها دون التعرض لهذا السّؤال و الالتفات إليه لا من بعيد و لا من قريب – أعني، لا يمكن للمعرفة أن تنبثق حقاً دون أن نطرح أولا هذا السّؤال. كان نيتشه في فترة شبابه مندهشاً كثيراً من موقف العَالِم الذي يتصرف ((كما لو أن الوجود في قيمته و معناه شيء فارغ و ميؤوس منه و يثير الشكوك...؛ كل خطوة من خطوات عمله يجب أن تجبره أنّ يفكر في الوجود و يسأل: لماذا؟ إلى أين؟ و من أين؟ لكنه، بدلاً من الإجابة عن تلك الأسئلة التي

تثير في المحصلة النهائية سؤال قيمة و معنى الوجود، كان متحمس جداً في الاستمرار في أداء مهمة إحصاء أوراق و الخيوط المتشعبة للزهرة و ليس أكثر)). حينما يطرح السّؤال، عن قيمة و معنى الوجود، يتم تجريد الوجود من ثوبه و يكشف النقاب عنه و يظهر عاريا و يبدو كئيبا و يائسا للعين الفاحصة: إنّهُ أشبه ((بالعدم، شي غير خاضع للتأويل، يعيش بواسطة إنكار، واستهلاك و مناقضة نفسه)). المرء الذي يرى الوجود و الكل بهذه الطريقة و على هذه الشاكلة يبحث عن العزاء و المساعدة في حالة اليأس الذي ينتابه. لكن حالة اليأس و القنوط سرعان ما تزداد عنده حالما يكتشف أن وجود الإنسان في هذا الكون هو دون هدف – و بهذا، فإنّ كل حياة الإنسان يطغي و يهيمن عليها شعور انعدام وجود الهدف و الغاية. حين يطرح السّؤال المتعلق بالمعنى النهائي و القيمة تكتسب الحياة بلاشك نوع من الجدية بواسطة إمكانات الوجود الذي يمكن الآن القبض عليها و تحويلها من القوة إلى الفعل، و لكنها في نفس القوت تفقد الأمان الصلد غير المشكوك فيه. يعتمد التحقق-الذاتي الجوهري للإنسان، الطريقة التي يرى فيها الوجود كليًّا بوضوح، على رفضه الرجوع إلى حالة الأمان الساذج الخادع الذي كان يعتقد فيه سابقا و بداية تلمس يقين وجودي أصيل جديد بدل عنه. واضعا هذا السّؤال نُصْبَ عينيه – بواسطة تبسيطه و موضعته في العالم الخارجي– يقول نيتشه ((قياس قيمة الحياة و تأكيد سبب وجودها))، يعدّ ((ربما الهدف الأهم و الأسمى في حياة الإنسانية))، كما يتوقع ((حينما يظهر و ينبثق العقل السامي العالي)) حينذاك ((سيتم تحديد و بشكل نهائي قاطع قيمة الحياة و معناها)).

فضلاً على ذلك، يختلف السّؤال عن قيمة و معنى الوجود عن كلّ الأسئلة الأخرى بسبب الطريقة التي يمنع فيها في الواقع و يسد الدروب عن أيّ أجابة عنه. يبين التفكير و التأمل المنطقي كيف أن نيتشه يستبعد أن يكون هناك جواب لهذا السّؤال حين تفترض قيمه الأحكام الصيغة الموضوعية و الحسية الخارجية له. هذا هو السبب وراء رفضه لقيمة الأحكام فيما يتعلق في الحياة، الوجود، و العالم كليًّا:

كي نكون قادرين على إصدار الأحكام بخصوص هذا السّؤال، ينبغي أن ينطلق المرء من مواقع تفحص الكل بدقة و تنظر إليه من كثب. ينبغي للمرء أن يقف خارج الحياة ... حتى يسمح له أن يمس مشكلة قيمة الحياة. ((و لكن بما أنّنا موجودون داخل الحياة، فإنّنا من الصعب أحيانا أن نحتل هذا الموقع المتخيل و أن نضع مسافة بيننا و بينها)). زد على ذلك، فإنّ الكل بحد ذاته ليس له

مقياس أو معيار بل فقط خاصيته، و هو إلى ذلك ليس له قيمة إطلاقاً، سواء كانت إيجابيّة أو سلبيّة، ((لأنه لا يوجد شيء معين و محدد يمكن أن يقاس بواسطته أو في العَلاقة به تصبح لكلمة (قيمة) معنى و مدلولاً. من غير الممكن و الاستحالة قياس القيمة الكُلّية للعالم)).

فضلاً على ذلك، ينبغي للمرء أنّ ((يعرف الحياة كما يعرف أحد ما من أصدقائه، أو كما يعرف الآخرين الكثيرين الذين يعيش بينهم و معهم)) حتى يستطيع أن يصدر أحكامه بصورة صائبة.

و بذلك، يكمن الخطأ الأساسيّ المتضمن في أيّ تقييم للكل في حقيقة أنه يتم الحكم على العالم كليًّا بواسطة مقياس مستمد من شيء خصوصي فردي في العالم. ((من السذاجة أن تساوي الرغبة، الروح، الأخلاق أو أيّ شيء أخر خاص ضمن ميدان الوعي مع القيمة السامية العليا أو ربما حتى البحث عن تبرير العالم بواسطتها)).

انطلاقا من هذه الاعتراضات، يمكن أن نلاحظ ((أنّ كلّ تقديرات قيمة الحياة هي خاطئة))، و((كلّ الأحكام الصادرة بحق قيمة الحياة)) يجب أن تكون غير منطقية – و بهذا فهي غير صحيحة.

مع ذلك، كان نيتشه بصورة مستمرة يربط ما بين وجهة نظره العميقة هذه مع نوع من حكم القيمة التي تبوح و تكشف عن استحالتها. هنا، يسير نتيشة في اتجاهين: يرغب نيتشه في الحياة بشغف، و يسأل مرة أخرى بصورة أقْوَى و أبسط و أشد وقعا في النفس مما مضى: لماذا عليّ أن أبقى و أظل أعشق الحياة و أحبها؟ بل حتى يعترف: ((لا أريد الحياة أن ترجع مرة أخرى... ما الذي يجعلني حقاً أتحمل هذه اللحظة؟ إنّها صورة السوبرمان الذي يؤكد الحياة. أنا نفسي حاولت أن أوكد ذلك —— و آسفاه**!**)).

تشير حقيقة – أن المعرفة العميقة في استحالة الجواب عن سّؤال قيمة و معنى الوجود لم يمنع الجواب من الانبثاق، و وجود شيء في داخل الإنسان يجبره عن البحث عن الجواب على الرغم من الاستحالة المنطقية التي يتضمنها السّؤال نفسه – إلى أن أساسّ كلاً من السّؤال و الجواب يوجد في أماكن عميقة أعمق حتى من المعرفة العميقة. لا يمثل إيجاب و سلب الوجود تعبيرات عن معرفة مثبتة أو مبرهن عليها، و لكن يشير فقط إلى أفعال الحياة بذاتها. و بهذا، وصل نيتشه إلى أساس فلسفته بواسطة طرح السّؤال المتعلق بقيمة الحياة – السّؤال الذي ينبغي أن يُطّرح، السّؤال

الذي ينبغي الإجابه عليه بطريقة خاصَّة جداً. بدلاً من الاستمرار في طرح الأسئلة المتعلقة بقيمة الوجود، ينبغي أن نطرح السّؤال – يؤكد نيتشه – المتعلق بقيمة السّؤال و القيمة الإيجابية و السلبية للحياة؛ و قد فعل نيتشه ذلك من أجل أن يصل إلى المنابع حيث يكشف الوجود الإيجابي المصون الذي لا تنتهك حرمته و غير المقيد عن نفسه.

في مسيرته الفلسفيّة الطويلة، التي تلقي دائماً الإضاءات على الممارسات الراهنة للفكر الفلسفي، توصل نيتشه إلى حَلّ بسيط بواسطة اعتبار السّؤال و الجواب السالب عن قيمة و معنى الوجود علامة من علامات الحياة المنحطة و الوضعية المتراجعة. يتحدث زرادشت بحَيرة على نحو الآتي: ((شيء مجهول غير معروف يدور من حولي و ينظر إليه بطريقة و قرة. يسألني ماذا؟ مازالت على قيد الحياة يا زرادشت؟ لماذا؟ و لأيّ غرض؟ و كيف ذلك؟ و إلى أين؟ و أين؟ و كيف؟ أليس من الحماقة أنك لم تمت بعد و مازالت على قيد الحياة؟))، ثم بعد ذلك يضيف مباشرةً: ((آه، يا صديقي، إنّهُ المساء الذي يسأل على لساني. عذراً يا حزني)). إنّ ما نراه في ضعف القمر يتحول إلى علامة محددة للحياة، حينما تعلن و تصدر الأخيرة، من وضعها المهيمن السائد، أحكام القيمة عن الكلّ: ((إدانة الحياة، بواسطة و في الطريقة التي نعيش فيها، هو النهاية، و لكنه أيضاً علامة على نوع معين من الحياة))، أنّهُ ((علامة على القهر و الهزيمة))، على المرض، و عن الانحطاط و التفسخ. يرد نيتشه – على أسمى حكمة في كل العصور التي تحكم على الحياة بنفس الطريقة التي حكم بها سقراط، الذي لابد أن يكون أحد الآلِهة قد أعمى بصيرته، قبل موته، عليها قائلا ((أن تعيش هذه الحياة هو أن تكون مريضا)) – بالقول بواسطة طرح السّؤال الآتي: ((ما الذي يبرهن عليه هذا القول؟ إلى ماذا يشير هذا؟... ربما يشعر أولئك الحكماء في كل العصور بأنّهم يقفون على أرض رخوة؟)) ((بما أنّ التقييم الواقعي للحياة يعتمد و يعول على الأمزجة السائدة عموما))، يطالب نيتشه ((بالحكم السامي العادل على الحياة بواسطة الطاقة السامية و الرفيعة للحياة للسادة... أما العبيد و الضعفاء روحياً ينبغي ألّا يصدروا حكماً على الحياة)). بل أنّ نيتشه وقف حتى ضِدّ طرح السّؤال المتعلق بقيمة الحياة، لأنه يكشف برأيه عن ((الانشغال بالمعاناة)). بالضِدّ من ذلك، يحث نيتشه و يؤكد بقوة: ((إنّ من مِيزة الشجعان و المبدعين أنّهم لا يجعلون من الفرح و الحزن أسئلة نهائية للقيمة... ينبغي أن نريد الاثنين... إنّ حقيقة وضع الميتافيزيقيين للفرح و الحزن في المقدّمة لهو في الواقع علامة من علامات الإعياء و التعب و المرض)).

بالطبع، لا نحصل إلاّ على القليل إذا توقف تفكير نيتشه عند هذه النقطة. شيء خصوصي و فردي في العالم، وجهة نظر اكتشاف الحقائق البيولوجية التي لا يسع الحقوق فيها إلاّ أن تكون حالة استثنائيَّة سوف تكون في الواقع معيار و مقياس لتَجْرِبة الحَدّ. بيد أنّ تفكير نيتشه لم يكتفِ فقط في الاصطدام بعقبة مذهب التفسخ و الانحلال الذي واجهه، بل يمضي و يسير نحو مصادر أكثر عمقا و مدلولية. يستأنف السّؤال الأساسي عند نيتشه – اللامعنى في ميدان المعرفة العميقة التي لا يمكن التحقق منها و اختزالها إلى مجرد علامات و عوارض و حذفها حينما يتم النظر إليها موضوعيا من وجهة نظر بايلوجية أو حتى وجهة نظر طبية – نشاطه مرة أخرى و يذهب ما بعد حدود العقل حيث يفرض جديته الحقيقية بالنسبة لنيتشه.

يعني نقد العقل[74] عند نيتشه، أولا أنّ الوجود ليس مرادفا إلى الوجود العقلي؛ و ثانيا، لا نستطيع الوصول إلى الوجود إلاّ بواسطة العقل. و لكن إذا كان العقل ليس وجود، و لا يمكن له أن يبلغ أو يصل إلى الوجود، فهل يمكن أن يكون في متناولنا أو بوسعنا الوصول إليه؟ تنتهي أفكار نيتشه، في هذه المسألة، دائماً في فراغ. فسواء تأملنا في مفهومه عن الحقيقة، أو عن الإنسان، أو في رؤيته للتاريخ، سوف نصل بوضوح إلى جملة من التناقضات أو الرموز – بالمناسبة سحر الرموز، فكرة أولى عن العدد و الكتابة، تحويل لانهائي كثير الأشكال إلى شي مبسط إلى نظرية إلى مفهوم. كل هذه الإمكانات لفهم العالم بالفكر موجودة بلا أسماء أو مسميات – و العلامات و الكلمات الشاحبة التي تشير إلى الاتجاه، لكنها تظل مع ذلك يطغي عليها طابع التجريد. كانت فلسفة نيتشه عن السياسة العظيمة/ الكبيرة في العموم، و بالرغم من غنى وجهات النظر الذي تتضمنها، ليس إجَراءِ خاصاً، لأنّها تنتهي في حالة ((خلق)) غير محددة – فمذهبه الميتافيزيقي في إرادة القوة يمنح، و لو بشكل مؤقت، مكانة مطلقة لشيء ما خصوصي ضمن هذا العالم، بالرغم من وعيه لخطأ هذا المنهج. نسمع بعض الأقوال و التعبيرات الإيجابيّة و الطبيعية التي لم تعد تعبر إطلاقاً عن أيّ شيء فقط حين تكون نتيجة التحقق الفلسفي صيغة أمرية (كان نيتشه دائماً يزدري المذهب الوضعي في كلّ أشكاله). لم يكن هناك أيّ شيء سمعناه عن الفلسفة الوضعية الإيجابيّة و المتحدية حتى الآن حول هذه النقطة كافي بحد ذاته – هذا الذي يفكر فيه نيتشه و يعيش عليه ينبغي أن يفتش عنه في مكان آخر. الآن، نلاحظ التحول الحاسم في فلسفته: اكتشف نيتشه النتيجة الحقيقية بدقة حين ينتهي العقل في فراغ. حتى أفكاره، التي هي مجرد أفكار تتلاشي، تستمد حيويتها من مصدر يظل أبكم و صامت بالنسبة للعقل و لا يعطيه آذانَ مصغية. و لكن كيف لهذا الوجود أن يصل إلى كماله في

الواقع بدلاً من أن يأخذ شكل المذاهب الدوغمائية و المطالب المحددة التي يخضعها نيتشه مرة أخرى إلى الشك و النقد؟ وجد نيتشه أن مسألة كشف الوجود تقع خلف مديات العقل و تتجاوزه. من هذه النتيجة، أصبح النداء مسموعا لنيتشه؛ لقد حدد هذا النداء المسار و الاتجاه لمواقفه الفلسفيّة القادمة و أفعاله، و كذلك البداية و النهاية لمَسار تفكيره. إن بطلان فلسفة نيتشه، و عدم فهمها، يرتبط بنسياننا أو تجاهلنا لمفهوم الوجود لدية أو أخفقنا في إقامة عَلاقة حميمية به.

اكتشف التفلسف عند نيتشه أخيراً الوجود بالضبط في النقطة التي لا يمنح فيها العقل أيّ جواب و يثبت أنّه ليس المصدر و لكنه فقط واحد من وسائل التواصل مع الوجود. هذه الإيجابيةّ، غير المحددة بأيّ شيء، و يمكن أن تكون معروفة ميثودولوجيا / منهجيا، تتغلغل و تتخلل كلّ عمل نيتشه و يمكن أن يتم البرهنة عليها الآن:

ينبثق التأكيد الحاسم، و لكن ليس على أساسّ المعرفة أو المعرفة العميقة، من ماهيتنا (*Wesen*). يتحقق الإيجاب كشيء واقعي يطلق نيتشه عليه تعبير ((الحالة)) (*Zustand*)[75]. سايكلوجياً، بوسعنا أن نصف الحالة كمِزَاج، و أخلاقيا كموقف؛ و لكنها تبقى شيئاً شاملاً (*das Umgreifende*)، و هي بحد ذاتها أكثر من أيّ حالة استقصاء سيكولوجي أو موقف أو أساس نبني بواسطته المعنى الأخلاقي. إنّها الوجود، إنّها الإنسان بوصفه الوجود-في-العالم (*Dasein*) و الذي لم يكن بحدّ ذاته إطلاقاً موضوع – إنّها انكشاف و تبدي للوجود الذي يجرب ذاته و لا يتوقع شيئاً من هذه التَجْرِبة-الذاتية. إنّها ليست تَجْرِبة حالة غريبة بل على العكس، إنّها تجرب ذلك الموجود حقاً هناك فقط بواسطة نفسه. إنّها أساس، مصدر، و حَدّ لكلّ وعينا-الذاتي مع إيجاب و سلب الوجود.

يستخدم نيتشه تعبير ((الحالة)) بوصفه معنى شاملاً، و يعدّها ((مصدر للتفكير)) – التفكير الذي ((يعبر بواسطة العلامات عن حالتنا العامة)).

لا يمكن للتفكير أن يجبر على الكشف عن ماهية الوعي-الذاتي بما أنّ التفكير، في المحصلة النهائية، ينشأ من هذا الكشف. كما لا يمكن ((للقيمة النهائية للوجود أنّ تكون نتيجة للمعرفة العميقة))، لأن هذه القيمة، بحد ذاتها، هي ((حالة و فرضية للإدراك)).

بما أنّ الحالات متعددة و متنوعة، بوسع نيتشه أن يفترض وجود المواقف الإيجابيّة و السلبيّة في العَلاقة بالإمكانات المختلفة في الوجود. بوسعه أن يرفضها: ((نحن نشك في كلّ حالات

البهجة المفرطة و الحالات المتطرفة التي تجعلنا نعتقد (أننا نمسك بالحقيقة بأيدينا))). يعترض نيتشه على ((أيّ حالة راحة و سكون و طُمَأنينة في الحالات التأملية))، و على أيّ سعي نحو صيغة إلهية إضافية للوجود الذي تعادل حالة الوجد أو النوم العميق. ينظر نيتشه إلى الحالات الإيجابيّة التي تضيء في حدّ ذاتها مصدر الوجود بأنّها مكسب كبير: ((إنّ الحالات التي تحدث للنفس هي أرقى الإنجازات، لكنها لم تبلغ، كما يعتقد نيتشه، حَدّ الكمال)): ((ينبغي ألّا نرغب فقط في حالة واحدة)). يشعر نيتشه، في قرارة نفسه، بالفخر لأن ((تعددية الحالات الداخلية هي حقاً أمر فريد استثنائّي و فوق العادة))، و بواسطة إنتاج العمل الفلسفي، بوسعه أن يميز مهمة ((الاكتساب و الاستفادة من التَجارِب المختلفة للحالات السامية بوصفها الأساسّ و العمود الفقري الذي يمثل مضمون الفصول المختلفة و موادها – المنظم للتعبير، التسليم، التوزيع، العاطفة السائدة و المهيمنة في كل فصل – و من ثّم التفكير في مثالي الذي أضعه...)).

هذا يفضي إلى التأكيد أنّ من المستحيل اكتشاف مَنْ هو الفيلسوف بواسطة دراسة فلسفته؛ المرء يعرف ببساطة فلسفة الفيلسوف بواسطة الصيغة المباشرة لحالاته الفلسفيّة. الفلسفة لاشي – بل هي مجرد ((تعبير عن حالة استثنائيّة فريدة نبيلة و سامية لشعور الكمال سواء كان روحي أو حسي لدي الفيلسوف: إنها التأكيد و الموافقة الصادرة عن الشعور الغامر للقوة الإبداعية الخلاقة. يتطابق نظام الحالات مع نظام المشكلات لديه)). ((في النهاية، هناك نظام من الحالات للنفس لديه يتطابق مع نظام المشكلات – و المشكلات الكبيرة، في الفلسفة، تطرد بلا رحمة أيّ أحد يجرؤ على الاقتراب منها دون أن يكون قد جلب معه الحلول لها بواسطة قوة و سمو الطبيعة الروحية للفيلسوف)).

تصبح الحال شديدة الوضوح بواسطة إيصالها. التفكير و الصورة يعبران عن حالة أولية من الاكتفاء-الذاتي لتأويل لوعي العالم عند الفيلسوف.

ربما ينجز التواصل عن طريق صور التفكير و التي تكون بلا قيمة بوصفها معرفة عقلية، و لكن مصدرها يعلن الحقيقة التي لا يمكن الاستغناء عنها لوجود أولئك المنفتحين عليها. استخدام في هذه النقطة معياراً يتحدى جوهريا التعبير العقلي – بوسعنا أن نقسم مذاهب نيتشه على نوعين: تلك الذي تمثل اللغة الصحيحة التي تعبر عن الحالة البسيطة للوجود و التواصل مع الوجود؛ و النوع

المستخدم في نمط الأنظمة الميتافزيقية ما قبل كانط، التي يسير في طريق الموضوعية ومن المفترض لها أن تزودنا بمعرفة الواقع.

التواصل يمكن أن يأخذ صيغة الصور الذي تعبر عن إيجابية الوجود أسطوريا، مع أو دون بعض التراكيب المفهومية. الطبيعة، المناظر الطبيعية، العناصر، و الحياة غدت أمور تلفظ و نتحدث عنها بوضوح. التأليه، أدوات السرد و تقنياته، الصياغات الرمزية، و الأغنية التي تقول ذات الشيء الذي يقوله التفكير؛ لكنها تفعل ذلك في نمط و طراز مثير و متحمس مباشر؛ بينما فقط التفكير يمنح الوزن و الاتِّساق لهذه الصيغة الشعرية للتواصل.

ينبوع وعي الوجود: ((الحالات/الشروط))

تنبثق الأفكار التي لا يمكن نقلها بواسطة قوة قاهرة و يمكن أنّ نتعرف إليها بواسطة الأشياء في العالم – ما لم تكن هذه الأفكار بالطبع مجرد تسليات عقلية – و تصدر في خطوطها العامة عن الأساسّ الذي يمتد خلفها و ما بعدها و يمنحها الاتجاه و الجوهر. لا تشر مثل هذه الأفكار إلى أيّ شيء موضوعي و منفصل: أيّ شخص يدرك ينبغي أن يقبض على حقيقة هذه الأفكار و أنها تنبثق من مصدر داخلي.

يعبر نيتشه، الصريح و الحاد الطبع، عن حالاته الفكرية بصورة واضحة و علانية، لكن لا يمكن للقارئ أن يفهمها دون أن يدخل بشكل واعي و يعيش الحالة التي يريد نيتشه التعبير عنها. زد على ذلك، هذه الحالات، التي يتحدث عنها نيتشه، لا يمكن أن تكون موضوعات – بمعنى إنّها ليس نوع من الطبيعة تحاول السلطة قمعه أو ميدان خفي تحاول المعرفة كشفه – بما إنها في الواقع مصادر لا يمكن سبرها ينبثق منها التفكير الموضوعي و الأفعال الحاسمة معاً. إذنْ، لا يمكن لمعرفة نيتشه و نفاذ بصيرته و فطنته العميقة أن تنظر إلى هذه الحالات بوصفها هدفاً؛ و بذلك، يمكن تحديد مطلب نيتشه بواسطتها على النحو الآتي: ((المبدأ الأول الأخلاقي: يجب ألّا يسعى المرء إلى أيّ نوع من الحالات، ليس لأسباب تتعلّق بالسعادة، و لا بالسلام، و لا السيطرة على نفسه)). مع ذلك، هذه الحالات، مع ذلك، تصبح نقطة للتركيز واضحة مع التفكير الفلسفي: يتحدث نيتشه عن هذه الحالات، و يصفها لنا بطريقة مباشرة بدلاً من الطريقة غير المباشرة؛ يقدم نيتشه هذه الحالات و

يحاول إبراز أمثلتها. ما يقصده هذا العرض لتلك الحالات يمكن أن يكون، مع ذلك، اِحتكام إلى إمكاناتها فحسب و بذلك فقط بطريقة غير مباشرة. هذا يبين لنا بوضوح لماذا هذه الحالات، طبقاً إلى نيتشه، ليس مجرد أمزجة أو تجارِب. بل هي بالأحرى ماهية سائدة و متعالية، و مصدراً إلى البواعث و الدوافع التي تحكم الحياة: مع تلك الحالات و بواسطة حركتها، يصبح الإنسان واعيا بنفسه و بالوجود الذي يحيط فيه. و لكن بما أنّ هذا التقديم في أطروحاته ينبغي أن يغطي نفسه بالمعاني و المقاصد السيكولوجية، هناك توجد دائماً نزعة تسمح لهذه الحالات أن تتحول عند نيتشه خطئاً إلى شروط نفسية. إنّ جرثومة سوء الفهم هذه موجودة في داخل تفكير نيتشه نفسه، و ينبغي أن نكون واعين بوضوح بها إذا لم ينمُ سوء الفهم هذا و يزداد كنتيجة إلى الفحص و الاستعراض المختصر للحالات حيت يقوم بتأويلها طبقا لطريقته الفلسفيّة. الفقرات الآتية هي محاولة لمثل هذا الفحص و الاستعراض عند نيتشه:

المجموعة الأولى: الإصرار على الذَّهاب أعلى و أبعد – البواعث إلى الحركة غير المحدود في التقويض و الدحض.

تشير هذه الحركة، بشكل أولي، إلى حالة السلب لكلّ العقد المتشّابكة. إن المثال النيتشوي للروح الحرة عن الانفصال و القطيعة مع كلّ شيء سابق: ((قبلَ المثال النيتشوي للروح الحرة بكلّ الحالات المرغوب بها السامية التي لا تخش شيئاً و المُحلقَّة عاليا فوق البشر، الأعرف، السنن، و التقييمات المقررة و المتعارف عليها للأشياء)). تتطلب هذه الحالة الانفصال و القطيعة مع كلّ شيء، ((ألّا نبقى مرتبطين و متعلقين بشخص واحد، حتى إذا كان نعشقه و كان عزيزاً على قلوبنا – كلّ شخص مهما كان هو في النهاية سجن لنا، كل شخص هو سجن –....ينبغي ألّا نظل مرتبطين بالوطن أو أرض الأباء... ينبغي ألّا نظل سجناء عواطفنا، فضائلنا أو نكون ضحايا تمام و أسرى لبعض السمات الخاصَّة بذواتنا)).

لكن هذه الحالة من الانفصال و القطيعة، التي تنبثق عند نيتشه، مع كلّ شيء – التي تذيب الوجود و تنفصل عن التاريخ، و التي كسكون لا تعني أيّ شي و كحركة تنجز نفسها بواسطة حالة من السلب المتواصل – تُنجَّز و يُعبَّر عنها كصيغة جديدة غير مسبوقة. يتحدث نيتشه عن ((العواطف السِرّية الشغفة التي تسعى دائماً إلى توسيع المسافة و زيادتها ضمن النفس ذاتها، التي تسعى إلى السمة، و الندرة و المسافة التي تتسع أكثر– تسعى إلى الحالات الشاملة)). هذه الحركة

نفسها هي تحول إيجابي لعملية تقويض و دحض لاحَدّ لها: ((إذا لم يكن لديك سلالم، ينبغي لك أنّ تكون قادراً على التسلق بجسدك عاليا حتى فوق رأسك... من الضرورة أن ينظر المرء بعيداً عن نفسه... حتى تصبح نجومك التي تقف عاليا فوقك تحت قدميك! أن ننظر تحت إلى أنفسنا و حتى إلى نجومنا:هذا... كلّما تبقى لديّ بصفته أخر قِمَّة من القمم التي عليّ بلوغها!)).

هذه الحركة الأولية و الوجودية هي ((شيء حر إلهي يشبه إلى حدّ ما فن الرقص و الحماسة)). في الأغنية-الراقصة للريح الشِّمالية، تمتزج الحركات الراقصة مع الريح بصورة لا فكاكّ فيها. و لكن نيتشه يقول لا تدع أحد يعتقد ((إنّه في يوم من الأيام سأقفز على حين غرة و بلا وعي في حالة جريئة و جسورة بطريقة تشبه ربما هذه الأغنية-الراقصة: أنا بعيد جداً من أن تكون هذه الجسارة قد مُنّحت ليّ بالفطرة و بالسليقة ممتزجة ببهجة جريئة مطلقة غير مقيدة)).

هذه الحركة تصبح ملامحها واضحة بواسطة شخصية زرادشت في نصّ نيتشه ((هكذا تكلّم زرادشت)) بل تتطابق معه إلى حدّ بعيد: ((حفيف جناحي يتوق... غالبا للاندفاع بي نحو الأمام و يحلق بي عاليا و بعيداً ... نحو الأزمان المستقبلية البعيدة... حيث كلّ شيء فيها يشبه الرقصة و الآلهة المؤذية – و يصبح العالم حراً غير مقيد و يفر راجعاً إلى نفسه: تفر الكثير من الآلِهة – حتى الآلِهة لا تعيش في سلام دائم أبدي و من حكمة أبدية دائمة بل تتعرض للأخطار و الخوف و الصراع و التعارك كما عُرف من الحكايات الكثيرة التي تُحكى عنها – بعضها عن البعض الآخر و تبحث من ثّم الواحدة منها عن الآخر بالضبط كما يشير هناء و بهجة التناقض-الذاتي و يعبر عن نفسه...)).

أيَّان كان الذي يحدث أو ينتج من هذه الحركة فقط، يبدو أنّها تذيب الإنسان و تجعله يتلاشى. فحتى الآن، لا تكشف هذه الحركة عن أيّ شيء ذات طبيعة ملموسة. في طابعها السالبة هي لامتناهية، و فقط بهذا الصدد تمتلك طبيعية إيجابية. فقط بواسطة مواقف النبل، البطولة، الروح الديونسيوسية يعطي نيتشه حالات و تجليات و تمظهر هذه الحركة التي تعبر بدقة عن جوهر الوجود الإنساني.

المجموعة الثانية: المواقف الأساسية/ المقومات التأسيسية لهذا البناء. تزخر كتابات نيتشه بالكثير من الأوصاف التي تتعلّق بالنشاطات الإنسانية المتنوعة. و في نفس الوقت، يصف نيتشه

الخصوم باستمرار بواسطة مُدَوّنة أخلاقية واسعة الانتشار مقررة و مقبُولة عمومًا و غير قابلة للإلغاء – يكن نيتشه العداء دائماً إلى ((الفضيلة أو التحلي بالفضيلة)) – التي ينبغي للمرء يزجي تحية الإعجاب لمزيفيها و المهرة التي يحلون بها – إلى ((روح الجاذبية))، إلى الزَّيف و الفقر الروحي الذي يعاني منه الإنسان، و يؤكد يكره الواقع من يعاني من الواقع و يكره أخلاق العبيد المقتصرة على التفكير و الاستنتاج و القيام بالحسابات و ربط الأسباب بالنتائج. لكنه كان أيضاً يناصب ((الأخلاق)) العداء ليس بدافع الدفاع عن الحياة فحسب، و لكن أيضاً لغرض و مصلحة الأخلاق السامية الرفيعة الطراز و الوقوف بجانبها و الإعلاء من شأنها. مدفوعاً بباعث اتّخاذ المواقف الأساسيّة للوجود الممكن و مقوماته التأسيسية، طورَ نيتشه تفكيره بشكلٍ رئيس في الاتجاهات الثلاث الآتية:

(أ) يقوم النبل (*Vornehmheit*) و يرتكز على أساس الوجود المستقل ((الصامت)) الذي لا يتزعزع، لأن الوجود النبيل هو ببساطة ((وجود)) الإنسان النبيل: الناس الأرستقراطيون هم ((البشر الحقيقيون دون أيّ ادِّعاء أو زَيف)). بما أنهم يعتمدون و يعولون على ذواتهم في وجودهم فحسب، فإنهم بلا أدنى شك لديهم ثقة عالية بأنفسهم: ((إنّ الفعل و الحكم بشكلٍ غريزي ينبثق من الوجود النبيل؛ في حين يرجع تأكل-الذات الفردية و ذوبانها إلى تأثيرات الوجود الخسيس)).

في علاقته العامة، لا يقدم الرجل النبيل نفسه بطرق ترافقها ضوضاء كثيرة – بل يعلن عنها و يصرح بها و يستعرضها بهدوء قَلّ مثيله دون نوايا مسبقة. إنّه يمتلك ((عاطفة الحنين إلى البعيد و شواطئه المترامية)). إذاً، من النبل أن نعثر على المتعة في الصور السامية التي يفتش عنها، و ((أن نبدي بوادر الريبة و الشكوك لكل أنواع التخلي عن الذات الفردية)) لديه – إنّه الإيماءة البطيئة و الموقف البطيء. ((لقد أُسندت إلى الإنسان النبيل في هذا العالم بالضرورة مهمة المواجهة أولا و قبل كلّ شيء و السير إلى الأمام)).

تقوم عملية وصف النبل الإنساني، عند نيتشه، في جذورها على الوجود-المستقل. إن تكون إنساناً نبيلاً أن تكون حاسماً و ثابتاً و راسخاً في وجودك و مواقفك – و عليه ((يتحمل الإنسان النبيل الفقر، و يريد أيضاً المرض و لا يخشاه...، كما يتجنب مراتب و أوسمة الشرف الصغيرة. و الوضيعة...، فبوسعه أن يبقى صامت لا يبوح بأيّ شيء مهما كان حجم الضغوطات التي يتعرض

لها.[76] كما يتوفر على قدرة تحمل فَجاجَة العادات السيئة المقيتة، إنها: مقدرة الميول النبيلة التي تعمل بالضِدّ من التسويات السهلة)).

يمكن للوجود النبيل أن ينكشف إلى الإرادة المريضة للآخرين – لكنه يظل يحفظ نفسه نقيا لقدوم المستحيل. إذنْ، النبل هو ((غياب الريبة و عدم الثقة)) التي يمكن أن تكون نتائجها خطيرة و تدمر وجود المرء – فهو يحتوي بدقة على صفات ((السمو، التفوق، و السخرية التي يقتضي الأمر من الناس الناجحين أن يعيشوا معها)). من المستحسن القول ((من النبل أنّ يضع المرء نفسه في طريق الخطأ و يسير فيه بدلاً من الإصرار في أن يكون أو يسير في الطريق الصحيح، لاسيَّما حين يكون المرء فعلا في الطريق الصحيح. ينبغي للمرء أنّ يكون غنياً و قوياً بما فيه الكفاية للقيام بذلك)). بفعله هذا، لا يسبب الشخص النبيل الشعور بالعار و الذنب لأيّ أحد من حوله.

فضلاً إلى ذلك، بما أنّ قوة الإنسان النبيل يمكن أن تتحمل الصعاب الجمّة، فمن النبل له ألّا يتفادى طلبات الآخرين، أو يستجيب لهم في نمط قلق تطغي عليه الحسابات الدقيقة. يسلم الإنسان النبيل ب ((مَديونيَّته نحو الآخرين بسعادة منقطعة النظير، و لا يتفادى بقلق المناسبات التي تلزمه بممارسة هذه المديونية و المسؤولية نحو الآخرين)).

من النبل أن نؤكد الأشياء و نحبها. ((لا يستطيع الإنسان النبيل أن يعيش دون أجواء التبجيل)). فهو غير قادر على أنّ يقول لا قبل أن يقول بالتأكيد نعم — و حين لا يتبقى أمامه أيّ شيء يحبه، حينها يشدُ على النواجذ و يتمسك بقوة في المبدأ؛ ((حين لن يعد بوسع المرء أنّ يحب شيء ما، عليه أنّ يدع ذلك الحب يحصل دون أن يلاحظه أحد)).

وجود النفس النبيلة أمر موثوق فيه؛ لأنّها ليست من ذلك ((النوع القادرة على التحليق عالياً، بل إنها ترتفع قليلا و تنحدر قليلا، تعيش دائماً بحرية و في هواء نقي و مضيء و سامي)). يمكن للمرء أن يقول عنها الآتي: ((إنها ليست القوة و المقدرة، و لكن استمرارية المشاعر السامية التي تشكل جوهر الإنسان النبيل)). لا يحتاج الإنسان النبيل أن يخشى نفسه أو يتوقع أيّ شيء يلحق الضرر أو العار فيه – إنّه بمنأى عن كلّ ذلك.

تمتلك النفس النبيلة ((اليقين الأساسي فيما يتعلق بالإنسان النبيل – بمعنى، لا يمكن لهذا اليقين أن نبحث عنه أو نعثر عليه، و ربما يكون حتى مفقود. النفس النبيلة تحترم الإنسان النبيل)). و

من جهة أخرى، من النبل أن يشعر المرء بالعار بسبب الأشياء التي يمتلكها، لأنه وحده من يمتلكها و لايشارك الآخرون فيها – هناك آخرون يشعرون بما عندهم. أما نيتشه فليس عنده سوى الشعور بما ينقصه. نقص القُوَى، نقص العقل، نقص الحُبّ، العجز دائماً. و سيبقى دائماً في هذا الجانب.

يمتلك الإنسان النبيل الكمال و الجوهر داخل نفسه، و نتيجة لذلك ((المقدرة على الكسل و التحجر العقلي و التراخي الذي يخلق أناس دون شهية و دون فهم أيضاً ليس مثلنا نحن الآخرين))، و ((القناعة، أنّه بينما يكون اتباع حرفة يدوية ربما ليس أمراً ناقصاً و لكنه يقيناً مهين و مذل)). فهو لا ينظر على ((الصناعة بالمعنى البرجوازي))، كفضيلة سامية، بغض النظر عن مدى احترامه لها و تأكيده عليها.

إنّ النبل ــــ الذي يؤكد نيتشه أنّه يتضمن (و لكن لا يتكون منها) دائماً شروط سوسيولوجية و سيكولوجية واقعية، و يظهر بوصفه شيئاً يصف بدقة الواقع – لا يمكن أن يخدعنا بخصوص الاتجاه الأصيل الذي تبناه نيتشه في التعاطي مع الوجود: أعني، تعبير عن الموقف الذي لا جدال فيه المؤكد الذي يعكس حالة التأكيد-الذاتي للإنسان.

(ب) الوجود البطولي. بما أنّ نيتشه، الذي كان شديد التأثر كأنّهُ يأخذ إجازة من ماضيه دفعة واحدة، يعدّ الوجود الإنساني، بحد ذاته، ليس كصيغة نهائية، و لكنه مجرد محطة ينبغي تقويضه و التغلب عليه و تجاوزها، فإنّ الإنسان الحالي، الذي وحده من يهيّئ و يعبد الطريق لهذا التحول، ينبغي أن يتلاشى بوصفه محطة. يمكن للإنسان أنّ يعرف هذه الضرورة و يستوعبها و يهضمها جيداً ضمن لإرادته. هذا هو السبب وراء حديث نيتشه عن مايسمى ب ((العظمة البطولية)) بوصفها ((الحالة الوحيدة لأولئك الذين يهيئون و يعدون الطريق لها)). ففي داخلهم هناك رغبة عارمة ((لسعي وراء الهلاك تمكنهم من أن يسامحوا أنفسهم)). ((البطولة هي الإرادة الطيبة للدمار-الذاتي)).

بيد أنّ أساس البطولة – البطولة الحقيقية لا تقتضي النضال تحت راية التضحية و التنسك و الترفع بل عدم النضال بتاتاً، أنا هكذا و أريد أن أكون هكذا-لتذهبوا إلى الجحيم! – هو ليس ببساطة الرغبة في التلاشي – و لكن بالأحرى هدف واحد كلّ الأشياء تتبعه و تسعى نحوه و تقف على أساسِهِ: ((البطولة – موقف الإنسان الذي يسعى إلى تحقيق هدفه و الذي دونه لا يساوي شيئاً)).

((اختيار سبب واحد و العثور فيه على باعث فريد للفعل – معيار للنشاطات الأخرى – يصف البطل))، لكن نيتشه يضيف أيضاً صفة المتطرف.... ((ليس البطولة هي إصرار على التضحية التي لا ترغب في شيء، و يتكون سببها من مجرد كلمات رنانة، و لكنها الشجاعة – ما أشقى هؤلاء الذين ينقصهم الشجاعة فيبقون في منتصف الطريق. لن تجد الخلاص إلاّ في النهاية – المضحية التي تريد الوجود و يكون سببها جوهري)). ((البطولة هي سّؤال التضحية، التضحية اليومية و على مدار الساعة، و حتى أكثر من ذلك: ينبغي للنفس كلها أن تمتلِئ بسبب واحد، و مقارنة به لا تكون الحياة و السعادة نتيجة)) (من رسالة إلى ري، مسوّدة، رسائل إلى أخته، ص 505).

ليس البطل فقط يعدّ نفسه لا يساوي شيئاً مقارنة بسببه الذي يدعوه للبطولة – بل أن هذا أيضاً السبب يقوده إلى فنائه في مسار الوجود: ((ذاتي صنعت مثال تطالب به، و هو بالأحرى فضيلتي – أعني، نزعتي إلى التقويض و الدحض هو نتاج فضيلتي؛ إنّها البطولة)). ((إنّ تكون بطلا هذا يجعل من أحزانك المفجعة و أمانيك العظيمة السامية تكون و تنبثق في مكان واحد و في زمان واحد)).

هذه السمات المحددة للبطولة ليست كافية: إنّها يمكن تؤدي بسهولة إلى الغموض و عظمته لكنها تبقى حقيقية فقط مادام إنها تعود بدقة إلى الوجود - الذاتي المستقل: ((أن تكون بطلاً هو أنّ تقوم بأشياء عظيمة حقاً (الأحجام، في صيغة فخمة، عن فعل أيّ شيء) دون شعور الاشتراك في صراع مع الآخرين أو قبلهم. يحمل البطل دائماً عزلته معه في ترحاله أيّنما يحل، بالإضافة إلى حدود منطقته المقدسة التي لا يمكن قَبُولها من قبل الآخرين)). ((معظم المثاليين ينشرون مثالهم كما لو أنهم ليس لديهم الحق فيه حتى يقبله كلّ واحد))؛ في حين يمضي البطل في طريقه بصورة مختلفة عن هؤلاء المثاليين: ((لا تقوم البطولة الحقيقية على القتال تحت رآية و شعار التضحية، التفاني، و الإيثار – في الواقع ليس في القتال بالمرة... هذا يفسر لماذا أنا نفسي: الطريقة الفريدة و الاستثنائيّة التي أريد أن أكون بها – و ليذهب الآخرون، الذين عندهم كل شيء ما عدا الروح، و إرادتهم الكريهة إلى الجحيم!))

البطل هو الشخص الذي لا يمكن أن يصبح مثير للشفقة (((أن تصبح شخصاً مثيراً للشفقة هو أن تذهب خطوة إلى الوراء))). إنّ أهم ما يميزه هو ((شعوره بالعار من العاطفة المثيرة للشفقة و الرثاء)).

تتميز البطولة وتُوصف بالمخاطر المحفوفة التي تحيط بالبطل، و إن الباعث للوجود البطولي هو إرادة الحياة وَسْط المخاطر، لأن الحال يقتضي من الإنسان أنّ يعيش هكذا. ((إنّ سر حصاد الوفرة العظيمة من الوجود يكمن في الآتي: عش في خطر!)) يحب زرادشت ((السير على الحبل المشدود المعلق بين بنايتين عاليتين، لأنه جعلَ ببساطة من الخطر مهنته)). يشكل الخطر المستمر، الذي تقبل البطولة عليه بنفسها، الحرية الحقيقية: ((ما هي الحرية؟ إنّها إرادة المسؤولية الشخصية التي تجعل الإنسان ند بين الأنداد منتظما و بالتالي مقدر للعواقب. الدفاع عن المسافة التي تفصلنا عن الآخرين. إنّ الصيرورة نزيه و غير مبالية في البؤس، المعاناة، الحرمان – التي ما انفكّت أخلاق العبيد تردد من العار على المرء أن يكون سعيداً في وجود هذا البؤس كله ! – بل حتى نحو الحياة نفسها.... ينبغي للمرء أن يسعى و يفتش عن طراز عالي و سامي للرجل الحر يجعله يحتفظ بحس المقاومة العالية التي تمثل باستمرار روح التقويض و الدحض و التجاوز....: إنّ الخطر الذي يواجهه الإنسان الحر يجعله يستحق الاحترام)). ضرورة الخطر هذا صحيح أيضاً حتى لذلك الذي يظهر بعيد من المخاطرة و المجازفة – أعني، بالنسبة للعلم: ((سمعتهم [العلماء] يصفرون بلحن جميل عن السعادة الصافية للمعرفة – بيد أني لم أعثر عليها، و في الواقع أني حتى احتقرها. أنا كإنسان لا استحق في الواقع أي نوع من المعرفة دون أن تكون ممزوجة بالخطر)). على ضِدّ من النزاهة و الموضوعية لأي نوع من أنواع المعرفة، يجرب نيتشه الخطر و التهديد الذي يتربص في السعي نحو المعرفة. فقط حين تولد الرغبة الأساسية في المعرفة و مقوماتها التأسيسيّة، ليس بواسطة المعرفة كمهنة بل ككشف تلقائي للوجود، تصبح حينها صيغة أمرية للشجاعة: الجرأة في المعرفة (sapere aude) ! الخطر الكبير للحياة، التي لا يعيها الناس الطائشين، تبدأ عند نيتشه فقط مع المعرفة الحقيقية: ((أنت جاهل تماما لما تقوم بتجربته، تمر في دروب الحياة و أنت في حالة سكر، ثم بعض ذلك تسقط من السلالم العالية. و لكن الفضل إلى حالة الثمالة لم تنكسر رجلك حين سقطت....بالنسبة لنا، الحياة خطرة جداً: نحن مَصْنُوعون من زجاج – وآسفاه و قد أصابنا حجر بمقتل! كل هذا سيتهشم و يتكسر و نخسره إذا سقطنا!)) بالنسبة لنيتشه، العلم له فضيلة فقط حين يكون عامل في نمو و زيادة خطر الحياة: ((أريد أن أُحدث وضع يتطلب من المرء المِزَاج البطولي لتكريس جهوده المرء للعلم)). ((كم من خطر الحقيقة تستطيع الروح أن تتحمل، كم من المجازفة يستطيع المرء القيام بها و تحملها؟ غدت هذه النقطة أكثر فأكثر بالنسبة ليّ

المعيار الحقيقي.... الخطأ هو الجُبْن الذي يتجمل باسم رنان فيمسي صبراً و فضيلة و يتحول أحياناً إلى صفح عن الإساءة... حتى الآن المرء لا يجرؤ دائماً على قول الحقيقة)).

تطورت ثقة نيتشه – الذي حينما يتطلع و يتأمل في المرآة نفسه كنرسيس لا يجد سوى رأس خائب – في الموقف البطولي بواسطة عزلته و انفصاله عن كلّما يحيط به. كان شعور الوحدة، الذي يعانيه، في غاية الصعوبة و لا يحتمل بما أنّ مهمته الرئيسة تقوم أصلاً على خلق التواصل مع من حوله: فهم الفاجعة و تحويلها إلى قدر يشكل الحركة-المضادة للعدمية. حين يكون ((البطل، الذي أُسنِدت إليه مهمة))، ينتظر أحد ما ((يلتقيه يعاني الكثير ولدية شغف أكثر منه))، شخص ما يريد أن يجعل حاله أكثر سمو، سوف يتعلم أخيراً أن ((لا ينتظر أكثر من ذلك... و لكن أن يكون لطيفاً و دمثاً و متواضعاً و متسامحاً مع كل واحد و كل شيء من الآنَ فصاعدا —— باختصار، أن يتحمل فقط أكثر بقليل مما كان يتحمله من قبل....)).

لكن البطولة، بحد ذاتها، ليست بالضرورة سامية و رفيعة عند نيتشه: ((فيما يتعلق في شخصية (البطل)، أنا لا أفكر فيها في الطريقة الحسنة – لا تكون الحسنات لطيفة إلاّ بقدر ما يمكن وفائها – التي تفكر فيها أنت. على كل حال: البطل هو أكثر الصيغ المقبُولة للوجود الإنساني، و لاسيَّما إذا كان المرء لا يمتلك خياراً آخر)).

(ت) يرى نيتشه في النفس الديونيسوسية – أكثر الصيغ اكتمالا في التخلي عن الذات الفردية؛ و مع أنها كانت تريد أن تعطي فإنّها هي التي تأخذ دون انقطاع – الشخص القادر على استيعاب و هضم كل شيء – الشخص الذي، عن طريق تحويل و تغير نفسه بدل من أن يخضع الآخر، يغدو كلّ شيء واقعيا، الشخص الذي يجذب كل شيء أساسيّ من حوله و يمنح نفسه له يسلمه دون أن يفقدها. ينجح نيتشه في وصف النفس، بشكل رئيس، في طريقين: [1] ((عبقرية و نبوغ القلب)) [77]، [2] و عند زرادشت، حيث نقرأ: ((النفس الذي تمتلك أطول سلم بوسعها أن تغوص و تنزل دون أيّ تردد في الأعماق السحيقة... هي النفس الأكثر اتّساعا الذي بوسعها أن تتجول و تجوب الأماكن البعيدة بداخلها بل حتى تضيع فيها – النفس الأكثر ضرورة، هي تلك الذي ترمي بنفسها من سطوح المتعة الشفافة الكاملة إلى أرض الحدث العرضي، النفس العظيمة هي الوجود الذي ينغمر في الصيرورة – النفس العظيمة هي النفس الذي تسعى نحو الإرادة و الرغبة؛ إنّها النفس الذي تهرب من نفسها و تتخطى و تتجاوز ذاتها في دائرة عريضة؛ النفس الواسعة هي

النفس الذي تلاحقها الحماقة بطريقة حلوة و خبيثة – محبة-الذات الفردية عند النفس، هي الدائرة التي تستمد منها كلّ الأشياء مجيئها و ذهابها و مدها و جزرها...)). إنّ جوهر هذه النفس هو ((سهولة التحول، و العجز عن أن لاتكون رد فعل)). ((يمتلك الرجل الديونيسيوسي فهماً راقياً و رفيعاً و غرائز محركة للنفس كما يمتلك وسائل رفيعة في التواصل مع من حوله)).

يشير نيتشه إلى أنّ النفس الديونيسيوسية (و على وجه الخصوص تلك الذي تتجلى في عبقرية و نبوغ القلب) مكرسة تماما إلى الحب المستبصر اللامحدود للإعماق السحيقة للنفس الإنسانية و أغوارها و التقاط أخفى خَلجاتها – أعني، الإمكانية الوجودية الإنسانية التي تستمر في الانبثاق و التواصل حتى حين تم عرقلة طرق الحب و انسدادها. هذا التأكيد للإنسان، و في هذه الصورة السامية، يرفض ببساطة قَبُول وجود الإنسان في أيّ صيغة سطحية و ضحل، لكنه في نفس الوقت يكتشف في مصادرها الخفية ما يستحق التأكيد و الإعلاء من شأنه و يغذي في نموه.

بالنسبة إلى نيتشه، إنّ المواقف الأخلاقية – النبل، البطولة، النفس الديونيسيوسية – هي تعبيرات عن الوجود الذي يستمر في التواصل بواسطتها و يقوم بتهيئة نفسه و الكشف عنها بواسطة هذه المواقف الثلاث المذكورة آنفا.

المجموعة الثالثة: أنماط وعي الوجود: هذه الحالات الثلاث يمكن تتبدى و تصبح من ثّم متجلية و واضحة فقط بواسطة اللغة غير المباشرة، و بواسطة الصورة و التشبيه و المجاز. إنّ الطرق العدّة و المتنوعة التي يحاول بواسطتها نيتشه أن يوضح هذه الحالات تجعل المرء يراوده الشك في أن نيتشه كان دائماً في ذهنه الشيء نفسه الذي يروم البرهنة عليه حينما يتعاطى مع هذه الحالات. يبدو أن تَجْرِبة نيتشه، و بواسطة تطوره الفكرية، عانت الكثير من التحولات. بناءً على ذلك، هناك ثلاث مراحل مهمة يمكن أن نميزها في تفكير نيتشه: (1) الرؤية التأملية؛ (2) الواحد الصوفي مع الوجود؛ (3) التسمم الديونيسيوسي:

(1) في الرؤية التاملية، يجرب الإنسان الصادق نفسه و ما هو وجوده ك ((إنارة عظيمة للوجود))؛ يجرب في الواقع: ((شي لا يمكن التعبير عنه، شيء، تكون كلاً من السعادة و الحقيقة فقط نسخاً مشابهة للأصنام قياسا فيه —— حين يأتي إلينا، تفقد الأرض ميزانها، و تصبح الحوادث و القُوَى على الأرض أشبه بالأحلام و الخيالات...)) حين وصل نتيشة إلى ((جبال الألب بهوائها النقي

و ثلوجها الناصعة البياض كبياض الحليب و البراءة، لم يعد للغموض و الحجب مكان في تفكيره، لأن البنية الأساسيّة للأشياء ببساطة تعبر هناك عن نفسها و حقيقتها بقسوة و دون قناع!)) هنا رؤية و وجهة نظر المرء تمتد ((فوق الكتابات الهيروغليفية للوجود، فوق مذهب الصيرورة القديم)). الإنسان يتحول: ((و ينمو التفكير في النفس وحيدا و بلا حدود– حاله... هو التحريض الجديد الغامض دون إثارة))... ينتشر عبر الوجود ((كلون أحمر متوهج مُتلألئ يغمر العالم. إنّهُ يبدو كما لو أن المرء يحاول أن يقاوم هذه التَجْرِبة الهائلة و التي بواسطتها وحدها يصبح إنسانا حقيقيا. من الواضح، أن كلّ جهودنا تريد أن تساعدنا فقط في الهروب من القيام بمهمتنا الحقيقية. ((كلّ لحظة من لحظات الحياة تحمل لنا رسالة مهمة محددة، لكننا نأبى أن نصغي إليها أو نستمع لها – نحن لا نريد أن نصغي إلى هذا الصوت الروحي...، بناءً على ذلك، نحن نكره السكون و الخدر و التنميل في كل أعضائنا)). العجلة هي أمر عام، لأن كل واحد يهرب و يتجنب نفسه و يحاول أن يتخلص من أفكار ذاكرته و تعميق وعيه عن الطريق الخادع للإيماءات المتحمسة و الضجيج العالي، لأنه يخشاها كثيرا. إذنْ، حين تأتي إلينا لحظة الوعي، نكون من الضعف بحيث لا نقْوَى على تحملها لفترة طويلة.مع ذلك، بما أنّنا ليس لدينا القوة الكافية حتى لإيقاظ هذه اللحظات العابرة، فإننّا نبحث عن أولئك الذين يمكن أن يرتقوا بنا إلى مرتبة الوجود الإنساني الحقيقي. أولئك هم ((الرجال الحقيقين، الذين غادروا عالم الحيوانات منذ زمن بعيد – إنّهم الفلاسفة، الفنانون، و القديسون)).

تحتوي الحالة الفلسفيّة، التي تم تحديد و رسم معالمها من قبل نيتشه، على جرثومة و نواة وعيه المتأخر للوجود. و لكن، مع أنّ وعي الوجود عند نيتشه تم توصيله و الإبلاغ عنه بواسطة مصدر التَجْرِبة الشخصية، فإنّ نيتشه، في هذه اللحظة، مازال المفكر الغارق في تفكير الفلاسفة العظام؛ إذنْ، يتحدث نيتشه عن وعي الوجود بطريقة وصفية، لفظية، تبدو ملفتة للنظر و عميقة بواسطة أقوال شخصية، مع أنّ هذه الأقوال تبدو أنها تتملص منه كما يتملص الوهم أو الحلم الرومانتيكي من أولئك الذين يلاحقوه. فمن حيث الحالات الموصوفة، بطريقة تأملية، و كمعرفة للوجود، هي ليست نفسها الذي يعدّها نيتشه لاحقاً الكشف النهائي للوجود: ((أيّ إمرئٍ يتوقف عند الموضوعية و التأمل ويعدّهما أعلى الحالات السامية – لا يعرف في الحقيقة بما فيه الكفاية)).

(2) إنّ التحول الذي جربه نيتشه في زمن كتابته لشخصية زرادشت في نصّه ((هكذا تكلّم زرادشت)) يمثل، في الواقع، حالات جديدة من الوحدة الصوفية مع الوجود – بوصفها طريقة تتنكر

للعالم و تتخذ مظهر العداء للحياة و معنى الكفر بها و الصرامة اتجاهها – يُعبر عنها في أغنية. الأقسام و الفقرات الوثيقة الصلة بهذا التحول عند الإنسان تظهر بوضوح في هذا النصّ أعلاه، و لاسيَّما تحت عنوان ((الظهيرة)): ((الثبات! الثبات! ألا تعرف أنّ العالم فقط الآن بدأ ينمو و يصبح كاملاً؟.... ما الذي حدث إليّ :أصغي! هل بدأ الوقت يطير بالصدفة؟ أنا لا اسقط؟ أصغي! أنا لا اسقط في بئر الأبديّة)) – زد على ذلك: ((العودة إلى الوطن))، ((الأختام السبعة))، ((الأغنية السكرانة الثملة)).

العالم الكامل يقف بثبات كاشفا عن نفسه. كلمة النعم للوجود، التي اسُتوعّبت و هضّمت كلّ ذلك و تمثلته، تمت تجربتها أخيراً. إنّها حب الوجود في لا تناهيه:

انتبه أيها الإنسان!

عما يحدث في منتصف الليل العميق؟

((لقد نمت، لقد نمت قرير العين،

من حلم عميق أفقت:

عميق هو العالم،

و أعمق مما كان يظّن النهار.

عميق ألمه،

و الغبطة أعمق من آلام القلب:

مر و اندثْر! يقول الآلم.

لكن كلّ غبطة تريد الخلود،

– خلوداً عميقاً، عميقاً تريد!))

(3) تمثل الحالة ((الديونيسيوسية))، بالنسبة لنيتشه، المرحلة الثالثة للتَجْرِبة الوجودية. تمتلك هذه الحالة بسبب غناها في الواقع معاني متعددة خصبة[78]. إنّ ما يدور في خلد نيتشه عنها هو ((حالة سامية و رفيعة و شاملة من التأكيد للوجود بحيث حتى آلام العظيمة فيه تتخذ مكانها دون مغبة و دون الاضطرار إلى الخَشْيَة، إذا بقيت متعاظمة و استمرت على تعاظمها، من رؤية انهيار أيّ شيء، لا يمكن يتم استبعده من دائرتها: الحالة الديونيسيوسية التراجيدية)). كما تتضمن أيضاً، ((تأكيد الحياة ذاتها الذي يتضمن غرابتها و مشكلاتها الصعبة، إرادة الحياة التي تبتهج في حالتها التي لاتستنفذ حتى حين تقوم بالتضحية بأنماطها السامية العالية... كي تصبح بهجة و متعة أبدية من الصيرورة ذاته – المتعة التي تشمل حتى متعة التقويض و الدحض)). بواسطة هذه الحالة يصبح الإنسان ((محول و مغير للوجود حينما يتعلم كيف يقوم بتغير نفسه و تحويل اتجاهاتها)). العديد من الأمثلة المضروبة بهذا الصدد توضح طراز التأويل الذي يوظفه نيتشه ليرسم بدقة معالم الحالة الديونيسيوسية:

في الحالة الديونيسيوسية، و يجب ألّا نتصور الأمور كان بوسعها أن تتم خلافا لذلك، يبلغ الرجال الرفيعون الساميون القمة أو الذروة في حياتهم: ((تبقى الروح في بيتها... مع هؤلاء المثاليين و الحسني التكوين، حتى الأفعال الأكثر حسية تتحول أخيراً تحت تأثير التسمم الروحي السامي في شكلها – فهم يجربون نوع من التأليه لأجسادهم و يبتعدون عن الفلسفة الصوفية)). يعتقد نيتشه أن هذا التسمم بالنسبة إلى الإغريق تحديداً هو تعبير عن حالة الكمال: ((من حالة المتعة السامية التي يشعر بها المرء بنفسه، و يشعر تماما بنفسه مؤلها و مبجلا، و طبيعة مبررة بذاتها، إلى متعة الفلاحين و المزارعين الممتلئة بالصحة، صحو الحيوانات التي نصفها بشري – هذا الضوء و اللون الطويل الهائل للسعادة هو الذي يطلق عليه الإغريق اسم ... دراما ديونيسيوس التي تدور حول مصير النفس و التي لا يسعنا الآن التكهن بطبيعة نهايتها...)) يذكر نيتشه الحالات الآتية التي تقوم ((بتغير الأشياء في العالم و تزيد من غناها... حتى تعكس و تظهر امتلائنا و متعتنا في الحياة)): ((إلحاح في ممارسة الجنس، التسمم الجذل و السعيد، أوقات-الأكل، الربيع، الانتصار على الأعداء الذين يمسكون بتلابيبك و يوفرون دائماً إغراءات جديدة في الوجود، السخرية، الفعل الجريء، الوحشية-الفدية التي يفتدي بها القرف، حالة الوجد و الطرب في الشعور الديني. تعد هذه الحالات، و لاسيّما العوامل الثلاث الآتية – ممارسة الجنس، التسمم، و الوحشية – من أقدم الممارسات الاحتفالية للمتعة عند الإنسان)).

بواسطة الغوص و التوغل في الحالة الديونيسيوسية، يحاول نيتشه أن يجمع بين أكثر العناصر روحية و أكثرها حسية. ففي لحظة، يبدو أنه يصل و يحلق في أكثر و أعلى الارتفاعات سمواً؛ و في اللحظة اللاحقة، تنحدر الأشياء كلها لديه إلى الحضيض و تسقط في حالة التسمم الأولي. حتى التأكيدات الصُّلْبة التي لا هوادة فيها تكشف لديه عن محاولة ميؤوس منها للسمو و الوصول إلى الترسندالي. يبدو أن نيتشه باستمرار يفقد أو يضيع ما وصل إليه من نِقَاط عميقة و حقيقية في فهم الوجود بذل الكثير من الجهد الصعب لاكتشافها. كما أنّه يحرر أحيانا تفكيره المسجون بقيود كل التميزات و الاختلافات و سرعان ما تتلاشى عنده، كما هو الحال عند المتصوفة الذين يتجاوزون كل المعوقات التي تواجههم للوصول إلى الواحد – و لكن بالتأكيد في طراز و بيئة من التفكير مختلف تماما.

مادام أنّ الحسي هو فقط حادثة طبيعية، فإنّه سوف لم يغيّر، عند نيتشه، من شكله و مظهره. فقط في حالة التسمم الجذل حصراً، يتحول الحسي عند نيتشه إلى شيفرة للوجود. مع ذلك، هذه الصياغات النيتشوية، التي تبدو أنها خضعت و سلمت إلى الحسية، لها حدودها، لأن المصدر الذي اشتقت منه هذه الصياغات الحسية، يكمن في البواعث الروحية العالية. كما لو أن بهجة الحياة بحد ذاتها حتى حين تنفصل تماما عن الروحية ضمن التأويل التاريخي المتعالي، يبقى لديها سمة الرمز السامي و العالي.

بواسطة ((الحالات)) الآتية في كليتها – الحركة التي لا تكتمل لتقويض، الوجود النبيل، الوجود البطولي، الروح الديونيسيوسية، و أخيراً الكمال الصوفي لوعي الوجود – تكتمل الدائرة. بالنسبة لنيتشه، هذا يشمل الوعي المطلق الأولي و الشامل للوجود؛ من هذا الوعي يخرج كل التفكير الحقيقي و الأصيل، التواصل، الفعل، السُّلوك، بالإضافة إلى نوع وجود العالم و تأكيد الوجود. مع ذلك، هذا الوعي المطلق لا يمكن، كأيّ شي يوجد في العالم، أنّ يكون مشروطا بأيّ شيء موجود هناك في العالم لغرضه و كجزء صغير من الكلّ. هنا في مواجهة مصدر الوجود، كل الأسئلة تتوقف. التأمل و إطالة النظر بعمق في هذه الحالات النيتشويّة يكشف إنّها تمتلك عموما هذه السمات الآتية:

كلّ حالة من هذه الحالات تصدر استغاثة لا يمكن لأي أحد أن يتهرب منها أو لا مناص من الإصغاء إليها: كل إمكانية، سواء كانت صراع غير محدود للوصول إلى القمم السامية، النبل،

البطولة، قابلية النفس المفتوحة على التنوع و الاختلاف؛ أو كانت تحول و تغير في أشكال الوجود، هي استجابة إلى ما يصدر عن أنفسنا من تساؤلات غامضة مثقلة بعلامات الاستفهام و الالتباس.

و لكن فقط صيغة العرض النيتشوي هي الأَقْوَى – أعني، نقاء البواعث و الدوافع الأولية، التي تنطلق منها الاستغاثة و المطالبة و تزداد مع ندرة المضمون في تقديمها.

تمتلك الدائرة طبيعة خصوصية محددة عند نيتشه – الذي يعرف أنّ الأفكار كالصور يمكن أن تُعرض على الدَّماغ بشكل أكثر أو أقل وضوحاً – و هي من أهم ما يميز تفكيره. إنّ التطور الضمني لهذا الوعي المطلق، في هذه الدائرة، خالي من الحب، و أن ((الروح الديونيسيوسية)) فيه يمكن أن يتم تأويلها كحب و تأخذ مكانه. كُلَّما تحدث نيتشه عن الحُبّ – سواء كان في صيغة التفكير الاستهلاكي للحقيقة[79]، حب القدر (amor fati)[80]، أو في التاكيد اللاتاريخي للوجود، أو في كلّ الجمل، على سبيل المثال ((الحُبّ العظيم يرغب بأكثر من الحُبّ – أن خاصَّة الحُبّ هي هذه التي لا تستطع البقاء على حال واحد، أن تضطر إلى حال واحد. أن تضطر إلى الزيادة تحت طائلة النقصان و هذا ما يميزها عن الصداقة)) – كُلَّما أخفق في إنارته و توضيحه كبعد غني للتَجْرِبة الشخصية. ثم أن تفكير نيتشه يفتقر أيضاً إلى كلاً من عنصري السخرية و الفكاهة – فسخريته و تهكمه نادراً يخفيان حساسية مفرطة و يمكن أن يخفيا آلماً عظيماً. في الواقع، الفكاهة عنصر غائب تماما عن طبيعة نيتشه تماما – كما إنّهُ يستخدم السخرية كسلاح حاد، و لكنها ليس له دور في إنارة المصدر، حيث يكون لديه وظيفة فقط الحماية و الحث. زد على ذلك، ليس هناك مكان للقلق و الضمير بشكل لامفر منه مادام أنّ نيتشه ينكر قيمتهما و حقيقتهما. بواسطة الإنارة و التوضيح الكبير، يركز نيتشه على الوعي المطلق للوجود المكتفي-بذاته و المستقل بطوليا – و بهذا يؤكد خلود الحقيقة فيما يتعلق بالشرط الإنساني. لكن هذا، بدوره، يتحول عنده إلى وجود ذاتي متناقض دون الله، يتحول إلى عمق العالم الذي دون إله، حيث استقلاليته، بالضِدّ من معناه، تسلم نفسها و تخضع إلى السببيات الخصوصية بواسطة الطرق الحرفية لصيغ الانحراف.

تأكيد مفهوم الوجود

بالمعنى الدقيق للكلمة، لا يمكن أن نعرض و نقدم هذه ((الحالات)) التي تم ذكرها آنفا، لأن أيّ حالة عرض سوف تستخدم وسائل من شأنها بشكل محتم أن تتناول شيئاً محدداً و معيناً في العالم بدلاً من تضيء لنا الطبيعة الشاملة لهذه الحالات (das Umgreifende der Zustände). أمر أساسي أنّ يتم نقل هذه الحالات بشكل غير مباشر، بواسطة سلاح التفكير و التشبيه و المقارنة، بدل من أن يتم تعبير عنها و إيصالها أو الإبلاغ عنها بشكلٍ مباشرٍ. التفكير والتشبيه و المقارنة تستلزم صفة جديدة تتطلب الإنارة الفلسفيّة التي، بدل من أن تكون موجه إلى الموضوعات الفردية في العالم، يتم استخدامها للإشارة إلى أساسّ الوجود.

يمثل التفكير المجرد، كما تم ممارسته من قبل نيتشه على نطاق معين، النوع الأول من الاتصال و التعبير عن الأشياء الأساسيّة و مقوماتها من أجل الوصول إلى توضيح كافي لتلك الحالات. هذا التفكير، الذي كان موجها نحو الوجود بذاته و يبدو أن ليس لدية أيّ موطئ قدم في العالم، هو نوع من التفلسف كان يدور في ذهن نيتشه، و لاسيَّما حين صرحَ بالآتي: ((الكثير من الناس، ينظر إلى التفكير المجرد كعمل في غاية الصعوبة و تعب و كدح لا طائل من ورائه، و لكنه بالنسبة لي، في أيام القحط و الجوع، وليمة لا تعوض و حالة سكر حتى الثمالة)). تتضمن التجريدات، التي يقوم بها التفكير التجريدي و التعميمي الخالص عن طيب خاطر، تخريجات ليست فارغة من المعنى، لأنّها متغلغلة و نافذة في الآخر – الوجود ذاته: ((إنّ المرء الذي عبرَ ذات مرة، بإفكاره، الجسر الذي يفضي بحافته الأخرى إلى الصوفية – المحاولة التي يبذلها المرء ليكون مفرطا في الطيبة – لا يستطيع في النهاية الهرب أو تجنب الأثر و العلامة الممِيزة أو وصمة العار الذي سوف تلحق أفكاره)). بالنسبة لمفهوم نيتشه عن الوجود، الأقوال الآتية فيما يتعلق بالصوفية لها صَلاحِيَة واحدة و على قدم المساواة: ((حين تجتمع و تتحد الشكية مع الشوق و الحنين برغباتهما الشديدة معاً ستولد من رحمهما الصوفية لا محالة)). إذنْ، يعبر نيتشه عن مَساره الفلسفي في الصيغة المقتضبة الآتية: ((المعنى الجديد للقوة هو: الحالة الصوفية و العقلانية الواضحة المتحمسة كطريق إليها)).

هذا النوع من التفكير يُجبَّر على الكشف عن طبيعة المفكر الخاصَّة، و لاسيَّما معرفته للوجود: ((ينظر المرء إلى صور العالم الذي تحيط فيه بطريقة فلسفيّة، هذا الأمر يجعلنا نشعر بالحرية – أعني، أن أكثر دوافعنا قوة يشعر بالحرية في نشاطه. هذا ربما صحيح أيضاً في

حالتي!)). بالنسبة إلى نيتشه، تعدّ أفكاره الفلسفيّة تعبيرات عن جوهر حالات وجوده النبيل و الفريد، و بواسطتها يكتسب فهم لهذه الحالات – بالنسبة للآخرين تصبح هذه الأفكار في خطوطها العامة قُوَى فعالة و أساسية عند نيتشه، و من باب أولى تشكل بوصلة تفكيره. كان نيتشه، الذي يحمل رسومه على جلد أفكاره، يعدّ الوجود ببساطة ((صيرورة))، و ((عود أبديّ)) و يستجيب إليه مع موقف حب القدر (*amor fati*) الإيجابيّ.

الصيرورة — تتطابق فكرة الصيرورة و تتماهى مع تفكير نيتشه التجريدي – و هي فكرة تستعصي على البرهنة و الإثبات، و لكنها له، تبقى واضحة-بذاتها، و تمثل مفهوماً أساسياً للوجود. بالنسبة إلى نيتشه، يُنظر إلى الوجود الثابت بوصفه فكرة غير موجودة و غير واردة و لا يمكن تصورها أو تصديقها تماما. ((ينبغي ألّا نقبل بالمرة بفكرة الوجود الاستاتيكيّ أو الثابت و نسقطها من تفكيرنا)). بعبارة أخرى، هذه الفكرة هي وهم تحاول أن تخدعنا بواسطة اقتراح و تقديم شيء ثابت دائم و متفوق يقلل من قيمة و أهمية الصيرورة الأبديّة التي وحدها تشكل الوجود الحقيقي. الصيرورة، طبقاً إلى نيتشه، ليس لها هدف ينتهي نشاطه و عمله حينما تبلغه: إنّها ليس ببساطة ظهور فحسب – و حين تُؤخذ بمجملها و يتم التفكير فيها بكليتها فإنّها تقف فوق كل التقييمات الأخلاقية و لا تمتّ إليها بصلة لا من بعيد و لا من قريب. إنّها الحقيقة الوحيدة في هذا الكون: العالم يجري بلا قلب و لا عقل تحكمه المصادفة و الصيرورة التي لا ترحم.

من البداية حتى النهاية، كان هرقليطس، فيلسوف الصيرورة، المفكر الأول المفضل عن نيتشه. طول حياته، لم يكتب نيتشه إطلاقاً أيّ كلمة، أو ينبس ببنت شفه، تسيء أو تزدري أو تنتقص أو تحط من قدر هذا الفيلسوف العظيم. حتى في نطاق تعليلاته و تصوراته الأولى عن فلسفة هرقليطس، قدمَ نيتشه مفهومه عن الصيرورة، و صراع الأضِدّاد بوضوح – حيث تؤكد حجته بهذا الشأن على الحركة المستمرة و تضيء أيضاً أفكاره المهمة عن الضرورة، العدالة، و بَراءة الصيرورة.

فلسفياً، ينبغي لوجهة نظر نيتشه عن الصيرورة أن تُفهم كدرب للتفكير و مسار له، يتم فيه تجاوز كل التحديدات الثابتة، و هضم و استيعاب المكان نفسه و كلّ صيغ الوجود الموضوعي و تمثلها في الزمان، بينما يصبح الزمان في سيلانه مرادف إلى الوجود بذاته – و لهذا يبقى وَحْدَهُ كما

كان من قبل و دائماً. يبدو أن هذه النقطة هي نهاية التعالي أو الترسندالي و تجاوز هذا العالم عند نيتشه، لأن واقعية الزمان تصبح في هذا العالم أمر مطلق.

و لكن و مع أنّ أفكار نيتشه الفلسفيّة كانت منغمسة تماما في ((الصيرورة))، فإنّهُ لم يتوقف عندها فحسب، بل تناول مرة أخرى الوجود بالبحث (1) كضرورة عقلية للحياة ضمن الوجود، و كذلك (2) في فلسفته الترسندالية المتعالية التي تهدف إلى بلوغ الوجود بحد ذاته، و أيضاً (3) بواسطة موقفه الوجودي الذي ظل محافظاً على نفسه لفترة طويلة.

(1) عدم القدرة على فهم و استيعاب الصيرورة و الضرورة الحيوية للوجود: لم يفترض نيتشه أن معرفة الوجود تنتهي مع مذهب سيادة الصيرورة. لم يستطع أنّ يتعلم أو يفهم بواسطة الصيرورة ما الوجود حقاً – بل كان على الأصح مجبراً على تذويب كل الصيغ المفهومية للوجود و تحويلها إلى أساسّ دون صورة بما أنّها تجاوز و تعالى عليها. الصيرورة ليست في متناول الفهم الإنساني (*Verstand*)، لأن عمله يرتبط بحقيقة تحديد الوجود كحالة استاتيكيَّة ثابتة: ((إنّ عقلنا ليس مُشكَّل و مبني بطريقة تمكنه من أنّ يفهم الصيرورة – إنّه يصارع و يعمل من أجل أن يثبت و يبرهن على أن كلّ الأشياء هي في الواقع ثابتة و لا تتغيّر)). و لكن إذا كنت قادر فقط على التفكير في ما تدركه بعض الحواس من الوجود الثابت و اقتصر الأمر على ذلك، فإنّه سيتبع أن ((المعرفة و الصيرورة كلاهما سيقصي أحدهما الأخر بصورة متبادلة)). يجد التفكير صعوبة في التعبير عن عالم الصيرورة بالكلمات أو ((من غير الممكن صياغته في معادلات مفهومية واضحة))، أو يكون خاضع لمقولة ((الخطأ))، أو أن يكون((متناقض-بذاته)).

إذا كانت المعرفة مطلقا ليست معرفة الصيرورة و لكن فقط معرفة ما الوجود (و أن الأخير/ الوجود هو فقط افتراض ضروري كي نكون قادرين على التفكير و الوصول إلى الاستنتاجات النهائية)، فإنّه طبقاً إلى نيتشه كلّ شيء في الوجود هو وهم و زَيف. تخلق الحياة – بوصفها نوعاً من الصيرورة – لنفسها وهم الأشياء في الوجود. شرطها الأساسيّ هو إرادة عقلنة الأشياء. لا توجد حياة تستطيع أن تعيش دون منظور و أفق، إذا جاز التعبير، بواسطته لا تظهر الصيرورة بل يظهر بدلاً عنها الوجود المحدد و الثابت كشرط ضروري للحياة – لأن الحياة لا يمكن أنّ تطاق قريبة من الصيرورة و دون أوهام مفترضة عن الأشياء في الوجود. الصيرورة، في العَلاقة بالوجود، لا يمكن أنّ تزودنا بمنظور لأيّ موجود حي. تؤمن الحياة بقوة في الوجود الثابت، و لو كانت تؤمن في

الصيرورة بدلاً عن الوجود، لكانت ستفنى و تتلاشى. هذا هو السبب الذي يكمن وراء حديث نيتشه عن فلسفة الصيرورة كمذهب يعدّه و ينظر إليه كشيء ((حقيقي، لكنه في نفس الوقت مهلك و مميت)). ((تقاوم الحقيقة النهائية للصيرورة و تدفق و سيلان الأشياء التأسيس الثابت الجامد – لقد تم ترتيب و تنظيم أعضائنا و حواسنا (وسائلنا للتكيف مع الحياة) على ارتكاب الخطأ و الضلال)).

(2) الرد الترسندالي للوجود إلى فلسفة الصيرورة: مع أنّ الصيرورة لا يمكن فهمها و إدراكها، إلاّ إنّها مع ذلك تمثل الوجود بذاته. من جهة أخرى، يعدّ الوجود لنا تأويل تستطيع الحياة (إرادة القوة) بموجبه أن تقوم بخلق شروطها بثبات. لا يمكن لمذهب الصيرورة الشامل أن يتطور عقليا و وفق المقولات الكُلّية للعقل، لأن كلّ التحديدات أو المحددات العقلية تتضمن نوع من التأويل يمسك و يستولي على الوجود و يوقف صيرورته بطريقة مزيفة. بالنسبة لنيتشه، التفكير الذي يرتبط بالوجود هو مجرد وسيلة و أداة للحياة المتغيرة دائماً يخلق منظورها الضروري، بغض النظر عن حجم تغير اللاعقلي للحياة.

و لكن ماذا لو أصر الفيلسوف على فهم و استيعاب الصيرورة بوصفها الماهية و الجوهر الحقيقي للوجود؟ ماذا لو لم يكن بمقدور الحياة أن تشبع نفسها و يتم التعبير عنها بواسطة وجهة نظر الصيرورة و لا يمكن أن تتخلى أو تتنازل عن إدراك و معرفة الوجود دون الموت كنتيجة لذلك، فهل هذا الوضع صحيح أيضاً للتفلسف، الذي هو في النهاية صيغة من صيغ الحياة؟

أولا، الجواب عن هذا السّؤال، في ضوء وجهة نظر نيتشه الفلسفيّة في الصيرورة، هو إعادة تأهيل الوجود في الواقع مرة اخرى – هذه المرة كعجلة العود الأبديّ الذي لا تتوقف عن الدوران: ((إنّ حقيقة أنّ كلّ شيء يحدث بطريقة مكررة هي في الواقع المقاربة أو الطريقة الأقرب لعالم الصيرورة لفهم الوجود)). يعرف نيتشه جيداً كيف نشأت هذه الفكرة و نبتت في تفكيره: ((أنّ نطبع و نرسم صفة الوجود على جدران الصيرورة – هذه هي الحدود القصوى للتعبير عن الإرادة السامية القوة)).

و لكن، ثانياً، هذا الوجود الذي ينبثق، لأغراض التفكير الفلسفي الترسندالي، من الصيرورة، ينبغي أنّ يكون مميز و منفصل بشكلٍ جذري عن الوجود المشتق من إرادة القوة، كشيء يرسي بقوة

دعائم العقلي له، و في عمله هذا، يزودنا بمعرفة الأشياء في هذا العالم. يتلاشى هذا الوجود المطلق كموضوع للتفكير– إنّها الأبدية كمصدر و حَدّ كلاً من الموضوعية و الوجود.

خلال مسيرته الفلسفيّة، غدا نيتشه واعياً تماماً ما الذي يعنيه الوجود بالنسبة له: الوجود، الذي لم يصبح بعد، هو ليس صيرورة أو أيّ وجود خصوصي فردي ضمن هذا العالم. عبرَ نيتشه عن هذه الفكرة حينما تحدث عن مفهوم العود الأبديّ: ((الدائرة التي لم تصبح أو تكون بعد – هذا هو القانون الأول الأساسّي. كلّ الصيرورة بمجملها تحدث ضمن الدائرة)). فمن حيث إنّ ((إرادة القوة)) هي علامة ميتافيزيقية للوجود، فإنّ هذا الذي لم يصبح بعد هو أيضاً صحيح و صالح بالنسبة لها. ((إنّ العامل المسؤول على حقيقة تطور الشيء و وجوده لا يمكن اكتشافه بواسطة البحث و الاستقصاء في هذا التطور: ينبغي للمرء و خليق به ألّا يحاول أن يفهم هذا العامل كصيرورة – بل أقل من ذلك بكثير أعني كشيء يصبح و يكون.... إرادة القوة لا يمكن أن تكون شيئاً يصبح أو يكون)).

(3) المعنى الوجودي لتقويض الصيرورة اللامتناهية: إنّ ما نلاحظه هنا هو ليس فقط عملية عقلية، في التفلسف، ترجع من سيادة الصيرورة إلى الوجود فحسب، و لكن أيضاً تحول راديكالي في الموقف الوجودي لنيتشه:

حين يصبح العصر الحالي، مع التلاشي الكامل لمبادئه واقعاً ملموساً و تصبح نسبية كلّ وجود و القيم ((صورة للوجود الكلي))، و حينها، نتيجة لذلك، يولد سلب و رفض الحياة من كراهيَة العبث الذي لا معنى له للصيرورة الخالصة و يبدأ بالتهديد لحالة الأمان الزائف – يفهم نيتشه حينها كُنهْ تفكيره، إذا جاز التعبير، كأداة للخلاص. ((أطرح مذهب العود الأبديّ، الذي يقتضي الاستقلالية عن الأخلاق، ضِدّ المعنى العاجز للانحلال الكامل و عدم الاكتمال و النقص)).

و حين تنبثق لا مبالاة و لا معنى وجود المرء كنتيجة لرؤية الصيرورة الخالية من الهدف و الغاية و تبذير الوجود بلا حدود، فإنّ هاجس الاستحواذ على الصيرورة يتحول إلى موافقه على هضم و استيعاب الحاضر أو الواقع: الفكرة الأساسية المقومة لحُبّ القدر – بمعنى، القدر الوشيك يتطلب رجلاً ناضجاً شجاعاً و ليس إذا ما كان الرجل في مستوى المشكلة أم لا.

العود الأبديّ ـــ فلسفياً، تعدّ فكرة العود الأبديّ فكرة أساسيّة و عميقة بقدر ما هي موضع شكوك كثيرة و قابلة للنقاش: بالنسبة لنيتشه، تُعَد فكرة العود الأبديّ فكرة طاغية و ساحقة لا تقاوم – بينما في نفس الوقت ربما ليس هناك شخص ما يأخذها على محمل الجِدّ. مع أنّ هذه الفكرة هي نقطة مفصلية و قاطعة في تفلسف نيتشه، إلاّ أنه لم يكن لديه الكثير من المحاولات لهضمها و استيعابها بل حتى كان يبدو بالعادة يحاول تجنبها.

ببساطة، يؤكد مذهب العود الأبديّ أنّ الوجود هو ليس صيرورة لا محدودة من الحوادث المستجدة – لأن كلّ شيء يتكرر بطريقة استثنائيَّة و فريدة لفترات طويلة من الزمن (((العام العظيم للصيرورة))). كلّ تلك الأشياء توجد في أزمنة لا متناهية و تعود في أزمنة لا متناهية – كلّ شيء يعود دائماً: ((النجم الساطع في السماء، العنكبوت، أفكارك في هذه الساعة كلها ترجع مرة أخرى بالضبط في وجودها)) ، ((ضوء القمر الذي يشع من بين ظلال الأشجار، و بطريقة مشابهة لهذه اللحظة و أنا نفسي كلها تعود مرة أخرى و أخرى)). كلّ الأشياء تعود بطريقة مشابهة: ((النهر يتدفق دائماً من منابعه كي يرجع إليها ثانية، و أنت كذلك حالك حال هذا النهر، تدخل و تعاود السباحة دائماً و بحالة متكررة في نفس هذا النهر))؛ أو: ((الساعة الزجاجية الأبديّة للوجود الذي تتحرك عقاربها و تعلن دقاتها مرة أخرى دائماً المرة تلو المرة و بنفس النمط)). حيوانات زرادشت تحاكي مذهب العود الأبديّ في ثلاث كلمات: ((كلّ شي يذهب – كلّ شيء يعود: دولاب عجلة الوجود يدور بشكل أبدي لا يتوقف، كلّ شيء يموت، و كلّ شيء يتفتح كزهرة مرة أخرى – سنة الوجود تدحرج و تدير عجلة الأفلاك هنا و هناك. نقطة المركز توجد في كلّ مكان. الانحناء و التقوس الدائري هو دربنا نحو الأبديّة)).

بالعادة يقترف المرء خطأً فظيعاً، حين يعتقد أنّ بوسعه أن يفهم الجوهر الفلسفي لمذهب العود الأبديّ بهذه الصورة البسيطة. إنّ نعومة هذا مذهب تدمر معناه و مغزاه و مسوغه العظيم. هنا، يدعو زرادشت الحيوانات التي تغني لُحون الآلة الموسيقية ((هوردي جورديز)) كي يوبخها و يعنفها. ثم يسألها بغضب:هل حولتم هذا المذهب إلى مجرد أغنية هوردي جورديز الرخيصة التي تعزف على آلة الآرغون اليدوي.

إذا توصل القارئ إلى فهم معين لمذهب العود الابديّ عند نيتشه، فإنّه ينبغي، أولا، أنّ لا يجزأ أو يقسم أفكار هذا المذهب و يأخذ بالتالي كلّ واحد منها على حدّة – بل يأخذها كلها بعين

الاعتبار في سياق واحد أو كجسد واحد معاً. و أنّ يُفهم طبيعيا أنّ المذهب الكسمولوجي الذي ينبثق منه لم يكن القصد منه أنّ يكون على هذه الصورة أو تلك الشاكلة؛ لأنّنا نتعامل هنا في هذا المذهب، و بشكل لافت للنظر، حصراً مع الجانب الترسندالي / المتعالي لنوع من الوجود المختلف بالأساسّ عن كلّ الموجودات الطبيعية و الميكانيكية الموجودة في العالم. يعرض نيتشه مذهب العود الأبديّ بدقة و بطابع تطغي عليه سمة التوضيح، ليس بسبب مضمونه الموضوعي، مع أنّه يولي أهمية كبيرة لموضوع البحث و الاستقصاء العلمي، و لكن لأنّه قُصِّد منه أنّ يكون ذو منفعة كبيرة بوصفه ((حصاد مهم)) لمواسم الوعي-الذاتي للإنسان: إنّ المرء الذي يفهم مذهب العود الأبديّ بصورته الصحيحة، و يستطيع فعلا تحمل تبعاته و نتائجه، فإنّهُ وحده مَنْ يثبت فعلا قوته: في الواقع، تؤثر فكرة العود الأبديّ على إرادة الاختيار عند الإنسان، الذي لم يصبح في الواقع مقدراً للعواقب فعلاً إلاّ بفضل أخلاقية العادات و قميص الجنون الاجتماعي، و تصبح بمنزلة الأداة للارتفاع و السمو في الطبيعة الإنسانية و الإعلاء من شأنها و الدفع بها بصورة إضافية نحو مدياتها القصوى.

حين نتعاطى مع مذهب العود الأبديّ، من وجهة نظر تحليلية و نقدية على حدّ سواء، سوف نصطدم بالجانب الفيزيائي أو الطبيعي فيها – أعني، صيغة الحُجَّة العلمية، و التي في هذه الحالة تتهاوى أعمِدة الأساسيّة التي بُنيَّت عليها. أما بخصوص جانبه الميتافيزيقي، فإنّه يثبت، بما لا يدع مجالاً للشك، بأنّها ليس أكثر من نسخة من نسخ الميتافيزيقا القديمة الجامدة و الواسعة الانتشار في المذاهب المقابل-الكانطية و ما أكثرها؛ في حين يعبر مدلوله الوجودية ببساطة على الإلحاد – أعني، الانتصار غير المنقوص و الحاسم الذي من شأنه أنّ يحرر البشرية من كلّ شعور بالواجب و الالتزام تجاه أصلها و منشئها و علتها الأولى. في نفس الوقت، يكشف التأمل النقدي، ضمن التفكير النيتشوي في حقيقة مذهب العود الأبديّ، النقاب عن جوهر العملية الترسندالية، و التي غدت له صيغة ملائمة نوعا ما لوعي الوجود و للمكانة التي بلغها في مكان أخر.

إذاً، علينا أنّ نهمل أو نتغاضى عن صفة التذبذب و التردد و التقلب في فكرة أو مذهب العود الأبديّ. يمكن لفكرة العود الأبديّ أن تظهر بوصفها مذهباً دقيقاً مع مضمون محدد، فقد كي تكون رمز غير محدد للإيمان – أو يمكن أنّ تظهر كفكرة علمية يمكن البرهنة عليها، و قد تعاود الظهور فقط مرة أخرى كشيء لا يمنح أي معنى معرفي و إدراكي للوجود.

علينا أن نفحص خطوات الخوف المصحوب بالإعجاب، التي قادت نيتشه، خطوة بخطوة، إلى صياغة هذه الفكرة عن مذهب العود الأبديّ، و هي على النحو الآتي:

(1) الحجج المساعدة و الداعمة للمذهب: ينطلق نيتشه في تفكيره، بصدد مذهب العود الأبديّ، من ثلاث محاور، أو بدقة أكبر من ثلاث فرضيات، هي على التوالي: الفرضية الأولى تعتمد على الدليل الحاضر للصيرورة المتواصلة و تدفق و سيلان و تحول و تغير الأشياء: لا يمكن أن نعدّ الوضع الحاضر للأشياء من حولنا ثابت و نهائي في أيّ حال من الأحوال – كلّ شيء في حالة من التدفق و التغير. الفرضية الثانية، يسلم نيتشه بوجود كلاً من اللاتناهي والزمان المطلق:((التغير هو جزء من الوجود، و بهذا يُنظَّر إلى الزمان أيضاً بوصفه جزء من هذا الوجود)). أما ((المكان، فهو كالمادة، صورة ذاتية، لكن الزمان، خلافا للمكان، ليس صور ذاتية)). الفرضية الثالثة، يؤكد نيتشه على محدودية المكان و كذاك محدودية الطاقة. الفرضتين الثانية و لا الثالثة ليس فقط من الصعب فهمها، و لكن أيضاً لا يمكن البرهنة عليها. يحاول نيتشه، و في مناسبات مختلفة، أنّ يبرهن على هذه الفرضيات بواسطة إضاءة الضِدّ لها الذي لا يمكن إدراكه: ((من الصعب التفكير في النوع غير المحدد للطاقة و إدراكه بالنسبة لنا)). ((ينبغي أنّ لا نفكر في العالم بوصفه طاقة لا محدودة، لأنّه لا يمكن التفكير بهذا الأمر بحد ذاته و فهمه – نحن نرفض تصور الطاقة غير المحدودة، بوصفها شيء لا يمكن التوفيق بينه و بين فكرة أو تصور(الطاقة) وَحْدَهُ)). هنا يتناول نيتشه أو بتعبير أدق يمس المشكلات التي قام إيمانويل كانط سابقاً بتوضيحها في مذهب التناقضات – بيد أن نيتشه لم يفهم بشكل دقيق هذه التناقضات، و نتيجة لذلك لم يأخذ بنظر الاعتبار خاتمة كانط المهمة و مفادها أنّ من الاستحالة، سواء استخدمنا مبدأ التناقض أو التناقضات أو أيّ منهج أخر، أن نقدم تأكيدات محدّدة مرسومة الملامح بدقة و ذات صَلاحِيَة عامة للكلّ. (بيد أنّهُ لم يقم بالتعبير عن هذه المعرفة العميقة في نِقَاط أخرى). في ضوء الافتراضات غير المبرهن عليها، يستنتج نيتشه النِقَاط الآتية:

(أ) ((إنّ وجود صيرورة جديدة لا محدودة أمر غير ممكن بل مستحيل: إنّه، ببساطة، أمر ينطوي على الكثير من التناقض، لأنّه يفترض حالة من تناهي و نمو و زيادة الطاقة بشكل لا يتوقف – و لكن السّؤال من أيّ جهة من الجهات عليها أنّ تنمو و تكبر!)) لكن إذا لم تنمُ الطاقة، فإنّه سيبقى

لدينا فقط إمكانيتان: في النهاية، سيكون أما حالة توازن ثابت و دائم أو حالة عود أبديّ. إذا أقصينا الإمكانية الأولى، فإنّنا سنسلم ب ((مبدأ الحفاظ على الطاقة التي تتطلبها حالة العود الأبديّ)).

(ب) بما أنّ الطاقة محدودة، فإنّ ((عدد مواقف، تغيرات، تراكيب، و تطورات هذه الطاقة، بالرغم من إنّها هائلة و غير محدودة بشكل عملي، يكون أيضاً هو الأخر محدد)). و لكن بما أنّ الزمان لا متناهي، فإنّ ((كلّ التطورات الممكنة ينبغي أنّ تكون قد وجدت من قبل سلفاً أو سابقاً. بناءً على ذلك، فإنّ التطورات الحاضرة ينبغي أن تكون مكررة بشكل أبدي، كُلَّما سنحت لها الفرصة للانبثاق.... كلّ شيء موجود في سياق أزمنة لا تعد و لا تحصى)).

(ت) بما أنّ الحالات الممكنة قد وجدت في لحظة معينة في الماضي، فإنّ هذه الحالات ذات الوجود السابق سوف تمنع و تعيق تحول و تغير الحالات الحاضرة، و هذا أمر مستحيل و غير ممكن. هذا الأمر يتضمن أن الحالة النهاية، التوازن، الوجود الثابت غير المتغير، هو أمر غير ممكن. لأنه، إذا كان التوازن النهائي يوجد فقط للحظة واحدة، فإنّ هذه الحالة ستستمر في التواصل. إذا منحنا الزمان اللامتناهي، حالة من الراحة و السكون – إذا كان هذا ممكناً – فإنها سوف تحدث. و لكن الحقيقة أن ((حالة التوازن الذي لم يصل إليها بعد إطلاقاً يثبت استحالة حصول ذلك)). من جهة أخرى، إذا افترض الواحد، أن وجدت في الماضي لحظة تشبه الحالة الحاضرة، فإنّ هذا الافتراض – على خلاف افتراض التوازن الذي يحدث في بعض الأوقات – لا يمكن دحضه بواسطة الحالة الحاضرة للأشياء.

يعتقد نيتشه من الممكن البرهنة على مذهب العود الأبديّ فيزيائياً / طبيعياً و رياضياً. في عام (1882)، كان نيتشه يريد أن يزيد من معرفته العلمية ليحصل على خليفة علمية ضرورية صلدة بواسطة الاطلاع على الدراسات الجديدة عن الكون كي يرصن من حجته بخصوص مذهب العود الأبديّ. و لكن لما كانت هذه الحلَقات الدراسية و المقررات التعليمية لم تكن ذا أهمية و مدلول فلسفي قاطع و كبير بالنسبة لأفكاره الفلسفيّة، فإنّه عقد العزم على العزوف عن حضور هذه الدروس و فضل أن يتابع بحوثه الفلسفيّة بنفسه بدلا عنها. في الشذرات و النبذات القصيرة، التي تم اكتشافها بعد وفاته، و التي كانت لها صلة بهذا الموضوع، يستخدم نيتشه حججاً تتطلب نوعاً من المنطق (ينطوي، على سبيل المثال، على قانون التناقض و ((التصور)))، و على ما يبدو لم يكن يؤمن أو يعتقد فيها كثيراً. محاولا أن يكيف نفسه مع الأجواء العلمية في عصره غير المعهودة، كان يمني

النفس، باقتِضَاب، أنّ يقدم خاتمة نهائية محتمة لا يمكن التهرب من مستتبعاتها عن العلم تعدّ بالنسبة له الآن في الوقت الحاضر أساس المعرفة الأصيلة و الحقيقية للوجود[81].

(2) المذهب الطبيعي الملغي كفكرة متجاوزة و متفوقة: يبدو أن مذهب العود الأبديّ هو مذهب ميكانيكي: لقد تم صياغته وفق نموذج الدائرة الآلية المعروفة للحوادث الخاصَّة. بيد أنّ نيتشه يستخدم فكرة العود الأبديّ كاعتراض على الدائرة أو الدور الميكانيكي، بما أنّ العمليات الخاصَّة ضمن هذا العالم لا تظهر أبدا كتكرار دقيق على نفس المنوال إلى أيّ شي معطى: ((أليس عدم وجود أيّ اختلاف بالمرة، بدلاً من تكرار متكامل، في العالم المحيط بنا، عذر كافي لتفنيد فكرة الدائرة الموحدة للوجود؟)) و لكن إذا كانت الدائرة أو الدور غير قادر على إحداث العودة ميكانيكا في نفس الحالة تماماً، فإنّ الحالة الكُلّية، على الأقّل، لكلّ القُوَى يجب أنّ تحدث. و لكن، مع ذلك، ((ربما لا يمكن إثبات و البرهنة أيّ شي جديد مثله يكون موجود من قبل بالمرة. ربما يبدو أنّ الحالة الكُلّية تشكل صفات جديدة، في أخر التفاصيل، و بهذا تكون الحالتين الكليتين لا تمتلك بينهما أيّ شبه أو شيء مشترك)). مع ذلك، أن ما مهم أن نيتشه يميز و يضع حداً، بشكل جذري، بين دائرة العود لحالة العالم كليًّا، من جهة، و كلّ الدوائر الممكنة في داخل هذا العالم، من جهة أخرى. ينظر نيتشه إلى مذهب العود الأبديّ بوصفه عالم متطور لا تتحول فيه الصيغ الكُلّية للوجود، من حالة القوة إلى الفعل، بطريقة ميكانيكية، و هي ليس بعد عالماً ميكانيكياً: إنّ قيام و انبثاق العالم الميكانيكي يكون أولا على هيئة لعب بلا قانون ضمن الكلّ – لعب يحصل أخيراً على الاتِّساق و الاستمرارية، و بهذا ستكون قوانيننا الميكانيكية ليست أبدية، و لكنها ستنشأ كحوادث و حالات استثنائية. ((يبدو إنّنا نحتاج إلى البعض من التعسف، المخالفات الحقيقية، الغباء البدائي الذي لا يكون مناسباً حتى إلى التفسير الآلي)). إنّ الدِقّة المفرطة و لمستها الفنّية الجسورة المرهفة و الروحانية الكاذبة و النظام الذي نلاحظها من حين لأخر لا يمكن أن يكون قانوناً أولياً – و هو ليس إلاّ تعسف أصبح و غدا قاعدة. بيد أنّ العود الأبديّ (الدائرة) يخص و يعود إلى ((الصيغة الكُلّية للعام للوجود))، و لا يخص أيّ حادثة ميكانيكية خاص في داخلها.

في طريقة تغلب عليها صفة العمومية: لا يمكن لمذهب العود الأبديّ، بما أنّه لا يخص أو ينتمي إلى كُلّية الوجود، أنّ يطبق على أيّ صيغة فردية خاصَّة للوجود. بناءً على ذلك، يضعه نيتشه على جنب: ((دعنا نكون واعين لطبيعة التفكير في قانون هذه الدائرة/ مذهب العود الأبديّ كما

تطورت في القياس الزائف إلى الحركات الدائرية ضمن الدائرة. ليس الحال أنّه كانت هناك فوضى في البداية..تحولت إلى حركة دائرية صلبة لكلّ القُوَى في النهاية: على العكس و خلافا لذلك، كلّ شيء هو أبدي و سرمدي، و لا يوجد شي يكون و يصبح. إذا كانت هناك فوضى من القُوَى، فإنّ كلّ واحدة منها أيضاً، كأيّ شيء أخر، هو أبديّ و يعود إلى كلّ دائرة)). إذنْ، دائرة العودة و الرجوع لا تشبه الدائرة الواقعية أو الدائرة غير المفكّر فيها ضمن العالم: بينما دائرة الرجوع أو العود غير محددة و مرسومة الحدود، تكون الدائرة الواقعية أو الدائرة غير المفكرة محددة و مرسومة الملامح. ثم أن القانون الأولي للدائرة لا يشبه قوانين الطبيعة: لا يمكن أن نتصور نموذجها غير محدد و مرسوم الملامح؛ بينما تمثل قوانين الطبيعة قواعد ذات صلاحيات كُلّية للحوادث ضمن هذا العالم . فضلاً على ذلك، تمتلك ضرورة العود سمة تختلف من ألفها إلى يائها عن الضرورة القانونية التي تعمل ضمن العالم: ((دعنا نسلم و نصدق في الضرورة المطلقة للكلّ، و لكن حذاري أن نعتقد، فيما يتعلق بأيّ قانون، حتى و أن كان القانون الميكانيكي الأولي المشتق من التَجْرِبة، أنّه قانون كلي يسود و يطبق على الكلّ، و أنّه ذو خاصية أبدية و سرمدية)). و لا حتى القانون الغائي الموجه إلى غاية محددة. إنّ فوضى الكلّ الذي تقصي أيّ نشاط غائي و هادف هي ليست متناقضة مع تفكير هذه الدائرة: ((إنّ الدائرة هي ببساطة ضرورة لا عقلية)). بناءً على ذلك، يعتقد نيتشه أنّ العالم ((يقتفي طريق الضرورة و يتبعها، ليس لأنه محكوم بقوانين، و لكن لأن القوانين غائبة فيه تماما، و أن كلّ قوة فيه تصل و تبلغ نتيجتها النهائية القصوى في كلّ لحظة من اللحظات)).

إنّ ما هو أكثر عمومية و بالتالي غير مفهوم تماماً – كُلّية العود الأبديّ – ينبغي ألّا يتم اشتقاقه من ملاحظة أيّ وجود جزئي، سواء كان هذا الوجود عضوياً أو ميكانيكياً، أو من فكرة الشرعية، أو من الصيغة الهندسية للدائرة. و لكن كلّ تلك الأشياء يمكن أنّ تزودنا و لفترة قصيرة بتشبيهات تعمل كوسائل للتعبير، اعتماداً على ما يقال عن الوضع المعطى. و بذلك، تزودنا، على سبيل المثال، المادة الميكانيكية و العضوية بمقارنة أو تشبيه حين يكون سّؤالاً تعبيراً عن الإمكانية الراديكالية للتكرار المطابق دون تاريخية (Geschichtlichkeit): ((لا تتعلم المادة غير العضوية أيّ شيء، و إنّها تظل دائماً دون ماضي! و إذا كان الحال على غير هذا الحال، لن يكون هناك أيّ تكرار و عودة – لأن الشيء دائماً ينبثق من... ماضي جديد)). من جهة أخرى، حين يُنظر إلى الكلّ بوصفه تاريخ، يتغيّر و يتحول حينها نقرأ الأتي: ((حقاً ألاّ تعرف ذلك؟ في كلّ فعل تقوم به و تنجزه، فإنّ كلّ تاريخ ما حدث سابقاً في الماضي يعيد نفسه و بصورة موجزة)).

أكدَ نيتشه بقوة على أن حلقة أو دائرة العود الأبديّ، و قانونها الأولي و ضرورتها، ينبغي أنّ لا يتم خلطها مع الدورات الموجودة في العالم الذي مكنته من أن يستخدم المقولات (على سبيل المثال، الضرورة، القانون) لتجاوز – أعني، الذَّهاب أبعد من هذه المقولات نحو المديات القصوى لاكتشاف سِرّ الوجود. لقد فعل هذا الأمر المثير للاهتمام حقاً، بطريقة جعلته بشكل مباشر، من ذلك الحين فصاعدا، يميل نحو مفهوم العالم الواقعي بوصفه ((أكثر الصيغ كُلّية و عمومية للوجود))، و بهذا استبدل عالم الفرضيات مع الفلسفي الترسندالي الممكن تحقيقه و بلوغه بواسطة الترسندالي الصوري. و لما كان نيتشه يفتقر إلى التوضيح المنطقي الكافي، فيما يتعلق في منهجه في التفلسف الواقعي، فإنّهُ كان ميال إلى نسيان ماذا يريد حقاً، تحت تأثير العلم المعاصر آنذاك، و يحاول أنّ يقيم مذهبه الفلسفي على أساسّ الدليل و البرهان الرياضي-الفيزيائي. و بذلك، ظل الترسندالي فلسفياً قوة محركة ضمنية و أساسيّة في تفكيره.

(3) لحظة التفكير. إنّ مصدر تفكير نيتشه ليس في الواقع انعكاساً للتفكير اللعوب الطائش؛ و لكنه يعبر بالأحرى عن تَجْرِبة الوجود في لحظة تتسلم نفسها المعنى و المدلول الميتافيزيقيّ القاطع من التفكير الذي تنبثق منه.

يتمسك نيتشه بشكل لافت للنظر بقوة في لحظة المفهوم: ((بداية التفكير في مذهب العود الأبديّ... يرجع تاريخياً إلى شهر آب من عام (1881). ... في نهار جميل، كنت أسير بين أشجار الغابة، أتابع حديثي مع نفسي خلال السير كالعادة، قرب بحيرة سيلفابلانا؛ و قد توقفت قرب كومة كبيرة من الأعشاب و الأوراق المتكدسة هناك هرمياً ليس بعيدة عن سورلي أحد القرى في غراوبوندن في سويسرا. فجأة خطرت على بالي فكرة [العود الأبديّ])). مرة أخرى: ((في هذا الصمت، فجأة سمعت صرخة حادة رنانة و التفت حولي كنت وحيداً تماماً. لقد خرجت هذه الصرخة من أعماقي.كانت حقاً لحظة خالدة حين ولدت في ذهني فكرة العود الأبديّ. و بسبب هذه اللحظة، صار بوسعي أن أتحمل بصبر قَلّ مثيله فكرة عودة الأشياء مرة أخرى في أزمنة لا متناهية)). إنّ ما يميز حقاً هذه اللحظة عن غيرها بوضوح هو حدوث و انبثاق الفكرة الاستثنائيّة و الفريدة للعود الأبديّ.

حين نبحث في التَجْرِبة الفريدة التي تؤكد بشكلٍ كبير على لحظة انبثاق فكرة العود الأبديّ، يصبح حينها البحث و الاستقصاء السيكولوجي أمراً عقيماً و غير مجدي. لأنه، ليس هنا فرق بين ما

إذا كانت أو لا حالة نيتشه غير الطبيعية، المختل عقليا، و المضطربة تتضمن أيضاً فكرة أو الشعور أنك عايشت الوضع الحالي نفسه فعلاً (*vue déjà*) من قبل: القناعة أنّ كلّ شيء حاضر، و في أدق التفاصيل، تم تجربته بالضبط بنفس الطريقة مرة واحدة من قبل. الطريق الذي سلكه نيتشه للبرهنة على هذه فكرة العود الأبديّ يسير في الاتجاه الآتي: ((يزحف العنكبوت تحت ضوء القمر – و ضوء القمر هذا و أنا و أنت واقفين قرب البوابة نهمس لبعضنا البعض بنفس الأشياء الأبدية التي همسنا فيها من قبل و منذ زمناً بعيداً)) – ((حقاً، ألم نكن نحن هنا من قبل؟ ألم أسمع كلباً ينبح بذات الطريقة التي ينبح بها الآن؛ نعم في زمن الطفولة البعيدة عندما كنت صبياً غراً – سمعت من قبل كلباً ينبح بنفس الطريقة التي أسمعها الآن....)) ينبثق الاستنتاج الذي توصل إليه نيتشه من ملاحظته لحالات التكرار، الذي لاشك فيه، لأيّ لحظة من اللحظات التي نعيشها و تمر بنا و هي شرعية و صالحة لكلّ الوجود و لاسيَّما في عودتها الأبديّة: ((إذا عاودت لحظة واحدة الظهور مرة أخرى في هذا العالم – على سبيل المثال، البرق – فإنّ كلّ اللحظات الأخرى المرافقة له ينبغي أن تعود لا محالة)).

إنّ ما مهم عند نيتشه حقاً هو فقط معنى و مدلولية بلوغ اللحظة جوهرها الفلسفي. إذا كانت هذه اللحظة تمثل في الحال ذات مرة كشف و فض للوجود، و بهذا المعنى، أيضاً كشف للأبديّة، فإنّ فكرة العود هي رمز لهذه الأبديّة. نيتشه يدرك جيداً، عن طريق الترسندالي، استئصال الزمن ككشف للوجود ف (النور الخاطف) للحظة : يقول نيتشه في ((ساعة اكتمال القمر)): ((هدوء! هدوء! ألم يصبح العالم في غاية الكمال في هذه اللحظة؟...ألم أسقط – أصغي! – في بئر الأبديّة؟)) هذه ((الظهيرة هي ظهيرة و أبديّة)).

ترمز الظهيرة – صوت دقات الساعة الأثني عشر و هي تعلن بصلف عن حلول وقت الظهيرة – عند نيتشه إلى لحظة العالم-التاريخي التي تشير إلى ولادة و انبثاق التفكير: ((بواسطة كلّ حلقة من حلَقات الوجود الإنساني، هناك دائماً ساعة محددة يحدث فيها التفكير السامي – أعني، العود الأبديّ لكلّ الأشياء، يبدأ مع الواحد ثم مع الكثير، ثم مع الكلّ)). عن هذه اللحظة يقول: ((مرة أخرى تشرق شمس المعرفة و نبلغ وقت الظهيرة : أفعى الأبديّة ملتفة بضوئها؛ إنّه زمانكَ، إخوة الظهيرة و أوج المجد!)).

خلال ((لحظة)) التفكير، يصبح الوجود التاريخي، الذي يمثل دائماً الأبدية ضمن الزمان، بالنسبة لنيتشه منسوجاً مع تاريخية الوجود كله، و بواسطة عجلة الأبديّة، يبلغ المرة تلو المرة القمة في لحظة التفكير الفلسفي بواسطة فهمه و استيعابه لنفسه. نيتشه، كمفكر، في هذه النقطة هو ليس فقط وجوداً تاريخياً لفرد ما، و ليس فقط واحد خلق على نحو قاطع و حاسم لتاريخ الأفراد كليًّا وكلّ الإنسانية، و لكنه أيضاً يمثل المحور برُمَّته لكلّ الوجود – يمثل الحركة الدائرية التي تبلغ بواسطته ((نقطة الظهيرة العالية حين يقف المرء في وَسْط الطريق بين الإنسان و السوبرمان)). هذا الأمر يوضح لنا لماذا معنى و مدلولية هذا التفكير بالنسبة لنيتشه ليس له مثيل أو معادل، و لا يمكن أنّ يقارن من حيث أهميته بأيّ فكر أخر. يقول إلى الغريب المار على الطريق: ((دعني أخبرك عن الفكرة التي انبثقت من رأسي كما ينبثق النجم في كبد السماء تواقاً و متلهفاً في أنّ يضيء الدرب لك و للآخرين بطريقة فريدة كما لو الضوء لم يقم بها من قبل)). كان نيتشه يعتقد و بطريقة جازمة أن تأثير فكرة العود الأبديّ سيكون بلاشك ضخم و كبير. فكرة زرادشت تسير ضمنيا في انسجام و وفاق و تصالح مع هذه الفكرة، و يمكن التعبير عن تأثيرها بصورة رمزية: إذنْ، ينبغي لزرادشت أن يخوض أولا المغامرة بنفسه – ينبغي أن تكون لدية الشجاعة في أنّ يفكر في الأشياء التي يعرفها سلفاً – و يجرب الأزمات الشخصية العميقة، حيث تحت تأثير هذا النوع من التفكير، يمكن يعاني تحول كبير يجعل منه إنساناً ناضجاً بما فيه الكفاية و مستعداً للبوح و الإعلان عنه – و نتيجة لذلك يبدأ بالانهيار و التحطم. ينقل نيتشه أفكاره، في همسات ناعمة، مع كلّ أمارات و علامة تسريد الخوف، و مثل الأسرار المقدسة التي يبوح بها إلى كلاً من لو سالومي و أوفربيك[82].

بوسعنا أن نقتفي أثر اتجاهيين يتصور نيتشه بواسطتها التأثير الذي سوف يحدثه تفكيره. فمن جهة، هناك مفهومه عن المعنى الوجودي و مدلوليته بالنسبة لتفكير الفرد؛ و من جهة أخرى، تصوره، و لاسيَّما معناه التاريخي لمسيرة الإنسانية كليًّا.

(4) التأثير الوجودي للتفكير: ما الذي سيحدث لو كانت فكرة العود الأبديّ صحيحة، و يُنظَّر إليها بهذه الصورة، أو إذا كانت على الأقّل – أو تعادل الشيء نفسه بالنسبة للمرء – و يُعتقَّد أنّها صحيحة؟

التأثير الأول لفكرة العود الأبديّ، بالنسبة إلى نيتشه، الذي يحب أنّ يفعل المرء ما يفعله عن طيبة خاطر، هو حقاً صدمة مُشله: ((و آسفاه نفس الإنسان السابق يعود مرة أخرى! الإنسان

الصغير القزم يعود بصورة أبدية.... حتى الإنسان الذي نطلق عليه الآن عظيم هو صغير و قزم سيعود! – هذه ما كان يثير قرفي و اشمئزازي من الإنسان! العود الأبديّ يشمل و آسفاه حتى عودة الإنسان الصغير القزم! – هذا ما يثير قرفي و اشمئزازي من الوجود كله!)) ربما يلزم المرء الصمت حيال هذه الفكرة: ((الوجود، كما هو، دون معنى و هدف، و لكنه يعود بصورة مكررة لا مفر منها، دون نهاية في العدم... هذه هي الصيغة الأكثر تطرفا للعدمية: العدمية (اللامعنى) إلى الأبد!)).

لكن هذا الحد الأقصى المتطرف يمكن أن يتغيّر و ينقلب الحال إلى نقيضه: يمكن لسلب الكامل ليأس الوجود أنّ يتحول ليس إلى أقلّه من إيجاب كامل:

بدلاً من أن يتحطم الإنسان كقطعة زجاج و يصبح هباءاً منثوراً، من جَراءِ الشعور بالعدمية، يتحول إلى إنسان آخر: ((إذا استطاعت هذه الفكرة أن تستحوذ و تهيمن عليك، فإنّ سوف تقوم بتحويل و تغير كلّ شيء فيك، و تقلب عاليك سافلك...؛ و في كلّ أفعالك، سيكون السّؤال الأكثر أهمية هو: هل تريد الشيء نفسه يحدث مرة ثانية، المرة تلو المرة، و في أزمنة طويلة لاحدّ لها؟)) المهمة الآن هو ((أنّ تعيش كما ترغب أن تعيش مرة أخرى)). هذا الأمر المثير للاهتمام حقاً، يشبه الحال الأخلاقي الجديد، الذي يتطلب أنّ أقيس كلّ شيء أشعر فيه، أريده، و أكونه بمقياس واحد: سواء أنجزته بالطريقة التي أحب أنّ أقوم بها بشكل مكرر و في نفس الطريقة أو، بعبارة أخرى، سواء كنت أريد هذا الوجود نفسه يحدث المرة تلو المرة. هذا الأمر هو فقط صيغة قادرة أن تتسلم عدد غير محدود من المضامين. ربما، كلّ واحد يمكن أن يجرب الشيء المرغوب فيه بصورة أبدية فقط وفقاً إلى طريقته الخاصَّة و ليس كشيء له صَلاحِيَة كُلّية: ((دعه يسعى إلى ذلك الذي جربه من قبل ليصل إلى نشوة الشعور السامي الرفيع؛ دعه يستريح من جرب أنّ يستريح مع الشعور العالي السامي و الرفيع – دعه يمتثل للطاعة من جرب الخضوع، الامتثال للشعور السامي للامتثال. و لكن دعه يعي تماماً ما الذي يعنيه الشعور السامي بحد ذاته له و لا يكون كثير الشكوك حول الوسائل! الأبديّة على المحك!)). الصيغة الأمرية الحالية لا تتطلب أنماط محددة من الفعل، طرق معينة من السُّلوك، أنماط معينة من الحياة؛ فهي تترك فسحة حتى إلى أكثر التناقضات راديكالية و إلى الأحكام الذي يقصي أحدهما الآخر كشيء مناقض و مختلف في القيمة كي تعبر عن نفسها.

تتطلب الصيغة الأمرية الحالية شي واحد فقط : ((دعنا نضع خَتمة صورة الأبديّة على أوراق حياتنا!– في الفراغ تدور بلا قسر و لا قهر حياتنا مستعدة دائماً للعب. و لكن في السِرّ تميل في الواقع إلى الولادة و الخلق، إلى الآلم و الموت)).

إذا كان هذا الإيجاب، المنبثق من تحول السلب اليأس، قد نجح و لو للحظة واحدة، فإنّه سيكون، طبقاً إلى نيتشه، إيجاباً و تأكيداً إلى كلّ شيء، و بضمنها الأشياء المعذبة المؤلمة و غير المرغوب فيها: وحدها الأشياء التي لا تنفك تعذب تظل عالقة في الذاكرة. و بما أنّ الأشياء يرتبط أحدها بالآخر في الوجود، يمكن أن نستنتج بواسطة لحظة معينة و محددة، و بشروطها الخاصَّة، الحياة و نؤكدها بكليّتها: ((هل قلت نعم من قبل للمتعة؟ آهْ، يا صديقي إذاً فإنك ستقول أيضاً نعم لكلّ المحن و المصائب. كلّ الأشياء مرتبطة ببعضها مع البعض الآخر...و إذا صادف أن رغبت في شيء واحد مرتين... فإنك سترغب بكلّ شيء مرة أخرى المرة تلو المرة!))، ((إنزال العقاب – العنصر الذي إذا جُردَّت الأخلاق منه لم تعد قادرة على الوقوف، الذي يقف في طليعة وسائل الدفاع، التي أُستخدَمت على مدار تاريخه لغايات مختلفة تبلورت في النهاية في وحدة يصعب حَلهّا و تستعصي تماما على التحديد – في شيء واحد يعني الموافقة على كلّ شيء. ((كلّ المتعة تريد الأبديّة لكلّ الأشياء)).

بقدر ما أنّ إيجابية الوجود تعتمد على لحظة واحدة مفردة من العيش في طريقة يتمنى الشخص أو يمني النفس أن يعيشها مرة أخرى، المرة تلو المرة، خلال الأبديّة – بقدر ما مثل هذا الشخص قد ((تم إنقاذه، في الواقع، ونزلت علية الرحمة و ابتسم له القدر))، من وجهة نظر نيتشه حتى و أن كان لم يعش أو يجرب إلاّ هذه اللحظة. إذاً، يكون زرادشت في غاية السعادة حينما يلتقي بأكثر الرجال يأساً، ((أقبح الرجال))، و هو يقول للحياة، بسبب لحظة واحدة فيها، الآتي: ((حسناً، مرة أخرى المرة تلو المرة!))

بيد إنّ الإنسان لا يجرب شعور الإيجاب في كلّ شيء كما هو دائماً. في هذا العالم، ينبغي للمرء أن يكون لديه قوة ((الغرائز الحامية، التي تعمل على هيئة الازدِراء، الترفع، الاشمئزاز، النفور، اللا أبالية، الحيادية))، حتى و أن كانت تؤدي فيه، في المحصلة النهائية، إلى الشعور بالوحدة – الحياة وحدة. ليس هناك إنسان يعرف الآخر. كلّ إنسان وحيد – في عزلة. في ((هذا الشعور بالوحدة))، الذي عاش فيه، تأثر نيتشه في الكثير من الأشياء، و بهذا الصدد يقول: ((حينما

أشعر أنّ كلّ شيء في هذا العالم يرتبط بعضه بالبعض الآخر بالضرورة، فإنّ أعدّ كلّ موجود أو لحظة أقوم بتجربتها لحظة سامية و رفيعة الطراز و المقام)).

في إيجابية فكرة العود الأبديّ، وبواسطة عملية الصيرورة، ((يبلغ كلّ شيء وجوده النهائي المتجدد في كلّ لحظة خاصَّة من لحظات حياته))، و ((دائماً الشيء نفسه و على نفس المنوال)). بيد أنّ هذا الشيء لا يمكن التعبير عنه بطريقة كُلّية و عامة، و بطريقة ترسندالية متعالية، أو كحقيقة، أو كأيّ شيء قابل لأن يكون محدداً و مرسوم الملامح. إنّه لا يستهلك و لا يستنفذ في سماته المعينة غير المحدودة، إنّه حضور نقي دائم. فقط بواسطة اللجوء إلى الإشارات و التلميحات يمكن أن نستنتج الشعور به و نضع أصبعنا عليه. في كلّ حالة، أنّ الشخص الذي يقول نعم يكشف عن طبيعته في إيجابيّته. ((اكتسبَ سبينوزا كفيلسوف هذا الموقع الإيجابيّ، من حيث إن كلّ لحظة من اللحظات كانت تمثل له ضرورة منطقية: الحس الكبير بالغريزة الأساسيّة للمنطق جعلت منه في موقع المنتصر دائماً)). و لكن هذه هي فقط طريقة واحدة من بين طرق عدّة ممكنة للتأكيد و الإيجابية: كلّ سمة أساسيّة في مَسار الحوادث تصبح مصدراً للتأكيد و الإيجابيّة حين يجربها المرء و كأنّها سمته الخاصَّة و المقوم الأساسي الذي يعود له.

و لكن إذا ((كانت كلّ لحظة من لحظات الصيرورة مبررة و مسوغة (أو تهرب من التقييم – و هذا مساوي لنفس الشيء)))، فإنّه ينتج أنّ ((الحاضر لا يمكن أن يتم تبريره لغرض أو مصلحة المستقبل و لا يمكن تبرير الماضي لغرض أو مصلحة الحاضر)).

بالنسبة إلى نيتشه، الإيجابيّة السامية للحياة التي تدعو إليها فكرة العود الأبديّ (حين لا تحطم بدلاً عن ذلك) تمتلك سمة محررة منقذة و مخلصة للإنسان.

في الطاعة و الامتثال إلى الحال الذي أعيشه، ينبغي أنّ أتمنى العيش مرة أخرى، حب الحياة يزودنا بالشجاعة الحقيقية ((حتى لمواجهة الموت المقيت الذي نتهرب منه و نؤجّل الموَاجَهة معه)) – و بهذا الصدد يذكر نيتشه الملاحظة الآتية: ((هذه هي الحياة! حسناً! أريدها مرة أخرى كما هي!)).

في المقام الثاني، يقودنا التفكير في مذهب العود الأبديّ، و بواسطة التأكيد الإيجابي على الحياة، إلى موقف التسامح مع كلّ شي: إنّهُ يمنح نوعاً من ((الثقل و العمق إلى حياة الإنسان الداخلية

دون أن تصبح ضارة و خبيثة و شريرة و متعصبة و تقف بالضِدّ من أولئك الذين يحملون أفكار مختلفة)). بغض النظر عن الطريقة التي يتبعها أو يختارها الفرد في تهذيب حبه و رعايته للحياة ((ينبغي للشخص الآخر أنّ يقبل بهذا الحب و يعترف به و يكون متسامحا معه)).((يجب أن نكون نحن، الذين نقف موقفاً إيجابياً و مؤكداً من الحياة، متحدين في توجيه عدوانيتنا و خصومتنا ضِدّ أولئك الذين يلقون بظلال الشك و الريبة على قيمة الحياة التي نعيشها، و ينبغي أن تكون عداوتنا و خصومتنا أدوات لمتعتنا!)) حينما يمتلك المرء و يكتسب الموقف الإيجابيّ و الإثبات للحياة بواسطة فكرة العود الأبديّ، فكلّ الوجود يعاود الرجوع إليه كما لو أنّه بمثابة شيء جديد طازَج.

في المقام الثالث، يتحول الموقف الإيجابيّ من الحياة المحررة المنعتِقة، في فكرة العود الأبديّ، إلى معرفة الأبديّة و الخلود. يرى نيتشه الموقف الإيجابيّ و المؤكد للحياة حتى في رغبة الإنسان في الخلود و السرمدية نفسها: إذا توهج ضوء المساء و ألقى بأشعته على سعادتك، فعليّك ((الانتباه إلى تلك الإشارة الغالية و تقرأ ما بين السطور بحذر: فهي تعني حبك إلى الحياة و نفسك، و في الواقع، الحياة كما جربتها حتى الآن – تعني أنك تسعى بقوة لبناء حياتك الداخلية. و لكن عليك أنّ تعرف هذا أيضاً! – أن التحول و التغير أيضاً يغني أغنيته و قصيدته القصيرة و عند سماع أول مقاطعها الشعرية يستبد بك الشوق العارم حتى الموت من فكرة أنّ الحياة هذه قد تكون رحلت و إلى الأبد و لن تعود ثانية)). لكن فكرة العود الأبديّ تعمل بقوة و تجعله يقين مؤكد أنّ ((بين اللحظة الأخيرة للوعي و الشعاع الأول للحياة الجديدة (لا يوجد زمان). إنّه شيء أشبه بضربة الضوء، سواء حاول أنّ يقوم المرء بقياسها بمليارات السنين أو يجد إنهّا لا يمكن أن تُقاَّس)). كلّ شيء في الوجود يشارك في نصيبه في الخلود و السرمدية. يتعارض موقف نيتشه الأساسيّ مع مذهب التغير و التحول لكلّ الأشياء و النتيجة تتطلب ألّا تعطي في هذا العالم لأيّ شيء أهمية كبيرة على حساب الآخر – بهذا الصدد يقول نيتشه: ((خلافاً إلى ذلك، بالنسبة لي، كلّ شيء في الماضي هو أبدي: —— البحر يغسل وجه الماضي مرة أخرى، المرة تلو المرة من غبار السنين)).

في المقام الرابع، يحتفل قول نعم لفكرة العود الأبديّ بانتصاره النهائي بواسطة افتداء الماضي كلهُ و فكّ رهنه. سابقاً، كان الأمر مختلفاً بالنسبة للإرادة، فهي ليس إلاّ مجرد متفرج يستشيط غاضبا من الماضي كلهُ، و كانت بلا أيّ قوة إزاء الأشياء المسلم بها. ((إنّ ما يثير غضب و حنق هذه الإرادة أنّ الزمان لا يرجع إطلاقاً إلى الوراء؛ هذا هو اسم الصخرة التي لا تستطيع

التدحرج و الدوران)). كلّ شيء في الماضي هو عبارة عن شذرات و حوادث. و بما أنّ الإرادة التي تتدخل بأثر رجعي هي غائبة، فإنّ الإنسان يظل ينظر إلى الوراء بعين الحسرة إلى الماضي و بيأس متراكم، و ينظر إلى الإرادة – و كذلك الحياة – كعقاب. و لكن الآن، وبواسطة ظهور و انبثاق فكرة أو مذهب العود الأبديّ، بوسعه أنّ يعرف أنّ (((كلّ الذي كانَ) أو الماضي يبقى، و يصل إلينا على هيئة شذرات، أسرار، حوادث فظيعة، و يمثل مادة معرفية للإرادة الخلاقة و الإبداعية للإنسان لتمارس عملها و تأثيره. على هذه الصورة أريد هذا الماضي)). لأن الإرادة الإبداعية، في شرطها التاريخي و لونه الرمادي الذي يستند إلى الوثائق، و من المواقع التي تنطلق منها، ليس فقط لا تستطيع أنّ تطوق و تمتلك الماضي برمته، بل فضلاً على ذلك تريد هذا الماضي أن يرجع كمستقبل: فبواسطة عجلة الأشياء و دورانها، بوسعي أن أقوم مرة أخرى في إحداث الماضي و إرجاعه إلينا كمستقبل. لقد فتحت قبور الماضي أبوابها، و أنّ كلّما كان قد ذهب في الماضي سيعود إلينا راجعا كحاضر.

و لكن دون أن يكون نيتشه واعياً بذلك، يخرج علينا التناقض مطلاً برأسه كما يحدث دائماً و بالعادة في طريقة أيّ تفكير يحاول أن يتعالى و يتجاوز على الواقع الملموس. يأخذ هذا التناقض شكل تأكيد الاثنين أيّ كلاً من أنّ الإرادة التي تعبر عن حرية إحداث ذلك الذي مازال لم يحدث بعد، و إن الإرادة هي نفسها، في المحصلة النهائية، ببساطة عجلة تعيد وجود ما كان موجوداً سابقاً. و النتيجة هي، إذا افترضنا أن هذا النوع من التفلسف حقيقي و على صواب، فإنّ الأقوال المتنوعة بصدده سوف يقوض و يقضي على بعضها البعض الآخر. إنّ التأكيدات، التي تشير إلى أنّه حينما يعود الوضع و يرجع كليًّا، فإنّ الأشياء الجزئية المكونة له سوف تكون غير متطابقة مع نفسها بالمرة، تعارض القول ((أنّنا نتطابق مع أنفسنا في كلّ الأوقات و السنين العظيمة، و في كلّ سمة من السمات، في أعظم الأشياء و في أصغرها)). القول الآتي ممكن الدفاع عنه على نحو كافي: ((و لكن عقدة الأسباب المتشابكة و الشديدة التعقيد، و التي دائما تتفلت من ذاكرتنا، التي غالبا ما أعاود السقوط في شركها، ستعمل بالعادة على خلقي مرة أخرى! أنا نفسي أمثل واحداً من مجموع أسباب العود الأبديّ الكثيرة)). و لكن هذا القول ما أن يتم النطق به حتى يتم إبطاله و دحضه بواسطة الآخر: ((ينبغي لي أن أعود، و لكن ليس إلى حياة جديدة مماثلة أو أفضل من الحياة الحالية: ينبغي عليّ أنّ أعود بشكلٍ دائم إلى نفس الحياة التي عشتها...)) فالأقوال إنّ الصيرورة المحددة بشكل لا مفر منه ضمن حلقة و دائرة العود الأبدي، و الحرية للعيش تحت صيغ أمرية بطريقة جديدة، سوف

تجعلني دائماً أريد أنّ استرجع هذه الحياة، يبدو أنّ الواحد منها يريد إقصاء الآخر. و لكن هذه الإرادة الواجبة و اضطررها الكريه، التي تستمد أصولها من أقدم العلاقات التي نشأت بين الأفراد، التي ((يجب)) أن تعبر عن الوعي الإبداعيّ و الإيجابيّ للحرية، و التي في صيغتها الحالية الخاصَّة تمثل السمة الرئيسة لفلسفة نيتشه، تعود في مرجعيتها الفكرية إلى المذاهب الترسندالية للحرية، كنوع من التعبيرات المتناقضة و مجساتها (التي نعثر عليها عند أوغسطين، لوثر – الذي كان يروم قبل كلّ شيء أن يكلم الله بطريقة مباشرة و شخصية و كانت تسوءه مراسم اللِّيَاقَة التي تتبعها الكنيسة – بالإضافة إلى كانط طبعاً).

(5) التأثير التاريخي: يتوقع نيتشه – الذي ليس هناك أفكار لا يجرؤ على صياغتها و حركات في قلبه يكبح جماحها – من وراء طرح مذهب العود الأبديّ، حصول تحولات عظيمة و كبيرة لا قِبَل للكثيرين بها. منذ اللحظة التي بدأت فيه أفكاره في الظهور علانية عن هذه المقاربة الجديدة، ((كلّ لون يجب أنّ يتغيّر، و يجب أن يكون هناك تاريخ أخر مختلف عن هذا التاريخ الذي بين أيدينا)). ((إنّه زمن الظهيرة العظيمة – الضوء الذي يثير أكثر المشاعر رعبا و هولا و قشعريرة في النفس)). السّؤال: ما الذي سوف يحدث حقاً؟

و حين كان يبدو واضحا لنيتشه الشاب، الذي يفكر بعين لا يمكن تخيلها إلى الإطلاق، أنّ الناس عموما و دائما ينظرون إلى الوراء و إلى حياتهم في الماضي، وبهذا، يخرجون بقناعة راسخة أنهم لا يريدون أن يعيشونها مرة أخرى. لقد اكتشف نيتشه لاحقاً التميز المهم الآتي: أولئك الذين لا يحتملون أنهم سوف يموتون نتيجة للحياة؛ وأولئك الذين يستمدون تأكيد صريح و غير متحفظ من الحياة بأنّها سوف تدفع بهم نحو الأعالي السامية الرفيعة. هذه الفكرة هي أداة للتهذيب و التربية الانتقائية. غدا ((وجد و نشوة العدمية))كتوق و حنين إلى النهاية، الكمال بواسطة التفكير الذي لا يحتمل في مذهب العود الأبديّ – مطرقة تحطم كلّ الأعراق الفاسدة – تلك الشرائح المستعبدة و التابعة التي جرى إعدادها لعبادة إلهة أسيادها، أما إكراها و إرغاما وأما استعباداً و رقاً – و تقضي عليها. ((فقط من يعدّ و ينظر إلى وجوده ذا قيمة و استحقاق و ينبغي أن يعيد خلق نفسه بصورة أبديّة هو الذي سيبقى على قيد الحياة)). حتى لو تم إدانة ((طبيعة الملحدين – المناوئين للميتافيزيقا الذين يدلون بدلوهم في حمى وطيس أشعله إيمان يعود إلى عدة آلاف من السنين – إلى حدّ قتلهم و التخلص منهم))، فإنّ هذا التخلص و القتل سيحدث وفق أكثر الطرق ((نعومة و رقة و وداعة)):

هذا المذهب هو مُتصدق و خيري و مُحسن إليهم، ((فليس فيه جهنم و لا تهديد و وعيد و عقاب بالنار والحديد و عالم آخر. الشخص الذي لا يؤمن بالعالم الآخر يعي جيداً حجم المأساة – القسوة في المأساة و الرحمة يتم الانسجام بينهما – في مرور الحياة العابرة)). على كلّ حال، إنّ فكرة العود الأبديّ لنفس الشيء في مكانه المناسب و الملائم –الدائرة/ العجلة، هي ذاتها باعث حاسم و نهائي يجبر الناس أنّ يذهبوا عاليا وما وراء أنفسهم يحلقون نحو المديات القصوى.

بيد أنّ هذه النتيجة ليست جلية لا لبس فيها في أيّ حال من الأحوال، لأنه بينما أن مقدرتنا على تحمل البقاء، الخلود، و السرمدية تبدو إنّها تمثل الإنجاز النهائي الممكن في هذه الفكرة، ربما يراود المرء السّؤال الآتي: ((ربما تتلاشى و تفنى الطبائع النبيلة من هذه الفكرة؟ و ربما يقبل الشخص الخسيس بها؟)). ((سوف يبتسم مذهب العود الأبديّ ابتسامة جذابة – ابتسامة مهذبة تخفي ورائها تعبير عن القلق و الغضب – إلى حشد الرعاع، غير المبالي و ليس له حاجات و طلبات داخلية كثيرة. سوف تعطي أكثر الغرائز بساطة للحياة موافقتها)). يعتبر نيتشه هذه النتيجة الزائفة مؤقتة:((الحقيقة العظيمة تكسب قضيتها أمام و في حضرة السادة النبلاء، الذين يستمدون في معظم الحالات اسمهم ببساطة من تفوق قدرتهم أيّ كأقوياء و أسياد و زعماء، في أخر المطاف)).

محملاً بآمال أن يمارس مذهبه في العود الأبديّ تأثيره التاريخي المأمول إزاء المهمة المنوطة به، يقدم لنا نيتشه النصيحة – آهْ، النصائح يجب أن يعرف المرء كيف يسديها لنفسه أو يتلمسها عن الرفاق – التالية الممزوجة في الأمر و التحذير: ((دعنا نحترس و نسلح أنفسنا في الضِدّ من المذاهب و التعاليم الدينية – التعاليم التي تخرج و تنبثق على حين غرة و نحو مفاجئ!.... يجب أنّ تدخل بخطوات بطيئة و محترسة.... التفكير السامي النبيل يتطلب آلاف من السنين كي يصبح واقعا – لأن الوقت الطويل الممل ينبغي أن يكون صغيراً جداً و عاجزاً و ضعيفاً و واهناً!)). كان نيتشه لا يريد ((ثلاثين عاماً من قرع الطبول الصاخب و المثير و عزف الناي، و ثلاثين عاماً أخرى من عمل حفاري القبور)) كي يحقق مذهب العود الأبديّ وجوده في الواقع و يمارس و يضطلع بمهمة تأثيره التاريخي. ((لقد عقدت العزم على قتال و محاربة السذج و المفرطين في الحماسة و التفاؤل حول هذه النقطة. أريد، أولا و في المقدّمة، أن أدافع عن أفكاري. إنّ تكون هذه الأفكار حقاً دين الرجال الأحرار القادمين، و النفوس الأكثر نبلاً و صفاءاً و سمواً – إنّ تكون مرجاً جميلاً و أرضاً خضراء بين الثلج المطلي بالذهب و السماء الصافية النقية!)).

و لكنا مازلنا نرى من الآتي أنّ نيتشه – الذي يقول عندما يخسر المرء أيّ حرب، عليه أن يعيد فهم نفسه، و على خلق حياة جدية. عليه أن يفهم عَلاقة الفرد بالمجتمع – مازال يلقي بظلال الشك و يثير الكثير من التعليقات حتى على أكثر الأفكار أهمية و تعدّ أساسيّة له: ((ربما تكون فكرة العود الأبديّ فكرة غير صحيحة – ربما هناك عدد من الأفكار التي تتصارع معها!)).

الموجز و السّؤال: الله أم الدائرة؟ – ينبغي أن نأخذ نصب أعيننا أنّ مذهب العود الأبديّ، في المقام الأول، هو فرضية فيزيائية – كسمولوجية معاً. لقد خضع نيتشه، صاحب هذه الفكرة، إلى سحر الانسجام و الوفاق و التصالح المفترض فيها مع قناعة أشبه بالراسخة بقدرة المعرفة البرهانية و العلمية التي تتوفر عليها. و نتيجة لذلك، فقدَ نيتشه الجوهر الفلسفي لهذه الفكرة دون أنّ ينجح هو الآخر في إثباتها علميا.

في المقام الثاني، لا يمكن لفكرة العود الأبديّ أنّ تنفصل عن الاعتقاد بواقعها البرهاني – و لكنها في هذا الصدد تبدو فكرة فارغة تماما. لأنه، باستثناء أو ما عدا تأكيدها على تَذْكِرَة الأنماط السابقة للوجود، لن تكون هذه الفكرة أكثر من أمر سخيف و عديم الأهمية: مادام أنّ فكرة الشيء نفسه الذي يحدث بالضبط و يتكرر مرات غير معدودة ليس أفضل بكثير من فكرة الشيء الذي يوجد فقط مرة واحدة إذا كان الوجود مرة واحدة لا يرتبط إطلاقاً مع الأوقات الأخرى سواء بالذاكرة، التوقع، أو التحول.

السّؤال هو لماذا بعد كلّ هذا الهجوم و النقد الذي تعرضت له فكرة العود الأبديّ نجد نيتشه يدافع عنها و يؤكد على أهميتها بقوة؟ من أين استمدت هذه الفكرة، التي تضرب في جذورها في أعماق النفوس، قوتّها و باسها؟ كان جواب نيتشه هو أن هذه الفكرة تدق المِسْمَار الأخير في نعش ((فكرة الله كذبتنا التي دامت أكثر من أيّ دائم آخر)) و تقوم بالترتيبات النهائية الأخيرة لموت الله؛ كما إنّها تمثل القوة المحركة الضاربة وراء تقويض العدمية.

فكرة نيتشه في العود الأبديّ تقوم على أساس أنّ العالم الحاضر هو الوحيد الذي يوجد هنا، و حقيقته و واقعيته هي الوحيدة الموجودة و المتاحة هنا، و أن عادة التفكير في ((عالم آخر)) هي أسوء بكثير من التفكير في العدم – لأنّها تنزع إلى تقليل من شأن و أهمية هذا العالم الواقعي الذي نعيش فيه و تنتقص من قدره، بطريقة تجبر الإنسان على أنّ يبحث عن عالم آخر إلهي متعالي بدل

عنه. هذا الحال ليس بديلاً تتطلبه الظروف بسبب حجم الخسارة المؤسفة و البائسة السيئة الحظ الذي نتعرض لها، و لكن ينبغي أن تكون أعلى مما تم خسارته. ينبغي لفكرة العود الأبديّ، التي تلبي هذه الحاجات و المتطلبات و ترضيها، أن تسير باتجاه معارض و منتصر بالضِدّ من فكرة الله.

في فرضية النتائج الأخلاقية المترتبة على الاعتقاد و الإيمان في الله – الفرضية التي لا يمكن الدفاع عنها تاريخياً كونها تشكو بحد ذاتها من تناقض سايكولوجي – يرى نيتشه إمكانيتين. أولا، تبدو فكرة الله فكرة سطحية، ما لم يكن الأخير ((يريد شيء ما))، مع أنّنا سوف نكون بحاجة إلى مقاصده حين يتم التميز بين العالم، كما هو، و الوجود. و بما أنّه، في عملية صيرورة الأشياء، يحدث ((التكرار لنفس رمية الزهر أو النرد على الأرجح أكثر من النقص الكامل للتماثل و التشابه، فإنّ اللاعود و تكرار لنفس الشيء الجديد يمكن أن يتم توضيحه فقط بواسطة بعض التصميم الهادف غير الموجود في كوننا)). نتيجة لذلك، بالنسبة لأولئك الذين يحاولون أنّ يفرضوا على العالم قدرة التجدد الأبديّ ينبغي أنّ يصلوا إلى فكرة أن العالم قصدياً يزيغ و يتملص أن يكون له هدف، بل أنّه حتى قادر على أنّ يتجنب بطريقة اصطناعية زائفة الدائرة. إذنْ، ((أيّاً كان الذي لا يؤمن في العملية الدائرية للكون، فإنّه سيجد نفسه لامحالة يعتقد في فكرة الله الاستبداديّ المتحكم في كلّ شيء المستقيمة)). و لكن بما أنّ هذه الفكرة الأخيرة سارت و قطعت أشواطاً طويله في مسيرتها، و هي، فضلاً على ذلك، في تنافر و تضارب حاد مع عملية التفلسف العقلي الصرف الحقيقي، فإنّهُ لم يعد أمامنا سوى حقيقة عملية العالم-الدائري – و هذه الفكرة لديها التفوق و الصدارة، عند نيتشه، على الإله المعبود.

و لكن هناك، الإمكانية الثانية:إذا كان الإله الذي نؤمن به لا يريد أيّ شيء، فإنّ الإيمان فيه سيكون ((وعي كليّ في الصيرورة... سيقود إلى قَبُول الحوادث من وجهة النظر الوجود، حيث يشعر بكل شيء، و يعرف كلّ شيء، و لكنه لا يريد أيّ شيء)). بيد أنّ ((الإله الذي يعاني و الذي يرى كلّ شيء، الإحساس الكليّ و عالم الروح، سيكون بمنزلة الاعتراض الأكبر ضِدّ الوجود)).

و بذلك، تمثل فكرة العود الأبديّ – باعتبارها الإمكانية الوحيدة المتاحة لنا حين لايكون هناك إله – بالنسبة إلى نيتشه وسيلة يستطيع بموجبها العالم أن يهرب من كلّ التشوهات و الطعن و الافتراء و القذف الذي يوجه إليه: هذه الفكرة تُسرع من عملية التحقق الذاتي للعالم و الإنسان السامي و الرفيع الطراز في المرتبة، و تزيد كذلك من التأكيد غير المبرهن عليه و المطلق و تدفع

به إلى أقصى مدياته – كما تعيد صياغة سطحية الإله المعبود و كلّ الموجودات الأخرى الذي ربما تظهر خارجية و في تعارض مع هذا العالم. لهذا السبب، كان نيتشه يقول عن العود الأبديّ الآتي: ((هذه الفكرة غنية و خصبة و تحتوي على أكثر ما تحتوي عليه الأديان من أفكار تبغض العالم و تحتقره و تقلل من شأنه و كأنّهُ شيء عابر و زائل لا قيمة له)). إنّ فكرة العود الأبديّ هي ((دين الأديان)).

و بينما تبدو فكرة العود الأبديّ فارغة بالنسبة لنا، فإنّها، في نفس الوقت، تعبر في الواقع عن الأشياء بشكلٍ موضوعي صرف دون اللجوء إلى العالم الترسندالي المتعالي – فهي مازالت تثير اهتمامنا، و لاسيَّما حينما نحاول أنّ نقتفي أثر تطوير نيتشه لها في هياكلها و تفاصيلها الكاملة:

فكرة العود الأبديّ هي أول طرق التعبير عن التَجارِب الوجودية للإنسان: تنتج فكرة العود الأبديّ وجودي الخاص و تعينه كي يمارس و يضطلع بمهمة ذاته و هويته بواسطة نشاطاته الحياتية المختلفة كي أحقق المديات القصوى من إمكاناتي المختلفة بواسطة نقلها من عالم القوة إلى عالم الفعل. إنّ ما ياتي إلى الوجود مرة هو الأبديّ – إنّ ما أقوم بخلقه و أنتجه الآن هو وجودي الأبديّ؛ و لكن أبديتي كموجود يتم تقريرها وحزمها بواسطة شرط الزمان.

فضلاً على ذلك، العود الأبديّ هو عملية استيعاب و تمثل (*Aufgehobensein*) لكلّ الأشياء في الوجود: مع فكرة العود الأبديّ ليس هناك بداية، و لا هناك نهاية – العالم دائماً في حالة من الكمال، دائماً في حالة من الاكتمال، العالم – الذي كم تظهر لي فوائده متعبة عقيمة و غير مفيدة – دائماً هو البداية، و الوَسْط، و النهاية. كلّ شيء فيه يتم استرداده و تحريره و إعتاقه من قيوده. الزمان و تلاشي الزمان فيها كلاهما أمر واحد – و هما الشيء نفسه. الأبديّة، في كلّ لحظة، تحب أن تستولي على كلّ الموجودات تنشطها و تهذبها و ترفعها إلى حال من الكمال الدائم و الخالد.

تظهر كلاً من الحَدّة و الشَدّة العالية للنشاط و التفاني العميق للوجود و تلتقي بشكلٍ واضحٍ في فكرة العود الأبديّ، و كلاهما له أهدافه و مأربه الخاصه فيه. في فكرة العود الأبديّ، يجرب نيتشه كلاً من حرية الوجود الذي تضغط و تتحرك بقوة نحو الأمام و إلى الأعلى، و عشق وحدة الوجود و اتحاده. في هذا التأكيد الإيجابيّ الأولي لفكرة العود الأبديّ، يرى نيتشه المصدر و الهدف لتبرير للخير الإلهي و تسويغ العناية الإلهية في ظل وجود الشر – يكشف عنها، و يؤكد وجودهما،

و يحقق و يبرر وجودهما. يلمس نيتشه، بواسطة فكرة العود الأبديّ، حدود الوجود في نمط حقيقي و أصلي بالنسبة له يحاول يستغيث بنا و يلجأ و يوجه مطالبه و رسائله إلينا، لهذا السبب وحده.

لا تقودنا فكرة العود الأبديّ، باعتبارها تَذْكِرَة عقلانية صرفة، عبر دروب ما تم التوصل إليه و إبلاغه من نتائج نهائية عند نيتشه بشكل مباشر بالمرة. و هي لنا، ليست مناسبة كوسيلة للتعبير عن التَجارِب الإنسانية الأساسية. تعدّ الجاذبية التي تعزى إلى اللحظة الحاضرة بواسطة هذه الفكرة أنّ ما يرشح منها هو أمر حاسم لكل الأبديّة و هو ليس إنقاصاً بل في الواقع زيادة بواسطة التفكير المضاد للعود الأبديّ: الحكم الذي مفاده أنّ كلّما مضى لا يمكن أنّ يرجع إطلاقاً، و أن كلّما حدث لا رجعة فيه؛ ما يحدث الآن يمكن أن يفهم فقط بوصفه وجوداً بواسطة علاقته بالترسندالي المتعالي. و لما كان الزمان لا يرجع و الوجود الزماني المؤقت لا يكرر نفسه، فإنّ الوجود، في علاقته بالترسندالي المتعالي، التي لا يمكن إطلاقاً أنّ يرجع، يمكن أن تعني أما الإنجاز و الكمال الأبديّ أو الخسارة النهائية التي لا يمكن علاجها أو إصلاحها. حينما نقول، و بالإشارة إلى نيتشه، إنّ تفكيره يخلو من عنصر الترسندالي المتعالي، فنحن على حق فقط في الطريقة التي نستطيع أن ندركه و لكن ليس بخصوص الطريقة التي نجربه فيها. بواسطة فكرة العود الأبديّ، يدخلنا نيتشه إلى المناخات غير المتاحة لنا و ليس في متناول أيدينا – لكنه مع ذلك كما لو أنه يأخذنا، في هذه المحاولة، بعيداً إلى وَسْط البحر – حبيب الإنسان منذ الأزل، لقد اجتمع الشباب و الحُبّ و البحر في تركيب سحري – ثم يتركنا نغرق في الفراغ. مع ذلك، نحن نحافظ على البعض من الروابط الفلسفيّة مع نيتشه في هذا الفراغ و مرد ذلك إلى المعاني المعبر عنها التي تجعل تفكيره يرتبط في سلسة كبيرة من الأفكار الأخلاقية و الصوفية المهمة. لكن العرض الموضوعي فحسب لهذه الأفكار، و الذي يقصي النتائج المهمة التي تتوفر عليها، سوف يجرد تفكير نيتشه تماما من الأهمية و المدلولية التي يحملها.

فقط في كلمة واحدة من كلمات نيتشه ربما يظهر المعنى المراد به من وراء مذهب العود الأبديّ بصورة مستمرة: لم يقل نيتشه، على سبيل المثال، ((العَود غير المحدود)) بل قال ((العود الأبديّ)) – و لكن ما الذي يعنيه نيتشه بتعبير ((الأبديّ)) حقاً؟

للإجابة على هذا السّؤال، دعنا نلجا إلى تأويل كريكغارد للأبديّ. يميز كريكغارد بين ثلاث طرق في لحظة إدراك العَلاقة بالأبديّ: [1] إذا كانت لحظة العَلاقة بالأبديّ غير أساسية و أصيلة،

فإنّ الأبديّة تظهر من الوراء و الخلف، كماضي (كما الطريق الذي يسير فيه الإنسان دون اتجاه، أو بوصلة، أو هدف، الذي يظهر فقط خلفه، كمسافة مغطاة). [2] و إذا كانت لحظة العَلاقة بالأبديّ أساسية، و لكن فقط كقرار، حينها فإنّ المستقبل سيكون هو الأبديّة. [3] و لكن إذا كانت اللحظة هي نفسها أبديّة، فإنّ الأبديّة هي ((مستقبل العودة كماضي)). هذا المفهوم الأخير، بالنسبة إلى كريغكارد هو مفهوم مسيحي صرف: ((إنّ المفهوم الرئيس الذي تدور عليه كلّ الدِيانة المسيحية، بأفكار كهذه يتسمم العالم ...هو في الواقع اكتمال الزمان؛ مع ذلك، إنّه اللحظة كأبديّة، و أنّ هذه الأبديّة هي ماضي و مستقبل في ذات الوقت))[83]. إذا اعتبرنا كريكغارد سلطة معرفية، و وافقنا على أنّ حجته أعلاه لها صلة قريبة من تفكير نيتشه، ربما نتسائل إذا ما كان نيتشه، و بتفكيره المضاد للمسيحية مع فكرة العود الأبديّ، كان يريد، بسبب هذه الصلة، أن يتخلص من كلّ بقايا المسيحية في فكرة ((العود)) الأبديّ – مع أنّ التغير و التحول في هذا الجانب عند نيتشه لا يمكن تميزه و التعرف عليه بيسر. في هذه الحالة، يمكن القول إنّ نيتشه أخفق في المضي في إحداث القطيعة المعرفية التي يصبو القيام بها بشكل كامل مع المسيحية – التي لو كانت عادلة فيجب أنّ تعطي القوة من هم على حق لا لمن هم على باطل – و الترسندالي المتعالي: مع أنّه كان يطمح في إرساء دعائم تفكير خالي من الإله و من شوائب و نوابت الفلسفة الترسندالية المتعالية اللاتاريخية، وصلَ في النهاية ضمنيا إلى شيء مختلف تماماً عما كان ينوي و يضمر القيام به، شيء يتكون من جوهر كان قد رفضه من قبل.

و لكن ربما يطرح المرء السّؤال الآتي: ألم يكن تفكير نيتشه في مذهب العود الأبديّ بحدّ ذاته عملية تجديد للتفكير الإغريقي؟ بيد أنّ نيتشه لم يعدّ تفكيره عملية تلخيص لمصادر التفكير الإغريقي ما قبل سقراط. و لكن لما كان معروفا أنّ نيتشه قد رفض التفكير الفيثاغوري جملة و تفصيلاً خلال مرحلة الشباب، فإنّهُ يعترف بوضوح أنه ليس هناك نسب أو صلة تاريخية مع التفكير الإغريقي – بل إنّهُ قد قرأه بطريقة جديدة و مُبدعة.

بما أنّ فكرة العودة الأبديّ، كما يراها نيتشه، لا تتجذر في أصولها، التي ما انفكّت تفلت أكثر فأكثر من أيّ تحديد، لا في المسيحية – حيث الحُبّ سيف لم يكن للمسيح سيف غيره و بواسطته أخضعَ العالم – و لا في التفكير الإغريقي، و هي تكاد تكون خالية من التاريخ و الإشارة إليه لا من بعيد أو من قريب، فإنّه ربما يقال عنها إنّها قد تم صياغتها قسراً خارج حالة العناد التاريخي – تم

صياغتها من العدم، إذا جاز التعبير – و إنّها ترجع فقط إلى تاريخها الخاص بها لا إلى أيّ تاريخ آخر. ربما يمكن القول أنّ نيتشه كان يريد أن يقبض على الإنسان و يمسك به عارياً و مجرداً تماما بعد رفضه القاطع لكلّ المادة التراثية و التاريخية و مخزوناتها ذي الأبعاد الكونية المتوفرة عنه و عن معتقداته، حيث كانت تراوده فكرة الدفع بالإنسان – و ليس هناك فكرة أكثر أهمية من ذلك عنده – بقوة نحو الأعلى و الرفعة و السمو. لا ينفصل مفهوم نيتشه في العود الأبديّ أو ينفك عن محاولة صياغته مفهوم يهيمن على وعيه الكلي-التاريخي لعصره —— الذي يعبر حقاً على الكارثة: لقد تحولت الآن كلّ المعاني و القيم المسيحية، طبقاً إلى نيتشه، إلى سلسلة من صور أشباح خالية من الجوهر و المضمون – زد على ذلك، نحن نشهد تحولات راديكالية خطيرة لم تجرب الإنسانية مثلها من قبل إطلاقاً، و نحتاج إلى يَنبوع ينبغي أن يتدفق بالجديد. و لكن هذا التفكير الكلي-التاريخي الفخم الذي يحاول أن يعي كارثة و بؤس العصر الذي نعيش فيه، يبدو و كأنّه، لازال عند نيتشه مجرد غرف فارغة تماما من الأفكار و المضامين: و بهذه الصيغة الخالية من الحياة يقدم نيتشه دون أن يعلم بسهولة خدمة كبيرة للمقاربات السلبيَّة. بيد أن التفكير في الاستحالات غير الممكنة في مذهب العود الأبديّة، عند نيتشه، ليس بديل عن توقعات و تكنهات المستقبل أو حتى تقييم للحاضر. وَسْط هذه الأجواء من العدم و الفراغ – الفراغ الذي لم يدركه نيتشه فحسب، بل جربه كذلك في الواقع و بطريقة عميقة و صادمة – حاول الأخير في تفكيره أنّ يرفع من شأن الإنسان، الذي يعيش محنة حقيقية، و يسمو به عالياً. و لكن بدلا من توضيح هذا التفكير الذي لا يسبر غوره، و الذي في كلّ المناسبات غير مناسب، منحه نيتشه معاني مهمة تنجز بنائه الأخير، و لكنها لا ترتبط به حصريا أو بالضرورة. هذا الأمر يمكن توضيحه بواسطة حقيقة أنّ نيتشه يتحدث عن فكرة ((العود)) الأبديّ، مع يقين لا يساوره الشك في معاني الكلمات – التي تجاهد لتتحول إلى صوت بشري – تسمح و تجيز لكلمة ((العود))، إذا جاز التعبير، أنّ تحمل إيحاءات مبهمة و غير واضحة بشكلٍ صريحٍ.

حب القدر (Amor fati) —— يستخدم نيتشه تعبير حب القدر للإشارة إلى تأكيد الوجود و إيجابيّته، التي هي في نفس الوقت تأكيد إلى وُجوديّ. حينما لا اتبدد و اتبعثر في تأكيد عام لكلّ الوجود، أو اتعاطى مع شخص مفرد ملتصق بنفسه بشكل مقلق و ملهوف، عليّ أن أترك الاثنين و أذهب باتجاه و نحو التاريخ الحاضر، الحاضر التاريخي لوُجوديّ في هذا العالم، حيث مع هذا التاريخ أكون حقاً مع الوجود وجهاً لوجه.

انبثقت البذور الأولى الرشيمية لتفكير نيتشه حينما كان مازال فتى تلميذاً لم يتجاوز بعد سن الثامنة عشرة – في هذه المدّة لم ينقطع نيتشه عن التفكير في عمق العَلاقة بين الإرادة الحرة و كُلّية الأحداث، و في العَلاقة بمفهوم القدر، حيث توصل إلى نتيجة مفادها ((إنّ حرية الإرادة – الإرادة الحرة هي القوة السامية للقدر)). و بينما تتضمن حرية الإرادة ((للفرد مبدأ الانفصال عن الكلّ))، ((يضع القدر مرة أخرى الإنسان في رابطة عضوية مع الكلّ المتطور.... الحرية المطلقة للإرادة – التي هي الخضوع للفكرة لا الخضوع للهوى – دون القدر تجعل الإنسان يجلس مكان الله))، و يقوم المبدأ القدري بتحويل الإنسان إلى مجرد آلة لا أكثر.

بعد بضعة أعوام، بدأ نيتشه يغوص بأفكاره عميقا، و يذهب حتى خلف المخطط النظامي للتناقضات، و انتهى به الحال أن ينظر إلى الوجود بوصفه شيء يُرمَى على اللحظة الحاضرة للإنسان ليصنع تاريخه، الذي يمثل الحقيقة الأساسية و المقوم الرئيسية لهذا الوجود: حينما نصطدم و نصادف الصيرورة اللامتناهية، فإننّا نهزم بواسطة الحقيقة المبهمة، و هي ((مع أنّنا لدينا زمان لامتناهي كي نصنع ظهورنا، ألا أنّنا نظل في الحقيقة حبيسيي اللحظة الواحدة المنفردة الخاصَّة التي نعيش بواسطتها)) – و ندرك أننا نعيش حقاً فقط ((حياة قصيرة الأمد))، مطلوب منا فيها من الأهمية بمكان أنّ نبين ((لماذا، و لأيّ غاية نحن هنا في هذا العالم في هذه الفترة القصيرة التي نعيشها – لو كان للعالم هدف لكان هذا الهدف قد تحقق، و لكن العادة القديمة التي تقتضي التفكير في وجود هدف لكلّما يحدث في وجود إله خالق للوجود و يسير كما يشاء، هذه العادة شديدة القوة بحيث إنّ المفكر يجد صعوبة في عدم تصور غياب الهدف)) – هذا السبب وحده يملأنا بالشجاعة، طبقاً إلى نيتشه، ويجعلنا نحاول، نتيجة لذلك، ((أنّ نعيش الحياة طبقاً للمعايير و القوانين التي نضعها أنفسنا))؛ في الواقع، نريد ((أنّ نؤدّي دور الشخص الذي يقود سفينة بحر الوجود المتلاطم الخطر، و ألّا نصنع معنى وجودنا و ألّا نسمح لوجودنا أن يظهر مجرد حادثة طائشة)). و لكن العالم، على عكس ذلك، يهدف أن يسير بطريقة تضللنا كثيراً، بطريقة لا نستطيع أن نرى ما تم إنجازه من قبل أو نشعر بقيمته. إنّه يعمل دائماً على تجريدنا من نفوسنا و من كلّ شيء: ((يقيناً، إنّ كلّ الأنظمة الإنسانية بلا استثناء مُرتبة بطريقة تمنع الوعي العقلي المستمر و بطريقة محيرة من الشعور و الإحساس بالحياة)). و لكن في اللحظة التي تصبح الحياة واعية بوجودها، في هذه اللحظة الحاضرة في وجود الإنسان الفضولي، في اللحظة الآن، لا تعثر الحياة على مدلولها و معناها في الاستيعاب و التمثل الكلي لبعض الطبقات أو أخرى. حينما يقدم المرء نفسه بوصفها جوهره، ((فإنّه يقول لنفسه

(أنت ليس هذا فقط)، ليس هناك أحد آخر بوسعه أن يبني الجسر الذي سوف تعبر بواسطته نهر الحياة – ليس هناك أيّ أحد عدا أنت، أنت وحدك من سيدفع ثمن حياتك. بالتأكيد هناك طرق و جسور لا حصر لها و أنصاف-إلهة مستعدة إلى إن تحملك على ظهرها كي تعبر فيك النهر، و لكن فقط مقابل ثمن باهظ تدفعه أنت نفسك... في هذا العالم هناك طريق واحد خاص لا أحد يستطيع أن يقتفيه عداك أنت. إلى أين سيقود؟ ليس مسموحاً لك أن تسأل، فقط حاول أنّ تسير فيه و تقتفي أثره)). حينما يقول المرء أنّه ((يريد أنّ يكون نفسه))، يكتشف أن هذا الحَلّ حقاً حل مفزع و مخيف...؛ فهذا يتطلب منه أن ينزل إلى أعمق أعماق الوجود.

مازال تعبير الوجود ضمن الصيرورة، الذي هو من أقدم التعابير الذي استخدمها نيتشه لغرض تَرْجَمَة فكرة أبديّة العود أو العود الأبديّ، يُنظّر إليه بوصفه شرط و متطلب للغوص في أعماق هذا الوجود: ((في الصيرورة – التي يجب أن نفسر الصيرورة دون اللجوء إلى النيات القصدية – كلّ شيء عبارة عن فراغ، وهم، و سطحي.... إنّ السِرّ الذي يجب أن يقوم الإنسان بحله، يمكن أن يقوم بحله بواسطة الوجود – الوجود القائم و الذي لا يمكن أن يتلاشى و يفنى. الإنسان الآن هو بداية مقياس أعماق هذا الإندماج مع الصيرورة و الوجود معا)). الوجود، مع ذلك، لا يمكن الوصول إليه إلاّ بواسطة الحُبّ المطوق الحقيقي للوجود الحاضر، بواسطة حبّ القدر الذي يعثر على طريقه الممتد من مجرى الصيرورة – التي تظل في لحظة مساوية لنفسها في كليتها لا يتغيّر مجموع قيمتها – إلى تاريخية الوجود الحاضر المنجز، و يتوج بواسطة الاستيلاء على الوجود بواسطة الصيرورة.

في حب القدر، هناك العديد من الأمور المتضاربة تصادف و تلتقي بعضها البعض: يرتبط النشاط الحاد الذي يصبو إلى إنجاز المستقبل مع قَبُول و حب كلّما يحدث في هذا العالم بغض النظر عن ماذا يكون. و لكن التعبير المفهومي لهذا الانصهار أو اللقاء في حب القدر ممكن فقط بواسطة المفارقات المؤهمة بالتناقض. التميز العقلي بين التناقضات يصبح عينة مزيفة، لأنّه يخفق في فهم أهمية هذه النقطة فيما يتعلق بدور هذه التناقضات. إنّ المعنى العميق لحب القدر بتناقضاته لا يصل إليه حتى بواسطة القول الآتي: ((قبل أنّ يضربنا القدر على رأسنا بيده الثقيلة، ينبغي لنا أن ندله على الطريق المنشود الذي يريد السير فيه...، و حين ينزل بقوة بيديه ضاربا على رؤسنا، علينّا بدلاً نظهر له مشاعر الكراهيّة، التي هناك مئة دلالة و دلالة تتيح لنا أن نحرز طبيعتها، علينّا أن نحبه))،

علينّا أن نفكر كيف نبقى على قيد الحياة، لأن هذا مؤقتاً يقضي على شعور الوحدة. في نفس الوقت، المعرفة العميقة تنصح بأنّ عليّ ألّا أُعْلِي من شأن القدر كما لو أنّهُ شي أعرفه جيداً و بوسعي أن أعقد صفقة سلام معه و أضع له هدفاً – في الواقع، هذه النصيحة صحيحة من وجهة نظر وجودية بما لا يقبل الشك. من جانب آخر، إنّ الصياغة التي يقدمها حب القدر و القاضية أنّ يخضع المرء بقدره إلى كُلّية الحوادث هي الأخرى خِيار غير معقول، بمعنى: أنّ نقول ((إنّ كلّ هذا الذي يقوم به المرء يمارس تأثير لامتناهي على كلّ شيء يأتي إلى الوجود))، و إنّ ((السمة المحتمة لطبيعته لا يمكن أن تنفصل عن السمة المحتمة لقدر ذلك الذي كان و سيكون)) تعني ببساطة، إنّ ((القدر هو تفكير مبني بالأساسّ على المرء الذي يفهم إنّهُ جزء منه))، (بينما تشير هذه الفكرة أيضاً و بطريقة صحيحة أنّ القدر نفسه يعتمد و يعول عليّ). مع ذلك، حب القدر يتضمن أكثر من هذا التناقض: فكشيء يؤكد على الضرورة بذاتها، يهدف القدر إلى إقامة الوحدة بين الصيرورة و الوجود في قدر الفرد ضمن عالمه الخاص، و كذلك يقيم الوحدة بين إرادة هذا الفرد و موافقته. في هذا، تصبح روح النشاط الأصيل للفرد واحد مع تجربته للحوادث في الوجود. كلّ شيء يعتمد و يعول على تأويل نيتشه للضرورة.

إنّ الضرورة التي هي موضع السّؤال ليست في الواقع مقولة الضرورة التي تطبق عليها العمليات السببية المصنفة ضمن القوانين الطبيعية التي تنتمي إلى المذهب الآليّ. هذا هو نوع الضرورة السببية، كغريزة يثيرها فينا الشعور بالخوف من كلّما هو جديد و غريب و ليس لدينا خبره عنه، التي كانت في ذهن نيتشه، حين وقف بالضِدّ من ((تأليه الضرورة))، و حين يقول، بالضِدّ من الضرورة المفترضة للتاريخ البشري التالي: ((أنا لا أُعْلم أو أشجع على التخلي عن الضرورة ــــ بما أنّ المرء عليه أن يعرف و يفهم أولاً ما هي الضرورة قبل أن يأخذ أيّ موقف منها...)). بخصوص النزعة التي تعدّ هذه المقولة، كمقولة مطلقة، يتحدث نيتشه، بناءً على ذلك، حتى عن عملية ((استئصال لمفهوم الضرورة)).

القدر (*Fatum*)، بالنسبة إلى نيتشه – الذي رَمّ المستحيل فعرف على الأرض أفظع عذابات الجحيم، اليأس كله – هو الضرورة – خياري وحده جعلني من أنا و أنا لا أندم على ذلك قطا – و هو ليس بمقولة، و لا هو قانون للطبيعة، أو قانون للغاية، أو إكراهاً دامغاً، أو حتى قصداً. بل أنّه بالأحرى يتضمن كلاً من الصدفة – العالم الذي لا رَبّ يحكمه؛ ليس هناك سوى الصدفة العمياء التي

تخدم الضعفاء و الأقوياء على حدّ سواء، طفل هرقليطس الكبير، التي تنتسب إليها كلّ الأشياء – الحادثة و القانون، الفوضى/ السديم و النظام الذي يبدو سائر نحو غاية. يتضمن مذهب العود الأبديّ عند نيتشه – هذا العالم يريد كلّ الأشياء التي كانت في الوراء، لأنّه يريد كلّ الأشياء التي كانت، و أنّه يريد إلى الأمام، أنّه يريد كلّ الأشياء التي ستكون – هذا النوع من الضرورة في طلبها الأساسي و مفاده إذا كان كلّ شيء يحدث، فإنّهُ يحدث بالضرورة، و من الواضح أني أنا الآخر ارتبط بسلسلة الضرورة هذه – أنا نفسي جزء من القدر. (حتى و أن كانت فكرة العود الأبديّ هي، بعد كلّ شيء، أكبر القُوَى و أكثرها تأثيرا ضمن مسار هذا العَود). ولما تم الاعتراف و التسليم بضرورة القدر و حتميته، فإنّ عملية حب الواحد لقدره (amor fati) هي ليست خضوع أعمى للضرورة المفترضة – بل هي بالأحرى ((التمتع في كلّ أنواع اللايقين و التجريب)) كتعبير عن النشاط الحر.

فقط حين تنال الضرورة الحقيقية للقدر، التي تتجاوز أيّ مقولة محددة، و تحصل على الاعتراف الكامل، تأتي فكرة حب الإنسان لقدره حينها لتؤكد هذه الضرورة: ((ليس فقط حمل عبء الضرورة، و ليس أقل من ذلك إنكارها – كلّ المثالية هي ببساطة كذب صريح في وجه الضرورة – و لا يقتصر الأمر على ذلك فحسب بل يشمل حبها أيضاً...)) ((نعم، عليّ، من الآنَ فصاعداً، أنّ أحب فقط ما هو ضروري! نعم! دع حب المرء لقدره أن يكون حبي الأخير!)) ((أريد أنّ أتعلم الكثير و الكثير لأرى وجه الضرورة في الأشياء كجمال... لأرى بوضوح حب المرء لقدره: هذا الحب سيكون من الآنَ فصاعداً حبي!)) إنّ ما يرغب به نيتشه أولاً هو أن يعبر و بسرعة عن ماهيته و جوهره: ((الضرورة لا تؤذني؛ حب المرء لقدره هو طبيعتي العميقة الحقيقية)).

الموقف الأساسيّ الواضح الذي وصل إليه نيتشه هنا هو التأكيد الإيجابيّ على فكرة العود الأبديّ، بوصفها شيء ما كان يجري التبشير به على لسانه و يجري التحضير له على يديه: ((يتم بلوغ الحالة السامية و الرفيعة الطراز فقط بواسطة الفيلسوف: إنّ موقف ديونيسيوس من الوجود – يعبر بالنسبة لي عن حب المرء لقدره)).

مع ذلك، يعتبر نيتشه مذهبه في العود الأبديّ – الذي لا يدور حول الحقيقة و المعرفة بل كان يدور حول الواقع و خبرته و معاناته – ك ((كمال القدرية)) – هذا الكمال للقدرية – التي تبث في العالم إكراهاً زائفاً؛ و القانون يبث فيها حرية زائفة – لا يتضمن أيّ نوع من أنواع الإكراه الموجودة و المتضمن في مقولة الضرورة المعروفة كقانون طبيعي، كقانون للواجب، أو أيّ نظام

عقلي أخر. إنّ القدر لا يقاوم كلّ محاولات فهمه فحسب، بل حتى يصبح شيئاً متناقضاً في كلّ شيء و ليس على وفاق مع نفسه حين يتم التعبير عنه: ((إنّ القدرية العالية و السامية، مع أنّ تطابقها مع الحادث العرضي و الخلق (هي ليست تكرار الأشياء – بل هي مستقبل خلقها))). هُوِيَّة التناقضات هي تعبير ترسندالي متعالي عن ماهية الوجود الذي لا يمكن أن يصنف تحت أيّ خانة أو مقولة من المقولات المعروفة التي لا وجود لها إلاّ في العقل و لا صلة بالطبيعة و الحياة و التي أدخلناها مع فكرة العدد و الذات و الحركة لأننا بها نستطيع أن نحتفظ بذواتنا. بناءً على ذلك، لا تعبر قدرية نيتشه، التي تشبه افتقاد المسيحية لحرية الإرادة أمام الله، عن السلبية و اللافعالية و الهمود، و لكن عن القوة الدافعة للنشاط النبيل الأصيل الذي يتجاوز الضرورة المعروفة و المِيزة في العالم لأنّه يواجه ضرورة من نوع أخر. و بذلك، يحبها نيتشه و يؤدي لها التحية في الواقع كإله:

آهْ، إيّها المساء، آهْ إيّهُ الصمت المطبق، آهْ أيتّها الضوضاء الساكنة المميتة

أرى الإشارة و العلامة الواعدة –

من مسافات بعيدة – من أبعد المناطق

تتلألأ على هيئة نجم يسير ببطء نحوي

النجم العالي للوجود!

بأشكال أبديّة محفورة !

يأتي إليّ؟ –

درع الضرورة!

هذا النجم العالي و السامي للوجود

بواسطة عدم تحقيق أيّ رغبة،

لا يُلطخ أبداً

إلى الأبد، نعم الوجود،

إلى الأبد، أنا النعم الذي تخصك و تُمنح إليك:

لأنّي أحبك، آهْ أيتّها الأبديّة!

العناصر الأسطورية في طبيعة نيتشه

لا يمكن للمرء أنّ تحركه قَيِم غريبة في الأساسّ عن طبيعته الأساسية. لهذا السبب، لم يفهم نيتشه – على عكس هيغل، شيلنغ، و باشوفين – إطلاقاً المعاني العميقة الكامنة في الأساطير، التي سيكون لها ما بعدها الكثير من التأثير، كما لم يتغلغل – خلافا إلى كريغكارد – إطلاقاً أو ينفذ إلى الجوانب العميقة في اللأهوت المسيحي. بناءً على ذلك، لم يقدم نيتشه في أعماله أيّ أسطورة، و هو إلى ذلك لم يوظف أو يجدد في واحدة، أو حتى لم يفرد أو يكرس جزء من جهده الفلسفي لبناء أيّ أسطورة جديدة – طبعاً، باستثناء الاهتمام و العناية التي أولها إلى أسطورة ديونسيوس. و لكن تظل هذه السمة، أيّ غياب الأسطورة، التي يرى البعض دونها تفقد كل حضارة و فلسفة قوتها للإبداع، من عمل نيتشه تشكل، من وجهة نظر أخرى، نقطة قوة في فلسفته نيتشه التي تمثل القطب المضاد لها.

يشجب نيتشه، الذي يهدف إلى تحرير الإنسان من الإكراهات الاستلابية للعقائد الدوغمائية، الرجل الذي شغل الدنيا و شغل الناس، بقوة قَبُول الأساطير بما إنّها ليس أكثر من مادة معرفية ناقصة لا يمكن الركون إليها أو تشكل في شكلها النهائي مضموناً جوهرياً كاملاً. لا ينبغي أنّ تكون الفرضية، التي تقول إنّ الإنسانية بحاجة ماسَّة إلى الأساطير، سبباً معقولاً في تقوية الرغبة في خلق أسطورة جديدة أو نقوم باستبدالها بعد انقضت أو انتهت صلاحيتها بأخرى جديدة. خلق الأساطير الزائفة هو محاولة متعمدة لأولئك الذين يريدون و يرومون وجوداً عادلاً و يحلمون به، حيث يعوضهم عن الوجود الواقعي الذين يعانون منه، و لاسيَّما حين يكون الوجود الأصيل غير مرغوب فيه. هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يحول الحياة إلى نوع من استعراض السيرك الكبير المثير للسخرية الذي لاحظه نيتشه في عصره و ما انفكّ عن مهاجمته و نقده بقسوة. يؤكد نيتشه، لا يمكن خلق الله – الله في داخلنا و وسائل الله هي أيضا وسائلنا – و الإلهة، فهي أشياء ينبغي أنّ نقوم بتجربتها في نهاية المطاف. وجودها ينبغي أنّ يتم معرفته و تميزه عن طريق الشيء و الرموز.

يبقى نيتشه، في هذا الشأن، فيلسوفاً صادقاً مع نفسه: طبقاً إلى التراث الأسطوري و التراث الرمزية للناس، الذين نحكم عليهم بواسطته، لم يسمع نيتشه أيّ لغة واضحة في هذا التراث قادرة على النفاذ و التغلغل إلى وجوده. بدلاً من البحث عن أساطير جديدة أخرى، تحل محل الأساطير القديمة المستهلكة في مضامينها و نوابض عملها الفكرية، يبحث نيتشه عن الأساسّ النهائي الأخير بواسطة فلسفته. إذاً، يتسلم نيتشه البواعث المحفزة لفلسفته ليس من الأساطير، و تراثها الطويل، أو اللأّهوت؛ بل بالأحرى من الوقائع و الحقائق التاريخية التي كان يراها كمصدر أولي تاريخي للتفلسف: لقد أراد نيتشه أن يرسي دعائم تفكيره الفلسفي على أسسّ متجددة يجد فيه فلاسفة الطبيعة ما قبل سقراط – و على وجه الخصوص هرقليطس – مقاربة تأويلية جديدة للوجود.

في الواقع، إن استخدم نيتشه، الذي استعار أدواته من حقول مجاوره أبرزها الاشتقاق اللغوي، عدد وفير من الرموز، و لاسيَّما في نصّه ((هكذا تكلّم زرادشت))، يجب ألّا تضللنا. هذه الرموز، التي استخدمها نيتشه في هذا النصّ، الذي يسهل علينا حَلهّا، لا تحمل ثقل و معنى الرموز الحقيقية و لا يمكن الوثوق و الاعتقاد بها – فهي تمثل لغة أقل رسمية، و في مقاصدها و تأثيرها لا تبلغ مهمة الرموز الحقيقية. في شبابه، كان نيتشه الفيلولوجّي الكلاسيكي يتحدث غالبا عن الأساطير و لا يكف عن ذكرها، و لكن فيما بعد عندما نضج أكثر كان من النادر أن يتحدث عنها و قد توقف تماماً عن الكلام عنها.

مع أنّه لم يذكر الخلق القصدي، أو استبدال الأساطير، كان نيتشه يرى، و بوضوح يكبر و يزداد ألقاً، ظهور واقعي أسطوري جديد موعود: أسطورة الحضور الديناميكي للمناظر الطبيعة، و المناخ، و الطبيعة، و الحياة، و معظم العالم الإنساني التحتي.

العنصر الأسطوري للطبيعة ـــ تزودنا و تعكس المناظر الطبيعية أو صورة الطبيعة خلفية التفكير الفلسفي لنيتشه. مجرد أنّ ترى هذه الخلفية مرة واحدة حتى تصبح مستغرقاً و هائماً فيها تماماً. غدت اللغة التي يتحدث بها نيتشه إلى القارئ، التي تتوفر على كم هائل من التعبيرات المختلفة و المجاز، و صور غير ملاحظة بوضوح أحيانا، متماهية و واحدة معه – كما شكلت، و هذا ديدنها، لغة كُلّية مفهومة تحافظ على طبيعتها الأساسيّة سالمة غير منتهكة أو ممسوسة – على سبيل المثال، هذه اللغة تعكس و تحتفظ بنبله، و صفائه، و قدره. هذه اللغة التي يستخدمها الأخير تجعل القارئ يدخل بيسر إلى عالمه الساحر و يعيش مناخات تفكيره التي تمثل الشرط الأساسيّ لكلّ

فهم. في عالم نيتشه الفلسفي، لا تظهر الطبيعة و العناصر فقط كصورة مرئية، أو قطع موسيقية رائعة للاستماع، و لكن أيضاً نمط و طراز من الواقع يتحدث إلى نفسه بشكل مباشر و لا يمكن أن يتم عرضه و تمثيله بطريقة ملائمة

إنّ الطريقة التي تتحدث فيها المناظر الطبيعية و الطبيعة معاً إلى نيتشه تكشف عن قطيعة حادّة و كبيرة حدثت لديه بين النمط الصوري المبكر، الذي يلاحظ و يرسم بصريا، على سبيل المثال، بورتيرت أو لوحة (et in Arcadia ego) لرسام نيكولايس بوسين، و الأسلوب المؤثر اللاحق الذي يتطابق مع المناظر الطبيعية. في البداية كان الحال يقتصر، على الشعور الساحق الذي تغمره به الطبيعة و تستحوذ فيه عليه كشيء موضوعي مستقل؛ و لكن لاحقاً انصهر قدر الإنسان و الطبيعة، التجسد الحسي و الوجود الحقيقي، و اندمج كله في بُوْتَقَة واحدة عند نيتشه – أنا بكل بساطة لا أرى شيئاً حينما لا يكون هناك ألوان، لا أرى شيئا أبداً. لم يصبح العالم عند نيتشه، شفاف و واضح، مع التسليم أنّ الطبيعة تضع قناعا أسطوريا ميثولوجيا، إلاّ في مدّة متأخرة من حياته. فنتيجة معاناته الكبيرة من ما هو معطى تجريبيا، اكتشف نيتشه أيضاً فيه الواقع الحقيقي، و كان قادر تماماً على القيام بهذا الاكتشاف بنمط صوري ملموس أتبعه كثيرا كطريقة في كتاباته. لم يجرب نيتشه التعبيرات الكثيفة و الحادّة للعالم المرئي في كتاباته الفلسفيّة فحسب، و لكنه أصغى أيضاً إلى لغة الوجود بواسطة الطبيعة.

هذه اللغة يمكن الإصغاء إليها و سماعها بوضوح في كلّ أشعار نيتشه – أبيات جافة و عميقة كانت تعجبه لأن فيها شيئاً خاصاً يناسبه – و لاسيَّما في القصائد و السوناتات التي وردت في نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت)). يمكن أن نكون قريبين من هذه اللغة، نلمسها و حتى أن نمسك بها، بواسطة تذكر أهم المعطيات التاريخية لسيرة نيتشه الذاتية و حياته. فبواسطة جولته اليومية في الغابات، على سبيل المثال، أصبح نيتشه يعيش حقاً على مشاهدة المناظر الطبيعية و التمتع بها و غدت حقاً بمثابة قوته اليومي الذي لا يستطيع التخلي عنه. حساسيته العالية نحو الطقس و المناخ سمحت له بالشعور – بطريقة مؤلمة أحيانا أو بطريقة متجددة ممتعة أحيانا أخرى، وصولا إلى المناطق العميقة من مِزَاجه و طاقته – بكل الفُرُوق الصغيرة و الدقيقة في مكان و زمان اليوم و العام نفسه. بذل نيتشه ((الكثير من الجهد و الحماسة)) كي يجرب روعة المناظر الطبيعية بعمقها غير المعهود:((جمال الطبيعة، مثل أيّ جمال آخر، كافي من يجعل من المرء خادما لها حصرياً)).

الطبيعة، كما ينظر إليها نيتشه، هي العالم الجميل المتواصل الذي يبقى دائماً قريباً إليه، كالصديق المخلص الذي يحتاجه المرء، في أوقاته الصعبة و كلّ خيبات الأمل الذي عاشها و شعور الوحدة القاتل الذي يستبد به دائماً. يشير نيتشه، بصورة مستمرة، إلى حضور الطبيعة بمناظرها الخلابة إليه في معظم كتاباته و ملاحظاته. تزود الطبيعة نيتشه بنوع من اللغة الشعرية الصافية النقية من الشوائب، لأن هذه اللغة ببساطة متحررة تماماً من قيود الرومانسية – الرومانسية على طريقة روسو: العشق للطبيعة، إغراء الجنون، حقد الرعاع المزعوم أنّه محب للعدالة، غرور الضعيف الذي لا معنى له – اللأهوت، و الأساطير و بهذا الصدد يقول عن الطبيعة و شعور الحَيْرَة التي يتملكه عنها الآتي:((إلى أيّ غاية يا تُرى تقودني الطبيعة و هي تتحدث إليّ بعلامات تدخل إلى النفس دون استئذان؟)). ينضج نيتشه و يؤكد على السعادة العميقة المشتقة من الرضا المأخوذ من وجود الطبيعة – فهذا الشعور كما لو أنّ نيتشه يجد فيه الأمان و العزاء في الطبيعة. وجود نيتشه الذاتي الطبيعي المشارك في طريقه في الصيرورة يعي الوجود بواسطة الطبيعة و صيرورته كفرد تتجلى بواسطة الوعي في الوجود بواسطة الطبيعة.

يمكن لشعور الفرح الغامر من جَراءِ اتّحاده مع الطبيعة أن يكون التعويض و العزاء الوحيد لنيتشه لفقدانه التواصل مع الآخرين، لكن بوسعنا القول إن إرادة التواصل، إذا جاز التعبير، و شعور الوحدة بالإضافة إلى المناظر الطبيعة كانت كلها مندمجة في بُوْتَقَة واحدة عند نيتشه. في المقام الأول، بالتأكيد، تظل ((الطبيعة العظيمة في صمتها)) المطبق ((جميلة و مخيفة تثير الدهشة و الجلالة)) في آن واحد. و لكن سرعان ما نصغي و نسمع صوتاً مختلفاً عند نيتشه حين يوجه بطله زرادشت خطابه نحو السماء الصافي قبل الغروب: ((لقد كنا أصدقاء مخلصين لبعضنا البعض منذ البَدْء... لم نتحدث إلى بعضنا البعض، لأن كليّنا يعرف أشياء كثيرة: يواجه أحدنا الآخر في صمت، نوصل معرفتنا بواسطة تبادل الابتسامات)). أخيراً، يخترق شعور نيتشه بالوحدة و يتغلغل، طارحا و مثيرا أسئلة دون توقع الحصول على أجوبة، كما يشعر بالقرب من الطبيعة دون أنّ يراها: ((آهْ أيتها السماء التي تقف شاخصة فوقي... هل تراقبين ما أنوي القيام به؟ هل تصغين إلى روحي النزوية؟... متى ستشربين روحي و تعيدها إليك؟)) يبدو السّؤال يائساً تماماً، لكن مازال سّؤالاً ملحاً – يبدو منتظراً و متوقعاً حين تغني روحه في ظلامات أماسي مدينة البندقية، الأغنية التي تنتهي بهذا المقطع: ((أليس هناك مَنْ يصغي إلى الطبيعة؟))

يرجع سبب و مصدر حب نيتشه للطبيعة العظيمة إلى حقيقة أنّه ((لا يوجد حقاً رجال عظام يشغلون تفكيرنا و ينالون اهتمامنا و استحساننا)). الطبيعة، بالنسبة إلى نيتشه، ليست غاية بحد ذاتها – إنّها شيء مختلف تماماً عن تصور أسطورة الطبيعة المباشرة التي كان يعتقد بها في مدّة شبابه بقوة و حيوية و يحيا بواسطتها. كان نيتشه في فترة نضجه الفكرية يريد أكثر من فهم الطبيعة العظيمة: ((هدفنا يكمن في ضرورة أن نتغلغل و ننفذ إلى داخل الطبيعة بواسطة و بواسطة ماهية الإنسان... أنّ نأخذ منها ما نحتاج إليه كي نعيش أحلامنا القاضية بالذَّهاب إلى المديات القصوى خلف حدود الإنسان العادي. نبحث فيها عن انبثاق شيء أكثر عظمة و فخامة من العاصفة، الجبال، المحيطات —)).

إذا أردنا أن نسأل ما هي الطبيعة حقاً بالنسبة إلى نيتشه؟ و ما هي الحوادث الحاصلة فيها و لماذا؟ و ما هو نوع المناظر الطبيعة التي كانت تجذب انتباهه؟ و كيف كانت تُخاطِب ذاقته الجمالية فيها؟ سوف نعثر على معطيات كثيرة من الصعب، بل من المستحيل، تنظيمها و ترتيبها وفق ناظم فكري واحد. و لكن يمكن أن نذكر هنا أمثلة عشوائية تكشف على الأقّل خارجياً و تعطينا فكرة عن الطبيعة و أن كانت لا يمكن أن تنجز المهمة إلاّ بواسطة قراءة منظمة و منهجية لنصوصه:

أوقات اليوم و تفاصيله تحددها الفُرُوق الدقيقة في الساعة. الظهيرة، على سبيل المثال، هي اللحظة التي يتم فيها إقصاء الزمن؛ الأبديّة هي لحظة الوجد و الجذل الذي تُجرب بواسطتنا – أما الكمال فهو الميقات الذي يمكن بلوغه. منتصف الليل، الذي يشبه منتصف النهار، هو زمن ((الأغنية الثملة السكرانة))؛ عن طريقها و بواسطتها يتم الكشف عن الأبديّة، عمق الوجود، و يبوح عنه.

العناصر: المحبوب، السماء الزرقاء الصافية، السحب الثقيلة و الغيوم المتلبدة بالسواد الكريه، سماء الشتاء القارص و أجوائه، السماء قبل غروب الشمس، الشمس في الصبح و في المساء، الرياح، ذوبان الثلوج، الهدوء، العاصفة، النار، و اللهب.

أنواع المناظر الطبيعية: الجبال الممتدة عاليا بسلاسلها الطويلة، الثلج، الجليد الأبيض، المحيطات، البحيرات، الصحارى؛ الشمال المختلف تماما عن كلّ شيء و البعيد الذي لا يمثل الشمال إطلاقاً – ((المناظر الطبيعية الفريدة التي لا توجد إلاّ في أفريقيا)).

المناظر العدّة المتفرقة للطبيعة: أشجار الصنوبر، السواحل الذهبية و أشعة الشمس المتدلية بخيوطها في أعماقها، شموخ و استقامة المناطق العالية، أشجار التين الجميلة – البحر و أصوات أمواجه الساحر، المروج الخضراء، رحلة الفراشة التي تحلق عالياً وَحْدَهُا على صخور الشواطئ و في البحيرات، الجاموس، الثور، الغزال، الزورق الذي يشق طريقة بهدوء في مياه النهر، ألوان القوس قزح في البحيرة و المجاديف الذهبية في أماسي الصيف الحلوة.

الطبيعة، بالنسبة إلى نيتشه، هي الميدان الواقعي الذي يعبر فيه جسده، عن حيويته و حضوره، بواسطة التنزه في الغابات، تسلق أعالي الجبال، الرقص؛ و حيث يطير – في أحلامه – يجرب نيتشه كلّ هذه الأشياء و هو ممداً على العشب الأخضر كالسِحْلِيَّة (من رسالة إلى أوفربيك، 1 آب، 1881). في الواقع، كلّ الأفكار الفلسفيّة الرئيسة جاءت إلى نيتشه في خطوطها العامة و هو في اتّصال و تماس حميم مع الطبيعة؛ فقد كان معتاداً على ((التفكير العميق في أثناء المشي، القفز، التسلق، التمدد على العشب و الرقص في الأماكن المفتوحة مفضلا الجبال و المحيطات – حيث تصبح هناك حتى الدروب متأملة معه)).

كان نيتشه ينظر إلى المناظر الطبيعة و المدن الجميلة بوصفها أشياء من ممتلكاته الفكرية الخاصَّة، و تعود إليه وحده حصراً، إذا جاز لنا التعبير. على رأس هذه المناظر الجميلة تقع البحيرات العالية لإنجادين السويسرية: إنّها ((مناظر الطبيعة البعيدة عن الحياة جداً الذي تخصني، و تغلب عليها سِمَة الفلسفي و الميتافيزيقي)) (من رسالة إلى فوكس، 14 نيسان، 1888). ((في مناطق محددة من الطبيعة لا نكتشف أنفسنا فحسب، بل نعيد اكتشافها، مع نوع من البهجة الفريدة التي تصيب أجسادنا بالارتعاش و تجعل القشعريرة تسري بها من الرأس حتى أخمص القدمين))... ((هنا تتحد إيطاليا و فنلندا معاً بمناظرها الطبيعة الخلابة و تشكل حلف جميل قَلّ مثيله... بالنسبة لي حب المناظر الطبيعة أمر حميم و مألوف يُسر القلب، يرتبط برابطة الدَّم بقوة)). في مناظر الطبيعة لهذين البلدين ((الهواء مُمتلِئ بالروائح الزكية، بطريقة أحبها كثيراً)) (من رسالة إلى أوفربيك، 11 تموز، 1879). أما قرية ماريا-سلس، فإنّها تمثل ((الهدوء البطولي الأبديّ)) (من رسالة إلى جاست، 8 تموز، 1881)؛ إنّها ((هذا المزيج الرائع من الأشياء الناعمة الفخمة و السِرّية!)) (من رسالة جاست، 25 تموز، 1884)، المناظر الطبيعة هي المكان الذي يشعر فيه نيتشه أنّه حقاً في

منزله و بيته مع فلسفته و كتبه. هناك عاش، ((في رفقة و صحبة سلاسل الجبال العالية الحية، و عيون جميلة مفتوحه بكامل اتساعها ترنو إليه بسعادة (أعني – البحيرات))).

إنّ الوصف الذي بعثه نيتشه إلى صديقه جاست (في العاشر من تشرين الأول لعام 1886) لمرتفعات الريفيرا التي تعلو لأكثر من 400 متر على سطح البحر يفصح عن مِزَاج لا يمكن أنّ يخضع للمقارنة: ((صورة لك عن جزيرة الأرخبيل الإغريقي، متناثرة بطريقة عشوائية في الغابات و الجبال، تسبح بواسطتها بعض الحوادث حتى البر الرئيس الأخر في يوم ما و لا تعود. بلاشك، هناك شيء إغريقي صرف في ذلك المنظر لا يمكن إنكاره؛ من جهة أخرى، هناك شي ما يشبه فعل القرصان الفج مفاجئ، سِرّي، و محفوف بالمخاطر يحدق بنا – و أخيراً، وحدها غابة من أشجار الصنوبر بمناظرها الجميلة تدخل الطمَأنينة على قلب المرء و تأخذه بعيداً عن أُورُوبَّا ، نحو شيء برازيلياً كرفيق وديع على المائدة، مسافرا دائماً حول العالم يجوب أطرافه المترامية يحاول بيأس الحديث إليك. كان العالم و الحياة لنيتشه أكبر و أغنى من التصورات، كان مليئة بالتحول و التاريخ و بالبدائية التي تظل إلى الأبد جديدة. ربما كان العالم مضطرباً لن يتكون نهائيا و لكنه وطن و أرض و مصائِر جميعاً و الانتفاضات كلها و الفنون جميعاً و الإنسانية قاطبة؛ كان للعالم اللغات و الشعوب و الدول و الثقافة، العالم هو الذي أنتجنا و سيكون العالم هو الذي يرى كلّ الأشياء تموت و يعيش هو بعدها، حب العالم ينمو دائماً و يلتمس غذاء. لا استلقي وقتا طويل مع هذه المناظر بغربة أو عزلة تشبة عزلة روبسن كروز و لا أسلم نفسي لنسيان – في مناسبات كثيرة أشعل موقداً كبيراً من النار أرمي فيه أعواد الخشب و أجلس بقربه ألتمس الدفء. انظر إلى لهب النار الذي لايهدأ مع دخانه الذي يمتزج فيه اللون الرصاصي و الأبيض يطير عاليا نحو السماء بغيوم لامتناهية ذات أشكال غريبة ساحرة – حيث نبتة الهيذر تنعم بدفء و نعيم أكتوبر الذي تحيط به و من حوله المئات من الألوان التي تميل الاصفرار...)).

بالنسبة إلى نيتشه، كانت هناك ثلاث مدن عزيزة جداً على قلبه، هي: فينا، جنيف، وتورين. فمع أجوائها الساحرة، و مواقعها الجميلة و روح المكان (*genius loci*) العابق بالروائح الزكية، تمثل هذه المدن لنيتشه مناظر طبيعة خلابة لا يمكن أنّ تتكرر أو يمكن مقارنتها بأيّ مناظر أخرى.

ديونيسوس. —— تكمن قدرة الأسطورة الحقيقة و معناها، بالنسبة إلى نيتشه، في كلاً من بساطتها و وضوحها. إنّها ذلك الذي يقول الحقيقة في أعماله دون تباهي و فخر ودون استخدام

قصدي للرموز. من جهة أخرى، أصبح الاستخدام و التوظيف الرمزي الملفت للنظر عند نيتشه، على سبيل المثال رمز ديونيسوس، مشكوك فيه و تطغي عليه بعض الأحيان صفة التطفل بعض الشيء. مع ذلك، يبقى من المهم جداً بمكان بالنسبة إلى نيتشه أن يختار – بالضِدّ من غرائزه السائدة عموما – رمز ديونيسوس كشخصية أسطورية بواسطتها يستطيع أن يؤدي غرض الاتحاد مع كُلّية الوجود. كان الهدف من وراء استخدام الرمز من قبل نيتشه هو من أجل حيازة ذلك الذي لا يمكن الحصول بواسطة النظم الفكرية الميتافيزيقية.

بالنسبة إلى نيتشه، الوجود هو الحياة، إرادة القوة، العود الأبديّ – يخلط التفكير بالعادة بين هذه الأفكار أو المصادر الثلاث المستقلة و المفصولة بعضها عن البعض الأخر. هذه الأفكار الثلاث ((الحياة))، ((إرادة القوة))، ((العود الأبديّ))، في خطوطها العامة تتوحد بواسطة حقيقة أنّها ترتبط و تنتمي إلى اللحظة التاريخية التي يتم فيها الإعلان عن ((موت الله)) – إنّها تشير إلى أن الحركة العدمية يجب أن يتم مواجهتها بحركة مضادة في تفكير نيتشه. كلّ أفكار نيتشه عن الوجود القصد من ورائها هو أنّ تقدم الرؤية الكونية لمستقبل عرق السادة النبلاء الذي بوسعه أن يهزم العدمية و يحطم أسوارها الذي بدأت بالارتفاع بواسطة نشاط و نبل حياة هذا العرق.

تكمن وحدة هذه الأفكار الثلاث، الحياة، إرادة القوة، العود الأبديّ، في خطوطها العامة في رؤية نيتشه لكُلّية العالم، و الذي يوجز فيها كلّ شيء يُفكّر فيه حول الوجود. هنا، في هذه الأفكار، تصبح ميتافيزيقا نيتشه و تصوفه، الصيرورة، الحياة، و الطبيعة شيئاً واحداً و تجتمع كلها في بُوْتَقَة واحدة. يتسأل نيتشه: ((ما الذي يعنيه هذا العالم بالنسبة لي؟... إنَهُ وحش الطاقة الكاسر دون بداية أو نهاية... يتغيّر دون أنّ يستهلك نفسه،... يرتبط بقوة (بالعدم)، ...لا يتمدد و يتسع بطريقة لا متناهية،... بحر من الطاقة المتدفق بطريقة عاصفة داخل نفسها،... يتراجع بطريقة أبديّة مع سنين طويلة من العود الأبديّ، يعول على حركة المد و الجزر في تشكيلاته، ينطلق من الأشكال البسيطة إلى الأشكال الأكثر تعقيدا، و من أكثر الأشياء صلابة و قساوة إلى أكثر الأشياء وحشية و تناقضا، ثم يعود بعد ذلك حاثا خطاه إلى بيته منتقلا من الوفرة و الكثرة و التنوع إلى البساطة، و من اللعب بالتناقضات رجوعاً إلى متعة الانسجام و الوفاق و التصالح، إلى التأكيد الإيجابيّ لهويته بواسطة الدروب التي يقطعها (دروبه) و السنين التي يمضيها (سنواته)... العالم أشبه بصيرورة لا تعرف محطة تقف فيها... صيرورة لا تعرف قطاً الكلل و الملل و لا يصبها التعب بأيّ شكل من الأشكال:

هذا هو عالمي عالم ديونيسوس، الذي لا يتوقف عن خلق نفسه مراراً و تكراراً و يحطم نفسه بصورة أبديّة... هذا هو تأويليّ لألواح (ما بعد الخير و الشر)– العالم دون هدف، ما لم تكن سعادة الدائرة تحتوي على هدف، و دون إرادة، ما لم تكن حلقة العودة إلى ذاتها تمتلك إرادة خيره. هل تريد أن تطلق اسم على هذا العالم؟... هذا العالم اسمه إرادة القوة – و لا شيء آخر! و أنت أيضاً تمثل إرادة القوة هذه – و لا شيء أخر)).

من المواقع التي ينطلق منها نيتشه فيما يتعلق في العالم، و التي طبقاً لها، لا يوجد كلّ في أيّ شكل من الأشكال، تمثل رؤية العالم الكُلّية لديه اتحاد كلاً من العود الأبديّ و إرادة القوة و حياة ديونيسوس معاً بوحدة رمزية بدلاً من أن تكون مثالية. كما يتبع أيضاً، بصورة متساوية، أنّ الكلّ لا يمكن أن يدرك على أساسّ المبدأ؛ بل يتم الشعور به بالأحرى كمِزَاج يتكون مع خطاب شامل بواسطة وفرة البواعث و الحوافز يخترق فلسفة نيتشه من أولها إلى أخرها.

بالتأكيد نجح نيتشه نوعا ما بواسطة فكرة الكلّ أن يزودنا بنوع من الأمان و التبرير: ((الروح المتحررة سوف تقف في وَسْط الكل مع قدرية فرحة و واثقة بنفسها، يساندها إيمانها بأنّ كل شيء يحرر نفسه و يؤكدها و يسوي خلافاته و تناقضاته بواسطة الكل الذي لم يعد ينكره)). و بذلك، يقبل نيتشه، المبشر بفكرة البطولة الشخصية و العدو الأول اللدود لكلّ عقائد ((الفداء))، الآن في التفكير الفلسفي القديم عن الافتداء بالإضافة إلى الاعتقاد في الواحد الكليّ، الذي يكون كلّ شيء فيه منسجماً و متوازناً و منظماً. توصل نيتشه، بواسطة فكرة الواحد الكليّ، إلى فكرة تسوية الخلافات و التناقضات و اختلافاتها التي ينبغي أن نحترس من أن تمسنا مجسّاتها – أو على الاقّل في مِزَاج الكلّ – مع أنّه كان سابقاً يرى أن ((فكرة مثال الكلّ المنسجم و نظام التطور))، و تسوية الخلافات و الصراعات فيه، تقف تماما في الضِدّ من المثال البطولي الشخصي، الذي يعدّ التناقضات ((شيء مرغوب فيه و محبوب و جذاب))، و لا يقبل التسويات و إلغاء الاختلافات، و الساخط من نموذج التسويات باعتباره يمثل ((فقط مثال و طريقة الناس الضعيفين الخيرين)).

بيد أن الموقف الأساسيّ، الذي تبناه نيتشه و يتخلل كل تفكيره و المضاد بالأساسّ لفكرة الانسجام و الوفاق و التصالح و تسوية الخلافات التي دَبّت، يؤكد رفضه القاطع تماماً لفكرة وجود الكل —— إنّهُ موقف يدرك و يصر على أن ((لا وجود للكلّ بتاتا)). بالنسبة لنيتشه، من المهم جداً ((أن يتخلص المرء من فكرة الكلّ أو الواحد الكامل)). بيد إنّ السّؤال الإشكاليّ الجدير بالطرح هو

لماذا علينا القيام بذلك؟ يؤكد نيتشه أنّه ((ما أن يقبل المرء بهذا الكل أو الواحد بوصفه الشيء الأسمى و الأفضل حتى يبدأ يطلق علية اسم (الله). ينبغي للكل أن يتشظى و يتنوع بين الأشياء، التي وحدها من يمتلك حق اقتسامه... إنّ كلّ الصفات التي نمنحها إلى غير المعروف و المجهول و إلى الكلّ تعكس حجم الكذب الذي بين أيدينا و حجم الافتراء الممارس من قبلنا لنخفي البؤس، هذا الضرب العالي من الإعداد و التحضير، الذي نعاني من جَراءِ مواجهة العالم القاسي)). فقط من حيث إنّ نيتشه حاول مجبرا أن يجد بديلاً إلى الله – و لو للحظة – لم يجد أمامه سوى أن يفترض و يخلق الصَلاحِيَة بواسطة رؤية عالم منسجم واحد، أعني – الإلحاد الأحادي كأسطورة، إذا جاز التعبير.

بواسطة شخصية ديونيسوس، جسدَ نيتشه، على أمل ألّا يضع القدر في طريقه دوماً سوى المعافين، على الرغم من موقفه الفلسفي الأساسيّ المضاد لاستخدام الأساطير في التفكير الفلسفي، رغبة بناء الأسطورة ذات المعنى، الذي علينّا أن نعيد تحديده، و الدلالة العالية التي يمكن أن توظف في تقوية الحُجَّة الفلسفيّة بشكل منظم. فبواسطة مزج كلّ المكونات المفهومية المهمة لديه مع أسطورة ديونيسوس، كان نيتشه يصبو إلى تقديم موجز سهل و ممتنع لكلّ تفكيره الفلسفي. كان نيتشه في محاولته هذا كما لو أنه يريد أنّ يبرر، مع أكثر الأشياء البعيدة عن المنال، القول الآتي ((كُلَّما كانت الحقيقية التي تريد تعليمها أكثر تجريداً، كُلَّما كان الإغراء الذي تمارسه على الحواس كبيراً في قَبُولها))[84]. لم يكن نيتشه يقصد أو يريد أن يقدم فهم للأسطورة؛ بل كانت له بالأحرى شأن من شؤون الاختيار الواعي إلى الرموز الملائمة لفلسفته و تفكيره. إذنْ، تعد أسطورة ديونيسوس، طبقاً إلى نيتشه، نموذجاً مختلفاً تماماً عن نماذج الأساطير القديمة، شيء لا يمكن أن يأخذ شكلاً معيناً.

كان نموذج ديونيسوس، يمثل بالنسبة إلى نيتشه، رمز الخمر و الثمالة، الذي ((يحتفل الوجود بواسطته بتغير و تحول أشكاله))؛ ((تشكلَ هذا الرمز السِرّي حين كان جسد الإغريق و روحهم في (حالة من التفتح و الازدهار).... إنّهُ المقياس الذي تطور بواسطته كلّ شيء بما أنّه كان قصيراً جداً، فقيراً جداً، و ضيقاً جداً: دعنا الآن فقط ننطق باسم (ديونيسوس) قبل أن ننطق بأفضل الأسماء و الأشياء، على سبيل المثال، قبل أن ننطق باسم غوتة، قبل أنّ ننطق باسم بيتهوفن، و قبل

أنّ ننطق باسم شكسبير، أو قبل أن ننطق باسم راشفيل– فحالما ننطق باسم ديونيسوس حتى نشعر أنّنا حكمنا على أكثر لحظاتنا و أشيائنا قيمة و أهمية و أمسكنا بها: ديونيسوس هو القاضي!)).

كان مقصد نيتشه من توظيف شخصية ديونيسوس هو أن تكون القطب المضاد لشخصية المسيح – الحياة التراجيدية في مقابل الحياة تحت الصليب: ((ديونيسوس ضِدّ المسيح المصلوب))، المخلص للناس، ليتهم يجدون من يخلصهم من مخلصهم! هذا التضاد بين الاثنين ليس ((اختلاف في الرأي فيما يتعلق بمعنى الشهادة ذاتها – إنّهُ ببساطة له معنى آخر.... المشكلة تتعلّق بمعنى المعاناة أو ماذا تحمل في طياتها، بعبارة أخرى، هل تحمل معنى مسيحياً أم معنى تراجيدياً. في الحالة الأولى، يفترض أن حالة المعاناة تقود إلى الوجود المقدس؛ فيما تقود المعاناة، في الحالة الثانية، إلى اعتبار الوجود مقدس بصورة كافية لتبرير حالة المعاناة مهما كانت ضخامتها. يؤكد الإنسان التراجيدي، بوجوده، على أكثر أنواع المعاناة وحشية: لهذا السبب، هو شخص قوي جداً و قادر تماما على تحدي أكبر الصعاب؛ أما الإنسان المسيحي، الذي يعاني ضمور القدرة النقديّة، من جهة أخرى، فهو ينكر حتى أكثر اللحظات سعادة على الأرض... يمثل الإله المصلوب لعنة إلى الحياة و علامة من علامات البحث عن مخرج للتحرر منها؛ أما تقطيع ديونيسوس أربا أربا فهي نُبوءة الحياة: الحياة تولد من جديد بشكل أبديّ و تعود إلى منزلها من حالة الدَّمار مرة أخرى)).

قبل خلق هذه الشخصية الضبابية لهذا الإله، تنتهي رؤية نيتشه غير المحددة – كما كان تفكيره في الأول – أشبه ((بصيغة تعمل على تبرير العناية الإلهية في ضوء وجود الشر – أعني، مع تأكيد مطلق للعالم، و لكن بدقة لأسباب تم رفضها سابقا)).

بيد أنّ شخصية ديونيسوس، مع ذلك، لم تظهر عند نيتشه كإله ينبغي للمرء أن يقيم الصلاة إليه أو يدعو إلى عبادته. في التحليل النهائي، ديونيسوس، عند نيتشه، هو ((الإله الذي يتفلسف)). يمتلك ديونيسوس (((الإله-المجرب))) كلّ الصفات التي يمتاز بها الفيلسوف الجديد، و الذي يراه نيتشه بنفس الطريقة التي يرى نفسه فيها: إنّهُ الفيلسوف ((المجرب)) و ((أكثر الفلاسفة غموضا)). كان نيتشه واعياً جداً إلى غرابة الجديد في النموذج الذي تطرحه أسطورة ديونيسوس: ((تتمثل حقيقة شخصية ديونيسوس في أنّهُ فيلسوف بامتياز، و يعكس حقيقة أنّه حتى الإلهة بوسعها أنّ تتفلسف))، و ((تضيء عنصر الجدة و الفرادة و الندرة غير معروفة أو مطروقة سابقاً)). إنّ تطابق و تماهي نيتشه مع شخصية ديونيسوس كان و ما زال مخفياً حين يقول الآتي: ((أنا أول و أخر

تلامذة الإله ديونيسوس)). و في الفترة من أصابته بالجنون، غدا ديونيسوس يمثل لنيتشه حُبّ المرء لقدره.

خلف كلّ ذلك الذي ذكرناه آنفاً، يكرر رمز ديونيسوس، عند نيتشه، ما مُحتوى و موجود فعلاً في الصيغ و الأفكار الحبلى بالتفكير الفلسفي النيتشوي – أعني، ((مع اسم ديونيسوس، تُفهَّم الصيرورة بنشاط أكبر و تُجرب ذاتيا كشهوة مستعرة لدى المبدع، الذي يعرف في نفس الوقت جيداً ضراوة الغضب و الحَنَق الشديد للمدمر)). يبدو أنّ سمة التحدي عند نيتشه، التي تقدم نفسها في صيغة الانحراف الطبيعي، تظهر مرة أخرى في تحولات مختلفة في هيئة نمط و طراز يتم التعبير بواسطته عن الشخصية الأسطورية. و بينما أصبح أساس و لغة التفلسف الحديثة خصبة و جديدة، بفعل التخصص الدقيق إلى حدّ بعيد و لاسيَّما بواسطة الطبيعية الصوفية الأصيلة لنيتشه، و التي دونها لا يمكن للإنسان أن ينجح في عمل كبير، لم يتبنَ أيّ أحد من بعده النموذج الذي طرحه عن ديونيسوس كرمز، كما لم يتم تبني فرضياته الميتافيزيقيّة، التي تم صياغتها و هي المحدودة بحكم الواقع (ipso facto)، و خصوصا، السوبرمان – الفكرة

التي لم يكن فيها الإنسان غاية؛ بل مجرد مرحلة أو حادث طارئ، أو جسر انتقال، أو و عداً عظيماً – و العود الأبديّ.

الكتاب الثالث

طريقة نيتشه في التفكير منظورا إليها بواسطة وجوده كله

تناول حياة نيتشه بالدراسة و الفحص و التحليل يضيء لنا و يبين كيف أنّ الحقيقة كشفت عن نفسها و تجلت واقعياً و عملياً بواسطة التضحية-بالذات الفردية المستمر من قبلهِ. عرض أفكار نيتشه الرئيسية و تقديم المقومات التأسيسية لهذا البناء بدقة يمكن أنّ يساهم، و إلى حدّ بعيد، في إلقاء الضوء على المجالات الواقعية الغنية المتنوعة من تفكيره، و إلغاء كلّ المواقع الثابتة بواسطة التناقض-الذاتي الموضوعي، و بضمنها المواقع التي قبل على ما يبدو بنتائجها و مقارباتها النهائية من قبل، و لاسيَّما النزوات غير القابلة للتصديق لبعض المذاهب التي غدت تقريبا تمثل عقائده الفلسفيّة. مهمتنا الآن تقوم على فهم حقيقة نيتشه، لاسَّيما حين تفصح عن نفسها و تتجلى ضمن وجوده في تماميته و كليّته. و لكن هذا يمكن أنّ يضع في طريقنا العراقيل و المشاكل غير قابلة للحل – أو، بعبارة أخرى، نحن نواجه مع نيتشه مشكلة ينبغي لكلّ جيل من الأجيال أنّ يقدم لها حله الخاص.

أيّ باحث يتوقع أن يرى في نيتشه مجرد شخصية تاريخية ثابتة أو استاتيكيَّة تمر علينا في التاريخ حالها حال الشخصيات الأخرى مرور الكرام، و أن أهميته شديدة الوضوح و ثابتة لا تتزعزع، سرعان ما سيتعرض لامحالة إلى خيبة أمل كبيرة. في الواقع، عرض أفكار نيتشه من منظور السجال و الجدلية المدمرة و المستهلكة لمقارباته الفلسفيّة، المشتقة من النقد، الذي وضع لبناته الأساسيّ بيده و طوره و دفع به إلى مدياته القصوى – يجعل من نيتشه فيلسوفاً لا ينضب في تفكيره بطريقة مبالغ فيها و أكثر مما تحتمل؛ وإذا حاولنا أن نقوم بتأويل كلمات نيتشه حرفياً و نتمسك بأقوال محددة و خاصَّة دوغمائية عنه، نكون قد ارتكبنا خطئاً فادحاً بجعله مجرد مفكر محدود الأفق، و هذا الأمر هو الأخر ليس عادلاً جملة و تفصيلا. كلتا الطريقتين سيفشل حتما في إضاءة البواعث و النوابض الفكرية الحقيقية، التي أراد نيتشه أن ينقلها من عالم القوة إلى عالم الفعل، و على الأخصّ تلك الذي لم تتحقق معظمها بصورة كُلّية.

في الواقع، نحن نواجه لغزاً كبيراً، أُحْجِيَّة كبيرة لا يستهان بها: حين نحاول أنّ نقترب من كتابات نيتشه، و بتوجيه منه، بطريقة غير نقدية، فإنّ كلّ شيء سرعان ما ينهار و يتلاشى – و لكن بعد مدّة من التُّخَمَة و التخلص و التحرر من الوهم، فإنّ سحر تفكير نيتشه سرعان ما يعاود الظهور و يؤكد نفسه من جديد. السِرّ هو أنّ تفكير نيتشه، و حقيقته التي يروم إيصالها، لا تحتوي على مذهب محدد منظم علينا تعلمه و غير مكرس تماماً إلى مثال دائم – يكتسب قوة كبيرة حين يتوقف

انطباع السحر الآسر الأولى، الذي يصبح قوياً في التأثير علينا بواسطة الغموض المباشر لأقواله المنفصلة، و ينقطع عن ممارسة الجاذبية علينا.

لايمثل نيتشه ينبوعاً للأفكار الجديدة و مبدعاً للغة فلسفية غير مسبوقة فحسب؛ بل يمثل أيضاً، و بواسطة مسار حياته و تفكيره، ظاهرة و حادثة فريدة في تاريخ الفلسفة الغربية. يمكن لمعنى و مدلولية فلسفته أنّ يُفهَّم – بعيدً عن كل المقومات التأسيسية لتفكيره و عن تعبيراته و أقواله عن أزمة عصره – فقط في سياق و من منظور يقبل و يدرس في المقام الأول تاريخ الفلسفة بوصفه تحليلاً لطبيعة الإنسان و أعماقة الداخلية. بالنسبة لنا يكفي أنّ نرى أن وجود نيتشه يعبر عن الأرضية التاريخية، التي غدت بالنسبة لنا بمنزلة تركة أورثها لنا، و يمثل مطلباً لامفر منه في أن نكون صادقين و أمناء، و شرط لواقعنا، و نتيجة لذلك أيضاً دعوة لمشاركتنا الحقيقة في التفكير معه. إنّ ما ينطبق على كلّ شيء عظيم يدخل إلى الوجود بواسطة قفزة، إذا جاز التعبير، ينطبق أيضاً بدقة على أفكار نيتشه هنا: يعد تفكير نيتشه المصدر غير المسبوق الذي لا يمكن التكهن بمسارته اللاحقة؛ بعبارة أخرى، بخصوصه التكهنات بالمئات و لكن لا أحد يعرف السبب.

مرة أخرى، كي نفهم تفكير نيتشه بدقة، علينا أن نسلك الآن الطريق الأول نحو الحَلّ للمشكلة المتعلقة في كُلّية طريقته في التفكير، و أن ننظر إليها بوصفه تجلياً و تبدياً متدرج لطبيعته الفلسفيّة.

1

كيف فهم نيتشه نفسه و تفكيره

الحياة و المعرفة (683)

الحياة و المعرفة كوحدة تفكير متمِيزة. ـــ التفكير بوسائل الديالكتيك الحقيقي.

مفهوم نيتشه للصيغ المنطقية (697)

التعارضات و التناقضات. ـــ الكلّ ـــ النظام.

إمكانية التواصل (712)

ضرورة التواصل. ـــ السبب الذي يقف وراء عدم التواصل. ـــ التواصل غير المباشر. ـــ ضرورة و حقيقة القناع. ـــ التشبيه و الأغنية. ـــ السجال المجادل/الجدال.

ما الذي يمثله نيتشه لنفسه (729)

حين تتخلى المعرفة على الأرضية الصُّلْبة الراسخة التي تقف عليها، حين تتعامل بشكلٍ مباشر ٍمع أشياء خصوصية معينة، و تتحول فلسفيا إلى سّؤال للوجود بذاته، حينها فإنّ المصدر، الطريقة، المنهج – قيمة المنهج هنا من قيمة مُطبق المنهج – و التواصل و تفكير الوعي-الذاتي ينبغي أن يكون مختلفاً تماما عن المطلوب في كلاً من العلاقات اليومية و العلمية مع الموضوعات التي تظهر كلماتها و مفاهيمها أمامنا بوضوح لا يحتمل الشك أو السّؤال.

يمثل الوعي-الذاتي للتفكير، كوعي للمنهج، مرحلة في كلّ المعرفة العلمية، و لكن كفهم-ذاتي، يصبح مرحلة أساسيّة لا مفر منها في عملية التفلسف عموماً. لا تشعر عملية التفلسف بالرضا في ظل الهيمنة و السيطرة التي تفرضها عليها المعرفة العلمية، و لاسيَّما حين تفحص و تدقق في مقارباتها و تأكيداتها و أقوالها بواسطة المعطيات الواقعية المتوفرة لدى العَلِم. في الواقع، يختبر التفلسف نفسه و مدى نجاعته بواسطة قياس نفسه بالمقارنة مع أو بالضِدّ من الوجود الممكن للمفكر، و بهذا الاعتبار يصل إلى الفهم-الذاتي. يمكن لمثل هذا التفكير أن يُنجز بواسطة الصراع الذاتي للإنسان كليًّا.

يبقى الفهم - الذاتي حقاً هو سِرّ التفلسف، الأداة التي تعمل على خلق صنوف الظهور جميعها، و لا نستطيع القبض عليه بواسطة المناهج المعرفية التي توظف لخدمته. بوسع المرء أنّ يشير فقط إلى كيف يعبر عن نفسه، و يموضعه في عَلاقة بالجسد الكليّ لتفكير الفيلسوف المراد بحثه. حينما يتحدث المرء بشكل مباشر عن الفهم-الذاتي، فإنّ من السهولة التحدث عما هو ليس أكثر من التحدث عما هو عليه حقاً. لأنه حين يحاول الشخص المتفلسف صاحب الوجود الغامض أن يعرف مَنْ هو، فإنّه سرعان ما سيصاب بخيبة أمل ثم أن سوء الفهم ممكن بسهوله حصوله، و لاسيَّما في العَلاقة ب (1) الملاحظة السيكولوجية لوجوده؛ و (2) التأمل-الذاتي غير المحدود.

(1) حين اعترف نيتشه أنّه بوضوح ((ليس لديه الكثير من النيات الحسنة نحو مسألة مراقبة-الذات الفردية))، فإنّهُ كان يقصد إنّه ليس سيكولوجياً متخصصاً بمعنى عّالِم نفس تجريبي يلاحظ فقط، و يحاول القبض على حقائقه تجريبيا، عرضياً، و أحصائياً بطريقة يغلب عليها طابع أو هدف التوضيح السببي – بل كان نظامه السيكولوجي بالأحرى يحاول إضاءة الأماكن المظلمة العميقة للوجود الإنساني. يختلف النظام السيكولوجي الذي يمارس عمليا و يضطلع بمهمة مراقبة-الذات الفردية عن النظام السيكولوجي الذي يضيء الأماكن المظلمة و الأغوار العميقة للوجود و

الطبيعة الإنسانية بواسطة الفهم: فبينما، ترتبط عملية مراقبة-الذات الفردية مع الوجود التجريبي (و بضمنها هنا الوجود السيكولوجي نفسه)، يرتبط الفهم-الذاتي مع الوجود الممكن. من الممكن، في الواقع، معرفة بعض السمات المعينة لوجودي – مع أنّ تفرعاته و تشعباته الخاصَّة غير المحدودة – بواسطة الملاحظة؛ و من المنطقي أن يولي المرء اهتماماً بها من حيث إنّها مساعدات تقنية قابلة للتطبيق (و بذلك، يلاحظ نيتشه اعتماد حالته النفسية على نظام التغذية و المناخ)، و ظواهر يمكن أن تُكتشف أو طريق يتحدث بها الوجود الممكن عن نفسه (الأجزاء الواسعة من عمله السيكولوجي كانت في الواقع توضيح لطبيعته و انعكاس لها: إضاءات مهمة تحتكم إلى الوجود؛ حتى حين تتعامل مع الوقائع). و لكن من الحماقة و السخف أنّ يظل الملاحظ يلف و يدور حول الواقع التجريبي لوجوده كما لو إنّه بتطبيقه مراقبة-الذات الفردية سيكولوجيا، فإنّه سيعثر على نفسه كوجود.

(2) حينما أحاول أنّ أفهم نفسي بواسطة عملية التأمل-الذاتي بدلاً من ملاحظة وجودي، حينها وبواسطة مرآة الإمكانات أرى نفسي في حركة تسبب كلّ شيء، بمعنى يمكن أن أرى نفسي تظهر بطرق مختلفة أو حتى في صيغة معاكسة. كُلَّما كنت أكثر أمانة و استقامة خلال التفكير، كُلَّما تفتحت أمامك إمكانات لا محدودة.

بين المئات من المرايا
مخادع كبير أنت...
عارف!
و قاتل.

إنّ نوع الفهم-الذاتي الذي يشكل حالة تفلسف متكاملة بدلاً من حالة مفككة و ناقصة لا يحدث أو ينبثق حتى يقوم المرء بقفزة غير خاضعة للسّؤال و غير قابلة للتفسير من عالم القوة إلى عالم الفعل – يصبح واعيا بالمصدر الذي ينطلق منه، و يصل إلى اليقين بعدم وجود مضمون ثابت محدد، و لا يقوم و يرتكز في أساسه على معرفة الشيء أو النفس. إنّ حقيقة أنّ الفلسفة لا يمكن أن تنجز مهمتها فقط حين أن تكون أمينة و صادقة، و حين تجازف في إضاءة و تفكيك الإمكانية من كلّ جوانبها بلا حدود – هذه المحاولة وحدها هي التي تمنح في الواقع التفكير-الذاتي معناه. و لكن البقاء مع هذه الحقيقة و المضي في طريقها يمكن أنّ يدمر الوجود -الذاتي للفرد و كذلك تفلسفه.

و بهذا الاعتبار يمكن القول إنّ نيتشه يعارض بين طريقتي مراقبة-الذات الفردية و التأمل-الذاتي (مع أنّه يمارس و يستخدم الاثنين) بهدف تعين حدودهما، و العثور على طريق مناسب لنوع من الفهم-الذاتي تقع جذوره و أهدافه في مكان آخر. لقد كان نيتشه تقريبا يحط بثبات من قدرة مسالة مراقبة-الذات الفردية و يستهين بها. فمدياتها و أفقها، كما يرى، محدودة للغاية: ((بالعادة، لا يرى الإنسان من نفسه أكثر من الحاجز أو الموضع القتالي الذي يحتمي به. القلعة الحقيقة للنفس الإنسانية يتعذر الوصول إليها و حتى غير مرئية له.... يتعذر اختراق حصونها)) الإنسان ليس له إذنْ في الدخول إلى نفسه أو لديه فكرة عنها بواسطة المعرفة-الذاتية أو المعرفة-النفسية: ((كل واحد منا بعيداً جداً عن ذاته و يفصله بون شاسع عن نفسه. كل يوم تأخذني الدهشة و الحَيْرَة و ينتابني التعجب: أنا حقاً لا أعرف نفسي، أنّنا بقدرة قادر غريبين عن أنفسنا، ما الذي حصل لنا يا تُرى)). زد على ذلك، إنّ التفكير-الذاتي، كأداة لمعرفة الذات الإنسانية، خطير جداً. حين ينظر الفكر المقوض إلى إمكاناته بواسطة ((المئات من المرآيا))، و بواسطة التأويل المشكك في الوجود، فإنّه يحط من قدر الوجود و ينزل به إلى منزلة مجرد معرفة سيكولوجية مفترضة، و تكون النتيجة ((العارف-بالذات هو نفسه قاتل – الذات)). بالنسبة إلى المعرفة الفلسفيّة الأصيلة (في الصلة مع ذلك، يطلق نيتشه على نفسه لقب ((السيكولوجي)))، كلاً من مراقبة-الذات و التفكير – الذاتي مدمر: ((نحن سيكلوجيين – علماء نفس المستقبل ...نحن البَحَّاثَة، أدوات المعرفة التي تطمح و تعمل معًا بالسذاجة الكاملة و دَقَّة الوسيلة المقرفة؛ و بهذا، ينبغي لنا... أنّ لا نعرف أنفسنا)). إذنْ، يصرح نيتشه: ((لم أكن أجيد إطلاقاً التفكير في نفسي و معرفتها.... افترض أنّ الحال يسير بالضِدّ من قناعتي إذا ما حاولت أنّ أعرف نفسي و أكون عنها فكرة محددة...)) مرة أخرى: ((يبدو لي أنّ المرء قد أغلق بوابة المعرفة بإحكام في وجهه مادام إنّهُ يبدي فحسب الاهتمام بنفسه و في حاله الخاص)).

بالضِدّ من طرائق إساءة الفهم المتبعة في مراقبة-الذات السيكولوجية و طرائق التفكير-الذاتي غير المحدودة، يقف الفهم-الذاتي، عند نيتشه، كمحاولة استثنائيةّ الهدف منها إضاءة الذات الإنسانية بواسطة النشاط الداخلي للتفلسف. هذا الأمر لا يتضمن أو يقتصر فقط على وجودي الشخصي (الذاتية)، و لا على الشؤون المتعلق بالناس عموما (الموضوعية) فحسب، بل يتعدى ذلك ليشمل أيضاً الوجود المتأصل و الملازم و المحايث لكليهما. الوجود هو ببساطة الوجود-الذاتي، الذي يخصني و يعود إلى وحدي، و بواسطته أنال سمة أو تأشيرة الدخول إلى هذا العالم، بوصفه دائرة

المتحول و العابر بأسرها حيث أتعامل مع أشياء عدّة و متنوعة و أعيش مع الكل و بواسطته. يرتبط الفهم-الذاتي للفرد، كوجود ممكن يحاول من أنّ يترجم إمكاناته من عالم القوة إلى عالم الفعل، مع الوجود الذي يسفر عن نفسه إليه ويضيئها. و بذلك، يلمس و يمس الوجود-الذاتي و الفهم-الذاتي كلاهما شيء عام أو شيء خاص استثنائّي، و لكن يظل عموما أساسيّ و حقيقي و ضروري. يعدّ تفكير نيتشه، في قسمه الأعظم، و يُنظَّر إليه كعملية فهم-ذاتي بواسطة طريقة التعاطي مع مضامين خاصَّة، يفهمها نيتشه بحد ذاتها مرة أخرى بوصفها أجزاء مكملة للكلّ و توجد ضمنه. يكتب نيتشه الشاب الآتي بهذا الصدد: ((أحاول أنّ اكتشف بأيّ معنى من المعاني يكون بؤسي و أيّ عارض من عوارض الفقر الروحي و الانحطاط عاما و كليّا، و اتجنب الطرق الذي تمنحنه فرصة أن يكون شخصيا)) (من رسالة إلى روده، أيار، 1874)؛ و في فترة النضج لاحقاً من حياته، كان مهتماً جداً في الأمر الآتي: ((في لحظة من اللحظات تسيطر عَليّ و تستبد بي فكرة، هي أنّ تاريخي هو ليس أمراً شخصياً يقتصر على فحسب؛ بل أني، من حيث لا أدري، أخدم أناس كثيرين حين أعيش و اتطور و استمرار في تدوين سجلاتي الخاصَّة بهذه الطريقة بواسطتهم)).

و بهذا الاعتبار يمكن القول إنّ الفهم-الذاتي لدى نيتشه يرتبط بقوة مع تفكيره، ليس كنتاج معين؛ بل كعملية إبداعية خلاقة صرفة. ليس من باب العرض أو الصدفة أن يراودنا السّؤال الآتي – أعني، كيف يفكر الفيلسوف بنفسه، و ما الذي يعتقد بخصوصها؟ بل أنه في الواقع أمر أساسيّ و في غاية الأهمية، لأنه يمنحنا فكرة عن كيفية نشأة بنائه الفكري كليًّا. حين لا يفهم المرء أو يمسك بالطريقة التي تمارس عملية الفهم-الذاتي عملها عند نيتشه، فإنّ أفكارة سوف تتعثر في الأحادية المضللة لتعبيراتها الخاطفة و السريعة اللحظية. لهذا السبب تحديداً، تعدّ دراسة السيرة الذاتية لنيتشه كإنسان و فيلسوف، و الأقوال النقدية التي تفسر وتأول فلسفته، مقاربة و خطوة في غاية الأهمية لدراسة تفكيره.

في عرضنا لأهم المحطات في حياة نيتشه و أفكاره الرئيسة، يزودنا فهم نيتشه-لذاته بخلفية و فكرة سرعان ما تصبح، و في مناسبات ليس بالقليلة، موضوعاً ذا عَلاقة بفكرة رئيسية[85]. و لكن عملية وعي الفهم-الذاتي، و لاسيَّما في أفكارهِ الأخيرة، ينبغي أنّ يتم توضيحها وإضاءتها في سياقاتها و مواضعها الخاصَّة بها. تزود التعليلات الخاصَّة – في كتاباته و مخططاته، بخصوص طريق فهمه للأشياء بتماميتها و كليّتها – نيتشه بمساحة واسعة و بوجهة نظر حرة بالعَلاقة بكلاً من

الذات و عمله – كما تعطي مضامين خاصّة واضحة لتفكيره و لكلّما يمثله و يدافع عنه بقوة. يتجاوز الفهم-الذاتي عند نيتشه أيّ مضمون خاص، و يشكل، بالعَلاقة بعملية و فعالية التفلسف لدية، وضوح متزايد يسفر عن نفسه في الكلّ الذي لم يبلغ إطلاقاً هدفه عند نيتشه. لأنّ نيتشه أما إنّهُ كان يفهم ذاته بوصفها شيئاً كلياً – أعني، كفرد يمثل الإنسانية و فيها لم يبلغ الفهم-الذاتي لديه إطلاقاً الصفة الكُلّية المنظمة للمعرفة، بما أن نيتشه يبدي الكثير من الشكوك و الريبة اتجاه كلّما هو كليّ؛ أو كان يفهم ذاته بوصفها استثناء، و في طبيعة هذه الحالة، هو غير قادر على جعل طبيعته الاستثنائيّة مفهومة عمومًا.

يهتم وعي الفهم-الذاتي عند نيتشه، أولا، في حياته باعتبارها الأساسّ الوطيد لمعرفته؛ و ثانيا، بالصيغة المنطقية لتفكيره؛ ثالثا، بإمكانية إيصال تفكيره للآخرين؛ و رابعا، بمعنى وجوده الكلي.

الحياة والمعرفة

لانعثر على مصدر المعرفة الفلسفيّة الحقيقية عند نيتشه بواسطة التفكير فقط في الموضوعات التي يطرحها، و لا في التحقيق و الاستقصاء في الوقائع التي عاشها و مرت به – بل بالأحرى في وحدة كلاً من التفكير و الحياة لديه، و بهذا ينمو التفكير و يخرج من حالات الإثارة و التحريض و الهيجان و الاستفزاز لمفهوم الإنسان الكليّ – كلّ هذه الأمور تشكل بالنسبة للوعي-الذاتي عند نيتشه السمة الأصيلة الممِيزة لحقيقته كمفكر، بهذا الصدد يقول: ((دائماً أكتب أعمالي بدمي، أدواتها و عدتها ومحبرتها حياتي و جسدي))؛ ((كلّ الحقائق التي أقولها هي حقائق صادمة مكتوبة بحبر دمائي)). ((في كتاباتي ، أنا لا أقدم حالات و عمليات عقلية و نظرية، و لكن فقط أتحدث حصراً عن أشياء مجربة)).

يفهم نيتشه التفكير المعرفي الحقيقي بوصفه شيئاً يأخذ مكانه عَنْوَة داخل الجانب الذاتي من حياة المرء الذي يدخل الوجود و العالم بلا خِيار – و هو في الواقع بذاته يمثل حقيقته. ((نحن نعود في خصوصيتنا و حقيقتنا إلى العالم... لا نستطيع الدخول إلى هذا العالم إلاّ بواسطة ثقب أنفسنا)). بوسعي أن أتوقع كيف يسير الوجود، و أتعرف إلى العالم و تفاصيله بواسطة ذاتي وحدي —

بواسطة تأويل وجودي في الحياة، و بواسطة كل الطرق الذي تعكس من أنا و من أكون. إذنْ، الطريق إلى الواقع – التفكير بواسطة الجسد و الحياة – هو في نفس الوقت طريق الإنسان الكامل، الذي يكون، بحد ذاته، واعيا حقاً إلى السمات الحقيقية و الأصيلة للعالم. بهذه الطريقة، يمكن للمرء ((أنّ يدرك حقاً الواقع كما هو،... بمعنى عليك ألّا تشعر بالنفور و الاستياء من الواقع لأيّ سبب من الأسباب أو تبتعد عنه و تنزوي... لأنه هو الواقع بذاته)). تكتمل المعرفة إذا كان الشخص العارف نفسه، و كان قادراً على أن يميز الكلّ و كأنّه وجوده الخاص. هذا الشخص يقول نعم للوجود مثل يقول نعم لنفسه و العكس صحيح، لأن نفسه و الوجود كليهما واحد: ((إذا تم تَجْرِبة السمة الأساسية، التي تمثل أساسّ كل حادثة، بواسطة هذا المرء كأساسّ لوجوده، فإنّ سيلزم أن هذا المرء سيقبل و يستحسن كل لحظة أخيرة من لحظات الوجود)). و على العكس، يعرف المرء نفسه بواسطة معرفته للأشياء، ((و يحصل المرء أولا على معرفته لنفسهِ حين تكتمل معرفته بكلّ الأشياء من حوله. لأن الأشياء ببساطة هي حدود الإنسان المعترف بها)).

الحياة و المعرفة كوحدة تفكير متمِيزة. — الكثير من أقوال نيتشه تعطي انطباعاً أنّ الرجل كان يحاول أن يبتعد عن الحياة و يضع مسافة بينه و بينها، و يحاول أنّ يدون أفكاره كمتفرج فحسب. هذا يعني أن تحصل على التَجارِب و تعيشها أولا، ثم النظر إليها و فحصها بواسطة وجهة نظر خارجة عن الحياة. في الواقع، هذا الذي كان حقاً يدور في ذهن نيتشه، في بواكير عام (1867)، حين يبدي إعجابه في ((القدرة على امتلاكه، حتى في لحظات الآلم – الكلمات عليها اللعنة لا تستطيع أن تعبر عن آلم الإنسان – و فعل الندم و تأنيب الضمير – الذي يقال أنّه يخفف عن النفس و لكن هذا خطأ كبير – تحديق الوحش جورجون... الذي يحول بالحال كل شيء ينظر إليه إلى صخر)). ينسجم العارف و يتوافق مع نفسه، و يصل إلى حالة التبصر و المعرفة العميقة، حين يبلغ سلام الظهيرة ميعاده بعد عاصفة صباح مثير في الحياة: ((إنّهُ لا يريد أيّ شي، قلبه لا يخفق بل يقف بثبات قَلّ مثيله، فقط عيونه تشع بنور الحياة – إنّهُ موت العيون المستيقظة. حينها، يرى المرء الكثير من الأشياء التي لم ترها عينه من قبل قطاً)). و لكن، لما كان الإنسان كائناً حياً، فإنّهُ يجب أن يتخلى عن هذه الحالة المعرفية و يبحث عما هو جديد: ((أخيرا، تبدأ الريح القوية بهز أوراق الشجر، لقد انقضت الظهيرة، و مرة أخرى، تنتزعه الحياة الإنسان بأنيابها بقوة – الحياة بعينيها الغائبتين التي لا ترَ)).

هذا الفصل بين الحياة، التي لا تعرف أيّ شي، من جهة، و المعرفة التي لا تعرف العيش من جهة أخرى، يعني بينما كل واحد منهم يعيق طريق الآخر، يجب على الحياة العمياء أن تستمر و تُعاش لغرض خلق المادة التي تتطلبها المعرفة و لا تقوم دونها. من مصلحة المعرفة أن تنبثق الحياة وتستمر بالتواصل والسير دون معوقٍ أو وضع العِصِيّ في دواليبها. أيّ واحد يحاول أن يلاحظ نفسه بطريقة مستمرة يصبح بذلك غير قادر على العيش، و عليه يصبح غير قادر على اكتساب التَجْرِبة الحيوية للوجود الذي تتطلبها المعرفة الحقيقة حصرا بوصفها أساسه الذي لا يمكن الاستغناء عنه. إذنْ، يتمنى المرء ألّا في اللحظة الخاطئة و السيئة التوقيت: ((مادام يجرب المرء شيئاً ما، ينبغي أن يغمض عينيه، و أن يخضع إليه تماماً، و ألّا ينغمس في الملاحظة في نفس الوقت)). ((حتى لو كان المرء متعوداً على ممارسة التأمل و إطالة النظر في نشاطاته، فإنّ من الضروري له أن يغمض عيونه الداخلية حينما تكون هذه النشاطات للتَجْرِبة في حالة تقدم و حركة. فضلاً على ذلك، إذا كان عليه أن يجرب و يدرك معدل التفكير، فإنّ عليه أن يعرف كيف يفكر مع إغلاق عيونه العقلية حين يتحدث مع الناس العاديين. هذا الغلق للعيون هو فعل محسوس يمكن أن ينجز بواسطة الإرادة)). و بهذا الاعتبار يمكن القول إنّ نيتشه كان يمني النفس أو تمنى أن تكون له تجارِب، ليس كي يتحد معها صوفياً، و لكن حتى يعرف ما هي مع حفظ المسافة.

بواسطة هذه التصورات، الأفكار و الخواطر، ينظر نيتشه، الذي تخطى الخوف و أخضع الألم، إلى حياته و تجاربه كعملية ينبغي أن يتم قَبُولها بسلبيّة – حيث يقتصر عمله على إزالة المعوقات كي تصبح الحوادث راسخة و صلبة في المعرفة اللاحقة. و لكن مع بحثه عن الفهم-الذاتي سرعان ما يتم استيعاب وجهة النظر العابرة هذه ضمن النشاط الإدراكي، المنظور إليها كتَجْرِبة (*Versuchen*). حتى المعرفة التأملية المفترضة للسلبية التي تقبل التَجارِب هي حقاً تميز فعال: بالضِدّ من أولئك مزيفي تجاربهم، فرض نيتشه على نفسه القيام بالمهمة الآتية: ((نحن نريد أن ندقق بتجاربنا بصرامة كما يدقق العَالِم بالتَجارِب العلمية)). لقد حول نيتشه الحياة برّمتها إلى ميدان من التَجارِب: ((نحن أنفسنا نريد أن نتطابق و نتماهى تماماً مع تجاربنا، نريد أن نكون حيوانات للتجارب)). إنّ فكرة ((أنّ الحياة يمكن أن تكون تَجْرِبة للعارف)) هي لمادام كانت المحرك و الدافع العظيم الذي يعتق نيتشه و يحرره من قيوده. نتيجة لذلك، تصبح المعرفة عند نيتشه ((عالم من المخاطر و الانتصارات)). ((في الواقع، كي يصبح المرء حكيما، ينبغي له أن يبحث أو أن يكون في عداد الذي يبحثون عن تجارِب محددة بعينها – أن يدع نفسه يسقط بين فكوكها المفترسة، إذا

جاز التعبير)). بالطبع، ((هذا الأمر في غاية الخطورة؛ و الكثير من (أولئك الحكماء) يقعون فريسة في أثناء ذلك)). يؤكد نيتشه، دون تحفظ، أنّه يرى في تجاربه ميداناً للتحولات غير المحدودة تحت هداية متروية و مدروسة: ((كي ترى الأشياء كما هي! فإنّ عليك أن تكون قادراً إلى النظر إليها بواسطة المئات من العيون المختلفة و بواسطة العديد من الأشخاص و الزوايا!)) بينما لا تجرب الأشياء غير الشخصية أيّ شيء بالمرة في حياديتها كونها ليس لديها عيون لترى الظواهر الواقعية – في حين تبقى الطبائع القوية في طغيانها خاطئة بما أنّها لا ترَ إلاّ نفسها، و تقيس كلّ شيء بمقياسها، و تحقن و تلقح نفسها في كلّ الأشياء. بعيداً عن هذين الطريقين، يختار نيتشه أن يقتفي طريق ثالث: أن يقدم نفسه في صيغ لا تعد و لا تحصى. ((مخلوقات باسلة وأبية عزيزة و جديدة تعرف كيف تبقى قابضة على عِنان عواطفها يجب أنّ تقوم بتطوير نفسها))؛ كي يكون المرء عادلاً، ((عليه أن يتجاوز أشخاصاً كثيرين يستخدمهم كلهم كوظائف)). ((إنّ تكون مجرد شخص واحد هذا لا يكفي بالمرة)). ((على المرء أن يتعلم كيف يضيء نفسه أو يدعها تضيع بين الأشياء من وقت إلى آخر – ثم يعثر على نفسه مرة أخرى...))، ((المرء الذي يرغب في المشاركة في شيء جديد ينبغي أن يعرف أولا كيف أن يكون صغيراً و متواضعاً في الأوقات المناسبة)). بالنسبة لأولئك الذين يفترضون أنّهم يعرفون الإنسان، يوجه السّؤال الآتي((هل جربت التاريخ بنفسك؟ الصدمات، الهزات الأرضية، الحزن الطويل، و النعيم المفاجئ؟ هل جربت حماقات المغفلين الحمقى المجانين التي تشبه نصّ النعي البارد و الممل و المقتضب؟ هل تحملت جنون و مصائب الناس الطيبين من قبل؟ كلّ شيء غدا تَجْرِبة، و لا شيء يقدم نفسه بوصفه أرضية صلبة يمكن أن تقوم عليه المعرفة الموثوق بها)).

و بهذا، حين نكتشف أن نيتشه كان ينظر إلى حياته بوصفها جملة من التَجارِب المتنوعة – ربما يراودنا بإلحاح سّؤال ما إذا كان جاداً حقاً في طرح هذا التصور، وما إذا كان كلّ شيء يؤخذ على أنّهُ مجرد وسيلة يوظفها لغرض المعرفة، سوف لن يتلاشى في الريح، تاركا المعرفة بذاتها دون أساسّ. بالنسبة لأولئك الذين يتفقون مع نيتشه حول انحلال كل التعليل غير الغامض للوجود الثابت، من حيث إنّه يأخذ صيغة اليقين الفلسفي المتعلق بالطبيعة الأساسيّة الحقيقية للأشياء، ربما يصيبهم الذهول و الدهشة حين يتم الحط من كل صيغ الحياة و اعتبارها مجرد تجارِب، و بذلك تبدو كما لو أنها سلبت و جردت من طبائعها الثابتة النهائية.

الجواب هو الآتي، يعتبر نيتشه القَبُول بالإمكانات بلا شرط أو قيد، بالنسبة للإنسان، خطوة أساسية و ضرورية في اكتساب المعرفة و توسيع نطاقها – و بذلك يمكن بلوغ الحقيقة، التي يطالب بها، و الحصول عليها بواسطة جدية الممكن و الإمكانية فحسب. في الواقع، أن حياة نيتشه، كفيلسوف، متشابكة بشكل لا ينفصم مع ما يقوم بتجربتهِ فقط كإمكانية، و أنّ كلّ مع عالم القوة و عالم الفعل عنده – أعني، الواقع و الإمكانية حقيقين و يظلان شرطين ضروريين لامفر منهما لديه للمعرفة إلى درجة أنّ الجدية المتحمسة للواقعي عنده تتحدث، في معظم كتاباته، فقط بواسطة ميدان الممكن. بدقة، حين يحاول نيتشه أن يميز نفسه عن الآخرين من الفلاسفة يشير بقوة إلى السِمَة التي تطغي على تفكيره القائمة بالأصل على تَجْرِبة الممكن: ((بينما يعرف الفلاسفة الأشياء كأفكار فحسب، و أفكارهم هذه لا تمثل تجاربهم قطاً لا من بعيد و لا من قريب، بل هي مجرد صدى لأفكار الآخرين، و بهذا يشبهون إلى حدّ بعيد اهتزار البيت القديم الآيل للسقوط عندما تمر عربة ضخمة بقربه. أجلس أنا، خلافاً لهم، في هذه العربة، بل غالباً ما أكون أنا العربة التي تهز بمجيئها بيوت أفكارهم القديمة بقوة)). و بهذا الاعتبار يمكن القول إنّ نيتشه العارف يصبح الرجل الذي تمتلئ تجاربه للممكن بالحماسة المنقطعة النظير، فبواسطتها يحاول نيتشه يتماهى مع الواحد الذي يمتلك الوجود بذاته – بينما يحاول في نفس الوقت أنّ يدرك تَجْرِبة الممكن هذه بطريقة فلسفية صرفة. لم يعد نيتشه في الغالب يجرب و يدرك الأشياء معاً في وقت واحد. بوسعه حينها أن يقول: ((منذ زمن بعيد لم أتحقق من صلابة الأرضية التي تقف عليها آرائي)). و لكن في مناسبة أخر، لا ينفكّ أن يؤكد أنّ تجرب و أنّ تعرف هو في الواقع عبارة عن فعل واحد. لم تعد التَجْرِبة بالنسبة له جوهر واحد ثابت في ذاتها، و الإدراك أيضاً لم يعد شيئاً ثابتاً أو معرفة لا يصيبها التغير. بناءً على ذلك، في مسالة الجمع و الفصل بين التَجْرِبة و المعرفة، لم يكن نيتشه قد حسم أمره، و كان دائماً غير متيقِّن و لم يجرؤ على اتخاذ موقف نهائي بصددها. كان نيتشه – الذي يعلم كيف يضحي برغباته تجاه كلّ حقيقة حتى لو كانت بسيطة مريرة بشعة كريهة معادية و لا أخلاقية ...إذ أنّ مثل هذه الحقائق موجودة – ما انفكّ أن يجازف بتّروي و بصبر في ميدان الممكن، و يحاول أن يفكك التَجْرِبة و يسلبها حضورها و سحرها، و يمزج بين الحقيقي و المزيف؛ و يعرض نفسه إلى الخطر إلى درجة أن معظم الناس أما لا يعرف هذا الخطر أو يكون قاتلا لهم إذا اقتربوا منه. مع حقيقة إنّهُ الوحيد من بين الفلاسفة الذي كان يمكن أنّ يتحدث عن نفسه بأمانة، يبوح نيتشه لنا بهذا السر: ((لا تتردد في استخدام الوسائل الخطيرة و الميزات المتعددة التي تتوفر عليها الأشياء و الاستفادة منها

و استثمارها. هذه هي نزاهتي العميقة و حياديتي نحو ذاتي... أعالج ببراعة و أبحث في سماتي و خصائصي و أعيد خلقها المرة تلو مرة من جديد...)). مع ذلك، يمكن اعتبار تلك السيادة الخطرة، التي تهدد بتحطيم وجوده في اكتماله التاريخي، ببساطة كوجود استثنائيّ للممكن الذي يضحي بالواقعي الذي يخصه و يعود إليه. يشكل مفهوم نيتشه لتَجْرِبة الممكن، في تفاصيله المهمة، وحدته و اتحاده مع العالم كما يفهمه – الممكن عند نيتشه هو نفسه الواقعي، تجارب نيتشه تمثل نمط قرار الوجود التاريخي الشجاع الذي يتخذه بصدد الممكن. بواسطة منظار فحص حياته الفكرية كتَجْرِبة، بلغ نيتشه في فلسفته حالة من الاتحاد و الوحدة بين الحياة و المعرفة – و هي بالمناسبة خاصَّة يحتكرها نيتشه دون غيره من الفلاسفة الآخرين.

التفكير بوسائل الديالكتيك الحقيقي. ــــ تصبح الحياة و المعرفة، التي يفهم بواسطتهما نيتشه نفسه و مهمته الفلسفية، معاً شيئاً واحداً – حركة مستمرة ضمن عملية التجريب. هذه الحركة، مع أنّها لم تكن مقصودة و متعمدة في البداية، سرعان ما تصبح لاحقاً واعية وإرادية و قصدية. يتمسك نيتشه بمواقعه الفلسفيّة، المتعلقة بوحدة كلاً من الحياة و المعرفة، بقوة و يعبر عنها بصوت فلسفي تطغي عليه الحيوية و نبرة التشديد المطلق الواثق من نفسه. نيتشه يتحدث بهذا الصدد كما لو أنّه اكتشف للتو الحقيقة الأصيلة الموثوق بها. كما يتمتع التشكيك بما يعرف و إثارة الشبهة و السّؤال عنه و الانتقال إلى القطب المضاد للحقائق التي يعرفها و ينجز بذات القوة و الحيوية و الغبطة و العزم. في الواقع، لم يتبع نيتشه المنهج التقليدي المتعارف علية في التفكير ديالكتيكياً (الذي لا يساوي لديه أكثر من جملة من الترتيبات الدائرية لكومة من القشور بوسائل متسرعة و طائشة لما يمكن أن نتصوره أو نتخيله في وَسْط كبير و فارغ)، بل أراد بدلاً عن ذلك أن يعيش و يجرب بالضرورة كل المواقع الواقعية المختلفة و المتنوعة و المتناقضة التي مر فيها في وجوده و حياته بكل امتلائها، و هذا الذي كان يقصد فيه بتعبير ((الديالكتيك/ السجال الحقيقي)). في هذه العملية، تصبح المتضادات و المتناقضات، عند نيتشه، أموراً حقيقية و واقعية و حتى مقَبُولة. فهي لا تخضع منذ البداية إلى القدرة التركيبية للمعرفة؛ لكنها سرعان ما يتم القضاء عليها و استئصالها من جذورها و تسويتها بواسطة سلاح المقولات و المفاهيم الكُلّية العامة للمعرفة التركيبة التي تريد القضاء على التناقض و الاختلاف و تبقي الباب دائماً مفتوحاً لهذا الإجَراءِ. بالضِدّ من هذا النمط من الفلاسفة، يقول نيتشه: ((المفكر الذي من هذا النوع لا يريد لأيّ أحد أن يناقض أقواله: مع أنّهُ الوحيد الذي بوسعه أن يفعل ذلك)).

طبقا إلى مفهوم نيتشه للفهم-الذاتي، يمكن أن نصف هذا الديالكتيك/ السجال الحقيقي بالسمات الآتية: (1) ليس الحركة فيه استبداديّة و اعتباطيّة و عمليّة غير موجهة – إنّه ببساطة مرتبطة مع نفسها و تعتمد عليها حصراً. يطلق عليه نيتشه اسم أو تعبير ((التقويض)) (2) (Überwindung) بسبب ارتباطه بالوجود الممكن، الذي يشجع و ينفخ الروح في الحياة و يعمق منها – يعد هذا النوع من التفكير، الذي يتبناه نيتشه في الديالكتيك/ السجال الحقيقي، تفكير جوهري حقيقي، و يختلف تماما عن الاستبدادية الممارسة في كلّ أنواع التفكير العقلي علينا. (3) يعدّ الديالكتيك/ السجال الحقيقي تفكير بناء و مشكل و تقويمي في أغراضه، على الرغم أنّه يمكن أن يعرض، بسبب طبيعته الحقيقي، نفسه إلى خطر الغرق في السلب و الدحض.(4) له اتجاه، و لكن ليس له نهاية، و المواقع التي يفقدها في معاركه لا يطالب مطلقا باسترجاعها – حقيقته و جوهريته تقوم ببساطة على وجوده و جريانه و حركته-في-الطريق.

(1) في الوحدة غير القابلة للتلاشي و الذوبان بين الممكن و الواقعي في وجود نيتشه، كاستثناء، يكشف الفهم-الذاتي لديه، بواسطة هذه الوحدة، عن سلاح ((التقويض)) و الدحض، الذي ينجز مهامه ضمن حياته و معرفته غير المنفصلتين.يفهم نيتشه ((تجاربه/ التجريب)) بوصفها مهمة تُنَّجز بواسطة معرفته كون الأخيرة عنده تنفذ بعمق إلى المصادر ضمن الكلّ. مثل هذه المعرفة تتطلب من المرء أنّ يكون ملمّا بكلّ الإمكانات المتاحة كي يستطيع أن يقوض و يقضي على كلّ إمكانية خاصَّة يريدها. و لكن بما أنّ معرفة الإمكانية فحسب تبقيها خارج التَجْرِبة الواقعية و لا يُدخلها إلى الحياة، يعمل نيتشه دائماً إلى أن يتطابق و يتماهى مع ذلك الواقعي الذي يتحدث عنه. و لكن ما يصبح واقعي بالنسبة للآخرين على وجه الحصر، يتحول عند نيتشه إلى مجرد لحظة في حركة الإضاءة الفعالة لعملية التفكير. بما أنّ نيتشه كان يعدّ نفسه في عالم القوة و الممكن أيّ شيء، فإنّه في عالم الفعل يعدّ نفسه لا يساوي أيّ شيء: لم يلتزم نيتشه و يتمسك بقوة بأيّ موقع محدد خاص. في الواقع، يشكل الديالكتيك/ السجال الحقيقي عنده باستمرار تجارِب جديدة تُفرَّض بالإكراه عليه في طريق التقويض-الذاتي الذي لا شفقة أو رحمة فيه. حين أطلق على عملية التقويض و الدحض – الذاتي ((السمة الأكثر قوة و تميزا)) في تفكيره، وأعلن الانتساب إليها بكل إلحاح و نُضْج، لا تشوبه شائبة، كان نيتشه يعرف جيداً إنّه يقفز في الخطر الذي يمثل خصوصية قد تبدو غريبة الأطوار لحياته و تفكيره: ((أريد هذا الخطر أكثر من أيّ شي أخر – أنا دائماً على شفا الهاوية)).

يتضمن معنى و مدلولية سلاح التقويض عند نيتشه دائماً الهجوم و النقد، إخضاع كلّ شي للسّؤال و الفحص و التمحيص، تَجْرِبة السلب والدحض – بينما هذا الذي تم رفضه سابقا و ينبغي، مع ذلك، أن يتم تجربته مباشرة يكون حقيقي و متطابق مع وجوده. هذا هو السبب الذي يوضح لنا لماذا بذل نيتشه قُصَارَى جهده في البحث عن الأشياء التي تمثل إمكانات حقيقة واعدة في المستقبل. يقف نيتشه بالضِدّ من أولئك الذين يحاولون أنّ ((يكتسبوا إمكانية واحدة، و استعداداً واحداً، و نوعاً واحداً من وجهات النظر للتعاطي و التعامل مع كلّ الأوضاع المختلفة و المتنوعة في الحياة))، كما يقف أيضاً بالضِدّ من ((سمة التوحيد و التعميم و الكُلّية التي يُشار إليها بوصفها التصرف الفلسفي المَوَقَّر)). يعتقد نيتشه، كي نغني المعرفة و نزيد من خصوبتها و ثرائها، ينبغي لنا، أو من المستحسن، أن نصغي إلى الأصوات الناعمة للأوضاع المختلفة في الحياة: ((هذه الأوضاع تجلب وجهات نظرها معها. و بذلك، يساهم كلّ واحد من هذه الأوضاع في تشكيل حيوات و طبائع عدّة، حين يرفض أن تتم معاملته بوصفه شيئاً فردياً ثابتاً لا يتغيّر)). و بالضِدّ من أولئك غير المتنورين و الممانعين للتنوير كنتيجة لإخفاقهم في الاستمتاع بالكثير من القناعات، يعبر نيتشه عن طريقه و يعلن أهدافه على النحو الآتي: ((إنّ يطوق الإنسان نفسه بطوق النفس الحديثة، هو أن نُجلس كل واحد منا في الركن المخصص له و نطالبه بأن لا يتحرك ـــ هذا هو عذابي و هذه هو متعتي)). و بهذا الاعتبار يفهم نيتشه أنّ كل شيء يناضل بالضِدّ منه يخص ذاته الحاضرة أو الماضية معا و يعود إليها. هذا ينطبق على الأشياء التي يقدرها كثيرا و يعتقد بها بقوة؛ لكن يطبق، قبل كلّ شيء، على ما يعتقد أنه القدر الحقيقي للسقوط الوشيك للإنسان: العدمية، الانحطاط و التفسخ. يعترف نيتشه أنّه ((أول العدميين المتسقين و غير المتناقضين مع نفسه في أُورُوبَّا – الرجل الذي عاش العدمية إلى نهايتها، و ذهب بقوة بعيداً نحو مدياتها القصوى)). أو مرة أخرى، يقول بهذا الصدد: ((أنا نهاية الانحلال و التفسخ و بداية الجديد الواعد.... كلاهما أنا. أفتش عن المفاهيم التي تمتلئ بالصحة و الكمال و القِيَم برؤية و عيون شخص مريض؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى استرق النظر خُلْسَة إلى عمل غريزة – التفسخ و الانحلال من منظور شديد الثقة بالحياة الغنية – هذا هو العمل الذي لم أتوقف عن ممارسته طوال الوقت كثيراً. إنّهُ حقاً تجربتي الأصيلة و الحقيقية)).

إذاً، هذا هو معنى ((التقويض)): لم يستسلم نيتشه إطلاقاً مرة واحدة و إلى الأبد إلى أيّ تَجْرِبة من التَجارِب الممكنة التي مرت به، سواء كانت سلبيّة أو إيجابيّة، و لكن كان يفضل المغامرة لتبني كل المواقع كي يسيطر عليها بواسطة السلب الديالكتيكي: ((هِزَني بكلّ ما أوتيت من قوة من

كتفي، بكلّ ما موجود من دموع و بؤس للإنسانية في هذا العالم، عليّ دائماً أنّ اتسلق مرتفعات الأعالي السامية، كما حال الزيت الذي يرتفع فوق سطح الماء))، و ((بغض النظر عما سوف أقوم بخلقة و إبداعه، و بصرف النظر عما يكن حجم الحُبّ الذي أكنه له – عليّ بالحال أنّ أعارض و أقف بالضِدّ منه و من حبي له بقوة)).

في التعامل مع ذاته، يتبنى نيتشه، عن وعي، تقنية و طريقة ((مقاومة كل الميول الطبيعية، لأرى أيضاً ما إذا كان هناك شيء في داخلي ذات ميول معارضة إليها و يقف بالضِدّ منها)). ((لماذا عليّ أن أخرس فم عواطفي؟... الآخرون يعبرون عن أنفسهم بواسطة المشاعر و العواطف، لكني أعبر عن نفسي بواسطة العاطفة المقموعة المكسورة و المغلوب على أمرها)). إذنْ، يتطلب البحث عن الحقيقة ((الصراع و النزاع الناشب ضِدّ ما مقَبُول من قبل مشاعري العميقة)). لأني يمكن أنّ أتلاشى و يُقضّى عليّ بسهولة نتيجة تأثير واحد من عواطفي عليّ. لهذا، دائماً أجعل الواحد منها يصارع الآخر و في حرب دائمه معه.

(2) و لما كانت حياته بكل تنوعها – أيّنما يكون و يحل و كل شي يفعله – يتطلب الديالكتيك/ السجال الحقيقي و يفترض حالا صيغة تفكير محددة، و بسبب أن تفكيره غدا الواقع الذي تقطن فيه طبيعته، صار بوسع نيتشه أخيراً أن يطلق على تفكيره صفة ((الحقيقي/ الجوهري))، حين يقول عنه: ((حينما يكون التفكير هو قدرك، لم يتبقَ لك من خِيار سوى أنّ تدفع ضروب الولاء السامي المبجل، و تظهر آيات الحُبّ و الاحترام، و تضحي من أجله بالغالي و النفيس)). في نوع التفكير الذي يتبناه، لم يقصد نيتشه أيّ نوع محدد من أنواع التفكير، بل يقصد تحديداً الضرورة التي فرضها الفيلسوف على نفسه كمسؤولية، التفكير الذي يعبر عن حركة جوهرية لوجوده و طبيعته كليًّا. و بما أنّ عليه أن يشارك في كلّ شيء ينوي و يضمر تقويضه، فإنّ ليس هناك من فائدة أو طريقة فعالة في تقويض الأفكار العقلانية التي هي بلا جوهر. لهذا السبب، رفض نيتشه أنّ يتم بسطحية تشبيه ب ((دون خوان المعرفة))، و الذي بسبب حركته التي لا تنقطع يشبهونه به. لكن هذا لم يمنعه من تَجْرِبة و ممارسة نمط حياته و المضي قدماً في تفكيره: ((يفتقر إلى حُبّ الأشياء، التي يعرفها، لكن لدية الروح و الشهية و يتمتع في الصيد و المكيدة التي تتضمن المعرفة... حتى لم يتبقَ له أيّ شي يصطاده، بل الآثار المؤلمة للمعرفة فحسب...))

(3) بطريقة لا يمكن إنكارها، يقود الوجود-الذاتي المعرفة الديالكتيكية. كلمة اللا في هذه المعرفة تمثل درب إلى نعم جديدة. و بهذا الاعتبار يمكن القول أنّ نيتشه، على سبيل المثال، يطالبنا بإنّ ((نقوض كل شيء مسيحي بواسطة شيء أكبر من المسيحية و ليس فقط أنّ نبتعد عنها)). بخصوص المرء الذي يقوض نفسه بعنف بواسطة السلب و النقض، يقول نيتشه: ((ينبغي أن تقوض نفسك و توقع الهزيمة بها. و لكن لماذا تقدم نفسك إليّ ببساطة كشخص مقهور و مغلوب على أمرك؟ أني أبحث فقط عن المنتصرين...)). أن تكون منتصراً يعني أن تربح النعم الذي تنبثق من أعماقها اللا كنتيجة لها فحسب. بالنسبة إلى نيتشه، يمتلك ((التقويض-الذاتي معناه فقط كوسيلة لتطوير القوة الحاكمة للسيد)). لكن انبثاق (النعم) من (اللا) يتم التعبير عنها بوصفها سِرّ الخالق المبدع: ((ذهبت في البحث عميقاً عن المصادر؛ لهذا السبب، غدوت غريباً على كلّ شكل من أشكال التبجيل... لكن رغبة البحث عما هو مبجل في داخلي – بدأت تثمر بذرتها بسِرّية. من هذه البَذْرَة كبرت الشجرة التي أحبها و أجلس الآن تحت ظلالها الوارفة – شجرة المستقبل)). يزودنا مقال زرادشت الأول، في نصّ نيتشه ((هكذا تكلّم زرادشت))، بصورة عن الديالكتيك/ السجال الحقيقي للوجود. يلاحظ نيتشه ((ثلاث تحولات للروح)) تنبثق من أعباء الأحمال الثقيلة، بواسطة تحرر من القيود بواسطة أدوات السلب المقدس، للحصول على حق امتلاك القيم الجديدة – أعني، الخلق، الإبداع و التأكيد المقدس.

سواء اعتبرنا الإنكار الديالكتيكي عند نيتشه مجرد أمر تأمليّ عقليّ صرف أو حصرنا معناه بتنفذيه فعلاً و بطريقة ملموسة، فإنّهُ في جميع الأحوال يشتق معناه من وظيفته فحسب بوصفه حركة استنتاجية و استدلالية. في الرابطة التاريخية بين خطوات الحوادث، و في عملية الحفاظ على الماضي، يعادل الإنكار الديالكتيكي عند نيتشه الآتي: ((حاول أنّ تكون أكثر فأكثر الموجود الذي أنت هو حقاً – مُبدع ذاتك و نفسك، كن ذاتك!... بهذه الطريقة وحدها سيتاح لك الاحتفاظ في ذكريات اللحظات السعيدة، و تكتشف روابطك الحقيقية مع الأشياء و عمقها – تكتشف بنظرة خاطفة السلسة الذهبية لذاتك)). و لكن في عملية التقويض-الذاتي المستمرة، كل شيء أيّا كان – و حتى بضمنها طريق المعرفة الحرة بذاته – يصبح خاضع للسّؤال و التحليل و الفحص و التمحيص على قدم المساواة عند نيتشه (((ملعون أنت! تنظر و ترنو إلى الحياة بعين المتوحد، المنعزل الحر و مرة أخرى... تمنع الطريق إليها بواسطة معرفتك))). تبقى المهمة الفلسفيّة عند نيتشه تنحو نحو الآتي: ((أريد أنّ أضع كلّ شيء انكرته بلا استثناء في مكانه المناسب ثم أغني الأغنية السعيدة حتى

نهايتها)). تسفر الرابطة بين الأشياء هنا، و تكشف عن نفسها، باعتبارها الماهية الحقيقية لمعرفة إمكانات الوجود. و لكن مثل هذه الموضوعية العقلية هي مجرد منظورات انتقالية لم يكن نيتشه مقتنعا و راضيا إطلاقاً بها. إنّ الديالكتيك الحقيقي، في نظر نيتشه، هو مصدر و قدر معاً في آن واحد.

(4) لا يبدو أن هناك لعملية التقويض و التقويض-الذاتي عند نيتشه – أعني، النفاذ بعمق إلى كل الإمكانات – أيّ هدف واضح. إلى أين ينتهي هذا الطريق – هذا الديالكتيك الذي تمت تجربته و كأنّهُ أمر حقيقي يستمر في الحركة، عند نيتشه، بواسطة التضحية المستمرة بكل شيء يملكه المرء و أنفق جهد و وقت للحصول عليه؟ إذا كان التقويض و الهزيمة الأخيرة (على سبيل المثال، الإنسان الأعلى في الجزء الرابع من نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت))) مجرد حركة مفروضة و مدفوعة بواسطة أكثر المتطلبات إلحاحاً للحقيقية، دون أيّ مثال إدراكي واضح، دون خلق و تحقيق لوجود الإنسان ذاته و انتقاله من عالم القوة إلى عالم الفعل، و بالتالي دون أيّ تسوية، و دون أيّ قرار سوى الإنكار – فإنّ الأمر كله حينها لا يعدو ببساطة عن كونه حالة تضحية بالذات مستمرة تنتهي إلى لاشيء أو عدم. و لكن حين لا يستطيع نيتشه أن يواجهنا بمثال مرئي و واضح يجسد عمل التقويض، لم يعد أمامه حينها من خِيار سوى أن يعثر على المعنى الإيجابيّ في التقويض ذاته و في طريقته فحسب نظرياً: يؤكد نيتشه بواسطة عملية التقويض منظور اللانهائية فحسب.

مع ذلك كانت وجهة نظر نيتشه الشاب عن التقويض مختلفة عن وجهة النظر المذكورة أعلاه تماما: لقد كان يعتقد أنّ الأفق المسدودة، أو ذات النهايات المسدودة، شروط لامفر منها للحياة الكاملة، في الواقع: ((هذا قانون كليّ و عام – أعني، يمكن للبشرية أنّ تكون قوية و معافاة و جهودها مثمرة فقط حين يكون لديها أفق – منظور. بالنسبة للطبيعة القوية يعد الأفق النهاية و الكمال بامتياز)). لكن نيتشه انقلب على تقييماته و آراءه السابقة و عاد على عقبيه حتى يصل إلى النقطة التي بدأ منها، و بالأخصّ حين بدأ ينظر إلى كتاباته من زاوية مختلفة – فقد وجد ((أنّ لدية رغبة كبيرة في فتح أفاق جديدة مختلفة عن السابقة، و أبدى الكثير من الحذر المتعقل وأمارات الريبة نحو الكثير من القناعات السابقة و القديمة)). الحقيقة هي أنّ الإرادة الواعية و التفكير الذي يسير نحو اللاتناهي عند نيتشه يعاود الظهور و الحدوث بطريقة مكررة المرة تلو المرة – مع وضوح كبير و متزايد، كان نيتشه يرى نفسه عاجلا أم أجلا في مواجهة مفتوحة و محتمة و وشيكة الحدوث مع

الخطر، وعليه – كوجود لا استثنائيّ – أنّ يتقبل هذا الخطر بلا تحفظ، و في كل الأوقات و لا يقتصر الأمر لديه على قَبُوله فقط حصراً على اللحظات الحاسمة لتحقيق إمكانية ما:

كان نيتشه نفسه يشعر ((أنّهُ كالطير الذي تراوده رغبة عارمة في التحليق عالياً فوق شواطئ بعيدة)). كان الحنين و الشوق إلى الوطن و الأهل يستهلكه و يستنفذ قواه تماماً: ((شوق و حنين الشخص الذي لا منزل له أو بيت أو وطن)). ((المسافات تكبر و تزداد مع اتساع قوة رؤيته الروحية؛... غدا عالمه أكثر عمقا من قبل، و دائماً هناك الكثير من النجوم الجديدة تطلع و تسطع في سمائه، الكثير من الأسرار و الصور الذي تأتي مع و ترافق نطاق رؤيته الجديدة)).

كما جربَ نيتشه أيضاً رعب و هول مواجهة الخطر الذي يترصده، و لاسيَّما ((في أفق اللامتناهي و نظراته)): ((لقد هجرنا الوطن و الأرض و حضرنا سفننا و أشرعتها للذهاب بعيداً عن هذه الأرض! لقد حطمنا و أحراقنا كل الجسور من خلفنا حتى لا نفكر مطلقا بالعودة – و أكثر من ذلك حطمنا أرضنا من خلفنا و حرقنا فيها الأخضر و اليابس! الآن نحتاج فقط إلى سفينة صغيرة! خذ حذرك... و آسفاه إذا راودتك أو استبدت بك مشاعر الشوق و الحنين إلى الوطن، كما لو أن هناك الكثير من الحرية أو ظلَ أيّ شيء منها يذكر – حين لم يعد هناك أصلا أيّ (أرض) أو أيّ (وطن)!))، ((كم تشعر عينك بالفزع من النظر إليّ، أنا اللاتناهي، أنا الأبديّة!)).

هل هذا هو الطريق الوحيد الذي ظل أمام نيتشه فحسب و لم يتبقَ أمامه أيّ طريق أخر يسلكه؟ غالباً، ما يوجز نيتشه هذا الطريق و يرسم خطواته بعجالة. يطلق نيتشه على هذا الطريق اسم ((عزاءات التقدم – أنّ يصير المرء عميقا أكثر و لا أخلاقيا أكثر و قويا أكثر و واثقا من نفسه أكثر و بنفس القدر طبيعيا أكثر: هذا هو التقدم – اليائس الذي حلَ محل فكرة النجاة))، حيث يقول: ((بالإضافة إلى ذلك، نحن لا نستطيع الرجوع إلى القديم أو الركون إليه – لقد قمنا بإحراق السفن حتى لا نعود إليها؛ لم يتبق لدينا أيّ شيء عدا الشجاعة و شرف المواجهة و الحرب...)). في نصّ ((التائه و ظله))، يقول نيتشه: ((يشعر المرء الذي يمتلك مثقال ذرة أو درجة صغيرة من حرية العقل، بوصفها نقطة ارتكاز ناظمة للوجود الفردي و الجماعي، إنّهُ كالمتجول التائه و الشريد على هذه الأرض ليس أكثر)). لهذا السبب، يعالج نيتشه هذا الموضوع لأهميته الكبيرة بصورة إضافية، و يخصص إليه جزء مهم تحت عنوان ((إلى الأمام)) في نصّي ((مسافروا الروح)) و في ((نحن أرغونوتس المثال)).

ينبغي لهذا الطريق، المتعلق بالديالكتيك الحقيقي ضمن الأفق غير المحدود، و الشيء المعروف بطريقة كُلّية، أن يضيء بشكل متزايد لا يحصى و يصبح لا يمكن التنبؤء به. كعلمية تقويض، ينبغي لديالكتيك الحقيقي أن يتحدد بواسطة الوجود-الذاتي غير المعروف و الذي وحده يمكن أن ينجز و يكمل حركته بدل من الوصول إلى اللاشيء أو العدم. هذه هي الصفة التي تشكل الخصوصيه الفريدة غير المفهومة للديالكتيك الحقيقي. من حيث عملية الفهم-الذاتي عند نيتشه، و ما يتعلق بمستتبعاتها، فإنّ إمكانيتها سرعان ما تصبح تثير السّؤال و الريبة حتى بالنسبة له: ((مازال بوسعي أنّ أقف على خطوة و مسافة ضيقة في الحياة، و لكن مَنْ أكون أنا كي أُعلمك هذا الفن؟ هل تؤد أن ترى حبل-البهلوان الراقص المتأرجح الذي أسير عليه؟))

مفهوم نيتشه للصيغ المنطقية

يشير طريق كلّ فلسفة في فهمها لنفسها و أطروحاتها و حججها و مقارباتها إلى مفهومها للمنطق أولا. يعرف التفلسف جيداً ماذا يعمل الفيلسوف – الذي يفتح دائماً هاوية عميقة بين قيم الكاهن الراقية و قِيَم العالم – و كيف يعمل. يدرك أنّ هذا الأمر مشتق بوضوح من منهجه.

يفترض تفكير نيتشه، بعيداً عن أنّ يكون مجرد نشاط عقلي يصل إلى نتائج منطقية و حسب، التعبير عن الأفكار، وعن تمفصلاتها في خطوطها العامة، عن طريق الديالكتيك الحقيقي. في هذا النوع من التفكير، ينبغي ألّا يتم أخذ الفرضيات كل واحد منها على حدة و بشكل انفرادي، لأن هذا من شأنه أنّ يلقي بظلال الشك عليها و على وظيفتها، في حين يمكن أنّ تكون، من جهة أخرى، غير متسقة و منسجمة و يتعارض البعض منها مع البعض الآخر إذا أخذناها بالجملة. في طريق الديالكتيك الحقيقي لهذا النوع من التفكير الذي يتبناه نيتشه، و الذي يبحث بحيوية و فعاليه عالية في تفاصيل الأشياء، بوسع المرء أنّ يصغي إلى الكثير من أقوال الديالكتيك الموضوعي – أعني، ينصت إلى حركة التفكير الذي أما أنّ تضعف و تتلاشي أو تشدد و تقُوَى بفعل عامل التناقض فيها وتأثيره. يصبح هذا الديالكتيك الموضوعي أمراً ممكناً و حقيقياً بواسطة الغموض و المرونة لكل ذلك الذي يُفكر فيه.

مع أنّ نيتشه، بعزيمة لا تفتر و بأمانة لاتخطئها العين، كرس جهوده الفلسفيّة كلها إلى هذا الديالكتيك و عمل جاهداً على تطبيقه على كلّ فكرة من أفكاره الرئيسية، فإنّه لم ينجح ميثودولوجيا إطلاقاً في صياغة الشكل النهائي له و رسم هذه العملية بذاتها بحدود واضحة. إن حماسته المنقطعة النظير لأفكاره المنبثقة، و نمط الاستهلاك-الذاتي الذي كان يعيشه كمفكر يجد الراحة من الشدّ و التوتر فقط في لحظات قصيرة و نادرة من التَجارِب الصوفية، بحيث من فرط ندرتها و تميزها لا تكاد تؤثر على الحكم العام – كان كافياً لمنعه من القيام بذلك. كذلك، كان هناك الكثير من العراقيل و العوائق و المنغصات الذي اعترضت طريقة و كانت تقف حجرة عثرة في طريقه و تمنعه من إنجاز سيادة واعية على المناهج الفلسفيّة و التمكن منها و فهمها بحذافيرها. في الواقع، لم يطور نيتشه إطلاقاً نظام فهم-ذاتي منطقي خاص به، مع أنّه كان في بعض الأحيان يقوم في بعض المحاولات بهذا الصدد. لكنه، وبصرف النظر عن كل المذكور آنفا، ظل واعيا إلى أهمية و نَجَاعَة السّؤال الأساسي الذي يعمل كركيزة أساسية للتفكير الفلسفي: السّؤال المتعلق بالصيغ المنطقية المناسبة للتفكير الفلسفي. ظل هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يدور في ذهن نيتشه و يتردد إلى أفكاره بين الحين و الحين، و لاسيَّما حين كان يجره الحديث عن التناقضات و التعارضات الموجود في الكل أو النظام الذي تصادفه.

التعارضات و التناقضات. —— حينما كان مازال شاباً يافعاً – و هو يخاطب نفسه عليك أن تحزم أمرك، لم تعش حتى الآن إلاّ في المغامرة، أتترك الصدفة تتصرف بك؟ أنت تريد القيام بعمل، و المهم أن تعرف لماذا؟ – لم ينقطع نيتشه عن التأمل و إطالة النظر في الفكرة الميتافيزيقية الآتية: ((إذا كان التناقض...موجوداً حقيقياً و صحيحاً، و إذا كانت الصيرورة تعود إلى ميدان الظهور فحسب، فإنّ الفهم العميق للعالم سيقوم دون أيّ منازع و يرتكز على فهم التناقضات في هذه الصيرورة و التي من طبيعتها لا وجود للوحدة فيها)). لكن، قبل هذه المدّة بوقت طويل اكتشف نيتشه بمحض الصدفة البحتة السِرّ الآتي: ((عندما كنت في سن الثانية عشرة كنت لا أكف عن التفكير...في ثنائية الله – الشيطان. و قد توصلت إلى استنتاج مفاده إذا كان الله قادر على التفكير بنفسه، فإنّهُ سوف يكون مجبرا على التفكير في نقيضه...))

السّؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل أن ّهذه التعارضات و التناقضات شيء متأصل و موروث في الوجود بذاته، أم إنها مجرد مظاهر خالية من الوجود الحقيقي من صنيعة الخيال و العقل؟ هل

الصيرورة هي واقع نهائي و وسيلة لحل كل التعارضات و المشاكل و تقويض كل التناقضات، أم التناقضات هي سِمَة الواقع الذي يخفيه ظهور الصيرورة و يجعله غامضاً؟ في الإجابة عن هذه الأسئلة لم يفكر نيتشه بطريقة يغلب عليها الاتِّساق خلف هذه البدايات الواعدة، لكنه كان المرة تلو المرة يمس المشكلة المعمرة التي يلتقي فيها في ميدان المنطق و الفلسفة مساً خفيفاً.

على سبيل المثال، حين وجد نيتشه أنّ ((المشكلات الفلسفيّة الحالية هي هي نفسها الموجودة من قبل آلفين عام، و أنّ المرء مجبر أنّ يسأل، على سبيل المثال، كيف ينبثق الشيء من نقيضه (على سبيل المثال، كيف ينبثق العقلي من غير-العقلي)...)) راودته ربما بالحال رغبة في السّؤال ((هل هناك حقاً تناقضات بالمرة، ثم يسأل أليس التناقضات و الصراعات المقررة و المقَبُولة العامة على نطاق واسع ليس إلاّ تقييمات سطحية لا قيمة لها)). و بهذا الاعتبار، كان نيتشه، في كلّ أفكاره و أحكامه، يدافع عن نفسه ((بالضِدّ من التناقضات ذات الأضلاع المربعة)): ((فقط في الأسواق العامة تجبرك هذه التناقضات صاغراً بالتوجه إلى البائع بالسّؤال الذي يتطلب الإجابة: بنعم أو لا؟)).

حين علق نيتشه بهذه الصورة، يبدو أنّه فجأة و على حين غرة قد نفذ بعمق و للحظة إلى الأساسّ الأصلي و أمسك به بقوة. لكنه عموما كان يولي اهتماماً ببساطة فقط بالإشارات التي تبين له أنّ الحقيقة يمكن العثور عليها في التناقضات و التحولات و البدائل: بما أنّ التناقضات يرتبط بعضها مع البعض الأخر، فإنّ الحقيقة و الوجود الحقيقي يمكن أنّ تنبثق فقط بواسطة التناقضات. ((الحال ربما يكون ممكناً و ينطبق حتى على الأشياء الخيرة التي تحتاج إلى خلفية شريرة و خطيرة... التي يرتبط بعضها بدقة مع البعض الأخر، بل ينطبق و يشمل أيضاً على الأشياء الشريرة، التي تظهر بوصفها التناقض للأشياء الخيرة، فهي الأخرى يرتبط بعضها مع البعض الأخر)). [من جهة أخرى]، إنّ ((الرجل السامي، هو أكثر موجود يعبر عن أو يمثل الطبيعة المتناقضة للوجود... في الواقع، سرعان ما يشعر الناس العاديين... بالسوء و الغم و الكآبة و القنوط من جَراءِ الشد و التوتر الحاصل بين التناقضات...)) و بهذا الاعتبار بوسع نيتشه القول: ((الرجل الحكيم هو الرجل المُمتلِئ بالتناقضات بصورة إيجابيّة.... إنهُ يرمز إلى التناقضات التي تتخلل اللحظات العظيمة لحالة الانسجام و الوفاق و التصالح الفخم)).

من هذه المقاربة التي تحيط بالوجود، بوصفه وجوداً من التناقضات و التقاطعات ومن حقيقة ألّا شيء منها يوجد بحد ذاتهِ، يشتق و يبني نيتشه صيغة الفلسفة الجديدة بوصفها ديالكتيك حقيقي من النقائض لا يهمل أيّ فرق من الفُرُوق، و أيّ نقيضه من النقائض، و أيّ صيغة من صيغ الحياة الحرة الحاذقة. في هذا الديالكتيك الحقيقي الجديد، النعم فيه هي في نفس الوقت لا. زرادشت، الحامل على كتفيه كل التناقضات ((هو أكثر الأرواح إيجابية، الذي يتعارض و يتناقض مع كلّ كلمة. كلّ التناقضات و التعارضات اجتمعت فيه في وحدة جديدة غير مسبوقة من قبل. القُوَى السامية الرفيعة و الدنيئة الذي تنبثق من يَنبوع واحد لا غير بيقين لا يموت قد اجتمعت فيه)). بناءً على ذلك، يعتبر نيتشه أنّ من أكثر العلامات التي تعبر عن ((الإنسان العادي)) هي ((فشله في أنّ يميز و يدرك ضرورة الجانب العكسي المناقض للأشياء، حين يصارع بالضِدّ من الشروط الشريرة و يقف بجانب الشروط الخيرة كما لو كان بوسع المرء أن يهرب منها – و بهذا الاعتبار لا يقبل أنّ يكون الشيء و الشيء الأخر نقيضه...)) يطري نيتشه و يمجد بإفراط الحالة الألمانية (المتجلية و المتمثلة بشخصيات لايبنتز، غوته، و بسمارك) التي ((كانت تعيش بلا أدنى تردد و بشجاعة وَسْط التناقضات و تحتفل بها، بدعم من القوة المرنة التي تحرسهم من القناعات و المعتقدات و المذاهب و ذلك بواسطة لُعْبَة جعل الواحد منها يصارع الآخر مع الحفاظ على حرية الفرد وَسْط هذا الصراع ذات النار المستعرة)).

التحرر من الفكرة الراسخة بوجوب التخلص من التناقضات و إقصاءها، يبدو إنّها من حيث لا تدري تساهم، على حدّ تعبير نيتشه، بقوة في ترسيخ و تكريس وجود التناقضات و التعارضات و الفوارق و القَبُول بها – كما إنّها لا تقود فقط للتسامح مع تناقضات الآخر و اختلافاته، بل تمكن أيضاً الإنسان الحر من أن يقبل و يرغب أخيراً بالتناقضات و يحبها و ينفذ إليها و يستحضرها إذا سمحت الظروف. مثل هذه الحرية تتطلب عملية الديالكتيك الحقيقي: ((ينبغي أنّ تكون لديك الرغبه في أنّ تحترق بلهب نيرانك.... أنتَ تسير في طريق الخالق المبدع دون رجعة: تريد أنّ تخلق الله مع شياطينك السبع و تناقضاتها!))).

من الواضح، و بواسطة تَجْرِبة نيتشه الشيء مع التناقضات، لم ينجح تفكيره في أنّ يطور إطلاقاً أيّ منهج واعي، و لا توصل إلى حالة فهم دقيق و ثابت للأشياء. لم يميز نيتشه بوضوح بين السفسطة و المغالطة و الجدل و السجال، أو بين مغزى و مضمون وحدة التناقضات و التميز بينهما.

كما لم يطور منطقاً متعدد الأبعاد يستوعب مجمل التناقضات و التعارضات و الاختلافات بداخله. كان يرى بوضوح الأشياء المتناسبة و النجوم، كما هي، بيد إنّهُ مع ذلك أخفق في أنّ يقوم بتوضيحها لنا بشكلٍ إضافي. و لكنه، في الواقع، أنجز ما كان يدركه منطقياً فقط في مناسبات معينة معدودة. نجح الفهم-الذاتي المنطقي عند نيتشه في أن يمس، و لكنه أخفق في أن يضيء و يوضح، النواة التي تشكل الأساسّ في تفلسفه.

الكل. — لم يكن وعي نيتشه للرابطة الداخلية بين وجوده و تفكيره معاً، كما يتطوران في الزمان، ذي طبيعة منطقية في الأصل، و في هذا الصدد، يقول: ((نحن ننمو و نكبر كما تنمو الشجرة و تكبر– ليس في مكان واحد، و لكن في كلّ مكان، و ليس في اتجاه واحد، و لكن في كلّ اتجاه من الأعلى و في الخارج إلى الأسفل و في الداخل. لم يعد متاحاً لنا أن نقوم بشيء واحد محدد خصوصي أو نقوم بالكلّ...)).

و نتيجة لذلك، يفرض نيتشه أولا على نفسه (في العَلاقة بالمعرفة) تحقيق الشرط المنطقي للكمال: ((لا الحقيقة و لا الخطأ يمكن أنّ نعثر عليهما في الخصوصي/ الجزء... مع ذلك، كل فكرة هي شيء خصوصي/ جزء. بناءً على ذلك، ينتج بالضرورة إنّ الادِّعاء الذي يقول إنّ التفكير هو حقيقة بذاتها ليس صحيح بالمرة)). رفضَ نيتشه القَبُول بما يسمى ب ((الخطيئة الأصيلة للفلاسفة)): فساد الفرضيات باعتبارها مطلقة و غير مشروطة. و بذلك، تصبح ((الإرادة)) الشوبنهاوريّة، بالنسبة لنيتشه، ((ضارة، ورب ضارة نافعة، بواسطة الجنون الفلسفي للتعميم، الذي يعطينا الكلمات، حينما أكد شوبنهاور أنّ كلّ الأشياء في الطبيعة لديها إرادة)). الواحد لا يستطيع حتى أن ((يرسم صورة الحياة))، لأن ((النتيجة تبقى دائماً مجردة صورة تعبر عن جانب واحد من الحياة فقط)). إنّ الكلّ لا يمكن بأيّ شكل من الأشكال أنّ يصبح موضوعاً؛ فهو يبقى دائماً مهمة نيتشه التي تذوب في التفكير المنطقي لل((كلّ)) فقط: ((إنّ المرء الذي يقول إنّ العالم كليًّا هو فكرة، إرادة، حرب، حب أو كراهيَة. أيّه الأخوة، أقول لكم كلّ واحد من هذه، إذا وصفنا فيها العالم فرادى و بشكل منفصل فهي خطَأ، و لكن إذا أخذناها كلها جملة و وصفنا بها العالم فهي صحيحة)).

في المقام الثاني، أصبح واضحاً بالنسبة إلى نيتشه (في العَلاقة بالتقييم) أنّ الكلّ هو شي لا يمكن أن يقدر بثمن[86]. إنّ الأفق الذي تزودنا فيه فكرة الكلّ يتطلب تقييم الحوادث كلها، و ((يُمّكن الفرد بشكل كافي في أن يرى كيف ينبثق كلّ شيء كما يجب، و كيف أنّ كل نوع من أنواع النقص

يرجع و يساهم معا في كمال ما مرغوب فيه بشكلٍ بارزٍ)). حتى سوء الفهم لوجهة النظر المألوفة للعالم يتطلب قَبُولها و إدراجها ضمن مفهوم الكمال – ثم أن السمات السلبية للوجود ينبغي ألّا يتم إدراكها بوصفها أشياء غير مرغوبة فحسب، بل ضرورية أيضاً.

يمس تفكير نيتشه – الذي يعتقد أنّ من لا يجلب شيئاً لا يأخذ شيئاً – المأزق المنطقي الأساسيّ – أعني، بوسعنا، أو في متناولنا فقط، التفكير في الشيء الخصوصي أو الجزء و تقييمه، بينما الاقتراب من الكلّ فقط هو الذي يمكن أنّ يعطينا المعرفة أو التقييم الحقيقي. بيد أنّ هذه المقاربة أو الصياغة تخفق في إرضاء متطلبات التوضيح الذاتي الملحة و اليائسة للإنسان، لأنّها ببساطة تقوم بالتسوية و التوفيق بين الواقع و الكلّ. و بذلك، يكون نيتشه قد أخفق في تميز الانقسام بين الكلّ المدرك، التي تنحل فيه كلّ التناقضات و الاختلافات و التنوعات و تصبح واحدة، و محدودية و تناهي الإنسان الذي ينبغي أن يختار إكراهاً من بين هذه التناقضات. دون أن يدرك و يعي ذلك، ضاع نيتشه في الفكرة القديمة للتسوية، و التوفيق بين التناقضات، ضمن الكلّ. و لكن ما هو ضمن حركة التفكير و يعتبر كلّ يختلف عن الشيء الذي يصبح فرداً بواسطة قرار صُلْب و متماسك. لا تحدث مسألة التوفيق و التسوية – إذا كان هناك شيء اسمه توفيق و تسوية – إلاّ في العالم الترسندالي المتعالي، و ليس في الكل المدرك أو الفعل النهائي. بين كُلّية المعرفة، التي تشمل كلّ التناقضات و الاختلافات و التنوعات، و خصوصية فعل الإنسان الحاسم في الوجود هناك دائماً يوجد تناقص نهائي فيما يتعلق في الزمان. أنا كفرد، و جزء من هذا الكلّ، لا استطيع حل و قَبُول التناقضات الموجودة في داخلي كما لو أني الكلّ، الذي تذوب فيها التناقضات و الاختلافات و التنوعات، و إذا تجرأت على القيام بذلك في ذلك، فإنّني سأذوب و أتلاشى في العدم و اللاشيء لامحالة.

هنا، تفكير نيتشه الواقعي أيضاً أكثر قوة، و بطريقة لا يمكن مقارنتها، مع فطنته و دهائه المنطقي. للتأكيد، كان نيتشه يهاجم، في مناسبات عدّة، و دون السقوط في المأزق، الفلاسفة الذين تبنوا فكرة التوفيق و التسوية بين التناقضات و الاختلافات، ضمن الكلّ. و لكن ما عدا هذه اللحظات، يعبر نيتشه عن موقفه بخصوص التناهي بقوة، حين يقول: ((أنا شيء و لكن كتاباتي شيء آخر))، يبدو أنّ نيتشه كان يميز، بطريقة جوهرية، بين الوجود، من جهه، و معرفة الكلّ، من جهه أخرى. فضلاً على ذلك، كان واعيا بشكلٍ عميقٍ أنّه ((لا وجود إلى الكلّ)) و ((إنّه ليس هناك

عملية كُلّية (تُدّرك كنظام) إطلاقاً)). زد على ذلك، لم يباشر نيتشه بمحاولة تنظيم و ترتيب كل أفكاره و أوراقه بهذا الخصوص – بل أنّه بالأحرى أقصى هذه الإمكانية من حساباته و ذلك لمصلحة انفتاح غير محسوم على اللانهاية. مطالب الإنسان كموجود عنده كانت لديها اليد الطُّولَى على كلّ نوع من أنواع الإذعان الهادئ لما هو معروف.

النظام. ـــ الفلسفات – بوصفها لا تعي أن إرادة الحقيقة بالذات تحتاج إلى تبرير– توجد على صيغة أنظمة. و نيتشه يراها بوصفها إبداعات متعددة الأشكال بالضرورة. الأنظمة الفلسفيّة ما قبل السقراطية ((لديها نقطة مشتركة هي أنّها غير قابلة للدحض تماماً، مِزَاج شخصي قوي و راسخ لا تساوره الشكوك... على أية حال، هذه المقاربة للرؤية الإنسانية للأشياء كانت موجودة و هي ممكنة)). ((يبدو أن الأنظمة الفلسفيّة المتنوعة هي في مضمونها مناهج تعليمية للروح. إنّها تطور إمكانات خاصَّة للروح بواسطة طلب واحد محدد هو ينبغي أنّ نرى الأشياء بهذه الصورة و ليس بصورة مختلفة)). هذه الأنظمة ذات طابع إكراهي؛ تنمو بذورها في أرض مناسبة: ((إنّ حرب الأنظمة الفلسفيّة هو حرب غرائز خصوصية (الحيوية، الانحدار، الطبقة الاجتماعية، و الأعراق))).

بيد أنّ نيتشه لم يتبع طريق هذه الأنظمة الفلسفيّة. فهو يعدّ نفسه يقطن في مكان يبتعد عن المكان الذي يقطن فيه الفلاسفة الآخرون – الفلاسفة الذين ((يعيشون في بيوت مصممة خصيصاً و معتمدة جيداً للمعرفة)). فهو لدية القوة و المقدرة و الحركة و الشجاعة الضرورية في أن يبقى يعيش في نظام فلسفي غير مكتمل، مع وجهة نظر حرة و غير محددة – و لا يحتاج بالتالي إطلاقاً إلى العالم الدوغمائي الذي يحتاجوه الفلاسفة الآخرون.

فقد اكتشف نيتشه أنّ ((الأنظمة الفلسفيّة هي وليدة نمط من أنماط الأحكام المسبقة التي يؤكد أنّ الترتيب، الوضوح، و النظام ينبغي أنّ تكون موجودة و متأصلة في الوجود الحقيقي للأشياء سلفًا و بالفطرة؛ بينما من جانب أخر، إذا وضعنا أنفسنا على الطرف الآخر لتلك العملية الهائلة، يمكن للفوضى... أنّ تسفر عن مظهرها فقط كشي خاطئ و زَيف أو نقص في العالم الظاهري المعروف لنا...)) بعض الأنواع من الناس تنحو نحو التصديق و الاعتقاد في الأحكام المسبقة بهذه الطريقة – على سبيل المثال، ((بعض العقول التخطيطية في الأصل تملك جملة من الأفكار تعدّ صحيحة في خطوطها العامة، و لاسيَّما حين تُدرج هذه الأفكار و يتم إدخالها ضمن خانات منظمة سابقا يطلق

عليها المقولات))؛ أو أولئك الفلاسفة الذين يكون مجبرين على تبني بعض العقائد الصُّلْبة، لأنهم عانوا من اللايقين و الشكوك و الريبة و التناقض. بيد أن الأمانة الفكرية قادت نيتشه إلى أنّ يرفض قَبُول النظام الفلسفي جملة و تفصيلا: ((تمثل إرادة النظام الفلسفي فقدان و ضياع الأمانة و الاستقامة)). تطوير النظام الفلسفي ((يتطلب وجود التاريخ الطويل لأصحاب الأنظمة الفلسفيّة: رغبتهم الكبيرة في صناعة الأنظمة و تشكيلها لا تقارن بأيّ شكل من الأشكال... ينبغي لهم أنّ يتركوا سماتهم الضعيفة تفترض وظيفة و نظام الناس الأقوياء: إنّهم يريدون أنّ يمثلوا الطبيعة الكاملة و القوية الموحدة و يحتكروها وحدهم)). بناءً على ذلك، ((النظام الفلسفي هو نوع من الخدعة و الاحتيال الذي يمارسه المفكر اليوم و هو يحاول أنّ ينشر و يروج إلى ما يسمى بكُلّية المعرفة كنظام فلسفي))... و لكن ((أنا ليس واحداً من أولئك ضيقي العقول حتى أتقبل فكرة النظام الفلسفي و خرافتها – حتى لو كان الأمر يتعلق بالنظام الفلسفي الذي يخصني)).

بيد أن نيتشه أكد، بدل عن ذلك، على أن النظام الفلسفي ينبغي أن يتوفر على معنى آخر مختلف عن المعاني السابقة المتعارفة. يمكن أنّ يكون النظام الفلسفي ذا طبيعة منطقية-تقنية: ((يكفي جداً أنّ نصل إلى اتّفاق حول الكلّ على أساسّ الافتراضات الميثودولوجيّة...)). لكن هذا المعنى، الذي يطالب به نيتشه، لن يتم التوسع و التفصيل فيه. أو مرة أخرى، يمكن أنّ يكون النظام هو – بالضِدّ من أولئك أصحاب الأنظمة المزيفين و غير الأمينين – ذلك الشخص الذي يفكر في الكلّ مع أنّه يكره النظام و هو صديق إلى اللايقين. كان نيتشه هو هذا الشخص: الفيلسوف الذي يعتقد أنّ الكلّ أمر حاسم و فاصل و مهم لا يمكن أن يستغني تماما عنه أيّ نظام من الأنظمة الفلسفيّة. الآن، ينبغي أنّ نرى كيف كانت الأمور تبدو لنيتشه بهذا الصدد.

إنّ الإجَراءِ أو المنهج الذي يتبعه نيتشه[87] في الكتابة، التي هي بحق عنده محاولة لإعادة ترتيب الأشياء و انخراط إبستمولوجي حقيقي، هو ببساطة تدوين الشذرات – و يبدو أنّ نيتشه ظل مخلصا لهذا الأسلوب طوال حياته. هذه الانطباعات، في الكتابة بأسلوب الشذرات و النبذات القصيرة، جاءت إليه و طرقت باب تفكيره بقوة حين كان يمارس ذات مرة هِواية المشي – مشيته كانت مشية محددة ثابتة الإيقاع، و لكنها حقيقة كأنّها خطوة في الهواء، مشية فيها جلال و فيها طفولة، مشية بين حركة الكاهن و حركة الراقص، مشية عجيبة لطيفة كانت تناسب صوته و وجهه على نحو رائع – في الغابات، عادة استنشاق الهواء الطلق في الأعالي؛ ففي العقد الأخير من حياته،

كان نيتشه يقضي الكثير من ساعات الصباح و المساء في تدوين الأفكار التي تمر في ذاكرته بسرعة و هو يتمشى، ثم يعيد نسخها بدقة في دفتر ملاحظاته حين يعود من جولته إلى البيت أو مكان إقامته. و بهذا الاعتبار، يمكن القول أنّ نيتشه قد جمع عدداً كبيراً لا يستهان به من الشذرات و النبذات القصيرة التي كان يدونها سابقاً في جولاته، شكلت في المحصلة الأخيرة العديد من أفكاره اللاحقة لمؤلفّاته – التي تهتم بمعاكسات القدر، بالحظ الحسن و السيئ، بالعلاقات الاجتماعية، بتصارع الشهوات، بالطباع، و لكنها لا تهتم أبداً بجوهر الكائن نفسه – و اكتسبت شكلاً رصيناً أحيانا يشبه الشكل الذي وصلت إليه أول مرة. في الواقع، من هذه المادة الفلسفيّة التأملية المتنوعة تشكلت الكثير من مقالات الكتب التي ألّفها نيتشه بنظام الشذرات و النبذات القصيرة، و لم يقتصر الأمر على هذا بل شمل أيضاً لاحقاً المؤلفّات التي كتبها بصيغة الكتب العادية ذات الفصول المحددة، و ليس بنظام الشذرات و النبذات القصيرة، و لاسيَّما في سنواته الأخيرة. هناك في الواقع عدد كبير من أعماله، التي هي مكتوبة على هيئة الشذرات، التي ظلت حتى بعد وفاته غير منشورة، و لانبالغ إذا قلنا إنّها تعادل في كميتها و أهميتها أعماله التي نشرت في حياته. و بما أنّ كل أعمال نيتشه كانت أما شذرات أو مقالات، و بما أنّ المقالات الراهنة، حيت يتم مقارنتها مع فكرة الكلّ، هي الأخرى تتكون بوضوح أو مكتوبة بطريقة الشذرات، فإنّ مجمل نتائجه الفكري يرتكز في أساسهِ على صيغة كتابة الشذرات و النبذات القصيرة.

كان أسلوب الكتابة بنظام الشذرات و النبذات القصيرة، الذي يلح على الدور المحوري الذي تلعبه الكتابة في توليد الساحة المعنوية لكل خطاب و تشكيلته، الذي يحاول إزاحة المؤلف و التاريخ و لا يبخس الناس و الأشياء حقها، قد تم اختياره بتعمد و تروي من قبل نيتشه الذي ضاق ذرعا بأساليب الكتابة الأخرى. في الواقع، يجب ألّا يغيب عن بالنا أن نيتشه، وبسبب ظروف مرضه الطويلة و الصعبة، قد وجد ضالته و رضائه وعزائه في اتباع أسلوب الكتابة بالشذرات الذي ما انفكّ على تنقيح و إحكام و تصحيح لغته، و تقويم ركاكتها البلاغية، و القيام بصقلها و تشذيبها لغرض نشرها لاحقاً. في نفس الوقت، كان نيتشه يشعر بالأسى الكبير من جَراءِ ((سوء الفهم الذي يتعرض له القارئ في فهم الشذرات القصيرة و النبذات القصيرة التي أقوم بكتابتها بأسلوب يغلب عليه الإيجاز و أسلوب البرقية اللعينة التي تنذر بأخبار مزعجة في كثر من الأحيان، بالرغم من وضوحها، أجبرني في المضي فيه كلاً من عقلي و ضعف نظري)) (من رسالة إلى جاست، 5 تشرين الثاني، 1871). لكن نيتشه، من جانب أخر، يعزى الكتابة بأسلوب الشذرات و النبذات

القصيرة إلى الفائدة الكبيرة التي تعم و تجنى من ورائه: بما أنّ الناس المعاصرين يفتحون قلوبهم و عقولهم إلى أسلوب الشذرات و النبذات القصيرة فقط في أوقات السفر حيث يحررهم الأخير من متطلبات مهنهم و أعمالهم و مشاغلهم، فإنّه بالنسبة إلى هؤلاء الذين يكون عملهم تغير وجهات النظر و الأفكار المقررة و المقَبُولة عمومًا ينبغي و وجوب أن يتوجهوا بأفكارهم القصيرة و المقتضبة إلى أولئك المسافرين حصراً. هذا التأملات، التي تحتويها الشذرات و النبذات القصيرة، ((تمنح مساحة خصبة و صيغة خاصَّة من التواصل مع الآخرين، مساحة من التواصل بين الكاتِب و القُرَّاء، إذا جاز التعبير: إنّ كتابة الكتب بأسلوب عرض الأنظمة و الأفكار الطويلة يتعارض تماماً مع طبيعة طول الرحلة في سفر.... هذه الكتب يجب ألّا تقرأ دائماً، بل يتم في أحسن الأحوال تصفحها بين الحين و الحين الأخر)). لم يعاود نيتشه الرجوع أو يكرر هذه الفكرة، لكنه لاحقاً وجدَ أسباب أخرى تدعوه إلى أن يعيد ذكرها ثانية: ((إنّ ما مكتوب بإيجاز و اختصار، على هيئة شذرات، يمكن أن يكون نتاج عمل طويل و شاق يتطلبه التفكير)). بالضِدّ من المظاهر الزائفة التي نجدها هنا و هناك في الكتب الطويلة، يمكن أنّ يتضمن هذا الأسلوب المُوجَز للشذرة و يشكل ركيزة و جزء مُقوم إلى الكل. ((هل تعتقد لأن هذا العمل كُتِب بطريقة الشذرات – و بالمناسبة و يجب أنّ يكون بهذه الطريقة و على هذه الشاكلة – ليس له قيمة وهو مجرد مجموعة أو جملة من الرقع وضع بعضها بجانب البعض الأخر بلا ناظم فكري؟)) بل إنّ الكتابة بأسلوب الشذرات خطوة لازمة ضرورية جداً لا مفر منها في نقل و إيصال العديد من الأفكار و الأشياء الأساسية:((هل يمكن للفكرة ألّا تفهم فقط لأن تم الاطلاع عليها في رحلة سريعة؟ للإجابة عن هذا السّؤال... يمكن القول، إنّ هناك حقائق، مؤقتة قابلة للتعديل و التصحيح باستمرار حقائق تُبنى بواسطة البحث و التجريب و تتويج لمسار لا بداية له، تفضي بها كتابة الشذرات، لا يحتاج المرء إلى وقت طويل للقبض عليها بطريقة سريعة و مفاجئة...)). إذنْ، ((الكتب العميقة و ذات المضمون الذي لايستنفذ تحتوي دائماً على الشذرات و على الشخصية و السمات المذهلة كما هو عمل ((أفكار)) لباسكال، على سبيل المثال)). ظل نيتشه حتى أواخر حياته مخلصاً و مفضلاً لأسلوب الكتابة في الشذرات: ((إنّ أسلوب الشذرات و الحكم المأثورة، الذي كنتَ الأول من بين الأساتذة الذين استخدمها في ألمانيا، هي ببساطة صيغة من صيغ (الأبدية). هدفي و طموحي يكمن في أنّ أقول فكرتي التي أريد أن أقولها في عشرة جمل في حين يحتاج من الآخرين إلى أن يكتبوا كتاب كُلّه كي يعبروا عن نفس الفكرة – أو ربما حتى البعض منهم يخفق في التعبير عنها...)).

و لكن و مع أنّ نيتشه كان من أشد المؤيدين لفكرة الكتابة في أسلوب الشذرات و النبذات القصيرة و الأخذ بناصية الفكرة، المسار الذي يصطدم دائماً في عقبات لا يتوانى عن تصحيح مساره إذا ما اقتضت الضرورة، فإنّهُ كان في بعض من الأوقات تراوده بقوة فكرة كتابة كتب طويلة شاملة بعيداً جداً عن طبيعة الكتابة في نظام الشذرات و النبذات القصيرة. مع ذلك، فإن كلّ خططه المتنوعة في بناء أنظمة بواسطة كتابة كتاب طويل كانت تحولت إلى مجرد عرض و تقديم لا أكثر – و مع مرور الوقت لم تتطور هذه الخطط منهجيًا في هيئة صياغات أنظمة دقيقة، لأن هذه الخطط بالأساسّ كانت لها طبيعة متعددة و دُونِّت أيضاً على هيئة شذرات. فضلاً على ذلك، إنّ عملية بناء نظام تقويمي فيما يتعلق بالأشياء كليًّا يقينيا سوف لن يكون له معنى من وجهة نظر نيتشه الخاصَّة: ربما يكون نيتشه عمل بعض الرسوم التخطيطة المنظمة لنفسه، لكنها في الواقع ظلت بالنسبة له ليس أكثر من مجرد أدوات و عدة فلسفية فقط – لا يمكن لهذه المخططات أن تحتوي أو تعبر بدقة عن تفكير نيتشه كليًّا أو حتى الركون إليها.

بالضِدّ من العروض المنظمة للفلسفات السابقة القبور الباردة التي تنبري لمحاكاة الحياة، و رهاناتها الخاصَّة التي تحمل التواقيع السِرّية لأصحابها، الذي ما انفكّ نيتشه يقول أنا في حل من هذا الأمر، و بالضِدّ أيضاً من وجهات النظر عن العالم المعروضة بطريقة منظمة بواسطة مذاهب فلسفية متنوعة من قبل الميتافيزيقيين السابقين على اختلاف مشاربهم، كانت أفكار نيتشه، المكابح التي يحكم بواسطتها الفيلسوف سيطرته على الوجود، كما يزعم ((مترابطة بطريقة نادرة لم يسبق لها مثل في كلّ تاريخ الفلسفة)) (من رسالة إلى أوفربيك، 20 آب، 1884). (و لو لم يكن نيتشه دائماً مريضاً، و لو كان فقط يمتلك الوقت الكافي و الصحة، لكان يمكن أنّ يقدم لنا دون شك مذهباً فلسفياً منظماً و محكماً بوجهات نظر عن العالم أكثر تماسكا بدلاً من أن يكتفي بطرح الأسئلة فحسب و التأكيد على الوظيفة الرئيسة لتفكيره كليًّا بواسطة صياغات محددة يغلب عليها طابع التعميم). إنّ ما يشكل الكلّ في تفكير نيتشه هو في الواقع السمة الشاملة (der zusammengreifende Zug)، التي تتضمن و تحافظ على اللحظات كليًّا، التي إذا ما حاولنا أخذها و فهمها على انفراد أو فراديا، فإنّها لا محالة سوف تتجرد من معانيها – أعني، لحظات: السياسة الكبيرة/ العظيمة، البناء الأنطولوجي المنظم، الحدس الصوفي. و بهذا الاعتبار يمكن القول، إنّ تفكير نيتشه لا يختلف كثيراً عن المذاهب الفلسفيّة السابقة و يشترك معها في الكثير من السمات المتشابهة. إنّ البناء العضوي الكليّ لتفكير نيتشه تام و يمكن أنّ يُفّهم ضمنا – بعبارة أخرى، إنّهُ ليس فكرة رئيسة أو موضوع من

الموضوعات تدور عليه كل فلسفته؛ بل أنه بناء يتطور بالأحرى ترابط متماسك ينتشر و يتغلغل في نسيج الكل. إذا حاولنا أن نبني من فلسفة نيتشه المتعارف مذهباً محدداً ما (بالمناسبة، أفكار نيتشه الرئيسية تتيح للباحث العديد من البدايات الواعدة و المغرية في هذا الاتجاه)، فإن محاولتنا بلا أدنى شك ستبوء في الفشل بفعل ضخامة المهمة و صعوبة أن لم يكن استحالة إنجازها. أفضل ما يمكن أنّ يصل إليه المرء في هذا الشأن ربما يكون تقييم شيئاً جديداً في صيغة الكلّ لما يمكن أنّ نعرفه عن نيتشه، لكنّه بالتأكيد سينسى، و يتجاهل و يقصي الكثير من الأمور المهمة في فلسفة نيتشه. إنّ ما يختاره نيتشه في بعض المناسبات من حياته كمفكر و يدرجه بصورة محدودة – على سبيل المثال، يكشف نيتشه عن طريق الحوارت الجدليّة و السجاليّة و الشذرات و النبذات القصيرة النقاب عن دهاليز فلسفته – لا يمثل حتما الكل عند نيتشه.

مفهوم الكل، بالنسبة إلى نيتشه، الذي لا يَجرُؤ أحد على العبث معه، يرتكز على المرور بكل طرق الذي تتيح السيطرة على الحقيقة و إتقانها. بواسطة التفكير الشاق، التأمل و إطالة النظر العميق، و تَجْرِبة النشوة الصوفية، يمر نيتشه، باحثا عن الحقيقة، التي يجب أن تواجه ليس بوصفها مشكلة، و ينتقل من إمكانية إلى إمكانية أخرى. و مثلما فعل كريكغارد من قبله، قرأ نيتشه ((النصّ البدائي للعلاقات الإنسانية الوجودية)) – إرادة الحقيقة التي تحتاج إلى نقد – و فكّ شيفراته، ليخلص إلى النقطة الآتية، تأتي الحقيقة، مهما كان نوعها و طابعها، مادام كانت وجودية – حتى في أكثر صيغها الزائفة التي ليس لها صلة في الموضوع – مع مجالها و ميدانها الخاص بها. هذه الحركة، مع ذلك آيلة للتفسخ و الانحلال. لا يمكن أن نعثر على الحقيقة عند نيتشه في أيّ مرحلة من المراحل التي تمر بها. إنّها لا توجد في النهاية، أو في البداية، و لا في أي مستوى خاص – إنّها موجودة و متأصلة في الحركة نفسها كليًّا، حركة يكون فيها لكل طور و كل مرحلة مكانها الخاص بها و معناها الفريد الذي لا يمكن التخلي عنه.

هذه الطاقة المتماسكة للكل الذي يدعو إليها نيتشه، و التي لا تظهر إلاّ بواسطة الحركة، لا يمكن التعبير عنها بحد ذاتها بواسطة نمط و طراز الديالكتيك الهيغلي كعمل منظم. التصور القوي و المتين للأوضاع الخاصَّة، بناء العلاقات الخاصَّة، تجارِب التفكير المتعلق بالكلّ، كل هذه الأمور ممكنة – كلّ هذا الأمور، و دون استثناء، مرتبطة و ملتحمة و متحدة الواحد منها مع الآخر ضمن حركة الكل.

إذنْ، من الاستحالة التفكير أو الوصول إلى الشكل النهائي لتفكير نيتشه بواسطة عملية التركيب و وضع الأجزاء بعضها مع البعض الآخر، فهناك أشياء تضيع على الطريق و وثائق كثيرة تنقصنا. يبقى النظام لدية دائماً في حالة جنينية و رشيمية متجددة باستمرار لا يتوقف. لكن معرفته و بصيرته العميقة، مع كل تفرعاتها الواسعة، لم تكن دائماً تشكل دليلاً و بينة و برهاناً: إن ما يكتبه نيتشه أو حتى يقوله لا يمكن أنّ يقرأ في مستوى واحد، لأن الخطوات فيه، و في حركات متنوعة، تؤكد وتؤازر الكلّ. إنّ افتقار نيتشه إلى منهج الواعي المتطور يجعل أفكاره أو ما يقوله أما محدود، أو غير عادل، و حتى أحيانا عادي و تافه خالي من الأهمية – بل أنه يجعل أحيانا وصف طرق التحدث و الكلام عنده بالصفة المطلقة و الحصرية و الدوغمائية أمراً ممكناً. فطريقة إزالة الأقنعة السيكولوجية، التي يتبعها نيتشه في الغالب إتقان لا مثيل له، تضرب دائماً القارئ بطريقة مؤلمة، بل لا يخلو الأمر أحياناً من إحداث تأثيرات و نتائج مميتة و مدمرة من جَراءِ تلك الضربات. في الواقع، الفضل يعود هنا، في إزالة الأقنعة السيكولوجية، إلى حاسة اليقين الفطرية الواثقة من نفسها إلى جانب الوعي الميثودولوجي التي أتاحت لنيتشه أن يكشف على كلّ هذه العيوب و الفجوات السيكولوجية عند الإنسان. فطريقه، و منهجه في تصحيح-الذات تتفق، في طريقة ما، و تنسجم مع أقواله التي يؤهل، و يفسر الواحد منها الآخر بروابط أقل ما نقول عليها أنّها متماسكة و غير متناقضة. ينبغي أن نقبل حقيقة أن جوهر التفلسف عند نيتشه لم يقدم بطريقة متساوية كل الأشياء المهمة، و ما أكثرها، بذات الدرجة من الحرص في تقديمها. فقط في اللحظات، التي يشعر بها بالرضا، إذا جاز التعبير، كان بوسعه أن يتصور، مع كُلّية تطغي عليها صفة التصنع، المهمة التي يروم تفكيره إنجازها. إنّ الخاص، عند نيتشه على عكس العام، يفصل نفسه و يظهرها بشكل واضح بفعل قوة جوهره – بيد أن هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، لا يستمر و ذلك بسبب قوة الديالكتيك الفعال و الجوهري، الذي عرضه نيتشه بوضوح خلال الحديث عن لحظات الوعي المتدرجة و الهرميّة السامية لدية.

إمكانية التواصل

خلال حياته كلها، أيقنَ نيتشه، الذي خرجنا بفكرة سلبية عنه و ربما لن نكون عادلين نحوه، أن وحدته أو شعور الوحدة التي كان يعاني منها وما انفكّ أنّ يزداد يوماً بعد يوم، الألم المرسوم على

محياه، يعد مِيزة و سَمِة أساسية في حياته[88]. إنّ طريقة نقاشنا للحقيقة عند نيتشه و كلامنا عنها، في طريقة متعالية تنفذ إلى الأعماق، يكشف لذلك عن صعوبة بالغة في إيصالها إلى الآخرين، كما يكشف النقاب عن حالة الصمت و الدهشة التي تعترينا بعد هذا الكشف و كأنّهُ حدّ أساسي[89]. في محاولة لفهم مِيزة التفلسف لديه، كان نيتشه يفكر كثيراً، يتأمل و يطيل النظر غالباً في المشكلات المتعلق في كيفية التواصل مع الحقيقة و إيصالها من ثّم و إبلاغها إلى الآخرين دون المشكلات الأخرى – و يبحث جاهداً عن الوسائل الناجعة لإيصالها، و يحاول الوقوف على العقبات التي تقف حجرة عثره في طريقها، و ما هي النتائج التي سوف تتبع عن ذلك.

ضرورة التواصل ـــ الحقيقة، ترياق كل العلل، من جانب، و إيصالها إلى الآخرين، من جانب آخر، ليسا شيئين منفصلين، و شاءت الأقدار أن يعود أحدهما إلى الآخر. عن هذه النقطة، يعبر نيتشه بقولٍ بسيط جداً: ((الشيء الذي يكون دائماً وَحْدَهُ هو خطأ؛ لهذا السبب الحقيقة تبدأ طريقاً دائماً مع اثنين أو شخصين)). لقد جرب نيتشه هذه النتيجة حينما اكتشف أنه ليس فقط العامة لا يستجيبون إلى الحقيقة، أو يعيرون أيّ اهتمام لها، بل الكثير من الشخصيات المهمة لا يفهمون ما يريدون أنّ يقوله عنها. أصبح صديقه بيتر جاست الشخص الوحيد البديل الذي يمكن أن يفهم ما يريد و يروم أنّ يقوله. لقد كان نيتشه يعتقد أنّه هو و صديقه جاست ((يشتركان معاً في الكثير من الميزات الجيدة و المصلحة)) – ثم يكتب بسعادة غامرة قلما جربها من قبل بعد اكتشافه هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، الآتي: ((أنت بالكاد تدرك أو تتخيل حجم السعادة و الراحة التي يوفرها الفهم المتبادل بيننا، لكم يبدو أحمقاً الشخص الوحيد مع أفكاره الذي لا يشاركه فيها أحد، و في الغالب هكذا يبدو بنفسه؛ و لكن حين يكون مع شخص آخر يتبادلان الحِوار عنها، فإنّه هنا فحسب تبدأ الحكمة، الثقة، البسالة، و الصحة العقلية و تدّب الثقة خطوتها الأولى)) (من رسالة إل جاست، 10 نيسان، 1881).

مع ذلك، سرعان ما تلاشت هذه السعادة، و بدأت الشكوك تحوم و تلقي بظلالها عليه بقوة باستحالة مسألة التواصل مع الآخرين. هذه الحالة تكشف عن القوة الدافعة و المحركة لعملية الفهم-الذاتي عند نيتشه: ((شكوكنا حول التواصل مع الأشياء، و نقل الحقيقة إلى الآخرين، يعد مشكلة عميقة و عويصة جداً...)). و ذلك يرجع إلى إنّها تعتمد على الآخرين: ((المرء لا يستطيع أن يتواصل بحرية، بمعنى ينبغي أن يعثر على شخص ما محدد و ذو مواصفات خاصَّة كي يتواصل

معه، و يصبح التواصل أمراً ممكناً)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، 20 ايار، 1885). فضلا على ذلك، يعتمد التواصل عليه نفسه كليًّا – بمعنى أنا في عملية التواصل ((أنا الشخص الأكثر سِراً في كل الطبائع السِرّية)). هذا العجز في الأقوال التي تفصح عن صعوبة إيصال الحقيقة و نقلها لم يثنِ نيتشه و يجعله يذعن لهذا الحال القاسي بل زاده إصراراً، و بدافع عاطفي قوي، على البحث عن طريقة لنقل الحقيقة بكلّ نقائها و دون شوائب إلى الآخر. حتى حين يشعر مراراً بصعوبة التواصل مع الآخرين و بفشل محاولة نقل الحقيقة إليهم – كان زرادشت يؤكد بلا تردد على الوظيفة المهمة للتواصل العابث بين الحيوانات الناطقة: ((إنّهُ يريحني كثيراً أن أسمعك تثرثر... كم هو رائع أن يكون لدينا الكثير من الكلمات – التي لا تذبل إلاّ حين تطبع – و الأصوات، أليس كلمات و أصوات و ألوان قوس القزح و الوهم هي وحدها التي تبني الجسور التي نعبر من عليها الأماكن التي تفصلنا عن الأبديّة؟... هذا الوهم يخدع، بسعادة كبيرة، أولئك الذين يشبه بعضهم البعض في التفكير؛ لأن أصغر الفجوات هل الأكثر صعوبة في العبور. الكلام بلا شك هو نوع محبب من الحماقة!..)).

السبب الذي يقف وراء عدم التواصل. —– يميز نيتشه، فجأة و دون سابق إنذار عملاً بتجذير الشيء في التاريخية بدلاً أن يكون معلقاً في الفراغ، السبب الذي يقف وراء عدم نقل – الحقيقة بحد ذاتها – و إيصالها إلى الآخرين: فقط الذي يمكن أنّ يُقّال بوضوح يمكن أنّ يتم إيصاله و نقله إلى الآخرين؛ و بما أنّ الشيء المعقول هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُقّال، فإنّه بالتالي هو الوحيد الذي يمكن أن ينقل، و لكن ما عقلي دائماً يخضع للتأويل. إذنْ، كان نيتشه مقتنعاً ((فقط الشيء الصعب، السريع، المبسط، و له قابلية أن يكون دقيقاً، يمكن أنّ يتم إيصاله و نقله للآخرين)) – أعني، ينبغي أنّ يكون الشيء قد تم ((إصلاحه و تثبيته)) بحدود معينة و معالم واضحة حتى يتسنى لنا نقله. كلّما يقال، بحد ذاته، يتوقف على أنّ يكون حقيقياً. أيّ شيء يمكن نقله و إيصاله، و لاسيَّما حين يتم التغلب كل الصعوبات التي تعيق نقله، يحتفظ بحقيقته. لكن نيتشه نفسه قد طور العديد من الرموز و الصيغ الدوغمائية كجزء من فلسفته. كما هو الحال مع كل تعبيراته و أقواله الأخرى، ينبغي لهذه الأخيرة أنّ تُعدّ خطوات متتابعة أو حركات متتابعة، و ليس خاتمة نهائية، و لكن حقائق يتم تأهيلها و تنقيحها – ما عدا، بالطبع، إذا كانت أقوال ضعيفة و ضيقة المعنى من وجهة نظر نيتشه، أو تكون تعبيرات عنيفة لبعض صياغات اللحظة أو بعض الأحكام غير المتسامحة، أو تعكس مخطط تفصيلي لمذهب يهدد و يستبد بكل شيء بصورة إضافية، أو تكون أقوال صارخة مرتبة بطريقة تكشف شيء واحد من أجل أن تخفيء شيئاً أخر أكثر أهمية. و بهذا الاعتبار، لم تخضع

المذاهب المتماسكة في العقود الأخيرة من حياته إلى النقد و الفحص و التحليل كما خضعت مذاهب السوبرمان – الذي سيأتي في عصر و وقت أصلب عودا من هذا الحاضر الخرع المتخاذل، إنسان الحب العظيم و الاحتقار العظيم، الذهنية الخلاقة التي ستزجي بها قوة اندفاعاتها أبعد عن جميع المطارح القريبة وعن جميع الحدود الماورائية – العود الأبديّ، و إرادة القوة، التي مسحت أكثر من أيّ شيء آخر الغبار الفكري الغربي الحديث و نماذجه. يعتبر نيتشه مذهبه الفلسفي، و ينظر إليه بوصفه شيء ليس نهائي بالمرة – و هو مجرد محاولة إلى طرح تأويل جديد غير مسبوق من قبل. و بما أنّ طريق التأويل و التقويض بواسطة طرح تأويلات جديدة لا تنتهي أو تشرف على النهاية عند نيتشه، نتيجة لذلك ((يصبح العالم مرة أخرى لامتناهي أكثر فأكثر من حيث إنّنا لا نستبعد أو نرفض إمكانية إنّه يحتوي أو ينطوي على تأويلات لا نهائية لا حصر لها. مرة أخرى، نشعر بالقشعريرة و الارتجاف...)) هذه هي لا نهائية نيتشه، حيث يصبح بواسطتها نقل الحقيقة من شخص إلى آخر أمراً غير ممكن، من حيث إن قُصدّ أن تكون واضحة في مقوماتها الأساسيّة و التأسيسيّة.

و نتيجة لوعيه الكبير بحضور الحقيقة و إنجاز اللاتناهي كمصدر، فإنّهُ لم يكن أمامه سوى أن يكون ساخطاً أو غير راضي على أفكاره عموماً، و لاسيَّما حين يتم فحصها في العَلاقة بالمصادر الذي انبثقت منها: ((آه، من تكون يا تُرى، أفكاري المكتوبة و الملونة تلك!... عدد قليل منها، لا يتعدى أصابع اليد، أخشى أن يكون حقاً مستعداً لأن يتحول إلى حقائق.... نحن الذين نسعى إلى كتابة خلود الأشياء —— ما الذي نستطيع حقاً أن نرسم في فراشتنا؟ و آسفاه، فقط ذلك الذي يشارف على الرحيل و الآيل لذبول...)).

بالنسبة لأيّ واحد لا يفهم الوضع المنبثق بفعل اللاتواصل الواقعي، فإنّ النتائج تكون مخيبة للآمال و عميقة الأثر. فتوقف القناعة الراسخة عند الشخص الملتصق بها و فقدان مرونتها يمكن أن يفضي إلى قلب الطاولة رأسا على عقب بواسطة تحول كلّ شيء لديه إلى خطأ و وهم: بما أنّ كل وسائل الاتصال و التبادل المتعارف علية و المألوفة و الراسخة سابقا لدية مع عالم الآخرين و الأشياء غدت مزيفة و خالية من الأصالة و المؤثوِقية، فإنّه لا محالة يشعر بالضياع و إنّهُ مقطوع تمام عن العالم. و بما أنّه فقد الاتصال في العالم، و أضاع مرونته، ((فهو يشعر الآن بصعوبة الوضع و حاله حال كائن تقطعت به السبل، مجهول، غير قادر على التعلم، خالي من النعومة و المرونة، شاك بطريقة أبدية دائمة، و متعجل في إطلاق أحكامه. ينتهز كل فرصة ممكنة كي يعزز

من التمسك في آرائه، بغض النظر على النتائج المترتبة على ذلك، لأنه لا يفهم بالمرة إنّها ترتبط بآراء أخرى)). فهو غير قادر على إيصال أو نقل أيّ شيء، و هذا العجز يرجع إلى حقيقة إنّه يتصرف كما لو الحقيقة قد تم العثور عليها و تم إيصالها إلى الآخرين و لا شيء ينبغي القيام به أكثر من ذلك.

و لكن استحالة التواصل و نقل لما يوجد في المصدر لا يقصي إمكانية كل التواصل من المصدر. إنّ جهود نيتشه و الفهم-الذاتي كلاهما ينفذان معا نحو التواصل الحقيقي الذي لم يعد هدفه أن ينقل الدوغمائية النهائية لحقيقة مفردة واحدة.

التواصل غير المباشر — ربما تبدو تقنية غريبة، و ليست بذلك السوء، حينما لا يقول المتكلم ببساطة إلى مستمعيه ما الحقيقي بشكلٍ مباشرٍ، و لكنه يصل إلى الآخرين بواسطة تركيز انتباههم في نمط غامض غير مباشر يجبره إلى الوصول إلى ما يريد قوله و نقله إليهم فيمَا بعد. حين يُثبّت قول صريح، يمثل الصَلاحِيَة الكُلّية المطلقة كما هو، أنّه خطا، فإنّ السّؤال يبقى إذا ما كان هذا القول يقول شيء ما آخر بشكل غير مباشر، و بهذا تظل الحقيقة تصطدم بالحقيقة خلال ميدان التواصل. يعلق نيتشه على هذه المقاربة غير المباشرة حينما يذكرنا في كثير في الأحيان بواسطة نداء غير مباشر (exhortation indirecta) في كتابه ((الفجر)): ((بالمقارنة بينهما، يعي العتاب و التحريض كلاهما جديا قوته و دوره)) (من رسالة إلى جاست، آب، 1881). كل حقيقية تؤكد نفسها بشكل مباشر بأنّها تنبؤ يرفضها نيتشه تماماً. ((هل أتحدث هنا كما لو أنني امتلك الوحي؟ إذا كان الأمر على هذا النحو، فعليك بالحال أن تحتقرني و لا تصغي إلي)). في هذه المرحلة، بدأت الشكوك تلقي بظلالها على نيتشه، و لاسيَّما حين يقول عن كتاباته المبكرة: ((حمل الأشياء نحو مدياتها القصوى يعزز... حالة العناد في التمسك في الوهم)). كان نيتشه مصطدوماً في ((السمة العامة)) التأكيدية و كثرة الطلبات غير الواقعية لهذه الكتابات: ((تلك الكتابات تتحدث بلغة يغلب عليها طابع التعصب – إنها لغة متعصبة. خصوصاً حينما تتعامل من أولئك الذين يفكرون بطريقة مخالفة لأطروحاتها الرئيسة، حيث يصبح النوع القاسي من الافتراء ضِدّهم ... واضحاً... في الواقع، تتحول هذه الكتابات إلى نوع من الشعارات البغيضة: التي تستخدم كرايات لا كحقائق بل كليَّات استعراضية للدلالة على شيء آخر تماماً بل على عكسها هي – و لهذا السبب لم يعد بوسعي أن أواصل قراءة هذه الكتابات إلى نهايتها بالمرة كما لو أني لم أعد أعرف حقاً مَنْ هو كَاتِبها)).

حين قرر نيتشه و عقد العزم على التعاطي مع مشكلة نقل و تبليغ الأفكار و الآراء و المعلومات و المصادر الواردة في المراجع في خطوطها العامة عن طريق الكلام أو الكتابة أو الإشارات المُوجزة المقتضبة غير المباشر، و إخضاعها إلى النقد و العين النقدية المصنوعة للرؤية التي يطلب منا البعض أن تكون شيئا أخرق و سخيف – فإنّه وجد، و لاسيَّما في العَلاقة بنص ((إنساني مفرط في إنسانيته))، إن هذا الشكل غير المباشر للتواصل يرتكز في أساسه و يقوم على شخصية ما تتحدث بدلاً أنّ يتحدث هو نفسه. إنّهُ بورتريه مُتقَن ل((الروح الحرة)) مرسوم بحرفية عالية، ينبغي للمرء أنّ تكون لدية الجرأة أيضاً كي ((يسمح لهذه الروح أنّ تتحدث نيابة عنه و حتى إيعاز و نسبة أفكار الكتاب إليها)). لقد راودت نيتشه كثيراً فكرة الكتابة باسم مستعار، لكنه عدل عنها لفترة و جيزة، و لكن سرعان ما قرر و عقد العزم عن الإقلاع عنها نهائيا. مع ذلك، فقد ظهرت من حين إلى حين، و على نحو نادر جداً، في بعض الرسائل و المسودات و المواد الفلسفيّة بعد وفاته بعض الإشارات إليها. بعد الانتهاء من نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت))، أكمل نيتشه مباشرة أيضاً نصّه ((ما بعد الخير و الشر))، الكتاب الذي أُحّكِمت حججه ومن ثّم فُصلِت و يوفر دفعة قوية في هذا الاتجاه، و في النصّ الأخير ((واجه صعوبة كبيرة في العثور على نقطة مرجعية مفضلة راسخة و متينة لبدء الكلام و الانطلاق منها.... هنا الفكرة السابقة (الروح الحرة)، و لحسن الحظ، كانت خير عون و مساعد لي)) (من رسالة إلى جاست، 20 تموز، 1886) حتى شخصية زرادشت في نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت)) لا تمثل نيتشه، و هذا الأمر كان نيتشه يؤكده في مناسبات كثيرة: ((لا تصدق أبدا أن أبني زرادشت يعبر عن آرَائي، إنّه محطة من محطات تحضيراتي و استراحتي (entr’actes) و جزء منها لا أكثر)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، نيسان، 1885). أخيراً بدلاً من اختيار مجموعة من الشخصيات تتحدث بلسانه و تعبر عن أفكاره و آرائه، عقد نيتشه العزم أنّ يأخذ المهمة على عاتقه و يتحدث بنفسه عن أفكاره: ((لقد تم حل المشكلة، الآن، سوف أتحدث أنا بدلاً من زرادشت)). لقد قاد هذا الوضع نيتشه إلى ذات المشكلة، التي واجهها كريغكارد بوعي طويلٍ ذات مرة، و هي الكتابة تحت اسم مستعار و إلقاء الضوء على مشكلة ((التواصل غير المباشر)) – بيد أنّ نيتشه، خلافاً إلى كريغكارد، لم يمس هذه المشكلة إلاّ في مناسبات قليلة. فقد اكتشف أنّه يتطابق و يتماهى غالبا مع (الروح الحرة) و مع شخصية زرادشت – مع أنّهُ في الكثير من المناسبات كان يحاول بكلّ ما أوتي من قوة التخلص منهما و رميهما بعيداً عن تفكيره.

الضرورة وحقيقة القناع ـــ إذا كان الشيء الحقيقي ـــ ليس ثمة وجود إلاّ رؤية من زاوية معينة لمعرفة من منظور معين – لا يمكن نقله و إيصاله بشكل مباشر، فإنّ القناع، في هذه الحالة، هو جزء لا يتجزّأ من الوجود – ليس القناع الذي يريد أن يخدع فحسب؛ بل أنّهُ أيضاً الحامي الذي يمكن النفاذ إليه و إلى أسراره فقط بواسطة أولئك الذين يمتلكون رؤية صادقة و أصيلة كافية لاكتشاف الحقيقة. لم تعد الطريقة غير المباشرة تقنية للتواصل و نقل الأفكار؛ إنّها حقيقة الوجود، التي تتجلى بواسطة الوجود، و تعبر عن نفسها في الكلام. ينطوي القناع و يتضمن في طياته على كلاً من الحياة العامة و الحقيقة الأصيلة الموثوق فيها – بواسطة القناع كعمل، يقدم القناع نفسه التغير بواسطة الغموض و المقدّمة الأمامية.

لقد تعلم نيتشه، الذي كان يراجع نفسه دائماً إذا لزم الأمر، و اتَّسم بكثير من المناقب، بواسطة موقفه الفكري الأساسي ((كيف يصمت في الوقت المناسب، و كيف عليه أن يتكلم كي يصمت بعدها بصورة صحيحة. زد على ذلك، إنّ المرء، ذات الأعماق الداخلية الخفية، يحتاج إلى مظهر خارجي لمصلحة أغراضه و منافعه و كذلك أغراض و منافع الناس الآخرين: من الضروري له أن يستعيد نفسه، و يحررها من نواياه الأنانية الكريهة للأنا المتضخمة، و كذلك أن يمنح الآخرين فرصة العيش معه بوئام من أجل التواصل)). الآن، كان نيتشه يعرف جيداً أن ((كلّ شيء عميق يجب يرتدي القناع.... هناك بعض الحوادث التي هي من الطبيعة النادرة، لدرجة أنّ المرء لا يريد يغطيها، أو يضع النقاب عليها، أو يجعلها غامضة و مبهمة بواسطة القسوة و الفظاظة و العنف التي تنطلق على سجيتها بطريقة لا يمكن التعرف عليها.... كلّ روح عميقة – خلافاً إلى الروح الغليظة التي لا تتلقى سوى إدراكات مشوشة، و لكن بسبب هذا نفسه لا تهتم بأنّها غليظة. و لن تبدأ بالتألم من حماقتها إلاّ إذا وعت هذه الحماقة و لكي تعي ذلك يجب أن تصبح ذكية. تحيل هذا المسخ لحظة. إنّ في الأبله من الذكاء ما يكفي ليدرك أنّه أبله – تحتاج إلى قناع، بمعنى مثل هذه الروح العميقة تغلف نفسها و تخفيها بواسطة القناع، بفضل التأويل الخاطي – أعني، – الضحالة – المفروضة على كلماتها، خطواتها، و إشارات الحياة)). الابتهاج – الذي يشعر به دائماً و أبداً من يمارس النزاهة و إنكار الذات و التضحية بها، هذا الابتهاج الذي هو من نفس طينة الفظاظة و طبيعتها – هو قناع:((هناك شي في داخلنا ضعيف جداً لا يقُوَى حتى على الوقوف.... ألاّ يبدو أننا سعداء جداً، أو هكذا على الأقّل نبدو، لأننا حزينون بطريقة فظيعة.؟.... نحن نبتسم بيننا و بين أنفسنا ابتسامة تنم على خبث و نضحك من أولئك الذين ذاقوا طعم الكآبة،... لأننا لانحتمل أن نرى رؤية

حزنهم الناعم.... نحن نمتلك نوعاً من المعرفة نخشاه كثيراً و معه لا نريد أن نكون وحدنا.... نريد أن نبقى بشجاعة في أماكننا لا نحرك ساكنا، نسخر من الرعونة و العبث.... دعنا نصلي إلى القناع بنفس الطريقة التي نصلي بها إلى إلهنا و مخلصنا الأخير – دعنا نصلي إلى الله كي لا نرى الأمور على حقيقتها)).

بالاستناد إلى هذه الطريقة – الطريقة الرهيبة في تقدير الأمور لم توجد في تاريخ الإنساني كحالة استثنائيّة أو من قبيل الغرائب – في رؤية الأشياء، يميز نيتشه بين القناع، الذي قبلَ بمعناه و وافق عليه، و القناع التاريخي الذي ضاعت بواسطته كل الحقيقة و تم التستر عليها و إخفائها: ((في شخصية الممثل، بوصفه لاعب في النهاية، نعثر على الإنسان الديونسيوسي....ديونسيوس الذي يتصرف بطريقة فجة تثير حفيظة الناس و المجتمع)). في الحياة ((حتى على لسان أكثر الممثلين إقناعاً في الأداء، كلّ فكرة عميقة، ابتسامة، و في الواقع كلّ كلمة تبدو ضعيفة و مدنسة....إنّ ما كان يثير انتباهنا كعالم عميق من الإيحاءات يبدو الآن ليس أكثر من حفلة تنكرية مرفوضة و رخيصة)).

يمكن أن يتحول التمثيل عند نيتشه، بوصفه أداء دور الحماقة (المهرج أو البهلوان)، إلى حالة من حالات ارتداء الأقنعة – بيد أن حتى لعب دور الحماقة لا يمكن أنّ يفهم أو يبدد أو يحل أو يحاول أن يجد حلول لغموض الوجود: ((من وقت إلى آخر، ينبغي لنا أن نسترخي و نرفه عن أنفسنا... بالضحك أو بالبكاء على أنفسنا. ينبغي أن نكتشف شخصية البطل و الأحمق المختبئة في داخلنا و في عاطفتنا الساعية للمعرفة...و كي ننجز هذا الغرض لا شيء أكثر نجوع و مساعدة مثل عرف الديك: نحن نحتاج إلى كل الوحشية، و الرقص، و أساليب الفن الساخر إذا كنا حريصين ألّا نفقد حريتنا من جَراءِ سلطة الأشياء و تأثيرها؟)) لقد تم التعبير على عدم الانفصال بين الوجود و الظهور، بين الجدية و الحماقة، ليس من قبل الفنان، الذي يكون بالنسبة له المهرج و الله جيران، فقط و لكن تم التعبير عنها مرة أخرى حينما أراد نيتشه الحديث عن الإعماق الدفينة للوجود، حين يقول: ((أقيس قيمة الرجال بواسطة حاجتهم لأفهم الإله كشي لا ينفصل و لا ينفكّ عن سيتار إله الشهوة و الفسق)).

هنا، يبدو نيتشه، الذي يحاول أن يجعل النظرة المنظورية-الأفقية تحل محل النظرة العمودية، أكثر تناقضا، و لاسيَّما حينما يتعاطى مع الأسئلة المتعلقة بحماقة و سخف الأقنعة. تظهر شخصيات المهرجين، البهلوانات، و المتهكمين بصورة مستمرة في كتابات نيتشه بصيغة يغلب

عليها طابع الغموض الذي يخفي تحته الكثير من المعنى و الدلالة الأهمية و الشأن، و بصورة تتماهى أحيانا و تتطابق مع شخصية نيتشه و أحياناً أخرى تتعارض معه بشدة:

يظهر البهلوان، الذي لم يفتقر إلى مَسْحّة الهزل مع أنّه كان على شفا الهاوية، أكثر غرابة و سِرّية من زرادشت بطريقة مضاعفة (انظر المقدّمة) – و أكثر قربا منه، و لكنه يظل في تناقض حاد مع الشخص الذي أخفق في كشف النقاب عن الحقيقة الأصيلة الموثوق فيها. حين أراد زرادشت بأمانه، لم تحد عن طريقها قِيد أنملة، أنّ يقوض الإنسان العادي و يتجاوزه، كان البهلوان الحكيم و الحصيف يتفق معه في أن عليه أن يقوم ب ((القفزة اللازمة التي تعبر فجوة الإنسان العادي)). زرادشت نفسه لم يكن يجيد التعامل مع الحشود من الناس – لهذا كان يراقب كيف يأخذ ((البهلوان المذهل)) المهرج مكانه و يمارس تأثيره عليهم؛ كما إنّه كان يرفض أولئك ((الرجال السامين الرفيعي الطراز))، و لاسيَّما حين يناديهم: ((و آسفاه، ما أنتم إلاّ حفنة من المهرجين، أنتم أيّها البهلوانات)).

فيمَا يتعلق بسقراط، إنّهُ الفيلسوف الذي ما انفكّ نيتشه دائماً عن نقده و مهاجمته إذا تطلب الأمر – و بهذا الصدد يقول الآتي: ((حينما تُعتَبر السلطة شأناً من شؤون الذوق لمصلحة الجيد السليم، الذي لم يكن له و للعادات الحسنة في أيّ زمان أو مكان مدرسة، و حين يتم استخدام الأوامر و فرضها بدلاً من طرح الحجج الواهية، فأعلم أنّ شخصية الجدلي و السجالي هي نوع من أنواع البهلوان المهرج، الناس لا تكف أن تضحك عليه، و لا تأخذه على محمل الجَدّ إطلاقاً. بيد أنّ سقراط كان المهرج و البهلوان الجدلي و السجالي الوحيد الذي أجبر الناس أنّ يأخذهُ على محمل الجد)). و مرة أخرى، يبدو نيتشه قريباً بعض الشيء من شخصية سقراط حين يكتب: ((أشعر أنّ سقراط هذا كان شخصية عميقة (تهكمه و سخريته كانت وسيلة ناجعة لجعل الناس يعدّونه مجرد شخص سطحي و عادي، و بالتالي يكون بذلك قريبا منهم))). و لكن القول الآتي الرافض له يبدو حاسماً و غير متردد إطلاقاً: ((كل شيء يُقال عن سقرط يبدو أمراً مبالغا فيه جداً – فهو شخصية لا تعد أن تكون غريبة الأطوار و كاريكاتوريّة. إنّهُ بهلوان مهرج يمتلك بلاشك غرائز فولتير المبشر بالثقافة أرستقراطياً و ممثلاً للطبقات الظافرة و المهيمنة و تقييماتها)).

لقد تم تميز وإدراك السخرية، و لكن بوضوح ليس بمعنى الخلق أو الابتكار عند نيتشه: ((ليس السخرية هو الصيغة الوحيدة التي يتواصل فيها الناس العاديون مع الأمانة)). لكن نيتشه

يصادف أو يصطدم في السخرية في مستويات متنوعة تماثل شخصيته كثيراً: ((هناك أرواح حرة و جريئة تخفي...حقيقة أن قلوبها الفخورة المتباهية و خواطرها تم كسرها و تنام و روحها يملأها الحزن (سخرية هاملت، حالة غالينياني)؛ و لاسيَّما في الأزمنة التي تلبس فيها الحماقة قناع المعرفة البائسة المؤكدة للغاية)).

وليم شكسبير في عمله ((يوليوس قيصر))، ((يذكر الشاعر مرتين، و مرتين أخرى يزدريه بطريقة مروعة... حتى بروتس هو الآخر فقد صوابه و صبره تماماً حين شاهد الشاعر أمامه...كمخلوق واثق من نفسه، كثير الشعور بالزهو و الفخر مع إمكانات العظمة التي يمتلكها – و بضمنها العظمة الأخلاقية – و لكن من النادر أنّ يكونه قد بلغ حدّ الأمانة في فلسفته سوى في حياته أو سلوكه)): ((يصرخ بروتس بوجه الشاعر: (سوف أعرف داعبتك حينما تعرف زمنك: بعيداً عن كل الثرثرة الحمقاء التي تتفوه بها!) تخيل هذا المعنى يرجع أو يخص روح الشاعر، الذي كتب)). ((أعرف أنّه ليس هناك قراءة ممزقة للقلب مثل قراءة شكسبير. يا تُرى ما الذي مر به المرء من تجارِب حقاً حتى يحس بهذه المشاعر الفظيعة من المعاناة إلى درجة يريد فيها أن يتحول إلى بهلوان مهرج! هل تفهم شخصية هاملت؟ بلا شك، و يقيناً أنها تسبب الجنون... و لكن هذا يتطلب الكثير من العمق الفكري كي يتسنى للمرء فهمها. كي يشعر المرء بنفس فيض المشاعر و الأفكار التي شعرَ بها هاملت ينبغي أنّ يكون عميقاً بما فيه الكفاية، هاوية، فيلسوفاً يحب الحقيقة... نحن لا نخشى شيئاً ما أكثر من أنّ نخشى الحقيقة...)).

حينما نأخذ كل هذه الأفكار أعلاه معا في خطوطها العامة بوصفها نظرةً فلسفيّة أكثر تحرراً و رفعة، سيكون بوسعنا أن نفهم معنى و مدلولية التأويلات الأخيرة لنيتشه. كان نيتشه يقول بصدد كتبه الآتي: ((هنا و هناك بلغت هذه الكتب أعلى سماء فوق هذه الأرض – السخرية...)). في حين يقول في موضع آخر عن نفسه: ((لم أكن أريد أن أغدو قديساً... بل كنت أريد أن أكون بالأحرى بهلواناً مهرجاً.... ربما أنا فعلا بهلون مهرج... و لكن ماذا عليّ أن أفعل الحقيقة تستعير لساني و تتحدث بواسطتي)). إلى الشاعر أفينوريس الذي يكتب عن نفسه: ((من الدلائل التي تشير إلى قوتي هو رغبتي الكبيرة في أن أكون مهرج، بهلوان، إله الشهوة و الغلمة و الفسق، الذي كان هناك دائماً عداوة و ضغينة فلسفية نحوه، أو إذا تفضل (كاتب ملحق في صحيفة تتحدث عن وقائع أحدث صيحات الموضة و القصص القصيرة و الحزورات الأدبية) – أو على الأقّل أكون شخصاً ما، كما

كنت في نصّي ((ضِدّ فاغنر)). إنّ الروح الأكثر عمقا هي الروح ينبغي أن تكون أيضاً الروح الأكثر تفاهة و ابتذلا، و هي بالمناسبة الصيغة المبسطة تقريباً لفلسفتي)). عن حالة الجنون الذي أصابت نيتشه يتحدث صديقه أوفربيك، حين وجده في مدينة تورين وحيداً، على النحو الآتي: ((عموماً، كان نيتشه يتحدث و يحاول جاهدا التعبير عن المهمة التي أسندت إليه في أن يكون بهلواناً مهرجاً لكلّ الأزمنة الأبديّة الجديدة)).

مثل هذه الكلمات – و لاسيَّما المذكورة أعلاه – ينبغي أن تظل غامضة. إن تعبيري كلاً من القناع بنفسه و البهلوان المهرج تم الاعتراف و التسليم بأنّهما يعودان في هويتها و ملكيتها حصراً إلى نيتشه العين الذي تتطلع إلى البعيد، و كل محاولة تقول العكس مرفوضة جملة و تفصيلاً. عند نيتشه، في بعض الأزمنة، العدم يخبي العدم، و تواريخ الاحتيال تسن و تصنع نفسها أمام نفسها و أمام الآخر على حدّ السواء بلا خجل. لقد كان القناع، بالنسبة إلى نيتشه، شيئاً غريباً تماماً – موضوع من الرعب – الذي ينبغي التحكم في الرعب و الخوف الذي يستولي عليك بالمثل، القدوة و الكلام و الشرح و الحض و النصح – ممزوج بطريقة معقدة مع الوحشية، لأنه سمح لنفسه أن يُخدَّع فيه بعمق. و لكن مرة أخرى دائماً يبحث المرء، مهما يكن و نيتشه ليس بالاستثناء، عمَنْ يحميه، حين يكون في حالة من اليأس، و لاسيَّما حين لا يريد أن يعرف ما عرفه فعلاً سابقا: ((لا يقين المئات من الذكريات التي من الأفضل ألّا نحركها... تُخنَق بحبلها، بأنشوطة حبلها الخاص)). و أخيراً، إنّ إمكانية الوجود، التي تبدو إنها تعبر عن أكثر الحقائق عمقا، مازالت تفتقر إليها – إنّها تلك الذي تنظر و ترنو إلى وجود العدم مع نمط و طراز معكوس للحقيقة، تمسك في الوجود بطريقة لا تخلو من المفارقة تسمح له في أنّ يصبح ظهوراً. على أيّة حال، يعتبر نيتشه ((القناع)) و ينظر إليه بوصفه علامة من علامات ((ترويض الإنسانية و تهذيبها)).

إنّ ضرورة ارتداء القناع، الحمل الثقيل على عاتقي و المنطق الغريب للغاية، ألقت بظلالها بقوة على معنى العمل في الحياة. القناع: فقط الأفكار التي تعمل و ذات فعالية بوسعها أن تنقل الحقيقة بذاتها. إنَّ الافتقاد إلى الأصالة و المصداقية في كلّ شيء يجعل النتائج بالضرورة يلفها شيء من الغموض – أن عدم التواصل و التعبير عن الأشياء و إبلاغها إلى الآخرين ينتج بالضرورة عند الإنسان حالة الوحدة و شعورها المقيت الذي تختبئِ وراءه الأقنعة التي يرتديها. إنّ عمل المفكر الذي يسمح في هذا الحدّ من التَجْرِبة، و الاختفاء وراء قناع، يبين حجم الآلم الذي يكابده: ((كتابات

الناسك في الصوامع دائماً تحتوي على صدى الصحراء، المكان الذي تنسحب إليه و تنعزل الأفكار الصنديدة ذات الطابع المستقل، و تعكس أجوائها؛ في كلماته القوية يصيخ المرء السمع إلى الجديد و كذلك أكثر أنواع الصمت خطورة... حين يكون المرء.... وحيداً مع نفسه... في كهفه – سواء كانت متاهة أو منجم للذهب – فإنّ مفاهيمه ستكتسب لون الشفق و رائحة القالب و عمقه – ستكتسب مِيزة غير قابلة للمشاركة.... الناسك يعتقد أنّه ليس هناك أيّ فيلسوف قد تعرض إلى وجهات نظره الأصيلة و النهائية في أيّ كتاب من كتبهم.... بل إنّه حتى يشك أن يكون الفيلسوف له حقاً وجهات نظر أصيلة و نهائية إطلاقاً: ربما تخفي كهوفه أشيائها بعيداً في أماكن و أغوار عميقة و ما بعد كل الأسسّ عن أيّ فيلسوف.... كل فلسفة هي مقدّمة إلى فلسفة أخرى... كل فلسفة تخبي بين طياتها فلسفة أخرى غير معلن عنها)).

تكتسب تَجْرِبة العيش على حافَة الهاوية تؤخي الحذر و صياغة غامضة فريدة في نوع العمل الذي يعتبره نيتشه عمله. حينما أدرك نيتشه ((الصيغة السامية للروح)) الموجود في ((أُورُوبَّا الحديثة)) في هيئة ((عبقرية رائعة))، فإنّ هذا كان لم يكن يعني لديه عدا أن يكون علامة واضحة من علامات انحطاط و فَنَاء الجوهر الروحي لأُورُوبَّا و انحلالها: فقدان و خسارة شعور ((الأسلوب الموحد في التلوين))، ((الألوان المتعددة تلائم البهلوان المهرج))، و التحلي بالفضيلة في ((كلّ نوع من الأسلوب)). و لكن يبدو أنّ هذا هو بدقة الذي يطلبه نيتشه إلى أسلوبه: ((بفضل حقيقة تنوع و غنى حالاتي الداخلية الفريدة و الاستثنائيّة، هناك الكثير من الأساليب المتاحة لي – لدي الفن المتنوع في الأساليب الذي لم يحظَ به أيّ إنسان من قبل بعد.... كلّ أسلوب من الأساليب قادر على نقل و إيصال و إبلاغ حالة من الحالات الداخلية هو أسلوب صالح و جيد.... الأسلوب الجيد المصلحة بحد ذاته هو حماقة محضة، مثالية فحسب....)). يمكن للمرء أنّ يميز في كلّ الصيغ الأسلوبية، على سبيل المثال، الفرق بين أسلوب الشخص الماهر و البارع و أسلوب المفكر المبدع، الذي يستخدم كلّ الأساليب الممكنة، و كذلك بين أسلوب الاحتيال المتنكر و أسلوب المظاهر المقنعة للغنى الحقيقي. و لكن بينما كان نيتشه في مرات يؤكد على هذا التميز و الاختلاف بين الأساليب، كان في مرات يترك هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، غير مُعبر عنه.

التشبيه و الأغنية —— نقل و تبليغ الأفكار و الآراء و المعلومات و المصادر الواردة في المراجع في خطوطها العامة عن طريق الكلام أو الكتابة أو الإشارات لا يتحدد بواسطة التفكير و

التأويل فحسب. أصبح التشبيه و المقارنة و الأغنية الوسائل التي زودت نيتشه أولا بطرق الاتصال مع الأعماق السِرّية و المظلمة و العدة الحقيقية و النهائية لتبليغ الأفكار و الآراء فيمَا يتعلق بفهمه لنفسه بواسطة عمله. أشعار نيتشه تعود في نِقَاطها المرجعيّة إلى فلسفته و لا تنفصل عنها في المنظور، المنهج و المقاربة، فهي ليست مجرد ثوب يرتديه أو يضعه على جسد أفكاره العارية يمكن أن يتم تغيره واستبداله من حين لحين أخر و حسب ما تقتضيه الظروف؛ بل إنّها بالأحرى أيضاً إنجاز و تتويج لتقدمه و مَساره الفلسفي. فهذه الأشعار لا تنبثق بوصفها النتاج النهائي لتفكيره – و لكن بوصفها أداة تفتح الطريق إلى المصدر بشكل مباشر كي يفضي إلى الصمت الحامل أو الحبلى بأفكار متنوعة و واعدة و يفسح عنه

يشعر الوعي الحقيقي الأصيل للوجود عند نيتشه و يعيش رعب الصمت و حضوره المريع. ((الآن، كلّ شيء صامت! فهناك يكمن... البحر – البحر الذي ليس بوسعه أن يتكلم. السموات... التي ليس بوسعها أن تتكلم. الشعاب المرجانية و المنحدرات... – حيث لا أحد فيها بوسعه أن يتكلم... الصمت المخيف الذي فجأة و على حين غرة يطبق بظلاله علينا، كم هو جميل و مريع في آن واحد... أيتّها الطبيعة أشعر بالشفقة نحوك، لأن عليك بالأحرى أنّ تكوني صامتة... آهْ،... أيّها القلب: إنّه ُجرس الإنذار الذي يقرع من حين إلى آخر... بيد أنّه هو الآخر صامت لا ي قُوَى على الكلام... ، غير أن الكلام، القطب المضاد للصمت، غدا مع ذلك شيء مكروه لي. فأنا لا استطيع أنّ أسمع خلف كل كلمة ضحكة، قهقهة، خطأ، مخيلة و وهم؟ آه، أيّها البحر! آه، أيّها المساء! كلاكما معلمان شريران! فأنتما تعلمان الإنسان – كان من الضروري أن يتعلم المرء أن ينظر إليه نظرته إلى كائن ضعيف أناني جبان و أنّ يفهم مدى اشتراكه في كلّ هذه الصفات و الدوافع الشريرة؛ و مع ذلك يعتقد و يوطد نفسه على أنّ الإنسان فكر و حب أيضا و أن شيئا فيه يصد الغرائز و يسعى إلى السمو. و لكن هذا النوع من الأفكار لم يكن أيّ واحد قادر عليها أو ربما كان الإنسان في الطريق إليها و أنّ طريقه كان سيمر بها و إليها – أنّ يكف و يتوقف أن يكون إنساناً!... هل يجب عليه أنّ يكون مثلكما الآن... وحش يستريح مع نفسه، و يشعر بالرضا عنها؟ أم عليّه أنّ يسمو ويرتفع عاليا فوق نفسه؟)).

الانفتاح على الوجود – الخلاص من الصمت – تم العثور عليه، طبقاً إلى نيتشه، في اختراع التشبيه و المقارنة، حين يتم ((تعزيز الحياة و زيادة نمو قوة الإنسان في التواصل و نقل و تبليغ

الأفكار و الآراء و المعلومات و المصادر الواردة في المراجع في خطوطها العامة عن طريق الكلام أو الكتابة أو الإشارات))، كما حدث مع زرادشت، في نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت)) لنيتشه، حين عاد أخيراً إلى بيتة أو بالأحرى إلى كهفهِ: ((هنا كلّ الأشياء تداعبك، تتودد إليك، و تريد أن تخطب ودك و تصغي إلى خطابك، لأنّها تريد أنّ تصعد فوق أكتافك. في كلّ تشبيه أو مقارنة تصعد هنا على ظهر كلّ حقيقة. هنا، الكلمات هي أضرحة الوجود الفاتح ذراعيه لي: كل الوجود لدية رغبة شديدة في أن يتمفصل بصورة واضحة، تقديم صورة أقرب إلى الصحة عن نفسه، و كلّ الصيرورة لديها الرغبة الكبيرة في تعلم الكلام بواسطته)). لتأكيد، نحن نسمع الأقاويل الذامة و المحقرة: الحقيقة هي ((مضافة متنقلة من المجازات و الاستعارات))؛ الحقيقة هي جملة من ((الأوهام... مجازات و استعارات متهالكة و آيلة للسقوط))؛ ((الشخص الملتزم بالتفكير الصُّلْب و الصارم لا يبالى أو يولي اهتمام أو يفكر كثيراً بالصور التي تنتجها قصائد الشعراء كثيراً))؛ ((مع الصور و التشبيهات و المقارنات، يمكن للمرء أن يلاحق الأشياء، لكنه لا يستطيع البرهنة عليها – و لهذا السبب تحديداً، يقاتل العلماء و يصارعون بخجل بالضِدّ من الصور و التتشبيهات و المقارنات)). و لكن، من جانب آخر، كُلَّما تحدث الوجود، بحد ذاته، بواسطة التشبيهات و المقارنات، يظهر شيء سامي و عالي و متفوق في العلم (((الأحمق الذي لديه رغبة كبيرة للتعلم منها))). إنّ ما يتحدث فيه نيتشه عن نفسه هنا هو أمر قابل للتطبيق:((إنّ الشيء الأكثر روعة هو الحدوث بطريقة إكراهيَة و غير طوعية لصور و تشبيهات و مقارنات؛ معها لم يعد المرء يمتلك أيّ فكرة عن ما هو الصحيح، و لم يعد يفهم التعبيرات الأكثر بساطة...)). هذا السمو الإبداعي لا يمكن استرداده: ((انتبه إلى كل ساعة تكون فيها روحك مستعدة للكلام بواسطة التشبيه و المقارنة)). بالطبع بوسع زرادشت أنّ يقول: ((أشعر بالعار من حقيقة أني مازالت شاعراً)) (((أنّ أتحدث بواسطة التشبيه و المقارنات)))؛ و لكن في هذه النقطة، يشير إلى الجانب المضاد للرؤية الحاضرة و واقع المستقبل.

إنّ الأغنية أفضل حتى من التشبيه و المقارنة. كلّما يتبقى لي حين يصمت كل شي من حولي و يتوقف هو ((أنّ عليّ أن أغني مرة أخرى – هذه هي الراحة، و الطريق إلى النقاهة، و استرداد العافية التي اكتشفها في نفسي)). في نهاية نصّ ((العلم المرح))، يكتب نيتشه الآتي: ((أرواح كتابي هذا لا تكف عن الانقضاض عليّ و مهاجمتي)): ((لم نعد نحتمل ذلك.... من يا تُرى سيغني لنا أغنية، أغنية-الصباح الجميل...؟)) و في المقدّمة اللاحقة للطبعة الجديدة من كتابه ((ميلاد التراجيديا))، يعترف نيتشه فيمَا يتعلق في نفسه: ((كان ينبغي عليّ أن أغني أغنية – (الروح

الجديدة) – بدل من مجرد الكلام!)). ثم يسلم بالحقيقة الآتية: ((و بهذا الاعتبار، صار عليّ أنّ أقرأ نصوص المفكرين الآخرين، و أغني ألحانهم، و أردد أغانيهم. أعرف أنّ حنين الشوق يتحرك و يذهب بعيدً بيد أنّه يكمن خلف الكلمات الباردة – أسمعه يغني، لأن روحي تغني حينما تحركها أشجان الأبديّة التي تحلم بساحل بعيد)).

السجال/ المجادلة. لقد نجح نيتشه، الذي يقرأ الحروف الكبيرة لوجودنا الأرضي من على كوكب بعيد، في توظيف السجال الدائر بينه و بين الفلاسفة الآخرين – النقاش الذي يميل إلى المجادلة لصفه، لأن الهجوم القوي على خصومه يزيد من حظوظ أفكاره في الوصول إلى قرائه. فحينما يتم مهاجمة شخص ما و توجية النقد إليه، فإنّه لا محالة سيجد نفسه مُجبّراً أنّ يصغي و يستمع، و حينها فقط يكون واعياً تماماً بحقيقته. لقد صنع تصور الفهم-الذاتي لنيتشه معنى السجال له بوضوح. فهو ليس بالضرورة صراع حقيقي لتخلص من فراغ الخدع و الانحرافات، التجاويف العميقة و الزَّيف (مع أنّ هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يمكن أن يلعب دوراً مهماً)؛ إن النتيجة المتضمنة هي الصراع مع الأفضل، إذا جاز لنا القول. ((أهاجم فقط الأسباب التي تدعي أنّها المنتصر الأخير... أهاجم الأسباب حينما لم يعد لي حلفاء و أصدقاء و أقف تماماً وحيداً في مواجهة الأشياء... أنا مطلقاً غير معني بمهاجمة الأشخاص – أنا استخدم الأشخاص فقط بوصفهم مرآيا أو نظارات مكبرة معها كي أزيح النقاب عن بعض المواقف النقدية العامة الراهنة)). كان نيتشه يحترم أولئك الذين أجبّرتهم الظروف على معارضته و يريد ذلك بقوة. فكما يراها، كانت عظمة الموسيقار فاغنر – الذي يعرف كيف يرسم و يستخدم الموسيقى ليس ليقدم موسيقى بل ليؤيد مواقفه – على سبيل المثال، تشير بدقة إلى حقيقة صراعه مع هذا الرجل طوال حياته كلها. كان نيتشه لا يهاجم أو ينتقد إلاّ أولئك الذين يتمتعون بمكانة عالية و عظمة كبيرة؛ إنّهُ يدعو إلى الصراع مع الأنْداد، المساوين له فحسب، و لا يدخل في معارك مع السوقيين و العامة المبتذلين. بالإشارة إلى الموسيقار فاغنر —— الذي قد أوتي الجرأة لاختيار المثال الزهدي، بوصفه عنصراً من عناصر فن الحفاظ على الحياة؛ التخلي الحازم الهادئ الذي يصدر عن مل الخاطر – إلغاء الإرادة عمومًا و شطب الأهواء – حين يقصي الإنسان الأهواء فأنّه يقصي الشروط التي تثير الإحساس بالقوة في أعلى درجاته و بالتالي تثير الفرح – برّمتها —— بعض الأحيان، قد يكون الشخص استثنائّي و فريد، لكنه يظل مع ذلك على خطأ؛ لم يكن نيتشه آسفاً على اكتشاف ذلك، لأن هذه الحقيقة تكشف من وجهة نظره عن عظمة بعض الوقائع في الوجود. الحقيقة في صيغتها المنقولة ينبغي أنّ تنبثق – و لكن فقط بواسطة

الصراع. دون هذا الصراع الناشب بين المفكريين لا يمكن للوعي الإنساني أن يدركها، و لا يمكن لها أن تحدث و تتحقق بطريقة ملموسة. إنّ التواصل و نقل و تبليغ الأفكار و الآراء و المعلومات و المصادر الواردة في المراجع في خطوطها العامة عن طريق الكلام أو الكتابة أو الإشارات، و لاسيَّما عن طريق الصراع هو بحد ذاته نوع من الحقيقة، و التي بسبب طبيعتها غير القابلة على التعبير و الحديث عنها، يتم ضبطها و تثبيتها بشكلٍ دائمٍ.

وبما أنّ الشيء الذي يتعرض للنقد و الهجوم لا يزول أو يتقوض كما يُعتقَّد، بل يتم تأكيده و تثبيته، فإنّ ساحة المعركة لهذا الصراع سيكون نيتشه نفسه، و الفلاسفة الآخرون هم خصومه الذين يفترض أن يخوض المعركة ضِدّهم – و أنّ الحقيقة القابلة للإيصال و النقل إلى الآخرين هي ليست يقين راسخ لاستقلالية الخصوم، و لكنها بالأحرى و ببساطة قوة دافعة و محركة لكلّ صيغة من صيغ التواصل و النقل، حيث يعدّ الصراع واحد منها.

ما الذي يمثله لنيتشه

كان نيتشه – الرغبة في أنّ يكون في الجانب الآخر – يرى نفسه بوصفه كلّ فلسفي خالي من الغموض. حينما نحاول أنّ نجمع كل أقوال نيتشه، و نضعها معاً جنب إلى جنب، نتعرف في الحال على حالة اليقين-الذاتي و الثقة القاطعة غير المترددة التي يتمتع بها، كما نعثر أيضاً على حالة الشك المستمرة التي يحاول يضع نفسه فيها و يعيش فيها غير آبه لأي شيء.

تبدو مظاهر اليقين-الذاتي عند نيتشه بواسطة وعيه بحجم و أهمية المهمة الملقاة على عاتقه و تقتضي إنجازها. هذه المهمة هي ليست مشروع يفترضه نيتشه نتيجة للتفكير و التأمل – بل إنّها بالأحرى تتطابق و تتماهى مع طبيعته الحقيقية، و تصبح من ثَمّ ممثلاً لكلّ البشر في اللحظة التاريخية، دون أنّ تسمح له أنّ يكون نبياً أو مؤسّساً.

منذ عمر مبكر جداً، كان نيتشه، الذي بعض الأحيان يسأل المرء بدافع إظهار انتباهه منه و ليس بدافع الرغبة في المعرفة، واعياً تماماً لحجم المهمة الملقاة على عاتقه و ضرورة القيام بها، بالرغم من أن ملامحها الرئيسية لم تكن في الواقع محددة و مرسومة بدقة إلاّ بعد حلول عام (1880)، حيث غدت هذه المهمة أكثر نضجاً و ثباتاً بطريقة جعلت من نيتشه ملزماً في أنّ يكرس كلّ جهوده الفكرية لتحقيقها. في بواكير عام (1872)، كتب نيتشه إلى صديقه روده، الآتي:

((تستحوذ عليّ رؤية الاحتمالات الممكنة و كأنّها الدوار، الجدية المفزعة، و تمسك بقوة في تلابيبي كُلَّما سمعت أو تراءى لسمعها أيّ شيء عن مهمتي القادمة ((ميلاد التراجيديا))، لأني أسمع وأرى في مثل هذه الأصوات إشارة واضحة إلى مستقبل ما قمت بالتخطيط له. هذه الحياة التي أعيشها الآن، بلا أدنى شك، ستكون في غاية الصعوبة)) (22 كانون الثاني، 1872). أمسَى الطريق أكثر وضوحا عند نيتشه بعد أن أدرك الأخير و تحديداً في عام (1877)، أنّ عمله أستاذ في الجامعة لم يعد يلبي الطموح و قد شارف على النهاية: ((أنا أعرف و أشعر جيداً أن هناك قدراً سامياً ينتظرني أكثر من ذلك العمل المحترم الذي أمارسه في الجامعة في بازل)) (من رسالة إلى السيدة م. كومكارتنير، 30 آب، 1877). و فيمَا بعد، فهم نيتشه بوضوح ما الذي حصل فعلا له: ((لم أكن أفهم نفسي جيداً، لكن الإلحاح و الإصرار ألقى بظلاله بثقل عليّ، و كان له قوة و سلطة الأمر في التأثير على كياني – يبدو أن قدري البعيد و النهائي المبرم، غير القابل للإلغاء، قد تم ترتيبه فعلاً و وضعت عليه اللمسات الأخيرة)). و بنفس الصدد، يقول نيتشه: ((اختيار الرجال و الأشياء المناسبة، رفض أكثر الأشياء المتفق عليها و المألوفة و المتعارف عليها و الأكثر تبجيلا – هذا من أكثر الأمور التي تثير مخاوفنا، كما لو أنّهُ حادث محفوف بالخطَر على وشك أن يصبح واقعاً، نزوى و هوى مفاجئ ينادني – شيء له قوة و مفعول و سحر البركان المنفجر. لكنه، يمثل أيضاً السبب الرفيع و السامي لمهمتنا المستقبلية)).

منذ عام (1880)، كان المُلاحَّظ بقوة هو تكريس نيتشه، الذي كان خطائه الوحيد هو أنّه ينطلق من فكرة و لا يترك الكلمات تقوده، نفسه تماماً لخدمة هذه المهمة، و كان اهتمامه حاضر دائماً وبالغ الأثر. هذه المهمة إذا جاز لنا التعبير ((شيء خفي و مستبد، لا نستطيع أن نطلق عليها اسم نهائي حتى يتم إثبات و البرهنة أنّها حقاً تمثل مهمتنا النهائية)). من ذلك الوقت فصاعداً، كانت المخاوف ما انفكّت تنتابه باستمرار، و لاسيَّما الخوف الكبير من ((إخفاقه في ألّا يكون أهلاً لإنجاز هذه المهمة المخيفة أو التعامل و الانسجام و الوفاق معها)). و بهذا الصدد يقول أيضاً: ((سواء نجحت في إتمام هذه المهمة أو أصابني الإخفاق و الفشل، يجب أن أواصل السير و استمر في إكمال مهمتي الضخمة هذه، اعتماداً على الظروف التي ليس لي يد فيها أو مفروضة من قبلي، بل المفروضة دائماً من قبل (طبيعة الأشياء و سلوكياتها))) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، 29 تشرين الثاني، 1881). ثم يقول: ((الطريق خطراً جداً و تكتنفه صعاب جمة من كلّ الجهات! فيه، لا أجرو على مناداة نفسي باسم الهائم و المتشرد-الليلي)).

لكن طبيعة هذه المهمة غدت بالنسبة إلى نيتشه هي مهمة الإنسانية الرئيسة في هذه اللحظة التاريخية الحاضرة. في مرحلة مهمة و حاسمة في شبابه، كتب نيتشه: ((مهمتي: هي القبض على الرابطة الداخلية و ضرورة كل ثقافة حقيقية – أمسك بالمقاييس الحامية و التصحيحيّة لهذه الثقافة – و التي كانت أعظم لحظاتها دائماً من الناحية الأخلاقية عهود الفساد – و علاقتها بعبقرية الإنسان...)). و في فترة متوسطة من حياته الفلسفيّة، قال نيتشه الآتي بطريقة يغلب عليها الغموض: ((هدف الروح الحرة هو: مستقبل الإنسانية)). و مع اقتراب حياته من نهايتها، سمعناه يقول: ((مهمتي تكمن في إجَراءِ الاستعدادات اللازمة لبزوغ الإمكانية السامية للحظة الوعي-الذاتي للإنسانية – الوسيط العظيم، حينما يبدأ البشر ينظرون إلى الخلف و إلى الأمام، و حين يدون... حقاً و أول مرة بطرح السّؤال المهم لماذا؟ و إلى أين؟)).

و لكن في نفس الوقت، كانت الشكوك تساور نيتشه، الذي كان مديناً للآخرين بشيء مهما يكن لا يمكن احتماله بالنسبة له، و يعذبه كثيراً فيمَا يتعلق في إنجاز هذه المهمة حتى نهاية حياته. بالتأكيد، يعرف نيتشه جيداً أنّ ((فلسفته شكلت على الأقّل حدثاً كبيراً في أزمة أحكام القيم الأخلاقية)). فمن وجهة نظر رفيعة، كان نيشة يرى نفسه مصدراً و ينبوعاً للسياسة العظيمة/ الكبيرة في المستقبل، و عالم-الوجود التاريخي، و يمثل نقطة–تحول و مفترق طرق — كان نيتشه حقاً الفيلسوف الذي يمثل نقطة تحول في تاريخ العالم، قطيعة معرفية، بما أنّهُ الفيلسوف الأول الذي أدرك هذا التاريخ جيداً و تفاصيل مسارته و قطائعه المعرفية و استوعبه بحذافيره. ((إذا لم أنجح في أن أجعلهم يرددون اسمي و في أصوات عالية لمئات من السنين القادمة، فإنّ لا أعد نفسي، في تقديري على الأقّل، قد أنجزت أيّ شيء هام ذي فائدة تذكر)) (من رسالة إلى أوفربيك، 21 أيار، 1884). أرادَ نيتشه أن يقوم بمحاولة لقَلَّبَ كلّ القيم الأخلاقية المتعارف عليها في زمنه – القِيَم العابرة المرتبطة بأشكال منتهية من الثقافة و أنظمة حضارية منقرضة – و بهذا الاعتبار كان يريد أن يكون المشرع الجديد للمستقبل و واضع خطوطه الرئيسية، لأنه خلق فعلاً نوع من الحركة-المضادة للعدمية تمثل حقاً نقطة تحول كبير و قطيعة معرفية كبيرة في الفلسفة. و إذا تحدثنا من زاوية ميتافيزيقية، بوسعنا القول أنّ نيتشه كان يرى في نفسه ممثلاً لحركة انقلاب، ليس فقط على مستوى التاريخ الإنساني، و لكن أيضاً في مَسار أحداث العالم في كليته: فبواسطة التفكير في مذهب العود الأبديّ، شكلَ نيتشه نقطة تستطيع فيها حوادث العالم بذاته أن تعيد وجودها و مسارها و تقلبها إذا سنحت لها الفرصة و أصبحت الظروف مواتية[90]؛ فبواسطته وجوده، اكتشف نيتشه ذاته بواسطة

المعرفة-الذاتية. لكن وعيه للوجود كان واقعا في غاية الأهمية، و لاسيَّما يرافقه عيش تَجْرِبة عذاب الوجود الإنساني و مكابداته في تفاصيله و الابتهاج فيه. كان نيتشه من نوع الرجل الذي يمثل أزمة العصر الحالي بدقة – الأزمة التي تعبر عن نفسها بسلسة من المتشابهات النادرة: ((أنا يا أصدقائي الحمقاء! – من أكون حينها أن لم أكن موضوعاً للنقاش: ذوق جديد غير معروف من قبل!)).

ربما يبدو كما لو أنه يتمنى أن يقلل من شأن محاولته قَلَّبَ القِيَم

عبرَ نيتشه عن رفضه لمعنى وجوده و وعيه للدلالة التاريخية لعذابه معاً بطريقة يغلب عليها المجاز: ((غالباً، ما اعتبر نفسي و وجودي كليًّا مجرد خربشة مرسومة على صفحة ورقة بواسطة قوة مجهولة غير معلومة تختبر جودة و فعالية قلم جديد)) (من رسالة إلى جاست، آب، 1887). و مرة أخرى يقول: ((كم مرة، و منذ عام 1876، لم أكن فيها، جسدياً و عقلياً، رجلاً محارباً في ساحة المعركة!)) (من رسالة إلى جاست، 25 تموز، 1882).

يقارن نيتشه بين حركته التي لاتهدأ – تلك الذي تستهلك و تمتص وجوده كلهب، ضوء، و حماسة منقطعة النظير – و ضربة البرق اللامعة: ((حياتي كلها احتراق و استهلاك...)) ((كان بودي لو اعتبروني مشعلاً من نار، و تهديداً لكلّ الأرواح العقيمة و الجافة....)) ((أريد أن أتلاشى في عاصفة رعدية مظلمة، و أكون إنساناً و ضياء-مشتعلاً معاً حينما تحل لحظاتي الأخيرة)). و الأهم من كل ذلك، لدينا هذه الأبيات الشعرية النبيلة الآتية التي تفسح عن طبيعة نيتشه الحقيقية:

نعم، أعرف جيداً من أين أتيت!

ساخطاً كاللهب،

أعتاش على نفسي و لا أكف عن التوهج.

كلّ ما أفهمه و أمسك به ومضات من ضوء،

و كلّ ما اترك خلفي هو مجرد رماد:

لهيب أنا – هذا ما لا أخطي إطلاقاً في معرفته

2
كيف يمكن أن نفهم نيتشه

طرائق نقد نيتشه (737)

النقد المنطقي — نقد المضامين — النقد الوجودي.

إرادة وعي العالم المحضة (757) كيف طرح نيتشه عالمه الخالي من الإله — البديل إلى الترسندالي و كيف أخفق في مهمته. — نيتشه الترسندالي — التفلسف في عالم دون إله.

التفلسف الجديد (779)

السلبيّة المطلقة — التجريب — نيتشه كأضحيَّة و قُربان — انفتاح نيتشه الفكري ما هو و ما الذي يريد فعله على وجه الإجمال.

نيتشه المناسب (794)

أن نكون مخدوعين بواسطة نيتشه — المربي الفلسفي — ردود الفعل نحو الاستثنائّي.

كُلَّما حاولنا التفكير في فلسفة نيتشه – حيث الأمور يمكن أن تجرك إلى أبعد مما تتصور فيها في البَدْء – و في المكان الذي يقف عليه و المواقع التي ينطلق منها، سنجد أنّه مرة يكون هنا في هذا المكان، ثم يتحول مرة أخرى هناك إلى مكان آخر حين نريد الإمساك به، ثم حالما نحاول الاقتراب منه في مكانه الجديد حتى يسرع في الهرب و الذَّهاب بعيداً. فتفكيره لا يوجد هنا أو هناك تحديداً و لا يمكن حصره و تحديده في مكان مقرر؛ و يبدو دائماً يتلاشى و يهرب حين نحاول الإمساك به و فهمه. إنّ فرضية امتلاك تفكير نيتشه لأكثر من هيئة أو مظهر يعدّ من السمات المميِزة المهيمنة و من صميم هذا الفكر ومن أساسيات طبيعته. يطالب نيتشه القارئ بالآتي: ((الشيء الأهم، أنّ لا ترتكب خطأ في فهمي و فهم أفكاري))، فتفكيري حقيقي و في مكانه المناسب لمن يفهمه بحق: ((أراهن أنّ الناس تميل إلى ارتكاب الخطأ تلو الخطأ في فهم تفكيري و أهدافه، و على نفس المنوال اعتبرها خدمة كبيرة لا تقدر بثمن فعلا إذا كان هناك حقاً شخصاً ما بوسعه أن يفهم أفكاري و يمنع سوء الفهم و الإرباك الذي يمكن أن يقع بها من جَراءِ الآخرين)).

يسفر تقلب نيتشه المتلون عن نفسه و يتجلى ليس فقط في كلّما يقوله، و لكن أيضاً في مظهره الكلي. فكما كان سقراط و السوفسطائيين – كقضية تاريخية و مفصلية – غير مفهومين من قبل الحشود، كانت الحقيقة عند نيتشه لا يمكن فهمها بدقة بواسطة أيّ شخص كان – أعني، بنفس الطريقة التي يتم فيها خلط الموضوع الثابت بوضوح بنقيضه.

و لكن التغير في مظاهر التفكير عند نيتشه ليس بالمعضلة، فبعد الاطلاع على هذه الأفكار في خطوطها العامة و وضعها في سياقاتها المناسبة الدقيقة، و رؤيتها بواسطة كل لحظة من لحظات تجليها و ظهورها، يمكن للمرء أن يلتقي في نيتشه و يفهم تفكيره الحقيقي. يكمن اللغز و الصعوبة في فهم تفكير نيتشه في حقيقة التغير المستمر في مظاهره المنبثق أصلا من أعمق أعماق وجوده ومرتبط بها بطريقة لا فكاك منها. و بعيداً عن الغموض و الصعوبة المنيعة التي يمتاز بها تفكيره و وجوده معاً، و الوجوه العدّة التي يمتاز بها، لم يكن نيتشه ببساطة نفسه.

ينبغي لنا أن نبدأ بفحص و تحليل الطرق النموذجية المتبعة في نقد نيتشه، التي تريد أن تدفع بالتفكير حتى منتهى ما تدركه الحواس، و نحاول أن نفهم، بالرغم من أنه و لا واحد منها نجح في الواقع في فهمه – فإنها في نهاية المطاف تظل مجرد وسائل تهيء الطريق و تعبده في فهم ممكن لنيتشه، و لاسيَّما حينما ندرك بدقة لماذا فشلت في أداء وظيفتها.

طرائق نقد نيتشه

كل عرض لأفكار أيّ فيلسوف كان يتطلب، بحكم طبيعته و بحكم العادة التي جرت، إصدار أحكام على ما تم تقديمه، على الرغم من هذه الأحكام لا تخلو بالعادة من الغموض و الالتباس، بالإضافة إلى أنها تكون غير مقصودة و غير مباشرة. و لكن النقد المتروي الذي يهدف إلى إصدار الأحكام ينبغي أن يتبع الإجَراءِات الآتية:

(1) النقد المنطقي — إذا أخضعنا تفكير نيتشه إلى شروط المنطق و متطلباته و أدَواته في الفحص و التحليل، سرعان ما سنكتشف سمة التناقض-الذاتي في أقواله، لقد توصل إلى استدراج النتيجة لكنها ها هي تسجنه بدورها.

تنبثق الصعوبات الخارجية في تفكير نيتشه من حقيقة أنّه يستخدم في سياقات و أماكن مختلفة نفس المفاهيم و العبارات و لكن ليقصد تماماً معاني مختلفة – بل حتى أحياناً متناقضة (على سبيل المثال، ((الوهم))، ((القناع))، ((الحقيقة))، ((الوجود))، ((الناس))، ((الإرادة))، و تقريباً كل العبارات و الكلمات الأساسية التي تظهر لديه محطات نهاية بصورة موقتة). زد على ذلك، لم يجرؤ نيتشه قطا على تصحيح الأخطاء التي كان يرتكبها، كما أنّهُ كان من النادر أنّ يلاحظ الصعوبات التي تقف في طريقه أو يلتفت إلى الوراء. و لكن، و بالرغم من كلّ ذلك، كان حبه الغريزي للحقيقة قد جعله يفترض مقدماً المواقع الوثيقة الصلة و الملائمة ضمن الكلّ في تفكيره. فالألفاظ المتناقضة لدية يتم تجاهلها بما أنّها ليست تناقضات حقيقية على الأقّل من وجهة نظره إذا جاز التعبير.

إنّ السّؤال المهم هنا يتعلق بمعنى التناقضات المنيعة و دلالاتها في كتابات نيتشه. هل كان نيتشه يدوِّن و يكتب كل شي يحدث له؟ هل كانت أفكاره تعبر فقط عن الفوضى أو السديم المتعدد الذي تعيشها أمزجته و حالاته النفسية، و كان عليه أن يحدث نظاماً في نفسه يعوضه عن غياب النظام و الفوضى في الخارج و أن يكون هدفه أن تنمي نفسك؟ أم هل كانت التناقضات في تفكيره محكومة حكم مؤبد بالخضوع لقاعدة بالضرورة؟ هل كانت الأمزجة المتنوعة لديه يعود بعضها إلى البعض الأخر، و تكشف عن وحدتها فقط طبقاً إلى القانون الذي يتجلى بنفسه ضمن الكلّ أم أنّها منفصلة بعضها عن الآخر؟

ببساطة، المرء يرفض هذا النوع من الأسئلة حين يقترب أكثر فأكثر من تفكير نيتشه، و لاسيَّما مع فرضية أنّهُ يمكن أن يُفّهم أفضل بكثير حين ينظر إليه بوصفه فيلسوفاً متسقاً و غير متناقض مع نفسه – و أنّ أيّ تناقض يظهر في مَسارات تفكيره هنا أو هناك ينبغي إن يتم إقصائه و حذفه و معاملته بوصفه فقط مجرد خطأ عابر غير ذات أهمية تذكر. الشخص الذي يسلم بمثل هذه الفرضية، و يعمل بها، عليه أن يقوم بواحد من اثنتين: أما أنّ يرفض نيتشه نهائياً بوصفه فيلسوف غير منطقي و غير متسق بما أنّه أصلا يفكر في التناقضات من البداية إلى النهاية، و لا يقوم بربط هذه التناقضات بعضها مع البعض الآخر بناظم فكري بطريقة واعية؛ أو يختار على نحو استبداديّ و اعتباطيّ أن يركب ما كان نيتشه نفسه يعتبره قطاراً أو مساراً منفصلاً من الأفكار، و بهذا الاعتبار يقصي كلّما هو متناقض و متضارب و يسقطه، لأنه يتعارض مع هذا المسار، و بهذا يدعي نقد الموقع الدوغمائيّ المفرد المتبقي.

مهمتنا في هذا النصّ، مع ذلك، (العمل على عرض و تقديم أفكار نيتشه الأساسيّة بدقة)، هو أن نرى، أولا، ما الذي لم يقصده نيتشه بهذه التناقضات، نشخصه و نلقي عليه الضوء – أعني، التناقضات التي يقصي أحدها الآخر. بعد هذا، من الضروري أنّ نأتي بذلك العامل أو الناظم الفكري الذي يقوم بتوحيد و الجمع بين التناقضات معا، حتى لو كان نيتشه نفسه لم يشر إليه من بعيد أو من قريب (بعبارة أخرى، ينبغي لنا، أن نخضع أقوال نيتشه للنقد و الفحص و التحليل و التمحيص الذي يبدو أنه قد تم إزالتها بواسطة التناقض، مع نظرةً تريد الوصول إلى أكثر الأفكار أهمية و مدلولية التي تعبر عن نفسها بواسطة هذه التناقضات بذاتها). و أخيراً، ينبغي أن نضع أيدينا على التناقضات الحقيقية عند نيتشه التي لا تنتج ديالكتيكاً خاطئاً غير مقيد و منضبط يهدف إلى إحداث تسوية كُلّية عامة للخلافات.

إنّ الأسئلة التي تطرح نفسها هنا لا تحظ بإجابة كافية من قبل نيتشه نفسه. هنا أكثر من أيّ مكان أخر أمسَى واضحاً أنّ نيتشه فقط في البعض من المناسبات يتعامل بشكل مباشر مع مناهج منطقية بهذا الصدد لحَلّ التناقضات. لم يدرك نيتشه إطلاقاً أنّهُ ينبغي أن يضطلع بمهمة ممارسة نوع من التمرين الفلسفي يأتي بواسطة الدراسة الجادة المثابرة و المواظبة على اقتفاء آثر المفكرين العظام و كان يفتقد ذلك بطريقة مؤلمة. من الواضح و المفهوم جيداً، أن هذه الأشياء لا تعدّ أساسيّة و ذات أهمية كبير تذكر بالنسبة له بما أنّه يقف دائماً مع النظرة المتنامية التي تغير و تطور في

مصادر تفلسفه دون انقطاع و تقف بالضِدّ من بناء مذهب فلسفي كما يفعل أولئك المفكرون. إنّ أصالة تفكير نتيشة و فرادته، و اختلافها عن باقي الفلاسفة، تسمح له في لا يأخذ أوجه القصور المهني لدية على محمل الجدَّ و يستخف بها و حتى يتجاهلها أحيانا. بيد أنّ افتقاد نيتشه إلى الضوابط الكابحة و النوابض و ممتصات الصدمات فيمَا يتعلق بالتناقضات و تبعاتها المدوخة حقاً، التي ترافقها نزعة تسمح لفهمه (Verstand) في الانغماس في صيغ غير-ديالكتيكية للتفكير – الصيغ التي بدوره يسخر منها – يشكل حقاً فجوات خطيرة جادة في عمله كله و عائق لا يمكن تجاهله في فهمه.

بناءً على ذلك، ينزل نيتشه مراراً إلى مستوى ما يعتبره مجرد تجسدات، و تثبيتات و مطلقات و تجنيسات زائفة – و في مناسبات يحاول أنّ يلغيها كلها دون الرجوع إليها بوضوح. إنّ القارئ الذي لا يستطيع تزويدنا بالسياق بدقة – أعني، (الذي يقرأ فقط دون أن يربط بين ما يقوم نيتشه بفعله و التفكير فيه) لا يستطيع، إذا كان أمينا، أن يتجنب حالة الإرباك التي تصيبه من جَراءِ التناقضات و التعارضات و النزوات و التقلبات الحاصلة في حركة و مسارات تفكيره الذي تنشأ في كل مكان من كتابات نيتشه. إنّ التأكيدات المتكررة لهذه التناقضات تقوي من قناعتي أنّ تفكير نيتشه يتسلم تنظيمه الفلسفيّ، ليس بواسطة المنهج الواعي، و لكن بالأحرى بواسطة الغريزة، التي ليس لها مثيل، في طلب الحقيقة. بعيداً عن هذه القناعة، سوف يغرق نيتشه في بحر أو مستوى من الأقوال المأثورة الملهمة فحسب، و سوف لن تكون لفلسفته أيّ قيمة تذكر. و لكن حتى لو كان من الممكن إضاءة بعض المعاني و التضمينات الإيجابيّة لتناقضاته الضرورية، لا يمكن إنكار بقايا الفضلات المتضخمة و الكثيرة من هذه التناقضات التي لا يمكن اعتبارها ضرورية و لكن لا يمكن استئصالها أيضاً.

ينبغي للتحليل المنطقي أن يرسم ملامح و معالم الميدان الإدراكي – الميدان الذي بواسطتها يمكن التعبير عن الحقيقية، التي هي قيد النظر و جاري التفكير فيها، دون غموض و دون تناقضات، ومن ثّم ينطلق و يتقدم ليضيء النطاق الفلسفيّ و الذي يصبح التعبير، في نقل الحقيقة، بالضرورة يقتضي أن يكون غامضاً أو يتحرك في ديالكتيك من التناقضات.

أن أمثلة التناقضات التي قبض عليها نيتشه بنفسه و قام بالبرهنة عليها يمكن أن تكون ونعثر عليها بواسطة تقييماته الثنائية لما يظهر أنّه واحد و الشيء نفسه: التشاؤميَّة و الشكيّة، التي لا تخلو

من البلادة السمحة الظريفة التي يشوبها التشاؤم و الفتور، كلاهما لديهما قيم إيجابيّة و سلبيّة في آن واحد، و هذا يتوقف على ما إذا كان يتم فهمها بوصفها نتاج للمواقف القوية أم الضعيفة التي تنطلق منها – هناك نوعان من التعاطف، و نوعين من التفسخ و الانحطاط؛ أنّ كل من الحنين و التوق إلى الوجود و تحريره و تمجيده و السيطرة عليه (إرادة الأبديّة)، و الحنين و التوق إلى الصيرورة (إرادة الفَنَاء و التقويض) هما مفهومان غامضان وملتبسان عند نيتشه.

إنّ الصعوبة الموروثة، في تفكير نيتشه – العقل القلق الذي لا يطمئن إلى قناعات جاهزة و حقائق نهائية – مردها إلى حقيقة التناقضات التي لا يمكن أنّ تُدرَّك ببساطة كنقائض، و التي في حركتها و مساراتها تتغير الواحدة منها إلى الآخر في مستوى واحد، لأنّها أيضاً تتحرك عمودياً من مستوى إلى مستوى أخر مع نتاج جديد معقد أيضاً و متشابك من النقائض. ضمن الحركة الثانية من التناقضات هناك المزيد من التميز و الاختلاف: في الوقت الذي تشتق فيه الحركة من المستوى المبكر الأول تبقى متحدة مع نقيضها (على سبيل المثال، السادة و العبيد، مع أنّهما مختلفين في الأساسّ، وبواسطة جدلية اختلافهما تصل الإنسانية إلى كمالها و تمامها، فإنّ الواحد منهما يرجع إلى الآخر و يبرر وجوده بواسطته إيجابيّاً). و لكن في وقت آخر، أن ما لا غنى عنه في هذه الحركة ينبغي أخيراً أن يتم إقصائه بما أنّ وجود الوحدة دون تناقضها غير ممكنة. (على سبيل المثال، كلّ ما هو غير أصيل، ضعيف، ساكن لا يتحرك، و يفتقر إلى القوة، و إلى مصادره الداخلية في العبد الذي لا يشوقه الواقع كثيراً بلى أنّه يضايقه، ينبغي أن يبقى بالضرورة من أجل وجود السيد القوي – أنا القوة الأقْوَى لأنني لست بحاجة إلى الكذب – كي يبرر قوته – العبد الذي أراد أن يخدم عليه أن يخدم السيد الذي عاهده دون تفريق بين السراء و الضراء و دون نية خفية ترمي إلى تركه إلى أحسن منه أن وجد مَنْ هو أحسن منه. فأنّ العبد أن فعل ذلك جعل نفسه قاضيا لسيده و يقطع في أمر مركز السادة الذي يختار من بينهم من يخدمه بنفسه). في هذه الحالة، فإنّ الخِيار، الذي يكون وجودياً بدل من أن يكون منطقياً، سيقود إلى توضيح القرار المتعلق في الوجود و العدم بدلاً من اللجوء إلى التسويات العقلية.

إنّ القارئ الذي لا يستطيع مواجهة مهمة التفكير المنطقي-الديالكتيكي، و يواظب على اكتشاف الصيغ الخطيرة – كلّ خطير كبير يثير فضولنا لتجريب قوتنا و شجاعتنا – و الصعبة و السريعة، و مواجهة الانقسامات الصارمة التي لا تتزعزع من مكانها —— فإنّهُ ببساطة سوف لم يكن

قادراً على فهم نيتشه. كما أنّه سيخفق في تَجْرِبة حركة الديالكتيك الوشيك الحدوث للأشياء التي يطيعها نيتشه و يصغي إليها من كثب، دون أن يعرفها دائماً و يستوعبها (لكنه مع ذلك يعبر عنها بما أنها متأصلة وموروثة في السبب الذي يمثله)، و سوف يفشل أيضاً في أن يطور طبيعته بواسطة استيعاب هذه الحركيات بفعالية كما يحددها نيتشه و يعيها. بل سيكتفي فقط بتأكيد رآيه بنمط جازم مضلل – شيء عموماً، كان نيتشه قريب منه جداً بشكل مقَبُول نتيجة اقتفائه طريقة ثابتة واضحة لا خلاف فيها في التعبير عن نفسه. بل سيجد هذا القارئ نفسه مرتبطاً في صيغة ثابتة و نهائية هي في الواقع لا تمثل عند نيتشه إلاّ خطوة من خطوات تفكيره الديالكتيكي، و يحرف هذه الصياغات التي قدمها نيتشه و يحولها إلى وسائل غوغائيّة و رطانة لهجات غريبة للإقناع أو إلى مقالات صحفية مثيرة رخيصة.

و بسبب افتقاد تفكير نيتشه إلى المنهج، فإنّ ما يتم تجربته في البداية سرعان ما يعاود مراراً الظهور ثانية: المرء يتجه على ما يبدو نحو درب ذي اتِّجاه واحد و غير ديالكتيكي – هذا ما يجب أن يكون عليه الأمر أو ما يجب أن يكون، و لا تهمه النتائج كثيراً. يمكن للمرء أن يكتشف الجوانب العميقة في تفكير نيتشه بواسطة دراسته فلسفيّا (و هذا الأمر يتضمن دائماً السعي الداخلي الدؤوب للنمو العقليّ في التعاطي معه). و لكن كي نفهم هذا العمق و نحتفظ فيه دائماً أمام عيوننا، على المرء، المرة تلو المرة، أنّ يقوض و يقضي على الصياغات العقليّة ذات الاتجاه الواحد المحدود و الضيقة في الفهم، التي كان نيتشه قد ميزها فعلاً في تفكيره و لكنه مع ذلك أخفق في مراجعتها و تدقيقها و التحقق منها.

ساهم افتقاد التفكير النيتشوي إلى المنهج الفلسفي، كما يبدو على السطح، و وضح في جعل صياغاته المفهومية متوفرة. كما وضح أيضاً بقدر ما تكون أفكار بارزة و منتشرة على نطاق واسع بقدر ما تكون عرضه بسهولة إلى سوء الفهم. بيد أنّ فلسفة نيتشه، شأنها شأن فلسفات المفكرين الآخرين، من النادر و الصعب فهمها و أن تضع أصبعك عليها.

(2) نقد المضامين. — في المكانة الثانية، يمكن للنقد عند نيتشه أن يتعاطى مع ما تم تأكيده و الإشارة إليه و تشخيصه من أخطاء للواقع. صحيح، إنّ نيتشه عبرَ عن تأكيده غير المشروط للعلم الحقيقي، لاسيَّما حين، أفصح على سبيل المثال عن ((اعتقاده بالمنفعة السامية للعلم و العارف))، لكنه طالبَ، في نفس الوقت، ((باحترام أكثر و أكبر للعارف و ذكائه))، أو حين كان لا يكف عن

المطالبة في ((أنّ نكون متعلمين مجتهدين و مكتشفي لكلّ شيء في العالم يتبع القانون و يسير بمقتضاه)) و ذلك كي نكون أنفسنا على حق و لا نسمح بالزَّيف: نحن وحدنا المسؤول عن إعادة خلق أنفسنا – يأتي يوم يعود فيه الكائن الحقيقي إلى الظهور و يتعرى الزمن ببطء من جميع ملابسه المستعارة. و إذا كان الآخر شغف بهذه الزينة فإنّه لم يضم إلى قلبه سوى حلية مهجورة، سوى ذكرى، سوى حداد و يأس. غير أنّ نيتشه، و مع كلّ ذلك، كان يعرف أنّهُ يفتقر إلى المعرفة و المنهج العلمي كضوابط مزعجة و ضرورية: ((كم أنا شخص جاهل في العلوم! و بحاجة أن أتعلم الشيء الكثير عنها)) (من رسالة إلى أوفربيك، أيلول، 1881). و في مناسبة أخرى، يقول: ((أنا في حاجة ماسة لتعلم شيء ما، علم ما، و أن أعثر على المكان الذي يمكن لي شخصياً أن أتعلم فيه حقاً — ينبغي أن أسمح لنفسي أن تمر في التَجارِب التي تفرضها عليّ و تتطلبها أعضائي و حواسي التعيسة و البائسة، رأسي و عيوني)) (من رسالة إلى جاست، 30 آذار، 1881). بشكل مكرر، كان نيتشه يريد أن يستأنف دراسته للعلوم في الجامعات، لكنه كان مجبراً أنّ يشبع هذه الحاجة بواسطة قراءة الكتب حول العلوم الطبيعية و التاريخ الثقافي للإنسانية لظروف خارجة عن إرادته يطول شرحها.

هذا النقص، الذي فُرض عليه بواسطة تاريخ الزَّيف الطويل الممتد الذي وجده أمامه، لم يكن تأثيره كبير على تفكير نيتشه الفلسفي. إلى جانب هذا، حين يتحدث نيتشه عن الأشياء المرتبطة بالميثودولوجيّا العلمية، و يحاول إيصال و إبلاغ بعض الأفكار التي بحاجة أن يعبر عنها بواسطة نمط و طراز علمي في خطوطها العامة، فإنّ بصيرته و معرفة العميقة كانت حقاً نافذة و غالبا ما مكنته من اشتقاق و الوصول إلى نتائج فريدة و استثنائيّة بواسطة جملة لابأس بها من المعطيات (هذا يشمل حتى على مستوى تعاطيه مع بعض مشكلات الطبيعة). و ربما ينبغي أنّ نضيف هنا أنّ معرفة نيتشه لم تكن مقيدة فقط إلاّ حين تُقاس بهدف و مجال الموضوع الذي يكتب عنه.

مازال يقتضي الأمر منا، حين نحاول أنّ ندرس فلسفة نيتشه، أنّ نأخذ بعين الاعتبار و نضع نصب أعيننا جميع النظم و المحددات و قيود المعرفة لدية و المواقع التي ينطلق منها. على سبيل المثال، بواسطة الانشغال في حِقْبَة الشباب بدراسة اللغة و النُصوص القديمة، و ممارسة أولى تمريناته على الكتابة الفلسفيّة، اكتسب نيتشه معرفة و تَجْرِبة عظيمة مع موضوع الفيلولوجّيا [فقة اللغة] كمنهج علمي رصين، كما استوعب الكثير من الأفكار الغنية التي تضيء الطبيعة الإنسانية و

حقيقتها. ما كان ينقص نيتشه حقاً، و كان الشاب يشعر بذلك بقوة، هو معرفة أساسية عن الأمور التي تكون مفتوحة و معروضة على بساط البحث و التحقيق و الاستقصاء السببي – بالإضافة إلى المعرفة في موضوعات القانون، اللأهوت/ الثيولوجيا، و بحث و قراءة نَقديَّة مستقصية تنفذ إلى الجذور لتاريخ العالم.

لم يكن نيتشه دائماً يميل إلى الاعتراف بهذا النقص و الحاجة إلى المعرفة في الأمور التي ذكرها و أكدها آنفا – و هذا يظهر جلياً بواسطة أقوال نيتشه الواثقة من نفسها في السنين اللاحقة من حياته: ((ليس هنا أسوء من جهلي الذي لا إبَذَلَ جهداً في إخفائه عن نفسي. هناك أوقات أشعر فيها بالعار من هذا الحال، المثير للاهتمام حقاً، و لكن لنكون أكثر وضوحا، في أوقات أخرى، أشعر بالعار من شعوري بالعار نفسه. ربما، نحن الفلاسفة المعاصرين، كليًّا و بلا استثناء، لدينا موقف سلبيّ و مناوئ فيمَا يتعلق بالمعرفة.... مهمتنا، و تبقى الأهم و الأولى، هو أنّ لا نكون مشوشين و مضطربين و مرتبكين حيال أنفسنا و أن نكون أكثر شفافية. نحن نختلف عن معشر الباحثين، مع أنّنا لا ننكر، بالإضافة إلى أشياء أخرى، أننا أيضاً باحثون)).

ليس هناك حاجة إلى القول، حين يكتب نيتشه عن الأشياء التي تتطلب البحث و الاستقصاء ضمن العالم – و بضمنها نتائج البيولوجيا و ضغطها على الشأن التاريخيّ، السوسيولوجيا، الطبيعة...إلخ – يخلق بالقارئ ألّا يقبل أقواله دون عين نَقديَّة فاحصة لها. كان ميل نيتشه يدفعه بعض الأحيان إلى استخدام صيغة المعرفة الميثودولوجية كُلَّما سنحت له الظروف و الفرصة. و لكن يقتضي الأمر أن نوجه الاعتراض ضِدّ نيتشه حينما تقود أحكامه المفاجئة القارئ إلى أخذ ما كان مقصوداً أن يكون مجرد شيء تجريبي على محمل الجدّ و كشيء نهائي قاطع. بعبارة أخرى، فقط معرفة البايلوجيا يمكن أن تضع المفاهيم الطبيعة عند نيتشه في سياقاتها المناسبة و الصحيحة، و فقط المعرفة الدقيقة و العميقة المنهجية السوسيولوجية قادرة أن تكون ملائمة لاختبار و امتحان استنتاجاته السوسيولوجية النهائية التي توصل إليها بعد بحث شاق.

(3) النقد الوجودي — و أخيراً، يمكن للنقد، كأداة تسعى لخلق ظروف أكثر تلاؤماً و توافقا مع ما هو إنساني في هذا العالم، أنّ يُستخدم لغرض تأويل وجود نيتشه كما تفصح عن ذلك مؤلفاّته، كتبه، رسائله، و مسارات حياته و محطاتها المهمة. بالتأكيد، ليس وجود نيتشه موضوعاً قابلاً للمعرفة، ثم أن التأويل الوجودي (التأويل هنا بوصفه نوعاً من أنواع النقد) ليس تعبيراً عن المعرفة

حول شخص الآخر. بل أنّهُ بالأحرى يعبر عن موقف تواصلي صريح للمفسر – و هذا الموقف يعتمد و يعول في المقام الأول و تماماً على قدرات المفسر و العيوب و النَقَائِص التي يعانيها بقدر ما يعتمد و يعول على الوجود الحقيقي للموضوع المراد بحثه و تفسيره.

و بينما هذا النوع من النقد أعلاه لا يتمتع بصَلاحِيَة كُلّية، فإنّه يظل مع ذلك أساسياً، و يمكن أن يقود، حين يتم تطبيقه بجدية عميقة، و يسفر عن نتيجة ربما تكون أحاديّة لكنها في غاية الأهمية. في هذه الحالة، و بهذا الاعتبار، يفشل النقد في تشكيل ملامح غرابة عدم فهم نيتشه. في مسألة التعاطي مع وجود نيتشه نقدياً، يصطدم المرء بلاشك بجملة من الحقائق الجزئية المنحازة، ينبغي لا تؤخذ معانيها الأحادية على محمل الجد، و إمكانات لا يمكن أن تكون معقولة و جديرة بالتصديق. و إذا لم يصب المرء بالعمى و يغفل عن رؤية نيتشه الحقيقي، و يكتفي بالتصريح أنّهُ مجرد نموذج من العدم ميؤوس منه، فإنه سيرى فيه حقاً شخصاً استثنائياً اخضع بلا تردد كلّ شي، و بضمنها نفسه، للسّؤال و النقد.

ينبغي لنا أنّ نفحص، و نبطل إذا اقتضى الأمر، أنواع عدّة من الانتقادات الوجودية المنبثقة دائماً و ألّا نهمل أو نتغاضى عن حقيقة أنّ نمط تفكير نيتشه في الظهور يسمح أحيانا في انبثاق بعض من التأويلات الكُلّية أو الجزئية التي ليس لها صلة من بعيد أو قريب بفلسفته. هذه التأويلات تماماً استبداديّة و اعتباطيّة أو عرضية حتى في طبيعتها. لا يمكن النظر إلى نيتشه، و فهم تفكيره، إلاّ بواسطة وجهة نظر رفيعة و أكثر سموا من هذه التأويلات الاعتباطيّة والعرضيَّة، لأن نيتشه يعيش و يفكر فقط حين تحركه دوافع إبداعية ملهمة نبيلة لرؤى سامية و رفيعة لمهمة في ذهنه يفرضها عليه تفكيره بأمانه و صدق. و حين يصبح حضور هذه المهمة مشكوكاً فيه و غير يقيني و مغطى و مطموساً و غير واضح له، فإنّ النقد الوجودي لدية، الذي يعبر عن نفسه بواسطة مصطلحات سيكولوجية، يتحول إلى وهم متطفل غير ذي جدوى. يعيش نيتشه و يتحرك في ميدان متطرف من المعاناة و الألم لم يفارقه قطاً. و هذا السبب الذي يكمن وراء الحضور الدائم لسلاح النقد و السّؤال الذي لا قعر له في تفكيره و في عدته الفلسفيّة. و في النهاية، كل أنواع الانتقادات الوجودية تصبح زائفة و غير حقيقية. وإذا لم يكن هذا هو الحال، وإذا كان إنكار وجود نيتشه لا ينتج سمة خضوعه للسّؤال و النقد، فإنّ أيّ أحد يقبل بهذا الإنكار سيجد طبيعته مريضة، و لا يحتاج إطلاقاً إلى دراسة نيتشه فلسفيا.

دعنا نبدأ، علينا أنّ نقوم أولا بفحص النقد الخاص لوجود نيتشه كي نبين أنّه و بالرغم من تعدديته و تنوعه إلاّ أنّه غير صحيح. أما الخطوة الثانية، ينبغي أنّ نشيد أبنية ترتبط بوجود نيتشه كليًّا، مع وجهة نظر تبين كيف أخفقت هذه الأبنية مهما تكن في التعبير عن إنسانية نيشة المفرطة كليًّا.

تعرض نيتشه إلى لوم و توبيخ كثير بسبب طبيعته الشخصية التي تميل إلى العزلة و ابتعاده عن الناس و أخذه دائماً مسافة منهم (Volksfremdheit). كانت أعماله مليئة بالتمجيد و الإطراء إلى الشخصيات العظيمة، أصحاب الخطايا و الضمائر القلقة، مقابل الذم و الانتقاد لجموع العامة الكثيرة و الرعاع المفرطة في كثرتها جداً – الجماهير يا لها من كلمة. لكن الاعتماد على الكلمات، بهذا الصدد، عمل مخادع.

التعبيرات الآتية، التي صححها نيتشه وقوم ركاكتها البلاغية، بلا شك تؤازر و تؤكد المكانة الفريدة و المطلقة و اللامحدودة التي يتمتع بها الفرد الاستثنائّي عند نيتشه: ((اللا-ذات حالة خواء و فراغ ليس لها أيّ استحقاق أو قيمة تذكر)). ((ينبغي للمرء و خليقاً به أن يقف بثبات و بشجاعة على قدميه)). ((لنقدس الأنا و نبجلها))، ((الأنا المبدعة، المريدة التي ترسي القِيَم)) هي ((المعيار و القيمة و المقياس لكلّ الأشياء)). ((الإرادة هي في أنّ يكون المرء نفسه!)). بيد أنّ هذه الأقوال المذكورة للتو ينبغي أنّ نضعها بالضِدّ أو إزاء الأقوال الآتية: ذات الإنسان ((الأنا الثقيلة الوزن، الجادة و الصُّلْبة)) تقول لنفسها: ((ما الذي يهمني، لا شيء!)). و فيمَا يتعلق بالإنسان، نقرأ ((أننا مجرد براعم صغيرة لا قيمة لها في شجرة قديمة تمتد بجذورها إلى عصور قديمة – العصور التي أصبح بها الفرد ناضجاً إلى حدّ الكمال أيّ حر و تحقق فيها نموذج الإنسان السيد لم تكن أبداً عصور إنسانية؛... الفرد بحد ذاته مجرد وهم.... ينبغي أنّ تضع حدّ لشعور بذاتك فهي ليسا في المحصلة النهائية إلاّ أنا واهمة لا قيمة لها!)).

في الواقع، لم يكن نيتشه من المناصرين لمذهب الشخصية أو المنادين بها – كما لم يدع نفسه تضيع في الكم الهائل الكليّ للأشياء و يكون فريسة لها. إنّ التفرعات الثنائية التي ترافق السّؤال، و التي يقوم السّؤال نفسه بإحداثها، لا يصح تطبيقها على تفكير نيتشه – بل إنّ مثل هذه التفرعات الثنائية غير موجودة أو متضمنه حتى في الأقوال المذكورة آنفاً بشيقها الذي يرفع من قيمة الذات الإنسانية و يحط من قدرها؟ إنّ ((شخصية)) نيتشه كانت مكرسة إلى الأسباب – و كان يُقيم

نفسه و يثمنها فقط من حيث العَلاقة بضرورة الوجود و تكتسب بموجب هذه العَلاقة حصراً تعبيراتها الصادقة. كان الوجود الشخصي، الذي يدور فقط حول نفسه، دائماً غريباً و مهيناً و جدير بالازدراء و النظرة المتعالية و الالتفافة المترفعة له، بالرغم من أنّه ظل واثقا أنّ الأمور المهمة في الحياة تأتي إلى الوجود و تكون فقط بواسطة عمل و فعالية الذوات الإنسانية الأصيلة الواثقة من نفسها.

وفقا لذلك، كل الأقوال الذامة و المحتقرة للجماهير، لجموع العامة و حشودها لا تمثل البديل المساوي للمسافة التي وضعها نيتشه بينه و بين الناس المتجذرة في افتقاده إلى الوجود و الثقة فيهم. كان نيتشه يقصد مراراً ((الناس)) حين يطلق تعبير جموع العامة – فالمسألة هنا لا تتعد الاستخدامات اللفظية المتعارف عليها و المشهورة التي ينبغي ألّا تضللنا. إنّ جوهر الناس الحقيقين و الأصليين – أعني، الناس الذين هم حقيقيون و أصليون و صادقون حقًا، ليس فقط غرباء و غير موجودين و لا يعرفهم نيتشه، بل كان البحث عنهم الموضوع الرئيس و شغله الشاغل الذي يمثل شوقه و حنينه المستمر إلى لقائهم، و الذي يصل الحد فيه أحياناً إلى أن يخدع نيتشه نفسه بهذا الصدد و يضللها. لقد عَانَى نيتشه كثيراً و بعمق، لأن ((ناسنا كانت تفتقد بطريقة مؤلمة إلى الوحدة الثقافية و الوعي)). و بهذا الصدد يقول: ((كيف يمكن للروح الحامية أنّ تقف على قدميها بثبات بين أناس تلاشت و اختفت وحدتهم في التَجْرِبة و غابت عنهم تماماً؟)). بالنسبة إلى نيتشه، ((كانت الطبيعة الغريبة (das Unvolkstümliche) لثقافة النهضة-الجديدة حقيقة حقاً تثير الرعب و الهلع)).

إنّ شخصية نيتشه، التي كان لها ذوق سامي و رفيع في الفلسفة يميز الغث من السمين بتلقائية ناصعة، و المسافة التي كان يضعها بينه و بين الناس، تشهد عليها عدد لا يحصى من الأقوال المنفصلة و نزاعه الدائم مع الآخرين. ينبغي أنّ نعرف و نفهم أيضاً بأيّ معنى من المعاني أو كيف أنّ نيتشه لم يكن له موقف واضح من الإنسانية، حيث أُنتقِّد بشدة و تم لومه عليه، و كيف كان يمني النفس في الوقت ذاته أن يعيش و يتم الإشارة إليه باسم ((الكلّ)) أو ((الناس)) بوصفه الممثل الحقيقي و الأصيل لهم. هاجم نيتشه، في المظهر، و ليس في المضمون، حجم الانحراف و التشوية الذي أصابت لغة عصره على نحو فادح. لن يرفض نيتشه الطبيعة الحقيقة للغة العصر و إمكانيتها المتواصلة، و لكن حجم الزّيف فيها و التشويه الذي مارسته، في نطاق واسع، على الواقع

الحقيقي و تحويله إلى واقع آخر مختلف عن الواقع الحقيقي تماماً – أعني، اللا-واقع. بناءً على ذلك، تمتلك صياغات نيتشه اللغوية بهذا الشأن نزعة فضوليّة في قَلْبِ نفسها و عكس توجهاتها:

كانت رغبة نيتشه في أن ((يضع مسافة بينه و بين الناس)) تعكس رغبته و إرادته للقاء نوع آخر من الناس – الناس الأصيلين و الصادقين الحقيقين: ((الناس الحقيقين، الذين يستحقوا الذكر و الاحترام و التقدير، أولئك الذين يطبعوا الأمور بطابعهم و يتركوا بصمة الأبديّة على تجاربهم التي يخلفوا ورائهم)). ((الناس لا تتميز و تنفرد بمكانتها بواسطة العظمة؛ بل بواسطة الإدراك و مرتبة الشرف)). بالنسبة إلى نيتشه، يشير تعبير الناس إلى الأقلية من السادة، و الذي بسبب و بفعل طبيعتهم الإبداعية الخلاقة، ينتهي بهم الحال إلى أن يكرسوا أنفسهم إلى صياغة القوانين، و كذلك تشكيل المعيار و الموازين (Stufenbau) التي تنبثق بسبب عدم المساواة بين قدرات الناس و اختلافها الذي ينبغي أنّ يؤخذ بعين الاعتبار و يكون العلامة الفارقة و شرط و تأكيد الواحد مقابل الآخر. كان نيتشه يعتقد في شبابه بإنسان المستقبل، مع أنّهُ فيمَا بعد رفض هذا الاعتقاد و لأسباب يطول شرحها، بل حتى بكى و أغرورقت عينه في الدَّموع أخيراً منه بحصرة و يأس – كان يبحث عن ناس المستقبل البعيد الواعدين. كان نيتشه يرى ليس فقط أولئك الذين يتمتعون بصفة القيادة – أولئك الذين لا يريدون أن يسبقوا الآخرين سريعاً و يذهبوا بعيداً إلى الأمام – أعني، الجنود الذين يحفظون أمن السِرّية أو الكتيبة خلال حفر الخنادق، الذين يبقون قريباً من الناس و على تماس مع الوقائع التي ينبغي أن يواجهها الإنسان – الذي يمكن أن تكون لهم عَلاقة بناس المستقبل الواعدين، و لكن أيضاً أولئك الذين يستثمرون بفعالية الإمكانات التي تتوفر لديهم و يسعون بكلّ ما أوتوا من قوة للكشف عن الأشياء التي مازالت غير فعالة أو معروفة أو مطمورة أو مطموسة ضمن الكل و يحولها من القوة إلى الفعل. إنّ الناس، الذين هم أكثر من حشود كرست نفسها للحظة، الذين يعيشون وفق الذكريات الواسعة النطاق للماضي و إمكانات المستقبل، هم وحدهم من يمكن أنّ يهيئوا و يعبدوا الطريق لقدوم أناس المستقبل البعيد الواعدين: ممثلي الأرواح المغامرة، أبطال الأسئلة الوحيدة و مكتشفيها، المجربين الكبار، الواقعيين برسمة تستحق التلوين، المشرعين و المبشرين بالإنسانية الحقيقية، أساتذة الامتحان الكبير و كاشفي النقاب عن أقنعة الزَّيف الذين لا يرحمون. الناس ستجعل من مجي أولئك أمراً ممكناً – و عندما يتم الانتباه اليهم و يدون حقاً بإثارة الاهتمام – و سوف تتسامح معهم و تنبهر فيهم، و لكنهم سوف يتبعون خطواتهم ببطء شديدً و بعد زمن طويل. ربما بعد موتهم بفترة طويلة، سيبدأ الناس بتقليدهم بالطبع مع إجَراءِ التعديلات و سوء الفهم المألوف

المرافق بالعادة لمثل هكذا محاولات. في الواقع، نيتشه مرتبط تماماً مع ناسه و حقيقتهم بغض النظر عن مراراتها. فقط التطابق الذاتي مع الألمان يمكننا من أنّ نفهم كم كان قاسياً، و ربما للمشاهد و الملاحظ العابر، وحشياً، نقدهم للأشياء في وقت نيتشه، الذي لا يختلف كثيراً عن نقدهم للذات.

أن ذم الشخصية، وأخذ مسافة من الناس، هو واحد من مجموع صفات كبيرة إذا طُبقَّت على وجود نيتشه كليًّا، سوف تصل بنا إلى التأكيد أن تفكير نيتشه و وجوده كليًّا سيكون خالياً من الجوهر. من الجيد تَجْرِبة إمكانية البناء النقدي الحرج الذي لا هوادة فيه في هذا النقطة. بهذه الطريقة، هذا الاعتراض أو النقد، تم دفعه إلى مدياته القصوى، و بذلك يكون المرء مُجبراً على أنّ يتخذ قرار على أساس تجربته الوجودية في دراسة نيتشه:

كان تفكير نيتشه، المفتوح على كل فكرة جديدة، يقوم بكلّ ما يلزمه لإنجاز مهمته أو هدفه: ((في حضور أيّ شخص كان هناك المئات من الأسباب التي تدعوك أن تكون حذراً و متأنياً)). و لكن لا أفهم لماذا لا يخضع المرء أمانته إلى حدودها القصوى و يدفع بها إلى مدياتها النهائية حين يكتب. بيد أنّ هذه الأمانة الفكرية مع ذلك سمحت لنيتشه أنّ يكتب عن كلّ ما كان يجربه و يعبر عن كلّ ما كان يحصل له. لم يعد نيتشه واعياً أو مهتماً إلى الحدود أو الضوابط المفروضة بواسطة النقائض، كما عبر أيضاً عن عدم احترامه للقامات الفلسفيّة العظيمة، على سبيل المثال (أصبح كانط له واحداً من ملوك الجبال المنعزلين؛ أما شيلر فهو ليس أكثر من عازف البوق الأخلاقي من زاكينين... إلخ)، و بهذا، تشوهت أفكاره عن الجواهر الروحية و الرجال العظام. إنّ التوتر المتنامي في التعبير، النمو و الزيادة في حكم القيمة الصارمة، و المطالب الغريبة الأطوار، كانت مرتبطة كلها في تفكير نيتشه و تؤدي أما إلى الخداع أو الصد و القتال و المواجهة المفتوحة.

في بواكير عمله الفلسفي، كان نيتشه، المعني بتسريب الذات و لا يستبقي هامشاً سِرّياً لا يبوح به، يعرف ((شيئين سامين و رفيعي الطراز و مهمين، هما: المقياس-المعيار و المعنى))؛ كان في الغالب يعبر عن رفضهما إلى جانب بالطبع رفضه إلى التعصب الفكري. و لكن أصبح من الممكن له رفض المقياس-المعيار، بالرغم من شعور الآلم الذي يعانيه من رفضه له، لاسيَّما في مواجهة القدر الذي لم يكن من خياره: ((المقياس/ المعيار هو شيء في غاية الغرابة، و هو شيء، إذا جاز لنا التعبير، دخيل على الإنسان – علينا أنّ نقبل و نسلم به صاغرين، لأنّه ليس لنا لا حول و لا قوة في حذفه من ذاكرتنا المعرفية. إنّ ما يسبب عدم توازننا و ارتباكنا و زعزعة وجودنا في هذا

العالم المترامي الأطراف هو بدقة شعور اللانهائية و مواجهة الأشياء غير القابلة للقياس و التفلت من أيّ معيار...)) إنّما يطلق عليه نيتشه تعبير (الوجود الحديث) يبدو له أمراً ((هجين صرف خالي من الشوائب.... الهجين بالأحرى هو موقفنا من الله الذي لا يترك من يعتمد عليه – أعني، العنكبوت المزعوم لكلاً من الغاية و الأخلاق الذي يختبئ وراء فخ أو شرك شبكة السببية بوصفها أكثر التفسيرات التي يألفها الإنسان لذلك يلجأ إليها... يعبر الهَجين عن موقفنا من أنفسنا، لأننا نجرب بأنفسنا أنّ نكون متوحشين؛ بيد أنّنا لا نسمح لأيّ أحد يجرب أن يكون وحشاً فظ... كلّما يهمنا هو (خلاص) أرواحنا! في النهاية، نحن لا نهتم إلاّ بأنفسنا: إنّ تكون مريضاً شيئاً مفيداً، منوراً، توجيهياً، و أمراً في غاية الأهمية....)). أخيراً، يبدو نيتشه أنّه يتحدث بلغة المنتصر الظافر: ((نحن معشر اللاأخلاقين – نمثل اليوم القوة الوحيدة التي تحتاج أنّ نتحالف بعضنا مع البعض الآخر. بالتأكيد، سنكون مرة أخرى القوة الأوحد، و سنظفر بالانتصار حتى في ظل غياب الحقيقة. السحر و الفتنة التي تقاتل إلى جانبنا...هي سحر المتطرفين و درجات النقائص القصوى، الإغواء و الإغراء الذي يتحرك و يذهب في كل مكان. نحن معشر اللاأخلاقيين – أكثر الناس تطرفا و نتمتع بأعلى درجات التناقص القصوى)).

السّؤال، الذي يأتي الجواب عنه مبتوراً و غامضاً، هو ما إذا كانت هذه التَجارِب مع التطرف، الإفراط، و لا اعتدال مشتقة من الموافقة على التبذير – الإمكانية المتجذرة وجودياً في كلّ تفكير نيتشه. هذا التأويل يرتبط مع الوظيفة المفروضة على الرجل الاستثنائّي: من مصادر جديدة، يأتي نيتشه إلى الوجود في العالم القديم، و هي الطريقة الوحيدة التي يكتشف بها الزَّيف و الخطأ المختبئ وراء الأشياء الحاضرة المقررة و المقَبُولة و المشهورة التي تبدو واضحة-بذاتها و لا تكون في موضع السّؤال، المفروضة في كل سماتها علينا – حيث يحاول نيتشه أن يتواصل، بطريقة ميؤوسة، مع ما يراه و يحاول جاهدا أن يبلغ و ينقل المعلومات و المصادر الواردة في المراجع عنه المتوفرة لديه. محاصر و مخنوق بشعور الخوف – الذي أقل تعبير منه يوقظ الانتباه – من أنّ يكون قد تجاهله الآخرين أو أساءوا فهمه، كان نيتشه لا يكف عن رفع عقيرته و صوته بصورة حادة للتعبير عن أفكاره الجديدة، و يتبنى أحيانا المرة تلو المرة المواقف العدائية التي يغلب عليها في كثير من الأحوال نزعة الإفراط المخالف للعادة. كلّ هذه الأشياء كانت تشكل علامات تعبر عن عجزه و ضعفه القاتل لمواجهة ظلمة العالم و لا معناه و خلوه من القيمة. يبدو أنّ نيتشه كان ممثلاً للكثير من أنواع التطرف، الواحد بعد الآخر، بالرغم من طبيعته، و الإطار النظريّ لتفكيره، و هدفه الذي ما

انفكّ يبتعد كثيراً عن التطرف أو محاولة التخلص منه. لم يكن بوسع نيتشه بلوغ الحكمة المستقلة المنفصلة و الحذرة الراسخة الممكنة للروح غير-الثورية. و بما أنّ نيتشه لم يكن يخفي أيّ شيء، و يتحدث عن أفكاره بحرية، فإنّ حكمته العميقة – على شاكلة بروميثيوس – أصبحت هجينة. يعبر إفراط نيتشه، و تطرفه في طرح الأفكار و المقاربات الجديدة، عن المهمة المستحيلة التي نجده دائماً و أبداً، و بصورة إرادية أو لا إرادية، عاكف على نفس المهمة التي يعيش مع إنجازها.

في نفس الوقت، حتى التأويل، الذي يخفق في تميز أنّ الطبيعة الاستثنائيّة هي طبيعة منبوذة بطريقة محتمة، يمكن أن يقدم تعليلاً مختلفاً لأصل التطرف و الإفراط عند نيتشه. فكما أنّ مناخه الروحي كان بارد يثير القشعريرة كان أيضاً حماسة متوهجة بالنور لعاطفة صلبة و قاسية في آن واحد (((أنا ضوء: آه، كنت ليلاً!... لكني اغْتَاشَ على ضوئي، أشرب من توهجه الذي يندفع من الينابيع العميقة في داخلي بقوة)))، و كما هو الحال مع المناخ الذي تمتاز به حيويته الفكرية التي تبدو أنّها تفلت من أيّ قيد أو شرط و ليس لها أيّ تعبيرات شهوانية مغرية – كذلك هو حال الحضور المتواصل للحُبّ لديه لا يمكن أن يتبدى أو يأخذ صورة تاريخية صلبة و ملموسة كأساس لوجوده – بل بالأحرى صورة يُتاح لها أنّ تتركب تدريجياً و تتحقق باستمرار بواسطة صدق المشاعر.

و لكن حين يتوقف الأساسّ الوطيد الراسخ للواقع التاريخي الحي عن الكلام و يسكت أو لم يعد قادراً على التعبير عن نفسه – تصبح حينها كل قيمة إنسانية، و كل فرد مشكوكاً فيها تماماً في نظر نيتشه. حينها يعبر الإفراط عن خراب الوجود المحدد. حين تستأصل قيود و أحكام نيتشه الصادمة الاعتدال، الذي كان يريده بقوة من قبل، فإنّ تردده و خجله المتحفظ سرعان ما يتلاشى و ينقشع. بالتأكيد، نيتشه يحيط نفسه، بلا تحفظ، بترس الديالكتيك و الجدل-السجالي بواسطة العيش بواسطته بدلاً من التفكير ببساطة بواسطته فحسب. لكن الجدية الصارمة و الأمانة الفكرية التي يتسم بها وجوده، و التي تخترقه من الرأس إلى أخمص القدمين، يبدو أنّها كانت تستهلكه و تؤثر فيه وجودياً بصورة سيئة.

نمت حاسة الجدية عند نيتشه، بتؤدة و سَعَة بال، و زادت في قوتها، من جَراءِ احتكاكه و قربه الدائم من تفاصيل العالم الواقعي. بيد إنّهُ سرعان ما بدأ، بالتدريج و بصورة متزايدة، يبتعد عن هذا العالم، و بدأ مجبراً بالتفكير بدلاً عنه في عالم من الوجود قريباً إلى الخيال منه إلى الواقع الصارم. فتجربته الفكريّة تبدو كما لو أنّها مكرسة تماماً لغرض المعرفة فقط – كان نيتشه على ما

يبدو يرى الحاضر و المستقبل بواسطة نمط حالم مُمتلِئ بالرؤيا الذي لا تمد إلى هذا العالم الواقعي بأيّ صلة، مفضلاً الابتعاد عن التماهي و التطابق مع أيّ واقعة من الوقائع التاريخية التي تحيط به. يمكن اعتبار هذا أو يرمز إليه بواسطة ((المبدأ)) الذي اعتقد فيه بقوة راسخة حينما كان تلميذاً ينتمي إلى جميعة الأخوة الفلسفيّة و حضر فيها جلستين فقط: ((في القيام بذلك، فإنّي انتهك، عن سبق إصرار و ترصد، مبدئي في تكريس نفسي تماماً إلى الأشياء و البشر كي أكون مطلعاً عليهم و عارفاً بهم و بطبائعهم و أحوالهم)) (من رسالة إلى موشاك، آب، 1865). إنّ ما يثير الارتباك هنا حقاً هو أن نيتشه لم يكن راضياً و مكتفياً فقط بالملاحظات و المتعة الجمالية، بل بدلاً عن ذلك عانى الرجل الأمريْن إلى درجة بلغت هذه المعاناة درجة اليأس و القنوط، دون أن يعثر على أرضية صلبة أو مرسى أمين يضع قدمية بثبات عليه. لم يكن نيتشه يتطابق بالمرة أو يتماهى أو يتاقلم مع أيّ شخص آخر، أو مهنة، أو مع البلد الذي يعيش فيه – كان الرجل وحيداً تماماً منغمسنا من رأسه إلى أخمص قدميه في عمله و كتبه و أفكاره.

إذا ما حاول المرء – الذي لا يعرف مَنْ يراقبه؟ – أنّ يكتشف أفكار نيتشه و بناءتها، كتلك المذكورة آنفا، و يميز كم يعرف نيتشه حقاً عن هذه الأبنية و الأعْمِدة الأساسيّة و مستتبعاتها، سيبين، إذا طُبّق بصرامة، أنّه كان جاهلاً تماماً – بكمال الوجود التاريخي – و حينها سينبثق السّؤال الآتي: هل كان النقص الذي يعانيه وجوده مرده إلى الجدة و الفرادة و الندرة التي نلتمسها في شخصية نيتشه الجديدة غير المألوفة التي تحاول أن تكرس نفسها للإنسانية كليًّا دون أن تكون هي؟ هل من الممكن أن تكون وجهة نظر نيتشه الجديدة، التي ينكر فيها نفسه، تزوده بمنظور و وَسْط من المعارف التي تتوفر على قيمة غير قابلة للمقارنة مع قيمنا جميعا و بوسعه الركون إليها. ربما تكون هذه المعارف و الرؤى العميقة، التي يتوفر عليها تفكير نيتشه، تمس بوضوح و بشكل قاطع الإمكانات الوجودية الحقيقية للإنسان لأنّها بالضبط ذات عَلاقة وثيقة في الوجود الذي لا يمنح للمرء الذي يضئها بطريقة مفروغة منها —— الاستثناء الوجودي و وعيه لهذه الواقعة الذي ينبثق من مستوى أخر. في هذه الحالة، تقوم عظمة نيتشه و ترتكز على الوعي في العدم، الذي يمكنه أن يتحدث بوضوح و عاطفة متحمسة عن الآخر – الوجود – و أنّ يعرفه بطريقة أفضل من أولئك الذين ربما يشتركون فيه دون أن يكونوا متأكدين منه، و نتيجة لذلك يبقى غير ممفصل و عاجزين عن التعبير عنه. حينذاك، فإنّ ابتعاد نيتشه عن الواقع، نبذه و طرحه بعيداً، و عاطفته و سعية الحثيث نحو المعرفة، يبدو أنّه متشابه و يرتبط الواحد منها بقوة مع الآخر. و على وجه الخصوص

أهمية و مدلولية التواصل و الرابطة مع جاره – أعني، مع الأصدقاء، الذين يكون الحكم بينهم أحياناً شديد القسوة، مع القادة الضباط في الجيش، مع زملائه في العمل، مع الناس الذين يعيش معهم، و الذي غدى واضحاً لنيتشه أنّها نتاج وجوده الذي كان مجرد تماماً من كلّ شيء.

ينبغي للمرء أنّ يتأمل و يطيل النظر في أفكار نيتشه، الذي يحمل ثقل العالم على كتفيه، و تمفصلاتها البنائية بعمق كي يفهم الإمكانات الهائلة التي تتوفر عليها، و أنّ يتحقق، بدائرة تتسع أو تضيق حسب ما تقتضيه ظروف البحث، ما إذا كانت هذه الأفكار معقولة و موثوق فيها أم لا. إنّ الصدمة المفاجئة للفراغ و الهوة التي يمكن أن يتعرض لها الباحث في فلسفة نيتشه أو يسقط فيها، و لاسيَّما حين يتوقع بطريقة خاطئة أو مبالغ فيها الكثير الذي يمكن أنّ تعطيه هذه الفلسفة – أعني، حصول الكمال الإيجابّي – الذي هو التوسع الخارق لشعور الإنسان بالقوة، هو الثروة و الوفرة التي تفيض الكاس حتما – بدلاً من هواجس التحريض، التحدي، و الأسئلة الشائكة – ربما تجعل هذه الأفكار و تمفصلاتها البنائية المهيبة و شائكات الأسئلة التي تثيرها مقنعة تماماً. و لكن حين نحاول أن نأخذها و نتأمل و نطيل النظر بها بحد ذاتها، نجد أنّها لا تطاق و لا يمكن الدفاع عنها: الادِّعاء و الزعم أن نيتشه فيلسوف خالي من الوجود، يقصد من وراء ذلك القول أنّ أفكارهُ لا تقدم سوى الوجود الوهمي للإمكانية الفارغة. بمعنى، كُلَّما حاولت هذه الأفكار أنّ تبين بشكل موضوعي ملموس شيء موجود في طبيعته، فإنّه سرعان ما يبرهن نيتشه تماماً على العكس. ليس هناك فيلسوف على وجه هذه الأرض على وعي و دراية تامة و يشعر بقلق عميق، من رأسه إلى أخمص قدميه، للدفاع عن التواضع و الحذر مثل نيتشه المتطرف – و ليس هناك واحد لديه مفهوم كافي و رصين عن التواصل و اللاتواصل مثل نيتشه؛ ليس هناك واحد يكره التسويات و إلغاء الاختلافات و التناقضات و الهَرميَّة و أشكال التراتبية و الفوارق كما كان نيتشه يفعل في مهمته الفلسفيّة و يقدرها في نفس الوقت. ليس هناك فيلسوف واحد جعل حياة المعرفة كلها موضع السّؤال و النقد و بطريقة قاسية و حادّة كما فعل نيتشه، إلى درجة إنّه كان لا يتردد عن التضحية بحياته كلها من أجل المعرفة. كان تطرفه الفكري، الذي يخضعه مثل كلّ شيء أخر للسّؤال، يمثل القدر و ليس الموقع الثابت الإرادي المفترض. حين مضى في البحث عن الحدود التي يكون فيها كمال الوجود مفقوداً، وصف نيتشه نفسه بصدق إنّهُ ليس أكثر من مهرج مضحك. في الضِدّ من ملاحظة إنّهُ رجل يفتقر إلى الحب، يقف قوله، الرهيب الآتي الذي لا يمكن تحديده: ((ليس هناك حب عظيم يبحث عن الحب و يسعى إليه ـــ بل إنّهُ بالأحرى يبحث عن شي أكثر من الحب بكثير))، فضلاً على ذلك، يبدو أنّ

العكس أو تغير الاتجاه يمكن أنّ يجعل كل شيء موضوع السّؤال: ((ما الذي يعرفه الإنسان حقاً عن الحب حينما لا يحتقر بالضبط ما يحب؟)) كل ما قاله نيتشه من أفكار بناءة يجب أن نأخذه بعين الاعتبار، ليس فقط بواسطة السياقات التي ظهرت بها هذه الأفكار فحسب، بل ضمن تفكيره كليًّا أيضاً.

و لكن في نفس الوقت، إنّ البناء الكلي لفلسفة نيتشه كوحدة واحدة ليس متوفراً أو في متناولنا. أي محاولة تبغي الوصول إلى تعليل نهائي و شامل لفلسفة نيتشه هي محاولة أقل ما يقال عنها حمقاء و فرضية طائشة و متهورة – فهو لم ينبثق من تلقاء نفسه (propria persona) كشخصية مكتفية-بذاتها لا يرقى إليها الشك الذي يضيء كل الاطمِئنان. أيّ فكرة نعثر عليها في فلسفة نيتشه الحقيقي، تصبح مع مرور الوقت أكثر غموضا كُلَّما حاولنا أنّ نتعرف عن وجوهها المتعددة بالتفصيل. بينما أيّ محاولة تحاول تقليد نيتشه، و محاكاته في مذاهبه الفلسفيّة المختلف عليها و المشكوك فيه، لن تسفر عن شيء بتاتا، و سيتم إدانتها كنتيجة لبنيتها المنطقية المكشوفة و سيكون مصيرها الفشل – و ذلك لأن كل أفكار نيتشه تمتزج بشيء عظيم و كبير جدا قلما نستطيع أن نمسك به و نفهمه أو نضع أصبعنا عليه. يظل نيتشه، كفيلسوف، يمثل استثناء تاريخي، و بالرغم من كل أفكارة المدهشة، المنحرفة و الضالة، يكسب دعواه الفلسفيّة بثقة، و يسترد نفسه من ضياعها، كما يكافئ بلا تردد أولئك الذين ينغمسون بعمق في تفكيره – أولئك الذي يفكرون معه.

هناك بعض من الفلاسفة تبدو أقوالهم مترابطة بعضها مع البعض الآخر حينما يصل القارئ إلى فهم أفضل لها حيث الكلّ يقوم على ما يبدو على أساسّ صلد. في حين تبدو أقوال البعض الآخر منهم يحفز و يغري القارئ لكنه يجعله في النهاية ضحية للفراغ الذي لا يقدم إلاّ العدم و اللا شيء. بينما هناك أقوال فلاسفة آخرين لا هي بالتي تقود إلى أساس صلد و لا تجعل القارئ ضحية الفراغ و اللاشي؛ بل يقدمون عمق يكشف عن فضاء لا حدود له، فهم يستمرون في التقدم بلا حدود آخذين بيد القارئ بثقة دون أن يجعلوه يترنح أو يتمايل. كل هذه السمات الثلاث الذي ذكرناها أعلاه يبدو متوفرة عند نيتشه: حين يصبح المفهوم فجأة مسطحاً و سهلاً و مستوياً و قديماً و مبتذلاً و واهناً فإنّ الأساس ينهار و تظهر النهاية – و بهذا يتمدد عدمه و أفقه الفارغ بلا حدود و يجعلنا نفقد الأساسّ الذي نقف عليه؛ فنيتشه يبلغ مستوى الإبداع التأملي الفلسفي بواسطة الاستعداد للمناسب و البَدْء من جديد. و لكن يبقى لديه، بغض النظر عن ذلك، مجال تفكيره و طريقة تفلسفه الجديده.

و لا واحد من الانتقادات الموجهة إلى نيتشه – و التي من المستحسن أن نجلو بعض الأحداث عنها ليتاح لنا الكفاح ضِدّها – و أسرفنا في عرضها قد بلغ جوهر فلسفة نيتشه الحقيقي و أمسك به: كلّ نقد من هذه الانتقادات قد أضاء حجم الصعوبات و كثرة المتطلبات البارعة التي تتوفر عليها و تقتضيها مهمة الاقتراب من هذا الفيلسوف و محاولة فهمه. إنّ محاولة رفض حججه، الإشارة بأصابع الاتّهام إلى الأخطاء الواقعية التي ارتكبها، إخضاع وجوده و جعله موضع السّؤال بواسطة التفكير التأمّلي و بناءته – تعد بحق محاولة غير كافية بالمرة: مع هذا الفيلسوف، دائماً هناك شيء لا يمكن دحضه و رفضه و لا تستطيع أن تضع أصبعك عليه – و لو بشكل غير مباشر– و يتم إضاءته و توضيحه في فلسفته بواسطة النقد، الذي يكشف عن الصورة الحقيقة، و يؤكد نفسه مجدداً. حينما يشارف النقد على النهاية، يجب أنّ يتم المباشرة بمهمة تأويل نيتشه مرة أخرى، المرة تلو المرة. أخيراً، كي نبلغ و نصل إلى وجهة نظر شاملة عن تفكير نيتشه، و نرى بواسطة القوة الفاعلة و العاملة لتفلسفه، علينا أنّ نبدأ بدراسة أكثر مواقع نيتشه الفلسفيّة تأثيراً و سطوة – أعني، إرادة هذا العالم المحضة (يطلق عليه الأكاديميون تعبيراً ((وجهة نظر تأصيل الحضور لنيتشه))؛ منتقدي نيتشه بالمناسبة يشيرون إلى هذا التعبير بوصفه ((الإلحاد-عالم بلا إله))؛ بينما هو نفسه يعرف، بواسطة هذا التعبير، المنعطفات التاريخية الخطيرة الحاضرة، و بهذا يطبق الصيغة الفلسفيّة الجديدة: ((لقد مات الله)). الخطوة القادمة، علينا أنّ نتناول بالبحث طريقته الجديدة في التفلسف؛ و أخيراً، علينا أن نتأمل و نطيل النظر في إمكانية استيعاب و تمثل ما سيقوله.

إرادة وعي العالم المحضة

يبدو أنّ الأفكار الأساسية لنيتشه و المقومات التأسيسية لهذة المقاربة، فيمَا يتعلق بعملية قَلْبِ كل القيم، لديها مصدر واحد: سقوط كلّ النتائج التي تعدّ ثمينة مرة واحدة، و انهيارها منظومتها الفكرية، بفعل الإعلان عن موت الله. بناءً على ذلك، إنّ ما كان يمثل موضوعاً قوياً للإيمان لا يتزعزع غدا الآن مجرد وهم و لغط (– و إن عملية الكشف عن الوهم تبوح بحجم الكارثة و الخراب الوشيك الذي سيحل بنا). إنّ الإيمان (Glaube) في الله هو مصدر الطريق، طبقاً إلى نيتشه، الذي يقود تاريخياً إلى انحِدار تدريجي لمكانة الإنسان – و إنّ انهيار هذا الإيمان يصبح حتى بمنزلة المصدر و السبب غير المباشر للكارثة الحاضرة.

بيد أنّ تفكير نيتشه، في هذه الجزئية، يركز على الوجود الأصيل للإنسان، الذي ينال حريته أخيراً بعد حدوث الكارثة، و يبدأ بالتحرر شيئاً فشيئاً من أوهام الإيمان الديني؛ و نتيجة لذلك، يصبح أكثر قوة مما كان عليه سابقاً. يعتبر نيتشه موت الله بمثابة حادثة مفزعة و مروعة، لكنه مع ذلك يعقد العزم على إرساء دعائم عالم خالي من الإله، إرادة لا تضع حدّ لإرادة الإنسان بل تنظم فوضى الإرادات الإنسانية و صراعها الذي يمكن أن يفضي بالبشرية إلى الهاوية – إنّه لا يريد بشراً ورثة علاج سيئ مُورِسَ عليهم عبر آلاف السنين. و لما كان نيتشه يسعى بقوة إلى إرساء دعائم مستوى عالي و رفيع الطراز من الإنسانية لا يمكن أن يتحقق على أرض الواقع بيسر، فإنّه عقد العزم على أنّ يطور في التفكير إرادة وعي العالم المحضة. هذه المحاولة، التي ينوي نيتشه القيام بها، لا تعد واحدة من المبادئ الأساسيّة (Grundgedanke) الأخرى: إنّها، بالأحرى، نزعة حاكمة؛ إنّها، كما لو كانت، مبدأ المبادئ – المبدأ الذي تخضع له كلّ المبادئ الأخرى و تدين له بالولاء. لقد تم التأكيد على هذا المبدأ في كلّ فصل كتبه نيتشه، و ينبغي أن يتم النظر إليه و فحصه و تأويله بوصفه الناظم الفكري في العَلاقة بتفكيره كليًّا و جسد واحد متكامل.

كيف طرح نيتشه عالمه الخالي من الإله –— الإيمان في الله يعادل عند نيتشه رؤية الله بنفسه، الحَطّ من قدر العالم و التشهير فيه[91]، البحث عن الحياة الكاملة الخالي من النقص و الهروب من هذا العالم الظاهري و التخلي عنه و هجرانه، و وضع المهام الشاقة المستحيل تحقيقها فيه. و لكننا مطالبين أن نفهم أن هذه المهام الشاقة ممكن تحقيقها في هذا العالم الذي نعيشه الآن و هنا. يكمن مصدر الممكن و حدوده في الإرادة الإبداعية الخلاقة وحدها هنا في هذا العالم. يطالب زرادشت – الشخصية الرئيسة في نصّ ((هكذا تكلّم زرادشت)) – أن تقتصر كل الأمور المتخيلة على حدود هذا العالم و لا يفكر الإنسان في الذَّهاب بعيداً في مهمة خائبة إلى عالم ماورائي يسميه عالم حقيقي بالضِدّ من العالم الظاهري: ((الله هو فرضية؛ و لا أريد لهذه الفرضية أن تذهب أبعد من حدود إرادتك الإبداعية الخلاقة أو ما ورائها... أريد هذه الإرادة، في جحيمها و اضطرارها الكريه، أن ترسم حدودها وفق ما يتم التفكير فيه في حدود هذا العالم الملموس الذي نعيش فيه حقاً... فلا الميدان المتخيل الذي لا يمكن تصوره و تصديقه، و لا الميدان غير المعقول، ينبغي أن يكون منزلك/ بيتك)). و بهذا الاعتبار، يشكل الله، من وجهة نظر نيتشه، خطراً كبيراً على الإنسان، و علية ينبغي أنّ يموت. و بما أنّ الله ((وهم مضلل من صنيعة الإنسان))، فإنّهُ سيشكل اعتراضاً كبيراً ضِدّ الوجود. هذا الوهم لا يعيق الإنسان و يقف حجر عثرة في طريق ما يريد إنجازه فحسب؛ بل أنّ

وجوده يصبح أيضاً أمراً لا يطاق بالنسبة للإنسان المبدع و الخلاق: ((إذا كان هناك العديد من الإلهة الموجودة بيننا، فكيف أتحمل ألّا أكون إلها مثلهم أو واحداً منهم؟ و بهذا الاعتبار، لا يوجد هناك إله، بل إنّه أمر من نسج الخيال)).

مع أنّ تفكير نيتشه كان يصبو في المقام الأول إلى تحقيق و تَرْجَمَة الإمكانات القصوى عند الإنسان، و نقلها من عالم القوة إلى عالم الفعل، دون الحاجة إلى الله أو تدخله، إلاّ أن نيتشه ذاته و دون أن يكون واعياً لهذه الحقيقة قد أكد مرارا أنّ الإنسان بتناهيه و بحدوده المقيدة و طبيعته المرسومة لا يمكن أنّ ينجز إمكانيته و يحولها إلى وقائع ملموسة تشهد على وجوده دون اللجوء إلى العالم الترسندالي المتعالي و طلب العون منه. إنّ عملية سلب العالم الترسندالي المتعالي، و محاولة طمسه عند نيتشه، تشير في الوقت ذاته إلى ظهوره المتجدد. يظهر هذا العالم الترسندالي إلى التفكير في هيئة بناءات و صروح زائفة من البدائل، كما يظهر لا محالة إلى الذات الأصيلة، و لاسيَّما في مواجهتها المحطمة غير المفهومة لهذا العالم و وضعها من قبلها في تضاد مع العالم الزائف. سببَ نبل نيتشه و أمانته الفكرية، في محاولة خلقه عالم دون إله، و أحدث الكثير من الحَيْرَة و الاضطراب وقضَ فعلا مضاجع الكثيرين؛ فمن جهة، نكتشف أن هذه المحاولة تمثل أكبر عملية تزيف يقوم بها التفكير و أكبر خروج معارض و قطيعة في تاريخ الفلسفة الغربية؛ و من جهة أخرى، تمثل بحق المواجهة الحقيقة للعالم الظاهري الملموس مع العالم الترسندالي. كلا الخيارين، التي ذكرنهما للتو، ينبغي أنّ يتم نتناولها بالفحص والتمحيص و التحليل الدقيق.

البديل إلى الترسندالي عند نيتشه و كيف أخفق في مهمته ـــ يكون المرء حقاً نفسه فقط حين يعيش في عَلاقة بالترسندالي. يمثل الترسندالي نوع من الظهور في الوجود بواسطته فحسب بوسع الإنسان أن يواجه كلاً من طبيعة الوجود و ذاته معًا. الضرورة أمراً لا مهرب أو مفر منه: حين يحاول المرء أنّ ينكر وجودها سرعان ما تظهر الكثير من البدائل المزيفة لتحل محلها. لقد قرر نيتشه و عقد العزم طواعية أن يعيش دون الله أو رفض طلب العون منه، بما أنّ الأمانة الفكرية تتطلب منه و تفرض عليه حقيقة أنّ العيش مع الله يتضمن من بين ما يتضمن حقيقة خداع-النفس المؤلمة. و كما أنّ فقدانه و عجزه عن التواصل مع الناس من حوله، أجبره أن يقيم عَلاقة وطيدة من شخصيته المبتكرة و المخترعة زرادشت، كذلك هو الحال مع مسألة إنكاره لوجود الله أجبره على البحث عن بديل مناسب و واقعي. ينبغي أنّ نرى كيف حدث هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً.

يخبرنا المذهب الميتافيزيقيّ لنيتشه عن الوجود و ما هو بحد ذاته، حيث لا يُفهم عنده إلاّ بوصفه عالماً محضاً بمعناه الواقعي: الوجود هو العود الأبديّ لكلّ الأشياء. لقد حّلت مسالة المعرفة العميقة في العودة الأبديّ للأشياء، مع نتائجه لوعينا للوجود، سلوكنا، تجاربنا، محل الإيمان في الله. الوجود هو إرادة القوة – إنّهُ كل ذلك الذي يكون لا شيء عدا أن يكون نمطاً من أنماط إرادة القوة، و التي بواسطة مظاهرها اللامتناهية، تزودنا بالدافع الوحيد للصيرورة. الوجود هو الحياة، إنهّ ُمُصمم بواسطة الرموز الأسطورية، و لاسيَّما ديونيسيوس. معنى الوجود هو شخصية السوبرمان: ((إنّ جمال شخصية السوبرمان، الذي سيخلصنا من القرف العظيم، من إرادة العدم و العدمية، هذا المحرر للإرادة التي سوف يعيد للعالم غايته و للإنسان رجاءه، القاهر للإله و العدم، أنّه بمنزلة الظل الذي أتقي بواسطته حرارة الشمس: ما الذي اهتم به الآن حقاً – هو الإله!)).

في كلّ حال من الأحوال التي ذكرناها أعلاه، يتوقف الوجود عند نيتشه أنّ يكون إشارة إلى ترسندالية الله بأيّ شكل من الأشكال – بدلاً عن ذلك، يمثل الوجود عنده حضور جوهري متأصل بوسعي أنّ اكتشفه، اتحقق منه، و استقصي فيه، و أقوم بخلقه و إنتاجه. كان نيتشه يمني النفس أن يبرهن على وجود العود الأبديّ طبيعياً، و إنّ يلاحظ كلاً من إرادة القوة و الحياة تجريبياً، و كذلك تحقيق وجود السوبرمان بطريقة ملموسة على أرض الواقع. بيد أن رؤيته الميتافيزيقيّة هذه حقاً لا ترتبط مع الموجودات الجزئية الخصوصية و المحددة ضمن العالم، بل مع الوجود الكليّ عموماً. و بذلك، فإنّ النقطة المرجعيّة في تفكير نيتشه، من حيث إنّهُ لا ينبغي خلطها مع أيّ موضوع محدد ضمن هذا العالم، تعادل و تساوي الواقع الترسندالي، مع أنّهُ حرفياً يشير إلى حضور جوهري متأصل و مطلق. لكن مفهوم الوجود، الذي في ذهن نيتشه، لا يمكن إدراكه وملاحظاته إلاّ بواسطة الموضوعات الجزئية المحسوسة الخصوصية ضمن هذا العالم. إذنْ، إنّ التحول المستمر للوجود الحاضر العام للأشياء الجزئية معروفة كانت أم متأصلة يخص فقط الأشياء الأرضية المحسوسة. و بما أنه تم سابقاً المطابقة بين ميتافيزيقا ماهية الوجود الكلي و وجود الأشياء الجزئية المحسوسة، فإنّ نيتشه لن يكنْ يجد حرجاً في العودة، و لاسيَّما عند تساوره الشكوك في الوجود الكلي، إلى الوجود المحسوس للموجودات الجزئية المحسوسة في هذا العالم. و بهذا الاعتبار يكون معنى الوجود عند نيتشه في تحول و تغير مستمر من التفكير الترسندالي المتعاليّ و الكليّ إلى التفكير المنطقي الاستطرادي المتعلق ب الأشياء المحسوسة ضمن هذا العالم، حيث يتحول نيتشه بحركة لا تخلو من الرشاقة من منهج للتفكير إلى آخر:

(أ) إنّ الوجود، بوصفه صيرورة لا متناهية للحياة و إرادة القوة في دائرة العود الأبديّ، يمكن الوصول إليه و بلوغه عند نيتشه بواسطة سلسلة من القفزات: يمكن أن نقبض على الوجود بواسطة الحوادث التي يتم تجريبها كإمكانات قريبة و بعيدة واقعية لحدوث الأشياء عموماً – و من هذه الأخيرة يمكن أن نتعرف إلى صيرورة العالم الطبيعي في كليّته. هذه القفزات تحدث دائماً ضمن هذا العالم الذي نعيش فيه، و تأخذ مكان قفزات الترسندالي المتعالي. فهذه القفزات، بحكم خضوعها لقانون الصيرورة، تتجاوز دائماً فعلاً وضعها السابق، لأنّها لم تصل بعد إلى المعرفة المفروضة التجريبية للأشياء في هذا العالم. بيد أن هذه القفزات الترسنداليّة فوق كلّ الأشياء الخصوصية إلى كُلّية الوجود المتأصل تحدث بدلاً من الانتقال من الوجود الذاتي للإنسان إلى الترسندالي. فبدلاً من البحث، في ميدان ما يمكن أن يُفهّم و يمكن القبض عليه، و الحضور الأبديّ للترسندالي بواسطة التحقق الواقعي و التاريخي لوجود-الذات المرافق له – يُفّهم الوجود الفردي و يقبض عليه بواسطة صيرورة لامتناهية مع كل عقلي مفترض، و يصبح مهم فقط لأنّه يحدث بصورة أبدية مستمرة، و يتجلى درجات مختلفة من القوة، و يمثل الحياة الحقيقية. و بما أنّ هذا التجاوز الترسندالي عند نيتشه ليس فقط انحراف، و لكنه ينطوي في الواقع و يتضمن على عملية هي حقيقية، فإنّه يكون في الغالب، في مِزَاجه، واعياً بصورة ضعيفة لمعناه، مع أنّ أفكاره تنتهي دائماً في صيغة موضوعية.

(ب) هذا التجاوز الترسندالي لا يستخدم الفصل و التميز بين الحقيقة المكتشفة موضوعياً، القادرة على تزويدنا بوسائل فعالة للنشاط المخطط له في هذا العالم و الحقيقة المضيئة التي تثير البواعث و الحوافز الداخلية للإنسان دون الإشارة إلى طريق الفهم المحسوب و قراءة الشيء دون الوجود المفهومي المنظم في تصورات ثابتة. لكن التفكير الذي يضيء ليس نوعاً من المعرفة الذي يمكن أن يطبق: و الأخير، و بسبب ضيقه الذي لا يمكن أن يتم تجاوزه، لا يمتلك قوة كافية لتزويدنا بأساس لوعي الوجود. وحين يغيّر الاثنين، نتيجة للغموض و الارتباك، مكانهما، فإنّ الإمكانية التي تنبثق هي أنّ المفكر يُسّحر بالمهام غير-الموجودة التي يتم السعي إليها و مطاردتها فقط في حالة خداع-الذات.

على سبيل المثال، النوع الخيالي من الوجود الإنساني يتم اختراعه كي يحل محل الترسندالي و يأخذ مكانه. يصبح السوبرمان – و من المبدأ الذي يقول إذا لم يكن لديك ثقة بالناس فبماذا إذنْ لديك – المثال المخطط للتعريف فيه إنتاجه و توليده على الأرض، الزاوية التي تقبع فيها مخلوقات

مستاءة منتفخة متأنقة تعجز عن التخلص من الأسى العميق الذي ألحقته بنفسها و الذي الحقها بها العالم و الوجود و تريد أن تسبب الأذى لنفسها. تفوق السوبرمان على الإلهة يرتكز على حقيقة إنّه النتاج الممكن للإبداع الإنساني: ((هل بوسعك أن تصنع إلهاً؟ حينها عليك أن تكون أكثر هدوء من كلّ الإلهة كلها و تكتفي بالتزام الصمت! لكنك قادر تماماً أنّ تصنع السوبرمان)). إذا لم يكن هناك إلهه، فإنّه لن يكون هناك أيّ شيء للاختراع. و لكن هذا هو الحال: ((مرة أخرى و أخرى أنا مدفوعاً بقوة نحو الإنسان – مدفوعا ً بإرادة متحمسة نحو الخلق كما هو حال المطرقة المدفوعة برغبة قوية في تحطيم الحجر)). و لكن بأيّ معنى من المعاني يكون هذا الاندفاع نحو الإنسان و كيف يكون الآن؟ بواسطة الأفكار التي تدفع الآخرين للتفكير، بواسطة تربية و تهذيب نموذج من الناس كما نربي و نهذب الحيوانات، بهدف اختيار السمات الأكثر تقديراً و احتراماً و نفعاً و يتم تميزها و التعرف عليها بسهولة للانطلاق و العمل منها. على أيّة حال، المرء لا يدرك حقاً إلاّ الهدف المحدود و لا يعرف إطلاقاً ما هي النتائج التي سوف تسفر عنها نشاطاته. طبعاً يمكن أن يضع نفسه فوق الآخرين من الناس بواسطة تبني وظيفة الإله-الخالق؛ و لكن هذا مجرد وهم.

بينما لوهلة يبدو أنّ السوبرمان يقدم شيئاً يشبه في طبيعته المهمة المستقبلية، يستبدل جوهر الباعث الحياتي الصرف هنا في الترسندالي المتعالي و يصبح في النهاية غير محدد بصورة متزايدة و يتلاشى في الفراغ: ((حتى الآن، كان هناك المئات من المهام، لأن هناك المئات من الناس... لكن هدفاً واحداً ظل مفقوداً. مازالت الإنسانية دون هدف و غاية)). ربما يضع الإله هدفا للإنسانية؛ و لكن لا أحد يمكن أنّ يعرفه و يأخذه على محمل الجدّ كمهمة له. النتيجة الأخيرة لهذا النوع من التفكير الذي يقصد فيه أن يكون بدلاً للترسندالي هو التساهل و الانغماس في الأوضاع المتخيلة التي تترك انطباع وجود الواقع المستقبلي للنظام العالي؛ لكن هذه الأوضاع المتخيلة هي ليس أكثر من أوهام فارغة – إنّها لا تشكل الترسندالي بالمرة.

أنّ وضع مهام مستحيلة التحقيق أمام الإنسان من شأنها أنّ تجعله ينسى تناهيه و حدوده بواسطة مطالبته بأشياء لا ينجزها إلاّ الإله القوي و الكلي القدرة و العلم.على سبيل المثال، حين يفترض نيتشه أنّ يعلم المرء كيف ينبغي له ((أنّ يموت في الوقت المناسب))[92]، فهو يتحدث كما لو أن الإنسان لا يستطيع فقط أن يجازف و يخاطر في حياته و التضحية فيها لسبب ما أو لشخص ما،

بل هو قادر أيضاً أن يوصل و ينقل و يقيم وجوده كليًّا، و يعرف أيضاً كيف يحدث موته و يعجل فيه.

(ج) إنّ حَيْرَة و تشوش الحقيقة التي يمكن التحقق منها موضوعياً فقط بواسطة ذلك الذي يمكن توضيحه، و الحَيْرَة و التشوش الذي يربط المعرفة النسبية للأشياء الجزئية الملموسة و المحسوسة في العالم دائماً مع الترسندالي، ينتج غموض كُلَّما حاولنا أن نعبر عن الترسندالي بواسطة مفاهيم العلوم الطبيعة، السيكولوجيا، أو السوسيولوجيا. في الواقع، ارتكب نيتشه خطئاً بواسطة استخدامه المكرر لعلوم البيولوجيا، السيكولوجيا، و السوسيولوجيا كوسيط ملهم و مضيء يساعد في تبديد الغموض و فك شيفرات الكتابات الغامضة للوجود. و بهذا المعنى، على سبيل المثال، إلى جانب العاطفة ((العالية أكثر من أيّ وقت مضى))، التي تمثل طريقه المرشد نحو الإنسان الرفيع السامي، نعثر عند نيتشه على نزعات محايدة تظهر في صيغة معرفة ساذجة للطبيعة البشرية، و بجانبها طلب لتقويض السايكولوجي و أثاره تسفر عن تسوية سيكولوجية. إنّ الالتباس المحبب لحقيقة العثور على السيكولوجيا مع توضيح تحذيري للوجود يشتق في النهاية من إرادة الحضور النقي للوجود التي تتجاوز باستمرار و ترفض كل نوع من أنواع الترسندالي.

إنّ المفاهيم العامة الجوهرية في ميدان المعرفة عند نيتشه عموماً أما أنّ تكون فعالة و محددة تشير إلى الأشياء الجزئية في العالم، أو إنها تشير إلى الوجود كليًّا، و بذلك تصبح كُلّية عامة غير محددة و غير فعالة، بل و تتسبب بنتائج و عواقب وخيمة و خادعة – مدمرة تماماً – و لاسيَّما حينما تحدث نتائج مختلفة جداً عن تلك المقصودة؛ فهي تعمل بمبدأ أزرع الفكرة و أترك الباقي للمخيلة الإنسانية. إنّ المفاهيم البديلة التي استخدمها نيتشه ليعبر عن رفضه للترسندالي المتعالي لهذا العالم نجحت، على سبيل، في تقويض و إسكات الترسندالي، بيد إنّها كانت إبستمولوجياً فارغة لم تزودنا بشيء نافع عن العالم. فكلّما يمكن أنّ يفكر فيه الإنسان مصدره أما من معرفة الموجودات/الأشياء الجزئية الفردية التي يمكن أن نشير إليها؛ أو من لغة الترسندالي المتعالية عن هذا العالم الذي ترتبط في وجود الذات حكراً و التي لا يمكن أنّ تشير إلى ما تتحدث عنه، كما هو الحال في عجزنا عن الإشارة إلى الترسندالي. إنّ ما يجعل موقف نيتشه الإبستمولوجي فارغ و غير ذي جدوى هو أنه حين كان يقصد بقوة أن يبقى ملاصقاً و موجوداً في هذا العالم الذي نعيش فيه، فإنّه في ذات الوقت يتركه أو يدير ظهره كثيراً إلى الموضوعات التي يمكن أن تزودنا بمعرفة هذا العالم.

لا يمكن أن ننكر إنّ هناك الكثير من النِقَاط الحرجة في نُصوص نيتشه التي تجعل الملل و الضجر يغلب على القارئ و يشعره بالإحباط – و لاسيَّما حينما تكون كل المحددات في لغة نيتشه الفلسفيّة هي الرموز الصامتة، الصيرورة الفارغة، الحركة الفارغة، الخلق الفارغ، و المستقبل الفارغ، حيث يكون لها الكلمة الأخيرة التي لا يعلى عليها.

لكن هذه السمة السائدة في تفكير نيتشه هي ليست الحقيقة النهائية و لا يمكن الاعتداد بها وحدها لإطلاق الأحكام عن نيتشه. و في حين تم وسّم كتابات نيتشه بإنّها في المجمل العام ((ضِدّ-المسيحية)) في الروح و الجوهر، و تم توجيه تهمة الإلحاد الصريحة إليه، فإنّنا ينبغي ألّا ننسى أن الإلحاد عند نيتشه لا هو إنكار قاطع لوجود الله، و لا هو لا مبالاة الرجل الفاجر – أنّ ما يواسي المرء و يرد إليه عافيته هي المبالاة – الذي يرتكز إلحاده و يقوم على النفور من البحث عن الله. حتى الطريقة التي طرح فيها نيتشه حجته الرئيسة التي تتحدث عن ((موت الله)) كانت في الواقع تعبير عن صدمة عميقة نفسية بدل من أن تكون تنكيلاً في المسيحية – التي كان مسعاها نقل المأساة إلى الصعيد الأخلاقي – و انتقاماً منها. و كما أنّ الخلود عنده يسعى بقوة إلى تقويض كل أنماط الأخلاق – التي لا يمكن تبريرها بطريقة منطقية و هذا بالضبط ميزتها الحسنة – الخداعة و السطحية الزائفة الحاضرة بواسطة طرح نموذج الأخلاق الأصيلة، كان ((العالم الخالي من الإله)) الذي قدمه يسعى بكلّ ما أوتي من قوة إلى تدمير و قمع كل الأكاذيب اللامبالية و الزائفة التي تدعي الإيمان في الله – و ذلك لغرض انغماس و تفاعل صادق و التزام حقيقي في الوجود و النأي عن العالم الترسندالي المتعالي. و لكن حتى حين يصرح نيتشه بوجود ((العالم الخالي من الإله))، و يصبح الدافع الباعث الثابت للارتفاع و السمو في إنسانيته فعالاً و مؤثراً، و تتحول أمانته الفكرية إلى رفض راديكالي حادّ للإيمان في الله، فإنّه يظل مع ذلك قريباً في أطروحاته و مقارباته من المسيحية، و بهذا الصدد يقول الآتي: ((تظل [المسيحية] أفضل جزء في الحياة المثالية – إحساس لا يريد للضعيف أن يكون ضعيفاً و لا للمرأة بأن تكون مرأة. جعل الناس متساويين و متشابهين – التي عرفتها على الإطلاق: منذ طفولتي و أنا اقتفي أثرها في زوايا كثيرة، و اعتقد من قلبي أنني لم أكن إطلاقاً شريراً أو في الضِدّ منها)) (من رسالة إلى جاست، 21 تموز، 1881).

هذه الأمور التي ذكرناها للتو، تبين إنّه بالرغم من أنّ نيتشه كان يحاول بقدر الإمكان أن يتجاوز الترسندالي المتعالي بواسطة رفض الإيمان في الله و استبداله بنظرة متمسكة بهذا العالم

الحسي الملموس الذي نعيش فيه، فإنّه ظل يميل بقوة نحوه و متمسكاً فيه خصم.

نيتشه الترسندالي ـــ الإشارة الواضحة و المؤكدة على ترسندالية نيتشه هي الكُلّية المطلقة لمذهبه السلبي، و لاسيَّما في العَلاقة بكل مواقع الفلاسفة الوضعين الإيجابيين، فلاسفة الطبيعة، الفلاسفة الماديين، الذين حدد هوياتهم و مواقعهم، بثقة كاملة و عالية بالنفس لا تتزعزع و قَلّ مثيلها، بواسطة الموضوعات الملموسة التي يدرسوها و تناول مقارباتهم و حججهم الفلسفيّة. تناول نيتشه المذهب الوضعي بالدراسة و الفحص و التحليل و استخدمه كمناسبة للتهكم و السخرية، مع أنّ الكثير من صيغ و مقاربات هذا المذهب ظهرت جلية في كتاباته. لم يكن الينبوع الذي تدفقت منه أفكار نيتشه كما يعتقد مفهوم العالم الخالي من الله المألوف، و مفاده البحث في الموضوعات التجريبية في العالم و الصياغات و الفرضيات المتعلقة بها، و اختراع و نحت الخرافات لغرض توضيح الوجود – بل كان مصدر استيائه الذي لا حدود له و عدم رضائه في مواجهة كلّ شيء يظهر له في هذا الوجود. من الممكن جداً أنّ كلّ شيء ينكره نيتشه في هذا الوجود قد تم إنكاره من قبل، و لكن بشكل فردي، مع بقاء البقية وتأكيدها بسذاجة، أو دون تعريض الناكر وجودياً للخطر بسبب الأمان السِرّي التي توفره بعض الموجودات الواضحة التي تمثل خلفية و أرضية عمل لدية. في حالة نيتشه نجد، من جانب آخر، النزعة المهيمنة لحالة عدم رضا ـ الذاتي عند نيتشه تنتج نوعاً من العاطفة المحتدمة و باعث قوي للتضحية في النفس لرفض ذلك المفروض علينا من قبل الكثير من الأنبياء و رجال الدين – الذي يقدس قذارته بإعطائها اسم السخط – حمير الفضيلة – الفضيلة و الاستقامة و الرحمة تعلم جحود الحياة – و قادتها مزوري الحقائق على الشعب – أي رجل الدين: الرجل غير الحر الذي يكبت ميوله الغريزية و ليس هناك خصومة أشد تطرفا من خصومته، الرجل الذي في أحيان كثيرة كان يقضي نحبه هو الآخر لمرأى الألم الذي كان مسبباً له – الشخص الذي يظهر بصورة منتظمة، في كل مكان و زمان تقريباً. فهو لا ينتمي إلى عرق معين، بل ينمو ويزدهر في جميع المراتب الاجتماعية.

يبدو أن النزعة الترسندالية عند نيتشه تظهر في شكلها النهائي عدمية، و قد قبل نيتشه بشجاعة أن يدفع بها إلى مدياته القصوى و يتبعها حتى النهاية غير عَابِئٍ كثيراً بما تسفر عليه من نتائج مدمرة. فهذه، التي يطلق عليها عدمية خلاقة و مبدعة للأقوياء، تقف في الضِدّ و الجانب

المقابل من عدمية الضعفاء غير المبدعة و المفوضة و السلبية: ((كلّ حركة قوية و مثمرة للإنسانية تخلق إلى جانبها حركة عدمية محفزة و باعثة للعمل)).

لقد عثر نيتشه على العدمية، وما انفكّ في نبذ و رفض وجودها في الكثير من الظواهر التاريخية الكبيرة، و في مظاهر التفسخ و الانحلال الحديثة، التي تعانيها المجتمعات الأوروبية الحديثة. كان نيتشه يطلق على البراهمية – الغبطة الكونية النهائية – البوذية – المتطلعة إلى نرفانا لاغير و تؤكد أنّ الوجود لا يستحق عناء العيش (الابتعاد المتشائم عن الحياة، التوق إلى العدم) – و المسيحية – الذريعة الرهيبة المتناقضة التي أوجدت للبشرية علاجاً مؤقتاً، ذلك العلاج الذي يشكل الناحية العبقرية منها – تعبير أديان عدمية، ((لأن كلها، بلا استثناء، قد مجدت، بطريقة أو أخرى و بدائرة تضيق و تتسع حسب المقتضيات و المصالح، العدم و أعلت من شأنه – القطب المضاد و المعارض للحياة – كهدف، أو ملخص للخير (summum bonum) أو ك (إله))). في هذه العدمية السلبية للضعف، تتفسخ الأخلاق القائمة على القوة و شن الحرب على الآخرين التي تبدأ بضربات غير متوقعة؛ ((و كل شيء يساعد على الراحة، السكون، الشفاء، الهدوء، الخدر)) يظهر على السطح و يحتل المواقع المتقدمة، و يظهر((في أنواع مختلفة من أقنعة التنكر الدينية، الأخلاقية، السياسية و الجمالية)). الضعف أيضاً هو ((العدمية بعد نموذج بطرسبورغ (– أعني، الاعتقاد بالإلحاد إلى حتى الشهادة و التضحية بالنفس في سبيله))). ((الضعف دائماً يبين الحاجة، أولا، إلى الإيمان، المؤازرة، عمود فقري و حجر تستند إليه، و دعم و مَدّ يد العون)). العدمية هي ببساطة ظاهرة التفسخ و الانحلال. إنّ تهديم العدمي للأشياء يصبح تهديماً لنفسه: ((تحمل العدمية في داخلها بواعث مدفوعة غريزياً في القيام بنشاطات تقصد في المقام الأول و تستهدف الأقوياء كعدو مميت أول إذا جاز التعبير)): في العدمية، ((هناك فضلات من إرادة - القوة المتحولة تبقى للضعفاء يجيدون استخدمها بالضِدّ من الأقوياء كي يكونوا جلاديهم. العدمية هي البوذية، النتيجة المتأخرة من نتائج شيخوخة العرق و نهكه، في جلبابها الأوروبي: إنّها ببساطة الفعل السلبي الذي يتبع فقدان الوجود إلى معناه)).

بعد هذا الهجوم و النقد للعدمية و للإمكانات التي يمكن تظهر و تسفر عن نفسها و تكون مرافقة له إذا جاز التعبير، تثبت عدمية نيتشه إنّها في الواقع صيغة من صيغ الترسندالي الغامضة و الملتبسة التي يجد القارئ صعوبة في فهمها و الإمساك بمعناها. الوجود يبوح و يكشف النقاب عن

نفسه لنيتشه في صيغة العدمية المتعالية التي تتجاوز هذا العالم. و لكن بالنسبة إلى الملاحظ يبدو هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، من المستحيل حدوثه: لقد قوض نيتشه العدمية، و لكن بالشكل الذي يقرره و يحسمه الوجود الزماني، بمعنى إنّها ستعاود الظهور المرة تلو المرة، و عليه ينبغي هزيمتها و تقويضها المرة تلو المرة. كانت أقواله الدوغمائيّة المتزايدة (على سبيل المثال، المحاولة الفاشلة للعثور على بديل للترسندالي) تظهر كإرادة ملحد يريد أن يؤمن بشي ما. إنّ قفزة و وثبة نيتشه في المذاهب هو ليس قفزة في التراث و مخزوناته ذات الأبعاد الكونية (كما هو الحال مع الروائي فيودور دوستويفسكي أول إنسان أعطانا فكرة عن الناس الذين هم نحن – الذي صورَ سيكولوجية الفرد بدقة و يحسب حساباً لضغط المحيط و تجاوز الحدود في كلّ شيء – و الفيلسوف كريكغارد الذي كانت تعذبه الحاجة إلى التدخل و حشر أنفه و التأثير في المصائِر) – بل أنّها تعبر في الواقع عن معتقدات صنعها بنفسه و رموز مبتكرة ذاتياً (السوبرمان، العود الابديّ، ديونيسيوس...إلخ) تفتقد تماماً في المحصلة النهائية إلى المناخ التاريخي المقنع. إذنْ، إذا تأملنا فقط في الأقوال الدوغمائية لنيتشه، المكان الذي ليس لي أن أقوم إلاّ بشيء واحد هو التزام الصمت، سيظهر لنا و كأنّه مفكر غير قادر على العيش وفق الاستنتاجات النهائية التي توصل إليها، و آمل أن يوافقني القارئ ببساطة على هذه الاستنتاجات: يستخدم نيتشه مواقعه العدمية على نحو مقَبُول و ذلك لتقوية الهروب من الاستنتاجات التي يقصد بشكلٍ أساسي تقويضها. يبدو نيتشه الآن لا يمتلك أيّ شيء، و يمسك في وهم الوجود بواسطة فراغ حضور متخيل فحسب. يبدو أن اعتقاده القسري، المولود من رحم اليأس و القنوط، ملتصق بشيء وهمي. لكن الحال يبدو هكذا حين نحاول أن نفصل السمات الإيجابية في مذهبه الفلسفيّ عن الباقي بدلا من أن نتأملها أو نأخذها في سياق الكلّ. إنّ ترسندالية نيتشه العدمية لم تبلغ أو تصل إلى حالة السلام مع الوجود. إذنْ، كان عالمه الخالي من الإله الذي دعا إليه مدعاة أكثر للقلق و سبب أخر لتأجيج متزايد لمسالة البحث عن الله – وراء أكثر الأسماء قداسة وجدت أشد الميول تدميراً. لقد أطلقوا اسم الرب على ما يضعف، على ما يصيب بعدوى الضعف، وجود الإنسان المصلحة إثبات ذاتي للانحطاط – الذي غدا غير مفهوم بذاته البَتَّة.

عبرَ نيتشه – الذي يعرف من الممكن للمرء أن يقتل نفسه بدافع الحماسة و بدافع أفراط بسيط في الحياة... بالانفجار – عن عالمه الخالي من الإله بطريقة تنقل عذابه الصامت و تعبر عنه بصورة لا مثيل لها: بما أنّ إنكار وجود الله عند نيتشه يعني ((أنك لم تذهب مرة أخرى إطلاقاً إلى الصلاة ... و بهذا الاعتبار لن تعثر مرة أخرى على السلام في ثقة لا تتزعزع و غير محدودة. إنك

تنكر على نفسك فرصة الحصول على الراحة قبل حيازة الحكمة النهائية، الخير النهائي، القوة النهائية – و ترمي بنير و قيود عبودية أفكارك.... أنت رجل الرفض بامتياز، هل اخترت أن تتنكر إلى كل ذاك المتاح لك؟ من هو يا تُرى الذي سيمنحك القوة للقيام بذلك؟ ليس هناك أيّ أحد لدية القوة التي لديك)). كانت معرفة نيتشه و بصيرته العميقة، طبيعته، و سعيه الذي لا يكل و لا يمل على مواصلة الطريق من القوة و الثقة الكبيرة التي لا تتزعزع بسهولة إلى درجة إنّ نيتشه كان يمني النفس أن يكون مخطئاً بهذا الصدد: ((حتى النهاية، هؤلاء الذين قضوا جُلُّ حياتهم متدبرون نوعاً ما من الصحبة مع إله لهم من المحال أن يجربوا (شعور الوحدة) المؤلم الذي أعانيه. حياتي اليوم تقوم على أمنية أن تكون كل الأشياء مختلفة تماماً عن الصورة التي أراها فيها – تقوم على آمل العثور على إنساناً يمكن أن يجعل من (حقائقي) شيئاً مثيراً لا يصدق)) (من رسالة إلى أوفربيك، 2 تموز، 1885). كان نيتشه يرى الهاوية بوضوح لا تشوبه شائبة و يتعاطى مع معاييرها القاسية بكل أمانة و شجاعة: ((ينبغي للإنسان العميق أن يكون له أصدقاء أن لم يكن له إله في صحبته يعبده؛ بيد أنني لا امتلك لا الأصدقاء و لا الإله!)) (من رسالة إلى أخته إليزابيث، 8 تموز، 1886). و لكن مع أن تجربته المروعة و قساوتها التي لا يمكن أن يتحملها أيّ بشر لم يفكر نيتشه إطلاقاً في التراجع و أن يلقي بعصاه. و بذلك، بوسعنا أن نفهم بواسطة نموذج نيتشه معنى الشجاعة الإنسانية الحقيقية: ((هل لديك الشجاعة؟... ليست شجاعة التي تحدث أمامَ الشهود، و لكن شجاعة المتنسك و النسر الذي لم تعد بحاجة إلى شهادة أياً كان و لا نستثني الله!)).

ليس من المدهش أنّ نعثر أخيراً على التعبير المباشر لتواصل نيتشه مع الترسندالي. بل أن حتى تفكيره سمح في قيامة الإله الذي كان يرفضه مسبقاً، و لاسيَّما حين يقول، على سبيل المثال، الآتي: ((في الواقع، نحن لا نرفض إلاّ الإله الأخلاقي)). لقد ترك نيتشه، و بشكل قاطع، مكاناً إلى الإلهي في فلسفته، بالرغم من إنّه غالبا ما يتحدث عن الآلِهة – الأشياء و الظواهر التي لا سيطرة للناس عليها سُميَّت فيمَا بعد بالآلِهة – أو العالم الخالي من الآلِهة بدلاً من الحديث عن إله واحد: ((كم من الإله الجديدة ممكن أن تظهر لنا! تأتي الغريزة الدينية (أعني– بناء الإله) غالباً لي في التوقيت غير المناسب: كم يبدو متنوعاً و مختلفاً الإلهي في كل مناسبة يظهر بها لنا.... الكثير من الأشياء الغريبة تمر من أمامي في هذه اللحظات الأبدية التي تسقط كقطرات في بحر الحياة،.... ليس لدي أيّ شائبة من الشك أن هناك الكثير من الأنواع من الإلهة)). وجود الإله من عدمه يضع عبء و مشقة كبيرة على كاهل الإنسان و يضاعف من متاعبه و آلمه: ((يبدو من الأهمية بمكان، على الأقّل لي،

أن يتخلص المرء من كل الإلهة، و معها الواحد – غير المشروط. لم يعد بوسع المرء أن يقبل الإله الرائع الممجد أو يمنحنه اسم (الله))). ((إنّ ما نعطيه إلى المجهول و غير المعروف و الكل من تعابير ينبغي أن يعود لنا فحسب و أن يكون في متناول أيدينا و لا يذهب إلى عالم غير هذا العالم الذي نعيش فيه)).

و إذا كان هذا العالم ((القريب))، خلافاً إلى الترسندالي البعيد، يبدو دائماً غير كافي، فإنّ نيتشه في النهاية يقبل فعل تجاوز كل وضع حاضر كفعل أساسيّ) مع أنّ الصيغة الاستفهامية لتعبيره تعادل و تساوي الاستسلام): ((هل يمكن أنّ يكون الكلّ مكوناً من أجزاء ساخطة تلاقي الاستحسان فقط في العقل، بوصفه نقطة ارتكاز ناظمة للوجود الفردي و الجماعي؟ هل المسار الكليّ للأشياء ربما ببساطة (بعيداً من هنا! و بعيداً عن الواقع !) – هو عدم الرضا الأبديّ بذاته؟ هل الرغبة هي ربما القوة المحركة بذاتها؟ هل هي – الله؟)).

فقط في مناسبة واحدة نجد نيتشه – كان يحسب أنّ الموت قريب، فقد تصور أنّ كلّما يفعله لا يترتب عليه أيّ نتيجة – يتحدث نوعاً ما بلغة سلام عن الترسندالي و قَبُول له. فقد خلق نيتشه غريزياً لنفسه ميثولوجيا رائعة و جميلة من المناظر الطبيعية لحضور الوجود المتأصل النقي[93]. توفر الطبيعة – التي ينبغي ألّا تعاديها بل أن تكون جزء منها و تستسلم لها باحترام – بسحرها الأخذ للأنفاس، ملجأ لنبل نيتشه و أمانته الفكرية، و إمكانات معرفية ضخمة بواسطة فك شيفرة لغتها، كما منحته أيضاً قدراً كبيراً من الشجاعة في مواجهة عالم دون إله – صحيح دون إله يفقد العالم أساسّه، لكن العالم دون عدالة لا يمكن حكمه – و فرصه مواتية لتماهي مع وجوده و وجود الأشياء فيها. هنا لدينا روح أسطورية للطبيعة تتبدى و تسكب قطراتها في نفس رجل يعاني بطريقة مؤلمة من شعور الوحدة المطلق – طبقاً إلى نيتشه، تقدم المناظر الطبيعية بحد ذاتها معاني عميقة فقط إلى الشخص الذي يجيد فن الإصغاء إلى لغتها، هذا الإصغاء الذي يتحول هنا مع نيتشه إلى شيء أسطوري. و إذا كانت هذه الأسطورة، تساوي و تعادل تعبير الافتقاد إلى قابلية التواصل الإنساني عند نيتشه، فإنّ السّؤال الذي يطرح نفسه، و المتعلق بحدود طبيعة نيتشه، هو: ((هل العالم الخالي من الإله و عدم القابلية و العجز على التواصل هما شيئين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة قوية راسخة؟)) في الواقع، عند نيتشه، هناك صلة مهمة بين التعبيرات الفلسفيّة و التعبيرات الشعريّة. و لكن على كلّ حال، يمكن للمرء أن يصل إلى استنتاج خاطئ عن نيتشه بسبب نزعة واحدة سائدة في تفكير نيتشه، و

لاسيَّما حين يقول: ((لقد مات الله لأنه لا يحب أحد إطلاقاً بطريقة غير مشروطة؛ عالم نيتشه الخالي من الإله يرتبط في عَلاقة وجودية بافتقادة لقابلية التواصل مع الآخرين)). خلافا لذلك، لم تنجح عاطفة نيتشه التواقة للتواصل مع الآخرين و الأشياء معًا في التخلص من صورة الإله غير المحدد الملامح في فلسفته – كانت فكرة عالم دون إله إثارة، مع أنّ البعض احتج ضِدّ هذه الفكرة و نزع عنها كل الثقة، مهيجة دائمة تخترق كل وجود نيتشه العميق. إنّ وجود نيتشه و تفكيرة من السَّعَة بحيث لا يمكن القبض عليهما بسهولة. و لكن، على كل حال، أنّ حقيقة فكرة الوحدة بين عالم خالي من الإله و عدم القابلية و العجز على التواصل مع الآخرين و الأشياء، و التعبير عنها بطرائق لاحصر لها (و التي تصبح خطئاً حين نتعامل معها كشيء مطلق)، الممتعة للحظة، هي علامة على الإمكانات التأويليّة التي يقدمها تفكير نيتشه بديل عن غياب الإله.

التفلسف في عالم دون إله. — لا يمكن ببساطة الحكم على مفهوم العالم دون إله عند نيتشه بالصواب أو الخطأ. ليس هناك دليل واضح بخصوص وجود الله من عدمه، ثم أن مسألة وجود عالم دون إله لم تبرهن قطاً على عدم وجود الله عند نيتشه كما يعتقد البعض. و بطريقة مماثلة، لا نستطيع أن نبرهن أو ندحض على حدّ السواءَ أنّ الإنسان هو مجرد نوع نادر جداً من الحيوانات: الإنسان دائماً حر و يشعر أنه حيوان بامتياز، و يعبر عن ذلك ما أن تسنح الظروف له وتكون مواتية. في مسائل من هذا النوع أعلاه، الحجج المطروحة، في الواقع، لا تقدم حلول ناجعة، و كلّما تفعله بأحسن الأحوال هو توضيح مبتسر للأمور لا يسمن و لا يغني من جوع لا غير. حين نحاول أنّ نتعاطى مع ما يقع خلف أو ما بعد حدود المعرفة ذات الصَلاحِيَة الكُلّية (das allgemeingültige Wissbare)، فإنّ الحقيقة هي ما يتحقق واقعياً و فعلياً. إنّ سمة الجدية التي تتمتع بها الحقيقة لا يمكن إنكارها، سواء كان مع نيتشه أو مع فيلسوف أخر، و لا سيَّما في عملية التحقق من أفكارها واقعيا. عدم وجود الإله يعد عند نيتشه قوة جبارة لا يستهان بها في هذا العالم. إنّ ما يراه نيتشه في هذه الفكرة، و يعبر عنه، هو مجرد واقع يراه بأم عينه، و هو يحاول أن يرفع من شأن هذا الواقع، و يدفع في نموها اللاحق إلى مدياته القصوى و نتائجه النهائية – يدفع به إلى مدى لا يتوقع و لا تحص مستتبعاته. مفهوم هذا العالم دون إله ليس جنوناً مضجراً للعدم – إنّه شغف شيطاني إذا جاز التعبير. خلقَ نيتشه و قدمَ تعبيراً و عرضاً رائعاً و مذهلاً يأخذ الأنفاس تماماً يصف فيه عالم دون إله في كل وجوه المتعددة و المتنوعة و زوايا و منظورات و مقاربات لا يستهان بها.

مع أنّ عدم وجود نمط من المعرفة العام يشترك فيه كل الناس يمكن أن يفرض قراراً ذو صَلاحِيَة كُلّية على فكرة العالم دون إله الذي يثير الكثير من الخلافات و النقاشات و الحجج المضادة – إلاّ أن الحقيقة تتطلب منا أن نلاحظ تأثير هذه الفكرة واقعياً و النتائج المترتبة عليه. ينبغي للتفلسف أن يستمر في العيش مع هذه الفكرة في كل تفاصيلها و زواياها، و يلاحظ واقعيتها و مسارها من كثب كي يحافظ عن أمانتها و صدقها. إذا كان هناك أيّ حقيقة في ترسندالية الذات كأساسّ للتفلسف، فإنّ هذه الحقيقة توجد فقط حين يكون بوسعها أن تقاوم و تقف بثبات في وجه الأسئلة النقدية – الأسئلة المهمة: متى؟ و فيمَا إذا؟ و كيف؟ – الموجهة ضِدّها من قبل الآخر – عالم دون إله – و أن تميز ليس فقط واقعية و قوة هذا الآخر، و لكن أيضاً شجاعته المستعدة للتضحية، و استعداده لرمي الحياة و إخضاع الحياة إلى التوازن، و أن نميز أيضاً قوته المنبثقة و المتنامية.

الضرورة الوجودية المهيمنة و الرئيسية السائدة هي أنّ كل فرد من الأفراد عليه أنّ يقرر بنفسه و يحسم ما إذا كان بوسعه أنّ يعيش في عالم دون إله أو أنّ يعيش في عَلاقة دائمة وطيدة بالألوهيَّة و عالم فيه إله، أيّ عالم ترسندالي – هذا القرار، في الواقع، لا يقوم أو يرتكز على صياغات حرفية للمعرفة حول الذات الإنسانية؛ بل على الموقف الداخلي للإنسان و طبيعة تقييمه للأشياء، على الجرأة على مواجهة الوجود، و على الشجاعة على تَجْرِبة هذا الوجود.

تدرك مهمة التفلسف و تميز جيداً عدم كفايتها و قصورها. و تكون بالعادة غير متحقِّقة من نفسه و لا سيَّما في ظل غياب الآخر: الدين المكشوف أو الموحى به الذي يتملص دائماً و يتجنب ممارسة التفلسف و لدية القدرة أن يخضعه و يضعه دائماً موضع السّؤال – و هو في ذاته لا هو بالقادر على محاكاته و لاهو بالقادر على فهمه. إنّ فكرة العالم دون إله، التي أمسك نيتشه بها في كليتها و أدرك إمكانيتها بحرفية عالية، ليس أقّل أهمية و حسم من الحلول الذي تقدمها الفلسفة. فيمَا يتعلق بامتلاكها الحقيقة حصراً، ترتبط فكرة العالم دون إله بالدين المكشوف أو الموحى به و التي تحاول، طبقاً لأسبابها و حججها و مقارباتها الرئيسية، تحطيمه و القضاء عليه. إنّ التفلسف القائم على وجود-الذات الإنسانية ليس في تعارض مع واقعية الدين المكشوف و الموحى به و لا مع واقعية العالم دون إله – بل أنّهُ مهتم بإضاءة نفسه بواسطة هذين الاثنين [أعني الدين المكشوف و الموحى به من جهة و العالم دون إله من جهة أخرى]، أو إخضاعهما موضوع السّؤال، و لا يقتصر الأمر على ذلك بل يتعدى ليشمل إخضاع حتى نفسه للسّؤال إذا تتطلب الأمر ذلك. يختلف التفلسف

عن العالم دون إله في الطبيعة و المضمون و المقاربة، و بهذا ينجح في تميز – أو على الأقّل لا يريد أو غير مهتم في تحطيمه – و إدراك الدين المكشوف و الموحى به حتى حين يحاول إنكاره؛ كما إنّه يتميز و يختلف عن الدين المكشوف و الموحى به بمعنى أنه لا يرغب في شن حرب إبادة و اجتثاث ضِدّ العالم دون إله. لايلجأ التفلسف، بوصفه واقع يفتقد للقوة الطبيعية، إلاّ إلى الملكة العقلية المستقلة للبشر، تلك الملكة التي طمسها النسيان طمسا تاما، محاولاً أن يقوم بإيقاظهم و تحفيزهم بواسطة أخذهم في رحلة مثيرة يطلعون فيها على تراث متنوع يمتد للآلف السنين. يمكن للقوة المتنامية لكلاً من الدين المكشوف الموحى به و العالم دون إله أن تتسامح مع التفلسف، أو تعلي من شأنه، أو ترفضه، أو تخوض معه صراعاً مريراً و حرباً ضروساً في الخفاء. ليس لدى الفلسفة أيّ قوة قسرية أو تهديدية في مواجهة الاثنين: حين تستخدم الفلسفة حُجَّة من الحجج، يمكن لها فقط أن تشير إلى ما تتضمنه الدوغمائيّة الدينية من معنى وآثار أو إلى تأكيدات العالم دون إله لا أكثر – وجودياً، تحاول الفلسفة أن تكشف عن الهاوية المجهولة العميقة القرار، في كلاً من الدين المكشوف المُوحى به و العالم دون إله، و الإمكانات المتاحة في مواجهتها. انطلاقاً من طبيعتها الحقيقية، تمتلك الفلسفة مِيزة الانفتاح غير محدود على الآخر و الاستعداد للتعامل مع مختلف المعطيات و تنوع الإمكانات و الاحتمالات، و لكنها تحاول أن تكمل نفسها و تستعيد قوتها بواسطة المواجهة المفتوحة مع الدين المكشوف و المُوحى به و العالم دون إله، لأن المواجه مع الاثنين تمثل نقطة حاسمة لإقامة التواصل مع الآخرين الذي يصبح صامتاً و متراجعاً و أقرب إلى الإنسان الميت و شرطاً ضرورياً لممارسة القوة على الآخرين. الرعب من انقطاع التواصل بين الناس و الخَشْيَة من أن تتقطع فيه السبل – البشر، و ليس فقط قُوَى الطبيعة، قادرة على التواصل – واحد من البواعث القوية لعملية التفلسف التي تريد بكلّ ما أوتيتُ من قوّة إيقاظ كل القوة الموجودة في الإنسان للتواصل، و دفعها إلى مدياتها القصوى كي تثمر. التفلسف، بحد ذاته، لا يقود لا إلى الاقتراب من الله و لا إلى الابتعاد عنه – فهو يمتلك مصدره في الترسندالي المرتبط بصلة وثيقة مع وجود-الذات. تحاول الحقيقة الإنسانية أن تستنبط الينبوع الذي بواسطته يعيش الإنسان الإمكانات العميقة لتفكيره و وجوده – و هذا في الواقع السِرّ الذي يتبدى و يسفر عن نفسه بواسطة تاريخ حِوار الإنسانية الذي يمتد لآلاف السنين.

يكشف نيتشه نفسه النقاب، بلا رحمة و قساوة لا تخلو من الفظاظة، عن النتائج المترتبة عن وجود عالم دون إله: لقد تم خلع أقنعة المسيحية – ميتافيزيقا الجلاد، التي تفسد بفكرة النظام

الأخلاقي براءة الصيرورة بواسطة العقاب – التي لا تصلح أَبَداً، و المغفرة فيها لا تستطيع المحي فمَا تم فعله لا يمكن أن يصير غير معقول، و نسيان الشخص لشيء ما لا يعني أن ذلك الشيء غير موجود – و الذنب – و كلّ صيغة من صيغ الإيمان في الله و تم البوح عنها بطريقة مروعة و صادمة. كلّما يقوم به الإنسان لغرض فهم العالم هو ليس إلاّ نمط من أنماط التأويل و التفسير لتحولاته – و هو ليس، في المحصلة النهائية، إلاّ وهم آخر. كل وهم من الأوهام في العموم يُوظف بواسطة إرادة القوة. حتى تأويل نيتشه للعالم كإرادة للقوة هو تأويل و تفسير تزوده فيه إرادة القوة. من هذه ينتج الآتي: ليس هناك حقيقة بالمرة و كل شيء مُباح. تصر إرادة القوة عند نيتشه أن تكون مؤثرة و تعمل بفعالية لا تنقطع، و تأثيرها الذي لا يقاوم يكمن، ليس في أي حقيقة، و لكن في سحر السير نحو الحدود القصوى و ما بعد الهاوية – السحر الذي يحارب معنا و في صفنا هو سحر الأماكن القصوى، الإغراء الذي تمارسه كلّ الأشياء القصوى. ليس هناك قيود مفروضة على الأوامر غير المشروطة، و ليس هناك حدود إلاّ حدود إرادة القوة. ليس للصراع من هدف إلاّ هدف إرادة القوة الخاصّ بها. و لكن ضمن العنوان الذي تزودنا فيه ميتافيزيقا القوة عند نيتشه، يكون الغموض و الالتباس و عدم الوضوح شيئاً عاماً، و ليس سوى العدمية تطل برأسها و تقف هناك فقط إرادة القوة كواقع حاضر باستمرار علينا تقليم أظافره و تقويضه.

و بذلك، أنّ كلّما يظهر في عالمنا – بالمناسبة العالم دائماً في تناقض مع نفسه، يتغيّر و يكون في صيرورة، ليس له أصل و لا غاية – هذا يبدو أنّه ذات طبيعة قسرية و بلا قانون. و لكنه في نفس الوقت يعبر عن واقعية و قوة قانوننا الإبداعي، انتصار القوة وحدها دون اللجوء إلى الترسندالي المتعالي – قانون القوة. و بينما توجد الرغبات الجامحة بين صفوف العامة و طبقة العبيد – هؤلاء الميؤوس من شفائهم – بدوائر تضيق و تكبر حسب الحاجة و مقتضياتها، نجد أنّ القوة الإبداعية تقتصر على الطبقات الحاكمة السامية للسادة. و بينما تشكل الطاعة – و التي هي مريحة أكثر من التفحص – وظيفة طبقات العبيد الضعفاء غريزياً، تقوم طبقة السادة في إصدار الأوامر، لأنّها تمتلك القوة و المقدرة و زمام الأمر و الحال كلها في يديها. من المتعارف أنّ طبقة العبيد – العنوان الفاقع للزمن الرخو – بحاجة إلى الأوهام، لأنّها ضعيفة و غير قادرة على تأكيد نفسها وحقيقتها ذاتها دونها؛ من جانب آخر، تقوم طبقة السادة بحماية طبقة العبيد الضعفاء و حتى خلق الأوهام الضرورية لهم. و في حين رفض هذا الوهم بذاته أن يتم استبداله بسيادة التفوق عند السادة،

فإنّ الوهم المفترض للترسندالي مع هذه التأويلات، و بسخرية وافية، يشكل عندهم الوهم الدنيوي لإرادة القوة.

و بهذا الاعتبار، إنّ ما يريد نيتشه توصيله و إبلاغه عبر سلسلة لا متناهية من التنوعات و الاختلافات من التأويلات لمفهوم إرادة القوة المقترح بفعالية هو في الواقع التعبير عن الإنسان الحي الذي ينكمش و يتقلص و يصغر و يتلاشى ليُرمى به أخيراً إلى هاوية العدم. يستمد نوع التفلسف عند نيتشه قوته و مقدرته من قدرته على الذَّهاب بعيداً خلف حدود الهاوية دون خَشْيَة، يقطع الطريق كله كي يصل إليها، ثم يدفع بها إلى مدياتها القصوى كي يصل إلى نتائج يلتزم بها و يقبل بها و يستجيب إليها بشجاعة مهما كان الثمن الباهظ الذي تطالب فيه. و لما كان نيتشه يتبع خطوات هذا الطريق الشائق و المخيف و لا يحيد عنه يمينا أو يسارا، فإنّ المرء يمكن أنّ يصفة بأنّهُ حقاً الممثل التاريخي الأول من بين الفلاسفة الذين يتطابقون تماماً مع فكرة العالم دون إله. و لكن، و بما أنّ تفكيره أكثر و أكبر من ذلك التماهي بكثير (أعني – لأنّه يعرف أنّه ينكمش و يتقلص من العدم، فأنّه يحاول أن يتعالى و يتجاوز في تفكيره و لا يربط نفسه بأيّ فكرة مهما كانت و لا نستثني من ذلك فكرة العالم دون إله)، فإنّنا يمكن القول إنّه ليس فقط الفيلسوف الذي لا يؤمن بوجود الله في هذا العالم، بل أنّهُ أيضاً يبني كلّ تفلسفه على هذه الحقيقة. لهذا السبب، من جهة، يبحث نيتشه و يستقصي و يحلل طبيعة الإنسان، الذي يعدّ نفسه بوصفه مجرد نوع من أنواع الحيوانات الذكية، بينما في نفس الوقت، من جهه أخرى، يرفض أن يذهب ما بعد حدود العلم الوضعي – كلّ أنواع الاستياء و الارتياب و الندم و امتهان الذات و تعب الضمير – الطبيعة، البيولوجيا و النفعية. حين نستبدل عملية التفلسف و حدودها عند نيتشه بالأطر النظريّة العلمية للعلوم المختلفة و مرجعيتها، فإنّه سرعان ما ستغرق فلسفته و تنحط إلى مستوى علم البيولوجيا، الطبيعة، و الأشياء الهادفة و الحوادث المغرضة التي تحدث في هذا العالم، و تتحول فلسفته ببساطة إلى لا– فلسفة. هذا الانْقِلاب و الانعكاس، متبوعاً بالرجوع إلى الفلسفة، يحدث دائماً و يأخذ مكانه في تفكير نيتشه كعادة لا يمكن الإقلاع عنها: إنّه يعادل في تأثيره و يساوي تَجْرِبة العالم دون إله، التي لا يمكن أن تبقى هي الأخرى على حالها، و تأخذ نصيبها من التحول و التغير و الارتداد شأنها شأن كلّ شيء آخر.

المرء لا يستطيع القول في ظل عدم وجود الله – الألم الناتج عن غياب الحب العظيم – لن يكون هناك تفلسف، لكنه يستطيع القول بدلاً عن ذلك إنّه دون الترسندالي لن يكون هناك أيّ فلسفة،

و لن تقوم لها قائمة بمعنى الكلمة. هذا هو السبب وراء سر الاستقبال الحار، من قبل البعض، الذي مُنّح إلى وجهة نظر نيتشه بخصوص فكرة العالم دون إله و السفسطة المرافقة التي تبحث بطريقة شرهة عن أسلحة لفظية دون أيّ سّؤال يذكر، و الميل للقَبُول المباشر، بلا إخفاق، في موقف نيتشه العدمي بوصفه أطروحة غير فلسفية – على عكس ما كان نيتشه يدعي – و أن انكماشها و تقلصها و انتهائها إلى العدم يؤدي بطريقة لا مفر منها إلى محدودية في التعبير و لكن يمكن مقابل ذلك لا محدودية في الإمكانات التي تتيحها ممارستها.

إنّ ارتداد و رجوع نيتشه إلى غير الفلسفي (تحت حُجَّة أو بمظلة أنّ غير الفلسفي هو كلّ ما تبقى في المضمون) هو في الواقع سوء فهم عام يلحق بنيتشه يمكن أن يستخدم فقط بواسطة القُوَى التي يعارضها بقوة – على سبيل المثال: الاستياء الذي يحول ضعفه إلى حسابات و اعتبارات عظيمة التأثير حين يتم انتهاك العالم و البشر الضعفاء؛ العنف الذي يخلط فكرة إرادة القوة كأساس للرتبة مع تبرير كل نوع من أنواع الوحشية؛ العدوانية نحو الروح الذي تمجد الحياة كعملية حيوية؛ الكذب الذي يستخدم مفهوم نيتشه للوهم كحقيقة لتبرير الكذب كله؛ اللامبالاة التي ترفض كلّ شيء كي تؤكد أن وجودها أمر طبيعي.

و لما كان حدود التفلسف عند نيتشه تحول إلى لا فلسفة – المجازفة في كل شيء في التفكير – توصل نيتشه إلى التعبير الرهيب لعالم دون إله و الإشارة إلى الحقائق الأخرى الذي تقف مقابل الفلسفة. و بذلك، يفترض نيتشه، في هذا النوع من التفكير الكثير من المواقع التي تبرهن أنّها في النهاية ميتة. بعبارة أخرى: في شجرة نيتشه المحملة بالأغصان من كلّ نوع هناك أغصان تذوي و تذبل و تموت بسرعة و لا تثمر بعد ذلك.

لكن فكرة العالم دون إله عند نيتشه مع ذلك تمتلك عظمة دائمة لا تقهر:

لايعتبر نيتشه الحقيقة – و ما يبرهن عليها هو ازدياد القوة و المنفعة و كونها لا غنى عنها، باختصار هي المزايا – يمكن أن توجد بطريقة أبدية دائمة – أما وجود أو عدم وجود الله. إنّ الحقيقة التي تتحدث بواسطة نيتشه، حين يتعالى على العالم و الناس، لا يمكن إطلاقاً أن يُقصَّد منها أن تكون ذات طابع دائمي و أبديّ، و لاسيَّما في الصيغة التي يتم التعبير فيها عنها. في هذه المِيزة نيتشه لا يمكن أن يقهر.

كان نيتشه يرى، في طراز حالم مُمتلَئ بالرؤى، وجود العالم دون إله كقوة يمكن أن تسيطر و تهيمن على الأرض. إنّ الوجود الذي لا يمكن إنكاره لهذه القوة سيستمر، بعد زمنه، فقط بالزيادة و النمو بطريقة تثبت، طبقاً إلى نيتشه، أنّها قوة لا تقهر.

فيمَا يتعلق في التَجْرِبة الراديكالية، التي ترك مسألة المضي فيها إلى النهاية، بسبب إخفاقه في التعاطي مع الترسندالي، إنّها تعد حقاً خطئاً رائعاً، و الفضل هنا يعود إلى جدية تجربته و قوة تعبيراته بهذا الصدد. كما لا يفوتنا القول أنّ هذا الخطأ ضروري و مثمر بطريقة دائمة بما أنّه يشير بشكلٍ غير مباشر إلى الحقيقة مع قوة مقنعة. المرء لا يستطيع أن يفهم الحقيقة أو يقبض عليها بكليّتها و نقائها. فكما أنّ الضوء موجود لنا لأن هناك ظلمة، كذلك نعثر على الحقيقة حينما ننجح في التخلص من الخطأ و الزَّيف المقابل لها. للمرة الثالثة يبدو لنا نيتشه فيلسوفاً لا يقهر.

بغض النظر عن الدور المهم، و الوظيفة الحيوية، التي يمكن أنّ تلعبها فكرة العالم دون إله، فإنهّا مع ذلك لا تعد ممثل أو عنوان رئيس لتفكير نيتشه كليًّا. لأن نيتشه اكتشف أيضاً فيها العناصر المتعارضة مع هذه الإمكانية من الوجود – و عقد العزم على فعل ذلك بتروي و صبر. هذه الصياغة، وبالرغم من تأثيرها الكبير، هي في النهاية مجرد طريقة واحدة، من طرق عدّة، للتعبير عن المعنى الذي يروم نيتشه إيصاله، و تمثل حقاً مقاربة فلسفية جديدة تغوص عميقاً بحثاً على الجذور و أصول و جينيالوجية تكون و تشكل الأفكار.

التفلسف الجديدة

يمثل مفهوم عالم دون إله التعبير الأكثر جدية و صرامة في إحداث القطيعة التامة مع الجوهر التراثي التاريخي الإنساني المحمل بدروس الفواجع، من حيث إنّ لغة الأخير و أفكاره كانت تدعي حيازتها على الصَلاحِيَة الكُلّية المطلقة التي لا يرقى إليها الشك. طبقاً إلى نيتشه، كلّ المثل الإنسانية السابقة انتهت إلى لا شيء، إلى العدم. يرفض نيتشه رفضاً قاطعاً نظم الأخلاق المسيحية، الذي يتقدم فيها الإله بنفسه كفدية لكي يفي ديون الإنسان، و استسلام العقل – بوصفه نقطة ارتكاز ناظمة للوجود الفردي و الجماعي – و الإنسانية و انحلالها. يرى نيتشه الحقيقية في هذه النظم بوصفها كذبة كُلّية حالها حال المفاهيم و المقولات الكُلّية الموجودة في الفلسفة السابقة التي كانت

المسؤول الأول عن إرساء دعائم الكذب و الزَّيف. إنّ المسيحية، عند نيتشه – بوصفها انتصاراً المهمشين، السطحيين و العجزة الواهنين، و خائبي الرجا، الضعفاء و الحثالات، أدوات الحضارة، التي عرفت تَجْرِبة الفقر و عانت مرارة البؤس – لا تحوي أيّ شيء مقدس أو شرعي أو صالح لم يقم نيتشه بشجبه و إدانَته و تقويضه أو هكذا على الأقّل يبدو. مقارنةً بالقطائع الفكرية التي حصلت و أحدثها الفلاسفة السابقين دون شك – التي كانت في طبيعتها عملية بعض الشيء و لكنها محدودة، بما أنّ وجود الثوابت و المتغيرات و المعايير الرئيسية المسلم بها و المبنية على أساسّ رخو من الفكر المثالي ظلت كما هي لم يقم أحدٌ بمسها – تعدّ القطعية التي أحدثها نيتشه مع التفكير الفلسفي عموماً بمثابة الكلمة الأخيرة، و المثال الأكثر تطرفا من نوعه (ne plus ultra) الذي شهده تاريخ الفلسفة و لم يعرف مثله من قبل. كان نيتشه – نقياً و دون مكر و بريئاً و عذباً بلا حدود مع الآخرين و قاسي مع نفسه فقط، و حين ينسحب إلى عزلته فإنّه كان يفعل ذلك لإحساسه أن الأعمال المطلوبة منه قاسية و أن سعادته محدودة – يفكر في كل اتجاه و زاوية من الزوايا و في كل نتيجة من نتائج القطيعة التي أحدثها بدقة و بطريقة من النادر أنّ يقوم أيّ شخص أخر بعده أو يجرؤ بدفع هذه النتائج خطوة إضافية أبعد نحو الأمام في الاتجاه نفسه. كان التحليل المتشائم و التوقعات الرهيبة للانحلال و التفسخ النهائي، التي بدأت ملامحها تلوح في الأفق في عصرة تنعكس بقوة في تعبيرات و أقوال نيتشه – و لعل ذلك من أهم العوامل – الذي كان يرى أُورُوبَّا و بسبب الضغوطات الخارجية التي تنعكس عليها داخلياً آيِلَة لا محالة إلى السُّقوط و الكارثة. كانت رؤية نيتشه الفلسفيّة، في رهبتها المؤثرة و كآبتها المشؤومة، أصيلة و حقيقية و صادقة، بالرغم من أن تبدو مرحة و فَكِهَ بعض الشيء حينما يتم التعبير عنها بواسطة الآخرين لاحقاً في السنين التي تلت نيتشه. بالضِدّ من كلّ الفلاسفة السابقين، كان نيتشه مختلفاً في الأساسّ و الجوهر عنهم؛ و بما أنّ قد تعرض إلى هزة قوية من جَراءِ ما يحدث وما يلاحظ و يدرك من حوله و يرى ذلك بعمق، فإنّه كان قد رهن حياته كلها مفكر للاقتراب من المستقبل الذي لا يتضمن أيّ عرض من أعراض انحلال الإنسان و انحداره و تفسخه. ليس هناك أيّ موقف خاص من مواقفه الفكرية أكثر جدية و أصالة رهيبة في حياته مثل موقف إعلان قطعيته مع كلّ شيء من حوله. تشتق البواعث و النوابض الفكرية لهذه القطعية البطولية مع كلّ الأشياء ليس من إرادة القطعية و السلبّ بل من إرادة التأكيد و الإيجابّ.

هنا، ينبغي للمرء أنّ يتسأل كيف تسنى لنيتشه أن يقبض و يعبر عن النَعَمْ في كامل إيجابيتها؟

إنّ مفاهيم ((السوبرمان))، ((إرادة القوة))، و ((العود الأبديّ))، التي لا تنفكّ عند نيتشه عن مراجعات آلياتها و تصوراتها و رؤاه، التي نسيت الألفاظ التي استخدمها و أصبحت لا تتذكر إلا الفكرة التي أفصحت عنها، كانت كافية لأن تقلب أفكارنا – تيار أفكارنا كله يقوم على الافتراء على الحياة – رأساً على عَقِب، و لاسيَّما حين تصبح جوانبها الإيجابية صريحة و جلية و محددة لنا، إذا جاز التعبير. هذه المواقع الفكرية الثلاث، التي قام نيتشه بتطويرها و دفع بها إلى مدياتها القصوى، تثبُت أن لها الكثير من المعاني الواعدة: مع أنّها في موضوعيتها المباشرة تبدو هذه المواقع محبطة نوعاً ما، إلاّ إنها لديها القدرة على تنشيط و الكشف عن الأعماق الداخلية الدفينة للإنسان، التي لكثرة ما تم التعبير عنها بطرق خاطئة فقدت معانها الحقيقي. بواسطة كشف النقاب عن الميتافيزيقا، و عن مضامينها المباشرة، التي لم تعد تهمنا كثيراً، يضيء نيتشه، في هذه المواقع الثلاث، البعد الوجودي للإنسان بلمحات سريعة من الأنوار الخاطفة، و ليس مع ضوء داعم و مؤازر مستمر، قادر على الكشف عن الوجود في وضوح مسالم. إذنْ، ينبغي أن نقدم أكثر من مجرد مضامين واقعية و أهداف حالية على الفور (إلقاء الضوء حتى على فراغها و خوائها إذا اقتضى الأمر و كان من الضرورات)، لأن هذه المضامين فحسب ليس من شأنها إطلاقاً و بأيّ طريقة من الطرق أن تستجيب إلى التحدي الذي تطرحها الأسئلة؛ و فوق كلّ ذلك، هدفنا هو الكشف بقدر المستطاع عن المعاني الخفية عند نيتشه. هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، يمكن أن يتم إنجازه بواسطة اللجوء و الاحتكام إلى الجمل و الفقرات الواعدة و المهمة المبعثرة هناك و هناك في نُصوص نيتشه المختلفة التي يمكن أن تنقل لنا معاني أكثر من المواقع الثابتة ذاتها في هذه النُصوص نفسها.

ليس الصورة النمطية الثابتة و الحتمية عن نيتشه هي التي تزودنا بصورة إيجابية عن تفكيره الحقيقي، و لكن الجانب المتحرك المتغير الديناميكي الذي يعبر عنه نفسه بواسطة منظورات و آفاق لا حصر لها فحسب في فلسفته. و لكن، لما كانت كلّ الروابط بين أفكار نيتشه رخوة و غير معقودة الصلة بقوة و كلّ الآفاق و المنظورات التي يطلقها هنا و هناك يتم تجاوزها بين الحين و الآخر، فإنّ تفكير نيتشه يفقد نفسه و يضيئها في العدم.

أخيراً، حين كان نيتشه يحث عن الإيجابّي في الصور و الشخصيات التاريخية، كان يصل في الغالب إلى رموز عقيمة غير مجدية – فبلاغاتها الفصيحة و وجهات نظرها النافذة و الثاقبة تفتقر إلى القوة القاهرة للشيفرات الميثولوجيّة.

بعد القيام بالقطيعة الفكرية مع كل تاريخ الفلسفة السابق، و قطع علاقته بكلّ الأسسّ و الأرضيات الراسخة الأساسيّة التي كان يقوم و يرتكز عليها، وجد نيتشه – التي كان طوال حياته تعذبه و تجدده كلمة صعود الإنسان – نفسه وحيداً في عرض البحر، يتعلق في قشة مذهب العود الأبديّ و المذاهب الدوغمائية الأخرى المرافق له كالرجل الغريق الذي انهكه التعب متمسك بقطعة من الجليد الطافي في البحر الذي سرعان ما تذوب هي الأخرى. حينما أصرَ نيتشه على الذَّهاب خلف حدود المديات القصوى و الهاويات فهذا لأنّه أراد أن يطير وحيداً في الفراغ. بواسطة توظيف الرموز و الاستفادة منها، يكشف نيتشه النقاب على كل الأقنعة الميتة الكئيبة التي ترتديها الإنسانية. بيد أنّه و لا واحد من الدروب التي سلكها نيتشه آتت أُكلها و نجحت في مساعيها بصورةٍ دائمة.

في ذات الوقت، ليس المذاهب الفكرية التي طرحها نيتشه عابثة و عديمة الجدوى تماماً، لأنّها ببساطة تبدو في المحصلة النهائية جميعها لها عَلاقة وطيدة و تُضيء في نفس الوقت تاريخية الوجود الإنساني (Geschichtlichkeit der Existenz)، و تزوده بالبواعث و الأهداف. كان نيتشه يبحث عن مقاربة غير مطروقة و لم يسبق أن يتم التفكير بها من قبل – جوهر جديد يكون السيد الأول على التفكير و الأفكار كلها. و مسالة تحقيق هذه الأمنية من عدمها في نمط مُضيء واضح هذا يعتمد في الواقع على نوعية و طبيعة التفكير المعتمد للتعبير عن المصدر، لأن المصدر في النهاية لا يمكن أن يعبر عن نفسه إلاّ بصورة غامضة و ملتبسة. هنا، يبدو كما لو أن تفلسف نيتشه يمس برفق و يمسد على رأس الوجود الإنساني في تاريخيته بطريقة غير واعية دون القبض عليه بصورةٍ حاسمةٍ – و كما لو أنه يصر أنّ علينا أن نرجع إلى تاريخنا و نتناوله من الزاوية المحددة للتفكير و الزاوية غير المحددة معا. و لكن يظهر غالبا أنّ نيتشه بذلك كما لو أنه لم يعد يفكر في الأسسّ الأصلية للتاريخ و يبتعد عنها.

تُجبر إرادة البحث في التاريخ الوجود الإنساني نيتشه على أن يذيب الاختلافات و التناقضات و الهرمية و أشكال التراتبية و الفوارق كي يصل إلى مصدر جديد غير معروف أو مطروف سابقاً. كُلَّما كان نيتشه يكشف النقاب عن الخطأ، و المظاهر الفاسدة، و يضيء حجم الزَّيف، و الفراغ و الخواء غير المحدد الملامح، و يكشف عن زَيف أسسّ التفكير و الاعتقادات المقررة و المقَبُولة، كُلَّما غدا تفكيره و بدأ يشبه العاصفة التي تقلع الأعْمِدة الأساسيّة و الجذور من أسسها، و يعبد الأرضية و يخلق أجواء نقية للعمل الفلسفي. كانت محاولته لتقويض نظم الأخلاق – إنّ الأخلاق في

ذاتها و الخير في ذاته لا وجود له، و أن الحديث عن الحقيقة في هذا الميدان يعد ضرباً من الجنون، فأين كانت النزاهة الفكرية في هذه المرحلة – التقليدية و المتعارف عليها حاجة ماسة و مطلباً ملحاً يفرضه الوضع الحاضر الذي يعيشه: لقد فتح هذا التقويض و التصدعات الكاشفة لكوامن التراكيب الأولية التي استهل نيتشه خطواته الأولى الباب على مصراعيه و عبدَ الطريق إلى مسار الفلسفة الجديد – بوصفها نواظم اجتماعية مستجدة – في البحث بطريقة جديدة في الوجود الإنساني. لأنّه مادام أنّ الحياه تقوم على الحقائق البديهية الواضحة - بذاتها و المفروغ منها، و لا يتم قَبُولها بطريقة مشروطة، تبقى الفلسفة عملاً و نشاطاً غير مؤذي بين النشاطات الأخرى، و ((موضوعاتها)) يتم اختيارها باستمرار كنتيجة إلى الصدفة و الظروف الطارئة. فقط حين يتم رفض الحياة و نبذها و إعلان عدم الرضا عنها يصبح من الممكن حقاً ممارسة التفلسف الحقيقي على الوجود الإنساني فيها.

حينما نقارن الظروف التي مر بها نيتشه و عاشها بتفاصيلها الحلوة و المرة في ألمانيا بالظروف التي عاشتها فرنسا إبَّان حدوث و اندلاع الثورة الفرنسية، يصبح واضحاً الآتي: فمن جهة، تعدّ قطعيته مع تاريخ الفلسفة كليًّا أكثر راديكاليّة و عنفا، في حين، من جانب آخر، لم يقطع علاقته تماماً بالتراث الفلسفي بغض النظر عن الطريقة التي يتغيّر و يتحول بها هذا الأخير و يظهر. لم يكن نيتشه فقط يكن دائماً آيات التقدير و الإعجاب للفلاسفة الطبيعيين ما قبل-المرحلة السقراطية بوصفهم يمثلون النموذج السامي للتفكير الذي لا يمكن الوصول إليه و بلوغه بالنسبة للإنسانية (التي تم استبدالها بصناعة كتاب العهد الجديد للمسيحية)؛ بل أنّهُ أيضاً لم يهمل أو يتجاهل إطلاقاً إمكانية دراسة التراث التاريخي للإنسانية أو لم تسوّل له نفسه أن يبدأ عمله الفلسفي من جديد من نقطة الصفر أو من بربرية جديدة تستهل عملها مع مادة معرفية أولية جديدة. لقد هيمن على تفكير نيتشه كله، و اخترقه من أوله إلى أخره، هاجس الانشغال في عظمة الماضي، الذي تظل الصور الذي نركبها عنه جزئية و تقريبية مهما استخدمنا من مناهج علمية دقيقة – حتى حين كان لا يخفي أحياناً مظاهر الامتعاض منه و تأكيد رفضه له.

إن تفلسف نيتشه الجديد – و مع أنّ نبرته الحادة و القاطعة التي يصرح فيها عن أفكاره، و الإثارة التي يحدثها من حولهِ، و النتائج المؤثرة التي يخلفها، و قسوة الهجوم المتواصل، الذي لا يكل و لا يمل، الذي يشنه على كلّ شيء ثابت و دائم – لم يكتمل أو يصل إلى صورته النهائي. إنّ

الصراع الناشب غير المسبوق لكلّ مشاعره، و تجاربه و إرادته تعبر عن نفسها في صيغة من الأفكار التي لا تصل مطلقاً أو تبلغ أهدافها.

السلبية المطلقة. — في مسار الديالكتيك السجالي الواقعي، يسمح نيتشه حتى إلى التناقضات و الاختلافات أنّ تنمو و تزداد قوة و عمقا. في هذا النوع من التفلسف الذي يتبعه نيتشه كلّ شيء عليه يعاكس و يضاد نفسه: حتى الأمانة تضع نفسها موضوع السّؤال و الحساب العسير، مفهوم العالم دون إله، الذي أراده نيتشه بقوة و رغبَ فيه، أخفق في تقويض البناء الإلهي الذي شيدته و رسخته الغريزة الإنسانية تاريخياً، إرادة رفض النبوة مازالت تتسامح مع التنبؤات السخفية و التافهة التي لا تصدق، شخصية ديونيسيوس مقابل شخصية المسيح المصلوب، و كلاهما يمكن أن يكون نيتشه.

إذا كان لا يوجد هناك شيء محدد يبقى ثابتاً و على حاله في المذهب الفلسفي المتعلق بالكلّ الذي يسعى نيتشه إلى إقامته و كلّ محطة يصل إليها سرعان ما يتجاوزها، فإنّ النقطة الحاسمة و المِميزة في تفلسفه هو أن تفكيره لا يمكن أن يكون له مضمون محدد ثابت و شكل نهائي – بغض النظر عن الطريقة التي يكون فيها هذا المضمون بارز و مؤثر و مهيمن في عمله كله. مع نيتشه، من المهم أن نكتشف و نضع أيدينا على حقيقة أنّ كلّ ما يقولة يكون موضوع للسّؤال بشكلٍ ثابتٍ لا محيد عنه، و كلّ أفكاره بلا استثناء – نتيجة لقصد و غاية و ليس نتاج نزوة أو هوئ مفاجئ – في تحول دائم و سجال يقوض الواحد منها الآخر بواسطة حرب و صراع التناقضات.

و الأهم من كل ذلك، يسعى نيتشه إلى هدف و مجال خصب لأفكاره – و في تلك المسألة يكمن جوهر الوجود الحقيقي المكشوف عنه النقاب. كان نيتشه – الذي يعرف أن على المرء أنّ يكون سيد نفسه ليدخل الصراع و هو مدجج بالحجج و ليس بالهوى – يهدف إلى تقويض كل صيغة من صيغ الوجود السابقة و القديمة، و كلّ قيمة، و كلّ ماهية ثابتة ضمن هذا العالم، و إبراز ذلك الجزء المخجل من عالمنا الداخلي: ((كتاباتي لا تتحدث إلاّ عن محاولات التقويض الذي أقوم بها)). كان نيتشه يطلب الوصول و بلوغ الوجود الأصيل الموثوق فيه بواسطة التمسك و الالتصاق بكلّ ما هو متغير و لا نهائي.

كانت عملية التقويض في تفكير نيتشه تنجز عملها و تتمه بواسطة أسلحة ((الشك)) و ((أفشاء الأسرار)). الشك، ببساطة، هو الموقف الذي لا يسمح بأيّ شيء، مهما كانت أهميته و معناه و دلالته، ألّا يكون موضع السّؤال و النقد و التمحيص. ليس بمعنى أنّ الأشياء – التي لا تمشي بانتظام و طبقاً لقاعدة ما – ينبغي الشك فيها لوهلة من الزمن ثم يتم إعادتها إلى وضعها السابق حين يتم الانتهاء من الشك و رفضه – بل أن هذه الأشياء المشكوك فيها يجب أن تتغير و تتحول في الشكل و المضمون إذا أرادت أنّ تشترك فعلياً في الوجود. نيتشه كان على يقين في اعتقاده أنّهُ ((ليس هناك أيّ فيلسوف من قبل نظرَ بعين شاكة للعالم بعمق))، و بذلك وصف مجمل كتاباته بوصفها ((دراسة للشك)). بهذا الصدد يقول: ((إنّ الكثير من دراسة الفلسفة)) يعني ((أنّ تشرئب و تقوم جميع أصناف الريبة و الشك و الخَشْيَة و الكثير من عدم الثقة و ينهار الإيمان بالأخلاق)). أما بخصوص إفشاء الأسرار، فإنّه لا يعني عدم الإيمان و مغادرة مخزية مترنحة، و لكنه استسلام الجواهر التاريخية التي أُستهلِكت و غدت خزائنها خاوية و فارغة نتيجة لضغط الضرورة الممارس علينا و الذي مازال غير مفهوم بعد – إنّه إمكانية الوصول إلى مصادر شيء مختلف راديكالياً يعيش وَسْط مخاطرة الوجود بذاته. في وقت مبكر من حياته الفلسفيّة، كتب نيتشه الآتي: ((مدفوعين بقوة الروح))، نحن نقفز بخطوات واسعة ((من رأي إلى رأي آخر بواسطة تغير الأطراف و الجماعات، حين تفشي شخصية النبيل إلينا بكل ما أوتيت من قوة أسرار كلّ الأشياء بلا استثناء)).

لكن بداية مهمة كشف النقاب عن الأشياء و نزع الأقنعة التي ترتديها تصبح بالنسبة إلى نيتشه علامة من علامات وهم الوجود في كليّته – و أن هذا الوهم هو في الواقع الحقيقة الوحيدة التي في متناولنا دون شك. أن حركة الديالكتيك، الذي لا نهاية له، لا تسمح في الراحة في أيّ محطة من المحطات، أو في أي نقطة من النِقَاط، و لا تزودنا بأيّ شيء ثابت و دائم لا يتغيّر نتمسك فيه و نُمني النفس في الالتصاق به. مادام أنّ هناك على قارعة طريق الديالكتيك أشياء لم يكشف النقاب عنها، و يتم نزع أقنعتها التداولية الزائفة، فإنّ الاختلاف و التميز بين الصواب و الخطأ، الحقيقة و الزَّيف، سيظل قائماً. و لكن حين لم يعد التقويض يكشف النقاب و ينزع الأقنعة الزائفة لغرض الحقيقة، بل يصبح بمجمله إلغاء و إبطالاً كليّاً لكلّما هو واقعي، حينها فإنّ التميز بين تلك الأشياء التي يمكن أن تفشي أسرارها و الأشياء التي تدافع عن نفسها – يصبح أمراً لا يطاق و من المستحيل الدفاع عنه، لأن كلّ شيء يخضع إلى عدوى أفشاء الأسرار و الخيانة. كل شيء يعتقد نيتشه أنّهُ يتغيّر و يتحول إلى إمكانية يصبح بذلك لحظة من لحظات الصيرورة. لكن ما كان نيتشه يريده حقاً الارتباط مع

الترسندالي التراثي بواسطة حقيقة أنّهُ يذهب في تفكيره بعيداً خلف كل صيغة أو صورة ملموسة في العالم، خلف كلّ موقع و كلّ هدف – أنّ الترسندالي الذي يبحث عنه نيتشه مختلفاً عن مفهوم الترسندالي المألوف ببساطة بواسطة حقيقة أنهُ في النهاية لا يبقى معه أيّ شيء و لكن الكلّ يتلاشى و يموت.

لا يمكن أن نصل إلى المحطة النهائية حين نفكر و نطيل النظر في طروحات نيتشه معًا. كُلَّما اعتقدنا أننّا أخيراً وضعنا أيدينا على الحقيقة النهائية في تفكيره – القبض على الحقيقة – تجبرنا خصوبة تفكيره، القائمة على أنّ الحقيقة ليس جوهراً يتعالى على شروطه، أنّ نتخلى عنها و نواصل الطريق بلا توقف. المرة تلو المرة، يبدو أنّه في النهاية، مع نيتشه، لا يبقى أيّ شيء على حالة و الكلّ يتم تجاوزه و التعالي عليه. السلب المطلق – سواء ظهر على هيئة عدم ثقة و شك، أو في هيئة تقويض، أو في هيئة تناقض حاد، أو في هيئة دوام و ثبات في طريق التناقضات – يشبه العاطفة التواقة إلى العدم، التي تحتوي على إرادة تريد أن تغامر في كلّ شيء في بحثها عن الوجود الحقيقي و الأصلي غير المزيف الذي لا يمكن أن يبلغ صورة محددة. هذه الإرادة تنوي أن تحضر الحقيقة من الأعماق و الأغوار الدفينة، حيث لا يمكن القبض عليها دون التناقض – تريد أن تعبر عنها و تدفعها باتجاه رمي بذورها في أرض خصبة يمكن أنّ تثمر بها، و تحاول أن تكشف ما تحاول حتمية التفكير – ليست الحتمية واقعاً ملموساً بل تأويلا – أن تحجبه، كما تريد إرجاع تاريخية الوجود الإنساني إلى ينابيعه و أصوله الحقيقية.

الإشارة إلى ذلك الذي ذكرناه آنفاً عن نيتشه هو الإرادة التي تقول نعم – تلك الذي تخترق جسد كتابات نيتشه من رأسها حتى الأصابع. بينما يصل تفكير نيتشه إلى أعلى نقطة في القمة بواسطة فكرة أو مذهب العود الأبديّ و فكرة أو مذهب حب القدر (*amor fati*)، فإنّهُ في الغالب يقدم نفسه بوضوح إشارة إلى سلبه للعدم. مع هذه الفكرة التي ما انفكتّ تراود ذهنه، بوسع زرادشت – الشخصية الرئيسية في نصّ نيتشه ((هكذا تكلّم زرادشت)) – أن يقول الآتي: ((كم من الأشياء نجحت حتى الآن في مسعاها! ما مدى ثراء الأرض و ما تملكه من الأشياء الصغيرة الكاملة الخيرة – الأشياء التي نمت و ظهرت بشكل جيد!)). بدلاً من السير في طريق السلسلة الطويلة المتناغمة من الإنكارات النهائية للعدم الأخير؛ يفضل تفكير نيتشه السير في طريق سلسلة التناغمات التي لا تعد و لا تحصى التي تؤكد على النعم الأخيرة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى.

التجريب. ــــ يحتوي السلب المطلق عند نيتشه و ينطوي على نوع من التفلسف يحدد كلّ أفعاله الإيجابية في المحاولة و التجريب (*Versuchen*)[94]. بالنسبة لهذه الفلسفة ((الخطيرة ربما)) كلّ شيء يتم ملاحظاته و اعتباره بواسطة العَلاقة بالأفق الأخير غير المنتهي، و يصبح في المحصلة النهائية مجرد خطوة أولية تمهيدية. و بذلك، لا يوجد شيء لا يمكن أن يكون غير مُجرب: ((مَثل هذه الفلسفة التجريبية (Experimental-Philosophie) مَثل الحياة التي أعيشها بواسطة التوقع، عن طريق التجريب حتى لإمكانية العدمية الأساسيّة، حيث لا نقول أنّها تنتهي... في سلبّ)).

التفلسف الذي يمضي في التفكير بطريقة تجريبية، و يجرب الإمكانات الواحدة تلو الأخرى، يكون سيد على التفكير بدلاً من أنّ يكون عبدا له. دون الغرق في بحر الشكية يروم هذا التفلسف و يتمنى، بواسطة السيادة على أنواع عديد من الشكية، أنّ يعبد الطريق إلى واقعية الوجود التاريخي للإنسان و للفعل، يعبد الطرق إلى إجَراءِ التحقيق و السّؤال عنه – بعيداً عن كونه مجرد تفكير في الحقيقة – حيث يصبح الحقيقة الأولى الذي تكون كلّ الحقائق المفهومية بالمقارنة معه و تبقى مجرد تجارِب وإمكانات.

هنا الفرق بين فكرة التجريب في التفكير النيتشوي و المسؤوليَّة التعسفية و المتقلبة بلا ضوابط و لا قوانين. لم يجد نيتشه صعوبة في تطبيق مفهوم التجريب الفلسفي، الذي تبناه طوال حياته الفلسفيّة و لم يتوقف عن ممارسته، و لاسيَّما حين يكون في مواجهة، أو هكذا يرغب، مع المذاهب الفكرية الأخرى عن العالم بواسطة استحداث و طرح مذهب فلسفي مُصّاغ بطريقة جديدة: الحال عند نيتشه هنا ليس عبارة عن دوغما في مواجهة دوغما أخرى مختلفة، أو رؤية كونية (Weltanschauung) للوجود تواجه رؤية كونية أخرى مختلفة عنها. بواسطة فكرة التجريب، لم يقدم نيتشه بشكل حاسم إيماناً ملموساً في العالم كي يدافع عنه و يوسع من أهدافه، أو ربما، يختبر خصوبة الأخطاء المقَبُولة بواسطة الصراع ضِدّها و يمكن زجرها بقسوة. فكما ناقش نيتشه، طبقاً لاستراتيجية التجريب، العديد من الأوضاع المعيشية في حياته – المعاناة، النبذ، التخلي، الانسحاب، و تَجْرِبة كلّ إمكانات التفكير حتى لم يتبقَ إلاّ القليل الذي لم يتناوله – كذلك ناقش عدداً كبيراً من الموضوعات و الأطروحات الفلسفيّة: يطلق نيتشه على هذا الهاجس الفلسفي الذي استبدَّ به و هيمن عليه، و الذي ما انفكّ يصفه بطريقة يغلب عليها الغموض، تعبير ((روح التجريب)). هذه الروح التجربية بدل من أن تكون غير مسؤولة لا ضوابط فيها، تمتلك أساساً عميقاً: الصراع فيها يتخذ

شكل و مستوى تماماً مختلفاً عن الصراع في الوجود ضمن العالم (الذي يوظف الحقائق المؤكدة المقررة و المتطورة دوغمائيا). كان نيتشه منغمساً، من الرأس إلى أخمص القدمين، في صراع الجوهر الملموس ضِدّ العدم. هذا الصراع الناشب يحدث في كل مكان – بمعنى، لا يكون في الوجود ساحات و جبهات معارك محددة بل كله يكون ساحة الحرب – إنّهُ عميق جداً، يعكس صراعاً حاسماً و فاصلاً في نفس كلّ فرد و في نفوس الناس عموماً. فهو صراع داخلي، غير مرئي، غير مسموع، يزود معناه الوجودي نيتشه بأسلحة وعدة فلسفية ملائمة لطرح الأسئلة العميقة الفاحصة، و يضع كل أنواع سوء الفهم و الإمكانات المرافقة له موضوع السّؤال، المطروح بواسطة شبكها يقيمها الإنسان شبكة مفهومية ذات مدلولات، و البحث و التحليل والفحص. تكمن رسالة نيتشه الفلسفيّة، في ممارسة التجريب، في العثور و إيجاد حالة التواصل المناسب مع الأشياء بواسطة طرائق المطالبة و الاستغاثة إلى الأشياء التي لا تتوقف عند أيّ مستوى من مستويات المعرفة مهما كان عمق تبصراته و نجاعتها– كما لو أن هذا التجريب يمثل الأداة التي تقدم لنا الرؤية النهاية و الصحيحة للوجود.

نيتشه كأضحية و قربان —– إنّ عملية التفلسف – الذي ليس لها نتيجة، و تمضي فيه الأمور كما كانت تمضي و تجري في البحث التاريخي المتحمس عن الله، يكون معرضاً للإدانة و الشجب و الوحدة و الهجران، لأنّه يقاس بمقياس الإنسان العادي و المتوسط – هو تفلسف غير طبيعي: ((إنّ الفلسفة التي لا تجعل من الإنسان سعيداً و فاضلاً؛ بل تجعل منه بدلاً عن ذلك حزيناً يشعر بالمرارة و الكآبة و الآسف نتيجة خدمتها و تبني أطروحاتها – أعني، يصبح وحيداً، منعزلاً و مهجوراً، و تترك في نفسه موقع يثير الوحشة و الآلم في زمانه... و بذلك، عليه أن يقبل أنواع متعددة من الشك و الريبة و عدم الثقة و الكراهيَة...، مثل هذه الفلسفة لن تنال رضا أيّ أحد و تكون مصدر استحسان: تريد مثل هذه الفلسفة أنصار لها، ناس جدد يولدون، لكني لم أجد حتى الآن أيّ أحد يتبناها أو راغباً بها. ...)).

يمكن للسلبية اللامحدودة و التجريب أن يُنجز كنشاط غير مسؤول للفهم بالتعامل مع كلّ الأشياء، من حيث إنّها تشكل العالم الخارج عن وجود الفرد. بيد أن هذه السلبية و التجريب – ليس عرضياً بل واقعياً – يمكن أن ملاحظتها و تلمس أثارها فقط حين يقفز المرء بكل وجوده في الهاوية

و أنّ يحطم كلّ شيء إذا تطلب الحال. بيد أن هذا يعني أن يجعل من نفسه قُربان يضحي بنفسه كي ينجز هذا الغرض.

أولا، يبدو أنّ نيتشه يضحي في نفسهِ و يقدمها قرباناً لما يعتقد أنّه يشكل اللحظة المهمة في المنعطف التاريخي الذي يود إحداثه بواسطة فلسفته. لم يعد نيتشه قادراً على الدخول شخصياً (propria persona) في عصره الذي لم يعد يحتمل بالمرة – لم يعد قادراً على الانسجام معه إطلاقاً. يجب أن يتم إقصائه من هذا العالم، كي يستطيع أن يرى من الخارج بوضوح، و يضع مسافة بينه و بين هذا العالم، إذا جاز التعبير. انطلاقاً من هذا الإطار نقول إنّ نيتشه كان مشوشاً بسهولة و مرتبكاً مع ما كان يقف ضِدّه و لا يمثله، لأنّه استمر، دون وعي و دراية منه، في التزام و تبني موقف و طرق التفكير عصره، الذي ما انفكّ على نقدها و الحط من قيمتها (كان طوال عمره يصارع، على سبيل المثال، بالضِدّ من المذهب الوضعي، و الفاغنرية)، كما لأنه فقدَ الروابط العامة مع الآخرين – و هذا سبب في غاية الأهمية – بواسطة شعور الوحدة المتنامي لديه، و بذلك فقدَ الآن كلّ اعتداله. مع نيتشه، لدينا رجل شجاع جازفَ، بواسطة فلسفته، في نفسه و بحياته كلها في مواجهة الأَزمة الروحية الكبيرة التي يعانيها الغرب من أجل أن يجرب شعور الوحدة القاتل و ينقله إلينا في هيئة شذرات مكتوبة تعبيراً عما يمكن للمرء حقاً أنّ يرى و يشعر و يجول في صدره.

ثانياً، يبدو أنّ نيتشه يضحي في نفسهِ و يقدمها قربان حين يتحمل، كما يفعل كل إنسان صادق، عبء و مشقة السلبية الأبدية لتناهي الوجود و مأساويته على عاتقه و ذلك بواسطة التطابق معه بطريقة قاسية لا رحمة فيها. و في حين يخلق التناهي بالنسبة للآخرين أساسّ لإمكانية الوجود-الذاتي من الحدود المعاصرة التي يعيشون ضمنها، و أساسّ من الأرضيات الصُّلْبة الحاضرة، و كذلك يتيح لهم أن يجربوا استخدام شيفرات الوجود في خصوصيتها التاريخية، يكتسب نيتشه وجوده التاريخ ليس بواسطة تناهي الوجود فحسب و لكن بواسطة سلبيته. التناهي عند نيتشه يشبه امتداد الإنسانية، المحددة بطريقة ملزمة، المتجه نحو إنجاز عملية استهلاك-شخصي لا يترك ورائه أيّ بقايا أو فضلات.

يبدو أنّ جنون نيتشه، الوحشي و القاسي بطريقة لا معنى لها و يشبه إلى حدّ بعيد في لا أباليته واقعة تجريبية تحدث أمامنا دون حياء أو خجل، أشبه برمز أسطوري يعبر عن تضحيته بنفسه و تقديمها كقربان. مرة أخرى، يبدو فيها نيتشه مرتبكاً و غامضاً في مواجهة الوجود، نتيجة

لفقدانه كلّ القيود و الضوابط و ممتص الصدمات التي تربطه فيه و تكسيرها تماماً. لقد افترضت أصاله نيتشه و فرادته أولا صيغة راديكالية، و لاسيَّما حين ترك شعوره بالوحدة و مرضه أثراً كبيراً على طريقة تفكيره، إلى درجة أنّ الإمكانات الخارجية لتفكيره الفلسفي كان تبدو أمراً غير متخيل، حتى بمعزل عن العمليات البيولوجية التي قادت أخيراً إلى حالة الجنون عنده. و بذلك، يمكن أن يتم إدراج جنونه ضمن الإطار العام لتضحيته بنفسه الذي كان تمثل عنوان كلاً من حياته و تفكيره.

مظاهر التضحية بالنفس و تقديمها كقربان تظهر جلية في معظم أعمال نيتشه: هذه الأعمال لم تبلغ الصيغة النهائية الثابتة التي نلاحظها و نراها بطريقة صلبة و الموجودة في الأنظمة الفلسفيّة الكبرى للفلاسفة الآخرين – هذا بالطبع يشمل الفلسفة النقدية عند كانط. إن ما أنجزه تفكير نيتشه تم على نحو عفويٍ، بالرغم من وعيه الذي لم ينفكّ أو يتوقف عن التفكير بتاتاً فيه. التفكير، عند نيتشه، بحد ذاته شيء لا يمكن السيطرة و السيادة عليه: و لأنه كان يغامر بكلّ شيء، اِنتهى به المطاف إلى السقوط في الخطأ و النزوات و الأهواء المفاجئة التي تقود الناس و ليس الأفكار، و الميل إلى التقلب في الرأي. و بالرغم من الهزيمة المريرة، و بالرغم من ظلمات الشك و الريبة التي تحيط فيه من كلّ مكان، و بالرغم من تبنيه للموقف النقدي بلا جدال، يبقى تفكير نيتشه غير نقدي بالمعنى الكانطي – لقد انحرافَ هذا التفكير في مَساراته النقدية ليتحول في النهاية إلى تأكيدات دوغمائية غير مسيطر عليها بالمرة – تكرار فقط إلى حركة الهزيمة و التقويض تمضي بِطْريق دون توقف. كان نيتشه مجبراً على أن لا يتوقف على الإصرار في موقفه كي تتحول تأكيداته في الحال إلى نقائضها كما كان يصبو – كما لو أن تعصب التفكير لديه يتحول بطريقة لا تتوقف إلى شكل آخر من التعصب، و بهذا يصبح هذا التعصب، و في كلّ أشكاله المتنوعة، مجرد محاولة للتقويض بنفسها أو تفلسف المرء بالمطرقة و المعول. بما أنّ نيتشه كان يعلم أنّه ارتكب في تفكيره أخطاء لا تغتفر، و كان يعي ذلك الحال جيداً إذا جاز التعبير، فإنّه لهذا السبب تحديداً لم يكن أحدٌ يفكر في اللجوء إليه طلبا للمساعدة، وربما بدلاً عنه كان الكثير يلجئون إلى فيلسوف نقدي آخر. إنّ نتائج الغموض و الارتباك الذي لا يمكن القضاء علية و التخلص منه في تفكير نيتشه قائمة في أساسّها على الجزء العميق أو الموغل في جذوره المكشوف في عمله، و يعبر عن التضحية بدلاً من الإنجاز التاريخي لتحقيق-الذات في العالم.

قَبُول نيتشه أن يضحي بنفسه، و أن يكون قُرباناً للآخرين، جعل من الطريق الذي يسير فيه، إمكانية سامية صعبة المنال، لا يمكن لأحد أن يجرؤ على اقتفاء الطريق الذي تقود إليه أو حتى يجرؤ على التفكير بذلك. كفيلسوف وجودي، يشبه نيتشه النار التي تحرق و ما تبقي على شيء أو كما يحلو له يفهم نفسه. أصالته الوجودية تكشف النقاب عن نفسها كلهب نار يضيء و يحرق كلّ شيء يمر فيه، لا يترك إلاّ بقايا الوجود غير القابلة للاحتراق و الإرادة الشخصية، أما وجوده فيتلاشى كتخفي لا يمكن نقله و الإبلاغ عنه.

و لكن أنّ ندرك أن نيتشه فيلسوف يقدم ذاته قُرباناً و يضحي دائماً بنفسه بلا تردد لا يعني أننا فهمناه كما ينبغي أن يفهم: لا يمكن تصنيف نيتشه أو حتى التفكير بإدراجه تحت أي نوع أو مقولة من المقولات الوجود الإنساني المعروفه أو خانة من خاناته. تعبر كلمة ((التضحية في النفس)) عن غموض سمة الوجود الاستثنائّي الذي تتوفر عليه شخصيته – ليس نيتشه من نوع الوجود الاستثنائّي الذي يتركنا ببساطة غير مبالين أو مكترثين؛ بل هو بالأحرى من النوع الذي يثير فينا الاهتمام كونه يمس أعماقنا الداخلية الموغلة الجذور و يكشف عنها.

اِنفتاح نيتشه الفكري ما هو و ما الذي يريد فعله على وجه الإجمال. — في النهاية، كل واحد منا يريد أن يعرف مَنْ هو نيتشه حقاً بكلمات قليلة، بدلا من أن يجرب أفكاره و يدخل في تفاعل ملموس مع تفكيره، و بذلك يستطيع أن ينقل تفكيره في فرضيات مكررة بسيطة – و عليه ينبغي أن يسمع الآتي:

إنّه بداية كل لا-حقيقة تتمنى التصريح و الإعلان و سماع الأحكام النهائية المتعلقة بالوجود بحد ذاته. فقط في هذا العالم الذي نعيش فيه – في معرفة الموضوعات المحددة، العمل لتحقيق أهداف ممِيزة، و العمل من أجل إعلاء شأن مقاصد محددة – ليس فقط تداول و نقل القرارات المتخذة و الآراء المحددة مهم، و لكن هذا النقل غدا أيضاً ضرورياً كشرط لكلّ النشاطات ذات المعنى و المدلول و المغزى. و لكن هذا النشاط بذاته يجب أنّ يكون محاطاً و مؤطراً بالوعي الوجودي الإنساني، لأنّه يحمل في المقام الأول كلّ المعاني المعبرة. يبلغ هذا الوعي في الوجود بوضوح بواسطة التواصل المثير مع المفكرين الأصيلين – هؤلاء المفكرين الذي تركوا أفكارهم مفتوحة و لم يقدموها في أشكال و مذاهب نهائية كاملة – و في نفس الوقت، بواسطة حركة التفكير الذي لا تعرف الراحة بواسطة الركون إلى أيّ فرضية. و بهذا الاعتبار، تمثل الأفكار المثيرة و

العميقة للفيلسوف ميدان للتأكيدات و القناعات الأساسيّة، التي بواسطتها تتطور الأهداف المعاصرة، النشاط، و المعرفة أولا.

مع نيتشه، الذي ما يريد القيام به هو شيء يكون مثل التسلسل الموسيقي، ربما نتعلم طريقة تفلسف و تفكير جديدة لم يتم بلورتها و أكمال خطوطها النهائية بدقة بواسطة بناء مفهومي واحد: مَنْ هو نيتشه، و ماذا يريد أن يفعل؟ يظل سؤال مفتوح من الصعب الإجابه عنه. في تفكيره، يشبه نيتشه البداية الأبديّة، لأنّه ليس عمله، بل عمل شخص في حالة صيرورة، تمثل المهمة المركزية له القبض على هذه الصيرورة بطريقة لا تنقص و لا تقل. و لكن، في نفس الوقت، نعثر هنا معه أيضاً على فلسفة توجد فقط لنيتشه و لا يمكن نقلها – نعثر على فيلسوف يتحدث دون أن يكشف النقاب لك عن الطريق بكليّته، و هو بحد ذاته ليس له نموذج يشبه في تاريخ الفلسفة يمكن أن يساعدنا على فهمه.

نيتشه المناسب

على الرغم من كم الأعمال و الرسائل المتعددة و المتنوعة التي وصلت إلينا من نيتشه إلاّ أنها يبدو تخفي تفكيره أكثر مما تكشف عنه. بالنسبة لأولئك الذين ليس لديهم من الشجاعة و الجرأة في اقتفاء أثره، يجب أنّ يعلموا أنّ هذا النوع من التفلسف، الذي يحاول نيتشه أن يقدمه لنا، يمكننا على الأقّل من أنّ نشعر بالمصادر و الينابيع الحقيقة التي تنطلق منها الحياة و تصبح ممكنة اليوم لنا و وجوب تغيرها أخيراً و تحولها بفعل خضوعها لقانون الصيرورة. هنا، النقطة التي يجب أن ننطلق منها كي نبرهن عن التميز و الأصالة و التفرد في الفهم الملائم لنيتشه.

هذا الفهم الملائم لا يتحقق حينما نقترب من نيتشه، مع إدراكه الغني و المدهش و سعادة براعته اللغوية، بواسطة وجهة نظر جمالية، و نُشيد فيه بحماسة بلا ضوابط كعبقرية خلاقة. هذه هي مقاربة هؤلاء، في النهاية، المسموحة لهم و المقياس الذي ينبغي أن يتبع في اتّخاذ القرار: ابتهاجهم في أثناء حِقْبَة الشباب، شعورهم بالانزعاج و التقزز من التناقض المستمر، التبذير، المعلومات المضللة و الخاطئة (و لاسيَّما في سنينه الأخيرة)، مع الشخصيات المطنبة و المبالغ فيه كثيراً، مع الدوغمائية التي غدت عمياء، مع الخروج عن الخطوط المحددة و الانحرافات (Entgleisungen) التي تصبح في مناسبات عدّة في غاية السخف – هؤلاء الناس الذين لم يعودوا

يرون ما هو أساسيّ: في النهاية، لا شيء يبقى سوى إنجازات سخيفة للنقاد، اللغة هي التي تخلق الكاتِب، كاتِب الشذرات و النبذات القصيرة و الأقوال المأثورة الاستثنائيّة، كاتِب المقالات الراهنة، و الشاعر. كلّ المعاني الصحيحة تختفي حين يُحدد الاستيعاب و الامتصاص السيكولوجي فقط في التهذيب و التنوير خلال الجمال و الضوء في اللغة، و الإحساس العبقري الحاذق.

دون أن أسمح بتعمد و تروي للزخم الممكن من تفكير نيتشه أن يصبح فعالاً و يشتغل في داخلي، سوف يُفهَّم جماليا فحسب، و لن يتم هضمه و استيعابه مع جدية فلسفية. و ليس من المجدي بالمرة أن نقبل جزء من تفكير نيتشه و نرفض الجزء الآخر – سواء كان هذا يتضمن الجمالي، المنطقي، النظامي، أو أيّ شي أخر منه. إنّ ما يحسب في فهم نيتشه ليس هو الانشغال المستمر مع أعمال نيتشه، و لكن الرغبة في الاتصال مع الينابيع و المصادر في تفكيره. و لكن هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، ينجز بواسطة سياق الكلّ و ليس بواسطة بعض أفكاره الخاصه، أو تجارِب جمالية، أو حقائق نقدية لديه هنا و هناك.

لما كان نيتشه لم يقدم لنا ظاهرة متكاملة، و لكن ظاهرة استهلاك-ذاتية لا تبني عالما و لا تترك حقاً أي شيء خلفها – لا شيء عدا زخم مجرد خالي من صيغة محدد يمكن أن نتمسك بها – فإنّهُ يأتي إلينا بمهمة مفادها استيعاب عملية التحول-الذاتي عند الإنسان. كي ننجز هذه المهمة، ينبغي لنا، و دون أيّ إخفاق، أن نكشف عن طبائعنا الخاصَّة، سواء فعلنا ذلك بواسطة الكشف-الذاتي أو بواسطة عملية التوليد-الذاتي. حينها، فإنّ الإثارة المتولدة من جَراءِ التوقفات العنيفة و المتطرفة، و قش الطموحات الفارغة سوف لم يتم خلطها بطريقة مربكة مع البواعث التي تعمل بشكل ثابت و بلا هوادة لا تحيد عن طريقها. لقد غَدَا نيتشه الفيلسوف الأول و الوحيد الذي زودنا بالأرضية الصُّلْبة التي تمكننا من أنّ نكون سادة على مغرَيات الخداع و الكذب.

أنّ نكون مخدوعين بواسطة نيتشه ـــ كانوا الأثينيين غاضبين بشدة و يشعرون بالسخط و الاستياء من أسئلة سقراط المترابطة و المتداخلة و تحقيقاته في كافة الإمكانات المتاحة: أيّ واحد يعتقد أنّه يمتلك الحقيقة مغلفة و موضوعة في مكان مألوف و مطمئن لها، أو في شعار جديد، سينتهي به الحال مع سقراط إلى حالة من التشوش و الارتباك. و بالتالي، فهو أما أن يكون شاجباً للوضع الذي يعيش فيه و رافضاً له، أو مثيراً للمشاكل و المتاعب، و قد حُكّم عليه أخيراً في الموت

بسبب حجج طرحها في غاية الخطورة، أو التقليل من الارتباك المحير الذي زاد منه سقراط بين الأثنيين بواسطة الاشتراك في التمجيد العميق السقراطي للإنسانية.

يتأثر القارئ بنيتشه، المتماهي مع نصّه الفلسفي، حين تسمح طريقة قراءته لنيتشه بنفسه في السّؤال و الحديث دون عوائق. قد يواجه القارئ نفس الغموض و الالتباس و التشويش و الصعوبات الكثيرة عند قراءة نُصوص نيتشه – و لكن للتغلب على هذه الصعوبات يتطلب الأمر منه أن يكون كله آذاناً صاغية – أن يتعلم فن الإصغاء – و إمكانية و قدرة عالية و درجة كبيرة من الجدية للذهاب خلف أقوال نيتشه الثابتة عميقاً و دفع بها إلى مدياتها القصوى، و الاستجابة الحقيقية لمطالبه المختبئة بين السطور. ينبغي للقارئ أنّ يدرك حجم و وزن التأثير الذي يمارسه الوجود الممكن للإنسان عند نيتشه على الوجود عموماً، و يعي في هذه النُصوص مشقة العبء الذي يحمله على كاهله، كما علية أنّ يعبد الطريق الذي يؤهله على عقد صلات سليمة و صحيحة أولا مع نيتشه قبل الدخول في دراسة أفكاره.

الإخفاق في فهم نيتشه ليس فقط نتاج الرفض الخجول لأفكار نيتشه و التعاطي معها بجدية، و لكن قد يكون أيضاً نتيجة أو بسبب الانشغال الكبير و الانغماس الشديد في أفكاره، و لاسيَّما حين يكون للغموض و اللبس اليد الطولى – و يسبب سوء الفهم و سوء استخدام أفكاره ُ الكثير من المغالطات و السفسطة، التي سقط معظم الناس في بؤرتها، التي لا حدّ لها بدلاً من إيقاظ الوجود الإنساني من سباته. من وجهة نظر موضوعية، يمكن لأفكار نيتشه أنّ تكون بسهولة ميداناً خصباً للسفسطة تطبق فيه أقواله في طراز متناقض طبقا إلى المتطلبات و الاستخدامات و الحاجات و النزوات و الأهواء المفاجئة التي تفرضها اللحظة و الاستجابه لها، دون الاشتراك في صناعة معنى اللحظة، الذي يدعو نيتشه إليها بقوة (الشيء الذي يكشف النقاب و يبوح عن نفسه بواسطة الإصرار الأول و الكبير الذي يبديه نيتشه نحو قول ما، ثم سرعان ما يتم نسيان و بسرعة الصَلاحِيَة و الشرعية المطلقة لهذا القول و يتم الانتقال بعد ذلك إلى قول آخر و إصرار مختلف عن الأخير) – هذه الأفكار بتنوعها و اختلافها، من جهة أخرى، يمكن أنّ تكون ميداناً لإيقاظ الوجود الإنساني في هذا العالم بواسطة بناء أساسّ قوي لخلق وجوده التاريخي الحقيقي هناك. إنّ القرابة البعيدة و السطحية مع السوفسطائيين، بالإضافة إلى المسافة الداخلية الهائلة التي تفصله عنهم التي يراها

البعض، هي السبب وراء هذا الخلط بين نيتشه و بينهم. يمكن أن نضيء هذه المسالة، وبطرق متعددة، على النحو الآتي:

فلسفة نتيشة هي ببساطة نتاج ((أمزجة)) (Stimmungen) متنوعة، كما أنّها تنتهي أخيراً إلى تبني أمزجة جديدة بدلاً من مواقع فكرية جديدة.هذه الأمزجة واضحة، و لديها مناعة من التعرض للانحراف عنده، مادام إنّها تؤكد حركة تفكيره كليًّا و تسلك مَساراته، و تساهم في خلقه و الحفاظ عليه في تحولاته. و لكن حين يتم انفصال هذه الأمزجة عن كلّ شيء يحيط بها، و يسمح لها بأنّ تصبح مجرد أمزجة فقط، حينها يمكن أن يتم استخدامها، على نحو لا يمكن تخيله البتة، أغطية استبدادية غامضة لكل أنواع التفاهات، النزوات غير الملهمة، الغرائز الجامحة و الغاضبة. إنّها صالحة، إذا جاز التعبير، للاستخدام في المجال الواقعي الذي يعارضه نيتشه: التمثيل، الاستعراض، الصراع من أجل إحداث تأثيرات، الطيش، عدم التفكير المدهش الساحر.

كفيلسوف لا-أخلاقي، رفض نيتشه الأخلاق التقليدية المسيحية المحددة المعالم و المرسومة الحدود بصرامة، لأنّه يعتقد أنّه يمتلك شيئاً أكثر منها قيمة و أعلى و أسمى منها منزلة. يريد نيتشه أن يتحرر من كل القيود و المديّونات التي يمكن أن تكبله، لأنه كان يبحث عن ذلك العامل الذي يشمل و يطوق كلّ القيود و المديّونيات و يضمها معا كناظم فكري واحد.(يمكن لأقوال نيتشه دائماً أنّ تطبق على أشياء دنيئة و منحطة و مبتذلة و سوقية. على سبيل المثال، الإجازة الرسمية التي تتجاهل أيّ قانون يزعم استدعائه كشاهد، أو استخدامه كوسيلة لتبرير فوضاه الأخلاقية). يؤكد نيتشه – الذي يصر من المهم أنّ يفتح المرء عينيه و يصيغ بآذنية للحقيقة قبل فوات الأوان – على وجود الكذب، إرادة القوة، عالم دون إله، و الوحشية؛ و كانت صياغاته دائماً قادره بمهارة على كشف الضمير الكاذب كناية عن المرض – تلك العشبة التي تعد أغرب الأعشاب التي تنبت على هذه الأرض، و أكثرها مدعاة للاهتمام؛ إرادة المرء في تعذيب نفسه و الشرط الأول لتحديد قيمة النزاهة – المرتاح بلا وخزات في هذا العالم، و إرادة - القوة الوحشية، و الوجود الواقعي للقوة – الذي يخشى نيتشه إذا تركه يضل في مناطق صعبة الإدراك بشكل مميت – و حركة العالم دون إله، و التأكيدات البسيطة للجذل الطروب المسمم، و كلّ شيء غريزي فقط. ما يريده نيتشه، مع ذلك، هو فقط العكس: الكذبة التي تقول الحقيقة الأصيلة الموثوق بها (أعني – كان يريد أكثر مما يُفَترض أنّهُ حقيقة) – يصبح الوجود لا قيمة له تذكر حين يتم تجريده من القوة أو من القوة المشتقة مكانتها من

قيمة جوهرها؛ يسعى نيتشه إلى العالم الخالي من الإله الذي يصنع مكانة الإنسان السامية الرفيعة و يجعلها أمراً ممكناً و يثبت من وجودها (الإنسان الأكثر صدقا و أمانة، الرصين، المبدع – الذي جاء ليخلق عالم جديد، عالماً أفضل، لكنه لم يأتِ ليخلق بل أتى ليدمر هذا العالم الفاسد من أجل أنّ يفتح الطريق لهذا الذي يجب أن يعود – و الأخلاقي أكثر في القيمة و المكانة من هؤلاء المزيفين – الذي تريد أن تكون على حَقّ حين تعرف أنّها على خطأ – الذين يؤمنون في الله)؛ يروم نيتشه الطبيعة، التي بواسطة امتلاء وجودها و صرامتها، تحكم السيطرة و السيادة على كلّ شيء و تحكم قبضتها، و تبتعد عن الرغبات التواقة، و الأماني، المواربة غير الطبيعية. الطبيعة عند نيتشه يا لهُ من تنوع، يبدو أنّ الطبيعة جربت دورياً جميع الأساليب لتكون حية و لتتحرك منتفعة بجميع ما تبيح المادة و قوانينها، يا لهُ من درس في النخل التدريجي عن بعض المجازفات غير الصائبة و اللبقة و المقلقة بعلم المطمورات، يا لهُ من توفير أتاح المؤنَة لبعض الأشكال.

جرب نيتشه كل الإمكانيات المتاحة له. التَجارِب التي تذهب باتجاه الإنسان في هذا العالم، و سرعان ما تذهب بعيداً عنه، و تنحرف و تسير في متعة غير مسؤولة أو منضبطة متعددة السمات و الأشكال للوجود، التَجْرِبة، و كلّما يمكن تخيله أو يخطر على البال. يمكن لدراسة نيتشه أن تقود المرء إلى التساهل في موقف عدم التدخل و التهاون الذي يجيز للمرء أن يفكر في شيء مع عاطفة مشبوبة و حيوية، ثم يصبح بعد ذلك لا مبالياً لا يهتم أو يفعل أي شيء حياله. يمكن للتفكير نيتشه أنّ يجعل المرء لا أبالي و غير مكترث بالتناقضات، بل حتى تجريبها كمهماز للحث، أو لغة، أو حتى مهمة. حين وظف العدميين، كما يشاءون دون ضوابط، منعطفات الكلام، التأكيدات العنيفة المتطرفة، و تبنوا المواقع المتطرفة عند نيتشه، و لكن مبتعدين في طبيعتهم عنه قدر المستطاع، بينت صياغاتهم الحرفية بما لا يدع للشك أنّها متشابه بعضها مع بعض الآخر إلى حدّ التطابق. إنّ أعماق الإمكانية في سلبيّة نيتشه يمكن أنّ تشوش و تخفي عدم المرء الخاص به بواسطة رفع وتيرة إثارة عدم العدمية، حتى تأتي الأحلام الوهمية للعدميين مع ضجيجها الذي يصم الآذان، و الذي حوله يعبد الطريق لكتابة نُصوصه، و يتحدث عما لا يطاق.

بوسع المرء أنّ يلاحظ سوء الفهم المؤلم و الحزين المرافق في الطرائق التي تمت فيها دراسة فلسفة نيتشه و التعاطي معها. في هذه الطرائق، يبدو كما لو أنّ نيتشه يحاول أن يغوي القارئ، الذي يطمئن إلى ملاحظاته السابقة، بتعمد، يحرف أقواله، يسرقه من نفسه، يحمله إلى

دروب التطرف و تسميم العقول، يجرده من مزايا الذكاء – الذي استخدم بجانب الوضوح و القسوة و المنطق كأسلحة ضِدّ همجية الغرائز – و الفطنة و الدهاء الذي يتمتع بها، و يعامله محرض ثرثار، و يجعل منه فقط شخصية ذكية حين تكشف البواطن العميقة لنفسه عن شيء يتطابق مع ما يقوله نيتشه:((ليس كل ّكلمة تخرج من كلّ فم)). يعلم نيتشه جيداً هذه الخدع و الأكاذيب و سوء الفهم المرافق لها، و تنبأ بها مع شعور صادم؛ لكنه في نفس الوقت كان يريدها: ((إلى أولئك الناس اليوم لن أكون ضوء – و لا حتى في الاسم. أولئك – سأجعل منهم عمياناً: سأجعل من اللهب المتوهج لحكمتي يزعج و يربك عيونهم يغشي بصائرهم و يجعلهم عمياناً!)).

التعاطي مع نيتشه، فيمَا يتعلق بالوجود الإنساني في العالم، المعاني و الأسماء الكثيرة و النتف الغاشمة من نتف القدر الذي لا مجال لتعدادها هنا، يتطلب أموراً عدّة: ينبغي للمرء أن يدخل أولا في حوار و تواصل حقيقي مع نيتشه (تحسين و تطوير قدرة الإنسان على التواصل ضمن العالم الواقعي) بدلاً من الخضوع الأعمى لسفسطة لا تقدم و لا تُؤُخِّر. ينبغي للمرء أنّ يشترك فعليا في أصالة و مصداقية حركة تفكيره بدلاً من القَبُول في المناورات السوفسطائيّة المحتملة في خدمة أهداف محددة – على سبيل المثال، التعظيم و المبالغة في إرادة القوة الشخصية و الوجود الشخصي. ينبغي للمرء، مرة أخرى، أن يكون لدية معرفة عميقة و بصيرة في الوسائل و الضرورات و الأعْمِدة الأساسيّة في عملية التفكير الفلسفي عند نيتشه بدلاً من السماح للشخص أن يكون مندهشا في كل أنماط الاقتراحات و الأفكار المقدّمة من قبله. ينبغي للمرء أنّ يبلغ الوجود في خدمة الترسندالي المتعالي، بدلاً من أن يظل في خدمة وجود فقط يحدث على هذا النحو، يذهب بكلّ الإمكانات نحو العدم (التعامل معه بطريقة مختلفة تماماً). أخيراً، ينبغي للمرء و خليق به أنّ يحافظ على الحركة الحقيقية القلقة في تفكير نيتشه و لا يعمل على معارضتها بواسطة استبدالها مع الذي قبله الفهم كمطلق فقط لاستبداله لاحقاً مع نقيضه.

المربي الفلسفي ــــ كلّ الفلاسفة العظام هم مربونا و معلمونا بحق. بواسطة مزاملتي لهم، و الارتباط فيهم بواسطة القراءة، ينبثق الوعي في الوجود، الذي يتضمن الكثير من العوامل المختلفة كدوافع، تقييمات، و أهداف، و أيضاً بواسطة تغيراتنا، و أحوالنا، و تقويضنا إلى أنفسنا. لكن الفلاسفة غير قادرين على تزويدنا بنوع من المعرفة يرتكز و يقوم على معلومات عن الأشياء في العالم؛ نحن، الشكل البدائي من الاستسلام للشر، حقاً نسيء فهمهم و نرتكب خطئاً فادحاً حين نأخذ

آرائهم و أحكامهم كأقوال لها صَلاحِيَة و شرعية كُلّية – و ينبغي أن يتم تعلمها ومن ثّم تطبيقها على الحياة اليومية كما لو أنّها أقوال صحيحة نهائية للفهم أو بديهيات و بينات وعقائد الإيمان – كما هي و لا نخضعها للسّؤال. أنّ قيمة الفلاسفة الخاصَّة، و التي لا يمكن استبدالها، تشتق بالأحرى من قدرتهم على المضي فينا إلى الينابيع التي بواسطتها نروي عطشنا و نؤكد وجودنا بواسطة التفلسف و التعاطي مع الأفكار. لأن الصيرورة-بذاتها – من حيث إنها تحدث و تأخذ مكانها في التفكير، و من ثّم في النشاط الداخلي للإنسان، و بذلك تؤثر و تطور الذات – تحدث ليس بواسطة القفزة السريعة التي تنشأ من المعرفة الواسعة و البصيرة المباشرة، بل نتيجة الانسجام و الوفاق و التصالح مع أولئك الذين يتبعون طريق الإنسانية و الإشارة إليه بواسطة أدوات التفكير و عدته الفلسفيّة.

أما أخر فيلسوف، الذي يتصرف طبقاً إلى مصادر و منابع الإنسان و حدوده، ذات التأثير على المجال الواقعي الكليّ لإمكانات الوجود، فهو نيتشه دون تردد. مع أنّهُ يعد الفيلسوف الأقرب إلينا زمانيا، و يقدم أطروحاته الرئيسية بشكلٍ مفهوم و واضح، و بالرغم من الأنماط و الإمكانات التي يتوفر عليها عالمنا في المعرفة من مصادر و دراسات و مؤلفّات عنه لا باس بها، إلاّ أنّ نيتشه، و أكثر من أيّ فيلسوف أخر إذا جاز لنا القول، قد تعرض إلى سوء فهم كبير لم يتعرض إليه أيّ أحد من قبل. فحقيقة الحياة الثملة القصيرة التي عاشها، و السعي الذي لا ينقطع نحو تحصيل الحقيقة طوال الحياة، و الوعي المتكامل في مأساة أو التراجيديا الإنسانية و الوجود معا – حينما تكون في مستوى المأساة الكبرى سوف لا تخشى المآسِ – تمثل في المحصلة النهائية المادة التي تبين مدى اختلاف نيتشه عن البقية من الفلاسفة السابقين. واقعياً، هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، تعكسه عدد النسخ المطبوعة من أعماله لرئيسية – فأعدادها أكثر و تتجاوز الأعداد المطبوعة من نسخ الأعمال الرئيسية للفلاسفة السابقين عنه.

لقد تحددت طريقة نيتشه في التعلم، و رسمت ملامحها، بواسطة لحظات و نِقَاط التحول ضمن تاريخ الغرب: إنّهُ المعلم و المربي، الذي لا يمتلك لا مذاهب، و لا حقائق ملحة أو ضرورات ملزمة، و لا مقاييس ثابتة و نهائية – و لا هو أيضاً بالمثال الذي يمكن أن يقلده الآخرين أو يُحتذى به. إنّهُ يعلمنا فقط بواسطة طرح الأسئلة الكبيرة المترابطة و المتداخلة علينا، و بذلك يختبر قدراتنا في مواجهته. هذا الحال يحدث تماماً بواسطة حركة سجالية. نحن معه دائماً نكتسب تجارِب جديدة. مع نيتشه، يفتح الوجود الإنساني الأبواب على مصراعيها لإمكاناتنا، نمسك بفرصة بناء إنسانيتا،

بواسطة التفكير الذي يخطو خطوات عملاقة، نكون وجهاً لوِجهٍ مع إمكانية محاولة قَلْبِ كل القيم الأخلاقية و نضيء النتائج الحساسة للقيمة الأخلاقية بذاتها. مع نيتشه، نُحمل على أجنحة تطير بنا نحو المديات القصوى، و بذلك نمسك بمصدر الوعي المستقل للوجود. بيد أنّ هذا الأمر لا يحدث نتيجة للهداية الواضحة ضمن الكلّ عنده، و لكن بواسطة الطلب منا: ينبغي لنا أن نستخدم أفكاره كي نتعلم و ننور أنفسنا. مع نيتشه، لا شيء يصلنا في شكله النهائي، و كلّما نحوزه و نبلغه من الاطلاع عليه يأتي بواسطة الصراع مع ما يدور حولنا – كلّ شي معه يمثل الخطوة الأولى.

هذا التعلم-الذاتي يحدث بواسطة دراسة صفة الجدية عند نيتشه المشتقة من التَجارِب المثيرة و الصبر في الانخراط في التفكير التأملي المتكامل له:

تكشف الجدية و الأمانة عن نفسها بوضوح في تفكير نيتشه – الذي اعتقد أنه أخطا في حكمه على نفسه و أن طبيعته طاهرة جداً. لقد سئم غرائزه و كان يقول أنا اغبط الراهب الذي يَطْوِي كبرياءه تحت النظام – و في الطريقة التي نستقبل فيها أفكاره: إنّ ما مطلوب، مع نيتشه، ليس لُعْبَة عقلية – تذكر سريعاً لقيم و أشكال غير مرتبطة بزمن معين، طيران حاذق عبر ميادين الفكر – أو تمرين فلسفي، بل الإمساك ب ((مسار و حركة التفكير و شعوره))، ليس وجهة نظر سلبية، و لكن تجريب للإمكانيات المتنوعة لعاطفة الإنسان. بواسطة التعلم-الذاتي استخلص بنفسي ما موجود فعلاً هناك. يتمنى نيتشه أن يثير فينا ما لا يمكن أن يكتسب ببساطة لا بواسطة تدريب نظري و لا بواسطة انضباط رسمي، بل فقط بواسطة صراع مستمر مع الذات كتنظيم للعواطف لغرض طاعة أساس الوجود و فهم تفاصيله. بدقة أكبر، ذلك الذي لا يمكن بلوغه بواسطة المفاهيم غير الغامضة، يمكن أن يتطور فقط بواسطة الحساسية الفلسفيّة المتزايدة و المتنامية نحو الأشياء. ينبغي أن يتم تطوره بوضوح، على العكس من نيتشه، بواسطة الكشف المستمر لوجود الإنسان، حتى الوصول إلى الحقيقة النقية.

حين يتحول كل هذا الذي قيل إلى الضِدّ، و داخل الحركة نحو الإمكانية المحضة، و يكون كلّ شيء صواباً وخطا في الوقت ذاته، فإنّه لن يكون هناك علاج ما عدا الجهد الدؤوب الجسور و العنيد المؤلم و قوة التفكير. فقط تعليم-الذات الشاق يمكن أن يجعل من هذا الأمر ممكناً، بواسطة تيار متفرق واسع النطاق لسحر الروح المتشعبة لنيتشه، لتجنب التعسف بواسطة التمسك مع ما يستمر معاً في الواقع. إنّ افتقاد نيتشه للمذهب المنظم يعّد بحق أفضل طريقة مضمونه لتعلم القارئ

الرصين بواسطة إجبار نفسه على اكتشاف العلاقات المتبادلة و الخيوط الناظمة لكلّما يصدم به هذا المفكر و يواجهه. حينما يندفع القارئ أولا و ينخرط في دراسة نيتشه، ثم ما يلبث أن ينسحب بسبب صعوبة المهمة، يعدّ التعليم-الذاتي الذي يتغذى بواسطة اللغة و الأفكار العقلية المسكرة التي ينتجها نيتشه، بمنزلة الحَلّ الأمثل في تنظيم الكلّ لدية على أساسّ الوجود التاريخي للإنسان في العالم. بالضبط بواسطة نوع الصلة و الترابط الموجود بين أقوال نيشة و الشذرات الخاصَّة يستطيع المرء أن يكتشف أن تفكير نيتشه ذي نزعة واسعة و عريضة و ليس من نوع التفكير المحدود و القصير المبتور الذي لا ناظم فيه. يقودنا نيتشه، بواسطة أقواله المأثورة و شذراته الخاصَّة، بشكلٍ غير مباشر، للتفكير بهدوء بواسطة أفق و منظور عريض و عميق أنجز بنفسه و طالب بغيره.

لقد خيل لنيتشه فيمَا مضى، إنّ التفكير، على وجه الخصوص، في التناقضات، يزودنا بالوعي المدرك العميق، كما يمارس و يضطلع بمهمة تأثير كبيرة على عملية التعلم-الذاتي، و يكون بمثابة العمود الفقري لها. بواسطة قراءة هيغل، الذي كان نيتشه معه على طرفي نقيض و يعده فلسفته تفسيراً ساذجاً للأحداث، يكتشف نيتشه أنّ الخطر الكبير يكمن في أنّ المعادلة التوفيقية و التصالحية بين المتناقضات لديالكتيك كله سوف يخفي أهمية حدّة الفواصل، الخروقات، التقاطعات و القفزات في الوجود – و كذلك تطمس المعادلة الوجودية المهمة و لا غنى عنها: أما / أو. من جانب آخر، بواسطة قراءة نيتشه، يكتشف المرء أنّه عرضة للخطر في أن يكون لا مبالي حيال وجود التناقُضات، و بالتالي يسيء استخدام إمكاناتها الغنية المتاحة.

المرء الذي يعتقد أنّه يمتلك الحقيقة دون شدّ و توتر داخلي و تناقض و تعارض يكون في الواقع ساذجاً و دون دفاعات رصينة ضِدّ الأفكار. و على نفس المنوال، أيّ شخص يتوقع أن يسود و يهيمن و يسيطر على التناقُضات و يوفق بينها بواسطة الكمال الديالكتيكي هو شخص غير واقعي و مغفل و لا يقل سذاجة عن الأول. الشخص الذي يستخدم التناقُضات و التعارضات كي يخدع الآخرين كما هو شائع لأغراض شخصية تعود إليه هو شخص غير صادق أو أمين. فقط ممارسة التمرين الفلسفي في القبض على التناقُضات و فهمها، بينما يتم توظيف نوع من التفكير يقوده باستمرار نحو الجوهر الثابت، يمكن أن يحدث الحقيقة لنا دون تحطيم خطوطنا الدفاعية. ينبغي لنا أن نفهم أن ديالكتيك الحركة موجود في كل مكان و متجذر في الأشياء بذواتها، و بذلك صعود السفسطة و الحركة و الزَّيف مع البحث عن الحقيقة أمر ممكن و جائز.

من أجل إتمام عملية التعلم-الذاتي بواسطة التأمل و إطالة النظر في فلسفة نيتشه و التفكير معه، ينبغي، بناءً على ذلك، أن نأخذ بعين الاعتبار سياق الكلّ الكامل برمته دون نقيصة و لا ثُّغْرَة، التي ترد فيه أفكار نيتشه، و لا نأخذها كعناصر مجزئة و أفكار معلقة بالهواء دون سياقات – و نجعل من معرفة السياقات التي ترد فيها أفكار نيتشه مهمتنا الرئيسة. و بذلك، من الطبيعي كان نيتشه من النادر أن يُفهمَّ حين تُقرا كتبه، الذي بدأ ينشر الواحد منها بعد الأخر، كلّ على حدة أو فراديا – و كان بسبب ذلك في الغالب وبالضرورة يتعرض الرجل إلى سوء فهم كبير حين يتم سماع أفكاره للوهلة الأولى: بما أنّ المعنى الحقيقي لأفكاره لا يمكن إدراكه بشكل فردي و مجزأ؛ بل ضمن السياق كليًّا، فإنّ كتاباته لا يمكن أن تُفهم و تكون مؤثرة حتى يتم نشر المواد التي كتبها قبل وفاته و لم تنشر، و تصبح لدينا الصورة الكاملة و الواضحة عن كلّ كتبه. فبواسطة عملية التعلم-الذاتي عند نيتشه والاطلاع على كلّ مجُلّداته بوسعنا حينها فقط التعرف على الحركة التي تهيمن على تفكيره. مع نيتشه، ليس هناك راحة أو سكون و طُمَأْنينة يمكن أن نعثر عليها أو نركن إليها: ليس هناك حقيقية نهائية، و ليس هناك أعْمدة و عقائد ثابتة للإيمان. على السطح، لا يقود تفكير نيتشه إلى طريق معين، و لكن و بصرف النظر عن ذلك، تبقى أفكاره مليئة بالمعاني و المدلولات و مؤثرة جداً. نيتشه، كفيلسوف، يعد الرجل محرضاً كبيراً يحافظ بانتظام على الاضطرابات التي تُنشط من بواعثنا و تخطو بها خطوات واسعة في السعي و البحث عن الحقيقة، و الضرورة الماسّة من أجل أنّ تعرف الشروط، التي أدت إلى بلوغ أشد درجاتها هولاً و أكثرها سمواً، و الأوساط التي ولّدتها، و يثير الرغبة الكبيرة في تحقيق الوجود الذاتي الذي يلح علينا بقوة. و هكذا نرى إذنْ، فإنّ التعلم النموذجي لفلسفة نيتشه يتم بواسطة التركيز على ((الجوانب السلبيّة)) التي يضيئها، و التي تثير فينا رغبة السعي نحو فهم الذات الإنسانية و الوجود على حدّ سواء، بدلاً من ((الأمور الإيجابيّة)) التي تجعلنا نركن إلى الهدوء و السكون و الاستسلام.

بمقتضى الحركة التي لا تكل و لا تمل في تفكيره، يعلمنا نيتشه، الذي لم يقلع قطاً على إدمان القراءة و الكتابة و الاستعانة بمختلف الحجج في معركته المشرفة ضِدّ خصومه، معنى النمو و الاِتّساع و التمدد و الزيادة التي لا حدود له: إنّهُ يزودنا في البوصلة أو الاتجاه الذي يشير إلى الطريق، يبين لنا كيفية التفكير في النقائض، التعارضات، و يعلمنا التلفت إلى إمكانات التناقضات و ما تحمله، التقييمات، و عرض التناقضات التي لا يمكن استئصاله و القضاء عليها بالإضافة إلى الروابط الديالكتيكية – بيد أنّه مع ذلك لم يقدم لنا في المحصلة النهائية استنتاج أو خاتمة نهائية

بخصوص المعرفة المشكلة و المبنية لديه. إنّ المرء الذي لا يجرؤ على أن يكشف النقاب عن نفسه في قراءة نيتشه، و يُعرض نفسه للخطر في دراسة فلسفته و الممارسة الناتجة نسبياً في تجريب أفكاره، و لاسيَّما في هذه اللحظة التاريخية الحاضرة، لن يفهم نيتشه لا من بعيد و لا من قريب، بل لن يكون حراً في المنظور الواسع للإمكانية. المعرفة السطحية فقط لنيتشه يمكن أنّ تؤدي بالمرء أما الذَّهاب إلى طريق الضيق المذهبي أو السفسطة و المغالطة، أو ربما الاثنين معاً في آن واحد.

الضيق و القصر هو القدر الذي سيواجهه كل من يخضع إلى الصيغ المنفصلة عن سياقاتها التي ترد بها، الأفكار الراديكالية، و المواقع المحدد عند نيتشه – أنّه رحلة رخيصة من الدوار الناتج نسبياً عن عملية التفكير المبتسر. مثل هذا الشخص لا يمتلك آذاناً صاغية بما يقوله نيتشه، و لا يسمح له أن يؤثر فيه و يكون معلمه. لا نبالغ إذا قلنا إنه حتى هؤلاء المتمسكين بقوة في الدوغما القديمة الطراز هم في الواقع أقرب إلى الحقيقة من هؤلاء الذين يفهمون أفكار نيتشه بالمقلوب و يحولوها إلى مجرد دوغمائيّات.

تنتج المغالطة في فهم نيتشه حين يرى المرء التحرر بواسطة أفكاره كحالة فوضى لا تعي أيّ شي عن معنى المسؤولية و تحمل تبعاتها. يرغب السوفسطائي، على سبيل المثال، أن يكون مثل نيتشه، بيد أنّه يفتقر إلى شرط القوة، الحق و نداء الحقيقة، العدة الفلسفيّة التي يقاتل الأخير بها. إنّ ما فعله نيتشه، ودون سفسطة، يمكن أن يتحقق وجودياً حقيقة في عصرنا فقط بواسطة شخص مناسب يمثل كل تلك الشروط عند نيتشه.

الضيق و قصر النظر و السفسطة، التي تعيش على مداخيل كاذبة، يرجع أحدهما إلى الآخر، بما أنّ السوفسطائي معتاد بطريقة مستبدة على التمسك في أقوال المذاهب الضيقة و الأقوال المبتسرة و السير وفقها. تعلمنا دراسة نيتشه كيف يكون هناك ميل مستمر يكون فيه المرء فريسة للأقوال و الألفاظ التي يطلقها نيتشه هنا و هناك في كتاباته – نحن تدربنا جيداً على أنّ نقوض فظاظة النقاش مع الفرضيات المنفصلة التي يطلقها الآخرين عنه، و استيعاب العظيم في الروح عنده و وصفه. هذا يمكن أن ينجز لأننّا نرى و نميز إمكانية كل من الضيق و قصر النظر و السفسطة – نحن نجربهما تماما كإمكانيات، و نحن نتغلب عليها بواسطة معرفتها.

من أجل أنّ نوقظ القوة الكاملة للمصدر الوجودي عند نيتشه، فإنّ دراسة الأخير و التعلم منه ستقودنا دون شك إلى مساحات واسعة و مترامية الأطراف جداً لدرجة أنّنا سوف نشعر معها بالدوار. التعلم مع نيتشه، و دراسة أفكاره، يشبه المران الفلسفي المثير داخل غموض مدياته المتسعة: عند نيتشه، نقبض على الغموض إيجابيّاً على هيئة ميدان يقود إلى الحقيقي – يهرب الوجود- الذاتي عنده من الغموض بواسطة الكشف عن الوجود، بالرغم من خضوعه إلى الكثير من الصعوبات و العوائق و انعكاسات وأفكار لا نهائية حين يتم التعبير عنه – من جانب آخر، يمكن القبض على الغموض سلبيّاً كميدان للمغالطة و السفسطة، بطريقة أكثر أو أقّل عشوائيّة، بحيث يجعلنا نستخدم إمكانات القَبُول و الرفض العاطفي، و الغرض الغريزي بواسطة الأوامر التي تمليها علينا الأوضاع و بواعث الوجود الفعالة و الشغالة. دون قراءة نيتشه، الفيلسوف الخطير و الذي لا مفر منه في عصرنا، لا يمكن لأيّ أحد أن يبلغ المعرفة الأصيلة الموثوق فيها للوجود، و لا يحصل على الحقيقة بواسطة عملية التفلسف – بيد أنّه، و في ذات الوقت – و هذا تحذير واضح – لا يمكن لأيّ أحد ببساطة يبقى و يظل مع نيتشه يتوقع و يعلق أماله في الحصول على النتائج النهائية الكاملة و المستوفية الشروط معه.

في قراءته و الاطلاع على أفكاره و حججه و مقارباته، يطالب نيتشه بنوع من الأفراد و القراء الذين لا يتوقفون عن التحول و التغير و التطور؛ و بذلك ((يكونون شديدي الارتباط والتعلق به)): ((فقط الفرد الذي يستمر في التغير و لا يكف عنه يظل مرتبطاً بي))، ((فقط بواسطة التغير و التحول يعود المرء حقاً لي بشكل ثابت)). هذا يعادل قول أنّ فهم نيتشه ليس عملية سلبية – بل إنها بالأحرى تطور-ذاتي فعال و إيجابيّ في صيغة لا يمكن أن تنتهي أو تنجز بشكل نهائي. أن يكون للمرء على استعداد أن يتغيّر دائماً و يتطور يعني أن له قدرة على أن يكون مستعداً لمواجهة الأزمات الممكنة – كُلَّما علت ثقافة الإنسان كُلَّما عظمت الامتيازات التي كان يتمتع بها، كُلَّما كانت التضحيات التي ينبغي له تقديمها في الأزمات الكبيرة ضخمة – التي بواسطتها يذوب المرء و يتلاشى ثمّ يولد و يعود من جديد. أن يكون الإنسان في ((عَلاقة))، خلال التغير الذي يجري عليه و يصيبه، مع الآخر، يعني أنّه في تواصل ممكن مع كل موجود ممكن، حتى ذلك الذي يكون بعيداً و يعدّ ((استثنائّي)). هذا التعلم يقصي أيّ تحول في الذات، يكون مختلفاً دائماً و يكون دائماً شيئاً جديداً.لأنه يهدف إلى يعلي من شأن التحولات من المصدر الأصيل للوجود الإنساني إلى الهدف الأصيل للعَلاقة الحقيقي في وجود-الذات.

تزودنا فرادة و ندرة و أصالة التعليم الفلسفي لهذا الإنسان، الذي يعود إلى العصر الحاضر و يمثل تغيراته، بفائدة كبيرة لا تقدر بثمن: خلافاً لكلّ الفلاسفة العظام في العصور الماضية، لم يكن أحد راضي على نيتشه كما لو أنّنا، نتوقع، منه و معه أن نحيط بكلّ ذلك الذي نفكر فيه عن الوجود، و نشعر مع أفكاره أنّنا حقاً في منزلنا و لاسيَّما مع مفهوم ((كُلّية الوجود))، و نملك أيضاً اليقين كما يتم التعبير عنه في القوانين التي لا تنتهك للإنسانية. بالأحرى، لا يمكن أن نفهم نيتشه بصورة صحيحة إلاّ حين نتوفر على التعليم المنطقي المتسق و المنظم في مكان أخر و حين يتم جلب المثابرة و التفكير الدقيق و ضمهما إلى قدرة التفكير الديالكتيكي معاً. و لكن، من جانب آخر، يمكن القول أنّ فرادة و ندرة و عظمة الفلاسفة السابقين في الماضي لا يمكن أنّ تُفّهم إلاّ بواسطة فيلسوف مثل نيتشه، حيث دونه و دون أطروحاته وتأويلاته البناءة، يمكن أن يتحولَ هؤلاء الفلاسفة إلى مجرد مذاهب فلسفية متحجرة. كلّ شيء يعتمد و يعول على استيعاب نيتشه و تمثله بواسطة تفلسف متطور يعيد اكتشاف المذاهب الفلسفيّة السابقة حين يتم مقارنتها مع نيتشه، بدلاً من فقدان و خسارة الأشياء التي اكتسبناها مسبقاً.

يشعر الواحد بعمق بتأثير تفكير نيتشه كمعلم و مربي لا يستسلم للأمور بسهولة و هو أمر يحرزه المرء بيسر، لأنّه حينما يشير إلى المستقبل، يثير فينا بقوة باعثاً فريداً و استثنائّياً قلما نحصل عليه، مع أن خلوه من وجود هدف خصوصي، يشتق من مصدر لا يرقى الشك إليه، و يبقى ذا صَلاحِيَة مطلقة بالنسبة إلى هؤلاء الذين يشاركون نيتشه تفكيره.

ردود الفعل نحو الاستثنائّي ـــ إذا كان نيتشه بدلاً من أن يخلق لنفسه مناخاً من الوجود الجوهري الحقيقي يركن إليه، يقدم لنا سحر نقائه روح خالية من الزَّيف، و إذا كانت النار التي أشعلها لم تحسن التدفئة و كانت فقط مستهلكة، و إذا كان نبل نظراته يبقى فارغاً مثل ((الموت مع عيون يقظة))، و إذا كان يعيش و يقطن في كلّ زاوية من زوايا النفس الحديثة و لكنه مازال يشعر أنه ليس في بيته أو منزله و يبدو يقودنا إلى الفراغ الذي لا قاع له، فمَا العمل إذنْ ـ كلّ هذه العروض ما هي إلاّ محض تعبيرات مفارقة و موهمة بالتناقض تشير إلى الوجود الاستثنائي الذي يتمتع به نيتشه الذي نضع بيننا و بينه مسافة، و نحاول أن نبتعد عنه بالرغم أن تواصل نيتشه معنا و طرائقه تصل إلينا و تمسنا و تؤثر بنا بعمق ـ أعني، نحن نقترب من نيتشه دون أن نحاول الاتحاد به أو نجشم أنفسنا عناء فعل ذلك.

السّؤال المهم الذي يدور في فلك هذه المقاربة: مع الأخذ بعين الاعتبار إمكانية الكُلّية و التواصل، كيف يمكن أن تكون ردود فعل المرء على نيتشه بوصفه اِستثناء يقدم حياته قربانا لتفكيره؟ بالنسبة للإنسان العادي، ما الذي يعنيه تفكير فيلسوف يهجر العالم و يتركه ورائه كي يبقى وحيداً كنيتشه، و أنّ واقعه النهائي هو فقط تفكيره، بمعنى يتطابق وجوده و تفكيره معا؟

سّؤالنا يمكن أن يطرح بطريقة أخرى: هل القوة المذيبة و الهاضمة للتفكير و التجريب هي التي تقود المرء، الذي ما انفكّ يكررها، إلى تفاهة وجوده و عدم ماهيته و لا مسؤوليته؟ أم أنّ الأمر خلاف ذلك – أعني، أن نيتشه – و لأنه المفكر الذي قرر و عقد العزم على وجه الخصوص أن يأخذ انحلال العالم و خلوه من معنى على عاتقه – هو الوحيد الذي يزودنا بنقطة بداية ممكنة و باعث للقوة يقودنا إلى الحقيقة السرمدية غير القابلة للذوبان و إلى وجود الإنسان القائم على أسس صلدة؟

التفلسف عند نيتشه هي تمرين فلسفي في حل أُحْجِيَّة الإمكانية المتوفرة للإنسان و طريقة التعاطي معها – إنّهُ محاولة لطرح أسئلة بديلة أكثر التصاقاً بالموضوع و أكثر تعبيراً عن تعقيداته. إنّ المرء العادي أو غير الاستثنائّي يمكن أنّ يفعل و يحقق هذه الأصالة و الموثقية فقط على أساسّ مديّونيات و إلزامات وجوده التاريخي. تحقيق الأصالة شيء لا يتعلق بمحاكاة و تقليد نيتشه – طبقاً إلى نيتشه، ترتكز هذه الأصالة على التخلص من كل الروابط و القيود و العقود الواقعية و أغلالها كي نبدأ في بناء أسس جديدة. إنّ النقطة الأساسية عند نيتشه هي كسب مساحة أو ميدان حر للممكن يشمل كل الروابط و القيود و العقد من أجل إيقاظ أعماق الحرية الحقيقية – يجب أن تعطي الحرية الفردية حتى لأعدائك الذين يريدون أنّ يسفكوا دمك – للوجود الإنساني في العالم و تنشيطها.

بما أنّ كلّ شيء يبقى مفتوحاً بالنسبة إلى نيتشه، وبما أنّه لا يعدّ أو ينظر إلى أيّ شي يمر به ثابتاً غير متغير، بل أنّه عِامل من العوامل المساعدة و مقدّمة من المقدمات تمهيدية للوصول إلى الحقيقة، فإنّه يقدم إلى كل فرد مهمة أو بالأحرى فرصة كسب أساسّه الحقيقي بواسطة العَلاقة بالترسندالي في التاريخ الوجودي. ينتقل تفكير نيتشه المتشنج و المشدود دائماً من الترسندالي المتعالي الذي أنكره، كي يهيّئ لنا ترسندالي من نوع آخر لم يكشف النقاب عنه بوضوح، و إمكانية تاريخية الوجود الإنساني لم يشر إليه مباشرة إطلاقاً.

و لكن عدم وجود رغبة أو استعداد تظل حقيقية حين تترك ببساطة نيتشه يقف أين هو و لا تتحرك معه أيّنما يتجه، و تخفق في أن تنغمس و تنخرط بشكلٍ جدي في تفكيره. هذا التركيز الحاد، الذي يزودنا بالتَجارِب الخطرة للممكن، و يخلق الميدان الذي أصبح بواسطته أنا، في مكاني، من أنا، و أحوز على هويتي – هو في الواقع تحدي نيتشه الصامت. بينما يتحول إلى تلميذ مجتهد يفرض على نفسه شروط صارمة و يصر على أنّ الطريق، الذي اختطه لنفسه، ليس ملائماً لكل واحد، يصف نيتشه هدف التفلسف عنده على النحو الآتي: ((كلّ فلسفة من الفلسفات يجب أنّ تكون قادرة على القيام بعمل ما أطلبه منها – أعني، التركيز على وجود الإنسان؛ و لكن حتى الآن و لا واحد منها قادر على القيام بذلك)).

ربما يكون الأمر عند نيتشه، في العَلاقة بالفلسفات السابقة، مجرد رفض الأساسّ المقدَم من قبلها – و بهذا يعدّ (مذهب العود الأبديّ، ميتافيزيقا إرادة القوة، شخصية السوبرمان) بمنزلة العدة الفلسفيّة الرصينة و الملائمة و القُوَى الأفضل الذي يجب يتم وفقها إرساء دعائم الأساسّ الجديد الذي تنطلق منه حياته. فقط حين نتعاطى مع نيتشه و نقترب منه وفق جوهرنا الحقيقي يمكن أن يتحدث معنا دون إحداث أو يسبب بأيّ حالة سوء فهم. ما هو نيتشه حقاً؟ مسالة تقررها في النهاية الطريقة التي يتعاطى فيه الآخرون-القراء-فيها معه.

و لكن لا أحد يرغب في إكمال هذا التمثل و الاستيعاب لنيتشه. لأن القارئ سوف يثور، المرة تلو الأخرى، حينما يجد نفسه غير قادر على فهم السياق العام لما يقرأ، أو يقوم بحرفهِ بواسطة فهمه بطريقة أحادية منفصلة و ضيقة. في هذه العَلاقة بعظمة الاستثناء التي تظل دائماً غامضة بطريقة لا يمكن تجنبها، يستطيع نيتشه أن يختفي و يتوارى وراء أفكاره و يصبح غامضاً وصعباً على الفهم؛ لكن جذور الحب العميقة التي يحملها القراء الحقيقين نحوه تظل مؤمنة و متمسكة فيه وبأفكاره – لا يستطيع المرء أن يخطئ في ملاحظة صفة النبل و الصدق و الأمانة الفكرية التي تتوفر عليها شخصيته و تظل باقية ملازمة له حتى حين يتحول كلّ شيء معها فجأة إلى عدم؛ إنّها أشياء لا يمكن قياسها و وزنها و لا يمكن أن يكون نيتشه خاطئاً حين يعبر بواسطتها عن رؤيته لكلاً من الوجود و الترسندالي، حتى و أن كان لا يسمعه الآخرون، فهو في الواقع يتحدث حصراً إلى أولئك الذين يدركون معنى كلامه و يكونون فعلاً آذاناً صاغية له.

إنّ التفلسف عند نيتشه يعني دائماً أن تناقش موضوعاً ممتعاً معيناً معه. مع نار تفكيره يمكن للمرء/ القارئ أن يحرق كل أكاذبيه و ادِّعاءاته و معتقداته الزائفة و يتخلص من كلّ الشوائب العالقة فيه إلى درجة يعي فيها بوجوده - الذاتي الحقيقي النقي، و لاسيَّما حين يخضع لامتحان أمانة و خطر التساؤل النقدي غير المحدود لديه. هذا الوجود-الذاتي للإنسان يمكن

أنّ يُجرّب فقط كشي يمر و يتحرك، ليس في الوجود، و ليس في الموضوعية و الذاتية لوجود العالم، و لكن بالأحرى في الترسندالي. لا يقود نيتشه الواحد إلى هذه النتيجة مرة واحدة – بل أنّهُ يحاول بالأحرى أنّ يحرر المرء منه. لكن الجدية في الاستسلام الكامل الذي أنجزها نيتشه هي – على الرغْم من رفضه إلى الترسندالي – تشبه المقارنة أو الشبه غير المقصود و النموذج الأصلي الذي يعبر عن التَجْرِبة العميقة للوجود المستهلك بواسطة الترسندالي. يصبح المرء أكثر خجلا في حضرة الشيء الغامض و غير المفهوم الذي لا يسبر غوره و الذي يكون شفاف و واضح بالنسبة للمصدر و الينبوع الذي انبجس منه و لكن ليس بالنسبة لنا.

انتهى

الملحق

الجدول الزمني رقم (1)

ولادة نيتشه في بلدة روكن بسكونيا (قرب لوتزون)، ابناً لقس.	10/15/1844
موت والده.	1849
ينتقل نيتشه مع عائلته (المتكونة من والدته و شقيقته) إلى مدينة ناؤمبورغ.	1850
يبدأ الدراسة في مدرسة (بفورتا).	1858-1864
يصبح عضو في الجمعية الأدبية ((جرمانيا))	1864-1860
ينتقل إلى مدينة بون لدراسة اللاَّهوت و	1865-1864

الفيلولوجّيا. ينضم إلى أُخوَّية فرانكونيا (*Burschenschaft Frankonia*).	
ينتقل إلى مدينة لايبزغ (حيث يلتحق في الجامعة لدراسة أربع فصول في موضوع الفيلولوجّيا). أصبح تلميذ لامعاً عند الأستاذ ريْتْشل. عقد صداقة وثيقة الصلة مع أيرون روده	1867-1865
يلتحق لأداء الخدمة العسكرية في ناؤمبورغ.	1868-1867
يتعرف نيتشه على ريتشارد فاغنر.	1868
يُعيّن بتوصية من أُستاذه ريْتْشْل أُستاذاً للفيولوجّيا	1879-1869

الكلاسيكية في جامعة بازل في سويسرا.	
تعرفَ نيتشه على جايكوب بوركهارت.	1869
من شهر آب إلى شهر تشرين الأول، يشترك نيتشه كممرض متطوع في الحرب الألمانية-الفرنسية. في شهر تشرين الأول، في مدينة بازل تعرف على فرانز كميل أوفربيك.	1870
زارَ نيتشه فاغنر في تربيشن قرب لوسيرينا.	1869-1872
وضع حجر الأساسّ لعمل بايروت.	أيار، 1872

تعرف على كوسيلتس (بيتر جاست).	1875
حفل الافتتاح الموسيقي الأول لبايْرويْت. تعرف على بول ريّ.	آب، 1876
مرض نيتشه. سورينتو: تعرفه على السيدة مالفيدا فون مايزنيوك . الحديث الأخير مع ريتشارد فاغنر.	1877-1876
نهاية علاقته بريتشارد فاغنر. شهر كانون الثاني: إرسال أوبرا (أو المسرحية الغنائية) بارسيفال إلى نيتشه؛ شهر أيار: يرسل نيتشه عمله ((إنساني مفرط في إنسانيته)) إلى ريتشارد فاغنر	1878

يستقيل من منصبه أُستاذ في جامعة بازِلْ بسبب سوء حالته الصحية السّيئة.	أيار: 1879
يصبح نيتشه أُستاذ أو بروفيسور متقاعد؛ ((الهارب الضال)): من عام 1883 -1888 يقضي هذا الوقت في مدينة نيس خلال الشتاء، و في سيلس-ماريا خلال الصيف، و أيضاً في أماكن و مدن متعددة خلال فترات التحول – من بين تلك المدن، ظلت مدينة فينيسا أكثر المدن قربا إلى قلبه، و كان يعشقها كثيراً. كما ينبغي التنويه أنّ اكتشافات شخصية مهمة	1889-1879

حدثت له في مدينة تورينا الإيطالية في غضون عام 1888	
فايزون، سانت موريتس، ناؤمبورغ	1879
الانتقال بين ناؤمبورغ. ريفيرا/ مارينباد. ناؤمبورغ. ستريسا. جنيف.	1880
الانتقال بين جنيف.ريكوارو. سيلس- ماريا. جنيف (استمعَ نيتشه إلى أوبرا بيزيه كارمن أول مرة).	1881
الانتقال بين مدن: جنيف/ مسينيا. روما. لوسيرينا. بازل. ناؤمبورغ. توتنبرغ. ناؤمبورغ. لايبزغ.	1882

رابلولو. من شهر أيار إلى شهر تشرين الثاني، 1882 ارتبط نيتشه في عَلاقة بلو سالومي.	
موت ريتشارد فاغنر.	شباط، 1883
الانتقال بين نيس، فينسيا. سيلس- ماريا. زيورخ.مينتون. نيس. آب من عام 1884: زيارة ج.ف. شتايت في سيلس-ماريا	1884
الانتقال بين نيس. فينيسيا. سلس- ماريا . ناومْبورغ. لايبزغ. نيس.	1885
الانتقال بين نيس، فينيسيا. لايبزغ (اللقاء الأخير مع	1886

	أيرون روده). سيلس- ماريا، روتا، نيس.
1887	الانتقال بين نيس. كانبيو. زيورخ. جيير. سيلس- ماريا. فينيسيا. نيس.
1888	الانتقال بين نيس.تورين. سيلس- ماريا.تورين. إلقاء مُحَاضَرات براندس عن نيتشه في جامعة كوبنهاغن.
1889	السفر إلى مدينة تورين. منذ شهر كانون الثاني بدأت أعراض الجنون تظهر واضحة على نيتشه. وُضِع في المصحة العقلية في بازل و جينا.
1890	في ناؤمبورغ يعيش مع أمه.

وَفاة أمه. يصبح نيتشه تحت رعاية أخته في فايمير.	1897
وَفاة نيتشه في 24 آب من عام 1900.	1900

الجدول الزمني رقم (2): أصل الأعمال و الكتابات في المواد المنشورة بعد وفاته.

(الأعمال التي ظهرت بعد وفاته)	الأعمال (وقت النشر بين قوسين)	
كتابات نيتشه في فترة الشباب عن الفلاسفة الإغريق:المجُلّد التاسع. ((فيمَا يتعلق بمستقبل مؤسَّساتنا و معاهدنا التربوية)).	((الفيلولوجّيا))	1858-1868 1866-1877 1869-1872
	((ولادة التراجيديا))، (كانون الثاني، 1872)	1871-1870
كتابات المجُلّد العاشر، و تتضمن:((الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي)).		1875-1872

1873	((تأملات لا موسمية))، الجزء الأول، ديفيد شتراوس (آب، 1873)	فيمَا يتعلق بالحقيقة و الزَّيف من وجهة نظر أخلاقية- إضافية.
1874-1873	((تأملات لا موسمية))، الجزء الثاني: في فوائد و أضرار تاريخ الحياة (شباط، 1874).	
1874	((تأملات لا موسمية))، الجزء الثالث:شوبنهاور كمعلم و تربوي (1876)	
1875		((نحن الفيلولوجّيين))/ ((فقهاء اللغة))
1876-1875	((تأملات لا موسمية))، الجزء الرابع: ريتشارد فاغنر في بايْرويْت (1876).	
1881-1875		المجُلّد الحادي عشر: من زمن كتابة نصّي ((إنساني مفرط في إنسانيته)) و ((الفجر)).
1878-1876	((إنساني مفرط في إنسانيته))	
1879-1878	((مزيج من الآراء و القواعد)) (آذار، 1879)	

	((التائه و ظله)) (كانون الأول، 1879).	1879
المجُلّد الثاني عشر: من فترة ((العلم المرح))، ((هكذا تكلّم زرادشت))		1886-1881
	((العلم المرح))، الجزء الأول-الجزء الرابع	1881-1880
	((الفجر))، (تموز، 1881)، (أيلول، 1882)	1882-1880
	((هكذا تكلّم زرادشت))، الجزء الأول، أيّار،(1883)	شباط، 1883
	((هكذا تكلّم زرادشت))، الجزء الثاني، (1883).	حزيران-تموز، 1883
	((هكذا تكلّم زرادشت))، الجزء الثالث، (1884).	كانون الثاني، 1884
	((هكذا تكلّم زرادشت))، الجزء الرابع، (1892).	1885-1884
المجُلّدات: 13-15. فيمَا يتعلق بنص ((إرادة القوة)).		1888-1883

	((ما وراء الخير و الشّر))، (1886).	1886-1885
	((المقدمات)) (1887). ((العلم المرح)) ، (1887).	1886
	((في جينالوجيا الأخلاق))/ ((أصل الأخلاق و فصلها))، (تشرين الثاني،1887).	1887
	((قضية فاغنر))، (1888). ((أفول الأصنام))، (كانون الثاني، 1889). ((عدو المسيح))/ ((ضِدّ المسيح))، (1902). ((نيتشه ضِدّ فاغنر))، (1901). ((هو ذا الإنسان))، (1901).	1888
	((ديثرامبس ديونسيوس))/ ((ديونسيوس: القصائد التسع)).	**1884 و ما يتلوها**

بيبليوغرافيا

أعمال نيتشه

تم إعداد و ترتيب الطبعة الكاملة (Gesamtausgabe) لمؤلفاّت نيتشه من قبل أخته إليزابيث في صيغة أوكتافو (octavo) بطبعة صغيرة مؤلفة من 16 مُجَلَّد (في صفحات و خطوط متطابقة مع الطبعة الكبيرة) – و هي سهلة القراءة ثم أن استخدامها في العمل يسير جداً. في الواقع، كلّ اقتباساتنا و استشهاداتنا مأخوذة من هذه الطبعة. بالنسبة للطبعات الجديدة و غير الباهظة الثمن، يمكن أنّ نذكر طبعة (كرونر)، التي يمكن أنّ نضعها أو تسع جيب المعطف، فهي الأفضل بين الطبعات، و ذلك لاكتمالها، و كذلك لأن مجُلّداتها يمكن شرائها فرادي. فقط المواد التي نشرت بعد وفاة نيتشه فيها تمثل خيارات الآخرين في إخراجها و ترتيبها و نشرها

بالإضافة إلى هذه الطبعة، ينبغي أن يتم استخدام و تداول نسخة الفيلولوجّيكا، 1866-1877، الموجودة في الطبعة الكبيرة (أوكتافو)، المجُلّد: 19-17 (الناشر هولزير كروسيوي و نيستل): كتابات مرحلة الشباب (Jugendschriften)، 1858-1868، في المجُلّد 1، من طبعة ميسورون، التي نشرت مُجَلَّد منفصل، (ميونخ، 1923)، (الآن تم مضاعفتها في مضمونها في الطبعة التاريخية-النقدية الجديدة لأرشيف- نيتشه)؛ و ((أشعار و أقوال مأثورة)) (Gedichte und Sprüche)، كطبعة كاملة و متفرقة، (لايبزغ، 1898)، س.ج. نيومين (معظمها و ليس كلها موجودة في الطبعة الكاملة (Gesamtausgabe)، أماكنها في المجُلّدات المختلفة يُشار إليها في المجُلّد الثامن، ص 449).

مؤلفاّت/ مقالات نيتشه: *Hymnus an das Leben. Für Chor und Orchester,1887*.

Hymnus an die Freundschaft . Chor mit Klavier vierhändig, 1874.

Manfred Meditation fürlavier vier händig, 1872.

.Siebzehn Klavierlieder und klavierstücke

ميسيلانيا: ((ملاحظات فريدريك نيتشه الهامشية على عمل كارمن بيزيت))، (Friedrich Nietzshes Randbemerkungen zu Bizets Carmen)، نشرت بواسطة هوغو دافنير، (ريجنسبيرغ). ((ملاحظات فريدريك نيتشه على جايو)). (Friedrich Nietzshes Randbemerkungen zu Guyau)، مع ملحق للتَرْجَمَة الألمانية لنصّ ((أخلاق دون واجب))، (Sittlichkeit ohne Pflich)، (لايبزغ، 1909).

أَرْشيف نيتشه تم إعداده و تهيئته في طبعة تاريخية- نقدية كاملة لأعماله و رسائلة. حتى الآن تم نشر ثلاث مُجلّدات من كتابات الشباب (Jugendschriften) (ميونيخ، 1933-1934). الهدف من وراء هذه الطبعة جمع المواد التي ظهرت بعد وفاته، بالإضافة إلى الرسائل الباقية، حسب السياق الزمني الذي كُتِبَت فيه. إذا ما تم نشرها حسب المتفق عليه، فإنّها ستكون حقاً الأساسّ، و جزء لا يتجزأ، في تشكيل الدراسات المستقبلية عن نيتشه.

كي نفهم الطبعات الموجودة و الصادرة عن المواد التي كتبها نيتشه و لم تنشر في حياته، و الطريقة التي كُتِبَت فيها مخطوطات نيتشه، ينبغي للواحد أنّ يلاحظ، ليس فقط التقارير الإضافية و مقدمات الطبعات المكتوبة، و لكن الأهم من كلّ ذلك، طبعة أوغست هورنيفير ((نيتشه كأخلاقي و كاتِب))، (Nietzsche als Moralist und Schrifsteller)، (جينا، 1906)، و أرنست هورنيفير، ((النشاط الخلاق الأخير لنيتشه))، (Nietzsches letztes Schaffen)،(جينا، 1907).

العمل أو الطبعة التي لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة نيتشه هو ((سجل- نيتشه)) ، (Nietzsche-Register) لريتشارد أوهلر،) لايبزغ، 1926). هذا المجُلّد لهذا السجل و أرقام صفحاته تشير إلى الطبعة الكاملة المذكورة آنِفاً (سواء الطبعة الكبيرة أو الصغيرة في صيغة أوكتافو في الشكل و التصميم). لم يتضمن هذا السجل الرائع كتابات نيتشه في مرحلة الشباب، الفليولوجّيكا، و الرسائل. ينبغي للباحث ألّا يتوقع الكمال في هذا السجل، فهو يعاني بعض النقائص و الكثير من التقلبات، إذا جاز التعبير. و لكن أيّ باحث في نيتشه عليه القيام بتوسيعه و الإضافة إليه حسب أغراض و متطلبات البحث. هذا السجل المحدد و يعمل بواسطة مفتاح-الكلمات، يرجع إلى الكلمات

بالمعنى الحرفي بدلاً من اتباع الموضوع. فضلاً على ذلك، أخفق في أن يزودنا بتوضيح شامل و كافي حينما يتم تقسيم المواد المتعلقة بمفاتيح الكلمات و تبويبها. و لاسيَّما الفقرات التي تتعاطى و تكشف عن المواد التي كتبها نيتشه و تم نشرها بعد وفاته. الكلمات و المضامين التي ظهرت في كتابات فلسفة نيتشه اللاحقة لم تظهر بشكل جيد في المُجَلَّد الأول من هذا العمل. في العَلاقة، و بالخصوص مع البعض من مفاتيح الكلمات، يبدو أنّه فقط جزء صغير من أعمال نيتشه قد تم إخضاعه للفحص و التحليل و البحث و التمحيص. بيد أنّ هذه النواقص و الكثير من التقلبات لا تعد بالشيء الكبير بالقياس إلى المادة البحثية الرصينة لهذا السجل الذي بين أيدينا إذ دونها صدقا سيكلفنا الأمر جهود بحثية كبيرة و مضنية للحصول عليها. تم إضافة إلى هذا السجل لاحقاً إلى طبعة ميسورون، و تم توسيعها في مُجلّدين أكثر كمالاً و رصانة بواسطة إدراج كتابات الشباب لنيتشه و الفيلولوجّيكا. قيمة طبعة ميسورون تكمن فقط في أنّها تمثل توسيع ل((سجل- نيتشه)). هذا السجل في الواقع ((طبعة ضخمة)) و عمل مرهق بسبب حجم المجُلّدات التي تحتويها.

الرسائل

مجموع الرسائل الكاملة لفريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsches Gesammelte Briefe)، لابيزغ، أنسيفيرلاج، المجُلّد الأول: رسائل إلى بندر، كروك، ديوزون، ف.جيرسدورف، فوكس و آخرون؛ (الطبعة الثالثة، 1902)، المجُلّد الثاني: مراسلة نيتشه مع أي. روده، تينا، كيلير، ج.ف. شتاين، برانتدس، ج.ف. بيلو، ف. سنيغر، م. ف. مياسنبيرغ؛ (الطبعة الثانية، 1905)، المجُلّد الرابع: رسائل نيتشه إلى بيتر جاست، (الطبعة الثانية، 1908). المجُلّد الخامس (في جزئين): رسائل نيتشه إلى أمهِ و أخته؛ (الطبعة الثانية، 1909). أيضاً مراسلة نيتشه مع فرانز أوفربيك (Nietzsches Briefwechsel mit Franz Overbeck)، (أنسيفيرلاج، لايبزغ، 1916)؛ فقرات مختلفة تم حذفها هنا و قد تم نشرها في كتابات بوديك.

فضلاً على رسائل ميسيلانيا: رسائل إلى لو أندرياس- سالومي في: (Lou Andreas-Salomé, Friedrich Nietzsche, Vienna, 1894)) ؛ رسائل إلى سترندبيرغ في كارل ستريكير، نيتشه و ستريكير , Nietzsches und Strindber)(Munich, 1921)؛ رسائل إلى هيليبراند في أو.كروسيوس (Hillebrand Friedrich Nietzsche und Karl Hillebrand).

(رسائل غير منشورة((Unveröffenlichte Briefe). Süddeutsche Monatshefte, VI,
2, 1909, pp.129-142 ؛ إلى كروتس في 12 رسالة لصديق من شبابه (Zwölf Briefe
Nietzsches an einen Judgendfreeund (Gustav Krug)، (Süddeutsche
Monatshefte vol.27, August 1930)؛ صورة طبقة الأصل من أخر رسالة إلى بوركهارد
(8 كانون الثاني، 1889)، في بوديك، انهيار نيتشه النفسي (Nietzsches
Zusammenbruch)، (هايدلبرغ، 1930؛ رسائل إلى هيسلر في: كتابات غير منشورة لنيتشه
(رسائل إلى أندرياس هيسلر، كانون الأول، 1888) (Zwei ungedruckte Schriftstücke
Nietzsches (Briefe an Andreas Heusler, Dec., 1888)، (Schweizer
Monatshefte für politik und Kultur. vol, Zurich, Apirl, 1922)، و المنشورة في:
رسائل من عام 1880((Friedrich Nietzsche, Briefe aus dem jahre 1880) ، (و
على وجه الخصوص إلى الناشر س. ج. نيومين و إلى ميتا فون سيليس مارشلينس)، (Die neue
Rundschau XVIII, pp.1367 ff., Berlin, 1907)؛ و الرسالة الأخيرة إلى ه. بيليو في
أندلر/ المجُلّد الرابع، ص 530، الهامش.

متطلبات وشروط النشر

بما أنّ أخت نيتشه بدأت، و منذ بواكير التسعينيات، في إعداد و تجهيز المواد التي لم يتسنَ لنيتشه نشرها حينما كان على قيد الحياة و قامت بنشرها أخيراً بدلاً عنه، فإنّها نجحت في جعل أعمال نيتشه، بالإضافة إلى المنشور منها في حياته، كلّ متكامل في متناول القراء – و بما أنّ الطبعات غير الباهظة و الرخيصة لأعماله و بعض المختارات من رسائله و بعض المواد التي لم يتسن له نشرها كانت كافية لإشباع الذوق الشعبي العام، فإنّ المهمة الكبيرة المستقبلية المتبقية هي تقديم طبعات جديدة لأعماله كي تقوم بوظيفة الأساس و العمود الفقري لدراسة الجدية لنيتشه، حيث أصبح بالتأكيد من الممكن إنجازها بفضل توفر المواد الأولية لها.

لدراسة نيتشه بصورة مناسبة، ينبغي للمرء أنّ يشترك فعليا في حركة تفكيره الحيوية التي لا تهدأ – بعبارة أخرى، الحركة الداخلية لوجوده. لا يمكن أنّ نفهم نيتشه فقط بواسطة شذرات مفصولة، أو بحوث أو مقالات، منفصله بعضها عن البعض الآخر، بل علينا أنّ نتمعن و نتأمل و نطيل النظر بعمق في كل اِنعاطفة من انعاطفات حركة تفكيره، ملاحقة كل زاوية من زوايا تفكيره، و كلّ تَجْرِبة تقويض خاضها بنفسه. بناءً على ذلك، تعتمد و ترتكز إمكانية النفاذ إلى أعماق نيتشه على اتباع طريقة غير شائعة أو مألوفة في ترتيب طباعة كتاباته و تنضيدها. تقديم تنظيم متكامل و مناسب لما قاله نيتشه يمكن أنّ يعطينا شيئاً عميقاً بعيد من التوضحيات و الشروحات المضجرة، و يجعل نيتشه أكثر وضوحا و أكثر تشويقاً و متعة في مقارباته. إن الطبعات الجديدة لأعمال نيتشه ينبغي أن تتوفر فيها المتطلبات الآتية: (1) كأساس لدراسات المستقبلية عن نيتشه، ينبغي لكلّ المواد التي كتبها نيتشه، بلا زيادة أو نقصان، أن تُجمع معاً ضمن ثلاث مجاميع: على أمل أنّ الطبعات الجديدة لأعمال نيتشه، التي تظهر في أثناء ذلك، تفي بشرطين الأولين من المتطلبات اللاحقة: (أ) الأعمال التي قام نيتشه بنشرها بنفسه متوفرة و في متناولنا بيسر في كليّتها، و ليس هناك صعوبة في هذه النقطة إطلاقاً. و لكن في الواقع هناك أهمية كبيرة للمواد التي كتبها نيتشه و لم يتسنَ له نشرها بسبب وفاته، أو تم نشرها مؤقتا لأغراض أنية، و الترتيب الذي عمل به النَاشِرون لكتب نيتشه (مع استثناء جزئي لنصّ إرادة القوة)، حيث شكلت هذه الأمور صعوبات كبيرة لا يمكن التخلص منها إطلاقاً. الطريقة الملائمة لدراسة نيتشه تتقرر دائماً بواسطة أساسّ المخطوطات نفسها، و ربما تختلف من ألفها إلى يائها من حالة إلى حالة أخرى. و لكن ما نحتاج إليه هو بين: كلّما هو واضح و جلي و مفهوم في كتابات نيتشه ينبغي أنّ يتم

نشره بالحال دون أيّ إضافات، في ترتيب زمني محدد إذا كان ممكناً، أو – كُلَّما كان ضبط التواريخ أمراً غير ممكن – في سياق دقيق، بحيث تظهر الملاحظات على هيئة كراريس مجمعة أو كنشات. فيمَا يتعلق في المواد الفلسفيّة المكتوبة من قبل نيتشه، فهي فقط الذي تبين لنا ما ممكن و ما غير ممكن. أنّ التواريخ و النظام الذي دوَّنَ نيتشه فيه أفكاره أمر في غاية الأهمية، و من حيث إنّه يمكن أن يُكتَشف، ينبغي أن يتم الإمساك به و المحافظة عليها و لا ينبغي أن يتم تجاهله أو نسيانه. في الأيام الخوالي، يمكن لفيلولوجّيين من أمثال روده أنّ يعدّ هذه الطلبات، التي نصّر عليها، مجرد شي أحمق لا معنى له، و لكن إذا كان هذا رأيهم بلا مواربة أو التباس فمرد ذلك التقليل إلى جهلهم بقيمة التفكير الفلسفي لنيتشه و الاستخفاف فيه.

على كل حال، تغيرات ضخمة يجب القيام بها، و لاسيَّما فيمَا يتعلق بالمواد التي كتبها نيتشه و لم تنشر بسبب وفاته، و ترتيبها، كما كانت، على أساسّ الموضوع، و جعلها نُصوصاً مقروءة بقدر الإمكان. يبدو لي حتى فصل نصّ ((إرادة القوة))، ذلك السفر العظيم، عن المواد التي لم يتسنَ لنيتشه نشرها بسبب وفاته، و التي تؤلف المجُلّد الثالث عشر و الرابع عشر، بالإضافة إلى الترتيبات التي أجريت على المجُلّدات نفسها – غير قادرة و أخفقت في تقديم التوضيح المطلوب لفلسفة نيتشه. إن ّالترتيبات التي كانت في ذهن نيتشه و ما انفكّ يعلن عنها ينبغي أنّ تطبع كما أراد الأخير لها أن تكون. في نفس الوقت، متابعة و تنفيذ أيّ عمل من أعمال نيتشه يجب أن نتجنبه بما أنّ سبب اختياره يعود إلى النَاشَر بدلاً من نيتشه.

ربما رداءة خط كتابة المسودات غير المنشورة لنيتشه – كان الكلام و الخط يحملان طابع شخصية نيتشه التي لا يمكن خلطها بغيرها مثل وجهه و صوته و مشيته. من الصعب أن نعثر على رجل مثله؛ فقد كان الرجال الحقيقيون و كانت الشخصيات الحقيقية من الندرة بمكان، و كان العثور على الشخصية الحقيقية مصادفة و هِبّة في إقليم الصفوة – و صعوبة قرائتها و فكّ شيفراتها، يمكن يجعل نشرها صعباً أنّ لم يكن مستحيلاً. و لكن كلّما يمكن أن يقرأ و مكتوباً بطريقةٍ واضحة منها ينبغي أن ينشر بلا أدنى تردد، بغض النظر عن الفوضى و لا الترتيب الذي يحملها، مع الحفاظ على السياق الزمني قدر المستطاع، حتى لو اقتضى الحال أن نقوم بقطع و إعاقة هذا السياق، بسبب افتقارنا إلى المعلومات و المصادر الواردة في المراجع الكافية أو بسبب اِستِحالة إجَراءِ عملية التحقيق بهذا الصدد. فقط بواسطة هذا الإجَراءِ يتسنى لنا أنّ نحصل على الصورة الحقيقة و الواقعية و المباشرة لتفكير نيتشه الذي يمثل شرط لا مفر منه لأيّ نقطة بداية نريد الشروع بواسطتها في دراسته.

إنّ الأعمال المنفصلة، بالإضافة إلى المواد التي لم يتسن لنيتشه نشرها خلال حياته بسبب رحيله المبكر، و التي تولت أخته عملية ترتيبها و تجهيزها و نشرها، هي في الواقع متسقة و مثالية و لها معنى واضح و سهلة الفهم، كما أنّها، إذا جاز لنا القول، تتطابق مع نفس المواقع التي ينطلق منها نيتشه. إذنْ، عملية إعادة نشر هذه الأعمال سيكون ذو فائدة قليلة – ما عدا حين تكون الكلمات و الأقوال فيها قد تجاوزت الحدّ فعلا (كما هو الحال، طبقاً إلى هوفميلر، مع كلمة ((الأبله)) – الأبله الحقيقي لا يعي أن هناك فكرة وراء فكرته – التي تم مسحها و حذفها من نصّ ((ضِدّ المسيح))/ ((عدو المسيح))). نأمل أنّ تكون هناك طبعة جديدة – لكلّ المواد التي ظهرت بعد وفاة نيتشه و لم توافيه الظروف لنشرها في حياته و لظروف خارجة عن إرادته– رصينة و محصنة و دقيقة تصلح أنّ تكون أساسّ في الدراسات المستقبلية لنيتشه.

(ب) كلّ الرسائل الكاملة، و مسودات الرسائل، التي كتبها نيتشه ينبغي أنّ يتم طباعتها ضمن سياق زمني دقيق تُراعى فيه الشروط الصارمة. زد على ذلك، توظيف كل الوقائع التي تم التأكد من صحتها لفهم هذه الرسائل و المقاصد من وراء كتاباتها، و ينبغي أنّ تجمع و تقدم عنها الهوامش، دون الحاجة إلى تقديم تأويلات أو انتقادات بصددها.

ليس أقّل من تقديم طبعة شاملة و متكاملة يمكن حقاً أن يقدم الفائدة المرجوة و المتوخاة للتلاميذ والباحثين أو البحاثة في نيتشه، ليس فقط فيمَا يتعلق بوضع الحقائق الوثيقة الصلة بنيتشه دائماً أمامهم، و لكن أيضاً للنفاذ إلى أعماق التجرية الحياتية التي عاشها. إنّ رسائل نيتشه المتوفرة مع الآخرين، على اختلاف صنوفهم و مشاربهم، ينبغي أن يتم تصنيفها طبقاً للفترات التي تعود إليها، و يكون تنظيمها حسب الفترات الزمنية التي كُتِبَت فيها و سياقاتها التاريخية، حيث يحتم هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، التغاضي و إهمال بعض الأشياء.

(ج) كلّ التقارير و التقييمات التي قدمها الأشخاص المعاصرون لنيتشه المستمدة من مِيزة الاتصال المباشر معه ينبغي جمعها و ترتيبها بطريقة رصينة و محترفة. الكثير من الأقوال العرضية التي تظهر بشكل منفصل ذو أهمية و منفعة ضخمة و كبيرة، حين يتم وضعها معا لإكمال الصورة عمّا حدث لنيتشه. إنّ المقياس المستخدم في اختيار المواد لغرض النشر، ينبغي أن يكون معنى و دلالة و أهمية و قيمة هذه المواد ضمن سياق التَجْرِبة الصلدة لنيتشه. فقط المواد المستمدة من التَجارِب الحياتية – و ليس ما يعتقد معاصريه في كتاباته – ينبغي أنّ يكون محض اهتمامنا.

(2) بواسطة تعزيز فكرة التكامل، هذه الطبعات الثلاث الموسعة تزودنا بالأساسّ للطبعات الإضافية الأخرى المكرسة لمهمة إعطاء و منح التنظيم المناسب للمواد التي في حوزتنا. القيام بهذا العمل شرط لامفر منه إذا أردنا أنّ نكتشف العلاقات الموضوعية و الشخصية المتنوعة في نُصوص نيتشه. فقط الترتيبات المناسبة و الملائمة يمكن أنّ تزودنا بالكمال فيمَا يتعلق في المواد التي هي على بساط البحث. لا يمكن أن نعثر على هذا الكمال في الترتيبات الاعتباطية للطبعات الحالية المتوفرة الآن؛ و يبدو أنّه غير متوفر لا في كتابات السيرة الذاتية عن نيتشه، و لا مع تلك الذي تتعامل مع عَلاقة نيتشه بفاغنر، و ليس في أيّ مكان أخر.

(أ) كل ذلك الذي يشير إلى علاقات نيتشه بالآخرين ينبغي يسلط عليها الضوء، و يجمع معاً، و يوثق بطريقة أكاديمية محترفة: ليس فقط الرسائل التي تم التحقق و التأكد منها، و لكن أيضاً الوقائع التي تم التحقق من صحتها، إلى جانب كلّ شيء يحمل في عمل نيتشه إشارة إلى تلك العَلاقة (و على وجه الخصوص العَلاقة بفاغنر).

(ب) كلّ الأقوال التي في متناولنا، فيمَا يتعلق بمرض نيتشه طوال حياته، يجب أنّ تجمع في كتاب واحد؛ هذا الأمر، المثير للاهتمام حقاً، في الواقع، (أكثر أهمية من الغوص و التوغل في دراسة علم حياة الفرد و تاريخ المجتمع فيما يتعلق بتأثير حالة عقلية أو جسدية عليه): كلّ الأشياء التي قالها نيتشه عن المرض في رسائلهِ، و كلّما قاله الآخرون عن مرض نيتشه، و كلّما أُثبّت أن له عَلاقة بوجهات نظر محدد عن مرض نيتشه يمكن التحقق منها، ينبغي أنّ يجمع في كتاب واحد مستقل. الهدف ينبغي أنّ يكون ببساطة جمع ما متوفر من الوثائق دون إطلاق أيّ أحكام مسبقة و دون اللجوء لتشخصيات سطحية و ساذجة (ما عدا بالطبع تشخيصات الأطباء الذين كانوا يعالجونه طوال حياته). كذلك اتباع الدِقّة الممكنة فيمَا يتعلق في السياق الزمني للحوادث، المتعلقة بالمرض، يشكل أهمية كبيرة و أساسية في إنجاز هذا الهدف.

(ج) و في حين أن الحساسية المشذبة و المصقولة للواقعي، و القابلية على تطبيق المنهج الفيلولوجي (كذلك، في الحالة الثانية، بعض التَجارِب الطبية و النفسية) يساعدنا على إنجاز الهدف الذي ذكرناه في الفَقَرة السابقة بدرجة عالية من الدِقّة، نحتاج إلى طريق ثالث في ترتيب المواد، بالإضافة إلى قابلية الواحد لتصور و فهم أفكار الآخرين بدقة و بحذافيرها: فقط الترتيب الموضوعي، في ضوء منشورات نيتشه في حياته و المواد و الكتب التي نُشرت بعد وفاته، و الأفكار التي ترجع إلى

بعضها البعض في وحدة الموضوع تمكننا من النفاذ إلى الأماكن العميقة غير المرئية المختبئة تحت كومة من الخرائب و الأنقاض و التي تشكل بدقة مضمون المواد التي نشرت بعد وفاته. هذه العملية سوف تبلغ هدفها في ترتيب أفكار نيتشه إلى درجة فهم مقاصدها الفلسفيّة – دون حذف أيّ شيء و دون القيام بأيّ عنف أو إجَراءِ تعسفي و اعتباطي على النصّ يغيّر من مضمونه – و تمكننا أيضاً من ترتيب هذه الأفكار بطريقة يمكن لها أن تبوح بديالكتيكها الداخلي و حركتها الملازمة و المحايثة لها. ينبغي وضع الأفكار المتشابهة عند نيتشه بعضها إلى جانب البعض، وصف حجرها حجرة حجرة، بطريقة تكشف عن اختلافاتها المعقدة، و علاقاتها بالأفكار الأخرى – هنا التناقضات ستبدو واضحة، و الفجوات سيكون بوسعنا ملاحظاتها. هذا الترتيب لأفكار نيتشه يمكن أن يتم إنجازه فقط وفق الخطوات الثلاث الآتية: (1) ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار كلّما فكر فيه نيتشه بغض النظر على اختلاف الموضوعات و تنوعها؛ (2) علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الأساسّ الذي انبثقت منه وجهات نظر نيتشه، و المضي معه بوعي بواسطة السير في الطريق التي وصل بواسطته إلى تلك الأفكار؛ (3) يجب أن نفكر بوجهة النظر أو الناظم الفكري الذي يزودنا بنوع من التنظيم لأفكاره و الإمساك بها كلها، و أنّ يكون صادقا، و يحافظ على المكونات المجزئة و المشتتة المتفرقة، و يعمل مقياس للفهم الذي في متناولنا لحد الآن، و كنقطة بداية للعمل في الدراسات المستقبلية عن نيتشه.

فقط نيتشه، خلافاً إلى كلّ الفلاسفة الآخرين، يقدم لنا مشكلات عميقة و غريبة و فريدة لم يألفها أو يعرفها تاريخ الفلسفة من قبل. الحال، مع نيتشه، ليس أن نستخدم مجموعاً من الأنقاض و الحجارة و نصفها حجرة حجرة لننتج أو نصنع نظاماً متسقاً و نهمل الباقي من الفضلات و نرمي به بعيداً، و لكن أنّ نمنح، بدلاً عن ذلك شكل للكلّ الذي ما انفكّ نيتشه يتصوره. و مع الاعتراف باستحالة تشكيل و تصور شكل الكلّ عند نيتشه، ينبغي لنا أن لا نكون محدودين و ضيقي الأفق، في التعاطي مع نيتشه، و نبتعد عن المتطلبات التي تفرضها المناهج الهيغلية التي تُوظَّف لغرض جمع كلّ الأشياء معا ضمن بُوْتَقَة نظام و مخطط ديالكتيكي واحد.

ينبغي للمرء أن يلعب لُعْبَة الفسيفساء – عملية ترتيب و تنظيم و تجميع و مقابلة تصورات مركزة مأخوذة من ميادين الفكر و الجمال – مع أقوال نيتشه المأثورة و شذراته، كما هي، حينما تنبثق بطريقة استبداديّة و اعتباطيّة أو بشكل مُغرض. و لكن سنين العمل الطويلة مع فلسفة نيتشه تمنح المرء قناعة، من حيث الموضوع، أنّ لُعْبَة الفسيفساء هذه لا هي بال لُعْبَة الاعتباطيّة و الاستبداديّة، و لا هي بال لُعْبَة التي لا تنتهي، و لاسيَّما حينما نتحدث عن العلاقات الأساسيّة و الفعلية الجوهرية للكلّ

– أو أيّ جزء يؤخذ بنظر الاعتبار – بطريقة تجعل روية و ملاحظة عيوب الترتيبات المختلفة الاعتباطية سهلة. إنّ ما هو مطلوب يمكن أن يُنجز فقط بواسطة الجهود التعاونية و التصحيحية المتبادلة التي يمكن أن يمتد و يستغرق مدة طويلة من الزمن (بالمناسبة عملي هذا عن نيتشه هو خطوة لازمة في هذا الاتجاه). لا يمكن أن نحصل على أيّ شي نافع بواسطة التصنيفات البارعة السهلة و السطحية و المخططات الأخرى الذي تفرض من فوق على نيتشه، لأن هذه التصنيفات و المخططات، في أحاديتها العقلانية و منهجيتها الأحادية الجانب، يمكن أنّ تحطم نيتشه الحقيقي، لأنّها ببساطة كسولة و بليدة و متراخية.

(ج) و في حين أن من المناسب أن يتم اختيار كلّ الكتابات الوثيقة الصلة و المؤثرة في الموضوع المعطى أو المشكلة عند نيتشه، فإنّ الاختيارات التي تهدف إلى استخراج الأفضل من الكلّ، حين تكون الجدارة و الاستحقاَق أمراً مشكوكاً فيه دائماً، لا يمكن أن تطبق على نيتشه و هي غير موثوق فيها في حالته أكثر من أيّ مفكر عظيم أخر. مع نيتشه، الفهم، بوصفه بهجة مملوءة بالآلم، ليس متعة جمالية تشكلها صورة من الادِّعاءات الزائفة. إنّهُ يتطلب أولا إعادة التفكير في علاقات-التفكير الخاصَّة نفسها، و بواسطة طرق متعددة و مختلفة غير مطروقة من قبل، كي نصل إلى الحد الأخير الذي نعرف بواسطته أساسّ كل الانحرافات، و بذلك الوصول إلى مصدر المخطط المفهومي كله لديه. في المقام الثاني، يتطلب الفهم الدقيق لنيتشه دراسة سيرته- الذاتية: الكشف (على سبيل المثال) عن تشعبات عَلاقة نيتشه بالآخرين في تفاصيلها و خصوصيتها الصلدة و المهمة كي نكون قريبين من الواقع الذي يجعل اللغة الوجودية التي لا لبس فيها لنيتشه مسموعة و مفهومة و يستطيع الكثير الإنصات إليها.

الكتابات حول نيتشه

السيرة-الذاتية الكاملة عن نيتشه لكتاب فريدرك فيورباخ: Nietzsche: Ein Gesamtüberblick über die bisherige Nietzsche literature ، يمكن أنّ نعثر عليه في نص: Literarische Berichte aus dem Gebiete der Philosophie، الناشر أرثر هوفمان، أيرفورت.ك. شتينكر؛ رقم 20،19، 26.

هوامشنا في الصفحات:32، 37، 38، 59، 65، 71، 80-81، 90، تزودنا بملحق القائمة الآتية، و التي تحتوي فقط عدد محدود من الكتابات: (1) بالنسبة للدراسات الرصينة و المتكاملة عن نيتشه انظر: Charles Andler's six-volume Nietsche. Sa vie et sa pensé, (Paris, 1920-1931).

(1) Les précurseurs de Nietzsche.

(2)La jeunesse de Nietzsche.

(3)Le pessimism estétique de Nietzsche.

(4)La maturité de Nietzsche Jusqu'a sa mort.

(5)Nietzsche et le transformisme intellectualiste.

(6)La dernière de Nietzsche.

بواسطة النظر إلى المواد التي تحتويها بطريقة محترفة و دقيقة و حكيمة، و النمط المعرفي المميز الذي تتوفر عليه، هذا المجُلّدات الست أعلاه تقدم للقارئ أو الباحث مقاربة و بوصلة و توجه ممتاز و عميق في قراءة نيتشه. على سبيل المثال، مقاربة أندلر لنيتشه يطغي عليها الجانب الأدبي و التاريخي أكثر من الفلسفي و لكن بطريقة موضوعية صرفة. و دون أنّ يكون أسيراً إلى نيتشه، أخضع أندلر حياة نيتشه و عمله إلى عملية تحليل تاريخي دقيق إلى جانب المرور على الخطوط الرئيسية للمقولات الفلسفيّة التراثية التي يتعاطى معها. هذا العمل له قيمة فكريّة عظيمة، و ذلك لأهدافه و مقاصده و وجهة النظر المتحررة من الأحكام المسبقة عن نيتشه التي يطرحها معشر الباحثين الآخرين. جهوده الرائعة في تحديد مصادر وتأثير تفكير نيتشه تستحق الإشادة و الثناء، و كذلك ينبغي أنّ نثني على أمانته الفكرية السائدة في تعاطي مع نيتشه. زد على ذلك، إنّهُ تقريباً النصّ الوحيد الشامل الذي يتحدث بطريقة فريدة عن وجود نيتشه. و الأهم من كلّ ذلك، هذا النصّ لا يحتوي أو ينطوي على التمويه و المراوغة الساذجة التي نعثر عليها في الكثير من النُصوص الفلسفيّة، و بذلك نجح أندلر في العثور على الموقع الذي يمكن بواسطته رؤية الكاتب و الشاعر – بل حتى المفكر – في نيتشه، مع أنّه كان يناقش الأفكار بدلاً من التعاطي مع الفيلسوف الحقيقي نفسه.

(2) بالنسبة إلى النُصوص التي تحتوي على وجهات نظر شاملة عن نيتشه، انظر: Lou Andreas-Salomé, Friedrich Nietzsche in seinen Werken, (Vienna: 1894).

Alois Riehl, *Friedrich Nietzsche, der künstler und Denkerk*, 3rd., (Stuttgart, 1901).

Karl Joel, *Nietzsches und die Romantik*,(jena, 1905).

E. Bertram, *Nietzsche*, (Berlin, 1918).

Karl Justus Obenauer, *Friedrich Nietzsche der ecstatische Nihilist*, (Jena, 1924).

Ludwig klages, *Die pschologischen Errungenschaften Nietzsches*, 2nd ed., (Leipzig, 1930).

Alfred Baeumler, *Nietzsche, der Philosoph und politiker*, (Leipzig, 1931).

Reclam. Josef Hofmiller,“ Nietzsche „ *Süddeutsche Monatshefte*,XXIX, pp.73, (1931).

Kontroverse Hofmille-Baeumler, *Süddeutsche Monatshefte*, 28 (1930-1931)K pp.536, 607 ff., 685ff., 758 ff.

و الأكثر أهمية بين هذه النُصوص هو نصّ: بيرترتم، كلاجيز، بوملير.

(3) فيمَا يتعلق بالمشاكل الخاصَّة بنيتشه، انظر: Max Scheler, “ Das Ressentiment im Aufbau der Moralen”, in : Abhandlungen und Aufsätze, vol. 1, und “ Versuche einer philosphie des Lebens”, vol. 2.

A. Baeumler, Bachoften und Nietzsche, Published by Neue Schweizer Rundschau, (Zurich, 1919); Baeumler in : Bachofen, Orient und Occidents,

.Einleitung, (1926), pp.241-255

.Friedrich Metz, Nietzsche, der Gesetzgeber, (Leipzig, 1930)

المصادر و الكتب الآتية عن نيتشه تستحق الذكر:

.Julius Zeitler , *Nietzsches Ästhetik*, (Leipzig, 1900)

Nicolai v. Bubnoff, *Friedrich Nietzsches Kulturphilosophie und Umwertungslehre*, (Leipzig, 1924).

.Werner Brock, *Nietzsches Idee der Kultur*. (Bonn, 1930)

Erika Emmerich, *Wahrheit und Wahrhaftigkeit in der philosophie Nietsches*, Halle, (1933(diss Bonn)).

Erich Hocks, *das Verhältnis der Erkenntnis zur Unendlichkeit der welt bie Nietzsche*, (Leipzig 1914).

Karl Löwith, *Nietzsche philosophie der ewigen Wiederkunft des Gleichen*, (Berlin, 1935).

Ernst Howald, *Friedrich Nietzsche und die klassische philosogie*, (Gotha, 1920).

Gustav Naumann, *Zarathustra-Kommentar; vier Teile*, (Leipzig, 1899-1901).

(4) الذم: كل روح عظيمة تتعرض للشتم و القدح بطريقة لا هوادة فيها. القارئ غير المتحيز أو ينظر بعيون غير متحيزة يجب أنّ يعرف كيف و لماذا تعرض الكاتِب إلى الإهانة، أولاً، لِإختبار قابلية الكاتِب على رفض النقد أو حل المشاكل التي هي موضوع المناقشة؛ ثانياً، حتى يصبح واعياً إلى

نوع الحقائق و الوقائع التي يكره الكاتِب أنّ يكشف النقاب عنها و يبوح بها؛ و ثالثاً، لمواجهة سّؤال ما الذي يجعل من إهانة الشخص المهان و المجروح الكرامة أمر ممكن و مؤثر، هل لأن لديه في داخلة ما يجعل من الإهانة مؤثرة و تنزل عليه نزول الصاعقة. أذكر هنا بعض الأمثلة: 1. Ludwig Stein, Friedrich Nietzsches Weltanschauung und ihre Gefahren, (Berlin, 1893).

2. Johannes Schlaf, Der Fall Nietzsche, eine Uberwindung, (Leipzig, 1907).

3. Gustav Büscher, Nietzsches wirkliches Gesicht, (Zurich, A. Rudolf, 1928).

Karl Jaspers

Nietzsche

Einführung in das Verständnis seines Philosophierens

Vierte unveränderte Auflage

Walter de Gruyte Berlin New York

1981

Photomechanischer Nachdruck der vierten Auflage 1974

CIP · Kurztitelaufnahme der Deutschen Bibliothek

:Jaspers, Karl

Nietzsche: Einf. in d. Verständnis seines Philosophierens / von Karl
.Jaspers. – Nachdr. d. 4. Aufl. – Berlin ; New York : de Gruyter, 1981
(De-Gruyter-Studienbuch)
ISBN 3-11-008658-1

.Druck: Hass & Co., Berlin · Einband: Lüderitz & Bauer, Berlin

DEM ANDENKEN
MEINER MUTTER

Vorwort zur ersten Auflage Nietzsche zu lesen gilt manchem als leicht; wo man ihn aufschlägt, kann man ihn unmittelbar verstehen; fast auf jeder Seite ist er interessant; seine Urteile faszinieren, seine Sprache berauscht; die kürzeste Lektüre belohnt. Jedoch entstehen schon Störungen, wenn man, stehenbleibend bei solchen Eindrücken, viel lesen will; die Begeisterung für den unmittelbar ansprechenden Nietzsche schlägt in Abneigung gegen ein scheinbar unverbindliches Vielerlei um; immer anderes bei ihm zu lesen wird unerträglich. So aber wird weder ein wahres Verständnis noch .die rechte Schwierigkeit erreicht

Man muß aus bloßer Nietzsche – Lektüre zum Nietzsche – Studium kommen, dieses verstanden als Aneignung im Umgang mit dem Ganzen von Denkerfahrungen, das Nietzsche in unserem Zeitalter war: ein Schicksal des Menschseins selbst, das an die Grenzen und Ursprünge .drängte

Jeder Philosoph von Rang verlangt ein ihm angemessenes Studium.
In diesem erst kann das innere Tun erwachsen, das das Wesen des rechten Verstehens ist. Schriften über einen Philosophen haben den Sinn, dies innere Tun zu fördern; sie sollen den Leser – entgegen der oberflächlichen Berührung, dem willkürlichen Herausgreifen im unsmittelbaren Mißverstehen, dem passiven Genuß schöner Worte – zu wirklichem Eingehen bringen. Die Sache dieses Philosophen soll so klar wie möglich herausspringen, und zwar so, daß im Mitgehen mit den Gedanken selbst .erfahren wird, worum es sich handelt

.Heidelberg, Dezember 1935

Karl Jaspers

Worwort zur zweiten und dritten Auflage

.Diese Auflage ist ein unveränderter Abdruck der ersten

Das Buch ist ein Versuch, den Gehalt der Philosophie Nietzsches herauszuarbeiten gegen den Strom des Mißverstehens seitens der bisher ihn aufnehmenden Generationen und gegen die Abgleitungen in den eigenen Notizen des sich dem Wahnsinn nähernden Mannes. Der Schein soll verschwinden zugunsten des prophetischen Ernsts des bisher vielleicht .letzten großen Philosophen

Mein Buch möchte eine Interpretation sein, die unabhängig vom Augenblick ihrer Entstehung sachlich gültig ist. Aber in jenem Augenblick von 1934 und 1935 wollte das Buch zugleich gegen die Nationalsozialisten die Denkwelt dessen aufrufen, den sie zu ihrem Philosophen erklärt hatten. Es ist aus Vorlesungen hervorgegangen, in denen manche Hörer verstanden, wenn ich Nietzsche zitierte: “Wir sind Emigranten...” ein Zitat, das ich im Buch ebenso wie seine liebenden Sätze über die Juden wegließ. Alle diese Zitate füge ich jetzt nicht nach, da sie für das, was das Buch will, unwesentlich sind. Das Buch soll auch dokumentarisch so bleiben, wie es .war

Ein Kapitel war vorgesehen, in dem durch Sammlung von Zitaten das Irren Nietzsches in naturalistischen und extremistischen Wendungen belegt wurde. Das ergab ein vernichtendes Bild. Aus Achtung vor Nietzsche habe ich es weggelassen. Wer Nietzsche versteht, wie es dieses Buch lehren möchte, für den verschwinden jene Abgleitungen in nichts. Wer jene Stellen ernst nimmt, auf sie den Finger legt oder sich gar von ihnen fangen und

führen läßt, der besitzt nicht die Reife und das Recht zur Niezsche-Lektüre. Denn der Gehalt dieses Lebens und Denkens ist so großartig, daß, wer an ihm Teil gewinnt, geschützt ist gegen die Irrungen, denen Nietzsche für Augenblicke verfallen ist, und die sogar den Unmenschlichkeiten der Nationalsozialisten phraseologisches Material liefern konnten. Da Nietzsche in der Tat nicht der Philosoph des Nationalsozialismus werden .konnte, wurde er von diesen in der Folge stillschweigend fallengelassen

Mein Buch ist einheitlich entworfen. Wohl läßt sich auf den Wegen seines Sinns Erweiterung und Bereicherung gewinnen. Doch wäre damit die Gefahr verbunden, daß das schon umfangreiche Werk seine Form verlöre. Ein neues ergänzendes oder ein das Ganze aus dem Ganzem noch einmal ursprünglich entwerfendes Buch wäre besser als eine Veränderung des .alten

.Heidelberg, Februar 1946

.Basel, Februar 1949

Karl Jaspers

Notes

[1←]

.Cf. E. Bertram, Nietzsche: Versuch einer Mythologie, Berlin, 1918

[2←]

في هذه النقطة، يتم اقتباس أفكار نيتشه بذكر رَقْم المجُلّد و صفحاته، و لاسيَّما بعد أن تم إصدار كلاً من الطبعة الكبيرة و الصغيرة من مؤلفاته بالنيابة عن أخته السيدة إليزابيث، و ذلك بموجب اتفاق مسبق تم بين البعض من النَاشِرين.

[3←]

هناك صعوبة جلية ينبغي أن يتم الاعتراف بها: يتضمن فعل الاقتباس عموماً انتزاع الجمل من سياقاتها الأصلية الواردة فيها و وضعها في سياقات جديدة – و هذا الأمر يعني إخراجها من حدود علاقاتها التعبيرية الدالة و وضعها في حدود علاقات أخرى مختلفة تماماً. بهذا المعنى، يمثل الاقتباس ارتكاب فعل العنف الممارس على النصّ بامتياز في الفلسفة. إنّ من المهم حقاً أن يتم تجنب العلاقات الاستبدادية و الاعتباطية في فعل الاقتباس، و العمل على أن يلقي كلّ اقتباس الضوء على تفكير نيتشه كليًّا. أيّ باحث معتاد على قراءة نُصوص نيتشه، و استيعاب معانيها، طبقا لطريقة تفكيره، و يستخلص منها المعاني عملياً دون حدّ من كل صفحة من الصفحات يطلع عليها، أو يريد الوصول إلى الفهم المبني على أساس النُصوص الخاصَّة للفيلسوف وحده، ربما ينظر بعين عدم الرضا لطريقة ربط التعبيرات و الاقتباسات المأخوذة موادها اعتباطياً من مصادر متنوعة و مختلفة. في الواقع، هناك نقاش طويل لا ينتهي حول هذا الموضوع. و لكن الطلب الذي يجب أن يراعى جيداً في عملية الاقتباس (ما آمل أن أكون قد حققته و أن كان عن غير قصد) هو ببساطة الآتي: العمل جاهداً على تجنب إفساد المعنى، أو التحول إلى المعنى الضِدّ بدل المقصود، أو التشوية الواضح للمضمون في الاقتباس – هذه أمور لا يمكن التسامح معها. في نفس الوقت، هناك أمر لا يمكن تجنبه أو متوقع في عملية الاقتباس هو فقر و سلب المعنى أو تمدده الزائد عن اللزوم و هو نتيجة متوقعة حينما يتم الحكم على الاقتباس المعطى أو مقارنته ضمن سياق الطبعة الكاملة لأعمال نيتشه الكاملة بدلاً من عمل مفرد واحد مأخوذاً على حدة.

[4←]

المصادر الأساسية في التعاطي مع حياة نيتشه: تمثل دراسة كتب نيتشه و رسائله المتاحة وحدها المصدر الأساسي و المهم لدراسة تفكيره. و إذا أردنا أن نذهب أبعد من ذلك على سبيل الفرض، سنجد أنّ معرفة حياته الحقيقية لا تقتصر على الاطلاع على عمل واحد محدد فحسب – بل يتعدى الأمر و يقتضي منا أن نطلع على مجمل أعماله بما أنّهُ لم تُنشر حتى الآن طبعة شاملة و تقرير واضح و واسع يرتكز على المصادر الأصلية الأولية له. فمن جانب، هناك الروايات و التقارير المتوفرة و المنشورة عن نيتشه المبتورة في الواقع و التي يشوبها الكثير من السهو و الإسقاطات و حذف الكثير من المعلومات و المصادر الواردة في المراجع المهمة في المتناول. ومن جانب أخر، هناك الكثير من الآراء و وجهات النظر المختلفة التي يصعب إحصائها و عدها. لهذا السبب، ليس لدينا من خِيار سوى قراءة نصوصه و رسائله المتوفرة و المتاحة هنا و هناك حتى نصل إلى شيء ذو أهمية و فائدة حيث نأخذ بعين الاعتبار أنّ علينا أن نكون شهود على الكثير من الأحداث و نَطلع على الكثير

من الحجج و أن نشارك في التقييمات التي بالكاد تصف لنا نيتشه مع أنّها تؤلف جزء من قدره و مصيره. على آية حال، لا ينبغي للمرء أن يقرأ كلّ تلك الأشياء ما لم يكن مسبقاً قد شكل في ذهنه تصور كافٍ عن طبيعة و شخصية نيتشه الحقيقية تقوم حصراً على أسس نصوصه و كتبه و رسائله، لأنّه في تلك الحالة فقط يستطيع المرء أن يتجنب و صفات الزينة و الزخرفة اللطيفة المهدئة أو جملة الشروط الموضوعية عنه.

بهذا الصدد، النصّين الرئيسين هما:

الكتاب الأول:

Elisabeth Förster-Nietsche, *Das leben Friedrich Nietsches, Leipzig, 1895-1904*

حيث تم إيجازه و تحويله إلى مجُلّدين صغيرين هما:

(1) *Der junge Nietsche*; (2) *Der einsame Nietzsche* الكتاب الثاني:

C. A. Bernoulli, *Franz Overbeck und friedrich Nietzsche, Eine Freundschaft, Jena, 1908*.

خلق كتاب شقيقة نيتشه إليزابيث انطباعاً قوياً في الأوساط الفلسفية لامفر في فهم شخصية نيتشه، و لاسيَّما المجُلّد الأول منه و الذي يتعاطى مع زمن طفولته. و لكن، دون روايات صديقه أوفربيك، و تقارير بازل وبيرنولي ستبقى صورة نيتشه الحقيقة غير مكتملة و واضحة المعالم تماماً لنا. الحديث عن الحقائق التي يطرحها هؤلاء الكُتّاب عن نيتشه هنا أمر يستحق فعلا التقدير و الامتنان و عرفان الجميل المستمر. مع أنّ المرء لا يقبل دائماً المفاهيم و المقاييس السائدة لديهم.

بخصوص النقاشات و صراع الحجج بين فايمر و بازل انظر النص الآتي: ((Zuschrift)) C. A Bernoulli((

فيمَا يخص الوثائق المرتبطة بمحاولة منع نشر رسائل كاست إلى أوفربيك انظر النص الآتي: *Das literarische Echo* X, 1907.

و كذلك الأجوبة المتوفرة في النصوص التالية:

Nietsche-Archiv, PP.1325-30. Josef Hofmiller, ((Nietzsche und seine Schwester)); Süddeutsche Monatshefte VI,2,1909, pp 395- 403.

بالإضافة إلى العملين الرئيسين الضخمين المذكورين آنفاً تقدم المصادر اللاحقة إلى القارئ الوقائع و الحقائق الممسوك بها و المسيطر عليها و التفاصيل غير المترابطة ذات الصلة بالموضوع: *Paul Deussen, Erinnerungen an Friedrich Nietzsche, Leipzig*, 1901– J. Mähli, ((Erinnerungen an Friedrich Nietzsche)) Die Gegenwart LVIII, Berlin, 1990, PP.246ff– Malvida von Meysenbug, *Individualitäten*, Berlin, 1901.

(و على وجة الخصوص الصفحات الآتية:1-41 التي تتعلّق بعَلاقة الكاتبة مالفيدا فون مايزنبوك بنيتشه الوثيقة الصلة.) انظر أيضا:

Meta von Marschlins,Philosoph und Edelmensch, Leipzig 1897–Arthur Egidi, ((Gespräche mit Nietzsche 1892)), in Die Musik Erster Jahrgang, 1902, pp.1892 ff. – Julius kaftan, Aus der Werkstartt des Übermenschen, Heibronn, 1906.

فيما يتعلق بالفيلسوف المثالي ريتشارد أفينيرين و علاقة نيتشه بالفن انظر: *Andler*, IV, 564-67– Carl Spitteler, Meine Beziehungen zu Nietzsche, München, 1908.

كما توجد هناك وثائق و معلومات مهمة في الأعمال اللاحقة: O. F Scheuer, *Friedrich Nietzsche als student*, Bhon, 1923– Johannes Stroux, *Nietsches Professur in Basel*, Jena, 1925– Gottfried Bohnenblust, ((Nietzsche Genferliebe)); Annalen, II, Zürich, 1928, pp.1 ff– E. F Podach, *Nietzsches, Zusammenbruch*, Heidelberg, 1930– E. F Podach, *Gestalten um Nietzsche*, Weimer, 1932.

[5←]
انظر أو قارن الجدول الزمني المذكور في ملحق كتابنا الحالي.

[6←]
Stroux, p. - 3236.

[7←]
فيمَا يتعلق بالتقارير المتعلقة بحياة نيتشه كأُستاذ انظر المصدر اللاحق: Bernoulli, I, pp. 66 ff.

[8←]
قائمة بمجموع الكتب التي استعارها نيتشه من مكتبة بازل من عام (1869) إلى عام (1879) ظهرت في المصدر الآتي: Albert Levy, Stirner et Nietzsche, Paris, 1904, pp.93-113.

فيمَا يتعلق بالكتب التي كانت تحتويها مكتبة نيتشه الشخصية، انظر الآتي: Arthur Berthold , Bücher und Wege zu Büchern, Stuttgart, 1900, pp. 429-456.

[9←]
Fritz Kröbel, Europas Selbsbesinnung durch Nietzsche: Ihre Vorbereitung bei den französischen Moralisten, (München, 1929).

[10←]
فيمَا يتعلق في الوصف التفصيلي لكلّ العوامل التي أثرت على نيتشه، على سبيل المثال، ما الذي كان يقرأه، ما الذي كان يعرفه، ما الذي كان يستخدمه، انظر المصدر الآتي: Charles Andler*, Nietzsche. Sa vie et sa pensée*, (Paris, 1920-1931).

[11←]
Elisabeth Förster-Nietzsch, Wagner und Nietzsche, p.83.

[12←]
Mähly S., p.249.

[13←]

مقتبس من :

.Bernoulli I, p.252

[14←]

مقتبس من:

.Harry Graf Kessler in *Die neue Rundschau*, 1935, p.407

[15←]

Isabelle von Ungern-Sternberg's *Nietzsche im Spiegelbilde seiner Schrift,* (Leipzig oJ., .)

(تأتي أهمية هذا الكتاب الخاصَّة من كثرة و تنوع النماذج المتوفرة من خط يد نيتشه و المأخوذة من مراحل مختلفة من حياته.) Ludwig Klages,((Nietzsche und seine Handschrift)),*Gesammelte Abhandlungen*, (Heidelberg, 1972).

[16←]

قارن القائمة المرتبة زمانياً/ تاريخياً لأعمال نيتشه في الملحق.

[17←]

بالنسبة للتحليل الذاتي المتطلع إلى الوراء الذي يستعيد الأحداث الماضية عند نيتشه، انظر: Die Vorreden 1, 1 ff.; 2, 3 ff. Und Ecce Homo 15, 1 ff.

[18←]

بالنسبة للمراسلات الموجَزة بين نيشة و صديقه روده، انظر: II. – O. Crusius, Erwin Rohde, Tübingen, 1902—Bernoulli, I pp.259 ff; II, pp.149-167—Podach, Gestalen um Nietzsche, Weimer, 1932, pp.34 ff.

[19←]

.Elisabeth Förster-Nietsche, op. cit, I, 190

[20←]

نفس المصدر، ص 243.

[21←]

فاوست هو بطل أسطورة ألمانية كلاسيكية، مبنية على أساس شخصية يوهان جورج فاوست (1480-1540) التاريخية. حقق فاوست نجاحًا كبيرًا في حياته، غير أنّه لم يكن راضيا عليها، مما دفعه إلى عقد اتفاق مع الشيطان على مَفرقِ طرق، و تبادل روحه مقابل معرفة غير محدودة و متع دنيوية كثيرة. (م)

[22←]

.Bernoulli, II, p. 162 ff

[23←]

نفس المصدر، ص115.

[24←]

.Briefe, II, XXIII

[25←]

. XXIV نفس المصدر السابق، ص

[26←]

نفس المصدر السابق، ص XXV.

[27←]

.XXVII نفس المصدر السابق، ص

[28←]

بخصوص أعمال نيتشه حول فاغنر: Richard Wagner in Bayreuth, 1876. Der Fall Wanger, 1888.

.Nietzsche contra Wanger, 1888

.E. Föster-Nietzsche, Wanger und Nietzsche Zur Zeit ihre Freundschaft, München, 1915

يمكن مقارنة العملين المنشورين بواسطة فاغنر، و الذي يرجع تاريخهما إلى حقبة عَلاقته بنيتشه: Beethoven, 1870, und Über die Bestimmung der oper;

بالنسبة لرفضه الواضح لنيتشه (دون ذكر اسمه)، انظر المصدر الآتي: Publikum und Popularität (3 teil).

و بالنسبة للأعمال التي تتعلّق بكلاً من نيتشه و فاغنر، انظر الآتي: Ludwig Klages,((Der Fall Nietzsche-Wanger in graphologischer Beleutung)), 1904; in Gesammmelte Abhandlungen, Heidelberg, 1927— Kurt.

Hildebrandt, Wagner Und Nietzsche. Ihr Kampf gegen das neunzehnte Jahrhundert, Breslau, 1924 — Bernhard Diebold, Der fall wagner. Eine Revision, Frankfurt, 1928.

فيمَا يتعلق في الأعمال حول فاغنر، انظر الآتي:

Carl Fr. Glasenapp, Das Leben Richard Wagners, Leipzig, 1980 ff., Vol.IV, V,VI— Guy de pourtales, Wagner als Mensch und Meister — أما حول كوزيما:

.Graf Du Moulin-Eckardt, Cosima Wagner

[29←]

Kurt Kolle,))Notizen über Paul Rée, ((Zeitschrift für Menschenkunde, Jahrgang 3, .1927, p.168. Mitteilungen aus dem Nietzsche- Archiv, Weimer, 1908

و قد تم طبعة على النفقة الخاصَّة.

[30←]

هذا الكتاب إلى لو أندرياس- سالومي

.Friedrich Nietzsch in seinen Werken, Wien, 1894

لا يحوي هذا الكتاب على أي روايات أو معلومات عن العَلاقة بين نيتشه و لو سالومي و لا يتعدى الأمر فيه على مجموعة من رسائل نيتشه التي تم أعادت نشرها ثانية. المصادر الأخرى هي الروايات التي تضمنتها السيرة الذاتية لأخته و لاسَّيما في الفصل المعنون: Bittere Efahrungen))

و كذلك في الرسائل التي تبادلها نيتشه مع أمه و أخته (الطبعة الأولى، 1909، ص 486-506).

.Mitteilungen aus dem Nietzsche-Archiv (Weimer, 1980)

كذلك لا مفر من الاطلاع على عمل بيرنولي عن أوفربيك. بالإضافة إلى المصدرين الآتين: Bernoulli, ((Nietzsches Lo-Erlebnis,))Raschers Jahrbuch, I. p.257.

.Podach, Nietzsches Zusammenbruch, Heidelberg, 1930

[31←]

للمقارنة بين نيتشه و بارون فون شتاين، انظر:

.Briefe, III, pp. 219-264

[32←]

.Briefe, III, p.249

[33←]

رسائل نيتشه إلى صديقه بيتر جاست: Briefe IV–Die Briefe Peter Gasts an Friedric Nietzsche, 2 bde., München, 1923-1924– josef Hofmiller, ((Nietzsches Briefe an Gast)), Süddeutsche Monatshefte VI, 2 1909, pp. 300-310–Hofmiller, ((Nietzsche.)) Süddeutsche Monatshefte , 29. Jahrgang 1931, pp. 48 ff– Podach, Gestalten, pp.68 .ff

[34←]

على سبيل المثال، رسالة نيتشه إلى أوفربيك و المؤرخة في 15 تشرين الثاني من عام 1884.

[35←]
.Paul Deussen, Erinnerungen an Friedrich Nietzsche, Leipzig, 1901

(هذا الكتاب يحتوي على رسائل عدّة مهمة) و يحتوي أيضاً على النصّ الآتي: Paul Deussen, Mein Leben, .Leipzig, 1922

[36←]
إلى جانب ذلك:

.Briefe, III: Bernoulli I, 51 ff

[37←]
تم نشرها بواسطة أو.كروسيوس:

Briefwechsel

.Süddeutsche Monatshefte VI, 2., 1909

قام هيلبراند بتنقيح الأجزاء الثلاث الأولى من نصّ ((تأملات لا موسومية)) بعد نشرها، و في حين أبدى موافقته عما صدر في هذا النصّ ألحَّ أيضاً من المستحسن إعادة تنقيحه. هذا التنقيح في الواقع تم إعادة طبعه في كتاب هيلبراند: Zeiten, Völker und Menschen, Bd. II, 2. Aufl., Strassburg, 1892: 1((Einiges Über den Verfall der deutschen Sprache und der detschen Gesinnung.))–))Über historisches wissen und historischen Sinn((–3. ((Schopendauer und das detsche)) .Publikum

[38←]
– Der Briefwechsel, Nietzsches und Overbeck, Leipzig, 1916

إنه عمل بيرنولي حول الاثنين:

.Walter Nigg, Franz Overbeck, München, 1931

[39←]
.Bernoulli I, p.268, p.270

[40←]
و حول بونكرت: رسائل إلى جاست 7.3 .1883حتى الثاني من نيسان 1883.

,Egidi, loc.cit

[41←]
.Bernoulli I,256 ff. (Scheffler)

[42←]
فيما يتعلق بطلب الزواج لنيتشه في ربيع عام(1876)، انظر: Bohnenblust I.C, and also: H.W.Brann, Nietzsche und die Frauen, Leipzig 1931.

[43←]
بالنسبة لدراسات التي تتعامل مع مرض نيتشه، فهي على التوالي: P.J. Möbius, Nietzsche, 2. Aufl., Leipzig, 1904—Ottokar Fischer, ((Eine psychologische Grundlage des Wiederkunftsgedankens,))Zeitschr. f. angew, Psychologie 5, p. 487, 1911. – Enrst Benda, ((Nietzsches Krankheit,))Monatsschr, f. Psychiatrie und Neur. Bd. 60, p. 65, 1925. – Kurt Hildebrandt, Gesundheit und Krankheit in Nietzsches Leben und Werk, Berlin, 1926. – E. F. Podach, Nietzsches Zusammenbruch, Heidelberg, 1930. – Paul Cohn, Um Nietzsches Untergand, mit vier Briefen von El. Förster-Nietzsche, Hannover, Morris-Verlag o.J. (1931). – E. F. Podach, ((Nietzsches Krankengeschichte (Abdruck der vollständigen Jenaer Krankengeschichte).))in: Die medizinische Welt, vierter Jahrgang; pp. 1452, 1930.

[44←]
Bernoulli, II, pp.22 ff.

[45←]
حول الكتابات عن هذا الموضوع، انظر الآتي:

Cf. Arndt and Junius, Archiv f Psychiatrie, Bd.44.

[46←]
للآسف لم استطيع الاطلاع على كتاب جاستون فوربيك:

Zusammenbruch: Lenau, Nietzsche, Maupassant, Hugo Wolf, Müchen, 1922.

[47←]
قارن صفحة 65 و ما بعدها.

[48←]
إنّ ما ينبغي أن نشير إليه هنا فقط، بواسطة الملاحظات المنهجية/الميثودولوجية للمادة المرتبة تاريخيا من كتابات و رسائل نيتشه التي تّم نشرها بعد وفاته، هو الحاجة إلى التطبيق المنهجي الذي لا يمكن أن ينجز بنجاح كامل حتى تصدر طبعة جديدة كاملة تزودنا بكافة أعمال نيتشه بعد وفاته و كافة المراسلات التي أجرها مع أصدقائه (طبقاً إلى ترتيبها التاريخي و الزمني الصحيح).

[49←]
فيما يتعلق بهذا الموضوع، انظر مقالتنا:

Strindberg und van Gogh, Zürich, 1922, 2 Aufl, Berlin, 1926.

[50←]
.Reinhardt, Die Antike XI, S 107, 1935

[51←]
.O. Crusius, Erwin Rohde, S. 150

[52←]
.Bernoulli, I, p. 167

[53←]
قارن ص 341 و ما بعدها؛ و ص 516 و ما بعدها.

[54←]
. بالنسبة للمعنى الأساسي لهذا المذهب و لتأويل نيتشه لعالمه، انظر، الكتاب الثاني، الفصل الخامس.

[55←]
حينما ذكر نيتشه الآتي: ((بناء ً على ذلك، الحقيقة هي أكثر روعة و بهاء من الزَّيف))، ينبغي أنّ نتذكر هنا السياق الفلسفي التحذيري الذي يزودنا بكلمات ((الحقيقة)) و ((الزَّيف))، حيث يمكن أن يحتمل هناك تغير في المعنى: الحقيقة الموجودة، بالنسبة لنيتشه، هي في الواقع دائماً ((الزَّيف))؛ حينما يكون الزَّيف هو شرط الحياة – أعني للحياة ذات المرتبة العالية، فإنّنا يمكن أنّ نطلق عليه الحقيقة بمعنى الحياة التي ترفع و تعزز من شأن الزَّيف؛ و حين يكون محدد للحياة، فإنّنا نطلق عليه الحقيقة بمعنى الحياة الدنيئة و المتدهورة – أيّ الكسل الذي نجده مقنع.

[56←]
فيما يتعلق بفهم نيتشه لنفسه، انظر ص 678 و ما بعدها.

[57←]
فيمَا يتعلق بهذه النقطة، و لمزيد من المعلومات و المصادر الواردة في المراجع، انظر الفصل المعنون، من هذا الكتاب ((كيف فهم نيتشه نفسه و تفكيره))، ص 678 و ما يتبعها.

[58←]
لا أريد الخوض في مناقشة السير الذاتية التي تحاول أن تثبت أنّ أريادن تشير عند نيتشه أو ترمز إلى كوزيما فاغنر. ليس هناك أي شك في أن ذكريات السيدة كوزيما أدّت دور مؤثر في اِستِحضَار نيتشه لشخصية أريادن، و لاسيَّما في ملاحظاته المجنونة الآتية الموجهة حصراً إليها: ((أريادن أحبك، أني واقع حقاً في غرامك —— ديونيسيوس)). بيد أن تلك المفاتيح لا تساهم كثيراً في فهم المعنى الفلسفي لهذا الرمز الغامض. هذا الرمز يظل عقبة و لا يمكن ترجمته إلى شيء عقلي أو مفهوم سيكولوجي- منطقي واضح على نطاق حدود التَجارِب الوجودية التي تعبر عنها عاطفة نيتشه و ولعه و شغفه في الحقيقة.

[59←]
حينما أخضع نيتشه فلسفة الإغريق إلى السّؤال فهذا الأمر كان يتضمن المرحلة منذ سقراط فما فوق؛ فهو يعدّ المرحلة الإغريقية ما قبل السقراطية مرحلة مقدسة للغاية.

[60←]
الكتاب الثاني، الفصل الخامس.

[61←]
قارن الصفحات، 289-293.

[62←]
انظر ص 744 و ما بعدها بخصوص أفكار نيتشه عن الناس.

[63←]
انظر، ص 289-293.

[64←]
فيمَا يتعلق بتأثير ((نظرية)) التأويل لمعنى الحقيقة، انظر ص 341 و ما بعدها.

[65←]
Nietsche der Gesetzgeber, p. 200.

[66←]
نفس المصدر، ص 557 و ما بعدها.

[67←]
فيما يتعلق بمرضه، انظر، ص 181 و ما يتبعها.

[68←]
قارن أعلاه ص 544.

[69←]
حينما يؤكد نيتشه أنّ ((ظاهرة الجسد هي الظاهرة الأغنى، و الأطهر، و إنّها حقاً ظاهرة شاملة))، فلأن هذا كان له ((الأولوية المنهجية)) في مقارباته الفلسفية – من المهم أن ينطلق الإنسان من الجسد في عمله، و يستخدمه كدليل و مرشد، بما أنّه يقدم لنا الكثير من الملاحظات الدقيقة و الثمينة؛ أو عندما يستخدم المرء الجسد كدليل، فهناك، نتيجة لذلك، تنكشف بطريقة مدهشة الكثير من ((الظواهر الغنية التي يجب أن تستخدم كوسيلة في فهم الظواهر الفقيرة))؛ من الواضح، إنّ من الصعب أن لم يكن من المستحيل، أن نقول ما الجسد أو نحدد هويته بالضبط؟ و بعد أن ينتهي نيتشه من قول ذلك، يؤكد مراراً على اعتبار الجسد بمثابة كائن حي ينبغي أنّ يكون

موضوع لدراسة البيولوجيا، و نتيجة لذلك سيفقد لاحقاً صفته الشاملة. استخدام الجسد كدليل يتحول بعد ذلك مع نيتشه إلى مطلب منهجي. على سبيل المثال، أدرك نيتشه بواسطة الانطلاق من ((الجسد و من الفيزيولوجيا، كيف تقدم وحدة الموضوع نفسها بطريقة ملائمة – أعني، الجسد كمرشد و وصي أعلى في المجتمع... و عليه يعتمد موضوع شروط تقسيم العمل و التقسيم الطبقي للمجتمع... و لهذا فإنّ الصراع، بواسطة الجسد، يعبر عن نفسه بمظهر الفئة التي تأمر و الفئة التي تطيع....)) في هذه النقطة، لا يفعل نيتشه شيء سوى أن يكرر، دون أيّ توضيح إضافي، نفس الفكرة القديمة و مفادها ((الحياة العضوية المرئية، و الطريقة الإبداعية غير المرئية للتفكير، و النفس الحاكمة، هي كلها عناصر متوازية أو تعمل بالتوازي)). و لكن كما يشير عرض المنهج الإدراكي، هذه الفكرة مشكوك فيها، و نيتشه في الواقع لم يتوصل إليها من مواقع فهم دقيق، و لكن فقط بواسطة الميل في السماح للطريقة البيولوجية في الحديث و إعطائها مساحة للتعبير عن نفسها.

[70←]
قارن أعلاه ص 526.

[71←]
. قارن أعلاه ص 526.

[72←]
عنوان ((جزيرة القبور)) (زرادشت، الجزء الثاني، الفصل 11) هو ليس الحالة المضادة، لأنّه يحمل معنى مختلف تماما عن المعنى السائد هنا.

[73←]
انظر، ص 319 و ما بعدها، في الفصل المعنون ((الحقيقة)).

[74←]
انظر، ص 585 و ما يتبعها في فصل ((الحقيقة)).

[75←]
لقد تعرض هذا المفهوم إلى الكثير من التضليل بما أنّ المرء يفكر فيه بوصفه شيء سيكولوجي أو حتى حالة سيكولوجية. و لكن، إذا قال المرء عن الحالة أنها تعبر عن: التَجْربة، المِزَاج، العاطفة، الشعور في الحقيقة، الوعي-الذاتي، التناغم، العرف، الشعور، الحدس، ...إلخ، فإنّ هذا الأمر لن يجعلها تصبح أكثر وضوحا، ثم أن الدِقّة الظاهرية في مستوى عالي لن تكون إلاّ مجرد مظاهر خداعة. ربما فقط بسبب استقامتها، فظاظتها، و بلادتها فإن كلمة ((حالة)) هنا مناسبة لتزويدنا بعلامة لغوية، و ذلك بسبب طبيعتها الشاملة التي تتحدى الوصف و التحديد الدقيق. إنّ حقيقة اختيار نيتشه لهذه الكلمة و استخدامها تقريباً كحد و محطة نهائية يحتوي على تبرير كافي.

[76←]

يقيناً ليس الصمت بسبب الفراغ، الخراقة، أو الدهاء. بهذا الصدد، القول الآتي هو أكثر ارتباطا في هذه النقطة:
أولئك الذين يظلون ملتزمي الصمت دائماً يفتقرون إلى الكياسة و رقة القلب – الصمت هو اعتراض قوي، قدرة على الهضم و الاستيعاب تنتج بالضرورة عادات سيئة للغاية.

[77←]
انظر. ص 59 و ما بعدها.

[78←]
فيما يتعلق بالروح الديونسيوسية ، انظر ص 612 فما فوق، ديونيسيوس كجوهر صوفي، ص 665 و ما يتبعها.

[79←]
انظر ص526.

[80←]
انظر، ص 654 و مابعدها.

[81←]
في صيغتها الفيزيائية-الميكانيكية، لا ترجع فكرة ((العود الأبديّ)) في أصولها الأولى إلى نيتشه فحسب، يمكن أن نعثر على الحجج بخصوص هذه الفكرة حتى من قبله، على سبيل المثال، في نص: (Blanqui and le Bon .Bernoulli, Overbeck and Nietzsche, I, pp.381.ff

في الصياغات العامة لفكرة ((العود الأبديّ)) التي تأخذ مكانها في دائرة الحوادث، تظهر هذه الصياغات و تحدث تاريخياً المرة تلو الأخرى كلّ آلف عام. انظر: (Cf. Andler, 4, pp.255-259, Cf. also, pp.60-76).

فيما يتعلق بمشكل العود الأبديّ، انظر أيضاً: ,Le Retour éternel et la philosophie de la physique .1927 (quoted according to Andler); Paul Mongré, Sant Ilario, Leipzig, 1897 ff

فيمَا يتعلق بالدحض الرياضي البسيط إلى ((دليل)) العود الأبديّ، انظر: Cf. Simmel, Schopean hauer und . Nietzsche,Leipzig 1907, p. 250, note

[82←]
Lou Andreas-Salomé, Friedrich Nietzsche, p. 222. Bernoulli, Nietzsche und Overbeck, .II 216 ff

[83←]
.Kierkegaard’s Works,transl.by Schrempf. V., p.87

[84←]
فيما يتعلق في الإلهة القديمة، انظر:

.Walter F. Otto, Dionysus, Frankfurt, 1933

[85←]

في العَلاقة بموضوع الفهم - الذاتي عند نيتشه و علاقته مع تطوره الروحي؛ انظر، ص 92 و ما يتبعها؛ و فيما يتعلق بموضوعة شعوره بالوحدة، انظر، ص 124 و ما يتبعها؛ أما فيما يتعلق بأهميته التاريخية كفيلسوف، انظر، ص 442 و ص 634 و ما يتبعها؛ و أخيراً، فيما يتعلق في مذهبه المضاد للأخلاق، انظر، ص289.

[86←]

قارن صفحة 594 و ما بعدها.

[87←]

في هذه النقطة، انظر المصدرين الآتيين:

August Hornffer, Nietsche als Moralist und Schriftsteller, Jena. 1906, pp. 85 ff.; Ernst .Horneffer, Nietsche letztes Schaffen, Jena, 1907

[88←]

.Vide, pp.220 ff

[89←]

.Vide, pp.85 ff

[90←]

.Cf. pp.392

[91←]

قارن صفحة 577 و مابعدها.

[92←]

قارن صفحة 581 و مابعدها.

[93←]

نفس المصدر، ص 407 و ما يتلوها.

[94←]

.Cf. pp.423 ff